

د. رياض بن حمد بن عبدالله العُمري

مناهج المستشرقين ومواقفهم من النبي ﷺ

عرض ونقد في ضوء العقيدة الإسلامية

مناهج المستشرقين
ومواقفهم من النبي ﷺ

عرض ونقد في ضوء العقيدة الإسلامية

د. رياض بن حمد بن عبد الله العُمري

المجلد الأول

مركز التأصيل للدراسات والبحوث

مناهج المستشرقين ومواقفهم من النبي ﷺ

عرض ونقد في ضوء العقيدة الإسلامية

مركز التأصيل للدراسات والبحوث

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ/٢٠١٥م

تصميم الغلاف: مركز التأصيل

الحجم: ١٧×٢٤

التجليد: فني فاخر مع كرتوناج

مركز التأصيل للدراسات والبحوث

المملكة العربية السعودية، جدة، طريق الحرمين (الخط السريع)، بجوار كوبري التحلية.

هاتف: ٦٢٨٨٦٨٥ ٠١٢ ٩٦٦ +   ناسوخ: ٢٧١٨٢٣٠ ٠١٢ ٩٦٦ +

ص ب: ١٨٧١٨ جدة ٢١٤٢٥ المملكة العربية السعودية

الموقع الإلكتروني: **www.taseel.org**

بريد إلكتروني: **info@taseel.com**

رأي المؤلف لا يعبر بالضرورة عن رأي المركز



هذا الكتاب في الأصل رسالة علمية تقدم بها المؤلف لنيل درجة الدكتوراه بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لعام ١٤٣٥هـ، وقد أوصت لجنة المناقشة بمنح الباحث درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف الأولى والتوصية بطباعة الرسالة وتداولها بين الجامعات

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فإن أحسن الحديث كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة[١].

---

(١) هذه خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها أصحابه، وقد أخرج حديثها أبو داود في كتاب =

وبعد: فلا يخفى على كل ذي اطلاع جهود المستشرقين واهتمامهم بالتأليف والتدوين في شتى العلوم والمعارف، والتي جعلت من العالم الشرقي هدفاً لها مع التركيز على كل ما له صلة بالإسلام عقيدة وشريعة، لغة وآداباً، حضارة وأخلاقاً، وصار المطلع على كتاباتهم يجد فيها البحوث والدراسات المتعمقة التي أخذت من العلمية والموضوعية حظها، ويجد على النقيض من ذلك كثيراً من المؤلفات المكتظة بالدسائس والشبهات مما لا يمكن تصنيفه إلا على أنها مؤلفات نأت بنفسها عن مسار البحث العلمي الصحيح.

وقد كان لنبينا محمد ﷺ نصيبه الوافر من الدراسة والبحث في هذه الكتابات والمؤلفات، ولكن بوجه كانت السمة الغالبة فيه التشكيك في معتقدات المسلمين حول النبي ﷺ وما أنزل الله عليه من الوحي والرسالة، وما أيده به من دلائل النبوة، وما جاء به من التشريعات من عند الله، وما تميزت به دعوته من الانتشار والقبول.

وامتدت هذه الدراسات لتشمل جميع جوانب حياته ﷺ، حتى ما كان منها قبل البعثة في صورة اختفت في كثير من جوانبها أسس الموضوعية والإنصاف والمنهج العلمي القويم.

وقد تجلت هذه الصورة بشكل كبير في فترة ما يعرف بالعصور الوسطى الأوروبية، والتي يتحدث المستشرق الألماني رودي باريت عنها بقوله: «كان موقف الغرب المسيحي في العصر الوسيط من الإسلام هو موقف الدفع والمشاحنة فحسب، صحيح أن العلماء واللاهوتيين كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم إلى الإسلام، ولكن كل محاولة لتقويم هذه المصادر على نحو موضوعي ـ نوعاً ما ـ كانت تصطدم بحكم مسبق يتمثل في أن هذا

= النكاح، باب في خطبة النكاح (٢/ ٢٣٨) برقم (٢١١٨)، والترمذي في كتاب النكاح، باب ما جاء في خطبة النكاح (٣/ ٤١٣) برقم (١١٠٥)، والنسائي في كتاب النكاح، باب ما يستحب من الكلام عند النكاح (٦/ ٨٩) برقم (٣٢٧٧)، وابن ماجه في كتاب النكاح، باب في خطبة النكاح (١/ ٦٠٩) برقم (١٨٩٢)، وأحمد في مسنده (١/ ٣٩٣) برقم (٣٧٢١) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وقد توسع الشيخ الألباني في تخريج الحديث وبيان طرقه وخلص إلى الحكم بصحته وذلك في رسالته: «خطبة الحاجة التي كان رسول الله ﷺ يعلمها لأصحابه».

الدين المعادي للنصرانية لا يمكن أن يكون فيه خير، وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا للمعلومات التي تتفق مع هذا الحكم المسبق، وكانوا يتلقفون منهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى دين الإسلام»[١].

ولهذا لم يجانب الصواب ريتشارد سوذرن عندما جعل الفصل الأول من كتابه «صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى» بعنوان: «حقبة الجهل» ملخصاً فيه طبيعة الفكر الديني الغربي عن الإسلام ونبيه ﷺ بقسميه البيزنطي واللاتيني في تلك الفترة[٢].

أما الدراسات الاستشراقية في العصر الحديث والتي تناولت سيرة النبي ﷺ ونبوته، فهي وإن تطورت في نظرتها إلى النبي ﷺ على نحو إيجابي مقارنة بالفترة السابقة لها، إلا أن آثار كتابات القرون الوسطى قد تظهر فيها بين الفينة والأخرى، وهو ما يؤكده المستشرق برنارد لويس حين يقول: «لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية»[٣].

ورغم ما تقدم من الجوانب السلبية في تاريخ الدراسات الاستشراقية عن النبي ﷺ إلا أن ذلك لم يمنع نفراً من المستشرقين أن يصدحوا بالحق حيث لم يجدوا عنه سبيلاً، فآمن بعضهم بنبوة محمد ﷺ صدقاً ويقيناً، وأقر آخرون ـ وإن لم يدخلوا في دينه ـ بحسن سيرته ﷺ، ونبل خلقه، وكريم شمائله، وحسن دعوته، وما جاء به ﷺ من العقائد والتشريعات.

يقول الفيلسوف الفرنسي «رينان» مهاجماً موقف «فولتير» من النبي ﷺ: «دلتني تجربتي العلمية والتاريخية أنه لا صحة لما أُريد إلصاقه بالنبي محمد من كذب وافتراء مصدره العادات القومية التي أراد بعض المتحاملين كفولتير، أن

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي: د. سليمان محمد الجار الله ود. عبد الراضي عبد المحسن، ص٦٢ ـ ٦٣.

(٢) انظر: صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ص٣٥.

(٣) العرب في التاريخ: برنارد لويس، ص٦٣ نقلاً عن المستشرقون والإسلام: إبراهيم اللبان، ص٣٦.

يتوجهوا بها إلى الناحية التي تشفي سقام ذهنيتهم الوقحة وتعصبهم الذميم؛ كقوله: إنه يميل إلى التسيد والسيطرة، مع أن محمداً كما أثبتت الوقائع التاريخية وشهادات أكابر علماء التاريخ كان على العكس من ذلك، بريئاً من روح الكبرياء متواضعاً، صادقاً أميناً، لا يحمل المقت لأحد، وكانت طباعه نبيلة وقلبه طاهراً، رقيق الشعور»[١].

ويقول مايكل هارت في كتابه الشهير «الخالدون المائة»: «لقد اخترت محمداً في أول هذه القائمة، ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار ومعهم حق في ذلك، ولكن محمداً هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والدنيوي. وهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات، وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودينياً، وبعد ثلاثة عشر قرناً من وفاته، فإن أثر محمداً ما يزال قوياً متجدداً»[٢].

ولما كانت الآراء متباينة بين جمع المستشرقين على هذا النحو، فإن الحاجة ظاهرة إلى الدراسات المتخصصة في بيان مناهج المستشرقين ومواقفهم من النبي ﷺ، والرد على المخالف منها للحق والصواب بالأدلة الصحيحة المبنية على النقل الصحيح والعقل الصريح، وذلك أن آراء المستشرقين أصبحت اليوم واحدة من أهم المصادر في فكر كثير من الكُتَّاب الغربيين ووسائل إعلامه فمنها يستمدون تصوراتهم، وعليها يبنون استنتاجاتهم حول نبينا محمد ﷺ وسيرته ورسالته.

ومن هنا فإن الباحث يأمل أن يكون هذا الموضوع لبنة ضمن بناء علمي يقدم الحقيقة ناصعة عن نبينا محمد ﷺ، وفق ما جاء به الكتاب والسُّنَّة ومنهج سلف الأمة، ويرد على ادعاءات ومزاعم المخالفين والمتنقصين لصفوة الخلق أجمعين، نبينا وحبيبنا وقدوتنا محمد بن عبد الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم، واختار أن يكون عنوان البحث:

«مناهج المستشرقين ومواقفهم من النبي ﷺ»

ـ عرض ونقد في ضوء العقيدة الإسلامية ـ

---

(١) الإسلام والثقافة العربية: لأنور الجندي، ص٢٣٧.

(٢) الخالدون مائة: مايكل هارت، ترجمة: أنيس منصور، ص١٣.

ـ أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

ولعلي أوجز أهمية الموضوع وأسباب اختياري له في الأمور التالية:

١ ـ عظم منزلة نبينا محمد ﷺ في العقيدة الإسلامية.

٢ ـ تباين مواقف المستشرقين تجاه النبي ﷺ، مما يستدعي وجوب توضيح هذه المواقف وبيان المنصف منها من غيره في دراستنا لآرائهم.

٣ ـ الانحرافات الظاهرة التي تضمنتها كتابات كثير من المستشرقين حول نبينا محمد ﷺ ورسالته مما يستلزم الرد عليها وبيان بطلانها بالأدلة النقلية والعقلية.

٤ ـ توضيح مدى صحة المنهج العلمي والموضوعية التي انتسب إليها كثير من المستشرقين من خلال دراساتهم واطروحاتهم حول العقيدة الإسلامية.

٥ ـ أن دراسة مواقف المستشرقين حول النبي ﷺ تتيح الاطلاع والنقد لأهم المصادر التي يستقي منها كثير من المخالفين شكوكهم وشبهاتهم حول الإسلام ونبيه محمد ﷺ.

٦ ـ أن هذا الموضوع مع أهميته لم أقف على من تناوله في دراسة علمية مستقلة.

ـ أهداف الموضوع:

والبحث في هذا الموضوع يهدف إلى تحقيق الأمور التالية:

١ ـ دراسة مناهج المستشرقين ومصادرهم في كتاباتهم حول نبينا محمد ﷺ مع تقويمها في ضوء المنهج العلمي الصحيح.

٢ ـ عرض ما كتبه المستشرقون حول النبي ﷺ من آراء وتقريرات، وتوضيح الصحيح فيها من الفاسد في ضوء الكتاب والسُّنَّة ووفق منهج أهل السُّنَّة والجماعة.

٣ ـ الدفاع عن نبينا محمد ﷺ والرد على افتراءات ومطاعن بعض المستشرقين حوله بالأدلة النقلية والعقلية.

ـ الدراسات السابقة:

لم اطلع على من كتب في هذا الموضوع استقلالاً؛ وإن كنت قد وقفت

على عدة دراسات تعالج جوانب جزئية في هذا الموضوع، وذلك على النحو التالي:

١ ـ نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي المعاصر، للدكتور لخضر شايب. وقد تناول الباحث في دراسته تصنيف وتقييم دراسات المستشرقين المعاصرين حول شخصية النبي ﷺ مع مناقشة أبرز الإشكاليات التي أثارها المستشرقون حول حياته ﷺ، والدراسة ركزت في مجملها على العرض والتحليل والنقد (للدراسات) الاستشراقية أكثر منها مناقشة للآراء العقدية، وهو ما يقتضيه عنوان البحث وموضوعه.

٢ ـ الاستشراق في السيرة النبوية: دراسة «تاريخية» لآراء: وات، بروكلمان، فلهاوزن مقارنة بالرؤية الإسلامية، للباحث عبد الله محمد الأمين النعيم. والباحث تناول في هذه الدراسة مقارنة منهج كل من المستشرقين: مونتغمري وات، وكارل بروكلمان، ويوليوس فلهاوزن في دراسة (تاريخية) لجوانب من السيرة النبوية هي: العهد المكي، وتأسيس الدولة في المدينة، والعلاقة مع المنافقين، والعلاقات الإسلامية مع اليهودية والمسيحية والقبائل العربية الوثنية.

٣ ـ الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين، تأليف: نذير حمدان، وهو بحث نشرته رابطة العالم الإسلامي في (١٩٨) ورقة، وقد قسم المؤلف بحثه إلى قسمين: الأول في ذكر المواقف الإيجابية لبعض المستشرقين من صفات النبي ﷺ الإنسانية والنبوية، والثاني في توضيح المواقف السلبية للمستشرقين من النبي ﷺ مع ذكر نماذج منها. والدراسة قصد بها المؤلف عرض المواقف (العامة) للمستشرقين من الرسول ﷺ إيجاباً وسلباً باختصار، في ضوء ما جاء في دراساتهم، ولم يقصد به مؤلفه استيعاب مواقف المستشرقين من المسائل المتعلقة بالرسول ﷺ في نبوته وسيرته.

٤ ـ السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري، وهو مؤلف في (١٧٨) ورقة، تناول الباحث فيه في أربعة فصول ما يلي: حقد المستشرقين على الإسلام ورسوله ﷺ، عرض مختصر لترجماتهم للقرآن وبعض مؤلفاتهم في السيرة، الشبهات المشتركة بين المستشرقين وهي: إنكار أصالة القرآن وإنكار معجزاته ﷺ والتشكيك في الوحي، ثم تناول المؤلف بإيجاز شبهات المستشرقين «سيديو» و«لامانس» حول سيرة الرسول ﷺ.

٥ ـ دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره، للدكتور عبد الرحمٰن بدوي، ترجمة: كمال جاد الله، وهو مؤلف في (١٩٣) ورقة، تناول فيه المؤلف: شخصية محمد ﷺ في الكتابات الغربية ـ باختصار ـ وخصوصاً ما كان منها قبل القرن العشرين، ثم تعرض بالنقد لإدعاءات المستشرقين حول موقف النبي ﷺ من اليهود والنصارى ووفائه بالعقود معهم، وكذلك ادعاءاتهم حول الشرائع الإسلامية وهي: الصلاة والصيام والزكاة والحج، ونقد تشكيكهم في رسائل النبي ﷺ للملوك وخطبه وأحاديثه.

وختاماً: فإن الدراسات السابقة قد اقتصرت إما على جانب معين من جوانب الموضوع، أو مجال خارج نطاق الدراسة فيه.

ـ إضافات البحث:

سيتناول هذا البحث ـ بإذن الله ـ في دراسة ترتكز على الجانب العقدي تحليلاً ونقداً مباحث ومسائل لم ترد في الدراسات السابقة، وهي:

١ ـ دراسة مصادر المستشرقين في كتاباتهم عن النبي ﷺ.

٢ ـ دراسة مناهج المستشرقين في كتاباتهم عن النبي ﷺ.

٣ ـ دراسة مواقف المستشرقين من النبي ﷺ في الجوانب التالية:

أ ـ مصدر الوحي على نبينا محمد ﷺ.

ب ـ دلائل نبوته ﷺ.

ج ـ خصائص نبوته ﷺ.

د ـ سيرته ﷺ في العهد المكي.

هـ ـ سيرته ﷺ في العهد المدني.

وستتضمن هذه الدراسة إيضاح الآراء المنصفة في حقه ﷺ، والتقويم والنقد لآراء المستشرقين المخالفة للمعتقد الصحيح في نبينا محمد ﷺ في ضوء ما جاء به الكتاب والسُّنَّة والعقل الصحيح، ووفق منهج ومعتقد أهل السُّنَّة والجماعة، دون التقيد بمصادر معينة، أو جهات استشراقية مخصوصة، أو فترة زمنية محددة.

ـ خطة البحث:

ويتكون البحث من مقدمة وتمهيد وخمسة أبواب، وذلك على النحو التالي:

ـ المقدمة:

وتتضمن ما يلي:

أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

أهداف الموضوع.

الدراسات السابقة.

خطة البحث.

منهج البحث.

ـ التمهيد، ويتضمن:

التعريف بالاستشراق، وفيه:

أولاً: مفهومه.

ثانياً: نشأته.

ثالثاً: أهدافه.

رابعاً: وسائله.

الباب الأول: الكتابات الاستشراقية عن النبي ﷺ.

الفصل الأول: تطور الكتابات الاستشراقية عن النبي ﷺ.

المبحث الأول: النبي ﷺ في كتابات القرون الوسطى.

المطلب الأول: النبي ﷺ في كتابات الفكر المسيحي الشرقي (البيزنطي).

المطلب الثاني: النبي ﷺ في كتابات الفكر المسيحي الغربي.

المبحث الثاني: النبي ﷺ في كتابات العصر الحديث.

المبحث الثالث: النبي ﷺ في كتابات القرن العشرين.

الفصل الثاني: المدارس الاستشراقية وكتاباتهم عن النبي ﷺ.

المبحث الأول: الاستشراق الإنجليزي.

المبحث الثاني: الاستشراق الألماني.

المبحث الثالث: الاستشراق الفرنسي.

المبحث الرابع: الاستشراق الأمريكي.

المبحث الخامس: الاستشراق الروسي.

المبحث الثالث: نسخ الرسالات السابقة برسالته ﷺ.
المبحث الرابع: ختم النبوة به ﷺ.

الباب الخامس: مواقف المستشرقين من سيرته ﷺ.

الفصل الأول: مواقفهم من العهد المكي.
المبحث الأول: اسمه ونسبه ومولده ﷺ.
المبحث الثاني: نشأته ﷺ.
المبحث الثالث: صفاته ﷺ الخُلقية.
المبحث الرابع: موقفه ﷺ من الوثنية.
المبحث الخامس: أميّته ﷺ.
المبحث السادس: زواجه ﷺ.
المبحث السابع: موقف المشركين منه ﷺ.

الفصل الثاني: مواقفهم من العهد المدني.
المبحث الأول: هجرته ﷺ إلى المدينة.
المبحث الثاني: علاقته ﷺ باليهود.
المبحث الثالث: جهاده ﷺ للمشركين.
المبحث الرابع: نجاحه ﷺ في تبليغ الرسالة ونشرها.

- **خاتمة البحث وأهم النتائج.**
- **الفهارس، وتتضمن:**

فهرس الآيات القرآنية.
فهرس الأحاديث والآثار.
فهرس الأعلام.
فهرس الملل والنحل.
فهرس الحدود والمصطلحات.
فهرس الألفاظ الغريبة.
فهرس الأماكن.
فهرس المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات[١].

ـ منهج البحث:

سلكت في كتابة البحث المنهج الاستقرائي وكذلك التحليلي النقدي، ويمكن تلخيص معالمه فيما يلي:

أولاً: جمع المادة العلمية:

١ ـ قمت بجمع المصادر والمراجع الاستشراقية المترجمة للعربية، وما كتب حول آراء المستشرقين ومؤلفاتهم غير المترجمة.

٢ ـ قمت باستقراء الآراء والمواقف الاستشراقية حول موضوع البحث الرئيس وهو: النبي ﷺ، وما يتفرع عنه من مباحث ومسائل ودلائل، وقد جمعت الآراء حول موضوع البحث ثم قسمت ما جمعت على أبواب الرسالة وفصولها ومباحثها ومطالبها ومسائلها، فرتبت ما تشتت، وجمعت ما تفرق، واختصرت وانتقيت ما توسع فيه، بحسب ما يقتضيه المقام وتدعوا إليه الحاجة.

ثانياً: عرض المسائل ودراستها:

١ ـ عند عرض المسائل التي سيتناولها البحث، امهد للمسألة بحسب ما يقتضية المقام طولاً واختصاراً ثم أبين آراء المستشرقين على اختلاف طرائقهم ومناهجهم سواء كانوا من المتحاملين أو المتعاطفين مع الإسلام، إضافة لآراء المستشرقين المسلمين ثم أناقش هذه الآراء وما تضمنته من مواقف وما تقوم عليه من مناهج بحسب موضع البحث مستدلاً في هذا المقام بالأدلة الشرعية من الكتاب والسُّنَّة، وكلام أهل العلم، وما يؤيده العقل الصريح والفهم الصحيح، وفق عقيدة أهل السُّنَّة والجماعة، وقد أطيل في الرد والمناقشة على بعض المسائل نظراً لأهميتها وتكاثر الآراء الاستشراقية حولها.

٢ ـ عند ذكر (كتابات) المستشرقين عن النبي ﷺ راعيت ترتيبها حسب التسلسل الزمني للوفيات، مع التعريف المختصر بالكاتب والكتاب، وعرض أهم ما اشتمل عليه الكتاب فيما يتعلق بموضوع البحث.

---

(١) نظراً لطول فهارس البحث وتعددها فقد تم الاقتصار في الكتاب على: فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات. المؤلف

٣ ـ كررت بعض النقول والكتابات الاستشراقية في أكثر من موضع، وذلك لارتباطها بأكثر من مسألة داخل موضوع البحث، فأضفتها إلى كل مسألة بحسبها طولاً واختصاراً.

ثالثاً: كتابة البحث وتوثيقه:

١ ـ عزوت الآيات إلى سورها، وذكرت رقم الآية فيها، وجعلت ذلك في متن البحث، خشية الإطالة بذكرها في الحاشية.

٢ ـ خرجت الأحاديث التي ذكرتها في البحث. فما كان منها في الصحيحين أو أحدهما فأكتفي بهما عما سواهما، وما كان خارج الصحيحين فإني اجتهد في تخريجه من المصادر الحديثية المعتمدة. وقد رتبت مصادر التخريج باعتبار الكتب الستة أولاً، ثم ما عداها بحسب تواريخ وفيات أصحابها، كما ذكرت عنوان الكتاب والباب ورقم الجزء والصحيفة والحديث في الكتب الستة واكتفيت بذكر الجزء والصحيفة ورقم الحديث فيما عداها.

٣ ـ وثقت النقول الواردة في البحث من مصادرها الأصلية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.

٤ ـ اقتصرت في تراجم أعلام العرب والمسلمين على غير المشهورين منهم، ولهذا فلم أترجم للصحابة ومشاهير علماء المسلمين وخلفائهم ومن كان على صفتهم.

وأما بالنسبة لتراجم المستشرقين وغير المسلمين فقد اقتصرت فيها على من كان مشهوراً منهم أو كان له مساهمة في موضوع البحث، كما ذكرت أسمائهم باللغة العربية والإنجليزية ـ غالباً ـ بسبب الاختلاف أحياناً بين المراجع العربية في ضبط أسمائهم بالعربية، وأما من سوى هؤلاء فقد اكتفيت بذكر تواريخ وفياتهم.

٥ ـ عرّفت بالملل والنحل الواردة بالبحث، وكذلك بالحدود والمصطلحات، والألفاظ الغريبة، والأماكن الواردة في البحث.

٦ ـ عند إيراد المصدر في أول موضع اذكر اسم المؤلف والعنوان والمحقق والمترجم ـ إن وجد ـ كاملاً، وفي المواضع التالية اذكر العنوان باختصار إلا إذا خشي اللبس فأذكره تاماً. وأما بقية البيانات فقد أخرت ذكرها إلى فهرس المصادر والمراجع طلباً للاختصار.

هذا هو المنهج الذي سرت عليه في إعداد هذا البحث الذي بذلت فيه وسعي، وعكفت عليه أوقاتاً متواصلة أسأل الله تعالى أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، كما واجهني خلاله بعض الصعوبات التي من أعظمها تشعب جوانب البحث، وكثرة جزئياته ومسائله ودلائله، وشخصياته وأعلامه، وذلك بسبب اعتناء كثير من المستشرقين في دراساتهم عن الشرق بشخصية النبي ﷺ، يضاف إلى ذلك عدم تقييد مجال البحث بزمان، أو مكان، أو مدرسة، أو اتجاه استشراقي معين، مما زاد في غزارة مادته ومحتواه، ومصادره ومراجعه، والتي لا تخلو الترجمات العربية لها من الاختلاف أحياناً في عرض الآراء، والاختلاف كثيراً في ضبط أسماء المستشرقين ومؤلفاتهم.

وبعد:

فإني أحمد الله تبارك وتعالى وأشكره، وأثني عليه الخير كله، على ما يسر من إتمام هذا البحث، وأرى واجباً علي أن أتقدم بالشكر لفضيلة الشيخ الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن إبراهيم العسكر الأستاذ بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة، الذي تفضل مشكوراً بالإشراف على هذه الرسالة، فقد حظيت بدعمه وتشجيعه طوال فترة إعدادها.

كما لا يفوتني أن أتوجه بالشكر الجزيل لجامعتي العزيزة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ممثلة في كلية أصول الدين وقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة فيها.

وختاماً فإني لا أدعي أني وفيت الموضوع حقه، واستكملته من جميع جوانبه، ولا أني أصبت في كل ما قلت وقصدت؛ لأن الخطأ والصواب من طبيعة البشر، ولكن حسبي أني بذلت وسعي وجهدي ووقتي، فما كان من صواب فمن الله وحده، وله الفضل والمنة، وما كان من خطأ فمن نفسي والشيطان واستغفر الله منه.

وفي الختام أسأل الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يرزقني الإخلاص في القول والعمل، واتباع كتابه وسُنَّة نبيه ﷺ، وأن يرني الحق حقاً ويرزقني اتباعه، وأن يريني الباطل باطلاً ويرزقني اجتنابه، وأن يغفر لي ولوالديّ وأهل بيتي ومن أحبنا وأحببناه فيه إنه سميع مجيب، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

التمهيد

ويتضمن:

التعريف بالاستشراق، وفيه:

أولاً: مفهوم الاستشراق.

ثانياً: نشأة الاستشراق.

ثالثاً: أهداف الاستشراق.

رابعاً: وسائل الاستشراق.

أولاً: مفهوم الاستشراق

إن الاستشراق اليوم علم له كيانه وفلسفته، ومنهجه، وأهدافه، ومدارسه، ومؤتمراته، وأتباعه، ولهذا كان لا بد للباحث في هذا المجال من الاعتناء بتحديد مفهومه، والوقوف على معالمه، وأطواره، وخصائصه، وأهدافه قبل أن يبحث في آثاره وميادين نشاطه.

ولفظة الاستشراق ـ ومشتقاتها ـ مولدة الأصل، حيث استعملها المحدثون من ترجمة (orientalism)، ثم استعملوا من الاسم فعلاً، فقالوا: استشرق، وليس في اللغات الأجنبية فعل مرادف للفعل العربي، ولهذا يؤثر المدققون استعمال «علماء المشرقيات» بدلاً من مستشرقين، ولكن لفظة: استشرق، ومستشرق، واستشراق، شاع استعمالها بين الناس حتى أصبحت مصطلحاً له اعتباره واستعماله[1].

الاستشراق لغة:

الاستشراق كلمة مشتقة من مادة «شرق»، يقال: «شرقت الشمس شرقاً وشروقاً إذا طلعت»[2].

والجدير بالذكر أن معاجم اللغة المتقدمة لم تعرض لهذه الكلمة لأنها كلمة محدثة كما تقدم[3]، ولكن هذا لا يمنع الباحث من الوصول إلى معناها الحقيقي

(١) الاستشراق ـ نشأته وتطوره وأهدافه ـ: إسحاق موسى الحسيني، ص١.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ص١٤٨٢.

(٣) انظر: تهذيب اللغة: للأزهري (٨/٣١٦ ـ ٣٢١)، الصحاح: للجوهري (٤/١٥٠٠ ـ ١٥٠١)، تاج العروس: للزبيدي (٦/٣٩١ ـ ٣٩٥)، ولسان العرب: لابن منظور (١٠/١٧٣ ـ ١٧٩).

استناداً إلى قواعد الصرف وعلم الاشتقاق حيث إن معنى (استشرق): أدخل نفسه في أهل الشرق، وصار منهم[١].

وجاء في معجم متن اللغة: «استشرق طلب علوم الشرق ولغاتهم ـ مولدة عصرية ـ يقال لمن يعتني بذلك من علماء الفرنجة»[٢].

الاستشراق اصطلاحاً:

إن تحديد المفهوم الاصطلاحي لهذه الكلمة يقتضي الرجوع والاطلاع على آراء علماء الغرب والشرق لكي يكون بالإمكان بعد ذلك القيام بمحاولة وضع تعريف محدد لهذا الاصطلاح.

وقد أورد علماء الغرب عدة تعاريف لهذا اللفظ نذكر منها ما يلي:

١ ـ وجاء في قاموس «اكسفورد» تحديد معنى المستشرق (orientalist) بأنه: «من تبحر في لغات الشرق وآدابه»[٣].

٢ ـ ويرى «آرثر آربري»[٤] أن الاستشراق: قد تخطى حدوده إلى ميادين تنتمي في حقيقتها إلى علوم أخرى مستقلة عنه، وإن كانت مجانسة له، حتى إن المستشرق يشارك في عمله عالم الآثار والحفريات والمؤرخ وعالم الصرف والاشتقاق، وعالم الأصوات، والفيلسوف، وعالم اللاهوت، والموسيقي والفنان وأول استعمال لكلمة مستشرق كان في سنة ١٦٣٠م حيث أطلق على أحد أعضاء الكنيسة الشرقية أو اليونانية[٥].

٣ ـ ويعرف «ديتريش»[٦] المستشرق بأنه: «ذلك الباحث الذي يحاول دراسة

---

(١) فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب الغربي المعاصر: أحمد سمايلوفتش، ص٢٢.

(٢) معجم متن اللغة: أحمد رضا (٣/ ٣١١).

(٣) فلسفة الاستشراق، ص٢٣.

(٤) آرثر. ج. آربري (١٩٠٥ ـ ١٩٧٠م): مستشرق بريطاني، من أعضاء المجمع العلمي العربيّ بدمشق. اتقن العربية والفارسية، ورأس قسم الدراسات القديمة في الجامعة المصرية، ثم كان أستاذاً للعربية في جامعة لندن. ونشر كتباً عربية ووضع فهارس لعدة مكتبات وملحق ثان للمخطوطات الإسلامية في جامعة كمبردج. وكتب أبحاثاً ودراسات عن بعض أعلام العرب ومصنفاتهم في دائرة المعارف والمجلات العلمية، بالإنجليزية. انظر: المستشرقون: للعقيقي (٢/ ٥٥٦ ـ ٥٥٩)، ومجلة المجمع العلمي العربي بدمشق (٤٥/ ٢٠٨)، الأعلام: للزركلي (١/ ٢٨٧).

(٥) المستشرقون البريطانيون: آ. أربري، ترجمة: محمد السوقي، ص٧ ـ ٨.

(٦) ديتريش (١٨٢١ ـ ١٩٠٣م): مستشرق ألماني، ولد وتعلم وتوفي في برلين. ورحل في طلب اللغة =

الشرق وتفهمه، ولن يتأتى له الوصول إلى نتائج سليمة في هذا المضمار ما لم يتقن لغات الشرق»[١].

٤ ـ ويقول «رودي باريت» في تعريف الاستشراق: «الاستشراق علم يختص بفقه اللغة خاصة، ولا بد لنا إذن أن نفكر في المعنى الذي أطلق عليه كلمة استشراق المشتقة من كلمة «شرق» وكلمة شرق مشرق الشمس، وعلى هذا يكون الاستشراق هو علم الشرق أو علم العالم الشرقي»[٢].

٥ ـ ويمضي رودنسون في دراسته لتاريخ الاستشراق قائلاً: «وهكذا ولد الاستشراق وظهرت كلمة مستشرق في اللغة الإنجليزية حوالي عام ١٧٧٩م... كما دخلت فيه كلمة الاستشراق على معجم الأكاديمية الفرنسية في ١٨٣٨م، وتجسدت فكرة نظام خاص مكرس لدراسة الشرق... ومن هنا بدأ تصنيفهم كمستشرقين»[٣].

٦ ـ وعرّف جويدي[٤] علم الاستشراق بقوله: «الوسيلة لدرس كيفية النفوذ المتبادل بين الشرق والغرب إنما هو علم الشرق»[٥].

وبعد عرض هذه التعاريف لنخبة من الكُتَّاب الغربيين، يمكن للباحث أن يخرج بالنقاط التالية:

= العربية إلى أقطار الشرق فلما رجع عين أستاذاً للعربية في جامعة برلين ١٨٥٠م. من آثاره: دراسة العرب للطبيعة والفلسفة في ضوء رسائل إخوان الصفا، والفلسفة العربية في القرن العاشر، وخلاصة الوفا بأخبار إخوان الصفا نشرت مع مقدمة للدكتور طه حسين وخلاصة تاريخية لأحمد زكي باشا، ورسالة فصوص الحكم، وآراء أهل المدينة الفاضلة، ومبادئ الفلسفة للفارابي. انظر: معجم أسماء المستشرقين: يحيى مراد، ص٥٥٧ ـ ٥٥٨.

(١) الدراسات العربية في ألمانيا: أ. ديتريش، ص٧.

(٢) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: ر. بارت، ترجمة: مصطفى ماهر، ص١١ ـ ١٢.

(٣) صورة العالم الإسلامي في أوروبا: م. رودنسون، ص٧٤.

(٤) إغناطيوس جويدي Ignazio Guidi (١٨٤٤ ـ ١٩٣٥م): مستشرق إيطالي، عالم بالعربية والحبشية والسريانية، من أعضاء المجمع العلمي العربيّ. كان شيخ المستشرقين في عصره. وكان أستاذاً في الجامعة المصرية سنة ١٩٠٨م يلقي محاضراته بالعربية، واستمر بضع سنين. من كتبه العربية: محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب باعتبار علاقتها بأوروبا خصوصاً بإيطاليا، أربعون محاضرة ألقاها في الجامعة المصرية، جداول كتاب الأغاني يحتوي على فهارس الشعراء والقوافي والأعلام والأمكنة. انظر: المستشرقون، ص١٦١، ومعجم المطبوعات العربية: لسركيس، ص٧٢٤، ومجلة المجمع العلمي (١١/ ١٢٥).

(٥) علم الشرق وتاريخ العمران: م. أ. جويدي، ص١١ ـ ١٤.

أولاً: أن لفظ «المستشرق» و«الاستشراق» قد مر بأدوار مختلفة منذ سنة ١٦٨٣م حيث كان يعني أولاً: أحد أعضاء الكنيسة الشرقية، ثم أصبح معناه في هذا العصر التبحر في إحدى لغات الشرق وآدابها، فكأن هذا التبحر شرط أساس في عالِم الاستشراق؛ لأنه لا يمكنه تحقيق الأهداف التي وضع من أجلها إلا بذلك، كما هو واضح عند آربري وديتريش.

ثانياً: أن الاستشراق علم ذو حدود واسعة وأحياناً غير واضحة، إذ يختلط ميدانه بميادين العلوم الأخرى؛ لأن المستشرق قد يشارك في أبحاثه علماء الآثار والتاريخ واللغات واللاهوت والفنون والفلسفة وغيرها من العلوم.

ثالثاً: أن لفظة «الاستشراق» ذات دلالتين، **أولاهما**: أنه علم يختص بفقه اللغة ومتعلقاتها على وجه الخصوص. **وثانيهما**: أنه عِلم الشرق أو عِلم العالم الشرقي على وجه العموم، وبناء عليه فهو يشمل كل ما يتعلق بمعارف الشرق وعلومه.

رابعاً: أن كلمتي «الاستشراق» و«المستشرق» حديثتا العهد نسبياً في اللغات الغربية ـ الإنجليزية والفرنسية ـ حيث ظهرت في الأولى سنة ١٧٧٩م، وأضيفت في معجم الثانية سنة ١٨٣٨م.

وأما «الاستشراق» في نظر بعض الكُتَّاب الشرقيين من العرب، فنذكر فيه ما يلي:

١ ـ يقول أحمد حسن الزيات في بيان معنى هذه الكلمة: «يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأممه ولغاته، وآدابه وعلومه، وعاداته ومعتقداته وأساطيره»[(١)].

٢ ـ وذهب صاحبا (المفصل في تاريخ الأدب العربي) إلى أن المستشرق: «كل من تجرد من أهل الغرب لدراسة بعض اللغات الشرقية، وتقصى آدابها طلباً لتعرّف شأن أمة أو أمم شرقية من حيث أخلاقها وعاداتها وتاريخها وديانتها وعلومها وآدابها، أو غير ذلك من مقومات الأمم، والأصل في كلمة (استشرق) أنه صار شرقياً، كما يقال: (استعرب) إذا صار عربياً»[(٢)].

---

(١) تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات، ص٥١٢.

(٢) المفصل في تاريخ الأدب العربي: أحمد الإسكندري وأحمد أمين (٢٠/٤٠٨).

٣ ـ ويتوسع علي العناني في مفهوم الاستشراق حيث يقول: «من صيغة هذه الكلمة نعرف أن المستشرق هو المشتغل بالعقليات الشرقية، سواء أكانت سامية أو غير سامية، ولكن هذه الكلمة في اصطلاح العلماء والأدباء تطلق على المشتغل بالعقليات السامية خاصة، ويتبع ذلك البحث في اللغات الحامية»[١].

٤ ـ ويرى إدوار سعيد أن الاستشراق ـ بإيجاز ـ: «أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واستبنائه وامتلاك السيادة عليه»[٢]، وهذا التعريف فيه خلط بين مفهوم الاستشراق والهدف منه عند بعض المستشرقين.

٥ ـ ويعرِّفه عبد الكريم الخطيب بقوله: «والمستشرق هو من درس لغة أو أكثر من لغات الشرق؛ كالعربية والعبرية والسريانية، والفارسية، وغيرها، ثم درس بهذه اللغة علوم تلك اللغة، وقد توفر هؤلاء المستشرقون على هذه الدراسة للغة العربية، وتخصصوا في علومها من بلاغة، ونحو، وصرف، وأدب، ثم إذا تمكنوا من اللغة نظروا في علوم الدين الإسلامي، من عقيدة وشريعة، وهذا هو المطلب المقصود عند أكثرهم»[٣].

٦ ـ ويعرِّفه الأستاذ حسين الهروي بقوله: «وعندي أن الاستشراق مهنة وحرفة كالطب، والهندسة، والمحاماة، وهو أقرب الشبه إلى مهنة التبشير»[٤].

٧ ـ ويحدد الأستاذ مالك بن نبي المصطلح بقوله: «نعني بالمستشرقين الكُتَّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية»[٥].

٨ ـ ويرى الدكتور ميشال جحا: أن المستشرقين «هم أولئك الأساتذة والباحثون الأكاديميون الذين تخصصوا في دراسة اللغة العربية والحضارة العربية وبقضايا العالم العربي وبالدين الإسلامي»[٦].

٩ ـ ويقر علي حسني الخربوطلي بصعوبة تعريف الاستشراق فيقول: «إنه من الصعوبة بمكان أيضاً وضع تعريف (للمستشرق) تعريفاً قاطعاً شاملاً، ولكن

---

(١) المستشرقون والآداب العربية: علي العناني (١/ ٤٠).
(٢) الاستشراق: إدوارد سعيد، ترجمة: كمال أبو ديب، ص٣٩.
(٣) الإسلام والدعوات الهدامة: أنور الجندي، ص٢٥١.
(٤) نحن والمستشرقون: حسين الهروي، مقال في مجلة المعرفة، يوليو ١٩٣٢م.
(٥) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الحديث: مالك بن نبي، ص٥ ـ ٦.
(٦) الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا: د. ميشال جحا، ص٨٢.

يمكننا أن نقول: إن المستشرق هو عالم غربي يهتم بالدراسات الشرقية، فلا بد أن يتوافر في هذا المستشرق الشروط الواجب توافرها في العالم المتخصص... وليس من الضروري أن يرحل المستشرق إلى الشرق ليعيش أو ليتطبع بطباعه وحضارته، فقد يقوم بدراسته في جامعته الغربية أو في وطنه وإن كان رحيله إلى الشرق يجعل دراسته أكثر فائدة وأقرب إلى الواقعية والحقيقة. وليس من الضروري أن يعتنق هذا المستشرق الإسلام أو أحد الأديان السائدة في الشرق، كما أنه ليس من الضروري أيضاً أن يتحدث باللغات الشرقية، وإن كان الإلمام بها أو إجادتها يعينه كثيراً في دراسته وأبحاثه»[1].

١٠ ـ ويقرر إسحاق الحسيني: أن لفظة «استشرق ـ ومشتقاتها ـ مولدة الأصل، حيث استعملها المحدثون من ترجمة (orientalism)، ثم استعملوا من الاسم فعلاً، فقالوا: استشرق، وليس في اللغات الأجنبية فعل مرادف للفعل العربي، ولهذا يؤثر المدققون استعمال «علماء المشرقيات» بدلاً من مستشرقين»[2].

ونستطيع من دراسة التعاريف السابقة أن نتوصل إلى النتائج التالية:

١ ـ أن معنى استشرق: أي: طلب علوم الشرق، والمستشرق الذي يشتغل بدراسة العقليات الشرقية عامة، والسامية خاصة، والعربية بشكل أخص.

٢ ـ أن الاستشراق يركز أصحابه على دراسة الشرق وحضارته وعلومه.

٣ ـ أن الاستشراق علم يشمل طوائف متعددة من المتخصصين في دراسة الشرق من علوم وآداب وتاريخ وحضارة وعقيدة.

٤ ـ أن الاستشراق علم قائم بذاته، له خصائصه ومميزاته.

٥ ـ أن الاستشراق مهنة أكثر منه علماً، وهو أقرب إلى دائرة التنصير (التبشير).

٦ ـ أن لفظة استشراق مولدة وحديثه، فالاستشراق حركة ولدت في هذا العصر الحديث، قام بها جماعات من علماء الغرب لأهداف مختلفة كما سيأتي معنا.

---

(١) المستشرقون والتاريخ الإسلامي: علي حسني الخربوطلي، ص٢٥ ـ ٢٦.

(٢) الاستشراق ـ نشأته وتطوره وأهدافه ـ: إسحاق موسى الحسيني، ص١.

٧ ـ أن المستشرق من حيث المنشأ عالم أو كاتب غربي يهتم بشؤون الشرق في شتى مجالاته.

خلاصة الآراء السابقة:

بعد تفحص الآراء السابقة يمكن القول أن أكثر الباحثين من غربيين وشرقيين مقرون بصعوبة تحديد المصطلح[1]، ومع ذلك نستطيع أن نخلص من آرائهم السابقة حول مفهوم الاستشراق إلى أنه:

علم يحاول أصحابه من الغربيين دراسة الشرق وكل ما يتعلق به من حضارة ولغات وآداب ومعتقدات وعلوم وفنون وما شابهها، وذلك لتحقيق دوافع وأهداف مختلفة.

وأما المستشرق فهو: باحث غربي يعنى بدراسة الشرق وحضارته وعلومه المختلفة من لغة ومعتقدات وفنون وغيرها لتحقيق أهداف معينة.

---

(١) انظر: المستشرقون والتاريخ الإسلامي للخربوطلي، ص٢٥ ـ ٢٦، والاستشراق: أهدافه ووسائله ـ دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون ـ: د. محمد فتح الله الزيادي، ص١٥. بل بالغ بعض الباحثين كالدكتور ساسي الحاج في كتابه الظاهرة الاستشراقية (١/١٧) فزعم استحالة إعطاء تعريف لعلم الاستشراق.

ثانياً: نشأة الاستشراق

اختلف الباحثون في تحديد بداية الاستشراق ونشأته على أقوال متعددة، نبدأ فيها بذكر آراء بعض الباحثين من العرب:

١ ـ يقول الأستاذ أحمد محمد جمال: «فالاستشراق ظاهرة قديمة، بدأت منذ القرن العاشر الميلادي، وكان من بواعثها العداء الذي أحدثه الصراع الصليبي بين الفرنجة والمسلمين، وما سبق الحروب الصليبية من الفتوح الإسلامية، التي كان من آثارها دخول كثير من الممالك المسيحية في الدين الإسلامي؛ كمصر، وسوريا، وشمال إفريقية، والأندلس. كما كان من بواعث العداء الصليبي للإسلام: أنه ينكر عقيدة التثليث والصلب والفداء، التي هي أساس المسيحية وعمادها»[١]. وهذا القول يرجع تاريخ الاستشراق إلى القرن العاشر الميلادي ثم ازدهر بعد ذلك في القرن الثاني عشر كما يذكر الأستاذ إبراهيم اللبان[٢].

٢ ـ يرى الدكتور عبد الجليل شلبي أن الاستشراق: «يرجع إلى أعقاب الحروب الصليبية التي استمرت زهاء قرنين (١٠٩٧ ـ ١٢٩٥م)»[٣]، ويشاركه الرأي أحمد الشرباصي فيحدد بداية الاستشراق تقريباً في القرن الثالث عشر الميلادي، حيث انبثق من الحروب الصليبية[٤].

٣ ـ ويذهب الدكتور علي جريشة وزميله إلى «أن الاستشراق بدأ في

---

(١) مفتريات على الإسلام: أحمد محمد جمال، ص١٠.
(٢) المستشرقون والإسلام: إبراهيم عبد المجيد اللبان، ص١١.
(٣) صور استشراقية: عبد الجليل شلبي، ص٢٥ ـ ٢٨.
(٤) التصوف عند المستشرقين: أحمد الشرباصي، ص٧.

الأندلس في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) حين اشتدت حملة الصليبيين الإسبان على المسلمين فدعا الفنس ملك قشتالة، ميشيل سكوت ليقوم بالبحث في علوم المسلمين، وحضارتهم، فجمع سكوت طائفة من الرهبان في بعض الأديرة بالقرب من مدينة طليطلة، وشرعوا يترجمون بعض الكتب من اللغة العربية إلى لغة الفرنجة، ثم قدمها سكوت لملك صقلية الذي أمر باستنساخ نسخ منها، وبعث بها هدية إلى جامعة باريس»[١].

٤ ـ ويذهب الدكتور مصطفى السباعي إلى القول بأنه: «لا يعرف بالضبط من هو أول غربي عني بالدراسات الشرقية ولا في أي وقت كان ذلك، ولكن المؤكد أن بعض الرهبان الغربيين قصدوا الأندلس في إبان عظمتها ومجدها، وتثقفوا في مدارسها وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، وتتلمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات، ومن أوائل هؤلاء الرهبان: الراهب الفرنسي جربرت (Jerbert) الذي انتخب بابا لكنيسة روما عام (٩٩٩م) بعد تعلمه في معاهد الأندلس وعودته إلى بلاده، وبطرس المحترم (١٠٩٢ ـ ١١٥٦م)، وجيرادي كريمون (Girard Krimon) (١١١٤ ـ ١١٨٧م)»[٢].

٥ ـ ويرى الدكتور محمد البهي: «أن هذه المحاولات الاستشراقية التي بدأت في وقتٍ مبكر لا تعدو أن تكون فردية أو جماعية محدودة برزت بشكل أكثر شمولاً في بعض البلاد الأوروبية خلال القرن الثالث عشر الميلادي، ويكاد الدارسون لتاريخ الاستشراق يجمعون على أن انتشاره في أوروبا ظهر بصفة جدية بعد فترة ما يسمى في التاريخ الأوروبي (عهد الإصلاح الديني)»[٣].

٦ ـ وأما نجيب العقيقي فأشار إلى «أن الذين يظنون أن أوروبا لم تعرف استشراقاً حقيقياً قبل الحملات الصليبية مخطئون؛ لأن الاستشراق عرف في القرن العاشر الميلادي، وما كانت الحروب الصليبية إلا نتيجة واحدة لمقدمة واحدة هي الاستشراق، وما الحملات الصليبية إلا نتيجة وقوف الغرب على ثقافة الشرق وفلسفته التي تناهض المسيحية كما يدعون»[٤].

---

(١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي: د. علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق، ص١٩.
(٢) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي، ص١٧ ـ ١٨.
(٣) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي: محمد البهي، ص٤٧٢.
(٤) المستشرقون: نجيب العقيقي، ص٣٥ ـ ٣٦.

٧ ـ ويؤكد الدكتور إسحاق موسى الحسيني بأنه «من العسير للغاية تحديد نشأة الاستشراق بسنة معينة، ثم يشير إلى أن الإسلام استرعى نظر رجال الدين المسيحي منذ ظهور انتشاره في المشرق والمغرب بسرعة مدهشة»(١). وبعد أن ذكر رأي الكاردينال كوبنج (Koping) رئيس أساقفة النمسا الذي أشاد بجهود يوحنا الدمشقي (والذي عاش ما بين سنة ٦٧٦ و٧٤٩م، وهو حفيد منصور بن سرجون وزير معاوية بن أبي سفيان)، واعتماده في كتاباته على علم الكلام عند المسلمين أردف قائلاً: «وبناء على هذا النص ترجع بداية الاهتمام بالإسلام ودراسته إلى نحو مائة سنة بعد ظهوره، ثم التقى الإسلام بالمسيحية في الأندلس وأقبل المسيحيون على دراسته، ودراسات العربية وآدابها بحماسة استرعت نظر علماء رجال الدين المسيحي أنفسهم»(٢).

٨ ـ ويرى الأستاذ إبراهيم مدكور: أن الاستشراق بالمعنى العلمي الكامل لم يبدأ إلا في منتصف القرن التاسع عشر، إذ أننا لا نستطيع أن نتحدث عن دراسات إسلامية بالمعنى الكامل سابقة على النصف الأخير من القرن التاسع عشر، لا في الغرب أو في الشرق؛ ذلك لأن الغربيين في اتصالهم بالشرق شغلوا أولاً بنواحيه السياسية والاقتصادية، ولم يتجهوا إلا أخيراً إلى نواحيه الثقافية، وما نراه لدى بعض مؤرخيهم في القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، من تعليق على العرب والثقافة العربية، إنما هو مستمد في الغالب من المصادر اللاتينية، وأما الشرقيون أنفسهم فلم يكن في وسعهم، وقد كانوا مغلوبين على أمرهم أن يحيوا معالمهم، ولا أن ينهضوا بتراثهم(٣).

والذي ينظر في آراء الباحثين العرب يجد أنها متقاربة فيما بينها فهي تشير إلى أن الاستشراق بدأ في وقت مبكر قبل الحروب الصليبية، ولكنه نما وترعرع وأصبح علماً قائماً بذاته في منتصف القرن التاسع عشر، وأن بواعثه العداء الذي أحدثه الصراع الصليبي بين الفرنجة والمسلمين، وما سبق الحروب الصليبية من فتوحات إسلامية أثارت أحقاد كثير من الأوروبيين على الإسلام.

---

(١) الاستشراق ـ نشأته، وتطوره، وأهدافه ـ: إسحاق موسى الحسيني، ص٢.
(٢) المرجع السابق، ص٣.
(٣) في الفلسفة الإسلامية: إبراهيم مدكور، ص٢٥.

موقف الباحثين الغربيين من تاريخ الاستشراق:

أما الباحثون من الغرب فلهم أقوال متعددة في تاريخ الاستشراق، نقتصر على ذكر ثلاثة منها:

الأول: ذهب المستشرق رودي بارت إلى «أن الاستشراق كما هو اليوم ليس سوى نتيجة لدراسة أجيال عديدة، فلو طلبت الإجابة على السؤال التالي بالتحديد: متى بدأت حركة الاستشراق؟ فإن الباحث سيواجه المشاكل بدون شك، ومع ذلك فعليه أن يوجه نظرة إلى التاريخ نفسه، وتطور الاستشراق ذاته، وبناء على هذا الأساس يستطيع أن يقول: إن بداية الدراسات العربية والإسلامية ترجع إلى القرن الثاني عشر، إذ فيه ترجمت معاني القرآن إلى اللاتينية لأول مرة عام ١١٤٣م بتوجيه الأب فيزابل، وفي هذا القرن أيضاً ألف أول قاموس لاتيني عربي، ولذلك كله، كانت بداية الاستشراق في القرن الثاني عشر»[(١)].

الثاني: يرى برنارد لويس[(٢)] أن العلماء أخطؤا حينما ظلوا يعتقدون لحقبة طويلة أن أول اتصال جدي بين الثقافة الإسلامية والأوروبية قد حدث نتيجة للحروب الصليبية ثم يؤكد أن حركة الفكر والعلوم العربية وصلت إلى الغرب عامة وبريطانيا خاصة عن طريق الأندلس حيث كانت العلوم العربية تتدفق منها[(٣)].

الثالث: ذهب الأب لامنس إلى أن الأحبار الرومانيين قرروا دراسة اللغة العربية وآدابها في مدارسهم منذ القرن الثالث عشر[(٤)].

نأخذ من مجموع هذه الأقوال أن بداية الاستشراق في نظر طائفة من الباحثين الغربيين كان ما بين القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر الميلادي.

ومن المهم في هذا السياق التفريق بين نوعين من الاستشراق:

---

(١) فلسفة الاستشراق: أحمد سمايلوفتش، ص٥٧.

(٢) برنارد لويس (B.lewis) (١٩١٦م ـ . . .): مستشرق إنجليزي من أصل يهودي، درس الدراسات الشرقية بلندن، ثم درس بجامعاتها، وهو عضو في كثير من الجمعيات والجامعات الأوروبية المعنية بالدراسات الشرقية، انتقل إلى الولايات المتحدة الأمريكية وحصل على الجنسية الأمريكية حيث أصبح يعمل كأستاذ محاضر بجامعة برنستون وجامعة كورنل في السبعينات حتى تقاعده. اتسمت آراءه بالسلبية تجاه العرب والمسلمين. انظر: المستشرقون: للعقيقي (٢/ ١٤٣ ـ ١٤٥) (٣/ ٣٧٢).

(٣) تاريخ اهتمام الإنجليز بالعلوم العربية: برنارد لويس، ص٣ ـ ٤.

(٤) درس العربية في أوروبا: هنري لامنس، ص٥٧.

الأول منهما: الاستشراق الإيجابي، ويقصد به ذلك الاستشراق الذي يتمثل في إقدام الغربيين على الأخذ من منابع الحضارة الشرقية، وأهمها الحضارة الإسلامية، حيث إن المسلمين أصبحوا فيما بين القرن الثامن والثالث عشر حملة مشاعل العلم في أنحاء العالم، في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تغط في سبات عميق[(١)].

وأما النوع الثاني: وهو الاستشراق السلبي: فيراد به ذلك الاستشراق الذي لبس أصحابه لباس العلم، وتظاهروا بخدمة الحضارة الإنسانية بينما هدفهم الباطن الطعن في الشرق الإسلامي، فهذا النوع يرجح أنه ظهر بعد فشل الحروب الصليبية بعد أن ترسبت الأحقاد لدى كثير من المسيحيين ضد الإسلام وأهله لأسباب عديدة نوجزها فيما يلي:

١ ـ تحول كثير من الممالك النصرانية إلى الإسلام نتيجة للفتوحات الإسلامية؛ كبلاد الشام ومصر مثلاً.

٢ ـ إنكار الإسلام لعقائد النصارى الفاسدة؛ كعقيدة التثليث والصلب والفداء.

٣ ـ خوف زعماء الكنيسة من إعجاب أتباعهم بقوة المسلمين وبحضارتهم[(٢)].

ومما تقدم يمكن أن يصل الباحث في تاريخ الاستشراق إلى ما يلي:

أولاً: بالرغم من أن الاستشراق تمتد جذوره إلى ما يقرب من ألف عام مضت إلا أن مفهوم (المستشرق) لم يظهر في أوروبا إلا في نهاية القرن الثامن عشر، حيث ظهر أولاً في إنجلترا عام ١٧٧٩م، ثم في فرنسا عام ١٧٩٩م، وأدخل مفهوم الاستشراق (Orientalism) في قاموس الأكاديمية الفرنسية عام ١٨٣٨م[(٣)].

ثانياً: لا يهم متى ظهر مفهوم الاستشراق أو المستشرق، وإنما المهم متى بدأت الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ومتى بدأ التركيز على الحضارة

---

(١) أضواء على الاستشراق: محمد عبد الفتاح عليان، ص٨.

(٢) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٣) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: محمود حمدي زقزوق، ص٢٤.

الإسلامية، وفي ضوء ما تقدم يمكن القول: إن التركيز على الإسلام وحضارته بدأ في وقت مبكر. أما المصطلح ذاته فلا يعني شيئاً أكثر من إقرار أمر واقع، وإطلاق وصف على دراسات قائمة بالفعل منذ قرون عديدة، بصرف النظر عن علمية هذه الدراسات أو موضوعيتها[١].

ثالثاً: أن الدوافع لهذه البدايات المبكرة للاستشراق كان يتمثل في ذلك الصراع الذي دار بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي في بلاد الأندلس.

كما كانت الحروب الصليبية بصفة خاصة من أقوى الدوافع إلى اشتغال الأوروبيين بالإسلام وتراثه، ولهذا يمكن أن يقال بأن تاريخ الاستشراق في مراحله الأولى هو تاريخ الصراع بين العالم الغربي المسيحي في العصور الوسطى وبين الشرق الإسلامي، فقد كان الإسلام كما يرى سوذرن (southern) يمثل مشكلة بعيدة المدى بالنسبة للعالم المسيحي في أوروبا على المستويات كافة[٢].

نهاية الاستشراق:

شغلت هذه المسألة نظر الباحثين في مجال الاستشراق، حيث ذهب فريق منهم إلى أن الاستشراق كعلم قد انتهى زمنه وولى، ورأى فريق آخر أن الاستشراق ما زال له نفوذه وإنتاجه وتأثيره، وبالتالي فهو ما زال قائماً وإن تغيرت بعض مسمياته أحياناً.

وتعود نشأة هذا الخلاف إلى المؤتمر الدولي التاسع والعشرين للمستشرقين، والمنعقد في باريس في صيف عام ١٩٧٣م بمناسبة الذكرى المئوية لأول مؤتمر دولي للمستشرقين والذي عقد في المدينة ذاتها سنة ١٨٧٣م.

وفي هذا المؤتمر ناقش الحاضرون إمكانية الاستغناء عن كلمة (الاستشراق)؛ لأنها أصبحت لا تمثل في نظر بعضهم تلك المفاهيم والمجالات التي كانت تتناولها في السابق، كما أنها في نظر بعضهم الآخر لا تتلاءم مع أهداف هذه الدراسات وأغراضها.

وكان الوفد الروسي برئاسة (بابا جان جافوروف) من أكبر أنصار الإبقاء

(١) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

(٢) نظرة الغرب إلى الإسلام: سوذرن، ترجمة: د. علي فهمي خشيم ود. صلاح الدين حسني، ص١٧.

عليه حيث رأى هذا المستشرق الذي يدير معهد الاستشراق بـ (موسكو) أن هذا المصطلح قد خدم الباحثين لمدة تزيد على قرن من الزمان فلماذا تنبذ الآن هذه الكلمة التي تحدد بطريقة ملائمة العمل الذي نقوم به والذي قام به بفخر أساتذتنا من أجيال متعاقبة ـ على حد قوله ـ.

وعندما عرض الموضوع للتصويت أمام المؤتمر تغلب فريق الإلغاء على فريق الإبقاء، وألغيت كلمة «الاستشراق» رسمياً، وقررت الأغلبية أن يطلق على المؤتمر مسمى آخر هو: «المؤتمر الدولي للعلوم الإنسانية لآسيا وإفريقيا الشمالية»[١].

ومن هنا فقد تنوعت آراء الباحثين شرقيين وغربيين في نهاية مصطلح الاستشراق من عدمه، فمنهم موافق لما توصل إليه المجتمعون في مؤتمر باريس ومنهم من خالف ذلك.

وفيما يلي أعرض لجانب من آراء الباحثين الغربيين حول هذه المسألة:

١ ـ كتب برنارد لويس مقالة طويلة بعنوان: «مسألة الاستشراق» تناول فيها ما توصل إليه المستشرقون في مؤتمرهم العالمي بباريس سنة ١٩٧٣م فكان مما قاله: «لقد أصبحت كلمة (مستشرق) منذ الآن فصاعداً ملوثة هي الأخرى، وليس هناك أمل في الخلاص. ولكن الضرر هنا أقل لأن الكلمة كانت قد فقدت قيمتها وحتى أولئك الذين تدل عليهم تخلّو عنها. . . وكانت مناسبة جيدة لإعادة النظر في طبيعة المؤتمر ووظائفه، ثم سرعان ما تبين لهم أنهم متفقون جميعاً على ضرورة التخلي عن هذه التسمية»[٢].

٢ ـ ويرى مكسيم رودنسون أنه ليس هناك استشراق، ولكن هناك «علم صينيات أو علم إيرانيات. . . إلخ. هناك فقط تخصصات علمية محددة من قبل موضوعها وإشكالياتها الخاصة؛ كعلم الاجتماع، وعلم السكان، وعلم الاقتصاد السياسي، وعلم الألسنيات. . . ويمكن تطبيق مناهج هذه العلوم على الشعوب والمناطق المختلفة في فترات مختلفة عن طريق الأخذ بعين الاعتبار لخصوصيات هذه الشعوب أو المناطق، ولتلك الفترات»[٣].

---

(١) الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية: د. ساسي سالم الحاج (١/٢٤٦ ـ ٢٤٧).
(٢) الاستشراق بين دعاته ومعارضيه: هاشم صالح، ص١٥٩.
(٣) الاستشراق بين دعاته ومعارضيه: هاشم صالح، ص٣٤ ـ ٣٨.

ويمكن الاستدراك على هذا القول بأن ظهور هذه الأسماء والأقسام والتخصصات الجديدة لا يعني نهاية الاستشراق، وإنما ذلك تطور طبيعي لمجال معرفي كان محصوراً في عدد محدد من المتخصصين في الشرق وبخاصة العالم العربي والاسلامي، ولما أصبحت العلوم المختلفة ذات كيانات مستقلة؛ كعلم الاجتماع وعلم الإنسان والعلوم الأخرى، وأصبح لها معطيات ومناهج جديدة فلا بد أن يستفاد منها في دراسة الشعوب الأخرى للتمكن من المعرفة الدقيقة لهذه الشعوب[١].

ولهذا نجد أن رودنسون يعود ليؤكد أنه بالرغم من ذلك فإن كثيراً من المستشرقين ما زالوا مصرين على وجود هذا المجال (الاستشراق)[٢].

وقد تناول بعض الباحثين العرب والمسلمين مسألة نهاية الاستشراق إما تأثراً بمن كتب من المستشرقين أو الباحثين الغربيين حول هذا الموضوع أو بحثوا فيه بحثاً أصيلاً، وفيما يلي أعرض لبعض هذه الآراء لاستيضاح المواقف حول هذه المسألة:

١ ـ تناول الدكتور أكرم ضياء العُمري هذه المسألة مبيناً أن الاستشراق لم يستنفد أغراضه وإن قام بتغيير بعض أساليبه، ورأى أنه على المسلمين أن يمثلوا أنفسهم أمام أنفسهم أولاً ثم ينتقلوا لتمثيل أنفسهم أمام الآخرين، ويفسر هذه العبارة بقوله: «أن نمثل أنفسنا بأن تقوم مؤسساتنا العلمية برسم الصورة الثقافية، والتاريخية، والعقدية لأمة الإسلام دون أن تخضع للأفكار المسبقة التي رسمها المستشرقون فهذا جانب مهم وأولي، وهو أحرى بالاهتمام لأن فيه تحصيناً للأمة. والثاني يتحقق إذا بلغنا المستوى المناسب من تهيئة أصحاب الخبرات فنقوم عندئذ بتمثيل أنفسنا أمام الآخرين»[٣].

٢ ـ ويذكر عبد الأمير الأعسم أن الاستشراق في انحسار من الناحية العلمية، وأنه يتجه إلى السياسة البحتة بأن أصبحت هذه الدراسات «أداة طيعة الآن بأيدي دوائر الإمبريالية»[٤].

---

(١) الاستشراق المعاصر في منظور الاسلام: د. مازن مطبقاني، ص١٦.
(٢) الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ص٣٤ ـ ٣٨.
(٣) موقف الاستشراق من السيرة والسُّنَّة النبوية: أكرم ضياء العمري، ص٤٧.
(٤) الاستشراق من منظور فلسفي عربي: عبد الأمير الأعسم، ص٢٩ ـ ٣٠.

٣ ـ وكتب محسن جاسم الموسوي عن نهاية الاستشراق فذكر أن مقالة أنور عبد الملك «الاستشراق في أزمة» التي نشرت عام ١٩٦٣م كانت تتنبأ عما سوف يتبناه مؤتمر المستشرقين التاسع والعشرين الذي عقد في باريس في يوليو ١٩٧٣م «من موت الاستشراق وحلول العلوم الإنسانية المعنية بالشرق بديلة»[١]. ثم يؤكد الموسوي أن موت الاستشراق لم يعن أبداً نهاية آراء المستشرقين ونتائج دراساتهم وأبحاثهم بل عادت هذه الآراء والأفكار للظهور في كتابة المختصين والمستشارين الغربيين[٢].

٤ ـ ويقول الباحث في مجال الاستشراق سالم حميش: «يمكن القول بأن الاستشراق يظهر كتركة للماضي القريب أكثر من كونه مشروعاً حياً يأخذ على عاتقه هذه التركة ويطورها، أو بعبارات أخر: إن الاستشراق مع أعلام القرن التاسع عشر والعقود الستة أو السبعة الأولى لهذا القرن، قد أعطى أحسن ما عنده بحيث لا يمكن لخلفه حالياً أو في المستقبل المنظور، أن تكون له نفس الفعالية والإشعاع»[٣].

وهذا الكلام في الحقيقة لا يخلو من المجازفة، وذلك أن الدراسات العربية والإسلامية والأقسام العلمية التي تهتم بالشرق عموماً ما تزال قوية مزدهرة في الجامعات الغربية، وهي تقوم بأعمال مهمة تؤكد الدور القوي والمتنامي لهذه الأقسام.

ويمكن أن نضرب مثلاً لهذا بجامعة غربية واحدة وهي جامعة (بيركلي) الأمريكية التي تضم ثمانية عشر قسماً يهتم بهذا الشأن، وعلى المستوى الحكومي فإن الحكومة الأمريكية تدعم مثل هذه الدراسات من خلال الاستشارات التي يقدمها المتخصصون في الدراسات العربية الإسلامية للحكومة الأمريكية، حتى إن الاستخبارات الأمريكية قررت عقد ندوة مفتوحة لدراسة الحركات (الأصولية) الإسلامية شهرياً يشارك فيها عدد من المتخصصين في دراسات الحركات الإسلامية[٤].

---

(١) مداخل المثقفين العرب للاستشراق: محسن جاسم الموسوي، ص٣ ـ ٧ نقلاً عن الاستشراق المعاصر: لمطبقاني، ص٢٥.
(٢) المرجع السابق، بنفس الصفحة.
(٣) الاستشراق في أفق انسداده: سالم حميش، ص١١٧.
(٤) الاستشراق المعاصر: د. مطبقاني، ص٢٦ ـ ٢٧.

٥ ـ ويرى الدكتور رضوان السيد أن الاستشراق في العصر الحاضر ينقسم إلى تيارات عديدة، منها ما يطالب بأن يستمر الاستشراق في اهتماماته القديمة، بينما يطالب الفريق الآخر ـ الأحدث سناً ـ أن يهتم الاستشراق المعاصر ببحث العلاقات الإسلامية المسيحية وقضايا الشرق الإسلامي المعاصر، وكان هذا ما حدث في مؤتمر المستشرقين الألمان الذي عقد في مدينة توبنجن عام ١٩٨٢م[١].

وهذا الخلاف بين هذه التيارات التي ذكرها الدكتور السيد لا يعود إلى استمرار الاستشراق كعلم وفن وإنما إلى الاهتمامات والموضوعات التي يجب أن تكون لها الأولوية في الطرح والتناول من قبل المستشرقين.

والحقيقة أنه: وإن ذهبت بعض الآراء إلى أن الاستشراق قد انتهى أو أنه ليس لديه جديد، فإن الواقع المشاهد يدل صراحة على أن الاهتمام الغربي بالعالم العربي الإسلامي على اختلاف صوره ووسائله لم يضعف ولم يتوقف، وأنه ليس بسبيله إلى الانقراض.

وقد أكد هذه الحقيقة أكثر من باحث غربي، ومن هؤلاء مكسيم رودنسون الذي كتب يقول: «إن الدراسات المتركزة على شعوب وثقافات ومجتمعات المناطق العديدة المشمولة سابقاً تحت اسم الشرق سوف تستمر، وسوف يساهم فيها منذ الآن فصاعداً اختصاصيو البلدان أو المناطق المدروسة»[٢].

وتغير المسميات لا يغير من حقيقة الأمر شيء، فإن المحتوى الذي يتضمنه الاستشراق في دراساته حول الشرق عموماً، والعالم العربي والإسلامي على وجه الخصوص ما يزال قائماً، بل قد تطورت أدواته ووسائله كثيراً على هيئة معاهد ومراكز بحوث تعنى بالدراسات الآسيوية والشرق أوسطية ـ كما يعبر عنها في الغرب ـ وزاد الاهتمام بها كثيراً منذ أحداث الحادي عشر من سبتمر ٢٠٠١م في أمريكا.

يقول الدكتور مازن مطبقاني بعد استعراضه للأنشطة الاستشراقية في المعاهد والجامعات الأمريكية: «يعجب الإنسان لماذا يصر البعض من الباحثين العرب

---

(١) الاستشراق: التاريخ والمنهج والصورة: د. رضوان السيد، مجلة الفكر المعاصر، عدد ٣١، ١٩٨٣م.

(٢) الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا: مكسيم رودنسون، نقلاً عن الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، هاشم صالح، ص٨١.

والمسلمين أن يعلنوا وفاة الاستشراق أو انقراض الاستشراق مع أن الأمر يحتاج إلى دراسة وتمحيص قبل إصدار هذه الأحكام. ولما اتيح للباحث فرصة الاطلاع على بعض النشاطات الاستشراقية فقد تأكد لي أن الذي انقرض هو ذلك الشخص الذي يعرف اللغة العربية ويخوض في شتى مجالات المعرفة التي تخص العالم العربي والإسلامي... نعم مثل هذا المتخصص لم يعد له وجود كبير رغم محافظة بعض كبار السن من المستشرقين على هذه المكانة»[١]، ثم يضيف:

«إن الاستشراق لم ينته وإنما الأمر تغير الاسم، وإلا فإن الاهتمامات ما تزال كما هي وقد كثرت التخصصات حتى لا يمكن لباحث واحد أو لمجموعة كبيرة من الباحثين متابعة ما يجري في الساحة الاستشراقية أو ساحة الدراسات العربية والإسلامية في الغرب لكثرة هذه الأقسام وكثرة نشاطاتها، فإننا في هذه الورقة ذكرنا ما لا يزيد على عشرة مراكز أو أقسام علمية مع أن هذه المراكز تعد بالمئات، ويمكن أن يكون الحديث عن هذه المراكز وأنواع نشاطاتها موضوعاً مستقلاً»[٢].

---

(١) الاستشراق المعاصر، ص٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص٤٩ ـ ٥٠.

ثالثاً: أهداف الاستشراق

حين ينظر الباحث في إنتاج المستشرقين وجهودهم لا بد أن يتملكه شيء من العجب، فما الذي يدعو الباحث الغربي إلى بذل كل هذا الجهد والعمر والمال في دراسة عالم ومجتمع غريب عنه، لغته تختلف تماماً عن لغته، ثم يحاول جاهداً فهم آدابها وعقائد أهلها وتاريخهم وحضارتهم؟

ما الذي يحمله على ذلك وفي وسعه أن يوجه كل تلك الجهود إلى دراسة مجالات غربية أخرى يمكن أن تظهر فيها مواهبه وإمكاناته الفكرية من ناحية، ومن ناحية أخرى تكون أكثر فائدة له من الناحية العملية؟ وكما يقول نجيب العقيقي:

«ولو أن أحدهم انصرف طوال حياته إلى حل الكلمات المتعارضة أو جمع طوابع البريد النادرة، أو كتابة القصص البوليسية، بدل التحقيق والترجمة والتصنيف، لخرجت به من تلك الجزائر المتعددة التي يعيش فيها المستشرقون إلى العالم الرحب في القرن العشرين، ولعادت عليه برخاء من العيش وشهرة بين الناس وسلامة من النقاد»[1].

إذاً لا شك أن الأمر ليس أمراً عادياً أو من قبيل المصادفة، فاتجاه الغربيين لدراسة الشرق وإقامة مؤسسة ضخمة لذلك هي مؤسسة الاستشراق لا بد أن يكون وراءه أهداف معينة، والتي يمكن تلخيصها في الأمور التالية:

أولاً: الهدف الديني:

يستطيع كل باحث عن تاريخ الاستشراق أن يتبين ـ بما لا يدع مجالاً

(١) المستشرقون (٣/ ٦٠٥).

للشك ـ أن الهدف الديني كان وراءه نشأة الاستشراق ودعم الدراسات الإسلامية والعربية في أوروبا، وقد صاحب الاستشراق طوال مراحل تاريخه، ولم يستطع أن يتخلص منه بصفة نهائية. وحتى نهاية القرن التاسع عشر لم يكن الاستشراق قد حرر نفسه من الخلفية الدينية التي اشتق منها إلا بدرجة ضئيلة[١].

يقول الدكتور محمد البهي موضحاً هذا الهدف ودواعيه: «والسبب الرئيسي المباشر الذي دعا الأوروبيين إلى الاستشراق، هو سبب ديني في الدرجة الأولى، فقد تركت الحرب الصليبية في نفوس الأوروبيين ما تركت من آثار مرة عميقة... ومن جهة أخرى رغب المسيحيون في التبشير بدينهم بين المسلمين فأقبلوا على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز الدعاة وإرسالهم للعالم الإسلامي، والتقت مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار فمكن لهم»[٢].

والهدف الديني للاستشراق يسير منذ البداية في ثلاثة اتجاهات متوازية تعمل معاً جنباً إلى جنب، وتتمثل هذه الاتجاهات فيما يلي:

١ ـ محاربة الإسلام والبحث عن نقاط يتوهم فيها الضعف وإبرازها، والزعم بأنه دين مأخوذ من المسيحية واليهودية، والانتقاص من قيمه والحط من قدر نبيه... إلخ.

٢ ـ حماية المسيحيين من خطره بحجب حقائقه عنهم، وإطلاعهم على ما فيه من نقائص مزعومة، وتحذيرهم من خطر الاستسلام لهذا الدين.

٣ ـ التبشير بالديانة المسيحية ومحاولة استمالة المسلمين إليها[٣].

ومما يدل على ما تقدم أن الفاتيكان يعتبر المصدر الرئيس الذي أمد الاستشراق بطلائع المستشرقين وأوائل رجالاته، ناهيك عن التعصب الديني والروح الصليبية والتكوين اللاهوتي لأغلب المتصدين للاستشراق حيث درس كثير منهم اللاهوت قبل التفرغ لميدان الدراسات الاستشراقية، وكأنهم أرادوا أن يتسلحوا بمعرفة كافية بالعقيدة المسيحية قبل الخوض في غمار الحرب المبطنة مع الإسلام، كما ظل الكثير منهم يتولى وظائف دينية وتبشيرية وله مكانة كنسية

(١) الاستشراق: إدوارد سعيد، ص٢٦٥.

(٢) الفكر الإسلامي الحديث، ص٤٣٠.

(٣) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري: د. زقزوق، ص٦٨.

مرموقة[١].

وقد ذكر العقيقي في كتابه «المستشرقون» جملة كبيرة من طلائع المستشرقين كانت الغالبية منهم من الرهبان، ورواد الأديرة، وممن درسوا اللاهوت المسيحي وتخصصوا فيه[٢].

وإذا كان الهدف الديني في الوقت الحاضر لم يعد ظاهراً في كثير من الكتابات الاستشراقية كما هي الحال في المراحل الأولى للاستشراق وفي عصور الاستعمار فليس معنى ذلك أنه قد اختفى تماماً؛ بل هو كما يقول الدكتور محمود زقزوق: «لا يزال يعمل من وراء ستار بوعي أو بغير وعي. فمن الصعب على معظم المستشرقين ـ المشتغلين بدراسة الإسلام ـ وأكثرهم متدينون، أن ينسوا أنهم يدرسون ديناً ينكر عقائد أساسية في المسيحية ويهاجمها ويفندها مثل عقيدة التثليث وعقيدة الصلب والفداء، كما أنه من الصعب عليهم أيضاً أن ينسوا أن الدين الإسلامي قد قضى على المسيحية في كثير من بلاد الشرق وحل محلها»[٣].

ويؤكد ما تقدم أحد الباحثين الغربيين وهو المستشرق برنارد لويس (اليهودي) حين يقول: «لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية»[٤].

ومع كون الهدف الديني ظاهر في نشأة الاستشراق فإن ذلك لم يمنع فريقاً من المستشرقين أن يحاول جاهداً في التزام الحيدة والموضوعية، ولكن هذه الكتابات لم تكن ذات تأثير كبير وإنما تذكر هنا من باب الإنصاف لأصحابها وبعداً عن التعميم في الحكم على جميع المستشرقين. يقول المستشرق مونتغمري وات: «جد الباحثون منذ القرن الثاني عشر في تعديل الصورة المشبوهة التي تولدت في أوروبا عن الإسلام. وعلى رغم الجهد العلمي الذي بذل في هذا السبيل، فإن آثار هذا الموقف المجافي للحقيقة التي أحدثتها كتابات القرون

(١) المرجع السابق، نفس الصفحة.
(٢) المستشرقون (١/ ١٢٠ ـ ١٣٧).
(٣) الاستشراق والخلفية الفكرية، ص٦٩.
(٤) العرب في التاريخ: برنارد لويس، ص٦٣ نقلاً عن المستشرقون والإسلام: إبراهيم اللبان، ص٣٦.

المتوسطة في أوروبا لا تزال قائمة.. فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتنابها»[١].

والهدف الديني عند المستشرقين لم يكن هو الهدف والدافع الوحيد لدى المستشرقين، فقد كانت هناك أيضاً أهداف أخرى للاستشراق تقترب أو تبتعد منه كما سيأتي.

ثانياً: الهدف الاستعماري:

ارتبطت الحركة الاستشراقية كثيراً بأهداف الحركة الاستعمارية الغربية، حيث توثقت العلاقة بينهما حتى أصبح الاستشراق رافداً مهماً لا يستغني عنه الاستعمار في أوج ازدهاره في الشرق الإسلامي.

يقول إدوارد سعيد: «إذا اتخذنا من أواخر القرن الثامن عشر نقطة للانطلاق محددة تقريبياً، فإن الاستشراق يمكن أن يناقش ويحلل بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق، التعامل معه بإصدار تقريرات حوله، وإجازة الآراء فيه وإقرارها، وبوصفه، وتدريسه، والاستقرار فيه، وحكمه: وبإيجاز الاستشراق كأسلوب غربي للسيطرة على الشرق، واستبنائه وامتلاك السيادة عليه»[٢].

لقد تلاقت الأهداف والغايات بين الاستشراق والاستعمار منذ نشأتهما، بين ملوك أوروبا الصليبية وبين مفكريها من مستشرقين ومنصرين، حيث «تلقف الاستعمار هذه الحركة ـ حركة الاستشراق ـ وكان ملوك الدول الاستعمارية رعاتها، وكان قناصلهم في بلدان الشرق عمالها»[٣].

كانت رغبة المستعمر «الحصول على أكبر قدر ممكن من المعلومات عن البلاد التي وقعت تحت الاحتلال الأوروبي حتى تستغل هذه المعلومات في فهم روح الشعوب القاطنة هناك حتى تسهل السيطرة عليها ومخاطبتها بلغتها، كانت الغاية جمع المعلومات إلى الوطن الأم وهي ـ أوروبا ـ عندما كانت دولها سيدة البحار، وكان المستشرقون هم الوسيلة لذلك»[٤].

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية، ص٦٩.
(٢) الاستشراق، ص٣٨.
(٣) المستشرقون والإسلام: زكريا هاشم، ص٦٥.
(٤) التراث والتجديد: د. حسن حنفي، ص٩٢.

يؤكد هذا ما ذهب إليه مارسيل بوازار[١]، من أن «الاستشراق كان في الأصل أحد الفروع العلمية المرتبطة بالعلوم الاستعمارية في فرنسا وفي بريطانيا. . . فقد كان المطلوب إجمالاً فهم العقلية الإسلامية فهماً جيداً لتسهل الإدارة الاستعمارية للشعوب الإسلامية»[٢].

وفي مطلع القرن العشرين، لم يكن بإمكان رجال مثل بلفور[٣] وكرومر[٤] ـ وهم من دهاة المحتل البريطاني ـ أن يقولوا شيئاً من مقولاتهم عن الشرق الإسلامي إلا «لأن تراثاً من الاستشراق، أقدم من تراث القرن التاسع عشر، زودهم بمفردات، وصور، وبلاغة، التحيز والهوى. ومجازات ليتولوه بها. ومع ذلك فإن الاستشراق عَزز، وعُزز بالمعرفة الأكيدة لكون أوروبا أو الغرب تسيطر. . »[٥].

كان الاستشراق سجلاً من المعلومات، استخدمها المحتل ـ إنجليزي وفرنسي ـ للسيطرة على الشرق الإسلامي والسيادة عليه، ومن الأمثلة العديدة لارتباط الاستشراق بالاستعمار ـ كما يذكر الدكتور محمود زقزوق ـ بعض النماذج للمستشرقين الذين كانوا أداة في يد الاستعمار، منهم (كارل هينريس بيكر)[٦]

---

(١) مارسيل بوازار (M. poizer): مستشرق فرنسي ومفكر وقانوني معاصر، أولى اهتماماً كبيراً لمسألة العلاقات الدولية وحقوق الإنسان، كتب عدداً من الأبحاث للمؤتمرات والدوريات المعنية بهاتين المسألتين. يعتبر كتابه «إنسانية الإسلام» علامة مضيئة في مجال الدراسات الغربية للإسلام، بما تميز به من موضوعية، وعمق، وحرص على اعتماد المراجع التي لا يأسرها التحيز والهوى فضلاً عن الكتابات الإسلامية نفسها. انظر: معجم أسماء المستشرقين، ص١١٣٥.

(٢) الإسلام اليوم: مارسيل بوازار، ص١٩ ـ ٢٠.

(٣) آرثر جيمس بلفور (١٨٤٨ ـ ١٩٢٠م): سياسي بريطاني شغل عدة مناصب سياسية هامة. عين وزيراً للخارجية ١٩١٦م وأصدر بهذه الصفة تصريحه المعروف باسم (وعد بلفور) سنة ١٩١٧م والقاضي بتعهد الحكومة البريطانية بإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين. انظر: الموسوعة العربية، ص٣٩٩.

(٤) افلن بيرنج كرومر (١٨٤١ ـ ١٩١٧م): إداري ودبلوماسي بريطاني، خدم بمصر كمندوب سامي للاحتلال سنة ١٨٤١م، ومنذ ذلك الحين وحتى استقالته سنة ١٩٠٧م كان الحاكم الحقيقي لمصر في تلك الفترة بعد أن سلب من عباس خديوي مصر كل سلطة فعلية. انظر: الموسوعة العربية، ص١٤٥٧، ومعجم أسماء المستشرقين، ص٨٨٨.

(٥) الاستشراق: إدوارد سعيد، ص٧٢.

(٦) كارل هينريس بيكر C. H. Becker (١٨٦٧ ـ ١٩٣٣م): مستشرق ألماني، درس اللغات الشرقية وعين استاذاً لها وتضلع في دراسة التاريخ الإسلامي، وأثر العوامل الاقتصادية والتاريخية المختلفة في =

(ت١٩٣٣م) مؤسس «مجلة الإسلام» الألمانية الذي قام بدراسات مختلفة تخدم الأهداف الاستعمارية الألمانية في أفريقيا.

أما المستشرق الروسي (بارتولد barthold)[1] (ت١٩٣٠م) وهو مؤسس «مجلة عالم الإسلام» الروسية، فقد تم تكليفه عن طريق الحكومة الروسية بالقيام ببحوث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الوسطى.

وكذلك عالم الإسلاميات الهولندي (سنوك هرجرونيه)[2] (ت١٩٣٦م) فإنه في سبيل استعداده للعمل في خدمة الاستعمار توجه إلى مكة في عام ١٨٨٥م بعد أن انتحل اسماً إسلامياً، وأقام هناك ما يقرب من نصف عام، وكان يجيد العربية، وقد لعب هذا المستشرق دوراً مهماً في تشكيل السياسة الثقافية والاستعمارية في المناطق الهولندية في الهند الشرقية، كما شغل مناصب قيادية في السلطة الاستعمارية الهولندية في إندونيسيا[3].

من المعروف أن معظم المستشرقين كانوا منصرين أو على علاقة بالمنصرين، لذلك فإن التقاء المحتل الغاصب بالمنصرين هو التقاء بالمستشرقين، كما يقول الدكتور البهي: «أقبل الأوروبيون على الاستشراق ليتسنى لهم تجهيز

= الحضارة الإسلامية، وأنشأ مجلة الإسلام سنة ١٩١٠م فعد مؤرخاً بحاثة من الطراز الأول، اختير سنة ١٩٢١م وزيراً للمعارف وأستاذاً فخريّاً بجامعة بون. من آثاره: نشر كتاب مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ومصر في عهد الإسلام، والنصرانية والإسلام، والجدل العقائدي بين المسلمين والنصارى. انظر: معجم أسماء المستشرقين، ص٣٢٩ ـ ٣٣٠.

(١) ف. ف. بارتولد v. v. barthold (١٨٦٩ ـ ١٩٣٠م): مستشرق روسي، تخرج من جامعة بطرسبرج وعين أستاذاً لتاريخ الشرق الإسلامي فيها، يعد من أول من درس تاريخ آسيا الوسطى، عني بالشرق الإسلامي وحقق المصادر العربية المتعلقة به، ونظرية ابن خلدون في الحكم الإلهي والسلطة الدينية في الدولة الإسلامية، تخرج على يديه مجموعة من المستشرقين الروس. آثاره تربو على أربعمائة منها: «علماء النهضة الإسلامية»، «البوذية والإسلام»، «تراجم لمجموعة من المستشرقين الروس». انظر: معجم أسماء المستشرقين، ص٢٠٠ ـ ٢٠١.

(٢) كرستيان سنوك هرجرونيه (Christian: Snouck Hurgronje) (١٨٥٧ ـ ١٩٣٦م): مستشرق هولندي، أقام في جدة بالحجاز سنة ١٨٨٤م سبعة أشهر، ويقول: إنه دخل مكة متسمياً بعبد الغفار، ومكث بها خمسة أشهر، واضطر إلى مغادرتها فجأة قبل حلول موسم الحج، لانكشاف أمره. عين أستاذاً للعربية في جامعة ليدن ثم كان مستشاراً في الأمور الإسلامية والعربية، بوزارة المستعمرات الهولندية. من آثاره: عدة كتب بالألمانية عن الإسلام والمسلمين، أشهرها كتابه عن «مكة في القرن التاسع عشر»، و«الإسلام وتاريخه» و«الشريعة الإسلامية» و«بلاد العرب وتركيا» و«الإسلام في المهاجر الهولندية». انظر: المستشرقون، ص١٤٧، والأعلام (٥/ ٢٢١).

(٣) الاستشراق والخلفية الفكرية، ص٥٥ ـ ٥٦.

المبشرين وإرسالهم للعالم الإسلامي، والتقت هنا مصلحة المبشرين مع أهداف الاستعمار فمكن لهم، واعتمد عليهم في بسط نفوذه في الشرق.

وأقنع المبشرون زعماء الاستعمار بأن المسيحية ستكون قاعدة الاستعمار الغربي في الشرق، وبذلك سهل الاستعمار للمبشرين مهمتهم وبسط عليهم حمايته، وزودهم بالمال والسلطان، وهذا هو السبب في أن الاستشراق قام في أول أمره على أكتاف المبشرين والرهبان ثم اتصل بالاستعمار»[١].

وأصبح دور المستشرق في ظل المد الاستعماري يماثل دور المنصر، وكأن الاستشراق ولد من أبوين غير شرعيين هما: الاستعمار والتنصير[٢].

ويتضح مما سبق أن أهداف الاستشراق في نشأته والتنصير (التبشير) والاستعمار واحدة، فأكثر المستشرقين كانوا عملاء للاستعمار في بلاد العرب والمسلمين، ودأبوا على تقويض الخصائص والمقومات الدينية والتاريخية للعرب والمسلمين، كي يمكنوا للاستعمار في هذه البلاد، وليشيعوا النزعة الصليبية الغربية في مجالات مختلفة ومنها بطبيعة الحال: مجال التظاهر بالبحث العلمي المحايد[٣].

وهكذا أصبح الاستشراق وسيلة فعالة لخدمة الاستعمار الغربي بعد أن أنجز تقمصه وتحوله من إنشاء بحثي إلى مؤسسة إمبريالية[٤].

وكون الاستعمار المباشر قد انتهى في وقتنا الحاضر لا يعني انتهاء الدور الذي يقوم به المستشرقون في خدمة الدول الكبرى وتوثيق صلاتها المباشرة وسيادتها غير المباشرة بدول الشرق الإسلامي عن طريق السفارات والقنصليات ودوائر الاستخبارات ومعاهد الدراسات ومراكز البحوث[٥].

ثالثاً: الهدف العلمي:

وهذا الهدف موجود عند طائفة من المستشرقين وذكرهم هنا من باب الإنصاف لهم، وإن كان قد يدخل ضمن هذا الهدف أغراض أخرى تخرج به عن

---

(١) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار، ص٤٣٠.
(٢) العلاقة بين الاستشراق والتبشير: د. أحمد السائح، ص٢٩١، ومنهج نقد الاستشراق: د. محمد أحمد محمد، ص١٨٥.
(٣) التصوف عند المستشرقين: د. أحمد الشرباصي، ص٨ ـ ٩.
(٤) الاستشراق: إدوارد سعيد، ص١٢٠.
(٥) مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب: د. محمد البشير مغلي، ص٦١.

الهدف العلمي الموضوعي أحياناً، ولهذا يرى بعض الباحثين أن الهدف العلمي للاستشراق على ضربين: نزيه ومشبوه.

فأما الأول: فهو ما ابتغي به وجه العلم الصرف بدافع نبيل ومقصد شريف، من حب الاطلاع على الأديان والثقافات والحضارات واللغات، دونما خلفيات أخرى، بحيث تجيء أبحاثهم أقرب إلى الفهم الصحيح. وتتمثل جهودهم في هذا المجال في الطبع والتأليف، والتحقيق في المخطوطات، والتعريف بالتراث، وإعداد المعاجم، وضبط الفهارس، وهي أعمال نفيسة، وإن كانت لا تخلو من أخطاء وأوهام[١]، لكن لا يمنع ذلك من أهمية العمل وقيمته العلمية.

وأما الثاني: فيتجه إلى التشكيك والإنكار والتخبط في التحليل والتفسير الغريب والتأويل البعيد، وإصدار الأحكام المسبقة دون مؤيدات علمية مما يشكك في مقصود الباحث وأهدافه[٢].

ويرى المستشرق الألماني (رودي بارت) أن ظهور هذه الفئة من المستشرقين من ذوي التوجهات والمقاصد العلمية البحتة كان على وجه التقريب في منتصف القرن التاسع عشر. حيث يقول: «إننا نعني أن الصفة العلمية بالمعنى الحديث ظهرت في هذا الوقت على الاستشراق بوضوح أكثر من ذي قبل.. وذلك عندما اجتهدوا في نقل صورة موضوعية لعالم الشرق متجردين من الآراء السبقية وعن كل لون من ألوان الانعكاس الذاتي»[٣].

ومفهوم كلام (بارت) أن كتابات المستشرقين قبل هذه الفترة لم تكن تصبوا لتحقيق الهدف العلمي بل كانت ذات أهداف مشبوهة إما دينية تنصيرية أو استعمارية كما تقدم في الأهداف السابقة، كما أن كلام (بارت) لا يخلو من مبالغة ومثالية في عرض إنتاج المستشرقين في العصر الحاضر حين يطلق عليه صفة الموضوعية والتجرد من الآراء المسبقة، وهو ما سيتضح عدم دقته في ثنايا البحث كما سيأتي.

---

(١) للاستزاده في هذا الجانب وتقويم عمل المستشرقين في التراث، انظر: المستشرقون والتراث: د. عبد العظيم الديب، وأضواء على أخطاء المستشرقين في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي: د. سعد المرصفي.

(٢) مناهج البحث في الإسلاميات: محمد مغلي، ص٦٢ ـ ٦٣.

(٣) الدراسات العربية والإسلامية، ص١٧.

ويرجع بعض الباحثين الإسلاميين نمو الأغراض العلمية للدراسات الاستشراقية في الوقت الحاضر إلى عدة أسباب، منها:

انحسار المد الاستعماري المباشر بعد الحرب العالمية الثانية، وبروز الأفكار التي تنادي بالمساواة بين الدول، وحق الشعوب في تقرير مصيرها، وإلغاء الهيمنة الاستعمارية وإيجاد جهاز دولي جديد كالأمم المتحدة، يحاول طبقاً لمجهوداته حفظ الأمن والسلام، والمساواة بين الشعوب، ومنها تطور طرق البحوث العلمية في مجال العلوم الإنسانية[١].

وختاماً فإن الاستشراق إذا ما أراد أن يلعب دوراً فعالاً في ميادين العلوم، وخاصة العلوم الإنسانية، فعليه أن يدرك ـ وقد آن الأوان لذلك ـ أن قيمة دراساته لا تعتمد على ما فيها من مشاحنات وانفعالات، بل على ما فيها من صدق وإخلاص ومنهجية موضوعية[٢].

رابعاً: الهدف الاقتصادي:

كان الشرق ولا زال من أهم أماكن الثروة في العالم، ولهذا كان منذ القدم موضع المطامع الغربية، ولا يغيب عن الذهن أن من أهم أسباب الحروب الصليبية التي قادها الغرب ضد المشرق الإسلامي مصادر الثروة والخيرات التي احتوت عليها أراضي الشرق الإسلامي.

فالهدف الاقتصادي إذاً كان حاضراً، وهو المبتغى من وراء قيام العلاقة بين الشرق والغرب في كثير من الأحيان، حيث لم يكن الارتباط على أساس التكافؤ والتكامل والعلاقات الإنسانية، وإنما بالنظر إلى ما يحتويه الشرق من ذخائر منجمية وموارد طبيعية ومواد أولية، وإمكانية إقامة أسواق واسعة للغرب من خلاله، لترويج منتجاته التي تحمل معها ميسم الاستعلاء والسيطرة الغربية. وبالتالي، فإنها بذلك تهبط بالبضائع المحلية والصناعات التقليدية إلى الدرجة الثانية من الأهمية! إن لم تقض عليها، وفي الوقت نفسه تحول بلاد المسلمين إلى مجتمع الاستهلاك والتبعية الاقتصادية.

وفي إطار التوسع التجاري والغزو الاقتصادي للشرق تلجأ الدوائر الحكومية

---

(١) الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية: د. ساسي الحاج (١/ ١٨٥).

(٢) فلسفة الاستشراق: د. أحمد سمايلوفيتش، ص١٠٢.

بل والشركات المختلفة ومؤسسات الاستثمار الأجنبي إلى خبرة المستشرقين بالبلدان المعنية، تستطلعهم عن إمكانات استغلال الثروات الباطنية والبشرية فيها، وتستخدمهم في تنفيذ مشاريعها الاقتصادية المختلفة، للوساطة والاستشارة والترجمة والتنقيب وغيره، مقابل رواتب مغرية.

ومن ناحية أخرى، وجد بعض المستشرقين الفرصة مواتية لاتخاذ «البحوث العلمية» من تأليف وتحقيق التراث الإسلامي وكذلك من طبعه ونشره وتوزيعه وسيلة للثراء وكسب مغانم مادية كثيرة[١].

(١) مناهج البحث في الإسلاميات: محمد مغلي، ص٥٧ ـ ٥٨. وانظر: الاستشراق: د. زقزوق ص٧٤، أجنحة المكر الثلاثة: للميداني، ص١٢٨، والاستشراق: للسباعي، ص١٨.

رابعاً: وسائل الاستشراق

لقد سعى المستشرقون إلى تحقيق أهدافهم من خلال العديد من الوسائل والأساليب. حيث لم يقتصر المستشرقون على نوع معين من الأنشطة للوصول إلى أهدافهم بل طرقوا جميع الأبواب للوصول إلى غاياتهم، و«لم يترك المستشرقون مجالاً من مجالات الأنشطة المعرفية والتوجيهية العليا إلا تخصصوا فيها، ومنها التعليم الجامعي، وإنشاء المؤسسات العالمية لتوجيه التعليم والتثقيف، وعقد المؤتمرات والندوات ولقاءات التحاور، وإصدار المجلات ونشر المقالات وجمع المخطوطات العربية، والتحقيق والنشر وتأليف الكتب ودس السموم الفكرية فيها بصورة خفية ومتدرجة، وإنشاء الموسوعات العلمية الإسلامية»(١).

هذه بصفة عامة الوسائل التي اتخذها المستشرقون لتحقيق أهدافهم وفيما يأتي توضيح أهم هذه الوسائل والأساليب:

١ ـ التعليم الجامعي:

يكاد يكون في كل جامعة أوروبية أو أمريكية معهد خاص للدراسات الإسلامية والعربية. بل قد يوجد في بعض الجامعات أكثر من معهد للاستشراق مثل جامعة ميونيخ، حيث يوجد بها معهد للدراسات الإسلامية، ومعهد لتاريخ وحضارة الشرق الأدنى، ومعهد للغات الإسلامية، ويرأس كل معهد أستاذ يساعده بعض المحاضرين والمساعدين. وتقوم هذه المعاهد بمهمة التدريس الجامعي وتخريج الدارسين في أقسام «الماجستير والدكتوراه» ممن سيواصلون

(١) نور الإسلام وأباطيل الاستشراق: د. فاطمة نجا، ص١٦٠.

أعمالهم في المجال الاستشراقي الأكاديمي أو غيره من مجالات أخرى في السلك الدبلوماسي، أو الالتحاق بأعمال في الأقسام الشرقية بدور الكتب، أو في مراكز البحوث المهتمة بالشرق، أو غير ذلك من أعمال في جهات لها صلة بالشرق. ويتولى هؤلاء كراسي الدراسات العليا في الجامعات الغربية، وجامعات إرساليات التبشير (التنصير) في الدول الإسلامية، بغية صناعة حملة شهادات من بلدان العالم الإسلامي، طبقاً لما يريده المبشرون والمستعمرون.

وقد كانت هذه الكراسي للدراسات الإسلامية والعربية، وسيلة يتخذها بعض المستشرقين لاصطياد أبناء الشعوب الإسلامية، والتأثير عليهم فكرياً وسلوكياً ونفسياً. حتى إذا ما تخرج هؤلاء الطلاب عادوا إلى بلدانهم وبدئوا في ممارسة التدريس في الجامعات وقد حملوا أفكاراً مغلوطة حول مبادئهم ومعتقداتهم[(١)].

٢ ـ المؤتمرات الاستشراقية:

عقد المستشرقون المؤتمرات الاستشراقية، لتبادل الرأي فيما يحقق أهداف الاستشراق.

وقد شهد القرن التاسع عشر الميلادي بداية عقد المؤتمرات الدولية للمستشرقين. حيث أتاحت هذه المؤتمرات للمستشرقين في كل مكان الفرصة لزيادة التنسيق وتوثيق أواصر التعاون، والتعرف بصورة مباشرة على أعمال بعضهم، وتجنب ازدواج العمل، حرصاً على تجميع الجهود وعدم تبديدها في أعمال مكررة.

وقد تم عقد أول مؤتمر للمستشرقين في باريس سنة ١٨٧٣م، ثم توالت المؤتمرات منذ ذلك الحين بصفة منتظمة.

وقد بلغت مؤتمرات المستشرقين الدولية من عام ١٨٧٣ ـ ١٩٦٤م ستة وعشرين مؤتمراً ضم الواحد منها مئات العلماء من أعلام المستشرقين والعرب والمسلمين الشرقيين من آسيا وأفريقيا، وتناولوا الأبحاث والنظريات والمقترحات، ثم نشروها في مجلدات للاهتداء بها؛ كنظم ومناهج ووسائل، ثم

---

(١) انظر: الاستشراق: للسباعي، ص٢٦، أجنحة المكر الثلاثة: للميداني، ص١٢٣، الفكر الإسلامي الحديث: للبهي، ص٥٩، نور الإسلام: لفاطمة نجا، ص١٦٠ ـ ١٦١.

أصبحت دراسات مؤتمراتهم الموضوعية والإقليمية أصولاً وأمهات للباحثين[١].

ويرى بعض الباحثين أنه عندما رأى المستشرقون الوعي الديني عند المسلمين أضافوا على مؤتمراتهم صبغة البحث الأكاديمي ليبعدوا عنها الشبهات، فكانوا يدعون إلى هذه المؤتمرات بعض الشخصيات البارزة في الدراسات الإسلامية؛ ليتحدثوا في بعض المسائل، وليكون ذلك أيضاً مظهراً من مظاهر الإخلاص في العمل، من أجل الحفاظ على التراث العلمي دون نظر إلى مصلحة إقليمية أو اهتمام بنزعة تعصبية[٢].

٣ ـ إنشاء الجمعيات وإصدار المجلات:

بدأ المستشرقون في النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي في مختلف بلدان أوروبا وأمريكا بإنشاء جمعيات لمتابعة الدراسات الاستشراقية.

فقد تأسست أولاً الجمعية الآسيوية في باريس سنة ١٨٢٢م، ثم الجمعية الملكية الآسيوية في إنجلترا وإيرلندا عام ١٨٢٣م، والجمعية الشرقية الألمانية عام ١٨٤٥م. وقد قررت هذه الجمعية في عام ١٩٦١م إنشاء معهد ألماني للأبحاث الشرقية في بيروت. وكان لهذا المعهد نشاط ملحوظ، وكان يقوم بانتظام بإصدار سلسلتين عن الدراسات الإسلامية والعربية معاً: «النشرات الإسلامية» و«نصوص ودراسات»، ولديه مكتبة بها أكثر من ستين ألف مجلد. وقد تعاقب على إدارة هذا المعهد عدد من المستشرقين الذين يشغلون اليوم عدداً من كراسي الاستشراق في الجامعات الألمانية.

وسرعان ما نشطت هذه الجمعيات في إصدار المجلات والمطبوعات الخاصة ببحوثهم حول الإسلام والمسلمين، وشعوبهم، وبلادهم، وكل ما يتعلق بهم.

وكان «هامر برجشتال»[٣] قد أصدر أول مجلة استشراقية متخصصة في

---

(١) مذكرة عن الاستشراق: أبو المجد سيد نوفل، ص٧٢، والمستشرقون: للعقيقي (٣/ ٣٦٥).

(٢) الإسلام والمستشرقون: محمد الدسوقي، ص٣٤.

(٣) جوزيف همر برجشتال Purgstall (١٧٧٤ ـ ١٨٥٦م): مستشرق نمساوي. برع في العربية والفارسية والتركية وغيرها. تقلد عدة مناصب حتى أصبح مستشاراً لإمبراطور النمسا، وتنقل في عدة دول وزار مصر والشام وإيران. آثاره: صنف بالألمانية كتباً كثيرة، منها: «تاريخ الآداب العربية» ولم يتمه، و«تاريخ الدولة العثمانية». وترجم «ديوان المتنبي» إلى الألمانية شعراً. وكان يقيم صلاته بالعربية. ونشر كتباً عربية منها «أطواق الذهب» للزمخشري، ورسالة «أيها الولد» للغزالي، ودفن =

أوروبا وهي مجلة «ينابيع الشرق»، التي صدرت في ڤيينا من عام ١٨٠٩م وحتى ١٨١٨م.

وفي عام ١٨٩٥م ظهرت في باريس مجلة تمنح اهتماماً بصفة خاصة للعالم الإسلامي وهي «مجلة الإسلام». وقد خلفتها في عام ١٩٠٦م مجلة «العالم الإسلامي» التي صدرت عن البعثة العلمية الفرنسية في المغرب، وقد تحولت بعد ذلك إلى مجلة «الدراسات الإسلامية». وفي عام ١٩١٠م ظهرت «مجلة الإسلام» الألمانية؛ وفي بطرسبرج بـ«روسيا» ظهرت مجلة «عالم الإسلام» عام ١٩١٢م ولكنها لم تعمر طويلاً، وقد أسسها المستشرق بارتولد بتكليف من الحكومة الروسية للقيام بأبحاث تخدم مصالح السيادة الروسية في آسيا الوسطى(١).

ويزيد عدد المجلات الاستشراقية على ثلاثمائة مجلة متنوعة خاصة بالاستشراق، وهي منشورة بمختلف اللغات، كما تعد مجلة العالم الإسلامي من أخطر المجلات التي يصدرها المستشرقون الأمريكيون، والتي أنشأها صمويل أزويمر (Zewemer) سنة ١٩١١م، وتصدر الآن من هارفورد (Hartford) بأمريكا، وطابع هذه المجلة تبشيري سافر(٢).

وكانوا يراعون في مجلاتهم جمال الإخراج، وجودة الطباعة لتجذب الأنظار إليها، وتسترعي الانتباه، وكان تسلط الغرب العسكري قد فرض على الشرق الثقافة الغربية فأصبح لهذه الدوريات مكانتها الملحوظة وأثرها البارز في عالم التربية والثقافة، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل كتبوا الأبحاث العديدة عن كل ما يتصل بالشرق وبذلوا فيها الوقت والمال.

وعن طريق هذه الأبحاث دخلوا في مجال التعليم الجامعي، وصار منهم أساتذة يتم استقدامهم وإنفاق الأموال الطائلة عليهم، كما تمكنوا من دخول المجامع العلمية اللغوية(٣).

= في ڤيينا في قبر له طابع عربي. انظر: معجم المطبوعات، ص١٨٨٩، المستشرقون، ص١٧٦، الأعلام (٨/ ٢٢٢).

(١) المستشرقون: للعقيقي (٣/ ٣٣٧ ـ ٣٣٨)، ونور الإسلام، ص١٦٣ ـ ١٦٤.

(٢) الاستشراق والمستشرقون: السباعي، ص٢٦ ـ ٢٩.

(٣) الإسلام والمستشرقون: محمد الدسوقي ص٣٤.

٤ ـ إلقاء المحاضرات في الجامعات والجمعيات العلمية:

وقد كان يدعى إلى هذه المحاضرات في الجامعات العربية والإسلامية بعض المستشرقين ومنهم من هو معروف بعدائه للإسلام، فيلقون بحوثهم وأفكارهم المسمومة ضد الإسلام[١]، يقول الأستاذ أبو الأعلي المودودي:

«هذا من تقلبات الدهر، وعجائب أمره، لقد مر على المسيحيين في أوروبا حينٌ من الدهر كانوا يشدون فيه الرحال إلى الأندلس؛ ليتعلموا كتابهم المقدس ـ التوراة ـ من علماء المسلمين، أما الآن فقد انقلب الأمر رأساً على عقب حيث أصبح المسلمون ـ واأسفاه ـ يرجعون إلى أهل الغرب (أوروبا وأمريكا) يسألونهم: ما هو الإسلام؟ وما هي حضارته؟ ليس هذا فقط، بل قد أصبحوا يتعلمون اللغة العربية منهم، ويستوردونهم لتدريس التاريخ الإسلامي، وكل ما يكتبونه عن الإسلام والمسلمين لا يجعلونه مادة للدراسة في كلياتهم وجامعاتهم فقط، ولكن يؤمنون به إيماناً راسخاً مع أنهم ـ أعني: أهل الغرب ـ قوم لا يسمحون لأحد إذا لم يكن من أتباع دينهم بأن يتدخل فيما يتعلق بدينهم وتاريخهم ولا في أتفه الأمور.

لقد نشر اليهود موسوعتهم (Jewish Encyclopedia) وما فيها مقال واحد (Article) كتبه أحد المسيحيين فضلاً عن أن يكتبه أحد من المسلمين، وقد قاموا بأنفسهم بترجمة التوراة، ويربأون عن أن يمسوا الترجمة المسيحية، على العكس من هذا فإن علمائهم يكتبون الكتب والمقالات عن الإسلام، ويتلقاها المسلمون بكل ترحيب»[٢].

٥ ـ إنشاء الموسوعات العلمية (دوائر المعارف الإسلامية):

يعتبر إصدار المستشرقين لـ«دائرة المعارف الإسلامية» ذروة اهتمامهم بالدراسات الإسلامية، نظراً لأن هذه الدائرة أكبر الدراسات الاستشراقية عن الإسلام، وفي نفس الوقت أعظمها خطورة عليه خلال القرن العشرين، بل هي تمثل خلاصة جهود المستشرقين في الدراسات الإسلامية خلال القرون الميلادية الثلاثة الأخيرة.

وذلك أن إصدار الدائرة لم يكن عملاً فردياً يشرف عليه بعض المستشرقين

---

(١) الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم: مصطفى السباعي، ص٣٤.

(٢) الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة: أبو الأعلى المودودي، ص٢٧١.

المنتمين إلى قطر واحد أو لغة واحدة، بل كان عملاً جماعياً دولياً عقدت له المؤتمرات، وتنادى من أجله المستشرقون من دول أوروبا كافة.

فقد طرحت فكرة إنشاء الدائرة في مؤتمر المستشرقين التاسع الذي عقد في لندن عام ١٨٩٢م، وتوالت دراسة هذه الفكرة في ثلاثة مؤتمرات متتالية انتهت بإقرار إنشائها، وإصدارها بثلاث لغات أوروبية.

وقد بدأ التأليف في دائرة المعارف الإسلامية عام ١٩٠٦م، بثلاث لغات هي: الإنجليزية والفرنسية والألمانية، وصدرت الطبعة الأولى عام ١٩١٣م، ثم صدرت الطبعة الثانية عام ١٩٥٤م بأجزاء متتابعة وصلت مع نهاية عام ١٩٩١م إلى ستة مجلدات.

وفي سنة ١٩٩٨م صدرت الترجمة «الكاملة» للطبعة الثانية من الدائرة بواسطة مركز الشارقة للإبداع الفكري وتقع في ثلاثة وثلاثين مجلداً.

وتعد دائرة المعارف الإسلامية من أخطر الجهود العلمية للمستشرقين نظراً لما تناولته من تعريف بالإسلام وحضارته عموماً، وبالعقيدة الإسلامية فيه على وجه الخصوص، دون أن يكون للمسلمين شأن يذكر في كتابة مادتها العلمية أو مراجعتها[١].

وكذلك أصدر المستشرقون بعض الموسوعات العامة؛ كالموسوعة الفرنسية، والموسوعة البريطانية[٢].

٦ ـ تأليف الكتب:

لقد تعددت مجالات التأليف في الدراسات العربية والإسلامية لدى المستشرقين، وبلغ عدد ما ألفوه عن الشرق في قرن ونصف من بداية القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين الميلادي ستين ألف كتاب[٣].

لقد كتبوا في موضوعات مختلفة في تاريخ العرب والمسلمين،

---

(١) انظر: مقدمة دائرة المعارف الإسلامية (١/ي ـ ك)، وأيضاً: مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية (الاستشراقية): د. خالد بن عبد الله القاسم (١/ ٥٣ ـ ٨١).

(٢) انظر: الاستشراق: للسباعي، ص٢٧ وما بعدها، وأجنحة المكر الثلاثة: لحبنكة، ص١٢٣ وما بعدها.

(٣) الاستشراق: إدوارد سعيد، ص٢١٦ وما بعدها.

ومجتمعاتهم، وحضارتهم، وفي علم الكلام، وفي الفلسفة والتصوف، وفي الشريعة، وفي تاريخ أدب اللغة العربية، وفي الدراسات المتعلقة بالقرآن الكريم، والسُّنَّة النبوية الشريفة المطهرة، وفي النحو وفقه اللغة العربية، ولم يتركوا مجالاً من مجالات العلوم العربية والإسلامية إلا وألفوا فيه.

ولهم مؤلفات تزخر بالطعن في الإسلام بصورة خفية ومتدرجة، وبطرق ووسائل مختلفة كتحريف نقل النصوص، أو بترها، أو تحريفها واستنباط معاني لها تختلف عن معناها الحقيقي. ومن أهم مظاهر التزييف والمغالطة لديهم إصدار التعميمات الفاسدة، حيث يأخذون الحوادث الفردية القليلة من حوادث التاريخ، ويتخذون منها قاعدة شاملة، يدينون بها كل الأفراد، ويعتبرونها قاعدة عامة وصورة لكل تاريخ المسلمين؛ وهذا من التضليلات المفتعلة التي يرفضها أي باحث علمي؛ فكيف بمن يدعون الأمانة العلمية، ويتظاهرون بالحرص عليها.

ومن المؤسف أن هذه الكتب المدسوسة المضللة تعد مرجعاً للمبشرين، ولكل الدارسين من المسلمين في الجامعات الغربية بطريقة جبرية تلزمهم الاستشهاد بهذه الكتب وما جاء فيها، كما أنها إلى جانب ذلك تعد المرجع الأهم لكل المفتونين بحضارة الغرب من المستغربين من أبناء الشعوب الإسلامية(١).

وفي الختام أشير هنا إلى أن بعض الأبحاث التي ألفها المستشرقون والتي يظهر للقارئ منها الثناء على الإسلام، والإشادة بتعاليمه، منها ما مقصده الحق الذي لا محيص عنه، ومنه ما هو محاولة لكسب ثقة المسلمين، واستمالة مشاعرهم وعواطفهم وكسبها لصالحهم. ومن هنا وجب الحذر في تناول مثل هذه الأبحاث، وإدراك مدى ما تتركه من أثر سلبي على الحضارة والأفكار الإسلامية(٢).

---

(١) نور الإسلام: لفاطمة نجا، ص١٦٦ ـ ١٦٧.
(٢) ماذا عن المستشرقين: بدر الهلالي، ص١٠٣.



الباب الأول

الكتابات الاستشراقية عن النبي ﷺ



الفصل الأول

تطور الكتابات الاستشراقية عن النبي ﷺ

المبحث الأول: النبي ﷺ في كتابات القرون الوسطى.

المطلب الأول: النبي ﷺ في كتابات الفكر المسيحي الشرقي (البيزنطي).

المطلب الثاني: النبي ﷺ في كتابات الفكر المسيحي الغربي.

المبحث الثاني: النبي ﷺ في كتابات العصر الحديث.

المبحث الثالث: النبي ﷺ في كتابات القرن العشرين.

تمهيد

عرف الفكر الأوروبي النبي ﷺ في وقت مبكر جداً تزامن مع الفتوحات الكبرى التي قوضت إمبراطورتي الفرس والروم، وبلغت في زمن قياسي جداً أقاصي الأرض شمالاً وشرقاً وغرباً، وقد أدهشت هذه الحركة التي حملت أنوار الرسالة الخاتمة ساسة أوروبا وكهنتها ومفكريها وشعوبها سواء بسواء، كما أثارت لديهم في الوقت نفسه شعوراً بالنقص أمام هذا المد الفتي المتجدد، صاحبه إعجاب خفي حيناً وشعور غامض بالخوف من زحفه الذي لا يقف في أحيان أخرى.

ثم ما لبثت هذه المشاعر أن تحولت إلى عداء قوي ضد الدين الجديد الذي يناقض دين المسيح ويكفر به ـ بحسب معتقداتهم ـ وعكفت الكنيسة ـ باعتبارها السلطة العليا في الدولة والمجتمع آنذاك ـ على تغذية هذا العداء وتكريسه، وصبت جام غضبها على رسول الله ﷺ، فنسجت له صوراً مغرقة في الفظاعة والبشاعة، وانتقصت من شخصيته وأخلاقه وسيرته حتى غدا رمزاً للشر في الأرض فهو شيطان وساحر وشهواني ودموي، وله قدرة خاصة على استدعاء قوى الشر، شعاره السيف والحرب، كما أنه كاذب ومدعٍ للنبوة، سرق نصوصاً من التوراة والإنجيل ثم عرضها على أتباعه بشكل مشوه، ورباهم على العنف، وصنع منهم رجالاً محاربين شرسين متوحشين يمارسون النهب والتنكيل، وينغمسون في أوحال اللذة ويطلقون العنان لغرائزهم للاستمتاع بمباهج الحياة بشكل عبثي وفوضوي، وما إليها من الصور المغرقة في الحقد والسوداوية.

وظلت هذه الصورة المثقلة بالإساءات والتضليل تتداولها الأجيال الأوروبية

وترسخها كتابات المؤلفين والشعراء، وينسج حولها الخيال الشعبي أكواماً من الخرافات والأساطير حتى أضحت صورة نمطية ومسلَّمة من المسلمات، وتغلغلت في الوعي الغربي تغلغلاً عميقاً حتى استقرت فيه كحقيقة واقعة دون سند أو موضوعية.

وعلى الرغم من الأحداث الكثيرة والتطورات الفكرية والعلمية التي شهدتها أوروبا والتي غيرت ملامحها تغييراً جذرياً إلا أن صورة نبي الإسلام ـ عليه الصلاة والسلام ـ ظلت في معظم جوانبها مشحونة بكل معاني الكراهية، وهو ما عبر عنه إدوارد سعيد بعبارة: إن الخمر العتيقة ما زالت تصب في الجرار الجديدة.

وقد عزز هذه النظرة كثير من الجهود الاستشراقية، بل أضفت عليها صبغة البحث العلمي والنقد الموضوعي النزيه، ولم يتخلص من تأثيرات هذه التركة السوداء سوى ثلة قليلة من المفكرين والفلاسفة الذين تحرروا من الفكر الكنسي ـ الموروث ـ فحاولوا إنصاف النبي عليه الصلاة والسلام، وامتدحوا فيه شخصيته المتميزة، وأخلاقه العالية، وجهوده في إنقاذ الناس من ظلمات الوثنية والجهل، لكن معظمهم أحجم عن الاعتراف بنبوته ﷺ، ولم يجرؤ على ذلك إلا رجال يعدون على رؤوس الأصابع[(١)].

هذه نظرة إجمالية حول الكتابات الاستشراقية الغربية عن النبي ﷺ، وفي هذا الباب سيتناول البحث ـ على سبيل التفصيل إن شاء الله ـ تطور هذه الكتابات الاستشراقية عن النبي ﷺ قديماً وحديثاً، كما نتعرف فيه على كتابات المدارس الاستشراقية عن النبي ﷺ وأهم كُتَّابها، ثم نعرض لنماذج من المستشرقين المسلمين وكذلك المتحاملين منهم والمتعاطفين مع الإسلام وأبرز كتاباتهم عن النبي ﷺ، ثم نصل في نهاية الباب لعرض أثر هذه الكتابات الاستشراقية عن النبي ﷺ على الكتابات الغربية والعربية على السواء.

---

(١) انظر: صورة النبي ﷺ في الفكر الأوروبي بين الإجحاف والإنصاف: أ. د. محمد زرمان، ص٢٥٥٥ ـ ٢٥٥٧.

المبحث الأول

النبي ﷺ في كتابات القرون الوسطى

فترة القرون أو العصور الوسطى في التاريخ الأوروبي تطلق على الفترة التاريخية الممتدة من نهاية الإمبراطورية الرومانية الغربية في القرن الخامس الميلادي وتحديداً سنة ٤٧٦م وحتى القرن الخامس عشر الميلادي حين بداية الكشوفات الجغرافية الأوروبية لأمريكا على يد كولمبوس[١] سنة ١٤٩٢م، وظهور حركة الإصلاح الديني البروتستانتي في تلك الفترة[٢]. حيث إن هذه الأحداث هي التي أدت إلى دخول أوروبا في مرحلة بداية الحداثة التي تلتها مرحلة الثورة الصناعية.

---

(١) كريستوفر كولمبوس (١٤٥١ ـ ١٥٠٦م): مكتشف أمريكا، ولد في جنوه بإيطاليا، رحل عبر البحار واكتشف مدناً عديدة، مات مغموراً. انظر: الموسوعة العربية، ص١٥١٢.

(٢) البروتستانت: ويسمون الإنجيليين، طائفة نصرانية، وهم أتباع مارتن لوثر الذي ظهر في أوائل القرن السادس عشر الميلادي في ألمانيا، وكان ينادي بإصلاح الكنيسة وتخليصها من الفساد الذي صار صبغة لها. وأهم ما يتميَّز به أتباع هذه الطائفة هو اعتقادهم: أن صكوك الغفران دجل وكذب وأن الخطايا والذنوب لا تغفر إلا بالندم والتوبة. أن لكل أحد الحق في فهم الإنجيل وقراءته وليس وقفاً على الكنيسة. تحريم الصور والتماثيل في الكنائس؛ لأنها مظهر من مظاهر الوثنية: منع الرهبنة. أن العشاء الرباني تذكار لما حلَّ بالمسيح من الصلب في زعمهم، وأنكروا أن يتحول الخبز والخمر إلى لحم ودم المسيح عليه السلام. ليس لكنائسهم رئيس عام يتبعون قوله. وهذه الطائفة تنتشر في ألمانيا وبريطانيا وكثير من بلاد أوروبا وأمريكا الشمالية. انظر: دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية: د. سعود الخلف، ص٣٧٦.

وقد ارتبطت صورة النبي محمد ﷺ في كتابات الفكر المسيحي خلال هذه الفترة بجملة من الأحداث التي حصلت في هذه المدة الزمنية وأهمها ظهور الإسلام باعتباره ديناً عالمياً، وسعي العالم الإسلامي الدائب إلى الانتشار ثم المحافظة على مكانته، ودرجة التقدم الحضاري الكبير التي أصبح عليها بعد استقراره، والإجراءات التي واجه بها العالم المسيحي شرقيه وغربيه هذه الحقائق.

ونظراً للفروق بين ظروف المواجهة التي تمت بين هذين العالمين في الشرق وفي الغرب خلال فترة القرون الوسطى الميلادية فسينقسم هذا المبحث إلى مطلبين:

الأول: النبي ﷺ في كتابات الفكر المسيحي الشرقي (البيزنطي).

الثاني: النبي ﷺ في كتابات الفكر المسيحي الغربي.

المطلب الأول

النبي ﷺ في كتابات الفكر المسيحي الشرقي (البيزنطي)

البيزنطيون هم الرومان الممثلون للقسم الشرقي من الإمبراطورية الرومانية، والتي كانت قد بدأت في التمايز والانقسام الإداري إلى قسم غربي مقره «روما»، وقسم شرقي مقره مدينة «بيزنطة» التي أعاد الملك قسطنطين الكبير بناءها وتسميتها باسم القسطنطينية في القرن الرابع الميلادي، وظلت محتفظة بذلك الاسم إلى أن فتحها الخليفة العثماني السلطان محمد الثاني (الفاتح) عام ١٥٤٣م.

وقد كان البيزنطيون هم أوائل الأوروبيين احتكاكاً بالإسلام، إذ يرجع ذلك إلى عصر النبوة، وتحديداً سنة ٩هـ/ ٦٢٩م حين قاد النبي ﷺ بنفسه المسلمين في غزوة تبوك والتي كان هدفها العمل على بسط سلطة الدولة الإسلامية الجديدة على هذا الإقليم. ثم أعقبها بمدة قصيرة انهيار كامل للإمبراطورية البيزنطية في الشام في عهد الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما ابتدأ بهزيمة الجيش البيزنطي في أجنادين سنة ١٣هـ/ ٦٣٤م، ثم افتتاح المسلمين لدمشق وحمص في السنة التالية، ثم تلا ذلك الاندثار الكامل لمجد الجيش البيزنطي برمته في معركة اليرموك سنة ١٥هـ/ ٦٣٦م والتي أعقبها فتح مدن الشام جميعاً، وكانت آخرها قيصرية في سنة ١٩هـ/ ٦٤٠م[١].

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد، فقد دخل المسلمون مصر في سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م، ثم برقة[٢] في ٢٢هـ/ ٦٤٣م، وامتد الفتح بعد مرحلة التوقف التي شهدها زمن

(١) تاريخ الطبري (٢/ ٣٣٥)، وتاريخ أوروبا في العصور الوسطى: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ص٩٦ ـ ٩٩.

(٢) برقة: هي الجزء الشرقي من ليبيا الحالية وقد أطلق الاسم للمرة الأولى عام ٦٤٤ ميلادية نسبة =

الفتنة إلى إفريقية بدءاً من سنة ٤٤هـ/ ٦٦٤ للميلاد، فإسبانيا في ٩٤هـ/ ٧١٣م[١].

وبهذا فإن العالم المسيحي في الشرق ـ والذي كانت تمثله طيلة القرون الوسطى الإمبراطورية البيزنطية ـ قد شهد قوة الإسلام التي ابتلعت القسم الأكبر من أراضيه، ومن البدهي أن كان لذلك وقع شديد على المسيحيين عموماً، فقد استولى المسلمون على موطن المسيح عليه السلام، وجميع المدن التي شهدت ميلاد العقائد التي يدينون بها.

وكان ذلك أشد على أبناء الشرق منهم، والذين فقدوا في صراعهم مع المسلمين أقاليم ظل الرومان ثم البيزنطيون يحكمونها منذ قرون.

وكما كان منتظراً فقد عملت الإمبراطورية البيزنطية على إدارة الصراع مع العالم الإسلامي، بهدف القضاء عليه واسترداد أراضيها أو جزء منها على الأقل، وهو الواقع على حدودها مع الخلافة، وذلك لأنها كانت أول متضرر من حركة الفتوح، والمسؤول عن حماية المسيحية في تلك البقعة.

وكانت نتيجة ذلك أن احتدم الصراع بين الجانبين، وقد كانت الغلبة في هذا الصراع طيلة المرحلة الأولى منه في جانب المسلمين، حيث حاصروا القسطنطينية نفسها مرات عديدة براً وبحراً ـ بعد إلحاقهم الهزيمة الأولى بالأسطول البيزنطي في موقعة ذات الصواري سنة ٤٨هـ/ ٦٦٨م ـ وأعادوا الكرة خمس مرات بعد ذلك بين سنوات ٥٣ ـ ٥٨هـ/ ٦٧٣ ـ ٦٧٨م.

وابتدأت بعد سنة ٥٨هـ/ ٦٧٨م، وهو تاريخ إعادة الخليفة عمر بن عبد العزيز للحملة الكبرى التي جهزها سلفه سليمان بن عبد الملك، مرحلة من توازن القوى، والتي من ملامحها إغارة الإمبراطور قسطنطين الخامس[٢] على الشام سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٥م، واسترداده لجزيرة قبرص في عام ١٢٨هـ/ ٧٤٦م[٣].

= لعاصمة الإقليم آنذاك باركا باللاتينية Barca. كما اعتمدت من قبل عدد من الحكام المسلمين لاحقاً باعتبارها ولاية أو محافظة، وظلت تلك التسمية شائعة حتى سبعينيات القرن العشرين. انظر: جغرافية ليبيا: عبد العزيز طريح شرف، ص٢٣٢ ـ ٢٣٣.

(١) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، ص٨٩ ـ ٩٩.

(٢) قسطنطين الخامس (كوبرونيموس) (٨١٧ ـ ٨٧٥م): إمبراطور بيزنطي، إداري محنك، كانت مناصرته شديدة لحركة تحطيم الصور والتماثيل المسيحية. انظر: الموسوعة العربية، ص١٣٨٠.

(٣) الحركة الصليبية: د. سعيد عاشور، ص٥٤.

وعلى كل حال، فإن أمر هذا الصراع لم يتجاوز منذ توقف حركة الفتوح الإسلامية الكبرى درجة المناوشات والمعارك الجزئية والغلبة المرحلية.

وقد نتج عما وصفناه من فتوح، استقرار المسلمين في أراض سكنها معهم مسيحيون، كما نتج عن وضعية الصراع العسكري بين المسلمين والبيزنطيين حالة من الاستنفار الدائم للقوتين.

وأما على الصعيد الفكري فقد نتج عن هذه المواجهة أمرين مهمين[1]:

الأول: قيام حركة جدل واسعة في ديار الإسلام تستجيب لحقيقة الحرية الدينية والفكرية التي شاعت عند المسلمين، والتي كانوا يهدفون منها إلى تحقيق الدعوة إلى الإسلام حسب المنهج الذي حدده القرآن الكريم، حيث وردت النصوص التي توصي بمجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن، إضافة إلى رد الشبه التي أوردها النصارى ـ وغيرهم ـ على المسلمين. أما بالنسبة لكبراء المسيحية فقد كان الهدف واضحاً، وهو حماية من بقي من النصارى على دينه من الالتحاق بركب العدد الكبير منهم ممن اختار التدين بالإسلام.

وقد أدار الجدل من جانب المسلمين أعداد كبيرة من العلماء ليس هذا مجال ذكر إسهاماتهم، ومثَّل المسيحية آنذاك القديس يوحنا الدمشقي[2] (٦٥٧ ـ ٧٤٩م) وتلميذه الأسقف ثيودور أبو قرة[3][4]. وبالنسبة ليوحنا، فإن الإسلام لم

---

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي: د. لخضر شايب، ص٣٨ ـ ٣٩.

(٢) يوحنا الدمشقي (٥٦ ـ ١٣٢هـ): نصراني عاش في ظل الدولة الأموية بدمشق، وترجم كتباً عديدة، وألَّف بعض الكتب مثل: «إرشاد النصارى في جدل المسلمين»، «ومحاورة مع مسلم» وقد تضمن الكتاب الثاني اتهام النبي ﷺ باختلاق الوحي لإشباع رغبات دنيوية. انظر: رؤية إسلامية للاستشراق: لأحمد غراب، ص٣٣، الاستشراق بين الموضوعية والانفعال: قاسم السامرائي، ص٥٥.

(٣) ثيودور أبو قرة (. . . ـ ٨٣٠م): هو أحد آباء الكنيسة الشرقية ومن أعلام اللاهوتيين المسيحيين العرب. ترهّب في دير القديس مار سابا (قرب القدس) وطالع كتابات القديس يوحنا الدمشقي وتخرّج فيها. ثم تحوّل إلى داعية متجوّل يدافع عن المسيحية وعن إكرام الصور المقدّسة مجادلاً النساطرة واليعاقبة ومحاوراً المسلمين. أقام مدة في بغداد وترجم كتباً في الفلسفة اليونانية منها كتاب «التحليلات الأولى» لأرسطو. انظر: الموسوعة العربية نقلاً عن: الأب أغناطيوس ديك، ميمر في وجود الخالق والدين القويم لثاودورس أبي قرة، رقم٣ من مجموعة «التراث العربي المسيحي»، ص١٣٣.

(٤) دراسات في المسيحية: د. إبراهيم الجيوشي، ص٢١.

يكن أكثر من تأليف يهودي مسيحي لرجل آريوسي[(١)] اسمه محمد، نجح في خداع قومه بعد ادعائه نزول الوحي عليه[(٢)].

الثاني: قيام حركة تأليف في القسطنطينية تهدف إلى إزالة الشكوك التي تعتور المسيحيين بعد هزيمتهم الشاملة أمام المسلمين، إضافة إلى وضع الأسانيد الدينية والثقافية لرد الفعل المسيحي ليكون زاداً له في صراعه مع عالم الإسلام.

وقد تبنى الفكر المسيحي البيزنطي في منهج التأليف والجدل الديني حول نبينا محمد ﷺ موقفين مهمين:

الأول: أنه لم يعد لدى الله تعالى ـ بحسب الاعتقاد المسيحي ـ كلمات أخر أو وحي آخر يضيفه بوساطة الأنبياء، فضلاً عن الوحي الخاتم، والرسالة الشاملة التي جاء بها محمد ﷺ نحو البشرية جمعاء[(٣)].

الثاني: استلهام ما كتبه يوحنا الدمشقي، صاحب أول تصنيف للإسلام في عداد الهرطقات[(٤)]، وممن صنف النبي ﷺ في عداد الأنبياء المزيفين، وواضع أسطورة تعلم النبي ﷺ من معلم مسيحي[(٥)].

بل يمكن القول بأن الفكر الديني المسيحي في الشرق ثم الغرب لاحقاً كان عالة على أسطورة يوحنا الدمشقي حول تعلم النبي ﷺ من الراهب المسيحي، والتي لم يزد المجادلون عليها سوى ما زادها وهناً وضعفاً، فقد اختلفوا في اسم

---

(١) نسبة إلى آريوس، وسيأتي التعريف به.

(٢) قراءة نقدية في السيرة النبوية: أصلان عبد السلام، ص١٠٨.

(٣) راجع: في دعوى المسيحية امتلاك الحقيقة الوحيدة والكاملة والنهائية من خلال المسيح الذي لم تعد بعده كلمات أخر لله يعلنها: أحدث كتاب عن العقيدة الرسمية الكنيسة الكاثوليكية بإشراف الباب يوحنا بولس الثاني.
Katechismus der Katholischen Kirche, S: 57-58, Leipzig-Schweis-Freiburg. 1993.

(٤) الهرطقات جمع هرطقة، وهي: بمعنى البدعة في الدين.. وهي من المصطلحات النصرانية، وربما قالوا هرتقة وصاحبها هرطوقي.. ويقال في جمعها: هراطقة وأراتقة. ويبنون من ذلك فعلاً فيقولون: هرطقي؛ أي: نسبه إلى هرطقة. انظر: تكملة المعاجم العربية: رينهارت بيتر آن دوزي، ترجمة: محمد سليم النعيمي (١١/ ١٢).

(٥) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي: د. سليمان الجار الله: د. عبد الراضي عبد المحسن، ص١٨، عن:
Kotter B., Johannes von Damaskus, in; Theologische Realenzklopuedie XVII (1988) S: 127-132 London-New York-Bonn.

الراهب فهو تارة بحيرا وتارة نسطوريوس، وتارة جيورجيوس وتارة نيكلاوس، وتارة يوحنا.

وكذلك اختلفوا حول مذهبه الديني، أهو آريوسي أم نسطوري[١] أم غير ذلك؟ وكذلك تباينوا حول دوره: هل قام بتعليم النبي ﷺ بطريقة الأسرار أم قام بتأليف القرآن بنفسه؟ أما الهدف من التعليم فقد تناقضوا فيه كذلك، فالراهب لدى بعضهم قام بعملية التعليم للثأر من الكنيسة التي حرمته رتبة عليا ترشح لها، ولدى فريق آخر قام بالتعليم بدافع من نفسه الشريرة التي استولى عليها الشيطان، وسخرها لخدمته بتكوين انشقاق جديد في المسيحية[٢].

ـ وفيما يلي نستعرض أبرز الكُتَّاب البيزنطيين ومؤلفاتهم حول النبي ﷺ في فترة القرون الوسطى، وذلك على النحو التالي:

[١] تيوفانس المهتدي Theophanes der Bekernner (؟ ـ ٨١٧م):

الذي كتب في حولياته فصلاً عن أصول الإسلام وأحداث السيرة قائلاً: «ولما كان محمد فقيراً ويتيماً فقد قرر أن يرتبط بامرأة غنية اسمها خديجة... وبعد أن سيطر عليها وأغراها تزوجها... وفي فلسطين اختلط مع اليهود والنصارى، وبوساطتهم حصل على بعض الكتابات، وأصيب أيضاً بالصرع. ولما علمت زوجته بأنها ـ وهي امرأة من الطبقة الغنية ـ قد ارتبطت برجل ليس فقيراً فقط، ولكنه أيضاً مصاب بالصرع هدأها بقوله: إني أرى ملكاً اسمه جبريل، ولما كنت لا أستطيع تحمل رؤيته فإني أصرع... ولما كانت عشيقة راهب يعيش في

(١) النسطورية: نسبة إلى نسطوريوس الذي ولد بسوريا (٣٨٠م ـ ت٤٥١م). وقد أصبح نسطور بطريكاً على القسطنطينية سنة ٤٢٨م، لمدة أربع سنين إلى أن أعلن مذهبه بأن مريم العذراء أم المسيح الإنسان وليست والدة الإله، ولذلك كان إثبات أحدهما الإنسان الذي هو مولود من مريم، وأن هذا الإنسان الذي يقول إنه المسيح بالمحبة متوحد مع ابن الإله، ويقال له: الإله وابن الإله، ليس على الحقيقة ولكن على المجاز. ولما قال نسطور مقالته تلك وأصر عليها انعقد لذلك مجمع أفسس سنة ٤٣١م وتقرر فيه: وضع مقدمة قانون الإيمان، وأن مريم العذراء والدة الله، وأن للمسيح طبيعتان لاهوتية وناسوتية في أقنوم واحد، وتقرر أيضاً خلع نسطور من الكنيسة ولعنه ونفيه إلى مصر. انظر: قصة الحضارة (٢/ ١٠٠، ١٠١)، مجموعة الشرع الكنسي، ص٢٨٨ ـ ٢٩٣، دائرة المعارف (٧/ ٢٦٩)، الملل والنحل (١/ ٢٢٤، ٢٢٥)، الفِصَل (١/ ١١١)، محاضرات في النصرانية، ص١٥٧ ـ ١٥٩.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٨.

الناحية، وكان هارباً لأنه كافر ـ أي: أنه لم يكن نصرانياً على مذهب الدولة البيزنطية ـ فقد قصت عليه القصة، ولما كان يريد إقناعها فقد قال لها: بأنها الحقيقة... فبلّغت هي النسوة، وانتشر بعد ذلك الخبر إلى الرجال. وفي الختام فإن بدعته حصلت بالحرب على منطقة يثرب؛ لأنه قضى أولاً عشر سنوات ينشر رسالته في السر، ثم بعد ذلك قضى عشر سنوات أخرى ينشرها بالحرب، حتى انتهى أخيراً إلى الدعوى العلنية وإلى الحكم تسع سنوات»(١).

أما بالنسبة للشريعة الإسلامية عند تيوفانس فتكمن في تعليم النبي ﷺ أصحابه: أن من قتل عدواً أو مات مقتولاً دخل الجنة، وصورها كمكان للمتع الحسية... وذكر أيضاً خرافات غير أخلاقية وغير معقولة(٢).

[٢] جورج هامارتولوس Georg Hamartolos (القرن التاسع الميلادي):

أعاد في كتابته التاريخية: جدلية سلفه تيوفانس، لكنه زاد عليها شدة السب واللعن لشخص النبي ﷺ وللإسلام بوصفه ديناً وللمسلمين عامة.

[٣] نيكتياس البيزنطي Niketas Von Byzanz: (أواخر القرن التاسع وأوائل العاشر الميلادي):

نيكيتاس هو فيلسوف الجدل البيزنطي ونموذجه المحتذي طوال تاريخه ضد الإسلام دون منازع، وقد كلف من جهة القيصر ميخائيل الثالث (٨٦٧م) بالرد على رسالة لأحد المسلمين ينتقد فيها التثليث النصراني، ثم كتب رداً آخر في رسالة ثانية، وقد شكل محتوى الردين مضمون كتابه المشهور المعروف بـ «تفنيد كتاب العربي محمد».

وجدلية نيكيتاس تدور حول محورين: محور الدفاع عن المسيحية وعقائدها، والثاني الهجوم على القرآن والنبي محمد ﷺ.

ويتركز هجوم نيكتياس على عدم مشروعية نبوة محمد ﷺ وعدم صحة

---

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٩ ـ ٤٠ عن:
Grunbaum, p24, Islam Medieval-VON.

(٢) المرجع السابق، ص٤٠، وانظر: دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره: د. عبد الرحمٰن بدوي، ترجمة: كمال جاد الله، ص٦.

الوحي الذي تلقاه، ويعتمد في نفي تلك المشروعية على بعض الآيات القرآنية التي يظنها مؤيدة زعمه، إلى جانب العامل النفسي الذي كان يحرك النبي ﷺ في دعوة النبوة وتلقي الوحي.

ثم ينتقل نيكتياس إلى تناول شخص النبي ﷺ فيصفه بأنه: جاهل، كاذب، نبي مزيف، مضل، ابن الشيطان، مبدد الحكمة الإلٰهية والإنسانية، وأنه لم يعتمد قط على العقل في إثبات مشروعيته، بل على العنف والقوة.

ويزعم نيكتياس أن محمداً ﷺ لم يرسل من الله تعالى، ولم يدع إلى التوحيد وإنما دعا إلى عبادة الأوثان، وقاد العرب إلى عبادة الشيطان، وساعد على نجاحه في ذلك أن العرب شعب غير متحضر غارق في الجهالة والبداوة.

وربما يكون هذا الطابع الخرافي والبذيء، لجدل نيكتياس هو الذي جعل كتاباته ذات النمط التقليدي للمؤلفات البيزنطية حول النبي ﷺ تعيش قروناً عدة في الغرب.

[٤] ايفوديوس العموري Evodios Von Amorian (القرن التاسع الميلادي):

كان أحد المسؤولين الرومان الذين قاوموا جنود الخليفة العباسي المعتصم في حملتهم على مدينة عمورية التي استنجدت فيها إحدى نسائها المسلمات بالمعتصم عندما تعرضت للإهانة.

فلما انتهت المعركة بنصر المسلمين تم أسر ايفوديوس مع عدد آخر من الجنود والمسؤولين، لضلوعهم في المشكلة ولفاعليته في مقاومة جيش الخليفة، فحملوا إلى دار الخلافة وسجنوا مدة سبع سنوات عوقبوا بعدها بالقتل في مدينة سامراء.

وفي أثناء سجنه كتب إيفوديوس ما يشبه التقرير عن حالة السجن، وضمنه عرضاً للمسيحية ولطبيعة المسيح الذي يؤمن به ويخلص له، ثم عرج على الإسلام ونبيه ﷺ، فأعاد ضمناً جدلية نيكتياس البيزنطي ضد النبي ﷺ، مكرراً اتهاماته الخرافية، وتصوراته الخيالية، وسبابه البذيء.

[٥] اتوميوس سيجابينوس Euthymois Zigabenos (القرن الحادي عشر - الثاني عشر الميلادي):

جمع سيجابينوس كتاباً عن «الهراطقة» خصص فيه فصلاً للجدل ضد

الإسلام. وقد كرر في هذا الفصل جدليات كل من يوحنا الدمشقي ونيكتياس البيزنطي، وهامارتولوس، فجمع بذلك بين أسطورة يوحنا الدمشقي، وهجوم نيكتياس الصارم، وبذاءة هامارتولوس.

ويبدو أن ذلك التلفيق كان بناءً على طلب القيصر أليكيوس الأول (١٠٨١ ـ ١١١٨م) الذي كلف سيجابينوس أن يجمع شعث الجدليات السابقة المتفرقة، ويهذبها ويقدمها في إطار واحد متناسق يكون أكثر فائدة وأيسر في التناول.

[٦] نيكتياس كونياتس Niketas Choniates (حوالي ١١٣٨ ـ ١٢١٤م):

قام مع آخرين بإخراج نسخة جديدة من كتاب الراهب اتوميوس سيجابينوس بعنوان: «نفائس الاعتقاد الأرثوذكسي»، وفي الفصل العشرين منه والمعنون بـ «ديانة أبناء هاجر» جمع كل الاتهامات الموجهة للإسلام الواردة لدى كل من يوحنا الدمشقي ونيكتياس البيزنطي.

وقد برز دور كونياتس في محاولته تفنيد استدلال المسلمين على نبوة محمد ﷺ بأنه الحجر الوارد في سفر (دانيال) والذي رآه الملك نبوخذ نصر في رؤياه يحطم التمثال الكبير للممالك العالمية ويقيم مملكة تعيش إلى قيام الساعة. فيزعم كونياتس أن تلك الرؤيا وذلك الحجر لا يدل إلا على أن أمة النصارى قد قارفت الخطايا والشرور مثل غيرها من الأمم، لذلك سينالها عقاب مثل ما نال الأمم الأخرى بسبب آثامها.

[٧] بارثولوميو الإديسي Barholomeios Von Rdessa : (القرن الثالث عشر الميلادي):

يعد كتاب الراهب الملكاني[1] بارثولوميو الإديسي المعنون بـ«الرد على أحد

---

(١) الملكانية أو الملكية؛ نسبة إلى المذهب الذي اعتنقه ملوك الرومان النصارى، وهو: أنّ للمسيح طبيعتين ومشيئتين في أقنوم واحد، وقد وهم الشهرستاني حينما زعم نسبة هذا المذهب إلى رجل اسمه: (ملكاً). وقد مرّ هذا المذهب بعدة مراحل، حيث بدأ إقراره في مجمع نيقية سنة ٣٢٥م، بتأييد الملك قسطنطين لمذهب تعدد الآلهة واعتبار المسيح ابناً وإلهاً ومستقلاً. ثم في مجمع القسطنطينية الأوّل سنة ٣٨١م، تحددت هوية الثالوث النصراني بالآب والابن في المسيح طبيعتين ـ خلافاً لليعقوبية ـ وحيث إن الذي دعا إلى هذا المجمع هو الملك (الإمبراطور) الروماني وتأييده لمذهب ازدواج الطبيعتين فقد أطلق عليه المذهب الملكي أو الملكاني. انظر: قصة الحضارة (١١/ ٣٩٦)، موجز تاريخ المسيحية، ص٣١٣ ـ ٣١٨، دائرة المعارف البريطانية (٢/ ٥٤٣، ٦٤٤، ٨/ ٢٤٩)، الملل والنحل: للشهرستاني (١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٤)، النصرانية: الطهطاوي، ص١٣٠ ـ ١٣٤.

أبناء هاجر» مثالاً قياسياً للجدل البذيء ضد النبي محمد ﷺ؛ فهو يبني جدلياته على السخرية والاستهزاء، ولا يراعي في ذلك أبسط الأسس العقلية والأخلاقية التي يجب العناية بها في التأليف.

إلا أنه يعد من جانب آخر أول مفكر جدلي غربي يفصل القول في معايير النبوة ـ حسب نظرته ـ والتي لا يجد أياً منها مؤيداً لنبوة محمد ﷺ، فمن تلك الأسس التي عرضها:

- عدم تنبؤه بحوادث مستقبلية تقع كما يخبر بها.
- تفاوت تعاليمه في القرآن بين الصواب والخطأ.
- نتيجة تحليل تعاليم القرآن عن الله وعن محمد ﷺ وعن المسيح عليه السلام تبين بوضوح أنه لا يمكن أن يكون وحياً.

ويخلص الإديسي من ذلك إلى أن محمداً ﷺ ـ وبحسب نتيجة تلك المعايير ـ نبي غير حقيقي.

ثم يضيف الإديسي بعداً جديداً للجدل البيزنطي ضد النبي ﷺ في مجال معايير النبوة، إذ يحشد أساطير وحكايات النساطرة عن حياة محمد ونشأته وسلوكه ليتخذ منها دليلاً على عدم صحة نبوته ﷺ، إلى جانب الدور الذي لعبه الراهب بحيرا ذي الأهمية البالغة لدى النساطرة في إدعاء محمد ﷺ النبوة.

كما يعقد الإديسي مقارنة موسعة بين النبي ﷺ وبين المسيح عليه السلام خلص منها إلى أن تشبيه محمد ﷺ بالمسيح عليه السلام يعد سباً للمسيح، وذلك لأن:

- المسيح مؤيد بالمعجزات منذ ولادته وحتى رحلته السماوية، تلك المعجزات التي تؤيد ألوهيته من خلال المعجزات فوق الطبيعية والعلامات الإلٰهية، في حين محمد بخلاف ذلك لا يملك دليلاً واحداً أو معجزة شاهدة على نبوته.
- المسيح جسد الحقيقة الإلٰهية، في حين محمد زيف تلك الحقيقة التي علمه إياها بحيرا الراهب، فاشتملت تعاليمه على الإضلال والأباطيل.

وعلى الرغم من سبق الإديسي مفكري بيزنطة إلى مسألة معايير النبوة إلا أنه سقط في فخ الخرافة والأساطير أسوة ببقية قومه.

[٨] القيصر يوحنا كانتا كوزينوس (Kaiser Johanes Kanatakuzenos) (١٣٥٥ ـ ١٣٨٨م):

للقيصر كانتا كوزينوس مؤلف جدلي ضخم من أكبر الجدليات البيزنطية ضد الإسلام خصص القسم الرابع منه للهجوم على النبي ﷺ.

بدأ كانتاكوزينوس برفض استدلال المسلمين على نبوة محمد ﷺ بفقرات من الكتاب المقدس لدى النصارى تضمنت بشارات الأنبياء بقدوم محمد ﷺ، ويرفض كذلك تقريع المسلمين للنصارى على تحريف الإنجيل خصوصاً الآيات الدالة على نبوة محمد ﷺ.

ثم يضيف كانتاكوزينوس إلى عدم مشروعية نبوة محمد ﷺ بزعمه أنه لم يؤيد بمعجزة تبرهن على صدقه، وإنما نشر تعاليمه بوساطة السيف والعنف، ويزعم كذلك أن محمداً ﷺ ما جاء إلا بكل ما هو خطير وسيئ وغير إنساني وغير حكيم، ولم يكن محمد سوى قاتل، كاذب، منافق، مضل، كتب كتاباً هو عمل شيطاني بمساعدة الهراطقة اليهود.

[٩] القيصر مانويل بالأيولوجس Manuel II. Palaeologos (١٤٠٧م):

ألف القيصر مانويل الثاني حفيد القيصر كانتاكوزينوس عدة مؤلفات جدلية ذات صياغة بلاغية جيدة، جاءت في ستة وعشرين حواراً مع خصوم مسلمين حول قضايا الإيمان في الديانتين الإسلامية والنصرانية، مثل: الملائكة، وخلق العالم، والأنبياء، والجنة والنار، والشفاعة... إلخ[1].

ـ ولعل أبرز الملحوظات التي تظهر في كتابات الفكر المسيحي البيزنطي عن النبي محمد ﷺ هي ما يلي:

أولاً: أن كتابات هؤلاء المفكرين قد احتوت على القليل النادر من الحقائق التي أعمل فيها بعد ذلك الوضع عمله، فأنتجت صورة في غاية التشويه والإساءة

---

(١) انظر فيما تقدم: محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٢١ ـ ٢٩، عن:

Patrologia Graeca, Hrsg. Von: J. P. Migne, Paris 1857.

Carl Guterbock, Der Islam im Lichte der Byzantinischen Polemik, S: 16-67 Berlin 1912.

A. Theodore Khoury, Der thoeologische Streit der Byzantiner mit dem Islm, S; 20-33.

A. Theodore Khoury, Polemique Byzantine contre Islam. Mumster (Westf.) 1966.

للإسلام ونبيه ﷺ اختلطت فيها الأكاذيب مع الأساطير والخيالات.

وهذا المنهج وإن خالف ما شاع عند المسلمين في ذلك الوقت من علمية في أبحاثهم حتى ولو كانت تتعلق بالديانات المخالفة، فإنه لم يكن غريباً على الكتابات التاريخية البيزنطية التي لم تكن تميز بين الحقيقة والوهم والخيال.

فعلى سبيل المثال نجد أن المؤرخين البيزنطيين قد أشاعوا صورة أسطورية عن قبائل (الهن) الذين غزوا إمبراطوريتهم في القرن الخامس الميلادي، حيث اعتبرهم بعض المؤرخين من ذرية الساحرات والأرواح. وانتشرت عنهم في القرون الوسطى هذه الصورة: «قبيلة من الأقزام الأشرار، الضعاف النفوس، والمجردين من الإنسانية، والذين لم يكن لهم لغة خاصة بهم، بل مجرد أصوات شبيهة بصوت البشر... وكان الفرد منهم عبارة عن كتلة من اللحم لا شكل لها وليس لها رأس، وبدلاً من العينين يوجد ثقبان صغيران»(١).

وإذا أضفنا إلى هذا الجهل البيزنطي بالشعوب العداوة الشديدة، بل الحقد الأعمى الذي كانوا يكنونه للمسلمين علمنا مقدار الأغراض الفاسدة والجاهلة في مثل الكتابات السابقة.

ثانياً: غياب المصدرية الإسلامية في هذه الكتابات البيزنطية غياباً تاماً، حيث إن من يطلع على هذه الكتابات يجزم أن هذه الصورة للنبي ﷺ والتي جاءت بها أفكار هؤلاء الكُتَّاب البيزنطيين لا تتفق ولو في أبسط جزئياتها مع الصورة الإسلامية والحقيقية التي جاءت بها المصادر الإسلامية، ومرد ذلك ولا شك غياب أو تغييب المصادر الإسلامية في هذه الكتابات رغم القرب الجغرافي لهؤلاء الكُتَّاب مع العالم الإسلامي قياساً بالكُتَّاب المسيحيين الغربيين.

ثالثاً: تعتبر هذه الكتابات البيزنطية أصولاً لكل ما أنتجه الغرب عن الإسلام في القرون الوسطى، وقد ظلت أصولاً للتهم الموجهة إلى شخصية النبي ﷺ في الكتابات الغربية الحاقدة على الإسلام حتى اليوم، وإن تغير أسلوب التعبير عنها في الكتابات والأبحاث المعاصرة(٢).

---

(١) سبع معارك فاصلة في التاريخ: جوزيف داهموس، ص٢٥.

(٢) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٤١ ـ ٤٢.

المطلب الثاني

النبي ﷺ في كتابات الفكر المسيحي الغربي

تعتبر إسبانيا أول دولة مسيحية تتولى مسؤولية إدارة الاحتكاك الديني والثقافي مع المسلمين نظراً لوجودهم بها.

وقد ابتدأ رد فعلها محتشماً في القرون الأولى للوجود الإسلامي هناك بدءاً من الفتح الإسلامي لها سنة ٩٤هـ/٧١٣م، ولكنه تطور بعد ذلك، حيث ظهر نظام الأخويات داخل الكنيسة الكاثوليكية[(١)] بمفهومه الحديث.

وقد تحولت هذه الأخويات الأولى إلى أديرة تابعة لسلطة مركزية واحدة، وكانت أول هذه الأخويات تطوراً أخوية البنيدكتيين Bededictains التي أنشأها منذ سنة ٥٤٧م القديس بنوا من نورسي Saint Benoit، وقد انتشرت هذه الأخوية في إسبانيا وفرنسا وأصبح رهبانها يتولون التأليف عن الإسلام منذ القرن العاشر الميلادي.

والملاحظ أن طابع الحقد الشديد الذي يظهر في مؤلفات هؤلاء الرهبان

(١) الكاثوليكية (نسبة إلى كاثوليك cathliqe)، وهي كلمة يونانية ومعناها العالمي أو العام. (وهو اصطلاح استخدمته الكنيسة في القرن الثاني الميلادي). ويرأسها البابا بالفاتيكان في روما. ويعتقد أتباعها أن الروح القدس منبثق عن الأب والابن معاً. وبالمساواة الكاملة بين الآب والابن، وإباحة الدم والمنخنقة واستخدام الفطير بدلاً من الخبز في العشاء الرباني، وتتميّز الكنيسة الكاثوليكية بعدة سمات بارزة، منها: «استعمال اللغة اللاتينية» و«البخور»، واتّخاذ الأيقونات والمصورات البارزة، والتقويم الخاص وغير ذلك. وينتشر أتباعها في معظم بلاد العالم لما لها من النفوذ والمال. انظر: قصة الحضارة (١١/٣٩٦)، موجز تاريخ المسيحية، ص٣١٣ ـ ٣١٨، دائرة المعارف البريطانية (٢/٥٤٣، ٦٤٤، ٨/٢٤٩)، الملل والنحل: للشهرستاني (١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٤)، النصرانية: الطهطاوي، ص١٣٠ ـ ١٣٤.

على الإسلام وأهله، وإن كان يعود في أساسه إلى غيظهم من الإسلام الدين الذي استولى أهله على أراضي مسيحية عديدة، إلا أن الغلبة الثقافية والحضارية للمسلمين الإسبان على عالم المسيحية قد زاد من حدة الشعور بالخوف على وجود المسيحية ذاتها في إسبانيا إذا ما استمر الوضع على ما هو عليه؛ أي: بقاء العربية لساناً مشتركاً للمسلمين واليهود والنصارى، وزوال الدراسات اللاتينية، وانتشار زواج المسلمين من المسيحيات[١].

أما في الجانب الديني الصرف، فقد عمل القساوسة والرهبان الإسبان والفرنسيون ـ وهي المواطن التي انتشر فيها البندكتيون ـ على نقل صورة في غاية البشاعة عن الإسلام ونبيه ﷺ رغم وجود الإمكانيات الحقيقية، خصوصاً بالنسبة للإسبان، لمعرفة أحسن بالمصادر الإسلامية، ولكن ضرورات تنمية الحقد المسيحي على المسلمين جعلهم يعكسون المنهج فيكتبون ما بدا لهم، مستغلين الجهل العام بين المسيحيين الذين لا يجيدون العربية أو غير المتصلين بالمسلمين.

وتعتبر الحروب الصليبية التي شنتها الكنيسة الكاثوليكية على المسلمين نقلة في العلاقات الإسلامية المسيحية، وبالتالي في الكتابات التي نشرها المتولون لأمر الدعاية الكنسية، وذلك لأن هذه الحروب تدل على:

١ ـ الانتقال التدريجي للقوة المواجهة للإسلام من الشرق إلى الغرب، وبقاء الأمر كذلك إلى اليوم رغم اختلاف الوسائل والمناهج.

٢ ـ التطورات الكبرى الحاصلة في سلوك الكنيسة الغربية في المجالين الديني والسياسي، وتأثير ذلك على جملة الأحداث التي شهدها العالم الغربي والإسلامي في مجالات متعددة، خصوصاً أثناء هذه المرحلة التي بلغت فيها الكاثوليكية أوج قوتها[٢].

ـ ويمكن الإشارة فيما يلي إلى أبرز الكتابات المسيحية (الغربية) عن النبي ﷺ في فترة القرون الوسطى، وذلك على النحو التالي:

---

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٤٣ عن:
histoire des religieux-henry-marc bonnet-p5.

(٢) المرجع السابق، ص٤٥.

[١] هوجو ايولوجيوس القرطبي Hugi Eulogius Von Cordoba (ت٨٥٩م).

[٢] بطرس ألفا روس Petrus Alvarus (ت٨٦٩م):

يعد هذان المؤلفان ممثلين لفكر واحد، وذلك لوجودهما في فترة زمنية متقاربة وكونهما تابعين لتيار ديني واحد، وحركة فكرية واحدة هي حركة (الشهداء) التي نشأت في قرطبة للحيلولة دون اتساع رقعة اهتداء نصارى إسبانيا المعجبين بالإسلام، وبحضارته، ولغته العربية، ولوقف تأثير الإسلام في الديانة النصرانية ذاتها في مجال الشعائر والطقوس وبعض المعتقدات، مما استلزم عملية إصلاح ذاتي للنصرانية الإسبانية عن طريق محاولة (ترويمها) بإحلال الشعائر الرومية الغربية محلها[١].

فكتابا ايولوجيوس التأريخيين، وكتاب ألفاروس الجدلي عن الإشارات النورانية، قد اشتركا فيما تضمناه من فصول عن النبي ﷺ في المسألتين التاليتين[٢]:

الأولى: ظهور النبي محمد ﷺ مقدمة لظهور المسيح الدجال.

الثانية: محمد ﷺ نبي مزيف مؤسس لهرطقة مسيحية أيام الإمبراطور هرقل، وقد اتصل بأحد المسيحيين في أثناء عمله لدى زوجته الثرية خديجة، وقد أوهمه ذلك المسيحي أنه ملهم من الله بوساطة الملك جبريل بدعوة ترفض الصور، وتبشر بإله غير مصور، وهي تدعو إلى القتال بالسلاح والعنف ضد المخالفين، كما أنها لا تخطِّئ معاشرة النساء الأجنبيات تلك الحالة التي طبقها محمد بنفسه مع زوجة ابنه بالتبني زيد، وقد ختمت حياته بأن نهشته الكلاب المفترسة.

ولا شك أن ظهور مثل هذه الدعاوى في إسبانيا كانت وراءها عوامل بعضها ديني وبعضها عنصري عرقي أهمها[٣]:

---

(١) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى: ريتشارد سوذرن، ترجمة: د. رضوان السيد، ص٥٩ ـ ٦٢.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٣١ ـ ٣٢ عن:

Hugo Eulogius Von Cordoba: Liber APologeticus Martyrum.

Kap: 15, 16, 24 (MPL 115).

Memotialis Sanctorum Libri Tres Kap: 24 (MPL 115)

Pctrus Alvarus, Indiculus Luminosus, Kap: 3, 24 (MPL 121).

(٣) المرجع السابق، ص٣١ ـ ٣٤، وصورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى: سوذرن، ص٥٩ ـ ٦٤.

١ ـ موجه الهوس والعصبية العرقية التي انتابت بعض الإسبان في الأندلس لدى رؤيتهم إخوانهم يقبلون على الحضارة الإسلامية، يتمثلون قيمها ونظمها، ويحاكون لغتها العربية، وبها يتحدثون، وبها ينظمون الأشعار، فأخذ أولئك المتعصبون يهاجمون إخوانهم المستعربين، ويثيرون الأحقاد ضدهم، وزادوا في الإنكار عليهم بان أخذوا يظهرون المزيد من العداء لحضارة الإسلام، ورمزها المتمثل في النبي محمد ﷺ، فراحوا يسبون النبي ﷺ علانية بدءاً من عام ٨٥٠م عندما أطلق الراهب بيرفكتوس Perfectus وابلاً من السباب والشتائم ضد النبي ﷺ زاعماً أنه:

دجال، شهواني، وأنه المسيح الدجال نفسه، فلما حكم عليه بالقتل لسبه النبي ﷺ، عده بول ألفاروس لذلك بطلاً شهيداً، مما أثار حركة هوس ديني ذات طابع عرقي تريد إظهار إخلاصها لعرقيتها وهويتها الغربية المسيحية بإطلاق السباب والشتائم ضد النبي ﷺ مما أوقعها ضحية للحماقة وخرق نظام الدولة الإسلامية فعوقبت بالقتل فيما سمي بحركة (الشهداء) الذين بلغ عددهم خمسين قتيلاً.

وقد تحمس بول الفاروس وايولوجيو لأولئك القتلى فوصفوهم بجند الله المدافعين عن العقيدة الصحيحة وسجلوا تاريخهم ورواياتهم، ولم تنته تلك الحركة إلا بعد إعدام القس ايولوجيو نفسه أسقف طليطلة بعد تهجمه على النبي ﷺ عام ٨٥٩م[١].

٢ ـ كتاب سيرة للنبي ﷺ مؤلف باللغة الإسبانية في أواخر القرن الثامن الميلادي، وهو كتاب رؤى يجعل من وفاة النبي ﷺ عام ٦٦٦ من التاريخ الإسباني، وهو ما فسره بول الفاروس وايولوجيو في ضوء رؤى الكتاب المقدس في سفر دانيال من العهد القديم، وسفر رؤيا يوحنا، ورسالة بولس الثانية إلى أهل تسالونيكي في العهد الجديد، بأن ظهور الإسلام هو علامة قدوم المسيح الدجال المنذر بحلول الساعة، والتي لن تقع إلا بعد ردة كبرى يأتي فيها أثيم ليقيم ملكاً في القدس مضلاً النصارى، وعلامته الثانية أنه وحش يخرج من الهاوية، ويحكم بيت المقدس، ويحكم العالم.

ومن ثم تصور الإسبان من خلال التفسير لكلٍّ من بول ألفاروس وأيولوجيو

(١) سيرة النبي محمد: كارين أرمسترونج، ترجمة: د. فاطمة نصر، ود. محمد عناني، ٣٢ ـ ٣٥.

المستند إلى هذه السيرة المختصرة للنبي ﷺ، أن النبي ﷺ دجال كاذب، ادعى النبوة ليخدع العالم، وأنه لا أخلاقي وداعية فسق، دعوته بدعة مسيحية تمجد العنف والحرب[(١)].

[٣] جيوبرت النوجنتي guibert von nogent (١٠٥٢ ـ ١١٢٤م):

كتب جيوبرت النوجنتي رئيس رهبان دير نوجنت سنة (١١٠٤م) تقريراً عن الحملة الصليبية الأولى ضمّنه فصلاً للحديث عن النبي محمد ﷺ، وفيه يظهر النبي ﷺ في قالب أسطوري فلكلوري[(٢)(٣)]:

فالنبي ﷺ يعاصر خلافاً في الإسكندرية حول خلافة البطريرك المتوفى؛ حيث ينادي فريق من شعبها بأحد الزهاد كي يكون بطريركاً جديداً، لكنه بسبب عدم سلامة اعتقاده المسيحي يرسب في الاختبار، فيضمر الحقد والرغبة في الانتقام من الكنيسة مثل آريوس[(٤)] تماماً.

فيقوم هذا الزاهد المهرطق بتعليم محمد ﷺ، ولكن نفوذه عليه لم يكن أقوى من نفوذ الشيطان الذي تسلط على محمد ﷺ واختاره أداة له منذ كان طفلاً صغيراً. ولكي يصعد نجم محمد ﷺ أقنع الزاهد امرأة ثرية بالزواج منه، ثم أقنعها أن محمداً ﷺ قد اختاره الله رسولاً له، لكن المرأة تشككت في ذلك

---

(١) صورة الإسلام في أوروبا في العصور الوسطى: سوذرن، ص٥٩ ـ ٦٣.

(٢) الفُلْكُلور هو التراث الشعبيّ؛ أو مجموع التقاليد الشَّعبيّة والعادات الخاصَّة بثقافة بلدٍ ما وحضارته. انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة: د. أحمد مختار عبد الحميد عمر (٣/ ١٧٥٥).

(٣) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٣٥، عن:

Guibert Von Nogent, Gista Dei Per Francos I. Kap, 4, S: 95-110, hrsg, von. R. B. C.Huygen Cchr. CM 127, Brepols 1996.

وانظر: دفاع عن محمد ﷺ: د. بدوي، ص٦.

(٤) آريوس: كان قسيساً بالإسكندرية عاش بين (٢٥٦ ـ ٣٣٦م) وكان يقول: إن الله واحد فرد غير مولود، لا يشاركه شيء في ذاته تعالى، وبأن المسيح مخلوق ومصنوع. فهو يدعو إلى التوحيد ونبوة المسيح عليه السلام، وله ثلاثة آثار تنسب إليه هي:

أ ـ بعض منثورات من كتابه «ثاليا».

ب ـ رسالتان: أحدهما إلى أوزيبيوس، والأخرى إلى أسقف الإسكندرية.

ج ـ العقيدة التي وجهها إلى الإمبراطور قسطنطين سنة ٣٣٠م. انظر: فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية: لويس عرديه وج. قنواتي، ترجمة: صبحي الصالح، ود. فريد جبر (٢/ ٢٨٦، ٢٨٧)، ومختصر علم اللاهوت: للحقير فرنسيس أيوب رئيس أساقفة حلب (٢/ ٣٥).

بسبب حالات الصرع التي كانت تنتابه، إلا أنه أقنعها بأن ذلك دليل وعلامة على التجلي الإلْهي على جسد محمد الذي يهتز ويتلوى لذلك.

وبذلك بدأ محمد ﷺ والزاهد السكندري بوضع التعاليم الجديدة التي من أهمها الاختلاط الجنسي والإباحية.

ولأجل تأكيد مشروعية تعاليمه الجديدة سعى إلى معجزة تؤكدها، فدعا الناس إلى صيام ثلاثة أيام يظهر البيان الإلْهي خلالها، ثم عمد إلى بقرة دربها على معرفة صوته ثم علق فيها كتاباً هو القرآن المتضمن تعاليمه، وعندما خرج إلى الناس وبدأ يتلو تعاليمه خرجت البقرة من مخبئها حاملة الكتاب كمعجزة أكدت لأتباعه صدق دعواه النبوة.

أما ختام حياته في نهاية الفصل فهي مأساوية كريهة التصوير، إذ يموت النبي المزيف مفترساً من الخنازير في أثناء إحدى نوبات صرعه، لكن أتباعه يعتقدون أنه صعد إلى السماء.

[٤] فالتر الكامبيجني **Walter Von Compiegne** (ت١١٥٥م):

نظم الراهب البندكيتي فالتر الكامبيجني رئيس رهبان دير سانت مارتن بفرنسا ابتداء من سنة ١١٣١م، (١٠٩٠) بيتاً من الشعر صور بها محمد ﷺ على النحو التالي[١]:

يعيش محمد ﷺ في إدوم[٢] ويعمل خادماً لدى أحد أعيان المدينة، لكن لأن له تطلعات أخرى بحث عن العمل لدى زاهد يعيش في صومعة، وقد عرف فيه الزاهد على الفور أنه أداة لقوة شيطانية سخرته لنقض التعاليم المسيحية الخاصة بالحياة الجنسية.

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٣٧، عن:

Walter von Compiegne, Otia de Mahomete, S: 287-328, hrsg. V. R.

B. C. Huygens, in:Sacris Erudiri VII,1 (1956).

وانظر شرح وتعليق:

Stohlmann J., Art:.Walter Von Compiegne: in: LMA VIII (1997), SP: 1996-1999.

(٢) أدوم: إقليم سكنه أبناء عيسو بن إسحاق عليه السلام، وأدوم تعني أحمر وهو لقب أطلق على أبيهم عيسو كما جاء في سفر التكوين (٢٥: ٢٥)، وهو إقليم يمتد مسافة مائة ميل بين البحر الميت وخليج العقبة. انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص٣٩.

وبعد وفاة سيدة (أحد أعيان المدينة) بيَّن لأرملته أنه الزوج المثالي لها فتزوجته، وفي ليلة الزواج انتابته حالة الصرع المعتادة، مما أحزن زوجته، لكنه شرح لها أن تلك الحالة ليست مرضاً، ولكنها بسبب نزول الملك جبريل عليه السلام بالوحي الإلٰهي عليه مما يجعل جسده يضطرب بسبب ذلك.

تذهب المرأة بعد ذلك إلى الزاهد الذي يحرضها على الشهادة لمحمد كذباً بتلقي الوحي الإلٰهي وإلا أفنى المسيحية فنزلت المرأة على نصيحته، ولما جمع الناس بالقرب من جبل معين أخفى خلفه ثوراً هائجاً علَّمه كيف يخرج عند سماع صوته، وعندما اجتمع الناس أخبرهم محمد بالوحي الإلٰهي الذي أنزل عليه وببعض التعاليم الدينية مثل حرية تعدد الأزواج وتعدد الزوجات، وفرض الختان، وإلغاء التعميد، ثم سأل الله علامة على تصديقه، ورفع بذلك صوته فخرج إليه الثور ولعق قدمه، فظهر الكتاب الذي علقه على قرون الثور من قبل ومكتوب فيه الشهادة لمحمد، وكذلك التعاليم التي تلاها أمام الناس فاقتنع الجميع بصدق الوحي المنزل عليه.

أما قبر محمد ﷺ ففي مكة!!، وهو على عكس ما يعتقد أهل إدوم ليس علامة على القوة الإلٰهية، بل علامة على تواصل الكذب والخداع المحمدي؛ لأن القبر معلق بوساطة المغناطيس لا غير.

وبالنسبة إلى مجمل تصور فالتر الكامبيجني، فإنه لا يختلف عن جدلية جيبوبرت النوجنتي سوى في تعيين اسم مدينة إدوم موطناً لمحمد ﷺ أما سائر مفردات الفكر الأسطوري فجاءت واحدة(١).

[٥] بطرس ألفونسي Petrus Alphonsi (ولد عام ١٠٧٢م):

هو الطبيب اليهودي الإسباني موسى سفاردي الذي تحول إلى المسيحية فتعمد في يوم بولس وبطرس عام ١١٠٦م على عهد الملك ألفونس الأول ملك أراجون (١١٣٤م) الذي كان سفاردي يعمل في قصره.

وقد حمل بعد تنصره اسم بطرس تيمناً باسم الرسول بطرس، واسم ألفونسي مداهنة للملك ألفونس الأول.

---

(١) Noith A., Art Muhammad: The Prophets image in Europe and the west, Pp. 380 in: the Encyclopaedia of Islam VII 377 - 381 (1993).

ويرجع اهتمام الطبيب بطرس ألفونسي بالإسلام ونبيه إلى تعرفه في أثناء إحدى البعثات الدبلوماسية التي كان يوفده فيها الملك ألفونس الأول إلى كتاب علمي في الفلك للعلامة الخوارزمي[(١)]، كما يرجح أن تكون معرفة بطرس ألفونسي باللغة العبرية والعربية واللاتينية سبباً في اهتماماته بالآخر المسلم العربي[(٢)].

وقد صاغ بطرس ألفونسي سيرة محمد ﷺ عام ١١١٠م في شكل حوار متخيل بينه وبين صديق صباه موسى الذي تساءل عن المبررات التي حملت ألفونسي على التحول للنصرانية وليس الإسلام، فجعل ألفونسي الفصل الخامس موضوعاً للحوار حول الإسلام ومؤسسه، فقدم محمداً ﷺ من خلال هذا الحوار على النحو الآتي[(٣)]:

نشأ يتيماً في حياة اقتصادية صعبة، لذلك تمنى أن يسود العرب، فجعل طريقه إلى ذلك إدعاء النبوة، فوضع نفسه في اتصال مع مهرطق نصراني على مذهب اليعقوبية[(٤)] كان يعمل شماساً[(٥)] في كنيسة أنطاكية، فقام هذا الشماس

---

(١) محمد بن موسى الخوارزمي (٠٠ ـ ٢٣٢هـ): رياضي فلكي مؤرخ، من أهل خوارزم، ينعت بالأستاذ. أقامه المأمون العباسي قيِّماً على خزانة كتبه، وعهد إليه بجمع الكتب اليونانية وترجمتها، وأمره باختصار «المجسطي» لبطليموس، فاختصره وسمّاه «السند هند»؛ أي: الدهر الداهر، فكان هذا الكتاب أساساً لعلم الفلك بعد الإسلام. وللخوارزمي كتاب «الجبر والمقابلة»، وصورة الأرض من المدن والجبال، وعمل الأسطرلاب. انظر: في دائرة المعارف الإسلامية (٩/ ١٨ ـ ٢٢)، والفهرست: لابن النديم، ص٢٧٥، وكشف الظنون، ص٧٩، والتنبيه والإشراف، ص١٥٧ و١٨٩، والأعلام (٧/ ١١٦).

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٣٩، عن:
Stohlmann J., Art, Petrus Alphosnsi SP. 1960. In LMA VI (1993) SP: 1960-1961.

(٣) المرجع السابق، ص٣٩ ـ ٤٠، عن:
Petrus Alphonsi, Dialogus Kap 5. Hrsg. Von: K. P. Mieth Berlin, 1982.

(٤) اليعقوبية: أتباع المذهب القائل بأنّ المسيح طبيعة واحدة ـ من طبيعتين لاهوتية وناسوتية ـ ومشيئة واحدة. وأوّل من قال به أوطاخي (أوتيكيس) في القرن الخامس الميلادي، وهو رئيس دير بالقرب من القسطنطينية. وقد اشتهر تسمية أتباع المذهب باليعقوبيين نسبة ليعقوب البرادعي الذي ظهر في القرن ٦م. وقد أخذت بهذا المذهب ثلاث كنائس من الكنائس الأرثوذكسية. انظر: قصة الحضارة (١٢/ ٩٦، ١٠٢، ١٠٣، ٢٣٣): ول ديورانت، دائرة المعارف البريطانية (٧/ ٥٩٧ ـ ٥٩٨)، قاموس أكسفورد للكنيسة النصرانية، ص٩٣١، ٩٣٢، ١٠١٤، خطط المقريزي (٢/ ٤٨٨)، النصيحة الإيمانية، ص١٢٧ ـ ١٣٠: نصر المتطبب، تخجيل من حرف الإنجيل (١/ ٤٧٦).

(٥) الشماس: خادم الكنيسة، وهي من الرتب الكنسية حاليّاً. انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص٥١٩ ـ ٥٢٠.

اليعقوبي بمساعدة اثنين من الهراطقة اليهود بتعليم محمد أصول دعوته الجديدة، وبسرعة قام محمد ﷺ بنشر هرطقته بالإرهاب وبقوة السلاح بين العرب، وكان يدفعه للاستمرار في ذلك حب الظهور والسيادة وكذلك الشهوانية المفرطة.

وقد فرض محمد على أتباعه بعض العبادات، مثل: الصوم، والصلاة، والامتناع عن تناول الخمور، وأكل الخنزير، وذلك لهدف اقتصادي هو توفير الأطعمة والشراب في أثناء الصيام والصلاة.

وكان قد فرض عليهم تقديس الحجر الأسود متابعة لعبّاد الأوثان العرب. وقبل وفاته أخبر محمد أعوانه أنه سيقوم من بين الأموات بعد ثلاثة أيام، لكن لم يتحقق له ذلك، فأراد علي بن أبي طالب إنقاذ تلك النبوءة فأولها بقيامته هو، وبذلك يختلف محمد عن المسيح الذي قام بعد ثلاثة أيام من بين الأموات.

وعلى الرغم من أن جهالة المكان والزمان قد غابت عن جدلية بطرس ألفونسي، إلا أن بقايا مفردات الفكر الجدلي قد أخذت بتلابيب جدلية ألفونسي الحوارية من عدة جوانب:

• فهو يحشر محمداً ﷺ في قوالب مسيحية خالصة، ويحاكمه على أساس من تلك القوالب فيجعل معلمه مسيحياً، ويخطئه على رفضه ألوهية المسيح وصلبه، ويصفه بأنه مهرطق ونبي مزيف خرج على العقيدة النصرانية في تأليه المسيح وصلبه.

• يقدم تفسيرات عجيبة للشعائر الإسلامية خصوصاً الصوم والصلاة، فيجعل الدافع إليهما اقتصادياً مع أن تاريخ الأديان لا يعرف كيفية مألوفة للصوم أو الصلاة على غرار ما جاء به الإسلام.

• اختلاق الأدلة والبراهين للإيهام بالواقعية والموضوعية، ويظهر ذلك جلياً عندما يعرض لمعايير النبوة التي على أساسها يحكم بعدم صحة نبوة محمد.

فهو يضع لذلك أربعة معايير، هي: السلوك الحياتي المستقيم، والمعجزات، وصدق الحديث، وتحقق النبوءات.

ولكي لا يجعل واحداً منها ينطبق على محمد ﷺ فإنه ينسب إليه العنف والشهوانية، ليخرجه من السلوك المستقيم ويرميه بالكذب، ليبعده عن دائرة الصدق في الحديث، وينفي تحقيق المعجزات على يديه؛ ليسلب منه دلالتها على

النبوة، ويختلق قصة تنبؤ محمد ﷺ بقيامته من بين الأموات بعد ثلاثة أيام، والتي لم تقع إخباراً أو فعلاً لمخالفتها عقيدة المسلمين القرآنية في أن الموتى لا يرجعون إلا يوم القيامة، ويكمل تلك الفرية بإدعاء أن علي بن أبي طالب هو المقصود بالنبوءة، وذلك كي يثبت ألفونسي أن نبوءات محمد ﷺ لم تتحقق.

ولكل ذلك لم يجد سوذرن في كتابه عن صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى بدأ من اتهامه بالتجني وتصنيف حواره بأنه جدلي هجومي رغم محاولته أنه يكون واقعياً(١).

[٦] بطرس الموقر Petrus Venerablis (ت١١٥٦م):

بطرس الموقر الراهب البندكتيني رئيس رهبان دير كلوني (١١١٢ ـ ١١٥٦م) أشهر رموز الفكر الديني الغربي، ليس في جانبه الجدلي فحسب، بل في الجانب الاستشراقي أيضاً، وكذلك في مجال التنصير، وأخيراً في الجانب اللاهوتي.

ويرجع ذلك إلى قدر الجهود التي بذلها والأعمال التي أنجزها في الدفاع عن المسيحية داخل أوروبا وخارجها، مثل(٢):

١ ـ وضع القواعد المنظمة للحياة الرهبانية البندكتية.

٢ ـ سعيه الحثيث لتأسيس فروع لدير كلوني البندكتيني في سائر أوروبا والذي لأجله قطع المسافات الشاسعة إلى شمال أوروبا وجنوبها وشرقها وغربها.

٣ ـ رحلته الشهيرة إلى إسبانيا لجمع المعلومات عن محمد ﷺ ولاستقدام المترجمين الذين يتقنون اللغة العربية؛ لأنه كان لا يحسن العربية.

٤ ـ نشر الكتب الجدلية المترجمة ضد الإسلام ونبيه.

٥ ـ الإشراف على ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية لتكون أول لغة أوروبية يمكن أن تقرأ فيها معاني القرآن الكريم عام ١١٤٣م.

---

(١) صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى، ص٧٨.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٤١ ـ ٤٢، عن:

Bulst N., Petrus Venerabilis, in: LMA VI (1993) sp. 1985-1987.

Kritzeck J., Peter the Venerable and Islam Pp. 10-12, Princeton Oriental Studies 23, Princeton 1964.

Southern, western Views of Islam, PP. 37-40.

٦ ـ تأليف الكتابات الجدلية ضد الإسلام ونبيه، وهي:

- خطابه إلى صديقه برنارد الكلايرفاوكسي.
- ضد طائفة السرازنة[(١)].
- خلاصة هرطقة السرازنة.

لأجل ذلك كله تبوأ بطرس الموقر موقعاً رائداً في تاريخ الفكر الديني الغربي عموماً، وفي تاريخ الدراسات العربية والإسلامية بالغرب خصوصاً، فيعده المؤرخون حداً فاصلاً وخطاً فارقاً بين تصورات الفكر الغربي المغرقة في الجهالة والخيال، وبين بداية المعرفة المعقولة عن الإسلام ونبيه.

لكننا نستطيع من جانبنا توضيح الأبعاد الحقيقية للقيمة الكبرى التي يمثلها الموقر لتاريخ الفكر الغربي حول الإسلام ونبيه، بالتأكيد على أن قيمته الحقيقية تتمثل في تلبيس فكر الخيال والأسطورة ثياب الواقعية والمعقولية، من خلال عمله الأساس في الإشراف على إنجاز ترجمة معاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، وفي نشر مجموعة المؤلفات الجدلية المسماة بمجموعة «دير كلوني» أو مجموعة «توليدو» نسبة إلى البلدة الإسبانية التي أنجزت فيها المؤلفات أو التي كان يعيش فيها المترجمون والمؤلفون.

فبعد أن كان القرآن الكريم كتاب محمد ﷺ ووحي الله النازل إليه من السماء الذي يسبه الغرب طوال خمسة قرون من الزمان دون معرفة محتواه أصبح الآن بالإمكان الإطلاع على معانيه وافتعال أو تأويل ما يؤيد دعاوي الغرب وطروحاته الجدلية ضد القرآن ونبيه من خلال آيات القرآن الكريم ذاته، وبذلك يستطيع مجادلو الغرب انتحال الموضوعية والواقعية، وذلك أوقع في تصديق جدلياتهم بين بني جلدتهم من جانب، ولدى المستهدفين بالتنصير بين المسلمين من جانب آخر.

وبعد أن كان مجادلو الغرب يلتمسون مصادر معرفية إسلامية، أو مصادر جدلية شرقية تثري جدلياتهم ضد الإسلام ونبيه، وتمدهم بالشواهد والبراهين

---

(١) السرازنة أو السراسنة: عرف اليونان واللاتين والأوروبيون في العصر الحديث، العرب باسم «السراسنة» أو«ساراسين»، وأطلقوه على قبائل عربية كانت تقيم في بادية الشام وسيناء وفي الصحراء المتصلة بأدوم (منطقة بين خليج العقبة والبحر الميت بالأردن). انظر: تاريخ العرب الاقتصادي قبل الاسلام: علي معطي، ص٢٦ ـ ٢٧. وذكر المسعودي أن الروم البيزنطيون أسموا العرب «ساراقينوس» بمعنى «عبيد سارة»، ضغناً منهم على هاجر وابنها إسماعيل بفعل أنها كانت أَمَة لسارة، على الرغم من إنكار الإمبراطور البيزنطي نقفور ذلك. انظر: التنبيه والإشراف: للمسعودي، ص٢٤٣.

والأدلة المستندة إلى معرفة واقعية بأصول الإسلامي وحقائقه وتكون مناسبة في الوقت ذاته للجدل ضد المسلمين، وفرت لهم مجموعة دير كلوني الجدلية مادة خصبة بلغة غربية وأقلام مشرقية عن تاريخ حياة النبي ﷺ وأصول ديانته العقدية، وكذلك عن طرائق الجدل في الشرق.

فقد اشتملت مجموعة دير كلوني الجدلية المترجمة من العربية إلى اللاتينية والمشتملة على الكتابات الآتية(١):

١ ـ كتاب أنساب رسول الله لكعب الأحبار(٢).

٢ ـ مسائل عبد الله بن سلام (تساؤلات حول العقيدة الإسلامية) ترجمة الدلماطي(٣).

٣ ـ ترجمة الدلماطي لمعاني القرآن الكريم.

٤ ـ رسالة عبد المسيح الكندي(٤) في الرد على الهاشمي(٥)، ترجمها بطرس التوليدو.

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٤٣ عن:
Hagemann L., Der Kuran in Verstandnis und Kritik bei Nikolaus von Kues, Ein Beitrag Zur Erhelling islamisch-christlicher Geschichte, S: 15-50 (Frankfurter Theolo-gische studien 21) Frankfurt 1976.
kritzeck j., peter the venerable and islam, pp.84-96,115.

(٢) كعب الأحبار (٠٠ ـ ٣٢هـ): بن ماتع، يكنى أبا إسحاق، وهو من حمير من آل ذي رعين، كان يهوديّاً فأسلم وقدم المدينة ثم خرج إلى الشام فسكن حمص، روى عن عمر بن الخطاب وصهيب وعائشة ﵃، توفي في خلافة عثمان ﵁ سنة ٣٢هـ. انظر: طبقات ابن سعد (٧/ ٤٤٥)، صفة الصفوة (٤/ ٢٠٣).

(٣) هرمان الدلماطي Hermann Almanus (٠٠ ـ ١١٧٢م): إسباني، شارك في ترجمة القرآن إلى اللاتينية، وتقلب في مناصب كنسية عدة رفيعة المستوى، حيث عُيِّن رئيساً لشماسة سربا بيلونا، ثم راعياً لكنيسة شيني ١١٤٣م، ثم أسقفاً على أستورجه من أنشطته العلمية: نقل إصلاح المجسطي للمجريطي، وعلم الأخلاق، وبعض الرسائل في الكيمياء، وصنف كتاب البلاغة والشعر لأرسطو مستفيداً من شرح الفارابي وتلخيص ابن رشد للشعر. انظر: المستشرقون (١/ ١١٣ ـ ١١٤)، معجم أسماء المستشرقين، ص١٠٨٠.

(٤) عبد المسيح بن إسحاق الكندي (القرن التاسع ميلادي): كاتب عربي نصراني ينتسب إلى قبيلة كندة العربية، له عدة مؤلفات تنصيرية، كما له الرسالة المجيدية إلى عبد الله بن إسماعيل الهاشمي يدعوه فيها إلى المسيحية، وهي رد على رسالة عبد الله الهاشمي التي دعاه فيها إلى الإسلام. تم ترجمة أعماله إلى اللاتينية ثم إلى الإنكليزية وغيرها من اللغات الأوروبية. انظر: معجم المؤلفين (٦/ ١٧٤)، وكتاب «الجواب الفسيح، لما لفقه عبد المسيح»: لأبي الثناء الآلوسي في الرد على الكندي.

(٥) عبد الله بن إسماعيل الهاشمي عاش في زمن الخليفة العباسي المأمون: لم أقف على ترجمته لكن =

وقد مثلت هذه الرسالة الأخيرة رافداً أساسياً من روافد الفكر الجدلي الغربي، وأصبحت إلى جانب ذلك قاعدة للفكر التنصيري بين المسلمين، ومادة جاهزة للبراهين العقلية والاتهامات الجدلية ضد نبي الإسلام.

وتتمحور هذه الرسالة حول كون النبي ﷺ:

«رجل نشأ يتيماً وفقيراً ووثنياً يعبد الأوثان بين الوثنيين، فلما قوته زوجته بمالها نازعته نفسه إلى شرف الملك والرياسة في عشيرته وأهل بلده، فادعى النبوة والرسالة بين قوم بدو لم يفهموا شروط الرسالة ولا علاماتها لعدم بعث نبي فيهم من قبل.

وقد استماله نصراني نسطوري اسمه سرجيوس مطرود من الكنيسة ويريد التقرب إليها بنشر المذهب النسطوري، فتلطف إلى محمد ﷺ وأكثر مجالسته وتعليمه حتى أبعده عن عبادة الأصنام وصيره داعياً للمذهب النسطوري. ولما توفي سرجيوس قام مقامه عبد الله بن سلام وكعب الأحبار اليهوديان اللذان أدخلا في كتابه بعد وفاته أخبار التوراة وبعض أحكامها إلى جانب تعاليم النصرانية الغالبة على الكتاب.

وبخلاف ذلك لم يستطع محمد ﷺ أن يظهر شيئاً من علامات النبوة أو شروطها مثل الإعلام بالجديد الذي لم تسبقه إليه الأنبياء، أو الإنباء بالأمور المستقبلية التي تقع كما أخبر، أو وقوع الآيات والأعاجيب والخوارق على يديه.

فلم ينطق كتابه بشيء من ذلك، لهذا يكون ما نسبه إليه أصحابه من معجزاته مثل: بكاء الذئب بين يديه، وتكليم الشاة له، وفيضان الماء من بين أصابعه، يكون نوعاً من الأباطيل والأكاذيب، وليست من علامات النبوة لأن النبوة قد أخبر المسيح في الإنجيل بختامها ونهايتها.

= جاء في مقدمة رسالته إلى الكندي ـ على الشبكة العنكبوتية ـ: «ذُكر أنه كان في زمن عبد الله المأمون رجلٌ من نبلاء الهاشميين وأظنه من ولد العباس، قريب القرابة من الخليفة، معروفٌ بالنسك والورع والتمسّك بدين الإسلام وشدَّة الإغراق فيه والقيام بفرائضه وسننه، مشهور بذلك عند الخاصَّة والعامَّة. وكان له صديق من الفضلاء ذو أدب وعلم، كِنْدي الأصل مشهور بالتمسّك بدين النصرانية، وكان في خدمة الخليفة وقريباً منه مكاناً. فكانا يتوادّان ويتحابّان ويثق كلٌّ منهما بصاحبه وبالإخلاص له. وكان أمير المؤمنين «المأمون» وجماعة أصحابه والمتصلون به قد عرفوهما بذلك، وهما عبد الله بن إسماعيل الهاشمي، وعبد المسيح بن إسحاق الكِنْدي، فكتب الهاشمي إلى الكِنْدي هذه نسخته. . .»، ثم جاء نص رسالة الهاشمي إلى الكندي يدعوه فيها إلى الإسلام.

وقد بنى بطرس الموقر نفسه تصوراته عن محمد ﷺ من خلال هذه الرسالة للكندي لا عن طريق نصوص القرآن الكريم الذي أشرف هو على ترجمته، كما يظهر ذلك بوضوح من خلاصة فكر الموقر التي تضمنتها كتاباته الجدلية، والتي تصور النبي ﷺ بأنه[(١)]:

عربي من طبقة اجتماعية متدنية، وكان عابداً للأصنام مثل كل العرب أيام القيصر هرقل (٦١٠ ـ ٦٤١م) والبابا جريجور الأول (٥٦٠ ـ ٦٠٤م) ومع أنه لم يكن متعلماً إلا أنه أصبح غنياً مستغلاً ذكاءه في تحقيق طموحه نحو الثراء والسيادة في العرب، فادعى ـ لذلك ـ النبوة وأنه مرسل إليه مستعيناً في ذلك بمساعدة راهب نسطوري يدعي سرجيوس، كانت الكنيسة قد طردته ففر إلى بلاد العرب، فألف محمد القرآن بإشرافه وتوجيهه، لكنه أعلن على الملأ أن الملك جبريل هو الذي نزل عليه بالقرآن من السماء. ولأن العرب لم يسمعوا عن النبوة من قبل، فإنهم صدقوا دعوى محمد ﷺ النبوة وجعلوا منه بطلاً.

ولأنه لم يكن نبياً حقيقياً أو خاتماً للأنبياء فإنه لم يخبر قط بأشياء تقع في المستقبل كما أخبر بها على سبيل التصديق لدعواه، كما أنه في إحدى المعارك قد هُزم وأصيب فيها، وذلك لا يتصور الوقوع لمن يدعي النبوة؛ لأنه كان يستطيع الرؤية المستقبلية فيتجنب المعركة، وعلاوة على ذلك فإن القرآن الكريم كتاب محمد لم يذكر له معجزة واحدة تؤيد صدق دعواه النبوة.

وبذلك يكون تصور بطرس الموقر لنبوة محمد ﷺ وشخصه ومسيرة حياته قد خضع كذلك للتصور المسيحي الشرقي المتمثل في يوحنا الدمشقي، وعبد المسيح الكندي.

والسبب في ذلك أن هذه الأفكار قد عبرت عن مكنونات النفس الغربية في تلك الفترة، ومس هواها، ووافق ميولها، فكان أشبه بحديث النفس حين تشف عن بواطنها.

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٤٥، عن:

Petrus Venerabilis, Summa lotius haeresis sara cenoum, S: 2-14 inL: Schriften zum Islam, hrsg. Von R. Cisc.L 1, Altenberge 1985.

Petrus Venerabillis, contra Sectam Saracenorum; Prologus kap, II Kap, in:Schriften zum Islam, rhsg, von R, Glei, CISCL 1, Altenberge 1985.

وذلك لا يفسر فقط عدول بطرس الموقر عن المعرفة الموضوعية بمحمد ﷺ استناداً إلى منطوق النصوص القرآنية، بل ويفسر كذلك عمليات التشويه والتحريف المنظم التي لحقت بالترجمة اللاتينية للقرآن الكريم التي أشرف عليها، والتي توخت إبعاد أي خاطرة عن حقيقة الوحي القرآني وصحة نبوة محمد ﷺ بدءاً بتحاشي الترجمة لاستخدام المفردات التي تحيل إلى معاني الإسلام والتسليم والمسلمين وإحلال مفردات تحيل إلى معاني الإسماعيلية السرازنة والمحمدين محلها، وانتهاء باستبعاد الألفاظ اللاتينية المعبرة عن التنزيل الإلٰهي لكلمة الله من السماء[١].

[٧] وليم الطرابلسي William Von Tripolis (القرن الثالث عشر الميلادي):

الراهب الدومينيكاني[٢] والمنصر المشهور الذي عاش في مملكة أورشليم الصليبية في القرن الثالث عشر الميلادي في أثناء الحروب الصليبية، وقد عرض لمحمد ﷺ في كتابين باللاتينية صنع لنفسه بهما مكاناً استثنائياً في تاريخ التنصير، ومارس من خلالهما تأثيراً واسعاً على الكتابات التنصيرية حتى اليوم.

في الكتاب الأول المعنون بـ: «الأمة المحمدية» يطرح حول النبي ﷺ ثلاثة أسئلة[٣]:

١ ـ مَن كان محمد ﷺ؟ ومن أين جاءت عقيدته الضالة؟

٢ ـ ما طريقة محمد في إنشاء القرآن؟ ومن الذي قام بتأليفه؟

٣ ـ ما التعاليم التي اشتمل عليها القرآن؟ وما العناصر التي أخذها من المسيحية؟

وهو يجيب عنها ـ كما صرح في مقدمة الكتاب ـ تلبية لحاجة البابا جريجور

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٤٦، عن:

L, Hagenann, Die erste lateinische Koranuebersetzung, S; 45-58 (Miscellanea mediaevaila, B, d, 17) Berlin, New York, 1985.

(٢) نسبة للقديس دومينيك (١١٧٠ ـ ١٢٢١م) وهو رجل دين إسباني، أسس جماعة الدومينيكان. انظر: الموسوعة العربية الميسرة: دومينيك. القديس.

(٣) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٤٧، عن:

William von tripolis, Notitia de Machometo, Kommentiete lateinisch-detsche Tex-tausgabe von: P. Engles (Corpus Islamo-Christianum, Series Latina, Vol. 4) Wurzburg-Altenberge, 1992.

العاشر إلى معرفة تاريخ المسلمين وديانتهم، وكذلك تلبية لحاجة علماء اللاهوت والقانون إلى ما يعينهم على مواجهة التعاليم المرعبة للإسلام ومواجهة السرازنة الذين اختطف الشيطان أرواحهم، لعل ذلك يكون خطوة في طريق جذب السرازنة إلى درب المسيح خصوصاً في ضوء قرب نهاية الإسلام الذي لا ينتظر منه الاستمرار والدوام وقتاً أكثر من ذلك.

لهذا يعالج الطرابلسي حياة محمد ﷺ ونبوته، في إطار جدلي قاس، معالجة حياة قائد، وزعيم شعبي، ونبي كاذب، في معزل تام عن حياة النبوة وتاريخ الأنبياء.

أما الكتاب الثاني المعنون بـ: «حول أحوال السرازنة ومحمد نبيهم الكاذب وحول الشعب نفسه وقوانينه»، والمعروف اختصاراً باللاتينية بـ: «أحوال السرازنة» فهو محاولة جدلية لإثبات تبعية محمد ﷺ الكاملة للنصرانية، ويسلك في تلك المحاولة الطريق الذي سلكه في الكتاب الأول، بالإجابة عن ثلاثة تساؤلات افتراضية(١):

١ ـ من هو محمد القائد والمرشد والنبي المزيف للسرازنة؟ وكيف صعد إلى مكانته المرموقة بينهم؟

٢ ـ ما أسباب قوة هذا الشعب؟ وكيف اتسع نطاق نفوذه؟

٣ ـ ما العناصر النصرانية التي اشتمل عليها القرآن؟

[٨] رايموندوس مارتي (Ramundus Marti) (١٢٢٠ ـ ١٢٨٤م):

الراهب والمنصر الدمينيكاني الإسباني الحالم بالقضاء على الإسلام وتحول المسلمين إلى النصرانية، والذي أجهد نفسه في تعلم العربية وسافر إلى تونس لأجل تحقيق حلمه.

وقد ألف عدة كتب جدلية ضد الإسلام ونبيه من أجل مساعدة الرهبان والمنصرين على تنصير المسلمين، أهمها: كتاب «سيف الإيمان ضد المسلمين

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٤٨، عن:

William von Tripolis, De Statu Sarracenorum, Kommentierte Lateinische deumtsche Textausgabe von: P. Engles (Corpus Islamo-Christianum, Series Latina, Vol 4) Wurzburg-Altenberge, 1992.

وانظر: دفاع عن محمد ﷺ: د. بدوي، ص٩.

واليهود» الذي انتهى من تأليفه عام ١٢٧٨م، وكتاب «الفرقة المحمدية وأصل محمد وتطور غايته والأدلة على فساد نبوته وزيفها».

وفي هذا الكتاب الثاني الذي يحتمل أن يكون عدة رسائل ألفت متفرقة ثم جمعت، أو يكون قد نشر بعناوين مختلفة، صور رايموندوس مارتي شخص النبي ﷺ تصويراً خيالياً مغرضاً استهدف إخراج النبي ﷺ من عباءة النصرانية بوصفه شخصاً صاحب هرطقة مسيحية، ثم حاول البرهنة على عدم صحة نبوة محمد ﷺ بطريقة انتقائية تأويلية عمد فيها إلى المقارنة بين نشأة محمد ﷺ بين الوثنيين العرب، وبين نشأة عيسى عليه السلام بين أهل الكتاب، ليستدل بتلك الموازنة على عدم صحة دعوى نبوة محمد ﷺ، وعلى أنه نبي كاذب؛ كما يدعي أن محمداً ﷺ لم يأت بمعجزة قط، وبذلك يفتقد أي أهلية للنبوة.

كذلك يجعل من الشريعة الإسلامية دليلاً على عدم صحة نبوته ﷺ لكونها شريعة شهوانية عدوانية مخالفة للفطرة الإنسانية، على نقيض من شريعة اليهود والنصارى المضمنة في التوراة والإنجيل(١).

[٩] توماس الإكويني HL, Thoma von Aquin (١٢٢٦ ـ ١٢٧٤م):

رأى في الإسلام ديناً زائفاً وهرطقة، وأنه يحتوي على الشهوانية، ويمزج الحقيقة بالأساطير والعقائد الباطلة، وأن نبوة محمد ﷺ لم تؤيد بالمعجزات، وأن أصحابه لم يكونوا على معرفة بالأمور الإلهية، بل كانوا من الهمج المتوحشين والبدو ساكني الصحراء، وأن محمداً ﷺ خلال الكثرة العددية لأتباعه استطاع أن يفرض الإسلام على الناس بالقوة الحربية(٢).

وقد استطاع محمد ﷺ ـ فيما يزعم الإكويني ـ إغواء كثير من الشعوب في الدخول في عقيدته من خلال تشجيعه إياها على الحصول على الملذات الحسية والشهوات الجنسية في الحقيقة أو بالوعود.

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٤٩، عن:
Ramon Marti, De Seta Machometi De origine, Progressu of fine machometi et quadruplici reprobatine prophetiae eius, Introduction, transcropcion y notas: Hermando Josep en: Acta Historica et archaeological mediavalia, 4 (1983), 9-63.

(٢) المرجع السابق، ص٤٩، عن:
Montgomery watt, The influence of Islam on Medieval Europe, Edinburgh UP 1972, P. 74.

ولما كانت أسس دينه غير معقولة، ولا تناسب إلا ذوي العقول الضعيفة، فإنه قد أمر أتباعه بعدم الإطلاع على الكتاب المقدس لدى النصارى حتى لا يكتشفوا زيف دعوى محمد، وضعف أحكام ديانته[1].

[١٠] ريكولدوس دي مونت كروسيز Ricoldus de Monte Crucis (١٢٤٣ ـ ١٣٢٠م):

الراهب الدومينياكني الذي سخر نفسه للعمل التنصيري بين المسلمين فعاش كما يصرح في المقدمة المهداة إلى صديقه بيريجرينا تورس زمناً طويلاً في بغداد تعلم فيه العربية ودرس علوم الإسلام، ثم سافر هنا وهناك من أجل التنصير في أرجاء العالم الإسلامي، ليستقر به المقام في دير الآباء الدومينكان في عكا[2]، ويستمر به حتى سقوط عكا في أيدي المسلمين وتحريرها من الصليبيين عام ١٢٩١م.

وقد ألف كتاباً جدلياً ضد مشروعية الديانة الإسلامية ليساعد به المنصرين على البرهنة على فساد ديانة الإسلام وتفنيدها، ليسهل بذلك تنصير المسلمين وتحويلهم إلى ديانة المسيح[3].

ولا تختلف طروحاته الجدلية عن سابقيه سوى في جعله عقيدة ختم النبوة التي اشتمل عليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠]، دليلاً على عدم صحة الوحي القرآني.

---

(١) M. D. Chenu, Da Werk des HI., Thomas von Aquin, S: 80-83, Heidberg, 1960.
Islama Christians Vol. 1-12 (Roma 1975-1986) Vol. 6.

(٢) عكا: من أهم وأقدم مدن فلسطين، تقع على الساحل الشرقي للبحر المتوسط وتبعد عن القدس ١٨٠كم إلى الشمال الغربي. دخلها المسلمون سنة ١٦هـ بقيادة شرحبيل بن حسنة. أنشأ فيها معاوية بن أبي سفيان أول دار لصناعة السفن ومنها انطلقت أول غزوة لجزيرة قبرص سنة ٢٨هـ، وبلغت ذروة مجدها سنة ١٧٩٩م عندما أوقفت زحف نابليون بونابرت بقيادة أحمد باشا الجزار، حيث حاصرها نابليون طويلاً لكنه فشل في دخولها فارتد عائداً وتلاشت أحلامه في الاستيلاء على الشرق. انظر: معجم بلدان فلسطين، محمد شراب.

(٣) Ricoldus de Monte Crucis, Contra Legem Sarracenorum, ed. J. Merigoux, in Mernotie Fominicane N. S. 17 (1986) 60-142.

أما ما عدا ذلك فقد أورد اعتراضاً على نبوة محمد ﷺ يتمثل في السلوك الأخلاقي غير القويم الذي ينسبه إلى النبي محمد ﷺ جاعلاً منه دليلاً على عدم صحة النبوة والوحي المحمدي، وكذلك يأتي بمطعن سابق على النبوة المحمدية تكرر ذكره لدى الجدليين السابقين وهو خلو القرآن الكريم من معجزة لمحمد ﷺ.

أما تصنيفه لمحمد ﷺ فجاء كذلك كالمعتاد أنه تعلم على يد مهرطق مسيحي كون له القرآن الكريم من خليط من التعاليم والهرطقات المسيحية وغير المسيحية(١).

- ولعل أبرز مظاهر كتابات الفكر المسيحي الغربي (اللاتيني) عن النبي محمد ﷺ في فترة القرون الوسطى تتضح في الجوانب التالية:

أولاً: الرؤية الدينية لنبوته ﷺ:

جاءت الرؤية الدينية لهذا الفكر حول نبي الإسلام متمثلة في رفض دعوى نبوة محمد ﷺ، وتلقيه الوحي الإلٰهي، وتكليفه بإبلاغ الوحي، ودعوة الناس إليه، وذلك بزعم عدم امتلاكه ما يؤيد دعواه من الدلائل والبراهين، بل إن معايير النبوة من منظور الفكر الغربي - في تلك الفترة - تقف جميعها في وجه التسليم بمشروعية نبوته ﷺ وتدل على أنه نبي مزيف، ولذلك يطرح هذا الفكر عدداً من معايير النبوة التي تؤيد رؤيته وهذه المعايير هي(٢):

١ - ليس لمحمد ﷺ شواهد عيان على تلقيه الوحي، والنبي الحقيقي يحظى بكثير من شواهد العيان على تلقيه الوحي من الله، مثل موسى الذي تلقى التوراة على جبل سيناء أمام شعب بني إسرائيل كله.

لكن محمداً لا يملك من ذلك شاهداً؛ لأن الوحي كان يأتيه في المنام؛ ولا أحد يستطيع أن يضبط حركة النائم ليعرف: هل ما يتلقاه وحي إلٰهي أم أحلام وأوهام؟

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٥٠.

(٢) المرجع السابق، ص٥١ - ٦٥ عن:

Carl Cueterbock, Der Islam in Lichtd der Byzantinischen Polemlk, S: 11-49, Berlin, 1912.

A. T. Khoury, Der theologische Striet der Byzantiner mit dem Islam, S: 34-41, Paderborn 1969.

ومن نافلة القول الإشارة إلى أن فنّاً قائماً بذاته قد نشأ في العلوم الإسلامية تحت عنوان «دلائل النبوة» لإحصاء وشرح وبيان علامات ودلائل نبوته ﷺ، وسيأتي مناقشة هذه المسألة بشكل مفصل ضمن موقف المستشرقين من دلائل نبوته ﷺ.

٢ ـ انعدام تنبؤاته المستقبلية، فالأنبياء الصادقون يخبرون بوساطة الوحي بأحداث سوف تقع كما أخبروا بها تماماً تصديقاً لدعواهم النبوة، ولم يخبر محمد ﷺ بشيء من ذلك.

٣ ـ افتقاده إلى المعجزات المؤدية لنبوته، مثل: معجزات موسى، ومعجزات عيسى عليه السلام التي حكاها القرآن.

٤ ـ سلوكه الأخلاقي الذي لا يمكن موازنته بالسلوك المثالي للمسيح، وذلك بسبب نشأته في بيئة وثنية أكتسب منها الإفراط في الشهوانية، والطيش والاستهتار الذي قاده إلى الوحشية مع قومه وخصومه لإجبارهم على الإيمان برسالته ـ بحسب زعمهم ـ.

ثانياً: تفسيرهم لظواهر نبوته ﷺ:

حيث يسود في هذا المجال الفكر الأسطوري والخيال الواسع في تقديم التفسيرات حول حقيقة الوحي المحمدي، وتسلك هذه التفسيرات مسارين مختلفين بحسب المظهر النبوي المراد إقصاؤه عن شخص النبي محمد ﷺ:

١ ـ فإذا كان المظهر متعلقاً بالمعتقدات والأخبار والقصص النبوي، فإن التفسير الذي يتم اعتماده لديهم يقوم على فرضية الاستعارة والاقتباس من الأصول التوراتية والإنجيلية. وقد تطور هذا التفسير ليصبح فيما بعد مبحثاً مستقلاً في الدراسات الغربية موضوعه «مصادر القرآن».

وقد انبنى هذا التفسير على أسطورة «يوحنا الدمشقي» في تعلم النبي ﷺ من الراهب المسيحي والتي توسع مفكروا الغرب من البيزنطيين واللاتين فيها، مما جعلها تسهم فيما بعد في إرساء أساس منهجي تقليدي لدى الدراسات الاستشراقية ودوائر الفكر الديني في الغرب بادعاء اقتباس النبي ﷺ تعاليمه من اليهودية والنصرانية وتهجينها بمصادر أخرى كما يلحظ ذلك في عدد من الكتابات الغربية في هذا الصدد لدى كل من:

- فلهم رودلف: «صلة القرآن باليهودية والمسيحية».
- ولكر باسيلي: «طابع الإنجيل في القرآن».
- ريتشارد بل: «أصل القرآن في بيئته المسيحية».
- سترشتين: «القرآن الإنجيل المحمدي».

- سباير: «مصادر القصص الكتابي في القرآن».
- إسرائيل شابيرو: «حكايات التوراة في أجزاء القرآن».
- إبراهام جيجر: «ماذا أخذ محمد من اليهودية؟»[١].

٢ ـ أما إذا كان مظهر النبوة متعلقاً بالأثر النفسي الذي يعتري النبي ﷺ في أثناء نزول الوحي عليه، فإن التفسير هنا يحتكم إلى الأوهام الخيالية، والحكايات الخرافية، والتي تتمحور حول إرجاع تلك المظاهر إلى مرض عصبي (صرع ـ هستيريا) كان قد ألم به ﷺ، أو إلى أنه ممسوس من الجن.

وقد بدأت هذه التفسيرات الخيالية في المشرق برسالة لتيودور أبي قرة منتصف القرن الثامن الميلادي بعنوان: «محمد ممسوس من الجن»، ثم أعقبه الكتاب التاريخي للبيزنطي تيوفانس المهتدي من القرن التاسع الميلادي الذي أورد فيه لأول مرة تفسير الحالات التي تصاحب نزول الوحي على النبي ﷺ بمرض (الصرع)، ثم امتدت تلك التفسيرات البيزنطية من خلال المفكرين الغربيين الإسبان، ومنهم إلى الغربيين اللاتين الذين شكلت أفكارهم وآرائهم ـ فيما بعد ـ الأساس الفكري والثقافي والرؤية الدينية الغربية في العصر الحديث[٢].

ثالثاً: طبيعة الفكر في تلك الفترة:

لم يجانب الصواب ريتشارد سوذرن عندما جعل الفصل الأول من كتابه «صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى» بعنوان: «حقبة الجهل» ملخصاً فيه طبيعة الفكر الديني الغربي عن الإسلام ونبيه ﷺ بقسميه البيزنطي واللاتيني في فترة القرون الوسطى[٣].

وهذا الجهل الذي ذكره «سوذرن» منشأه جهتين:

الأولى: نقص المعرفة الحقيقية بالإسلام ونبيه ﷺ نتيجة قعود مفكري الغرب في تلك الفترة عن الاطلاع على المصادر الأصيلة للإسلام، وعدم بذل أي جهد ملموس في طريق التثقف والاحتكاك الفكري والعلمي بالإسلام، ولهذا لم نجد كتاباً غربياً في تلك الفترة اعتمد على مصدر إسلامي واحد في الحديث

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٥٣.
(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٥٢ ـ ٥٤.
(٣) انظر: ص٣٥.

عن النبي ﷺ، فإلى جانب الجهل باللغة العربية لغة المصادر الإسلامية في تلك الفترة فإن أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم لم تنجز إلا في دير كلوني بوساطة فريق عمل بطرس الموقر سنة ١١٤٣م؛ أي: بعد أكثر من خمسة قرون من المجادلات ضد نبي الإسلام دون معرفة بحقيقة رسالته أو مضمونها.

الثانية: غياب التوازن الأخلاقي في الطرح والتناول مما قاد كثيراً من مفكري الغرب في تلك الفترة إلى إطلاق الأحكام التي تهدف إلى الحط من شأن النبي محمد ﷺ، بل فاق الأمر ذلك حتى تطبع الفكر في تلك المرحلة بطابع البذاءة والتطاول والسب والشتم، ومعاملة الرسول الكريم ﷺ بالسخرية والازدراء وذكره بالتجريح والذم، ووصمه بأقسى الافتراءات والأباطيل.

بحيث لا يصبح من الخطل القول بأنه لا يوجد نبي قط أو شخصية تاريخية أو مؤسس لدين، يمكن أن يكون قد تعرض ـ في الغرب ـ لمثل ما تعرض له النبي ﷺ من سب وشتم وافتراء[1].

رابعاً: الدعم المؤسساتي للفكر الغربي:

حيث لم يفتقد هذا الفكر لأي من أشكال المساندة والدعم من البيئة البيزنطية التي نشأ فيها، بل ليس من المغالاة القول بأن الفكر الجدلي هذا كان سياسة دينية ثقافية للدولة، وظفته الدولة لتدعيم أركانها حيناً، وللحفاظ على هويتها حيناً آخر؛ وليكون ضرباً من ضروب التمايز الحضاري والثقافي لأمة أفلت عنها شمس التمايز والخصوصية الفكرية منذ أن غابت عنها روح الإبداع وحل محلها تعاليم الكهنة ورجال الكنيسة، وليس المقصود هنا تخصيص الطابع السياسي وحده بالمساندة والدعم، بل كان هذا الدعم أشبه بظاهرة اجتماعية شاركت فيها مؤسسات ودوائر شتى: السياسية، والدينية، ومؤسسات المجتمع الثقافية والعلمية.. إلخ، ومن شواهد هذا الدعم ما يلي:

١ ـ مشاركة القياصرة في الدولة البيزنطية في حركة الجدل الديني ضد نبي الإسلام، ومنهم على سبيل المثال: القيصر ليون الثالث (٧٤١م)، والقيصر قسطنطين الرابع (٧٧٥م)، والقيصر اليكسيوس (١١١٨م)، والقيصر مانويل بالايولوجيوس

(١) محمد في مكة: مونتغمري وات، ترجمة: شعبان بركات، ص٩٤.

(١٤٠٧م)، والقيصر رومانوس (منتصف القرن العاشر)، بل إن أعنف الجدليات الفكرية البيزنطية ضد الرسول ﷺ كانت على يد الإمبراطور كانتا كوزينوس (١٣٨٣م). أما في الجانب اللاتيني الغربي فلم ترع المؤسسة السياسية الجدل ضد نبي الإسلام فحسب بل أرفقتها بالحملات العسكرية الصليبية لتدمير الإسلام ذاته.

٢ ـ مشاركة المثقفين والمفكرين في حركة الجدل ضد نبي الإسلام ﷺ، ولهذا فقد تنوعت الكتابات الجدلية تلك فمنها ما كان في إطار شعري، ومنها ما كان في إطار قصصي، أو تاريخي، أو فلسفي، تبعاً للهوية الثقافية والفكرية للكاتب.

٣ ـ الإسهام الفعال للمؤسسة الدينية من رجال الكنيسة والرهبان في تغذية الفكر الجدلي ضد شخص النبي ﷺ ونبوته، ويظهر ذلك في المرحلة اللاتينية من الفكر الغربي والتي تظهر فيها أسماء دينية بارزة في هذا المجال مثل: جيوبرت النوجنتي (رئيس رهبان دير نوجنت، ت: ١١٠٤م)، وفالتر الكامبيجني (رئيس رهبان دير سانت مارتن البندكتيني، ت: ١١٥٥م)، وبطرس الموقر (رئيس رهبان دير كلوني، ت: ١١٥٦م)[(١)].

خامساً: غياب روح التسامح والرغبة في الوصول للحقيقة:

فقد كان لغياب هذين الأمرين مع سطوة الحقد والبغضاء أكبر الأثر في عملية التشويه التاريخي والديني التي تعرضت لها حياة النبي محمد ﷺ ونبوته على أيدي مفكري الغرب في تلك الفترة، كما يقول الألماني رودي باريت:

«كان موقف الغرب المسيحي في العصر الوسيط من الإسلام هو موقف الدفع والمشاحنة فحسب، صحيح أن العلماء واللاهوتيين كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم إلى الإسلام، ولكن كل محاولة لتقويم هذه المصادر على نحو موضوعي ـ نوعاً ما ـ كانت تصطدم بحكم مسبق يتمثل في أن هذا الدين المعادي للنصرانية لا يمكن أن يكون فيه خير، وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا للمعلومات التي تتفق مع هذا الحكم المسبق، وكانوا يتلقفون منهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى دين الإسلام»[(٢)].

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٥٨ ـ ٥٩.
(٢) المرجع السابق، ص٦٢ ـ ٦٣.

المبحث الثاني

النبي ﷺ في كتابات العصر الحديث

يبتدأ العصر الحديث في أوروبا تقريباً بنهاية العصور الوسطى في القرن الخامس عشر الميلادي، ويحدده بعض المؤرخين باكتشاف كولمبوس لأمريكا سنة ١٤٩٢م، وبأحداث أخرى قريبة منها: كظهور حركة الإصلاح الديني على يد مارتن لوثر، وتطور البحث العلمي والفنون الرفيعة، واختراع الطباعة[١]. حيث ابتدأت حقبة جديدة من التاريخ الأوروبي. وقد شهد العصر الحديث في أوروبا مولد العديد من الدراسات الاستشراقية المتشبعة بروح التنوير[٢] الأوروبي.

وربما يعزي ذلك إلى الانكسار العسكري للجهد الحربي الصليبي ضد العالم الإسلامي؛ بسبب الصحوة الإسلامية في تلك الفترة، وكذلك تحول المغول إلى الإسلام، وبعدها ارتفاع نجم الخلافة العثمانية وتحولها إلى قوة ضاغطة في الغرب الأوروبي توجت بفتح القسطنطينية رمز المسيحية الأرثوذكسية

(١) الموسوعة العربية الميسرة، ص١٢١٧.

(٢) التنوير: مصطلح ظهر في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي في أوروبا تعبيراً عن الفكر ذي النزعة الإنسانية العقلية والعلمية والتجريبية، ويتضمن هذا الفكر نزعة مادية واضحة بعد إقصاء اللاهوت وذلك بإحلال الطبيعة والعقل بدلاً من الفكر الغيبي في تفسير ظواهر العالم ووضع قوانينه. انظر: المعجم الفلسفي (١/ ٤٦١).

ومعقلها، وتتابعت خطواتها حتى وصلت إلى حصار أسوار ڤيينا، ولم يتوقف تقدم الإسلام في أوروبا إلا في منتصف القرن السادس عشر الميلادي.

لهذا فإن النتاج الفكري في تلك المرحلة قد اهتم بعموميات الإسلام وموازنتها بالمسيحية أو بالقرآن الكريم خصوصاً؛ في تناول جدلي بهدف تفنيده أو الرد عليه، ومن أشهر الأسماء الغربية التي برزت في هذا الإطار[١]:

[١] جون السيقوفي John of Segovia الإسباني (القرن الخامس عشر الميلادي).

[٢] نقولا الكوسي Nikolaus von kues الألماني (القرن الخامس عشر الميلادي).

[٣] جين جيرماين Jean Germain الفرنسي (القرن الخامس عشر الميلادي).

[٤] آينياس سيلفيوس Aeneas Silvius الإيطالي (القرن الخامس عشر الميلادي).

[٥] خوان أندريس Juan Andre's الإسباني (القرن السادس عشر الميلادي):

وإن كان هذا الأخير قد خص النبي ﷺ بفصل كامل وعدة أجزاء ومواضع من كتابه ذي الطابع الجدلي الخالص الذي يلحق صاحبه بالفكر الجدلي باستثناء اعتماده على المصادر الإسلامية من قرآن، وسُنَّة نبوية، وكتب السير، والتفاسير[٢].

فهو يراهن على تحويل مسلمي الأندلس إلى النصرانية بتوضيح حقيقة الإسلام من داخل الإسلام ذاته دون اللجوء إلى المصادر النصرانية؛ لأجل سلامة الإقناع بعدم صحة الإسلام.

---

(١) سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥٤ ـ ٥٥، وصورة الإسلام في أوروبا: سوذرن، ص١٣٤ ـ ١٤٤.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٧٢، عن:

Juan Ander's, Libro nuevamente Impririmido que se llama Confusion de la Secta Mahometica y del alcoran Valencia 1515.

ولأجل ذلك يقدم النبي ﷺ انطلاقاً من بيئته الوثنية الشركية التي ولد فيها للإيحاء بعدم إمكان صحة النبوة ممن ينتمي إلى مثل تلك البيئة الوثنية، مدللاً على ذلك بحادثة وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة، تلك الحادثة التي تجسد في نظره تأثير الفكر الوثني وممارساته على شعائر الحج في الإسلام.

وإذا ما انتقل إلى الوحي المحمدي، فإن ما كان يتصوره ﷺ وحياً إلٰهياً من السماء عن طريق الملك جبريل، ليس إلا أوهاماً وخيالات أوقعه فيها إدمانه للعزلة والتنسك في غار حراء.

أما القرآن الموحى به إلى محمد ﷺ فليس غير تلفيق هرطقي من تعاليم اليهودية والنصرانية قام به النبي ﷺ بمساعدة نصارى مكة.

وإلى هذه التأشيرات والتعاليم اليهودية والنصرانية يرجع خوان أندريس انتشار الإسلام، مكرراً بذلك دعوى «جون ويكلف» في القرن الرابع عشر الميلادي حول انتشار الإسلام اعتماداً على السيف، وعلى الخوف من مصائر الأمم السابقة التي عصت أنبياءها، واستجابت للعناصر والأصول النصرانية في الديانة الإسلامية(١).

ولم يتورع خوان أندريس اتساقاً مع رؤيته الجدلية لشخص النبي ﷺ عن أمرين:

أولهما: نفي معجزاته ﷺ بزعم عدم وقوعها أمام الجمع الغفير من المؤمنين مثلما وقع لموسى وعيسى عليهما السلام، أو بدعوى كونها مجرد رؤى وأحلام صدقها النبي ﷺ على أنها حقائق.

الثاني: اتهامه النبي ﷺ بالشهوانية الجنسية التي حكمت ووجهت سائر تصرفاته الحياتية، والتي قادته إلى السفاح والزنا بالشابة اليهودية الجميلة التي أغرم بها، وكذلك اللهث وراء النساء مثلما حدث مع زوجة ابنه بالتبني زيد بن حارثة، والتي كان له وقتها تسع نساء غيرها.

[٦] توماس إرينيوس Thomas Erpenius الهولندي (١٦٢٤م):

كان إرينيوس أول أستاذ يرأس كرسي اللغة العربية في جامعة ليدن عام

(١) سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥١ ـ ٥٢.

١٦١٣م، وكان موقفه من الإسلام امتداداً للفكر الجدلي، فجاء رأيه في النبي ﷺ موافقاً لتلك الرؤى السائدة في أوروبا قبل عصر التنوير فرأى تعاليمه ﷺ مضحكة، وكذلك جاء رأيه في القرآن الكريم، فالقرآن وإن كان مثالاً فائقاً للغة إلا أنه من جهة المضمون تقليد مضحك للكتاب المقدس لدى النصارى(١).

[٧] همفري بريدو Humphrey Prideaux (١٦٤٨ ـ ١٧٢٤م):

مستشرق إنجليزي ظهر له كتاب في بريطانيا عام ١٦٩٧م بعنوان: «الطبيعة الحقيقية للخداع مجسدة بالكامل في حياة محمد».

وهو من أبرز الكتابات الجدلية في تاريخ الغرب ضد نبي الإسلام، وأكثرها فحشاً ليس في عنوانه فحسب بل في مضمونه الذي ترك تأثيراً غير محدود في أوروبا(٢).

فالكتاب يضع للغش والتدليس علامات ست، وهي(٣):

١ ـ العمل على إرضاء الرغبات الشهوانية.

٢ ـ البهتان والافتراء.

٣ ـ مصدرهما الخبثاء من الرجال.

٤ ـ ينشرهما المخادعون.

٥ ـ عدم القدرة على إخفائها عندما يقوم بها المتآمرون.

٦ ـ يمكن إقرارها بالقوة.

ويزعم (بريدو) أن النبي ﷺ قد برع في ذلك كله، فقد اصطنع لنفسه ديناً مزيجاً من الديانات الوثنية، ومن اليهودية، والهرطقات النصرانية المنتشرة في الشرق، وبوساطة الحيل الخادعة، والمكايد الماكرة، خدع الناس، وأغراهم بهذا الدين، مستخدماً كل ما يقدر عليه من ذلك فأطلق العنان للغرائز الشهوانية بجميع

---

(١) تاريخ حركة الاستشراق: الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا حتى بداية القرن العشرين: يوهان فوك، ترجمة: عمر لطفي العالم، ص٦٧ ـ ٧٧.

(٢) سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥٦.

(٣) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٧٤، عن:

Humphrey Prideaux, The True Nature of Imposture Fully Displayed in the Life of Mahomet, 8the edition, London 1723.

أشكالها لخدمة أغراضه، كذلك وظف داء الصرع الذي كان مصاباً به للاحتيال والإيهام بأن نوبة غيبوبة الصرع التي تنتابه هي علامة وأثر من علامات وآثار نزول الملك جبريل عليه بوحي جديد من الله.

ويستمر بريدو في اجترار الأفكار الجدلية من القرون الوسطى حين لم ير في حياة النبي ﷺ سوى تجسيد لنزعتين هما: الطموح والشهوة، فنزعة الطموح تظهر بوضوح في الطريق الذي سلكه لبناء الدولة، والشهوة يدل عليها زوجاته الكثيرات[1].

ويرى أن تأثير هاتين النزعتين ليست قصراً على حياته ﷺ فقط، بل تسيطران كذلك على دينه برمته، فلا يكاد فصل من فصول القرآن يخلو من ذكر قانون من قوانين الحرب وإراقة الدماء تحقيقاً للنزعة الأولى، أو ينص على حرية معاشرة النساء في الدنيا أو الوعد بالاستمتاع بهن في الحياة الأخرى تحقيقاً للنزعة الثانية.

وقد أثر كتاب بريدو في عدد من الكُتَّاب والمفكرين مثل:

ـ الفرنسي فولتير Voltaire الذي وصف النبي ﷺ بكثير من ألفاظ (بريدو) ومفرداته، كما يظهر بوضوح في مسرحيته الشهيرة «محمد أو التعصب» وفيها يستعين بالكراهية الشائعة لمحمد ﷺ في جعله نموذجاً لجميع الدجالين الذين أحالوا شعوبهم إلى عبيد للدين متوسلين بالتحايل والأكاذيب.

ـ وكذلك إدوارد جيبون Edward Gibbon الذي يكاد يكون قد كرر مضمون كتاب بريدو، وذلك في كتابه المعنون بـ: «تدهور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وسقوطها» فقد جعل النبي ﷺ خادعاً ماكراً رغم إنجازاته السياسية، إذ إنه لو كان مخلصاً في فترة المرحلة المكية لما انزلق إلى الخداع بعد الهجرة متحولاً إلى انتهازي سياسي، مطلقاً العنان للشهوات، ومنتصراً على النصرانية الشرقية بوساطة القرآن في إحدى يديه والسيف في الأخرى[2].

ـ القرن الثامن عشر الميلادي:

بدءاً من القرن الثامن عشر الميلادي شهدت الأعمال الاستشراقية بعض

---

(١) الرسول في تصورات الغربيين: جوستاف بفانمولر، ترجمة: د. محمود زقزوق، ص١٢.

(٢) سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥٨. ومحمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٧٦، عن:
Edward Gibbon, Decline and Fall of the holy of the holy Roman Empire, Frederick Warne, London, 1872.

الجهود الرامية إلى وضع تفهم أكثر دقة للإسلام، والتي حملت طابع الفكر الغربي الحديث وتصوراته حول نبي الإسلام ﷺ، والتي ترجع حسب ظهورها التاريخي إلى:

[٨] أدريان ريلاند Adrian Reland (١٦٧٦ ـ ١٧١٨م):

أصدر الهولندي أدريان ريلاند كتابه عام (١٧٠٥م) وعنوانه (الديانة المحمدية)، والمطبوع بالإنجليزية في لندن طبعة مجهولة بوساطة مترجم مجهول عام ١٧١٢م.

وقد سعى فيه نحو تصحيح المفاهيم المغلوطة عن الإسلام، وتحجيم دور الأساطير والخرافات المسيطرة على الدراسات الإسلامية في الغرب فيما يتعلق بالإسلام ونبيه محمد ﷺ خصوصاً، فبدأ أولاً بتقديم المعتقدات والتعاليم الإسلامية اعتماداً على المصادر العربية واللاتينية، ثم عمد إلى تصويب الآراء الخاطئة المثارة حول الإسلام ونبيه في الغرب مبيناً:

أن الإسلام قد تعرض في الغرب إلى ما لم يتعرض له دين آخر في العالم من الاحتقار والتشويه بكل مفردات أوصاف السوء إلى حد أن تحول الإسلام إلى لفظ سباب وشتم، فتوصف النظرية المذمومة بأنها نظرية محمدية.

وينتهي ريلاند إلى أن مطالعة المؤلفات العربية تبرهن على أن المسلمين ليسوا مجانين كما يظن الغربيون، وأن الدين الذي استطاع الانتشار والتوسع بعيداً في آسيا وأفريقيا وأوروبا يستلزم أن يكون على قدر عظيم من الصدق[١].

[٩] سيمون أوكلي Simon Ockley (١٦٧٨ ـ ١٧٢٠م):

في عام ١٧١٨م طبع الإنجليزي سيمون أوكلي كتابه: «تاريخ السرازنة»[٢].

الذي أصبح مصدراً أساسياً لدارسي الإسلام ونبيه ﷺ في بريطانيا، وقد حاول أن يكون حراً وعادلاً في تناوله لشخص النبي ﷺ بتجنب النمط الجدلي

---

(١) المرجع السابق، ص٧٧، عن:

Adrian Reland, Four Treatises Concerning the Doctrine, discipline and Worship of the Mahometans, anonymous Translator, London, 1712.

وانظر: سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١١ ـ ١٣.

(٢) Simon Ockley, History of the Saracens, 3rd edition, Cambridge 1757.

الغربي التقليدي في الحكم على النبي ﷺ، لكنه لم يستطع أن ينعزل عن تحزبه القومي الغربي، فلم يزد عن مجرد إبداء الإعجاب بشجاعة النبي ﷺ واختلافه وقومه عن غيرهم من الغزاة من جهة الإنصاف وحسن المعاملة؛ لذلك فإن التعبير الذي تواتر في أكثر من موضع في كتابه؛ وبأكثر من صيغة: محمد المخادع الأكبر.

كما أنه يُرجع ما عرف عن النبي ﷺ من شمائل طيبة وصفات حميدة إلى التظاهر الذي يخفي وراءه حقيقة النبي التي تحكمها دوافعه النفسية من الطموح، والطمع، والشهوة.

ورغم ما جاء في كتاب أوكلي ضد النبي ﷺ إلا أنه لم يسلم من الانتقاد من بيئته المحيطة به لأنه لم يصور الإسلام على أنه دين السيف، ولكنه حاول أن ينظر إلى الجهاد من وجهة نظر المسلمين(١).

[١٠] هنري بولاين فيليه Henri Boulain Villier:

أخرج الكونت الفرنسي هنري بولاين فيليه سيرة للنبي ﷺ عام ١٧٣٠م في باريس بعنوان (حياة محمد) وظهرت عام ١٧٣١هـ في لندن بالإنجليزية بالعنوان ذاته: حياة محمد.

وقد قدم بولاين فيليه النبي ﷺ في كتابه على أنه:

رجل حكيم من رجال التشريع العقلاني مثل ذلك النمط من العقلانيين الذين عرفهم عصر التنوير الأوروبي، وإلى جانب شخصية العقلاني المبشر بعصر العقل، فإن بولاين فيليه أضاف إلى شخصية النبي ﷺ دور البطولة العسكرية في نمطها ومثالها الأوروبي: يوليوس قيصر، والإسكندر الأكبر.

واتفق بولاين فيليه في نظرته إلى النبي ﷺ مع النظرة الأوروبية القروسطية(٢) التقليدية في أنه ﷺ قد ابتدع ديناً من أجل أن يحقق رغبته في التسلط وسيادة العالم.

لكنه خالف التقاليد الأوروبية في جعل الإسلام ديناً طبيعياً منبت الصلة بالوحي والتنزيل الإلٰهي، فكانت المرة الأولى التي يُصور فيها النبي ﷺ ليس في

---

(١) سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥٧، والمستشرقون: للعقيقي (٤٦/٢).

(٢) نسبة للقرون الوسطى.

صورة المهرطق صاحب البدعة المنشق عن المسيحية، بل بصورة المهتدى بالعقل وحده إلى الله[١].

وعندما نشر بولاين فيليه كتابه أخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن محمد ﷺ باعتباره رسولاً للعناية الإلٰهية[٢]، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنه مال إلى المبالغة بسبب ميول ذاتية ونوازع معادية للكنيسة[٣].

[١١] جان جانييه jean jagnier (١٦٧٠ ـ ١٧٤٠م):

في عام ١٧٢٣م قام جانييه بترجمة سيرة عربية لمحمد ﷺ إلى اللغة اللاتينية. وبعد أن أخرج بولاين فيليه كتابه: (حياة محمد) شعر جانييه ـ كما ذكر ـ أنه يتحتم عليه أن يصف بطريقة غير متحيزة ـ بحسب المصادر المتوفرة لديه ـ ماذا يقول المحمديون عن نبيهم، وذلك لكي يحافظ على الخط الوسط الصحيح بين الحماس الحاقد عند بريدو من ناحية والمبالغات من جانب بولاين فيليه من ناحية أخرى.

وقد جاء كتاب جانييه ـ كما يقول العقيقي ـ تحت عنوان: «حياة محمد» نقلاً عن القرآن ومصادر السُّنَّة وكبار المؤلفين العرب، في جزأين بالفرنسية، دحض به افتراءات المتعصبين عليه، وطبع في أمستردام سنة ١٧٣٢م[٤].

وكلام العقيقي في الثناء على الكتاب يرده ما جاء في مقدمة كتاب جانييه ـ كما يقول بفانمولر ـ والتي يصف فيها محمداً ﷺ بأنه: أكثر الناس شراً، وبأنه عدو لدود لله، والتي تبين لنا ماذا ينبغي أن يفهم المرء من «حياده»[٥].

[١٢] جورج سال George Sale (١٦٩٧ ـ ١٧٣٦م):

أصدر الإنجليزي جورج سال ترجمته للقرآن عام ١٧٣٤م ذات العنوان الموجه والفاضح لطبيعة الترجمة منذ البدء: «القرآن أو قرآن محمد» تلك الترجمة ذات التأثير البالغ في معاصري سال وما بعده حتى اليوم.

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٧٨، عن:
Comte Henri Boulainvillier, The life of Mahomet, anonymous Translator, London 1731.

(٢) الشرق والغرب في نظر جوته: عبد الرحمٰن صدقي، ص٢١.

(٣) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٣ ـ ١٤.

(٤) المستشرقون (٢/ ٤٥).

(٥) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٤ ـ ١٥.

في مقدمة الترجمة عرض جورج سال لشخص النبي ﷺ وطبيعة رسالته، فقدم محمداً ﷺ على أنه رجل اتصف بنوع من الحكمة التي مكنته من وضع قانون ينظم حياة العرب، ويستدل جورج سال على أن رسالة محمد ﷺ لم تكن سوى ابتكار بشري، وأنها تدين بنشوئها وتطورها إلى السيف وحده[١].

يقول بفانموللر[٢] عن ترجمة سال: «حاول في البداية تقدير محمد تقديراً عادلاً، ولكنه لم ينجح في القضاء على الأحكام السابقة السائدة، فقد ظل محمد مدة طويلة ينظر إليه على أنه مضلل»[٣].

والغريب أنه رغم ما تقدم فإن عبد الرحمٰن بدوي يقول عنها: «ترجمة سيل واضحة ومحكمة معاً، ولهذا راجت رواجاً عظيماً طوال القرن الثامن عشر إذ عنها ترجم القرآن إلى الألمانية عام ١٧٤٦م»، ويقول بعد ذلك: «وكان سيل منصفاً للإسلام بريئاً رغم تدينه المسيحي من تعصب المبشرين المسيحيين وأحكامهم السابقة الزائفة»[٤].

[١٣] فولتير Voltaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م):

الفيلسوف والأديب الفرنسي الشهير، والذي كتب روايته المأساوية «محمد أو التعصب» دون أن يراعي الحقائق التاريخية. وقد كان فولتير نفسه ـ كما يقول بفانموللر ـ مقتنعاً بأن كتابه المنبثق من خياله يتناقض تناقضاً حاداً مع التاريخ، ومع ذلك فقد أراد أن يعرض على الجمهور شخصية تارتوف[٥] Tartuffe ـ الرجل المنافق ـ ممسكاً سلاحاً في يده، وكان يعتقد أنه يستطيع أن يعير محمداً هذا الدور[٦]. ولكن فولتير لم يكن له أن يفعل ذلك لو لم يكن التصور السائد حينذاك

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٧٩، عن:
Georg Sale, The Koran or Alcoran of Muhammad. Translated by with a Preliminar y Discourse, London Warne, n. d.
وانظر: المستشرقون: للعقيقي (٢/ ٤٧).

(٢) لم أقف له على ترجمة.

(٣) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٥.

(٤) عبد الرحمٰن بدوي: موسوعة المستشرقين ص٢٥٢.

(٥) تارتوف: اسم يطلق على شخصية الرجل المنافق في إحدى مسرحيات الأديب الفرنسي الشهير موليير (١٦٢٢ ـ ١٦٧٣م) والتي تحمل نفس الاسم أيضاً. انظر: المرجع السابق، ص١٦.

(٦) وقد مثلت هذه المسرحية في مدينة «ليل» الفرنسية عام ١٧٤١م ثم قدمتها «الكوميدي فرانسيز» =

هو أن محمداً يمثل التعصب والتضليل الديني[(١)].

وقد ذهب معظم الباحثين والكُتَّاب[(٢)] الذين تناولوا موقف فولتير من الإسلام إلى أنَّ فولتير اتَّخذ من هجومه على الإسلام وسيلة مبطنة من أجل الثورة على أصحاب الكهنوت والشطحات الكنسية المتبقِّية من العصور الوسطى؛ لأنَّ العصر الذي عاش فيه فولتير وهو ما يعرف بعصر التنوير في أوروبا طغت عليه الفلسفة العقلية ـ التي مهدت لقيام الثورة الفرنسية في آخره ـ حيث كان دعاته يحملون حملة شعواء على الأديان عامة، ولا يريدون أن يروا في أصحاب الدين إلا أصحاب خرافة دجَّالين يزعمون للناس أنَّهم من المرسلين الملهمين.

وبجانب هذه الصورة الظالمة للنبي ﷺ والتي كتبها فولتير في روايته فإن تطوراً إيجابياً كبيراً طرأ في موقفه وذلك من خلال كتابه «بحثٌ حول عادات وأخلاق الأمم»: Essai sur les mœurs et l'esprit des nations. الذي نشره سنة ١٧٥٦م ثم أعاد نشره آخر مرة سنة ١٧٦٩م.

ومن خلال دراسة ما جاء في الكتاب، تتضح أهم آراء فولتير التي يتبين فيها موقفه الأخير من الإسلام ونبيه ﷺ من خلال ما يلي:

١ ـ فولتير لم يكن يحسن العربية، وقد قرأ القرآن في ترجمة إنجليزية لجورج سال وقال عن القرآن بأنه كتاب محترم.

٢ ـ فولتير كان مؤمناً بوجود الله ولكنه لا يؤمن بالأنبياء؛ لأنه يعتقد أن «الله لا يحتاج للأنبياء لكونه داخل كل قلب وداخل كل فكر»، وإيمان فولتير هذا جعله

= في باريس عام ١٨٤٢م فاحتج عليها السفير التركي لدى الحكومة الفرنسية وعقد مؤتمراً دعا إليه كُتَّاب فرنسا الأحرار فأوقفت الحكومة تمثيلها حينذاك. انظر: الشرق والإسلام في أدب جوته، ص٢٣.

(١) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٦.

(٢) ومن هؤلاء بفانموللر حيث يقول: «فولتير لم يرد إطلاقاً بمأساته أن يصور شخصية محمد التاريخية، وإنما أراد بذلك فقط أن يحول دفة الحديث ضد المسيحية الكاثوليكية وضد التضليل الكهنوتي، وضد الخرافات، وضد الدين نفسه وما يرتبط به» سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٦، وإلى هذا الرأي ذهب: هشام جعيط في كتابه «أوروبا والإسلام»، ص١٩، وعبد الرحمٰن صدقي في كتابه «الشرق والإسلام في أدب جوته»، ص٢٢ ـ ٢٣، والدكتور محمود حمدي زقزوق في كتابه «الإسلام في تصورات الغرب»، ص٨٨، والدكتور خالد بن عبد الرحمٰن الشايع في مقاله المعنون بـ«حقيقة موقف الفيلسوف الفرنسي فولتير من رسول الله محمد ومن رسالته»، والمنشور في جريدة الشرق الأوسط في العدد ١٠٧٨٧.

يأخذ استقلاله عن الكنيسة ليصبح قادراً على نقد تصرّفها الاجتماعي نحو الأفراد ونحو الشعوب، واستطاع بالتالي مقارنة تسامحها بتسامح الإسلام.

٣ ـ يعتقد فولتير أن الإسلام اختراع محمّدي ومع ذلك فهو لا ينعت محمداً ﷺ بالنفاق بل يقول: إنه كان يعتقد خلال تخيّلاته بأن الوحي يأتيه من عند الله بواسطة الملائكة، وهو يستعمل ذكاءه وحيله لتمرير ما يعتقده حقاً عن حسن نية ليقنع الناس به.

وبالمقابل وفي نفس السياق يشكّك فولتير في وجود النبي موسى عليه السلام أصلاً، وهو بالنسبة له لا يعدو أن يكون أسطورة نظراً للخوارق التي صاحبته من ولادته إلى وفاته والتي لا يقبلها العقل.

٤ ـ عند مقارنة محمد ﷺ بعيسى وموسى عليهما السلام نجد فولتير يسخر من الأخيرين بعكس نظرته لنبيّنا الذي يعتقد أنه وُجد فعلاً وأن حياته دُرست دراسات كثيرة، ويصفه بكونه ذا خلق عظيم، فصيح، ذي نظرة حادة ووجه جميل، له شجاعة الإسكندر المقدوني بل يفوقه عفّة وقناعة.

ويضيف بأن «الشعوب تحتاج إلى قادة توقظها وتأخذها إلى قدَرها» ويعتبر أن الفكر المحمّدي من أكبر ما أنتجت البشرية ويرى أنه يجب اعتباره كإحدى عجلات الكون.

٥ ـ يُرجع فولتير ولادة الإسلام وانتشاره إلى العرب الذين يربطهم باليمن ويقدّرهم كثيراً لكونهم لا يغترّون بقوّتهم للاعتداء على غيرهم ولا يستعبدونهم بل يدمجونهم في الأمة لأنهم يعتقدون بأنهم خُلقوا ليسيطروا، بعكس اليهود الذين كانوا إذا احتلّوا قرية قتلوا شيوخها ونساءها ولا يذروا إلا العذارى.

٦ ـ احترام فولتير للإسلام وللعرب يرجع لكونه شاهد تسامح المسلمين نحو المسيحيين في البلدان التي سيطروا عليها بعكس ما رآه في تصرّف الكنيسة التي كانت قاسية وغير متسامحة أينما حلّت. ويعطي مثالاً بمصر حيث أعاد عمرو بن العاص حفر القناة القديمة ليربط النيل بالبحر الأحمر، ومثال القدس حيث يقول: إن «بناء جامع عمر أثرى المدينة». ويضيف فولتير أن الفضاءات التي فُتحت ملئت تسامحاً، وحتى القرن الثامن عشر كان التسامح السائد في الفضاء الإسلامي (العثماني) ضماناً للسلم بين الكنيستين الكاثوليكية والأرثوذكسية، وكان المسيحيون فيه يعيّنون السلطة الكهنوتية دون تدخّل.

ويضيف: «إن عيسى كان متسامحاً لكننا بتصرّفنا جعلنا المسيحية أقلّ الأديان تسامحاً».

٧ ـ وحسب ما يقول فولتير فإن «الإسلام كان أكبر تغيير حدث على الكرة الأرضية»، وكان معجباً بالسرعة التي انتشر بها إذ إنه خلال مائة وخمسين عاماً سيطر على إمبراطورية أكبر من الإمبراطورية الرومانية».

٨ ـ وفي حديثه عن الأحكام القرآنية المتعلّقة بالمجتمع دافع عنها باعتبار تقدّمها في عصرها ونجاعتها في بيئتها(١).

وهكذا فقد لهج لسان فولتير بالثناء على الإسلام ورسوله ﷺ مع تقدُّم العمر؛ ومع استقلاله عن ضغوط الكنيسة، ويؤكِّد (إيمري نف) هذه الحقيقة، فيقول:

«كان فولتير مفكِّراً متأملاً متعدِّد الجوانب، يهتم اهتماماً شديداً بالعلم وعلم النفس والأدب والفنون الجميلة، وألَّف مقالة في عادات الأمم وأخلاقها في نضجه حين بلغ الستين، بعد أن أصبح مستقلاً عن نفوذ الكنيسة والدولة، وكان ذلك الاستقلال ضرورياً لعدم تحيُّز المؤرخ ونادر الحدوث في أيِّ عصر»(٢).

ـ القرن التاسع عشر الميلادي:

أول ما يجب التنبيه عليه، من أجل رصد حقيقي لطابع الاستشراق في القرن التاسع عشر، هو التحولات الكبرى الحاصلة في العلاقات بين العالمين الإسلامي والغربي.

بدأت بوادر هذا التحول تظهر للعيان في التفوق التدريجي لأوروبا على العالم الإسلامي في المجالات الثقافية والعلمية والصناعية والعسكرية، وذلك منذ القرن الثامن عشر، وقد أنتج هذا التفوق ظاهرة استعمار الدول المسيحية لغالب البلاد الإسلامية.

---

(١) مقالة للدكتور أحمد بوعزي بعنوان: «كتاب جديد عن فولتير الذي اعتبر الإسلام أكبر تغيير حدث على على الكرة الأرضية» ضمن مجلة مطالعات الثقافية التونسية (٢٦ سبتمبر ٢٠٠٩م)، عرض فيها لكتاب «فولتير والإسلام» للسيدة محبوبة ساعي التليلي الذي صدر مؤخراً باللغة الفرنسية في تونس عن دار «نقوش عربية» للنشر. والكتاب هو نتاج بحث أكاديمي لنيل شهادة الماجستير قامت به المؤلفة، درست فيه موقف فولتير من الإسلام من خلال كتابه «بحثٌ حول عادات وأخلاق الأمم».

(٢) راجع: كتابه «المؤرخون وروح الشعر»: ترجمة: توفيق إسكندر، ص١٦.

وقد شهد سقوط عالم الإسلام عسكرياً أمام قوة الغرب الناشئة تحولات جذرية، لعل أعظمها:

١ ـ تبدل نظرة الغرب إلى الإسلام من كونه عالماً حياً يواجه أوروبا ويتحداها ويفرض عليها نموذجه، إلى ظاهرة تاريخية ضعيفة يجب وضعها في مخبر التاريخ من أجل التحليل والدراسة.

٢ ـ تمكن الغرب في عهد الاحتلال من العمل بحرية على القضاء على كل ما من شأنه أن يعيد الشعوب الإسلامية إلى سابق عهدها عندما كانت تشكل خطراً حقيقياً ودائماً على أوروبا(١).

والحقيقة أن هذين العنصرين قد قادا عمل جميع القوى الغربية في علاقاتها مع المسلمين بحيث سعت كل مؤسسة غربية إلى تحقيق أهدافها الخاصة، فشهدت ساحة العالم الإسلامي دخول الكثير من الأوروبيين إلى عالم الاستشراق الذي توسع توسعاً هائلاً في عدد المهتمين به، وفي تنوع اختصاصاتهم... وقد توافرت لكل هؤلاء فرصة هائلة للدراسة والبحث نظراً لفتح المكتبات الإسلامية أبوابها لهم(٢).

كما ظهرت في هذا القرن روح جديدة في دراسات التأليهيين الأوروبيين على وجه الخصوص، حين عبر عدد من المستشرقين عن تقديرهم لعقيدة الإسلام، وأبدى الكثير منهم احترامه للسمات الأخلاقية العالية للمجتمعات الإسلامية. وأخذت الحضارة الإسلامية حظاً وافراً من التقريض، حيث تقرر اعتبارها إحدى الدورات الحضارية الكبرى في تاريخ الإنسانية، وإن ظل عدد كبير من المستشرقين ينظر إليها باعتبارها مجرد وساطة بين الغرب اليوناني والغرب الحديث(٣).

وفيما يلي نعرض لأبرز الدراسات الغربية في هذا القرن حول نبينا محمد ﷺ، وذلك على النحو التالي:

[١٤] واشنطن إيرفنج Washington Irving (١٧٨٣ ـ ١٨٥٩م):

الأديب الأمريكي الذي حمل أوصاف «عميد الأدب الأمريكي»، و«مبتدع

---

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٧٢.
(٢) الاستشراق والمستشرقون، ص٨٥.
(٣) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٨٥.

القصة القصيرة». ألف إيرفنج العديد من الكتب الأدبية والتاريخية قبل أن يهتم بالاستشراق، والذي واتته الفرصة لخوض غماره عندما عين في القنصلية الأمريكية في إسبانيا سنة ١٨٢٦م، حيث انفتح أمامه التراث العربي الإسلامي في الأندلس، ومن شدة إعجابه بهذا التراث فإنه ألف العديد من الكتب بهذا الخصوص مثل: (قصر الحمراء) و(غزو غرناطة) و(فتح الأندلس)، وقد قادته الكتابة عن تاريخ الأندلس إلى تأليف كتابه الكبير (حياة محمد)[١].

تطابقت أفكار إيرفنج في كتابه «حياة محمد» مع بعض أفكار الكُتَّاب والمستشرقين السابقين ممن كانت لهم بعض الآراء المنصفة من أمثال: توماس كارليل، وجان جانييه، وجيبون، ومارجيني، وهاملتون جب. كما اختلف مع آخرين كجورج سيل وهنري فيير وأوكلي وبريدو ممن كانت لهم آراء متحاملة في النظرة إلى طبيعة الرسالة الإسلامية وشخصية الرسول محمد ﷺ.

ومع ذلك فقد كان لإيرفنج آراؤه التي لا يوافق عليها، والتي يمكن القول إنها ترجع إلى مصادر المؤلف الأوروبية التي تأثر بها كثيراً وساهمت في عدم وصوله إلى نتائج منصفة في بعض الأحيان. كما أن عدم اطلاعه على اللغة العربية، وكونه أديباً روائياً لا مؤرخاً أو أكاديمياً قد كان لها أثرها الواضح في دراسته[٢].

اتخذ إيرفنج عدة خطوات منهجية في كتابه، وذلك على النحو التالي:

١ ـ سلك أسلوب التحديد والإيجاز لما يريد أن يقوله، وقد أكد في مقدمته أنه لم يضف في كتابه شيئاً جديداً حول السيرة كما هو عند المؤلفين الغربيين، وقد أراد بذلك أن يترك للقارئ أن يتابع أحداث السيرة دون انقطاع.

٢ ـ تميز أسلوبه ببيان وصياغة أدبية متميزة، ولا شك بأن اهتمامه بهذا المجال كان له أثره الواضح.

٣ ـ استند في معلوماته عن السيرة النبوية إلى سيرة ابن كثير، ولذلك كانت الحقائق التي يذكرها في السيرة مطابقة للواقع ولما تذكره بقية كتب السيرة

---

(١) ترجم تحت مسمى «محمد وخلفاؤه» كما سيأتي معنا.

(٢) انظر: الاستشراق الأمريكي والسيرة النبوية، إرفنج نموذجاً، المقدمة: سامي أحمد الزهو، وهي رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي من كلية التربية بجامعة تكريت، العراق، سنة ٢٠٠٦م.

الإسلامية خاصة سيرة ابن هشام إلا ما ندر، كما استفاد من المصادر الغربية المترجمة باللغة الإسبانية والتي اطلع عليها في إسبانيا.

٤ ـ يتألف الكتاب من تسعة وثلاثين باباً، في كل باب عدد من الفصول، بكل فصل فكرة أو عدد من الأفكار منفصلة أو مرتبطة بسواها من الفصول السابقة، ومعتمدة على حقائق تاريخية من التاريخ الغربي والإسلامي، عن أحداث تاريخية حول الرسول ﷺ.

٥ ـ من أبرز النتائج المنصفة التي توصل إليها إيرفنج ما يلي:

ـ أن النبي ﷺ لم يحصل على أي فائدة شخصية له من عبء النبوة الذي نزل عليه.

ـ أن النبي ﷺ كان يشعر بصدق روح الإلهام الإلٰهي الذي يتلقاه قبل أن يشارك هذا الأمر مع الآخرين.

ـ كانت الصلاة هي سبيل استعادته للنشوة السماوية بين فواصل نزول الوحي، ولذلك حببت له بقدر ما أحب من طيبات هذا الوجود، ونتج عن كل هذا ـ كما يرى ـ إيرفنج إتكالية الرسول ﷺ المطلقة على الله تعالى.

ـ رأى إيرفنج ارتفاع الرسول ﷺ عن كل مطلب مادي نتيجة هذا الوحي الذي جعله يرتفع ويرقى بفهم الألوهة المطلق نحو الإطلاق، فليس من العدل بحق هذا الملهم ـ الرسول ﷺ ـ اتهامه بأنه أسير رغباته، والتي لم يبرز منها عنده إلا حبه للنساء ﷺ ليفرغ نحو توجهاته المطلقة بعيداً عن أسر صراع الحاجة والدافع.

ـ قرر إيرفنج أنه من الصعب على المنكرين لرسالته ﷺ إنكار صدق توجهاته وسموها، أو إنكار عظمة ثمار هذه التوجهات التي قدمها للبشرية، فلم يبق أمامهم إلا اعتبار شخصيته أسيرة هلوسة مرضية عبقرية، لكنه لم يبين موقفه من هذه المسألة.

ـ أثنى كثيراً على سلوك النبي ﷺ وتعامله مع الناس كما مدح صفات النبي ﷺ الشخصية؛ كالعدل، والذكاء، والتواضع والزهد بالدنيا إلى غير ذلك[١].

---

(١) محمد وخلفاؤه: واشنطن إيرفنغ، ترجمة ومقارنة: د. هاني يحيى نصري، ص١٥ ـ ٥٧.

[١٥] جوستاف فايل Gustav weil (١٨٠٨ ـ ١٨٨٩م):

المستشرق الألماني الذي قام بنشر وترجمة العديد من المؤلفات العربية ومنها كتابه: «محمد النبي: حياته وتعاليمه» والذي نشر في شتوتجارت بألمانيا سنة ١٨٤٣م[١].

وقد وصف بفانموللر كتاب فايل بأنه «خطوة كبيرة إلى الأمام، وذلك بسعيه في رسم صورة أكثر تاريخية لأصول الإسلام على أساس من مصادر أكثر جودة وأوفر عدداً مما لم يكن متوافراً لأسلافه، وقد حققت الدراسات الاستشراقية تقدماً هائلاً في خلال الخمسين عاماً التي مضت بعد ظهور فايل، ولكن ذلك لم يقلل في شيء من الخدمة التي أداها فايل بوصفه أول من قام ببحث نقدي تاريخي حول هذا الموضوع، والنتيجة التي ينتهي إليها فايل في كتابه هي: أن محمداً يمكن أن يرى أيضاً في أعين غير المحمديين بأنه رسول الله»[٢]. ويخالف في وجهة النظر الإيجابية هذه الدكتور عبد الرحمٰن بدوي حيث يقول: «يعد كتاب فايل هذا أول سلسلة من الكتب التي سيكتبها المستشرقون المحدثون عن سيرة النبي ورسالته. ويعد أيضاً من أشدها تحاملاً وبعداً عن الموضوعية العلمية والدقة التاريخية»[٣].

[١٦] كوسان دي برسيفال caussin de Perceval (١٧٩٥ ـ ١٨٧١م):

وهو أستاذ العربية في معهد فرنسا ومن بحوثه: وقعة بدر ـ مرحلة من حياة الرسول ـ ضمن المجلة الأسبوعية سنة ١٨٣٩م، وباكورة في تاريخ العرب في ثلاثة مجلدات سنة ١٨٤٧م وقد تناول فيه: العرب قبل الإسلام، ثم عصر النبوة، ثم انضواء القبائل تحت راية الاسلام[٤].

يعرض بفانموللر لكوسان دي برسيفال بعد حديثه عن جوستاف فايل بقوله: «ومنذ ذلك الوقت بدأ محيط العلماء يزداد ميلاً إلى ذلك التقدير (للنبي ﷺ)،

---

(١) يأتي التعريف بجوستاف فايل لدى نجيب العقيقي في كتابه «المستشرقون» (٢/ ٢٦٦) تحت اسم سيمون فايل، ولعله سهو؛ فالمعلومات الواردة تحت هذا الاسم تخص جوستاف فايل كما أشار إلى كتابه وما تضمنه بفانموللر كما سيأتي. انظر: سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٧.

(٢) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٧.

(٣) موسوعة المستشرقين، ص٣٩٠ ـ ٣٩١.

(٤) المستشرقون: للعقيقي (١/ ١٧٧).

وهكذا يوضح كوسان دي برسيفال في مقالاته أنه من غير المعقول ألا يستطيع المرء أن يرى في محمد إلا مخادعاً ذكياً أو عبقرية طموحة. لقد كان محمد ـ حسب رأي برسيفال ـ على وجه الخصوص إنساناً مقتنعاً بأنه قد انتدب لتخليص شعبه من الضلال والعمل على إحيائه.

وقد كانت المصادر التي استطاع هؤلاء الكُتّاب أن يضعوها تحت تصرفهم مصادر ثرية جداً بالمقارنة إلى ما كان متوافراً لأسلافهم، ولكنها مع ذلك كانت أقل بكثير جداً مما أصبح متيسراً لنا في خلال العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة[١]. وبالإضافة إلى ذلك كانت لا تزال هناك ثغرات هامة في مناهج بحوثهم[٢].

[١٧] توماس كارليل Thomas carlyl (١٧٩٥ ـ ١٨٨١م):

بينما كان عصر التنوير[٣] في أوروبا يرى في النبي ﷺ مشرعاً من خارج الوسط المسيحي، ومن ناحية أخرى خارجاً على القانون، وسافكاً للدماء، إذ خرج صوت قوي على ذلك التقليد عام ١٨٤٠م، وقدم النبي ﷺ في صورة غير مألوفة عند الغربيين، ألا وهو توماس كارليل في كتابه عن: «الأبطال وعبادة البطل والبطولة في التاريخ».

وهو كتاب تضمن ست محاضرات ألقيت في (٥ ـ ٢٢ مارس ١٨٤٠م) حول ستة أنماط ورموز للبطولة في التاريخ[٤]:

المحاضرة الأولى: نمط البطولة فيها هو البطل الإله، ورموزها مجموعة من أساطير الآلهة الإسكندنافية، أشهرها البطل الإله (أودين).

المحاضرة الثانية: البطل النبي، ورمزها محمد ﷺ.

---

(١) يلاحظ هنا أن بفانمولر كتب هذا الكلام عام ١٩٢٣م.

(٢) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٨.

(٣) تقدم في التعريف بهذا المصطلح أنه ظهر في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلادي في أوروبا تعبيراً عن الفكر ذي النزعة الإنسانية العقلية والعلمية والتجريبية.

(٤) ترجمه ملخصاً إلى العربية محمد السباعي، بعنوان: «الأبطال». وأما النسخة الأصلية فجاءت تحت عنوان: «الأبطال وعبادة البطل والبطولة في التاريخ»:

Thomas Carlyl, on Heroes, Hero Worship and the Heroic in History, Longman New York 1906.

Z, lecture the Hero as Prophet.

المحاضرة الثالثة: البطل الشاعر، ورمزها الشاعر الإيطالي[١] دانتي[٢] والإنجليزي شكسبير[٣].

المحاضرة الرابعة: البطل القس، ورمزها القس الألماني مارتن لوثر[٤].

المحاضرة الخامسة: البطل الأديب، ورمزها جونسون[٥] وروسو[٦] وبرنز[٧].

---

(١) وهو الصواب خلافاً لما ذكره المؤلف أو المترجم من أنه فرنسي.

(٢) دانتي أليجييري Dante Alighieri (١٢٦٥ ـ ١٣٢١م): شاعر إيطالي، مؤلف الكوميديا الإلٰهية المسيئة للنبي ﷺ وسيأتي التعريف بها، يعد من أشهر شعراء إيطاليا وأحسنهم وصفاً لصور الحياة في العصور الوسطى. من أشهر أعماله: الكوميديا الإلٰهية، و«الحياة الجديدة»، و«المأدبة». انظر: الموسوعة العربية، ص٧٧٨.

(٣) ويليام شكسبير (١٥٦٤ ـ ١٦١٦م): شاعر وكاتب إنكليزي يصنف كأعظم كاتب في اللغة الإنكليزية، وأعظم كاتب مسرحي على مستوى العالم، سبر في مسرحياته أغوار النفس البشرية. من أشهر آثاره: روميو وجوليت، ، وهاملت. انظر: الموسوعة العربية، ص٧٣٨.

(٤) مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦م): زعيم الإصلاح البروتستانتي، درس القانون ثم تحول عنه ودخل ديراً للرهبان الأوغسطينين، حيث رسم قسيساً، ثم عين لرعاية كنيسة فتنبرج بألمانيا. ولدى زيارته لروما في مهمة سنة ١٥١٠م ساءه الانحلال الروحي المتفشي في الأوساط الكنسية العليا. ثم تحدى مبعوث الكنيسة الكاثوليكية الذي كان يبيع صكوك الغفران. واحتجاجاً على تلك المفاسد علق على أبواب كنيسة القلعة القضايا الخمس والتسعين الشهيرة، ونتيجة لأعماله حرم لوثر رسميّاً من غفران الكنيسة سنة ١٥٢١م، وعندما صدر قرار بإلقاء القبض عليه، التجأ إلى قلعة فارتبورج، وهناك ترجم العهد الجديد إلى الألمانية، وبعد ذلك شرع في ترجمة كل الكتاب المقدس، نتج عن دعوة لوثر وآخرين للإصلاح الديني للكنيسة مذهب عرف بالبروتستانتية أو المحتجين (Protest) وتسمى بالإنجيلية أيضاً، ويعتقد أصحابه أن لكل قادر الحق في فهم الكتاب المقدس، فالكل متساوون ومسؤولون أمامه. انظر: الموسوعة العربية، ص١٥٧١، الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان (٢/٦١٦).

(٥) لم أقف عليه.

(٦) جان جاك روسو (١٧١٢ ـ ١٧٧٨م): كاتب وفيلسوف فرنسي، ساعدت فلسفته في تشكيل الأحداث السياسية التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. ومجمل مذهبه السياسي: أن «الإنسان الطبيعي» لا هو بالخير ولا بالشرير، وأن مساواة الناس قد زالت بظهور الزراعة والصناعة والملكية، وأن القوانين شرعت لتثبيت قوة الظالم على المظلوم، ويستطيع الناس تحقيق شيء من الحرية المدنية بدخولهم في تعاقد اجتماعي يجعل السيادة للمجتمع بأسره، رغم أنه لم يدع إلى الملكية الجماعية إلا أن آراؤه أثرت في المذاهب الاشتراكية والشيوعية الحديثة. انظر: الموسوعة العربية، ص٨٩٤، ومعجم الفلاسفة، ص٣٤٨ ـ ٣٣٢.

(٧) روبرت برنز أو بيرنز (١٧٥٩ ـ ١٧٩٦م): شاعر غنائي إسكتلندي، يعتبر الشاعر الوطني لإسكتلندا. يتميز شعره بالرقة، ومن أشهر أناشيده على المستوى العالمي نشيد الوداع. انظر: الموسوعة العربية، ص٤٦١ ـ ٤٦٢.

المحاضرة السادسة: البطل ملكاً وحاكماً، ورمزها كرومويل الإنجليزي[١] ونابليون الفرنسي[٢] الذي كان معاصراً لكارليل.

وقد قدم توماس كارليل النبي ﷺ لأول مرة في الغرب ليس بوصفه دجالاً كاذباً وسافكاً للدماء، وإنما بوصفه بطلاً نبياً استحق أن يوضع في سلسلة أبطال العالم وعباقرته العظماء، بسبب أعماله التي بوأته تلك المكانة بحسب معايير البطولة والعظمة التي حددها كارليل في ثلاثة معايير:

أولها: الصدق في القول. **والثاني**: الإخلاص في العمل لتحقيق الرسالة والهدف. **والثالث**: مدى تأثير البطل وامتداد إنجازاته وتأثيره المستمر في التاريخ الإنساني.

ولا شك أنها كانت المرة الأولى التي يقرع فيها آذان الغرب صوت يضع محمداً ﷺ في مصاف الأبطال حتى وإن كانت البطولة وفق معايير وضعية، وعلى أسس وقواعد انتقائية: كن حراً، كن صادقاً، كن مخلصاً.

وستأتي مناقشة مضامين كتاب كارلايل ضمن عرض آراء المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام.

[١٨] ألويس شبرنجر Alois Sprenger (١٨١٣ ـ ١٨٩٣م):

في عام (١٨٦١ ـ ١٨٦٥م) نشر الألماني من أصل نمساوي[٣] ألويس شبرنجر كتابه: «حياة محمد وتعاليمه».

وفيه قدم سيرة علمية للنبي محمد ﷺ اعتماداً على سيرة ابن إسحاق التي كان «فيستنفيلد» و«ج، فايل» قد ترجماها عام ١٨٦٠م، إلى جانب بعض المصادر

---

(١) أوليفر كرومويل (١٥٩٩ ـ ١٦٥٨م): رئيس الجمهورية التي أقامها بإنجلترا ١٦٥٤م بعد أن خاض معارك عديدة. مال إلى التسامح الديني لكنه لم يطبقه إلا على اليهود والبروتستانت، أقر المخالفون له ببراعته الحربية. استقال من الحكومة سنة ١٦٥٩م. انظر: الموسوعة العربية، ص١٤٥٧.

(٢) لويس نابليون بونابرت (١٨٠٨ ـ ١٨٧٣م): إمبراطور الفرنسيين. ترقى في المناصب عقب اندلاع ثورة فبراير ١٨٤٨م، حتى أصبح رئيساً للجمهورية الفرنسية الثانية فأخذ يوسع سلطاته تدريجيّاً. واتسم حكمه بالدكتاتورية، بينما كان يتظاهر بالدفاع عن الديمقراطية الفرنسية، أطلق على نفسه بعد ذلك لقب «إمبراطور الفرنسيين». في سنة ١٨٧٠م أعلن الحرب الفرنسية البروسية وقادها بنفسه، ولكنه سرعان ما سلم، فثار الفرنسيون عليه وأعلنوا خلعه، وذهب نابليون بعد إطلاق سراحه إلى إنجلترا حيث قضى نحبه في منفاه. انظر: الموسوعة العربية، ص١٨١٣.

(٣) وقد ترجم له العقيقي ضمن المستشرقين النمساويين (٢/ ٢٧٧).

الأخرى من كتب التفاسير والسير والتي كان قد حصل عليها في أثناء رحلته العلمية، مثل: المجلد الأول من طبقات ابن سعد.

ويعد شبرنجر بهذا العمل ممثلاً لأول مرحلة من مراحل الدراسات الإسلامية المتخصصة في الغرب، فقد تبوأ كتابه مكانة مرموقة بين المستشرقين في الدراسات الإسلامية سواء أكانوا ناقدين لهذا الكتاب أم متابعين له.

اتسمت دراسة شبرنجر بعدم وضوح طبيعة الدين الإسلامي عنده، مقللاً من شأن دور النبي ﷺ، واصفاً له بأنه كان مصاباً بالصرع والهستيريا معاً، ومع أنه نجح في تكريس فكرة تناول الإسلام في إطار بيئته الثقافية والدينية عندما عرض لحياة محمد ﷺ في ضوء عصره والأحوال السائدة في شبه الجزيرة العربية وآسيا، فاستطاع بذلك أن يوجد رباطاً بين العديد من التساؤلات المطروحة حول الإسلام ونبيه إلا أنه فشل في خدمة هذه الفكرة واستثمارها عندما وقف بها عند حدود المصادر والروافد مقرراً أن الإسلام خلق من روح عصره، أما عن طبيعة الإسلام ذاته فلم ينته فيه إلى نظرية ما[1].

[١٩] وليام موير W. Muir (١٨١٩ ـ ١٩٠٥م):

في كتابه ذي المجلدات الأربع عام (١٨٥٨ ـ ١٨٦١م) وعنوانه: «حياة محمد ﷺ»، وفيه: يصف النبي ﷺ بأنه كاذب، وأنه قد ربط نفسه بالشيطان فتحول من مجرد واعظ في مكة إلى سياسي طامع في السلطة والسلطان وملذات الدنيا في المدينة[2].

وسيأتي الحديث عنه مفصلاً ضمن المستشرقين المتحاملين على الإسلام.

[٢٠] نيقولا يفينتشي تولستوي Tolstoy (١٨٢٨ ـ ١٩١٠م):

الأديب والفيلسوف الروسي العالمي الذي يعد أدبه من أمتع ما كتب في التراث الإنساني عن النفس البشرية.

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٨٩، عن:
Alois Sprengeter, Das Leben und die lehre des Mohammad, Berlin 1861.

(٢) المرجع السابق، ص٩٠، وصفه العقيقي بقوله: «من آثاره سيرة النبي والتاريخ الإسلامي، وهو من المراجع المعتمدة التي يعتمد عليها في الجامعات الإنجليزية والهندية، لما احتواه من شمول شرح ودقة باستناده إلى المصادر الإسلامية، في أربعة أجزاء» (٢/ ٥٩).

تعمق تولستوي في القراءات الدينية، وقاوم الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، ودعا للسلام وعدم الاستغلال، وعارض القوة والعنف في شتى صورهما. ولم تقبل الكنيسة آراء تولستوي التي انتشرت في سرعة، فكفرته وأبعدته عنها. وأُعجب بآرائه عدد كبير من الناس وكانوا يزورونه في مقره بعد أن عاش حياة المزارعين البسطاء تاركاً عائلته الثرية المترفة.

نظر تولستوي إلى شخصية النبي محمد ﷺ باحترام وتقدير، ولعل أكبر دليل على ذلك أنه أصدر باللغة الروسية كتاباً بعنوان: «حِكَم النبي محمد» في عام (١٩٠٩م)؛ أي: قبل وفاته بعام واحد، وقصد من كتابه هذا الدفاع عن الإسلام ونبيه ﷺ.

كتاب «حِكَم النبي محمد» في أصله عبارة عن أحاديث نبوية ترجمها «عبد الله السهروردي» المسلم الهندي الجنسية إلى اللغة الإنجليزية، وأطلع عليها «تولستوي»، فترجمها إلى اللغة الروسية، وقدم لها بمقدمة تتسم بالإنصاف التام، والإعجاب الكامل برسول الله محمد ﷺ.

والذي دفع الفيلسوف الروسي «تولستوي» إلى إخراج هذا الكتاب هو أنه رأى تحامل الملحدين والمنصريين على الدين الإسلامي ورسوله ﷺ، ونسبتهم إلى صاحب الشريعة الإسلامية أموراً تتنافى مع الحقيقة، تصور للروس تلك الديانة وأعمال معتنقيها تصويراً يغاير حقيقتهم وواقعهم، فهزته الغيرة على الحق الذي يعرفه، وشعر في أعماقه بأن السكوت عن البيان ليس من سمات الكاتب الحر، والمفكر الأصيل.

وخصوصاً أن هذا النبي الكريم قد اتصف بصفات عظيمة تستحق الثناء والاحترام كما يقول تولستوي: «لا ريب أن هذا النبي من كبار المعلمين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة. ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام، وتكف عن سفك الدماء، وفتح لها طريق الرقي والتقدم، وهذا عمل عظيم، لا يفوز به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلماً. ورجل مثله جدير بالإجلال والاحترام»[١].

وسيأتي عرض آراء تولستوي ومناقشتها بشكل مفصل ضمن الحديث عن مدرسة الاستشراق الروسي.

---

(١) الأعمال الكاملة: لتولستوي، اعتنى بإخراجها: محمود النجيري، المقدمة، ص٣ ـ ١٦.

[٢١] هوبرت جريمي Hubrt Grimme (١٨٦٤ ـ ١٩٤٢م):

هوبرت جريمي الألماني هو خليفة ألويس شبرنجر، وقد استطاع في كتابه: «محمد»، الصادر عام ١٨٩٢م، أن يتجاوز أستاذه شبرنجر، فيصل إلى تصور متكامل لحل التساؤلات والإشكالات المثارة من خلال مصادر السيرة عن النبي ﷺ، ويتلخص ذلك التصور:

في أن النبي ﷺ لم يكن يهدف إلى تأسيس دين جديد، ولكنه كان يرغب في إصلاح مجتمع مكة الفاسد، فقام ثائراً على الظلم الاجتماعي في توزيع الثروات، وسعى بكل قوة إلى إقامة مجتمع إنساني عادل، ووجد أن أفضل وسيلة للتخلص من المعارضة المكية القوية لرسالته الإصلاحية الاجتماعية ضد النظام الطبقي، هي توظيف فكرة الحساب يوم القيامة وإسنادها إلى الوحي المتلقي من جبريل، وذلك للتأثير على الأغنياء من أجل قبول رسالته الاجتماعية بتوزيع الثروة على الفقراء من خلال فرض الزكاة على الأغنياء، وهو يحاول اصطياد العناصر المؤدية لنظريته التي تفسر حياة محمد ﷺ في ضوء المذهب الماركسي(١) المادي، مما لا يسوغه مسوغ علمي(٢).

---

(١) الماركسية: مصطلح يدخل في علم الاجتماع والاقتصاد السياسي والفلسفة. سميت بالماركسية نسبة إلى منظرها الأول كارل ماركس، وهو فيلسوف ألماني وعالم اقتصاد وصحفي ثوري. أسس نظرية الشيوعية العلمية بالاشتراك مع فريدريك إنجلز. وقد كان الاثنان اشتراكيين بالتفكير، لكن مع وجود الكثير من الأحزاب الاشتراكية، وقد تفرد ماركس وإنجلز بالتوصل إلى الاشتراكية كتطور حتمي للبشرية وفق المنطق الجدلي وبأدوات ثورية. فكانت مجمل أعمالهما تحت اسم واحد وهو الماركسية أو الشيوعية العالمية. انظر: الموسوعة الفلسفية، ص٤٤٠، معجم الفلاسفة، ص٦١٨.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٠، عن:
Hubert grimme, Mohammad, Nunster, L. W., Aschendoff 1892.

المبحث الثالث

النبي ﷺ في كتابات القرن العشرين

مع حلول القرن العشرين استمرت حركة التأليف الاستشراقية عن الإسلام، بل وأخذت تتخصص في دراساتها مع كثافة في إنتاجها، ومن الجوانب التي شهدت عناية بالتأليف ما يتعلق بالنبي محمد ﷺ وسيرته وجوانب حياته، ومن أهم الشخصيات التي ساهمت في هذا المجال، ما يلي:

[١] ليون كايتاني Leone Caetani (١٨٦٩ ـ ١٩٢٦م):

ففي مطلع القرن العشرين الميلادي قام الإيطالي ليون كايتاني، والدنماركي فرانتس بول Frants Buhl انطلاقاً من منطلقات علمية مختلفة بإظهار التقدير للنمط فوق المعتاد الذي كان عليه محمد ﷺ ليس في جانب العبقرية السياسية فقط، وإنما كذلك في حقيقة الوحي الديني الذي تلقاه، وأيضاً الرقي الذي اتسمت به شخصيته بالمقارنة بما كان عليه التقليد الأخلاقي في عصره.

فكايتاني على الرغم من أنه يميل إلى إعطاء دور كبير ووزن أثقل للعوامل الاقتصادية والاجتماعية في حياة محمد ﷺ ورسالته، إلا أنه يرفض النظرية المتطرفة لهوبرت جريمي التي تُرجع دعوى محمد ﷺ للنبوة إلى رغبته في تأييد دوره بوصفه مصلحاً اجتماعياً، وتلخص رسالته في ذلك الدور الإصلاحي الاجتماعي.

ويخلص كايتاني في كتابيه: «حوليات الإسلام» و«قصة الشرق»، إلى أحكام إيجابية بشأن صدق النبي ﷺ، وإخلاصه وعدم مراعاته المنفعة والمكسب الشخصي، وحسن نيته، وتأثير حياته المذهل في الفاعلية والتغيير.

لكنه لا يتوانى عن الضرب على وتر الضعف الإنساني لدى النبي ﷺ والذي فتح الباب أمام حب الذات، والأخطاء الدينية، والتجاوزات الأخلاقية[١].

[٢] غوستاف لوبون Gustave Le Bon (١٨٤١ ـ ١٩٣١م):

الدكتور غوستاف لوبون من فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيين، ومن المستشرقين المنصفين للحضارة العربية والإسلامية إلى حد بعيد.

دافع لوبون في كتابه الشهير: «حضارة العرب» عن الحضارة العربية والإسلامية فأجاد ودافع عن فتوحاتها فأنصف، كل ذلك بروح عالية المستوى قوية الحجة، إلا أنه مع حسن نيته لم يرهق نفسه ليحيط بدقائق العقيدة الإسلامية وأحياناً أصولها، فجاءت معظم هفواته وأخطائه في هذا المجال، فهو لم يتصور أو يدرك ظاهرة الوحي، أو أدركها لكنه لم يقر بها لمحمد ﷺ، ولم يستوعب بعض الأمور المتعلقة بالنبوة والقرآن والشريعة[٢].

ولعل أبرز تلك الهفوات وصفه للنبي ﷺ بصفة «الهوس»[٣] و«المتهوس»[٤]، وكذلك زعمه أن القرآن من تأليف محمد ﷺ وشاهد من شواهد عبقريته[٥]، وأن الإسلام مقتبس من عناصر يهودية ونصرانية[٦]، ومع ذلك لن نقول كما قال العقيقي في كتابه المستشرقون عن الكتاب: «ولا قيمة علمية له»[٧]، ففي ذلك ظلم للمؤلف والكتاب، خصوصاً وقد جاء فيه عبارات منصفة

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩١، عن:
Leone Caetanik,
Anali de II Islam I-II, Mailand1905-1907.
di Storia Orientale III, Mailand 1914.

(٢) غوستاف لوبون في الميزان، شوقي أبو خليل، ص١١.

(٣) يطلق على عدة معان، منها: ما كان طرفاً من الجنون. المعجم الوسيط (٢/ ٩٩٩).

(٤) حضارة العرب: غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، ص٣٩، ٤٠، ١٤٥، ١٥٥.

(٥) المرجع السابق، ص١٤٨، ١٥١، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥.

(٦) المرجع السابق، ص١٣٦، ١٣٧.

(٧) المستشرقون (١/ ٢٢٦).

في وصف النبي ﷺ تستحق التوقف والإشادة ستأتي الإشارة إليها ضمن ثنايا البحث.

[٣] فرانتس بوهل (بول) Frants Buhl (١٨٥٠ ـ ١٩٣٢م):

المستشرق الدنماركي صاحب السيرة المستفيضة ذات المصادر العلمية الغزيرة عن النبي ﷺ والتي تعد في طبعتها الألمانية ١٩٣٠م أكبر مؤلف عن حياة محمد ﷺ في القرن العشرين الميلادي قبل صدور سلسلة أعمال مونتغمري وات.

عمل فرانتس بول جاهداً على تصوير الضعف الإنساني في حياة النبي ﷺ كما فعل كايتاني من قبل، لكنه يبرز كذلك صراحة النبي ﷺ وصدقه وعظمة شخصيته التي ظهرت من خلال حياته العملية، وأيضاً عقليته وبصيرته النافذة التي تظهر في اختياره أبا بكر وعمر رضي الله عنهما واصطفاءهما ليكونا عوناً له في حياته وبعد مماته.

وإن كان قد ذهب إلى أن الوحي المحمدي في الفترة المدنية لم يكن بتلك الدرجة الكافية من الثقة نتيجة تفكير محمد ﷺ العميق في حلول المشكلات التي تواجهه، واستعانته بمعاونيه ومستشاريه[(١)].

[٤] دنكن بلاك ماكدونالد D. B. Macdonald (١٨٦٣ ـ ١٩٤٣م):

في عام ١٩١١م أصدر القس الإسكتلندي، والمنصر الشهير دنكن بلاك ماكدونالد كتابه: «أوجه الإسلام».

وفيه يظهر النبي ﷺ وليداً في بيئة جاهلة: دينياً وأخلاقياً ومعرفياً جهالة بلغت من السوء مداها، فوجدت فيه مصلحاً، وقف حياته على تطهيرها من الشرك، وتخليصها من أسباب الظلم الاجتماعي، وكذلك العوز والفقر المدقع.

ويقبل ماكدونالد دعوى محمد ﷺ تلقي الوحي، ولا يكذبه في ذلك، بل ينفي عن ذلك الوحي أي ارتباط بالشياطين أو الأرواح الشريرة.

لكنه يرجع ذلك الوحي في حقيقة الأمر إلى رؤى وتخيلات تراءت للنبي وهو صادق في الإخبار عنها كما تراءت له، لكن لا رصيد لها في الواقع

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٢، عن:
Frants Buhl, Das Leben Muhammads, Leipzig 1930.

الحقيقي، فانتماؤها إلى عالم الرؤى والخيال والهلوسة، وليس إلى العالم الواقعي المعاش(١).

كما يرى ماكدونالد أن التعاليم التي جاء بها النبي ﷺ هي تعاليم ناقصة في العديد من الجوانب، ولذلك فإن واجب العاملين في مجال التنصير أن يكملوا هذه الجوانب، ويعملوا على سد نقائضها وعوارها، وذلك بتنقيتها من البدع والهرطقات الأريوسية التي لحقت بها، كي تعود أفكاراً مسيحية خالصة لا سيما في جانب الاعتقاد في شخص المسيح وألوهيته(٢).

[٥] إجناس جولدزيهر Ignaz Goldziher (١٨٥٠ ـ ١٩٢١م):

في مطلع القرن العشرين عرف الفكر الاستشراقي المستشرق المجري إجناس جولدزيهر الذي يعده كثيرون المؤسس الحقيقي للدراسات الإسلامية الحديثة في أوروبا من خلال جهوده الفاعلة في مجال التأليف وكتابة المقالات والمواد العلمية في الموسوعة الإسلامية، وبالإسهام في تجديد مناهج الغرب في دراسة الإسلام وحياة نبيه ﷺ انطلاقاً من منهجية الدراسة في مجال تاريخ الأديان(٣).

وقد انتهى جولدزيهر في كتابيه المشهورين:

١ ـ «محاضرات في الإسلام» الصادر سنة ١٩١٠م.

٢ ـ «مدارس التفسير الإسلامي» الصادر سنة ١٩٢٠م.

عندما طبق آليات منهج النقد التاريخي في مجال تاريخ الأديان على الإسلام إلى أن دعوة النبي محمد ﷺ ما هي إلا مزيج منتخب من معارف وآراء دينية قد عرفها من خلال اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها، تلك المعارف التي عكف عليها بالتأمل والتمثل وهو منطو في عزلته حتى تجذرت في أعماق نفسه فصارت لديه يقيناً راسخاً في شغاف قلبه مما جعله يعدها حقيقة إلٰهية

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٢، عن:
D. B. Macdonald, Aspect of Islam, New York 1911.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٣، عن:
J. Waar denburg, L. Islam dans le miroire de loccident, P. 217. Paris 1962.

(٣) المرجع السابق، ص٩٣، عن:
Richard Hartmaan; Goldziher, ZDMG, Lxxvi, Band, 1922,S: 285-291.

واجبة الإبلاغ والبيان، وأنه هو نفسه مأمور بإنفاذ هذا الواجب، وإبلاغ تلك الحقيقة الإلهية.

كما أن حياة النبي محمد ﷺ ـ في زعمه ـ لا تصلح نموذجاً أخلاقياً رفيعاً للمؤمنين به؛ لما يكتنفها من الضعف الإنساني وعدم الكمال الذي يشمل كذلك دعوة محمد ﷺ التي بدأت منقوصة في مكة، ثم اكتملت في المدينة بفعل الاحتكاك باليهود[١].

[٦] نصر الدين دينيه (ألفونس إيتيان دينيه) Alphonse Etienne : (١٨٦١ - ١٩٢٩م):

ولد الرسام العالمي الفرنسي ألفونس إيتيان دينيه في باريس عام ١٨٦١م لأبويين كاثوليكيين، وعلى مر الزمن أخذ يظهر عليه شعور بعدم الاطمئنان والحيرة الدينية، وبعد بحث عميق في سر قلقه وأصول وفروع اعتقاده، اقتنع بالإسلام، فأعلن رسمياً إسلامه سنة ١٩١٣م بالجامع الجديد في مدينة الجزائر، وتسمى بنصر الدين، وطلب «أن يدفن في قبره مسلماً بمدينة (بو سعادة) بالجزائر، وقد نقل جثمانه من باريس، حيث توفي في ديسمبر ١٩٢٩م»[٢].

وكان أكبر عمل قدمه دينيه فيما يخص دراساته الإسلامية، هو كتابه في السيرة: (محمد رسول الله) الذي اشترك فيه مع أحد الباحثين الجزائريين وهو سليمان بن إبراهيم[٣]، وقد اعتمد فيه على ما دوَّنه أصحاب السنن والسير، غير ملتفت إلى آراء المستشرقين، ولذلك ثارت ثائرتهم حيث زعموا أن آراءه تخالف ما انتهى إليه البحث العلمي الحديث، والحقيقة أن دينيه اعتمد هذا المنهج متعمداً، إذ رأى أنه يستحيل أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئاتهم ونزعاتهم المختلفة عند دراساتهم في النبوة الإسلامية، ولذلك كان تحريفهم للسيرة ولحياة الصحابة كبيراً حتى غطى على الحقيقة، وهم «رغم ما يزعمون من

---

(١) المرجع السابق، ص٩٤، عن:
Ignaz Goldziher, Die Richtungen der islamischen Koranasuslagung, Leiden 1920.
Vorlesungenueber den Islam, Heidelberg 1910.

(٢) محمد رسول الله: نصر الدين (دينيه) وسليمان بن إبراهيم، مقدمة الشيخ عبد الحليم محمود، ص٨ ـ ٩. وانظر: الاستشراق والمستشرقون: للعقيقي (١/٢٢٨).

(٣) لم أقف على ترجمته.

إتباعهم لأساليب النقد الحديثة، فإننا نلمس في كتاباتهم محمداً يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلف ألمانياً، ومحمداً يتحدث بالإيطالية، إذا كان الكاتب إيطالياً، وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب»[١].

وقد أعطى دينيه الكثير من الأمثلة على ما ذكره حيث بيَّن الاختلاف الكبير بين الغربيين في كل المباحث التي عقدوها لحياة النبي ﷺ حتى استحال أمر كتابة السيرة بمثل مناهجهم، ولأجل هذا كتب دينيه في السيرة باعتباره مؤمناً وباحثاً، فتجاوز كل آراء المستشرقين التي لم تستطع أن تعبر عن الحقيقة، وقرر «أن صورة نبينا الجليلة التي خلفها المنقول الإسلامي تبدو أجل وأسمى، إذا قيست بهذه الصور المصطنعة الضئيلة التي صيغت في ظلال المكاتب بجهد جهيد. ونرجو أن يعرف العلماء ضلالهم، فيكفوا عن النيل من هذه الصروح المعجزة التي رفعها التاريخ إقراراً بفضل أنبياء العرب وبني إسرائيل والهنود على الإنسانية، فإن أساس هذه الصروح أصلب من أن تخدشه تلك المعاول»[٢].

والملاحظ أن كتاب دينيه في السيرة لا يختلف من حيث مادته عن المؤلفات الإسلامية الأخرى، ولكنه يتميز عن الكثير منها بالأسلوب الشاعري الذي ألفت به مباحث مثل: معاناة النبي ﷺ ومجاهدته من أجل إعلاء كلمة الله، وتسامحه، وعلو همته، وطيب شمائله عليه الصلاة والسلام[٣].

وسيأتي الحديث عن دينيه كتابه في السيرة مفصلاً إن شاء الله تعالى ضمن المستشرقين المسلمين.

[٧] بول كازانوفا Paul Casanova (١٩٢٦م):

يعتبر المستشرق كازانوفا من أكثر المستشرقين المعاصرين تحاملاً على العقيدة والنبوة الإسلامية.

وقد بدت مرجعيته المسيحية القروسطية واضحة تماماً في كتابه: «محمد ونهاية العالم» الذي لم يوافق على منهجه فيه، ولا على نتائجه المستشرقون المعاصرون أنفسهم.

---

(١) محمد رسول الله: نصر الدين (دينيه)، ص٤٣.
(٢) المرجع السابق، ص٥٧.
(٣) المرجع السابق، ص٥٢.

وقد سعى كازانوفا في هذا الكتاب إلى إثبات تأثر القرآن الكريم بالأناجيل بكل طريق، وركز على فكرة أحداث القيامة التي حاول أن يثبت ببحثها تحكم فكرة قرب نهاية العالم في نفسية النبي ﷺ ووقوعة تحت تأثيرها.

ذهب كازانوفا يلح على «أن القرآن كان دوماً يؤكد على قرب يوم القيامة الذي سيتبع بيوم الحساب والعقاب»[١]. وأن «مذهب محمد يعرض توازياً غريباً مع مذهب المسيح حول قرب ملك الله»[٢].

ويبدو جلياً أن هذا المستشرق كان يجهل تماماً الهدف من ذكر القيامة في القرآن الكريم ـ والعهد الجديد أيضاً ـ وهو الإبانة عن كون الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان العقيدة، حيث يقول تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾ [النساء: ٨٧]، ويقول: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَأٓتِيَةٞۖ فَٱصۡفَحِ ٱلصَّفۡحَ ٱلۡجَمِيلَ ﴿٨٥﴾﴾ [الحجر: ٨٥]، كما أنه تجاوز عن الفرق الشاسع بين نصوص القرآن وعقيدة النصارى في الأمر، إذ يجعل القرآن هذا الحدث من مسائل الغيب التي لا يعلمها إلا الله، يقول تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرۡسَىٰهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ رَبِّيۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقۡتِهَآ إِلَّا هُوَۚ ثَقُلَتۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الأعراف: ١٨٧]، ولذلك لم يكن النبي ﷺ مهووساً بيوم القيامة كما صوره كازانوفا، بل اكتفى فيه بالتبليغ، وهذا واضح في قوله تعالى بعد الآية التي ذكرناها من الأعراف: ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨].

وقد أثر ما نبهنا عليه قبل قليل في الفكر الإسلامي وفي حياة المسلمين، فلم نرهم يوماً ـ رغم إيمانهم باليوم الآخر ـ يخرجون إلى الشوارع مهووسين بقرب الساعة كما حدث ذلك مرات في تاريخ المسحيين، ولا حدد الفكر الإسلامي لهذا اليوم العظيم تاريخاً كما فعل اليهود، الذين جعلوا أيام الأرض

---

(١) Mohamed et la findu monde-p. Casanova-p 12. نقلاً عن نبوة محمد في الفكر الاستشراقي، ص٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٢) المرجع السابق، ص٢٢١.

معدودة بحوالي ستة آلاف سنة بعد خلق آدم عليه السلام الذي مضى على وجوده ـ حسب التقويم العبري لسنة ١٩٧٥م ـ ٥٧٣٦ سنة[١].

كما أظهر كازانوفا جهلاً بالموضوع برمته، حيث يجعل من أدلته على كون القرآن الكريم ـ أو القسم المكي منه على الأقل ـ كتاب «قيامة» ما ورد فيه من إمكانية أن يدرك النبي ﷺ هذا اليوم، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يونس: ٤٦]، وقد كان يكفيه هنا أن يعلم أن القيامة ما دامت من أمور الغيب فمن الممكن أن تحدث في أي زمن، ومعنى هذا ألا نتجاوز في فهم الآية دلالتها على تسامي العلم بموعد القيامة لجميع البشر بما فيهم النبي ﷺ ولكنه تجاوز عن كل ذلك واتهم الصحابة بتحريف القرآن لما لم تحن القيامة التي كانوا يعتقدون ـ تبعاً لتعليم النبي لهم ـ حدوثها في زمانهم.

والملاحظ أن هناك تفسيراً واضحاً لكل تجاوزات كازانوفا، وهو سعيه إلى تحقيق الفكرة الجوهرية المتحكمة في كامل تفكيره، والتي عبر عنها بقوله:

«ونحن نعتقد بأن محمداً كان ينتمي إلى فرقة مسيحية تؤمن بأن الزمان قد انتهى، وكانت لا تنتظر إلا قدوم نبي أخبر عنه المسيح، وهو يحمل اسم (باراكلي)، والذي يقابل في العربية (أحمد) وهي صيغة أخرى لاسم محمد»[٢].

[٨] سنوك هرجرونية Snouck Hurgronje (١٨٥٧ ـ ١٩٣٦م):

يعتبر المستشرق الهولندي اللاهوتي سنوك هرجرونية خادم السياسة الاستعمارية الهولندية، والذي ينسب إليه مع جولدزيهر الفضل في إضفاء طابع التخصص على علم الدراسات الإسلامية الحديثة في الغرب.

طبق سنوك هرجرونية منهجية تاريخية في تناول رسالة محمد ﷺ وهي منهجية وإن اختلف اسمها عن الاسم الموضوع لمنهجية جولدزيهر، إلا أن المحتوى واحد، فهرجرونية في توظيفه لذلك المنهج الذي يطلق عليه (التمثيل

---

(١) القرآن والإنجيل والقرآن والعلم: موريس بوكاي، ص٤٠.

(٢) Mohammed et la fin du monde-p. Casanova-p 23. نقلاً عن نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٢٢٢.

والاستيعاب) ينتهي إلى النتائج ذاتها التي انتهى إليها جولدزيهر، فرسالة النبي ﷺ لديه قد استوعبت عناصرها الأساسية من الخارج، فعلى الرغم من معارضة النبي ﷺ للديانات الجاهلية، وكذلك اليهودية والنصرانية إلا أنه قد استوعبها جميعاً وتمثلها في تعاليمه[١].

[٩] صموئيل مرجليوث S. Margaliouth (١٨٥٨ ـ ١٩٤٠م):

المستشرق الإنجليزي المشهور قرر في كتابه: «محمد وظهور الإسلام» أن النبي ﷺ قد ضلل الناس عمداً عندما ادعى نزول الوحي عليه[٢].

وسيأتي الحديث مفصلاً عن كتاب مرجليوث ضمن كتابات المستشرقين المتحاملين على الإسلام.

[١٠] هنري لامنس H. Lammens (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧م):

اللاهوتي اليسوعي الكاثوليكي البلجيكي، صاحب الدراسات العديدة عن الإسلام والسيرة النبوية والتي مارس من خلالها نفوذاً منقطع النظير على الدراسات الغربية عموماً، والكاثوليكية خصوصاً عقوداً طويلة من الزمن[٣]، وما يهمنا من أعماله هي:

كتابه: «هل كان محمد صادقاً؟» و«فاطمة وبنات محمد» و«غرب الجزيرة العربية قبل الهجرة» و«الإسلام: عقيدة ومؤسسات» و«مهد الإسلام».

وقد تبنى لامنس في هذه المؤلفات موقفاً جدلياً خالصاً يشن من خلاله هجوماً وقحاً على شخص النبي ﷺ وعلى أصالة نبوته، وتعاليمه، وسيرته، وكذلك الهجوم على ابنته فاطمة وزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنهما.

فالنبي ﷺ في رأي لامنس: منافق، وفاسق، وجبان، وداعر، وقاتل،

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٤، عن:
Snouck Hurgronje, Der Islam (1886) U. G..

(٢) المرجع السابق، ص٩٤.

(٣) انظر في ترجمته: المستشرقون (٣/ ٢٩٣ ـ ٢٩٦)، موسوعة المستشرقين: لبدوي (٢٤٧ ـ ٢٤٨)، الأعلام: للزركلي (٨/ ١٠٠)، الرسول في كتابات المستشرقين: نذير حمدان، ص١١٠، ١٦٤ ـ ١٦٥.

وغدار، ووحشي، وبرجوازي[١]، وباحث عن المتعة والرفاهية، ومستعد بالفطرة لكل كذب وخديعة.

أما السيدة فاطمة فهي غبية متغطرسة، ومتذمرة ومتسلطة على زوجها البدين والقبيح والجبان علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين[٢].

وبسبب وقاحة هذا الهجوم على النبي ﷺ، وكذلك هيمنة طروحات لامنس على الدراسات الغربية حول النبي ﷺ فقد تصدى كثيرون لنقد لامنس سيأتي ذكرهم في عرض ومناقشة آراء لامنس ضمن المستشرقين المتحاملين على الإسلام.

[١١] الفرنسي لويس ماسينون Lowis Massignon (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢م):

المستشرق الفرنسي الكبير لويس ماسينون، والذي كان ازدواجياً في رؤيته لنبوة محمد ﷺ، ففي الوقت الذي أدرج كتابه:

«الدوحات الإبراهيمية الثلاث» رسالة النبي محمد في خطة الخلاص الإلٰهي ذي المراحل الثلاث: (اليهودية دين الأمل، والمسيحية دين المحبة، والإسلام دين الإيمان)، وأن تلك الرسالة قد أنقذت إسماعيل عليه السلام من الإقصاء من الوعد المقدس الذي فرضته عليه النصرانية، وأنها لم تتبع الإدعاءات اليهودية حول المسيح، بل جاءت مصدقة لما في التوراة والإنجيل مكرمة للمسيح وأمه.

وبذلك تكون تلك الرؤية (لماسينون) إيجابية الطابع، وإن تخللتها سلبية دور النبي ﷺ في التوحيد واقتصاره على نفي التعدد في الآلهة.

إلا أن تلك الرؤية تجاورها رؤية أخرى معارضة جعلت رسالة النبي ﷺ مرحلة من مراحل الاتصال الصوفي بالمطلق من خلال شعائر الزهد والتأمل الذي يثمر معرفة عرفانية مسموعة ومرئية هي خلاصة الوحي المحمدي، والتي لم تكتمل لمحمد ﷺ فيها مرحلة الاتحاد والحلول الكامل الذي تحقق لأبي منصور

---

(١) البرجوازية: طبقة نشأت في عصر النهضة الأوروبية بين الأشراف والزراع، وأضحت دعامة النظام النيابي ثم صارت في القرن التاسع عشر الطبقة التي تملك وسائل الإنتاج في النظام الرأسمالي وقابلت بهذا طبقة العمال. انظر: المعجم الوسيط، ص٤٧.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٦.

الحلاج[1] الصوفي المقتول، والذي يربط من خلاله الوحي المحمدي بعقيدة الحلول النصراني في المسيح عيسى عليه السلام[2].

فهذه الرؤية الثانية تفضي إلى تفريغ نبوة محمد ﷺ من مضمونها الإلٰهي، وتلحقها بالتبعية للمسيحية، فهو من خلالها لا يرى في الإسلام سوى التصوف الذي يمثل أجل قيم الإسلام وحقائقه، ولم ير في التصوف سوى الحلاج أكثر النماذج الصوفية[3] انحرافاً بنظريته في الحلول والاتحاد[4] وفي نظرية النور

(١) الحسين بن منصور الحلاج (٠٠ ـ ٣٠٩هـ): فيلسوف صوفي من الغلاة، ويصنفه بعضهم في زمرة الملحدين. ظهر أمره سنة ٢٩٩هـ فاتبع بعض الناس طريقته في التوحيد والإيمان. ثم كان يتنقل في البلدان وينشر طريقته سرّاً، وكان يظهر التشيع للخلفاء العباسيين ومذهب الصوفية للعامة، وهو في تضاعيف ذلك يدعي حلول الإلٰهية فيه. ذكر ابن النديم في وصفه: أنه كان محتالاً يتعاطى مذاهب الصوفية ويدعي كل علم، جسوراً على السلاطين، مرتكباً للعظائم، يروم إقلاب الدول ويقول بالحلول. وأورد أسماء ستة وأربعين كتاباً له، غريبة الأسماء والأوضاع، منها: «طاسين الأزل والجوهر الأكبر والشجرة النورية» و«الظلّ الممدود والماء المسكوب والحياة الباقية» و«قرآن القرآن والفرقان» و«القيامة والقيامات» و«هو هو». وضع المستشرق جولدزيهر رسالة في الحلاج وأخباره وتعاليمه، وكذلك صنف المستشرق لويس مسينيون كتاباً في الحلاج وطريقته ومذهبه. انظر: الفهرست (١/ ٩٠)، والبداية والنهاية (١١/ ١٣٢)، ولسان الميزان (٢/ ٣١٤)، والأعلام (٢/ ٢٦٠).

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٨، عن:

Louis Massignon, les trois Prieres d Abraham, Cahiers du sud Paris 1935.

(٣) الصوفية: طائفة من أهل البدع تنتحل الزهد والتعبد، ينسبون إلى لبس الصوف ـ على الراجح ـ لكثرة لبسهم له، وهم طوائف مختلفة، يجمعهم الزهد البدعي، والتعبد لله تعالى بما لم يشرع من الاحتفالات والرقص والسماع والأذكار البدعية وغير ذلك. انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: للرازي، ص٧٢، وللاستزادة انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف: محمد الكلاباذي، والتصوف المنشأ والمصدر: إحسان إلٰهي ظهير.

(٤) الحلول والاتحاد مصطلحات بدعية متقاربة، وهي على النحو التالي:

الحلول: اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر. والحلولية فرقة من المتصوفة تعتقد مذهب الحلول، وعندهم وبعض فرق النصارى أن اللاهوت (روح إلٰهية غير مخلوقة) قد حلت في الناسوت (الجسم البشري المخلوق)، والحلول باعتبار تمكنه نوعان: جواري، عبارة عن كون أحد الجسمين ظرفاً للآخر كحلول الماء في الكأس. وسرياني، عبارة عن اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة للآخر، كحلول الماء في المادة السكرية. وهو باعتبار العموم والخصوص نوعان: خاص؛ كزعم النسطورية من النصارى، أن اللاهوت (الله) حل في الناسوت (المسيح). وعام؛ كقول الجهمية ومن نحا نحوهم: إن الله بذاته في كل مكان.

الاتحاد: وهو امتزاج الشيئين واختلاطهما حتى يصيرا شيئاً واحداً. والاتحاد نوعان خاص وعام: =

المحمدي[(١)] التي ترتب عليها القول بوحدة الأديان، مما يجعل اليهودية والنصرانية والإسلام مجرد ألقاب وأسامي متناثرة لحقيقة واحدة، الفضل يكون فيها بالطبع للسابق على اللاحق.

كما أنه يرمي من وراء تلك الرؤية إلى جعل الغاية من القرآن الكريم ونصوصه تحقيق الاتحاد الكامل مع الله ذلك الذي تحقق للحلاج، لذلك يؤكد (ماسينون) على أن التصوف الإسلامي لم يتأثر بالتصوف الأجنبي، وأنه يعتمد على نصوص القرآن، فإذا كان القرآن بتلك الفرضية يستهدف تحقيق الاتحاد مع الله ـ حسب رأي ماسينون ـ فإن الاتحاد مع الله هو أساس الربانية المسيحية، فكأن غاية القرآن الكريم تحقيق النموذج الحلولي للمسيح[(٢)].

[١٢] ميجل آسين بلاثيوس Miguel Asin Palacios (١٨٧١ ـ ١٩٤٤م):

أبرز أعلام الاستشراق الإسباني الحديث والمعاصر بفضل ما قدمه للمكتبة الاستشراقية من أعمال شغلت الفكر الاستشراقي طويلاً في جدلية واسعة من التأيد والمعارضة.

فبلاثيوس أحد المغرمين بالبحث عن الأصول، والمولعين بتتبع التأثيرات والمؤثرات، والشغوفين برصد الأشباه والنظائر، وكان ذلك محور أعماله، وفي الوقت ذاته موضع الجدلية الكبرى التي أحدثها في دوائر الفكر الاستشراقي.

تبنى بلاثيوس منذ بواكير أعماله العلمية مسألة تأثير الثقافة الإسلامية في

= فالخاص؛ كقول اليعقوبية: إن اللاهوت والناسوت قد اختلطا اختلاط الماء باللبن. والعام، قول الملاحدة الذين يزعمون أن الله عين وجود الكائنات، وهو شر الأقوال كلها. انظر: التعريفات: للجرجاني، ص٩٢، مجموع الفتاوى (٢/ ١٧١ ـ ١٧٣)، الموسوعة الميسرة، ص٧٣١، تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد: للبقاعي، ص٢٤٩.

(١) النور المحمدي أو الحقيقة المحمدية: مصطلح صوفي يعني: أن نور محمد ﷺ أشرق قبل أن يكون الخلق، ومنه خلق الكون وما حوى، فهو أول شيء فاض عن الله ﷻ، ثم ما زال يظهر ويتسلسل هذا النور في الأنبياء إلى أن وصل إلى النبي محمد ﷺ، فكان محمد خاتم الأنبياء بهذا المعنى ولذا بُدئ به الأمر وختم، وكان محمد ﷺ أكمل تجلي خلقي ظهر فيه الحق فهو الإنسان الكامل الذي حاز خلاصة الكون كله وأصبح مقابلاً للذات الإلهية. انظر: مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي: لمحمود يوسف الشوبكي، مجلة الجامعة الإسلامية ـ المجلد العاشر، ص٤٥. وللاستزادة انظر: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية: د. صادق سليم، وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي: د. محمد لوح.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٨.

الثقافة النصرانية، وجوانب ذلك التأثير ومظاهره في مجال الأدب، والفلسفة، والتصوف، والمعتقدات الدينية، والأخلاق، وتجلى ذلك الاهتمام في أعماله عن كبار المتكلمين(١)، والصوفية، والفقهاء، والفلاسفة(٢)، وهم: ابن عربي، والغزالي، وابن حزم، وابن رشد، وإليه يرجع الفضل في الكشف عن ابن مسرة(٣) ومدرسته الفلسفية في البحث الذي خصه به بعنوان: «ابن مسرة ومدرسته: أصول الفلسفة الإسبانية الإسلامية».

وقد جمعت مقالاته المتعلقة بتأثير الإسلام في أوروبا والنصرانية في كتاب نشر بعنوان: «تأثيرات الإسلام» سنة ١٩٤١م.

إلا أن عمله الأكثر جدلية وإثارة كان عن تأثير الأخرويات الإسلامية في «الكوميديا الإلٰهية»(٤) لدانتي اليجيري الذي تقدم به، بمناسبة تعيينه عضواً في

---

(١) المتكلمين أو أهل الكلام: هم كل من سلك المنهج الكلامي في أبواب العقيدة كالجهمية والمعتزلة والأشاعرة والماتريدية وغيرهم. وعلم الكلام الذي اشتغل به هؤلاء: هو العلم الذي يقوم على إثبات العقائد الدينية عن طريق الأدلة العقلية. وأما سبب تسميته بعلم الكلام فقيل: لأن مسألة الكلام كانت أشهر مباحثه، أو لأنه يورث قدرة على الكلام في تحقيق الشرعيات وإلزام الخصوم، أو لأنه أكثر العلوم خلافاً وتنازعاً فيحتاج فيه إلى كثرة الكلام مع المخالفين والرد عليهم. انظر: المواقف في علم الكلام: للإيجي (١/ ٣١، ٤٦)، وللاستزادة انظر: موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسُّنَّة عرضاً ونقداً: د. سليمان بن صالح الغصن.

(٢) الفلاسفة: طائفة ينسبون إلى الفلسفة، وهي كلمة يونانية الأصل مركبة من لفظين: «فيلا»؛ أي: محب، و«سوفيا»؛ أي: الحكمة، فمعناها: محب الحكمة. من معتقداتهم الفاسدة: القول بقدم العالم، وإنكار علم الله تعالى، وإنكار النبوات، وإنكار البعث وحشر الأجساد وغيرها. انظر: الملل والنحل: للشهرستاني (٢/ ٣)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: للرازي، ص٩١، إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: لابن القيم (٢/ ٢٥٦).

(٣) ابن مَسَرَّة (٢٦٩ ـ ٣١٩هـ): محمد بن عبد الله بن مسرة، أبو عبد الله: متصوف متفلسف أندلسي، من دعاة الإسماعيلية. من أهل قرطبة. قال الحميدي: له طريقة في البلاغة وتدقيق في غوامض إشارات الصوفية، وتآليف في المعاني، ونسبت إليه بذلك مقالات نعوذ بالله منها! اتهم بالزندقة فخرج فارّاً، وتردد بالمشرق مدة، ثم انصرف إلى الأندلس. وكان يحرّف التأويل في كثير من القرآن، وقد رد عليه جماعة من أهل المشرق. للقاضي ابن زرب ـ من قضاة الأندلس ـ كتاب في الرد على ابن مسرة. انظر: الأعلام (٦/ ٢٢٣).

(٤) الكوميديا الإلٰهية: ملحمة نظمها الشاعر الإيطالي دانتي من ١٣٠٨ ـ ١٣٢١م، وجاءت في ١٤٢٣٣ بيتاً من الشعر. تعتبر من أهم الملحمات الشعرية في الأدب الإيطالي، سميت «كوميديا» لأنها انتهت نهاية سعيدة، أما الصفة «إلٰهية» فقد أضيفت إلى الاسم في القرن ١٦م. وتصف الملحمة رحلة قام بها الشاعر إلى الآخرة بحسب الرؤية المسيحية في الجحيم والمطهر والسماء، وانقسمت الملحمة إلى ثلاثة أقسام اتخذ كل منها اسماً من هذه الأسماء الثلاثة. وكان الشاعر =

الأكاديمية الملكية الإسبانية عام ١٩١٩م ونشر في مدريد في العام ذاته بعنوان: الأخرويات الإسلامية في الكوميديا الإلهية.

وقد كان جهد آسين بلاثيوس في هذا الجانب من أبرز الجهود الاستشراقية، وأكثرها موضوعية، واستحق ما لاقاه من عناية الباحثين المسلمين الذين توافدوا على ترجمة أعماله إلى اللغة العربية، مثل: الدكتور عبد الرحمٰن بدوي، والدكتور الطاهر مكي، والدكتور محمد مكي من أساتذة جامعة القاهرة.

لكن ما لا يحمد بلاثيوس عليه، وما فات مترجمي أعماله التوقف عنده والتنويه عليه هو رؤية بلاثيوس لنبي الإسلام ﷺ ورسالته:

فهو لم ير في محمد ﷺ ورسالته سوى ابن حقيقي واقعي لليهودية والنصرانية اللتين يدين لهما بالقسم الأوفر والأهم من معتقداته وشرائعه الأخلاقية، وشعائره التعبدية، ومع أن محمداً ﷺ ـ كما يرى بلاثيوس ـ ابن حقيقي لليهودية والنصرانية إلا أنه كان بعيداً عنهما في الجانب الروحي، بسبب تأثره ببيئته الوثنية التي اقتفى أثرها في حب القتال والنساء.

وقد بث بلاثيوس رؤيته تلك في مقالاته ومؤلفاته التي اختص بعضها بمعالجة هذه المسألة من خلال بحثه حول ابن عربي كما في كتابه: «الإسلام المنصر»، وبحثه: «تأثير الأناجيل في الأدب الديني الإسلامي»[١].

[١٣] كارل بروكلمان Carl Brockelmann (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦م):

المستشرق الألماني المشهور بموسوعته العلمية في تاريخ الأدب العربي، والتي تعد أضخم عمل موسوعي وأشهره في تاريخ الأدب العربي، استغرق فيه خمسين عاماً (١٨٩٨ ـ ١٩٤٩م)، ويشمل سجلاً للمصنفات، وقد أصبح ذلك

= الروماني فرجيل مرشداً لدانتي في الجحيم والمطهر، أما في السماء فاتخذ بياتريس مرشدة له. والملحمة في مجموعها تعبر عن الفكر الإيطالي في العصور الوسطى ممتزجاً بآراء دانتي الخاصة. ولها ترجمات عربية. انظر: الموسوعة العربية، ص١٥١٧.

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٠، عن كتابي بلاثيوس:

Miguel Asin Palcios, El Islam Cristianizado Estudio del Sufismo a traves de las obras de Abenarabi de Murcia, Madirid 1981.

Miguiel Asin Palacios, Influencias Evangelicas en la Literature religiosa del Islam: Volame of oriental studies Presnted to profesor, E. G. Brown, Cambridge university press, 1922.

الكتاب ذخيرة لا يستغنى عنها دارس للعلوم الإسلامية؛ لأن مفهوم الأدب لدى بروكلمان اتسع ليشمل: الشعر، والنثر، والفقه، والطب، والجغرافيا، والعلوم الطبيعية، والموسوعات(١).

لكنه ضمن رؤيته للنبي ﷺ في كتابه التاريخي: «تاريخ الشعوب والدول الإسلامية» الصادر بالألمانية عام ١٩٣٩م ومن ثم ظهرت ترجمته الإنجليزية - لاحقاً - بحذف كلمة الدول الإسلامية، ليكون العنوان: «تاريخ الشعوب الإسلامية».

وبسبب الانتشار الواسع لأعمال بروكلمان، والشهرة ذائعة الصيت التي لازمت نتاجه الاستشراقي سواء بين المستشرقين أنفسهم أم في العالم الإسلامي، فإن ذلك يستدعي فحص كتابه «تاريخ الشعوب والدول الإسلامية» مع أنه ليس مختصاً بالسيرة النبوية وحدها.

وقد جاءت رؤية بروكلمان للنبي ﷺ تجسيداً للتقاليد المستقرة في الفكر الاستشراقي عموماً، وفي الاستشراق الألماني خصوصاً، إذ نستطيع بكل وضوح قراءة معالم الفكر الاستشراقي التقليدي في كلتا الدائرتين من خلال الفصلين اللذين خصصها بروكلمان للنبي ﷺ ورسالته في كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية(٢). كما أن هذه الرؤية قد غاب عنها الإنصاف كثيراً، وسيأتي الحديث عنها مفصلاً ضمن المستشرقين المتحاملين على الإسلام.

[١٤] رونالد فيكتور بودلي R.V.C. BODLLY (١٨٩٢ - ١٩٧٠م):

المستشرق البريطاني بودلي، التحق بالجيش البريطاني عام ١٩٠٨م، وتدرج في رتبه إلى أن وصل إلى رتبة كولونيل، وعمل في وحدة الجيش البريطاني بالعراق، ثم في شرقي الأردن عام ١٩٢٢م، ثم مستشاراً لسلطنة مسقط عام ١٩٢٤م. وكان أول من عبر الربع الخالي، وكشف عن أسراره المجهولة بين عامي ١٩٣٠ - ١٩٣١م.

---

(١) انظر: مقدمة الكتاب، ترجمة: نبيه فارس ومنير البعلبكي.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠١، عن:

Carl Broklmann, Geschichte der islamischen voelker und staaten, Hildesheim-New York: Olms 1977, Nachdr.d. Ausg. Muenchen und Berlin 1943.

ألف كتابه في سيرة النبي محمد ﷺ وسماه: «الرسول: حياة محمد» وطبع في سنة ١٩٤٦م.

يسرد بودلي قصة تأليفه للكتاب في تصديره: فيذكر أنه سمع عن النبي محمد ﷺ أول مرة عندما كان في كشمير قبل الحرب العالمية الأولى من خلال مخالطته للمسلمين في تلك البقعة، وكيف أنهم يؤمنون بإله واحد وبأنبياءه السابقين لمحمد ﷺ، ولكن نظراً لأن زملائه الغربيين يتحاملون على كل شيء لا يألفونه ـ كما يقول ـ ولاندلاع الحرب العالمية الأولى فقد توقفت معلوماته عند هذا القدر.

وبعد مرور عشر سنوات ذهب بودلي ليعيش بين عرب الصحراء في شمال غرب أفريقيا؛ لأنه كان ضجراً من التعقيدات التافهة التي جاءت عقب الحرب العالمية الأولى، وبقي مع الأعراب سبع سنين، وسمع هناك القرآن الكريم باللغة العربية، وأحس دون أن يصبح مسلماً ـ كما يقول ـ بروعة هذا الدين الذي يخلي بين العبد وخالقه في الصحراء، وسمع عن محمد الرجل الذي وحَّد حفنة من القبائل المتنافرة المتنافسة، وجعلهم دعامة إمبراطورية من أعظم إمبراطوريات العالم قوة، وسمع عنه أنه الرجل ذو القلب الحار الذي حَوَّل الوثنيين وعبدة الأصنام إلى مؤمنين صادقين، يؤمنون بإله واحد وباليقين وبالموت والبعث في الحياة الأخرى.

وعندما عاد بودلي من الصحراء، انقطع للدراسة والكتابة بصفة خاصة عن المنطقة التي عاش فيها. ونتج عن ذلك عدة مؤلفات منها كتابه المسمى: «الرسول: حياة محمد»[1].

ذكر بودلي سبب اختياره لاسم الكتاب فبين أن أناس كثيرين يطلقون على «محمد» ﷺ كلمة the prophet (النبي)، وهذه اللفظة غالباً ما تستعمل على الرغم من أنها ليست صواباً ـ على حد قوله ـ[2]، ولعل هؤلاء الذين سمعوا المؤذن يدعو إلى الصلاة من مآذن مساجد المسلمين، يذكرون هذه الجملة: لا إله إلا الله

(١) الرسول: حياة محمد: ر.ف. بودلي، ترجمة: محمد محمد فرج وعبد الحميد جودة السحار، ص٣ ـ ٦.

(٢) ينبه هنا إلى أن النبي محمد ﷺ قد جمع في أوصافه بين النبوة والرسالة كما قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

محمد رسول الله. لذلك سميت قصتي: «الرسول: حياة محمد[1]».

يتكون كتاب بودلي من أربعة وعشرين فصلاً، وخاتمة. ذكر في هذه الفصول أبرز أحداث السيرة التي مر بها النبي محمد ﷺ ـ بأسلوب قصصي ـ بدءاً من المجتمع المكي وحياة النبي ﷺ فيه ودعوته، وحتى وفاته ﷺ بعد أن أقام الدين وأرسى دعائمه ثم ذكر في آخر فصول الكتاب منزلة النبي ﷺ في قومه وبين أتباعه من المسلمين وهو لا يخلو من مواضع منصفة كما سيأتي، وأما الخاتمة فقد ذكر فيها شيئاً يسيراً عن سير الخلفاء الراشدين وزوجات النبي ﷺ وسراريه.

وأما أهم سمات الكتاب وما جاء فيه فتتلخص في الأمور التالية:

أولاً: الجوانب الإيجابية:

١ ـ ذكر في مقدمته للكتاب أن سيرة الرسول ﷺ تعرضت لسوء فهم كبير من قبل الغربيين، وأنه لا يوجد أحد كتب أصحابه سيرته كمحمد ﷺ، كما أن القرآن اليوم هو كما أملاه محمد ﷺ في حياته.

٢ ـ بيَّن أن السيرة النبوية تمتاز بأنها استمدت معلوماتها ممن عاصروا الرسول ﷺ، ولهذا يصف المسلمون الرسول ﷺ وأفعاله وحياته أفضل مما يصف جامعي من أكسفورد الحياة في عصر إليزابيث (ملكة بريطانيا)، وأبسط من كتابة مؤرخ أمريكي عن الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال.

٣ ـ أكد أن كتابه هذا أفضل من كثير من الكتابات الغربية بفضل ممارسته للعيش في جوف الصحراء مثلما فعل محمد ﷺ في القرن السابع الميلادي ثم استعرض بعضاً من الكتابات الغربية حول محمد ﷺ وانتقدها.

٤ ـ أثنى كثيراً في مواضع مختلفة من كتابه على الصفات الإنسانية للنبي ﷺ، وعلى أهمية المنزلة التي يحتلها في قلوب أتباعه، وأيضاً سهوله التعاليم التي جاء بها والتي لا توجد في جميع الديانات الأخرى حتى المسيحية منها.

٥ ـ دفاعه عن صدق النبي ﷺ فيما يخبر به، وثقته بأن ذلك من عند الله، رغم أنه في مواطن أخرى يشكك في كون مصدر الوحي إلٰهياً كما سيأتي.

ثانياً: المواضع السلبية:

١ ـ تشكيكه في ألوهية الوحي، وعدم إقراره بنبوة محمد ﷺ، وزعمه أن

(١) الرسول: حياة محمد، ص٥.

القرآن من تأليفه. وذلك في مواضع متعددة من كتابه، منها على سبيل المثال:

أ ـ جاء في معرض كلامه عن عم النبي ﷺ أبو لهب وزوجته أم جميل، قوله: «ولم يكن في استطاعته ـ أي: النبي ﷺ ـ أكثر مما احتمل، ففارقه طبعه الكريم، فلعن عمه وزوجته في صوت عال واضح النبرات، وأضاف إلى اللعن أن أم جميل ستحمل حطب الجحيم. وقد وصف الجحيم وصفاً مروعاً، وقد عنى كل ما قاله، وجاءت هذه اللعنة فيما بعد في سورة (١٠١) من القرآن: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١﴾ [المسد: ١]»[1].

ب ـ وجاء في معرض كلامه عن عطف زوجته ﷺ خديجة عليه في مراحل الوحي الأولى، فيقول: «.. وإن هذا العطف قد دفع محمداً فيما بعد أن يكتب هذه الآيات كجزءٍ من القرآن: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝٣ وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ ۝٤ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ۝٥ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ۝١٠ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ۝١١﴾» [الضحى: ١ ـ ١١][2].

ج ـ وجاء في معرض كلامه على القرآن قوله: «ولكَمْ حاسب نفسه ـ أي: النبي ﷺ ـ لكي لا يكون في رسالته أثر لإنسان، فكان يفضل أن تكون الآيات التي يأتي فيها ذكر الله مبتدئة بـ ﴿قُلْ﴾»[3].

د ـ ويضيف في موضع آخر: «.. وقد كتب محمد في السورة الثانية، ثم في السورة الخامسة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٩﴾ [المائدة: ٦٩]»[4].

٢ ـ الزعم بأن النبي ﷺ تأثر باليهودية والنصرانية وأخذ عنهما.

يزعم بودلي ـ تبعاً لجمهور المستشرقين ـ أن النبي ﷺ تأثر بالديانة اليهودية والنصرانية عن طريق أشخاص بأعيانهم، وقد ردد ذلك في أكثر من موضع، فمن ذلك قوله: «.. وأما حقيقة القوى النابتة في الديانتين القديمتين ظاهرة في كل وجه من وجوه الديانة الجديدة، فترجع إلى ما سمعه محمد في رحلاته، وتعود

---

(١) الرسول: حياة محمد، ص٦٩ ـ ٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص٦٢.

(٤) المرجع السابق، ص٢٨٣.

إلى تعاليم بحيرى وورقة بن نوفل وقس بن ساعدة حبر نجران. وحالة محمد هي حالة وثني تحوَّل إلى التوحيد، وقد امتص نظرياته وتطبيقاته من حلقات العابدين والإنصات إلى الوعاظ المرشدين، وما درس سطراً واحداً مكتوباً من كتاب مقدس»[١].

ويقول في مكان آخر من كتابه: «.. وكان معظم ما عرفه محمد عن التوراة والتلمود والإنجيل نتيجة محاوراته مع ورقة بن نوفل وما التقطته أذناه في رحلاته، وإن هذه المعلومات مجتمعة، لهي التي جعلت محمداً يشرد بذهنه أثناء عمله، ويتكاسل فوق راحلته..»[٢].

ويقول عن لقاء النبي محمد ﷺ بالراهب بحيرى: «.. فأخبر بحيرى محمداً بعقيدة عيسى، وسفه عبادة الأصنام، وأرهف محمد إلى ما ينطق به الرجل، إذ كان غريباً يخالف ما نشأ عليه واعتقد فيه..»[٣].

٣ ـ إنكار المعجزات الواردة في السيرة النبوية.

أنكر بودلي جميع المعجزات النبوية، فالإسراء والمعراج ـ مثلاً ـ عنده أسطورة عربية. ولهذا يقول:

«.. إن دانتي قد تأثر بهذه الأسطورة العربية، فالتشابه ملحوظ في القضيتين، فيما يختص بوصف الجنة»، ويقول: «.. فلا يوجد عن محمد ما يثبت أن هذه الرحلة الليلية قد تمت، وما كنت أدري أن مَدني [صاحبه المسلم العربي الذي كان يرافقه] كان يقص عليَّ عقيدة يدين بها كثير من العرب، ويعتقدون في صحتها اعتقادهم في القرآن، استناداً إلى حديث متواتر، وإن كل ما جاء فعلاً عن هذه الرحلة الإلٰهية على لسان محمد، هو ما ذكر في سورة «الإسراء»، وفي هذه السورة خاصة لا توجد أية إشارة إلى ما ذكره مدني وما يعتقده العرب، وكل ما جاء عن الإسراء في هذه السورة هو: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]، وما الحكاية في الغالب إلا خرافة من

(١) المرجع السابق، ص٧٦.
(٢) المرجع نفسه، ص٧٣.
(٣) المرجع نفسه، ص٣٨.

الخرافات التي تذكر للتدليل على معجزات محمد، وما قال محمد يوماً إنه أتى بمعجزات»[١].

ويقول في معرض الكلام عن غزوة بدر: «.. وإن الذين يعتقدون في المعجزات يقولون: إن شيئاً غير عادي قد وقع في هذه اللحظة، فإن جيشاً من الملائكة على رأسه جبريل، قد استجاب لنداء محمد، وشاركوا المسلمين في قتالهم..»[٢].

٤ ـ وقوعه في كثير من الأخطاء التاريخية في سرده لأحداث السيرة.

حيث وقع بودلي في كثير من المغالطات التاريخية في ذكره لوقائع السيرة فمن ذلك: زعمه أن مراعي ديار بني سعد كانت خصبة ممتدة قبل قدوم النبي ﷺ إليها في طفولته[٣]. وفي شبابه ﷺ يزعم بودلي أن الرسول ﷺ لم يكن من أمراء التجارة، وأنه كان فاشلاً فيها[٤]، وأن أتباع محمد ﷺ كانوا في الغالب من التجار المخفقين[٥]. ردد بودلي قصة الغرانيق التي لا يكاد يخلو منها كتاب مستشرق[٦]. وفي موضع آخر زعم بودلي بأن جماعة من غير المسلمين اشتركوا في القتال مع المسلمين ضد كفار قريش في معركة بدر الكبرى، وأنهم ما خرجوا إلا للسلب[٧]. ويذكر في مكان آخر أن سعد بن معاذ رضي الله عنه حكم بإعدام يهود بني قريظة لأنهم تسببوا بطريق غير مباشر في جرحه[٨]. زعم بودلي أن الرسول ﷺ طلب من القبائل غير المسلمة الخروج معه إلى عمرة الحديبية[٩]. ويدعي بودلي أن من أسباب فتح خيبر أن محمداً شاء أن يعوض خيبة الأمل التي فرضها على أصحابه في الحديبية، ورغبته في استخدام جيشه الجديد[١٠].

---

(١) المرجع السابق، ص١٠١ ـ ١٠٢.
(٢) المرجع السابق، ص١٤١.
(٣) المرجع السابق، ص٢٩.
(٤) المرجع السابق، ص٣٠٦.
(٥) المرجع السابق، ص٦٠.
(٦) المرجع السابق، ص٧٣.
(٧) المرجع السابق، ص١٣٨.
(٨) المرجع السابق، ص١٩١.
(٩) المرجع السابق، ص٢٢٤.
(١٠) المرجع السابق، ص٢٤١، وانظر للاستزادة بحث: «مزاعم وأخطاء وتناقضات وشبهات بودلي في كتابه «الرسول: حياة محمد» دراسة نقدية: د. مهدي رزق الله أحمد.

إلى غير ذلك من الأخطاء التاريخية في ذكر أحداث السيرة النبوية ووقائعها.

[١٥] ريجيس بلاشير Regis Balchere (١٩٠٠ ـ ١٩٧٣م):

أخرج المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير عام ١٩٥٢م كتابه: «مشكلة محمد: دراسة نقدية لحياة مؤسس الإسلام».

تبنى فيه رؤية ماسينون في حصر دور النبي ﷺ في البشارة والنذارة فقط متأسياً ومستعيراً ومستلهماً مصادر اليهود والنصارى المقدسة لديهم، وقد أعاد بلاشير في ذلك الكتاب طروحات هنري لامنس الجدلية التنصيرية المتطرفة، وخصوصاً ما يتعلق بعدم أصالة الوحي المحمدي مشككاً في سلامة نقل نصوص الوحي القرآني، ومؤكداً تأثر النبي ﷺ باليهودية والنصرانية.

ومحتوى ذلك الكتاب مضمن في المدخل الذي وضعه للقرآن الكريم وفي مقدمته وحواشيه لترجمة معاني القرآن الكريم التي نشرها بلاشير سنة ١٩٤٩م[١].

[١٦] إميل درمنغم Emile Dermenghem (١٨٩٢ ـ ١٩٧١م):

أصدر المستشرق الفرنسي إميل درمنغم في عام ١٩٢٩م بباريس كتابه: «محمد في التراث الإسلامي» والذي أعيد طبعه مرة أخرى في سنة ١٩٥٥م.

وهو يوهم قارئه بدءاً من العنوان: أنه سيحصل على تصور عن النبي ﷺ كما تعرضه وتقدمه المصادر الإسلامية، وحسب ذلك الإيعاز تمت ترجمة الكتاب إلى اللغة الألمانية بعنوان: «محمد في تصور الشهادات الذاتية والوثائق المصورة».

وأما الترجمة العربية له والتي قام عليها عادل زعيتر فكان عنوانها: «حياة محمد» وصدرت سنة ١٩٤٥م.

ورغم الإطار الموضوعي الذي أراد درمنغم حشر دراسته عن النبي ﷺ في طياته، بنقده التناول الأسطوري الغربي لحياة النبي محمد ﷺ، ذلك التناول الذي اعتمد على الأوهام والأباطيل التي حالت دون الدراسة العلمية الحقيقية، والذي

---

(١) المرجع السابق، ص١٠٥، عن:

Regis Blachere, Le Problem de Mahomet Essai de biographiec Critiavue du fondateur de lislam Paris 1952.

أعاق من حاولوا الدراسة الجادة ـ كما يرى درمنغم ـ مثل: موير، ومرجليوث، وشبرنجر، وسنوك هروجرونيه، وكايتاني، ولامنس، وماسينون. . . إلخ، عن الوصول إلى نتائج واقعية مكتملة؛ بسبب مغالاتهم في النقد التي جعلت كتاباتهم عامل هدم.

إلا أنه عندما يبسط الرؤية حول النبي ﷺ لا تكاد تفرق في طرحه بين السباب الذي يحكيه عن معاصريه وسابقيه من المستشرقين، وبين السباب الذي يريد أن يكيله هو عن نبي الإسلام الذي حُمِّل بالعديد من الصفات، مثل: الماكر، والمخادع، ولص النياق، والخليع، والساحر، ورئيس عصابة قطاع الطرق، والمصاب بالهستيريا والجنون، الذي مات في نوبة سكر، وأكلت جثته الخنازير، والذي أوجد أتباعاً من المسلمين هم مجموعة من الوحوش، وخلف ديناً هو مجموعة إلحاد من عمل الشيطان.

وجدير بالنظر هنا كيف نهج درمنغم في التظاهر بالموضوعية في مقدمة كتابه كي يعطي نفسه حرية الهدم في التناول، وقد اتّبعها كذلك مونتغمري وات في مقدمته لكتاب محمد في مكة.

وكذلك تابعه وات في مسألة تشبيه محمد ﷺ بأنبياء بني إسرائيل، خصوصاً موسى عليه السلام مع نفي أصالة الوحي عنه.

لذلك يثبت درمنغم صدق دعوة محمد ﷺ ولا يشك في إخلاصه، ولكنه يرجع نتاج تلك الدعوة إلى قوة الإبداع، والعبقرية الواسعة، والبصر النافذ، والذكاء العظيم، وحسن التدبير والموهبة، وإذا جاء إلى القرآن الكريم فإنه يثبت له قوة التأثير مع نفي أيِّ إشارة إلى قيمة أدبية خاصة فيه، ويتجنب أيِّ إشارة إلى كونه وحياً إلٰهياً، بل يرجع كل تأثيره إلى قوة بنائه العقلية(١).

[١٧] فيليب حِتي Philip Hitti (١٨٨٦ ـ ١٩٧٨م):

المستشرق الأمريكي من أصل لبناني، وأستاذ التاريخ العربي ثم الدراسات

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٦، عن:

Emile Dermenghem, Mahomet et la Tradition islamiavue, Paris, 1955.

وانظر الترجمة العربية للكتاب بعنوان: «حياة محمد»: إميل درمنغم، ترجمة: عادل زعيتر، ص٥١ ـ ٦٢.

الشرقية في جامعة برنستون بأمريكا حتى سنة ١٩٥٤م، وبعد تقاعده عين مستشاراً لوزارة الخارجية الأمريكية.

تناول في كتبه: «تاريخ العرب المطول» و«الإسلام منهج حياة» جوانب من سيرة النبي ﷺ ونبوته، فمن ذلك:

أولاً: في كتابه «تاريخ العرب المطول»:

كانت له آراء وعبارات منصفة في هذا الكتاب منها قوله في النبي ﷺ: «ولقد استطاع محمد في سحابة عمره، وهو غير طويل، أن يهيئ الوسائل لنشوء أمة فتية لم تكن قد نهضت من قبل تتألف من قبائل تأبى الاتحاد في بلاد كانت حتى ذلك الوقت تعبيراً جغرافياً قليلة الشأن، وأن يؤسس ديناً دحر النصرانية واليهودية في الشرق الأدنى، وحل محلهما، وهو لا يزال دين جزء كبير من الجنس البشري، واستطاع فوق ذلك أن يضع حجر الأساس لامبراطورية ما لبثت أن حوت بين أطرافها المترامية أجمل مقاطعات العالم المتمدن في ذلك العصر، وكان محمد أمياً، ومع ذلك فقد أنزل على يديه كتاب لا يزال ثمن سكان العالم[1] يحسبونه آية العلم والحكمة والدين»[2]، ويقول أيضاً: «ودين محمد دين عملي، وقلما يشير القرآن إلى هدف عال يصعب نواله، ويكاد أن يكون خلواً من العُقد اللاهوتية، وليس فيه أثر للأسرار الرمزية المقدسة، أو مراتب الكهنوت..»[3].

وفي موضع آخر يرد على اتهام الإسلام بالعنف بقوله: «تمسك بعض كُتَّاب النصرانية بفكرة أخرى خاطئة، وهي أن المسلم العربي إنما اكتسب البلدان رافعاً القرآن في يد والسيف في الأخرى، ولا صحة لهذا الزعم، فإن العرب في حروبهم خارج الجزيرة كانوا يعرضون على أهل الكتاب من يهود ونصارى أمراً ثالثاً[4] غير

---

(١) في دراسة حديثة نشرت مؤخراً ـ سنة ٢٠٠٩م ـ كشفت أن نحو ربع سكان الكرة الأرضية تقريباً مسلمون. وبحسب الدراسة التي جاءت بعنوان «خريطة المسلمين في العالم» من إعداد «منتدى بيو» حول الدين والحياة العامة، فإن عدد المسلمين في العالم يبلغ نحو ١،٥٧٠ مليار مسلم يشكلون نحو ٢٣ في المائة من إجمالي سكان العالم البالغ عددهم ٨,٦ مليار نسمة. انظر: جريدة الاقتصادية السعودية، عدد السبت ٦ ربيع الأول سنة ١٤٣١هـ رقم (٥٩٧٦).

(٢) تاريخ العرب المطول: د. فيليب حِتّي، ترجمة: إدوارد جورجي وجبرائيل جبور، ص١٦٨.

(٣) المرجع السابق، ص١٧٨.

(٤) أي: الجزية.

القرآن والسيف هو أقرب إلى مطامع المحاربين، وأصلح لهم من كلا الأمرين الأولين»[١].

غير أن هذه الرؤية لفيليب حتي في كتابه «تاريخ العرب المطول» قد تخللتها كثيراً رؤية أخرى تتسم بالتشكيك والارتياب في كثير من المسلمات والحقائق التاريخية، ومنها: تشكيكه في المصادر التي تناولت سيرة النبي ﷺ وأنه لا يوجد منها سوى المصادر العربية[٢]، وزعمه تأثر القرآن بأسلوب السجع الذي كان معروفاً عند الكهان والعرافين في الجاهلية»[٣]، «وزعمه أن نشأة النبي ﷺ محاطة بالغموض»[٤] إلى غير ذلك[٥].

ثانياً: في كتابه «الإسلام منهج حياة»:

تناولت رؤيته المنصفة في هذا الكتاب: رده على المستشرقين في أن دعوته ﷺ في مكة كانت لتحقيق التوحيد وليس لتعزيز مكانة مكة وقريش[٦]، ووصفه لعفو النبي ﷺ عن قريش بأنه مثال للحلم الذي كان عليه ﷺ[٧]، ونقده لإطلاق المستشرقين لفظ «المحمديين» على المسلمين[٨]، وبيان عطفه ﷺ ورحمته بالناس[٩]، ثم في عقده لمقارنة ـ منصفة ـ بين القرآن والكتاب المقدس[١٠]، وبعد ذلك في تأييده لحادثة الإسراء والمعراج ومقارنتها بما ورد في التوراة في حق بعض الأنبياء[١١]. أما الجوانب السلبية في كتابه والتي يغلب عليها التشكيك والارتياب فتتضح في مواقف عديدة منها:

---

(١) المرجع السابق، ص١٩٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٥٦.
(٣) المرجع السابق، ص١٢٥.
(٤) المرجع السابق، ص١٥٦.
(٥) وانظر في تحليل الكتاب والرد على ما جاء فيه: موضوعية فيليب حِتّي في كتابه تاريخ العرب المطول، شوقي أبو خليل. وافتراءات فيليب حِتّي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي: عبد الكريم علي باز.
(٦) الإسلام منهج حياة: د. فيليب حتي، ترجمة: د. عمر فروخ، ص٢٤.
(٧) المرجع السابق، ص٥٠.
(٨) المرجع السابق، ص٥٣.
(٩) المرجع السابق، ص٥٤.
(١٠) المرجع السابق، ص٦٠.
(١١) المرجع السابق، ص٨٠.

تشكيكه في اسمه ﷺ[(١)]، وزعمه أن حياة النبي ﷺ كانت غامضة قبل البعثة، وأن كتابات السيرة عنه كانت متأخرة جداً عن وفاته[(٢)]، وكذلك تشكيكه في أمية النبي ﷺ وترديد شبهات المستشرقين حول هذه المسألة[(٣)]، وزعمه أن معارضة قريش للنبي ﷺ كانت خوفاً على نظامهم الاجتماعي[(٤)]، وأيضاً تشكيكه في رسائل النبي ﷺ إلى الملوك[(٥)].

وهكذا فإن منهج التشكيك والارتياب والتضعيف للحقائق التاريخية المتعلقة بسيرة النبي ﷺ والتاريخ الإسلامي عموماً، كان هو السمة البارزة في كتابات فيليب حتي، والتي جعلها موضع النقد والاستدراك من قبل بعض الباحثين[(٦)].

[١٨] رودي باريت Rudi Paret (١٩٠١ ـ ١٩٨٢م):

في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي أصدر الألماني رودي بارت عام ١٩٥٧م كتاباً بعنوان «محمد والقرآن: تاريخ النبي العربي ودعوته».

وقد حقق الكتاب من الشهرة والانتشار قدراً واسعاً جعل طبعاته تتوالى؛ ربما بسبب شهرة صاحبه بوصفه مترجماً للقرآن الكريم، وربما لكونه يمثل خلاصة ما استقرت عليه المدرسة الألمانية خصوصاً والأوروبية عموماً، من فكر ومنهجية في تناول حياة النبي محمد ﷺ ورسالته.

حاول باريت في مواضع من كتابه مستميتاً إثبات تبعية الإسلام لليهودية والنصرانية، تلك التبعية التي يجلي المؤلف عناصرها فيما يأتي[(٧)]:

أولاً: المؤثرات الثقافية والدينية العامة التي خلفها اليهود في المدينة

---

(١) المرجع السابق، ص١١.

(٢) المرجع السابق، ص١٢.

(٣) المرجع السابق، ص٢١.

(٤) المرجع السابق، ص٢٥.

(٥) المرجع السابق، ص٤٩.

(٦) انظر: فيليب حِتّي: عصر النبوة والخلافة الراشدة ـ دراسة نقدية ـ: د. فاضل محمد الكبيسي. وأيضاً: افتراءات فيليب حِتّى وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي، عبد الكريم علي باز.

(٧) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٩، عن:
Rudi Paret, Mohammed und der Koran. Geschichte und, verkuendigung des arabischen Propheten, Suttgart 1966. 2aufl.

والنصارى في مكة والتي هيأت الأجواء لرسالة النبي محمد ﷺ عموماً، وإن كان الأثر المسيحي مضطرباً بسبب الآراء البدعية الشائعة في أوساط مكة، مثل: إنكار صلب المسيح، ونظرية التثليث.

ثانياً: العبادات اليهودية النصرانية، مثل: شعيرة الصلاة المشتملة على الركوع، والسجود والقراءات.

ثالثاً: تطور العقيدة الإسلامية من خلال مراحل التأثر باليهودية والنصرانية، فالمرحلة التمهيدية الإعدادية قبل إعلان محمد ﷺ ونبوته كان فيها نبياً بالقوة؛ أي: حاملاً لعقيدة النبوة بوساطة المؤثرات اليهودية والنصرانية.

ومع محاولات باريت لإثبات هذه التبعية إلا أنه وقع في عدة تناقضات، منها على سبيل المثال: ذكره أن المسيحية لم يكن لها أثر في مكة[١]، وأن النبي ﷺ لم يحدث تماسه المباشر باليهود إلا بالمدينة، وأنه لم تتح له الفرصة كاملة لمعرفة تفاصيل اليهودية كما أنه لم يطلع على تفاصيل الإنجيل إلا في تلك الفترة[٢] كل ذلك مع قوله السابق بتأثر النبي ﷺ بالمؤثرات اليهودية والنصرانية.

ورغم ما تقدم فإن كتاب باريت لا يخلو من بعض المواضع المنصفة في حق النبي ﷺ، ومنها:

١ ـ نقده لمونتغمري وات في قوله: إن الحالة الدينية في مكة هي التي كونت فكرة الدين لدى محمد ﷺ.

٢ ـ نقده لبعض المستشرقين في دعواهم إن المشكلات الاجتماعية كانت هي السبب الرئيس لدعوة النبي ﷺ إلى الإسلام.

٣ ـ رده على بعض دعاوى المستشرقين في سوء معاملة النبي ﷺ لليهود.

٤ ـ كلامه المنصف في أسباب تعدد زوجات النبي ﷺ ورده على المفكرين الغربيين في ذلك.

٥ ـ ثناؤه على الصفات الشخصية للنبي ﷺ من التدين والصدق والنزاهة والثقة في دعوته[٣].

---

(١) محمد والقرآن: دعوة النبي العربي ورسالته: رودي باريت، ترجمة: د. رضوان السيد، ص٢٠ ـ ٢١.
(٢) المرجع السابق، ص٥٦.
(٣) المرجع السابق، ص٣٦، ٦١، ١٨٦، ٢٤٥.

[١٩] مكسيم رودنسون Maxime Rodinson (١٩١٥ ـ ٢٠٠٤م):

مستشرق فرنسي معاصر، وقد صدر كتابه: «محمد» في باريس عام ١٩٦٥م، وفي النسخة الإنجليزية أطلق عليه: «محمد نبي الإسلام».

قدم رودنسون بعض البوادر الإيجابية في إطار رؤيته لنبوة محمد ﷺ ومظاهر وحيه، فهو يرفض جميع الأدبيات والبحوث الغربية التي تتهم النبي ﷺ بالكذب والاحتيال والخداع، ثم ينتهي إلى جوهر رؤيته المتمثل في[(١)]:

١ ـ نفي الأصالة عن الوحي القرآني، وأنه يكوِّن كتاباً إلٰهياً.

٢ ـ الإصرار على أن النبي محمد ﷺ لم يأت بدين جديد، وأنه محصور في زاوية الإنذار والبشارة فحسب، أما الاعتقاد فمرجعه إلى ديانات سابقة خصوصاً عبادة الأوثان التي يستدل رودنسون على تأثر النبي ﷺ بها، وكذلك مهادنتها من خلال قصتين:

الأولى: محاورة عتبة بن ربيعة للرسول ﷺ ومساومته بالرئاسة أو المال أو الشرف لأجل التنازل عن دعوته الجديدة والبقاء على ديانة آبائه الوثنية ولا يخفى أن الاستدلال بهذه الحادثة يناقض مقصود رودنسون!.

الثانية: قصة الغرانيق أو الآيات الشيطانية التي ألقيت في نفس النبي ﷺ على سبيل التمني، عندما تمني النبي ﷺ حرصاً منه على إصلاح قومه، سبيلاً إلى ما يقربهم منه حتى يلينوا له، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ① مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ② وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ③﴾ [النجم: ١ ـ ٣]، فلما انتهى إلى قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ⑲ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ ⑳﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]. ألقى الشيطان على لسانه بما كان يحدث به نفسه بما يقرب إليه قومه: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى[(٢)].

٣ ـ رفض اتهام النبي ﷺ بالجنون أو الهوس أو انفصام الشخصية، وإن كان قد فتح الباب أمام احتمال إصابة المتصوفين أهل المعارف العرفانية بمثل

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٩، عن:
Maxime Rodinson, Muhammad prophet of Islam, Tauris Parke Paperbacks. London-New York 2002.

(٢) وسيأتي الحديث مفصلاً ـ إن شاء الله ـ عن هذه القصة في الباب الخامس ضمن الحديث عن موقفه ﷺ من الوثنية.

هذه الأمراض نتيجة تعرضهم لأعراضها باستمرار عند حصول تلك المعارف لهم، وهو يترك الحكم على ذلك للمختصين في علم النفس.

[٢٠] فرانسيسكو جابريلي Francesco Gabrielei (١٩٠٤ ـ ١٩٩٦م):

في عام ١٩٦٧م ظهر للإيطالي فرانسيسكو جابريلي كتاب بعنوان: «محمد والعالم العربي»، وفيه[١]:

جعل من شمائل النبي ﷺ ومعجزاته خصوصاً الإعجاز القرآني، ضرباً من تأثير الأسطورة في حياة المسلمين الذين استندوا إلى الحكايات والقصص الشعبية في بناء اعتقادهم في شخص نبي الإسلام وسيرته، مما جعلهم يحولونه إلى شخصية مثالية في جانب المعجزات المتحققه له، والسلوك الأخلاقي، والعصمة من الذنوب، بل قادتهم تلك الأساطير إلى جعله كائناً فوق طبيعي وجوده في العالم يسبق وجوده التاريخي؛ إذ يبدو كما يظهر في كتابات الشيعة[٢] والصوفية، حقيقة حاضرة إلى جوار الحضرة الإلهية قبل خلق العالم.

وبذلك يكون جابريلي قد نزع عن نبوة محمد رسول الله ﷺ وسيرته، أصالتها وحقيقتها التاريخية، وألحقها بعالم الأساطير والقصص الشعبي المتطور بفعل التناقل والسرد.

ولا يفيد النبي ﷺ بعد ذلك أن يثبت له جابريلي، صدق الاعتقاد في الاتصال بالسماء؛ لأنه يقيد ذلك بكون رسالته ﷺ قومية عربية مرتبطة باليهودية والنصرانية اللتين تشكلان الأساس الذي أقام عليه النبي ﷺ رسالته.

كما أنه من جانب آخر يؤكد التناقض والتعارض في أعمال النبي ﷺ وأفعاله، فهو وإن كان عاقلاً حكيماً، لكن لا سبيل لإثبات صفات له فوق طبيعية، ومع أنه

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١١١، عن:
Francesco Gakbrieli, Mahammad e le Prime Conquiste Arabiche, Mailand 1967.

(٢) الشيعة: يطلق اسم الشيعة على من قالوا بإمامة علي ﷺ نصاً ووصية، إما جلياً أو خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن ولده، واعتبروا مسألة الإمامة من أركان الدين، وهم فرق وطوائف، منهم غلاة كالقرامطة والإسماعيلية والرافضة وهم فرق، ومنهم دون ذلك كالزيدية وهم فرق أيضاً. انظر: مقالات الإسلاميين: للأشعري ص٥ وما بعدها، والفرق بين الفرق: للبغدادي ص٢٢، والملل والنحل: للشهرستاني (١/ ١٦٢)، وانظر للاستزادة: فرق الشيعة: للنوبختي، ومنهاج السُّنَّة النبوية: لابن تيمية.

قدم مسألة العرب، ووضعها في جوهر دعوته وقلبها إلا أنه اهتم بنشر الدعوة، كما أنه ألزم أتباعه من العرب بعقيدة مؤلفة من عناصر غريبة أجنبية، ومع أنه اتسم بعنصر إنساني طيب (صبر جميل، ولطف في المعاملة) إلا أنه كان صاحب أعمال وحشية غير مقبولة مع استعداد للتصافح والتوافق، وهو وإن كان ذا دعوة للتوحيد الصارم، لكنه قام لأجله بأعمال اصطدمت مع الأخلاق في بعض الأحيان.

[٢١] مونتغمري وات Montgomery Walt (١٩٠٩ ـ ٢٠٠٦م):

أكبر دارس غربي في العصر الحديث والمعاصر بمجموعة دراساته الواسعة والمتعددة حول نبي الإسلام ﷺ، مثل:

- محمد في مكة: ١٩٥٣م.
- محمد في المدينة: ١٩٥٦م.
- محمد النبي ورجل الدولة: ١٩٦١م.
- الوحي الإسلامي في العصر الحديث: ١٩٦٩م.

يحاول (وات) أن يؤكد موضوعيته وتحريه الحقائق عند تعرضه لدراسة الإسلام ونبيه ﷺ، لكن القراءة الدقيقة لنصوص وات وبحوثه تعكس وجهاً آخر فيه خلل معرفي ومنهجي[١].

فمجموعة أعمال وات التي تتوشح بالإطار التاريخي الوثائقي المستند إلى مصادر دراسة السُّنَّة والسيرة، ينتهي فيها إلى أن شخصية النبي محمد ﷺ كانت ذات أمثلة سابقة ومعروفة في البيئة العربية، وأن أعمال النبي ﷺ ودعوته هي أعمال سياسية، وتأمل، وتفكير شخصي، واستبصار ذاتي.

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١١٢، عن:

- (Montogomery watt, Muhammad at Mecca. (محمد في مكة)، Oxford New York-London (Oxford University Press) 1953.

- Mohammad at Medina (محمد في مكة)، Oxford-New York-London 1956.

- Muhammad Prophet and statesman (محمد النبي ورجل الدولة)، oxford-New York-London 1961.

- Islamic Revelation in the Modern World (الوحي الإسلامي في العصر الحديث) (EU P 1969).

وانظر: النسخ المترجمة منها: محمد في مكةُ: مونتجومري وات، ترجمة: شعبان بركات. ومحمد في المدينة: مونتجومري وات، ترجمة: شعبان بركات.

حاول مونتغمري وات طمأنة الباحثين المعاصرين والمسلمين إلى أنه سيلتزم موضوعية البحث العلمي التاريخي المجرد عن أحكام البحوث الغربية السابقة والمسبَّقة، وأنه سيقدم لمعاصريه مادة تاريخية تعين على إصدار حكم ديني صائب على نبي الإسلام، أما فيما يتعلق بالمسائل الخلافية بين المسيحية والإسلام فقد اتخذ فيها موقفاً محايداً. فمثلاً بصدد معرفة ما إذا كان القرآن كلام الله أوليس كلامه فقد امتنع عن استعمال تعبير «قال تعالى» أو «قال محمد» في كل مرة يستشهد فيها بالقرآن واستعاض عن ذلك بعبارة «يقول القرآن»[١].

لكنَّ دراسته الفعلية لحياة نبي الإسلام ووحيه وأصالة نبوته في الكتب المشار إليها جاءت مغايرة لما أعلنه، بما تضمنته من التواء منهجي، فهو يبني ليهدم، ويلحق التالي بالسابق لينفي الأصالة، ويعتمد الضعيف والشاذ لينفي الثابت والأصيل.

فهو يلحق محمداً ﷺ باليهودية والنصرانية، من خلال تأثره بالعناصر الكتابية الحية في شبه الجزيرة العربية ولا سيما ورقة بن نوفل في مكة، والعناصر اليهودية في المدينة النورة.

وإلى جانب العناصر الحية يبرز (وات) تأثير الأفكار الكتابية والدينية السائدة في الوسط الديني الذي نشأ فيه محمد ﷺ، تلك الأفكار التي شكلت وعي النبي ﷺ في إطار نظرية «الخيال الخلاق» التي طورها وات جاعلاً قاعدتها فكرة اللاوعي الجمعي:

وقد فسر من خلال هذه النظرية الوحي المحمدي بأن النبي ﷺ تمتع بنوع من الخيال الخلاق المعروف لدى بعض المؤلفين والشعراء والفنانين الذين يعبرون بطرق جذابة ومؤثرة عن آلام الناس وهمومهم، وأفراحهم، ومشاعرهم الداخلية، ويعبرون عن ذلك بصيغ تتجاوز الفردية إلى القدرة على تجسيد الشعور الإنساني للبشر ومشكلاتهم وهمومهم وقضاياهم، ومعتقداتهم وحاجاتهم، وتجاربهم الوجدانية، أينما كانوا، وأياً كانت ثقافاتهم وأعراقهم.

لكن (وات) في إصدار متأخر له يكاد يشعرنا بنوع من التطور النوعي في رأيه حول النبي ﷺ ففي كتابه: «الحقيقة الدينية في عصرنا» الصادر عام ١٩٩٥م:

(١) محمد في مكة، ص٥.

يقرن مونتغمري وات بين نبوة محمد ﷺ وبين أنبياء بني إسرائيل، بل يجعل دوره أقرب شبهاً بدور موسى عليه السلام من جهة أن محمداً ﷺ كان نذيراً منتقداً الانحراف الديني في بيته، وإن كان نقده مختلفاً في أن أنبياء العهد القديم كانوا ينتقدون الانحرافات عن الدين الموجود، أما محمد فكان عليه أن يقدم معرفة بالله وتعاليمه إلى شعب معدوم المعرفة والعلم الدينين ولهذا يكون أقرب إلى موسى، حيث بلَّغ كل منهما القانون الإلٰهي إلى قومه، لذلك فإن غير المسلمين ينبغي أن يروا يد الله وراء انتشار الإسلام بين العديد من القبائل العربية في حياة النبي، وأن رسالة القرآن قد ملأت الفراغ الديني لدى القبائل العربية ذلك الفراغ الذي لم تستطع اليهودية ولا النصرانية سوى ملء قدر يسير منه[١].

إلا أن ذلك الانطباع الإيجابي عن التطور النوعي في موقف وات سرعان ما يتخلخل عندما يرفض وات تصريح النبي ﷺ بأن القرآن من عند الله، وليس نتاج عقله الواعي بل من خارج نفسه، ويقرر أن ذلك التصريح ينبغي أن يُقوّم، ثم يقدم (وات) بين يدي ذلك بعض الحيثيات المبررة المتمثلة في أن القصص القرآني قد جاء أساساً من العهد القديم، وبعض الإضافات من المصادر اليهودية المقدسة خارج نصوص العهد القديم.

ويضيف وات إلى تلك الحيثية توهين احتجاج المسلمين على صحة نبوة محمد بأميته، وأنه كان لا يعرف القراءة ولا الكتابة، بأن محمداً ﷺ كان بإمكانه أن يجد شخصاً يقرأ له الكتاب المقدس أو يروي له قصصه[٢].

فكل ذلك يجعل من وصف (وات) النبي ﷺ بأنه يشبه أنبياء العهد القديم، أو موسى عليه السلام، يجعله نوعاً من تأكيد عدم أصالة نبوته، بل وتبعيتها لنبوة أنبياء العهد القديم الذي نقل عنهم نصوصهم وقصصهم.

ويزيد ذلك تأكيداً إعراضه عن الحديث عن الوحي المحمدي بمصطلح: Revelation (وحي).

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١١٤، عن:
Montgomery Watt, Religious Truth for our Time, P. 80 Oneworld. Oxford Publications USA 1995.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١١٥، عن:
Montgomery Watt, religion Truch for our Tim, PP. 78-79.

واستخدامه مصطلح: Divine inspiration (إلهام إلٰهي).

وهناك فارق في معنى المصطلحين ومفهومهما ودلالة كل معنى في مسألة النبوة[١].

[٢٢] مايكل هارت Michael H. Hart:

ولد المستشرق الأمريكي مايكل هارت سنة ١٩٣٢م، وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلك من جامعة برينستون عام ١٩٧٢م. وهو أحد أعضاء الجمعية الفلكية وفروعها في علوم الكواكب، وأحد العلماء المعتمدين في الفيزياء التطبيقية.

نشر مايكل هارت في سنة ١٩٧٨م كتابه الشهير: «المائة: ترتيب للأشخاص الأكثر تأثيراً في التاريخ» the 100: A Ranking of the Most Influential Persons in History.

والكتاب يعتبر علامة فارقة في الدراسات الغربية حول شخصية النبي ﷺ، ومن أكثرها إنصافاً وعدلاً في الحكم على مكانة النبي ﷺ التي يجب أن يتبوأها، فقد وضع هارت النبي ﷺ في المرتبة الأولى ضمن أكثر الشخصيات تأثيراً في التاريخ، وقد كان لهذا الاختيار ما يسوغه كما بيَّن ذلك في مقدمة حديثه عن النبي ﷺ.

يقول هارت: «لقد اخترت محمداً ﷺ في أول هذه القائمة، ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار ومعهم حق في ذلك. ولكن محمداً هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والدنيوي.

وهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودينياً، وبعد ١٣ قرناً من وفاته فإن أثر محمد ﷺ ما يزال قوياً متجدداً»[٢].

وستأتي مناقشة آراء هارت حول شخصية النبي ﷺ ودعوته وفضله على بقية مشاهير العالم ضمن آراء المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام.

---

(١) المرجع السابق، ص١١٦.

(٢) الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ﷺ: مايكل هارت، ترجمة: أنيس منصور، ص١٣. ويظهر من العنوان تصرف المترجم كثيراً في اسم الكتاب الأصلي.

[٢٣] مايكل كوك Michael Cook:

المستشرق الإنجليزي مايكل كوك أستاذ دراسات الشرق الأدنى بجامعة برنستون وصاحب العديد من المؤلفات التاريخية حول الشرق الأوسط.

أصدر في سنة ١٩٨٣م كتاباً بعنوان: «محمد». وفي عام ١٩٩٥م أعادت جامعة أكسفورد طباعة الكتاب ضمن حلقة في سلسلة من الدراسات حول عدد من الشخصيات التاريخة بعنوان سادة الماضي.

يعد الكتاب محاولة علمية زائفة للتحقق من افتراض المؤلف أن تحول شبه الجزيرة العربية إلى المسيحية لم يكن إلا مسألة وقت، وذلك بسبب تأثر العرب بالطوائف المسيحية القائلين بالطبيعة الواحدة: الطبيعة الإلٰهية للمسيح سواء في صورته اليعقوبية أو النسطورية إلى جانب تأثير الوجود القوي لليهودية في الحجاز واليمن وفلسطين.

وبالتالي قدم مايكل كوك تفصيلات حياة النبي ﷺ وتنزل الوحي القرآني عليه وقيامه بالبلاغ، ونشر الإسلام وبناء الدولة الإسلامية كما عرضت ذلك المصادر الإسلامية، قدم ذلك كله على أنه موروث ثقافي يحتاج إلى التوثيق والتفسير.

لأنها مجرد روايات شفهية نقلت مدة قرن من الزمان قبل كتابتها، وإذا كان العرف العلمي يقتضي قبول كل ما ليس هناك سبب معين لرفضه منها، فإن مايكل كوك قد اختار ما يقابل ذلك العرف، فرفض كل ما لا يملك سبباً معيناً لقبوله.

وهو يطبق ذلك المعيار النقدي على القرآن، ويخلص منه إلى أن القرآن قد تعرض لعملية تحرير نتج منها حذف وإضافة وبسط واختصار وتقديم وتأخير في الآيات.

وينتهي مايكل كوك إلى أهمية المصادر غير الإسلامية وتقديمها على المصادر الإسلامية، أما تعاليم النبي ﷺ فيخضعها لمنهجية النقد التاريخي ـ فيما يعد إعادة لمنهج جولدزيهر ونتائجه ـ ويخلص فيها إلى أن:

١ ـ مفهوم الكون لدى النبي ﷺ قد يكون مأخوذاً بتمامه من سفر التكوين في العهد القديم.

٢ ـ شريعة القرآن غير كاملة وغير متناسقة، كما أن: كثيراً منها مثل تشريعات المرأة لا يرتبط بالتوحيد بل بالشرك أو الإلحاد.

٣ ـ شريعة الجهاد قاسية لا تساعد على نشر الإسلام، وتبدو غريبة لأتباع العهد الجديد الذي لم يقاوم المسيح فيه الشر، ولم يهاجر بعيداً عنه، ولم يشكل لمجابهته تنظيمياً سياسياً، وإنما هي أقرب إلى روح العهد القديم، وشريعة موسى، وقصة خروجه العنيفة من مصر.

٤ ـ وضوح الأثر اليهودي البارز للعيان في تعاليم محمد ﷺ من خلال الآتي:

- قصص الأمم السابقة، وقصص الأنبياء وحكاياتهم، مثل: حكاية يوسف مع زوجة العزيز.
- مفردات التشريع الإسلامي، مثل: الزكاة.
- شهادة التوحيد لا إلٰه إلا الله، الموجودة لدى السامرة[١].

٥ ـ تأثير النصرانية في تعاليم محمد ﷺ حول المسيح خصوصاً الفِرق الهرطقية التي تنكر الصلب وإلٰهية المسيح، وفي أسطورة أهل الكهف، واصطلاح المنافقين.

٦ ـ الأثر الوثني في تعاليم محمد ﷺ يتمثل في الطواف حول الكعبة وتعظيم الأشهر الحرم.

وهذا الأثر الوثني الأخير وإن كان يثبت لدى كوك تنوع المصادر التي أثرت في تعاليم القرآن وتعاليم محمد ﷺ إلا أن الراجح لدى كوك أن ما يدين به محمد ﷺ لليهودية أكبر من ذلك الذي يدين به للمسيحية؛ بسبب عمق علاقاته مع اليهود وكثرتها[٢].

---

(١) السامرة أو السامريون: فرقة يهودية تنسب إلى مدينة السامرة القديمة التي يعيشون حولها والتي قامت على أنقاضها مدينة نابلس بفلسطين. ويزعم السامريون أنهم البقية على الدين الصحيح. ويسمون أنفسهم بـ: (بني إسرائيل أو بني يوسف). وأبرز مبادئهم الدينية الإيمان بإله واحد روحاني. وأن موسى خاتم الرسل. ويؤمنون بالتوراة وسفر يوشع فقط وينكرون ما عدا ذلك من أسفار العهد القديم والجديد. ونسخة التوراة التي يؤمنون بها تخالف النسخة التي بأيدي سائر اليهود. وتسمى توراتهم بـ: (التوراة السامرية). وهم ينتظرون المسيح المخلص لهم ولا يزيدون حاليّاً عن بضع مئات يعيشون بجوار مدينة نابلس ولا يستحلون الخروج منها. انظر: دائرة المعارف اليهودية (١٤/ ٧٢٥ ـ ٧٥٨)، السامريون واليهود: د. سيد فرج راشد، الملل والنحل (١/٢١٨، ٢١٩)، الفصل (١/ ١٧٧، ١٧٨).

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١١٩، عن:
Michael Cook, Muhammad, p.82-50. Oxford University, 1995.

ونتيجة لهذه النظرة المنحازة في تقويم رسالة النبي ﷺ ومصادرها فقد كان من الطبيعي أن يكتب أحد مراجعي كتاب كوك عند صدوره قائلاً:

«إن كوك يبدي عداءً وانحيازاً عظيمين تجاه محمد الرجل، وتجاه تعاليم الإسلام... وهذه، هي بالتأكيد رؤية منحازة جداً، ورؤية ملطخة بالإلحاد للإسلام»[1].

[٢٤] كارين أرمسترونج Karen Armstrong:

في عام ١٩٩٢م أصدرت الإنجليزية كارين أرمسترونج كتابها: «سيرة النبي محمد».

والكتاب يبرز من جهة صوت الفكر الإنساني الحر في محاولته مقاومة تأثير المفاهيم المغلوطة والأساطير المختلفة، مما يتوجب معها ضرورة التصدي لتصحيح تلك المفاهيم، ودحض تلك الأساطير التي أصبحت لها مصداقية الحقائق التاريخية.

ومن جهة أخرى فإن الكتاب لا يخلو من تأثير الموروث الحضاري والفكري والديني المسيحي في توجهات العقل الإنساني الواعية واللاواعية للكاتبة، مما ساهم أحياناً في الحيلولة دون وصول العقل إلى الموضوعية الخالصة.

ويمكن أن نلحظ ـ بإيجاز ـ تلك الحالتين في مضمون الكتاب كما يأتي:

أولاً: محاولة إنصاف النبي محمد ﷺ بين الغربيين وتصحيح المفاهيم المغلوطة عنه ودحض الأساطير المختلفة، مثل اتهامه ﷺ بالشهوانية والعنف وسفك الدماء، وكذلك إبراز الصفات الإنسانية له.

ثانياً: التأثر بالموروث الثقافي والفكري الغربي.

حيث شكلت هذه الموروثات عوائق مانعة للرؤية الموضوعية الخالصة حول نبي الإسلام، تلك العوائق الممثلة في سلسلة التحيزات والمسلمات والأفكار المسبقة، وربما يكون أيضاً بسبب تأثير نفوذ بعض أعلام الفكر الاستشراقي ولا

(١) صورة النبي محمد ﷺ في الكتابات الأنكلو ـ أمريكية: د. عبد النبي أصطيف، ص٥٦، نقلاً عن:

A.W.Boase,vol. 4, no.3(1984),pp.6-7. Cited in Buaben, Ibid, p.154.

سيما مونتغمري وات، ومكسيم رودنسون في كتابها خصوصاً وقد أثنت على مؤلفاتهما في عرضها لمصادرها في مقدمة الكتاب.

ولعل أبرز ما يظهر التأثر فيه لدى الكاتبة بالرؤية الغربية فيه هو تفسيرها الوحي الإلهي على محمد ﷺ في ضوء نظرية الخيال الخلاق والتي عبر عنها مونتغمري وات، فيما سبقت الإشارة إليه آنفاً. فهي بعد أن تثبت لمحمد ﷺ وحياً تجعل حقيقة الوحي نوعاً من الخيال الخلاق، وتعبيراً عن مكنون اللاوعي الجمعي(١).

كما ربطت أرمسترونج مظاهر نبوة النبي ﷺ ودعوته بالديانات والملل السابقة فالنموذج اليهودي والمسيحي بل حتى الهندوسي(٢) والبوذي(٣) حاضر

---

(١) اللاوعي أو اللاشعور: Unconsciousness ـ كما حدده فرويد ـ يكون معظم الجهاز النفسي، وهو يحوي ما هو كامن وليس متاحاً ومن الصعب استدعاؤه؛ أي: ما هو مكبوت. ويقول: إن المكبوتات تسعى إلى الخروج من اللاشعور إلى الشعور في الأحلام وفي أعراض الأمراض النفسية، ويذكر العالم النفسي يونج أن اللاشعور الشخصي يتكون من خبرات الفرد المكبوتة والعقد، ويستخدم في استكشافه اختبار تداعي الكلمات. أما اللاشعور الجمعي فهو مشترك بين كل الأشخاص ويتكون من تراث النماذج الأصلية للإنسان. ويمكن فهم اللاشعور الجمعي عن طريق دراسة الأحلام والطقوس والأساطير. انظر: التوجيه والإرشاد النفسي: د. حامد عبد السلام زهران، ص١٢٥.

(٢) الهندوسية: ويطلق عليها أيضاً البرهمية نسبة لبراهما أكبر الآلهة لديهم، وهي ديانة وثنية يعتنقها معظم أهل الهند، ولا يوجد للهندوسية مؤسس معين ولا يعرف لمعظم كتبها مؤلفون معينون، فقد تمَّ تشكُّل الديانة، وكذلك الكتب، عبر مراحل طويلة من الزمن. وهي مجموعة من العقائد والعادات والتقاليد التي تشكلت عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر. وهي ديانة تضمُّ القيم الروحية والخلقية إلى جانب المبادئ القانونية والتنظيمية، متخذة عدة آلهة بحسب الأعمال المتعلقة بها، فلكل منطقة إله، ولكل عمل أو ظاهرة إله. انظر: الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان (٢/ ٧٢٤). وللاستزادة انظر: الهندوسية عرض ونقد: د. محمد العلي، وأديان الهند الكبرى: د. أحمد شلبي.

(٣) البوذية: هي فلسفة وضعية انتحلت الصبغة الدينية، أسسها سدهارتا جوتاما الملقب ببوذا ٥٦٠ ـ ٤٨٠ق.م، وقد ظهرت في الهند بعد الديانة البرهمية الهندوسية. وكانت في البداية تناهض الهندوسية وتتجه إلى العناية بالإنسان، كما أن فيها دعوة إلى التصوف والخشونة ونبذ الترف والمناداة بالمحبة والتسامح وفعل الخير. وبعد موت مؤسسها تحولت إلى معتقدات باطلة، ذات طابع وثني، تغلو في مؤسسها حتى التأليه. وهي تعتبر نظاماً أخلاقيّاً ومذهباً فكريّاً مبنيّاً على نظريات فلسفية، وتعاليمها ليست وحيّاً، وإنما هي آراء وعقائد في إطار ديني. انظر: الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان (٢/ ٧٥٨)، دائرة معارف القرن العشرين (١/ ٥٥٨). وللاستزادة انظر: البوذية تاريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها: د. عبد الله مصطفى نومسوك.

دائماً عند عرض أصول الرسالة الإسلامية[١].

ونظراً لأهمية الكتاب وما عرضته الباحثة فيه فسيتناوله البحث بالعرض والمناقشة ضمن آراء المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام.

ـ هذه أبرز الدراسات التي تناولت شخصية النبي محمد ﷺ ونبوته خلال القرن العشرين، والذي شهد طفرة كبيرة في حجم الإنتاج الاستشراقي في هذا الموضوع، وفيه اتسمت الكتابات الاستشراقية بما يلي:

١ ـ تواري لغة البذاءة والسب والشتم عند تناول شخصية النبي ﷺ في الأعم الأغلب، وباستثناء بعض الشواهد التي لا زالت متأثرة بفكر القرون الوسطى كما هي الحال عند: وليم موير، هنري لامنس، مرجليوث.

٢ ـ ظهور العديد من الدراسات التي تبرز وتقدِّر بعض الجوانب والأبعاد في شخصية النبي ﷺ، مثل: الحكمة السياسية، والأبعاد الاجتماعية في رسالته، وكذلك صدقه الشخصي ﷺ، وتحليه بالصفات الإنسانية الكريمة، وختاماً إيمانه العميق بما يقول ويدعو إليه.

٣ ـ ظل أمر التسليم للنبي ﷺ بصحة نبوته، أو إثبات تلقيه الوحي الإلٰهي، وكذلك أصالة القرآن الكريم المنزل عليه، أمراً غير وارد في معظم دوائر الفكر الاستشراقي حتى في هذه المرحلة حيث انحصرت رؤيتهم لنبوته ﷺ ووحيه في أنه ضرب من الأحلام والرؤى، أو الأوهام والتخيلات، أو الإلهام النفسي العقلي... إلخ، والتي ولَّدت لديه أفكاراً وتطلعات ومعارف فرضت نفسها على العقل والنفس.

٤ ـ تميز هذا القرن بظهور شخصيات المستشرقين المسلمين من أمثال: الفرنسي ألفونس إيتيان دينيه (نصر الدين دينيه)، والنمساوي ليوبولد فايس (محمد أسد) وغيرهم، والذين حاولوا نقل الصورة صحيحة وواضحة حول الإسلام عموماً وما يتعلق بنبوة محمد ﷺ وشخصيته على وجه الخصوص، والرد على المفتريات والمزاعم التي أطلقها بعض المستشرقين الغربيين في هذا السياق.

---

(١) سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥ ـ ١٣، ومحمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٢٠ ـ ١٢٤.



الفصل الثاني

المدارس الاستشراقية
وكتاباتهم عن النبي ﷺ

المبحث الأول: الاستشراق الإنجليزي.
المبحث الثاني: الاستشراق الألماني.
المبحث الثالث: الاستشراق الفرنسي.
المبحث الرابع: الاستشراق الأمريكي.
المبحث الخامس: الاستشراق الروسي.
المبحث السادس: الاستشراق النمساوي.



تمهيد

إن البحث في موضوع (مدارس الاستشراق) يشكل صعوبة بالغة نظراً لقلة المصادر التي تناولت هذا العنوان. ومعظم الذين تحدثوا عن الاستشراق لم يتطرقوا إلى هذا العنوان كثيراً، بل انصب اهتمامهم على تناول أبحاث المستشرقين نقداً أو تحليلاً أو إعجاباً.

ومع هذه الصعوبة التي مرت معنا إلا أن هناك من أشار إشارات قليلة إلى هذا الموضوع، ومن هؤلاء الأستاذ حسين الهراوي في كتابه «المستشرقون والإسلام»، والذي يقسم المستشرقين إلى مدارس ثلاث:

١ ـ مدرسة تختص بمباحث القرآن الكريم.

٢ ـ مدرسة تختص بالتاريخ العربي الإسلامي.

٣ ـ مدرسة تختص بمباحث تتعلق بسيدنا محمد ﷺ[١].

وهذا التقسيم وإن قبل شكلاً فإنه لا يقبل موضوعاً، ذلك لأنه يعتمد على أن الاستشراق مجال يهتم بما يتعلق بالإسلام والمسلمين خاصة دون غيرهم، وهذا أمر لا يمكن التسليم به لأن الاستشراق مجال أوسع يشمل كل المستشرقين الذين يهتمون بالشرق عموماً سواء أكان إسلاماً أم غيره، وسواء أكان ديناً أم لغة أم أي أمر آخر[٢].

ومن هؤلاء أيضاً الذين اهتموا بمدارس الاستشراق نجيب العقيقي الذي عقد فصلاً خاصاً حول هذا الموضوع في كتابه «المستشرقون» في طبعته

(١) المستشرقون والإسلام، ص٧٣.

(٢) فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي، ص٢١٩.

الأولى، اهتم في هذا الفصل بتوزيع الاستشراق إلى مدرستين هما:

١ ـ المدرسة السياسية التي تبحث في الأدب.

٢ ـ المدرسة الأثرية التي تهتم بالآثار.

وعلى الرغم من تقسيمه هذا إلا أنه خصص بقية كتابه الكبير لدراسة المستشرقين على أساس التقسيم الجغرافي، ومع ذلك فإنه لم يتطرق إلى خصائص ومميزات كل بيئة، بل ركز اهتمامه على ذكر أعلام المستشرقين وما خلفوه من آثار بحيث أصبح الكتاب عبارة عن فهرس شامل لكثير من الأعلام التي برزت في ميدان الاستشراق، ويبدو أن العقيقي اقتنع بالتوزيع الجغرافي وعدل عن تقسيمه الأول بحيث خرج كتابه في طبعته الجديدة دون أن يحوي فصلاً خاصاً عن مدارس الاستشراق(١).

وفي هذا الإطار يبرز أيضاً اسم يوسف داغر في كتابه «مصادر الدراسة الأدبية» الذي أسهب في الحديث حول هذا الموضوع متخذاً التوزيع الجغرافي أساساً للتقسيم، ومركزاً على ذكر خصائص ومميزات كل مدرسة، ولكن الذي يؤخذ عليه أنه بالغ في إضفاء صفة العلمية والموضوعية والمنهجية على بعض المدارس، فهو يقول مثلاً عن المدرسة الفرنسية:

«إنها تتميز بالوضوح في الإفصاح، والجلاء في التعبير، والدقة في البحث» وصاحبها يحاول على الدوام «أن يعطيك عن الموضوع الذي يبحث فيه أصدق صورة وأتمها بعبارة ناصعة واضحة لا يواجهها لبس أو غموص»(٢).

ولا شك بأن من درس الاستشراق بموضوعية وتعرف على بعض أبحاثه لا يمكن أن يسلم بهذه الأوصاف التي ذكرها يوسف داغر خاصة عندما يعدد خصائص المدارس التي ذكرها، فهو يقول: «إنها ـ أي: الخصائص ـ علمية مطلقة مع كل ما للعلم الحديث من مقتضيات وموجبات... نقدية محللة ناخلة مغربلة تتجلى فيها روح النقد العلمي المقارن دون مراعاة أو محاباة لأي عامل من عوامل الأثر والغرض، نموذجية قياسية بمعنى أن المستشرق يتناول بحثه على وجه من منطلق العلم ووجه البحث في الطريقة والسياقة والاستطراد والتوسع

(١) المصدر السابق، ص٢٢٠.

(٢) المصدر السابق، ص٢٢٢.

والغرض والبسط بحيث تتضح أمامك المعالم وتستبين الأهداف... موسوعية أو جامعية بحيث أنه إذا تناول مستشرق موضوعاً ما استفرغ منه المناحي واستظهر منه الخوافي فلا يدع فيه مزيداً لمستزيد، كل هذا في وضوح وجلاء ونقاء ونصاعة»[(١)].

هذه هي المحاولات السابقة في هذا الموضوع يضاف إليها ما ذكره الدكتور أحمد سمايلوفيتش الذي عدد التصنيفات السابقة ـ ولعله اقتنع بها ـ حيث أضاف إليها المدرسة اليوغسلافية باعتباره أحد أفرادها فهو أحسن من يتحدث عنها[(٢)].

نعود للتأكيد على ما ذكر في البداية من صعوبة البحث في مثل هذا الموضوع، ذلك أنه يبدو من المستحيل تصنيف هذا العدد الهائل من المستشرقين في مدارس ذات خصائص محددة، خاصة أنهم يمثلون جنسيات مختلفة ويتكلمون بلغات متعددة ويسيرون في اتجاهات متنوعة وينطلقون من أهداف متباينة، ولا بد لكل من أراد الخوض في هذا الموضوع خاصة وميدان الاستشراق بصفة عامة أن يلم بأطراف كل هذه الاختلافات، وهذا على ما يبدو أمر مستحيل، ولكن مع هذا فإنه من الممكن الالتجاء إلى التوزيع الجغرافي كأساس للتصنيف انطلاقاً من أن البيئة بما لها من خصائص ـ إيجابية كانت أو سلبية ـ ذات أثر كبير في تكوين شخصية الكاتب وتوجيه أفكاره، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن بعض البيئات الأوروبية خضعت لتأثيرات اقتصادية واستعمارية كبيرة في علاقاتها مع دول الشرق عموماً[(٣)].

وإيماناً بكل ما تقدم فإنه يمكن توزيع الاستشراق إلى مجموعة مدارس رئيسية مع الإشارة إلى كل مدرسة بملامح ومميزات غالبة وليست قطعية.

وفي هذا الفصل سيتناول البحث أهم مدارس الاستشراق وكتاباتهم عن النبي ﷺ، وذلك على النحو التالي:

المبحث الأول: الاستشراق الإنجليزي.

المبحث الثاني: الاستشراق الألماني.

---

(١) المصدر السابق بنفس الصفحة، ص٢٢٢

(٢) المصدر السابق، ص٢٢٥.

(٣) مدارس الاستشراق: محمد فتح الله الزيادي، ص٢٢٥.

المبحث الثالث: الاستشراق الفرنسي.

المبحث الرابع: الاستشراق الأمريكي.

المبحث الخامس: الاستشراق الروسي.

المبحث السادس: الاستشراق النمساوي.

المبحث الأول

الاستشراق الإنجليزي

كان المعبر الإسباني للثقافة العربية والإسلامية هو السبيل إلى اتصال بريطانيا بهذا المنبع الحضاري عندما أرسلت بعلمائها ومتخصصيها إلى الجامعات الإسلامية التي كانت تشيع النور الحضاري إلى أرجاء المعمورة، فقصدها العديد منهم منذ القرون الوسطى واغترفوا من هذا المنبع مناهل المعرفة والعرفان، وكان أولهم «إدوارد أف بات» Path الذي ترجم الفلسفة اليونانية من العربية إلى اللاتينية.

وتوالى من بعده أجيال من الباحثين كان همهم التعرف إلى الإسلام وحضارته بغية كشف أسراره، والتعرف إلى سر عظمته، وتلمس مواقع القوة والضعف فيه[١].

وعندما توالت الأحداث التاريخية وخرج المسلمون من إسبانيا وصقلية[٢]

---

(١) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٢٣ ـ ١٢٤).

(٢) صقلية: جزيرة كبيرة تقع في جنوبي غربي إيطاليا ويفصلها عنها مضيق (مسينا)، فتحها المسلمون أيام بني الأغلب على يد القاضي أسد بن الفرات سنة ٢١٢هـ أيام الخليفة العباسي المأمون، وكانت تخضع من قبل للحكم البيزنطي، وهي اليوم جزء من إيطاليا. انظر: العرب في صقلية ـ دراسة في التاريخ والأدب ـ: د. إحسان عباس، ص١٩، الموسوعة العربية ص١١٢٦.

وجنوب فرنسا، وبدأت الحروب الصليبية التي شملت العالم الإسلامي برمته من شمال إفريقيا إلى الشرق الأدنى، واصل الإنجليز هذه الدراسات الاستشراقية بغية تحقيق أهداف تجارية واقتصادية وسياسية.

وزاد الاهتمام البريطاني بمنطقة الشرق بعد أن سيطر على مقدراته السياسية، واستعمره بصورة مباشرة، واستولى على الهند ومصر وغيرها من الأقطار الإسلامية وعمّق من هذه الدراسات التي لا مناص له من إجرائها، باعتبارها الأساس الثقافي والفكري لتمهيد الأرضية المناسبة للسيطرة المباشرة والهيمنة على مقدرات الشعوب الإسلامية.

بدأ الاهتمام بالدراسات الاستشراقية في وقت مبكر في بريطانيا عندما أسس السير «توماس آدمز» (T.Adams) كُرسي الدراسات العربية في جامعة كامبريدج عام ١٦٣٢م. وتلا ذلك تأسيس كرسي آخر للعربية بجامعة أكسفورد عام ١٦٣٦م.

وتوالى الاهتمام بالدراسات الشرقية وخاصة الهند على يد «وليم جونز» نتيجة للروابط التجارية بينها وبين بريطانيا.

ثم ازدهرت الدراسات الاستشراقية في وقت مبكر في بريطانيا بعد حملة نابليون على مصر، وتخريج أعداد كبيرة من المستشرقين والإنجليز على يد المستشرق الفرنسي «دي ساسي»(١).

وقد تناول الاستشراق الإنجليزي سائر مناحي المعرفة الشرقية من لغات وآداب وعلوم وفنون وعقائد وتاريخ وجغرافيا وآثار(٢).

وبعد أن تعرف الإنجليز إلى الحضارة الإسلامية، واطلعوا على حقيقتها، وما ساهمت به في تقدم الحضارة البشرية بصورة خاصة، أخذت الدراسات الاستشراقية تصطبغ بالصبغة العلمية وإن كانت لا تخلو دوماً من تحقيق أهداف

---

(١) أنطوان إيزاك سلفستر دي ساسي Antoine Isaac Silvestre de Sacy (١٧٥٨ ـ ١٨٣٨م): مستشرق فرنسي مولده ووفاته بباريس. كان واسع الاطلاع على اللغات الشرقية فضلاً عن الغربية. وقضى حياته في التعليم والتأليف والنشر. وكان أستاذاً للعربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس. وأنشأ سنة ١٨٣٢م الجمعية الآسيوية مشتركاً مع ريموزا واختير رئيساً لها. تخرَّج على يديه مع كثير من المستشرقين. من آثاره بالعربية: الأنيس المفيد للطالب المستفيد، المختار من كتب أئمة التفسير والعربية في النحو واللغة. انظر: تاريخ دراسة اللغة العربية بأوروبا ص٢٦، وآداب شيخو (١/ ٦٥)، معجم المطبوعات ٩٠١، الأعلام (٢/ ٢٦).

(٢) المستشرقون: للعقيقي (٢/ ٨).

أخرى لا علاقة لها بالعلم والمعرفة المجردتين. إلا أن المجهود العلمي الذي بُذل كان واضحاً بعد زوال تلك الأفكار المشوشة الجانحة عن الحقيقة والمتسمة بالخيال والتجني وعدم الحيدة والموضوعية.

ويرجع هذا الازدهار إلى ازدياد كراسي اللغة العربية بالجامعات البريطانية، وإلى تأسيس معاهد البحوث الشرقية، وإلى إنشاء مكتبات شرقية عامرة بالكتب والمخطوطات الشرقية مثل المكتبة البودلية التابعة لجامعة أكسفورد، ومكتبة جامعة كامبريدج التي وضع «إدوارد جرانفيل» فهرس المخطوطات الإسلامية الموجود بها في ٤٤٠ صفحة، ومكتبة جامعة لندن، ومكتبة مدرسة الدراسات الشرقية والإغريقية وغيرها من المكتبات التي يضيق بنا المقام لذكرها جميعاً[١].

كما ساعد على نمو وازدهار الدراسات الاستشراقية في بريطانيا تكوين الجمعيات والمجلات المتخصصة في هذا النوع من الدراسات منها الجمعية الآسيوية في باتافيا بجاوة، والجمعية الآسيوية للبنغال التي أسسها «وليم جونز» في كلكتا عام ١٧٨٤م، والجمعية الآسيوية الأدبية في بومباي، والجمعية الملكية الآسيوية لبريطانيا وإيرلندا وغيرها كثير. فساعدت هذه المؤسسات العلمية من جامعات ومكتبات وجمعيات ومجلات على ازدهار الدراسات الاستشراقية في بريطانيا[٢].

مميزات مدرسة الاستشراق الإنجليزي:

١ ـ إن أهم ميزة يمكن أن توصف بهذه الدراسات الإنجليزية هي قيامها على تحقيق الدوافع السياسية الاستعمارية؛ لأن ازدهار هذا النوع من الدراسات لم يتم إلا بعد سيطرة بريطانيا على الهند والشرق الأوسط، وقد شمل الاهتمام الاستشراقي الإنجليزي إفريقيا السوداء ومصر. ولكنها أهملت إفريقيا الشمالية لأنها وقعت تحت سيطرة الاستعمار الفرنسي. وبالرغم من سيطرة الدوافع السياسية على الدراسات الاستشراقية البريطانية فإن هذه الدراسات لم تهمل الدوافع الدينية قديماً وحديثاً وما انتشار البعثات التبشيرية البريطانية في الشرق الأوسط وإفريقيا إلا دليل واضح على ذلك.

---

(١) المستشرقون: للعقيقي (٢/ ٢٨ ـ ٣١).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٣٦).

٢ ـ كما تتميز الدراسات الاستشراقية الإنجليزية بشموليتها وتعددها؛ لأنها تناولت سائر الدراسات الشرقية من علم وفن وأدب وتاريخ وفلسفة وعمارة وآثار. كما أن هذه الدراسات لم تقتصر زماناً على فترة تاريخية محددة، ولكنها تناولت الشرق القديم والحديث. أما بالنسبة للمكان فإنها قد شملت الشرق بكامله ولم تقتصر على الشرق الأوسط فقط. والسبب في ذلك يعود إلى اهتمام بريطانيا السياسي بالهند وجنوب شرق آسيا. غير أن مصالحها السياسية المتجددة دفعتها إلى التركيز على منطقة الشرق الأوسط إبان وبعد الحرب العالمية الأولى لأهمية قناة السويس الاستراتيجية، ولاكتشاف النفط بكميات ضخمة في هذه المناطق، ولاتساع المبادلات التجارية بينها وبين أقطار الخليج والهند.

٣ ـ يمتاز الاستشراق الإنجليزي بالتخصص بالنسبة إلى دارسيه، فنجد كل مستشرق يتخصص بنوع معين من الدراسات الاستشراقية فأحدهم في اللغة، والآخر في الحضارة العربية والإسلامية، وثالثهم في الأدب، ورابعهم في الفن، وخامسهم في الآثار وهكذا. وقلما تجد مستشرقاً بريطانياً واحداً شملت دراساته وبحوثه معظم مجالات الدراسات الاستشراقية. وكما كان التخصص النوعي هو ميزة البريطانيين فإن العديد منهم تخصص كذلك في المناطق المشمولة بهذه الدراسة، فتجد بعضهم يتخصص في مسائل الشرق الأوسط، وبعضهم الآخر في الدراسات الهندية ولغاتها، وبعضهم في الدراسات الصينية والإفريقية وهكذا[١].

من أعلام الاستشراق الإنجليزي:

١ ـ وليام بدول William Bedwell (١٥٦٢ ـ ١٦٣٢م):

عمل راعياً لكنيسة إيلبيرج وجمع إلى عمله الكنسي دراساته وبحوثه في اللغة العربية. ظهر له كتابات امتلأت بالحقد على الإسلام والرسول ﷺ[٢].

٢ ـ همفري بريدو Humphrey Prideaux (١٦٤٨ ـ ١٧٢٤م):

ظهر له كتاب في بريطانيا عام ١٦٩٧م بعنوان: «الطبيعة الحقيقية للخداع مجسدة بالكامل في حياة محمد».

---

(١) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٢٩).

(٢) Alastair Hamilton. William Bedwell The Arabist (1563-1632). Leiden: (1985) p. 69.

وانظر: المستشرقون: للعقيقي (٢/ ٣٩).

وهو من أبرز الكتابات الجدلية في تاريخ الغرب ضد نبي الإسلام، وأكثرها فحشاً ليس في عنوانه فحسب بل في مضمونه الذي ترك تأثيراً غير محدود في أوروبا، وقد تقدمت الإشارة مفصلة عن كتابه[١].

٣ ـ جان جانييه jean jagnier (١٦٧٠ ـ ١٧٤٠م):

في عام ١٧٢٣م قام جانييه بترجمة سيرة عربية لمحمد ﷺ إلى اللغة اللاتينية. حيث ذكر أنه يتحتم عليه أن يصف بطريقة غير متحيزة ـ بحسب المصادر المتوفرة لديه ـ ماذا يقول المحمديون عن نبيهم.

وقد جاء كتاب جانييه ـ كما يقول العقيقي ـ تحت عنوان: «حياة محمد» نقلاً عن القرآن ومصادر السُّنَّة وكبار المؤلفين العرب، في جزأين بالفرنسية، دحض به افتراءات المتعصبين عليه، وطبع في أمستردام سنة ١٧٣٢م[٢].

وكلام العقيقي في الثناء على الكتاب يرده ما جاء في مقدمة كتاب جانييه ـ كما يقول بفانموللر ـ والتي يصف فيها محمداً ﷺ بأنه: أكثر الناس شراً، وبأنه عدو لدود لله، والتي تبين لنا ماذا ينبغي أن يفهم المرء من «حياده»[٣].

٤ ـ سيمون أوكلي Simon Ockley (١٦٧٨ ـ ١٧٢٠م):

في عام ١٧١٨م طبع الإنجليزي سيمون أوكلي كتابه: «تاريخ السرازنة». والذي أصبح مصدراً أساسياً لدارسي الإسلام ونبيه ﷺ في بريطانيا، وقد حاول أن يكون حراً وعادلاً في تناوله لشخص النبي ﷺ بتجنب النمط الجدلي الغربي التقليدي في الحكم على النبي ﷺ، لكنه لم يستطع أن ينعزل عن تحزبه القومي الغربي، فلم يزد عن مجرد إبداء الإعجاب بشجاعة النبي ﷺ، واختلافه وقومه عن غيرهم من الغزاة من جهة الإنصاف وحسن المعاملة؛ لذلك فإن التعبير الذي تواتر في أكثر من موضع في كتابه؛ وبأكثر من صيغة هو: محمد المخادع الأكبر. كما أنه يُرجع ما عرف عن النبي ﷺ من شمائل طيبة وصفات حميدة إلى التظاهر الذي يخفي وراءه حقيقة النبي التي تحكمها دوافعه النفسية من الطموح، والطمع، والشهوة.

---

(١) سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥٦، والمستشرقون: للعقيقي (٢/ ٤٤ ـ ٤٥).

(٢) المستشرقون (٢/ ٤٥).

(٣) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٤ ـ ١٥.

ورغم ما جاء في كتاب أوكلي ضد النبي ﷺ إلا أنه لم يسلم من الانتقاد من بيئته المحيطة به لأنه لم يصور الإسلام على أنه دين السيف، ولكنه حاول أن ينظر إلى الجهاد من وجهة نظر المسلمين[(١)].

٥ ـ جورج سال George Sale (١٦٩٧م ـ ١٧٣٦م):

أصدر ترجمته الشهيرة للقرآن الكريم عام ١٧٣٤م، وكان عنوانها فاضحاً لطبيعة الترجمة منذ البدء: «القرآن أو قرآن محمد»، وقد كان لهذه الترجمة تأثيرها البالغ في معاصري سال وما بعده حتى اليوم.

ففي مقدمة الترجمة عرض جورج سال لشخص النبي ﷺ وطبيعة رسالته، فقدم محمداً ﷺ على أنه رجل اتصف بنوع من الحكمة التي مكنته من وضع قانون ينظم حياة العرب، ويستدل جورج سال على أن رسالة محمد ﷺ لم تكن سوى ابتكار بشري، بأنها تدين في نشوئها وتطورها إلى السيف وحده[(٢)].

٦ ـ توماس كارليل Thomas carlyl (١٧٩٥ ـ ١٨٨١م):

في عام ١٨٤٠م قدم توماس كارليل النبي ﷺ في صورة غير مألوفة عند الغربيين، وذلك في كتابه: «الأبطال وعبادة البطل والبطولة في التاريخ». وهو كتاب تضمن ست محاضرات ألقيت حول ستة أنماط ورموز للبطولة في التاريخ[(٣)].

وقد قدم توماس كارليل النبي ﷺ لأول مرة في الغرب ليس بوصفه دجالاً كاذباً وسافكاً للدماء، وإنما بوصفه بطلاً نبياً استحق أن يوضع في سلسلة أبطال العالم وعباقرته العظماء، بسبب أعماله التي بوأته تلك المكانة بحسب معايير البطولة والعظمة التي حددها كارليل.

---

(١) سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥٧، والمستشرقون (٢/ ٤٦).

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٧٩، عن:

Georg Sale, The Koran or Alcoran of Muhammad. Translated by with a Preliminar y Discourse, London Warne, n. d.

وانظر: المستشرقون: للعقيقي: (٢/ ٤٧).

(٣) ترجمه ملخصاً إلى العربية محمد السباعي، بعنوان: «الأبطال». وأما النسخة الأصلية فجاءت تحت عنوان: «الأبطال وعبادة البطل والبطولة في التاريخ»:

Thomas Carlyl, on Heroes, Hero Worship and the Heroic in History, Longman New York 1906. Z, lecture the Hero as Prophet.

ولا شك أنها كانت المرة الأولى التي يقرع فيها آذان الغرب صوت يضع محمداً ﷺ في مصاف الأبطال حتى وإن كانت البطولة وفق معايير وضعية، وعلى أسس وقواعد انتقائية: كن حراً، كن صادقاً، كن مخلصاً.

وستأتي مناقشة مضامين كتاب كارلايل ضمن آراء المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام.

٧ ـ وليام موير W. Muir (١٨١٩ ـ ١٩٠٥م):

أصدر كتابه ذي المجلدات الأربع عام (١٨٥٨ ـ ١٨٦١م) وعنوانه: «حياة محمد ﷺ»، وفيه: يصف النبي ﷺ بأنه كاذب، وأنه قد ربط نفسه بالشيطان فتحول من مجرد واعظ في مكة إلى سياسي طامع في السلطة والسلطان وملذات الدنيا في المدينة[١].

٨ ـ صموئيل مرجليوث S. Margaliouth (١٨٥٨ ـ ١٩٤٠م):

المستشرق الإنجليزي المشهور قرر في كتابه: «محمد وظهور الإسلام» أن النبي ﷺ قد ضلل الناس عمداً عندما ادعى نزول الوحي عليه[٢].

كما كانت له كتابات عن الإسلام، وعن العلاقات بين العرب واليهود. ولكن هذه الكتابات اتسمت بالتعصب والتحيز والبعد الشديد عن الموضوعية كما وصفها الدكتور عبد الرحمٰن بدوي.

٩ ـ توماس وولكر آرنولد Sir Thomas Walker Arnold (١٨٦٤م ـ ١٩٣٠م):

المستشرق الإنجليزي الشهير، له عدة مؤلفات من أشهرها كتابه: «الدعوة إلى الإسلام» ومنها «الخلافة» و«العقيدة الإسلامية» وشارك في تحرير كتاب «تراث الإسلام» في طبعته الأولى، بالإضافة إلى العديد من البحوث في الفنون الإسلامية.

بالرغم من شهرة آرنولد بأنه من المستشرقين المعتدلين فإن البحث الدقيق في كتاباته تدل على أنه يشارك غيره من المستشرقين في الطعن في الإسلام

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٠. ومع ذلك فقد بالغ العقيقي في وصفه بقوله: «وهو من المراجع المعتمدة التي يعتمد عليها في الجامعات الإنجليزية والهندية، لما احتواه من شمول شرح ودقة باستناده إلى المصادر الإسلامية، في أربعة أجزاء» (٢/ ٥٩).

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٤.

بأسلوب هادئ وبخاصة في كتابيه الخلافة والدعوة إلى الإسلام[١].

١٠ ـ سير هاملتون جب Sir Hamilton R. A. Gibb (١٨٥٧ ـ ١٩٧١م):

بالإضافة إلى اهتمامه اللغوي فقد أضاف إلى ذلك الاهتمام بتاريخ الإسلام وانتشاره وقد تأثر بمستشرقين كبار من أمثال توماس آرنولد وغيره.

من أبرز إنتاج جب «الفتوحات الإسلامية في آسيا الوسطى» سنة ١٩٣٣م ودراسات في الأدب العربي المعاصر وكتاب «الاتجاهات الحديثة في الإسلام» وشارك في تأليف «إلى أين يتجه الإسلام»، وقد انتقل جيب من دراسة اللغة والآداب والتاريخ إلى دراسة العالم الإسلامي المعاصر وهو ما التفت إليه الاستشراق الأمريكي حينما أنشأ الدراسات الإقليمية أو دراسات المناطق، وله كتاب بعنوان «المحمدية» ثم أعاد نشره بعنوان «الإسلام» وله كتاب عن الرسول ﷺ[٢].

١١ ـ مونتغمري وات Montgomery Walt (١٩٠٩ ـ ٢٠٠٦م):

أكبر دارس غربي في العصر الحديث والمعاصر بمجموعة دراساته الواسعة والمتعددة حول نبي الإسلام ﷺ، مثل:

- محمد في مكة: ١٩٥٣م.
- محمد في المدينة: ١٩٥٦م.
- محمد النبي ورجل الدولة: ١٩٦١م.
- الوحي الإسلامي في العصر الحديث: ١٩٦٩م.

يؤكد (وات) موضوعيته وتحريه الحقائق عند تعرضه لدراسة الإسلام ونبيه ﷺ، لكن القراءة الدقيقة لنصوص وات وبحوثه تعكس وجهاً آخر فيه خلل معرفي ومنهجي[٣]، وقد تقدم الحديث عن كتاباته مفصلاً ضمن كتابات المستشرقين.

---

(١) انظر: دراسة نقدية لكتاب الدعوة إلى الإسلام، تأليف: توماس ولكر آرنولد: لمحمود حمزة عزوني، وهو بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في الدعوة من المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٢) كتب ألبرت حوراني ترجمة موسعة لهاملتون جب في كتابه:
Europe And The Middle East (London: The Macmillan Press Ltd.) 1980. p104.
ونشر هذا الفصل مترجماً في مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد ٣١، بقلم: سلّام فوزي ص٣٧٣ وما بعدها.

(٣) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١١٢.

١٢ ـ رونالد فيكتور بودلي R.V.C. BODLLY:

ألف كتابه في سيرة النبي محمد ﷺ وسماه: «الرسول: حياة محمد» وطبع في سنة ١٩٤٦م.

يتكون كتاب بودلي من أربعة وعشرين فصلاً، وخاتمة. ذكر في هذه الفصول أبرز أحداث السيرة التي مر بها النبي محمد ﷺ ـ بأسلوب قصصي ـ بدءاً من المجتمع المكي وحياة النبي ﷺ فيه ودعوته، وحتى وفاته ﷺ بعد أن أقام الدين وأرسى دعائمه ثم ذكر في آخر فصول الكتاب منزلة النبي ﷺ في قومه وبين أتباعه من المسلمين، وأما الخاتمة فقد ذكر فيها شيئاً يسيراً عن سير الخلفاء الراشدين وزوجات النبي ﷺ وسراريه، وهو لا يخلو من مواضع منصفة وأخرى سلبية تقدم الحديث عنها ضمن كتابات المستشرقين.

المبحث الثاني

الاستشراق الألماني

لم تزدهر الدراسات الاستشراقية الألمانية إلا في القرن التاسع عشر خلافاً للبلدان الأوروبية الأخرى، رغم اتصال ألمانيا بالشرق منذ الحروب الصليبية الأولى، وانشقاقها عن الكاثوليكية بعد الثورة الدينية التي قادها «مارتن لوثر»، ورغم تدبيج بعض الكتب عن اللغة العربية وخاصة كتاب «كريستمان» الذي أعده لتعليم كتابة الحروف العربية في عام ١٦١٣م(١).

يعتبر الدارسون أن الرائد الألماني الأول الذي وقف نفسه على الدراسات العربية والإسلامية هو «رايسكه» (١٧١٦ ـ ١٧٧٤م). والذي تعلم العربية دون معونة من أحد، واشترى كل المؤلفات العربية التي وصلت إليها يده بالرغم من فقره المدقع. وبدأ نشاطه العلمي بنشر المقامة السادسة والعشرين من مقامات الحريري(٢) بعد أن ترجمها إلى اللاتينية. وعندما انتقل إلى جامعة «ليدن» وقف

(١) المستشرقون الألمان، ص٧.

(٢) الحريري (٤٤٦ ـ ٥١٦هـ): القاسم بن علي بن محمد، الحريري البصري: الأديب الكبير، صاحب «المقامات الحريرية». ومن كتبه: «درة الغواص في أوهام الخواص» و«ملحة الإعراب» و«صدور زمان الفتور وفتور زمان الصدور» في التاريخ. وله شعر حسن في «ديوان». نسبته إلى عمل الحرير أو بيعه. قال مرجليوث: ترجم شولتنز وريسكه نماذج من مقامات الحريري إلى =

دراسته على «المعلقات» خاصة تلك المتعلقة بطرفة بن العبد[١] حيث درسها دراسة علمية نقدية في غاية الدقة والمهارة بعد أن ترجمها هي الأخرى إلى اللاتينية. ثم قام بفهرسة المخطوطات العربية الموجودة في مكتبة «ليدن»، واستنسخ مؤلفات ابن قتيبة[٢]، وأبي الفداء[٣] وابن أبي أصيبعة[٤]. ويعتبر هذا المستشرق المؤسس الحقيقي لدراسة اللغة العربية في ألمانيا وأوروبا، ومات فقيراً معدماً بعد أن أطلق على نفسه اسم «شهيد الأدب العربي»[٥].

ازدهرت الدراسات الاستشراقية في ألمانيا بعد رايسكه بفضل إنشاء كراس عديدة لتعليم العربية في ألمانيا وازدياد المكتبات الشرقية التي اكتظت بالآلاف من المخطوطات والمؤلفات العربية والشرقية النادرة، وإنشاء المطابع الشرقية وتأسيس

= اللاتينية في القرن الثامن عشر، وظهرت لها تراجم في كثير من اللغات الأوروبية الحديثة، مثل: ترجمة روكرت Ruckert الألمانية. انظر: وفيات الأعيان (١/ ٤١٩)، ومرجليوث في دائرة المعارف الإسلامية (٧/ ٣٦٥)، الأعلام (٥/ ١٧٨).

(١) طَرَفَة بن العَبْد (٥٣٨ ـ ٥٦٤ م): طرفة بن العبد بن سفيان البكري الوائلي، شاعر جاهلي. ولد في بادية البحرين، وتنقل في بقاع نجد. واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه. ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر (عامله على البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر، شاباً، في (هجر). أشهر شعره معلقته، ومطلعها: (لخولة أطلال ببرقة ثهمد) وقد شرحها كثيرون من العلماء. وجمع المحفوظ من شعره في «ديوان». انظر: الأعلام (٣/ ٢٢٥).

(٢) ابن قتيبة (٢١٣ ـ ٢٧٦هـ): عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينَوَريّ، من أئمة الأدب، ومن المصنفين المكثرين. ولد ببغداد وسكن الكوفة، ثم ولي قضاء الدينور مدة، فنسب إليها. وتوفي ببغداد. من كتبه: تأويل مختلف الحديث، وأدب الكاتب، وعيون الأخبار، والشعر والشعراء، والأشربة، والرد على الشعوبية. انظر: وفيات الأعيان (١/ ٢٥١)، ولسان الميزان (٣/ ٣٥٧)، والأعلام (٤/ ١٣٤).

(٣) ابن كثير رحمه الله.

(٤) ابن أبي أصيبعة (٥٧٩ ـ ٦١٦هـ): علي بن خليفة بن يونس الخزرجي الأنصاري أبو الحسن، رشيد الدين، من آل أبي أصيبعة: طبيب، موسيقيّ عارف بالأدب. وهو عم ابن أبي أصيبعة (أحمد بن القاسم) صاحب طبقات الأطباء. ولد بحلب وانتقل إلى القاهرة، ثم سكن دمشق وتوفي بها. من كتبه: «الموجز المفيد» في علم الحساب، ورسالة في النبض وموازنته للحركات الموسيقية. انظر: روضات الجنات، ص٤٨٧، وطبقات الأطباء (٢/ ٢٤٦ ـ ٢٥٩)، والأعلام (٤/ ٢٨٥).

(٥) انظر في ترجمته: المستشرقون الألمان: صلاح الدين المنجد، ص١٥ ـ ٢٤، وموسوعة المستشرقين: لبدوي، ص٢٠٣ ـ ٢٠٩، والدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ص١٩٠ ـ ١٩١، والمستشرقون: للعقيقي، ص٦٩٢ ـ ٦٩٤، ومعجم أسماء المستشرقين، ص٥٨٦.

الجمعيات الشرقية كالجمعية الشرقية الألمانية التي أسست على غرار الجمعيتين الآسيوية الفرنسية والآسيوية البريطانية، وإصدار المجلات المتخصصة كالمجلة الشرقية الألمانية، ومجلة الجمعية الألمانية للدراسات الفلسطينية، ومجلة الآداب الشرقية، ومجلة الإسلام التي أنشاها «بيكر» ومجلة عالم الإسلام التي أنشأها «مارتن هارتمان»، ومجلة إسلاميات التي أنشأها «فيشر» وغيرها من المطبوعات التي تهتم بالدارسات الإسلامية والشرقية[١].

وقد ساعدت هذه العوامل مجتمعة على نمو وازدهار الدراسات الاستشراقية في ألمانيا. فبرز في العربية «فريدريش روكرت» Ruckert (١٧٨٨ ـ ١٨٦٦م)، والذي تتلمذ على يد المستشرق النمساوي الكبير «جوزيف بُور جشتاله» وتعلم منه اللغة العربية والفارسية، وانكب على دراسة المخطوطات الشرقية، وترجم أشعاراً لبعض الصوفيين العرب كـ «جلال الدين الرومي[٢]، والحافظ الشيرازي[٣]»، وترجم قسماً من القرآن الكريم، وترجم مقامات الحريري بطريقة بديعة تكاد تكون مطابقة لأصلها العربي. وكانت له منهجية فريدة في تعليم اللغات الأجنبية لطلبته، فهو لا يلقن لهم أوليات النحو والصرف ولكنه يشرح لهم المتن الذي يدرسه بطريقة مباشرة، كما أنه لم يعتن بأشكال الكلمات بل كان يقرأ بعضها ملحناً في التلفظ بها[٤].

ومن كبار المستشرقين الألمان «فلوجيل» Flugel (١٨٠٢ ـ ١٨٨٠م) واضع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، وناشر كتاب «كشف الظنون في أسماء

(١) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٣١).

(٢) جلال الدِّين الرُّومي (٦٠٤ ـ ٦٧٢م): محمد بن محمد بن الحسين البلخي الرُّومي، جلال الدين: عالم بفقه الحنفية والخلاف وأنواع العلوم، ثم متصوف بعد ترك التصنيف والتدريس كما يقول مؤرخو العرب. وهو عند غيرهم صاحب (المثنوي) المشهور بالفارسية، وصاحب الطريقة (المولوية) المنسوبة إلى (مولانا) جلال الدين. ذهب بعض الباحثين إلى أنه من الغلاة وأن شعره يدل على أنه من أرباب الحلول ووحدة الوجود. انظر: تاريخ العراق (٤/ ١٣٠). وكشف الظنون، ص١٥٨٧، الأعلام (٧/ ٣٠)، واقرأ ما كتبه عنه كارا دي فو في دائرة المعارف الإسلامية (٧/ ٦٠ ـ ٦٣).

(٣) لعل المقصود به: أبو عبد الله الشيرازي، محمد بن خفيف (٢٧٦ ـ ٣٧١هـ): صوفي، شافعيّ. كان شيخ إقليم فارس. وهو من أولاد الأمراء تزهد وسافر في سياحات كثيرة، وصنف كتباً. انظر: شذرات الذهب (٣/ ٧٦)، الأعلام (٦/ ١١٤).

(٤) المستشرقون الألمان، ص٥٨.

الكتب والفنون» لحاجي خليفة، وكتاب «الفهرست» لابن النديم، وواضع فهرس المخطوطات العربية الموجودة في مكتبة ڤينا.

وممن يجدر ذكرهم من المستشرقين الألمان «اهلفارت» (Ahlwaradt) الذي تعلم العربية وأتقنها، وهو الذي وضع فهرس مكتبة برلين عن المخطوطات العربية، والذي بلغ عشرة مجلدات ضخمة وأمضى في تصنيفه عشرين سنة[١].

ولا بد من الإشارة في هذا الميدان إلى المستشرق «يوليوس فلهاوزن» (١٨٤٤ ـ ١٩١٨م) الذي برز في دراسة التاريخ اليهودي، وانتقل بعدها إلى دراسة الوثنية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية قبل ظهور الإسلام لدراسة التربة التي نشأ فيها الإسلام، ثم انتقل بعدها إلى الحقبة الإسلامية فحقق «تاريخ الطبري» وألف كتابه «أحزاب المعارضة السياسية الدينية في الإسلام»، وثناه بكتابه الهام «الإمبراطورية العربية وسقوطها»، ويتميز منهجه بالبساطة في الأسلوب، والوضوح في الأفكار، والإلمام بالأحوال السياسية والاقتصادية والسلوكية للفترات التي يؤرخ لها ساعياً إلى اكتشاف العوامل والقوى المؤثرة في الأحداث التاريخية[٢].

ولا ننسى في هذا المقام «تيودور نولدكه» (Noldcke) (١٨٣٦ ـ ١٩٣٠م) المشهور بكتابه «نشوء وتركيب السور القرآنية» ثم ثناه بكتاب «تاريخ القرآن»، الذي عالج فيه هذا الموضوع الحساس بمنهجية لم يسبقه فيها أحد، بحيث يعتبر بحق واضع أسس البحث العلمي للدراسات القرآنية التي جاءت بعده.

أما عن مساهمات «بروكلمان» في الدراسات العربية والإسلامية فإنها لا يمكن أن تغفل. فهو عندما ألف كتابه الشهير «تاريخ الأدب العربي» فقد قصد به: كل ما صاغه الإنسان في قالب لغوي لتوصيله إلى الذاكرة، ولم يقتصر على تلك النظرة العربية البحتة للأدب العربي، المحدودة بحدود الزمان والمكان، والتي تتجه في مجملها إلى تنمية الذوق الأدبي، أو تربية ملكة النقد المنهجي، أو الوصف التاريخي بين أساليب الكلام العربي، ومنازع إنشائه وصياغته، ومذاهب مدارسه في مختلف العصور الأدبية. ولكنه نظر في حقيقة أمره إلى الاتجاه

---

(١) الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ص١٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٧.

الإنساني العالمي الشامل الذي لعبته الثقافة والفكر العربيان. فهو قد نظر إلى الحياة العربية العقلية قبل كل شيء.

ومن هنا نستطيع أن نقول: إن مفهوم الأدب العربي عند بروكلمان هو «المأثور من المنظوم والمنثور».

ولهذا كان كتاب بروكلمان شاملاً للشعر، والنثر، والتاريخ، وأدب السمر، وكتب الثقافة العامة، وعلوم القرآن والحديث والفقه، والطب والجغرافيا والعلوم الطبيعية والخفية والموسوعات.

ويعتبر كتاب بروكلمان موسوعة لا غنى عنها لأي باحث في الدراسات العربية والإسلامية، ويمتاز بمنهجية صارمة لا نظير لها. وقد قضى مؤلفه خمسين سنة من عمره وهو يجمع ويدرس ويراجع مواد كتابه حتى وصل إلى ما هو عليه من الضخامة[١].

ويطول بنا المقام لو أردنا تتبع المستشرقين الألمان ومساهماتهم في مجال الدراسات العربية والإسلامية ونكتفي بهذا القدر الذي يعطي لمحة مركزة عن نشاطهم في هذا المضمار.

مميزات مدرسة الاستشراق الألماني:

١ ـ يؤكد بعض الباحثين العرب بأن من أهم مميزات الاستشراق الألماني عدم خضوعه لغايات سياسية أو دينية أو استعمارية، وحجتهم في ذلك أن ألمانيا لم يُتح لها استعمار البلاد الإسلامية، ولم تهتم بنشر الدين المسيحي في الشرق، كما أن دراسات المستشرقين الألمان عن العرب والإسلام قد أتت منصفة في الأعم الأغلب غير متسمة بالعدائية كحال بعض الدراسات الاستشراقية الأخرى[٢].

وهذه النظرة في الحقيقة ليست صائبة في إطارها العام لأن الاستشراق الألماني كان مبعثه تحقيق الأهداف الدينية، وقد نشأ في بدايته لهذا الغرض خاصة عندما وقف جهده على دراسة التوراة واللغة العبرية باعتبارها مدخلاً لفهم الإسلام واللغة العربية، بالإضافة إلى مساهمات ألمانيا في الحروب الصليبية

---

(١) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٣٣).

(٢) المستشرقون الألمان، ص٧.

وخاصة الحملة الثانية منها. كما أن المستشرقين الألمان في القرن الثامن والتاسع عشر اهتموا بتحقيق الأغراض السياسية لبلادهم.

نعم، لقد تميز الاستشراق الألماني بالدراسات الشرقية القديمة والحقبة الإسلامية واهتم بالآثار والأدب والفن، وهذا النوع من الدراسات عادة ما يكون خالياً من تحقيق أية أغراض سياسية. ولكن الدراسات الاستشراقية الألمانية لم تقتصر على هذه الميادين التقليدية، فكثيراً ما عالجت القضايا الحديثة للعالم العربي والإسلامي، وهذه المعالجة لا تخلو أحياناً من محاولة تحقيق بعض الأهداف السياسية خاصة قُبيل الحرب العالمية الأولى والفترة الواقعة بين العالميتين.

لقد جاءت كثير من الدراسات الاستشراقية الألمانية خالية من العداء للعرب أو التحامل عليهم، ولكن هناك العديد أيضاً من الدراسات الألمانية أساءت إلى العرب والمسلمين خاصة فيما يتعلق بمصدر القرآن، وحياة النبي محمد ﷺ، وتطور الإمبراطورية الإسلامية وبيان نظام حكمها. ومع ذلك فإنه يمكن للباحث المنصف أن يرى أن هذه الأفكار التي لا توافقنا ليس مرجعها التعصب أو كره العرب في الأعم الأغلب، ولكنها تعود إلى اختلاف المنهجية المطبقة على الدراسات الإسلامية، وهي تلك التي تعتمد على «النقد التاريخي»، كما تعود إلى عدم إيمان أولئك الدارسين بقدسية القرآن الكريم ونبوة الرسول محمد ﷺ. ونحن لا نستطيع لومهم على موقفهم هذا لأنه موقف مبدئي نابع من معتقداتهم ومناهجهم، ولكن علينا بيان الشبهات التي تعتري هذه الأفكار والرد عليها بعلمية وموضوعية[١].

٢ ـ ساهمت المدرسة الألمانية في نشر الثقافة الإسلامية، وبيان الحضارة العربية وذلك لما نشرت من نصوص قديمة ساعدت على نشر آلاف من أمهات الكتب العربية والإسلامية، وجلتها ميسرة للمثقفين الغربيين. كما كانت مجهوداتها لا تُنسى في مجال فهرسة المخطوطات العربية، وقيامها بتصنيف العديد من المعاجم العربية، واهتمامها بالدراسات المختلفة في ميادين الثقافة الإسلامية، وإتباعها لمنهج علمي دقيق فرضته الطبيعة الألمانية وخصال شعبها. واهتمام هذه المدرسة بعد الحرب الثانية بأحوال الوطن العربي ودراسته من جميع جوانبه.

(١) الظاهرة الاستشراقية، ص١٣٤ ـ ١٣٦.

وهذه جميعها خصائص إيجابية لا ننكرها، أو نقلل من قيمتها، أو نبخسها حقها ومع ذلك تبقى هذه الدراسات ليست مجردة من الأهواء وتحقيق أغراض لا علاقة لها بالمنهجية العلمية والموضوعية والحيادية[١].

٣ ـ اتصف كثير من المستشرقين الألمان بالتفاني في العمل والصبر والمثابرة، فمنهم من فقد بصره مثل (وستنفلد) ومنهم من أفنى عمره باحثاً ومنقباً ودارساً حتى أن (يوهان رايسكه) سمي بشهيد الأدب العربي. ووصل الحماس ببعضهم أنه أتقن ما يقرب من خمسين لغة ولهجة وخير مثال على ذلك فريدريش روكرت. يقول أحمد أمين: «وقد عرف الألمان بدقة البحث والصبر عليه والاستطاعة العجيبة في أن يؤلفوا بين أجزائه المتنافرة، وأن يصلوا منها إلى أدق النتائج وأعمقها»[٢].

٤ ـ من أهم ميزاته اهتمامه بالقديم فالسمة الملاحظة عليه هي التركيز الكبير على نشر التراث الإسلامي بدرجة يستحيل معها ـ كما يقول صلاح الدين المنجد ـ أن يخرج مجمع علمي ما أخرجه مستشرق واحد[٣].

٥ ـ كانت بدايته متأخرة جداً إذا ما قورنت ببدايته في بعض البلاد الأخرى ولم يعرف أي نشاط يذكر للاستشراق الألماني إلا في القرن الثامن عشر.

٦ ـ قام بعض أعضائه بالتدريس في بعض الجامعات العربية وخاصة في مصر ومن هؤلاء ليتمان وبرجستريسر وكراوس وشاده وشاخت، كما وصل بعض أعضائه إلى عضوية المجامع اللغوية العربية.

٧ ـ اختلف عن غيره من مدارس الاستشراق الأخرى بالتركيز على البلاد العربية والدين الإسلامي دون غيرهم من لغات وديانات الشرق الأخرى[٤].

من أعلام الاستشراق الألماني:

١ ـ جوستاف فايل Gustav weil (١٨٠٨ ـ ١٨٨٩م):

المستشرق الألماني الذي قام بنشر وترجمة العديد من المؤلفات العربية

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٦، وانظر: مدارس الاستشراق: محمد فتح الله الزيادي، ٢٨٤.

(٢) الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا، ص١٨٤.

(٣) المستشرقون الألمان، ص٨.

(٤) مدارس الاستشراق: محمد فتح الله الزيادي، ص٢٨٧.

ومنها كتابه: «محمد النبي: حياته وتعاليمه»، والذي نشر في شتوتجارت بألمانيا سنة ١٨٤٣م.

وقد وصف بفانموللر كتاب فايل بأنه «خطوة كبيرة إلى الأمام، وذلك بسعيه في رسم صورة أكثر تاريخية لأصول الإسلام على أساس من مصادر أكثر جودة وأوفر عدداً مما لم يكن متوافراً لأسلافه، وقد حققت الدراسات الاستشراقية تقدماً هائلاً في خلال الخمسين عاماً التي مضت بعد ظهور فايل، ولكن ذلك لم يقلل في شيء من الخدمة التي أداها فايل بوصفه أول من قام ببحث نقدي تاريخي حول هذا الموضوع، والنتيجة التي ينتهي إليها فايل في كتابه هي: أن محمداً يمكن أن يرى أيضاً في أعين غير المحمديين بأنه رسول الله»[(١)]. ويخالف في وجهة النظر الإيجابية هذه الدكتور عبد الرحمٰن بدوي حيث يقول: «يعد كتاب فايل هذا أول سلسلة من الكتب التي سيكتبها المستشرقون المحدثون عن سيرة النبي ورسالته. ويعد أيضاً من أشدها تحاملاً وبعداً عن الموضوعية العلمية والدقة التاريخية»[(٢)].

٢ ـ هوبرت جريمي Hubrt Grimme (١٨٦٤ ـ ١٩٤٢م):

هوبرت جريمي الألماني هو خليفة ألويس شبرنجر، وقد استطاع في كتابه: «محمد»، الصادر عام ١٨٩٢م، أن يتجاوز أستاذه شبرنجر، فيصل إلى تصور متكامل لحل التساؤلات والإشكالات المثارة من خلال مصادر السيرة عن النبي ﷺ، ويتلخص ذلك التصور:

في أن النبي ﷺ لم يكن يهدف إلى تأسيس دين جديد، ولكنه كان يرغب في إصلاح مجتمع مكة الفاسد، فقام ثائراً على الظلم الاجتماعي في توزيع الثروات، وسعى بكل قوة إلى إقامة مجتمع إنساني عادل، ووجد أن أفضل وسيلة للتخلص من المعارضة المكية القوية لرسالته الإصلاحية الاجتماعية ضد النظام الطبقي، هي توظيف فكرة الحساب يوم القيامة وإسنادها إلى الوحي المتلقى من جبريل، وذلك للتأثير على الأغنياء من أجل قبول رسالته الاجتماعية بتوزيع الثروة على الفقراء من خلال فرض الزكاة على الأغنياء، وهو يحاول اصطياد العناصر

---

(١) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٧.

(٢) موسوعة المستشرقين، ص٣٩٠ ـ ٣٩١.

المؤدية لنظريته التي تفسر حياة محمد ﷺ في ضوء المذهب الماركسي المادي، مما لا يسوغه مسوغ علمي[١].

٣ ـ كارل بروكلمان Carl Brockelmann (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦م):

المستشرق الألماني المشهور بموسوعته العلمية في تاريخ الأدب العربي، والتي تعد أضخم عمل موسوعي وأشهره في تاريخ الأدب العربي، استغرق فيه خمسين عاماً (١٨٩٨ ـ ١٩٤٩م)، ويشمل سجلاً للمصنفات، وقد أصبح ذلك الكتاب ذخيرة لا يستغنى عنها دارس للعلوم الإسلامية؛ لأن مفهوم الأدب لدى بروكلمان اتسع ليشمل: الشعر، والنثر، وعلوم القرآن والحديث والفقه، والطب، والجغرافيا، والعلوم الطبيعية، والموسوعات[٢].

لكنه ضمّن رؤيته للنبي ﷺ في كتابه التاريخي: «تاريخ الشعوب والدول الإسلامية» الصادر بالألمانية عام ١٩٣٩م، ومن ثم ظهرت ترجمته الإنجليزية ـ لاحقاً ـ بحذف كلمة الدول الإسلامية، ليكون العنوان: «تاريخ الشعوب الإسلامية».

وقد جاءت رؤية بروكلمان للنبي ﷺ تجسيداً للتقاليد المستقرة في الفكر الاستشراقي عموماً وفي الاستشراق الألماني خصوصاً، إذ نستطيع بكل وضوح قراءة معالم الفكر الاستشراقي التقليدي في كلتا الدائرتين من خلال الفصلين اللذين خصصها بروكلمان للنبي ﷺ ورسالته في كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية[٣].

٤ ـ رودي باريت Rudi Paret (١٩٠١ ـ ١٩٨٢م):

في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي أصدر الألماني رودي باريت عام ١٩٥٧م كتاباً بعنوان «محمد والقرآن: تاريخ النبي العربي ودعوته».

وقد حقق الكتاب من الشهرة والانتشار قدراً واسعاً جعل طبعاته تتوالى؛

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٠، عن:
Hubert grimme, Mohammad, Nunster, L. W., Aschendoff 1892.

(٢) انظر: مقدمة الكتاب، بتحقيق: محمود فهمي حجازي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٣) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠١:
Carl Broklmann, Geschichte der islamischen voelker und staaten, Hildesheim-New York: Olms 1977, Nachdr.d. Ausg. Muenchen und Berlin 1943.

ربما بسبب شهرة صاحبه بوصفه مترجماً للقرآن الكريم، وربما لكونه يمثل خلاصة ما استقرت عليه المدرسة الألمانية خصوصاً والأوروبية عموماً، من فكر ومنهجية في تناول حياة النبي محمد ﷺ ورسالته.

حاول باريت في مواضع من كتابه مستميتاً إثبات تبعية الإسلام لليهودية والنصرانية[١]، من خلال عدة ملاحظات ومقارنات تقدمت الإشارة إليها ضمن كتابات المستشرقين.

ورغم ما تقدم فإن كتاب باريت لا يخلو من بعض المواضع المنصفة في حق النبي ﷺ، منها:

- نقده لمونتغمري وات في قوله: إن الحالة الدينية في مكة هي التي كونت فكرة الدين لدى محمد ﷺ.
- نقده لبعض المستشرقين في دعواهم: إن المشكلات الاجتماعية كانت هي السبب الرئيس لدعوة النبي ﷺ إلى الإسلام.
- رده على بعض دعاوى المستشرقين في سوء معاملة النبي ﷺ لليهود.
- كلامه المنصف في أسباب تعدد زوجات النبي ﷺ ورده على المفكرين الغربيين في ذلك.
- ثناؤه على الصفات الشخصية للنبي ﷺ من التدين والصدق والنزاهة والثقة في دعوته[٢].

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٩، عن:

Rudi Paret, Mohammed und der Koran. Geschichte und, verkuendigung des arabischen Propheten, Suttgart 1966. 2aufl.

(٢) المرجع السابق، ص٣٦، ٦١، ١٨٦، ٢٤٥.

المبحث الثالث

الاستشراق الفرنسي

تعد المدرسة الفرنسية من أهم المدارس الاستشراقية، وبخاصة منذ إنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحية سنة ١٧٩٥م، والتي رأسها المستشرق الفرنسي المشهور سلفستر دي ساسي، وكان هذا المستشرق يعد عميد الاستشراق الأوروبي في النصف الأول من القرن التاسع عشر دون منافس[١]. وكما يقول د. قاسم السامرائي عن كتاب دي ساسي في قواعد اللغة العربية إنّه «قد لوّن الاستشراق الأوروبي بصبغة فرنسية»[٢].

مع البدايات الأولى لظهور الاستشراق كانت الكتابات الاستشراقية المهتمة بالإسلام تصدر باللغة اللاتينية، ولم يظهر مفهوم «مستشرق» في فرنسا إلا في عام ١٧٩٩م، كما لم يدرج مفهوم «الاستشراق» في قاموس الأكاديمية الفرنسية إلا عام ١٨٣٨م[٣].

لقد نشط المستشرقون اللاهوتيون الفرنسيون كغيرهم خلال القرون الوسطى

(١) الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشراقية في جامعة الإمام: د. قاسم السامرائي، ص١٥.
(٢) المرجع السابق، ص٩.
(٣) صورة العالم الإسلامي في أوروبا: م. رودنسون، ص٧٤.

ضد الإسلام وراحوا ينشرون الافتراءات والأكاذيب حول النبي ﷺ، وغزت الأساطير الشعبية والخرافات خيال الكُتَّاب الفرنسيين، ولم يكن الهدف عرض صورة موضوعية عن النبي محمد ﷺ، فقد كان هذا أبعد ما يكون عن الأذهان وقتئذ، ولم يكن الاعتماد قائماً على أية مصادر مكتوبة، بل يتم الرجوع فقط إلى آراء العامة والشائعات والأراجيف التي يتناقلها الناس عن الإسلام ونبيه(١).

كان الحديث عن النبي ﷺ وسيرته آنئذ يتم في سياق مواجهة الدين الجديد ومحاولة تشويه صورته وحقيقته، فجاءت صورته ﷺ في كتاباتهم صورة النبي المزيف والكذاب الذي أراد القضاء على النصرانية، أما اللغات الشرقية ومنها العربية فلم تكن معروفة لدى الفرنسيين أثناء الحروب الصليبية وقبلها، ولم تعرف إلا مع ظهور حركات التنصير ومصادقة مجمع فيينا الكنسي عام ١٣١٢م على ضرورة تعليم اللغة العربية في جامعات باريس وأكسفورد وبولونيا (إيطاليا) وسلمنكا (إسبانيا)، وفي عام ١٥٣٩م تم إنشاء أول كرسي للغة العربية في كلية (دي فرانس) Collège de France بباريس وكان أول من شغله هو المستشرق الفرنسي الشهير جيوم بوستيل Guillaume Postel (ت١٥٨١م) الذي يعد أول المستشرقين الفرنسيين الذين أسهموا في إثراء دراسة اللغة العربية، ونقل بعض التراث العربي إلى اللغة الفرنسية(٢).

وعلى الرغم من ذلك فقد تطور الأمر مع مرور الزمن حيث شهدت نهاية القرن السابع عشر اتجاهاً آخر مختلفاً عما كان عليه خلال القرون الوسطى، فقد بدأت تبرز نظرات استشراقية موضوعية إلى حد ما، فيها القليل من التعاطف مع الإسلام، وقد أسهم في تعزيز ذلك ظهور النزعة العقلية الجديدة التي بدأت تنتشر في أوروبا متحدية الكنيسة النصرانية التي تعارضها.

وقد كان من أبرز هؤلاء الفرنسي بيير بايل Pierre Bayle الذي عرض لحياة محمد ﷺ في قاموسه التاريخي والنقدي الذي ظهرت طبعته الأولى في روتردام (هولندا) عام ١٦٩٧م.

كما ألف بودي Body كتابه «حياة محمد» عام ١٦٧١م ولم يصدر منقحاً إلا

---

(١) نظرة الغرب إلى الإسلام في القرون الوسطى، ص١٧.
(٢) المستشرقون: للعقيقي (١/١٥٨).

عام ١٧٣٠م، ويعد هذا الكتاب أول كتاب وقف به الفرنسيون على حياة الرسول ﷺ لكنه كان بعيداً عن الإنصاف والموضوعية، كما أنه لم يخص فيه مؤلفه الحديث عن السيرة النبوية كما قد يتوهم من عنوان الكتاب، ثم أخرج الكونت الفرنسي هنري بولاين فيليه سيرة للنبي ﷺ عام ١٧٣٠م في باريس بعنوان «حياة محمد»(١).

ولم يكن الوقت قد حان للحديث عن سيرة رسول الله ﷺ في كتب مستقلة، فلذلك لم يظهر هذا النوع من الكتابات إلا ابتداء من أواخر القرن التاسع عشر، ولكن بالمقابل كانت هناك بدايات للحديث عن السيرة النبوية في المعاجم الكبرى من جهة وفي مقدمات ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغة الفرنسية من جهة أخرى.

وبعد ظهور هذه البدايات الأولى للحديث عن سيرة النبي ﷺ كان لا بد من انتظار القرن العشرين لكي يمكن الحديث عن اهتمام حقيقي بسيرة النبي محمد ﷺ من طرف المستشرقين الفرنسيين على السواء، وإذا كانت الكتابة الفرنسية في حقل السيرة النبوية تتم من قبل انطلاقاً من الشائعات والحكايات المتداولة وبعض الإشارات الواردة في كتب من هنا وهناك، فإنه بعد ترجمة بعض المصادر الأولى للسيرة النبوية إلى اللغة الفرنسية والانفتاح على اللغة العربية مباشرة أضحى من السهل إنجاز دراسات خالصة وجادة(٢).

مميزات مدرسة الاستشراق الفرنسي:

١ ـ تتركز دراسات الاستشراق الفرنسي حول ثلاثة محاور هي: المحور الديني، والمحور السياسي، والمحور الاستعماري.

٢ ـ كان له أثر كبير في توجيه الاستشراق الألماني والانحراف به نحو

---

(١) المستشرقون: للعقيقي (١/١٥٧).

(٢) أحصى فكتور شوفان الفرنسي Victor chauvin عدداً لا بأس به في عمله الموسوعي (مرجعية الكتب العربية أو المتعلقة بالعرب المنشورة في أوروبا المسيحية من سنة ١٨١٠م إلى ١٨٨٥م) (المجلد الحادي عشر المتعلق بالسيرة النبوية). ومن ذلك ترجمة نويل ديفرجرز Noel de vergers للسيرة النبوية من تاريخ أبي الفداء عام ١٨٧٣م، وترجمة بيرون Perron لقصة المعراج عام ١٨٥٤م، ونشر هنري ماسيه H. Massé لكتاب الاكتفاء للكلاعي (ت٦٣٤) عام١٩٣٣م وغير ذلك. انظر: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الفرنسية، عرض وتحليل: د. حسن عزوزي، ص٣ ـ ٧.

منعرجات دينية وسياسية، ويبرز ذلك من خلال تلمذة الكثير من المستشرقين الألمان على المستشرقين الفرنسيين ونخص بالذكر منهم فرايتاج وفلوجل وفلايشر.

٣ ـ يعتبر معهد اللغات الشرقية الذي أسس سنة ١٧٩٥م أهم مكان تربى وترعرع فيه الاستشراق الفرنسي.

٤ ـ كان لجامعة السوربون ـ ذات الشهرة العالمية ـ أثر واضح في تنشيط الدراسات الشرقية في فرنسا.

٥ ـ أسس كثيراً من المعاهد والمدارس والمراكز الثقافية في بلاد الشرق، والتي كان لها تأثير كبير في فرنسة عدد من هذه البلاد وخاصة التي استعمرت من قبل فرنسا.

٦ ـ يمتاز الاستشراق الفرنسي بالتخصص؛ أي: أن معظم أفراده تخصص كل منهم في جانب معين من جوانب البحث والدراسة.

٧ ـ نشأت معظم الجامعات والمعاهد الفرنسية التي تعني بالدراسات الشرقية بجهود رهبان وقساوسة وتولى هؤلاء إدارة الأمور فيها.

٨ ـ من مميزاته أنه قام بفهرسة معظم الكنوز الشرقية من مخطوطات ووثائق وغيرها سواء ما كان منها في فرنسا أو في غيرها من البلاد التي وقعت تحت الاستعمار الفرنسي.

٩ ـ اهتم منذ البداية بكل ما يتعلق بالشرق عموماً، ولم يخص الإسلام أو العربية وحدهما أو يركز عليهما.

١٠ ـ ترك بصماته الواضحة على التعليم في إفريقيا وخاصة في شمالها، وتم ذلك عن طريق ما أتيح لأعضائه من فرص في التدريس والتوجيه التربوي وتخطيط المناهج وغيرها.

١١ ـ اهتم كثيراً بالآثار وتتبعها في مواقعها وأنشأ لها معاهد ومراكز خاصة[١].

من أعلام الاستشراق الفرنسي:

١ ـ هنري بولاين فيليه Henri Boulain Villier:

أخرج الكونت الفرنسي هنري بولاين فيليه سيرة للنبي ﷺ عام ١٧٣٠م في

(١) مدارس الاستشراق: محمد فتح الله الزيادي، ص٢٩٠ ـ ٢٩١.

باريس بعنوان «حياة محمد» وظهرت عام ١٧٣١هـ في لندن بالإنجليزية بالعنوان ذاته: حياة محمد. وقد قدم بولاين فيليه النبي ﷺ في كتابه على أنه: رجل حكيم من رجال التشريع العقلاني مثل ذلك النمط من العقلانيين الذين عرفهم عصر التنوير الأوروبي، وإلى جانب شخصية العقلاني المبشر بعصر العقل، فإن فيليه أضاف إلى شخصية النبي ﷺ دور البطولة العسكرية في نمطها ومثالها الأوروبي: يوليوس قيصر، والإسكندر الأكبر.

واتفق بولاين فيليه في نظرته إلى النبي ﷺ مع النظرة الأوروبية القروسطية التقليدية في أنه ﷺ قد ابتدع ديناً من أجل أن يحقق رغبته في التسلط وسيادة العالم.

لكنه خالف التقاليد الأوروبية في جعل الإسلام ديناً طبيعياً منبت الصلة بالوحي والتنزيل الإلٰهي، فكانت المرة الأولى التي يُصور فيها النبي ﷺ ليس في صورة المهرطق صاحب البدعة المنشق عن المسيحية، بل بصورة المهتدى بالعقل وحده إلى الله[١].

وعندما نشر بولاين فيليه كتابه أخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن محمد ﷺ باعتباره رسولاً للعناية الإلٰهية[٢]، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنه مال إلى المبالغة بسبب ميول ذاتية ونوازع معادية للكنيسة[٣].

٢ ـ فولتير Voltaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨م):

الفيلسوف والأديب الفرنسي الشهير، والذي كتب روايته المأساوية «محمد أو التعصب» دون أن يراعي الحقائق التاريخية. وقد كان فولتير نفسه ـ كما يقول بفانمولر ـ مقتنعاً بأن كتابه المنبثق من خياله يتناقض تناقضاً حاداً مع التاريخ، ومع ذلك فقد أراد أن يعرض على الجمهور شخصية تارتوف Tartuffe ـ الرجل المنافق ـ ممسكاً سلاحاً في يده، وكان يعتقد أنه يستطيع أن يعير محمداً هذا الدور. ولكن فولتير لم يكن له أن يفعل ذلك لو لم يكن التصور السائد حينذاك

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٧٨، عن:
Comte Henri Boulainvillier, The life of Mahomet, anonymous Translator, London 1731.

(٢) الشرق والغرب في نظر جوته: عبد الرحمٰن صدقي، ص٢١.

(٣) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٣ ـ ١٤.

هو أن محمداً يمثل التعصب والتضليل الديني[١].

وبجانب هذه الصورة الظالمة للنبي ﷺ والتي كتبها فولتير في روايته فإن تطوراً إيجابياً كبيراً طرأ في موقفه وذلك من خلال كتابه «بحثٌ حول عادات وأخلاق الأمم». الذي نشره سنة ١٧٥٦م ثم أعاد نشره آخر مرة سنة ١٧٦٩م، وقد تقدم الحديث عن محتواه ضمن كتابات المستشرقين.

٣ ـ كوسان دي برسيفال caussin de Perceval (١٧٩٥ ـ ١٨٧١م):

وهو أستاذ العربية في معهد فرنسا ومن بحوثه: وقعة بدر ـ مرحلة من حياة الرسول ـ ضمن المجلة الأسبوعية سنة ١٨٣٩م، وباكورة في تاريخ العرب في ثلاثة مجلدات سنة ١٨٤٧م وقد تناول فيه: العرب قبل الإسلام، ثم عصر النبوة، ثم انضواء القبائل تحت راية الاسلام[٢].

يعرض بفانمولر لكوسان دي برسيفال بقوله: «ومنذ ذلك الوقت بدأ محيط العلماء يزداد ميلاً إلى ذلك التقدير (للنبي ﷺ) وهكذا يوضح كوسان دي برسيفال في مقالاته أنه من غير المعقول ألا يستطيع المرء أن يرى في محمد إلا مخادعاً ذكياً أو عبقرية طموحة. لقد كان محمد ـ حسب رأي برسيفال ـ على وجه الخصوص إنساناً مقتنعاً بأنه قد انتدب لتخليص شعبه من الضلال والعمل على إحيائه. وقد كانت المصادر التي استطاع هؤلاء الكُتَّاب أن يضعوها تحت تصرفهم مصادر ثرية جداً بالمقارنة إلى ما كان متوافراً لأسلافهم، ولكنها مع ذلك كانت أقل بكثير جداً مما أصبح متيسراً لنا في خلال العشرين أو الثلاثين سنة الأخيرة[٣]. وبالإضافة إلى ذلك كانت لا تزال هناك ثغرات هامة في مناهج بحوثهم[٤].

٤ ـ بول كازانوفا Paul Casanova (١٩٢٦م):

يعتبر المستشرق الفرنسي كازانوفا من أكثر المستشرقين المعاصرين تحاملاً على العقيدة والنبوة الإسلامية. وقد بدت مرجعيته المسيحية القروسطية واضحة

---

(١) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٦.
(٢) المستشرقون: للعقيقي (١/١٧٧).
(٣) يلاحظ هنا أن بفانمولر كتب هذا الكلام عام ١٩٢٣م.
(٤) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٨.

تماماً في كتابه: «محمد ونهاية العالم» الذي لم يوافق على منهجه فيه، ولا على نتائجه المستشرقون المعاصرون أنفسهم.

وقد سعى كازانوفا في هذا الكتاب إلى إثبات تأثر القرآن الكريم بالأناجيل بكل طريق، وركز على فكرة أحداث القيامة التي حاول أن يثبت ببحثها تحكم فكرة قرب نهاية العالم في نفسية النبي ﷺ ووقوعة تحت تأثيرها(١).

٥ ـ نصر الدين دينيه (ألفونس إيتيان دينيه) Alphonse Etienne (١٨٦١ ـ ١٩٢٩م):

الرسام العالمي الفرنسي ألفونس إيتيان دينيه الذي قاده البحث العميق في أصول وفروع اعتقاده وسبب حيرته الدينية إلى الاقتناع بالإسلام ديناً، فأعلن رسمياً إسلامه سنة ١٩١٣م بالجامع الجديد في مدينة الجزائر، وتسمى بنصر الدين، وطلب «أن يدفن في قبره مسلماً بمدينة (بوسعادة) بالجزائر، وقد نقل جثمانه من باريس، حيث توفي في ديسمبر ١٩٢٩م»(٢).

وكان أكبر عمل قدمه دينيه فيما يخص دراساته الإسلامية، هو كتابه في السيرة: «محمد رسول الله» الذي اشترك فيه مع أحد الباحثين الجزائريين وهو سليمان بن إبراهيم، وقد اعتمد فيه على ما دونه أصحاب السنن والسير، غير ملتفت إلى آراء المستشرقين، ولذلك ثارت ثائرتهم حيث زعموا أن آراءه تخالف ما انتهى إليه البحث العلمي الحديث، والحقيقة أن دينيه اعتمد هذا المنهج متعمداً، إذ رأى أنه يستحيل أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئاتهم ونزعاتهم المختلفة عند دراساتهم في النبوة الإسلامية، ولذلك كان تحريفهم للسيرة ولحياة الصحابة كبيراً حتى غطى على الحقيقة، وهم «رغم ما يزعمون من إتباعهم لأساليب النقد الحديثة، فإننا نلمس في كتاباتهم محمداً يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلف ألمانياً، ومحمداً يتحدث بالإيطالية، إذا كان الكاتب إيطالياً، وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب»(٣).

وقد أعطى دينيه الكثير من الأمثلة على ما ذكره حيث بين الاختلاف الكبير

---

(١) Mohamed et la findu monde-p. Casanova-p 12. نقلاً عن نبوة محمد في الفكر الاستشراقي، ص٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٢) محمد رسول الله: نصر الدين (دينيه) وسليمان بن إبراهيم، مقدمة الشيخ عبد الحليم محمود، ص٨ ـ ٩، وانظر: الاستشراق والمستشرقون: للعقيقي (١/٢٢٨).

(٣) محمد رسول الله: نصر الدين (دينيه)، ص٤٣.

بين الغربيين في كل المباحث التي عقدوها لحياة النبي ﷺ حتى استحال أمر كتابة السيرة بمثل مناهجهم، ولأجل هذا كتب دينيه في السيرة باعتباره مؤمناً وباحثاً، فتجاوز كل آراء المستشرقين التي لم تستطع أن تعبر عن الحقيقة، وقرر «أن صورة نبينا الجليلة التي خلفها المنقول الإسلامي تبدو أجل وأسمى، إذا قيست بهذه الصور المصطنعة الضئيلة التي صيغت في ظلال المكاتب بجهد جهيد. ونرجو أن يعرف العلماء ضلالهم، فيكفوا عن النيل من هذه الصروح المعجزة التي رفعها التاريخ إقراراً بفضل أنبياء العرب وبني إسرائيل والهنود على الإنسانية، فإن أساس هذه الصروح أصلب من أن تخدشه تلك المعاول»(١).

والملاحظ أن كتاب دينيه في السيرة لا يختلف من حيث مادته عن المؤلفات الإسلامية الأخرى، ولكنه يتميز عن الكثير منها بالأسلوب الشاعري الذي ألفت به مباحث مثل: معاناة النبي ﷺ ومجاهدته من أجل إعلاء كلمة الله، وتسامحه، وعلو همته، وطيب شمائله عليه الصلاة والسلام(٢).

٦ ـ غوستاف لوبون Gustave Le Bon (١٨٤١ ـ ١٩٣١م):

الدكتور غوستاف لوبون من فلاسفة علم الاجتماع الفرنسيين، ومن المستشرقين المنصفين للحضارة العربية والإسلامية إلى حد بعيد.

دافع لوبون في كتابه الشهير: «حضارة العرب» عن الحضارة العربية والإسلامية فأجاد ودافع عن فتوحاتها فأنصف، كل ذلك بروح عالية المستوى قوية الحجة، إلا أنه مع حسن نيته لم يرهق نفسه ليحيط بدقائق العقيدة الإسلامية وأحياناً أصولها، فجاءت معظم هفواته وأخطائه في هذا المجال، فهو لم يتصور أو يدرك ظاهرة الوحي، أو أدركها لكنه لم يقر بها لمحمد ﷺ، ولم يستوعب بعض الأمور المتعلقة بالنبوة والقرآن والشريعة(٣).

ورغم ذلك فقد جاءت في الكتاب عبارات وآراء منصفة في وصف النبي ﷺ تستحق التوقف والإشادة.

---

(١) المرجع السابق، ص٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص٥٢.

(٣) غوستاف لوبون في الميزان: شوقي أبو خليل، ص١١.

٧ ـ لويس ماسينون Lowis Massignon (١٨٨٣ ـ ١٩٦٢م):

المستشرق الفرنسي الكبير لويس ماسينون، والذي كان ازدواجياً في رؤيته لنبوة محمد ﷺ، ففي الوقت الذي أدرج كتابه: «الدوحات الإبراهيمية الثلاث» رسالة النبي محمد في خطة الخلاص الإلهي ذي المراحل الثلاث: (اليهودية دين الأمل، والمسيحية دين المحبة، والإسلام دين الإيمان)، وأن تلك الرسالة قد أنقذت إسماعيل عليه السلام من الإقصاء من الوعد المقدس الذي فرضته عليه النصرانية، وأنها لم تتبع الإدعاءات اليهودية حول المسيح، بل جاءت مصدقة لما في التوراة والإنجيل مكرمة للمسيح وأمه.

إلا أن تلك الرؤية تجاورها رؤية أخرى معارضة جعلت رسالة النبي ﷺ مرحلة من مراحل الاتصال الصوفي بالمطلق من خلال شعائر الزهد والتأمل الذي يثمر معرفة عرفانية مسموعة ومرئية هي خلاصة الوحي المحمدي، والتي لم تكتمل لمحمد ﷺ فيها مرحلة الاتحاد والحلول الكامل الذي تحقق لأبي منصور الحلاج الصوفي المقتول والذي يربط من خلاله الوحي المحمدي بعقيدة الحلول النصراني في المسيح عيسى عليه السلام[(١)].

فهذه الرؤية الثانية تفضي إلى تفريغ نبوة محمد ﷺ من مضمونها الإلهي، وتلحقها بالتبعية للمسيحية، فهو من خلالها لا يرى في الإسلام سوى التصوف الذي يمثل أجل قيم الإسلام وحقائقه، ولم ير في التصوف سوى الحلاج أكثر النماذج الصوفية انحرافاً بنظريته في الحلول والاتحاد، وفي نظرية النور المحمدي التي ترتب عليها القول بوحدة الأديان، مما يجعل اليهودية والنصرانية والإسلام مجرد ألقاب وأسامي متناثرة لحقيقة واحدة، الفضل يكون فيها بالطبع للسابق على اللاحق[(٢)].

٨ ـ إميل درمنغم Emile Dermenghem:

أصدر المستشرق الفرنسي إميل درمنغم في عام ١٩٢٩م بباريس كتابه: «محمد في التراث الإسلامي» والذي أعيد طبعه مرة أخرى في سنة ١٩٥٥م.

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٨، عن:
Louis Massignon, les trois Prieres d Abraham, Cahiers du sud Paris 1935.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٨.

وهو يوهم قارئة بدءاً من العنوان: أنه سيحصل على تصور عن النبي ﷺ كما تعرضه وتقدمه المصادر الإسلامية، وحسب ذلك الإيعاز تمت ترجمة الكتاب إلى اللغة الألمانية بعنوان: «محمد في تصور الشهادات الذاتية والوثائق المصورة». وأما الترجمة العربية له والتي قام عليها عادل زعيتر فكان عنوانها: «حياة محمد» وصدرت سنة ١٩٤٥م.

عمد درمنغم في كتابه هذا إلى بعض الجوانب الشخصية في حياة النبي ﷺ فأبرزها مصنفاً النبي من خلالها في المكانة اللائقة به بين مصاف البشر، لكنه ما إن طرق باب الوحي والنبوة حتى عاد القهقرى إلى ظلاميات الفكر الجدلي في القرون الوسطى، فجعل النبي ﷺ تائهاً حائراً لا يفرق بين ليل ونهار، أو بين يقظة ومنام، مشوش الذهن والخاطر يمشي وقد اعترته الوساوس والتخيلات؛ فكلما ارتطم بحجر تخيل أنه يحييه ويناديه يا رسول الله، وبذلك يضع كتاب درمنغم نبوة محمد ﷺ، والوحي المنزل إليه خارج دائرة الوحي الإلٰهي الأصيل، ويلحقها بصورة وأشكال الهوس والهستيريا الذي دأب عليه مفكرو العصور الوسطى، وأعاده المستشرقون ربما في ضوء الدراسات النفسية التي نشطت في أوروبا[١].

٩ ـ ريجيس بلاشير Regis Balchere (١٩٠٠ ـ ١٩٧٣م):

أخرج المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير عام ١٩٥٢م كتابه: «مشكلة محمد: دراسة نقدية لحياة مؤسس الإسلام».

تبنى فيه رؤية ماسينون في حصر دور النبي ﷺ في البشارة والنذارة فقط متأسياً ومستعيراً ومستلهماً مصادر اليهود والنصارى المقدسة لديهم، وقد أعاد بلاشير في ذلك الكتاب طروحات هنري لامنس الجدلية التنصيرية المتطرفة، وخصوصاً ما يتعلق بعدم أصالة الوحي المحمدي مشككاً في سلامة نقل نصوص الوحي القرآني، ومؤكداً تأثر النبي ﷺ باليهودية والنصرانية.

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٦، عن:

Emile Dermenghem, Mahomet et la Tradition islamiavue, Paris, 1955.

وانظر الترجمة العربية للكتاب بعنوان: «حياة محمد»: إميل درمنغم، ترجمة: عادل زعيتر، ص٥١ ـ ٦٢، نشر دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٥م.

ومحتوى ذلك الكتاب مضمّن في المدخل الذي وضعه للقرآن الكريم وفي مقدمته وحواشية لترجمة معاني القرآن الكريم التي نشرها بلاشير سنة ١٩٤٩م[١].

١٠ ـ مكسيم رودنسون Maxime Rodinson (١٩١٥ ـ ٢٠٠٤م):

مستشرق فرنسي معاصر، وقد صدر كتابه: «محمد» في باريس عام ١٩٦٥م، وفي النسخة الإنجليزية أطلق عليه: «محمد نبي الإسلام».

قدم رودنسون بعض البوادر الإيجابية في إطار رؤيته لنبوة محمد ﷺ ومظاهر وحيه، فهو يرفض جميع الأدبيات والبحوث الغربية التي تتهم النبي ﷺ بالكذب والاحتيال والخداع، ثم ينتهي إلى جوهر رؤيته المتمثل في:

- نفي الأصالة عن الوحي القرآني، وأنه يكوّن كتاباً إلٰهياً.

- الإصرار على أن النبي محمد ﷺ لم يأت بدين جديد، وأنه محصور في زاوية الإنذار والبشارة فحسب، أما الاعتقاد فمرجعه إلى ديانات سابقة.

- رفض اتهام النبي ﷺ بالجنون أو الهوس أو انفصام الشخصية، وإن كان قد فتح الباب أمام احتمال إصابة المتصوفين أهل المعارف العرفانية بمثل هذه الأمراض نتيجة تعرضهم لأعراضها باستمرار عند حصول تلك المعارف لهم، وهو يترك الحكم على ذلك للمختصين في علم النفس[٢].

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٥، عن:

Regis Blachere, Le Problem de Mahomet Essai de biographiec Critiavue du fondateur de lislam Paris 1952.

وانظر: المستشرقون: للعقيقي (١/ ٣٠٩).

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٩، عن:

Maxime Rodinson, Muhammad prophet of Islam, Tauris Parke Paperbacks. London-New York 2002.

وانظر: المستشرقون: للعقيقي (١/ ٣٥٩).

المبحث الرابع

الاستشراق الأمريكي

نشأ الاستشراق الأمريكي في أوائل القرن التاسع عشر، وكان اهتمام الولايات المتحدة بدراسة اللغة العربية يرجع في أساسه إلى محاولة فهم اللغة العربية لفهم التوراة، وإدراكهم ما للعربية من أهمية بما احتوته من تراث إنساني في مضمار العلم والمعرفة. وكان الاهتمام الأمريكي قد انصب منذ البداية على الحملات التبشيرية التي قذفت بها إلى الشرق للتبشير بالمسيحية.

وأول بعثة من هذا القبيل وصلت إلى لبنان عام ١٨٣٠م، وأنشأت أول مدرسة لتعليم البنات داخل الإمبراطورية العثمانية، وتطورت هذه المدرسة بحيث أصبحت تعرف بالكلية السورية الإنجيلية عام ١٨٦٦م. واتخذت من مدينة بيروت مقراً لها، ثم اتسعت هذه الكلية وأصبح يطلق عليها اسم «الجامعة الأمريكية» التي لا تزال موجودة إلى يومنا هذا.

كان الاهتمام الأمريكي بالدراسات الشرقية يرجع في بدايته إلى تحقيق أهداف دينية، وساعد على ذلك وجود جالية قوية من الشام كان لها أنديتها ومدارسها ونظمها وتعج بآلاف من المهاجرين ساعدوا على إثراء العربية، وبرز منهم كتاب وشعراء وأصبحوا مرموقين في مجال الشعر والأدب العربي، وهم من

أطلق عليهم اسم أدباء وشعراء المهجر، فساعدت هذه الفئة على نشر الثقافة العربية في مجال الثقافة الغربية في العالم الجديد بما ألفت من كتب، وأسست من مدارس ونواد وجوامع وكنائس، وأصبح لها كيان ثقافي لا يستهان به(١).

رافق العوامل السابقة الاهتمام الأمريكي بالشرق لتحقيق أغراض سياسية، فبعد أن حققت الولايات المتحدة استقلالها الوطني، وبرزت إلى العالم كقوة مادية لا يستهان بها، أرادت تقليد بريطانيا وفرنسا في مجال الفتح والاستعمار الذي كان الشرق مسرحاً لها، فأنشأت هي الأخرى جمعية أسيوية عام ١٨٤٢م لدراسة الشرق وسبر أغواره والاطلاع على أسراره وفهم عقليات شعوبه توطئة لاستعماره.

والدليل على اهتمام هذه الجمعية بالأهداف الاستعمارية ما طرحه رئيسها «جون بكرينج» من قضية هامة مفادها أن أمريكا قد هدفت من دراسة الشرق اقتفاء أثر القوى الإمبريالية الأوروبية، ولهذا قام رئيس هذه الجمعية في اجتماعها السنوي عام ١٨٤٣م بلفت الانتباه إلى الظروف الملائمة للوصول إلى الشرق خاصة سهولة وسائل المواصلات، وفترة السلام النسبي الذي مر به العالم، وتطور وسائل الاتصالات الدولية على أن تضع هذه الجمعية أمام أعينها تحقيق الأهداف المتمثلة في اكتساب المعرفة في مجال اللغات الإفريقية والآسيوية، وخلق تذوق للدراسات الشرقية في هذه البلاد، ونشر النصوص والترجمات والمراسلات بين الباحثين، وجمع الكتب والمخطوطات، والقيام بمعظم العمل المنظم في حقل الدراسات الآسيوية، وبشكل خاص في اللغات السنسكريتية(٢) والسامية(٣)(٤).

---

(١) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٥٢ ـ ١٥٣).

(٢) السنسكريتيه: لغة الهند التقليدية النموذجية، أقدم صوره لها تمثلها الفيدا. كانت في القرن ٤ق.م، تتخذ نموذجاً في المحاكم، وتتضمن أقدم الوثائق الهندية ـ الأوروبية بقايا اللغة السنسكريتيه التي كان الدارسون يظنونها اللغة الأم. انظر: الموسوعة العربية، ص١٠٢٢.

(٣) السامية: فصيلة لغوية كبرى، اشتق اسمها من سام بن نوح ﷺ، ويطلق على من يتحدث بها (الساميون)، وهو لقب يشمل: العرب، الأكاديين، الآشوريين، الكنعانيين، القبائل الآرامية المختلفة ومنهم اليهود. انظر: الموسوعة العربية، ص٩٤٨.

(٤) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٥٤)، نقلاً عن:

Nathaniel Schmidt, Early oriental studies in Europe and the work of the American oriental society, (1842-1933) Traval of the American oriental society 1923¡ 43:11 in Said, op, cit, p.293.

وبعد نهاية الحرب العالمية الثانية اهتمت أمريكا بالقضايا العالمية خاصة منطقة الشرق الأوسط الغنية بمواردها الطبيعية، وما تزخر به من إمكانات مادية وموقع استراتيجي، ومن ثم تطور الاهتمام بالدراسات الشرقية حيث أصبح عدد الجامعات والمعاهد المعنية بالعربية ست عشرة جامعة، وبالفارسية خمس جامعات، وبالتركية خمس جامعات، واستعانت الولايات المتحدة بالعديد من العرب والشرقيين لتدريس اللغة العربية مثل «شارل مالك» و«جورج مقدسي» و«جورج حوراني» و«عزيز عطية» و«إيلي سالم»، ومنهم من تجنس بالجنسية الأمريكية مثل «فيليب حتي» و«عفيف طنوس»، والدكتور «نوفل» وغيرهم كثيرون[١].

واهتمت جامعات: هارد فارد، وييل، وبرنستون، وكولومبيا، وبنسلفانيا، وميتشجان، وكاليفورنيا، وشيكاجو، وجونز هوبكنز بتدريس اللغات السامية وتخصيص كراس خاصة بها، وزودت بمطابع لطبع الأبحاث والمؤلفات بهذه اللغات، وأعدت مناهج دراسية في منتهى الجدية والصرامة لتدريس المسائل الشرقية من تراث، ولغات، وآداب، وفن وعمارة.

ونشرت العديد من المخطوطات العربية، وتوسعت الولايات المتحدة في إنشاء فروع للجامعة الأمريكية الشهيرة في كل من بيروت والقاهرة، وأنشأت مدرسة اللغات الشرقية الأمريكية في القدس، والمدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في بغداد.

وأصدرت المؤسسات العلمية والجامعات والمعاهد الأمريكية العديد من المجلات المتخصصة مثل صحيفة الجمعية الأمريكية الشرقية، وإيزس، وأورزيريس، وصحيفة دراسات الشرق الأدنى، وصحيفة الشرق الأوسط التي يصدرها معهد الشرق الأوسط في واشنطون، ومجلة العالم الإسلامي التي حلت محل «عالم الإسلام» التي أنشاها «ماكدونالد وزويمر».

ساعدت هذه الجمعيات والمعاهد والجامعات والصحف والمجلات على إثراء الدراسات الشرقية في الولايات المتحدة ودفعت بها دفعات حثيثة وقوية إلى الأمام.

---

(١) المستشرقون: للعقيقي (٣/ ١٢٠).

وكان مرجع هذا الاهتمام كما أسلفنا القول يعود إلى تحقيق أهداف دينية وسياسية واقتصادية وإن كان قد اتسم بإنتاج علمي غزير إلا أن هذا الإنتاج قد طوع لتحقيق أهداف أخرى لا علاقة لها بالأغراض العلمية الصرفة.

وما زالت المدرسة الأمريكية قوية في هذا المضمار إلى وقتنا الحاضر بما تشغله جامعاتها من كراس لتدريس اللغة العربية والحضارة الإسلامية، ولمساهمات الشركات ذات المصالح الوثيقة في الشرق في هذا الميدان لتخريج متخصصين يستفاد منهم في مجال نشاطها الاقتصادي والسياسي. كما تهتم الدوائر الحكومية بهذه الدراسات للأهمية الاقتصادية والسياسية للشرق الأوسط والوطن العربي. وغالباً ما يوظف المتخصصون في وزارة الخارجية الأمريكية كخبراء معها لرسم السياسة الأمريكية في هذه الأصقاع.

وأدى وجود دولة لإسرائيل إلى الاهتمام بمنطقة الشرق الأوسط وإجراء دراسات حضارية وتاريخية وسكانية حول دعوى اليهود في أرض الميعاد. وهناك من المستشرقين من أيد قيام دولة إسرائيل، ووقف مع الادعاءات الصهيونية مثل «برنارد لويس» الذي تخرج على يديه العديد من الطلبة العرب واليهود، وهو حامل لواء الحق اليهودي في فلسطين، الأمر الذي يصم دراسته بوصمة التحامل وعدم الموضوعية، وتكريسها لتحقيق أهداف سياسية لا علاقة لها بالبحث العلمي الموضوعي[١].

مميزات مدرسة الاستشراق الأمريكي:

تمتاز المدرسة الاستشراقية الأمريكية بخصائص تختلف في غالب الأحيان عن نظيرتها الأوروبية، فهي قد تأسست أصلاً لتحقيق أهداف دينية، ثم سياسية واستعمارية في الوقت الحاضر ولكن بطريقة غير مباشرة، وهي في هذه الخاصية تشترك مع خصائص المدارس الاستشراقية الأوروبية التي أتينا على ذكرها، ولكنها تمتاز عنها بأنها لم توقف جهودها على مجال إظهار الحركة الأدبية العربية سابقاً أو حالياً. ذلك أن معظم الدراسات الأمريكية الغزيرة تناولت الشرق الأوسط من حيث الأحوال الاقتصادية والسياسية والعلمية والأثرية، ولكنها تفتقر

---

(١) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٥٦). وانظر للاستزادة: المستشرقون: للعقيقي (٣/ ١٢٠)، وبحوث في الاستشراق الأمريكي: د. مازن مطبقاني.

بشدة إلى دراسة متعمقة ورصينة للآداب العربية. واستتبع إهمال الأدب العربي ضعف الدراسات الأمريكية المتعلقة بـ«فقه اللغة» ذلك أن معظم الدراسات الحديثة التي يقوم بها المستشرقون الأمريكان في هذا المجال ضئيلة وسطحية، ولا ترقى أبداً إلى أعمال المستشرقين الأوروبين الكبار القدماء منهم أو المحدثون. وهذا الأمر مرجعه إلى الاهتمام الأمريكي بأحوال الشرق الأوسط من الناحية السياسية والاقتصادية فالجامعات والمؤسسات العليا ترمي إلى تأليف فرق من الخبراء في قضايا الشرق الأوسط لخدمة أهداف السياسة الأمريكية، التي سعت جاهدة إلى الحلول محل النفوذ البريطاني والفرنسي، كما وضعت نصب أعينها تخريج فريق من الخبراء تستعين بهم الشركات المتعددة للاستفادة على الموارد الطبيعية التي تزخر بها هذه المنطقة[١].

من أعلام الاستشراق الأمريكي:

١ ـ واشنطن إيرفنج Washington Irving (١٧٨٣ ـ ١٨٥٩م):

الأديب الأمريكي الذي حمل أوصاف «عميد الأدب الأمريكي»، و«مبتدع القصة القصيرة». ألف إيرفنج العديد من الكتب الأدبية والتاريخية قبل أن يهتم بالاستشراق، والذي واتته الفرصة لخوض غماره عندما عين في القنصلية الأمريكية في إسبانيا سنة ١٨٢٦م، حيث انفتح أمامه التراث العربي الإسلامي في الأندلس، ومن شدة إعجابه بهذا التراث فإنه ألف العديد من الكتب بهذا الخصوص مثل: «قصر الحمراء» و«غزو غرناطة» و«فتح الأندلس»، وقد قادته الكتابة عن تاريخ الأندلس إلى تأليف كتابه الكبير «حياة محمد».

تطابقت أفكار إيرفنج في كتابه «حياة محمد» مع بعض أفكار الكُتَّاب والمستشرقين السابقين ممن كانت لهم بعض الآراء المنصفة، ومع ذلك فقد كان لإيرفنج آراؤه التي لا يوافق عليها، والتي تأثر فيها بمصادره الأوروبية.

من أبرز النتائج المنصفة التي توصل إليها إرفنج في كتابه ما يلي:

ـ أن النبي ﷺ لم يحصل على أي فائدة شخصية له من عبء النبوة الذي نزل عليه.

---

(١) الظاهرة الاستشراقية (١/١٥٧)، والاستشراق: لإدوارد سعيد، ص٢٩٢.

ـ أن النبي ﷺ كان يشعر بصدق روح الإلهام الإلٰهي الذي يتلقاه قبل أن يشارك هذا الأمر مع الآخرين.

ـ رأى إيرفنج ارتفاع الرسول ﷺ عن كل مطلب مادي نتيجة هذا الوحي الذي جعله يرتفع ويرقى بفهم الألوهة المطلق نحو الإطلاق، فليس من العدل بحق هذا الملهم ـ الرسول ﷺ ـ اتهامه بأنه أسير رغباته، والتي لم يبرز منها إلا حبه للنساء ﷺ ليفرغ نحو توجهاته المطلقة بعيداً عن أسر صراع الحاجة والدافع.

ـ قرر إيرفنج أنه من الصعب على المنكرين لرسالته ﷺ إنكار صدق توجهاته وسموها، أو إنكار عظمة ثمار هذه التوجهات التي قدمها للبشرية، فلم يبق أمامهم إلا اعتبار شخصيته أسيرة هلوسة مرضية عبقرية، لكنه لم يبين موقفه من هذه المسألة.

ـ أثنى كثيراً على سلوك النبي ﷺ وتعامله مع الناس كما مدح صفات النبي ﷺ الشخصية؛ كالعدل، والذكاء، والتواضع، والزهد بالدنيا إلى غير ذلك[(١)].

٢ ـ دنكن بلاك ماكدونالد D. B. Macdonald (١٨٦٣ ـ ١٩٤٣م):

في عام ١٩١١م أصدر المستشرق الأمريكي، والمنصر الشهير دنكن بلاك ماكدونالد كتابه: «أوجه الإسلام».

وفيه يظهر النبي ﷺ وليداً في بيئة جاهلة: دينياً وأخلاقياً ومعرفياً جهالة بلغت من السوء مداها، فوجدت فيه مصلحاً، وقف حياته على تطهيرها من الشرك، وتخليصها من أسباب الظلم الاجتماعي، وكذلك العوز والفقر المدقع.

ويقبل ماكدونالد دعوى محمد ﷺ تلقي الوحي، ولا يكذبه في ذلك، بل ينفي عن ذلك الوحي أي ارتباط بالشياطين أو الأرواح الشريرة.

لكنه يرجع ذلك الوحي في حقيقة الأمر إلى رؤى وتخيلات تراءت للنبي وهو صادق في الإخبار عنها كما تراءت له، لكن لا رصيد لها في الواقع الحقيقي، فانتماؤها إلى عالم الرؤى والخيال والهلوسة، وليس إلى العالم الواقعي المعاش[(٢)].

---

(١) محمد وخلفاؤه، واشنطن إيرفنغ: ترجمة ومقارنة: د. هاني يحيى نصري، ١٥ ـ ٥٧.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٢، عن:
D. B. Macdonald, Aspect of Islam, New York 1911.

كما يرى ماكدونالد أن التعاليم التي جاء بها النبي ﷺ هي تعاليم ناقصة في العديد من الجوانب، ولذلك فإن واجب العاملين في مجال التنصير أن يكملوا هذه الجوانب، ويعملوا على سد نقائضها وعوارها، وذلك بتنقيتها من البدع والهرطقات الأريوسية التي لحقت بها، كي تعود أفكاراً مسيحية خالصة لا سيما في جانب الاعتقاد في شخص المسيح وألوهيته[١].

٣ ـ فيليب حِتيّ Philip Hitti (١٨٨٦ ـ ١٩٧٨م):

المستشرق الأمريكي من أصل لبناني، وأستاذ التاريخ العربي ثم الدراسات الشرقية في جامعة برنستون بأمريكا حتى سنة ١٩٥٤م، وبعد تقاعده عين مستشاراً لوزارة الخارجية الأمريكية.

تناول في كتبه: «تاريخ العرب المطول» و«الإسلام منهج حياة» جوانب من سيرة النبي ﷺ ونبوته، ورغم بعض الآراء المنصفة له إلا أن منهج التشكيك والارتياب والتضعيف للحقائق التاريخية المتعلقة بسيرة النبي ﷺ والتاريخ الإسلامي عموماً، كان هو السمة البارزة في كتابات فيليب حتي كما سبقت الإشارة إلى ذلك ضمن الكتابات الاستشراقية، وذلك ما جعلها موضع نقد واستدراك وتعقيب[٢].

٤ ـ مايكل هارت Michael H. Hart:

المستشرق الأمريكي مايكل هارت المولود سنة ١٩٣٢م، والحاصل على شهادة الدكتوراه في الفلك من جامعة برينستون عام ١٩٧٢م.

نشر مايكل هارت في سنة ١٩٧٨م كتابه الشهير: «المائة: ترتيب للأشخاص الأكثر تأثيراً في التاريخ».

والكتاب يعتبر علامة فارقة في الدراسات الغربية حول شخصية النبي ﷺ، ومن أكثرها إنصافاً وعدلاً في الحكم على مكانة النبي ﷺ التي يجب أن يتبوأها، فقد وضع هارت النبي ﷺ في المرتبة الأولى ضمن أكثر الشخصيات تأثيراً في

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٣، عن:
J. Waar denburg, L. Islam dans le miroire de loccident, P. 217. Paris 1962.

(٢) انظر: فيليب حِتّي: عصر النبوة والخلافة الراشدة ـ دراسة نقدية ـ: د. فاضل محمد الكبيسي، وافتراءات فيليب حِتّي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي: عبد الكريم علي باز.

التاريخ، وقد كان لهذا الاختيار ما يسوغه كما بيَّن ذلك في مقدمة حديثه عن النبي ﷺ.

يقول هارت: «لقد اخترت محمداً ﷺ في أول هذه القائمة، ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار ومعهم حق في ذلك. ولكن محمداً هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والدنيوي.

وهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودينياً، وبعد ١٣ قرناً من وفاته فإن أثر محمد ﷺ ما يزال قوياً متجدداً»[١]، وسيأتي تفصيل آراء مايكل هارت في كتابه ضمن آراء المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام.

(١) الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ﷺ: مايكل هارت، ترجمة: أنيس منصور، ص١٣ ـ ١٤.

المبحث الخامس

الاستشراق الروسي

نظراً لقرب روسيا النسبي من العالم الشرقي، فقد تمكنت من ربط أواصر العلاقات مع هذه المنطقة منذ زمن ميكر في التاريخ، بحيث تعود هذه العلاقات إلى العصر العباسي الأول بما اتسمت به من سمات تجارية. فقد توغل التجار العرب في الأراضي الروسية ابتغاء التجارة، وتوغل فيها الرحالة العرب ابتغاء الكشف وحب الاستطلاع، وبادلت روسيا هذه الزيارات بمثيلاتها لذات الأغراض، بل وقصد حجاجها النصارى القدس للقيام بالواجب الديني المفروض عليهم[١].

وهكذا توطدت العلاقات منذ ذلك التاريخ الموغل في القدم، وعندما اجتاحت الجحافل المغولية الشرق ومنها بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية، ازدادت الروابط وأصبحت أشد متانة خاصة بعد أن امتص الإسلام موجات التدمير المغولية الأولى، ثم استحوذ عليها باعتناق أولئك القوم لمبادئه وعقيدته.

وزادت الروابط عند تأسيس الإمبراطورية العثمانية التي تتاخم الحدود الروسية مباشرة، وما نشأ عنها من علاقة تراوح بين المد والجزر، والصداقة والعداوة.

---

(١) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٤٦).

وتطورت العلاقة وثوقاً عندما سقطت الإمبراطورية المغولية بصفة نهائية، واستتبع ذلك التوغل الروسي في أواسط آسيا واحتلاله للجمهوريات الإسلامية الغنية بالمعارف والعلوم والثقافة العربية الإسلامية. ووضعت روسيا يديها على كنوز الإسلام الحقيقية بما وجدته من كتب، ومخطوطات، وآثار وثقافة سامية، خاصة ما خلفه العلماء المسلمون من فكر وعلم غزيرين؛ كالخوارزمي، والبيروني[(١)]، والفارابي[(٢)]، وابن سينا[(٣)] وغيرهم كثيرون.

أما بالنسبة إلى العلاقة الثقافية الحقيقية التي ربطت روسيا بالعرب ولغتهم وديانتهم فقد بدأت من الناحية العلمية في أواخر القرن السابع عشر الميلادي، عندما قامت الدوائر العلمية الروسية بترجمة العديد من الكتابات والمصادر الأوروبية.

---

(١) البِيرُوني (٣٦٢٢ ـ ٤٤٠هـ): محمد بن أحمد، أبو الريحان البيروني الخوارزمي: فيلسوف رياضي مؤرخ، من أهل خوارزم. أقام في الهند بضع سنين، ومات في بلده، اطلع على فلسفة اليونانيين والهنود، وعلت شهرته، وارتفعت منزلته عند ملوك عصره، وصنف كتباً كثيرة جدّاً، متقنة، في الهيئة والنجوم والجغرافية، منها: «الإرشاد» في أحكام النجوم، و«تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة» و«التفهيم لصناعة التنجيم» في الفلك. انظر: حكماء الإسلام، ص٧٢، وبروكلمان وآخرون في دائرة المعارف الإسلامية (٤/ ٣٩٧ ـ ٤٠٣)، والأعلام (٥/ ٣١٤).

(٢) الفَارَابي (٢٦٠ ـ ٣٣٩هـ): محمد بن محمد بن طرخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابيّ، ويعرف بالمعلم الثاني: لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول). أكبر فلاسفة المسلمين، تركي الأصل، مستعرب. نشأ في بغداد ورحل إلى مصر والشام. كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره. ويقال: إن الآلة المعروفة بالقانون، من وضعه. له نحو مئة كتاب، منها: «الفصوص» ترجم إلى الألمانية، وإحصاء العلوم والتعريف بأغراضها، وآراء أهل المدينة الفاضلة و(إحصاء الإيقاعات) في النغم. انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٧٦)، وطبقات الأطباء (٢/ ١٣٤ ـ ١٤٠)، والأعلام (٧/ ٢٠).

(٣) ابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨هـ): الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي، الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات. نشأ وتعلم في بخارى، وطاف البلاد، وناظر العلماء، واتسعت شهرته، وتقلد الوزارة في همذان، وثار عليه عسكرها ونهبوا بيته، فتوارى. ثم صار إلى أصفهان، وصنف بها أكثر كتبه. وعاد في أواخر أيامه إلى همذان، فمرض في الطريق، ومات بها. قال ابن قيم الجوزية: «كان ابن سينا ـ كما أخبر عن نفسه ـ هو وأبوه، من أهل دعوة الحاكم، من القرامطة الباطنيين». من أشهر كتبه: «القانون» في الطب بقي معولاً عليه في علم الطب وعمله ستة قرون، ومن تصانيفه: «المعاد» رسالة في الفلسفة، و«الشفاء» كذلك. انظر: وفيات الأعيان (١/ ١٥٢)، وتاريخ حكماء الإسلام، ص٢٧ ـ ٧٢، وإغاثة اللهفان: لابن قيم الجوزية (٢/ ٢٦٦)، والرد على المنطقيين: لابن تيمية، ص١٤١ ـ ١٤٤، الأعلام (٢/ ٢٤١).

وأخذت الدوائر العلمية تقترب رويداً رويداً من الآداب والفلسفة والطب العربي بعد ترجمة العديد من الكتب التي تناولت هذه المؤلفات.

كان انفتاح القيصر بطرس الأول (١٦٧٢ ـ ١٧٢٥م) على الثقافتين الغربية والشرقية له أثره المباشر على انتشار الدراسات العربية والإسلامية في بلاده، وكان يرى في الإسلام منهجية وفلسفة خاصة تطبقها شعوب أواسط آسيا الإسلامية، فزادت رغبته للتعرف إليه وإلى مبادئه وعقيدته.

ومن هنا أخذ الاهتمام بهذه الأمور ينحو نحو الصبغة العلمية، وكانت النتيجة تأليف المستشرق الروسي «كانتمير» (١٦٧٣ ـ ١٧٢٣م) كتابه الذي تناول فيه ظروف النشأة التاريخية للنبي محمد ﷺ، وكان موضوعياً فيما تناوله من قضايا في وقت عزت فيه هذه الموضوعية في أوروبا الغربية، وقام هذا المستشرق بالإضافة إلى ذلك بإنشاء أول مطبعة عربية ساهمت في طبع الكتب العربية والمنشورات التي كان يوجهها القيصر إلى الشعوب الواقعة تحت السلطنة العثمانية[(١)].

ثم أصدر القيصر المذكور قراره الشهير والقاضي بتأسيس قسم خاص في أكاديمية العلوم الروسية لدراسة الحضارة العربية الإسلامية. وكان لهذا القسم أثره في دفع هذه الدراسات دفعات قوية إلى الأمام، ودأبت روسيا على إرسال بعثات طلابية لدراسة العربية واللغات الشرقية الأخرى كالفارسية والتركية. وعادت هذه البعثات وقد اكتسبت الكثير من عالم الشرق وثقافته وديانته، وتوزع أعضاؤها في الدوائر العلمية الروسية، ووزارة الخارجية، وكان تأثيرهم واضحاً في الدفع بهذه الدراسات خطوات حثيثة إلى الأمام.

ورغم ذلك فلم تتطور الدراسات العربية تطوراً كبيراً طبقاً لما كان يأمله بطرس الأول لعدم تدريس اللغة العربية بشكل منتظم ودائم في المدارس العليا الروسية المختصة باللغات الشرقية، ولضعف المنهج العلمي الروسي في ميدان الدراسات الشرقية، وقلة الأطر التي تقوم بالتدريس، وما رافقه من قلة المخطوطات والمصادر العربية[(٢)].

وفي الثلث الأول من القرن التاسع عشر تبلورت المدرسة الاستشراقية

---

(١) حول تاريخ الاستعراب الروسي: كراتشكوفسكي، ص٣٥، موسكو، لينتجراد، ١٩٥٠م.
(٢) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٤٧).

الروسية بعد أن زالت جميع العقبات التي كانت تقف في طريقها خاصة توفر المخطوطات، والمؤلفات العربية، وتميزت هذه الدراسات في بداية أمرها خاصة في العاصمة «سان بطرسبورغ» بغلبة الدراسات اللغوية على فروع المعرفة الأخرى، وزاد من اهتمام الدراسات الاستشراقية تأسيس المتحف الآسيوي عام ١٨١٨م في العاصمة الروسية الذي يضم العديد من المخطوطات العربية النادرة، فالتف حوله المستشرقون الروس وساهموا بفاعلية في تطور وتقدم الدراسات الاستشراقية في روسيا خاصة عندما تولى رئاسته وتنظيمه المستشرق «فرين» (١٧٨٢ ـ ١٨٥١م) الذي قال عنه المستشرق الروسي «فاسيلييف» بأنه: «لا يوجد مستشرق في روسيا إلا وتأثر بـ(فرين) وذلك بفضل إحساسه العلمي المرهف، وثقافته العالية، وما ترك من أعمال جليلة عظيمة كان لها أثرها على كل الأبحاث الروسية حول الاستشراق»[١].

لقد كان لإنشاء كراسي اللغات الشرقية في الجامعات الروسية أثره في نشأة وتطور المدرسة الاستشراقية الروسية، فهذه جامعة «خاركوف» تنشئ عام ١٨٠٤م كرسياً لتدريس اللغات الشرقية، وهذه جامعة «قازان» تبدأ تدريس اللغة العربية عام ١٨٠٧م، وهذه جامعة «موسكو» تنشئ معهد الألسنة عام ١٨١١م، وهذه جامعة «بطرسبورغ» تنشئ المدرسة التهذيبية العليا عام ١٨١٦م، وتستعين بشيخ الاستشراقين الفرنسي «دي ساسي» والذي تتلمذ على يده العديد من المستشرقين الروس الذين يعودون إلى بلادهم، ويساهمون في إثراء هذه المدرسة الثقافية الكبرى، وكان على رأسهم «ديمانج» و«شاموري».

وأشهر من برز في هذا الميدان في النصف الأول من القرن التاسع عشر الأستاذ «سنكوفسكي» (١٨٠٠ ـ ١٨٥٨م) الذي زار الوطن العربي وأقام به سنين طويلة أتقن خلالها اللغة العربية، إلا أن الظروف السيئة التي أحاطت به وخاصة السياسية قد حالت دون إنتاج غزير له.

وفي الأربعينات من القرن التاسع عشر كان لوجود العالم المصري الشيخ «محمد عياد طنطاوي»[٢] (١٨٦١م) أثره على العديد من المستعربين الروس عندما

---

(١) الاستشراق الروسي: سهل فرج، ص٨٢.

(٢) محمد عياد الطنطاوي (١٢٢٥ ـ ١٢٧٨هـ): محمد عياد بن سعد بن سليمان بن عياد المرحوميّ =

قام بتدريس العربية بجامعة «بطرسبورغ» فأنشأ جيلاً من المستشرقين غرز في قلوبهم حب العربية وإتقانها، والتضلع في المسائل الإسلامية، والأفكار الشرقية المليئة بالعلم والحكمة[١].

ومن أهم المستشرقين الروس في النصف الأول من القرن التاسع عشر هو الروسي المسلم «كاظم بك» (١٨٠٢ ـ ١٨٧٠م) الذي قام بتحقيق وتقديم المخطوطات الجغرافية الهامة للعالم المصري «اليعقوبي»[٢]، وكانت تربطه صداقة وطيدة بالشيخ «الطنطاوي»، وكانت لديه دراسات قيمة في الإسلاميات وفي تحقيق المخطوطات[٣].

ولم تثمر محاولات «كاظم بك» و«فاسيلييف» في إنشاء مجلة تنطق بلسان الاستشراق الروسي أسوة ببقية الدول الأخرى، وكانا قد اقترحا إنشاء مجلة تحمل عنوان «البشير الآسيوي» إلا أن هذا الاقتراح لم يتحقق بحجة نقص الموارد المالية للجامعة التي لا تتحمل نفقاتها.

ومن أهم المستشرقين الروس «جرجس» (١٨٣٥ ـ ١٨٨٧م) الذي رحل إلى فرنسا وتعرف إلى «دي ساسي» ومكث في باريس ثلاث سنوات اغترف من معين المستشرقين الفرنسين فتعلم العربية، ثم رحل إلى الشرق وزار مصر وسوريا ولبنان وفلسطين حيث مكث فيها ثلاث سنوات أيضاً ثم رجع إلى روسيا، وهناك طرح

= الطنطاوي: أديب، مدرس، مصري. تعلم وعلّم بالأزهر، واتصل به بعض المستشرقين، فدعي لتدريس اللغة العربية في معهد (اللغات الشرقية) ببطرسبورج (لينغراد) فسافر سنة ١٢٥٦هـ واستمر إلى أن توفي بها، وقد تخرج عليه بعض المستشرقين من الروس وغيرهم. وصنّف كتباً أكثرها للتدريس، منها: «منتهى الآراب في الجبر والميراث والحساب»، و«مسودات لتاريخ العرب»، و«تحفة الأذكيا بأخبار بلاد روسيا». وحواش وشروح في «العقائد» و«النحو» و«الصرف» و«العروض» و«منظومة في البيان». انظر: مجلة المجمع العلمي العربي (٤/ ٣٨٨ ـ ٣٩١)، والأعلام (٦/ ٣٢٠).

(١) حول تاريخ الاستعراب الروسي، ص٢٤٤.

(٢) اليعقوبي (٠٠ ـ بعد ٢٩٢هـ): أحمد بن إسحاق (أبي يعقوب) بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي: مؤرخ جغرافي كثير الأسفار، من أهل بغداد. كان جده من موالي المنصور العباسي. رحل إلى المغرب وأقام مدة في أرمينية. ودخل الهند. وزار الأقطار العربية. وصنَّف كتباً جيدة منها: «تاريخ اليعقوبي» انتهى به إلى خلافة المعتمد على الله العباسي، و«كتاب البلدان»، و«أخبار الأمم السالفة»، و«مشاكلة الناس لزمانهم». انظر: معجم المطبوعات، ص١٩٤٨، والأعلام (١/ ٩٥).

(٣) المرجع السابق، ص٢٤٨.

أطروحاته العلمية حول حقوق المسيحيين في الشرق حسب القوانين الإسلامية وحول الأصول المورفولوجية (الدراسات السكانية) للغة العربية. وهكذا أصبح أستاذاً في كلية اللغات الشرقية. كما ألف عن تاريخ الأدب العربي وترجم «القوانين الإسلامية» ووضع مع المستشرق «رازين» كتاباً مدرسياً حول «الأدب واللغة العربيين» اكتسبا به شهرة واسعة. كما عرّف للقارئ الروسي «كتاب الأغاني» ونشر الأخبار الطوال «لأبي حنيفة الدينوري»[(١)(٢)].

وبرز بعد «جرجس» رازين (١٨٤٩ ـ ١٩٠٨م) الذي يعتبر اختصاصياً في اللغتين العربية والفارسية وكان يجيد بالإضافة إلى ذلك العبرية، وتعرف إلى أهم المستشرقين العالميين في تلك الفترة مثل جولدزيهر، وجويدي، وشيفر، وبروان ودي خويه وغيرهم. وأشهر أعماله «فهرس المخطوطات العربية والفارسية» في بطرسبورغ وبولونيا في أربعة مجلدات. ونشر مخطوطة الرحالة العربي «ابن فضلان»[(٣)] ونشر تاريخ «يحيى بن سعيد الأنطاكي»[(٤)] وتاريخ «حبيب المنبجي»[(٥)] وشارك في طبع تاريخ «الطبري». وكتب جملة أبحاث وكان له نشاط علمي غزير غير ما ذكرناه. كما تتلمذ على يديه العديد من المستشرقين الروس الذين اكتسبوا

---

(١) الدِّينَوَرِي (٠٠ ـ ٢٨٢هـ): أحمد بن داود بن وَنند الدينوريّ، أبو حنيفة: مهندس مؤرخ نباتي، من نوابغ الدهر. قال أبو حيان التوحيدي: جمع بين حكمة الفلاسفة وبيان العرب. له تصانيف نافعة، منها: «الأخبار الطوال» مختصر في التاريخ، و«الأنواء» كبير، و«النبات» الثالث ونصف الخامس منه، عُني بطبعهما الدكتور محمد حميد الله، وهو من أجلّ كتبه، و«تفسير القرآن» ثلاثة عشر مجلداً، و«ما تلحن فيه العامة». وللمؤرخين ثناء كبير عليه وعلى كتبه. انظر: خزانة الأدب: للبغدادي (١/ ٢٥)، وانظر: مجلة العرب (٩/ ٢٩٥)، والأعلام (١/ ١٢٣).

(٢) المستشرقون (٣/ ٩٣٨).

(٣) ابن فَضْلان (٠٠٠ ـ بعد ٣١٠هـ): أحمد بن فضلان بن العباس بن راشد ابن حماد: صاحب الرحلة إلى بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة، المعروفة بـ«رسالة ابن فضلان» مبتورة الآخر. أوفده المقتدر العباسي إلى ملك الصقالبة (على أطراف نهر الفولغا) مع جمع من القادة والجند والتراجمة، لمساعدتهم في حربهم وتفقيههم في الدين وشعائر الإسلام ولما انتهى الوفد أضاعوا طريق الرجعة لضياع رسالة الطريق. انظر: الأعلام (١/ ٩٦).

(٤) الأَنْطاكي (٠٠ ـ ٤٥٨هـ): يحيى بن سعيد بن يحيى الأنطاكي: مؤرخ. من أهل أنطاكية. له: «ذيل التاريخ» قسم منه، وهو تذييل لكتاب «نظم الجوهر»: لابن البطريق، من سنة (٣٢٦هـ إلى ٤٢٥هـ). انظر: طبقات الأطباء (٢/ ٨٧) في ترجمة سعيد بن البطريق. ولم يذكر وفاته. والأعلام (٨/ ١٤٧).

(٥) لم أقف عليه بهذا الاسم.

شهرة عالمية في هذا المضمار مثل «مار» و«أدلنبرج» و«برتولد» الذي درس التاريخ العربي والإسلامي وقدم أبحاثاً هامة حول تاريخ آسيا الوسطى[١].

وأشهر المستشرقين الروس في النصف الأول من القرن العشرين «كريمسكي» (١٨٧١ ـ ١٩٤١م) الذي تعلم العربية والفارسية والتركية وأسس مكتبة كبرى في جامعة موسكو، احتوت على العديد من المؤلفات التي تناولت الإسلام، وأضاف إليها كتباً جديدة حول تاريخ الأدب العربي. وكان واسع الثقافة في مجال الحضارة العربية والإسلامية. وخلف هو الآخر جيلاً من المستشرقين الروس ترسموا طريقة وطبقوا منهجه مثل «أومانتا» و«تونوفسكي». وأهم أعماله العلمية ترجمة تاريخ الشعوب السامية لنولدكه، وتاريخ الإسلام في جزأين، وترجمة ألف ليلة وليلة، والأدب العربي الحديث، ودخول الروس في النصرانية[٢].

ولعل أهم مستشرق روسي هو «كراتشكوفسكي» (١٨٨٣ ـ ١٩٥١م) Kratchovski، الذي شغف منذ صغره بدراسة آثار المستشرقين، كما شغف بدراسة اللغة العربية عندما التحق بقسم اللغات الشرقية بمجموع بطرسبورغ. ثم درس العبرية والحبشية والتركية والفارسية، ودرس التاريخ الإسلامي على يد المستشرق بارتولد، ثم ذهب إلى الشرق فزار العديد من الدول العربية والإسلامية منها تركيا وسوريا ولبنان وفلسطين ومصر وتعرَّف إلى كثير من أعلام الفكر العربي الإسلامي منهم الشيخ محمد عبده[٣] والشيخ محمد كرد علي[٤] وغيرهما، واهتم

---

(١) المستشرقون (٣/ ٩٤٣).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٩٤٦).

(٣) الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ): محمد عبده بن حسن خير الله، من آل التركماني: مفتي الديار المصرية، ومن كبار دعاة التجديد في الإسلام. تعلم بالجامع الأحمدي بطنطا، ثم بالأزهر، وتصوف وتفلسف، وعمل في التعليم، وكتب في الصحف، وأجاد اللغة الفرنسية بعد الأربعين. ولما احتل الإنكليز مصر ناوأهم. وشارك في مناصرة الثورة العرابية ونفي إلى بلاد الشام سنة ١٢٩٩هـ، وسافر إلى باريس فأصدر مع صديقه وأستاذه جمال الدين الأفغاني جريدة «العروة الوثقى» وعاد إلى بيروت فاشتغل بالتدريس والتأليف. وسمح له بدخول مصر، فعاد سنة ١٣٠٦هـ وتولى منصب القضاء، ثم مفتياً للديار المصرية سنة ١٣١٧هـ إلى أن توفي. له: «تفسير القرآن الكريم» لم يتمه، و«رسالة التوحيد»، و«حاشية على شرح الدواني» للعقائد العضدية، و«الإسلام والرد على منتقديه». انظر: الأعلام (٦/ ٢٥٢).

(٤) محمَّد كُرْد عَلي (١٢٩٣ ـ ١٣٧٢هـ): محمد بن عبد الرزاق بن محمَّد، كُرْد علي: رئيس المجمع =

بالشعر العربي في العصر الأموي وفي العصر العباسي. ثم عاد إلى بلاده وعين بعدئذ أستاذاً للعربية في جامعة بطرسبورغ. وله من المصنفات والمقالات ما يربو على أربعمائه وخمسين أثراً أهمها: دراسة في إدارة الخليفة المهدي، وشاعرية أبي العتاهية، والمتنبي والمعري، وسيرة أبي دهبل الجمحي[1]، وترجم القرآن الكريم إلى الروسية. وآثاره لا يمكننا إحصاؤها في هذه الدراسة، وإن كان الأستاذ نجيب العقيقي يقسم نشاطه إلى تاريخ الشعر العربي ونقده منذ أقدم العصور إلى اليوم، والأدب العربي لدى الأدباء النصارى، والأدب العربي منذ بدء النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر[2].

مميزات مدرسة الاستشراق الروسي:

١ - ترجع اهتماماته بالدراسات الشرقية إلى فترة قديمة ولكنها لم تبدأ رسمياً إلا في العقود الأولى للقرن التاسع عشر.

٢ - بدأ الاستشراق الروسي في الاهتمام باللغات الشرقية قبل قيام الثورة، وكان للاستشراق الفرنسي والألماني دور واضح في تكوينه.

٣ - اهتم كثيراً باللغات دون غيرها من العلوم الأخرى، وخص بالدراسات لغات آسيوية لم يهتم بها الاستشراق الأوروبي كثيراً وذلك مثل التركية والصينية والمغولية والأرمنية والكرجية والفارسية وغيرها.

٤ - ركز اهتمامه أيضاً على الأدب العربي نثراً وشعراً ونتج عن ذلك مؤلفات كثيرة بالروسية تناولت أعمال الأدباء العرب المحدثين ذكر منها العقيقي

= العلمي العربيّ بدمشق، ومؤسسه، وصاحب مجلة «المقتبس» والمؤلفات الكثيرة. وأحد كبار الكُتّاب. أصله من أكراد السليمانية (من أعمال الموصل بالعراق) ومولده ووفاته في دمشق. رأس مجموعة من الصحف والمجلات وله العديد من الكتب والمقالات التزم بها السجع، تعرض لمؤامرات عديدة لمواقفة القوية من المناوئين للخلافة العثمانية، من مؤلفاته: «مجلة المقتبس» و«خطط الشام». انظر: الأعلام (٦/ ٢٠٣).

(١) أبي دهبل الجمحي (٠٠ - ٦٣هـ): من الشعراء العُشّاق المعروفين، وأحد أشراف بني جمح، كان عفيفاً، كريماً، جميل المنظر، ولّاه عبد الله بن الزبير بعض أعمال اليمن، توفي في تهامة باليمن أيام سليمان بن عبد الملك الأُموي. انظر: خزانة الأدب (٣/ ٢٨٠ - ٢٨١)، والأعلام (٨/ ١٢٥).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٩٥٤). والظاهرة الاستشراقية (١/ ١٤٨ - ١٥١). وللاستزادة انظر: بحث: جهود الاستشراق الروسي في مجال السُنَّة والسيرة: د. سليمان الجار الله.

١٢٤ كتاباً في ٣٠ لغة من لغات الاتحاد السوفيتي[١]، ومن أعلام المدرسة الأدبية كراتشكوفسكي وكريمسكي.

٥ ـ كان للوجود الإسلامي في بعض مناطق الاتحاد السوفيتي أثر واضح في مد الاستشراق فيها بمادة سخية للبحث والتحليل وخاصة ما خلفه من مخطوطات كثيرة بالعربية والروسية لا زالت تكتشف إلى اليوم، وفي هذا المقام نذكر أعلام المسلمين في تلك المناطق كالخوارزمي والبيروني وابن سينا والفارابي[٢].

٦ ـ نظراً لكثرة المخطوطات الإسلامية في روسيا فقد اهتم المستشرقون الروس بفهرستها ووصف كل الآثار القديمة، ومن أبرز المفهرسين إيفانوف وروماسكيفيتش.

٧ ـ ظهرت فيها المطابع الشرقية مبكراً ونتج عن ذلك طبع الكثير من نفائس الكتب في مختلف المجالات ومن أشهرها مطبعة قازان وبطرسبرج.

٨ ـ للاستشراق الروسي نشاط واضح في إصدار المجلات الشرقية المتخصصة ولا زالت مجموعة منها تصدر إلى الآن، ونذكر من المجلات الاستشراقية الروسية مجلة الرسائل وعلم الإسلام والآداب العالمية والحوليات الشرقية.

٩ ـ تتلمذ كثير من أعلامه في فرنسا وخاصة على مستشرقها الكبير دي ساسي.

١٠ ـ ليس له اهتمام واضح بالدراسات الإسلامية إذا ما قورن بغيره من الاستشراق الأوروبي.

١١ ـ للاستشراق الروسي مساهمات واضحة في دراسة اللهجات العربية مما نتج عنه دراسات متعددة في لهجات مختلفة.

١٢ ـ زاد اهتمامه بالعالم العربي ووسع من اهتمامه بالدراسات الإسلامية أخيراً وذلك إثر نشوء العلاقات الوثيقة بين الاتحاد السوفيتي وبعض الأقطار العربية[٣].

---

(١) المستشرقون (٣/ ٩٢٢).

(٢) المصدر السابق (٣/ ٩١٥).

(٣) انظر: مدارس الاستشراق: للزيادي ص٢٩١ ـ ٢٩٣. والدراسات العربية والإسلامية في بعض =

من أعلام الاستشراق الروسي:

١ ـ فلاديمير سولوفيوف Vladimir Solovyov (١٨٥٣ ـ ١٩٠٠م):

يعد كتاب «محمد: حياته وتعليمه الديني» من أول الكتب الروسية في سيرة الرسول ﷺ وكاتبه هو الفيلسوف والمفكر الروسي سولوفيوف الذي حكم عليه رجال الدين النصارى في زمانه بالردة بسبب انتقاده قواعد الدين النصراني، ومحاولة الإصلاح بين الفرق النصرانية، بحسب اعترافه الشخصي، وكان المصدر الأساس لكتابه هو ترجمات معاني القرآن الكريم باللغة الروسية واللغات الأوروبية الأخرى، آخذاً بنصيحة المستشرق المشهور رازين.

اعتمد سولوفيوف على ترجمات القرآن بالروسية لكل من: روديول، وروكيرت. وبما أن المؤلف لا يعرف اللغة العربية فلم يكن قادراً على الاطلاع على مصادر المؤرخين المسلمين، لذا اكتفى بدراسة كتب المستشرقين الأوروبيين مثل: نيكولا كوزانوس، وكوسه دي برسيفال، وشبرنجر، وفلهوزن، وهوبرت جريمي وغيرهم.

ويتضمن كتابه هذا بحثاً كاملاً في سيرة الرسول ﷺ وفيه عرض لأهم العقائد الإسلامية، ويعد رأي سولويوف في كتابه معبراً عن وجهة نظر حاول فيها ألّا ينحاز عند تقويمه لأحداث التاريخ الإسلامي وقضاياه العقدية، ولكن ارتباطه بالدين النصراني ترك آثاراً واضحة في كتابه. ومع ذلك يختلف هذا البحث عمّا كتبه المستشرقون الروس بعده في كون مؤلفه يثق بروايات المسلمين عن حياة الرسول ﷺ، ولا شك أنه لم يكن لديه أدنى تصور عن صحة الأسانيد وضعفها؛ ولذا كان يعتمد على جميع الروايات التي وقف عليها[1].

يختلف موقف سولوفيوف عن مواقف كثير من المستشرقين الغربيين في أواخر القرن التاسع عشر الذين ازدروا الحضارة الإسلامية والعرب عامة. فقد أشار المؤلف إلى كثير من محاسن الإسلام ودافع عن الأسس الأخلاقية في القرآن الكريم ورد على مؤرخي زمانه المعتدين. ولكنه يؤكد أن بين الإسلام

= البلاد الأوروبية: مجموعة محاضرات، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٣م. والاستشراق، مجلة الفكر العربي، نشر معهد الإنماء العربي، عددي ٣١ ـ ٣٢.

(١) الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الروسية: إلمير رفائييل كولييف، ص٨ ـ ٩، الاستشراق، مجلة الفكر العربي: نشر معهد الإنماء العربي، عددي ٣١ ـ ٣٢.

التقليدي عند الشعوب المسلمة في روسيا وبين الإسلام في عهد الرسول ﷺ فرقاً كبيراً.

ويعد موقف سولوفيوف من شخصية الرسول ﷺ غير ثابت ومتناقض، حيث اعترف أن محمداً ﷺ نبي من بني إسماعيل المذكور في الكتاب المقدس من جهة؛ ثم نراه ينتقد بعض أفعاله وأوامره ويزعم أنه لم يستطع حلَّ بعض الإشكالات الدينية وأن تعاليم الإسلام غير كاملة وأنها عصارة فكر محمد ﷺ من جهة أخرى.

كما يثبت سولوفيوف صدق النبي ﷺ وأنه كان متيقناً برسالته ولم يكن كاذباً، ويذكر أن تلقيه للوحي يتوافق مع التجارب النفسية وله أمثلة في التاريخ. ومع ذلك يحد من صلاحيات النبي ﷺ ويقول: إنه لم يَدَّع قط أن له مقاصد عالية تتطلب معجزات وكمال أخلاق، بل أكَّد أكثر من مرة أنه لم يُكلَّف بهذا.

اهتم سولوفيوف بوصف الوضع الديني قبل البعثة فحاول وصف حياة مشركي العرب وعباداتهم وتقاليدهم وأكد أن مثل هذه العبادة لا تقيم أي علاقة بين العبد والإله، ولا تلبي الاحتياجات الدينية ولا تخدم الوحدة العقدية والاجتماعية، وإلى جانب ذلك أشار إلى بقاء حنيفية إبراهيم عليه السلام عند العرب.

اعترف المؤلف أن عرب الحجاز لم يكن لديهم صلة مع الكنيسة الأرثوذكسية، ومع ذلك يؤكد أنهم كانوا يتعاملون مع الفرق النصرانية الأخرى التي هي في نظره مبتدعة؛ لأنهم حرّفوا أصل الدين النصراني الذي هو الاتحاد الكامل بين العبد والإله. وفي نظره فإن محمداً ﷺ تألفت عقيدته من مزيج من حنيفية إبراهيم عليه السلام وعقائد تلك الفرق النصرانية المبتدعة؛ لذا يعد دينه غير كامل. ولكنه لم يجد دليلاً يقدمه على أن الرسول ﷺ تعلَّم من النصارى، ويعترف بهذا قائلاً: القرب بين الإسلام والبدع النصرانية مما لا شك فيه، ولكن الصلة التاريخية بينهما لا يمكننا إثباتها مع أنها مزعومة منذ زمن، كما جاء في نظرية نيكولا كوزانوس الذي عاش في القرن الخامس عشر الميلادي وزعم أن محمداً ﷺ تنصر على يد الراهب سيرجي بمكة، ثم ضلله اليهود. وفي آخر الحديث يستنتج المؤلف أن محمداً ﷺ قبل البعثة بسنوات كان يتأمل وينقح ويستوعب تلك العقائد المؤثرة المأخوذة من اليهود والنصارى والحنيفية(١).

---

(١) المرجع السابق، ص١٠ ـ ١٢.

حاول سولوفيوف في بداية حديثه عن الوحي والدعوة أن يدرس حقيقة الإسلام والعقيدة الإسلامية، وركَّز على أن الرسول ﷺ وصف الإسلام بأنه دين كل الرسل ونفى عن نفسه أن يكون مؤسس هذا الدين، وفي هذا الصدد أشار إلى مكانة نبي الله إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم حيث قال: إن محمداً ادعى أن الإسلام دين إبراهيم، وكان يأمل بهذا أن يجعل دعوته مقنعة وملزمة لأتباع موسى والمسيح الصادقين. وكان يريد أن يوحِّد بين أديان التوحيد ويُرْجِعها إلى أصلها.

زعم المؤلف أن محمداً ﷺ لم يُلزم أهل الكتاب بالدخول في الإسلام، لكن عليهم التمسك بكتبهم وفي هذا يقول: إذا فرضنا أن محمداً لم يبدل أفكاره فلماذا طالب اليهود والنصارى بقبول القرآن شرطاً للنجاة، وأوجب عليهم فقط تطبيق أحكام شرائعهم. هكذا يعرض سولوفيوف موقف الإسلام من الأديان التي يحسبها أديان التوحيد.

ثم يقول: إن القرآن كتاب للعرب، ولا ينسخ التوراة والإنجيل لمن أنزل إليهم، ولكن ينسخهما للعرب، فالأحكام الدينية تبقى ثابتة للأمم التي أنزلت إليها ويحاسبون على أساسها في الدنيا والآخرة. وقد استدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]، وقوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧]، وقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل: ٣٩].

وتأسياً منه بالمستشرقين قبله، ركز المؤلف على قصة الغرانيق المشهورة ليقول فيها: إن الرسول ﷺ بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة، في لحظة الإنهيار النفسي قرر أن يتنازل ويجمع بين التوحيد الحق ووثنية وطنه.

وهنا نجد أن سولوفيوف لا يتعجب من أن الرجل الذي يسميه نبياً يقع في مثل هذا الخطأ، ثم يتخلى عن قوله؛ لأنه من البداية يعد رسالة محمد ﷺ ناقصة غير كاملة.

ومما تقدم يتضح موقف هذا الكاتب من الرسول ﷺ، وهو موقف بعيد عن الصواب والإنصاف.

ومن الملائم أن نذكر هنا أن أفكار سولوفيوف لها أتباع بين علماء الروس

حتى اليوم، ومن الغريب أن بعضهم ينتسبون إلى الإسلام ومنهم المترجمة الروسية لمعاني القرآن الكريم بوروخوفا التي تابعت سولوفيوف في قوله: إن أهل الكتاب غير ملزمين بقبول الإسلام، وإن في تطبيق شرائعهم كفاية لدخول الجنة، وإن نعيم الجنة للروح فقط بدون البدن. هذه العقائد الباطلة وغيرها نجدها في ترجمتها لمعاني القرآن الكريم وتفسيرها وهي لا تزال تدعو إليها[١].

ثم إن سولوفيوف اهتم بتحليل الأخبار التاريخية مما جعل عمله يثير انتباه الباحثين. ولكن حكمه في كثير من المواضع غير مُنصف، وعرضه للروايات غير كامل ممَّا يحول بين القراء وتدبر أفعال النبي ﷺ وأوامره ونواهيه[٢].

٢ ـ نيقولا يفينتشي تولستوي Tolstoy (١٨٢٨ ـ ١٩١٠م):

الأديب والفيلسوف الروسي العالمي الذي يعد أدبه من أمتع ما كتب في التراث الإنساني عن النفس البشرية.

كان تولستوي روائي ومصلح اجتماعي وداعية سلام ومفكر أخلاقي وعضو مؤثر في عائلة تولستوي: من أشهر أعماله روايتي «الحرب والسلام» و«أنَّا كارنينا» وهما يتربعان على قمة الأدب الواقعي، فهما يعطيان صورة واقعية للحياة الروسية في تلك الحقبة الزمنية.

كفيلسوف أخلاقي اعتنق تولستوي أفكار المقاومة السلمية النابذة للعنف وتبلور ذلك في كتاب «مملكة الرب بداخلك» وهو العمل الذي أثر على مشاهير القرن العشرين مثل الماهتما غاندي[٣] ومارتن لوثر كينج[٤] في كفاحهما الذي اتسم بسياسة المقاومة السلمية النابذة للعنف.

---

(١) انظر: الأخطاء العقدية في ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية: إلمير رفائيل كولييف، ص٨ ـ ١٩.

(٢) الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الروسية، ص١٩.

(٣) غاندي Gandhi (١٨٦٩ ـ ١٩٤٨م): زعيم سياسي وروحيّ هندي. لُقِّب بـ«المهاتما»؛ أي: النفس الكبيرة، نادى باللاعنف، وبالمقاومة السلبية، عَمِل على تحرير الهند من الاستعمار البريطاني فدُعيَ «مهندس الاستقلال الهندي»، دعا إلى إزالة الحواجز بين الطبقات الاجتماعية وإلى الوحدة بين الهندوس والمسلمين والسِّيخ، قتلَهُ هندوسيّ متعصِّب. أشهر آثاره سيرته الذاتية التي دعاها «قصة تجاربي مع الحقيقة». انظر: معجم أعلام المورد: منير البعلبكي، ص٢٩٥.

(٤) مارتن لوثر كينج King,Martin Luther (١٩٢٩ ـ ١٩٦٨م): قسّ وزعيم أسود أميركي. استخدم اللاعنف وسيلةً للدفاع عن حقوق الزنوج الأميركيين المدنية متأثراً في ذلك بفلسفة الساتياغراها =

تعمق تولستوي في القراءات الدينية، وقاوم الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا، ودعا للسلام وعدم الاستغلال، وعارض القوة والعنف في شتى صورهما. ولم تقبل الكنيسة آراء تولستوي التي انتشرت في سرعة، فكفَّرته وأبعدته عنها. وأُعجب بآرائه عدد كبير من الناس وكانوا يزورونه في مقره بعد أن عاش حياة المزارعين البسطاء تاركاً عائلته الثرية المترفة.

نظر تولستوي إلى شخصية النبي محمد ﷺ باحترام وتقدير، ولعل أكبر دليل على ذلك أنه أصدر باللغة الروسية كتاباً بعنوان: «حِكَم النبي محمد» في عام (١٩٠٩م)؛ أي: قبل وفاته بعام واحد، وقصد من كتابه هذا الدفاع عن الإسلام ونبيه ﷺ.

كتاب «حِكَم النبي محمد» في أصله عبارة عن أحاديث نبوية ترجمها «عبد الله السهروردي» المسلم الهندي الجنسية إلى اللغة الإنجليزية، وأطلع عليها «تولستوي»، فترجمها إلى اللغة الروسية، وقدم لها بمقدمة تتسم بالإنصاف التام، والإعجاب الكامل برسول الله محمد ﷺ.

والذي دفع الفيلسوف الروسي «تولستوي» إلى إخراج هذا الكتاب هو أنه رأى تحامل الملحدين والمنصريين على الدين الإسلامي ورسوله ﷺ، ونسبتهم إلى صاحب الشريعة الإسلامية أموراً تتنافى مع الحقيقة، تصور للروس تلك الديانة وأعمال معتنقيها تصويراً يغاير حقيقتهم وواقعهم، فهزته الغيرة على الحق الذي يعرفه، وشعر في أعماقه بأن السكوت عن البيان ليس من سمات الكاتب الحر، والمفكر الأصيل. وخصوصاً أن هذا النبي الكريم قد اتصف بصفات عظيمة تستحق الثناء والاحترام كما يقول تولستوي: «لا ريب أن هذا النبي من كبار المعلمين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة. ويكفيه فخراً أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام، وتكف عن سفك الدماء، وفتح لها طريق الرقي والتقدم، وهذا عمل عظيم، لا يفوز به إلا شخص أوتي قوة وحكمة وعلماً. ورجل مثله جدير بالإجلال والاحترام»[1].

= التي ابتدعها المهاتما غاندي. مُنح جائزة نوبل للسلام لعام ١٩٦٤م قبل أن يتم اغتياله. انظر: معجم أعلام المورد، ص٣٨١.

(١) الأعمال الكاملة لتولستوي، اعتنى بإخراجها: محمود النجيري، المقدمة، ص٣ ـ ١٦.

لخص تولستوي في مقدمة كتابه الصورة البارزة للدين الإسلامي، وعرض لحياة النبي محمد ﷺ، وكان أبرز ما جاء فيها ما يلي:

١ ـ ميلاد النبي محمد ﷺ ونشأته وظهور الإسلام:

عرَّف تولستوي بشخصية النبي ﷺ على أنه «مؤسس الديانة الإسلامية ورسولها. تلك الديانة التي يدين بها في جميع جهات الكرة الأرضية مائتا مليون نفس»[١].

ويذكر عن ميلاده ﷺ ونشأته أنه «ولد في بلاد العرب سنة ٥٧٠م بعد ميلاد المسيح من أبوين فقيرين، وكان في حداثته راعياً، ومال منذ صباه إلى الانفراد في البراري والأمكنة الخالية، حيث كان يتأمل بالله وخدمته»[٢].

وأما حال العرب المحيطين به فقد «عبدوا أرباباً كثيرة، وبالغوا في التقرب إليها واسترضائها، فأقاموا لها أنواع التعبد، وقدموا لها الضحايا المختلفة، ومنها الضحايا البشرية»[٣].

ويعرض تولستوي لبدء نشأة الإسلام وظهوره فيبين أنه «مع تقدم محمد في السن كان اعتقاده يزداد بفساد تلك الأرباب، وأن ديانة قومه ديانة كاذبة، وأن هناك إلٰهاً واحداً حقيقياً لجميع الشعوب. وقد ازداد هذا الاعتقاد في نفس محمد، حتى قام في نفسه أن يدعو أمته ومواطنيه إلى الاعتقاد باعتقاده الراسخ في فؤاده. وقد دفعه عامل داخلي إلى أن الله اصطفاه لإرشاد أمته، وعهد إليه هدم ديانتهم الكاذبة، وإنارة أبصارهم بنور الحق. فأخذ من ذلك العهد ينادي باسم الواحد الأحد بحسب ما أوحي إليه ومقتضى اعتقاده الراسخ»[٤].

٢ ـ خلاصة ما يدعو إليه الإسلام:

يذكر تولستوي أن «خلاصة هذه الديانة التي نادى بها محمد هي أن الله

---

(١) المرجع السابق، ص٤١. وما ذكره تولستوي من أعداد المسلمين فذلك وفق ما كان عام ١٩٠٩م، أما اليوم فقد ناهز عدد المسلمين المليار ونصف.

(٢) المرجع السابق، ص٤١.

(٣) المرجع السابق، بنفس الصفحة. وأما قول تولستوي: «ومنها الضحايا البشرية» فلم يعرف عن العرب أنهم قدموا القرابين البشرية لآلهتهم، وربما فهم المؤلف من عادة «وأد البنات» عند بعض العرب أنهم فعلوا ذلك على سبيل التقرب لآلهتم وهذا غير صحيح فقد كان دافعهم لذلك خشية العار كما زعموا. انظر: تاريخ العرب قبل الإسلام: د. جواد علي (٥/ ٨٧).

(٤) المرجع السابق، ص٤١ ـ ٤٢.

واحد لا إله إلا هو، ولذلك لا يجوز عبادة أرباب كثيرة، وأن الله رحيم عادل، وأن مصير الإنسان النهائي متوقف على الإنسان نفسه، فإذا سار حسب شريعة الله، وأتم أوامره واجتنب نواهيه، فإنه في الحياة الأخرى يؤجر أجراً حسناً. وإذا خالف شريعة الله، وسار على هواه، فإنه يعاقب في الحياة الأخرى عقاباً شديداً. وأن كل شيء في هذه الدنيا فإنه زائل، ولا يبقى إلا الله ذو الجلال. وأنه بدون الإيمان بالله، وإتمام وصاياه، لا يمكن أن تكون حياة حقيقية. وأن الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم بعضاً، ومحبة الله تكون في الصلاة ومحبة القريب تقوم في مشاركته في السراء والضراء ومساعدته والصفح عن زلاته. وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضي عليهم أن يبذلوا وسعهم لإبعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسانية، والابتعاد أيضاً عن الملذات الأرضية، وأنه يتحتم عليهم أن لا يخدموا الجسد ويعبدوه، بل يجب عليهم أن يخدموا الروح، وأن يزهدوا في الطعام والشراب، وأنه يحرم عليهم استعمال الأشربة الروحية المهيجة، ومحتم عليهم العمل والجد وما شابه ذلك»[١].

٣ ـ سماحة محمد ﷺ ومنزلة أصحابه بين الناس:

وفي هذا الجانب يثني تولستوي على سماحة النبي ﷺ في تعامله مع أصحاب الديانات الأخرى بالإضافة لصبره على أذى المشركين من قومه. وذلك في قوله: «ومحمد لم يقل عن نفسه إنه نبي الله الوحيد بل اعتقد أيضاً بنبوة موسى والمسيح. وقال: إن اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم، بل يجب عليهم أن يتموا وصايا أنبيائهم.

وفي سني دعوة محمد الأولى، احتمل كثيراً من اضطهاد أصحاب الديانة القديمة، شأن كل نبي قبله نادى أمته إلى الحق. ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه بل ثابر على دعوة أمته»[٢].

كما يثني تولستوي على الصحابة ويؤكد على منزلتهم في قوله: «وقد امتاز المؤمنون كثيراً عن العرب بتواضعهم، وزهدهم في الدنيا، وحب العمل، والقناعة وبذلوا جهدهم لمساعدة إخوانهم في الإيمان لدى حلول المصائب بهم.

---

(١) المرجع السابق، ص٤٣.

(٢) المرجع السابق، ص٤٣.

ولم يمض على جماعة المؤمنين زمن طويل حتى أصبح الناس المحيطون بهم يحترمونهم احتراماً عظيماً، ويعظمون قدرهم. وغدا عدد المؤمنين يتزايد يوماً فيوماً»[١].

٤ ـ انتشار الاسلام وسماحته مع أتباع الديانات:

«وإذا كان انتشار الإسلام انتشاراً كثيراً على يد هؤلاء (أصحاب محمد ﷺ) لم يرق بعضاً من البوذيين والمسيحيين، فإن ذلك لا ينفي حقيقة أن المسلمين اشتهروا في صدر الإسلام بالزهد في الديانة الباطلة، وطهارة السيرة، والاستقامة والنزاهة، حتى أدهشوا المحيطين بهم بما هم عليه من كرم الأخلاق، ولين العريكة والوداعة.

ومن فضائل الدين الإسلامي: أنه أوصى خيراً بالمسيحيين واليهود، ولا سيما قسس الأولين. فقد أمر بحسن معاملتهم ومؤازرتهم، حتى أباح هذا الدين لأتباعه التزوج من المسيحيات واليهوديات، مع الترخيص لهن بالبقاء على دينهن ولا يخفى على أصحاب البصائر النيرة ما في هذا من التساهل العظيم»[٢].

هل أسلم تولستوي؟

يرى بعض الباحثين أن هناك دلائل ترجح أن تولستوي دخل في دين الاسلام في آخر حياته؛ كقوله في بعض كلماته: «إن كنت موجوداً فلا بد من وجود سبب ما لهذا الوجود، ومسبب له، وهو ما يدعوه الناس الله».

«سوف تسود شريعة القرآن العالم، لتوافقها مع العقل، وانسجامها والحكمة. لقد فهمت، وأدركت أن ما تحتاج إليه البشرية، هو شريعة سماوية، تحق الحق وتزهق الباطل... ستعم الشريعة الإسلامية كل البسيطة، لإئتلافها مع العقل؛ وامتزاجها مع الحكمة والعدل... ويكفي محمداً فخراً أنه خلص أمة ذليلة دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة، وفتح على وجوههم طريق الرقي والتقدم، وأنا واحد من المبهورين بالنبي محمد، الذي اختاره الله الواحد لتكون آخر الرسالات على يديه وليكون هو أيضاً آخر الأنبياء»[٣].

---

(١) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

(٢) المرجع السابق، ص٤٣ ـ ٤٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٠.

وجدير بالذكر أن تولستوي قرأ ترجمة القرآن باللغة الفرنسية، وتوجد نسخة من القرآن الكريم في مكتبته.

كما أن تولستوي كتب في بعض آخر رسائله للإمام محمد عبده مع ترجمته: «بقيت لي ثلاثة أسئلة، إن أجبت عليها إجابة مرضية اتخذت الإسلام ديناً»[(١)].

والثابت كذلك أنه وصى أن لا يصلي عليه قسيس، وأن يدفن بهيئة معلومة، ومكان محدد في ضيعته، وأن لا يوضع عليه صليب. وحال قبره اليوم يشهد على ذلك، فهو لا يختلف عن حال قبور سائر المسلمين[(٢)].

ومن المفيد أن نعلم كذلك أن الكنيسة قد نبذته، وتبرأت منه. وهناك احتمال تستر زوجته على إسلامه الذي سبق موته بقليل. يقول الدكتور محمود علي التائب:

«كنت أعلم أن ثمة مراسالات بين تولستوي أديب روسيا الأكبر، وبين الإمام محمد عبده. لكنني لم أكن أعلم أن هذا الأديب، قد دفعه إحساسه العميق بالبطولة الشيشانية إلى أن يضمن روايته «حاجي مراد» أول نبضات قلبه بدين الإسلام. وأنه قد أسلم قبيل وفاته، وأن زوجته قد جهدت في إخفاء هذا التحول الروحي عنده، وأن ابنه الأصغر ميخائيل قد عاش سنوات عمره الأخيرة في المغرب، وأن هناك من يقطع بإسلامه أيضاً»[(٣)].

٣ ـ بولشاكوف[(٤)]:

المستشرق الروسي صاحب الدراسة الكاملة والمطولة للسيرة النبوية باللغة الروسية في كتابه «تاريخ الخلافة» وتحديداً في المجلد الأول من هذا الكتاب

(١) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

(٢) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق، ص١١ نقلاً عن صحيفة الصحافة (ALsahafa) النسخة الإلكترونية، العدد رقم (٤٧٠١)، بتاريخ ٩/٧/٢٠٠٦م.

(٤) اوليغ بولشاكوف (١٩٢٩م ـ . . .): مستشرق روسي، تخرَّج من القسم العربي في الكلية الشرقية بجامعة لينينغراد بروسيا في دراسة التأريخ العربي وبالأخص تاريخ الخلفاء. بدأ بولشاكوف منذ عام ١٩٨٤م الاهتمام بدراسة ظهور الإسلام وقيام أول دولة إسلامية في التاريخ؛ أي: دولة الخلافة. وأصدر كتاب «تاريخ الخلافة» بأربعة مجلدات والذي يعد أحد المراجع الهامة باللغة الروسية حول هذا الموضوع، له أيضاً: «تاريخ الشرق» في (٦ مجلدات) بمشاركة باحثين آخرين. انظر: موقع روسيا اليوم على الشبكة العنكبوتية.

الذي يتحدث فيه المؤلف بالتفصيل عن تاريخ العرب قبل الإسلام والسيرة النبوية.

يعتبر كتاب بولشاكوف سهل الفهم لعامة القرّاء؛ لأنه جمع كل ما يتعلق بالمتخصصين من دراسة الروايات وذكر المسائل الخلافية وسرد الأدلة وشرح المصطلحات في الحواشي آخر المجلد، فهو واضح لمن يريد أن يتعرف على السيرة النبوية بشكل عام(١).

إن بولشاكوف لا يكتفي بذكر أهم الأحداث من حياة الرسول ﷺ ويدرس حالة العرب الاجتماعية والاقتصادية قبل البعثة وبعدها حتى يتفهم أسباب ظهور الإسلام والخلاف بين المشركين والمسلمين. وذلك حرصاً منه على تقويم الأحداث التاريخية ومحاولة فهم الترتيب الزمني لذلك اهتم المؤلف بدراسة التواريخ، كما اعتنى بالأرقام ليأخذ فكرة عن العلاقات بين الأفراد والقبائل وسير المعارك وغيرها من الأحداث.

كثيراً ما كان المؤلف يعتمد على كتب السيرة وروايات الثقات، ولكن عمله تأثر بعقيدته المنحرفة، فنجد بعض استنتاجاته غير مقبولة عند عامة المسلمين، وتخالف أقوال أئمتهم. وسبب ذلك يعود أحياناً إلى عدم معرفته بأصول الدين الإسلامي، ويمكن الاستدلال على ذلك مثلاً بعدّه تعظيم المسلمين للكعبة عبادة لها(٢).

يشكك المؤلف في صحة كثير من الأحداث من حياة الرسول ﷺ المذكورة في كتب السيرة الموثوقة. فعند إيراده لقصة شرح صدر محمد ﷺ في صغره يقول: إن حدوث هذه القصة مشكوك فيه والظاهر أنها أُلِّفت بعد وفاة النبي ﷺ بعدة سنوات(٣).

وفي أكثر من مرة نجد المؤلف يبحث عن العلاقة بين مواعظ الرسول ﷺ وآثار النصارى، ولا يلقى أي اهتمام لاعتقاد المسلمين أن القرآن الكريم أنزل مصدقاً للكتب السابقة مهيمناً عليها، فيقول: إن وصف الجنة كعرس أبدي جزاءً للزاهدين في الدنيا بشكل واضح مأخوذ من الكتب الرهبانية النصرانية(٤). وقوله:

---

(١) كتاب تاريخ الخلافة: لبولشاكوف (١/ ١٠١) (باللغة الروسية) نقلاً من: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الروسية، ص٢٠.

(٢) تاريخ الخلافة (١/ ٧٤، ٨٣).

(٣) المصدر السابق (١/ ٦٥).

(٤) المصدر السابق (١/ ٧٧).

بهذا يتبين لنا أن محمداً كان على معرفة واسعة بقصص الكتاب المقدس وإنْ نقلها بشكل آخر، وهذا ما جعل بعض الباحثين يظنون أنها غير مأخوذة من الكتاب المقدس نفسه بل هي من الرصيد الأسطوري السامي[١].

استخدم بولشاكوف كل الفرص لاتهام المؤرخين المسلمين بالتحيز، ودافع أكثر من مرة عن المنافقين، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول. فنجده عند ذكر إخراج بني قينقاع من المدينة يثني على هذا المنافق، حيث يذكر أنه ناشد الرسول ﷺ بعدم قتلهم ثم حاول إقناعه بعدم إخراجهم[٢] وأثناء كلامه عن غزوة أُحد يعد تولي ابن أبي سلول مع ثلاثمائة جندي، رأياً صائباً نظراً لقصده عدم ترك المدينة بدون دفاع[٣].

ولا يستطيع بولشاكوف إخفاء كراهيته لنجاح المسلمين ووحدتهم ويحاول دائماً أن يقنع القارئ بأنه كانت هناك خلافات كثيرة بينهم. وأحياناً يفترض في سبيل ذلك فرضيات غير معقولة، فمن ذلك عند ذكره لرجوع المهاجرين من الحبشة إلى المدينة يقول: من المحتمل أن بين جعفر ومحمد خلافات غير مذكورة في المراجع الإسلامية. وإلا فكيف نفسر أن بعض المهاجرين وجدوا فرصة للقدوم إلى المدينة بعد غزوة بدر مباشرة، وقريبه جعفر انتظر أربع سنين بعد ذلك[٤].

وتحليلاً منه لمراحل تكوين العبادات الإسلامية يستنتج المؤلف أنها تألفت من خلال النقاش المباشر وغير المباشر مع اليهود فيشير إلى اتخاذ المسلمين بيت المقدس قبلة، وصيامهم يوم عاشوراء، وجواز أكل طعام أهل الكتاب. ولكن استنتاجاته بعيدة عن الصواب، وفي بعضها سوء أدب مع الرسول ﷺ. ونذكر على سبيل المثال قوله: كان محمد في بداية دعوته مقتنعاً أن حنيفيته هي عقيدة التوراة نفسها، وربما مناظرته مع اليهود ذكرت حتى في السور المكية، والأرجح أن هذا نتيجة التحرير المتأخر. ومن أول لقاء مع اليهود تبين أنهم قبلوه قاضياً عاماً ولكن رفضوا إرشاداته الدينية، وكانت تصورات محمد المضطربة عن قصص

---

(١) المصدر السابق (١/ ٧٨).

(٢) المصدر السابق (١/ ١٠٨).

(٣) المصدر السابق (١/ ١١٤).

(٤) المصدر السابق (١/ ١٥٠).

أهل الكتاب موضع سخرية عند اليهود الذين تعلموها منذ نعومة أظفارهم[١].

نسب بولشاكوف أي ذكر للملائكة والجن والمعجزات إلى عناصر الأسطورة الإسلامية المخترعة من طرف المؤرخين لتزيين الأحداث الحقيقية، وفي بعض الأحيان يربط هذا بأسباب أخرى. فعلى سبيل المثال يستغرب من مناصرة آلاف من الملائكة للمسلمين في غزوة بدر، فيقول: إن هزيمة أقوى الخصمين أدهشت الطرفين كليهما، ولشرحها ظهرت أسطورة عن مساعدة ألف مَلَك للمسلمين إجابة لدعوة محمد، وهذا الشرح كان يناسب تماماً الطرف المهزوم حفاظاً على ماء وجوههم؛ لأن الوقوع في الأسر من طرف عدو ضعيف شيء، ومن طرف ملائكة في هيئة إنسان شيء آخر[٢].

واستمراراً لهذا النهج ينفي المؤلف تلك العوامل التي أثرت بشكل أساس في سير أحداث غزوة الخندق، مثل إرسال الله الريح والجنود من السماء، كما لا يعد من عوامل الانتصار الأساسية الخطة الجديدة التي لم يعهدها العرب واختارها المسلمون بمشورة سلمان الفارسي[٣].

في آخر الكتاب يحاول بولشاكوف تحليل حياة النبي ﷺ بشكل عام ولا يخفي ذهوله ـ رغم اتجاهه المادي الإلحادي ـ من النجاح الباهر للدعوة الإسلامية، فيقول: محمد ترك لأتباعه نظاماً دينياً كاملاً مرتبطاً بشخصيته يحتوي كل ما يحتاج إليه الإنسان من معرفة حقيقة العبد والإله إلى العبادات المنظمة بدقة[٤].

٤ ـ المستشرقين الروسيين بانوفا وفاختين[٥]:

يعد كتاب «النبي محمد» للمستشرقين بانوفا وفاختين، من الكتب التي لها مكانة خاصة بين كتب السيرة النبوية باللغة الروسية؛ لأن أسلوبه يختلف عن أساليب كثير من كتب المستشرقين. فعلى الرغم من أن المؤلفَين اعتمدا على

(١) المصدر السابق (١/ ١٠٤ ـ ١٠٥).
(٢) المصدر السابق (١/ ١٠١).
(٣) المصدر السابق (١/ ١٣٥).
(٤) المصدر السابق (١/ ١٨٧)، وانظر للاستزادة: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الروسية: إلمير رفائييل كولييف.
(٥) لم أقف على ترجمتهما.

المراجع الموثوقة وذكرا فضائل الرسول ﷺ وأظهرا حرصهما لبيان الحق إلا أن أساس هذا الكتاب هو إنكار الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله(١).

فبانوفا لا تصدق بالأخبار التي تذكر فيها معجزات رسول الله ﷺ، وتحاول أحياناً أن تفسرها بالظواهر الطبيعية والحوادث التي لم يستطع الناس أن يدركوها في تلك الأيام. فتقول عند ذكر هلاك أصحاب الفيل:

اتفق المؤرخون أن هذه الظاهرة الخارقة للطبيعة إنما كانت وباء الجدري شب في جيش الأحباش، وقد ثبت أن الجدري دخل جزيرة العرب لأول مرة في ذاك الوقت(٢).

إلى جانب هذا تكتم بانوفا الأحاديث العديدة عن معجزات رسول الله ﷺ التي دُهش منها كفار قريش وغيرهم، وتسكت عما رأت حليمة السعدية من بركة النبي ﷺ في صغره، وكذلك كتمت معجزة انشقاق القمر المذكور في كتاب الله، وإخباره ﷺ عن صحيفة المقاطعة العامة التي أكلتها الأرضة وخلاصه من قريش ليلة الهجرة، ولقاءه مع سراقة بن مالك، وغيرها من المعجزات الثابتة في الكتاب والسُّنَّة.

وأحياناً تشكك بانوفا في صحة الروايات التاريخية المقبولة وأحياناً تروي الآثار الباطلة فمن ذلك مثلاً قولها عن جمال عبد الله والد رسول الله ﷺ: يذكر في الأساطير أن عبد الله كان له كمال لا مثيل له وكان يسبي عقول النساء ولذا ماتت في ليلة زفافه مائتا فتاة(٣).

والظاهر أن بانوفا لا تميز بين الروايات الصحيحة والضعيفة وتقبل الروايات التي توافق هواها والتي تحسبها معقولة. ومن هذا القبيل ردها لقصة وضع الحجر الأسود في مكانه حيث تقول: إن المؤرخين الأتقياء علقوا أهمية على قصة محمد والحجر الأسود ولكننا لا نثق بها. وقد ثبت أن محمداً لم يتحدث عنها أبداً وذلك مما يدل على أنها تلفيق(٤).

---

(١) الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الروسية، ص٣٠.

(٢) النبي محمد: لبانوفا وفاختين، ص٤٦، باللغة الروسية، دار فينيكس، روستوف، ١٩٩٩م. نقلاً من: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الروسية، ص٣٠.

(٣) النبي محمد، ص٤٤.

(٤) المرجع السابق، ص١١٨.

ثم إن بانوفا لا تنكر الآثار الصحيحة عند أئمة المسلمين فحسب بل تنسب إلى النبي ﷺ الأقوال التي لا يشك المسلم في بطلانها، فتقول: روي عن محمد أن الله قال: يا أيها الإنسان! احفظ ما آمرك به فتصبح مثلي، تقول للشيء كن فيكون[١].

وفي كثير من المواضع تفتري هذه المستشرقة بأن القرآن ليس كتاب الله وأن محمداً ﷺ نسبه إلى الله جوراً وكذباً، وتستدل على ذلك بقصة الغرانيق المشهورة حيث تقول: إن النبي سمى آلهة المشركين ملائكة فسجد المشركون لله رضاً بما يقول. ثم تشرح ذلك بقولها: بعد ما زال الفرح فهم محمد أنه ارتكب خطأً كبيراً. إن هذه الخطوة مكّنته من تفريق جماعة المشركين وتأمين مصالح المسلمين، ولكنها لم تُمِلْ قريشاً إلى الإسلام لأن الإيمان بالله وحده لا يتفق مع هذه الآلهة بنات الله التي اعترف بها محمد حرصاً على حل وسط مع قريش. ويمكن القول أن محمداً تناقض مع نفسه، فبدا له أن هذه المشكلة لا حل لها، ولكنها انحلت بعد نزول الآيات التالية فأُوحي إليه أن الله ليس له يد في ذلك، وأن هذه الكلمات ليست من كتابه المحفوظ ولا من تنزيله، وأن الشيطان هو الذي خدعه وأوحى إليه[٢].

ونجد هذه المستشرقة تحاول دائماً إثبات الخلافات بين أصحاب الرسول ﷺ فتقول مثلاً: إن كبار الصحابة كأبي بكر وحمزة عدُّوا الشباب كعلي وزيد مزاحمين لهم[٣].

وتدعي المستشرقة أن المسلمين في بعض الأحيان عاملوا النبي ﷺ بخشونة بل تقول: إن بين محمد وزوج ابنته عليٍّ خلافات متواصلة بدا أثرها في القرآن على نحو غير واضح، مما جعل كثيراً من المسلمين يعاملون عليّاً وفاطمة ابنة النبي بكراهة غير خفية[٤]. ثم إن بانوفا تصف الصحابة بالجشع والطمع والأثرة والنزع إلى سفك الدماء والميل إلى الثأر والحرص على القرب من النبي ﷺ لأجل المال والسلطة. ومن هذا القبيل شرحها لحالة المسلمين بعد ولادة إبراهيم

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٩.
(٢) المرجع السابق، ص٢٣٨ ـ ٢٣٩.
(٣) المرجع السابق، ص٢٦٥.
(٤) المرجع السابق، ص٤٧٢.

ابن النبي ﷺ فتقول: إن محمداً فرح فرحاً شديداً، ولم يشاركه أحد في ذلك. وحزنت زوجاته اللاتي أهانتهن ولادة إبراهيم، حتى وجوه أصحابه الصادقين كانت عابسة؛ لأن فضائلهم كانت تستصغر بجانب ابن النبي. بل إن ولادة إبراهيم أغمَّت فاطمة وعلياً لأن الحسن والحسين أضاعا مزية في كونهما وارثي النبي[١].

ولا تزال بانوفا تتبع الظن وتفتري على الصحابة حتى تقول عند وصف آخر الأيام قبل وفاة النبي ﷺ: لم يستطع محمد أن يمشي إلى المسجد فحاول عمر أن يصلي بالناس إماماً، ولكن المؤمنين لم يقبلوه فكلف محمد أبا بكر بالإمامة في الصلاة وربما لم يفعل ذلك لأن المسلمين شعروا بقرب موته فذهب عنه سلطانه[٢].

وتوضح دراسة استنتاجات بانوفا وفاختين أن معرفتهما بالمسائل الشرعية كانت سطحية مما جعل عملهما مضللاً للناس. فنجد في كتابهما القول بأن القرآن أنزل للعرب فحسب[٣]، وأن الطواف بالكعبة يعد عبادة لها[٤]، وأن النبي ﷺ عند نزول الوحي كان يحس بلمس ويقول إن الله يلمسه بيده[٥]، وزعمت أن عبد الله بن أبي بن سلول كان سيد الأنصار وأنه بعد موته لم تجتمع كلمتهم[٦]، وأن الصحابة زينوا قبور شهداء أُحد بأحجار الجرانيت والأحجار الكريمة[٧]؛ كأنها لم تسمع بالنهي عن البناء على القبور، كما ادعت أن المسلمين يعدون أبا طالب من أهل الإيمان بالرغم من موته على شركه[٨].

ثم إن المستشرقة تزعم أن النبي ﷺ كان لا يهتم بقضية القبلة حتى صلى متوجهاً إلى الشرق، فتقول: كان المسلمون يدخلون المسجد من الجهة الغربية والظاهر أنهم صلوا إلى الشرق لا إلى الشمال الذي هو جهة بيت المقدس. وكان أهل الفرق المبتدعة النصرانية يتوجهون إلى الشرق، وثبت أن كثيراً من النصارى

---

(١) المرجع السابق، ص٥٢٩.
(٢) المرجع السابق، ص٥٦١.
(٣) المرجع السابق، ص١٥٠.
(٤) المرجع السابق، ص٥٥٩.
(٥) المرجع السابق، ص١٥٠.
(٦) المرجع السابق، ص٥٦٤.
(٧) المرجع السابق، ص٤١٧.
(٨) المرجع السابق، ص٢٩٨.

عاشوا بالمدينة حينذاك. وربما تأثر المسلمون بأتباع عيسى أثناء بناء المسجد. وكان محمد أمرهم بالصلاة إلى بيت المقدس ولم يهتم بهذه المسألة حتى لا يمنع اختياره للقبلة من الدخول في الإسلام. ومن المعلوم أن محمداً ﷺ بعد عدة سنين صلى مع وفد النصارى من نجران متّجهاً إلى الشرق[١].

اهتمت بانوفا بزواج النبي ﷺ بشكل خاص ولكن استنتاجاتها كانت خاطئة باطلة. تزعم المؤلفة تعليقاً على زواج رسول الله ﷺ بخديجة أنه أقدم على هذا الأمر من أجل المال حيث تقول: زواج محمد بخديجة خيب آماله في الغنى، ومن المستبعد أنه كان يرجو محبة زوجية عالية[٢]. أما زواجه بسودة فتصفه إظهاراً للمحبة الأخوية والتضامن الذي كان يدعو إليه[٣]، وزواجه بعائشة تعلله بحسابات سياسية[٤]، وزواجه بحفصة سببه الرغبة في الحيلولة دون نشوب خلاف بين سادة الأمة الإسلامية بعدما رفض أبو بكر وعثمان الزواج بحفصة بنت عمر[٥]، وزواجه بجويرية تعده صفقة سياسية رابحة مع بني المصطلق[٦]، وأما زواجه بريحانة وزينب وصفية فتسوغه بأنه ﷺ لم يصمد أمام مظهرهن الجميل[٧].

وتلك بعض الأمثلة التي تبين منهج المستشرقين بانوفا وفاختين، وهو في الحقيقة منهج جميع المستشرقين الروس الذين حاولوا أن ينشروا أفكارهم الباطلة، ويثبتوا أن الدين الإسلامي نشأ وتكون تحت تأثير العوامل الاجتماعية والسياسية، وكان وسيلة في أيدي وجهاء المجتمع لتقوية سلطانهم. كما يقول الدكتور إلمير رفائيل كوليف عن هذا المنهج:

«يحاول المستشرقون تلبية لمقاصدهم غير العلمية أن يستخفُّوا بالقيم الدينية والأخلاقية، ويدّعوا أن الحضارة الإسلامية هي في الحقيقة التراث العربي فقط، وأن سائر الناس يمكنهم التخلي عنها. ورغم هذا نجد كتبهم منتشرة بكثرة حتى بين المسلمين الناطِقين باللغة الروسية نظراً لطريقة عرض الأحداث التاريخية بصفة

(١) المرجع السابق، ص٣٤٢.
(٢) المرجع السابق، ص١٤٠.
(٣) المرجع السابق، ص٣٠٩.
(٤) المرجع السابق، ص٣١١.
(٥) المرجع السابق، ص٤٠٠ ـ ٤٠١.
(٦) المرجع السابق، ص٤٥٠.
(٧) المرجع السابق، ص٤٦٥ و٤٦٦ و٤٨٨.

شائقة وبعبارات سهلة الفهم، وصدق من قال: إن مثلهم كمثل الذي يقدم العسل مدسوساً بالسم. ولهذا يتعين على علماء المسلمين أن يجتهدوا في عرض السيرة النبوية الصحيحة لأكبر عدد من القراء الذين وقعوا في شرك المستشرقين، وبخاصة الناطقون باللغة الروسية، الذين يقدّرون مهارات المؤلفين الأدبية ويحتاجون إلى شرح واف واستدلالات قاطعة؛ ليقتنعوا بصحة الأخبار الواردة في المراجع الإسلامية»[(١)].

(١) الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الروسية، ص٣٩ ـ ٤٠.

المبحث السادس

الاستشراق النمساوي

النمسا دولة من دول وسط أوروبا، ولها مكانةٌ خاصة في تاريخ العلاقات بين المسلمين والغرب حيث كانت أبواب النمسا مسرحاً لمواجهة عسكرية ما بين جيوش الدولة العثمانية وبين الجيوش النمساوية، وهي المعركة التي شهدت تراجعاً لجيوش العثمانيين وأوقفت فتوحاتهم في أوروبا على منطقة البلقان.

كان أول حصار للعثمانيين لها في سنة (٩٦٣هـ ـ ١٥٤٩م) ودارت رحى الحرب بعنف وشراسة، وجاء الحصار الثاني لڤيينا ـ العاصمة ـ في سنة (١٠٩٥هـ ـ ١٦٨٣م) ولم يتقدم العثمانيون أكثر من ذلك حيث مشارف ڤيينا، وعندما توسعت إمبراطورية النمسا دخلت في حوزتها مناطق انتشر بها الإسلام؛ كبلاد البشناق والهورسك[١].

ولكن أهم وصول للإسلام إلى النمسا كان في أعقاب الحرب العالمية

(١) البوشناق أو البشناق: أي: البوسنيون وهم مسلموا إقليمي البوسنة والهرسك وجوارها ومناطقهم الرئيسية هي البوسنة والهرسك، وإقليم السنجق الواقع بين منطقتي كوسوفو ذاتية الحكم حالياً والجبل الأسود ولا يزال السنجق تابعاً لصربيا حتى اليوم مع أن سكانه ٩٥٪ من المسلمين. انظر: الموسوعة العربية، ص٤٣٥.

الأولى حيث هاجر إليها بعض المسلمين من أوروبا الشرقية، ثم زادت هذه الهجرة بعد الحرب العالمية الثانية، فوصلت إليها هجرات إسلامية من يوغسلافيا، ثم جاء إليها العديد من العمال الأتراك وهم يمثلون أكبر جالية مسلمة في النمسا، ثم يليهم المسلمون اليوغسلاف، ثم مسلمون من الأقطار العربية.

تعتبر النمسا من أولى الدول الغربية اهتماماً بالاستشراق، حيث بدأ الاستشراق اللاهوتي بشكل رسمي حين صدور قرار مجمع ڤيينا الكنسي عام ١٣١٢م وذلك بإنشاء عدد من كراسي اللغة العربية في عدد من الجامعات الأوروبية.

ومنها أصدر المستشرق النمساوي «هامر برجشتال» أول مجلة استشراقية متخصصة في أوروبا وهي مجلة «ينابيع الشرق»، التي صدرت في ڤيينا من عام ١٨٠٩م وحتى ١٨١٨م.

كما ساهم عدد كبير من المستشرقين النمساويين في الدراسات العربية والإسلامية[١]، وما يهمنا في هذا المجال الكتابات المتعلقة بالنبي محمد ﷺ.

مميزات مدرسة الاستشراق النمساوي:

تشترك المدرسة النمساوية في معظم الخصائص والمميزات مع مدرسة الاستشراق الألمانية، ويعزو بعض الباحثين ذلك إلى أن معظم مستشرقي البلدين انتقل بين القطرين الجرمانيين المتحدين في الجنس واللغة والخصائص الأخرى، يضاف إلى ذلك أن المدرسة النمساوية لا يمكن فصلها عن المدرسة الألمانية في نوعية الاهتمامات والصفات واللغة المشتركة[٢].

من أعلام الاستشراق النمساوي:

١ ـ ألويس شبرنجر Alois Sprenger (١٨١٣ ـ ١٨٩٣م):

في عام (١٨٦١ ـ ١٨٦٥م) نشر الألماني من أصل نمساوي[٣] ألويس شبرنجر كتابه: «حياة محمد وتعاليمه».

---

(١) انظر: المستشرقون: للعقيقي (٢/ ٢٧٣ ـ ٢٩٣).
(٢) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٣٦).
(٣) وقد ترجم له العقيقي ضمن المستشرقين النمساويين (٢/ ٢٧٧).

وفيه قدم سيرة علمية للنبي محمد ﷺ اعتماداً على سيرة ابن إسحاق التي كان «فيستنفيلد» و«جوستاف فايل» قد ترجماها عام ١٨٦٠م، إلى جانب بعض المصادر الأخرى من كتب التفاسير والسير والتي كان قد حصل عليها في أثناء رحلته العلمية، مثل: المجلد الأول من طبقات ابن سعد.

ويعد شبرنجر بهذا العمل ممثلاً لأول مرحلة من مراحل الدراسات الإسلامية المتخصصة في الغرب، فقد تبوأ كتابه مكانة مرموقة بين المستشرقين في الدراسات الإسلامية سواء أكانوا ناقدين لهذا الكتاب أم متابعين له.

اتسمت دراسة شبرنجر بعدم وضوح طبيعة الدين الإسلامي عنده، مقللاً من شأن دور النبي ﷺ، واصفاً له بأنه كان مصاباً بالصرع والهستيريا معاً، ومع أنه نجح في تكريس فكرة تناول الإسلام في إطار بيئته الثقافية والدينية عندما عرض لحياة محمد ﷺ في ضوء عصره والأحوال السائدة في شبه الجزيرة العربية وآسيا، فاستطاع بذلك أن يوجد رباطاً بين العديد من التساؤلات المطروحة حول الإسلام ونبيه إلا أنه فشل في خدمة هذه الفكرة واستثمارها عندما وقف بها عند حدود المصادر والروافد مقرراً أن الإسلام خلق من روح عصره، أما عن طبيعة الإسلام ذاته فلم ينته فيه إلى نظرية ما[١].

٢ ـ محمد أسد (١٩٠٠ ـ ١٩٩٢م):

تعتبر قصة المستشرق النمساوي محمد أسد (ليوبولد فايس) مع الإسلام أنموذجاً فريداً لتغلغل العقيدة الإسلامية في قلوب بعض الغربيين، بشكل غير مقصود بمجرد معايشتهم للمسلمين.

في الجانب الفكري ركزت كتابات محمد أسد الأولى على العلاقات الفكرية والتاريخية بين عالم الإسلام والعالم الغربي، وفضح الظلم التاريخي الذي تعرض له وجود المسلمين بفعل الحروب الصليبية وحركة الاستعمار الحديث، وكشف ما تعرض له دينهم وثقافتهم من تحريف وتشويه على يد المبشرين، إضافة إلى تحليله لنقائض المواقف المتعالية للغرب المعاصر، وتأثير ذلك على علاقاته بالمسلمين.

يقول محمد أسد: «ولكن عندما أُظهر نشاطي في الأمم المتحدة أنني لم أكن

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٨٩، عن:
Alois Sprengeter, Das Leben und die lehre des Mohammad, Berlin 1861.

موظفاً فحسب، بل رجلاً منسجماً تمام الانسجام عاطفياً وعقلياً مع الأهداف والغايات السياسية والثقافية للعالم الإسلامي بوجه عام، استولى عليهم الدهش إلى حد ما.. وقد بدأ هذا غريباً جداً لمعظم أصدقائي الغربيين؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا كيف أن رجلاً غربي المولد استطاع أن يثبت شخصيته إثباتاً كاملاً، ودونما أدنى تحفظ عقلي في العالم الإسلامي، وكيف إنه كان في وسعه أن يستبدل بتراثه الغربي التراث الإسلامي، وكيف استطاع قبول إيديولوجية دينية واجتماعية كانت في اعتقادهم أحط كثيراً من جميع المفاهيم والمعتقدات الأوروبية»[١].

وقد أبرز أسد سبب هذا الإحساس الغربي بالتفوق على حضارات العالم فقال: «ولقد ساءلت نفسي: لماذا يفرض أصدقائي الغربيون ذلك..؟ هل أزعج أحدهم نفسه حقاً بدراسة الإسلام دراسة واعية مباشرة؟ أم هل كانت آراؤهم تقوم فقط على قبضة (الكليشيهات) والأفكار المشوشة التي انحدرت إليهم من الأجيال السابقة؟ وهل يمكن أن تكون طريق التفكير اليونانية الرومانية القديمة التي قسمت العالم إلى يونانيين ورومانيين من جهة، وبرابرة من جهة أخرى لا تزال مكينة في الفكر الغربي إلى درجة أنها لم تستطع أن تقبل، ولو نظرياً، بالقيم الإيجابية لأي شيء خارج مدارها الثقافي الخاص»[٢].

وقد وجد محمد أسد في تاريخ العلاقات بين الإسلام والمسيحية، وخصوصاً تجربة الحروب الصليبية جواباً على أسئلته، ومعنى ذلك أن الخوف في عالم الإسلام ووراثة أخطاء المسيحيين الأوائل هو السبب الجوهري في النفور من الإسلام، يقول: «ولكي تجد تفسيراً مقنعاً بحق هذا التعصب علينا أن نعود إلى الماضي البعيد، وأن نحاول تفهم الأساس السيكولوجي لأقدم العلاقات بين العالمين الغربي والإسلامي.

إن ما يفكرون فيه ويشعرون به نحو الإسلام اليوم متأصل في انفعالات وتأثيرات، إنما ولدت إبان الحروب الصليبية»[٣].

وستأتي مناقشة آراء محمد أسد ورحلته مع الإسلام ضمن آراء المستشرقين المسلمين.

---

(١) الطريق إلى الإسلام: محمد أسد، ص١٤.
(٢) المرجع السابق، ص١٧.
(٣) المرجع السابق، ص١٧.

الفصل الثالث

أصناف المستشرقين
في كتاباتهم عن النبي ﷺ



الفصل الثالث

أصناف المستشرقين في كتاباتهم عن النبي ﷺ

من يدرس نتاج المستشرقين منذ نشأة حركة الاستشراق إلى وقتنا الحاضر، وما كتبوه عن الإسلام كدين، وعن محمد ﷺ كإنسان ونبي ورسول لهذا الدين الإلٰهي، يجد نفسه أمام ثلاثة أصناف من المستشرقين:

الأول: صنف كتب بروح علمية صادقة، فدرس الشرق ونتاجه دراسة عميقة، ونظر إلى الإسلام كدين ودعوة ومنهج حياة، ورأى في نبيه محمد ﷺ الأنموذج الكامل الذي توافرت فيه صفات النبوة والرسالة الإلٰهية حتى دعاه ذلك إلى الاهتداء للإسلام واعتناقه، بل وأصبح بعضهم في سبيل ذلك سيفاً من سيوفه، وصوتاً منافحاً عن جنابه، يدافع عنه، ويرد الشبه والمكائد التي يثيرها أعداؤه.

الثاني: صنف كتب بروح علمية جادة محاولاً إفادة قومه بما يكتب عن حضارة الإسلام ونبيه محمد ﷺ، مبتعداً عن تأثير الكنيسة والمتحاملين من بني جلدته قدر المستطاع، فصار له ـ رغم وقوعه في بعض الأخطاء ـ آراء منصفة وعبارات جيدة، ورغم إعجاب هؤلاء واقتناعهم بصحة هذا الدين وسمو ما يدعو إليه فإن ذلك لم يقدهم إلى إعلان إسلامهم، وذلك خوفاً من حرب تشنها الكنيسة

ومؤسساتها تارة، أو خشية على منصب أو مكانة تارة أخرى، يضاف إلى ذلك نظرة العلو والفوقية التي سيطرت على بعض مفكري الغرب حتى جعلت تلك النفوس تشيد بالحق وتثني عليه وتنافح عنه أحياناً، ولكنها تأبى أن تكون من أتباعه أو ممن يسلك طريقه ويقتفي أثره.

الثالث: صنف كتب بحقد وكراهية مبتعداً عن المنهج العلمي ومتأثراً بروح الكنيسة الصليبية في العصور الوسطى حتى أنتجت كتاباته وكلماته آراء متحاملة على الإسلام ونبيه محمد ﷺ، ورغم ادعاء بعض أصحاب هذا الاتجاه الانصاف والعدل فإن كتاباتهم لا تحتمل في طياتها معنى صحيح أو تأويل حسن يعتذر به لقائله، مما يؤكد على أن مصدر هذه الكتابات هو التعصب المذموم والبعد عن الموضوعية والمنهج العلمي الصحيح.

وفيما يلي يتناول البحث هذه الأصناف الثلاثة من المستشرقين وكتاباتهم عن النبي محمد ﷺ، وذلك على النحو التالي:

المبحث الأول: المستشرقون المسلمون.

المبحث الثاني: المستشرقون المتعاطفون مع الإسلام.

المبحث الثالث: المستشرقون المتحاملون على الإسلام.

المبحث الأول

المستشرقون المسلمون

انتسب طائفة من المستشرقين إلى الإسلام بعد أن درسوه جيداً ولمسوا ما فيه من تناسب بين أوامره وشرائعه من جهة، وما تفهمه العقول الصحيحة وتقر به الفطر السليمة من جهة أخرى، بعيداً عن فلسفة العقائد الغربية وسفسطاتها، وسبق ذلك الإيمان إعجاب بشخص النبي ﷺ وخلقه ودعوته ورسالته مما يؤكد على أنها من عند الله تعالى.

وإذا ما أراد الباحث دراسة مثل هذه الشخصيات فإنه قد يظهر تساؤل عن السبب في سلك هؤلاء الباحثين الغربيين المؤمنين برسالة الإسلام ضمن دائرة المستشرقين، وقد يرفض البعض ذلك باعتبار أن التمايز الأساس بين الإنسان المسلم والغربي يرجع إلى اختلاف العقيدة، وهو غائب في حالة هؤلاء الباحثين الذين اختاروا الانتماء للإسلام، ولكن لا شك بأن هذا الاختيار له مقومات وأسباب يرجع إليها، ولعل من أهمها ما يلي[1]:

أولاً: أن جميع الباحثين الغربيين المسلمين قد نشؤوا وتثقفوا طيلة حياتهم بالثقافة الغربية، ولذلك فإن اطلاعهم كبير على تاريخ حضارة الغرب وخصوصياته

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص١٥٧ وما بعدها.

والخلفيات التي تمكن من فهم توجهاته، وهذا أمر من الممكن أن يستفيد منه الدارس في فهم الأرضية التي أنتج فيها المستشرقون أعمالهم.

ثانياً: أن نشأة هؤلاء الباحثين في إطار مختلف تماماً عن الإطار الإسلامي التقليدي، قد خصهم بشيئين:

١ ـ أن نظرتهم إلى المصادر الإسلامية وإلى عقائد الإسلام وتاريخه مختلفة عن نظرة المسلمين الناشئين في أرض الإسلام، وينعكس هذا في بساطة الطرح الإسلامي عندهم، وغضاضته، وجدته في الوقت نفسه. وهذا سر من أسرار إسلامهم، وأحد العوامل التي أحسوا أكثر من غيرهم بفعاليتها في الدعوة إليه.

٢ ـ أن إحساسهم بإشكاليات العقيدة والفقه الإسلامي أكثر حدة منا، وذلك لأنهم ينظرون إلى الإسلام ـ تقريباً ـ من خارج دائرته فيرون ما لا نراه، ولهذا يحاول هؤلاء دائماً تقديم الحلول لمثل هذه الإشكاليات التي لا يقف عليها إلا من عاش في مثل مجتمعاتهم وخالط أهلها ومارس الحياة العملية فيها.

ثالثاً: ويبقى السبب الجوهري هو أن هؤلاء المؤمنين الجدد، وبتأثير حياتهم في الغرب، ظلوا بعيدين، جزئياً عن الإدراك العميق والواعي لبعض أصول الإسلام وكثير من فروعه، فكانوا في ذلك أقرب إلى المستشرقين منهم إلى المسلمين. ورغم أن هذا لا يطعن في إخلاص أياً منهم للإسلام ولا في محبته له، إلا أنه عنصر يجعلنا نهتم بدراسة إنتاجهم من أجل معرفة الموضوعات الإسلامية التي لم يستطيعوا تمثلها على الوجه الأكمل، وذلك لغرض علمي وعملي، يكمن في معرفة بنية الشخصية الغربية من أجل تعامل إسلامي واع معها، إضافة إلى تعميق فقهنا ببعض أسباب إطراح غيرهم من المستشرقين لهذه الموضوعات. وهذان هدفان أساسيان مهمان في هذا البحث.

ونشير هنا إلى أن أمر اعتناق أهل الأديان للإسلام قد تم منذ فجر الدعوة الإسلامية، واتسع مداه بعد بدء الفتوحات، حيث لاحظوا سماحة وتسامح العرب الفاتحين، وصحة وبساطة وضبط الشريعة الإسلامية التي حولت العرب إلى عباد مجاهدين، ولم تتأخر طوائف العلماء، أصحاب الإطلاع الواسع على الديانات والمذاهب عن الدخول في الدين الجديد، فاقتنع بنبوة محمد ﷺ أحد أكبر أحبار

اليهود في زمانه، وهو عبد الله بن سلام[١]، ولحق به مخيريق الذي قاتل مع المسلمين في أُحد حتى استشهد، وكان النبي ﷺ يقول فيه: «**مخيريق خير يهود**»[٢]، ولكن أمر انتشار الإسلام في أصحاب الديانات الكتابية ظل في تناقص مستمر، حتى ابتدأت حركة الاستعمار الحديث حيث تحقق الالتقاء الحياتي مجدداً بين المسلمين والنصارى على وجه الخصوص، ثم أطل القرن العشرون فإذا بالإسلام المنهزم يعاود حركة انتشار واسع بين العامة والخاصة من الغربيين[٣].

وإذا شئنا أن نبحث في أسباب دخول بعض المستشرقين في الإسلام فمن الممكن لنا أن نتوقف عند العناصر التالية:

١ ـ ميل بعض الغربيين إلى حياة روحية وشرعية كاملة، وذلك بعد انتشار الإلحاد والإنحلال الأخلاقي الشامل في الغرب، وقد كان توجههم إلى الإسلام تابعاً لما لاحظوه من عجز المسيحية ـ التي حطمتها حركة النقد الديني والاستبعاد العلماني عن الحياة ـ عن تقديم الضمانات العقدية والأخلاقية اللازمة لحياة دينية حقيقية، وكذلك عجز غيرها من أديان العالم عن توفير مثل ذلك.

٢ ـ انتشار المسلمين في بلاد الغرب ذاته، وقد زاد من فعالية ذلك انتقال بعض العلماء المسلمين للدعوة هناك. ويقابل هذا الانتقال إلى الغرب انتقال معاكس قاد الغربيين إلى ديار الإسلام حيث شهدوا بأعينهم التدين الشديد والبسيط، وعايشوا سلامة المجتمع المسلم من الأمراض التي يعاني منها الغرب جراء سطوة المادية عليه، فكان هذا عنصراً عاملاً في تحقيق ميل بعضهم إلى الإسلام، حتى قبل أن تعمق الدراسة هذا الميل فيثمرا اعتناقاً للإسلام.

تقول المسلمة الإيطالية مارتينا مايكل أنجلو: «بدأ تأثري بالإسلام عندما رأيت جماعة تتجه إلى مسجد صغير، وتخلع أحذيتها عند بابه.. وتصلي في صفوف خاشعة متواضعة، فكانت نفسي تحدثني بأن أكون مسلمة.. وفي يوم آخر دخلت المسجد، وتأملت الناس فرأيتهم طيبين أتقياء.. وقد كرهت المظاهر

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٥١).

(٢) المرجع السابق، ص٥١٨.

(٣) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص١٥٨.

المادية.. وأصابني السأم من الزخرفة والطلاء.. لقد وجدت في الإسلام المنطق والعقل»[١].

٣ ـ الصعود السياسي والاقتصادي للعالم العربي بعد حركة الاستقلالات، ثم تأثير الحروب العربية الإسرائيلية، مما جعل الغربيين يهتمون بمحاولة معرفة الأصول الدينية للإسلام، وقد نتج عن ذلك حركة إعلامية حركت حب الإطلاع عند عدد من الناس، ودفعتهم دراستهم للإسلام وزياراتهم لبلدانه بعد ذلك إلى اعتناقه.

٤ ـ ويعتبر أهم عامل في إسلام جملة من المستشرقين هو حركة الاستشراق ذاتها، التي تولد عنها نشاط علمي في التراث الإسلامي لم يسبق له مثيل. فقد كثر عدد المؤلفات التي تعالج الإسلاميات في القرن العشرين كثرة ملفتة، وكان ذلك باباً دخل منه الباحثون عن الحقيقة إلى الدراسات الإسلامية، ولم يتوقف هؤلاء عندما مؤلف استشراقي واحد، بل كانت مطالعاتهم متنوعة فقربتهم تدريجياً من التصور الإسلامي الصحيح الذي وجدوا فيه ضالتهم. وجدير بالملاحظة الدور البالغ الذي لعبه المستشرقون المسلمون والمتعاطفون مع الإسلام في تصحيح المفاهيم الغربية عن المسلمين بصفة عامة، والتعريف الجيد بالعقيدة الإسلامية الصحيحة. وقد خدم هذا الإسلام؛ لأنه أعطى الفرصة للباحثين عن الحقيقة للتعرف عليه، والمقارنة بينه وبين العقائد اليهودية والمسيحية وركام الفلسفات المادية والإلحادية[٢].

وسيتناول البحث ـ بالتفصيل ـ نموذجين من المستشرقين المسلمين وأسباب اعتناقهم للإسلام وجهودهم الفكرية في خدمة الإسلام والتعريف بنبيه محمد ﷺ، وذلك على النحو التالي:

١ ـ نصر الدين دينيه (ألفونس إيتيان دينيه) (١٨٦١ ـ ١٩٢٩م):

ولد الرسام العالمي الفرنسي ألفونس إيتيان دينيه في باريس عام ١٨٦١م لأبويين كاثوليكيين، وعلى مر الزمن أخذ يظهر عليه شعور بعدم الاطمئنان والحيرة الدينية، وبعد بحث عميق في سر قلقه وأصول وفروع اعتقاده، اقتنع

---

(١) المستشرقون ليسوا سواء: أحمد محمد جمال، مقالة في مجلة المنهل، عدد ٤٧١، ص٢٣٠.
(٢) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص١٦٠ وما بعدها.

بالإسلام، فأعلن رسمياً إسلامه سنة ١٩١٣م بالجامع الجديد في مدينة الجزائر، وتسمى بنصر الدين، وطلب أن يدفن في قبره مسلماً بمدينة (بو سعادة) بالجزائر، وقد نقل جثمانه من باريس، حيث توفي في ديسمبر سنة ١٩٢٩م[١].

وقبل هذا كله كان على نصر الدين دينيه أن يسلك منهجاً لتحقيق هدفه المتمثل في الاطمئنان إلى عقيدة دينية، وقد تمثل ذلك في إلزام نفسه بالبحث العلمي الصارم، الذي ابتدأه بدراسة المسيحية من حيث صحة مصادرها وعقيدتها، وقد انتهى به البحث إلى أن الإنجيل الذي أوحى به الله تعالى إلى عبده عيسى ﷺ، قد ضاع أو باد أو أبيد، أما العقيدة الكاثوليكية المنبثقة عن المجامع الكنسية والأناجيل المحرفة فإنها لا تتحمل المناقشة العلمية، حيث أظهرت الأدلة التي استخدمها في دراسته أنها مليئة «بأغلاط واضحة»[٢].

وقد اتجه نصر الدين إلى العقل لعله يهديه إلى الحق فلم يقده إلى شيء يقارب هدوء نفس المتدين «وتلفَّت حوله ونظر: ماذا فعل أمثاله ممن شكّوا في المسيحية وشكّوا في العقل؟ فرأى أن نفراً من النصارى.. قد دانوا بالإسلام.. ويكثر عددهم على مر الأيام.. ورأى أن هؤلاء المسلمين الجدد من خاصة الناس ومثقفيهم وعلمائهم، كما أن إخلاصهم في ذلك لا شك فيه لأنهم أبعد ما يكونون عن الأغراض المادية»[٣].

اقترب دينيه من الإسلام بشكل ملحوظ عندما انتقل إلى الجزائر، حيث عاش مع المسلمين في البلدة التي استقر بها؛ أي: بوسعادة بالجنوب الجزائري، وقد عاشر أهلها فرأى فيهم ما يراه كل عاقل من بساطة وهدوء، وسألهم عن دينهم، ثم فكر وتأمل في الإسلام فشدته مبادئه إليه، وكان أولها أن عقيدتهم «لا تقف عقبة في سبيل التفكير، فقد يكون الإنسان صحيح الإسلام، وفي الوقت نفسه حر التفكير، كما أن الإسلام صلح، منذ نشأته، لجميع الشعوب والأجناس فهو صالح كذلك لجميع أنواع العقليات»[٤].

---

(١) محمد رسول الله: نصر الدين (دينيه) وسليمان بن إبراهيم، مقدمة الشيخ عبد الحليم محمود، ص٨ ـ ٩، وانظر: المستشرقون: للعقيقي (١/٢٢٨).
(٢) المرجع السابق، ص١٢.
(٣) المرجع السابق، ص١٢ ـ ١٤.
(٤) المرجع السابق، ص١٥ نقلاً عن كتابه: أشعة خاصة بنور الإسلام.

وكانت المرحلة التالية في بحثه عن الدين هو عقده المقارنات بين الإسلام والمسيحية في موضوعات تتعلق بالألوهية والصلاة والتسامح والعلم.. وانتهى من المقارنة إلى أن أعلن إسلامه[١].

وجدير بالتنبيه أن أسباب إسلام دينيه كانت كثيرة، ولكن أهمها على الإطلاق ـ فيما يظهر ـ كانت موافقة أصول الدين الخاتم لمبادئ العقل، أو عدم مجافاتها له على الأقل، وحالة (دينيه) هنا تصلح مثالاً على أن الطابع العقلي الموجود في القرآن الكريم كان من أشد العوامل الفاعلة في إسلام الأوروبيين، وذلك بعد انتفاء العناصر التي كانت تمنعهم في السابق من التوقف عند حد الإعجاب به فقط، كما في حالة التأليهين الإنجليز. وقد كان نصر الدين من هؤلاء الأوروبيين الجدد الذين دخلوا الإسلام من باب عقلانيته، قبل أن يتعمقوا في دراسته فيعلموا أن أثر مبادئه يصل إلى كل بعد في الإنسان، وقد قرر دينيه ذلك فقال: «إن تأثير الإسلام على النفس يسمها بطابع لا يمحى»[٢].

وقد انتقلت قناعات دينيه الدينية إلى أرض الواقع، فعاش حياته الإسلامية ينافح عن عقيدته وعن الوجود الإسلامي، وألف لأجل ذلك جملة من الكتب، منها: حياة العرب، السراب، حياة الصحراء، ربيع القلوب، الشرق كما يراه الغرب، أشعة خاصة بنور الإسلام، ومحمد رسول الله، وتعتبر الكتب الثلاثة الأخيرة أهمها حيث عرض فيها فكره وقناعاته الدينية والثقافية والسياسية، وركز جهده في المجال الديني والثقافي على إبراز ما انتهى إليه في دراساته من تحريف وبطلان عقائد النصارى وسلامة نصوص الوحي الإسلامي، وصحة عقائده[٣].

وانصرف في مؤلفاته إلى الرد على افتراءات اليهود والنصارى والملاحدة على الإسلام والمسلمين فكتب يقول: «إن أهل السوء من أهل الكتاب لا ينفكون يهاجموننا بالأباطيل، ويحاربوننا بالمفتريات، وإذا نحن شئنا أن نحصي أكاذيبهم علينا كانت صفحة هي أسود الصفحات في تاريخ التعصب، يشترك (فيها) أعداء الإسلام، قديمهم وحديثهم، سواء منهم العلماء، والرواد، والقساوسة، ورجال

---

(١) المرجع السابق، ص١٧.

(٢) الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي: د. عماد الدين خليل، ص٢٨، نقلاً عن أشعة خاصة بنور الإسلام، نصر الدين (دينيه).

(٣) محمد رسول الله، ص٢٦.

الحكومات، والكُتَّاب أمثال: بيرون، وبلجراف، ومرجليوث، وقسيس كانتربري، والأب لامنس»[١].

وكان أكبر عمل قدمه دينيه فيما يخص دراساته الإسلامية، هو كتابه في السيرة: «محمد رسول الله» الذي اشترك فيه مع أحد الباحثين الجزائريين وهو سليمان بن إبراهيم، وقد اعتمد فيه على ما دوَّنه أصحاب السنن والسير، غير ملتفت إلى آراء المستشرقين، كما يقول: «ولعل في هذه الملاحظة ما يكفي لتنبيه القراء إلى أنهم لن يجدوا في هذا السفر شيئاً من تلك المذاهب الغربية الغالية، التي تعمل على هدم السُّنَّة، والتي شغف بها حباً أولئك المستشرقون المحدثون بما لهم من غرام وشهوة بكل ما هو بدع من الرأي أو غريب»[٢].

ونتيجة لهذا المنهج الذي سلكه دينيه في استبعاد آراء المستشرقين حول السيرة النبوية، فقد ثارت ثائرتهم حيث زعموا أن آراءه تخالف ما انتهى إليه البحث العلمي الحديث، والحقيقة أن دينيه اعتمد هذا المنهج متعمداً، إذ رأى أنه يستحيل أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئاتهم ونزعاتهم المختلفة عند دراساتهم في النبوة الإسلامية، ولذلك كان تحريفهم للسيرة ولحياة الصحابة كبيراً حتى غطى على الحقيقة، وهم «رغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد الحديثة، فإننا نلمس في كتاباتهم محمداً يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلف ألمانياً، ومحمداً يتحدث بالإيطالية، إذا كان الكاتب إيطالياً، وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب»[٣].

وقد أعطى دينيه الكثير من الأمثلة على ما ذكره حيث بيَّن الاختلاف الكبير بين الغربيين في كل المباحث التي عقدوها لحياة النبي ﷺ حتى استحال أمر كتابة السيرة بمثل مناهجهم. ولأجل هذا كتب دينيه في السيرة باعتباره مؤمناً وباحثاً، فتجاوز كل آراء المستشرقين التي لم تستطع أن تعبر عن الحقيقة، وقرر «أن صورة نبينا الجليلة التي خلفها المنقول الإسلامي تبدو أجل وأسمى، إذا قيست بهذه الصور المصطنعة الضئيلة التي صيغت في ظلال المكاتب بجهد جهيد. ونرجو أن يعرف العلماء ضلالهم، فيكفوا عن النيل من هذه الصروح المعجزة التي رفعها

(١) محمد رسول الله: نصر الدين (دينيه)، مقدمة الشيخ عبد الحليم محمود، ص٢٢ ـ ٢٣.

(٢) محمد رسول الله، ٥٣.

(٣) محمد رسول الله: نصر الدين (دينيه)، ص٢٨.

التاريخ إقراراً بفضل أنبياء العرب وبني إسرائيل والهنود على الإنسانية، فإن أساس هذه الصروح أصلب من أن تخدشه تلك المعاول»(١).

تحدث دينيه في مقدمته عن حدود دراسته ومصادره فقال: «إن حدود هذا السفر لن تسمح لنا بأن نقدم جميع التفاصيل، وجميع النواحي، لحياة حافلة بالعظائم إلى هذا الحد، كما هو الشأن في حياة النبي محمد ﷺ: ولذا نجد لزاماً علينا أن نتخير للعرض أهم الحوادث لكي نعطيها العناية التي نراها ضرورية. وإذن فعملنا هذا إنما هو سلسلة من اللوحات التصويرية، وليس تاريخاً كاملاً نقدمه للقراء. وقد اعتمدنا في استمداد عناصرها على أقدم المؤلفين؛ كابن هشام، وابن سعد، وسواهما؛ ثم على مؤرخ من المحدثين هو: «علي بن برهان الحلبي»، الذي حشد في كتابه المسمى «السيرة الحلبية» مختلف الروايات لأشهر المؤرخين(٢).

والملاحظ أن كتاب دينيه في السيرة لا يختلف من حيث مادته عن المؤلفات الإسلامية الأخرى، ولكنه يتميز عن الكثير منها بالأسلوب الشاعري الذي ألفت به مباحث مثل: معاناة النبي ﷺ ومجاهدته من أجل إعلاء كلمة الله، وتسامحه، وعلو همته، وطيب شمائله عليه الصلاة والسلام(٣).

كما يلحظ القارئ لهذه السيرة خلوها من الأخبار التي تنقل معجزات مادية للنبي ﷺ؛ لأن دينيه رأى في ذلك مخالفة لنصوص القرآن الكريم، وقد كتب في مقدمة سيرته قائلاً: «وقد آثرنا، بالاتفاق مع نصوص القرآن ـ وهو الكتاب الوحيد الذي لم يعارض ولا يقبل المعارضة ـ وبالاتفاق مع علماء الصدر الأول، ومع أصحاب الفكر الحر من المعاصرين كالشيخ محمد عبده. . أن نضرب صفحاً عن جميع الخوارق التي نسبت للنبي العربي بعد زمن طويل من وفاته، والتي يبدو أن في نسبتها إليه ما يسلبه سيماء الحقيقة، والحق أننا نرى أن محمداً هو الوحيد (من بين الأنبياء) الذي استطاع أن يستغنى عن مدد الخوارق والمعجزات المادية، معتمداً فقط على بداهة رسالته ووضوحها، وعلى بلاغة القرآن الإلٰهية»(٤).

---

(١) المرجع السابق، ص٥٧.
(٢) المرجع السابق، ص٥٣.
(٣) المرجع السابق، ص٥٢.
(٤) المرجع السابق، ص٥٤ ـ ٥٥.

ورغم أن هذا التعليل الذي ذكره دينيه في إضرابه عن مثل هذا النوع من أحداث السيرة يعد غير كاف في مقابل النصوص والأحداث التاريخية المتواترة المثبتة لمثل هذه المعجزات إلا أن موقف دينيه المبدئي من الإسلام باعتباره دين العقل بالإضافة إلى تأثره بالمنهج العقلي الذي سلكه بعض دعاة الإسلام المعاصرين له كالشيخ محمد عبده من الممكن أن يكون قد دفعه إلى هذا الموقف، ولهذا فقد اعتمد دينيه على الفهم اللغوي (البسيط) لما جاء في القرآن الكريم من آيات عملت الآثار على وضع أخبار تؤولها تأويلاً مادياً، ومن ذلك أنه أورد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١]، ثم أتبعه بذكر الروايات المعروفة في شق صدره عليه الصلاة والسلام، ثم قال: «وهذه القصة؛ ككل القصص التي من نوعها والتي يجدها القارئ أثناء قراءته لهذا الكتاب، يجب أن تؤول تأويلاً رمزياً، والقصة التي نحن بصددها تعني أن الله تعالى شرح صدر محمد إلى الفرح بحقيقة التوحيد، إذ أزال عنه منذ الطفولة وزر الوثنية»[(١)].

وهكذا فقد ظهر المنهج العقلي المادي لدى دينيه جلياً في مسألة تأويل المعجزات أو دلائل النبوة المحمدية، وهو الأمر الذي اشترك فيه جمع من المستشرقين المسلمين ـ كما هو الحال عند محمد أسد ـ ربما بسبب لوثة المادية الغربية، والتي لم يستطع بعض المستشرقين المسلمين التخلص منها رغم دخولهم في الإسلام وإعلانهم الإيمان بكل ما جاء فيه.

٢ ـ محمد أسد (ليوبولد فايس) (١٩٠٠ ـ ١٩٩٢م)[(٢)]:

تعتبر قصة المستشرق النمساوي ليوبولد فايس مع الإسلام أنموذجاً فريداً لتغلغل العقيدة الإسلامية في قلوب بعض الغربيين، بشكل غير مقصود بمجرد معايشتهم للمسلمين، يقول محمد أسد في كتابه «الطريق إلى الإسلام»: «إن القصة التي أنا بسبيل روايتها في هذا الكتاب ليست تاريخاً لحياة رجل اشتهر بدور لعبه في الشؤون العامة، وليست كذلك سرداً لمغامرة قام بها... وأذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إنها ليست حتى رواية بحث جازم متعمد عن الإيمان؛ لأن ذلك الإيمان قد عمر نفسي، خلال السنين، دونما أية محاولة من

---

(١) المرجع السابق، ص٧٧. وانظر: نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص١٦٢ ـ ١٦٦.

(٢) انظر ترجمته في: المستشرقون: العقيقي (٢/ ٢٩١).

قبلي لإيجاده»[١].

وقد كان أمر إسلام محمد أسد كما وصف فعلاً، إذ انتقل إلى الشرق الأوسط من أجل العمل، وظل مراسلاً للصحف الأوروبية مدة طويلة بقي فيها على دينه، وقد تعامل هناك مع جماهير المسلمين، كما كانت له فرصة فريدة للتعامل مع رجالات الشرق في العشرينات، ومنهم مؤسس الدولة السعودية المعاصرة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمٰن آل سعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فأعجب كثيراً بما شاهد من سمو في الأخلاق الإسلامية، وبساطة في العقيدة وصدق فيها، وتواضع لرجال الشرق وعلو هممهم، فأعلن إسلامه في عام ١٩٢٦م[٢].

ومعنى هذا أن أسباب ودوافع رسوخ العقيدة الإسلامية في نفسه لم تتأت له عن بحث مقصود في كتابات المسلمين، ولا دراسة متعمدة في عقائدهم وإنتاجهم الفكري، كما هو الحال بالنسبة لمعظم الغربيين المعاصرين الذين اعتنقوا الإسلام بعد بحث حثيث عن الخلاص الروحي، وقد عملت دراسته لأصوله وثقافته على زيادة علمه بعقيدته وفقهه وتاريخه، ولذلك التزم بمفهوم المسلمين، وانبرى يشرح العقيدة الإسلامية وتاريخ الإسلام لمواطنيه في الغرب، كما ظل طيلة حياته يدافع عن مصالح المسلمين بقلمه وعلاقاته، خصوصاً وقد تولى منصباً سامياً في الحكومة الباكستانية حالما أعلنت هذه الدولة الفتية تأسيسها سنة ١٩٤٩م، فكان ممثلها في الأمم المتحدة مدة طويلة من الزمن.

وقد ركزت كتابات محمد أسد الأولى على العلاقات الفكرية والتاريخية بين عالم الإسلام والعالم الغربي، وفضح الظلم التاريخي الذي تعرض له وجود المسلمين بفعل الحروب الصليبية وحركة الاستعمار الحديث، وكشف ما تعرض له دينهم وثقافتهم من تحريف وتشويه على يد المبشرين، إضافة إلى تحليله لنقائض المواقف المتعالية للغرب المعاصر، وتأثير ذلك على علاقاته بالمسلمين، كما يقول: «ولكن عندما أظهر نشاطي في الأمم المتحدة أنني لم أكن موظفاً فحسب، بل رجلاً منسجماً تمام الانسجام عاطفياً وعقلياً مع الأهداف والغايات السياسية والثقافية للعالم الإسلامي بوجه عام، استولى عليهم الدهش إلى حد

---

(١) الطريق إلى الإسلام، محمد أسد، ص١٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٣.

ما.. وقد بدا هذا غريباً جداً لمعظم أصدقائي الغربيين؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يتصوروا كيف أن رجلاً غربي المولد استطاع أن يثبت شخصيته إثباتاً كاملاً، ودونما أدنى تحفظ عقلي في العالم الإسلامي، وكيف إنه كان في وسعه أن يستبدل بتراثه الغربي التراث الإسلامي، وكيف استطاع قبول إيديولوجية دينية واجتماعية كانت في اعتقادهم أحط كثيراً من جميع المفاهيم والمعتقدات الأوروبية»[١].

وقد أبرز أسد سبب هذا الإحساس الغربي بالتفوق على حضارات العالم فقال: «ولقد ساءلت نفسي: لماذا يفرض أصدقائي الغربيون ذلك..؟ هل أزعج أحدهم نفسه حقاً بدراسة الإسلام دراسة واعية مباشرة؟ أم هل كانت آراؤهم تقوم فقط على قبضة (الكليشيهات) والأفكار المشوشة التي انحدرت إليهم من الأجيال السابقة؟ وهل يمكن أن تكون طريق التفكير اليونانية الرومانية القديمة التي قسمت العالم إلى يونانيين ورومانيين من جهة، وبرابرة من جهة أخرى لا تزال مكينة في الفكر الغربي إلى درجة أنها لم تستطع أن تقبل، ولو نظرياً، بالقيم الإيجابية لأي شيء خارج مدارها الثقافي الخاص»[٢].

وقد وجد محمد أسد في تاريخ العلاقات بين الإسلام والمسيحية، وخصوصاً تجربة الحروب الصليبية جواباً على أسئلته، ومعنى ذلك أن الخوف من عالم الإسلام ووراثة أخطاء المسيحيين الأوائل هو السبب الجوهري في النفور من الإسلام، كما يقول: «ولكي نجد تفسيراً مقنعاً بحق هذا التعصب علينا أن نعود إلى الماضي البعيد، وأن نحاول تفهم الأساس السيكولوجي لأقدم العلاقات بين العالمين الغربي والإسلامي. إن ما يفكرون فيه ويشعرون به نحو الإسلام اليوم متأصل في انفعالات وتأثيرات، إنما ولدت إبان الحروب الصليبية»[٣].

والملاحظ أن محمد أسد قد حصر الاستشراق في زمن محدد هو إنتاجه إبان الحرب الصليبية، ولذلك لم ير أي بادرة لتغيره، وتجاوز عن كل ملامحه بعد ذلك بدءاً من عصر التنوير، كما لم ير أن هناك قوى جديدة دخلت مجال التأثير

---

(١) المرجع السابق، ص١٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٤ ـ ١٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٧.

في علاقات العالمين، وأن هناك انفتاحاً غربياً على الإسلام من أبسط أدلته إسلامه هو شخصياً، وانتقاله روحياً ـ وهو الرجل الغربي ـ وثقافياً ووجودياً إلى الشرق، لم ير أسد كل هذا؛ ولذلك ظل مصراً على أن الدين ما زال محور الخلاف والصراع بين الغرب وعالم الإسلام، كما ظل متوقفاً عند الحروب الصليبية باعتبارها السبب الأساس لتشكيل صورة الإسلام في الغرب[١]، كما يقول: «لقد أعطت تجربة الحروب الصليبية أوروبا وعيها الثقافي وكذلك وهبتها وحدتها.. ولكن هذه التجربة نفسها كان مقضيّاً عليها أن تهيئ اللون المزيف الذي كان على الإسلام أن يبدو لأعين الغربيين؛ لأنه إذا كان لدعوة إلى حرب صليبية أن تحتفظ بصحتها، فقد كان من الواجب والضروري أن يوسم نبي المسلمين بعدو المسيح، وأن يصور دينه بأكلح العبارات»[٢].

وقد شارك محمد أسد في حركة البحث العلمي في الفكر الإسلامي، حيث ترك عدة كتب ترجم بعضها إلى العربية وهي: «الطريق إلى مكة» أو«الطريق إلى الإسلام»، و«الإسلام في مفترق الطرق»، و«منهاج الحكم في الإسلام»، وبعضها الآخر لم يترجم بعد، وهي ترجمته الإنجليزية للقرآن الكريم، واسمها: «The Message of the Quran»[٣] «رسالة القرآن»، وترجمته لقسم من «صحيح البخاري» سنة ١٩٣٨م، بعنوان: «Sahih al-Bukhari-The Early Years of Islam»، «صحيح البخاري، والسنوات الأولى من الإسلام»، وبقية سيرته الذاتية، وعنوانها: «Coming Home of the Heart» «العودة للوطن في القلب».

والذين يعرفون أسد في العالم العربى إنما يعرفونه في الغالب من خلال كتبه المترجمة إلى العربية، وهذه الكتب ليس فيها تقريباً ما يمكن الاختلاف معه

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص١٦٨.
(٢) المرجع السابق، ص١٨ ـ ١٩.
(٣) صدرت ترجمة محمد أسد للقرآن الكريم كاملة إلى اللغة الإنجليزية عام ١٩٨٠م (عن دار الأندلس بجبل طارق)، وكانت قد ظهرت طبعة محدودة لجزءٍ منها يضم السُّوَر التسع الأولى فقط قبل ذلك بستة عشر عاماً. وهذه الترجمة الكاملة تقع في ألف صفحة من الصفحات الكبار، ويشغل الجزءَ العلويَّ من كل صفحةٍ فيها النصُّ القرآنيُّ العربيُّ في الناحية اليمنى، وترجمتُه الإنجليزية على اليسار، أما الجزء السفلي فيضم الهوامش التفسيرية والتعليقات الفنية الخاصة بعملية الترجمة... إلخ. وفي بداية كل سورة يطالع القارئ تمهيداً يتحدث عن تاريخ نزولها والموضوعات التي تتعرض لها وما إلى ذلك. انظر: فكر محمد أسد (ليوبولد فايس) كما لا يعرفه الكثيرون: د. إبراهيم عوض، ص٣.

بسببه، لكن الأمر يختلف بالنسبة لترجمته للقرآن، وإلى حد ما بالنسبة لترجمته لـ«صحيح البخاري». ورغم الجهد الذي بذله أسد في كتبه هذه إلا أنه لم ينج مما نشهده عند عموم العلماء الغربيين الذين دخلوا الإسلام من أخطاء في فهم بعض نصوص الوحي وتأويل بعض الأحكام فيها على نحو بعيد.

يمثل التأويل قَسَمَة بارزة في فكر محمد أسد، حيث لم يقتصر تأويله على مسائل الفقه والتشريع بل تعداه إلى مسائل الاعتقاد والغيبيات، حيث فتح في ترجمته للقرآن باباً للتأويل الرمزي لجملة من النصوص، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

١ ـ يذكر في الهامش رقم ١٠ و١٦ من هوامش ترجمته لسورة «الأعراف» أن قصة آدم وعصيان إبليس للأمر الإلٰهي بالسجود له هي عنده قصة رمزية للتطورات الروحية والأخلاقية التي طرأت على حياة الجنس البشرى فوق هذه البسيطة، وليست قصة حقيقية حدثت قبلاً لآدم في الجنة[(١)]. وإبليس، عنده أيضاً «ملاك ساقط»، وتمرده تمرد رمزى، وهو بإغوائه البشر إنما يمثل مهمة كونية محددة هي حَفْزهم على ممارسة ما وهبهم الله من إرادة أخلاقية حرة؛ أي: القدرة على الفعل والترك في مجال الأخلاق[(٢)]. كما يفسر الشياطين بأنها تعبيرٌ استعاري عن الرغبات البشرية الشريرة المضادة لمصالح البشر الروحية[(٣)].

٢ ـ وفي تأويله لبعض الآيات المتعلقة بالملائكة يرى أسد أن أمر الله لملائكته بالسجود لآدم عليه السلام معناه أن البشر متفوقون عليهم بالتفكير التصورى والقدرة ومن ثَمَّ على التمييز بين الصواب والخطأ[(٤)]. وفي أجنحة الملائكة المذكورة في الآية الأولى من سورة «فاطر» يرى أسد فيها رمزاً يدل على السرعة والقوة التي يتنزل بها الوحى على الأنبياء[(٥)]. ويفسر المقصود بالتسعة عشر في قوله تعالى من سورة المدثر: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ [المدثر: ٢٦ ـ ٣٠]، بقوله: «عليها تسعة

---

(١) انظر: الهامشين المذكورين في ص٢٠٤، ٢٠٥ من ترجمته للقرآن الكريم نقلاً عن: كتاب فكر محمد أسد، ص٤٠.

(٢) ترجمة القرآن الكريم: محمد أسد، انظر: ص٥ هامش ١٠، وص٩/ هـ٢٦، وص١٧٧/ هـ٣٤، وص٢٠٤/ هـ١٠، وص٣٨٦/ هـ٣١.

(٣) انظر: ص٢٠٦/ هـ٢٠، وص٣٧٥ ـ ٣٧٦/ هـ٣١، ٣٣، وص٣٨٤/ هـ١٦.

(٤) ص٤٤/ هـ٥٢.

(٥) ص٦٦٦/ هـ١.

عشر قوة»، ثم علق قائلاً: إن هذه القوى «التسعة عشر» قوًى ملائكية لأن الإنسان يميز بها بين الخير والشر[١].

٣ ـ وعلى أساس من التأويل أيضاً نرى أسد يتناول الجنة والنار وما فيهما من نعيم وعذاب، فهو يؤكد أن أوصاف الجنة من أكل وشرب ولبس، وكذلك كلّ ما يتعلق باليوم الآخر في القرآن، إنما هي تعبيرات رمزية لتقريب هذه الأمور، ولا يصح فهمها على ظاهرها بأية حال[٢]: فـ«اتكاء أهل الجنة على فُرُشٍ بطائنها من إستبرق كما جاء في الآية ٥٤ من سورة «الرحمٰن» معناه عنده الراحة التامة والسلام الشامل لا أكثر[٣]، و«الرحيق المختوم» المذكور في الآية ٢٥ من سورة «المطففين» مجرد إشارة رمزية لمشاعر البهجة الأخروية المركزة التي لا تخطر على قلب بشر[٤]، و«ضحك الذين آمنوا في الجَنّة من الكفار» في نفس السورة هو مجرد معنى مجازى يشير إلى سعادتهم بحظهم الطيب لأن مثل ذلك الضحك مما لا يليق بالمؤمنين[٥]، و«أنكال» سورة «المدثر» التي أعدها الله يوم القيامة لأهل الجحيم ليست سوى رمز على بقاء النفس في العالم الآخر مقيدة بمتعها وشهواتها الجسدية، ومن ثَمَّ لا تستطيع بلوغ عالم الروح والصفاء[٦]، و«ضَرِيع» سورة «الغاشية»، وهو فيها طعام أهل النار، إنما هو مشتق من «الضراعة»، وليس إلا تعبيراً مجازياً[٧]... وهكذا.

ومع ذلك كله فإن أسد في ترجمته لـ«صحيح البخاري» لم يحاول، في الأحاديث التي ورد فيها ذكر شيء من نعيم الجنة أو الجن، تأويل هذه المعاني[٨].

لقد ذكر مثلاً الحديث الذي يقول فيه النبي ﷺ: «**بينما أنا نائم رأيتُني في الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقالوا:**

---

(١) ص٩٠٩/ هـ١٦.
(٢) انظر: ص٤٤٤/ هـ٤١، وص٦٨٦/ هـ٢٣، وص٩٧٢/ هـ٣.
(٣) ص٨٢٧/ هـ٢٦.
(٤) ص٩٣٨/ هـ٨.
(٥) ص٩٣٩/ هـ١٤.
(٦) انظر: ص٩٠٤/ هـ٧.
(٧) ص٩٤٨/ هـ٢.
(٨) فكر محمد أسد، ص٥٣.

لعمر...» إلخ[١] كما هو دون أدنى تغيير، كما أنه لم يعلق عليه في الهامش بما يخرجه عن معناه الظاهرى[٢]. ومثل ذلك ترجمته لكلمة «الجِنّ» بـ«Jinn» دون أن يستبدل بها شيئاً آخر أو يجنح إلى تأويلها في الهامش بما يخرجها عن معناها المعروف.

بل إنه في الحديث الذي وردت فيه إشارة إلى أن العظم والروث هما من طعام الجن لم يعلق ولو بكلمة واحدة تَصْرِف المعنى عن ظاهره[٣]. ليس ذلك فقط، بل نراه في موضع آخر من هذا الكتاب يحمل على الاتجاه العصرى الذي ينكر وجود الجن وما أشبهه استناداً إلى عدم إدراك الحواس لمثل هذه الأشياء، ثم يستشهد بكلام للفيلسوف برادلي يقرر فيه أن عجزنا عن إدراك شيء ما لا يصلح متكأً البتةَ لإنكار وجوده[٤]. كذلك فهو لا يستبعد أن يكون نداء إبليس للرسول عليه الصلاة والسلام أثناء المعراج نداء حقيقياً جسدياً[٥].

إلا أنه للأسف يفسِّر العذاب الذي ذكرت بعض الأحاديث أن أبا طالب سوف يُعَذَّبه في الآخرة، وهو غليان دماغه من ضحضاح النار الذي سيبلغ كعبيه[٦]، بأنه رمز على أن معاناته ستكون معاناة عقلية بسبب تأكده أن ابن أخيه نبي صادق وأن دينه هو الدين الصحيح، ثم عدم إيمانه به رغم ذلك[٧]. ولا شك أن القول بالرمز هنا هو تأويل للعذاب الذي ورد في الحديث النبوي الكريم، وأغلب الظن كذلك أن أسد ينظر إلى ألوان العقوبات التي شاهدها الرسول ﷺ في رحلة المعراج على أنها عقوبات غير جسدية، إذ اتخذها دليلاً على أن هذا

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة (١١٧/٤) حديث رقم (٣٢٤٢).

(٢) ص٤٠ من ترجمته لصحيح البخاري، نقلاً عن كتاب فكر محمد أسد، ص٥٣. وانظر كذلك: الحديث الذي يتحدث عن بيت القصب الذي سيكون لخديجة رضي الله عنها في الجنة، ص١٢٩ ـ ١٣٠ من ترجمته.

(٣) ص١٦٣ ـ ١٦٤.

(٤) ص١٦٣/ هـ٣.

(٥) ص١٨٥. وفكر محمد أسد، ص٥٣.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب (٥٢/٥) حديث رقم (٣٨٨٣). وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب وتخفيف العذاب بسببه، حديث رقم (٢٠٩).

(٧) ص١٨٤/ هـ٢.

المعراج وكذلك الإسراء كان بالروح لا بالجسد[١].

٤ ـ واستمراراً لمنهج التأويل الذي سلكه أسد في ترجمته للقرآن فقد قام بتأويل نصوص المعجزات الواردة في النصوص بحق عدد من الأنبياء عليهم السلام، نشير فيما يلي إلى نماذج منها:

أ ـ يرى أسد أن إبراهيم عليه السلام لم يلق في النار، وأن ذلك إشارة رمزية إلى نار الاضطهاد التي كان على إبراهيم عليه السلام أن يقاسيها، والتي ستصبح بعد ذلك، بسبب عنفوانها، مصدر قوة روحية وسلام باطني له[٢].

ب ـ وبالمثل يصف المؤلف قصة سليمان عليه السلام مع النملة وفهمه لما قالته لزميلاتها من جماعة النمل بأنها قصة خرافية قصد بها الإشارة إلى إعجاب سليمان بعالم الطبيعة وفهمه له وعطفه على أحقر مخلوقات الله شأناً. كما يرى أن قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد مجرد مثل ضربه الله ليبين لنا أن سليمان نفسه بكل حكمته يمكن أن يجهل بعض الأشياء، وهو من شأنه أن يحذرنا من فتنة الغرور التي تصيب البشر، والعلماء منهم بوجه خاص[٣]. وعلى هذا المنوال يقول مترجمنا عن قصة يونس عليه السلام والتقام الحوت له كما وردت في سورة «الصافات» فهي ـ حسب ما يقول ـ حكاية خرافية ذات دلالة رمزية، وبطن الحوت عنده إشارة إلى العناء الروحي الذي كان يرزح تحته يونس عندما فر من أداء رسالته، واليقطينة استعارة قصد بها الإيماء إلى رحمة الله له وعودته إلى طريق النور والحياة الروحية كرة أخرى[٤].

ج ـ ولم تكن معجزات عيسى عليه السلام بمعزل عن منهج التأويل الذي سلكه أسد، فهو يرى أن كلام عيسى في المهد إنما هو إشارة للحكمة النبوية التي كانت تلهم عيسى منذ وقت جد مبكر ويؤول أسد في هذا السبيل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠﴾ [مريم: ٣٠]، بأن المراد أن الله سيؤتيني الكتاب وسيجعلني نبياً في المستقبل. وفي خلق عيسى عليه السلام من الطين طيراً بإذن الله يرى أنه عبارة عن الحظ أو المصير؛ لأن «الطائر» أو «الطير» قد تكرر

---

(١) ص١٨٥.

(٢) ص٤٩٥ ـ ٤٩٦/هـ٦٤ في التعليق على الآية ٦٨ من سورة الأنبياء.

(٣) فكر محمد أسد، ص٢٩.

(٤) المرجع السابق، ص٣٠.

مجيئهما في القرآن بهذا المعنى، وبناء على هذا التأويل يكون معنى الآية أن عيسى عليه السلام أراد بأسلوبه المعروف أن يضرب لبني إسرائيل مثلاً يبين لهم فيه أنه من طين حياتهم الحقير، سوف يشكل لهم رؤيا مصير يحلق عالياً في أجواء الفضاء، وأن هذه الرؤيا التي سوف تتحقق على أرض الواقع بإلهام من ربه ستكون مصيرهم الحقيقي بإذن الله وبقوة إيمانهم. وعلى ذات النهج يمضي أسد مفسراً معجزة إحياء الموتى التي عضد الله بها أيضاً عيسى عليه السلام بأن من المحتمل أن يكون المقصود بها بث حياة جديدة في الميتين روحياً. ثم يضيف بأنه إذا صح هذا التفسير ـ وهو صحيح عنده ـ فحينئذ يكون لإبراء الأكمه والأبرص نفس المعنى، ألا وهو بث الحياة الباطنية من جديد في مرضى الروح الذين لا يستطيعون إبصار الحقيقة[١].

د ـ أما بالنسبة لمعجزات موسى عليه السلام فقد استعمل لها أسد لفظ «المعجزة» ـ بخلاف معجزات الرسل السابقة ـ ثم أضاف لها معنى رمزياً صوفياً. فهو يقول عن معجزة العصا التي ألقاها عليه السلام: «إن التحول الإعجازي لعصا موسى إلى ثعبان له، فيما أعتقد، مغزى صوفي، إذ يبدو أنه إشارة إلى الفارق الجوهري بين المظهر الخارجي والحقيقة، ومن ثم فهو إشارة إلى البصيرة الروحية التي يدرك الإنسان بها هذا التميز الذي يختص الله به عباده المصطفين»[٢]. ويمضي أسد فيسمي انفلاق البحر معجزة لكنه يذكر لها تعليلاً علمياً فيقول: «إن ذلك الموضع لم يكن في ذلك الزمان البعيد بالعمق الذي هو عليه اليوم، وربما كان يشبه من بعض الجوانب ذلك الجزء الضحل من بحر الشمال... الذي يترك أعماقها الرملية صالحة للعبور مؤقتاً، والذي يعقبه مد عنيف مفاجئ يغمرها تماماً»[٣].

ورغم موقف أسد الذي سلك فيه منهج التاويل المنحرف في صرف دلائل النبوة للأنبياء عليهم السلام عن معانيها الصحيحة اللغوية والشرعية فإنه في ترجمته لـ«صحيح البخاري» والتي صدرت قبل ترجمته للقرآن الكريم بعشرات السنين نجده ترجم كلمة «آية» بـ: «a miracle»؛ أي: معجزة، وذلك في حديث: «انشقاق القمر» بل إنه لم يحاول تأويل هذه المعجزة بما يخرجها عن إعجازيتها

(١) المرجع السابق، ص٣٠.

(٢) المرجع السابق، ص٣٣.

(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

كما فعل في تفسيره لآيات القرآن[١].

يقول الدكتور إبراهيم عوض في منهج تأويل المعجزات الذي سلكه محمد أسد في ترجمته: «بعض المفسرين في العصر الحديث قد درجوا على تأويل هذه المعجزات بما يخرجها عن إعجازيتها ويلحقها بالحوادث المعتادة التي تخضع لقوانين الطبيعة المطردة، ومن هؤلاء الأستاذ محمد أسد. وقد سبقه إلى هذه الخطة المفسرون القاديانيون مثل مولاي محمد علي وملك غلام فريد في ترجمتيهما التفسيريتين للقرآن الكريم إلى الإنجليزية. ولعل مولاي محمد علي هو الوحيد الذي ورد اسمه في ترجمة محمد أسد من بين المفسرين غير العرب، ولهذا دلالته، وإن كان الحق يوجب أن نقول: إن أسد لا يذهب مذهب القاديانيين في فتح باب النبوة بعد محمد ﷺ، إذ يؤكد أنه هو آخر الأنبياء، فلا نبي بعده»[٢].

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧.

المبحث الثاني

المستشرقون المتعاطفون مع الإسلام

لم تحظ شخصية في التاريخ البشري العريض بمثل ما حظيت به شخصية النبي الكريم محمد ﷺ من الاهتمام والإشادة والتمجيد من كافة الأعراق والشعوب والطوائف والملل، وفي شتى اللغات. وبالرغم من وجود من حاولوا الطعن في نبوة الرسول الكريم، والتشكيك في رسالته بسبب الحقد على الإسلام وإطباق الجهل على أصحابها، والبعد عن الموضوعية العلمية في البحث والتدقيق، فإن التيار العام عند المتأخرين من المستشرقين ظل يسير في ناحية التقدير الحقيقي لشخصية النبي محمد ﷺ وبيان أثره في تاريخ البشرية، وفضل رسالته على الإنسانية، بشكل يتخذ من الإنصاف شعاراً له بعيداً عن الأحقاد الصليبية وتعاليم الكنيسة في القرون الوسطى.

وبالاطلاع على ما قيل في النبي محمد ﷺ من طرف المفكرين والمستشرقين والفلاسفة الغربيين المنصفين نجد أن هؤلاء يمثلون طائفة من كبار مفكري الغرب وأعمدة الفكر والفلسفة فيه، وقد حاولوا الوقوف على جوانب عظمة الرسول الكريم، منبهرين بشخصيته العظيمة، ونبل أخلاقه، وطهارة حياته، وخلوها من كل ما يثلم أخلاقه القرآنية.

والبعض منهم اكتفى بوضع شخصية نبي الإسلام في إطارها الحقيقي الذي يعرفه المسلمون أجمع، دون أن يمس الإسلام ودعوته شغاف قلوبهم، والبعض الآخر ممن ظلوا بعيدين عن الإسلام تعرضوا للشخصية العامة للنبي كواحد من الأبطال والعباقرة الذين أثروا في مسيرة التاريخ، لكن فئة من هؤلاء كان إطلاعهم على خصائص شخصية الرسول ﷺ وفضائلها مدخلاً إلى البحث في الإسلام، ومن ثم إلى إعلان إسلامهم علناً كما تقدم في المستشرقين المسلمين.

إن الباحث حين يقدم نماذج من هؤلاء المستشرقين، وجهودهم في بيان الصورة الحقيقية للنبي الكريم محمد ﷺ، والدين الذي جاء به من عند الله تعالى، فإن ذلك لا يعني مطلقاً أن كل ما جاء به هؤلاء موافق للحق، وذلك أنه قل أن يسلم مستشرق مهما كانت عظمته وتبحره في دراسة الدين الإسلامي، ومعرفة شخصية النبي محمد ﷺ من أخطاء منهجية وعلمية في دراسته تلك.

ولهذا لعل من المناسب أن يقال: إن هذه البحوث والدراسات الاستشراقية هي جهود متعاطفة مع الإسلام، وأصحابها أناس متعاطفون مع هذا الدين العظيم وتعاليمه السمحة ومع شخصية نبيه الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ يصيبون تارة ويخطئون أخرى، ليسوا منصفين على الدوام وليسوا مخطئين كذلك، لكن يوجد لديهم تعاطف واضح على سبيل الإجمال في القضايا الكبرى المتعلقة بهذا الدين. فهم متفقون على فضل هذا الدين ومنزلته وعظم كثير من التشريعات التي جاء بها، وعلى أثر شخصية النبي ﷺ وكمالها الإنساني والأخلاقي، وعظمتها التي أثرت على من كان في زمنه ﷺ والأجيال اللاحقة عليه.

وسيتناول البحث فيما يلي عدة نماذج لهؤلاء المستشرقين مع دراسة لما كتبوه حول شخصية النبي محمد ﷺ، وذلك على النحو التالي:

١ ـ توماس كارليل Thomas carlyl (١٧٩٥ ـ ١٨٨١م):

بينما كان عصر التنوير يرى في النبي ﷺ مشرعاً من خارج الوسط المسيحي، ومن ناحية أخرى خارجاً على القانون، وسافكاً للدماء، إذ خرج صوت قوي على ذلك التقليد عام ١٨٤٠م، وقدم النبي ﷺ في صورة غير مألوفة عند الغربيين، ألا وهو توماس كارليل في كتابه عن: «الأبطال وعبادة البطل والبطولة في التاريخ».

وهو كتاب تضمن ست محاضرات ألقيت في (٥ ـ ٢٢ مارس ١٨٤٠م) حول ستة أنماط ورموز للبطولة في التاريخ[١]:

المحاضرة الأولى: نمط البطولة فيها هو البطل الإله، ورموزها مجموعة من أساطير الآلهة الإسكندنافية أشهرها البطل الإله (أودين).

المحاضرة الثانية: البطل النبي، ورمزها محمد ﷺ.

المحاضرة الثالثة: البطل الشاعر، ورمزها الشاعر الإيطالي دانتي والإنجليزي شكسبير.

المحاضرة الرابعة: البطل القس، ورمزها القس الألماني مارتن لوثر.

المحاضرة الخامسة: البطل الأديب، ورمزها جونسون وروسو وبرنز.

المحاضرة السادسة: البطل ملكاً وحاكماً، ورمزها كرومويل الإنجليزي ونابليون الفرنسي الذي كان معاصراً لكارليل.

وقد قدم توماس كارليل النبي ﷺ لأول مرة في الغرب ليس بوصفه دجالاً كاذباً وسافكاً للدماء، وإنما بوصفه بطلاً نبياً استحق أن يوضع في سلسلة أبطال العالم وعباقرته العظماء، بسبب أعماله التي بوأته تلك المكانة بحسب معايير البطولة والعظمة التي حددها كارليل في ثلاثة معايير:

أولها: الصدق في القول. **والثاني**: الإخلاص في العمل لتحقيق الرسالة والهدف. **والثالث**: مدى تأثير البطل وامتداد إنجازاته وتأثيره المستمر في التاريخ الإنساني.

ولا شك أنها كانت المرة الأولى التي يقرع فيها آذان الغرب صوت يضع محمداً ﷺ في مصاف الأبطال حتى وإن كانت البطولة وفق معايير وضعية، وعلى أسس وقواعد انتقائية: كن حراً، كن صادقاً، كن مخلصاً.

فمعايير البطولة لدى كارليل لا تفرق بين الإلحاد والكفر والإيمان، فيستوي الوثني (أودين) مع المصلح البروتستانتي (مارتن لوثر) مع نبي التوحيد الخالص

---

(١) ترجمه ملخصاً إلى العربية محمد السباعي، بعنوان: «الأبطال». وأما النسخة الأصلية فجاءت تحت عنوان: «الأبطال وعبادة البطل والبطولة في التاريخ»:

Thomas Carlyl, on Heroes, Hero Worship and the Heroic in History, Longman New York 1906.

Z, lecture the Hero as Prophet.

محمد رسول الله ﷺ، إذاً المهم أن يكون البطل مخلصاً لما يعتقده ويعده ديناً أو وظيفة سواء أكان ذلك وثنية أو توحيداً أو تثليثاً أو أدباً أو مُلكاً، ثم يعمل بدأب وجدية على تحقيق ذلك العمل وتلك الوظيفة بحزم لا يلين، عدته في ذلك عقل يعرف به حاجة العصر، وكذلك شجاعة يقهر بها الخوف، وأن يجتاز الصعاب، وينقذ قومه من وهدة البؤس وظلام الجهالة.

وبذلك يكون أولئك الأبطال تبعاً لمعايير كارليل طينة واحدة لا يختلفون إلا في الهيئة التي يكتسونها أو الطريقة التي يستقبلهم بها أهل زمانهم(١).

وقد أسهمت تلك المعايير كذلك من جانب آخر في تأسيس صورة غير أحادية الطابع للنبي ﷺ، فمفردات صورة نبي الإسلام في كتاب أبطال كارليل سواء ما كان منها تقريرياً ساقه المؤلف كبراهين ومؤكدات لمعاييره، أم كان دفاعياً ساقه المؤلف لنفي ما يضاد معايير البطولة بالنسبة إلى محمد ﷺ تلك المفردات تشكل نسقين مختلفين من الآراء:

النسق الأول: الإيجابي:

في إطار هذا النسق أورد كارليل العديد من الآراء الإيجابية أو ذات المردود الإيجابي، وهي:

أ ـ التأكيد على إخلاص النبي ﷺ بما ينفي عنه صفة الدجل التي أشاعها الغرب عنه:

فالنبي ﷺ لدى كارليل راسخ المبدأ، صارم العزم لا يصرفه أحد عن ذلك، ولا يجري وراء أحلام كاذبة، ولا خيالات باطلة، ولا يقنع بأباطيل الأكاذيب، متفرد بنفس عظيمة.

فكان الإخلاص الحر العميق الكبير أول خواصه، وأول خواص الرجل العظيم كيفما كان، والدليل على شدة إخلاصه أفكاره ودعوته التي يسير عليها الملايين الكثيرة من الناس.

فالرسالة التي دعا إليها محمد ظلت سراجاً منيراً طوال اثني عشر قرناً من الزمان، فهل من الممكن أن تكون تلك الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين وماتت، أكذوبة خادعة أو خديعة مخادع؟

---

(١) الأبطال: ترجمة: محمد السباعي، ص٥٣.

وهل عرف التاريخ رجلاً كاذباً استطاع أن يخلق ديناً، ويتعهده بالنشر بهذه الصورة؟

إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبني بيتاً من الطوب! لجهله بخصائص مواد البناء، وإذا بناه فما ذلك الذي يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد، فما بالنا بالذي يبني بيتاً تبقى دعائمه هذه القرون العديدة، وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس؟

وعلى ذلك فمن الخطأ أن يعد محمداً رجلاً متصنعاً متذرعاً بالحيل والوسائل لأجل غاية أو مطمع[١].

ب ـ مدح أخلاق النبي ﷺ:

ربط كارليل بين عظمة أخلاق النبي ﷺ وبين نجاح رسالته، فلولا آيات النبل والفضل التي وجدها العرب الجفاة الغلاظ في محمد ﷺ ما خضعوا لإرادته، ولما انقادوا لمشيئته، ولما قدر على قيادتهم وتوجيههم، ولما قدر على ترويضهم وتذليلهم، ولما استطاع أن ينتزع منهم الاحترام والإجلال والإكبار الذي جعلهم يلتفون حوله؛ يأتمرون بأمره، ويقاتلون بين يديه، ويجاهدون معه.

فقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه، ومأكله، ومشربه، وملبسه وسائر أموره وأحواله، مجتهداً في نشر دعوته، غير طامح إلى رتبة أو دولة أو سلطان.

وكان بريء الطبع من الرياء والتصنع، مستقل الرأي، لا يدعي ما ليس فيه، ولم يكن متكبراً ولا ذليلاً، فهو قائم في ثوبه المرقع يخاطب بقوله الحر المبين أكاسرة العجم وقياصرة الروم، ولم يكن بعابث قط، ولا شاب قوله شائبة من اللغو أو اللهو، ولم يكن التلاعب بالأقوال والعبث بالحقائق من عادته قط[٢].

ج ـ رد شبهة العنف ونشر الإسلام بالسيف:

سلك توماس كارليل في رده هذه الشبهة طريقين[٣]:

أولاهما: طريق البيان والتثبيت لأسلوب الدعوة الحسنة في نشر النبي ﷺ رسالته.

---

(١) المرجع السابق، ص٥٣ ـ ٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص٧٩ ـ ٨٠.

(٣) المرجع السابق، ص٧١ وما بعدها.

فبيَّن أن نية النبي ﷺ وهمَّته كانت قبل عام ٦٢٢ ميلادية أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد بذل في سبيل ذلك كل جهد جهيد، ولكنه وجد الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته ودعوته وعدم الإصغاء إليها، بل عمدوا إلى إسكاته بكل الطرق من تهديد ووعيد واضطهاد، حتى لا ينشر دعوته ويبين رسالته.

وهذا ما دفعه إلى الدفاع عن نفسه والدفاع عن دعوته، ولقد أصاب هذا الرسول في رأيه، فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق والصدق، وأبوا إلا التمادي في الباطل، فاستباحوا الحرمات، ونهبوا الممتلكات، وقتلوا الأنفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق.

الثانية: طريقة التغيير لشبهة القائلين بأن النبي نشر دينه بحد السيف.

فيرى كارليل أن الحق ينشر نفسه بأي طريقة حسبما تقتضيه الحال، فالنصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً، ويكفي ما فعله شارلمان بقبائل السكسون، والمرء لا يحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان، أم بأي طريقة أخرى، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار، ولندعها تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها، فإنها لن تهزم أبداً، ولن يهزم منها إلا ما يستحق أن يهزم، ولا يفني منها إلا ما يستحق الفناء، فالحقائق في حرب لا حكم فيها إلا للحياة التي لا تحترم منها إلا القوي الصحيح.

فحبوب القمح عندما تأخذها إلى باطن الأرض وكثيراً ما تكون مخلوطة بقشور وتبن وقمامة وتراب، فإذا ألقيتها وهي مختلطة بكل هذه الشوائب في جوف الأرض العادلة الباردة فإنها لا تعطيك إلا قمحاً خالصاً نقياً. أما الشوائب والقذى فإنها تبتلعه في سكون وتدفئة في باطنها دون أن تذكر عنه شيئاً.. وما هي إلا فترة حتى نرى القمح نامياً يهتز كأنه سبائك الذهب.

لقد جاء هذا الرسول عبر طريق الرفق والأناة والمنطق فأبوا إلا استرسالاً في الطغيان والاستكبار، وأبوا إلا ضلالاً وفساداً، فلا غرو إذن أن يتدخل السيف ليقول كلمته. ولهذا قضى محمد بقية عمره، وهي عشر سنين أخرى في حرب وجهاد ونضال[1].

---

(١) المرجع السابق، ص٧١ ـ ٧٢.

وليت كارليل كان قد أوضح أن لجوء النبي ﷺ وأتباعه إلى الفتح والغزو لنشر دين الله، لم يكن ذلك مصحوباً باضطهاد أو تعذيب، بل ترك أمر الدخول في الدين الجديد إلى رغبة الناس أنفسهم.

كما أنه لم يكن مصحوباً بالمجازر والأعمال البربرية التي صاحبت حروب الغرب ضد العالم الإسلامي سواء أكانت في نسختها الصليبية في العصور الوسطى أم في نسختها الاستعمارية في العصر الحديث والمعاصر.

د ـ تأثيره المذهل في العرب:

أبرز كارليل تأثير محمد ﷺ في التاريخ ذلك التأثير الواسع والممتد الذي كان أحد معايير اختيار محمد ﷺ ضمن قائمة الأبطال والعظماء.

فقد أخرج النبي ﷺ العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وقام بترسيخ فكرة الوحدانية فيهم، فأحيا أمة هامدة لم تكن إلا فئة جوالة في الصحراء، خاملة فقيرة تجوب الفلوات، ولم يكن أحد منذ بدء التاريخ يسمع لها صوتاً أو يحس منها حركة، فأرسل لها محمد، فإذا بالخمول قد استحال شهرة، والغموض نباهة، والضعف قوة، وإذ بالضوء الخافت قد أضحى نوراً وهاجاً يملأ الأنحاء ويعم الأرجاء.

فاستطاع صوت محمد أن يبعث الطاقة والروح وأن يلهب رمال الصحراء، ويجمع قوى قبائل البدو في رباط متفجر يمتد من دلهي إلى غرناطة، ويظل إشراق النور الذي بعثه ممتداً ومستمراً حقباً عديدة ودهوراً مديدة[١].

النسق الثاني: السلبي:

تتبدى من خلال هذا النسق السلبي من الآراء آثار الموروث الثقافي الغربي سواء أكان بسبب المنهج الجدلي أو كان بسبب النقص المعرفي، وإن كانت النتائج الحاصلة في كلتا الحالتين واحدة، ولا تختلف تلك النتائج عن الموروث الجدلي الغربي سِوى في أناقة العبارة التي صبغت بها آراء كارليل، ولطف الأسلوب وتنميقه.

فمن أهم الآراء التي اشتمل عليها كتاب الأبطال تحت هذا النسق ما يلي:

---

(١) المرجع السابق، ص٨٢ ـ ٨٣.

١ ـ تفسير ظاهرة الوحي:

أكد كارليل صدق النبي ﷺ فيما يقول ويدعو إليه؛ لأنه رجل كبير المكانة ومن المحال أن يكون الكبير كاذباً، إذ لا يكون الكبير كفئاً للقيام بعمل إلا إذا كان الصدق والإخلاص وحب الخير أول بواعثه.

ومن ثم يرى كارليل أنه من العار أن يصغي أي إنسان متمدن إلى وهم القائلين أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً ﷺ لم يكن على حق، ويرى كارليل أن الوقت قد حان لمحاربة مثل هذه الإدعاءات السخيفة المخجلة، فلو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأضحت الحياة سخفاً وعبثاً وكان الأجدر بها ألا توجد[١].

لكن هذا الصدق الذي أثبته كارليل لمحمد ﷺ صدق نوعي مغاير لمفهوم الصدق المتفق عليه بين البشر من جهة المطابقة مع الواقع، فهو يثبت صدق أقوال محمد ﷺ من جهة قناعته الشخصية بها، وانبعاثها من نفسه، واستنادها إلى مصادر الإدراك اليقيني لديه، إلا أن هذه الأقوال لا تجاوز مصداقيتها مجرد المطابقة مع ما في نفس النبي ﷺ وإدراكه، أما من جهة الواقع فهي تخالف الواقع؛ لأنها لا تعدو كونها تمثلات وتخيلات تراءت له نتيجة خلواته التي انقطع فيها للتأمل والمناجاة الصامتة لاستجلاء الأمور وغوامض الأسرار، فكانت الخواطر تتراكم، والأفكار تتزاحم في صدره حتى إذا صادفتها الوقائع، فإن روح محمد ﷺ الحادة النارية التي طفا بها الوجد، ورسبت بها دوامات الفكر كانت إذا تراءت لها بارقة رأي حسبته نوراً هبط عليها من السماء، وكل يقين حل عليه يخاله جبريل ووحيه[٢].

٢ ـ القرآن الكريم:

يرتبط منظور كارليل للقرآن الكريم بجدلية صدق النبي ﷺ مع مخالفة الواقع، فالقرآن الكريم كما يراه كارليل هو جمرات ذاكيات قذفت بها نفس رجل كبير النفس بعد أن أوقدتها الأفكار الطوال في الخلوات الصامتات، فالقرآن الكريم إذن خارج من فؤاد محمد ﷺ وليس وحياً موحي[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص٥٣.
(٢) المرجع السابق، ص٧٥.
(٣) المرجع السابق، ص٧٤.

وبالإضافة إلى ذلك فإن القرآن في رأي كارليل أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة. ولذلك لا عجب أن الأوروبي يجد في قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد لا يزال يقطع في صفحاته قفاراً من القول الممل المتعب، ويحمل على ذهنه هضاباً وحبالاً من الكلم لكي يعثر في خلال ذلك على كلمة مفيدة، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملائمة[(١)].

٣ ـ نفي معجزات النبي ﷺ:

رغم تتبع كارليل لسيرة النبي ﷺ وكذلك مطالعته للقرآن الكريم إلا أن العجيب أنه لم يرصد فيهما أي معجزة سواء أكانت حسية أم معنوية، لذلك جعل جواب النبي ﷺ على كفار مكة عندما سألوه أن يأتي بمعجزة، هو إحالتهم إلى الكون بوصفه معجزة وعلى الأرض بوصفها آية من آيات عظمة الله وصنعه، بما اشتملت عليه من طريق ومسالك ومناكب فيها الطعام وفيها الشراب، وفيها النبات، وفيها الماء وسيلة الحياة، وأحالهم كذلك إلى معجزة الخلق الإنساني الذي وجد من عدم، ثم أصبح في قوة وجمال وعقل، ثم يعتريه الشيب ثم الموت[(٢)].

٤ ـ إلحاق الإسلام بالنصرانية:

ختم كارليل حديثه عن رسالة النبي ﷺ بأنها ما هي إلا ضرب من النصرانية[(٣)]، ورغم أن كارليل يشكك في إمكانية تعلم النبي ﷺ من سرجيوس «بحيرا الراهب» عند رحلته إلى الشام لأنه كان غلاماً، إلا أنه يرى أنه قد يكون قد انطبع في فؤاده وضميره أمور خرجت منها فيما بعد آراء وعقائد ونظرات نافذات[(٤)].

لقد كان كتاب الأبطال لتوماس كارليل أكثر الكتب المؤثرة في موقف الفكر الاستشراقي من النبي محمد ﷺ، إذ ترك بصمة واضحة على النتائج الاستشراقي منذ القرن التاسع عشر حتى يومنا هذا، سواء في نسق الآراء الإيجابي الذي جاء

---

(١) المرجع السابق، ص٧٤.
(٢) المرجع السابق، ص٧٦.
(٣) المرجع السابق، ص٨٢.
(٤) المرجع السابق، ص٦١ ـ ٦٢.

به، إذ لم يعد النبي ﷺ يذكر في أدبيات الاستشراق بعد كارليل بوصفه كذاباً أو دجالاً، بل بوصفه صادقاً في دعواه، عظيماً في شخصيته وتأثيره فيمن حوله، ولم يخالف في ذلك أحد إلا بعض الكتابات القليلة التي تلحق بالفكر الجدلي لأمثال اليسوعي لامنس والمنصر وليم موير.

أما نسق الآراء السلبي فلم يكن أقل تأثيراً في أدبيات الاستشراق خصوصاً فكرة صدق النبي ﷺ في دعواه مع مخالفة ذلك للواقع، تلك الفكرة التي لم يكد ينجو منها أحد بعد كارليل، بل إن نظرية تفسيرية خاصة قد تأسست عليها وهي نظرية «الخداع الشريف» التي قال بها الإنجليزي إدوارد جيبون، وتابعه فيها، الإنجليزي دافيد صموئيل مرجليوث، وكذلك نظرية «الخيال الخلاق» كما عرضها مونتغمري وات[١].

٢ ـ مايكل هارت Michael H. Hart:

ولد المستشرق الأمريكي مايكل هارت سنة ١٩٣٢م، وحصل على شهادة الدكتوراه في الفلك من جامعة برينستون عام ١٩٧٢م. وهو أحد أعضاء الجمعية الفلكية وفروعها في علوم الكواكب، وأحد العلماء المعتمدين في الفيزياء التطبيقية.

نشر مايكل هارت في سنة ١٩٧٨م كتابه الشهير: «المائة: ترتيب للأشخاص الأكثر تأثيراً في التاريخ» the 100: A Ranking of the Most Influential Persons in History.

والكتاب يعتبر علامة فارقة في الدراسات الغربية حول شخصية النبي ﷺ، ومن أكثرها إنصافاً وعدلاً في الحكم على مكانة النبي ﷺ التي يجب أن يتبوأها، فقد وضع هارت النبي ﷺ في المرتبة الأولى ضمن أكثر الشخصيات تأثيراً في التاريخ، وقد كان لهذا الاختيار ما يسوغه كما بيّن ذلك في حديثه عن النبي ﷺ.

لقد أقام مايكل هارت اختياره لشخصياته الخالدة في كتابه على عدة أسس، وهي:

١ ـ أن تكون الشخصية حقيقية، فهناك شخصيات شهيرة وبعيدة الأثر، ولا

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الاستشراقي، ص٨٨.

أحد يعرف إن كانت عاشت أو لم تعش، مثل الحكيم الصيني لاوتسو (القرن الرابع ق.م) لا أحد يعرف هل هو إنسان حقيقي أم أسطورة؟ والشاعر الإغريقي هوميروس (القرن الثامن ق.م) لا أحد يعرف إن كان حقيقة أم لا؟ ولذلك استبعد هارت مثل هذه الأسماء.

٢ ـ أن تكون غير مجهولة، ولهذا فقد استبعد هارت عدداً كبيراً من المجهولين، مثل أول من اخترع النار، وأول من اخترع العجلات، وأول من اخترع الكتابة. ورغم أن هؤلاء لا بد أن يكونوا من العباقرة، وأفعالهم ذات تأثير كبير، ولكننا لا تعرفهم، ولا نعرف إن كان من فعل هذه الأمور واحداً أو أكثر.

٣ ـ كما أن من أسس الاختيار أن يكون الشخص عميق الأثر، سواء أكان هذا الأثر طيباً أو خبيثاً، ولذلك فقد اختار المؤلف ضمن شخصياته الزعيم النازي هتلر لأنه كان عبقرية شريرة عميقة الأثر.

٤ ـ أن تكون الشخصية ذات أثر عالمي، إذ لا يكفي أن يكون الشخص صاحب أثر إقليمي. ولذلك فقد استبعد هارت كل الزعامات السياسية والدينية، والمواهب العلمية التي لها أثر محلي فقط، كما استبعد المؤلف كل الأشخاص الأحياء أياً كانت آثارهم البالغة، فإن أحداً لا يعرف بعد كم تعيش آثارهم على بلادهم أو على الإنسانية، فالمستقبل غيب.

إن اختيار هارت للنبي محمد ﷺ ضمن كتابه لم يأت من فراغ فقد توافرت فيها عدة أمور جعلت هذه الشخصية العظيمة ضمن الشخصيات الخالدة في هذا الكتاب بل وأن تكون الشخصية الأولى فيه.

ونستطيع أن نتبين أسباب هذا الاختيار من كلام هارت نفسه، كما يأتي:

١ ـ نجاحه ﷺ على المستوى الديني والعسكري والسياسي وتأثيره القوي فيمن بعده.

يقول هارت: «لقد اخترت محمداً ﷺ في أول هذه القائمة، ولا بد أن يندهش كثيرون لهذا الاختيار ومعهم حق في ذلك. ولكن محمداً هو الإنسان الوحيد في التاريخ الذي نجح نجاحاً مطلقاً على المستوى الديني والدنيوي.

وهو قد دعا إلى الإسلام ونشره كواحد من أعظم الديانات وأصبح قائداً سياسياً وعسكرياً ودينياً، وبعد ١٣ قرناً من وفاته فإن أثر محمد ﷺ ما يزال

قوياً متجدداً»[١].

٢ ـ تغلبه ﷺ على الظروف الصعبة التي واجهته في سبيل نشر الدعوة.

وقد أشار هارت إلى هذه الصعوبات التي واجهت النبي محمد ﷺ والتي لم تواجه بعض الشخصيات الأخرى في كتابه، ومنها البيئة والمكان الذي عاش فيه، كما يقول: «وأكثر هؤلاء الذين اخترتهم قد ولدوا ونشأوا في مراكز حضارية، ومن شعوب متحضرة سياسياً وفكرياً إلا محمد ﷺ فهو قد ولد سنة ٥٧٠ ميلادية في مدينة مكة جنوب شبه الجزيرة العربية في منطقة متخلفة من العالم القديم بعيدة عن مراكز التجارة والحضارة والفن»[٢].

كما أشار المؤلف إلى الصعوبات التي واجهها النبي ﷺ من جهة النشأة، والتي لا يتغلب عليها إلا صاحب شخصية فذة، فقد «مات أبوه وهو لم يخرج بعد الى الوجود، وأمه وهو في السادسة من عمره، وكانت نشأته في ظروف متواضعة، وكان لا يقرأ ولا يكتب. ولم يتحسن وضعه المادي إلا في الخامسة والعشرين من عمره عندما تزوج أرملة غنية. ولما قارب الأربعين من عمره كانت هناك أدلة كثيرة على أنه ذو شخصية فذة بين الناس»[٣].

ومن ذلك أيضاً أن «البدو من سكان شبه الجزيرة مشهورين بشراستهم في القتال، وكانوا ممزقين أيضاً، رغم أنهم قليلو العدد، ولم تكن لهم قوة أو سطوة العرب في الشمال الذين عاشو على الأرض المزروعة.

ولكن الرسول استطاع لأول مرة في التاريخ، أن يوحد بينهم وأن يملأهم بالإيمان، وأن يهديهم جميعاً بالدعوة إلى الإله الواحد. ولذلك استطاعت جيوش المسلمين الصغيرة المؤمنة أن تقوم بأعظم غزوات عرفتها البشرية، فاتسعت الأرض تحت أقدام المسلمين من شمالي شبه الجزيرة العربية، وشملت الإمبراطورية الفارسية على عهد الساسانيين، وإلى الشمال الغربي اكتسحت بيزنطة والإمبراطورية الرومانية الشرقية[٤].

وقد طرح هارت استفهاماً مفترضاً، وهو: لماذا يكون الرسول محمد في

---

(١) الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله ﷺ: مايكل هارت، ترجمة: أنيس منصور، ص١٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٣ ـ ١٤.

(٣) المرجع السابق، ص١٤.

(٤) المرجع السابق، ص١٥.

رأس هذه القائمة رغم أن عدد المسيحيين ضعف عدد المسلمين؟ ولماذا يكون الرسول محمد هو رقم واحد في هذه القائمة بينما عيسى هو رقم ثلاثة، وموسى هو رقم ستة عشر؟(١).

وقد أجاب المؤلف على ذلك بعدة أمور:

الأول: أن الرسول محمد ﷺ قد كان دوره أخطر وأعظم في نشر الإسلام وتدعيمه وإرساء قواعد شريعته أكثر مما كان لعيسى عليه السلام في الديانة المسيحية. وعلى الرغم من أن عيسى عليه السلام هو المسؤول عن مبادئ الأخلاق في المسيحية، غير أن القديس بولس(٢) هو الذي أرسى أصول الشريعة المسيحية، وهو أيضاً المسؤول عن كتابة الكثير مما جاء في كتب «العهد الجديد»، أما الرسول ﷺ فهو المسؤول الأول والأوحد عن إرساء قواعد الإسلام، وأصول الشريعة، والسلوك الاجتماعي والأخلاقي، وأصول المعاملات بين الناس في حياتهم الدينية والدنيوية(٣).

الثاني: أن القرآن الكريم قد نزل على الرسول ﷺ وحده، وفي القرآن الكريم وجد المسلمون كل ما يحتاجون إليه في دنياهم وآخرتهم. والقرآن الكريم نزل على الرسول ﷺ كاملاً، وسجلت آياته وهو ما يزال حياً، وكان تسجيلاً في منتهى الدقة، فلم يتغير منه حرف واحد.. وليس في المسيحية شيء مثل ذلك. فلا يوجد كتاب واحد محكم دقيق لتعاليم المسيحية يشبه القرآن الكريم. وكان أثر القرآن الكريم على الناس بالغ العمق. ولذلك كان أثر محمد ﷺ على الإسلام أكثر وأعمق من الذي تركه عيسى عليه السلام على الديانة المسيحية(٤).

---

(١) المرجع السابق، ص١٦ ـ ١٧.

(٢) بولس (.. ـ ٦٨م): كان اسمه في اليهودية شاؤول، ويلقبه النصارى بالرسول على الرغم من أنه لم يكن من تلاميذ المسيح، ولم تثبت له رؤية المسيح عليه السلام في حياته، وقد كان بولس في بداية أمره من أشدّ الناس اضطهاداً وتعذيباً لأتباع المسيح عليه السلام، ثم زعم بولس وهو في طريقه إلى دمشق بأن المسيح قد ظهر له يقظة في عمود من نور وذلك بعد رفع المسيح بسبع سنين ـ وأمره باتباعه وتبليغ رسالته إلى الأمم ـ وبذلك أصبح بولس من أكبر الدعاة فأخذ يطوف البلاد وينشأ الكنائس ويلقي الخطب ويكتب الرسائل حتّى قتل في اضطهاد نيرون سنة ٦٧ أو ٦٨م، وتنسب إليه (١٤) رسالة من أسفار العهد الجديد تعتبر مصدراً رئيساً للعقائد والتشريعات النصرانية المحرفة. انظر: سفر أعمال الرسل الأصحاح (٩) وما بعدها، المسيحية نشأتها وتطورها: شارل جنيبر، ص٦٧ ـ ١١١.

(٣) المرجع السابق، ص١٧.

(٤) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

الثالث: على المستوى الديني كان أثر محمد ﷺ قوياً في تاريخ البشرية، وكذلك كان عيسى عليه السلام. ولكن الرسول على خلاف عيسى كان رجلاً دنيوياً، فكان زوجاً وأباً، وكان يعمل في التجارة ويرعى الغنم، وكان يحارب ويصاب في الحروب ويمرض.. ثم مات.

ولما كان الرسول ﷺ قوة جبارة، فيمكن أن يقال أيضاً إنه أعظم زعيم سياسي عرفه التاريخ(١).

الرابع: وإذا استعرضنا التاريخ، فإننا نجد أحداثاً كثيرة تقع دون أبطالها المعروفين، مثلاً: كان من الممكن أن تستقل مستعمرات أمريكا الجنوبية عن إسبانيا دون أن يتزعم حركاتها الاستقلالية رجل مثل سيمون بوليفار(٢).. هذا ممكن جداً، على أن يجيء أي إنسان ويقوم بنفس العمل.

ولكن من المستحيل أن يقال ذلك عن البدو، وعن العرب عموماً وعن إمبراطوريتهم الواسعة، دون أن يكون هناك محمد ﷺ. فلم يعرف العالم كله رجلاً بهذه العظمة قبل ذلك. وما كان من الممكن أن تتحقق كل هذه الانتصارات الباهرة بغير زعامته وهدايته وإيمان الجميع به.

ربما ارتضى بعض المؤرخين أمثلة أخرى من الغزوات الساحقة.. كالتي قام بها المغول في القرن الثالث عشر، والفضل في ذلك يرجع إلى جنكيز خان(٣)، ورغم إن غزوات جنكيز خان كانت أوسع من غزوات المسلمين، فإنها لم تدم طويلاً.. ولذلك كان أقل خطراً وعمقاً.

---

(١) المرجع السابق، ص١٧ ـ ١٨.

(٢) سيمون بوليفار (١٧٨٣ ـ ١٨٣٠م): فنزويلي، أحد زعماء الثورة ضد الحكم الإسباني في أمريكا الجنوبية. ويلقب «بالمحرر». أحرز عام (١٨٢٢م) انتصارات باهرة، وحرر شمال أمريكا الجنوبية (كولومبيا، وفنزويلا، وإكوادور، وبنما) فأصبح الزعيم الأوحد في القارة. اختير رئيساً لجمهورية فنزويلا (١٨١٩م)، ثم صار رئيساً لجمهورية كولومبيا العظمى (كولومبيا، وفنزويلا، وإكوادور، وبنما). حاول إقامة حكومة متحدة لأمريكا الإسبانية لكنه فشل. ثم أعلن نفسه ديكتاتوراً، لكنه استقال لاحقاً ومات بعد قليل، ولكنه اليوم موضع التبجيل بوصفه أعظم بطل أنجبته أمريكا اللاتينية. انظر: الموسوعة العربية، ص٤٤٣.

(٣) جنكيز خان (١١٦٢ ـ ١٢٢٧م): قائد وإمبراطور مغولي. يُعتبر أحد أشهر الغزاة القساة في التاريخ. بسط سلطانه على منغوليا (عام ١٢٠٦م)، وفتَحَ شمال الصين (١٢١١ ـ ١٢١٥م)، ثم احتل مناطق واسعة في آسيا الوسطى والجنوبية وآسيا الصغرى. توفي إثر سقوطه، في الأرجح، عن صهوة جواده، فاقتسم خلفاؤه أمبراطوريته وكانت تمتدّ من الصين إلى البحر الأدرياتي. =

فقد انكمش المغول وعادوا إلي احتلال نفس الرقعة التي كانوا يحتلونها قبل ظهور جنكيز خان، وليست كذلك غزوات المسلمين.. فالعرب يمتدون من العراق إلى المغرب. وهذا الامتداد يحتوي دولاً عربية لم يوحد بينها الإسلام فقط. ولكن وحدت بينها اللغة والتاريخ والحضارة، ومن المؤكد أن إيمان العرب بالقرآن، هذا الإيمان العميق، هو الذي حفظ لهم لغتهم العربية وأنقذها من عشرات اللهجات الغامضة. صحيح أن هناك خلافات بين الدول العربية، وهذا طبيعي، ولكن هذه الخلافات يجب ألا تنسينا الوحدة المتينة بينها[1]. ثم يختم هارت بخلاصة تفضيله لشخصية النبي ﷺ على غيره من مشاهير التاريخ بقوله:

«فهذا الامتزاج بين الدين والدنيا هو الذي جعلني أومن إن محمداً هو أعظم الشخصيات أثراً في تاريخ الإنسانية كلها»[2].

٣ ـ كارين أرمسترونج Karen Armstrong:

في عام ١٩٩٢م أصدرت الإنجليزية كارين أرمسترونج كتابها: «سيرة النبي محمد».

وهو كتاب موجه في الأساس إلى المتلقي الغربي من خلال الخطاب الذي يمكن أن يستوعبه ويستجيب له ذلك المتلقي المحمَّل بموروثات وتصورات معادية للإسلام ولشخصية النبي محمد ﷺ.

وكارين أرمسترونج كاتبة بريطانية ولدت سنة ١٩٤٤م، مجالها البحث في تاريخ الأديان. قضت شقاً من حياتها راهبة كاثوليكية، ويبدو أنها وجدت حياة الأديرة غير موائمة لتجسيد رؤيتها الدينية الخاصة، فمن خلال كتاباتها المتعددة يتضح أنها تؤمن بأن الديانات الكتابية الثلاث تحمل رسالة الحب والعدالة والسعادة للإنسان هنا على الأرض. ورغم ذلك اتخذت أكثر الصراعات والعداوات والحروب الدموية الدين منطلقاً لها.

وإزاء هذا كرست الكاتبة جهدها للدراسة المستنيرة والبحث الدؤوب، والاستماع للرأي والرأي المخالف، في محاولة منها للوصول إلى جذور الظاهرة.

= انظر: الموسوعة العربية، ص٦٥٠.

(١) الخالدون مائة، ص١٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٩.

لم يقتصر سعي الكاتبة على محاولة التأصيل والفهم. فقد كرست جهودها في سبيل (النضال) عن طريق الكلمة لمقاومة الشر السائد. ويمثل الجزء الأكبر من الشر السائد الآن ممارسات الغرب المستنير المهيمن ضد الشعوب والأفراد وما ينجم عن ذلك من معاناة وفرقة وانكسار، وسيادة الأحقاد والكراهية والعنف. ومن كتاباتها، يتضح أيضاً، أنها تحققت من أن تلك الأحقاد دافعها المفاهيم المغلوطة والأساطير المختلفة، كما أنها أيضاً وراء ما يتبناه الغرب من مواقف إزاء «الآخر»، وفي حالتنا، فهذا «الآخر» هو الإسلام[١].

يبرز كتاب «سيرة النبي محمد» من جهة كونه أحد أصوات الفكر الإنساني الحر المقاوم لتأثير المفاهيم المغلوطة والأساطير المختلفة، ومن جهة أخرى فإن الكتاب لا يخلو من تأثير الموروث الحضاري والفكري والديني المسيحي في توجهات العقل الإنساني الواعية واللاواعية للكاتبة، مما ساهم أحياناً في الحيلولة دون وصول العقل إلى الموضوعية الخالصة.

ويمكن ـ بإيجاز ـ تلخيص تلك الحالتين في مضمون الكتاب فيما يأتي:

أولاً: محاولة إنصاف النبي محمد ﷺ بين الغربيين وتصحيح المفاهيم المغلوطة عنه ودحض الأساطير المختلفة، مثل اتهامه ﷺ بالشهوانية والعنف وسفك الدماء، وكذلك إبراز الصفات الإنسانية له.

ثانياً: التأثر بالموروث الثقافي والفكري الغربي.

حيث شكلت هذه الموروثات عوائق مانعة للرؤية الموضوعية الخالصة حول نبي الإسلام، تلك العوائق الممثلة في سلسلة التحيزات والمسلمات والأفكار المسبقة، وربما يكون أيضاً بسبب تأثير نفوذ بعض أعلام الفكر الاستشراقي ولا سيما مونتغمري وات، ومكسيم رودنسون في كتابها خصوصاً وقد أثنت على مؤلفاتهما في عرضها لمصادرها في مقدمة الكتاب.

ولعل أبرز ما يظهر التأثر فيه لدى الكاتبة بالرؤية الغربية هو تفسيرها الوحي الإلٰهي على محمد ﷺ في ضوء نظرية «الخيال الخلاق» والتي عبر عنها مونتغمري وات، فيما سبقت الإشارة إليه. فهي بعد أن تثبت لمحمد ﷺ وحياً تجعل حقيقة الوحي نوعاً من الخيال الخلاق، وتعبيراً عن مكنون اللاوعي الجمعي.

---

(١) انظر: سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥.

كما ربطت أرمسترونج مظاهر نبوة النبي ﷺ ودعوته بالديانات والملل السابقة فالنموذج اليهودي والمسيحي بل حتى الهندوسي والبوذي حاضر دائماً عند عرض أصول الرسالة الإسلامية[١].

منهج الكتاب وأهميته:

كتاب «سيرة النبي محمد» هو دراسة قامت بها الكاتبة ونشرتها سنة ١٩٩٢م إبان موجة الكراهية والعداء للمسلمين والإسلام التي انفجرت في الغرب بعد نشر كتاب «آيات شيطانية» لسلمان رشدي.

ورغم أن الكتاب لا يقدم معلومات جديدة عن حياة محمد ﷺ، فالكاتبة تعتمد بشكل أساس على المعلومات التي تستقيها من ترجمات وسير النبي الأولى إلا أن الكتاب مثال لأسلوب الخطاب والتخاطب وسبل الإقناع للقارئ الغربي، وذلك لأن الكاتبة تضع في بؤرة شعورها نفسية ووجدان وأسلوب تفكير المتلقي وإحساسه بذاته، كما أن رؤية الكاتبة تبرهن على أن الكاتب لكي يقنع فعليه أولاً أن يقتنع، والإنسان لن يقتنع، ولن تواتيه فرصة الرؤية الموضوعية إلا إذا خلص نفسه من المسلمات والتحيزات والأفكار المسبقة وجرد نفسه من رواسب التنشئة، وعوائق اللاوعى الفردي والجماعي.

والكاتبة بعرضها لحياة محمد ﷺ تبين لبعض الغربيين أن كراهيتهم وعداءهم لمحمد وللإسلام والمسلمين، ومرادفتهم لهم بالعنف والهمجية والتخلف والشهوانية يناقض ما يدعيه الغرب من عقلانية، ومن تسامح فكري وعقائدي. وهي بوضعها يدها على هذا التناقض تهدم دفاعات القارئ الغربي، وتصيب زهوه بهويته العقلانية في مقتل[٢].

أما أسلوب كارين أرمسترونج في خطابها فهو أسلوب هادئ النبرة، موضوعي وموثق، فهي تعرض في الفصل الأول من هذا الكتاب، والمعنون بـ «محمد العدو» لأسباب عداوة الغرب للإسلام ممثلاً في شخص نبيه محمد، ولتجليات تلك العداوة وأصولها والتهم التي كيلت جزافاً لمحمد وللإسلام، ثم تحولت إلى أساطير أصبحت لها مصداقية الحقائق التاريخية، وترجع

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٢٠ ـ ١٢٤.

(٢) سيرة النبي محمد، ص٦ ـ ٧.

الكاتبة تلك العداوة لأسبابها الحقيقية وهي: الجهل والخوف.

ثم تحدد تلك الاتهامات التي تتلخص في أن الإسلام دين جهالة، وأن محمداً مدع مارق على المسيحية واليهودية، وأنه أيضاً كان يسعى للكسب السياسي وتحقيق القوة وإرضاء شهواته، هذا بالإضافة إلى تصوير الإسلام على أنه دين وشريعة حرب، وأن الحرب هي الطريق الذي يسلكه للانتشار والانتصار. والكاتبة في عرضها لقائمة الاتهامات تلك ـ والتي يتخذها الغرب دوافع للكراهية والازدراء ـ تبين تناقضاتها وجزافيتها، وتوضح أن دعائمها التي قامت عليها هي الجهالة والخوف(١).

ثم تعرض كارين أرمسترونج لحياة محمد ﷺ كما أوردتها كتب السيرة. وفي نبذة عن تلك الكتب تبين الكاتبة أن محمداً والإسلام، هما الرسول الوحيد والديانة الوحيدة اللذان تم التأريخ لهما في سن مبكر، ثم تعرض وتحلل أسلوب المؤرخين ومنهجهم في تقصي الحقائق وتبين كيف أنهم كانوا ينتقلون بين الأقطار بحثاً عن مصادر الروايات الشفاهية، وأنهم بعد ذلك كانوا يقومون بتصفية تلك الروايات ثم عرض ما يستوثقون من مصداقيته حتى ولو عنى ذلك عرضهم ما لا يتفق مع رؤيتهم الشخصية، وبعد ذلك يتركون للقارئ حرية اختيار الأصلح والأكثر مصداقية(٢).

وفي سردها لحياة محمد ﷺ تبين أن الإله الذي دعا محمد إلى عبادته هو الإله الذي عبده إبراهيم، ودعا إليه موسى وعيسى؛ أي: أن الله ليس اسماً لكيان اخترعه محمد لكن معنى اللفظ هو الإله الواحد.

وبعد ذلك تعدد الكاتبة معتمدة على كتب السيرة صفات محمد ﷺ الشخصية التي عُرفت عنه قبل البعثة، وما كان عليه من صدق وأمانة ودماثة خلق وتعاطف مع المهمشين من اليتامى والفقراء والعبيد والنساء، وأيضاً ما كان عليه من روحانية وورع(٣).

وتمضي كارين أرمسترونج في محاولة منها لشرح ماهية الوحي وكيفية تلقي

---

(١) المرجع السابق، ص٧.
(٢) المرجع السابق، ص٨.
(٣) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

محمد ﷺ له مبينة أن محمداً لم يسع إلى التجربة. وأنها قد أذهلته وأربكته في بادئ الأمر. ولكي تقرب مفهوم الوحي من ذهن القارئ الغربي تعقد المقارنة بين ما تلقاه محمد وما تلقاه الأنبياء السابقون وخاصة موسى. وفي محاولة أخرى منها لتقريب المفهوم من ذهن قارئها تتحدث عن الإلهام الشعري والوحي الفكري لتبين أن هناك ما لا يمكن شرحه عقلانياً مما يأتي به البشر ثم توضح أن الوحي بالنسبة لمحمد كان تجسيداً (لكلمة الله) على لسان بشري وبلغة إنسانية مثلما كان حمل مريم العذراء تلقياً لنفس الكلمة في صورة بشرية، إذاً فمحمد واللغة من جهة ومريم من جهة أخرى هي الأشكال البشرية التي تجسدت فيها كلمة الله، وكان محمد ومريم في وضع المتلقي البشري لما هو مقدس.

ثم تسرد الكاتبة أثر القرآن في إسلام الكثيرين ممن كانت قلوبهم غلفاً من أهل مكة، وخاصة عمر بن الخطاب، ثم تذهب لشرح خاصية القرآن الروحانية والجمالية الفريدة والمتفردة، والتي ما زالت تمارس نفس الأثر على جموع المسلمين، والتي لا يمكن للقارئ الغربي أن يلمسها من خلال الترجمات، ومن خلال القراءات المتحيزة سلفاً؛ لأن القارئ الغربي تعوَّد على الخطاب الحسي العقلاني[(١)].

وتعالج الكاتبة أيضاً ما تعرض له محمد ﷺ وهو الإنسان البسيط المرهف الحس، المهيض الجناح، هو والأقلية المستضعفة ـ ممن آمنوا برسالته ـ من ازدراء واضطهاد، وأيضاً شجاعتهم في مجابهة عتاة مكة الذين ناصبوه العداء بدافع الخوف والجهالة. ولا يخفى على القارئ في هذا الصدد المقارنة الضمنية ـ والتي تطرح نفسها ـ بين دوافع الغرب وأسلوب معاداته للإسلام في الماضي والحاضر وبين موقف أهل مكة في ذلك الزمن السحيق[(٢)].

ومن خلال سرد أرمسترونج لوقائع حياة الرسول ﷺ في المدينة، ومحاولته إقامة مجتمع عدل وكفاية، تبين أنه في جوهره تحقيق للمشيئة الإلٰهية، وأيضاً من خلال عرضها لغزواته ومعاركه الحربية، تقدم الكاتبة مفهوماً جديداً للجهاد يختلف عن مفهوم الدعاية الغربية المحمومة. فخلافاً للمسيح الذي قضى حياته

---

(١) المرجع السابق، ص٨.
(٢) المرجع السابق، ص٩.

مبشراً مسالماً للرسالة السماوية خاض محمد معارك إيجابية واعترك مع الواقع ليردع الظلم ويدفع العدوان؛ أي: أنه وبلغة اليوم قدم المثال على الفعل الإيجابي affirmative action ذلك الأسلوب الذي يتبناه الغربيون اليوم لتحقيق العدالة ومقاومه المظالم والتحيزات. فحروب الإسلام كانت دفاعية ورداً للعدوان بالإضافة إلى كونها وسيلة لفرض «السلام الإسلامي» (Islamic Peace) الذي أمكن في ظله وقف حمامات الدم، وإقامة مجتمع عادل أساسه القيم الرفيعة.

إذاً فالجهاد هو النضال المستمر ضد الذات وضد الآخر من أجل تحقيق الإرادة الإلٰهية، والعمل على إسعاد البشرية. إذاً فالإسلام لم ينتصر ولم ينتشر عن طريق السيف، ولم تكن الحرب وسيلة أو هدف له قط، وعلى عكس ذلك فهو دين الاستمرارية مع الماضي وعقيدة سلم وتسامح[١].

أيضاً لم يكن محمد ﷺ قط ذلك الفرد الشهواني الذي يصوره الغرب، وتبلور الكاتبة هذه الحقيقة في خطابها من خلال عرض لحياة محمد ﷺ مع زوجاته فتبين أن علاقته بهن كانت علاقة محبة حميمة دافئة أليفة، وكان أيضاً يعدل بينهن قدر استطاعته البشرية، كما كان يستشيرهن في الأمور العامة والخاصة، ويأخذ بما صلح من المشورة، ثم إن الكاتبة وعن طريق أسلوب عرضها الدرامي لبعض المواقف الحياتية مع عائشة، تؤكد ذلك البعد الإنساني. وتقدم صورة تتوهج ألفة ومحبة وبالإضافة إلى ذلك تقرر أرمسترونج أيضاً أن الحقوق التي حصلت عليها المرأة في الإسلام، والكيان الكريم الذي اكتسبته هما ثورة بجميع المقاييس. كما أن تشريع تعدد الزوجات جاء حداً للممارسات الشهوانية، ولانتهاك المرأة الجسدي والاجتماعي وليس العكس كما أنه أيضاً كان يخدم ظروفاً اجتماعية قائمة[٢].

وفي فصلها الأخير تعرض الكاتبة لوفاة محمد ﷺ كما أن الفصل لا يتوقف عند واقعة الوفاة، فتقدم مشهد مرض محمد ﷺ ووفاته في حجر زوجته عائشة. مشهداً مفعماً بالأحاسيس التي تمس شغاف القلوب غير أن ما تنقله لنا يؤكد على أن محمداً ﷺ عاش ومات إنساناً مثل كل البشر، فقد ولد ضعيفاً يتيماً وغادر

(١) المرجع السابق، ص٩.
(٢) المرجع السابق، ص١٠.

الحياة وهو يعاني من المرض، يتلمس الحب والدفء الإنساني اللذين منحتهما له عائشة، لم يمت محمد في ساحة القتال، أو في مقعد الملك والأبهة، بل غادر الحياة بهدوء كما أتاها.

ذلك التأكيد من قبل الكاتبة على محمد ﷺ الإنسان العادي لا يستهدف فقط اختراق تحيزات القارئ الغربي، واجتلاب مشاعر المودة والتعاطف، ولكن أيضاً يبلور عبقرية محمد المتفردة، ويكرم الإنسان في شخص محمد. إن إنجازات محمد في خلال السنوات الثلاث والعشرين الأخيرة من حياته، والتي تبرهن الكاتبة على أنها ترقى لمرتبة الإعجاز البشري، للتأكيد على قيمة الإنسان وما يمكنه إنجازه إن هو أخلص لرسالته، وآمن بها واتبع طريق الحق[١].

غير أن الكاتبة تخصص الجزء الأكبر من فصلها الأخير لتبين أن المسلمين الأوائل باتباعهم سبيل محمد تمكنوا من الرقي والرفعة، وأقاموا كياناً شاسعاً ساده التسامح والعدل والتعايش بين الأديان، مما حقق التقدم وخير البشرية.

وتضيف أن عداء أوروبا المسيحية بدأ حينما شعر الغربيون بتهديد لكيانهم وهويتهم، وبناءً على ذلك وعلى أسس من الجهل التام بالقرآن وبمحمد وبالإسلام بثوا سموم الكراهية، واختلقوا الأساطير، وخاضوا الحروب الوحشية المدمرة ضد المسلمين والإسلام؛ أي: أنهم (نصَّروا) إذا صح التعبير تلك المخاوف والجهالات والأطماع وألبسوها لباس الدين، وفيما بعد ـ وبعد سيادة العقلانية ونهضة الغرب ـ استمرت تلك الأساطير تحكم وجدانهم وتشكل توجهاتهم ومواقفهم، ودارت الدائرة، ووجد المسلمون أنفسهم في مأزق ديني وحضاري لم يحاول تفهمه الغرب، الذي يتخذ من العقلانية والتسامح والدعوة إلى الحرية والعدالة أسساً حضارية لوجوده.

وإزاء هذا الازدراء والكراهية والظلم من جانب الغرب للمسلمين كره المسلمون الغرب بل (أسلموا) تلك الكراهية، ومن خلال هذا المنطلق تحاول الكاتبة شرحاً لما يسمى بالأصولية الإسلامية[٢].

وبعد ذلك تبين أرمسترونج كيف تجاوز شخص محمد ـ بالنسبة للمسلمين

---

(١) المرجع السابق، ص١٠.
(٢) المرجع السابق، ص١١.

اليوم - الشخصية التاريخية لهم؛ أي: أنه أصبح كل ما هو غالٍ وكريم ومقدس بالنسبة للمسلمين؛ أي: أن أي امتهان لشخص الرسول هو امتهان لعقيدة المسلمين، وتاريخهم، وقيمهم، وأسلوب حياتهم ووجودهم، وهذا يفسر الغضب والثورة اللذين قوبل بهما كتاب سلمان رشدي، وتأييد الغرب وتبنيه وتكريمه للكتاب وكاتبه.

تختم الكاتبة رسالتها بقولها: إن محمداً ﷺ لم يمت فهو يعيش في وجدان كل مسلم، وفي أسلوب تفكيره، وممارسته الحياتية اليومية؛ أي: أن شخص محمد بالنسبة للمسلمين هو الهوية: الماضي والحاضر والمستقبل. ثم تنتهي بقولها: إن محمداً ﷺ أتى بالإسلام، والإسلام دين سلام ووفاق، وأنه لن يختفي أو يذوي أبداً، وإن بقائه في عنفوانه وقوته هو خير للبشرية لأنه يدعوا كما دعا محمد إلى إرساء قواعد الحب والعدل والسلام الإنساني(١).

---

(١) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

المبحث الثالث

المستشرقون المتحاملون على الإسلام

من الممكن للباحث في تاريخ الاستشراق أن يضع تحت هذا العنوان طائفة كبيرة من المستشرقين، ولو فعل هذا لكان له من المبررات العلمية ما يرد عنه الاتهام بالتعصب.

ولكن في هذه الدراسة يؤثر الباحث أن يخصص هذا الوصف للمستشرقين الذين بالغوا مبالغات واضحة حطوا بها من شأن الإسلام حطاً شنيعاً، وظهر تحاملهم في معظم آرائهم، واستجابت أساليب كتابتهم لحقدهم الدفين، فجاءت ألفاظهم جارحة، فظة، وغلب عليها طابع السخرية، وأساليب التعجب والاستهجان لكل مسلك إسلامي.

والمستشرقون المتحاملون أنواع، فإنهم ينقسمون إلى من كان تحامله ناشئاً عن عواطف الاحتقار والرفض الذي يزينه الجهل، ومنهم من كان حقده زعافاً ولكنه خففه بدراسات فيها نوع من الجدية.

وسنستعرض فيما يلي نماذج لهؤلاء المستشرقين وكتاباتهم عن النبي محمد ﷺ، وذلك على النحو التالي:

١ ـ هنري لامنس Henri Lammens (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧م):

نال الأب لامنس قصب السبق بين المستشرقين المعاصرين في الحقد على كل شيء يشتم منه رائحة الإسلام، ويظهر ذلك في عاطفته ومنهجه وأسلوبه وغرضه من كتاباته.

وقد وصف الشيخ عبد الحليم محمود المستشرق الأب هنري لامنس بقوله: «والحق أن مثل لامنس في الاستشراق كمثل بطرس الناسك في الحروب الصليبية، وإنه يقوم في الناحية العلمية بما كان يقوم به ذلك الناسك في ناحية الدعاية الحربية، وكالناسك يتخذ من الوسائل ما يؤديه إلى الهدف غير عابئ بعدالة الوسيلة. وإن نزعة كهذه لا يمكن أن تؤدي بمؤرخ إلى الإنصاف العلمي»[١]. كما صرح بعض المستشرقين بهذه العداوة والكره الذي اتسمت به كتابات لامنس، كما يوضح المستشرق الفرنسي درمنغم ذلك بالمثال في قوله:

«ومن دواعي الأسف أن كان الأب لامنس، الذي هو من أفضل المستشرقين المعاصرين، من أشدهم تعصباً وأن شوَّه كتبه الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ونبي الإسلام، فعند هذا العالم اليسوعي، الذي أفرط في النقد إفراطاً يمكن توجيه مثله إلى النصرانية، أن الحديث إذا وافق القرآن كان منقولاً عن القرآن موضوعاً؟ فلا أدري كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضى تطابق الدليلين تهادمهما بدلاً من أن يؤيد أحدهما الآخر؟ نعم، قد يكون الحديث موضوعاً لتفسير آية من القرآن أو لجعلها محمولة على معنى معين أو لتأكيد ظاهر حكمها، ولكن هنالك أحاديث صحيحة ليس على المؤرخ إلا أن يركن إليها بلباقة، ومن هذه الأحاديث ما جاء عن حب محمد للعسل مثلاً، فيمكن عزو حبه له وترغيب الناس فيه: إما إلى نص القرآن على أن فيه شفاء للناس، وإما إلى أن محمداً كان يجده غذاء طيباً، وإما إلى أنه نافع بذاته، فإذا صح هذا الحب للعسل ـ وليس لدينا ما يعارضه من النواحي المنطقية والكونية والتاريخية. . . إلخ ـ فكيف يمكن لراوي الحديث أن يعدل عن حديثه لكيلا يقاسي ارتياب مثل ذلك العالم (أي: لامنس)؟»[٢].

---

(١) محمد رسول الله: نصر الدين (دينيه)، مقدمة عبد الحليم محمود، ص٤٩.

(٢) حياة محمد: المقدمة، ز.

ومؤلفات لامنس تدور حول موضوعين رئيسيين:

الأول: السيرة النبوية. **والثاني**: بداية الخلافة الأموية.

لكن له إلى جانب ذلك كتباً ودراسات حول موضوعات متفرقة في العقيدة الإسلامية، وتاريخ سورية وآثارها.

أما فيما يتصل بالسيرة النبوية ـ وهو محور الحديث ـ فقد صنف لامنس المؤلفات التالية لبيان البيئة التي نشأ فيها الإسلام، وهي:

١ ـ «مَهْد الإسلام»، صدر في روما سنة ١٩١٤م.

٢ ـ «مكة، عشيّة الهجرة»، بيروت، ١٩٢٤م.

٣ ـ «مدينة الطائف العربية عشيّة الهجرة»، بيروت، ١٩٢٢م.

٤ ـ «غربي الجزيرة العربية قبل الهجرة»، بيروت، ١٩٢٨م، وهو مجموع من ست دراسات عن اليهود والنصارى، قبيل الهجرة النبوية، وعن ديانات العرب قبل الإسلام.

٥ ـ «المعابد قبل الإسلام في غرب الجزيرة العربية»، وهو في هذه الكتب الخمسة إنما يلخص أبحاث المستشرقين وعلماء الآثار والجغرافيا في هذه الموضوعات، وليس له فيها أي إسهام أصيل. وفي ظل التمهيد لهذه الكتب التي تبيّن الوضع الجغرافي والديني والاقتصادي والاجتماعي للحجاز بعامة، وللقريتين: مكة والطائف بخاصة، كتب دراساته المتعلقة بالنبي ﷺ وفاطمة رضي الله عنها وتاريخ السيرة النبوية، وهي:

٦ ـ «القرآن والسُّنَّة؛ كيف ألّفت حياة محمد» (بحث ضمن «أبحاث في علوم الدين» ج١)، باريس، ١٩١٠م.

٧ ـ «هل كان محمد أميناً؟» (ضمن «أبحاث في علوم الدين، ج٢)، باريس ١٩١١م.

٨ ـ «عصر محمد وتأريخ السيرة» (في المجلة الآسيوية ١٩١١م).

٩ ـ «فاطمة وبنات محمد، تعليقات نقدية لدراسة السيرة». روما، ١٩١٢م.

ثم تناول مسألة خلافة النبي ﷺ بعد وفاته، وذلك في كتاب بعنوان:

١٠ ـ «الحكومة الثلاثية من أبي بكر وعمر وأبي عبيدة»، بيروت ١٩٠٩م.

وفي هذه الكتب الخمسة تحامل لامنس على السيرة النبوية تحاملاً شديداً،

زاعماً أن القرآن وحده هو المصدر الذي يعتمد عليه في بيان سيرة النبي ﷺ، وأن كتب الأحاديث كلها موضوعة من أجل تحقيق غايات معينة هي تمجيد حياة النبي. فلم يقم لكتب الحديث وكتب السيرة أي وزن. وهو في هذا لا يسوق أي دليل نقلي أو عقلي، ولا يرجع إلى مصادر أخرى عن السيرة، بل هو يلقي الكلام جزافاً ويعتمد على تحكمات ذهنية استقرت حسب معانٍ ذهنية سابقة. ولم يكن لديه اطلاع باحث مثل جولدزيهر يحاول أن يستمد دعاواه من مصادر أخرى تلمودية أو هلينية (يونانية قديمة) إلخ، وإنما راح يخبط دون أدنى سند أو برهان عقلي[١].

يقول الدكتور عبد الرحمٰن بدوي عن كتابات لامنس:

«وأبشع ما فعله، خصوصاً في كتابه: «فاطمة وبنات محمد» هو أنه كان يشير في الهوامش إلى مراجع بصفحاتها. وقد راجعت معظم هذه الإشارات في الكتب التي أحال إليها، فوجدت أنه إما أن يشير إلى مواضع غير موجودة إطلاقاً في هذه الكتب، أو يفهم النص فهماً ملتوياً خبيثاً، أو يستخرج إلزامات بتعسف شديد يدل على فساد الذهن وخبث النية.

ولهذا ينبغي ألا يعتمد القارئ على إشارته إلى مراجع، فإن معظمها تمويه وكذب وتعسف في فهم النصوص. ولا أعرف باحثاً من بين المستشرقين المحدثين قد بلغ هذه المرتبة من التضليل وفساد النية»[٢].

وفي ميدان الإسلام بعامة، وضع لامنس كتاباً عاماً بعنوان:

١١ ـ «الإسلام: عقائد ونُظُم» بيروت ١٩٢٦م، ثم طبع بإشراف روبير شدياق سنة ١٩٤٠م.

وقد زعم في استهلال الكتاب أنه كتاب حسن النية، ومع ذلك فقد دس فيه كل سمومه التي سبق أن عرضها تفاريق في مؤلفاته التي أتينا على ذكرها، وأنه عرض موضوعي تماماً، وهذا أيضاً غير صحيح أبداً. وعلى كل حال فإنه قصد منه أن يكون كتاباً شعبياً، ومتناً بسيطاً يستعرض تطور العقائد والنظم الإسلامية من البداية حتى العصر الحالي. وهو عرض سطحي جداً، وليست له أية قيمة

---

(١) موسوعة المستشرقين: لبدوي، ص٥٠٣ ـ ٥٠٤.
(٢) المرجع السابق، ص٥٠٤.

علمية ولا حتى كدراسة مبسطة ابتدائية؛ لأنه مزجه بوجهات نظره المليئة بكراهيته للإسلام في غلٍّ منقطع النظير[١].

أبرز آراء لامنس:

من اليسير أن يظهر للباحث مبدأ الحقد عند لامنس في آرائه، فمن ذلك اعتباره أن الإسلام هو الحاجز الذي حال دون انتشار عقيدته المسيحية في ربوع الأرض، وقد عنى هذا بالنسبة إليه أن مصدر الإسلام هو الشيطان ذاته، ولذلك راح يحاربه بأبشع الوسائل؛ أي: الكذب الصريح، والتلفيق، والتشنيع، والتزوير، والتأويل الفاسد، والحض على التبشير، ولم لا التدمير؟ وقد عبَّر عن الدافع لحقده في هذه الفقرة التي وضع فيها كل سُمّه وأسفه على ما كان فقال: «ولولا الإسلام لاستطاع اليهود والنصارى أن يقتسموا الجزيرة العربية»[٢].

كما ذهب لامنس في دراساته إلى أن الإسلام لم يكن سوى تأليف من مصادر يهودية ومسيحية؛ ولذلك عمل جاهداً على إثبات انتشار اليهود والمسيحيين في شبه الجزيرة العربية قبل البعثة. ولقد كان هذا هو الغرض الوحيد من تأليفه كتاب «غرب الجزيرة العربية قبل الهجرة» الذي نتجت عنه صورة للجزيرة العربية تموج بالمسيحيين القرشيين والعبيد وتجار الحبشة والشام، بل أضاف إليهم عدداً معتبراً من الحدادين والأطباء والجراحين وجراحي الأسنان والمعلمين[٣].

وقد دفعت به هذه الفكرة التي لم يقل بها ولم يؤمن بها أحد سواه إلى الحط من شأن النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم، فتحول نبينا عليه الصلاة والسلام، وهو نموذج للنشاط العام، عنده إلى (نؤوم كبير)، وذلك من أجل أن يبطل حقيقة قيامه الليالي متبتلاً لله[٤].

كما اعتبر لامنس النبي ﷺ مسؤولاً مسؤولية كاملة عن الصراع مع اليهود، وفسر عدوانه لهم بالسبب القومي. ولو فكر قليلاً لأدرك أنه قد وقع في تناقض

---

(١) المرجع السابق، ص٥٠٤.

(٢) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٢٦٠ نقلاً عن:

I "Ar.bie Occident.le. vnt I" Hegire-P54.

(٣) المرجع السابق، ص٢٦٠.

(٤) المرجع السابق، ص٢٦١.

كبير، فلماذا يكون السبب العرقي باعثاً للتنازع مع اليهود، ولا يكون كذلك مع النصارى الذين كانت علاقة النبي ﷺ معهم ـ كما يؤكد ـ جيدة[١].

وعلى عكس تهجمه على المسلمين، فقد كان اليهود بالنسبة إليه مثالاً للشجاعة، حيث تحدى بنو قينقاع المسلمين رغم عددهم الضئيل. ومن المعلوم أن بني النضير لم يقاتلوا المسلمين قتالاً مباشراً، بل حاصرهم المسلمون في حصونهم حتى استسلموا، ولكن لامنس يزعم اضطرار النبي ﷺ وصحابته إلى قتالهم «شارعاً بعد شارع، وحياً بعد حي»[٢]. وكذلك الأمر بالنسبة ليهود خيبر، وأما بالنسبة للأنصار، وهم أولئك الرجال المؤمنون الذين شكلوا القسم الأوفر من جيش الإسلام، والذين واجهوا قريشاً واليهود والعرب بصدورهم، ودون أن ينهزموا في موقعة ما عدا أُحد، فقد كانوا في رأيه «غير مؤهلين للقتال»[٣].

ولم يكتف لامنس بإبطال نبوة محمد ﷺ وحكمه على الإسلام بكونه «مجرد إصلاح للسامية في شكلها الأكثر حدة، والأكثر التصاقاً بالأرض»[٤]، وهو الحكم الذي يشاركه فيه عديد من المستشرقين، بل دفعه حقده إلى مخالفتهم في أحكامهم الإيجابية على الشخصية النبوية، حيث لم ينج هذا الجانب من المهزلة التي أقامها في مؤلفاته، فطعن في زوجاته ﷺ وبناته وعلاقاته الأسرية، وجعل النبي ﷺ وأصهاره يتبادلون النساء من أجل المصالح السياسية، حيث كان عثمان رضي الله عنه مثلاً يحل «دائماً مشاكل النبي المالية والسياسية»، وبالجملة فإنه لم يؤلف كتابه: «فاطمة وبنات محمد» إلا من أجل تحقيق تشويه تام، ومحاولة إحداث انقلاب كلي في كل ما يعرفه العلماء ـ وخصوصاً المستشرقين الذين كانوا هدفه الأساس ـ من شفافية حياة نبينا الخاصة والعامة[٥].

وقد صور لامنس النبي ﷺ بعد الهجرة خاضعاً لمتع الحياة، حيث تحول من الزهد إلى الاشتغال التام، بإحاطة نفسه بمظاهر البذخ وصفات الملك[٦].

---

(١) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

(٢) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق، ص٢٦١.

(٤) المرجع السابق، ص٢٦٢ نقلاً عن:

Ftim et les filles de Mhomet-P. 82.

(٥) المرجع السابق، ص٢٦٢.

(٦) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

وجعل من أدلته على هذا الزعم أنه كان «يخطب وبلال يقف تحت المنبر، وهو يشهر سيف النبي الذي لم يستخدم قط، كان سيفاً معداً خصيصاً للاستعراضات». وقد علق لامنس على هذه الصورة المخترعة بقوله: «إننا نعلم الآن من أين جاء الأمويون وأمراؤهم بفكرة إدخال الرجال المسلحين إلى المساجد»[١].

والحقيقة أن هدف لامنس كان يستجيب لحقده البين، وقد تمثل في عمله على التشنيع الشديد على الإسلام وعقائده ونبيه وأخلاقه وتاريخه، وذلك من أجل القضاء على بوادر تحسن رأي الغربيين في الإسلام والمسلمين، وحض الغرب المسيحي والاستعماري على حربهم.

ومن الأدلة الواضحة على الهدف الأول اعترافه «بأن النظريات التي طرحها في كتابه: «فاطمة وبنات محمد» الصادر سنة ١٩١٢م، كانت تهدف إلى (إثارة) (مقصودة) لتحريك (طمأنينة) المؤرخين، وإجبارهم على نقد أكثر دقة. لقد كان يجب (تحطيم) (ثقتهم) شبه التامة في (كتب الحديث)، وتنبيههم إلى التناقض الموجود بينها»[٢]. وقد رأى الشدياق عند تقديمه لكتاب: «الإسلام: عقيدة ومؤسسات» في ذلك دليلاً على الموضوعية، بينما كان ما قاله هذا الراهب عين الهدف الذي قصد إلى تحقيقه، إذ أراد التوصل إلى تحطيم بوادر التحسن في الأبحاث الاستشراقية عن الإسلام منذ القرن التاسع عشر، وكان يستخدم أساليب الإرهاب الفكري لتحقيق هذا الهدف؛ أي: تعمده التهجم على المستشرقين الذين يخالفونه الرأي كلما سنحت له الفرصة من أجل أن يجذبهم إلى سلوك مسلكه[٣].

أما بالنسبة لاستعدائه الغربيين على المسلمين فواضح في كل عمله، وكان منهجه في ذلك العمل على نقل حقده إلى مواطنيه، إضافة إلى تلويحه بذلك أحياناً، ومن ذلك قوله: «وما زال المسلمون يتزايدون، وإن كان ذلك يعود إلى الظروف المساعدة التي يجدونها في المحميات الغربية، أكثر من كونها راجعة إلى نشاطهم الدعوى»[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٦٣.
(٢) المرجع السابق، ص٢٦٣ عن:
l'Islm croynces et institutions-H. lmmens-Pref-P. 14.
(٣) المرجع السابق، ص٢٦٣.
(٤) المرجع السابق، ص٢٦٣ عن:
l'Islam croynces et institutions-P. 285.

٢ ـ كارل بروكلمان Carl Brockelmann (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦م):

المستشرق الألماني المشهور بموسوعته العلمية في تاريخ الأدب العربي، والتي تعد أضخم عمل موسوعي وأشهره في تاريخ الأدب العربي، استغرق فيه خمسين عاماً (١٨٩٨ ـ ١٩٤٩م)، ويشمل سجلاً للمصنفات، وقد أصبح ذلك الكتاب ذخيرة لا يستغنى عنها دارس للعلوم الإسلامية؛ لأن مفهوم الأدب لدى بروكلمان اتسع ليشمل: الشعر، والنثر، والفقه، والطب، والجغرافيا، والعلوم الطبيعية، والموسوعات[١].

لكنه ضمَّن رؤيته للنبي ﷺ في كتابه التاريخي: «تاريخ الشعوب والدول الإسلامية» الصادر بالألمانية عام ١٩٣٩م ومن ثم ظهرت ترجمته الإنجليزية ـ لاحقاً ـ بحذف كلمة الدول الإسلامية، ليكون العنوان: «تاريخ الشعوب الإسلامية».

وبسبب الانتشار الواسع لأعمال بروكلمان، والشهرة ذائعة الصيت التي لازمت نتاجه الاستشراقي سواء بين المستشرقين أنفسهم أم في العالم الإسلامي، فإن ذلك يستدعي فحص كتابه «تاريخ الشعوب والدول الإسلامية» مع أنه ليس مختصاً بالسيرة النبوية وحدها.

وقد جاءت رؤية بروكلمان للنبي ﷺ تجسيداً للتقاليد المستقرة في الفكر الاستشراقي عموماً، وفي الاستشراق الألماني خصوصاً، إذ نستطيع بكل وضوح قراءة معالم الفكر الاستشراقي التقليدي في كلتا الدائرتين من خلال الفصلين اللذين خصصها بروكلمان للنبي ﷺ ورسالته في كتاب تاريخ الشعوب الإسلامية[٢].

فمن جهة المنهج أخضع بروكلمان دراسته عن النبي ﷺ للمناهج المتبعة في حقل الاستشراق منذ أمد بعيد سواء أكانت منقولة في حقول معرفية أخرى أم كانت طرق بحث مألوفة في مجال الإسلاميات لدى المستشرقين، مثل: المنهج

---

(١) انظر: مقدمة الكتاب، بتحقيق: محمود فهمي حجازي، نشر الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠١، عن:

Carl Broklmann, Geschichte der islamischen voelker und staaten, Hildesheim-New York: Olms 1977, Nachdr.d. Ausg. Muenchen und Berlin 1943.

الفيولوجي الذي يصدر الأحكام استناداً إلى المعرفة باللغات وتطورها، أو منهج التأثير والتأثر، أو مناهج النقد الأدبي: النقد الشكلي أو نقد النصوص... إلخ.

ومن جهة المضمون المعرفي الذي أثمرته تلك المناهج فإن بروكلمان لا يكاد يخالف سابقيه في شيء، فالنبي ﷺ في رأي بروكلمان نتاج لبيئته الوثنية التي دفعت بعضاً من أبنائها من أصحاب النفوس الصافية إلى التفكير في المسائل الدينية، بعيداً عن العبادات الوثنية التي قصرت عن إرواء ظمأهم الروحي.

وهكذا فإن محمداً ﷺ بوصفه واحداً من أصحاب تلك النفوس الصافية قد استرسل مثلهم في تأملاته حول طريق الخلاص الروحي إلا أنه لم يكتف مثلهم بالتفكير المجرد، وإنما دعم ذلك بالأخذ بأسباب التحنث والتنسك الكثيف والطويل عبر الليالي الكثيرة في غار حراء، بحثاً عن مخرج أو علاج، لعقيدة مواطنيه الوثنية الفاسدة التي يتيهون في ضلالها منذ أمد بعيد، في حين قد تجلى الله بوحيه، ومن خلال أنبيائه، لأمم أخرى وشعوب عديدة.

ونتيجة هذه التأملات المركزة والتفكير المستمر الذي استغرقه استحوذت عليه فكرة أنه مدعو إلى القيام برسالة الأنبياء، ونضجت تلك الفكرة في نفسه بعد أن تمثلها طويلاً متحرراً من كل المعوقات والشكوك حولها، حتى خيل إليه أن طائفاً ملائكياً (سماه فيما بعد جبريل) قد ألقى إليه رسالة من الله: بأنه نبي مبعوث لأمته بوحي إلٰهي لإخراجهم من ظلمات الوثنية.

ولم تخرج التجربة الذاتية الشخصية لمحمد ﷺ ـ كما يرى بروكلمان ـ في نتاجها عن العوامل التي حركتها، والبيئة التي غذتها، والغايات التي استهدفتها، وهي ثلاثة أمور:

الأول: الطموح الشخصي لمحمد ﷺ في مجد وشرف الرئاسة، بأن يصبح زعيم جماعة سياسية، ورجل دولة قوي يسيطر على بلاد العرب، وقد سخر حماسته الدينية في مكة لأجل تحقيق ذلك الهدف الذي أصبح حقيقة في المدينة بفعل قوة إرادته، وموهبته السياسية.

الثاني: أثر البيئة الوثنية التي عاش فيها النبي ﷺ تلك البيئة التي وجهت دعوته إلى حد لا يستهان به، إذ نزع إلى الاعتراف بالآلهة المكية الرئيسة الثلاث: اللات، والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، بوصفها شافعة عند الله، كما تحكي ذلك قصة الغرانيق.

وكذلك أثرت البيئة الوثنية في ربطه ديانته بالكعبة والحجر الأسود أقدم وثن مقدس في تلك المنطقة، ثم خلع الروحانية على ذلك بإقحام إبراهيم وابنه إسماعيل على تلك المشاعر، وجعل ديانة إبراهيم مركزية في تلك الديانة ذات الشعائر الوثنية.

ولم يقتصر التأثير الوثني في دعوة محمد ﷺ على الوثنية العربية، بل تعداه إلى معتقدات عديدة من الديانة الفارسية والبابلية القديمة.

الثالث: تأثير اليهودية والنصرانية ذلك التأثير الذي جعل بروكلمان يقرر أن الفكر الديني لمحمد ﷺ لم يكن من إبداعه الخاص إلا في حدود ضئيلة، إذ انبثق في الدرجة الأولى عن اليهودية والنصرانية، ثم كيَّفه محمد ﷺ تكييفاً بارعاً لحاجات شعبه الدينية ليرتفع بهم إلى مستوى أعلى من الإيمان الفطري والسلوك الأخلاقي.

وهنا يظهر تناقض بروكلمان بشكل كبير ففي الوقت الذي جعل رسالة محمد ﷺ مجرد صدى لليهودية والنصرانية، فإنه يؤكد في أكثر من موضع ضآلة معرفة محمد ﷺ بالعهد القديم والجديد، وعلى الرغم من تلك المعرفة الضئيلة إلا أنه قد كرر موضوعات اليهودية والنصرانية في أبواب الاعتقاد واالتشريع والأخلاق، بل وفي مجال القصص الدقيق.

وقد كان تأثير رؤية بروكلمان لنبي الإسلام ﷺ في مجال الاستشراق كبيراً بحجم نفوذه فيه، إذ أن مونتغمري وات، مدين في كثير من جوانب رؤيته لبروكلمان خصوصاً جانب تمثل فكرة النبوة نتيجة عمق التفكير والتأمل فيها.

فإذا عرفنا مدى النفوذ الذي مارسه مونتغمري وات، بمؤلفاته الثلاثة عن النبي ﷺ (محمد في مكة، محمد في المدينة، محمد النبي ورجل الدولة) أدركنا إلى أي مدى كان تأثير بروكلمان واسعاً وممتداً على الفكر الاستشراقي الحديث والمعاصر[١].

٣ ـ وليام موير W. Muir (١٨١٩ ـ ١٩٠٥م):

كان موير من كبار موظفي الحكومة البريطانية في الهند، وكانت له صلة

---

(١) انظر: محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠١ ـ ١٠٤. وللاستزادة انظر: كارل بروكلمان في الميزان: شوقي أبو خليل، وافتراءات فيليب حِتّي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي: عبد الكريم علي باز.

وطيدة مع الجمعيات الإرسالية العاملة في الهند وقتذاك، ولا سيما مع المنصِّر الشهير كارل فندار الذي كان يعمل في البنغال وشمال الهند. وفي الواقع كان موير حكماً من جانب النصارى في المناظرة بأكرا بالهند سنة ١٨٥٣م بين فندر والشيخ رحمة الله الكيرانوي(١)، وكان فندر هو الذي حرض موير على تصنيف كتاب عن السيرة كما يعترف به موير في مقدمة كتابه.

وفي ذلك الوقت صدر عدد من المصادر للسيرة. ففي سنة ١٨٥٦م طبع بكلكتا بالهند ترجمة موجزة لمغازي الواقدي، وقام بها المستشرق الشهير فون كريمر «Von kremer» (١٨٨٩م)، كما صدر في الوقت نفسه الإصابة لابن حجر العسقلاني، والطبقات لابن سعد، وذلك بتحقيق ويليم ناسؤليز «William Nassau Lees» وهو عميد المدرسة العالية بكلكته وقتذاك. وفي أوروبا صدرت سيرة ابن هشام سنة ١٨٥٩م بتحقيق: ف. وستنفلد «F. Wustenfeld» (١٨٩٩م).

استفاد موير من هذه المصادر، وكتب في أول الأمر ثلاث مقالات عن السيرة بعناوين:

١ ـ «مولد محمد ﷺ وطفولته»

«The Birth and Childhood of Mahomet».

٢ ـ «حياة محمد ﷺ من شبابه إلى سن الأربعين»

«The Life of Mahomet, from his youth to his fortieth year».

٣ ـ «اعتقاد محمد ﷺ في الوحي إليه»

«Belief of Mahomet in his inspiration».

صدرت هذه المقالات الثلاث في عددين متتالين من مجلة كلكتا ريفيو «The Calcutta Review» لسنة ١٨٥٢م. وتجدر الإشارة إلى أن المقالين الأول والثاني هما الفصلان الأولان في كتابه عن السيرة.

يقع الكتاب في ثلاثة أجزاء: الجزء الأول مخَصَّص للكلام على مصادر

---

(١) رحمة الله الهِنْدي (. . ـ ١٣٠٦هـ): رحمة الله بن خليل الرحمٰن الكيرواني نسبة (كيروانه) بلدته التي ولد بها في الهند، الحنفي، نزيل الحرمين: باحث، عالم بالدين والمناظرة. جاور بمكة وتوفي بها. له كتب منها: «التنبيهات، في إثبات الاحتياج إلى البعثة والحشر والميقات»، و«إظهار الحق» وهو من أفضل الكتب في موضوع مناظرة النصارى. انظر: إيضاح المكنون (١/ ٣٢٣)، ومعجم المطبوعات، ص٩٢٩، وهدية العارفين (١/ ٣٦٦)، والأعلام (٣/ ١٨).

السيرة. وخلاصة قول موير في هذا الموضوع أن الكتب في السيرة مثل كتاب ابن إسحاق متحيزة ومليئة بأساطير وقصص غير معقولة، فينبغي تنقيحها وتأويل الحقائق المسجلة فيها. أما الأحاديث (الروايات) فجميعها أو أغلبها مفتريات من قبل الأطراف المعنية، فلا يعتمد عليها إلا التي هي لغير صالح النبي ﷺ!. لأنه ـ كما يدعي ـ لا يمكن إشاعة مثل هذا النوع من الروايات إلا أن تكون صحيحة.

إن موير مخطئ في مزاعمه هذه بالنسبة للمصادر، وهو يتجاهل الحقيقة الهامة أن العلماء المسلمين وضعوا ضوابط وقواعد دقيقة لتمييز الروايات الصحيحة من الموضوعة. ولكن هدفه خفي وهو تمهيد السبيل إلى التلاعب بالمصادر وطرح الافتراضات لصالح آرائه. على أية حال فإن خَلَفَهُ مثل جولد تسيهر وشاخت قد اتخذا تلميحاته في كتابيهما عن السُّنَّة. حتى نولدكه يعتمد على إشارات موير في كتابته عن تاريخ القرآن[1].

يسعى موير لتطبيق نظرياته بشأن المصادر في معالجته العهد المكي والعهد المدني في الجزأين الأخيرين من كتابه، فيشكك في المعلومات التي لا تتفق مع آرائه أو يحرف معناها، ويستخدم الروايات المؤيدة لنظرياته بدون النظر في أسانيدها وصحتها، ويلجأ إلى الافتراضات والظنون في كثير من الأمور. وبهذه الأساليب يعيد ويضخم جميع الادعاءات والافتراءات القديمة والمتعلقة بالموضوعات الرئيسة للسيرة[2].

أما بالنسبة لأبرز الملاحظات حول معالجة موير لموضوعات السيرة فيمكن تلخيصها فيما يلي[3]:

أولاً: بالنسبة لخلفية النبي ﷺ. يقول موير: إن الكعبة ليست لها أية صلة بإبراهيم عليه السلام، وإن الذبيح هو إسحاق لا إسماعيل عليهما السلام، ثم يفترض أن المستعمرين الأولين بمكة كانوا من سكان اليمن الذين جاؤوا إليها بالوثنية وعبادة الحجر، وهم الذين بنوا الكعبة، وربطوا دينهم وعبادة الحجر الأسود بها وببئر

---

(١) انظر: اعتراف نولدكه في مقالاته عن القرآن في الموسوعة البريطانية الطبعة التاسعة ١٨٩١م ص٥٩٧ وما بعدها.

(٢) انظر: بحث بعنوان: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنجليزية: الأستاذ الدكتور محمد مهر علي، ص٢٤ ـ ٢٦.

(٣) انظر فيما يأتي: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنجليزية، ص٢٦ ـ ٣٣.

زمزم. أما هاجر وإسماعيل فسكنا في فاران في شمال الجزيرة العربية، ثم بعد زمن طويل جاءت قبيلة إسماعيل إلى مكة نظراً لأهميتها التجارية وسكنت فيها. فهم الذين استوردوا الأسطورة الإبراهيمية، وطعموها بالكعبة والخرافات الموجودة هناك. فاستخدم محمد ﷺ فيما بعد هذه الأسطورة الإبراهيمية لغرضه[١].

ثانياً: أما بالنسبة لحياته ﷺ المبكرة. يجدد موير الادعاء القديم أنه كان مصاباً بداء الصرع الذي تصاحبه الغشية والغيبوبة، وأنه استخدم هذه القرائن فيما بعد لتلقي الوحي[٢].

ثالثاً: يعيد موير الادعاء أن محمداً ﷺ كان طموحاً للتقدم والرقي واستهدف توحيد الجزيرة العربية سياسياً وإخضاعها لسلطته. يقول موير: كان وراء ظهور محمد ﷺ وشخصيته الهادئة والانطوائية عزيمة مخفية وتفانٍ في سبيل هدف واحد، وقوة الإرادة والثبات وهمة سامية، جميعها موجهة إلى إنجاز العمل البديع وهو إخضاع الجزيرة العربية إليه كقلب رجل واحد».

كما يقول موير بهذا الصدد: إن محمداً ﷺ أعد نفسه للدور الذي قام به فيما بعد، وذلك بحضور المنافسة الأدبية في أسواق عكاظ وذي المجنة.

رابعاً: وامتداداً لادعائه السابق، يكرر موير الحجة القديمة أنه ﷺ تزوّد بالمعلومات عن الديانتين اليهودية والنصرانية، وقد أتى بها من أفراد اليهود والنصارى الموجودين في مكة والمدينة والذين لقيهم خلال رحلتيه إلى الشام، ولا سيما من أفراد مثل ورقة بن نوفل بمكة، كما يكرر موير ما كان قد قاله بريدو من قبل: أن انطباع محمد ﷺ لهاتين الديانتين كان خاطئاً، حيث حصل على معلوماته من الكاثوليك المنحرفين.

يقول موير: «هكذا أضلت الكثلكة في الإمبراطورية عقل العصر المدبر، ومن ثم الجزء الكبير من العالم الشرقي»[٣].

خامساً: بالنسبة لأمر الوحي والرسالة. يقول موير: «إنها من نتائج تأمل

---

(١) Muir, Life of Mahomet etc., st edition, vol. i, pp. cxi, cxv, cxxv-cxxvi.

(٢) المرجع السابق، ص٢١ ـ ٢٤.

(٣) المرجع السابق، ص٢٠ ـ ٢١.

محمد ﷺ وتدبره في غار حراء، فتبادر إلى ذهنه بعض التصورات عن الله، والبعث بعد الموت، والتي أشاعها في قطع صغيرة من الشعر وتعبيرات زاخرة بالعواطف. فالوحي من ذات محمد ﷺ ونفسه وهو أمر نفسي على الأرجح»[١].
وقد سبق أن أشرنا إلى أن موير يربط داء الصرع المزعوم بالوحي.

سادساً: وبالنسبة للمرحلة الأولى للدعوة. يقول موير: «إن محمداً ﷺ لم يتخل عن الوثنية تماماً في بداية الأمر، وأنه لم يدَّع النبوة إلا بعد أن قال له المشركون إنهم لو كان قد أرسل إليهم نبي لآمنوا به»[٢].

كما يصدق موير قصة الغرانيق، ويقول: «إن محمداً ﷺ قام بالاتفاق مع الوثنيين وإنه كان في الواقع يتلقى الوحي من الشيطان». يقول موير: «إن اعتقادنا بقوة الشيطان ليقودنا إلى الأخذ في الاعتبار أن هذه كانت على الأقل من أسباب محتملة لسقوط محمد ﷺ في شبكة الخدعة. ويمكننا أن نتصور أن أثراً شيطانياً قد أوحى إليه واستولى على القلب الذي استسلم عمداً للتسوية مع الشر».

هكذا يعيد موير بعبارات أخرى ما كان قد قاله مارتن لوثر وبريدو أن النبي ﷺ كان مُدَّعياً، وتابعاً للشيطان.

سابعاً: أما بالنسبة لمعارضة المشركين فيتعاطف موير مع اعتراضاتهم ويقلل من معاناة المسلمين واضطهادهم، يقول موير: «إن المسلمين الأرقاء الذين لم تكن لهم صلة وطيدة مع أسر ذات نفوذ في المجتمع تعرضوا للعذاب، ولكن الذين ينتمون إلى الأسر والقبائل نجوا من خطر الاضطهاد»[٣].

ثامناً: أما بالنسبة للهجرة فيقول موير مثل قول جيبون من قبله: «إن النبي ﷺ تحول إلى رجل دولة، واستخدم الوحي لتحقيق أغراضه الدنيوية والشخصية»[٤].

تاسعاً: أما بالنسبة للعلاقة مع مكة بعد الهجرة، فيعيد موير كذلك الحجة القديمة «أنه ﷺ بدأ بالاعتداءات والهجوم على قريش، وأنها قاتلت دفاعاً عن نفسها فقط»[٥].

---

(١) المرجع السابق، ص٣٥ ـ ٤١.
(٢) المرجع السابق، ص٤٢ ـ ٤٣.
(٣) المرجع السابق، ص٦١.
(٤) المرجع السابق، ص٥٣.
(٥) المرجع السابق، ص١٩٦ ـ ٢٠٦.

يقول موير: «إن أفكار الضغينة خمدت في مكة، ولكن أفكار محمد ﷺ لم تكن من يوم هجرته أفكار سلام، ففي وحيه جاء التهديد بالانتقام على أعدائه. انتقام لا يؤجل إلى مستقبل الأيام بل هو عاجل وساحق على الفور. وكان بإمكانه ـ وهو آمن في مأواه الحالي ـ أن يكون منفذاً للحكم الإلٰهي وفي الوقت نفسه أن يفرض دينه وينتصر على الذين كانوا قد رفضوه. كان العدوان على قريش كامناً في صدره كبذرة ناشئة تنتظر فرصة ملائمة لتنبت»[١].

عاشراً: أما بالنسبة لمعاملته ﷺ ليهود المدينة، فيتهمه بالظلم والقسوة عليهم ويخفف أو يخفي دورهم المعادي والخياني ونقضهم العهود[٢].

حادي عشر: وكعادة السابقين له يتهم موير النبي ﷺ بالشهوة بسبب تعدد زوجاته رضي الله عنهن، كما يقول في زواجه ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله تعالى عنها «أنه استعان بوحي إلٰهي لإنقاذ سمعته»[٣].

ثاني عشر: فإن موير لا يعيد الحجة القديمة أنه ﷺ نشر وفرض دينه بالقوة والعنف فحسب بل يعيد أيضاً ادعاء مارتن لوثر ومَنْ قبله «أن الإسلام خطر على الغرب والحضارة»، فيقول في ختام كتابه: «إن سيف محمد ﷺ والقرآن هما ألدُّ أعداء الحضارة والحرية والحق حتى الآن»[٤].

هكذا يعيد موير جميع الادعاءات والافتراءات المبثوثة من قبله، وذلك بأساليب وافتراضات شتى، وجميع هذه الادعاءات والافتراضات باطلة وقابلة للدحض بالأدلة النقلية والعقلية، وستأتي مناقشتها تفصيلاً ضمن الباب المتعلق بموقف المستشرقين من سيرته ﷺ[٥].

٤ ـ صموئيل مرجليوث S. Margaliouth (١٨٥٨ ـ ١٩٤٠م):

المستشرق الإنجليزي المشهور قرر في كتابه: «محمد وظهور الإسلام» أن النبي ﷺ قد ضلل الناس عمداً عندما ادعى نزول الوحي عليه[٦].

---

(١) المرجع السابق، ص١٩٦.
(٢) المرجع السابق، ص٢٣٤ ـ ٢٣٥، ٢٧١ ـ ٢٧٦، ٣٠٤ ـ ٣١٢.
(٣) المرجع السابق، ص٢٣٨.
(٤) المرجع السابق، ص٥٠٦.
(٥) انظر فيما تقدم: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنجليزية، ص٢٤ ـ ٣٣.
(٦) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٤.

صدر كتاب مرجوليوث: «Mohammed and the Rise of Islam» «محمد ﷺ وظهور الإسلام» سنة ١٩٠٥هـ. ويقع الكتاب في ١٣ فصلاً إضافة إلى المقدمة والفهارس.

يتحدث مرجليوث في المقدمة عما كتب في السيرة قبله مشيراً إلى كتاب موير، وكتابات نولدكه وجولد زيهر عن القرآن والسُّنَّة، ويقول: «إن موقفه من المصادر يتفق وموقف أولئك المؤلفين». ولكنه يقول: «إن موير عالج السيرة من وجهة نظر النصارى»، فيدعي هو لنفسه الموضوعية في معالجة السيرة. لكنه في الواقع يفعل عكس ذلك ويشن هجوماً أعنف على النبي ﷺ مكرراً جميع ادعاءات موير ومن قبله.

ومن أهم الملاحظات على ما أورده مرجليوث في كتابه في السيرة مقارنة بمن سبقه من المستشرقين وتحديداً «موير» ما يلي[١]:

أولاً: في موضوع خلفية الرسول ﷺ وصلة الكعبة بإبراهيم عليه السلام. لا يؤيد مرجوليوث آراء موير فحسب، بل يخطو خطوة إلى الأمام قائلاً: إن الأسطورة الإبراهيمية تبدو وكأنها قد تطورت بكاملها بعد أن طرأت حاجة سياسية لها في العهد المدني.

ولا يتوقف مرجليوث إلى هذا الحد بل يسيء إلى نسب النبي ﷺ، ويقول: «إنه ينحدر من أسرة رذيلة»، ثم يحاول إثبات ذلك عن طريق تفسير محرف لبعض الأحاديث[٢].

كما يقول: «إنه ﷺ كان قبل البعثة يعبد الأصنام» ويستدل لذلك بحديث عروة بن الزبير رضي الله عنه، ونصه: «قال: حدثني جار لخديجة بنت خويلد أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: «**والله لا أعبد اللات والعزى والله لا أعبد أبداً**». قال: فتقول خديجة: خل اللات خل العزى، قال: «**كانت صنمهم التي كانوا يعبدون ثم يضطجعون**»». ويخطئ مرجوليوث في فهم العبارة الأخيرة من الحديث فيظن أنها تشير إلى عبادة النبي ﷺ للأصنام مع أنها تقرير من خديجة رضي الله عنها لصحة كلام النبي ﷺ[٣].

---

(١) انظر فيما يأتي: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنجليزية، ص٣٤ ـ ٣٩.

(٢) Margoliouth, Mohammed etc. p45-51.

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٩/٤٦٧) حديث رقم (١٧٩٤٧). وقال محقق المسند: إسناده صحيح، =

ثانياً: يعيد مرجليوث ـ مثل موير ـ زعم داء الصرع للنبي ﷺ، ويربط هذا الزعم بكيفية نزول الوحي، قائلاً: «إنه ﷺ اكتسب المهارة في إحداث القرائن للداء المزعوم احتيالاً لتلقي الوحي»[١].

ثالثاً: كما يكرر مرجليوث مزاعم طموح النبي ﷺ وإعداده نفسه للدور الذي قام به فيما بعد. ويحرف بهذا الصدد معاني سورة الشرح وآية من سورة هود[٢]، كما يقول ـ مثل موير ـ: إن هدفه ﷺ كان سياسياً من البداية، وهو توحيد الجزيرة العربية بواسطة دين خاص. ويقول: إنه كان يزور سوق عكاظ للتعرف على فن الشعر من الشعراء المنافسين هناك، فاستخدم هذه الخبرة فيما بعد لإملاء القرآن[٣]. ويقول أيضاً: إنه ﷺ شارك في حرب الفجار لنيل الرفعة والسمعة[٤].

رابعاً: كذلك يحذو مرجليوث حذو السابقين له في ادعاء الاقتباس من اليهودية والنصرانية، ويقول: إنه ﷺ تأثر على الأخص بمفهوم النبي والوحي والكتاب السماوي الموجود في هاتين الديانتين. كما يكرر الزعم القديم أن معرفته ﷺ باليهودية والنصرانية كانت خاطئة وسطحية، ولكنه لم يعتنق النصرانية لا نتيجة لذلك بل لأنه كان طموحاً ومدركاً تمام الإدراك أن اعتناق النصرانية يقتضي الاعتراف بسيطرة الإمبراطورية البيزنطية[٥].

ويضيف قائلاً: إن معرفة محمد ﷺ باليهودية والنصرانية تحسنت تدريجياً مع مضي الزمن وهذا يدل على أنه كان يستغل الفرص المناسبة حيث جاءت للحصول على معلومات أكثر عن هاتين الديانتين[٦].

خامساً: أما بالنسبة لموضوع الوحي والرسالة فيقول مرجليوث: إن هذا الأمر كان خداعاً من البداية إلى النهاية. ويستدل على ذلك بكتاب ف. بودمور

= رجاله ثقات رجال الشيخين غير جار خديجة فلم يرو له غير المصنف هذا الحديث الواحد، وهو صحابي، وجهالته لا تضر. وسيتكرر (٥/ ٣٦٢). قال السندي: يقول لخديجة: قبل النبوة أو بعدها، والأول أقرب. خل اللات: تقريراً له على ما قال.

(١) المرجع السابق، ص٦٤ ـ ٦٥.

(٢) المرجع السابق، ص٦٤ ـ ٦٥.

(٣) المرجع السابق، ص٥٩.

(٤) المرجع السابق، ص٦٥.

(٥) المرجع السابق، ص٧٧ ـ ٨٧.

(٦) المرجع السابق، ص١٠٦.

«F. Podmore» بعنوان: «Modern Spiritualism» «الروحانية الحديثة» الصادر في لندن سنة ١٩٠٣م، ويقول فيه:

«إن رجلاً شريفاً يستطيع أن يكون خادعاً في الوقت نفسه»[(١)]. وفي هذا الصدد يقارن مرجليوث النبي ﷺ بيوسف سميث «J. Smith»[(٢)]، مؤسس فرقة مورمون الأمريكية «Mormon Sect»[(٣)]، الذي تجول في الغابة فترة من الزمن ثم جاء بكتاب مدَّعياً أنه قد أنزل إليه. كذلك ـ يقول مرجليوث ـ بدأ محمد ﷺ حياته النبوية بعد فترة من الانعزال[(٤)].

وقد سبق أن أشرنا إلى أن مرجليوث يربط داء الصرع المزعوم بأمر الوحي، ويقول: إنه ﷺ اكتسب المهارة في إحداث أعراض احتيال لتلقي الوحي.

---

(١) المرجع السابق، ص٨٦.

(٢) يوسف أو جوزيف سميث (١٨٠٥ ـ ١٨٤٤م): مؤسس كنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة المعروفة باسم المورمون ولد في ولاية فيرمونت في الولايات المتحدة الأمريكية. يعتبره أعضاء كنيسة المرمون نبيّاً من الأنبياء. وبدون مقدمات معروفة في عام ١٨٢٣م أعلن جوزيف سميث أن وحياً من السماء أتاه وأخبره أنه رسول للقارة الأمريكية لتأسيس الكنيسة الأصولية، وأن على يديه سوف يظهر الألواح الذهبية المختفية أو ما أسماه بالألواح المصرية القديمة، وفي عام ١٨٢٧م ناوله الآتي من السماء واسمه موروني (كما يروي أتباعه) نص اللوح، وقام جوزيف بترجمة النص إلى اللغة الإنجليزية وصارت هذه الترجمة كتاب المورمون المقدس، وتعتبر تكملة للعهد القديم أو التوراة، وفي عام ١٨٣٠م قام جوزيف بتأسيس كنيسته التي سماها «كنيسة يسوع المسيح للقديسين الجدد أو العصريين»، وسمى مذهبه وديانته المورمونية، وبدأ يرسي نظاماً خاصاً بكنيسته، وأشهر مخالفته لكافة المذاهب المسيحية بسماحه بتعدد الزوجات في ديانته، وقد اعتبرته المذاهب الأخرى مرتداً، وقد نشب عدد من الاضطرابات بين أتباعه وباقي المذاهب المسيحية، حتى سجن ثم قتل دون محاكمة. انظر: الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان (١/ ٤٦١ ـ ٤٦٢).

(٣) المورمون: طائفة نصرانية جديدة نسبيّاً منشقة عن النصرانية الأم، ظهرت على يد يوسف سميث في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، تلبس لباس الدعوة إلى دين المسيح ﷺ، وتدعو إلى تطهير هذا الدين بالعودة به إلى الأصل، أي: إلى كتاب اليهود، ذلك أن المسيح ـ في نظرهم ـ قد جاء لينقذ اليهود من الاضطهاد، وليمكنهم من الأرض، إنها ـ كما تسمِّي نفسها ـ طائفة القديسين المعاصرين لكنيسة يسوع المسيح لقديسي الأيام الأخيرة، وكتابها المقدس هو الكتاب المقدس الحديث. يعتقدون أن الخالق ـ تعالى عن قولهم ـ على صورة إنسان، وأن المسيح خلق العالم بتوجيه من أبيه السماوي، يتميزون بإباحة تعدد الزوجات، والقول بعدم انقطاع النبوة، لهم نفوذ متزايد داخل الولايات المتحدة وتحظى الطائفة بدعم اليهود. انظر: الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان (١/ ٤٦١ ـ ٤٦٩).

(٤) المرجع السابق، ص٩٠.

إن ما يقوله بودمور في كتابه بشأن خداع رجل شريف والذي يتبناه مرجوليوث ليس بجديد، بل هو إعادة لما كان قد قاله جيبون قبل حوالي قرنين. وإن مرجليوث يعيد ادعاء الخداع مباشرة في حين يعيده موير عن طريق غير مباشر.

سادساً: أما بالنسبة للمرحلة المبكرة للدعوة فيؤيد مرجليوث جميع ما يقوله السابقون له بهذا الشأن، ويضيف إليه ادعاءات جديدة ـ مثلاً ـ يحرف قول ابن إسحاق بشأن إخفاء الدعوة في أول الأمر، ويقول: إن محمداً ﷺ وضع نفسه على رأس جمعية سرية «Secret Society» وجذب إليها أفراداً مثل أبي بكر وعثمان رضي الله عنهما بشتى الوسائل المشكوك فيها[١].

ويعزو مرجليوث إلى النبي ﷺ غرضاً عسكرياً في أمر الهجرة إلى الحبشة، فيقول: إنه ﷺ أرسل جمعاً من أصحابه إليها للحصول على مساعدتها العسكرية، ولكي يعود أولئك المهاجرون على رأس جنود من الحبشة منتصرين[٢]. كما يصدق مرجليوث قصة الغرانيق، ويقدم بهذا الصدد نظرية غريبة وبعيدة كل البعد عن الحقائق قائلاً: إنه ﷺ قام بهذه التسوية المزعومة مع المشركين من أجل التخلص من حصارهم على بني هاشم[٣].

وهكذا يعيد مرجليوث ادعاءات السابقين له بالنسبة لبقية الموضوعات المهمة للسيرة.

سابعاً: يتعاطف مرجليوث مع معارضة المشركين واعتراضاتهم، حتى إنه يندم على فشلهم في مؤامرتهم في قتل النبي ﷺ عشية هجرته إلى المدينة[٤].

ثامناً: يزعم مرجليوث: إنه بعد الهجرة تحول النبي ﷺ إلى رجل دولة، واستخدم الوحي لأغراضه السياسية والشخصية.

تاسعاً: يقول: إنه ﷺ كان بادئاً بالعدوان على قريش فجعل نفسه على رأس شرذمة من اللصوص لنهب القوافل التجارية[٥].

---

(١) المرجع السابق، الفصل الثالث.
(٢) المرجع السابق، ص١٥٧ ـ ١٦٦.
(٣) المرجع السابق، ص١٧١ ـ ١٧٣.
(٤) المرجع السابق، ص٢٠٨.
(٥) المرجع السابق، ص٢٣٦ وما بعدها.

عاشراً: طرد محمد ﷺ يهود المدينة وعذبهم ظلماً وعدواناً[(١)].

حادي عشر: كان محمد ﷺ شهوانياً[(٢)].

ثاني عشر: فرض الإسلام على الجزيرة بالسيف والقوة[(٣)].

وهكذا يعيد مرجليوث الادعاءات القديمة ويضخمها بأسلوب متحامل بعيداً عن الإنصاف وروح الموضوعية العلمية[(٤)]. يقول الدكتور عبد الرحمٰن بدوي عن انتاج مرجليوث:

«وفي ١٩٠٥م بدأ نشر دراساته عن الإسلام، وذلك بكتاب «محمد ونشأة الإسلام» الذي ظهر ١٩٠٥م وقفى عليه بكتاب «الإسلام» mohammedanism[(٥)] في ١٩١١م، ثم ألقى محاضرات عن «تطور الإسلام في بدايته» ونشرت ١٩١٤م. لكن هذه الدراسات كانت تسري فيها روح غير علمية ومتعصبة، مما جعلها تثير السخط عليه ليس فقط عند المسلمين، بل وعند كثير من المستشرقين. وبنفس الروح كتب محاضراته بعنوان: «العلاقات بين العرب واليهود» الذي ظهر في ١٩٢٤م»[(٦)].

(١) المرجع السابق، الفصل التاسع.

(٢) المرجع السابق، ص٦٦.

(٣) المرجع السابق، الفصلان الحادي عشر والثاني عشر.

(٤) انظر فيما تقدم: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنجليزية، ص٣٤ ـ ٣٩.

(٥) الترجمة النصية لعنوان الكتاب هي: المحمدية، ويقصد به الإسلام على طريقة بعض المستشرقين المتحاملين في تسمية الإسلام بالمحمدية والمسلمين بالمحمديين، ولهذا عبر عنه الدكتور بدوي بـ(الإسلام).

(٦) موسوعة المستشرقين، ص٥٤٦.

الفصل الرابع

أثر كتابات المستشرقين عن النبي ﷺ في الكتابات المعاصرة



تمهيد

يعتبر الاستشراق ذو أثر كبير في العالم الغربي وفي العالم الإسلامي على السواء، وإن اختلفت ردود الأفعال على كلا الجانبين. ففي العالم الغربي لم يعد في وسع أحد أن يكتب عن الشرق أو يفكر فيه أو يمارس فعلاً مرتبطاً به إلا بعد أن يتخلص من القيود التي فرضها الاستشراق على حرية الفكر أو الفعل في هذا المجال من حيث إن الاستشراق «يشكل شبكة المصالح الكلية التي يستحضر تأثيرها بصورة لا مفر منها في كل مناسبة يكون فيها ذلك الكيان العجيب (الشرق) موضوعاً للنقاش»[١].

وأما في العالم العربي الإسلامي المعاصر فلا يكاد يجد المرء مجلة أو صحيفة أو كتاباً إلا وفيها ذكر أو إشارة إلى شيء عن الاستشراق أو ما يمت إليه بصلة قريبة أو بعيدة. وهذا أمر ليس بمستغرب، ذلك أن الاستشراق في حقيقة الأمر كان ولا يزال جزءاً لا يتجزأ من قضية الصراع الحضاري بين العالم الإسلامي والعالم الغربي، بل يمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول: إن الاستشراق يمثل الخلفية الفكرية لهذا الصراع[٢].

ولهذا فلا يجوز التقليل من شأنه بالنظر إليه على أنه قضية منفصلة عن باقي دوائر هذا الصراع الحضاري. فقد كان للاستشراق من غير شك أكبر الأثر في صياغة التصورات الأوروبية عن الإسلام، وفي تشكيل مواقف الغرب إزاء الإسلام على مدى قرون عديدة.

---

(١) الاستشراق: لإدوارد سعيد، ص٣٩.

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص١٧.

ولا يزال الأوروبيون حتى اليوم يستقون معلوماتهم عن الإسلام من كتابات المختصين في هذا المجال من الأوروبيين، وهؤلاء هم بطبيعة الحال من طبقة المستشرقين، هذا فضلاً عما يكتبه بعض الأدباء أو الفلاسفة الأوروبيين. ولكن كتابة هذا الفريق الأخير لا تخرج في الغالب عن كونها مبنية على كتابات المستشرقين.

والاستشراق قضية تتناقض حولها الآراء في عالمنا الإسلامي، فهناك من يؤيده ويتحمس له إلى أقصى حد، وهناك من يرفضه جملة وتفصيلاً بوصفه عدواً للإسلام والمسلمين[١].

والواقع الذي لا يمكن إنكاره هو أن الاستشراق له تأثيراته القوية في الفكر الإسلامي الحديث إيجاباً أو سلباً أردنا أم لم نرد. ولهذا فإننا لا نستطيع أن نتجاهله أو نكتفي بمجرد رفضه، بل لا بد من مواجهة المشكلة وطرحها على بساط البحث ودراستها واستخلاص النتائج واقتراح الحلول.

وفيما يلي سيتناول البحث تأثيرات الكتابات الاستشراقية على العالمين الغربي والعربي وأثر هذه الكتابات في موضوع بحثنا المتعلق بنبينا محمد ﷺ، وذلك وفق العناوين التالية:

المبحث الأول: أثر الكتابات الاستشراقية في الكتابات الغربية.

المبحث الثاني: أثر الكتابات الاستشراقية في الكتابات العربية.

---

(١) المرجع السابق، ص١٨.

المبحث الأول

أثر الكتابات الاستشراقية في الكتابات الغربية

رغم أن الكتابات الاستشراقية هي نوع من الكتابات الغربية والتي تميزت في تناولها للشرق عموماً ـ ومن ذلك ما يتعلق بالدين الإسلامي ونبيه محمد ﷺ ـ إلا أن هذه الكتابات الأخص كان لها تأثير على عموم الفكر الغربي في تناوله للقضايا المتعلقة بالإسلام عقيدة وشريعة وحضارة، وبالنبي محمد ﷺ في نبوته ورسالته وأخلاقه وسلوكه.

فالاستشراق يعد من أهم المصادر المعرفية عن الإسلام ونبيه محمد ﷺ، ولهذا فقد كان المجتمع الغربي بدءاً من مثقفيه وأعلامه وانتهاء بعامته يستند في كثير من تصوراته وفهمه عن الإسلام ونبيه من خلال ما يكتبه هؤلاء المستشرقون، فللاستشراق إذاً الأثر البالغ في تكوين الصورة النمطية عن الإسلام كدين وعن النبي محمد ﷺ كنبي ورسول ومبلغ لهذا الدين.

وإذا كان الفكر الغربي قد تشوهت صورة الإسلام ونبيه ﷺ لديه خلال قرون طويلة مضت فإنه لا بد أن لا ننسى دور كثير من المستشرقين في ذلك فقد غذى هؤلاء هذه الصورة السلبية خلال فترات طويلة من التاريخ.

إن هذا الدور الخطير الذي لعبه المستشرقون قد أسهم إسهاماً كبيراً في إبعاد أوروبا عن المصادر العلمية الحقيقية التي تكشف لهم عن عظمة رسول الله ﷺ، وتثبت لهم دلائل صدق نبوته، وعالمية دينه وسمو قرآنه، ولا غرو: «فمن الصعب على معظم المستشرقين النصارى المشتغلين بدراسة الإسلام ـ وأكثرهم متدينون ـ أن ينسوا أنهم يدرسون ديناً ينكر عقائد أساسية في النصرانية، ويهاجمها ويفندها، مثل عقيدة التثليث، وعقيدة الصلب والفداء، كما أنه من الصعب عليهم أن ينسوا أن الدين الإسلامي قد قضى على النصرانية في كثير من بلاد الشرق وحل محلها»[١].

وهذه الحقيقة التي يسجلها أليكسي جورافسكي حين يصرح أنه: «في الوقت الذي يؤكد فيه (علم الإسلاميات) الغربي سعيه الحثيث لتفكيك (الأساطير) و(الحكايات الخرافية) و(القصص السخيفة) المتداولة في التراث الديني الشرقي، نجد أن (علم الإسلاميات) هذا شكَّلَ بدوره عدداً ضخماً من الأساطير والخرافات الغربية الجديدة حول الإسلام، ولم يفعل شيئاً مهماً سوى أنه أضفى صيغة علمية على الأضاليل القديمة، والخرافات والقوالب النمطية الغربية العتيقة عن الإسلام. ومن هنا يلاحظ أي باحث موضوعي أن الأغلبية المطلقة من مستشرقي القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين لم يتخلصوا من المواقف المسبقة الموجهة ضد الإسلام، سواء أكان عداؤها صريحاً مباشراً وعنيفاً أم كان يتسم بعدم الارتياح تجاه الشعوب الإسلامية»[٢].

وفيما يلي نذكر أدلة في هذا المقام تبين بجلاء مدى الانحراف في العرض والمنهج إضافة لسوء الفهم الذي وقع فيه كثير من المستشرقين في نقلهم لصورة الإسلام ونبيه محمد ﷺ وكيف أثر هذا الانحراف في الفكر الغربي[٣].

ابتداء يؤكد المستشرق الفرنسي تولمين على عجز المستشرقين عن فهم الثقافة الشرقية، وذلك لأنهم لم يتمثلوها ولم يعيشوها فتعذر عليهم التعبير عنها بموضوعية وتجرد، كما يقول: «اعترف رجال شديدوا الذكاء بعد أن كرسوا الكثير

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص٧٢.

(٢) أليكسي جورافكسي: الإسلام والمسيحية، ص١٠٥.

(٣) انظر: مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين: د. علي بن إبراهيم النملة، ص١٩ وما بعدها.

من وقتهم للأبحاث الشرقية أنهم لو كان عليهم أن يصلوا إلى فهم تام للفلسفة (الأفكار) الشرقية لاستلزم الأمر أن يعتزلوا أوروبا كلها، ولبدأوا الحياة من جديد كشرقيين»[١].

ويذكر إشتيفان فيلد ـ المستشرق الألماني ـ أنه «توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخّروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم لا بد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة»[٢].

كما يذكر المستشرق الألماني أولريش هارمان أن «الدراسات الألمانية حول العالم الإسلامي قبل عام ١٩١٩م أقل براءة وصفاء نية، فقد كان «كارل هينرش بيكر» ـ وهو من كبار مستشرقينا ـ منغمساً في النشاطات السياسية، حتى أصبح في عام ١٩١٤م شديد الحماس لمخطط استخدام الإسلام في أفريقيا والهند كدرع سياسية في وجه البريطانيين»[٣].

ويقول المستشرق البريطاني مونتغمري وات: «جد الباحثون منذ القرن الثاني عشر في تعديل الصورة المشوهة التي تولدت في أوروبا عن الإسلام، وعلى الرغم من الجهد العلمي الذي بذل في هذا السبيل فإن آثار هذا الموقف المجافي للحقيقة التي أحدثتها كتابات القرون المتوسطة في أوروبا لا تزال قائمة، فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتنابها»[٤].

وقريب من هذا ما صرح به المستشرق نفسه في محاضرة أخرى حيث يذكر «أن الأوروبيين في عصر النهضة كان لا يزال لديهم إحساس بالنقص بالنسبة للمسلمين؛ ولذلك عمد مفكروهم إلى تشويه حقائق الإسلام، فعرضوا الإسلام وتاريخ المسلمين في صورة منفرة. ولكننا معشر الغربيين في القرن العشرين لم تعد تسيطر علينا عقدة النقص كما كان الحال في عصر النهضة، وذلك بعد انتقل زمام السيادة إلى أوروبا وأصبحت لها السيطرة والغلبة، ولذا أصبحنا الآن لا نجد حرجاً في ذكر الحقائق دون تحريف، وبالتالي ظهر الإنصاف والموضوعية فيما

---

(١) فلاسفة الشرق: أ. ر. ف توملين، ترجمة: عبد الحليم سليم، ص١٦٨.
(٢) الإسلام في مرآة الفكر الغربي: د. محمود حمدي زقزوق، ص٦٠.
(٣) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية، ص٣١ ـ ٣٢.
(٤) المستشرقون والإسلام، ص٣٦ ـ ٣٧.

نكتب عن الإسلام والمسلمين»[١]، وضرب مثلاً بكتابه «محمد في مكة» و«محمد في المدينة».

والمتتبّع لهذين الكتابين وكتابه الثالث «محمد الرسول ورجل الدولة» لا يجد الإنصاف الذي يذكره «مونتغمري وات». فقد اتكأ فيها على معلومات سابقيه، وفسر بعض الأحداث التي مرت بالرسول ﷺ تفسيراً مادياً[٢].

ويقول برنارد لويس: «لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية»[٣].

كما يذكر نورمان دانيل أنه «على الرغم من المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب النصارى من الإسلام فإنهم لم يتمكنوا من أن يتجرَّدوا منها تجرَّداً تاماً كما كانوا يتوهَّمون»[٤].

وينتقد المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون بعض المستشرقين بقوله: «ولم ير المستشرقون في الشرق إلا ما كانوا يريدون رؤيته، فاهتموا كثيراً بالأشياء الصغيرة والغريبة، ولم يكونوا يريدون أن يتطور الشرق ليبلغ المرحلة التي بلغتها أوروبا، ومن ثم كانوا يكرهون النهضة فيه»[٥]، ومثل هذا القول ما ذكره المستشرق نفسه ـ مكسيم رودنسون ـ في موضع آخر حيث يقول: «وحين كان الغربيون يذهبون إلى الشرق كانت تلك الصورة التي يبحثون عنها، فينتقون ما يرونه بعناية، ويتجاهلون كل ما لا ينسجم مع الصورة التي كوّنوها سابقاً»[٦].

وقريب من هذا ما يذكر عن المؤرخ الأمريكي بريستيد (١٩٣٥م) قوله عن المستشرقين إنهم «يريدون قتل حضارة الشرق عمداً لأنهم يريدون إخفاء الحقيقة»[٧]. ومثله قول مستشرق آخر هو الإنجليزي إدوارد دينسون روس

---

(١) أضواء على الاستشراق، ص١١.

(٢) مصادر المعلومات عن الاستشراق، ص١٣.

(٣) المستشرقون والإسلام، ص٦.

(٤) التبشير والاستشراق: محمد عزت الطهطاوي، ص٤٥ ـ ٤٥٦، والاستشراق بين الموضوعية والافتعالية: قاسم السامرائي، ص٦٩.

(٥) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ص١١٦.

(٦) تراث الإسلام: شاخت وبوزورث، ترجمة: محمد السمهوري (١/ ٨٠).

(٧) انتصار الحضارة: بريستيد، ترجمة: أحمد فخري، ص٣٠٨.

(١٩٤٠م): «إن المعرفة بالمحمدية التي تملكها أوروبا منذ قرون قائمة على أساس التقارير المشبوهة والمغلوطة كلياً التي أعدها المسيحيون. وهذا هو الأمر الذي أدى إلى نشر الأكاذيب والافتراءات المتنوعة حول المحمدية. فكل خير وجدوه في المحمدية أخفوه تماماً، وكل شيء لم يكن محموداً في عين أوروبا كبّروه وبالغوا في بيانه، أو شوّهوا صورته في التعبير عنه»[١].

ولا شك بأن هذه المواقف الاستشراقية هي التي أسهمت إسهاماً فاعلاً في تحديد الموقف الغربي بعامة من الإسلام عبر مراحل تاريخية متعددة.

أما في وقتنا الحاضر فقد كثرت المؤلفات حول نظرة الغرب للإسلام والمسلمين، وهي تلقي باللائمة على «الشرخ» الذي أحدثه المستشرقون حول هذه النظرة[٢].

وقد أصدرت اليونسكو كتاباً حول الإسلام اليوم لمارسيل بوازار. ومما قال فيه: «أسباب عدم تفهم الغرب للإسلام عديدة ومعقدة. إنها تستند أساساً على دوافع دينية، تاريخية نفسية، ثقافية وتثقيفية، ومجدداً الآن، على اعتبارات سياسية واجتماعية ـ اقتصادية.

على الصعيد الديني أولاً، نظرة المسيحية لم تتغير، أو لم تتغير إلا قليلاً منذ ١٥ قرناً. إنها مطابقة للموقف المألوف لكل دين منزل، مظهرة لشيء من التسامح العقائدي إزاء الأديان السابقة (أنبياء اليهودية في هذه الحالة)، لكنها قابلت بالرفض المطلق ديناً لاحقاً: الإسلام. ظهور الإسلام اللاحق تاريخياً شوّه حقيقة النهائية في نظر النصارى. بدأ الإسلام منذ البيزنطيين كانحراف للنصرانية. فقد ألصقت بالنبي محمد أوصاف وقحة، وفي النهاية عبثية. فقد صور في صورة راهب مرتد أو في صورة مشابهة. فقد كان النصارى آنذاك يظنون أن بوسعهم تشويه الإسلام بتشويه رسوله محمد بمقارنة ساذجة مع المسيحية. وهكذا فالإسلام غداً يدعى بالمحمدية»[٣].

ويقول: «قام بعض الاختصاصيين بدراسات علمية وشكّلوا تدريجياً ما

---

(١) أضواء على الاستشراق، ص٦٢.

(٢) مصادر المعلومات عن الاستشراق، ص١٥.

(٣) الإسلام اليوم: مارسيل بوازار، ص١٦ ـ ١٧.

تواضع الناس على تسميته بالاستشراق. كان الباعث في القرن السادس عشر تبشيراً. فقد كان لا بد من معرفة الإسلام معرفة جيدة لمحاربته محاربة جيدة على مستوى العقيدة»[١].

وهكذا ـ كما يذكر بوازار ـ فإن «كتابات المستشرقين، عدا بعض الاستثناءات االنادرة، لم تساهم كثيراً في تحسين تفهم الإسلام أو إعادة دقة الصورة التي كانت لدى الرأي العام الغربي إلى نصابها الصحيح.

أولاً: لأن أشغالهم كانت غالباً تقدم إلى الجمهور بلغة متخصصة جداً، صعبة المنال بالنسبة لجمهور غير عارف بالموضوع.

ومن جهة أخرى: لأن الاستشراق كان في الأصل أحد الفروع العلمية المرتبطة بالعلوم الاستعمارية في فرنسا، وفي بريطانيا العظمى، وفي البلاد الواطنة. فقد كان المطلوب إجمالاً فهم العقلية الإسلامية فهماً جيداً لتسهيل الإدارة للشعوب الإسلامية[٢].

ويشير بوازار بعد ذلك إلى أن الاستشراق قد «نجح في رسم صورة للشرق مشوّهة كلياً مظهرة ما هو مضاد لرموز الغرب: العقلاني، المعتدل والتقدمي. إن ثقة ـ بل غطرسة ـ المستشرقين بأنفسهم بلغت درجة من شأنها أن تحدث اغتراباً ثقافياً (Acculturation) لدى بعض المثقفين، بحيث إن العربي يتصور نفسه كما يصفه الأخصائيون الغربيون»[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص١٨.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٩ ـ ٢٠.

(٣) المرجع السابق، ص٢١.

المبحث الثاني

أثر الكتابات الاستشراقية في الكتابات العربية

لقد كان للدراسات الاستشراقية أثر ظاهر في الشرق الإسلامي عموماً والعربي منه على وجه الخصوص، ويتبين هذا الأثر في شخصيات كثيرة تبنت اتجاهات المستشرقين وآرائهم في كثير من المفاهيم الإسلامية والحوادث التاريخية، ومن ذلك ما يتعلق بنبينا محمد ﷺ.

فقد تلقف عدد من الباحثين العرب كتابات المستشرقين وآرائهم حول النبي ﷺ على محمل الجد والاهتمام بل والتبجيل في أحيان كثيرة، وتبع هؤلاء المستشرقين في ترجيحاتهم واختياراتهم بل وحتى مناهجهم دون تمحيص أو تحقيق، وقد أدى ذلك بهم إلى انحرافات منهجية وموضوعية عديدة.

وسنتتبع فيما يلي أبرز هذه الآراء، من خلال محورين ظهر فيهما الأثر الاستشراقي واضحاً وجلياً في بعض الكتابات العربية، وهما:

- التشكيك في سيرة النبي محمد ﷺ.
- إنكار معجزاته ﷺ وتأويل معناها.

١ ـ التشكيك في سيرة النبي محمد ﷺ:

انتهج عدد من المستشرقين منهج التشكيك في مصادر السيرة النبوية، وقد تنوعت أساليب التشكيك لديهم: فتارة يذكرون أن مصادر السيرة قد سجلت في وقت متأخر جداً عن وفاته ﷺ كما يشير إلى ذلك فيليب حتي[١]، أو إنها لا تخلو من ميل أو شبهة أو هوى كما يدعي إميل درمنغم[٢]، أو إن القرآن الكريم هو المصدر الإسلامي الأهم والأوثق، وبالتالي يجب الركون إليه وطرح ما سواه كما يذكر ذلك فيليب حتي[٣]، ورودي باريت، وريجيس بلاشير[٤]. وقد تبع هؤلاء في تشكيكهم في مصادر السيرة عدد من الكُتَّاب العرب المحدثين.

فمن هؤلاء محمد عزة دروزة[٥] في كتابه: «سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم»[٦]. حيث يذكر فيه أن الذي حذا به إلى تأليف كتابه هذا هو الاختلاف الحاصل في مصادر السيرة النبوية بحيث لم تعد تبعث في النفس الطمأنينة والثقة بها، فضلاً عن اليقين، ومثّل لذلك بسيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد! وبناء عليه يشكك دروزة في كثير من مرويات السيرة النبوية، بحجة أن هذه المرويات تختلف حول الحدث الواحد، إضافة إلى كونها تناقض النصوص القرآنية[٧].

وممن اعتمد منهج التشكيك أيضاً، محمد حسين هيكل[٨] في كتابه «حياة

---

(١) الإسلام منهج حياة، ص١٢.

(٢) حياة محمد: و.

(٣) الإسلام منهج حياة، ص١٣.

(٤) le problem de Mahomet-p1 نقلاً عن نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٠٥.

(٥) محمد عزة دروزة (١٣٠٥ ـ ١٤٠٤هـ): باحث ومؤرِّخ فلسطيني. خاض معترك السياسة منذ نشأته، اهتم بتاريخ العرب والمسلمين وعلى وجه الخصوص القضية الفلسطينية، له مؤلفات كثيرة من أهمها: «عصر النبي ﷺ وبيئته»، «سيرة الرسول ﷺ صورة مقتبسة من القرآن الكريم»، «القرآن والمرأة»، «القرآن واليهود». انظر: تكملة معجم المؤلفين، ص٥٢٣ ـ ٥٢٦.

(٦) صدرت طبعته الأولى عام ١٩٤٨م عن مطبعة الاستقامة بالقاهرة في مجلدين.

(٧) سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم: محمد عزة دروزة (١/ ٧ ـ ٨).

(٨) هيكل (١٣٠٥ ـ ١٣٧٦هـ): محمد بن حسين بن سالم هيكل: كاتب صحفي، مؤرخ من أعضاء المجمع اللغوي، ومن رجال السياسة، بمصر. حصل على (الدكتوراه) في الحقوق من السربون بفرنسا، أكثر من الكتابة في جريدة «الجريدة» وترأس تحرير جريدة السياسة اليومية ثم الأسبوعية. ودرّس القانون المدني في الجامعة المصرية القديمة. وكان من أركان الحزب الدستوري المناوئ =

محمد ﷺ» الذي دندن فيه كثيراً حول ما سماه بالطريقة العلمية الحديثة في كتابة السيرة النبوية، وكان من جملة ما دفعه إلى هذه الطريقة زعمه تأخر تدوين كتب الحديث والسيرة النبوية إلى ما بعد وفاة النبي ﷺ بمائة عام أو أكثر، وذلك في ظروف المنازعات السياسية والتي كان اختلاق الروايات والأحاديث بعض وسائلها إلى الذيوع والغلب(١).

ثم بعد ذلك بصفحات يزعم هيكل تأخر كتابة الحديث والسيرة النبوية إلى عهد المأمون وقد مضى قرابة قرنين على وفاة النبي ﷺ بعد شيوع الأحاديث الموضوعة بكثرة راعت المسلمين إذ ذاك.

يقول هيكل: «قام الجامعون بجمع الأحاديث، وتولى كُتَّاب السيرة كتابتها، فقد عاش الواقدي وابن هشام والمدائني وكتبوا كتبهم أيام المأمون، وما كان لهم ولا لغيرهم أن ينازعوا الخليفة في آرائه مخافة ما يحل به، ولذلك لم يطبقوا، بما يجب من الدقة هذا المقياس الذي روي عن النبي ﷺ من وجوب عرض ما يروى عنه على القرآن، فما وافق القرآن فمن الرسول ﷺ، وما خالف القرآن فليس عنه»(٢).

بل هو يرى أن أكثر كتب السيرة أضافت إلى حياة النبي ﷺ ما لا يصدقه العقل، ولا حاجة له في ثبوت الرسالة، ويرى أنه قد دس فيها خرافات لا يسيغها العقل، ولا يقبلها الذوق(٣).

ثم إن مقاييس المحدثين غير كافية في نظر هيكل لقبول الحديث، وعنده أن «خير مقياس يقاس به الحديث وتقاس به سائر الأنباء التي ذكرت عن النبي ﷺ ما روي عنه عليه السلام أنه قال: «**إنكم ستختلفون من بعدي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فمني، وما خالفه فليس عني**». وهذا مقياس دقيق أخذ به أئمة المسلمين منذ العصور الأولى، وما زال المفكرون يأخذون به إلى يومنا الحاضر»(٤). ثم هو مقياس «يتفق مع قواعد النقد العلمي الحديث أدق اتفاق»(٥).

= لسعد زغلول وحزبه. وولي وزارة المعارف مرتين، ثم رئاسة مجلس الشيوخ. من مؤلفاته: «حياة محمد» و«الصِّدِّيق أبو بكر» و«الفاروق عمر». انظر: الأعلام (٦/١٠٧).

(١) حياة محمد، ص٥٢ ـ ٥٣.
(٢) المرجع السابق، ص٥٤ ـ ٥٥.
(٣) المرجع السابق، ص٢٦.
(٤) ص٥٣.
(٥) ص٥٤.

ورغم اتفاقنا مع الكاتب في اعتبار القرآن الكريم المصدر الأوثق للسيرة النبوية، بحيث يرد كل ما يعارضه مما ورد في مصادر السيرة الأخرى، لكن لا نتفق معه في منهج التشكيك هذا الذي اعتمده بإطلاق، وحاول به نسف مرويات السيرة؛ لأن ما تذرع به لا يكفي للطعن فيها، إذ إن اختلافها حول الحدث الواحد، والتناقض فيما بينها لا يعني ردها كلها، بل فيها الصحيح والضعيف والراجح والمرجوح، فنقبل الأول ونرد الثاني وفق قواعد المحدثين. هذا إذا تعذر الجمع فيما بينها، بوجه من الوجوه، أما إذا أمكن ذلك فالجمع مقدم على الترجيح كما هو معلوم عند أهل الشأن.

هذا فضلاً عن أن القرآن الكريم لم يعرض لكل أحداث السيرة، بل عرض لبعضها فقط، أما تفاصيل الأحداث فمظنتها كتب الحديث والسيرة النبوية. ولو سلمنا بدعوى دروزة وهيكل، لافتقدنا كثيراً من أحداث السيرة، وكثيراً من تفاصيلها[١].

ودعوى هيكل تأخر تدوين كتابة الحديث إلى ما بعد وفاة النبي ﷺ بمائة عام أو أكثر مردود عليه، ولا أساس له من الصحة، فثمة نصوص كثيرة تثبت كتابة الحديث على عهد الرسول ﷺ، كتلك التي أخرجها البخاري في صحيحه في كتاب العلم باب كتابة العلم. إضافة إلى كتابته ﷺ لصحيفة المدينة في السنة الأولى من الهجرة، وكتبه ومعاهداته المدونة ﷺ، والتي كانت بينه وبين كثير من بطون العرب وطوائف اليهود والنصارى، فضلاً عن كتبه ﷺ إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، وإلى عماله وقادة جيشه فيما يتعلق بأحكام الدين وشؤون الدولة[٢]. وقد أربت هذه الكتب على ثمانين ومائتي كتاب، كما ذكر ذلك محمد حميد الله في كتابه «مجموعة الوثائق السياسية»[٣].

وخطأ هيكل ـ ومن شايعه في مقولته ـ جاء من كونه لم يفرق بين الكتابة والجمع والتدوين، فقد كتب الحديث في عهد النبي ﷺ، وجمع في عهد عمر بن عبد العزيز، ودُوِّن في عهد المأمون. ثم إن السيرة النبوية، وهي جزء من

---

(١) الكتابة العربية المعاصرة في السيرة النبوية، قضايا وملاحظات: أحمد محمد فكير، ص٥.

(٢) أصول الحديث، علومه ومصطلحه: عجاج الخطيب، ص١٨٩.

(٣) انظر: مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة: محمد حميد الله.

الحديث، نجد أعلام الطبقة الأولى ألفوا فيها كتباً في القرن الهجري الأول أمثال عروة بن الزبير (ت٩٤هـ)، وشرحبيل بن سعد (ت١٠٣هـ)، وأبان بن عثمان (ت١٠٥هـ). ثم تلتهم طبقة أخرى في القرن الهجري الثاني أبرز أعلامها عبد الله بن أبي بكر بن حزم (ت١٠٥هـ)، وعاصم بن عمر بن قتادة (ت١٢٠هـ)، ومحمد بن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ). فما كتبه هؤلاء الرواد الأوائل في المغازي، والنقول التي وصلتنا عنهم[(١)]، هي أبلغ رد على هيكل وأمثاله ممن يرجمون بالغيب، ويصادمون حقائق التاريخ.

على أن دعوى هيكل هذه إنما تلقفها من بعض المستشرقين، كما تلقفها غيره أتباع كل ناعق. وإنما أُتي هؤلاء من ظنهم أن أول كتاب في الحديث هو كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس (ت١٧٩هـ)، وأول كتاب في السيرة كتاب المغازي لابن إسحاق، فاعتبروا العقود الأولى من القرن الثاني بداية تدوين الأخبار والسير، وليس الأمر كذلك، فإن بواكير التدوين بدأت في عهد الرسول ﷺ وفي القرن الأول الهجري[(٢)].

ومن العجيب أن هيكل في الوقت الذي يشكك في كتب الحديث والسيرة، نجده يصرح في مقدمة كتابه أن كتب المستشرقين عاونته كما عاونته كتب السيرة والتفسير في الاهتداء إلى غاية يطمئن إليها![(٣)].

٢ ـ إنكار المعجزات النبوية وتحريف معانيها:

أنكر كثير من المستشرقين المعجزات النبوية جملة وتفصيلاً، بينما زعم كثير منهم أنه ﷺ لم تكن له معجزة سوى القرآن الكريم، ولهم في ذلك شبهات وضعوها ظهر تأثيرها جلياً في كتابات بعض كُتَّاب السيرة النبوية من المنتسبين للإسلام.

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية: د.أكرم ضياء العمري (١/٥٣ ـ ٥٦).

(٢) الرسالة المحمدية: لسليمان الندوي، ص٧٨، وقد فصل القول في الرد على هذه الدعوى عدد من العلماء الأجلاء؛ كالدكتور مصطفى السباعي في كتابه «السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي»، والدكتور محمد أبوشهبة في كتابه «دفاع عن السُّنَّة»، والدكتور صبحي الصالح في كتابه «علوم الحديث ومصطلحه»، وغيرهم.

(٣) حياة محمد، ص٢٠.

يقول المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون: «ولم يقل محمد إنه يأتي بالخوارق مع إيمانه برسالته، وعزا المسلمون إليه خوارق كثيرة مجاراة للعنعنات الشائعة القائلة إنه لا نبوة بغير خوارق»[١].

ويقول المستشرق سيديو[٢]: «ومما يروى، أيضاً، أن عروج محمد الخارق للعادة قد تم في تلك السنة على البراق[٣] الذي هو حيوان عجيب فانتهى إلى حضرة الله العلي، ولم تكن هذه الرحلة غير ضرب من الرؤى عند أكثر علماء المسلمين، ولم تكن هذه الأحاديث التي تلائم خيال العرب المتقد من الوسائل التي يبحث عنها الرسول الجديد للتأثير، وما أكثر ما طلب منه أن يأتي بمعجزات يؤيد بها رسالته، فيجيبهم عن سؤالهم بالآية (٧)[٤] من سورة الرعد: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾»[٥]. ويقول في موضع آخر: «وما أكثر ما كان محمد يعترض على بعض ما يعزوه إليه أشد أتباعه حماسة من الأعمال الخارقة للعادة! ولكن ذلك كان من دواعي ألم المسلمين الحقيقيين الذين ودوا لو أن محمداً أيد رسالته بالآيات البينات، وهم، لكي يخففوا في نفوس أتباعه من أثر اعترافه بعدم قدرته على الإتيان بها، لم يحجموا عن اكتشافهم في القرآن نبوءات كانت قد تحققت، أو عن عدهم أمراً واقعياً ما صدر عن الخيال الجامح من الرؤى... ويظهر أن محمداً أراد في الآيات: ٨٩ ـ ٩٣[٦] من سورة الإسراء أن ينقض سلفاً جميع تلك القصص الوهمية، فجاء فيها:

---

(١) حضارة العرب، ص١١٣.

(٢) سيديو (١٢٢٣ ـ ١٢٩٢هـ): لويس بيير أوجين أميلي سيديو، مستشرق فرنسي، مولده ووفاته بباريس.
تخرّج بكلية هنري الرابع، وعين مدرساً للتاريخ في كلية «بوربون» سنة ١٨٢٣م واشتغل بعلم الفلك، وعلت شهرته. من مؤلفاته: «خلاصة تاريخ العرب» ترجمه: عادل زعيتر وسمّاه «تاريخ العرب العام» و«جامع المبادئ والغايات في الآلات الفلكية». انظر: مجلة المجمع العلمي العربيّ (٧/ ٤٤٣)، وآداب شيخو (٢/ ٥٤)، والأعلام (٥/ ٤٦).

(٣) المعروف في كتب السُّنَّة أن الإسراء لا المعراج هو الذي تم على البراق.

(٤) في المصدر: بالآية (٨) من سورة الرعد ثم ذكر الآية (٧) التي ذكرت في المتن، فلعله سهو من المؤلف أو المترجم.

(٥) تاريخ العرب العام: إمبراطورية العرب، حضارتهم، مدارسهم الفلسفية والعلمية والأدبية: ل. أ. سيديو، ترجمة: عادل زعيتر، ص٧١.

(٦) في المصدر: ذكر أن رقم الآيات ٩٢ ـ ٩٥ ثم ذكر الآيات المثبتة أعلاه، وهو خطأ ظاهر.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾[(١)].

وإنكار المعجزات النبوية والتعسف في تأويلها باب فتحه المستشرقون وولج منه جمع ممن كتب في السيرة النبوية في هذا العصر، وكان من أبرز من تولى كِبر ذلك رواد المدرسة العقلية الحديثة، أو ما يمكن تسميته بالاتجاه التوفيقي في كتابة السيرة النبوية، وهو الاتجاه الذي حاول التوفيق بين معطيات الدين الإسلامي ومعطيات الحضارة الغربية الحديثة.

ولقد كانت مسألة المعجزات هذه من أكثر قضايا السيرة النبوية التي برز فيها هذا الاتجاه، تارة بإنكارها وعدم ذكرها أصلاً، وتارة بالتشكيك فيها، وتارة أخرى بتأويلها حتى تصبح من قبيل المألوف. فالطير الأبابيل تؤول بالجراثيم، والملائكة التي أمد الله تعالى بها المؤمنين في غزوة بدر تفسر بالمدد المعنوي، ورحلة الإسراء والمعراج تؤول بوحدة الوجود[(٢)] وسياحة الروح إلى غير ذلك.

واعتبر هؤلاء القرآن الكريم المعجزة الوحيدة والقطعية التي تثبت نبوة محمد ﷺ، وحتى هذا الاعتبار من هؤلاء فيه نظر، إذ حتى المعجزات والغيبيات التي أوردها القرآن الكريم كالإسراء والمعراج، ومدد الملائكة يوم بدر أعملوا فيها التأويل العقلي حتى توافق المألوف، وتساير العقلية الغربية[(٣)].

---

(١) تاريخ العرب العام، ص٩١، وانظر نحوه عن واشنطن إيرفنج: محمد وخلفاؤه، ص١٣٣ ـ ١٣٧.

(٢) وحدة الوجود: مذهب فلسفي صوفي يوحد بين الله والعالم، ولا يقر إلا بوجود واحد هو الله، وكل ما عداه أعراض وتعينات له. وهذا هو مذهب الاتحاد العام (الذي يزعم أصحابه أن الله عين وجود الكائنات)، ولذا فإن كثيراً من أهل العلم يطلقون على ابن عربي وابن الفارض ومن نهج نهجهم أنهم من أهل الاتحاد، ومرادهم الاتحاد العام الذي هو وحدة الوجود. انظر: مجموع الفتاوى (٢/ ٣٦٤ ـ ٣٦٥)، اعتقادات فرق المسلمين، ص١١٦، الموسوعة الميسرة، ص١٩٤٥، تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي: محمد لوح (١/ ٤٦٤).

(٣) للتوسع في هذه المسألة ينظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: د. فهد الرومي، ص٥٤٥ ـ ٥٩٦.

فهذا الشيخ رشيد رضا[(١)] وهو من تلاميذ الشيخ محمد عبده ومن رواد هذه المدرسة يرى أنه لولا حكاية القرآن لآيات الله التي أيد بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان إقبال الأحرار عليه أكثر، واهتداؤهم به أعم وأسرع! ويرى كذلك أن العجائب الكونية ـ أي: المعجزات النبوية ـ هي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها إضافة إلى أنها من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر![(٢)].

وكأن الشيخ يريد من القرآن الكريم أن يجامل أحرار الإفرنج هؤلاء فيذكر ما يرضون ويعرض عما لا تستسيغه عقولهم، حتى ينقادوا لدين الإسلام، والله ﷻ يقول: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١][(٣)].

وقد سرت عدوى هذا الإنكار والتعسف في التأويل إلى جملة ممن كتب في السيرة النبوية من المحْدثين، منهم الشيخ عبد الحليم محمود الذي ترجم كتاب «محمد رسول الله»، للمستشرق الفرنسي المسلم نصر الدين دينيه، وعلق على بعض كلامه قائلاً: «على أن بعض المعجزات التي تنسب إلى محمد ليست من نصوص القرآن، وإنما قد نسبها إليه مؤرخو العصور المتأخرة تقليداً للمعجزات التي تنسب إلى المسيح فهي ليست من الدين في شيء!»[(٤)].

ومن هؤلاء أيضاً الشيخ محمد الغزالي[(٥)] في كتابه «فقه السيرة» حيث

---

(١) رشيد رضا (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤هـ): محمد رشيد بن علي رضا القلموني، البغدادي الأصل، الحسيني النسب. من الكُتّاب، العلماء بالحديث والأدب والتاريخ والتفسير. ولد ونشأ في طرابلس ثم رحل إلى مصر سنة ١٣١٥هـ فلازم الشيخ محمد عبده وتتلمذ له. ثم أصدر مجلة «المنار» لبث آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي. وأصبح مرجع الفتيا، في التأليف بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة. ثم قصد سورية في أيام الملك فيصل بن الحسين، وانتخب رئيساً للمؤتمر السوري، فيها. وغادرها على أثر دخول الفرنسيين إليها (١٩٢٠م) فأقام في وطنه الثاني (مصر) مدة. ثم رحل إلى الهند والحجاز وأوروبا. وعاد، فاستقر بمصر إلى أن توفي بها. من أشهر آثاره: «مجلة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده» و«الوحي المحمدي» و«شبهات النصارى وحجج الإسلام». انظر: مجلة المجمع العلمي العربيّ (١٥/ ٣٦٥ و٤٧٤)، ومعجم المطبوعات، ص٩٣٤، الأعلام (٦/ ١٢٦).

(٢) تفسير المنار (١١/ ١٥٥).

(٣) الكتابة العربية المعاصرة في السيرة النبوية، ص٢٢.

(٤) ص٦٣ بالهامش.

(٥) محمد الغزالي: أحمد السقا (١٣٣٥ ـ ١٤١٦هـ): عالم وداعية إسلامي مصري. عرف عنه الدعوة إلى التجديد في الفكر الإسلامي مع تأثره بالمنهج العقلاني، كما عرف بأسلوبه الأدبي في =

يقول: «ومن المحققين من يرى أن القرآن هو المعجزة الفريدة لرسول الله ﷺ، وهم يلحظون في هذا الحكم التعريف اللفظي للمعجزة من أنها خارق للعادة مقرون بالتحدي، ولم يعرف هذا التحدي إلا بالقرآن. وقد ملنا إلى قريب من هذا الرأي لا بالنظر إلى التعريف اللفظي للمعجزة بل بالنظر إلى القيمة الذاتية للخوارق الأخرى بالنسبة إلى الأهداف الرفيعة التي جاء بها الإسلام»[١].

فالغزالي هنا ينقل عمن يسميهم المحققين ـ ولعله يقصد بهم الأشاعرة[٢] ـ أنهم اشترطوا في المعجزة أن تكون مقرونة بالتحدي[٣]، ثم جعل بعض المتأخرين هذا الضابط سبيلاً لإنكار الإعجاز في آيات كثيرة أوتيها النبي ﷺ غير القرآن.

والصواب أن تكون هذه الآيات والمعجزات هي الحاكمة على هذا الضابط أو التعريف الذي وضعوه وليس العكس. ثم إن هذا الشرط الذي وضعوه مخالف لواقع الحال وما كانت عليه معجزاته ﷺ ودلائل نبوته.

وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن تيمية: «إن عامة معجزات الرسول لم يكن يتحدى بها، ويقول ائتوا بمثلها، والقرآن إنما تحداهم لما قالوا إنه افتراه، ولم يتحداهم به ابتداء، وسائر المعجزات لم يتحد بها، وليس فيما نقل تحد إلا بالقرآن، لكن قد علم أنهم لا يأتون بمثل آيات الأنبياء، فهذا لازم لها، لكن ليس من شرط ذلك أن يقارن خبره»[٤].

وإذا علم أن النبي ﷺ لم يكن يتحدى بالمعجزات ابتداء، بل أكثر المعجزات

= الكتابة. تخصص بالدعوة والإرشاد وحصل على درجة العالمية. نال جائزة الملك فيصل للعلوم الإسلامية عام ١٤٠٩هـ. من مؤلفاته: «عقيدة المسلم»، «فقه السيرة»، «الإسلام المفترى عليه»، «قضايا المرأة»، «الإسلام والغرب». انظر: الشيخ محمد الغزالي: د. محمد عمارة.

(١) فقه السيرة: محمد الغزالي، خرَّج أحاديثه: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ص٣٩.

(٢) الأشاعرة: فرقة كلامية تنتسب إلى أبي الحسن الأشعري بعد رجوعه عن مذهب الاعتزال، قالوا: بإثبات سبع صفات فقط دل العقل عليها، هي: السمع والبصر والعلم والكلام والقدرة والإرادة والحياة. وقالوا: إن كلام الله هو المعنى القائم بالذات والعبارات والحروف دلالات عليه فقط، والإيمان عندهم هو التصديق بالقلب والعمل من فروعه لا من أصله. انظر: الملل والنحل: للشهرستاني (١/ ٩٤)، والفصل: لابن حزم (٣/ ٤، ١٠٦)، وللاستزادة انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة: د. عبد الرحمٰن بن صالح المحمود.

(٣) انظر: البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات: للقاضي أبي بكر الباقلاني، تحقيق: مكارثي، ص٤٧ ـ ٤٨.

(٤) النبوات: لابن تيمية، تحقيق: د. عبد العزيز الطويان (٢/ ٧٩٤).

لا يشهدها إلا الصحابة، ولا يمكن في حقهم التحدي بتلك المعجزات، بل هم مؤمنون به وإن لم يشهدوها، علم أن ما شرط من اقتران التحدي لا أصل له، بل يلزم القدح في تلك المعجزات، لعدم تحقق ما شرطوه فيها.

والعجيب أن الغزالي يضيف بعد ذلك فيقول: «على أنه لا صلة للعقيدة ولا للعمل بهذه البحوث (المعجزات)، فالرجل الفاسد لا يغفر له فساده؛ إيمانه بأن الرسول ﷺ أظلته غمامة، أو كلَّمه جماد، والرجل الصالح لا يغمز مكانته إنكاره لهذه الخوارق!»[1].

وهذا الكلام لا يسلم له بل للعقيدة صلة بهذه البحوث إذ من مقتضيات الإيمان بنبوة محمد ﷺ الإيمان بما أكرمه الله تعالى به من معجزات، وكيف يستقيم إيمان الرجل الصالح إذا هو أنكر ما ثبت قطعاً من معجزاته ﷺ، وهي أكثر من أن تعد وتحصى.

فالمطلوب هاهنا هو الثبوت فقط، فمتى صحت نسبة معجزة ما إلى النبي ﷺ وجب الإيمان بها، ولا معنى لإنكارها، وإلا فهو إنكار لسُنَّة ثابتة، وفي ذلك من الخطورة ما فيه.

وممن سار في ركاب الإنكار للمعجزات النبوية سوى القرآن عبد المنعم ماجد في كتابه «التاريخ السياسي للدولة العربية» الذي كتب يقول: «..لكن محمداً لم يرض أن ينسب إليه معجزة غير معجزة نزول الوحي عليه من قبل الله فكان يرد عليهم بقوله: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٩٣]. ومع ذلك لم يحل رفض النبي الإتيان بالمعجزات من أن ينسب إليه صفات خارقة. فبعضهم يؤكد أنه حين ولادته خرج نور أضاء الشام، وأنه وهو صغير شقت الملائكة بطنه وغسلوا قلبه بالثلج.. وأيضا فسروا سورة الإسراء بأن الله رفعه إلى السماء، وأنه قطع رحلة سماوية في بضع ساعات من الليل»[2].

ولعل أبرز من يمثل هذا الاتجاه الدكتور هيكل في كتابه «حياة محمد»، وحين صدور هذا الكتاب انبرى الشيخ المراغي[3] للثناء عليه والإشادة بالطريقة

(١) فقه السيرة، ص٣٩.

(٢) التاريخ السياسي للدولة العربية (١/ ١٠١).

(٣) الشيخ المَراغي (١٢٩٨ ـ ١٣٦٤هـ): محمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم المراغي، باحث =

العلمية التي سار عليها، والتي تستبعد كل ما أوردته كتب الحديث والسيرة من معجزات، وإنما هو القرآن والقرآن فقط.

ومما جاء في تقديم المراغي قوله: «ولم تكن معجزة محمد القاهرة إلا في القرآن وهي معجزة عقلية، وما أبدع قول البوصيري[١]:

لم يمتحنا بما تعيا العقول به حرصاً علينا، فلم نرتب ولم نهم[٢].

وممن وقف مدافعاً عن هيكل أيضاً الشيخ رشيد رضا الذي يقول: «أهم ما ينكره الأزهريون والطرقيون على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات، وقد حررتها في كتاب الوحي المحمدي من جميع مناحيها ومطاويها في الفصل الثاني، وفي المقصد الثاني من الفصل الخامس بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله على ثبوت نبوة محمد بالذات ونبوة غيره من الأنبياء وآياتهم بشهادته، لا يمكن في عصرنا إثبات آية إلا بها، وأن الخوارق الكونية شبهة عند علماءه لا حجة؛ لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى، وأن المفتونين بها هم الخرافيون من جميع الملل!»[٣].

والعجيب حقاً هذا الفصل الذي يقيمه المراغي ورشيد رضا وهيكل وغيرهم بين معجزة القرآن والمعجزات الأخرى مع أنه «لم تبلغنا معجزات رسول الله المختلفة إلا من حيث بلغتنا منه معجزة القرآن، والإقدام على تأويل هذا وتسليم

= مصري، عارف بالتفسير، من دعاة التجديد والإصلاح، وممن تولوا مشيخة الجامع الأزهر، ولد بالمراغة (من جرجا، في الصعيد) وتعلم بالقاهرة، وتتلمذ للشيخ محمد عبده. وولي أعمالاً منها القضاء الشرعي، فقضاء القضاة في السودان وتعلم الإنجليزية في خلالها. وعين شيخاً للأزهر سنة ١٩٢٨م فمكث عاماً. وأعيد سنة ١٩٣٥م فاستمر بها عشر سنوات إلى أن توفي. من مؤلفاته: «بحث في ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية»، و«تفسير سورة الحجرات» و«بحوث في التشريع الإسلامي». انظر: مجلة المجمع العلمي العربيّ (٢١/ ٢٨٩)، والأعلام (٧/ ١٠٣).

(١) البُوصِيري (٦٠٨ ـ ٦٩٦هـ): محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله الصنهاجي البوصيري المصري، شرف الدين، أبو عبد الله: شاعر، حسن الديباجة، مليح المعاني. نسبته إلى بلدة بوصير بمصر كانت أمّه منها، وأصله من المغرب. له: «ديوان شعر» وأشهر شعره «البردة»، وفيها قوادح عقدية ومطلعها: (أمن تذكّر جيران بذي سلم) شرحها وعارضها كثيرون، و«الهمزية»، ومطلعها: (كيف ترقى رقيك الأنبياء)، وعارض «بانت سعاد» بقصيدة، مطلعها: (إلى متى أنت باللذات مشغول). انظر: فوات الوفيات (٢/ ٢٠٥)، والوافي بالوفيات (٣/ ١٠٥ ـ ١١٣)، والأعلام (٦/ ١٣٩).

(٢) حياة محمد، ص٧.

(٣) مجلة المنار، مجلد ٣٤، الجزء (١٠/ ٧٩٣).

ذاك طبق ما يستهوي النفس ويتفق مع الغرض إسفاف غريب في تصنع البحث والفهم، لا يقدم عليه من كان كريماً على نفسه معتزاً بعقله»[١].

وممن سار في ركاب هيكل محمد جميل بيهم في كتابه «تاريخ فلسفة محمد»، وتحت عنوان: هل قام الإسلام على المعجزات. يقول: «الواقع أن ثقات العلماء من المسلمين كابن رشد في كتابه «مناهج الأدلة» أجمعوا على أن محمداً كان في دعوته إنما يعتمد على الإقناع والإيمان، وكان كما وصفه حسين هيكل في كتابه «حياة محمد» حريصاً على أن يقدر المسلمون أنه بشر مثلهم يوحى إليه. حتى كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة غير القرآن! وأنكر هؤلاء الثقات على أمثال البيهقي وأبي نعيم والقاضي عياض تكديسهم المعجزات فيما وضعوه من أسفار.. وكان استناد هؤلاء الثقات يقتصر على القرآن الذي بين أيدينا وعلى الحديث الصحيح وهما وحدهما المرجع في هذا الشأن والحكم»[٢].

وليت هؤلاء ـ والكاتب منهم ـ يصدقون في هذه الدعوى، فقد تضمن القرآن الكريم الإشارة إلى بعض المعجزات؛ كالإسراء وانشقاق القمر والإخبار بالمغيبات، وحفلت كتب الصحاح وعلى رأسها البخاري ومسلم بالأحاديث الوفيرة عن معجزاته، فإذا كان القرآن الكريم والحديث الصحيح هما حقاً مرجع هؤلاء الثقات في هذا الشأن فلا سبيل إلى إنكار ما ورد فيها من معجزات أو التعسف في تأويلها بما لا يقبله الشرع. وهل صحيح ما ادعاه الكاتب أن الرسول كان لا يرضى أن تنسب إليه معجزة؟ إذن لكان نهى أصحابه عن رواية الأحاديث التي تشير إلى ذلك، ولوصلنا ذلك النهي، كما وصلتنا نواهيه الأخرى، ولما وصلتنا تلك المعجزات إطلاقاً، فلما لم يصلنا من ذلك النهي شيء ووصلنا من معجزاته الشيء الكثير، تبين لكل عاقل أن كلام هيكل الذي تبناه الكاتب مجرد دعوى لا تستند إلى دليل.

أما هؤلاء الذين ذكرهم الكاتب وأنكر عليهم تكديس المعجزات فيما وضعوه من أسفار كأبي نعيم[٣] والبيهقي والقاضي عياض فهم علماء ثقات مشهود

(١) فقه السيرة دراسات منهجية علمية لسيرة المصطفى ﷺ وما تنطوي عليه من عظات ومبادئ وأحكام: د. محمد سعيد البوطي، ص١٠.

(٢) ص٢٢٥ ـ ٢٢٦.

(٣) أبو نُعَيم الأصبهاني (٣٣٦ ـ ٤٣٠هـ): أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني، أبو نعيم، حافظ، =

لهم بالعلم والعدالة، وإذا كانت كتبهم التي ألفوها في دلائل النبوة قد شابها الضعيف والموضوع، فإن الصحيح فيها هو الغالب، والعقل السليم يقضي بأن نميز هذا عن ذاك، لا أن نلغي الكل جملة وتفصيلاً»[(١)].

وممن نحا هذا المنحى أيضاً ـ في التشكيك في المعجزات ـ محمد عزة دروزة في كتابه: «سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن الكريم» فهو لا يسلم بصحة المعجزات المروية في مصادر السيرة، خاصة تلك التي وقعت في مكة بناء على تحدي الكفار، وحجته في ذلك: «سكوت القرآن عنها مع فترة تحدي الكفار، واقتصار الأجوبة القرآنية على السلب، هذا إلى أن الروايات غير متواترة ولا وثيقة، وكثير منها إن لم نقل أكثرها لم ترد في المدونات القديمة إلى ما فيها من تخالف كبير في الوقت نفسه!»[(٢)].

والعجيب كيف يدعي الكاتب أن هذه المعجزات غير متواترة، وكيف يفهم التواتر، وقد وقع أكثرها في محافل المسلمين وجموعهم ورواها الجماء الغفير، وتواترت رواياتها في كتب الحديث وفي مقدمتها الصحيحان، وأجمعت عليها كتب السيرة؟

ثم إن الكاتب قد سبق له الطعن في مدونات السيرة القديمة ـ كما تقدم ـ فكيف اطمأن إليها الآن في تأييد رأيه بدعوى أن أكثر هذه المعجزات لم يرد في هذه المدونات! مع أن واقع هذه المدونات واشتمالها على أكثر المعجزات النبوية مفصح بخلاف ما قاله. وإن استناد دروزة للموقف السلبي للقرآن إزاء تحدي الكفار في إنكار كثير من المعجزات لا يسلم له، فالقرآن الكريم صريح في تعليل ذلك، قال ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] فلا معنى لإجابة قوم ديدنهم التكذيب والعناد لا التصديق والإيمان[(٣)].

وممن سار في هذا المسار أيضاً عباس محمود العقاد[(٤)] في كتابه «عبقرية

= مؤرخ، من الثقات في الحفظ والرواية. ولد ومات في أصبهان. من تصانيفه: «حلية الأولياء وطبقات الأصفياء»، و«معرفة الصحابة»، و«طبقات المحدثين والرواة»، و«دلائل النبوة»، و«ذكر أخبار أصبهان». انظر: ميزان الاعتدال (١/ ٥٢)، وطبقات الشافعية (٣/ ٧)، والأعلام (١/ ١٥٧).

(١) الكتابة العربية المعاصرة في السيرة النبوية، ص٢٤.

(٢) سيرة الرسول: دروزة (١/ ٢٣٠).

(٣) الكتابة العربية المعاصرة في السيرة النبوية، ص٢٥ ـ ٢٦.

(٤) العَقّاد (١٣٠٦ ـ ١٣٨٣هـ): عباس بن محمود بن إبراهيم بن مصطفى العقاد، إمام في الأدب، =

محمد»، حيث يقول: «إنما نجحت دعوة محمد لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لها الحوادث، وقام بها داعية تهيأت له بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته، فلا حاجة بها إلى خارقة ينكرها العقل أو إلى علة عوجاء يلتوي بها ذوو الأهواء، فهي أوضح شيء لمن أحب أن يفهم وهي أقوم شيء سبيلاً لمن استقام»[١].

والذي جعل العقاد يركب هذا المركب أنه أراد أن يجلو صور العظمة كما يفهمها البشر، وتوجه بكتابه لا للمؤمنين برسالة محمد فحسب بل وأيضاً لغير المؤمنين بها، ولذلك جاء كتابه خلواً من كل أثر للمعجزات.

وإذا كان العقاد قد وفق في إبراز جوانب العظمة والعبقرية، وملكة التخطيط والتنظيم في شؤون الحرب عند النبي ﷺ، فإنه أخطأ حين جعل العامل الأساس في ذلك امتيازه الذاتي ومواهبه الفطرية، وتغافل عن عوامل أخرى تتصل بعالم الغيب «فهناك وعد الله ورعايته وتوفيقه، وملائكته المقاتلون، والنعاس الذي يغشيه الناس أمنة، والمطر الذي يطهرهم، والرياح التي تقتلع خيام المشركين، وتثبيته لأفئدة المقاتلين وقذفه الرعب في قلوب الكافرين، وقدره النافذ، مائة عامل وعامل هيأت أسباب النصر فكانت الغلبة لجند الإيمان جند الله»[٢].

وقس على هذا سائر جوانب العبقرية الأخرى التي تحدث عنها العقاد فقد اكتفى بذكر الأسباب المادية، وأظهر النبي ﷺ مجرد إنسان يعمل بمواهبه النامية، وملكاته المتفتحة، وأغفل ذكر الأسباب الغيبية التي شكلت مكوناً رئيساً في حياته ﷺ[٣].

وقد أعجب الشيخ مصطفى صبري[٤] بكتاب العقاد في بعض مباحثه، لكنه

= مصري، من المكثرين كتابة وتصنيفاً. كان أحد أسلافه يعمل في (عقادة) الحرير. فعُرف بالعقّاد. شغف بالمطالعة وعمل موظفاً ثم معلماً ثم انقطع إلى الكتابة في الصحف والتأليف، وأقبل الناس على ما ينشر مدة نصف قرن أخرج في خلالها من تصنيفه ٨٣ كتاباً، في أنواع مختلفة من الأدب، منها: كتاب «عن الله»، و«عبقرية محمد»، و«عبقرية خالد، وعمر، والصديق، وعلي»، و«المرأة في القرآن»، و«ما يقال عن الإسلام»، و«ديوان العقاد». انظر: الأعلام (٣/ ٢٦٦).

(١) الكتابة العربية المعاصرة في السيرة النبوية، ص٢٧.

(٢) الفكر الإسلامي المعاصر، دراسة وتقويم: غازي التوبة، ص١٤٥.

(٣) الكتابة العربية المعاصرة في السيرة النبوية، ص٢٦ ـ ٢٧.

(٤) مصطفى صَبْري (١٢٨٦ ـ ١٣٧٣هـ): من علماء الحنفية. فقيه باحث، تركي الأصل والمولد والمنشأ، تولى مشيخة الإسلام في الدولة العثمانية. وقاوم الحركة (الكمالية) بعد الحرب العالمية الأولى، وهاجر إلى مصر بأسرته وأولاده بعد أن ضيق عليه واستقر بها إلى أن توفي. ألَّف كتباً =

عارضه لكونه من دعاة العبقرية ومروجيها بدل النبوة ومعجزاتها. إلا أن مؤلفه في نظر الشيخ مصطفى صبري لم يتورط في السخافات التي تورط فيها غيره من دعاة العبقرية ومنكري المعجزات أمثال زكي مبارك[١] وفريد وجدي[٢] ومحمد حسين هيكل والشيخ شلتوت[٣][٤].

وممن سلك هذا المنهج في إنكار المعجزات الدكتور محمد الجابري حيث يقول: «هناك روايات تحدثت عن أمور كثيرة نسبت إلى النبي ﷺ على أنها معجزات له من النوع الخارق للعادة، وكلها أحاديث آحاد، ومعظمها من النوع الذي يتساهل فيه رجال الحديث لكونه «يستعمل في الدعوات والترغيب والترهيب والتفسير والمغازي، في ما لا يتعلق به حكم»»[٥].

= بالعربية، منها: «موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين»، و«مسألة ترجمة القرآن»، و«القول الفصل بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون» وله مؤلفات بالتركية. انظر: موقف العقل والعلم، المقدمة، وفهرس المؤلفين، ص٣٠١، والأعلام (٧/٢٣٦).

(١) زكي مبارك (١٣٠٨ ـ ١٣٧١هـ): زكي بن عبد السلام بن مبارك، أديب، من كبار الكُتَّاب المعاصرين. له نزعة عقلانية. تعلم في الأزهر، وأحرز الدكتوراه في الآداب من الجامعة المصرية، واطلع على الأدب الفرنسي في فرنسا، واشتغل بالتدريس بمصر. له نحو ثلاثين كتاباً، منها: «النثر الفني في القرن الرابع»، و«البدائع» مقالات في الأدب والإصلاح، و«التصوف الإسلامي». انظر: الأعلام ٣/٤٨.

(٢) محمد فريد وَجْدي (١٢٩٥ ـ ١٣٧٣هـ): محمد فريد بن مصطفى وجدي، من الكُتَّاب الفضلاء الباحثين. ولد ونشأ بالإسكندرية. ثم سكن القاهرة، وأنشأ بها مطبعة أصدر بها جريدة «الدستور» اليومية مدة، ونشر كتابه «دائرة معارف القرن الرابع عشر، العشرين» في أجزاء متتابعة، وعكف على المطالعة والتأليف، فنشر من كتبه: «ما وراء المادة»، و«الحديقة الفكرية في إثبات وجود الله بالبراهين الطبيعية»، و«المرأة المسلمة» في الرد على «المرأة الجديدة» لقاسم أمين، و«الإسلام في عصر العلم»، و«كنز العلوم واللغة»، و«على أطلال المذهب المادي» و«نقد كتاب الشعر الجاهلي» لطه حسين. انظر: الأعلام (٦/٣٢٩).

(٣) الشيخ شلتوت (١٣١٠ ـ ١٣٨٣هـ): محمود شلتوت، فقيه مفسر مصري، تخرَّج من الأزهر، وتنقل في التدريس، وسعى إلى إصلاح الأزهر فعارضه بعض كبار الشيوخ وطرد هو ومناصروه، فعمل في المحاماة ثم أعيد إلى الأزهر ثم كان من أعضاء كبار العلماء، ومن أعضاء مجمع اللغة العربية ثم شيخاً للأزهر إلى وفاته. من مؤلفاته: «حكم الشريعة في استبدال النقد بالهدي»، و«هذا هو الإسلام»، و«الإسلام والتكافل الاجتماعي»، و«الفتاوى»، و«الإسلام عقيدة وشريعة»، و«الإسلام والوجود الدولي». انظر: الأعلام (٧/١٧٣).

(٤) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين: الشيخ مصطفى صبري (٤/١١) وما بعدها.

(٥) مدخل إلى القرآن الكريم: د. محمد عابد الجابري، ص١٩٠.

ولم يثبت الجابري من المعجزات النبوية الواردة في النصوص سوى القرآن، كما يقول: «نحن نؤكد فعلاً أن الشيء الوحيد، الذي يُفهم من القرآن بأكمله أنه معجزة خاصة بالنبي محمد ﷺ، هو القرآن لا غير، فالقرآن يكفي ذاته بذاته في هذا الشأن. والدليل على ذلك أن كفار قريش قد أكثروا من مطالبة الرسول ﷺ بالإتيان بآية (معجزة) تخرق نظام الكون واستقرار سننه كدليل على صدق نبوته، فكان جواب القرآن أن مهمة محمد بن عبد الله هو أن يبلغ لأهل مكة (أم القرى) ومن حولها رسالة الله إليهم (القرآن)، وليس من اختصاصه الإتيان بآيات معجزات خارقة للعادة»[1].

لقد نفى الجابري وجود أي نص في القرآن يفهم منه أن هناك معجزات أخرى للنبي ﷺ عدا القرآن نفسه. وتجاهل عدداً من الآيات الكريمات التي دلت على وجود هذه المعجزات ونفت بل أبطلت قول الجابري ومن سار في ركابه، ومنها قوله تعالى:

١ ـ ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ١، ٢]. فتعقيب القرآن على معجزة انشقاق القمر بأن الكفار كلما رأو آية (أي: معجزة) قالوا هذا سحر مستمر دليل على أن الله جعل لرسوله هذه الآية (معجزة انشقاق القمر) ليستدل بها الناس على صدقه.

٢ ـ ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾ [الفتح: ٢٠]. فقد نصت هذه الآية الكريمة على أن النصر والتأييد الإلٰهيين للمسلمين في المعركة آية إلٰهية، وهذا النصر الإلٰهي آية؛ أي: معجزة للمؤمنين، يستدلون بها على صدق الرسول وربانية الإسلام، وأن القرآن كتاب الله حقاً[2].

هذا مع أن مجرد ذكر معجزات النبي ﷺ في القرآن يتضمن دليلاً على أنها معجزات له تجعل من رآها أو سمع بها، يؤمن بها، إن كان سليم العقل منصفاً. ومنها قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ

(١) مدخل إلى القرآن الكريم، ص١٨٧.

(٢) الشبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم: للدكتور محمد عابد الجابري، ـ رؤية نقدية ـ: عبد السلام البكاري، الصديق بوعلام، ص١٨٩.

ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿٣﴾﴾ [التحريم: ٣]. فإنزال السكينة في موطن الخوف وتأييده ﷺ بالملائكة، وإخباره ﷺ زوجته بالغيب كل هذه معجزات له بالإضافة للقرآن، من علمها أيقن بصدقه ﷺ(١).

وسنمثل فيما يلي بثلاث معجزات كثر إنكار الكُتَّاب المحدثين لها تبعاً لما قرره أشياخهم من المستشرقين، ومن سلك منهجهم من أصحاب الاتجاه العقلاني، وهي: معجزة شق الصدر للنبي ﷺ، وانشقاق القمر، والإسراء والمعراج، وذلك على النحو التالي:

١ ـ معجزة شق الصدر:

وقد صح بها الحديث، ووردت بها الروايات أكثر من مرة، وكانت أولها ـ وأشهرها عند جمهور المشككين من المستشرقين واتباعهم ـ عندما كان ﷺ ابن أربع سنين من عمره، وكان القصد منها ـ كما جاء في الرواية ـ نزع العلقة السوداء من قلبه، كرامة له من عند ربه ﷻ، تلك العلقة التي ولد بها تكملة للخلق الإنساني؛ لأنها حظ الشيطان من كل البشر، وقد تم بنزعها من قلبه ﷺ، أن نشأ مبرءاً من كل عيب، فنشأ على أكمل أحوال البشر من العصمة من الشيطان، والاتصاف بالمحامد العليا منذ نعومة أظفاره، والتي لا يفوقه فيها غيره(٢).

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه هذه المرة الأولى لشق صدره الشريف مجملة عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة،

---

(١) الشبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم، ص١٩٠.

(٢) ينظر: الروض الأنف: للسهيلي (١/ ٢٩١)، وفتح الباري (٧/ ٢٤٤) رقم (٣٨٨٧)، وشرح الزرقاني على المواهب (١/ ٢٨٩، ٥/ ٤٦٨، ٤٦٩، ٨/ ٦٧).

فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني: ظئره[١] ـ فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره»[٢] فالحديث نص صريح على الشق الحسي لصدر رسول الله ﷺ، وإخراج جبريل لحظ الشيطان منه، وتطهير لقلبه، فلا يقدر الشيطان على إغوائه إذ لا سبيل له عليه، وهذا دليل على عصمته من كل ما يمس قلبه، وعقيدته، وخلقه، منذ صغره ﷺ.

لكن هذه المعجزة لم تصح عند نفر من كُتَّاب السيرة في العصر الحديث أمثال طه حسين[٣] ومحمد الغزالي ومحمد حسين هيكل.

يقول طه حسين: «وأي بأس على المسلمين في أن يسمعوا أن نفراً من الملائكة أقبلوا إلى النبي وهو يلعب، فأضجعوه وشقوا عن قلبه، وغسلوه حتى طهروه ثم ردوه كما كان، وأقاموه كأنه لم يصبه مكروه؟ لم يصح الحديث بهذا! ولكن المسلمين يتحدثون به ويستمعون له منذ أكثر من اثني عشر قرناً، لم يفسد لذلك ذوقهم، ولم يضعف إيمانهم»[٤].

---

(١) أي: مرضعته (حليمة السعدية)، وأصله العاطفة التي تحن على ولد غيرها فترضعه. ينظر: القاموس المحيط (٢/ ٧٩)، ولسان العرب (٤/ ٢٧٤١).

(٢) أخرجه مسلم «بشرح النووي» كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١/ ٤٨٨) رقم (٢٦١)، وابن حبان في صحيحه «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان» (١٤/ ٢٤٢) رقم (٦٣٣٤)، وأحمد في مسنده (٣/ ١٢١، ١٤٩، ٢٨٨)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (١/ ٢٢١) رقم (١٦٨)، وابن سعد في الطبقات الكبرى (١/ ١٥٠).

(٣) طهَ حسين (١٣٠٧ ـ ١٣٩٣هـ): طه بن حسين بن علي بن سلامة، أحدثت آراؤه ضجة في عالم الأدب العربيّ، أُصيب بالجدري في الثالثة من عمره، فكف بصره، وبدأ حياته في الأزهر ثم بالجامعة المصرية القديمة، وهو أول من نال شهادة (الدكتوراه) منها وسافر في بعثة إلى باريس فتخرج بالسوربون وعاد إلى مصر، فاتصل بالصحافة، وعُيِّن محاضراً في كلية الآداب بجامعة القاهرة، ثم كان عميداً لتلك الكلية فوزيراً للمعارف، وكان من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق ثم رئيساً لمجمع اللغة بمصر. من كتبه: «في الأدب الجاهلي»، و«في الشعر الجاهلي»، و«على هامش السيرة»، و«الأيام»، و«فلسفة ابن خلدون» وهو رسالته للدكتوراه بالفرنسية. انظر: الأعلام (٣/ ٢٣١).

(٤) مقال «السيرة النبوية بين الخيال والتاريخ الشعبي»: نبيلة إبراهيم سالم، مجلة عالم الفكر المجلد ١٢، العدد ٤، السنة ١٩٨٢م، ص٣٦٧ ـ ٣٦٨. وهذا الكلام قاله طه حسين ردّاً على وزير الأوقاف المصري آنذاك محمد نجيب الغرابلي الذي أحب تخليص المسلمين من كتب السيرة =

وأما الغزالي في «فقه السيرة» فقد تعسف في تأويل هذه الحادثة بسبب منهجه العقلي، وادعى أن ظاهر النص غير مقصود كما يقول: «ولو كان الشر في إفراز غدة في الجسم ينحسم بانحسامها، أو لو كان الخير مادة يزود بها القلب كما تزود الطائرة بالوقود فتستطيع السمو والتحليق. لقلنا: إن ظواهر الآثار مقصود... ولعل أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التي أضفاها الله على محمد ﷺ فجعلته من طفولته بنجوة قصية عن مزالق الطبع الإنساني ومفاتن الحياة الأرضية»[١].

وأما هيكل فساق هذه القصة، وذكر احتياط ابن إسحاق والطبري في روايتها، ثم شكك في صحتها ورآها ضعيفة السند، اعتماداً على المستشرقين، وذكر منهم سير وليم موير ودرمنغم، ثم برر مواقفهم قائلاً:

«وإنما يدعو المستشرقين ويدعو المفكرين من المسلمين إلى هذا الموقف من ذلك الحديث أن حياة محمد كانت كلها إنسانية سامية، وأنه لم يلجأ في إثبات رسالته إلى ما لجأ إليه من سبقه من أصحاب الخوارق، وهم يجدون في هذا من المؤرخين العرب والمسلمين سنداً حين ينكرون من حياة النبي العربي كل ما لا يدخل في معروف العقل ويرون ما ورد من ذلك غير متفق مع ما دعا إليه القرآن من النظر في خلق الله، وأن سُنَّة الله لن تجد لها تبديلاً»[٢].

وليس غريباً أن ينكر هيكل هذه المعجزة، لكن الغريب حقاً أن يعتمد على ابن إسحاق والطبري في التشكيك فيها، وهو الذي أعلن من قبل تشكيكه في كتب الحديث والسيرة، وأغرب من ذلك اعتماده على المستشرقين في رد هذه المعجزة، مع أنها مروية في الصحاح وغيرها من كتب الحديث.

وأختم الرد على الدكتور هيكل ومن شايعه بما ذكره الشيخ محمد عرجون في قوله: «ولا عبرة بعدم اطمئنان المستشرقين، وجماعة العقلانيين من الباحثين

= المعروفة بالموالد لما فيها من أكاذيب، ودعا سنة ١٣٥٣هـ إلى وضع صيغة جديدة للمولد تراعى فيها الصحة، فقوبلت دعوته بالترحيب من الهيئات العلمية والأدبية، ولم يعارضه من رجال الأدب إلا طه حسين، فكتب يرد على الوزير! انظر: طه حسين في ميزان العلماء والأدباء: لمحمود مهدي الإستانبولي، ص٢٣٦.

(١) ص٥١.

(٢) حياة محمد، ص١٠٣ ـ ١٠٤.

المعاصرين إلى القصة ووقوعها، فلو لم يكن في رواياتها إلا رواية الشيخين البخاري ومسلم لكانت في أعلى مرات الصحة من ناحية السند، وأما غمز القصة بطفولية النبي ﷺ، واستعظام ما حدث به على سنه في الرواية، فهذا من قبيل الإيهام المضلل؛ لأن تحديد السن لم تتفق عليه الروايات!. على أننا نسأل عبيد الاستشراق والمستشرقين، ما قولكم في رواية البخاري، وهي صريحة في أن القصة وقعت بعد النبوة ليلة الإسراء؟ والحديث معكم في وقوع القصة لا في زمانها ومكانها؛ لأن ذلك تحقيق تاريخى لا يضير البحث ألا تؤمنوا به، وكيف يستعظم تحدثه ﷺ على سنه، والأمر كله من قبيل الإعجاز؟ على أن تحدثه كان وهو نبي رسول، إذ سئل من بعض أصحابه فأجاب بما جاء في الرواية.

والذي يعني البحث أن قصة شق الصدر حادث كوني، ومعجزة عجيبة وقعت لنبينا محمد ﷺ، وجاءتنا بها الروايات الصحيحة الثابتة، ولا يردها تشكيك مستشرق، ولا مستغرب، ولا متعوقل ولا متعالم»[1].

٢ ـ معجزة انشقاق القمر:

وهي معجزة ثابتة بنص القرآن، وبالأحاديث الصحيحة. أما القرآن فقوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ١، ٢].

وأما الأحاديث فقد صحت عند الشيخين من حديث عبد الله بن مسعود[2] وأنس بن مالك[3] وعبد الله بن عباس[4]، ومن حديث عبد الله بن عمر عند مسلم والترمذي[5]، وغيرهم.

وقد أنكر هذه المعجزة جمهور الفلاسفة قديماً، ومتمسكهم أن الآيات

---

(١) محمد رسول الله ﷺ (١/ ١٥٠).

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء، باب سؤال المشركين أن يريهم النبي آية فأراهم انشقاق القمر رقم (٣٦٣٦)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر رقم (٢٨٠٠).

(٣) أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر رقم (٣٨٦٨)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر رقم (٢٨٠٢) (٤٦).

(٤) أخرجه البخاري في تفسير سورة القمر، باب ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ رقم (٤٨٦٦)، ومسلم، كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر رقم (٢٨٠٣).

(٥) أخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين، باب انشقاق القمر رقم (٢٨٠١)، والترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة القمر رقم (٣٢٩٩).

العلوية لا يتهيأ فيها الخرق والالتئام، وهو جهل منهم بقدرة الله ﷻ في هذا الكون، ومطلق تصرفه في مخلوقاته، قال الزجاج[١] في معاني القرآن: «أنكر بعض المبتدعة الموافقين لمخالفي الملة انشقاق القمر، ولا إنكار للعقل فيه لأن القمر مخلوق لله يفعل فيه ما يشاء كما يكوره يوم البعث ويفنيه»[٢].

وحديثاً أنكر بعض رواد المدرسة العقلية الحديثة هذه المعجزة جرياً على نهجهم في إنكار المعجزات، وفي مقدمتهم رشيد رضا الذي شكك في تواتر روايات هذه الحادثة، واعتبر القول به زعما باطلاً، وأنه لو وقع لتوفرت الدواعي على نقله بالتواتر لشدة غرابته، ولنقله جميع من شاهده[٣]. ورد رواية الشيخين لها بدعوى أن حديث أنس وابن عباس من مراسيل الصحابة، وأن حديث ابن عمر ليس فيه أنه حدث عن رؤية، ثم لاختلاف هذه الروايات وتعذر الجمع بينها[٤]، فضلاً عما فيها من خبر بوقوع تغير في النظام الكوني العام، وهو ما لا يصدق إلا بخبر قطعي ثابت[٥]. كما أن الموقف القرآني من عدم إجابة الكفار إلى ما طالبوا به من الآيات يرد حديث أنس الذي فيه أن هذه المعجزة وقعت جواباً على سؤال المشركين[٦].

هذه جملة الدعاوى التي استند إليها رشيد رضا لإنكار هذه المعجزة، وشاركه القول في عدم تواترها الشيخ أحمد مصطفى المراغي في تفسيره، وزعم أنه ما ادعى أحد من المسلمين تواترها إلا من شذ!. وقال: «إن انشقاق القمر

---

(١) الزَّجَّاج (٢٤١ ـ ٣١١هـ): إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج، عالم بالنحو واللغة، ولد ومات في بغداد، كان في فتوته يخرط الزجاج ومال إلى النحو فعلمه المبرد. وطلب عبيد الله بن سليمان (وزير المعتضد العباسي) مؤدباً لابنه القاسم، فدله المبرد على الزجاج، فطلبه الوزير، فأدب له ابنه إلى أن ولي الوزارة مكان أبيه، فجعله القاسم من كتابه. من كتبه: «معاني القرآن»، و«الاشتقاق»، و«الأمالي» في الأدب واللغة، و«إعراب القرآن». انظر: معجم الأدباء (١/ ٤٧)، تاريخ بغداد (٦/ ٨٩)، الأعلام (١/ ٤٠).

(٢) فتح الباري (٧/ ٢٢٤).

(٣) انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: للدكتور فهد الرومي، ص٥٨٤، نقلاً عن مجلة المنار، مجلد ٣٠، الجزء (٤/ ٢٦٦ ـ ٢٦٧).

(٤) مجلة المنار، مجلد ٣٠، الجزء (٤/ ٢٦٧ ـ ٢٦٨).

(٥) مجلة المنار، مجلد ٣٠، الجزء (٥/ ٣٦٣).

(٦) مجلة المنار، مجلد ٣٠، الجزء (٥/ ٣٦٤ ـ ٣٦٨). وهذا الاستدلال الأخير هو نفسه الذي اعتمده الشيخ دروزة كما سيأتي.

من الأحداث الكونية الهامة التي لو حصلت لرآها من الناس من لا يحصى كثرة من العرب وغيرهم، ولبلغ حدّاً لا يمكن أحداً أن ينكره»[١].

وممن اختار هذا الرأي من المتأخرين محمد الجابري في مدخله إلى القرآن حيث أنكر هذه المعجزة وادعى أن الآراء فيها كلها من التراث «ومن حقنا، بل ومن واجبنا أن نختار منها ما لا يتعارض مع الفهم الذي ينسجم مع مبادئ العقل ومعطيات العلم في عصرنا»[٢].

وفي الإجابة على الدعاوى السابقة يقال: أما تواتر هذه المعجزة الباهرة فهذا مما قد قال به جماهير العلماء قديماً وحديثاً.

يقول القاضي عياض: «أما انشقاق القمر فالقرآن نص بوقوعه، وأخبر عن وجوده، ولا يعدل عن ظاهر إلا بدليل، وجاء برفع احتماله صحيح الأخبار من طرق كثيرة، ولا يوهن عزمنا خلاف أخرق منحل عرى الدين، ولا يلتفت إلى سخافة مبتدع يلقي الشك على قلوب ضعفاء المؤمنين، بل نرغم بهذا أنفه، وننبذ بالعراء سخفه»[٣]. وقال أيضاً: «أخبر تعالى بوقوع انشقاقه بلفظ الماضي، وإعراض الكفرة عن آياته، وأجمع المفسرون وأهل السُّنَّة على وقوعه»[٤].

وقال ابن كثير: «وقد اتفق العلماء مع بقية الأئمة على أن انشقاق القمر كان في عهد رسول الله، وقد وردت الأحاديث بذلك من طرق تفيد القطع عند الأمة»[٥]. وقال عنه أيضاً: «وهذا متواتر عنه عند أهل العلم بالأخبار، وقد رواه غير واحد من الصحابة رضي الله عنهم»[٦]. فكيف يكون القول بتواتره زعماً باطلاً كما يدعي رشيد رضا؟ وكيف يزعم الشيخ المراغي أنه ما ادعى أحد من المسلمين تواتره إلا من شذ!

وأما ما استندوا إليه لنفي تواتره بأنه لو وقع لرآه من الناس من لا يحصى كثرة من العرب وغيرهم، ولبلغ حداً لا يمكن أحداً أن ينكره، ولنقله جميع من

---

(١) انظر: تفسير المراغي: أحمد مصطفى المراغي (٢٧/ ٧٧).
(٢) مدخل إلى القرآن الكريم، ص١٨٨.
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى: القاضي عياض (١/ ٢٥٥).
(٤) الشفا (١/ ٢٨١).
(٥) البداية والنهاية (٦/ ٧٤).
(٦) فصول من السيرة، ص٢٠٦.

شاهده، فقد أحسن في الرد على ذلك ثلة من العلماء، وأحكموا الاستدلال له، منهم أبو إسحاق الزجاج في كتابه «معاني القرآن» حيث قال: «أما قول بعضهم لو وقع لجاء متواتراً، واشترك أهل الأرض في معرفته ولما اختص بها أهل مكة، فجوابه أن ذلك وقع ليلاً، وأكثر الناس نيام، والأبواب مغلقة، وقل من يراصد السماء إلا النادر، وقد يقع بالمشاهدة في العادة أن ينكسف القمر وتبدو الكواكب العظام وغير ذلك في الليل، ولا يشاهدها إلا الآحاد، فكذلك الانشقاق كان آية وقعت في الليل لقوم سألوا واقترحوا فلم يتأهب غيرهم لها، ويحتمل أن يكون القمر ليلة إذ كان في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض كما يظهر الكسوف لقوم دون قوم»[١]. وبنحوه قال القاضي عياض، وزاد: «وكثيراً ما يحدث الثقات بعجائب يشاهدونها من أنوار ونجوم وطوالع عظام تظهر في الأحيان بالليل في السماء، ولا علم عند أحد بها»[٢].

وأما رد رواياته بدعوى أنها من مراسيل الصحابة، وأن رواتها لم تحصل لهم رؤية هذا الانشقاق باستثناء عبد الله بن مسعود، فليس على إطلاقه؛ لأن من رواته جبير بن مطعم[٣] وحذيفة بن اليمان[٤]، وقد حصلت لهم المشاهدة كما حصلت لعبد الله بن مسعود[٥].

وأما الدعوى بأن هذا مما لا يصدق إلا بخبر قطعي ثابت إذ فيه خبراً بوقوع تغير في النظام الكوني العام، فأي خبر أقطع من القرآن، وقد أخبر بوقوعه؟ وتواترت على ذلك الأحاديث عند الشيخين وغيرهما، وأجمع عليه علماء الأمة سلفاً وخلفاً، ألا يكفي هذا كله لإفادة القطع واليقين؟![٦].

وممن أنكر أيضاً هذه المعجزة الباهرة الشيخ دروزة، ومستنده في ذلك الموقف السلبي للقرآن إزاء تحدي الكفار؛ أي: عدم إجابة القرآن مطالبة الكفار بالآيات.

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٢٤).
(٢) الشفا (١/ ٢٨٣). وانظر أيضاً: رد الخطابي في الفتح (٧/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥).
(٣) أخرج حديثه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ٨١ ـ ٨٢)، والترمذي برقم (٣٣٠٠) في التفسير، باب ومن سورة القمر، والبيهقي في الدلائل (٢/ ٢٦٨).
(٤) أخرج حديثه ابن أبي شيبة في المصنف (١/ ٤٥٠)، والطبري في جامع البيان (٢٧/ ٨٦).
(٥) فتح الباري (٧/ ٢٢١).
(٦) الكتابة العربية المعاصرة في السيرة النبوية، ص٣٧.

ورد ما رواه كثير من المفسرين من أن هذه المعجزة وقعت جواباً على تحدي الكفار، كما رد ما ذهب إليه جمهورهم من كون الآيات الأولى من سورة القمر تشير إلى هذه المعجزة، ورأى هذا القول موضع نظر لأمرين: لكون السورة من المبكرات الأولى للنزول، وثانياً لم يحك في السور النازلة قبلها عن الكفار تحد وطلب بإتيان معجزة. ورجح ما ذهب إليه بعض المفسرين من حمل قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١]. على معنى أنه مقترب؛ أي: أنه من أشراط الساعة، واعتبر هذا المذهب وجيهاً، وينسجم مع الموقف السَلبي للقرآن الكريم(١).

أما دعوى أن الانشقاق ما كان جواباً على سؤال المشركين فباطلة، والمعتمد ما في الصحيح، أخرج البخاري من حديث أنس بن مالك: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما»(٢). والحديث صريح في أن انشقاق القمر كان جواباً على تحدي الكفار(٣).

وأما ما رجحه دروزة من حمل بعض المفسرين الآية على أنه من أشراط الساعة، فمرجوح، والراجح ما ذهب إليه الجمهور من وقوع الإنشقاق حقيقة على عهد النبي ﷺ، بدليل ما بعده من قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ [القمر: ٢]، فإنه ظاهر في أن المراد بقوله تعالى: ﴿ٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ وقوع انشقاقه؛ لأن الكفار لا يقولون ذلك يوم القيامة، وإنما قالوه في الدنيا بعد وقوعه إعراضاً عن الآية وزعماً منهم بأنها سحر(٤).

يقول الشوكاني: «والحاصل أنا إذا نظرنا إلى كتاب الله فقد أخبرنا بأنه انشق ولم يخبرنا بأنه سينشق، وإن نظرنا إلى سُنَّة رسول الله ﷺ فقد ثبت في الصحيح وغيره من طرق متواترة أنه قد كان ذلك في أيام النبوة، وإن نظرنا إلى أقوال أهل العلم فقد اتفقوا على هذا ولا يلتفت إلى شذوذ من شذ واستبعاد

---

(١) انظر: سيرة الرسول ﷺ صور مقتبسة من القرآن الكريم (١/ ٢٢٦) وما بعدها. وانظر نحوه في: كتاب الجابري «مدخل إلى القرآن الكريم»، ص١٨٨.

(٢) كتاب مناقب الأنصار، باب انشقاق القمر رقم (٣٨٦٨).

(٣) الكتابة العربية المعاصرة في السيرة النبوية، ص٣٧.

(٤) فتح الباري (٧/ ٢٢٥).

من استبعد»[١].

ويقول الشيخ مصطفى صبري: «لو لم ينشق القمر في عصر نبينا محمد ﷺ ولم يشاهده أعداؤه المشركون في مكة لكذبوا محمداً ﷺ في هذه الآية، وصار تكذيبهم المؤدي إلى تبين كذبهم حادثة هامة أدعى إلى تناقل الألسنة والأقوام لها من تناقل حادثة الانشقاق نفسه، التي ربما لا يطلع عليها غير أهل مكة لإهمال ترصدها في وقتها، أو لغيم يسترها، أو لحسبانها حادثة من الحوادث العجيبة التي تدرك أسبابها ولا تضبط في ذلك الحين»[٢].

٣ ـ معجزة الإسراء والمعراج:

وهي من معجزاته ﷺ الثابتة بنص القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]. لكن نفراً من الكُتَّاب المحدثين أنكروا حقيقتها، وتأولوها على أنها رؤيا منام ليس إلا! منهم الشيخ محمد الخضري[٣] في كتابه «محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية» حيث مال إلى القول بأن الإسراء كان رؤيا صادقة وكان بالروح لا بالجسد، كما يقول: «وإطلاع الله نبيه في النوم على ما يريد إطلاعه عليه لا يختلف شيئاً عن إطلاعه إياه في يقظته؛ لأن رؤيا الأنبياء حق تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم، فلا يمنع هؤلاء من رأيهم إضافة الإسراء إلى عبده، والروح إذا جلي لها المسجد الأقصى تتمكن من رؤيته ومعرفة تفاصيله ومشاهدة آيات عجائبه أكثر من الرؤية العينية ليلاً»[٤].

وممن أنكر حقيقة هذه المعجزة، وزعم أنها من قبيل رؤى المنام محمد

---

(١) فتح القدير (٥/ ١٢٠).

(٢) موقف العقل (٤/ ١٧١).

(٣) الخُضَري (١٢٨٩ ـ ١٣٤٥هـ): محمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخضري، باحث، خطيب، مصري. من العلماء بالشريعة والأدب وتاريخ الإسلام. تخرَّج بمدرسة دار العلوم، وعُيِّن قاضياً شرعيّاً في الخرطوم، ثم مدرِّساً في مدرسة القضاء الشرعي بالقاهرة، مدة ١٢ سنة، وأستاذاً للتاريخ الإسلامي في الجامعة المصرية، فمفتشاً بوزارة المعارف. من كتبه: «أصول الفقه»، و«تاريخ التشريع الإسلامي»، و«إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء»، و«محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية»، و«نور اليقين في سيرة سيد المرسلين»، و«محاضرات» في نقد كتاب الشعر الجاهلي للدكتور طه حسين. انظر: معجم المطبوعات، ص٨٢٥، والأعلام (٦/ ٢٦٩).

(٤) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية: محمد الخضري بك (١/ ٩٠ ـ ٩١).

الجابري حيث يقول: «ومن قبيل مسألة «انشقاق القمر» مسألة «الإسراء والمعراج». وما يجب التنبيه إليه ابتداء في هذه المسألة هو أن «المعراج» لم يرد ذكره في القرآن، وإنما ذكر الإسراء وحده في قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ وقد اختلف الرواة في كيفية حدوثه: هل حدث في المنام (رؤيا) أم حدث في اليقظة؟ والظاهر من الروايات الأساسية في الموضوع أن ذلك حصل في المنام... أما المعراج (وهو صعوده ﷺ من بيت المقدس إلى السماء العليا) فقد ورد ذكره وتفصيله في الحديث، في البخاري ومسلم وغيرهما. وقد اختلف الرواة والمفسرون هل حدث المعراج بالروح وحده أم بالروح والجسد، مثل اختلافهم في الإسراء. والقول بالمعراج بالجسد يطرح عدة قضايا منها مسألة الرؤية: رؤية الله حين المعراج. فإذا قلنا: إن المعراج كان بالجسم فإن ذلك يعني أن الرسول رأى الله رؤية بصرية، هذا لا يمكن إلا مع الأجسام، والله منزه عن الجسمية. الإسراء والمعراج إذاً حدثا على صورة منامية هذا الرأي الذي نختاره من آراء العلماء السابقين. ونحن لا نناقش ما يتم للأنبياء أثناء الرؤيا، إذ هو لهم وحي، كما سبق القول، وهو خاص بهم وليس خرقاً لنظام الكون ولا مساً بسننه»(١).

والجواب على ما تقدم أن يقال: إن الزعم بأن الإسراء كان بالروح لا بالجسد مخالف لما عليه جمهور السلف والخلف من أن الإسراء كان ببدنه وروحه ﷺ. قال القاضي عياض بعد أن ساق مقالات أهل العلم في ذلك: «والحق من هذا، والصحيح إن شاء الله تعالى أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، إذ لو كان مناماً لقال (بروح عبده) ولم يقل (بعبده)، وقوله تعالى ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: ١٧]. ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما استبعده الكفار ولا كذبوه ولا ارتد به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته»(٢). ثم إن ظاهر السياقات يدل على ذلك من ركوبه

(١) مدخل إلى القرآن الكريم، ص١٨٩ ـ ١٩٠.

(٢) الشفا (١/ ١٨٩).

وصعوده في المعراج وغير ذلك، ولهذا قال ﷻ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]. والتسبيح إنما يكون عند الآيات العظيمة الخارقة فدل على أنه بالروح والجسد، والعبد عبارة عنهما[١].

أما هيكل في كتابه «حياة محمد» فساق هذه القصة من رواية المستشرق درمنغم كما قال، والذي استخلصها من كتب السيرة، مع أنه من المفترض والذي يحتّمه المنهج العلمي أن يرجع إلى كتب الحديث والسيرة التي تروي هذه الحادثة لا إلى كتب المتشرقين، لكنه لا يطمئن إلى تلك الكتب إلا بقدر ما ينقل عنها هؤلاء، وهذا عجيب في ميدان البحث العلمي. بل يطالعنا الدكتور هيكل برأي أشد غرابة من منهجه، ويرى أنه أبدع فيه حتى تساءل هل سبق إليه أم لا، وخلاصته أن في الإسراء والمعراج تحققت وحدة الوجود في شخص محمد ﷺ! يقول:

«فهذا الروح القوي قد اجتمعت فيه في ساعة الإسراء والمعراج وحدة هذا الوجود بالغة غاية كمالها.. تداعت في هذه الساعة كل الحدود أمام بصيرة محمد واجتمع الكون كله في روحه فوعاه منذ أزله إلى أبده، والإسراء بالروح هو في معناه كالإسراء والمعراج بالروح جميعاً سمواً وجلالاً وجمالاً، فهو تصوير قوي للوحدة الروحية من أزل الوجود إلى أبده»[٢].

واضح أن هيكل تأول هذه المعجزة على أنها إسراء بالروح فحسب، ولو وقف عند هذا الحد لهان الأمر، لكن أن يتأولها بوحدة الوجود فهذا غاية الضلال. يقول الشيخ مصطفى صبري:

«وإني جد متعجب من أن كاتباً كبيراً في طليعة الأدباء والعقلاء في مصر مثل الدكتور هيكل باشا يأبى عقله أن يؤمن بمعجزات أنبياء الله الكونية فينكرها، في حين أنه يقبل خرافة الوجود المستحيلة حتى يفسر بها معجزة الإسراء، ومعناه أنه لا يؤمن بالمعجزة حالة كونها ممكنة، ويؤمن بها عند تصويرها في صورة المحال»[٣].

---

(١) السيرة النبوية: لابن كثير (٢/ ١٠٤).

(٢) حياة محمد، ص١٧٢.

(٣) موقف العقل (٤/ ١٩٧) بالهامش.

وأخيراً فإن الجهل بحقائق الدين والنبوات، والانصياع والتأثر الذليل للغرب ولمناهج المستشرقين واتباع خطواتهم، هي أبرز العوامل وراء هذا التشكيك وهذا الإنكار، وليس غريباً بعد هذا أن تجد ثلة من المعاصرين الكاتبين في السيرة النبوية على اختلاف توجهاتهم، سواء أكانت مادية أم علمانية أم عقلانية أم غيرها يلتقون في مثل هذه القضايا ويصدرون في هذه المسائل عن رأي واحد.

الباب الثاني

مصادر المستشرقين في كتاباتهم عن النبي ﷺ



تمهيد

يستند كثير من المستشرقين وخصوصاً المتأخرين منهم إلى مصادر مختلفة في كتاباتهم عن النبي محمد ﷺ. وقد تنوعت هذه المصادر بحسب اهتمامات المستشرق، ومدى إجادته للغة المصادر الأصيلة، وكذلك سعة اطلاعه، وتوفر المصادر بالنسبة إليه.

ولا شك أن لهذه المصادر دوراً مهماً في سلامة الكتابة الاستشراقية متى ما تحلى الباحث بالإنصاف والموضوعية، وحيث وجد الإنحراف في الكتابة فلا يخلو الأمر ـ في نظري ـ من أحد أمرين:

إما أن يكون المصدر غير سليم في نقل الحدث وتصوير الموقف وتحليل المسألة. أو يكون المستشرق غير مصيب في تصور الأمر وفهمه وتحليله سواء كان ذلك بقصد منه أو من غير قصد.

وقد تقدم في المباحث السابقة بيان أنواع المستشرقين وأصنافهم في الكتابة بين متعاطف ومنصف ومتحامل متعصب.

وفي هذا الباب سيتناول البحث أهم المصادر التي اعتمد عليها المستشرقون في كتاباتهم عن النبي ﷺ ومنهجهم في التعامل معها والاستفادة منها.



الفصل الأول

القرآن الكريم

الفصل الأول

القرآن الكريم

رغم تباين النظرة الاستشراقية للقرآن الكريم ومصدره إلا أن الباحث في انتاج المستشرقين يرى اتفاقاً كبيراً بينهم على اختلاف أصنافهم ومعتقداتهم في عد القرآن الكريم المصدر المعرفي الأهم والأبرز في الكتابة عن حياة النبي محمد ﷺ وسيرته، وفي رصد سلوكه وأخلاقه، وفي توضيح رسالته ودعوته.

ومن هنا فقد كان للقرآن الكريم شأنه المهم عند جمهور المستشرقين في رصد حياة النبي ﷺ ورسالته ومنهجه في الدعوة، وإن اختلفت مناهجهم وطرائقهم في كيفية استخدام هذا المصدر، وما شابها من إشكاليات وانحرافات.

وفيما يلي سيتناول البحث النظرة الاستشراقية للقرآن الكريم عموماً، ومنهج المستشرقين في استخدام القرآن الكريم كمصدر معرفي للكتابة عن النبي محمد ﷺ، وذلك من خلال المبحثين التاليين:

المبحث الأول: القرآن الكريم في دراسات المستشرقين.

المبحث الثاني: القرآن الكريم كمصدر للكتابة عن النبي ﷺ.

المبحث الأول

القرآن الكريم في دراسات المستشرقين

نظر المستشرقون المسلمون إلى القرآن الكريم نظرة المؤمن إلى ينبوع إيمانه، ومصدر حكمته وشريعته، ولذلك لم يقدم أحدهم ـ فيما أعلم ـ دراسة في تاريخ القرآن بالمعنى العلمي للمصطلح، بل اكتفى معظمهم باستخدام آياته في فقهه والدعوة إليه[١].

والحقيقة أن هذا موقف طبيعي تماماً، إذ إن أهم العوامل الفاعلة في إيمانهم كان يقينهم في إعجازه، ولذلك فإن إيمانهم نفسه قد اعتبر بالنسبة لهم دليلاً على سلامة نصوص الوحي ومحافظتها على جاذبيتها الربانية. هذا إضافة إلى أن رحلة البحث عن الإيمان قد زرعت في نفوسهم الثقة فيما يدونه العلماء المسلمون الذين امتازت مؤلفاتهم بالصدق والعمق والإحاطة، فلم يحتاجوا بعد هذين الأمرين إلى البحث في تاريخ القرآن، ولم يدهشهم أسلوب ترتيب آياته وسوره الذي أرضاهم كمتدينين فتحقق رضاهم بذلك باعتبارهم عقلاء، خصوصاً وأن هذا الترتيب لا يظهر أي نقص، بل كان سبباً لكل كمال[٢].

---

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٢٧٥.

(٢) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

وبناء على هذا فقد اكتفوا بالنظر إليه باعتباره معجزة حية مستمرة تحمل أدلة إعجازها في ذاتها، ولذلك قال نصر الدين دينيه: «إن معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمداً كانت في الواقع معجزات وقتية، وبالتالي معرضة للنسيان السريع. بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية: (المعجزة الخالدة)، ذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر. ومن اليسير على المؤمن، في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله، وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي أحرزه الإسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوروبيون؛ لأنهم يجهلون القرآن، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلاً عن أنها غير دقيقة.

إن الجاذبية الساحرة التي يمتاز بها هذا الكتاب، الفريد بين أمهات الكتب العالمية، لا تحتاج منا ـ نحن المسلمين ـ إلى تعليل، ذلك أننا نؤمن بأنه كلام الله أنزله على رسوله»[1].

أما فيما يتعلق بجمهور المستشرقين غير المؤمنين برسالة النبي ﷺ وألوهية مصدر الوحي فقد احتلت الدراسات القرآنية مساحة كبيرة في كتاباتهم حول الإسلام عموماً، وظهرت منذ زمن مبكر في تاريخ الاستشراق، ونذكر فيما يلي طرفاً من هذه الدراسات، موزعة على حسب المواضيع القرآنية التي تناولتها:

١ ـ في مجال الترجمة: تعتبر ترجمة معاني القرآن الكريم من أول الجهود الاستشراقية في مجال الدراسات القرآنية.

فقد ظهرت هذه الترجمات منذ زمن مبكر جداً حيث ظهر في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي أول ترجمة لمعاني القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، والتي دعا لها بطرس المبجل (١٠٩٢ ـ ١١٥٧م) رئيس دير كلوني، وقام بها روبرت فون كيتون بمساعدة الألماني هرمان دالماتا، وقد انتهى العمل في هذه الترجمة عام (١١٤٣م)، ومن المفارقات العجيبة أن هذه الترجمة ظلت حبيسة الأدراج مدة (٤٠٠) عام إلى أن تدخل بعض رجالات الدين وعلى رأسهم مارتن لوثر، لكي تخرج هذه الترجمة أخيراً إلى النور عام (١٥٤٣م)، وبالطبع كان الهدف من إخراجها هو دحض الدين الإسلامي ونقده وليس الحوار معه،

(١) محمد رسول الله، ص١٣٨.

وذلك من خلال مغالطات لغوية ودينية احتوتها هذه الترجمة.

وكان السبب في تلك المغالطات اللغوية والعقدية هو صعوبة فهم النص القرآني في اللغة العربية، وترجمته إلى اللغة الهدف من جهة، ومن جهة أخرى خوف المترجمين من الترجمة الصحيحة لمعاني القرآن الكريم، وهو الذي تحتوي جملة ـ فيما يحتويه ـ الرد على معتقداتهم وإثبات الدين الإسلامي وأن القرآن هو كلام الله تعالى[١]. وبعد ستين سنة من ظهور الترجمة الأولى لمعاني القرآن الكريم جاءت الترجمة الثانية لـ«مارك الطليطلي»، وقد أنجزها بأمر من رئيس أساقفة طليطلة وإسبانيا، كما نجده يذيل هذه الترجمة بترجمة كتاب المهدي بن تومرت[٢] حول وحدانية الله، بالإضافة إلى ملخص للسيرة النبوية، وقد ذكر في مقدمة الترجمة أنه يهدف إلى أن يضع بين يدي المخلصين المسيحيين الحجج والبراهين والأدلة لدحض الديانة الإسلامية، وليكتشفوا بأنفسهم أسرار عبادة الرب[٣].

وفي عام ١٥٣٠م نشرت في البندقية بإيطاليا أول طبعة للقرآن الكريم، إلا أن الكنيسة لم تكن ترغب في نشر نص القرآن الكريم، أو ترجمته دون الرد عليه إذ أصدر «البابا بولس الثالث» أمراً بحرق جميع النسخ في الحال[٤].

ثم تتابعت الترجمات الاستشراقية عبر عدة قرون، ولا توجد أي لغة في العالم إلا قام المستشرقون بترجمة معاني القرآن الكريم إليها كاملاً أو ناقصاً[٥]،

---

(١) الدراسات القرآنية في ألمانيا: أحمد محمود هويدي، ص٦٩ وما بعدها.

(٢) المَهْدي ابن تُومَرْت (٤٨٥ ـ ٥٢٤هـ): محمد بن عبد الله بن تومرت البربري، المتلقب بالمهديّ، ويقال له: مهدي الموحدين، صاحب دعوة السلطان عبد المؤمن بن علي ملك المغرب، وواضع أسس الدولة المؤمنية الكومية. ذهب إلى العراق ومكة ومصر وأظهر الزهد والورع وإنكار المنكرات فتجمع حوله الناس إلى أن رحل بهم إلى مراكش، وعبد المؤمن معه، حرض الناس على ابن تاشفين، ونزل بموضع حصين من جبال (تينملل) وقوي بأهل تلك المنطقة أمر ابن تومرت، وتلقب بالمهديّ القائم بأمر الله، وعاجلته الوفاة في جبل تينملل قبل أن يفتح مراكش. ولكنه قرر القواعد ومهدها، فكانت الفتوحات بعد ذلك على يد صاحبه (عبد المؤمن) كان داهية أبيّاً فصيحاً، أديباً له كتاب «أعز ما يُطلب» مشتمل على تعليقاته. انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٣٧)، والكامل: لابن الأثير (١٠/ ٢٠١ ـ ٢٠٥)، وفهرس المؤلفين، ص٢٥٢، والأعلام (٦/ ٢٢٩).

(٣) مصادر الدراسات الإسلامية في أوروبا: عبد الغني أبو العزم، ص١٣٤.

(٤) صفحات من تاريخ الاستشراق: محمد كامل عياد، ص٥٧٧.

(٥) المستشرقون ودورهم في ترجمة القرآن الكريم: محمد شيخاني، ص١٤٢ ـ ١٤٧، الندوة العالمية حول ترجمات معاني القرآن الكريم، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

لكن المترجمين كما يقول المستشرق فيشر: «مستعربون من الطبقة الثانية، بل ومنهم من هم من الطبقة الثالثة والرابعة، والقرآن هو المصدر الأول لمعرفة الدين، والترجمة هي الطريقة الوحيدة لإيصال الإسلام إلى العامة»[١] إلا أنهم كانوا يقدمون الإسلام كما يريدون له، وليس كما هو على حقيقته «ومن ثَمَّ يترجمون معاني القرآن الكريم بطريقة تخدم هذا الغرض... ويمكن للمرء أن يتبين الرغبة الواضحة في إخفاء بعض المعاني أو تعمد تغييرها حتى يتواءم النص مع وجهة النظر الشخصية»[٢].

وفي القرن السابع عشر وتحديداً سنة ١٦٩٤م قام القسيس الألماني «إبراهام هنكلمان» بنشر القرآن الكريم باللغة العربية، وكتب في مقدمته قوله: «من الضروري أن نعرف القرآن معرفة دقيقة إذا أردنا مكافحته، وتمهيد السبيل لانتشار المسيحية في الشرق»[٣]. كما قام الراهب الإيطالي «ماراتشي» في القرن نفسه بنشر القرآن الكريم باللغة العربية مع ترجمة لاتينية مصحوبة بحواش وتعليقات كثيرة. وقد قال في مقدمة النسخة العربية: «إنه قضى أربعين سنة في دراسة القرآن وكتب التفسير العربية؛ كي يستطيع محاربة الإسلام بأسلحته نفسها»[٤]. وقد وصف «جوستاف بفانموللر» موقف «ماراتشي» من القرآن بأنه: «نفور داخلي إزاء محمد وتعاليمه»[٥].

ثم توالت الترجمات بعد ذلك، ومن أشهرها: الترجمات الإنجليزية لـ: «جورج سال» عام ١٧٣٤م وهي أشهرها، و«آربري» ١٩٥٥م، و«بالمر» عام ١٨٨٠م، و«بل» ١٩٣٩م. ومن الترجمات الشهيرة باللغة الألمانية ترجمة «رودي بارت»، وأما الترجمات إلى الفرنسية فمن أشهرها: ترجمة «سفاري» ١٧٨٣م، و«كازيميرسكي» ١٨٣٢م، و«مونتيه» ١٩٢٩م، و«بلاشير» ١٩٤٧م.

وقد حملت تلك الترجمات أخطاءً لغوية، وطعوناً وشبهات عقدية، وحملت

---

(١) المرجع السابق، ص١٣٨.

(٢) تأملات حول أفكار خاطئة يروجها المستشرقون من خلال ترجمات خاطئة للقرآن: موريس بوكاي، الندوة العالمية حول ترجمات معاني القرآن الكريم، ص٩٣.

(٣) صفحات من تاريخ الاستشراق، ص٥٧٧ ـ ٥٧٨.

(٤) المرجع السابق، ص٥٧٨.

(٥) الإسلام في تصورات الغرب: محمود زقزوق، ص١٣٨.

في بواطنها أهدافاً استشراقيةً عديدة أشار إليها عدد ممن حصر ترجمات المستشرقين لمعاني القرآن الكريم[١].

٢ ـ وفي المجال التاريخي للقرآن الكريم فقد ظهرت عدة دراسات في هذا المجال، ومنها:

- التطور التاريخي للقرآن، إدوارد سيل، مدراس، الهند، ١٨٩٨م.
- مدخل تاريخي نقدي إلى القرآن، للمستشرق الألماني جوستاف فايل (١٨٠٨ ـ ١٨٨٩م).
- تاريخ القرآن، للمستشرق الفرنسي بوتيه (١٨٠٠ ـ ١٨٨٣م).
- تاريخ النص القرآني، للمستشرق الألماني نولدكه (١٨٣٦ ـ ١٩٣٠م)[٢].
- تاريخ القرآن، للمستشرق الفرنسي ريجس بلاشير.
- تاريخ القرآن، للمستشرق الألماني براجشتراسر (١٨٨٦ ـ ١٩٩٣)[٣].

٣ ـ ومن الكتب والأبحاث الاستشراقية المتعلقة بالقصص القرآني والتي تركز دوماً على مزاعمهم بالأثر اليهودي في القصص القرآني:

- مصادر القصص الإسلامية في القرآن وقصص الأنبياء، لسايدر سكاي، باريس، ١٩٣٢م.
- والقصص الكتابي في القرآن، لسباير جريفنا، ١٩٣٩م.
- قصة أهل الكهف، عام ١٩٠٧م[٤].
- قصص القرآن، للمستشرق المجري بيرنات هيللر (١٨٥٧ ـ ١٩٤٣م)، مجلة عالم الإسلام، ١٩٩٤م[٥].

---

(١) انظر: المستشرقون وترجمة القرآن: د. محمد البنداق، ص١٥٥ وما بعدها، والمستشرقون والدراسات القرآنية: لمحمد الصغير، ص٤٧، والمستشرقون: لنجيب العقيقي (٣/ ٣٤)، وموسوعة المستشرقين: لعبد الرحمٰن بدوي، ص٦٨، والقرآن الكريم من المنظور الاستشراقي: للدكتور محمد أبو ليلة، ص٣٨١ وما بعدها، وترجمات معاني القرآن الكريم وتطور فهمه عند الغرب: لعبد الله الندوي، ص٣٣ وما بعدها، وأهداف الترجمات الاستشراقية لمعاني القرآن الكريم ودوافعها: د. محمد أشرف المليباري.

(٢) الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية: رودي بارت، ص٢٦.

(٣) المرجع السابق، ص٤٠.

(٤) المستشرقون والدراسات القرآنية: الصغير، ص٧٤ ـ ٧٥.

(٥) المرجع السابق، ص٧٥.

كما نجد مؤلفات المستشرقين في هذا المجال منثورة في المعاجم والكتب المهتمة بحصر التراث العربي والإسلامي[(١)].

٤ ـ وهناك كتابات وأبحاث حول فقه اللغة العربية في ضوء ما جاء في القرآن، منها:

- كتاب: الكلمات الأجنبية في القرآن، للمستشرق الألماني «فرانكيل».
- وكَتَب المستشرق الألماني «كارل بيكر»، قواعد لغة القرآن في دراسات نولدكه في مجلة الإسلام عام ١٩١٠م.
- ولمارجليوث بحث بعنوان: نصوص القرآن في مجلة العالم الإسلامي ١٩٢٥م.

٥ ـ وتحت عنوان القرآن، وردت عدة أبحاث وكتب لعدد من المستشرقين منهم: فلهاوزن، وياكوب بارت، وكاله، وآرثر جفري، ويبقى الأكثر شيوعاً كتاب: المستشرق الفرنسي بلاشير: القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره[(٢)].

٦ ـ ومن الأبحاث والمؤلفات الاستشراقية في مجال التفسير:

- بحث للمستشرق «هارتمان» في تفسير القرآن، مجلة الدراسات الشرقية، ١٩٢٤م.
- ونشر الإيطالي «جويدي» بحث: شرح المعتزلة للقرآن سنة ١٩٢٥م.
- ويبقى الأكثر شيوعاً في هذا المجال كتاب: «مذاهب التفسير الإسلامي» للمستشرق المجري جولد تسيهر[(٣)].
- وللمستشرق الفرنسي «هنري كوربان» عناية خاصة بتفسير الفرق الباطنية.

والمتتبع لإنتاج المستشرقين في هذا المجال يجدهم يُعْلون من شأن التفسير الشاذ الخاص بالفرق المنتسبة للإسلام[(٤)].

٧ ـ كما أنشأ المستشرقون المعاجم والموسوعات التي تخصصت في

---

(١) انظر: معجم المخطوطات المطبوعة، صلاح الدين المنجد، وكارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي.
(٢) المستشرقون والدراسات القرآنية: الصغير، ص١١٦ ـ ١١٧.
(٣) الدراسات العربية والإسلامية: رودي بارت، ص٣٠.
(٤) تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين: عبد الرزاق هرماس، ص١١١ ـ ١١٢.

المواضيع القرآنية ابتداء أو تناولت ضمن موادها ما يتعلق بالقرآن الكريم، ومن ذلك:

• في مجال المعاجم يبقى الأبرز هو: «المعجم المفهرس للقرآن الكريم» للمستشرق الألماني جوستاف فلوجل (١٨٠٢ ـ ١٨٧٠م)، سَمَّاه: «نجوم الفرقان في أطراف القرآن»، اعتمد عليه محمد فؤاد عبد الباقي في معجمه المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.

• وفي المجال نفسه يبرز عمل المستشرق الفرنسي «جول لابوم» في كتابه: «تفصيل آيات القرآن الكريم»[(١)]، مع ما في هذين العملين من أخطاء لغوية ومنهجية[(٢)].

• كما أصدر المستشرقون دائرة المعارف الإسلامية والتي حملت في طياتها مواد متنوعة تتعلق بكتاب الله تعالى، وقد صدرت بعدة لغات في طبعتها الأولى عام ١٩١٤م، وفي طبعتها الثانية عام ١٩٥٤م[(٣)].

• وهناك دائرة معارف متخصصة في القرآن الكريم أصدرتها جامعة ليدن بهولندا، كتب مقدمتها محمد أركون[(٤)].

٨ ـ ومن الاهتمامات والجهود الاستشراقية المتعلقة بالقرآن الكريم وعلومه، جهود المستشرقين في تحقيق ونشر كتب التفسير وعلوم القرآن الكريم كتحقيق: أسرار التأويل وأنوار التنزيل للبيضاوي، تحقيق المستشرق الألماني «فرايتاج». والكشاف للزمخشري، تحقيق المستشرق الإنجليزي «ناسوليز». والإتقان للسيوطي، نشر المستشرق النمساوي «شبرنجر».

ولم تَخْل أهداف المستشرقين في معظم تحقيقهم للكتب الإسلامية من الأهداف المشبوهة بتركيزهم على الكتب الشاذة في مجالها؛ كتحقيق المستشرق الألماني «برجشتراسر» لكتاب: القراءات الشاذة في القرآن لابن خالويه، وإبراز الروايات الشاذة في كتاب الإتقان للسيوطي، وكتاب المصاحف لابن أبي داود[(٥)].

---

(١) جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة: محمد عوني عبد الرؤوف، ص٣٥٥.

(٢) جهود المستشرقين في مجال التكشيف الإسلامي: عبد الستار الحلوجي، ص٧٢٨ ـ ٧٣٠.

(٣) الدراسات العربية والإسلامية: رودي بارت، ص٣٨.

(٤) انظر: الأثر الاستشراقي في موقف محمد أركون من القرآن: سعيد السرحاني.

(٥) انظر: جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة: محمد عوني عبد الرؤوف، =

وقد بيَّن عدد من المؤلفين والعلماء الأهداف المشبوهة للمستشرقين في تحقيق ونشر الكتب الإسلامية[١].

= والإحسان في تعقب الإتقان: عبد الله الصديق.

(١) انظر: المستشرقون والتراث: لعبد العظيم الديب، وجهود المستشرقين في مجال التكشيف الإسلامي: لعبد الستار الحلوجي، وإنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث: لمالك بن نبي، وتراثنا بين ماض وحاضر: لعائشة بنت عبد الرحمٰن.

المبحث الثاني

القرآن كمصدر للكتابة عن النبي ﷺ

حملت الرؤية الإسلامية للقرآن الكريم باعتباره كتاب الله المنزل على رسوله ﷺ المعجز في تلاوته ومعناه المستشرقين المسلمين إلى الاستعانة كثيراً به، حتى أصبحت شواهده ودلائله مصدراً مهماً في تفسير أحداث سيرة نبينا محمد ﷺ ومجريات الأحداث فيها.

وقد طبق هذا المنهج المستشرق الفرنسي المسلم نصر الدين دينيه في كتابه حول سيرة النبي ﷺ حيث اعتمد فيه على ما جاء في القرآن وما دوَّنه أصحاب السنن والسير، غير ملتفت إلى آراء المستشرقين، ولذلك ثارت ثائرتهم حيث زعموا أن آراءه تخالف ما انتهى إليه البحث العلمي الحديث، والحقيقة أن دينيه اعتمد هذا المنهج متعمداً، إذ رأى أنه يستحيل أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئاتهم ونزعاتهم المختلفة عند دراساتهم في النبوة الإسلامية، ولذلك كان تحريفهم للسيرة ولحياة الصحابة كبيراً حتى غطى جوانب كثيرة من الحقيقة[١].

(١) محمد رسول الله: نصر الدين (دينيه)، مقدمة الشيخ عبد الحليم محمود، ص٣٧، ٢٨، نقلاً عن «أشعة خاصة بنور الإسلام» لـ(دينيه).

والملاحظ أن كتاب دينيه في السيرة لا يختلف من حيث مادته عن المؤلفات الإسلامية الأخرى، في الاستدلال بالشواهد القرآنية، ولكن يعاب عليه المبالغة في اعتبار النص القرآني حتى أدى به ذلك إلى إنكار جوانب من أحداث السيرة لم ترد صراحة في القرآن. ومن أمثلة ذلك إنكاره لبعض المعجزات المادية للنبي ﷺ كما يقول:

«وقد آثرنا، بالاتفاق مع نصوص القرآن ـ وهو الكتاب الوحيد الذي لم يعارض ولا يقبل المعارضة ـ وبالاتفاق مع علماء الصدر الأول، ومع أصحاب الفكر الحر من المعاصرين كالشيخ محمد عبده.. أن نضرب صفحاً عن جميع الخوارق التي نسبت للنبي العربي بعد زمن طويل من وفاته، والتي يبدو أن في نسبتها إليه ما يسلبه سيماء الحقيقة، والحق أننا نرى أن محمداً هو الوحيد (من بين الأنبياء) الذي استطاع أن يستغني عن مدد الخوارق والمعجزات المادية، معتمداً فقط على بداهة رسالته ووضوحها، وعلى بلاغة القرآن الإلٰهية»[1].

أما المستشرقون المتعاطفون مع الإسلام فقد نظروا إلى القرآن الكريم نظرة تعظيم وإجلال وتبنوا كثيراً من مواقفه، وأدهشهم طابع الإعجاز فيه، ورغم أن الغالب عليهم عدم التصريح بربانيته وألوهية مصدره، إلا أنهم ذهبوا إلى أن هذا الكتاب ليس من افتراء محمد ﷺ كما زعم جمهور المستشرقين بل رموا أصحاب هذا الاتجاه بعدم الفهم لحقيقة ما جاء به القرآن.

يقول المستشرق الفرنسي رينان[2]: «إن القرآن هو أساس الإسلام، وقد احتفظ بكينونته القديمة دون أن يعتريه أقل تبديل أو تحريف، وعندما نستمع إلى

---

(١) المرجع السابق، ص٦٢.

(٢) آرنست رينان Renan,e (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢م): فيلسوف فرنسي، دخل المدارس اللاهوتية حيث برز فيها، وتضلع من اللغات الشرقية، ثم أخذ بمذهب حرية الفكر ورحل إلى الشرق ونزل بلبنان، ثم صنف كتابه «حياة يسوع» وعني بالعقائد الإسلامية. تعود شهرة رينان في البلاد العربية إلى سنة ١٨٨٣م حين ألقى محاضرة في باريس بعنوان (الإسلام والعلم) ادَّعى فيها: أن العلم عند العرب لا يحمل إلا اسم العروبة، وأن الإسلام اضطهد العلم والفلسفة، وأن الأحرار الذين يدافعون عن الإسلام لا يعرفون الإسلام. وقد ناقش مضامينها د. بدوي في موسوعته عن المستشرقين ولاتخلو مناقشاته من ملاحظات. ومن آثار رينان: «ابن رشد والرشديين»، ذكر له ثمانية وسبعين كتاباً، علق عليها بقوله: لولا ابن رشد مافهمت فلسفة ارسطو. وله «تاريخ اللغات السامية» تناول فيه علاقة النحو العربي بمنطق أرسطو، و«تاريخ الأديان». انظر: موسوعة المستشرقين، ص٣١١ ـ ٣٢٠، معجم أسماء المستشرقين، ص٤٦٠.

بعض آياته وما فيها من بلاغة وسحر تأخذنا رجفة الوله والوجد، وبعد أن نتوغل في دراسة روح التشريع التي تنطوي عليها بعض تلك الآيات الإلهية لا يسعنا الا أن نعظم هذا الكتاب العلوي ونقدسه»[١].

وتقول لورا فاغليري[٢]: «إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن، الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة من خلاله أنباء تتصف بيقين مطلق. إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته، إن كلّاً من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب... أما أسلوبه فأصيل فريد، وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي... والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير عون عرضي أو إضافي... إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة حتى عندما تعالج موضوعات... كموضوع الوصايا والنواهي... إنه يكرر قصص الأنبياء وأوصاف بدء العالم ونهايته وصفات الله... ولكنه يكررها بنحو مثير إلى درجة لا تضعف من أثرها، وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته. إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معاً»[٣].

ويقول المستشرق لوبلوا[٤]: «إن القرآن هو الكتاب الرباني الذي ليس فيه أي تغير يذكر»[٥].

ويضيف المستشرق الدكتور شبس[٦]: «يعتقد بعض العلماء أن القرآن كلام محمد، وهذا هو الخطأ المحض، فالقرآن كلام الله تعالى الموحى على لسان رسوله محمد، وليس في استطاعة محمد ذلك الرجل الأمي في تلك العصور الغابرة أن يأتينا بكلام تحار فيه عقول الحكماء ويهدي به الناس من الظلمات إلى النور، وربما تعجبون من اعتراف رجل أوروبي بهذه الحقيقة، لا تعجبوا فإني

---

(١) قيم حضارية في القرآن الكريم، ص٩٤.

(٢) لورا فيشيا فاغليري L.Veccia Vaglieri (١٨٩٣ ـ ١٩٨٩م): باحثة إيطالية معاصرة، انصرفت إلى التاريخ الإسلامي قديماً وحديثاً، وإلى فقه العربية وآدابها. من آثارها: «قواعد العربية»، و«الإسلام»، و«دفاع عن الإسلام»، والعديد من الدراسات في المجالات الاستشراقية المعروفة. انظر: المستشرقون (١/ ٤٦٦)، معجم أسماء المستشرقين، ص١١٣٤.

(٣) دفاع عن الإسلام، ص٥٦، ٥٧.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) مدخل إلى القرآن: د. دراز، ص٤٠.

(٦) لم أقف عليه.

درست القرآن فوجدت فيه تلك المعاني العالية والنظم المحكمة، وتلك البلاغة التي لم أر مثلها قط، فجملة واحدة تغني عن مؤلفات»[١].

وقد جعل هؤلاء المستشرقون المتعاطفون القرآن الكريم مصدراً مهماً للكتابة عن سيرة النبي محمد ﷺ، بل قرروا أنه المصدر الأهم من بين المصادر الأخرى، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

ـ يقول المستشرق الفرنسي نيكلسون في كتابه «التاريخ الأدبي للعرب»: «القرآن وثيقة إلٰهية رائعة، توضح بدقة سر تصرفات النبي محمد في جميع أطوار حياته، حتى إننا لنجد فيه مادة فريدة لا تقبل الشك أو الجدل، نستطيع من خلالها أن نتتبع سير الإسلام منذ نشأته وظهوره في تاريخه المبكر، وهذا ما لا نجد له مثيلاً في البوذية أو المسيحية أو أياً من الأديان القديمة»[٢].

ـ أما المستشرقة كارين أرمسترونج في كتابها «سيرة النبي محمد» فتتحدث عن كون القرآن مصدراً مهماً في معرفة حياة النبي محمد ﷺ بقولها: «أما مصدر معلوماتنا الأساسي فهو القرآن. والقرآن بالطبع ليس سرداً لحياة محمد، فإنه كشف عن الخالق أكثر من كونه كشفاً عن رسوله، وهو أيضاً يمدنا بمادة قيمة عن تاريخ المجتمع الإسلامي الأول»[٣].

ـ ويضيف المستشرق الألماني رودي باريت في كتابه «محمد والقرآن» فيقول: «بين المصادر عن تاريخ النبي محمد يحتل القرآن المنزلة الأولى. ويرجع ذلك إلى أن القرآن يتضمن أقوالاً كثيرة على لسان النبي. وتبدو خطابات الوحي وتقاريره على العموم، والتي وصلت إلينا شديدة الأمانة لصيغتها الأولى»[٤]. لكن باريت رغم تأكيده على أهمية القرآن كمصدر للسيرة النبوية إلا أنه ذكر أن هناك صعوبة في استخلاص الدلالة على تاريخ النبي ﷺ وزمانه من القرآن. ويعلل لذلك بسببين:

أحدهما: أن الأسلوب القرآني شديد الإيجاز في التعبير، فهو كما يقول: «ينتقل بشكل مفاجئ؛ بحيث لا يمكن في كثير من الحالات تبيان الموقف التاريخي الذي يعبر عنه.

---

(١) سيرة سيد المرسلين: محمود أبو الفيض الحسيني، ص١٨ ـ ١٩.
(٢) ص١٤٣.
(٣) ص٧٦، وانظر كتابها الآخر: الإسلام في مرآة الغرب، ص٥٥.
(٤) ص٢٧١.

والثاني: أنه لا يمكن إعادة ترتيب النص القرآني من أجل الإفادة الكاملة منه بحسب الموضوعات، ولا بحسب التعاقب التاريخي في التزيل[(١)].

وستأتي مناقشة الصعوبات التي ذكرها باريت ووافقه عليها جمهور المستشرقين.

جمهور المستشرقين:

أقر جمهور المستشرقين بمحورية القرآن الكريم في اعتباره مصدراً للتعرف على الدين الإسلامي فقال جولدزيهر مثلاً: «إننا لن نستطيع فهم الإسلام دون القرآن»[(٢)].

أما فيما يخص كونه مصدراً للتعرف على النبوة وسيرة النبي ﷺ الشخصية والمراحل التي قطعتها الدعوة الإسلامية فقد حكم بعض المستشرقين باستحالة ذلك، وكتب سوفاجه[(٣)] وكلود كاهن[(٤)]: «إن قارنا محمداً بمعظم مؤسسي الأديان فإن الطابع التاريخي لسيرته قوي جداً، ولكن ليس معنى هذا أننا نستطيع أن نؤسس عنه سيرة مؤكدة. وإذا كان القرآن يعلمنا رسالته فإنه من العبث أن نطلب منه أن يعرفنا على حياة محمد الخاصة، ودوره كرجل دولة»[(٥)].

---

(١) نفس الصفحة.

(٢) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٠٠ عن:
le dogme et la loi de I'Islam-P. 26.

(٣) جان سُوفاجِيه Jean Sauvaget (١٩٠١ ـ ١٩٥٠م): مستشرق فرنسي بحاثة، أتقن العربية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس، وسافر إلى دمشق سنة ١٩٢٤م فعمل في المعهد الفرنسي، وعاد إلى باريس سنة ١٩٣٧م فعين مديراً لدراسات تاريخ الشرق الإسلامي في مدرسة (الدراسات العليا) وأستاذاً في مدرسة اللغات الشرقية، ومحاضراً في اللغة العربية بجامعة باريس، وقام برحلات إلى تركيا وفلسطين والعراق وإيران. وكان مع إجادته العربية يحسن التركية والفارسية. وله تآليف وبحوث كثيرة بالفرنسية. انظر: المستشرقون، ص٧٤، الأعلام (١٠٨/٢).

(٤) كلود كاهن Claude Cahen (١٩٠٩ ـ ١٩٩٠م): مستشرق فرنسي متخصص في تاريخ الشرق الأدنى في عهد الحروب الصليبية، التحق بمدرسة المعلمين العليا، وبالمدرسة الوطنية للغات الشرقية الحية وبكلية الآداب في جامعة باريس. وحصل على الدكتوراه ثم عين أستاذاً في كلية الآداب بجامعة استراسبورج، ثم أستاذاً في السوربون ثم صار رئيساً للجمعية الآسيوية، كتب عرضاً إجماليّاً لتاريخ الإسلام بعنوان: «الإسلام»، وله «المدخل إلى تاريخ الشرق الإسلامي». وأسهم بمواد في «دائرة المعارف الإسلامية». انظر: موسوعة المستشرقين، ص٤٦٠ ـ ٤٦١، معجم أسماء المستشرقين، ص٨٦٤.

(٥) المرجع السابق، ص٣٠٠ عن:
Introduction a I'Histoire de l'orient musulman-P. 120.

وهذا في الحقيقة موقف في غاية الغرابة إذ لم يميز صاحباه بين الحياة الخاصة للنبي ﷺ وحياته الدعوية. وقد خلا القرآن إجمالاً من ذكر تفاصيل السيرة الذاتية للنبي ﷺ، والتي يراد بها هنا الحديث عن نسبه ﷺ وتاريخ ميلاده، ووصف شكله، وأسماء نسائه، وإحصاء ممتلكاته إلى غير ذلك مما تحتويه كتب السيرة الشخصية.

أما بالنسبة لقصة النبي ﷺ مع الإيمان وجهاده في الدعوة إلى الله ودوره كرجل دولة، فإن القرآن الكريم قد عرّف الدارس له بمجمل وجوه ذلك، ولهذا فإن نص هذين المستشرقين على ما أوردناه عنهما لا يكون صادقاً إلا إذا قصدا أن القرآن يخلو من ذكر المواطن بالتفصيل، وإحصاء الغزوات والجيوش، وشكل وموطن سكنه وعبادته، وفي هذه الحالة فقد غاب عنهما أمر هام، وهو أن القرآن ليس كتاب كله قصص وأخبار مثل الكتاب المقدس، ولا هو كتاب سيرة قصد مؤلفه التعريف بشخصية من شخصيات التاريخ، بل هو كتاب هداية بالأساس، ولذلك تتداخل فيه ـ وهذا ما لم يعرف في أي كتاب ديني غيره ـ الحياة الشخصية للنبي ﷺ بدعوته تداخلاً عجيباً، دون أن يعني ذلك بالضرورة عدم قدرتنا على استخراج أحداث السيرة الكبرى من آياته[(١)].

يقول الأستاذ مالك بن نبي[(٢)]: «فإن هذه الذات ـ أي: ذات النبي ﷺ ـ تشغل فيه مكاناً ضئيلاً، إذ نادراً ما يتحدث القرآن عن تاريخ محمد الإنسان: إن آلامة العظمى، أو مسراته لم ترد فيه قط، ولو تخيلنا النازلة التي أصابته في أوج دعوته بفقد عمه وزوجته لأدركنا مدى الدوي الرهيب لحدث كهذا في حياة رجل.. وبرغم هذا لا نجد أي صدى لموتهما في القرآن»[(٣)].

ورغم ما تقدم من إقرار بعض المستشرقين بصعوبة تسجيل السيرة الذاتية

---

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٠١.

(٢) مالك بن نبي (١٣٢٣ ـ ١٣٩٣هـ): مفكر إسلامي جزائري ولد في مدينة قسنطينة، ودرس القضاء في المعهد الإسلامي المختلط، وتخرج مهندساً ميكانيكيّاً في معهد الهندسة العالي بباريس، وزار مكة، وأقام في القاهرة سبع سنوات أصدر فيها معظم آثاره باللغة الفرنسية نحو ٣٠ كتاباً جلها مطبوع، ترجم بعضها إلى العربية، وكان من أعضاء مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة، وتولى إدارة التعليم العالي بوزارة الثقافة والإرشاد القومي الجزائري. انظر: مجلة الوعي الإسلامي (السنة الثامنة العدد ١٠٨، ص٧٢ من مقال بقلم أنور الجندي)، والأعلام (٥/ ٢٦٦).

(٣) الظاهرة القرآنية، ص١٨٨.

للنبي ﷺ من خلال ما ورد في القرآن، إلا أن نفراً كثيراً منهم حاول رصد هذه السيرة من خلال البحث في آيات القرآن وسوره، والنظر في ترتيبها ومجرى الأحداث فيها، وذلك لاستخلاص الأحداث الزمنية والمناسبات الشخصية والترتيب فيما بينها لإنتاج سيرة شاملة ووافية ـ زعموا ـ للنبي ﷺ.

ولهذا توسع المستشرق (فيليب حتي) في مجال عمل القرآن حتى جعله مصدراً مؤكداً لحياة النبي ﷺ كما يقول: «ولا ريب في أن القرآن هو أحسن المصادر لأحداث حياة محمد»[١].

والملاحظ أن موقف المستشرقين المتمثل في اعتبارهم القرآن مصدراً أساسياً لسيرة الدعوة المحمدية، وإنكار معظمهم ـ نظرياً ـ محورية الروايات الإسلامية في تشكيل وتفصيل الحياة الشخصية والدعوية للنبي ﷺ قد أدت إلى أن أصبح القرآن ـ نظرياً ـ هو المصدر الوحيد للتعرف على نبي الإسلام بالنسبة لهم. وهذا ما دفع عدداً من كبار المستشرقين إلى العمل على حصر إشكاليات البحث عن سير الدعوة النبوية فيما أورده القرآن، ومحاولة حلها بطريقة تمكن المستشرق ـ الشاك غالباً ـ من تكوين سيرة مؤكدة للنبي ﷺ حسب زعمهم.

ولعل ما ذكرناه هو السبب الرئيس لكثرة إثارة المستشرقين لمشكلة الترتيب الزمني لآيات القرآن وسوره، كما يقول بلاشير:

«وبتقبلنا لهذه الواقعة ـ أي: مصدرية القرآن ـ تبدأ الصعوبات. وفي البدء تظهر مشكلة إعادة ترتيب النصوص القرآنية؛ لأن السور في الترتيب العثماني تبدو مرتبة، إجمالاً، على العكس من تاريخ تلقي الوحي. ومن ناحية أخرى، وفي معظم الحالات تقريباً، فإن السور لا تشكل من مجموعات متناسقة بل من آيات يجمعها موضوع أساسي واحد. وهذه الطريقة في تشكيل السور تعود ـ كما يبدو ـ إلى محمد نفسه، وكان من نتائجها التشويش الذي لا يمكن معالجته على الترتيب الزماني للنصوص، وبالتالي حساسية عملية تأريخ الملامح المعتبرة التي تحتويها.. ليس هذا فقط، بل إن هذا المصدر البيوغرافي لا يحتوي على أي معلومات عن حياة محمد قبل الوحي إليه، ولا أي خبر ـ تقريباً ـ عن الهجرة إلى المدينة، ولا يحتوي أخيراً على أي شيء عن آخر لحظات من كان يقدم نفسه

(١) الإسلام منهج حياة، ص١٣.

على أنه (خاتم الأنبياء)»[١].

وهذا الموقف الذي عبر عنه بلاشير وأساتذته المباشرين مثل جولدزيهر وتلاميذه مثل كلود كاهن، موقف قديم بدأت ملامحه في القرن التاسع عشر؛ أي: قبل تعرف كبار مستشرقي ذلك القرن على المدونات الإسلامية الشهيرة في السيرة، مثل سيرة ابن إسحاق ومغازي الواقدي وطبقات ابن سعد[٢].

وقد قام موير من أجل تحقيق الاعتماد على القرآن وحده بترتيب سوره ترتيباً زمنياً بحسب أحداث السيرة، ونتج عن ذلك تحديده لست مراحل للدعوة، خمس منها مكية والأخيرة مدنية[٣]، وقد اعتمد في هذا العمل اعتماداً غير قليل على المؤلفات الإسلامية المتوافرة للمستشرقين آنذاك، بعد أن عمد إلى دراستها دراسة نقدية، ولكنه مع هذا «وقع في أخطاء عديدة كما أخذ بروايات واهية»[٤].

والحق، أن المتأمل في عمل المستشرقين المتقدم يرى فيه مخالفة صريحة للمنهج العلمي الصحيح، وجهلاً بواقع القرآن الكريم ورسالته التي جاء بها، والمقصد القويم الذي أنزل لتحقيقه، وتوضيح ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن كتاب الله تعالى خال في الأساس من التعيين الزماني المعروف، هذا إضافة إلى أن الكثير من آياته ليس من النوع الذي من الممكن أن يستخلص منه معرفة محددة بواقعة أو زمن ما.

ومن هذا القبيل الآيات الخاصة بالتعريف بالله تعالى وأسمائه وصفاته، وآيات البشارة والنذارة، والوعظ والإرشاد فيه، وتصوير أحوال اليوم الآخر.. إلخ، ويبقى مع هذا عدد معتبر من الآيات التي من الممكن أن نستخلص منها فقهاً بخصائص النبوة وسير الدعوة، وبعض ملامحها بشرط أن يكون لدينا علم مسبق بالسير العام لأحداثها، وهو ما تضمنه لنا السيرة المأثورة.

ومن أمثلة ذلك عِلمنا أن قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ

---

(١) le problem de Mahoemt-P. 2.

(٢) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٠٢ ـ ٣٠٣.

(٣) المرجع السابق، ص٣٠٣ عن:
introduction au Coran-R. Blachere-P. 249.

(٤) مباحث في علوم القرآن: د. صبحي الصالح: ص١٧٦.

إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠]. يصور لنا موقفين، أحدهما خاص باختباء النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر في غار ثور بعد خروجهما من مكة مهاجرين، واقتراب أعدائهما من النيل منهما، مع التنبيه على أن الآية لا تركز على الحادث في نفسه، وإن كنا نستفيد ذلك منها، بل تبين يقين النبي ﷺ في نصر الله تعالى في ذلك الموقف الحرج، وهي لذلك تقصد ـ بواسطة التذكير بهذا الموقف ـ إلى حض المؤمنين في المدينة على الجهاد ونصرة دين الله مع اليقين بحفظ الله تعالى لهم.

وشبيه بما سبق قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧﴾ [الأنفال: ٧]. إذ أننا لا نعلم أنها خاصة بحض المؤمنين على الخروج لبدر، وإمكانية فوزهم إما بالنصر وإما بالاستشهاد، وفي الآية فائدة لا يمكن أن تذكرها التواريخ بهذا الوضوح والقطعية، وهي نقله تعالى لأحاسيس المؤمنين وأمنيتهم الخفية بعدم لقاء قريش، بل الظفر بالغنيمة فقط[١].

الوجه الثاني: أن اتهام المستشرقين للقرآن بعدم ترتيبه ترتيباً زمنياً واعتبارهم ذلك نقصاً سببه أنهم قد خضعوا لما عرفوه من شكل كتبهم المقدسة، والتي يظهر فيها اهتمام بالغ بذكر الأنساب والأعداد والأماكن والغلال والدواب، ووصف الرجال والنساء والسلاح، وتحديد أسماء الملوك.

وقد بدا التأثر بهذا المنهج واضحاً عند جمهور المستشرقين، ولذلك اتخذ الأب لامنس غياب هذا الشكل الكتابي في القرآن الكريم مطعناً فيه، فقال في معرض حديثه عن نقائصه: «إن مراجعة لاحقة على المؤلف كانت تستطيع أن تخفف من الآيات التي تتعلق بزينب.. وفي ترتيب الأنبياء كان من الممكن لهذه المراجعة أن تفصل وتميز بين أنبياء العهد القديم والجديد»[٢].

وقد تجاهل المستشرقون أن الكتب المقدسة السابقة على القرآن ـ بعدما طرأ عليها التحريف والتبديل ـ هي تأليفات بشرية عادية، ولذلك احتوت على سير المجتمعات المختلفة التي كان لها علاقة بالوحي، ولذلك بدا فيها العنصر الديني هامشياً إذ تراكمت عليه الأخبار والروايات عن الأعداد والأماكن.. كما أن بعض

---

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٠٩.

(٢) l'Islam croyances et institutions-P. 51.

الكتب المقدسة وخصوصاً الأناجيل هي مؤلفات في السيرة بالمعنى الحقيقي للكلمة، بحيث لا تختلف في أي ملمح عما ألفه المسلمون عن النبي ﷺ إذ نلاحظ فيها التتبع التاريخي للأحداث ممتزجاً بالمواقف الدينية لعيسى عليه السلام، وكذلك الأمر بالنسبة للرسائل التي احتواها العهد الجديد التي نقلت لنا تاريخ الدعوة إلى المسيحية، وانتقالات الرسل وأقوالهم وأصدقائهم ومنافسيهم وأعدائهم.

أما بالنسبة للقرآن الكريم فإن الأمر فيه مختلف تماماً، إنه كتاب دين بأتم معنى للكلمة، ولذلك فهو ينقل أساساً الحقائق التي أراد الله تعالى أن يعلمها البشر، كما جاء بالبراهين المختلفة على كونه تعالى قد أوحى إلى نبيه محمد ﷺ ما أوحى، ولذلك فإن الأخبار الواردة فيه عن النبي ﷺ ليست موجهة لتأليف سيرة عنه، وإنما هي وسيلة للتعريف بهذه الحقائق: الألوهية، وإثبات النبوات، وتعظيم الأنبياء، والحض على الفضائل، والتحذير من الآثام... ومعنى هذا أن الخطاب الوارد في القرآن ينقل (حكم الله)، حسب (علم الله)، و(إرادة الله) في كل الأمور المتعلقة بالرسالة والرسول.

وتغطي القاعدة التي ذكرناها حتى تلك الآيات التي تعرض لحياة النبي ﷺ الخاصة، إذ أنها مجرد وسيلة اتخذها القرآن للتعريف بحكم الله في الأشياء، لقد ورد في القرآن مثلاً قصة إعراض النبي ﷺ عن ابن أم مكتوم، وهو رجل أعمى جاء يسأله، وكان النبي ﷺ مشغولاً عندها بدعوة كبراء قريش فأعرض عنه، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ۝٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ۝٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ۝١٠ كَلَّآ إِنَّهَا تَذۡكِرَةٞ ۝١١﴾ [١ ـ ١١]. والغرض من هذه الآيات ليس تعليمنا اسم هذا الرجل وصفته، والمجلس الذي كان فيه النبي ﷺ والأقوام الذين كان يدعوهم، بل المراد تعليم النبي ﷺ بأن الإيمان هو محور الدعوة والمقياس الوحيد للحكم، وتعليم المؤمنين بأن الخطأ حقيقة إنسانية، ورغم هذا فلا شيء يمنع الدارسين من أن يتخذوا من هذه الآية دليلاً على إقبال الناس على النبي ﷺ ليسألوه عن رسالته، واجتهاده البالغ في التبليغ، وصرفه فيه كل همه[(١)].

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣١١.

وفي ضوء ما تقدم يتبين أن منهج المستشرقين في البحث عن السيرة النبوية بالاعتماد على القرآن وحده منهج خاطئ تماماً، إذ يحتوي القرآن فعلاً على كثير من الشواهد التي من الممكن استخدامها لتشكيل السيرة، وخصوصاً فقه خبايا أحداثها، ولكن الباحث فيه يحتاج ـ دوماً ـ إلى معرفة الخط العام للدعوة كما وردت بها الأخبار الصحيحة، إضافة إلى ضرورة أن يبذل هذا الباحث جهداً كبيراً في معرفة الخصائص الخطابية والأسلوبية والموضوعية الواردة في آياته، من أجل استخلاص الطابع العام لكل مرحلة من مراحل الدعوة.

ومن الواضح أن المستشرقين لم يقصدوا إلى تحقيق الهدف الذي أعلنوه؛ أي: كتابة سيرة النبي ﷺ بالاستناد على القرآن وحده، بل إن غرضهم كان التشويش عليه، والتشكيك في أحداث السيرة وكتب الحديث، لتحقيق غرض خفي وهو الحكم بجهل التأريخ ـ على الأقل جزئياً ـ بشخصية النبي ﷺ ودعوته، وذلك بالعمل على الفصل بين القرآن والمواد التأريخية التي تستخدم في فقهه.

وبهذه الطريقة يستطيع المستشرق أن يكتب عن السيرة ما يشاء، فيقدم الحوادث ويؤخرها، ويحكم على النبي ﷺ بالتطور الداخلي التابع لظروف الدعوة الخارجية. ويصحح من الأحداث ما يتناسب مع الهدف الذي يريد الوصول إليه في كل مبحث من مباحث العقيدة والسيرة، ويحكم بعدم صحة أو وضع أو ضعف كل العناصر التي تدل على عكس هذا الهدف.

ويبدو سوء قصد المستشرقين عندما نتتبع إنتاجهم في السيرة، فنلاحظ أن الأمر الذي دعوا إليه هو موقف نظري فقط، لم يكن القصد منه الاستبعاد التام والحقيقي للروايات الإسلامية؛ لأن هذا أمر مستحيل علمياً، بل تحقيق الحرية التي تحدثنا عنها؛ أي: التصرف في القرآن الكريم بالتأويل الفاسد، وضرب السيرة في الصميم بواسطة التشكيك في مجمل عناصرها[١].

ـ ولنضرب مثالاً يوضح بجلاء هذا الهدف تماماً:

فقد حكم بعض المستشرقين ومنهم شبرنجر بأن اسم النبي ﷺ لم يكن محمداً في المرحلة السابقة على الهجرة، وقد نص على أنه اتخذ هذا الاسم بعد هجرته إلى المدينة، وتحديداً عندما خالط النصارى وقرأ في كتبهم أن هنالك

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣١٢.

رسولاً سيبعث اسمه الباراقليط، فاتخذ اسمه الجديد مشتقاً من المعنى اللغوي لاسم هذا الرسول، وهو (المحمود) حتى يوهم الناس بأنه ذلك الرسول.

وقد استدل على ما ذهب إليه بورود اسم النبي ﷺ في السور المدنية وحدها، وهي آل عمران، والأحزاب، ومحمد، والفتح[١].

وقدساير فيليب حتّي هذا الادعاء فقال: «أما الاسم الذي يجب أن تكون والدة هذا الرجل قد سمته به فلسنا على بينة منه اليوم»[٢].

كما تطرق المستشرق كايتاني إلى الروايات التي أوردها أهل السير والأخبار عن اسم النبي ﷺ، وتطرق كذلك إلى المواضع التي ورد فيها اسم النبي (محمد) ﷺ في القرآن الكريم، ثم انتهي إلى أنه من الصعب البت في الاسم الذي أطلق على الرسول يوم ولد وأيام طفولته»[٣].

ومن الواضح أن شبرنجر ـ ومن تبعه ـ لم يكن يستطيع هذا الزعم لو اعتمد على السيرة، ولكن توقفه عند القرآن فقط أمكنه من أن يحاول تحطيم حقيقة ثابتة. وقد تجاوز هذا المستشرق عن كل حقائق التاريخ من أجل تحقيق غرضه، وهو تدعيم فكرة تعلم النبي ﷺ من النصارى.

كما ضرب شبرنجر عرض الحائط بالحقائق العلمية، وهي التي تحكم باستحالة هذا الأمر حتى ولو فرضنا بوجود نصارى في المدينة، إذ يحتاج الموضوع حينذاك إلى إثبات معرفة النبي ﷺ بالسريانية أو اللاتينية أو اليونانية، وهي اللغات التي كتبت بها الأناجيل، كما يحتاج هذا الزعم إلى إثبات أن النبي قد أنجز في هذا المجال بحثاً علمياً حقيقياً ـ لم ينجز إلا بدءاً من القرن ١٩م ـ ليستخرج دلالة كلمة باراقليط على معنى الحمد، ومن المعلوم أنه كان سيخالف بذلك كل فرق النصارى الذين جعلوا الكلمة تعني الروح القدس[٤].

وقد وقف جمع من المستشرقين موقفاً علمياً سليماً ـ من الناحية النظرية

---

(١) انظر هذا الإدعاء في: دراسة في السيرة: د. عماد الدين خليل، ص١٥.

(٢) الإسلام نهج حياة، ص١١.

(٣) تاريخ العرب في الإسلام «السيرة النبوية»: د. جواد علي، ص١١٢.

(٤) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣١٣. وانظر: تاريخ العرب في الاسلام، ص١٠٧، وسيأتي مزيد تفصيل لهذه المسألة ضمن بيان موقف المستشرقين من اسمه ونسبه ومولده ﷺ.

على الأقل ـ وذلك حين اعتمدوا على القرآن والمادة الحديثية كمصدرين للسيرة، ومن هؤلاء:

مونتغمري وات حيث يقول: «إن المصدر الأول لدراسة حياة محمد هو القرآن، إذ أنه معاصر له وصحيح، ولكنه صعب الاستخدام ـ في الغالب باعتباره وثيقة تاريخية ـ نظراً لطابع التجزئ الذي يغلب عليه.. وقد حافظ المسلمون على روايات حديثية حول ظروف بعض الآيات الموحاة، وفي بعض الأحيان تكون هذه الروايات صحيحة، لكن في أحيان أخرى تكون متناقضة، أو تبدو ـ لأسباب جيدة ـ غير محتملة، ولذلك فإن استخدامنا القرآن كمصدر تاريخي يحتاج إلى معرفة مسبقة بالخط العام لسير حياة محمد.. وإننا نجد هذا الخط العام في السيرة الأولى، مثل سيرة ابن إسحاق.. ومغازي الواقدي.. إضافة إلى الأسفار الكبرى للحديث رغم أن أهميتها بالأساس تكمن في الطابع الفقهي والعقدي»(١).

ولم يفت وات أن ينتقد موقف المستشرقين الذين عمدوا إلى التشكيك في الروايات الإسلامية فقال: «لقد انتقد علماء غربيون صحة هذه المادة، وبعضهم تبني نظرة الشك المطلقة التي تقرر عدم الثقة إلا بالقرآن رغم قبولها الضمني بالخط العام الذي تسطره السيرة، وهذا سيؤدي حتماً إلى نتيجة حتمية، وهي أن هناك استحالة في رسم سيرة محمد»(٢)، ورغم أنه لم يرد أن يبين بصراحة أن التجهيل بالسيرة كان هدف لامنس وأضرابه، إلا أن هذا هو عين ما سعوا إلى تحقيقه.

وقد أوضح وات بعد هذا منهجه في تدوين السيرة فقال: «وهذه الدراسة تعتمد على وجه نظرة عكسية؛ أي: أن مؤلفات السيرة ـ الأولى على الأقل ـ يجب أن ينظر إليها على أنها صحيحة، إلا إذا وجدنا أسباباً خاصة تدفعنا إلى الاعتقاد بأن واقعة ما قد تم تحريفها أو اختراعها لأسباب فقهية أو عقيدية أو سياسية، وإننا نتقبل أيضاً باعتباره صحيحاً المواد التي توجد في مؤلفات كثيرة متنوعة، وهذه النظرة تؤدي ـ حسب اعتقادي ـ إلى رسم صورة متناسقة لحياة وإنجازات محمد»(٣).

---

(١) Mahomet prophete et home d'Etat-P. 212.

(٢) المرجع السابق، ص٢١٢.

(٣) المرجع السابق، ص٢١٣.

ومن المؤكد أن هذا منهج سليم من الناحية النظرية، وتبقى مشكلة تطبيقه التي لم يستطع وات أن يتجاوز فيها إلا إلى حد بسيط ما تقرر في دائرة الاستشراق، ولهذا راح يبعد عدداً كبيراً من الأحداث والتفسيرات التي وردت في الروايات الإسلامية دون سبب علمي، ويحاول رد كل أحداث السيرة لما ورد في القرآن وحده[1].

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣١٤ ـ ٣١٥.

الفصل الثاني

السُّنَّة النبوية



الفصل الثاني

السُّنَّة النبوية

السُّنَّة في اللغة: الطريقة والسيرة محمودة كانت أو مذمومة[١]. ومنه قوله ﷺ: «**من سَنَّ سُنَّةً حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سَنَّ سُنَّة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة**»[٢]، ومنه حديث: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع**»[٣].

قال ابن الأثير في النهاية: «قد تكرر في الحديث ذكر «السُّنَّة» وما تصرف منها. والأصل فيها الطريقة والسيرة، وإذا أطلقت في الشرع فإنما يراد بها ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه وندب إليه قولاً وفعلاً، مما لم ينطق به الكتاب العزيز ولهذا يقال في أدلة الشرع: الكتاب، والسُّنَّة؛ أي: القرآن والحديث»[٤].

---

(١) القاموس المحيط، مادة: (سنن)، ص١٥٥٨، ولسان العرب، مادة: (سنن) (٣/ ٢١٢٤).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٠٥٩)، كتاب العلم، باب من سنَّ سُنَّة حسنة أو سيئة، رقم (١٠١٧).

(٣) أخرجه البخاري كما في الفتح (٦/ ٤٩٥)، وكتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر بني إسرائيل، رقم (٣٤٥٦)، وأخرجه مسلم (٤/ ٢٠٥٤)، كتاب العلم، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، رقم (٢٦٦٩).

(٤) النهاية (٢/ ٤٠٩)، مادة: (سنن).

وتطلق السُّنَّة في الاصطلاح على عدة معان[(١)]:

١ ـ تطلق على ما يقابل القرآن، ومن ذلك قول الرسول ﷺ: **«يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسُّنَّة»**[(٢)].

٢ ـ وتطلق على ما يقابل البدعة. فيقال: أهل السُّنَّة وأهل البدعة.

٣ ـ وهي عند الفقهاء من الأحكام الخمسة: الفرض، السُّنَّة، الحرام، المكروه، المباح. ويقصدون بها «كل ما ثبت عن النبي ﷺ ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب، فهي الطريقة المتبعة في الدين من غير افتراض ولا وجوب»[(٣)].

٤ ـ وتطلق عند الأصوليين على ما صدر عن رسول الله ﷺ غير القرآن من قول أو فعل أو تقرير[(٤)].

٥ ـ وتطلق السُّنَّة على ما عمل به الصحابة بعد رسول الله ﷺ، ومن ذلك قول النبي ﷺ: **«فعليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ»**[(٥)(٦)].

٦ ـ وتطلق عند المحدثين على «ما روي عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خُلُقية أو خَلْقية»[(٧)].

وللسُّنَّة النبوية مكانة عظيمة في التشريع الإسلامي، فهي الأصل الثاني بعد القرآن الكريم، والتطبيق العملي لما جاء فيه، وهي الكاشفة لغوامضه، المجلية

---

(١) شرح الكوكب المنير: لابن النجار (٢/ ١٥٩) وما بعدها، والموافقات: للشاطبي (٤/ ٤ ـ ٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب المساجد، باب من أحق بالإمامة (١/ ٤٦٥) حديث رقم (٦٧٣).

(٣) السُّنَّة قبل التدوين: د. محمد عجاج الخطيب، ص١٨.

(٤) مسلم الثبوت: لمحب الله بن عبد الشكور (٢/ ٧٩).

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السُّنَّة، باب لزوم السُّنَّة (٤/ ٢٠٠) حديث رقم (٤٦٠٧)، وابن ماجه في سننه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب اتباع سُنَّة الخلفاء (١/ ١٥) حديث رقم (٤٢)، والدارمي في سننه (١/ ٢٢٨) حديث رقم (٩٦)، وصححه الألباني في إرواء الغليل (٨/ ١٠٧) حديث رقم (٢٤٥٥).

(٦) الموافقات: للشاطبي (٤/ ٤ ـ ٥).

(٧) معجم علوم الحديث النبوي: د. عبد الرحمٰن الخميسي، ص١٢٨، وشذرات من علوم السُّنَّة: محمد الأحمدي أبو النور، ص٤٤.

لمعانيه، الشارحة لألفاظه ومبانيه، وإذا كان القرآن قد وضع القواعد والأسس العامة للتشريع والأحكام، فإن السُّنَّة قد عنيت بتفصيل هذه القواعد، وبيان تلك الأسس، وتفريع الجزئيات على الكليات، ولذا فإنه لا يمكن للدين أن يكتمل ولا للشريعة أن تتم إلا بأخذ السُّنَّة جنباً إلى جنب مع القرآن، وقد جاءت الآيات المتكاثرة والأحاديث المتواترة آمرة بطاعة الرسول ﷺ، والاحتجاج بسُنَّته والعمل بها، إضافة إلى ما ورد من إجماع الأمة وأقوال الأئمة في إثبات حجيتها ووجوب الأخذ بها.

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أجمع الناس على أن من استبانت له سُنَّة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس»[١].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وليُعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سُنَّته دقيق ولا جليل. فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتباع الرسول، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ، ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه فلا بد له من عذر في تركه»[٢].

ومما يدل على حجية السُّنَّة ـ من حيث النظر ـ أنه لا يمكن الاستقلال بفهم الشريعة وتفاصيلها وأحكامها من القرآن وحده، لاشتماله على نصوص مجملة تحتاج إلى بيان، وأخرى مشكلة تحتاج إلى توضيح وتفسير، فكان لا بد من بيان آخر لفهم مراد الله، واستنباط تفاصيل أحكام القرآن، ولا سبيل إلى ذلك إلا عن طريق السُّنَّة، ولولاها لتعطلت أحكام القرآن، وبطلت التكاليف، كما يقول ابن حزم: «في أي قرآن وجد أن الظهر أربع ركعات، وأن المغرب ثلاث ركعات، وأن الركوع على صفة كذا، والسجود على صفة كذا، وصفة القراءة فيها والسلام، وبيان ما يجتنب في الصوم، وبيان كيفية زكاة الذهب والفضة، والغنم والإبل والبقر، ومقدار الأعداد المأخوذ منها الزكاة، ومقدار الزكاة المأخوذة، وبيان أعمال الحج... وسائر أنواع الفقه؟ وإنما في القرآن جمل لو تُركنا وإياها لم ندر كيف نعمل فيها، وإنما المرجوع إليه في كل ذلك النقل عن النبي ﷺ،

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين: ابن قيم الجوزية (١/ ٦).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٢٣٢).

وكذلك الإجماع إنما هو على مسائل يسيرة... فلا بد من الرجوع إلى الحديث ضرورة، ولو أن امرأً قال: لا نأخذ إلا ما وجدنا في القرآن لكان كافراً بإجماع الأمة»[(١)].

أما بالنسبة للمستشرقين فتأتي السُّنَّة النبوية في مرتبة متأخرة عن القرآن الكريم، ومع طعن كثير منهم في مصدرها وحجيتها إلا أنهم قد أقروا بأهميتها في معرفة الدين الإسلامي وشعائره وأصوله، ونظر آخرون إليها باعتبارها أحد المصادر المهمة في تأريخ سيرة النبي محمد ﷺ ومعرفة وقائعها وأحداثها باعتبارها أكثر تفصيلاً في هذه الجوانب من القرآن الكريم.

ولهذا فإن السُّنَّة النبوية تعتبر أحد المصادر المعرفية عند جمهور المستشرقين في رصد حياة النبي ﷺ ورسالته ومنهجه في الدعوة، وإن اختلفت مناهجهم في حجيتها والاستدلال بها، والتي لم تخل غالباً من انحرافات منهجية ستأتي مناقشتها.

وفيما يلي سيلقي البحث الضوء على النظرة الاستشراقية للسُّنَّة النبوية ودراساتهم حولها، ثم يعرض لمنهج المستشرقين في استخدامها كمصدر معرفي للكتابة عن النبي محمد ﷺ سواء أكانت مصادرها كتب الحديث النبوي أو كتب السيرة النبوية.

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام (٢/ ٧٩ ـ ٨٠).

المبحث الأول

الحديث النبوي

المطلب الأول: الحديث النبوي في دراسات المستشرقين.

المطلب الثاني: الحديث النبوي كمصدر للكتابة عن النبي ﷺ.

المطلب الأول

الحديث النبوي في دراسات المستشرقين

الحديث لغة: نقيض القديم[١]. والحديث الجديد من الأشياء، والحديث الخبر يطلق على القليل والكثير والجمع أحاديث؛ كقطيع وأقاطيع[٢].

والحديث اصطلاحاً: يراد به المضاف إلى الرسول ﷺ سواء كان قولاً أو فعلاً أو تقريراً أو صفة خَلقية أو خُلقية، وقد يأتي الحديث ويراد به المضاف إلى صحابي أو تابعي إلا أن الغالب في هذه الحال التقييد[٣].

وبهذا فإن الحديث والسُّنَّة بمعنى واحد عند جمهور المحدثين، وبمعنى قريب عند بعضهم ممن يرون أن الحديث خاص بقوله ﷺ وفعله، والسُّنَّة تشمل الأقوال والأفعال والتقريرات. وعلى هذا فهي أعم من الحديث، ولعل القول بالترادف أولى[٤].

الدراسات الاستشراقية:

أمضى المستشرقون كثيراً من الوقت في الدراسات الأدبية والتاريخية وغيرهما من الموضوعات، لكن توجههم إلى دراسات الأحاديث النبوية لم يأت إلا في وقت متأخر. ولعل أول محاولة لها أهميتها هي ما قام به المستشرق الشهير «جولد زيهر» الذي نشر نتيجة بحثه سنة ١٨٩٠م بعنوان: «دراسات

---

(١) لسان العرب، مادة: (الحديث) (١/ ٥٨١)، والمصباح المنير (١/ ١٣٥).

(٢) لسان العرب (١/ ٥٨٢).

(٣) السُّنَّة قبل التدوين: عجاج الخطيب، ص٢١.

(٤) أعلام المحدثين: محمد أبو شهبة، ص٦، وعلوم الحديث ومصطلحه: د. صبحي الصالح، ص١٠.

إسلامية» (muhammedaniche studein) باللغة الألمانية، وأصبح كتابه في دائرة الاستشراق منذ ذلك الوقت حتى الآن «إنجيلاً مقدساً» للباحثين الغربيين[١]. وبعد مضي ستين عاماً على نشر ذلك الكتاب جاء دور المستشرق جوزيف شاخت[٢] حيث قضى أكثر من عشرة أعوام في البحث والتنقيب في معادن الأحاديث الفقهية فنشر نتيجة بحوثه في كتابه «أصول الشريعة المحمدية» (the origions of muhammadan jurisprudence).

وكانت خلاصة ما وصل إليه من نتائج أنه ليس هناك حديث واحد صحيح، وبخاصة الأحاديث الفقهية، وصار هذا الكتاب منذ ذلك الوقت «إنجيلاً ثانياً» لعالم الاستشراق، وقد فاق شاخت سلفه جولد زيهر حيث غيَّر من نظرته التشكيكية في صحة الحديث الأحاديث إلى نظرة متيقنة في عدم صحتها، فترك كتابه هذا أثراً عميقاً في تفكير دارسي الحضارة الإسلامية حتى تنبأ البروفسور جب قائلاً: «إنه ـ أي: كتاب شاخت ـ سيكون في المستقبل أساساً لكافة الدراسات عن الحضارة الإسلامية والتشريع وعلى الأقل في الغرب»[٣].

بعد هذين الكتابين لم ينشر عن الحديث النبوي بأقلام المستشرقين في غضون ثلاثة أرباع قرن إلا عدة مقالات أو كتب عالجت موضوع الحديث من بعيد.

وهناك كتب بالإنجليزية لـ«ألفريد جيوم»[٤] بعنوان «أحاديث الإسلام» the

---

(١) دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه: الأعظمي، المقدمة، ي.

(٢) جوزف شاخت Josef Schacht (١٩٠٢ ـ ١٩٦٩م): مستشرق ألماني، درس اللغات الشرقية في جامعة برسلاو وليبتسك، انتدب للعمل في الجامعة المصرية عام ١٩٣٤م، لتدريس مادة فقه اللغة العربية واللغة السريانية. شارك في هيئة تحرير دائرة المعارف الإسلامية في طبعتها الثانية. عُرف شاخت باهتمامه بالفقه الإسلامي، ولكنه صاحب إنتاج في مجال المخطوطات وفي علم الكلام وفي تاريخ العلوم والفلسفة. من آثاره: «نشاة الفقه في الإسلام»، «الشرعة والقانون في تاريخ مصر»، «تاريخ علم الكلام» وغيرها. انظر: المستشرقين، ص٣٦٦، معجم أسماء المستشرقين، ص٧١٧ ـ ٧١٩.

(٣) المرجع السابق، المقدمة، ي.

(٤) ألفرد جيوم Guillaume.A (١٨٨٨ ـ ١٩٦٢م): مستشرق إنجليزي، تخرج من اكسفورد وعمل في فرنسا ومصر خلال الحرب العالمية الأولى، عُيِّن أستاذاً للغة العربية في الجامعة الأمريكية في بيروت، ورأس قسم الشرقين الأدنى والأوسط وأستاذاً زائراً في جامعة برنستون، وانتخب عضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق، والمجمع العراقي. من آثاره: «تراث الإسلام بالاشتراك»، =

traditions of islam تعرض فيه صاحبه للأحاديث النبوية ولكنه اعتمد فيه اعتماداً كلياً على كتابات «جولد زيهر» فلا يرى المرء فيه أي جديد في الموضوع لذلك فقد قيمته العلمية[١].

أما البروفسور روبسون[٢] الذي قام بترجمة «مشكاة المصابيح» و«المدخل للحاكم» إلى اللغة الإنجليزية، فقد عدل بعض آراء المستشرقين الخاطئة إلا أنه هو الآخر قد سحر بكتابات البروفسور شاخت، فابتعد عن فهم الموضوع على حقيقته[٣].

وأول مستشرق قام بمحاولة واسعة للتشكيك في الحديث النبوي الشريف كان المستشرق اليهودي «جولد زيهر» الذي يعده المستشرقون أعمق العارفين بالحديث النبوي الشريف كما يقول عنه كاتب مادة «الحديث» في دائرة المعارف الإسلامية: إن العلم مدين ديناً كبيراً لما كتبه «جولد زيهر» في موضوع الحديث[٤].

وقد كان تأثير جولد زيهر على مسار الدراسات الإسلامية الاستشراقية أعظم مما كان لأي من معاصريه من المستشرقين، فقد حدد تحديداً حاسماً اتجاه وتطور البحث في هذه الدراسات، وقد سار على هذه الشاكلة مستشرق آخر هو «سنوك هروجرونيه» حيث تحدى الاثنين ما هو معلوم عند المسلمين من منزلة السُّنَّة النبوية، وأصالة التشريع الإسلامي إلا أنهما لم يتمكنا من الإتيان بنظرية متناسقة متجانسة شاملة متكاملة لمعارضة عقيدة المسلمين، وأصالة التشريع الإسلامي. ومع ذلك فإن جوزيف شاخت قد حاول أن يأتي بنظرية جديدة بالرغم من خياليتها إلى حد بعيد، ونشرها في كتب ومقالات وبلغات متعددة. ووضع كتابه «المدخل إلى الفقه الإسلامي» لهذا الغرض[٥].

= و«مدخل الى علم الحديث»، «أثر اليهودية في الإسلام». انظر: المستشرقون (٢/ ١١٧)، معجم أسماء المستشرقين، ص٤٧٣.

(١) دراسات في الحديث النبوي: المقدمة، ي.

(٢) جيمس روبسون (١٨٩٠م ـ . .): مستشرق إنجليزي، تخرج باللغات الشرقية من جامعة جلاسجو وعُيِّن أستاذاً فيها ثم تنقل بين العراق والهند، له مؤلفات عديدة وأبحاث في الحديث، وقام بترجمة كتب كثيرة إلى الإنجليزية. المستشرقون: للعقيقي (٢/ ٥٤٧).

(٣) دراسات في الحديث النبوي: المقدمة، ي.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية، (٧/ ٣٣٣).

(٥) منهاج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، (١/ ٦٧) وما بعدها.

وقد زعم شاخت الذي اجتمعت في مقالته جل سهام الطعن الاستشراقي في الحديث النبوي أنه ليس هناك حديث واحد صحيح، وخاصة الأحاديث الفقهية، وأنها في الواقع كلام علماء المسلمين من القرنين الثاني والثالث الهجريين، وأقاويلهم وضعت على لسان النبي ﷺ زوراً وبهتاناً(١).

وشارك شاخت في هذه الفرية عدد من المستشرقين كالمستشرق ديلاسي أوليري(٢) الذي يشكك في الحديث النبوي فيقول: «وقد حدث هذا في العصر الأموي بإضافة عدد ضخم من الأحاديث المصطنعة التي تروي ما قال النبي وفعل في ظروف لم تخطر له أبداً. وليس من الضروري عند وصف هذه الأحاديث بالصنعة أن ندعي لها أنها اخترعت اختراعاً، ولو أن الكثير منها كان كذلك...»(٣).

ويقول المستشرق هنري ماسيه(٤) في كتابه الإسلام: «وقد أثبت غولدزيهر، وسنوك هورغرونج أن عدداً من الأحاديث كأنها انعكاس لآراء كانت مسيطرة في الإسلام منذ الأيام الأولى... فهناك أحاديث تهتم بقضايا سياسية، وتبدو مواتية أو غير مواتية إما لأنصار عثمان، وإما للعلويين، الأمر الذي يشير إلى العصر الذي حدثت فيه»(٥).

ولكن ماسيه يرجع فيرد على نفسه ومن كان على شاكلته فيقول: «ولكن العلماء المسلمين تعلقوا باكراً بنقد نصوص الحديث، كما كان الأمر مع القرآن، وخصوصاً

---

(١) مدخل إلى الفقه الإسلامي: Schacht introduction to Islamic law.p.34.
نقلاً عن كتاب المستشرقون والحديث النبوي: د. محمد بهاء الدين، ص٢٢.

(٢) ديلاسي أوليري (١٨٧٢ ـ ١٩٥٧م): مؤرخ إنجليزي من أصل إيرلندي، متخصص في الفكر والفلسفة، أستاذ في جامعة برستول، مؤلف كتاب «الفكر العربي ومكانته في التاريخ». أراد في هذا الكتاب أن ينتقد الفكر العربي والفلسفة الإسلامية حيث أشار الى أن الفكر العربي لم تنتجه دائماً قرائح عربية، ولكن قام به بعض العرب، وكثير من غير العرب الذين عاشوا بينهم وتحدثوا العربية، وأن ثقافة العرب مأخوذة من معارف وثقافات أخرى. انظر: مقالة: مستشرق إيرلندي ينتقد الفكر العربي: محمد عبد الشافي (جريدة عكاظ، العدد: ٢٥٨٩، ١٦/٧/١٤٢٩هـ).

(٣) الفكر العربي ومكانه في التاريخ: لديلاسي، ص٨٨.

(٤) هنري ماسيه (١٨٨٦ ـ ١٩٦٩م): مستشرق فرنسي، متخصص في الفارسية، عمل مديراً للمعهد الفرنسي في القاهرة، وعضواً في المجمع العلمي العربي في دمشق، توفي عام ١٩٦٩م في باريس. انظر: موسوعة المستشرقين: لبدوي، ص٥٣٦، وطبقات المستشرقين: لعبد الحميد حمدان، ص١٩١.

(٥) الإسلام: لهنري ماسيه، ص١٢٠.

بنقد نقلة النصوص، فقد درسوا بمؤلفات عديدة، تاريخ حياة هؤلاء الأشخاص، ودرجة الثقة التي يستحقونها، وهي درجة كانت في الغالب موضوع منازعات حامية، وهكذا ساروا إلى وضع تصنيف للأحاديث، وهو تصنيف كثير التعقيد كان يرتكز على قيمة رواتها مثلاً: تقريب النووي، الذي ترجمه د. مرسيه»[1].

ويؤكد جوينبول[2] على فكرة التطور التي طرأت على الأحاديث النبوية والتي قال بها سلفه جولد زيهر بقوله: «بعد وفاة محمد لم تستطع الآراء والمعاملات الدينية الأصلية التي سادت في الرعيل الأول أن تثبت على حالها من غير تغير، فقد حل عهد للتطور جديد، وبدأ العلماء يدخلون شيئاً من التطوير في نظام مرتب من الأعمال والعقائد يتوائم والأحوال الجديدة. فقد أصبح الإسلام بعد الفتوح العظيمة يبسط سيادته على مساحات شاسعة، واستعير من الشعوب المغلوبة على أمرها آراء ونظم جديدة. . . وسرعان ما أدى هذا بالضرورة إلى وضع الأحاديث فاستباح الرواة لأنفسهم اختراع أحاديث تتضمن القول، أو الفعل، ونسبوها إلى النبي لكي تتفق وآراء العصر التالي. وكثرت الأحاديث الموضوعة، وتداولها الناس منسوبة إلى النبي بحيث تجعله يقول أو يفعل شيئاً مما كان يعد في ذلك العصر من الأمور المستحسنة»[3].

ومما تقدم يتضح من خلال متابعة دراسات جمهور المستشرقين الحديثية أن الباعث لهم على توجيه سهام الطعن إلى الحديث يعود أساساً إلى أنهم أدركوا أن الحديث النبوي هو الذي جعل من الإسلام ديناً شاملاً كاملاً متناولاً لكل جوانب الحياة في كل زمان ومكان.

ومن خلال دراساتهم عن الحديث بحث المستشرقون عن السبيل لهدمه، فوجدوا أيسر وسيلة هي التشكيك فيه، أو ادعاء أن أكثره مختلق ـ وذلك هو

---

(١) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

(٢) جُوِينْبُول Juynboll (١٨٠٢ ـ ١٨٦١م): تيودور فيلم جان، جوينبول، مستشرق هولندي. ولد في روتردام. وتعلم فيها، ثم في لاهاي، وفي جامعة ليدن، وعُيِّن مبشراً بروتستانتيا في إحدى ضواحي ليدن، وتضلع من العربية حتى صار أستاذا في جامعة ليدن إلى سنة وفاته، نشر بالعربية: «مراصد الاطلاع في أسماء الأمكنة والبقاع» لعبد المؤمن بن عبد الحق، وبدأ بنشر «النجوم الزاهرة» لابن تغري ولم يكمله. انظر: المستشرقون، ص١٤٢، ومعجم المطبوعات، ص٧٢٥، الأعلام (٢/ ٩٦).

(٣) دائرة المعارف الإسلامية (٧/ ٣٣١ ـ ٣٣٢)، مادة: (حديث).

المنهج الذي تبناه جولد زيهر وسار عليه خلفه شاخت ومن شاكله ـ أما الأحاديث التي لم يستطيعوا الطعن فيها فسبيل تجميدها هو القول بعرضها على القرآن، فإن جاءت بحكم ليس في القرآن لا يلتزم به، ومن الطبيعي أن أي تعطيل لدور الحديث في التشريع تعطيل لدور القرآن في التشريع أصلاً؛ لأن فهمه متوقف عليه[١].

كما أن الحديث مصدر أساس من مصادر التشريع، إذ من المعلوم أن مصادر التشريع الإسلامي الأصلية ترجع إلى أمرين هما: الكتاب والحديث، فهو يأتي في المرتبة الثانية؛ لأن الكتاب مقطوع بجملته وتفصيله من جهة النقل، وأما الحديث فمظنون في تفصيله مقطوع بجملته، ومرتبة المظنون تلي مرتبة المقطوع به، كما أن الحديث يأتي بياناً وتفسيراً وشرحاً للكتاب، وهذا يقتضي أن يكون النص الأصلي أساساً ويقوم البيان والتفسير والشرح ممثلاً المرتبة الثانية[٢].

فالإثنان وحي الله إلى رسوله ﷺ أما الكتاب فهو متواتر الثبوت والنقل، ومصون من التبديل والتحريف والزيادة والنقصان. وكان قد نال من عناية الرسول ﷺ والصحابة الدرجة القصوى إذ تلقوه بكل شغف وشوق ونقلوه بكل حرص نقلاً متواتراً محفوظاً في الصدور ومكتوباً في السطور، وهكذا ظل في تلقيه ونقله إلى يومنا هذا وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

أما الحديث فهو القسم الثاني من أقسام الوحي كما ذكرنا إلا أنه لم يتعبدنا الله تعالى بلفظه كالقرآن لذا لم يباشر النبي ﷺ تدوينه بنفسه كالقرآن، ورخص في روايته بالمعنى؛ لأنه هو المقصود، ووكل حفظه إلى أصحابه بعد أن بيَّن لهم مكانته ومنزلته من التشريع، فعلمهم إياه وأمرهم بحفظه والعمل به والتمسك بل العض عليه بالنواجذ، ووعد بالأجر لمن أحياه بعد مماته ودعا بالنضرة والرحمة لمن بلغه بعد سماعه، وأذن لمن رغب في كتابته، كما نهى عن تركه وعدم الالتزام به، أو الابتداع فيه أو اتباع غيره. فهذه الأمور وغيرها أدت إلى حفظه ونقله بكل حرص وأمان، وإن لم يبلغ هذا الحفظ وذلك النقل في الجملة حفظ ونقل وتواتر القرآن الكريم[٣].

---

(١) المستشرقون والحديث النبوي، ص٢٣.

(٢) مفتاح السُّنَّة: محمد عبد العزيز الخولي، ص٥.

(٣) المستشرقون والحديث النبوي، ص٢٦ ـ ٢٧.

وقد شهد بمكانة الحديث طائفة من المستشرقين منهم موريس جودفروي ديمومبين[١] في كتابه «القوانين الإسلامية» (muslim institutions) المنشور سنة ١٩٥٠م الذي قال عنه: «المصدر الثاني للقانون الإسلامي وهو (السُّنَّة) أو (الحديث) يبدو أنه إلى يومنا هذا معين لا ينضب من المادة المسجلة لدراسة القانون، إنها تؤدي بالقارئ إلى جميع تفاصيل حياة محمد، وتدخله إلى المعرفة الوثيقة بحياة العرب في القرن السابع الميلادي. إنها وثائق في غاية الامتناع والفائدة»[٢].

ومنهم جوستاف جرونباوم[٣] الذي يقول في كتابه «الإسلام في العصور الوسطى» (medieval islam) المنشور سنة ١٩٥٣م: «إن المثل الذي يجب الاقتداء به هو النبي، ومن حيث إن القرآن لا يورد التعليمات التفصيلية اللازمة لتطبيق نصوصه كانت سُنَّة النبي، وهي الأقوال والتصرفات التي صدرت عنه وعن أتباعه في أول عهد الإسلام، وهي التي تملأ هذا الفراغ، وتحوي البيان التفصيلي اللازم[٤]. ويقول المستشرق الإنجليزي تريتون (A.S.Triton)[٥] في كتابه «الإسلام عقيدة وعمل: islam belief and practice» المنشور سنة ١٩٥١م:

---

(١) ودفروي ديمومبين (١٨٦٢ ـ ١٩٥٧م): مستشرق فرنسي، درس القانون أولاً، ثم أقام في الجزائر والتحق بمدرسة الآداب العليا في الجزائر، حيث تتلمذ في العلوم العربية على رينيه باسيه ولما عاد إلى باريس التحق بمدرسة اللغات الشرقية، حصل على الدكتوراه في الآداب وهو في سن الحادية والستين! وفي إثر ذلك عُيّن مدرساً في كلية الآداب بجامعة باريس، له دراسات عديدة في النظم الإسلامية. انظر: المستشرقين، ص٢٧١ ـ ٢٧٢، الأعلام ٢/ ١٤٢.

(٢) الحديث النبوي: للزرقا، ص١٧.

(٣) جرنباوم أو جرنبوم GRUNEBAUM (١٩٠٩ ـ ١٩٧٢م): مستشرق نمساوي، ولد في فيينا وتعلم في مدارسها وجامعتها، ثم في جامعة برلين، ثم هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية لأنه من أسرة يهودية وإن كان قد اعتنق الكاثوليكية. وصار أستاذاً في جامعة نيويورك ثم شيكاغو ثم صار أستاذاً ورئيساً لقسم الدراسات الشرقية في جامعة كاليفورنيا حتى وفاته. إنتاجه العلمي غزير ومتنوع، لكنه يتسم خصوصاً بالنظرات العامة، ويدور بعامة حول الحضارة الإسلامية. ومن أهم أعماله كتابه «الإسلام في العصر الوسيط». لكن إنتاجه الأول اتجه إلى دراسة الشعر ومنه رسالته في الدكتوراه «مدى الواقع في الشعر العربي الأول». انظر: المستشرقين، ص١٨٢ ـ ١٨٣.

(٤) المصدر السابق، ص١٧.

(٥) تريتون (١٨٨١ ـ ١٩٧٤م): أرثر ستانلي تريتون، مستشرق بريطاني، تعلم في كلية مانسفلد وغيرها. وعلم بمدرسة الأصدقاء في لبنان وعليجره بالهند وفي مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية بلندن، وقضى وقتا في عدن وسورية ولبنان وزار تدمر وآثار الزباء وقرأ نقوشها. وصنف كتباً، منها: «أئمة الزيدية بصنعاء» تمت ترجمته، و«علم الكلام في الإسلام» بالإنكليزية، =

«يعتبر محمد المثال الذي يجب أن يحذو حذوه المؤمنون، فالذين اعتنقوا الإسلام بجد أرادوا أن يعرفوا جميع تفاصيل حياته حتى يتسنى لهم اتباعه. والقوانين في القرآن لا تتناول التفصيلات الكافية لتنظيم الحياة في الدولة الإسلامية الناشئة فكان من الطبيعي النظر إلى أعمال محمد وأقواله لسد الحاجة، ومن هنا نشأ تدوين الحديث وجمعه وتبويبه»[(١)].

هذا عرض لمواقف جملة من المستشرقين من الحديث النبوي بين تحامل وإنصاف من خلال دراساتهم ومقالاتهم، ورغم اتفاق غالبيتهم حول أهمية الحديث النبوي في فهم الإسلام إلا أنه قلَّ من سلم من المستشرقين بحجية الحديث النبوي وسلامة مصدره.

= و«الإسلام إيمان وشعائر» كالسابق، و«الأرواح والشياطين في الجزيرة العربية»، و«المحفوظات الإسماعيلية»، وكتب مباحث في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ودائرة المعارف الإسلامية. انظر: المستشرقون، ص٥٣٨، الأعلام (١/ ٢٨٧).

(١) المصدر السابق، ص١٨.

المطلب الثاني

الحديث النبوي كمصدر للكتابة عن النبي ﷺ

السُّنَّة النبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، وهي التي جمعت أقوال الرسول ﷺ، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته الخَلقية والخُلقية، ونظراً للارتباط القوي بين السُّنَّة النبوية والسيرة النبوية، فإننا نجد عدداً كبيراً من كتب الأحاديث النبوية اهتمت بسيرة الرسول ﷺ، «والذين ألفوا في السُّنَّة لم تخل كتبهم غالباً من ذكر ما يتعلق بحياة الرسول ﷺ ومغازيه، وخصائصه، ومناقبه. . .»[1].

فلو نظرنا في المصنفات التي ألفت في السُّنَّة، والتي أعطت حيزاً كبيراً لسيرة الرسول ﷺ، لوجدنا أن موطأ الإمام مالك (ت١٧٩هـ)، يقع على رأس تلك المؤلفات، فقد ذكر طرفاً من أخبار الرسول ﷺ، وأخبار غزواته وذكر طرفاً من حياته الشخصية.

وهناك الصحيحان للبخاري (ت٢٥٦هـ) ومسلم (ت٢٦١هـ)، فقد ذكرا في صحيحيهما قدراً كبيراً يتعلق بخصائص الرسول ﷺ، وفضائله، وحياته قبل البعثة، والجهاد، والغزوات، والسرايا والبعوث وغير ذلك من حياته ﷺ الشخصية. ثم ما ذكرَته بقية الكتب الستة في الأحاديث الصحيحة عن سيرة الرسول ﷺ وهي: سنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجه، وهناك أيضاً بعض كتب المسانيد التي أَوْلَتْ سيرة الرسول ﷺ قدراً مهماً من الأحاديث، مثل: مسند الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ)، وسنن الدارمي (ت٢٥٥هـ). وغير ذلك

(١) مناهج المؤلفين في السيرة النبوية: سعد المرصفي، ص٤٣.

من المؤلفات التي تخصصت في السُّنَّة النبوية الشريفة، إلا أن الأمر الذي يجب التنويه به، أن مادة السيرة في كتب الحديث موثقة، يجب الاعتماد عليها، وتقديمها على روايات كتب المغازي، والتواريخ العامة، وخاصة إذا أوردتها كتب الحديث الصحيحة؛ لأنها ثمرة جهود جبارة قدمها المحدثون عند تمحيص الحديث، ونقده سنداً ومتناً، وهذا النقد والتدقيق الذي حظي به الحديث لم تحظ به الكتب التاريخية، ولكن ينبغي التفطن إلى أن كتب الحديث ـ بحكم عدم تخصصها ـ لا تورد تفاصيل المغازي، وأحداث السيرة بل تقتصر على بعض ذلك، مما ينضوي تحت شرط المؤلف أو وقعت له روايته، وينبغي إكمال الصورة من كتب السيرة المختصة، وإلا فقد يؤدي ذلك إلى لبس كبير[١].

الحديث النبوي كمصدر عند جمهور المستشرقين:

تحامل كثير من المستشرقين على الحديث النبوي، وشككوا في مصادره وبالتالي في حجيته. وأهم بوادر هذا التشكيك ما سلكه كثير منهم في زعمهم تأخر تدوين الحديث النبوي كثيراً عن زمن وفاة النبي ﷺ، وبالتالي فقد طرأ عليه كثير من التحريف أفقده دقته بل ومصداقيته.

وفي هذا السبيل عقد جولد زيهر فصلاً خاصاً حول تدوين الحديث في كتابه «دراسات إسلامية» أتي فيه بشبه على تدوين الحديث في أول القرن الثاني الهجري، فكانت منها طائفة من الأخبار التي تشير إلى بعض الصحف التي دونت في عهد رسول الله ﷺ لكنه أحاطها بكثير من التشكيك في أمرها وهو يهدف بذلك إلى هدفين:

أولهما: إضعاف الثقة في استظهار الحديث وحفظه في الصدور لتعويل الناس على الكتابة منذ القرن الثاني الهجري.

ثانيهما: إتهام الحديث كله بالاختلاق والوضع على ألسنة المدونين الذين لم يجمعوا منه إلا ما يوافق هواهم ووجهة نظرهم في الحياة...[٢].

أما المستشرق سوفاجيه فقد حاول في كتابه «الحديث عند العرب» تفنيد المعتقد الخاطئ عن وصول الحديث بطريق المشافهة وحدها، وجمع أدلة كثيرة

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم العمري (١/ ٥٠).

(٢) علوم الحديث ومصطلحه: الصالح، ص٣٤.

على تدوين الأحاديث والتعويل عليه في وقت مبكر، بدأ في مطلع القرن الثاني الهجري - وليس في حياة النبي ﷺ - وغايته لا تختلف عن ما يدعيه جولد زيهر[١].

أما المستشرق دوزي[٢] فلعله يخدع برأيه المعتدل كثيراً من علماء المسلمين فضلاً عن أنصاف المتعلمين فيهم، فقد كان هذا المستشرق يعترف بصحة قسم كبير من الحديث النبوي الشريف الذي حفظ في الصدور، ودُوِّن في الكتب بدقة بالغة، وعناية لا نظير لها وما كان يعجب لكثير من الموضوعات المكذوبات تتخلل كتب الحديث - فتلك كما يقول طبيعة الأشياء نفسها - بل للكثير من الروايات الصحيحة الموثوقة التي لا يرقى إليها الشك ونصف صحيح البخاري على الأقل جدير بهذا الوصف عند أشد المحدثين غلواً في النقد، مع أنها - أي: الروايات الصحيحة - تشتمل على أمور كثيرة - بزعمه - يود المؤمن الصادق لو لم ترد فيها[٣].

وهكذا فقد اشتهر عند المستشرقين وغيرهم من غير ذوي التتبع والاستقصاء أن الحديث كان ينقل شفاهاً فقط حتى نهاية القرن الأول، وأول من فكر في تقييد الأحاديث هو الخليفة الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ كتب إلى عماله بجمع الأحاديث وتدوينها، كما طلب من ابن شهاب الزهري أن يقوم هو الآخر بتدوين الأحاديث وجمعها، وانتشر قول الإمام مالك: إن أول من دَوَّن العلم ابن شهاب الزهري.

قال ابن حجر رحمه الله: قال العلماء كره جماعة من الصحابة والتابعين كتابة الحديث، واستحبوا أن يؤخذ العلم عنهم حفظاً كما أخذوه حفظاً، لكن لما

---

(١) المرجع السابق، ص٢٣ وما بعدها.

(٢) دُوزِي Reinhart: pieter Anne, Dozy (١٨٢٠ - ١٨٨٣م): رينهارت بيتر آن دوزي مستشرق هولندي، من أصل فرنسي بروتستانتي المذهب، مولده ووفاته في ليدن، درّس في جامعتها نحو ثلاثين عاماً، وكان من أعضاء عدة مجامع علميّة، قرأ الآداب الأوروبية وتعلم عدداً من اللغات منها العربية، وانصرفت عنايته إلى الأخيرة، فاطلع على كثير من كتبها في الأدب والتاريخ. أشهر آثاره: «معجم دوزي»، وله «كلام كتّاب العرب في دولة العبّاديين»، «تاريخ المسلمين في إسبانية» ترجم كامل الكيلاني فصولاً منه إلى العربية في كتاب «ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام». انظر: معجم المطبوعات، ص٨٩٣، والمستشرقون، ص١٤٣ الأعلام (٣/ ٣٨).

(٣) المرجع السابق، ص٢٦.

قصرت الهمم وخشي الأئمة من ضياع العلم دونوه. وأول من دَوَّن الحديث ابن شهاب الزهري على رأس المائة بأمر عمر بن عبد العزيز ثم كثر التدوين ثم كثر التصنيف، وحصل بذلك خير كثير فللَّه الحمد[١].

وما ذكره المشككون في السنن من أن الحديث: لم يدون ولم يصنف إلا في القرن الثاني الهجري استناداً إلى بعض النقول الواردة عن بعض الأئمة لا يثبت مدعى هؤلاء؛ لأن هناك فرقاً واضحاً بين:

أ ـ تقييد العلم.

ب ـ وتدوين العلم.

ج ـ وتصنيف العلم.

إذ تقييد العلم معناه: رسمه وكتابته. وهو أعم من أن يكون مجموعاً أو مفرقاً، مرتباً أو غير مرتب، تقول: قيَّد العلم بالكتاب؛ يعني: أثبته وضبطه[٢].

وتدوين العلم معناه: جمع المتفرق المشتت في ديوان واحد؛ أي: في كتاب واحد وهو أعم من أن يكون مرتباً أو غير مرتب، إذ الديوان في اللغة: مجتمع الصحف[٣].

وتصنيف العلم معناه: ترتيب ما دُوِّن في أبواب مميزة، وفصول محدودة، تقول: صنف الشيء؛ أي: جعله أصنافاً وميز بعضها من بعض[٤].

وتبعاً لما ذكرناه فإن المحدثين والمؤرخين لا يقصدون بقولهم: إن ابن شهاب الزهري هو أول من دون الحديث بأمر عمر بن عبد العزيز: أنه أول من كتب الحديث، وإنما يقصدون أنه أول من جمعها في دفتر واحد. ولا يقصدون بقولهم: إن التصنيف لم يقع إلا في القرن الثاني الهجري: أن الكتابة لم تقع إلا في ذلك القرن، وإنما مقصودهم: أنه رتب وميز ابتداء من هذا الوقت ليسهل الرجوع إليه، وليميز ما بين صحيحه وسقيمه[٥].

---

(١) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١/٢٠٨).

(٢) انظر: المعجم الوسيط (٢/٧٦٩).

(٣) انظر: لسان العرب (١٧/٢٣).

(٤) انظر: مختار الصحاح، ص٣٧١.

(٥) انظر: الإلماع: للقاضي عياض، ص١٤٦ ـ ١٤٩، والباعث الحثيث: للشيخ أحمد شاكر، ص١١١ ـ ١١٢.

كما أن هناك نصوصاً عديدة تثبت كتابة الحديث في عهد النبي ﷺ، ومن ذلك ما يلي:

١ ـ روى البخاري ومسلم بسنديهما عن رسول الله ﷺ قال: «**اكتبوا لأبي شاه**» قالها ﷺ بعد أن طلب منه أبو شاه أن تكتب له خطبة من خطبه ﷺ عام الفتح[١].

٢ ـ وكان مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه صحيفة كتبت في عهد رسول الله ﷺ فيها أمور كثيرة عنه ﷺ[٢].

٣ ـ وكتب عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ صحيفة سماها الصادقة فيها الكثير من الأحاديث التي روى منها الكثير الإمام أحمد في مسنده[٣]، والتي رواها عنه حفيده عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو.

وقد أشار إلى ذلك أبو هريرة حين قال: ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب[٤].

٤ ـ ولما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قال: «**ائتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده**». فقال عمر: إن النبي ﷺ غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله، حسبنا، فاختلفوا، وكثر اللغط، قال: «**قوموا عني، ولا ينبغي عندي التنازع**».

فخرج ابن عباس يقول: إن الرَّزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه[٥].

إلى غير ذلك من الأحاديث القولية والعملية التي تثبت أن أحاديث كتبت في عهده ﷺ.

---

(١) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم، باب كتابة العلم، حديث رقم (١١٢)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الحج، باب تحريم مكة وصيدها، حديث رقم (٤٤٥/ ١٣٥٣).

(٢) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم، باب كتابة العلم، حديث رقم (١١١)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الحج، باب فضل المدينة، حديث رقم (٤٦٧/ ١٣٧٠).

(٣) انظر مسند أحمد (١١/ ٢٤٠ ـ ٣٨٦) أرقام (٦٦٥٩ ـ ٦٧٧٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم، باب كتابة العلم، حديث رقم (١١٣).

(٥) متفق عليه. أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم، باب كتابة العلم، حديث رقم (١١٤)، =

وأما ما رُوي عن النبي ﷺ في النهي عن كتابة السُّنَّة. مما أخرجه مسلم في صحيحه من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه**»[(١)].

فقد جمع العلماء بين هذا النهي وما سبق له ﷺ من الإذن بكتابة الحديث بعدة أوجه، لخصها ابن حجر رحمه الله في قوله:

١ ـ «والجمع بينهما أن النهي خاص بوقت نزول القرآن خشية التباسه بغيره، والإذن في غير ذلك».

٢ ـ «أو أن النهي خاص بكتابة غير القرآن مع القرآن في شيء واحد، والإذن في تفريقهما».

٣ ـ «أو النهي متقدم والإذن ناسخ له عند الأمن من الالتباس، وهو أقربها مع أنه لا ينافيها».

٤ ـ «وقيل: النهي خاص بمن خُشِي منه الاتكال على الكتابة دون الحفظ، والإذن لمن أُمِن منه ذلك»[(٢)].

واختار العلامة ابن القيم النسخ وفصَّل فيه فقال: «قد صح عن النبي ﷺ النهي عن الكتابة والإذن فيها، والإذن متأخر، فيكون ناسخاً لحديث النهي؛ فإن النبيَّ ﷺ قال في غزاة الفتح: «**اكتبوا لأبي شاه**» ـ يعني: خطبته التي سأل أبو شاه كتابتها ـ، وأذن لعبد الله بن عمرو في الكتابة، وحديثه متأخر عن النهي؛ لأنه لم يزل يكتب، ومات وعنده كتابته، وهي الصحيفة التي كان يسميها الصادقة، ولو كان النهي عن الكتابة متأخراً لمحاها عبد الله؛ لأمر النبي ﷺ بمحو ما كتب عنه غير القرآن، فلما لم يمحها وأثبتها دلَّ على أنَّ الإذن في الكتابة متأخر عن النهي عنها. وهذا واضح والحمد لله»[(٣)].

= وأخرجه مسلم في كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن له شيء يوصي عنه، حديث رقم (٢٠/ ١٦٣٧).

(١) أخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق، باب التثبت في الحديث وحكم كتابة العلم، حديث رقم (٣٠٠٤).

(٢) فتح الباري (١/ ٢٠٨).

(٣) تهذيب سنن أبي داود (٥/ ٢٤٥).

الحديث النبوي كمصدر عند المستشرقين المسلمين والمتعاطفين:

من البدهي أن يكون موقف المستشرقين المسلمين من الحديث النبوي هو الاستفادة منه في فهم أمور الدين الذي دخلوا فيه وأصبحوا مؤمنين بتعاليمه، وقريب من هذا الموقف في نتيجته موقف المتعاطفين الذين لم يشاؤوا أن يرددوا أحكام المستشرقين المتحاملين ـ بالطعن في الحديث النبوي في حجيته ومصدره ـ بل انهم استفادوا منه في رسم تصور عن الدين الإسلامي ونبيه ﷺ وإن كانوا لم يؤمنوا في دواخلهم بألوهية مصدره.

ولكن رغم هذا فقد وجد في هاتين المجموعتين من أبدى بعض الآراء التي تستحق الدراسة، وأقصد بالذات كتابات المستشرقين المسلمين مراد هوفمان وموريس بوكاي[1].

فقد كتب المستشرق الألماني مراد هوفمان حول السُّنَّة النبوية في مبحث صغير ضمن كتابه «الإسلام كما يراه ألماني مسلم» بيَّن فيه أن مصطلح (السُّنَّة) يعود إلى ما

---

(١) موريس بوكاي (١٩٢٠ ـ ١٩٩٨م): طبيب وجراح فرنسي نشأ مسيحيّاً كاثوليكيّاً، وكان الطبيب الشخصي للملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود رحمه الله الذي وجهه إلى قراءة القرآن بلغته العربية حتى يتضح له الحق فيه، فكان أن تعلم العربية في سنتين. ومع عمله في السعودية وبعد دراسة للكتب المقدسة عند اليهود والنصارى والمسلمين ومقارنة قصة فرعون بين القرآن والتوراة، أسلم سنة ١٩٨٢م، وألّف كتاب «دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة»، الذي تُرجم لسبع عشرة لغة تقريباً منها العربية، وتأتي أهمية هذا الكتاب من كون مؤلفه أوروبي مسيحي معاصر يشهد شهادة حق من خلال دراسته العلمية الموضوعية لمدى صحة كل من التوراة والأناجيل والقرآن، وقد ذكر بوكاي «أن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه نصوص القرآن لأول مرة هو ثراء الموضوعات العلمية المعالجة، وعلى حين نجد في التوراة ـ الحالية ـ أخطاء علمية ضخمة، لا نكتشف في القرآن أي خطأ، ولو كان قائل القرآن إنساناً فكيف يستطيع في القرن السابع أن يكتب حقائق لا تنتمي إلى عصره...»، دراسة الكتب المقدسة على ضوء المعارف الحديثة، ص١٤٥. ويقول أيضاً: «لم أجد التوافق بين الدين والعلم إلا يوم شرعت في دراسة القرآن الكريم فالعلم والدين في الإسلام شقيقان توأمان؛ لأن القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف يدعوان كل مسلم إلى طلب العلم، طبعاً إنما نجمت إنجازات الحضارة الإسلامية العظيمة عن امتثال الأوامر المفروضة على المسلمين منذ فجر الإسلام»، القرآن الكريم والعلم المعاصر لبوكاي، ص١٢٣. وانظر في ترجمته: رحلة إيمانية مع رجال ونساء أسلموا: لعبد الرحمٰن محمود، ص١٩٠، والسُّنَّة المفترى عليها: لسالم البهنساوي، ص٣٣٢، ومقالة بعنوان: منقبة للملك فيصل: لمحمد تقي الدين الهلالي، ضمن مجموع مجلة البحوث الإسلامية (٣١٣/١١).

قبل الإسلام، وأنه الآن يستخدم في الاصطلاح بمعان عدة منها: الاقتداء بالرسول ﷺ، والسلوك المستحب، ونقيض البدعة، كما تتناول ما تركه الرسول ﷺ.

والسُّنَّة «هي المصدر الكتابي الثاني لنظام العبادة والأخلاق في الإسلام. وهي مثبتة في الحديث؛ أي: السُّنَّة القولية، والسُّنَّة الفعلية، والسُّنَّة التقريرية».

ويقرر هوفمان أن «السُّنَّة والحديث عملياً اصطلاحين متلازمين بالرغم من أن أول ما يخطر ببال المرء عند ذكر الحديث هو القول، وعند ذكر السُّنَّة أول ما يخطر السلوك».

ويرى هوفمان أن الكتب الستة من بين كتب الحديث تتمتع بالثقة في الأعم الأغلب، «فما ورد فيها يكاد يكون موثوقاً كلياً... وهذا يعني أن ما وضعه آخرون لم تثبت صحته ولكن يمكن الظن بصحته»[(١)].

وقد نبه مراد هوفمان على بعض الأمور التي يجب أن نضعها نصب أعيننا عند الحديث عن السُّنَّة، ومن أهم هذه الأمور:

١ ـ أنه ما من أحد يمكن أن يكون مسلماً إذا ما اقتصر اهتمامه على القرآن الكريم فقط؛ لأن المكونات الأساسية للعقيدة والأخلاق الإسلامية والممارسات الدينية ـ وكذلك فهم القرآن ـ تعتمد على السُّنَّة النبوية.

٢ ـ أن السُّنَّة النبوية بالإضافة إلى القرآن، هي مصدر ثان من مصادر التشريع، وهذا يعني أن وظيفة السُّنَّة هي شرح القرآن أي بيان له، ولا تعني في حال من الأحوال تغييره. فالقرآن فوق السُّنَّة وليس العكس، فيما لو حدث تضارب بين الإثنين في هذه الحالة يجب على المرء أن ينطلق من أن الحديث المشكوك فيه ليس صحيحاً.

٣ ـ أن مكانة السُّنَّة إنما تقوم على أن الرسول قد وافق القرآن الكريم، وقد أمر المسلمون في القرآن أن يطيعوا أمر الرسول ﷺ في الأمور الدينية والأخلاقية. أما فيما يتعلق بأمور أخرى دنيوية كمجالات الطب أو الحرب أو الزراعة فلهم الخيار.

٤ ـ كان الرسول ﷺ ينهى بين الحين والآخر عن تدوين السُّنَّة للحيلولة دون حدوث خلط بينها وبين النص القرآني. ولذلك لم يكن هناك سوى القليل من

---

(١) انظر النقول السابقة في المرجع المذكور، ص٧٩ ـ ٨٠.

الأحاديث المدونة في حياة الرسول ﷺ وهي الأحاديث التي دوَّنها عبد الله بن عمرو. وهكذا تمت كتابة السُّنَّة بعد وفاة الرسول ﷺ، وبالتالي فهي بطبيعة الحال لا تتمتع بالمقام الذي يمثله القرآن الكريم من حيث الدقة والصحة.

٥ ـ جرى تدوين الأحاديث بكل دقة وعناية. وبشكل خاص تم التحقق فيما إذا كانت هناك سلسلة من الرواة تعود بالفعل إلى عهد الرسول مؤلفة من شخصيات موثوقة. ومن أجل هذا الهدف نشأ فرع من العلوم اسمه «علم الجرح والتعديل» علم الرواة من رجال ونساء، وكعلماء تاريخيين دقيقين قدم جامعوا الحديث المسلمون مستوى لم يكن قد بلغه أحد بعد في تاريخ السيرة.

ورغم ما تقدم من تأكيد هوفمان على الدقة في تدوين الحديث وروايته عند علماء المسلمين فإنه لم يستبعد الشك في أجزاء من السُّنَّة النبوية، وقد علل ذلك بسببين كما يقول:

الأول: في المجتمع الإسلامي الأول لم يكن قد وجد اصطلاح «السُّنَّة النبوية» بعد. وكما نستنتج من مجموعة الأحاديث المسماة «الموطأ» التي جمعها الفقيه مالك بن أنس، كان الفقه يقوم على القرآن والعُرف. طالما هذا الأخير لا يتناقض مع القرآن. تطورت هذه «السُّنَّة الحيوية» إلى درجة أن أصبح من العادة الحديث عن سُنَّة الخليفتين أبي بكر وعمر، إلى أن جعل الإمام الشافعي في نهاية القرن الثامن الميلادي السُّنَّة تقتصر على ما روي عن النبي ﷺ فقط. بعد أن كان بعضها قد نسب، عن طيب نية، أو بغير حق، إلى النبي ﷺ[1].

وكلام هوفمان هنا يظهر فيه مجانبة الصواب من جهتين:

الأولى: أنه تبع دون تمييز دعاوى بعض المستشرقين المتحاملين على السُّنَّة، فكلامه ترداد لما ادعاه شاخت من أن مفهوم السُّنَّة في المجتمع الإسلامي في العصر الأول كان هو «الأمر العرفي»[2]، وكذلك لما زعمه مارجليوث بأن السُّنَّة في بادئ الأمر كانت تطلق «على ما كان عرفاً مألوفاً»، ثم صار عنصراً مندمجاً في شخصية الرسول ﷺ[3].

---

(١) الإسلام كما يراه ألماني مسلم، ص٨١ ـ ٨٢.

(٢) دراسات في الحديث النبوي، ص٦.

(٣) المرجع السابق، ص١٠.

الثانية: أن كلمة السُّنَّة لو تناولت في بعض معانيها ما كان معروفاً مالوفاً في المجتمع الإسلامي ـ وهذا لا يقع إلا في حالات قليلة عند التأمل والبحث ـ فلا يعني ذلك أن ما كان من قبيل العرف والعادة قد دخل ضمن الحديث المضاف إلى النبي ﷺ. ولو تصور أن يكون شيء من هذا النادر قد نسب إلى النبي ﷺ وهماً أو خطأ فإن مقاييس المحدثين وشروطهم في صحة الحديث تستطيع أن تميز هذا المنسوب وتستبعده من الحديث المرفوع للنبي ﷺ. وعلى هذا فلا يمكن أن تقبل دعوى هؤلاء المستشرقين للنيل من السُّنَّة النبوية والتي لا تستند على أدلة شرعية ولا حجج عقلية.

والثاني من أوجه التشكيك لدى هوفمان: ما ذكره من تفادي جامعي الحديث المشهورين، بالإضافة إلى سلسلة الرواة، إخضاع مضمون المادة المنقولة (المتن) للانتقاد، ما عدا الحالات التي تبدو غير ممكنة، أو تتضمن تناقضاً، إذ لم تتوفر لهم آنذاك الوسائل المتاحة حالياً للتحليل اللغوي أو النقد التاريخي، ولذلك تتضمن مجموعاتهم بعض التزوير الذي لا يراد به شر؛ لأنها تتعاطف مع تيار سياسي أو ديني أو جماعة من الجماعات الإسلامية الأولى، أو تتخذ موقفاً ضدهم[١].

وهذا النقد الذي ذكره هوفمان للمحدثين سبقه إليه عدد من المستشرقين. حيث انتقد هؤلاء المستشرقون المحدثين فيما يتعلق باعتمادهم على الإسناد في تصحيح الحديث، فهم يدعون بأن المسلمين لم يتجاوزوا أبداً نقد السند إلى نقد المتن، وأن نقد المتن ترك من دون عناية أبداً[٢]، يقول كايتاني: «كل قصد المحدثين ينحصر ويتركز في واد جدب ممحل من سرد الأشخاص الذين نقلوا المروي، ولا يشغل أحد نفسه بنقد العبارة والمتن نفسه.. والمحدثون والنقاد المسلمون لا يجسرون على الاندفاع في التحليل النقدي للسُّنَّة إلى ما وراء الإسناد بل يمتنعون عن كل نقد للنص إذ يرونه احتقاراً لمشهوري الصحابة وثقيل الخطر على الكيان الإسلامي»[٣]، ويقول المستشرق شاخت مؤيداً كايتاني: «إن العلماء المسلمين أخفوا نقدهم لمادة الحديث وراء نقدهم للإسناد نفسه»[٤].

---

(١) الإسلام كما يراه ألماني مسلم، ص٨٢.

(٢) دراسات محمدية: جولد زيهر، ص٥٠٠، ٥٠٨ ـ ٥٠٩.

(٣) المستشرقون والحديث النبوي، ص١٢٩ ـ ١٣٠.

(٤) أصول الفقه: يوسف شاخت، ترجمة: إبراهيم خورشيد وآخرين، ص٦٤.

وفي الرد على كلام هؤلاء المستشرقين يقال: كان الهدف من نقد السند عند علماء الحديث هو الوصول إلى نقد المتن وخدمته، وكما نقد المحدثون السند واهتموا به واشترطوا سلامته من وجود الوضاعين والكذابين، فكذلك وضع العلماء شروطاً لقبول المتن، ووضعوا علامات تدل على الوضع فيه دون النظر إلى سنده.

وفي هذا رد واضح على من زعم أن نقد الحديث كان نقداً شكلياً منحصراً في السند. ومن العلامات على الوضع في المتن: مخالفة الحديث للحس أو للمقبول، أو لصريح القرآن، أو لصريح السُّنَّة الثابتة المشهورة، أو كونه ركيك الألفاظ، سمج المعاني، وما إلى ذلك[١].

يقول الإمام الشافعي: لا يستدل على أكثر صدق الحديث وكذبه إلا بصدق المخبر وكذبه، إلا في الخاص القليل من الحديث، ومن ذلك أن يستدل على الصدق والكذب فيه بأن يحدث المحدث ما لا يجوز أن يكون مثله، أو يخالفه ما هو أثبت وأكثر دلالات بالصدق منه[٢].

ويعد الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه: «المنار المنيف في الصحيح والضعيف» أفضل من توسع في موضوع الكلام عن علامات الوضع في المتن وعن القواعد والقرائن التي تدل على الكذب في الحديث نفسه دون النظر إلى سنده، فذكر أربعاً وأربعين قاعدة ومثَّل لها بمئتين وثلاثة وسبعين حديثاً، وبيَّن وجه بطلانها من مجرد نقض المتن ولم يعرج على نقد السند في شيء.

ومما قاله في هذا الصدد: «وسئلت هل يمكن معرفة الحديث الموضوع بضابط غير أن ينظر في سنده؟ فهذا سؤال عظيم القدر، وإنما يعلم ذلك من تضلع في معرفة السنن الصحيحة واختلطت بلحمه ودمه بحيث كأنه مخالط للرسول ﷺ كواحد من أصحابه»[٣].

وقد رأى هوفمان في كتابه «الإسلام عام ٢٠٠٠م» وجوب (إعادة توثيق)

---

(١) عناية المحدثين بمتن الحديث: محمود الطحان، ص٣٩٩.

(٢) نقد المتن بين صناعة المحدثين ومطاعن المستشرقين: نجم الدين عبد الرحمٰن خلف، ص٢١.

(٣) المنار المنيف: لابن القيم، ص٤٣ ـ ٤٤، وعناية المحدثين بمتن الحديث: للطحان، ص١٥ ـ ١٦. وللاستزادة انظر: الرد على مزاعم المستشرقَين إجناتس جولدتسيهر ويوسف شاخت ومن أيدهما من المستغربين: د. عبد الله عبد الرحمٰن الخطيب.

الحديث على يد العلماء المؤهلين «بمشرط الجراح وليس الفأس» كما يقول، ومع مشروعية ما ذكره هوفمان من وجوب تنقية الحديث النبوي وتمييز صحيحه من ضعيفه إلا أن هناك شروطاً ينبغي مراعاتها، ومنها وجوب تخلص الباحثين الذين سيقومون بذلك من آثار الفكر الاستشراقي، وعدم النظر إلى السُّنَّة النبوية من باب تشجيع الدعوة على حساب ثوابت الإسلام، وهو ما يبدو التأثر فيه ظاهراً في قول هوفمان: «وإن عدم نجاحنا في هذا سوف يغري أكثر فأكثر المسلمين الأمريكيين والأوروبيين على الاعتماد كلية على القرآن وإغفال السُّنَّة».

ويبدو أن هذين الشرطين الضروريين لكل دراسة دينية علمية للحديث النبوي غير متوافرين لهوفمان، فإنا نراه يشكك في صحابة النبي ﷺ حين يقول: «لهذه الشكوك ما يبررها فكتب الحديث الستة الصحيحة تم جمعها بنفس الأسلوب وبخاصة في التبجيل المطلق لصحابة النبي».

وهو ينص على عجز مناهج علمائنا، ويقترح استخدام المناهج المعاصرة، فيقول: «ولم يتم نقد الإسناد والمتن كما لو استخدمت التحليلات اللغوية والاجتماعية والتاريخية الحديثة». ويعطي أمثلة على ذلك بقوله: «يجب أن نعترف أن السُّنَّة لم تحفظ بالدرجة التي نأملها.. ألا نحس جميعاً ببعض الشك من الأحاديث السياسية، خاصة تلك التي ترفع علياً أو معاوية أو الرجال على النساء؟ ألا نحس بالاطمئنان لواقعية حديث عائشة ونبتسم لبعض أحاديث أبي هريرة»[١].

ورغم أننا لا نعتبر مثل هذه الآراء طعناً في السُّنَّة، ولا هي دليل على قصد هوفمان إلى التشويه؛ لأن الرجل ما زال من (المؤلفة قلوبهم) رغم السنين الطويلة التي عاشها مسلماً، ولأنه لم يتعمق في دراسة علوم الإسلام دراسة عميقة تؤهله للاجتهاد في أصوله، إلا أننا سنتتبع آراءه لتوضيح حقيقة اقتراحه وما يؤول إليه[٢]:

١ ـ أبان هوفمان عن قلة بضاعته في علوم الحديث عندما جعل الأحاديث السياسية قسماً من الحديث الصحيح بحيث تجب مراجعته، كما أبان عن تأثره

---

(١) انظر هذه النقول في الإسلام عام ٢٠٠٠م، ص٧٢، ٧٣.

(٢) انظر: نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٤٨.

بدائرة الاستشراق؛ لأن هذا النوع من الأخبار التي يكثر فيها الوضع كانت حصان طروادة الذي استخدمه المستشرقون لاقتحام حصن السُّنَّة. ولئن كان هوفمان يعجب لدقة حديث عائشة رضي الله عنها فقد أعجب علماؤنا بذلك قبله ودونوا ما نقل عنها في كتبهم، ولئن كان يبتسم من بعض حديث أبي هريرة رضي الله عنه، فقد ميز علماؤنا ما ورد عن أبي هريرة وغيره وأثبتوا ما تصح نسبته وما كان موضوعاً مما يعد إثباته في السنن طعناً في قدسية الإسلام. ومن المؤكد أن هوفمان لم يميز هنا بين ما ورد في كتب الصحاح والسنن، وبين ما يشيع في الثقافة الإسلامية من أخبار، نسبتها إلى الوضع ـ إذا استخدمنا فيها مناهج المحدثين ـ واضحة، ولكن المسلمين تناقلوها لأن روح عصرهم كان يسمح بذلك.

٢ ـ إن طعن هوفمان في الصحابة أمر خطير، ولعله لم يعلم خطورته فسبق قلمه تفكيره. ولو تأمل المسألة لوجد أن فتح باب الطعن فيهم هو مظنة إطراح الإسلام نفسه، إذ إننا لا ندين الله إلا بما نقلوه لنا، وهل وجد هوفمان الكتاب الكريم مسطوراً في قلب كل منا، أو وجد نسخه تتوزع في الآفاق منذ بدء الوحي، أو وجدنا نستطيع الاستغناء عن فقه الرسول الكريم ﷺ حتى يفتح علينا باب الطعن في صحابته الذين تولوا التبليغ عنه؟

ولا بد من أن نؤكد أنه لا يوجد دين من الأديان إلا وصحابة نبيه هم المسؤولون عن نشره، وهذا يستلزم عدم إمكان الطعن في صحابة أي نبي إلا إذا أراد الإنسان أن يصبح كافراً. ثم إن الطعن في الأديان من باب نقلها هي حجة الملاحدة القدامى والملحدين، وهذه النقول أعلى ما يثبت من أخبار العالم، ونفيها مظنة لإسقاط كل التراث الإنساني.

٣ ـ يقترح هوفمان استبدال مناهج علمائنا النقدية بمناهج التحليل اللغوي والاجتماعي والتاريخي، وهذا أمر يحتاج إلى تفصيل. فأما بالنسبة للتحليل اللغوي فمن غير الممكن استخدامه في نقد الحديث الصحيح؛ لأن علماءنا قد أجمعوا على جواز وصحة نقل الحديث بالمعنى، ويستند ذلك على حقيقة معروفة ومشروعة، وهي استحالة أن يتم نقل الخبر بلفظه مدة قرن ونصف من الزمان.

وليس معنى هذا أن علماءنا لم يستخدموا هذا المقياس، بل إنهم نصوا وعرفوا الكثير من الأحاديث الموضوعة بعد أن شهد «بوضعها ركاكة ألفاظها

ومعانيها»[١]. ومعنى هذا أن إمكانية معرفة الحديث الموضوع والضعيف متوافرة بالبحث اللغوي، أما معرفة الصحيح والنص عليه فغير ممكنة، ولذلك يجب أن نتوقف فيه على النقل السليم. وأما بالنسبة للمنهج الاجتماعي والتاريخي فقد استخدمها علماؤنا القدامى، وكانت نتيجة ذلك استبعاد أحاديث سياسية تضمنت فضائل لبعض الأئمة ساهم في وضعها أحداث الفتنة في صدر الإسلام والقوى والفرق التي كانت تصطرع فيه.

وأما المستشرق الفرنسي المسلم موريس بوكاي فقد ذهب إلى تقرير كيفية جمع الحديث ودقة النقد الممارس عليه، فقال: «وكانت معلومات هذا المصدر الثاني ـ أي: السُّنَّة ـ تعتمد فقط على النقل الشفهي، لذلك فإن الذين بادروا إلى جمع هذه الأقوال والأفعال في نصوص قد قاموا بتحقيقات تتسم ـ دائماً ـ بالصعوبة، كما هو الشأن في حكاية جميع الأحداث بعد انقضائها، ولهذا كان همهم الأول منصباً على دقة الضبط لهذه المعلومات الخاصة بكل حادثة في حياة محمد، وللتدليل على ذلك الاهتمام بالدقة والضبط فإنهم قد نصوا على أسماء الذين نقلوا أقوال النبي وأفعاله.. وهذا ما انفرد به علماء الإسلام في كل ما روي عن نبيهم»[٢].

وقارن بوكاي بين المدونات الحديثية والأناجيل فقال: «وهناك سمة مشتركة بينها جميعاً من حيث.. كتبت كلها بأقلام كتاب لم يكونوا من الشهود العيان.. كما أنها لم تظهر للوجود إلا بعد انقضاء مدة على الأحداث.. وكذلك فإن مجموعات الأحاديث مثل الأناجيل من حيث إنها لم تعتبر كلها صحيحة ثابتة.. غير أنه على عكس الأناجيل القانونية التي لم يتناولها الاعتراض.. فإن مجموعات الأحاديث، حتى تلك التي تعتبر بوجه خاص صحيحة، قد خضعت كلها لفحوص نقدية عميقة»[٣].

واللافت في موقف بوكاي من الحديث النبوي هو محاولته في كتابه «التوراة والإنجيل والقرآن والعلم» مقارنة المتون الحديثية بالنظريات العلمية المعاصرة،

---

(١) مقدمة ابن الصلاح، ص٥١.

(٢) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، ص٢٧٩.

(٣) المرجع السابق، ص٢٨٠ ـ ٢٨١.

والتي خرج منها بنتائج لا يوافقه عليها أهل الاختصاص الشرعي، فقد رأى بوكاي «أن نصوص القرآن نصوص لا دخل ليد البشر فيها. وذلك خلافاً لنصوص الأحاديث الظنية من أخبار الآحاد التي لا يمكن أن ترتفع في الثبوت إلى درجة الوحي المنزل المتواتر المكتوب، وذلك لما يدخل عليها من أخطاء الرواة كما سبق. وفضلاً عن ذلك كله فقد يكون الحديث صحيحاً لا شك فيه، ولكنه ما دام في أمر من أمور الدنيا مما لا علاقة للدين به. فلا فرق عندئذ في ذلك بين النبي ﷺ وبين غيره من البشر لما ورد في صحيح مسلم عن النبي ﷺ: «**إذا أمرتكم بشيء من أمر دينكم فاعملوا به، وإذا أمرتكم بشيء من أمر دنياكم فأنتم أعلم بأمر دنياكم**»، ويكون النبي ﷺ قد دعم بنفسه ملاحظتنا بشكل عام، وأقر الفوارق فيما بين مواضيع القرآن العلمية التي لا شك فيها، وقد أيدها العلم الحديث، وفيما بين بعض مواضيع الحديث التي لا وحي فيها عندما يكون الحديث متعلقاً بشأن من شؤون الدنيا مما قد لا يتفق أحياناً مع حقائق العلم الحديث، ولا يضر بمكانة الرسول النبوية أو البشرية، ولكنه مفيد على كل حال؛ لأنه قد يعطينا في هذه المواضيع صورة عن مفاهيم ذلك العصر، وآرائهم فيما يتعلق ببعض المواضيع ذات الصفة العلمية»[١].

وقد ضرب بوكاي أمثلة للأحاديث الظنية الدنيوية غير الدينية بالأحاديث المتعلقة بالطب، والأحاديث ذات الطابع العلاجي في صحيح البخاري وما تضمنته من «أفكار عن الأذى، والعين، والسحر، وإمكانية التخلص من آثار السحر، مع العلم بأن هناك منعاً من التكسب باستخدام القرآن لهذا الغرض، كما أن هناك حديثاً يشير إلى أن بعض التمر يقي من نتائج السحر، وأنه يمكن استخدامه ضد اللدغات السامة»[٢].

ويمضي بوكاي في بيان أنه لا ينبغي أن نندهش من هذه الأحاديث ونحن نتكلم عن عصر كانت الإمكانيات الفنية والصيدلة فيه محدودة، وبعد أن ذكر أمثلة إضافية للطب النبوي. يقول بوكاي: «ونستنتج من كل ذلك أنه من الممكن القول بوجود بعض الأحاديث غير المقبولة علمياً في مواضيع الطب والمعالجة، وإن الشك يخيم على صحتها، فضلاً عن أنها من أمور الدنيا، وليست من أمور

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٢.

(٢) المرجع السابق، ص٢٨٣.

الدين. وإن الفائدة من الإشارة إليها هو فقط لمقارنتها مع نصوص القرآن العلمية التي أثبتت دراستها كما سبق: أنها لا تحتوي قط على شيء من ذلك غير صحيح، ولذلك كان لهذه المقارنة أهمية كبرى؛ لأنها كما رأينا تشهد للقرآن بأنه وحي لا شك فيه، وأنه لا بد فيه للبشر»[(١)].

وكلام بوكاي المتقدم هو محل مناقشة وتقويم، فإنه رغم جهود بوكاي الظاهرة في بيان الإعجاز العلمي في القرآن ومقارنته بالكتب المقدسة عند أهل الكتاب، وبيانه للفروق الظاهرة التي تؤكد أن القرآن الكريم كتاب إلٰهي المصدر، وأنه وحي من عند الله تعالى، إلا أن كلام بوكاي عن الحديث النبوي يقل عن ذلك كثيراً، ولعل قلة دراسته للحديث والسُّنَّة النبوية على سبيل العموم، وعدم تمكنه في ميدان العلم الشرعي أورث له مثل هذا التخبط الذي وقع فيه حين قسم الحديث النبوي إلى أحاديث دينية يؤخذ بها، وأحاديث دنيوية لا يجب الأخذ بها؛ لأنها ليست من قبيل الوحي، وقد طرأ عليها التعديل والتحريف مما جعلها تمثل فكر عصرها ولا علاقة لها بالحقائق العلمية، مستدلاً لمذهبه بالحديث النبوي: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**». والجواب عن كلام بوكاي في ثلاثة أوجه:

الأول: أن جميع ما صح من السُّنَّة النبوية يجب الإيمان بأنه وحي من عند الله تعالى كما دلت على ذلك النصوص، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنبياء: ٤٥].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما مِن الأنبياء نبي إلا أُعطي مِن الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُتيتُه وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثرَهم تابعاً يوم القيامة**» متفق عليه[(٢)].

وقال ﷺ ـ كما في حديث المقدام بن معدي كرب رضي الله تعالى عنه ـ: «**ألا إني أُعطيتُ القرآنَ ومثلَه معه،...**»[(٣)].

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، في كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزل الوحي وفي غيرهما، ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (٢٣٩).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/ ١٣٠ ـ ١٣١)، وأبي داود في سننه، كتاب السُّنَّة، باب في لزوم السُّنَّة، رقم (٤٦٠٤)، والدارقطني في سننه (٤/ ٢٨٧)، وابن حبان في صحيحه (١/ ١٨٩ رقم ١٢)، والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ٣٣٢).

فقد دلت الآية الكريمة والحديثين الشريفين على أن رسول الله ﷺ قد أعطاه الله جلَّ شأنه وحيين، هما: وحي القرآن الكريم، ووحي السُّنَّة النبوية الشريفة.

يقول ابن حزم رحمه الله: «لما بيَّنّا أن القرآن هو الأصل المرجوع إليه في الشرائع؛ نظرنا فيه فوجدنا فيه إيجابَ طاعة ما أمرنا به رسول الله ﷺ، ووجدناه عز وجل يقول فيه واصفاً لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]. فصح لنا أن الوحيَ ينقسم من الله عز وجل إلى رسوله ﷺ إلى قسمين:

أحدهما: وحيٌ متلُوٌّ، مؤَلَّفٌ تأليفاً، معجزُ النظام، وهو القرآن.

والثاني: وحيٌ مرويٌّ، منقولٌ غيرُ مؤلَّفٍ، ولا معجز النظام، ولا متلُوٍّ، لكنه مقروء، وهو الخبرُ عن رسول الله ﷺ، وهو المبيِّنُ عن الله عز وجل مرادَه منا، قال الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ۝٤٤﴾ [النحل: ٤٤]. ثم قال: والقرآن والخبرُ الصحيح بعضُهما مضافٌ إلى بعض، وهما شيءٌ واحد في أنهما من عند الله تعالى، وحكمهما حكمٌ واحد... ثم قال: أخبر تعالى ـ كما قدمنا ـ أن كلامَ نبيِّه ﷺ كلَّه وحيٌ، والوحيُ بلا خلاف ذِكْرٌ، والذكرُ محفوظٌ بنص القرآن..»[1].

الثاني: تقسيم بوكاي للحديث النبوي إلى أحاديث دينية وأحاديث دنيوية، وترتيبه على هذا التقسيم أن تكون الأحاديث الدينية واجبة الأخذ إلٰهية المصدر، وأن تكون الأحاديث الدنيوية غير واجبة الأخذ ولا تصل إلى درجة الوحي غير صحيح ولا يسلم له. ذلك أن ما ثبت من السُّنَّة يجب الأخذ به جميعاً وامتثال ما جاء فيه ـ إلا أن يكون منسوخاً ـ ويجب اعتقاد كونه من عند الله لقوله تعالى عن نبيه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]. وأما استدلال بوكاي على مذهبه بقوله ﷺ: «**أنتم أعلم بأمور دنياكم**» ـ وتكراره لذلك في أكثر من موضع في كتابه ـ فغير صحيح.

فالحديث قد أخرجه الإمام مسلم في صحيحه ولفظه عن طلحة رضي الله عنه قال: مررت مع رسول الله ﷺ بقوم على رءوس النخل فقال: «**ما يصنع هؤلاء؟**»

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام (١/ ٩٦ ـ ٩٨).

فقالوا: يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فيلقح، فقال رسول الله ﷺ: «**ما أظن يغني ذلك شيئاً**»، قال: فأُخبروا بذلك فتركوه، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: «**إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإني إنما ظننت ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً فخذوا به، فإني لن أكذب على الله ﷻ**»[(١)]. وفي رواية عن رافع بن خديج قال: قدم نبي الله ﷺ المدينة، وهم يأبِرون النخل، يقولون يُلقِّحون النخل، فقال: «**ما تصنعون؟**» قالوا: كنا نصنعه، قال: «**لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً**» فتركوه فنفضت أو فنقصت، قال: فذكروا ذلك له، فقال: «**إنما أنا بشر، إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به، وإذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر**»[(٢)]. وفي رواية عن أنس وعائشة رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ مر بقوم يلقحون، فقال: «**لو لم تفعلوا لصلُح**»، قال: فخرج شيصاً، فمر بهم فقال: «**ما لنخلكم؟**» قالوا: قلت كذا وكذا، قال: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»»[(٣)]. هذه روايات الحديث، ولنبين فيما يلي خطأ الاستدلال بهذا الحديث على أن ما كان من أمور الدنيا في الأحاديث النبوية فهو غير واجب الاتباع:

١ ـ أن هذا القول لم يقله أحد من علماء الشريعة، بل هو مخالف لأقوالهم، وما كان هذا سبيله فهو مردود على صاحبه، مرفوض غير مقبول. فقد بوب النووي على هذا الحديث بقوله: «باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً، دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي»[(٤)]. وقال أيضاً في شرح هذه الأحاديث: «قال العلماء: قوله ﷺ: «**من رأى**»؛ أي: في أمر الدنيا ومعايشها لا على سبيل التشريع، فأما ما قاله باجتهاده ورآه شرعاً يجب العمل به، وليس إبار النخل من هذا النوع، بل من النوع المذكور قبله... قال العلماء: ولم يكن هذا القول خبراً، وإنما كان ظناً كما بيَّنه في هذه الروايات، قالوا: ورأيه ﷺ في أمور المعايش وظنه كغيره، فلا يمتنع وقوع مثل هذا، ولا نقص في ذلك، وسببه تعلق هممهم بالآخرة ومعارفها، والله أعلم»[(٥)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه. في كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً، دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا على سبيل الرأي (٤/ ١٨٣٥)، حديث رقم (٢٣٦١).
(٢) أخرجها مسلم في نفس الكتاب والباب السابقين (٤/ ١٨٣٥)، حديث رقم (٢٣٦٢).
(٣) أخرجها مسلم في نفس الكتاب والباب السابقين (٤/ ١٨٣٦)، حديث رقم (٢٣٦٣).
(٤) شرح صحيح مسلم: للنووي (١٥/ ١١٦).
(٥) المرجع السابق، بنفس الجزء والصفحة.

فمما تقدم نقله عن أهل العلم يتبين أن مجال هذا الحديث إنما هو في «أمر الدنيا ومعايشها» ولم يذكر العلماء تلك العبارة مطلقة، بل قيدوها بما يبطل كل محاولات التأويل الباطل لهذا الحديث، فقد قيد العلماء «أمر الدنيا ومعايشها» بأن يكون النبي ﷺ قاله «على سبيل الرأي»؛ أي: أنه قاله «لا على سبيل التشريع» وهذا التقييد يعني أمرين:

أ ـ أن الأمور التي يقال فيها: «أنتم أعلم بأمور دنياكم» هي تلك الأمور التي لم تتناولها الأدلة الشرعية تناولاً عاماً أو تناولاً خاصاً، أو الأمور التي تناولتها السُّنَّة لا على سبيل التشريع وإنما على سبيل الرأي فقط.

ب ـ أن الأصل في كل ما تناولته النصوص الشرعية ـ ولو كان متعلقاً بأمر الدنيا أو المعاش أو غيره ـ أن يكون على سبيل التشريع إلا أن يدل الدليل أو القرينة على خلاف ذلك، ويؤيد هذا الكلام أيضاً تصرف الصحابة رضي الله عنهم في القصة المذكورة حيث امتنعوا من تأبير النخل ـ رغم خبرتهم السابقة عن أهمية ذلك التلقيح علاوة على أنه أمر من أمور المعايش الدنيوية ـ وذلك لما لم يظهر لهم دليل أو قرينة تبين لهم أن الرسول ﷺ قال ما قال على غير سبيل التشريع، وهذا يعني أنهم رضي الله عنهم يتعاملون مع أقواله ﷺ ـ ولو كانت في أمور المعايش ـ على أنها على سبيل التشريع حتى يأتي من الدليل الشرعي المبين لهم أنها على غير سبيل التشريع.

٢ ـ أن يقال إن الرسول ﷺ لم يذكر الكلام في عدم تأبير النخل مطلقاً من كل قيد، حتى يقال: إن ما تناولته النصوص الشرعية مطلقاً من القيود وهو من أمور الدنيا فإن الشرع يُترك ـ في هذه الحالة ـ ويرجع في تلك الأمور الدنيوية إلى أهل الدنيا. فالرسول ﷺ ـ كما بُيِّن في الحديث ـ لم يأمرهم أمراً مطلقاً، أو لم ينههم نهياً مطلقاً أو بعبارة أخرى لم يكن ما صدر منه على سبيل التشريع، وألفاظ الحديث ورواياته المتعددة تدل على ذلك، وإن كان من سمع هذا الموضوع من الصحابة رضي الله عنهم قد غلّبوا جانب التشريع. فقد جاء في ألفاظ الحديث ورواياته: «**ما أظن يغني ذلك شيئاً**» وجاء «**لعلكم لو لم تفعلوا كان خيراً**»، مما يبين أن الرسول ﷺ يتحدث عن ظن أو خبرة دنيوية لا علاقة لها بالتشريع، ولذلك لما غلَّب بعض الصحابة رضي الله عنهم جانب التشريع في ذلك، بيَّن لهم الرسول ﷺ أنه لم يرد ذلك وأن كلامه السابق لا يدل عليه، ولذلك قال لهم معقباً على

تصرفهم إزاء مقالته السابقة: «**فإني إنما ظننت ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن**»، وقال: «**إذا أمرتكم بشيء من رأي فإنما أنا بشر**»، وقال: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**» فالروايات كلها في مبتداها ومنتهاها متضافرة على أن ما ذكره الرسول ﷺ للصحابة كان من قبيل الرأي المتعلق بأمور المعاش القائم على الخبرة البشرية التي قد يتاح منها لبعض الناس ما لا يتاح لغيرهم، ولم يكن كلاماً على سبيل التشريع، وإذا تبين ذلك، فقد بطل القول في أن النصوص الشرعية المتعلقة بأمور الدنيا، لا يعول عليها، ولا يرجع إليها، وإنما يرجع في مثل هذه الأمور إلى أهل الدنيا والمعرفة بها.

٣ ـ أن يقال إن «أمر الدنيا» الذي عناه الرسول ﷺ في حديثه، هو تأبير النخل فلا يقاس عليه إلا ما جرى مجراه وكان على شاكلته، وهو الخبرة العملية المتعلقة بشأن من الشؤون المباحة التي لم يتعلق بها الخطاب الشرعي لا أمراً ولا نهياً، وليس المراد بذلك كل أمر متعلق بالدنيا؛ لأنه قد جاءت نصوص شرعية كثيرة في أمور الدنيا؛ كأحكام اللباس والزينة والبيع والشراء وآداب السلام وعيادة المريض واتباع الجنائز إلى غير ذلك، وقد تعلق بها الخطاب الشرعي أمراً ونهياً، فكانت بذلك موكولة إلى الشرع يبين حلالها وحرامها وما يصح منها وما لا يصح إلى غير ذلك من تفاصيله االمطلوبة، ولم تكن موكولة إلى المسلمين ـ أو إلى غيرهم ـ يجتهدون فيها أو يعملون فيها بمقتضى عقولهم أو مصالحهم أو أهوائهم[١].

الثالث في الجواب على كلام بوكاي: أنه ثبت في السُّنَّة النبوية جوانب كثيرة من الإعجاز العلمي، ورغم أن اتجاه العلماء لبيان هذا الإعجاز ما زال حديث النشأة ـ وربما لم يلحظه بوكاي ـ إلا أن هناك جوانب ظاهرة في هذا الاتجاه تخالف ما ذكره بوكاي وتؤكد على وجود جوانب كثيرة من الإعجاز العلمي والطبي في السُّنَّة النبوية مما يوافق كثيراً من الحقائق العلمية الحديثة، وقد تولت عدد من الهيئات والجمعيات واللجان الخاصة بالإعجاز العلمي في القرآن والسُّنَّة بيان هذه الجوانب في مؤتمراتها وندواتها وإصداراتها، كما ظهرت عدد من الدراسات والبحوث المختلفة التي تناولت هذا المجال بالبحث والتنقيب[٢].

---

(١) انظر: تحطيم الصنم العلماني: د. محمد موسى الشريف، ص١٦٣ ـ ١٦٨.

(٢) انظر: رصد هذه الجهود في بحث «تقويم الأعمال التي تناولت الإعجاز العلمي والطبي في السُّنَّة النبوية»: د.أحمد أبو الوفاء عبد الآخر.

واستكمالاً لتوضيح موقف المستشرقين المسلمين من السُّنَّة النبوية فقد رأى بعض هؤلاء وجوب رد السُّنَّة إلى القرآن، وغلوا في هذا الجانب بحيث لم يقيموا لنصوصها وزناً في فهم عدد من المسائل الشرعية، هي من صميم واجبات الرسول ﷺ التي كلفنا الله تعالى بوجوب اتباع بيانه لها. ويبدو ذلك عند محمد أسد في فقهه الجديد للحجاب الذي اعتمد فيه على القرآن، مستبعداً حديث النبي ﷺ وإجماع علماء المسلمين(١).

وممن تأثر بهذا المنهج نصر الدين اتينيه في كتابة عن السيرة النبوية حيث استبعد المعجزات الحسية للنبي ﷺ لأن دينيه رأى في ذلك مخالفة لنصوص القرآن الكريم، وقد كتب في مقدمة سيرته قائلاً: «وقد آثرنا، بالاتفاق مع نصوص القرآن ـ وهو الكتاب الوحيد الذي لم يعارض ولا يقبل المعارضة ـ وبالاتفاق مع علماء الصدر الأول، ومع أصحاب الفكر الحر من المعاصرين كالشيخ محمد عبده.. أن نضرب صفحاً عن جميع الخوارق التي نسبت للنبي العربي بعد زمن طويل من وفاته، والتي يبدو أن في نسبتها إليه ما يسلبه سيماء الحقيقة، والحق أننا نرى أن محمداً هو الوحيد (من بين الأنبياء) الذي استطاع أن يستغنى عن مدد الخوارق والمعجزات المادية، معتمداً فقط على بداهة رسالته ووضوحها، وعلى بلاغة القرآن الإلٰهية»(٢).

ورغم أن هذا التعليل الذي ذكره دينيه في إضرابه عن مثل هذا النوع من أحداث السيرة يعد غير كاف في مقابل الأحاديث النبوية المتواترة المثبتة لمثل هذه المعجزات إلا أن موقف دينيه المبدئي من الإسلام باعتباره دين العقل

---

(١) فسر محمد أسد عبارة ﴿إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ في قوله تعالى: (﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]. بأن المراد به طلب الاحتشام فقط، وأن هذا الاحتشام يحدده العرف والزمان ولهذا السبب ترك غامضاً في الآية ولم يحدد، كي يبقى الباب مفتوحاً للتطورات الاجتماعية والأخلاقية لدى الناس في تحديد المساحة التي تظهرها المرأة من جسدها، فالعرف هو الذي يحدد ما هو محتشم وما ليس محتشم، وهذا الأمر قد يتغير من زمان لآخر. ولهذا اعتبر أسد أن غطاء الرأس تدل عليه الآية وإنما دل عليه العرف السائد أو العادة الجارية عند نزول القرآن، وأن هذا العرف أو هذه العادة الجارية قد تتغير حسب كل زمان. انظر:

Muhammad Asad, The Message of The Qur'an, p.538 الحاشية: ٣٧، وفكر محمد أسد كما لا يعرفه كثيرون: لإبراهيم عوض، ص٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص٥٤ ـ ٥٥.

بالإضافة إلى تأثره بالمنهج العقلي الذي سلكه بعض دعاة الإسلام المعاصرين له كالشيخ محمد عبده من الممكن أن يكون قد دفعه إلى هذا الموقف، ولهذا فقد اعتمد دينيه على الفهم اللغوي (البسيط) في تأويل ما جاء في القرآن الكريم من آيات المعجزات دون الالتفات لما ورد فيها من الأحاديث النبوية، ومن ذلك أنه أورد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١]، ثم أتبعه بذكر الروايات المعروفة في شق صدره عليه الصلاة والسلام، ثم قال: «وهذه القصة؛ ككل القصص التي من نوعها، والتي يجدها القارئ أثناء قراءته لهذا الكتاب، يجب أن تؤول تأويلاً رمزياً، والقصة التي نحن بصددها تعني أن الله تعالى شرح صدر محمد إلى الفرح بحقيقة التوحيد، إذ أزال عنه منذ الطفولة وزر الوثنية»(١).

ويجدر في ختام مناقشة الآراء السابقة التنبيه إلى أن القسم الأوفر من الحديث الصحيح يعرض للعقائد والعبادات والأمور الغيبية التي لا تعرف إلا بالفقه العالي للسُّنَّة. ومعنى هذا أنها ـ أصلاً ـ مما لا يمكن معرفة حقيقته بعرضه على العقل أو القرآن الكريم ـ إلا في موضوعات محددة يعتبر القرآن فيها قيداً على ما سواه ـ، وهذا ما كان يعرفه علماؤنا القدامى فعمدوا إلى الوسيلة الوحيدة التي تمكنهم من تمييز الصحيح من السقيم، وهو عدم انقطاع السند وضبط وتدوين الرواة(٢).

ـ وأما المستشرقين المتعاطفين نسبياً مع السيرة النبوية فقد كان لهم اتجاه متوازن ـ بحسب وجهة نظرهم ـ بين اعتقاد المسلمين في الحديث النبوي وبين اتجاه المستشرقين المتحاملين من أمثال جولد زيهر وشاخت. فقد نظر هؤلاء إلى الحديث النبوي بصفته أحد المصادر الأساسية للسيرة النبوية ولكن شاب هذه النظرة تشكيك غير قليل في جوانب من رواية الأحاديث جعلتهم يستبعدون مواضيع محددة من السُّنَّة النبوية، ولعل المقصد من ذلك هو التحكم فيما يختاره الكاتب أو يدعه من الحديث النبوي عند ذكره لأحداث السيرة بحجة دخول هذه الأحاديث تحت هذا الموضوع أو ذاك من المواضيع التي استبعدها هؤلاء ابتداء، وطعنوا في صحة كل الأحاديث التي تدور في فلكها.

---

(١) المرجع السابق، ص٧٧، ونبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص١٦٢ ـ ١٦٦.
(٢) انظر: نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٥٠.

يقول إميل درمنغم في مقدمة كتابه «حياة محمد»:

«وأهم المصادر لتبيان حياة محمد هو القرآن وكتب الحديث والسيرة، والقرآن أصح هذه المصادر وإن كان أوجزها، وكتب الحديث (وهي ما احتوت ما جمعه المحدثون، ولا سيما البخاري، من أقوال النبي وأعماله بعد تمحيص ظاهر أسانيدها، دون حقيقة أمرها) لا تخلو من ميل وشبهة، ولا ريب في أن كثيراً من الأحاديث التي هي أساس تناجز المذاهب الإسلامية موضوع، وقد اقتطفت أقوال من التوراة والإنجيل وأسندت إلى محمد، وقد عزي إليه ما يُدحض به بعض المذاهب النصرانية، وقد نسب إليه ما يشك فيه من معجزات، وهو الذي لم يقل إنه جاء بها. وليس من السهل في كل وقت أن تُستنبط الحقيقة من الأحاديث التي يكاد عددها لا يحصى، وإن لم يكن ذلك مستحيلاً إذا استطاع الباحث أن يقف على أسباب الوضع فيها، فإذا حذف من الأحاديث ما يأباه العقل وما هو منتحل وما أملاه الغرض، بقي عدد كبير منها قريباً من الصدق، إن لم يكن صحيحاً صحة الحقائق الرياضية التي لا عهد للتاريخ بمثلها إلا قليلاً، حاشا خطوطه الأساسية. قال سنوك هرجرونيه: إن مما يناقض كل نهج قويم دحض الحديث الذي لم يقم دليل على أنه وليد الغرض والذي لم يوجد سبب تاريخي ينقضه»[١].

(١) حياة محمد، هـ و.

المبحث الثاني

السيرة النبوية

المطلب الأول: السيرة النبوية في كتابات المستشرقين.

المطلب الثاني: السيرة النبوية كمصدر للكتابة عن النبي ﷺ.

المطلب الأول

السيرة النبوية في كتابات المستشرقين

السيرة لغة تطلق على عدة معان: فالسيرة السُّنَّة، قال الشاعر:

فلا تجزعن من سُنَّة أنت سرتها   فأول راض عن سُنَّة من يسيرها[١]

والسيرة: الطريقة، يُقال: سار بهم سيرة حسنةً. والسيرة: الهيئة، وفي التنزيل: ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ۝٢١﴾ [طه: ٢١]. والسيرة: الضرب من السَّيْر[٢].

والسيرة النبوية اصطلاحاً: هي الترجمة المأثورة لحياة النبي ﷺ[٣].

أو هي: ما أثر عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلْقية أو خُلُقية أو سيرة، سواء كان قبل البعثة أو بعدها[٤].

وهذا التعريف ذكره المحدِّثون للسُّنَّة، وهو تعريف للسيرة أيضاً؛ لأنّ من معاني السيرة في اللغة: السُّنَّة، ولأنّ التعريف اشتمل على ذكر حياة النبي ﷺ كلها قبل البعثة؛ أي: من ولادته وبعدها حتى وفاته.

وإذا قيل: السيرة النبوية، فإنما يراد بها سيرة نبي الله ورسوله محمد بن عبد الله ﷺ، والتي تشتمل على ذكر أدق التفاصيل عن حياته ﷺ في المرحلة المكية والمدنية، وعلى هذا درج المؤلفون عن حياة النبي ﷺ بتسمية مؤلفاتهم بالسيرة النبوية؛ كالسيرة النبوية لابن إسحاق، وتهذيبها لابن هشام، والسيرة

(١) البيت: لخالد بن زهير، ابن أخت أبي ذؤيب، انظر: لسان العرب، مادة: (سير).

(٢) لسان العرب، مادة: (سير)، والقاموس المحيط، مادة: (سير).

(٣) دائرة المعارف الإسلامية (٢/ ١٥٢).

(٤) قواعد التحديث: للقاسمي، ص٣٥ ـ ٣٨.

النبوية لابن حزم (ت٤٥٦هـ)، والسيرة النبوية لعبد الغني المقدسي (ت٦٠٠هـ)، والسيرة النبوية لابن عساكر (ت٥٧١هـ)، المطبوعة ضمن تاريخه الشهير بتاريخ ابن عساكر وغيرها.

والملاحظ أنّ هذه المصنفات الموسومة بالسيرة النبوية، جميعها تتحدث عن حياة النبي ﷺ في المرحلة المكية والمرحلة المدنية، إلا أن بعضها أكثر تفصيلاً عن حياته عليه الصلاة والسلام من بعض.

ـ وتمتاز السيرة النبوية بخصائص عدة، منها:

١ ـ كونها ربانية المصدر، بمعنى أنّ صاحبها وهو نبينا محمد ﷺ مرسل من ربه إلى الناس كافة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾، ويتلقى تعاليمه من الله ﷻ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٣، ٤]، ولا يقول شيئاً من ذات نفسه فيما يتعلق بأوامر النبوة والرسالة أبداً: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]. وهذه الخصوصية وإن كان يشاركه الأنبياء في بعضها إلا أن نبينا انفرد بكونه ﷺ مرسلاً إلى الناس كافة، فأوامره ونواهيه ملزمة ومقررة للناس جميعاً.

٢ ـ ثبوتها وصحة ما جاء فيها: فقد أورد القرآن الكريم صوراً من سيرة النبي ﷺ على سبيل الإجمال، حيث أشار إلى الحالة التي نشأ عليها ﷺ في أول حياته: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨]، ثم نزول الوحي عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: ١ ـ ٥]. وبداية دعوته: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]، ثم بعض أخلاقه وشمائله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [القلم: ٤]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ثم في جهاده وغزواته:

ففي بدر: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾﴾ [الأنفال: ٥].

وفي أُحد: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾﴾ [آل عمران: ١٢١].

وفي الخندق: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾ [الأحزاب: ١٠، ١١].

وفي حنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [التوبة: ٢٥].

فالقرآن الكريم مليء بمثل هذه الإشارات المقتضبة، وعلى هذا فالقرآن الكريم يعدُّ المصدر الأول لسيرة النبي ﷺ، وكفاك به صدقاً وعدلاً: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

كما أنّ كتب السُّنَّة قد نقلت لنا معظم سيرة الرسول ﷺ، وبأصح ما جاء فيها، حيث أورد البخاري ومسلم في صحيحيهما جملة كبيرة من السيرة النبوية، وكذا بقية كتب السُّنَّة.

٣ ـ شمولها وكمالها: فلا تكاد تجد سيرة لنبي من أنبياء الله السابقين وصفت حياته وصفاً دقيقاً ابتداء من ولادته حتى وفاته وبقيت بعده، فضلاً عن غيرهم من البشر، لكن سيرة نبينا ﷺ شملت جميع مراحل حياته، بل وقبل ولادته حتى وفاته عليه الصلاة والسلام، بل وفي بعض أحداثها ذكر اليوم والشهر والسنة، شاملة لجميع مناحي الحياة الإنسانية، فتجد فيها الوسطية، والعدل والمساواة والحرية، والرفق بالإنسان والحيوان وغيرها.

٤ ـ وسطيتها ويسرها: فدين الإسلام عموماً جاء بالوسطية: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وقال عليه الصلاة والسلام: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**»[١]. وقال ﷺ: «**إنما بعثتم مُيسِّرين ولم تبعثوا معسِّرين**»[٢].

فأمّة الإسلام أمة وسطية معتدلة، كما قال الطبري رحمه الله: «فلا هم أهل غُلُوٍّ فيه، غُلُوَّ النصارى الذين غَلَوا بالترهب، وقِيلِهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين أبدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب العلم، باب ما كان ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم حتى لا ينفروا (١/ ٢٥) حديث رقم (٦٩).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الوضوء، باب صب الماء على البول في المسجد (١/ ٥٤) حديث رقم (٢٢٠).

ربهم، وكفروا به، ولكنهم أهل وسط واعتدال فيه فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها»[(١)(٢)].

الدراسات الاستشراقية:

بالنسبة للمستشرقين المسلمين لم تظهر لهم دراسات كثيرة حول السيرة النبوية، ربما كان لمبعث الإيمان والاطمئنان للدراسات الإسلامية السابقة دوره في ذلك حيث لم يكن لهؤلاء المستشرقين ما يضيفونه حول السيرة النبوية، كما لم يكن لهم بعض الأهداف المشبوهة التي رامها جمع من المستشرقين الغربيين في دراساتهم للسيرة النبوية.

ولعل أبرز عمل يظهر في هذا المجال هو كتاب المستشرق الفرنسي المسلم نصر الدين دينيه في السيرة وعنوانه: (محمد رسول الله) الذي اشترك فيه مع أحد الباحثين الجزائريين وهو سليمان بن إبراهيم. والملاحظ أن كتاب دينيه في السيرة لا يختلف من حيث مادته عن المؤلفات الإسلامية الأخرى، ولكنه يتميز عن الكثير منها بالأسلوب الشاعري الذي ألفت به مباحث مثل: معاناة النبي ﷺ ومجاهدته من أجل إعلاء كلمة الله، وتسامحه، وعلو همته، وطيب شمائله عليه الصلاة والسلام[(٣)].

تحدث دينيه في مقدمته عن حدود دراسته ومصادره فقال: «إن حدود هذا السفر لن تسمح لنا بأن نقدم جميع التفاصيل، وجميع النواحي، لحياة حافلة بالعظائم إلى هذا الحد، كما هو الشأن في حياة النبي محمد ﷺ: ولذا نجد لزاماً علينا أن نتخير للعرض أهم الحوادث لكي نعطيها العناية التي نراها ضرورية. وإذن فعملنا هذا إنما هو سلسلة من اللوحات التصويرية، وليس تاريخاً كاملاً نقدمه للقراء. وقد اعتمدنا في استمداد عناصرها على أقدم المؤلفين: كابن هشام، وابن سعد، وسواهما؛ ثم على مؤرخ من المحدثين هو: «علي بن برهان الحلبي»، الذي حشد في كتابه المسمى «السيرة الحلبية» مختلف الروايات لأشهر المؤرخين»[(٤)].

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ١٤٢).

(٢) انظر: أهمية دراسة السيرة النبوية والعناية بها في حياة المسلمين: د.محمد العواجي، ص٧ ـ ١٠.

(٣) محمد رسول الله، ص٥٢.

(٤) المرجع السابق، ص٥٣.

أما دراسات جمهور المستشرقين للسيرة النبوية فقد جاءت متنوعة بحسب اهتمامات وأغراض المستشرق نفسه. ولعل الكثير من هذه الدراسات لم تكن في المستوى المطلوب في الحيادية والموضوعية حيث تأثر كثير منها بميول واتجاهات المستشرق صاحب الدراسة.

وقد صدق دينيه حين قال: «رغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد الحديثة، فإننا نلمس في كتاباتهم محمداً يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلف ألمانياً، ومحمداً يتحدث بالإيطالية، إذا كان الكاتب إيطالياً، وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب»(١).

- وعموماً يمكن تقسيم دراسات جمهور المستشرقين حول سيرة النبي ﷺ إلى قسمين:

الأول: دراسات متحاملة.

الثاني: دراسات متعاطفة.

أولاً: الدراسات المتحاملة:

لم يكن الغرض من هذه الدراسات سوى التشويه وعرض صورة سلبية للسيرة النبوية، وقد اختلفت منطلقات ودوافع التحامل بين أسباب جدلية ودوافع لاهوتية دينية - وخصوصاً عند قدماء المستشرقين - ممن تقلد مناصب لاهوتية كنسية، كما كان للدوافع الاستعمارية في الفترة المتأخرة هدف في النيل من الإسلام عموماً، والذي تمثل شخصية النبي ﷺ فيه أسه وجوهره.

وقد كثرت هذه الدراسات المتحاملة وخصوصاً في فترة القرون الوسطى الميلادية، والتي كانت سمة التحامل تمثل العنوان الأبرز لمثل هذه الدراسات، حيث غابت عنها مقومات الموضوعية في عرض سيرة النبي محمد ﷺ، ولهذا لو أردنا أن نستعرض الكتابات المتحاملة في القرون الوسطى حول سيرة النبي ﷺ لاستعرضنا غالبية هذا الكتابات إن لم نقل جميعها، وقد تقدمت الإشارة إلى جملة كبيرة من هذه الكتابات وبيان مصادرها ضمن المبحث المتقدم بعنوان: النبي ﷺ في كتابات القرون الوسطى.

---

(١) محمد رسول الله، ص٢٨.

وقد اشتركت هذه الكتابات المتحاملة حول السيرة النبوية في مجموعة من السمات من أبرزها ما يلي:

١ ـ أن هذه الكتابات قد احتوت على القليل النادر من الحقائق، والكثير من الصور الموضوعة، والتي أنتجت قالباً في غاية التشويه والإساءة للإسلام ونبيه ﷺ اختلطت فيها الأكاذيب مع الأساطير والخيالات.

٢ ـ غياب المصدرية الإسلامية في هذه الكتابات غياباً تاماً، حيث إن من يطلع على هذه الكتابات يجزم أن هذه الصورة للنبي ﷺ، والتي جاءت بها أفكار هؤلاء الكتَّاب، لا تتفق ولو في أبسط جزئياتها مع الصورة الإسلامية والحقيقية التي جاءت بها المصادر الإسلامية[١].

٣ ـ غلبة روح الجهل في هذه الكتابات، ولذلك لم يجانب الصواب ريتشارد سوذرن عندما جعل الفصل الأول من كتابه «صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى» بعنوان: «حقبة الجهل» ملخصاً فيه طبيعة الفكر الديني الغربي عن الإسلام ونبيه ﷺ بقسميه البيزنطي واللاتيني في فترة القرون الوسطى[٢].

٤ ـ غياب روح التسامح والرغبة في الوصول للحقيقة. فقد كان لغياب هذين الأمرين مع سطوة الحقد والبغضاء أكبر الأثر في عملية التشويه التاريخي والديني التي تعرضت لها حياة النبي محمد ﷺ ونبوته على أيدي مفكري الغرب في تلك الفترة، كما يقول المستشرق الألماني رودي باريت:

«كان موقف الغرب المسيحي في العصر الوسيط من الإسلام هو موقف الدفع والمشاحنة فحسب، صحيح أن العلماء واللاهوتيين كانوا يتصلون بالمصادر الأولى في تعرفهم إلى الإسلام، ولكن كل محاولة لتقويم هذه المصادر على نحو موضوعي ـ نوعاً ما ـ كانت تصطدم بحكم مسبق يتمثل في أن هذا الدين المعادي للنصرانية لا يمكن أن يكون فيه خير، وهكذا كان الناس لا يولون تصديقهم إلا للمعلومات التي تتفق مع هذا الحكم المسبق، وكانوا يتلقفون منهم كل الأخبار التي تلوح لهم مسيئة إلى النبي العربي وإلى دين الإسلام»[٣].

---

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٤١ ـ ٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص٣٥.

(٣) المرجع السابق، ص٦٢ ـ ٦٣.

ـ أما الكتابات الاستشراقية في العصر الحديث والتي تناولت السيرة النبوية فهي وإن تطورت في نظرتها إلى النبي محمد ﷺ وسيرته الشريفة على نحو إيجابي مقارنة بالفترة السابقة لها، إلا أن آثار كتابات القرون الوسطى قد تظهر بين الفينة والأخرى، ومنهج التحامل يبدو أحياناً شديد الوضوح، وممن ظهرت هذه السمة في كتاباته حول السيرة النبوية:

١ ـ **خوان أندريس الإسباني (القرن السادس عشر الميلادي)**: حيث خص النبي ﷺ بفصل كامل وعدة أجزاء ومواضع من كتابه ذي الطابع الجدلي الخالص الذي يلحق صاحبه بالفكر الجدلي باستثناء اعتماده على المصادر الإسلامية من قرآن، وسُنَّة نبوية، وكتب السير، والتفاسير[١]. فهو يراهن على تحويل مسلمي الأندلس إلى النصرانية بتوضيح حقيقة الإسلام من داخل الإسلام ذاته دون اللجوء إلى المصادر النصرانية؛ لأجل سلامة الإقناع بعدم صحة الإسلام.

ولأجل ذلك يقدم النبي ﷺ انطلاقاً من بيئته الوثنية الشركية التي ولد فيها للإيحاء بعدم إمكان صحة النبوة ممن ينتمي إلى مثل تلك البيئة الوثنية، مدللاً على ذلك بحادثة وضع الحجر الأسود في مكانه من الكعبة، تلك الحادثة التي تجسد في نظره تأثير الفكر الوثني وممارساته على شعائر الحج في الإسلام.

وإذا ما انتقل إلى الوحي المحمدي، فإن ما كان يتصوره ﷺ وحياً إلٰهياً من السماء عن طريق الملك جبريل، ليس إلا أوهاماً وخيالات أوقعه فيها إدمانه للعزلة والتنسك في غار حراء. أما القرآن الموحى به إلى محمد ﷺ فليس غير تلفيق هرطقي من تعاليم اليهودية والنصرانية قام به النبي ﷺ بمساعدة نصارى مكة[٢].

٢ ـ **توماس إرينيوس الهولندي (١٦٢٤م)**. كان موقفه من الإسلام امتداداً للفكر الجدلي، فجاء رأيه في النبي ﷺ موافقاً لتلك الرؤى السائدة في أوروبا قبل عصر التنوير فرأى تعاليمه ﷺ مضحكة، وكذلك جاء رأيه في القرآن الكريم، فالقرآن وإن كان مثالاً فائقاً للغة إلا أنه من جهة المضمون تقليد مضحك للكتاب المقدس لدى النصارى[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص٧٢.

(٢) سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥١ ـ ٥٢.

(٣) تاريخ حركة الاستشراق: يوهان فوك، ص٦٧ ـ ٧٧.

٣ ـ **همفري بريدو (١٦٤٨ ـ ١٧٢٤م)**: مستشرق إنجليزي ظهر له كتاب في بريطانيا عام ١٦٩٧م بعنوان: «الطبيعة الحقيقية للخداع مجسدة بالكامل في حياة محمد».

وهو من أبرز الكتابات الجدلية في تاريخ الغرب ضد نبي الإسلام، وأكثرها فحشاً ليس في عنوانه فحسب بل في مضمونه الذي ترك تأثيراً غير محدود في أوروبا[(١)].

وفيه يزعم (بريدو) أن النبي ﷺ قد اصطنع لنفسه ديناً مزيجاً من الديانات الوثنية، ومن اليهودية، والهرطقات النصرانية المنتشرة في الشرق، وبوساطة الحيل الخادعة، والمكايد الماكرة، خدع الناس، وأغراهم بهذا الدين، مستخدماً كل ما يقدر عليه من ذلك فأطلق العنان للغرائز الشهوانية بجميع أشكالها لخدمة أغراضه، كذلك وظف داء الصرع الذي كان مصاباً به للاحتيال والإيهام بأن نوبة غيبوبة الصرع التي تنتابه هي علامة وأثر من علامات وآثار نزول الملك جبريل عليه بوحي جديد من الله[(٢)].

٤ ـ **وليام موير (١٨١٩ ـ ١٩٠٥م)**: في كتابه «حياة محمد ﷺ»، وفيه: يصف النبي ﷺ بأنه كاذب، وأنه قد ربط نفسه بالشيطان فتحول من مجرد واعظ في مكة إلى سياسي طامع في السلطة والسلطان وملذات الدنيا في المدينة[(٣)].

ـ ومع حلول القرن العشرين الميلادي شهدت الكتابات الاستشراقية حول السيرة النبوية تطوراً في الكم والكيف، فقد زاد الانتاج الاستشراقي حول الإسلام عموماً، ومن ذلك ما يتعلق بالنبي محمد ﷺ وسيرته النبوية، وكذلك من جهة الكيف والمضمون حيث شهدت هذه الكتابات تغيراً ملحوظاً فأصبحنا نشهد كتابات لمستشرقين مسلمين وزادت الكتابات المتعاطفة وتوارت لغة السب والبذاءة عن ذي قبل إذا استثنينا بعض الكُتَّاب كوليم موير، وهنري لامنس، ومرجليوث. وإن كانت سمة التحامل أصبحت تظهر في أغلب الأحيان في قالب التشكيك غير الموضوعي، والذي يهدف إلى نسف كثير من الأحداث، ومن ثم

---

(١) سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥٦.
(٢) الرسول في تصورات الغربيين: جوستاف بفانمولر، ترجمة: د.محمود زقزوق، ص١٢.
(٣) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٠.

إسقاط الرؤية الشخصية للكاتب على مجرى الأحداث دون دليل وبما يخالف في كثير من الأحيان بدهيات البحث الموضوعي، ومن تلك الشخصيات المتأثرة بهذا المنهج:

٥ ـ **ليون كايتاني (١٨٦٩ ـ ١٩٢٦م)**: ويخلص كايتاني في كتابيه: «حوليات الإسلام» و«قصة الشرق»، إلى أحكام إيجابية بشأن صدق النبي ﷺ، وإخلاصه وعدم مراعاته المنفعة والمكسب الشخصي، وحسن نيته، وتأثير حياته المذهل في الفاعلية والتغيير.

لكنه لا يتوانى عن الضرب على وتر الضعف الإنساني لدى النبي ﷺ ـ بحسب زعمه ـ والذي فتح الباب أمام حب الذات، والأخطاء الدينية، والتجاوزات الأخلاقية[١].

٦ ـ **دنكن بلاك ماكدونالد (١٨٦٣ ـ ١٩٤٣م)**: في عام ١٩١١م أصدر القس الإسكتلندي، والمنصر الشهير دنكن بلاك ماكدونالد كتابه: «أوجه الإسلام».

وفيه يظهر النبي ﷺ وليداً في بيئة جاهلة: دينياً وأخلاقياً ومعرفياً جهالة بلغت من السوء مداها، فوجدت فيه مصلحاً، وقف حياته على تطهيرها من الشرك، وتخليصها من أسباب الظلم الاجتماعي، وكذلك العوز والفقر المدقع.

ويقبل ماكدونالد دعوى محمد ﷺ تلقي الوحي، ولا يكذبه في ذلك، بل ينفي عن ذلك الوحي أي ارتباط بالشياطين أو الأرواح الشريرة. لكنه يرجع ذلك الوحي في حقيقة الأمر إلى رؤى وتخيلات تراءت للنبي وهو صادق في الإخبار عنها كما تراءت له، لكن لا رصيد لها في الواقع الحقيقي، فانتماؤها إلى عالم الرؤى والخيال والهلوسة، وليس إلى العالم الواقعي المعاش[٢].

٧ ـ **إجناس جولدزيهر (١٨٥٠ ـ ١٩٢١م)**: انتهى في كتابيه المشهورين:

ـ «محاضرات في الإسلام» الصادر سنة ١٩١٠م.

ـ «مدارس التفسير الإسلامي» الصادر سنة ١٩٢٠م.

أن دعوة النبي محمد ﷺ ما هي إلا مزيج منتخب من معارف وآراء دينية قد

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩١.

(٢) المرجع السابق، ص٩٢.

عرفها من خلال اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها، تلك المعارف التي عكف عليها بالتأمل والتمثل وهو منطو في عزلته حتى تجذرت في أعماق نفسه فصارت لديه يقيناً راسخاً في شغاف قلبه مما جعله يعدها حقيقة إلٰهية واجبة الإبلاغ والبيان، وأنه هو نفسه مأمور بإنفاذ هذا الواجب، وإبلاغ تلك الحقيقة الإلٰهية.

كما أن حياة النبي محمد ﷺ ـ في زعمه ـ لا تصلح نموذجاً أخلاقياً رفيعاً للمؤمنين به؛ لما يكتنفها من الضعف الإنساني وعدم الكمال الذي يشمل كذلك دعوة محمد ﷺ التي بدأت منقوصة في مكة، ثم اكتملت في المدينة بفعل الاحتكاك باليهود[1].

٨ ـ **بول كازانوفا (١٩٢٦م)**: يعتبر المستشرق كازانوفا من أكثر المستشرقين المعاصرين تحاملاً على العقيدة والنبوة الإسلامية. وقد بدت مرجعيته المسيحية القروسطية واضحة تماماً في كتابه: «محمد ونهاية العالم» الذي لم يوافق على منهجه فيه، ولا على نتائجه المستشرقون المعاصرون أنفسهم.

وقد سعى كازانوفا في هذا الكتاب إلى إثبات تأثر القرآن الكريم بالأناجيل بكل طريق، وركز على فكرة أحداث القيامة التي حاول أن يثبت ببحثها تحكم فكرة قرب نهاية العالم في نفسية النبي ﷺ ووقوعة تحت تأثيرها[2].

٩ ـ **سنوك هرجرونيه (١٨٥٧ ـ ١٩٣٦م)**: يعتبر المستشرق الهولندي اللاهوتي سنوك هرجرونيه خادم السياسة الاستعمارية الهولندية، والذي ينسب إليه مع جولدزيهر الفضل في إضفاء طابع التخصص على علم الدراسات الإسلامية الحديثة في الغرب.

طبق سنوك هرجرونيه منهجية تاريخية في تناول رسالة محمد ﷺ وهي منهجية (التمثيل والاستيعاب) انتهى فيها إلى النتائج ذاتها التي انتهى إليها جولدزيهر، فرسالة النبي ﷺ لديه قد استوعبت عناصرها الأساسية من الخارج، فعلى الرغم من معارضة النبي ﷺ للديانات الجاهلية، وكذلك اليهودية والنصرانية إلا أنه قد استوعبها جميعاً وتمثلها في تعاليمه[3].

---

(١) المرجع السابق، ص٩٤.

(٢) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٣) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٤.

١٠ ـ **صموئيل مرجليوث (١٨٥٨ ـ ١٩٤٠م)**: المستشرق الإنجليزي المشهور قرر في كتابه: «محمد وظهور الإسلام» أن النبي ﷺ قد ضلل الناس عمداً عندما ادعى نزول الوحي عليه[١].

١١ ـ **هنري لامنس (١٨٦٢ ـ ١٩٣٧م)**: اللاهوتي اليسوعي الكاثوليكي البلجيكي، صاحب الدراسات العديدة عن الإسلام والسيرة النبوية، والتي مارس من خلالها نفوذاً منقطع النظير على الدراسات الغربية عموماً، والكاثوليكية ـ خصوصاً ـ عقوداً طويلة من الزمن، وما يهمنا من أعماله هي: كتابه: «هل كان محمد صادقاً؟» و«فاطمة وبنات محمد» و«غرب الجزيرة العربية قبل الهجرة» و«الإسلام: عقيدة ومؤسسات» و«مهد الإسلام».

وقد تبنى لامنس في هذه المؤلفات موقفاً جدلياً خالصاً يشن من خلاله هجوماً وقحاً على شخص النبي ﷺ وعلى أصالة نبوته، وتعاليمه، وسيرته، وكذلك الهجوم على ابنته فاطمة وزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنهما[٢].

وبسبب وقاحة هذا الهجوم على النبي ﷺ، وكذلك هيمنة طروحات لامنس على الدراسات الغربية حول النبي ﷺ فقد تصدى كثير من المستشرقين لنقد لامنس[٣].

١٢ ـ **كارل بروكلمان (١٨٦٨ ـ ١٩٥٦م)**: المستشرق الألماني المشهور بموسوعته العلمية في تاريخ الأدب العربي.

لكنه ضمّن رؤيته للنبي ﷺ في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» حيث جاء فيه بما يجسد التقاليد المستقرة في الفكر الاستشراقي عموماً وفي الاستشراق الألماني خصوصاً، فالنبي ﷺ في رأي بروكلمان نتاج لبيئته الوثنية التي دفعت بعضاً من أبنائها من أصحاب النفوس الصافية إلى التفكير في المسائل الدينية، بعيداً عن العبادات الوثنية التي قصرت عن إرواء ظمأهم الروحي.

ونتيجة هذه التأملات المركزة والتفكير المستمر الذي استغرقه استحوذت عليه فكرة أنه مدعو إلى القيام برسالة الأنبياء، ونضجت تلك الفكرة في نفسه بعد

---

(١) المرجع السابق، ص٩٤.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٦.

(٣) تقدم تفصيل آراءه ونقدها ضمن مبحث المستشرقين المتحاملين على الإسلام.

أن تمثلها طويلاً متحرراً من كل المعوقات والشكوك حولها، حتى خيل إليه أن طائفاً ملائكياً (سماه فيما بعد جبريل) قد ألقى إليه رسالة من الله: بأنه نبي مبعوث لأمته بوحي إلٰهي لإخراجهم من ظلمات الوثنية[1].

١٣ ـ **ريجيس بلاشير (١٩٠٠ ـ ١٩٧٣م)**: أخرج المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير عام ١٩٥٢م كتابه: «مشكلة محمد: دراسة نقدية لحياة مؤسس الإسلام».

تبنى فيه رؤية ماسينون في حصر دور النبي ﷺ في البشارة والنذارة فقط متأسياً ومستعيراً ومستلهماً مصادر اليهود والنصارى المقدسة لديهم، وقد أعاد بلاشير في ذلك الكتاب طروحات هنري لامنس الجدلية التنصيرية المتطرفة، وخصوصاً ما يتعلق بعدم أصالة الوحي المحمدي مشككاً في سلامة نقل نصوص الوحي القرآني، ومؤكداً تأثر النبي ﷺ باليهودية والنصرانية.

ومحتوى ذلك الكتاب مضمن في المدخل الذي وضعه للقرآن الكريم وفي مقدمته وحواشيه لترجمة معاني القرآن الكريم التي نشرها بلاشير سنة ١٩٤٩م[2].

١٤ ـ **مكسيم رودنسون (١٩١٥ ـ ٢٠٠٤م)**: مستشرق فرنسي معاصر، وقد صدر كتابه: «محمد» في باريس عام ١٩٦٥م، وفي النسخة الإنجليزية أطلق عليه: «محمد نبي الإسلام».

قدم رودنسون بعض البوادر الإيجابية في إطار رؤيته لنبوة محمد ﷺ ومظاهر وحيه، فهو يرفض جميع الأدبيات والبحوث الغربية التي تتهم النبي ﷺ بالكذب والاحتيال والخداع، ثم ينتهي إلى جوهر رؤيته المتمثل في[3]:

أ ـ نفي الأصالة عن الوحي القرآني، وأنه يكوِّن كتاباً إلٰهياً.

ب ـ الإصرار على أن النبي محمد ﷺ لم يأت بدين جديد، وأنه محصور في زاوية الإنذار والبشارة فحسب، أما الاعتقاد فمرجعه إلى ديانات سابقة خصوصاً عبادة الأوثان.

---

(١) انظر: محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠١ ـ ١٠٤، وكارل بروكلمان في الميزان: شوقي أبوخليل. وافتراءات فيليب حِتّي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي: عبد الكريم علي باز.

(٢) المرجع السابق، ص١٠٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٠٩.

١٥ ـ **فرانسيسكو جابريلي**: في عام ١٩٦٧م ظهر للإيطالي فرانسيسكو جابريلي كتاب بعنوان: «محمد والعالم العربي»، وفيه[١]:

جعل من شمائل النبي ﷺ ومعجزاته خصوصاً الإعجاز القرآني، ضرباً من تأثير الأسطورة في حياة المسلمين الذين استندوا إلى الحكايات والقصص الشعبية في بناء اعتقادهم في شخص نبي الإسلام وسيرته، مما جعلهم يحولونه إلى شخصية مثالية في جانب المعجزات المتحققه له، والسلوك الأخلاقي، والعصمة من الذنوب، بل قادتهم تلك الأساطير إلى جعله كائناً فوق طبيعي وجوده في العالم يسبق وجوده التاريخي؛ إذ يبدو كما يظهر في كتابات الشيعة والصوفية، حقيقة حاضرة إلى جوار الحضرة الإلٰهية قبل خلق العالم.

وبذلك يكون جابريلي قد نزع عن نبوة محمد رسول الله ﷺ وسيرته، أصالتها وحقيقتها التاريخية، وألحقها بعالم الأساطير والقصص الشعبي المتطور بفعل التناقل والسرد.

ولا يفيد النبي ﷺ بعد ذلك أن يثبت له جابريلي، صدق الاعتقاد في الاتصال بالسماء؛ لأنه يقيد ذلك بكون رسالته ﷺ قومية عربية مرتبطة باليهودية والنصرانية اللتين تشكلان الأساس الذي أقام عليه النبي ﷺ رسالته.

١٦ ـ **مايكل كوك**: المستشرق الإنجليزي أصدر في سنة ١٩٨٣م كتاباً بعنوان: «محمد». يعد الكتاب محاولة علمية زائفة للتحقق من افتراض المؤلف أن تحول شبه الجزيرة العربية إلى المسيحية لم يكن إلا مسألة وقت، وذلك بسبب تأثر العرب بالطوائف المسيحية القائلين بالطبيعة الواحدة: الطبيعة الإلٰهية للمسيح سواء في صورته اليعقوبية أو النسطورية إلى جانب تأثير الوجود القوي لليهودية في الحجاز واليمن وفلسطين.

وبالتالي قدم مايكل كوك تفصيلات حياة النبي ﷺ وتنزل الوحي القرآني عليه وقيامه بالبلاغ، ونشر الإسلام وبناء الدولة الإسلامية كما عرضت ذلك المصادر الإسلامية، قدم ذلك كله على أنه موروث ثقافي يحتاج إلى التوثيق والتفسير.

وهو يطبق ذلك المعيار النقدي على القرآن، ويخلص منه إلى أن القرآن قد

(١) المرجع السابق، ص١١١.

تعرض لعملية تحرير نتج منها حذف وإضافة وبسط واختصار وتقديم وتأخير في الآيات.

وينتهي مايكل كوك إلى أهمية المصادر غير الإسلامية وتقديمها على المصادر الإسلامية، أما تعاليم النبي ﷺ فيخضعها لمنهجية النقد التاريخي ـ فيما يعد إعادة لمنهج جولدزيهر ونتائجه ـ[1].

ـ هذه أبرز الدراسات التي أشرنا إلى تحاملها في تناول شخصية النبي محمد ﷺ وسيرته في العصر الحديث.

ثانياً: المستشرقين المتعاطفين:

وهذه السمة في كتابات بعض المستشرقين عن السيرة النبوية لا تعنى بالضرورة أن هذه الدراسات ستقدم رؤية منصفة في جميع جزئياتها وبحوثها، فهذا أمر متعذر عند من يستقرء تاريخ الاستشراق وكتابات المستشرقين حول الإسلام ونبيه ﷺ، بل إن المقصود هو احتواء هذه الدراسات على جوانب منصفة أو لنقل متعاطفة في أجزاء منها، تستحق أن تبرز وتظهر لتكون حجة في وجه الدراسات المتحاملة والتي لم تر في جوانب السيرة النبوية إلا ما هو سلبي، ولعل من أظهر الشخصيات الاستشراقية التي ظهر في تناولها للسيرة النبوية جوانب من الإنصاف والموضوعية، ما يلي:

١ ـ **أدريان ريلاند (١٦٧٦ ـ ١٧١٨م)**: المستشرق الهولندي، أصدر كتابه عام (١٧٠٥م) وعنوانه «الديانة المحمدية».

وقد سعى فيه نحو تصحيح المفاهيم المغلوطة عن الإسلام، وتحجيم دور الأساطير والخرافات المسيطرة على الدراسات الإسلامية في الغرب فيما يتعلق بالإسلام ونبيه محمد ﷺ خصوصاً، فبدأ أولاً بتقديم المعتقدات والتعاليم الإسلامية اعتماداً على المصادر العربية واللاتينية، ثم عمد إلى تصويب الآراء الخاطئة المثارة حول الإسلام ونبيه في الغرب مبيناً:

أن الإسلام قد تعرض في الغرب إلى ما لم يتعرض له دين آخر في العالم من الاحتقار والتشويه بكل مفردات أوصاف السوء إلى حد أن تحول الإسلام إلى لفظ سباب وشتم، فتوصف النظرية المذمومة بأنها نظرية محمدية.

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١١٩.

وينتهي ريلاند إلى أن مطالعة المؤلفات العربية تبرهن على أن المسلمين ليسوا مجانين كما يظن الغربيون، وأن الدين الذي استطاع الانتشار والتوسع بعيداً في آسيا وأفريقيا وأوروبا يستلزم أن يكون على قدر عظيم من الصدق[١].

٢ ـ **سيمون أوكلي (١٦٧٨ ـ ١٧٢٠م)**: في عام ١٧١٨م طبع الإنجليزي سيمون أوكلي كتابه: «تاريخ السرازنة».

الذي أصبح مصدراً أساسياً لدارسي الإسلام ونبيه ﷺ في بريطانيا، وقد حاول أن يكون حراً وعادلاً في تناوله لشخص النبي ﷺ بتجنب النمط الجدلي الغربي التقليدي في الحكم على النبي ﷺ، لكنه لم يستطع أن ينعزل عن تحزبه القومي الغربي، فلم يزد عن مجرد إبداء الإعجاب بشجاعة النبي ﷺ واختلافه وقومه عن غيرهم من الغزاة من جهة الإنصاف وحسن المعاملة؛ لذلك فإن التعبير الذي تواتر في أكثر من موضع في كتابه؛ وبأكثر من صيغة: محمد المخادع الأكبر.

كما أنه يُرجع ما عرف عن النبي ﷺ من شمائل طيبة وصفات حميدة إلى التظاهر الذي يخفي وراءه حقيقة النبي التي تحكمها دوافعه النفسية من الطموح، والطمع، والشهوة.

ورغم ما جاء في كتاب أوكلي ضد النبي ﷺ إلا أنه لم يسلم من الانتقاد من بيئته المحيطة به لأنه لم يصور الإسلام على أنه دين السيف، ولكنه حاول أن ينظر إلى الجهاد من وجهة نظر المسلمين[٢].

٣ ـ **هنري بولاين فيليه**: أخرج الكونت الفرنسي هنري بولاين فيليه سيرة للنبي ﷺ عام ١٧٣٠م في باريس بعنوان «حياة محمد».

وقد قدم بولاين فيليه النبي ﷺ في كتابه على أنه: رجل حكيم من رجال التشريع العقلاني مثل ذلك النمط من العقلانيين الذين عرفهم عصر التنوير الأوروبي، وإلى جانب شخصية العقلاني المبشر بعصر العقل، فإن بولاين فيليه أضاف إلى شخصية النبي ﷺ دور البطولة العسكرية في نمطها ومثالها الأوروبي: يوليوس قيصر، والإسكندر الأكبر.

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٧٧. وانظر: سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١١ ـ ١٣.

(٢) سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥٧، والمستشرقون: للعقيقي (٢/ ٤٦).

واتفق بولاين فيليه في نظرته إلى النبي ﷺ مع النظرة الأوروبية القروسطية التقليدية في أنه ﷺ قد ابتدع ديناً من أجل أن يحقق رغبته في التسلط وسيادة العالم.

لكنه خالف التقاليد الأوروبية في جعل الإسلام ديناً طبيعياً منبت الصلة بالوحي والتنزيل الإلٰهي، فكانت المرة الأولى التي يُصور فيها النبي ﷺ ليس في صورة المهرطق صاحب البدعة المنشق عن المسيحية، بل بصورة المهتدي بالعقل وحده إلى الله[(١)].

وعندما نشر بولاين فيليه كتابه أخذ عليه المتعصبون من أهل ملته أنه يتحدث عن محمد ﷺ باعتباره رسولاً للعناية الإلٰهية[(٢)]، بينما ذهب البعض الآخر إلى أنه مال إلى المبالغة بسبب ميول ذاتية ونوازع معادية للكنيسة[(٣)].

٣ ـ **جورج سال (١٦٩٧ ـ ١٧٣٦م)**: أصدر الإنجليزي جورج سال ترجمته للقرآن عام ١٧٣٤م ذات العنوان الموجه والفاضح لطبيعة الترجمة منذ البدء: «القرآن أو قرآن محمد» تلك الترجمة ذات التأثير البالغ في معاصري سال وما بعده حتى اليوم.

في مقدمة الترجمة عرض جورج سال لشخص النبي ﷺ وطبيعة رسالته، فقدم محمداً ﷺ على أنه رجل اتصف بنوع من الحكمة التي مكنته من وضع قانون ينظم حياة العرب، ويستدل جورج سال على أن رسالة محمد ﷺ لم تكن سوى ابتكار بشري، بأنها تدين بنشوئها وتطورها إلى السيف وحده[(٤)].

يقول بفانموللر عن ترجمة سال: «حاول في البداية تقدير محمد تقديراً عادلاً، ولكنه لم ينجح في القضاء على الأحكام السابقة السائدة، فقد ظل محمد مدة طويلة ينظر إليه على أنه مضلل»[(٥)].

٤ ـ **المستشرق الأمريكي واشنطن إيرفنج (١٧٨٣ ـ ١٨٥٩م)**: تطابقت أفكار إيرفنج في كتابه «حياة محمد» مع بعض أفكار الكُتَّاب والمستشرقين

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص.٧٨

(٢) الشرق والغرب في نظر جوته: عبد الرحمٰن صدقي، ص٢١.

(٣) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٣ ـ ١٤.

(٤) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٧٩. وانظر: المستشرقون: للعقيقي (٢/ ٤٧).

(٥) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٥.

السابقين ممن كانت لهم بعض الآراء المنصفة، ومع ذلك فقد كان لإيرفنج آراؤه التي لا يوافق عليها[١].

من أبرز النتائج المنصفة التي توصل إليها إرفنج ما يلي:

ـ أن النبي ﷺ لم يحصل على أي فائدة شخصية له من عبء النبوة الذي نزل عليه.

ـ أن النبي ﷺ كان يشعر بصدق روح الإلهام الإلٰهي الذي يتلقاه قبل أن يشارك هذا الأمر مع الآخرين.

ـ كانت الصلاة هي سبيل استعادته للنشوة السماوية بين فواصل نزول الوحي، ولذلك حببت له بقدر ما أحب من طيبات هذا الوجود، ونتج عن كل هذا ـ كما يرى ـ إيرفنج إتكالية الرسول ﷺ المطلقة على الله تعالى.

ـ رأى إيرفنج ارتفاع الرسول ﷺ عن كل مطلب مادي نتيجة هذا الوحي الذي جعله يرتفع ويرقى بفهم الألوهة المطلق نحو الإطلاق، فليس من العدل بحق هذا الملهم ـ الرسول ﷺ ـ اتهامه بأنه أسير رغباته، والتي لم يبرز منها عنده إلا حبه للنساء ﷺ ليفرغ نحو توجهاته المطلقة بعيداً عن أسر صراع الحاجة والدافع.

ـ قرر إيرفنج أنه من الصعب على المنكرين لرسالته ﷺ إنكار صدق توجهاته وسموها، أو إنكار عظمة ثمار هذه التوجهات التي قدمها للبشرية، فلم يبق أمامهم إلا اعتبار شخصيته أسيرة هلوسة مرضية عبقرية، لكنه لم يبين موقفه من هذه المسألة.

ـ أثنى كثيراً على سلوك النبي ﷺ وتعامله مع الناس كما مدح صفات النبي ﷺ الشخصية؛ كالعدل، والذكاء، والتواضع والزهد بالدنيا إلى غير ذلك[٢].

٥ ـ **كوسان دي برسيفال (١٧٩٥ ـ ١٨٧١م)**: أستاذ العربية في معهد فرنسا ومن بحوثه: وقعة بدر ـ مرحلة من حياة الرسول ـ ضمن المجلة الأسبوعية سنة

---

(١) انظر: الاستشراق الامريكي والسيرة النبوية: إرفنج نموذجاً، سامي أحمد الزهو، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي من كلية التربية بجامعة تكريت، العراق، سنة ٢٠٠٦م.

(٢) محمد وخلفاؤه: واشنطن إيرفنغ، ترجمة ومقارنة: د. هاني يحيى نصري، ص١٥ ـ ٥٧.

١٨٣٩م، وباكورة في تاريخ العرب في ثلاثة مجلدات سنة ١٨٤٧م، وقد تناول فيه: العرب قبل الإسلام، ثم عصر النبوة، ثم انضواء القبائل تحت راية الإسلام[١].

يعرض بفانموللر لكوسان دي برسيفال بعد حديثه عن جوستاف فايل بقوله: «ومنذ ذلك الوقت بدأ محيط العلماء يزداد ميلاً إلى ذلك التقدير (للنبي ﷺ) وهكذا يوضح كوسان دي برسيفال في مقالاته أنه من غير المعقول ألا يستطيع المرء أن يرى في محمد إلا مخادعاً ذكياً أو عبقرية طموحة. لقد كان محمد ـ حسب رأي برسيفال ـ على وجه الخصوص إنساناً مقتنعاً بأنه قد انتدب لتخليص شعبه من الضلال والعمل على إحيائه[٢].

٦ ـ **المستشرق الإنجليزي توماس كارليل (١٧٩٥ ـ ١٨٨١م)**: بينما كان عصر التنوير يرى في النبي ﷺ مشرعاً من خارج الوسط المسيحي، ومن ناحية أخرى خارجاً على القانون، وسافكاً للدماء، إذ خرج صوت قوي على ذلك التقليد عام ١٨٤٠م، وقدم النبي ﷺ في صورة غير مألوفة عند الغربيين، ألا وهو توماس كارليل في كتابه عن: «الأبطال وعبادة البطل والبطولة في التاريخ».

قدم توماس كارليل النبي ﷺ لأول مرة في الغرب ليس بوصفه دجالاً كاذباً وسافكاً للدماء، وإنما بوصفه بطلاً نبياً استحق أن يوضع في سلسلة أبطال العالم وعباقرته العظماء، بسبب أعماله التي بوأته تلك المكانة بحسب معايير البطولة والعظمة التي حددها كارليل في ثلاثة معايير:

أولها: الصدق في القول. **والثاني**: الإخلاص في العمل لتحقيق الرسالة والهدف. **والثالث**: مدى تأثير البطل وامتداد إنجازاته وتأثيره المستمر في التاريخ الإنساني.

ولا شك أنها كانت المرة الأولى التي يقرع فيها آذان الغرب صوت يضع محمداً ﷺ في مصاف الأبطال حتى وإن كانت البطولة وفق معايير وضعية، وعلى أسس وقواعد انتقائية: كن حراً، كن صادقاً، كن مخلصاً.

في إطار هذا النسق أورد كارليل العديد من الآراء التي تقدم مناقشتها ضمن المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام.

---

(١) المستشرقون: للعقيقي (١/١٧٧).

(٢) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٨.

٧ ـ **فرانتس بوهل (بول) (١٨٥٠ ـ ١٩٣٢م)**: المستشرق الدنماركي صاحب السيرة المستفيضة ذات المصادر العلمية الغزيرة عن النبي ﷺ والتي تعد في طبعتها الألمانية ١٩٣٠م أكبر مؤلف عن حياة محمد ﷺ في القرن العشرين الميلادي قبل صدور سلسلة أعمال مونتغمري وات.

عمل فرانتس بول جاهداً على تصوير الضعف الإنساني في حياة النبي ﷺ كما فعل كايتاني من قبل، لكنه يبرز كذلك صراحة النبي ﷺ وصدقه وعظمة شخصيته التي ظهرت من خلال حياته العملية، وأيضاً عقليته وبصيرته النافذة التي تظهر في اختياره أبا بكر وعمر رضي الله عنهما واصطفاءهما ليكونا عوناً له في حياته وبعد مماته.

وإن كان قد ذهب إلى أن الوحي المحمدي في الفترة المدنية لم يكن بتلك الدرجة الكافية من الثقة نتيجة تفكير محمد ﷺ العميق في حلول المشكلات التي تواجهه، واستعانته بمعاونيه ومستشاريه[1].

٨ ـ **المستشرق الإنجليزي رونالد فيكتور بودلي**: ألف كتابه في سيرة النبي محمد ﷺ وسماه: «الرسول: حياة محمد» وطبع في سنة ١٩٤٦م.

رغم تشكيك بودلي في ألوهية الوحي، ونبوة محمد ﷺ إلا أن كتابه قد تضمن بعض الجوانب الإيجابية، ومنها:

أ ـ ذكر في مقدمته للكتاب أن سيرة الرسول ﷺ تعرضت لسوء فهم كبير من قبل الغربيين، وأنه لا يوجد أحد كتب أصحابه سيرته كمحمد ﷺ، كما أن القرآن اليوم هو كما أملاه محمد ﷺ في حياته.

ب ـ بيَّن أن السيرة النبوية تمتاز بأنها استمدت معلوماتها ممن عاصروا الرسول ﷺ، ولهذا يصف المسلمون الرسول ﷺ وأفعاله وحياته أفضل مما يصف جامعي من أكسفورد الحياة في عصر إليزابيث، وأبسط من كتابة مؤرخ أمريكي عن الولايات المتحدة قبل حرب الاستقلال.

ت ـ أكد أن كتابه هذا أفضل من كثير من الكتابات الغربية بفضل ممارسته للعيش في جوف الصحراء مثلما فعل محمد ﷺ في القرن السابع الميلادي ثم استعرض بعضاً من الكتابات الغربية حول محمد ﷺ وانتقدها.

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٢.

ث ـ أثنى كثيراً في مواضع مختلفة من كتابه على الصفات الإنسانية للنبي ﷺ، وعلى أهمية المنزلة التي يحتلها في قلوب أتباعه، وأيضاً سهوله التعاليم التي جاء بها والتي لا توجد في جميع الديانات الأخرى حتى المسيحية منها.

ج ـ دفاعه عن صدق النبي ﷺ فيما يخبر به، وثقته بأن ذلك من عند الله، رغم أنه في مواطن أخرى يشكك في كون مصدر الوحي إلاهياً[(١)].

٩ ـ **رودي باريت (١٩٠١ ـ ١٩٨٢م)**: في النصف الثاني من القرن العشرين الميلادي أصدر الألماني رودي بارت عام ١٩٥٧م كتاباً بعنوان «محمد والقرآن: تاريخ النبي العربي ودعوته».

وقد حقق الكتاب من الشهرة والانتشار قدراً واسعاً جعل طبعاته تتوالى؛ ربما بسبب شهرة صاحبه بوصفه مترجماً للقرآن الكريم، وربما لكونه يمثل خلاصة ما استقرت عليه المدرسة الألمانية خصوصاً والأوروبية عموماً، من فكر ومنهجية في تناول حياة النبي محمد ﷺ ورسالته.

رغم محاولة باريت في مواضع من كتابه مستميتاً إثبات تبعية الإسلام لليهودية والنصرانية إلا أن كتابه لا يخلو من مواضع منصفة، ومنها:

أ ـ نقده لمونتغمري وات في قوله: إن الحالة الدينية في مكة هي التي كونت فكرة الدين لدى محمد ﷺ.

ب ـ نقده لبعض المستشرقين في دعواهم أن المشكلات الاجتماعية كانت هي السبب الرئيس لدعوة النبي ﷺ إلى الإسلام.

ت ـ رده على بعض دعاوى المستشرقين في سوء معاملة النبي ﷺ لليهود.

ث ـ كلامه المنصف في أسباب تعدد زوجات النبي ﷺ ورده على المفكرين الغربيين في ذلك.

ج ـ ثناؤه على الصفات الشخصية للنبي ﷺ من التدين والصدق والنزاهة والثقة في دعوته[(٢)].

---

(١) الرسول: حياة محمد: ر.ف. بودلي، ترجمة: محمد محمد فرح وعبد الحميد جودة السحار، ص٦ ـ ١٦.

(٢) محمد والقرآن: دعوة النبي العربي ورسالته: رودي باريت: ص٣٦، ٦١، ١٨٦، ٢٤٥.

١٠ ـ **مايكل هارت (ولد عام ١٩٣٢م)**: المستشرق الأمريكي الذي نشر في سنة ١٩٧٨م كتابه الشهير: «المائة: ترتيب للأشخاص الأكثر تأثيراً في التاريخ».

والكتاب يعتبر علامة فارقة في الدراسات الغربية حول شخصية النبي ﷺ، ومن أكثرها إنصافاً وعدلاً في الحكم على مكانة النبي ﷺ التي يجب أن يتبوأها، فقد وضع هارت النبي ﷺ في المرتبة الأولى ضمن أكثر الشخصيات تأثيراً في التاريخ، وقد كان لهذا الاختيار ما يسوغه كما بيَّن ذلك في مقدمة حديثه عن النبي ﷺ[1].

ونستطيع أن نتبين أسباب هذا الاختيار من كلام هارت نفسه، والتي تتلخص ـ من وجهة نظره ـ فما يلي:

١ ـ نجاحه ﷺ على المستوى الديني والعسكري والسياسي وتأثيره القوي فيمن بعده[2].

٢ ـ تغلبه ﷺ على الظروف الصعبة التي واجهته في سبيل نشر الدعوة[3].

كما أشار المؤلف إلى الصعوبات التي واجهها النبي ﷺ من جهة النشأة، والتي لا يتغلب عليها إلا صاحب شخصية فذة، فقد (مات أبوه وهو لم يخرج بعد الى الوجود، وأمه وهو في السادسة من عمره، وكانت نشأته في ظروف متواضعة، وكان لا يقرأ ولا يكتب. ولم يتحسن وضعه المادي إلا في الخامسة والعشرين من عمره عندما تزوج أرملة غنية. ولما قارب الأربعين من عمره كانت هناك أدلة كثيرة على أنه ذو شخصية فذة بين الناس»[4].

ومن ذلك أيضاً أن «البدو من سكان شبه الجزيرة مشهورين بشراستهم في القتال، وكانوا ممزقين أيضاً، رغم أنهم قليلو العدد، ولم تكن لهم قوة أو سطوة العرب في الشمال الذين عاشو على الأرض المزروعة.

ولكن الرسول استطاع لأول مرة في التاريخ، أن يوحد بينهم وأن يملأهم بالإيمان، وأن يهديهم جميعاً بالدعوة إلى الإله الواحد. ولذلك استطاعت جيوش

---

(١) الخالدون مائة، أعظمهم محمد رسول الله ﷺ: مايكل هارت، ترجمة: أنيس منصور، ص١٣.
(٢) المرجع السابق، ص١٣.
(٣) المرجع السابق، ص١٣ ـ ١٤.
(٤) المرجع السابق، ص١٤.

المسلمين الصغيرة المؤمنة أن تقوم بأعظم غزوات عرفتها البشرية، فاتسعت الأرض تحت أقدام المسلمين من شمالي شبه الجزيرة العربية، وشملت الإمبراطورية الفارسية على عهد الساسانيين، وإلى الشمال الغربي اكتسحت بيزنطة والإمبراطورية الرومانية الشرقية[١].

وقد تقدم ضمن المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام عرض أبرز آراء هارت المنصفة مع بيان الأسباب التي دعته لتفضيل شخصية النبي ﷺ وجعله الشخصية الأولى متقدماً على غيره من مشاهير التاريخ.

١١ ـ **كارين أرمسترونج:** في عام ١٩٩٢م أصدرت الإنجليزية كارين أرمسترونج كتابها: «سيرة النبي محمد».

والكتاب يبرز من جهة صوت الفكر الإنساني الحر في محاولته مقاومة تأثير المفاهيم المغلوطة والأساطير المختلفة، مما يتوجب معها ضرورة التصدي لتصحيح تلك المفاهيم، ودحض تلك الأساطير التي أصبحت لها مصداقية الحقائق التاريخية.

ومن جهة أخرى فإن الكتاب لا يخلو من تأثير الموروث الحضاري والفكري والديني المسيحي في توجهات العقل الإنساني الواعية واللاواعية للكاتبة، مما ساهم أحياناً في الحيلولة دون وصول العقل إلى الموضوعية الخالصة.

ورغم أن الكتاب لا يقدم معلومات جديدة عن حياة محمد ﷺ، فالكاتبة تعتمد بشكل أساس على المعلومات التي تستقيها من ترجمات وسير النبي ﷺ الأولى؛ إلا أن الكتاب مثال لأسلوب الخطاب والتخاطب وسبل الإقناع للقارئ الغربي، وذلك لأن الكاتبة تضع في بؤرة شعورها نفسية ووجدان وأسلوب تفكير المتلقي وإحساسه بذاته، كما أن رؤية الكاتبة تبرهن على أن الكاتب لكي يقنع فعليه أولاً أن يقتنع، والإنسان لن يقتنع، ولن تواتيه فرصة الرؤية الموضوعية إلا إذا خلص نفسه من المسلمات والتحيزات والأفكار المسبقة وجرد نفسه من رواسب التنشئة، وعوائق اللاوعى الفردي والجماعي.

والكاتبة بعرضها لحياة محمد ﷺ تبين لبعض الغربيين أن كراهيتهم

(١) المرجع السابق، ص١٥.

وعداءهم لمحمد وللإسلام والمسلمين، ومرادفتهم لهم بالعنف والهمجية والتخلف والشهوانية يناقض ما يدعيه الغرب من عقلانية، ومن تسامح فكري وعقائدي[1].

وقد تقدم الحديث عن آراء أرمسترونج في كتابها «سيرة النبي محمد» ضمن المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام مع بيان سمة الإنصاف والتعاطف في كتاباتها من خلال مواقف كثيرة عرضت لها ضمن الحديث عن سيرة النبي ﷺ.

(١) سيرة النبي محمد، ص٦ ـ ٧.

المطلب الثاني

السيرة النبوية كمصدر للكتابة عن النبي ﷺ

بالإضافة إلى ما توافر في القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية من ذكر لأحداث السيرة النبوية، فقد تناقل المسلمون سيرة النبي ﷺ شفاهاً ثم تدويناً عبر مراحل تاريخية عدة، ومن أهم جهودهم فيها المدونات التي تناولت السيرة النبوية، والتي مرت بمرحلتين في الظهور(١):

١ ـ **المرحلة الأولية:** عن طريق الرواية الشفهية، ثم عن طريق التدوين الأولي للسيرة.

٢ ـ **المرحلة التالية:** عن طريق التأليف والتدوين في كتب خاصة، ومختصة بالسيرة النبوية، ومن أجل ذلك لا بد أن نقف على كل مرحلة لنرى مدى الاهتمام بسيرة المصطفى ﷺ.

أولاً: المرحلة الأولية:

وهي مرحلة اهتمام الصحابة وبعض التابعين بسيرة الرسول ﷺ. حيث عاش صحابة رسول الله ﷺ في كنف الرسول، فتأدبوا بآدابه، وتخلقوا بأخلاقه، وعايشوه في جميع أمور حياته القولية والفعلية، وشاركوه في بعوثه وسراياه، وغزواته، وعرفوا عن قرب منه سيرته الذاتية في أزواجه، وذراريه، ومسكنه، وملبسه، ومأكله، وفراشه، وفي نومه، وفي صلاته وعبادته، ونظافته وكل شؤون حياته، لذلك «فالصحابة على علم دقيق وواسع بالسيرة؛ لأنهم عاشوا أحداثها، وشاركوا فيها، وكانت محبتهم لرسول الله وتعلقهم به، ورغبتهم في اتباعه،

---

(١) انظر فيما يأتي: مصادر السيرة النبوية: د. ضيف الله الزهراني، ص١١ وما بعدها.

وأخذهم بسُنَّته في الأحكام، سبباً في ذيوع أخبار السيرة، ومذكراتهم فيها، وحفظهم لها... فقد اشتهر عدد من الصحابة باهتمامهم الكبير بموضوع السيرة»[١]. ونذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

١ ـ عبد الله بن عباس رضي الله عنه، فقد كان يروي للناس مغازي الرسول ﷺ[٢].

٢ ـ عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، «الذي كان من أبرز الصحابة اهتماماً بتدوين أحاديث الرسول ﷺ حتى إنه كان يكتب كل ما يسمع من رسول الله ﷺ»[٣].

٣ ـ البراء بن عازب رضي الله عنه، فقد أملى في مجلسه العلمي شيئاً كثيراً من مغازي رسول الله ﷺ، وخاصة فيما يتعلق بالهجرة النبوية، وبعض الغزوات؛ كغزوة بدر وأُحد، والخندق، والحديبية، وفتح مكة، وحنين[٤].

هؤلاء الثلاثة هم الذين ورد ذكرهم من حيث الاهتمام بسيرة الرسول ﷺ وإملاؤها على تلاميذهم، وأتباعهم، والناس كافة، فحفظوا لنا شطراً كبيراً ومهماً من أخبار السيرة النبوية.

أما جيل التابعين، فقد برز منهم عدد غير قليل في الاهتمام بأحداث السيرة، ونذكر منهم على سبيل المثال.

١ ـ عروة بن الزبير (ت٩٣هـ)، أحد الفقهاء السبعة المشهورين في المدينة، وقد اهتم بأخبار السيرة النبوية اهتماماً كبيراً، وكان كثير الحديث، وقد نقل عنه الطبري في كتابه «تاريخ الرسل والملوك». وابن حجر في كتابه «فتح الباري».

وقد امتدحه ابن كثير بقوله: «كان عروة فقيهاً عالماً حافظاً ثبتاً حجة عالماً بالسير، وهو أول من صنف في المغازي»[٥].

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم العمري (١/ ٥٣).
(٢) الطبقات الكبرى: لابن سعد (١/ ٣٦٨).
(٣) منهج كتابة التاريخ الإسلامي: محمد بن صامل السلمي، ص٢٩٥.
(٤) مغازي رسول الله لعروة بن الزبير: محمد مصطفى الأعظمي، ص٢٥ ـ ٢٦.
(٥) البداية والنهاية (٩/ ١٠١).

ومنهجه في كتابه «المغازي»، يتمثل فيما يلي: الاستشهاد بالآيات القرآنية، ويستعمل الأشعار لكن بقلة، ويهتم كثيراً بالأنساب، وله عناية بإيراد الوثائق والكتب التي كتبها رسول الله ﷺ، كما أنه قليل الاستعمال للأسانيد[١].

٢ ـ عامر بن شراحيل الشعبي (ت١٠٣هـ). وهو محدث ثقة، ألف كتاب «المغازي»، وكان يحدث الناس من خلاله وقد مر على مجلسه عبد الله بن عمر فقال: «قد شهدت القوم فهو أحفظ لها وأعلم بها»[٢]. وكان ينقل أخبار سيرة الرسول ﷺ بكل صدق وأمانة، فقد وصف بأنه محدث ثقة[٣].

٣ ـ أبان بن عثمان بن عفان رضي الله عنه (ت١٠٥هـ). تولى ولاية المدينة المنورة مدة سبع سنوات في خلافة عبد الملك بن مروان وقد اهتم بأخبار غزواته وسراياه ﷺ، وقد أخذ عنه المغيرة بن عبد الرحمٰن مغازي رسول الله ﷺ، فكان أبان بن عثمان يعلمها للناس ويأمرهم بتعليمها[٤].

٤ ـ محمد بن مسلم بن شهاب الزهري (ت١٢٤هـ)، وهو من كبار المحدِّثين الذين اهتموا بالمغازي وبسيرة الرسول ﷺ، وهو ثقة، «وهو أول من استخدم طريقة جمع الأسانيد ليكتمل السياق وتتصل الأحداث دون أن تقطعها الأسانيد»[٥]، وتعد كتاباته أول كتابات في السيرة[٦]، «وهي من أوثق السير وأهمها، ويعتمد عليه ابن إسحاق كثيراً في السيرة»[٧].

٥ ـ عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري (ت١٢٩هـ)، تربى في بيت علم وأدب، فجدُّه كان من صحابة رسول الله ﷺ، ووالده من العلماء الأفذاذ، وهو نقل عن جده ووالده، «فكان راوياً للعلم، وله علم بالمغازي والسير، كان يجلس في مسجد دمشق، ويعلم الناس بالمغازي، وكان من المصادر المهمة التي اعتمد

---

(١) منهج كتابة التاريخ، ص٢٩٨.
(٢) تهذيب التهذيب، ابن حجر (٥/ ٦٧).
(٣) منهج كتابة التاريخ، ص٢٩٦.
(٤) الطبقات الكبرى: لابن سعد (٥/ ٢١٠).
(٥) السيرة النبوية الصحيحة: د.أكرم العمري (١/ ٥٥).
(٦) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي (١٢/ ٢٣٠).
(٧) مناهج المؤلفين في السيرة النبوية: سعد المرصفي، ص٤٦.

عليها ابن إسحاق والواقدي»[١].

٦ ـ موسى بن عقبة (ت١٤٠هـ)، له كتاب في «المغازي» يقع في مجلد مختصر، ويعده العلماء من أصح كتب المغازي[٢]، وهو محدث ثقة، يعد من تلاميذ الزهري، لذلك فقد استفاد منه فائدة كبيرة[٣].

٧ ـ محمد بن إسحاق (ت١٥١هـ)، أصله فارسي، تربى وتلقى العلم في المدينة المنورة، «ورأى محمد بن إسحاق أنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، وسمع القاسم بن محمد بن أبي بكر، وأبان بن عثمان بن عفان، والزهري، وأبا سلمة بن عبد الرحمٰن بن عوف، وعبد الرحمٰن بن هرمز الأعرج، وقد روى عنه الأئمة الكبار: يحيى بن سعيد الأنصاري، وسفيان الثوري، وابن جريج، وشعبة، والحمادان، وسفيات بن عيينة وآخرون»[٤].

ويعد ابن إسحاق من أعلم الناس بالمغازي، وكتابه «المغازي» كان المصدر الخصب، والمادة الأساسية لكل من يكتب أو يتحدث في السيرة، ويندر جداً أن تجد مؤلفاً بعده يتعرض للسيرة ولا ينقل عن ابن إسحاق.

وقد كانت عدالة محمد بن إسحاق بين أخذ ورد، فقد روى له الإمام مسلم في صحيحه مقروناً بآخر كما روى عنه أصحاب السنن الأربعة، وعلق له البخاري في صحيحه ولكنه لم يسلم من غوائر الجرح الشديد، وكان يتصدر الجارحين الإمام مالك بن أنس وهشام بن عروة، ومع كل هذا فقد عده كثيرون عالماً جهبذاً، بل قال فيه شعبة بن الحجاج: هو أمير المؤمنين في الحديث، وأثنى عليه الزهري، وما اتهمه به مالك من الدجل ومثله عروة لم يسلم به لهما، ولم يرتضيه كثير من الأعلام.

وقد أنصف الحافظ أبو أحمد ابن عدي بشأن حجية ابن إسحاق فقال: «وقد فتشت أحاديثه، فلم أجد في أحاديثه ما يتهيأ أن يقطع عليه بالضعيف، وربما أخطأ، أو وهم، كما يخطئ غيره، ولم يتخلف في الرواية عنه الثقات

(١) المرجع السابق، ص٤٦.

(٢) سير أعلام النبلاء، الذهبي (٦/ ١١٥ ـ ١١٧).

(٣) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٥٥ ـ ٥٦).

(٤) مصادر السيرة وتقويمها: فاروق حماده، ص٨٩.

والأئمة وهو لا بأس به»[١]. وهذه الشهادة مهمة ليس لمكانة ابن عدي فقط وتشدده في التوثيق، بل لأنها مبنية على سبر الروايات وليس على نقل أقوال النقاد القدامى فقط[٢].

وقد أجاد الحافظ الذهبي في بيان مرتبة حديثه فقال: «وله ارتفاع بحسبه، ولا سيما في السير، وأما في الأحكام فينحط حديثه فيها عن رتبة الصحة، إلا فيما شذ فيه فإنه يعد منكراً»[٣] وقال أيضاً: «والذي يظهر أن ابن إسحاق حسن الحديث صالح صدوق، وما تفرد ففيه نكارة، فإن في حفظه شيئاً، وقد احتج به الأئمة»[٤].

وقال الحافظ ابن حجر: «ما ينفرد به وإن لم يبلغ الصحيح فهو في درجة الحسن إذا صرح بالتحديث»[٥].

وقد رجح الدكتور أكرم العمري أن «مروياته لا ترقى إلى درجة الصحيح، بل الحسن بشرط أن يصرح بالتحديث لأنه مدلس»[٦].

وقد ألف ابن إسحاق كتابه في السيرة النبوية مشتملاً على «حياة الرسول ﷺ قبل البعثة، وشيء من أخبار الجاهلية، ثم سيرته ﷺ بعد البعثة حتى الهجرة، ثم حياته في المدينة، ومغازيه، وبعوثه حتى وفاته»[٧]، وكتابه في السيرة النبوية مفقود، إلا أن ابن هشام قام بتهذيب ذلك الكتاب، محافظاً على النصوص التي أوردها ابن إسحاق.

ومنهج ابن إسحاق يقوم في جملته على «إيراد الأخبار بالأسانيد التي وصلته، وهذه الأسانيد منها الموصول، ومنها المنقطع والمنفصل، في حين أن بعض الأخبار يوردها بدون إسناد، ويظهر هذا على نحو واضح في القسم الأول

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة (١/٥٦).
(٢) المرجع السابق، (١/٥٧).
(٣) العلو: للعلي الغفار، ص٣٩.
(٤) ميزان الاعتدال، (٣/٤٧٥).
(٥) فتح الباري، (١١/١٦٣).
(٦) السيرة النبوية الصحيحة، (١/٥٦).
(٧) منهج كتابة التاريخ الإسلامي، ص٣٤٨.

من السيرة»[١]، ويمكن الاطلاع على ذلك في كتابه فتجده يقول: حدثني بعض أهل مكة. . .إلخ. والكتاب لا زال مفقوداً[٢].

وكتاب السيرة النبوية لابن إسحاق من المصادر المهمة عند جمهور المستشرقين، ولهذا يقول بلياييف[٣]: «أما المصدر الرئيسي الثاني لدراسة الفترة التي ظهر فيها الإسلام فهو كتاب «السيرة» التي وضعها ابن إسحاق من أهل المدينة المنورة في النصف الثاني من القرن الثامن، وقد وصلتنا هذه السيرة برواية العالم اللغوي الممتاز ابن هشام من رجال القرن التاسع»[٤].

ويمتدح مونتغمري وات ابن إسحاق بقوله: «وكان لابن إسحاق نفسه سابقون، ولكن مساهمته في كتابة سيرة محمد هي أعظم مساهمة، وكان لها أعظم الأثر، فهو يجمع كل المعلومات الموجودة، ومن ضمنها الأشعار القديمة، وقد عرف كيف يختار معلوماته ويؤلف مادته في سرد محكم. وهو يشير عادة إلى مراجعه حسب الطريقة الإسلامية»[٥].

ويقول ول ديورانت[٦]: «محمد بن إسحاق (المتوفى في عام ٧٦٧م) كاتب

---

(١) المرجع السابق، ص٣٥٠.

(٢) وجد من الكتاب قطعة حققها محمد حميد الله بعنوان: «المبتدأ والمبعث والمغازي» وقد طبعت في الرباط ١٣٩٦هـ. وحققها أيضاً سهيل زكار بعنوان: «السيرة النبوية لابن إسحاق برواية يونس بن بكير» وطبعت في دار الفكر بدمشق. انظر: مصادر السيرة النبوية: د. ضيف الله الزهراني، ص١٦.

(٣) بليابيف أو بليائيف Evgenii Aleksandrovich Beliaev (١٨٩٥ ـ ١٩٦٤م): مستشرق روسي، تخرَّج من معهد موسكو للدراسات الشرقية في سنة ١٩٢٢م، وتخصص في التاريخ الإسلامي. من آثاره: «الفرق الإسلامية»، «العرب والإسلام والخلافة العربية في العصر الوسيط». انظر: موسوعة المستشرقين، ص١٣٢.

(٤) العرب والإسلام والخلافة العربية: ي. أ. بليابيف، ترجمة: أنيس فريحة، ص١٢٢.

(٥) محمد في مكة، ص٨.

(٦) ويليام جيمس ديورانت William James Durant (١٨٨٥ ـ ١٩٨١م) فيلسوف، مؤرخ وكاتب أمريكي، تلقى تعليماً كاثوليكيّاً ولكنه تعرض لحالة تحول جذري فاتجه إلى الفلسفة ونال فيها الدكتوراه عام ١٩١٧م فأصبح استاذاً في جامعة كولومبيا، غير أنه لم يتحمَّل رتابة العمل ثم نشر كتابه «قصة الفلسفة»، فلقي رواجاً كبيراً مكَّنته عوائده المالية من التحرر من رباط الوظيفة، ثم أصدر عدة كتب وتفرغ بعدها لمشروعه الكبير «قصة الحضارة»، الذي شاركته زوجته أريل اليهودية فيه، ثم أصدر عدة كتب آخرها (أبطال من التاريخ) ومات وهو في السادسة والتسعين. انظر: مقدمة كتاب قصة الحضارة: ترجمة: زكي نجيب محمود وآخرون.

سيرة النبي، وقد راجعها وزاد عليها ابن هشام (٧٦٣م) فكانت أقدم كتاب عربي منثور ذا شأن عظيم وصل إلى أيدينا إذا استثنينا من ذلك القرآن نفسه»[(١)].

ثانياً: المرحلة التالية:

وهي مرحلة التأليف المباشر في السيرة النبوية، ومن أشهر المصادر في هذا المجال:

ـ كتاب «**المغازي**» لمحمد بن عمر الواقدي (ت٢٠٧هـ). ولد الواقدي بالمدينة المنورة، وطلب العلم في الحجاز والشام والعراق، وعاش في كنف الدولة العباسية في عصرها الأول، وتولى منصب القضاء في عهد الخليفة هارون الرشيد، وكذا في عهد الخليفة المأمون، كان من العلماء المرموقين، ألف ما يربو على ثلاثين كتاباً في التاريخ والحوادث[(٢)]، وقد انتقده غير واحد في منهجيته في تأليف كتبه، فقال عنه الذهبي: «جمع فأوعى، وخلط الغث بالسمين، والخرز بالورد الثمين، فاطرحوه لذلك، ومع هذا فلا يستغنى عنه في المغازي وأيام الصحابة وأخبارهم... وقد تقرر أن الواقدي ضعيف، يحتاج إليه في الغزوات والتاريخ، ونورد آثاره من غير احتجاج..»[(٣)].

وقال ابن كثير: «الواقدي عنده زيادات حسنة، وتاريخ محرر غالباً؛ فإنه من أئمة هذا الشأن الكبار، وهو صدوق في نفسه مكثار»[(٤)]، وقال عنه ابن سيد الناس: «إن سعة العلم مظنة لكثرة الإغراب، وكثرة الإغراب مظنة للتهمة، والواقدي غير مدفوع عن سعة العلم، فكثرت غرائبه»[(٥)].

وقال ابن حجر: «الواقدي إذا لم يخالف الأخبار الصحيحة ولا غيره من أهل المغازي فهو مقبول عند أصحابنا»[(٦)].

أما كتاب الواقدي في السيرة النبوية الموسوم بـ«المغازي» فهو مصدر أساس في السيرة النبوية، تحدث فيه الواقدي عن غزوات الرسول وسراياه، وذكر تاريخ

---

(١) قصة الحضارة: ول ديورانت، ترجمة: زكي نجيب محمود وآخرون (١٣/ ١٧٢).
(٢) الفهرست: ابن النديم، ص١١١.
(٣) سير أعلام النبلاء، (٩/ ٤٥٤ ـ ٤٦٩).
(٤) البداية والنهاية، (٣/ ٢٣٤).
(٥) عيون الأثر: ابن سيد الناس (١/ ٢٦).
(٦) التلخيص الحبير، (٢/ ٢٩١).

معظم الغزوات والسرايا، واسم قائدها، والوجهة التي ذهبت إليها، وذكر ذلك بقوله في كتابه: «فكانت مغازي النبي ﷺ التي غزاها بنفسه سبعاً وعشرين غزوة، وقاتل في تسع ثم ساقها، وكانت السرايا سبعاً وأربعين سرية»(١).

أما منهجه في كتابه، فإنه «يذكر أحياناً الأسانيد مجموعة في أول كل غزوة أو سرية، وأحياناً لا يذكرها اعتماداً على ما ذكره في أول الكتاب، ويكتفي بقوله: قالوا»(٢)، ومن منهجه أيضاً عنايته واهتمامه «بالضبط التاريخي للوقائع والغزوات، كما أنه يعتني بذكر الرجال الذين لهم إسهامات معينة في الغزوة من إنفاق وبذل، أو مشورة ورأي، أو موقف بطولي، ويذكر الأسرى، والشهداء من المسلمين، والقتلى من الكفار ويرتبهم حسب قبائلهم»(٣)، وقد انفرد الواقدي عن ابن إسحاق الذي سبق في التأليف في المغازي، بروايات في وصف سير المعارك العسكرية، وفي وصف السرايا، وبعض الحوادث الجانبية(٤).

وكذلك خالف الواقدي ابن إسحاق في الابتعاد عن طريقة المحدثين، وعدم الالتزام بالأسانيد، وألفاظ الرواة، وساق المغازي في نسق واحد مترابط الأحداث في أسلوب قصصي واضح العبارة مما ييسر حفظها على عامة الناس(٥).

وللمستشرقين اهتمام بكتاب «المغازي» للواقدي، وقد علل مرجليوث ذلك بقوله: «وأطرى الباحثون الأوروبيون على الواقدي لاهتمامه الخاص بالأزمنة، وأحكام ثقات المسلمين عن كتابه في جانبه في معظم الأحيان، وإن لم تجمع على ذلك. والكتاب الوحيد الذي رأى الضوء من كتبه جزء من مغازيه، نشر هنا «كلكتا»(٦). والترجمة الألمانية لمخطوطه أكمل محفوظة في المتحف البريطاني، وتضم قائمة كتبه بعض الفتوح: فتوح الشام، وفتوح العراق، ولكن الكتب التي

(١) المغازي: للواقدي (١/٧).
(٢) منهج كتابة التاريخ الإسلامي: محمد بن صامل السلمي، ص٣٥٨.
(٣) المرجع السابق، ص٣٥٩.
(٤) المرجع السابق، ص٣٥٩.
(٥) المرجع السابق، ص٣٦٠.
(٦) كلكتا مدينة في الهند، وهذا النص جزء من محاضرة ألقاها مرجليوث في جامعة كلكتا بالهند.

طبعت تحت هذه الأسماء معزوة إليه، كما قد رأينا، كتب ظنية، وليست بذات قيمة تاريخية»[(١)].

وقد قام المستشرق مارسدن جونس[(٢)] بتحقيق كتاب المغازي في ثلاثة مجلدات[(٣)]، وكتب عن منهج الواقدي فيه قائلاً: «ومما يزيد في قيمة هذه الأخبار أن الواقدي يذكر بكل وضوح أنه كان يتبع منهجاً نقدياً واعياً في اختيار وتنظيم أخباره، ثم لا يلبث أن يذكر آراءه وأفكاره عن الأخبار التي كان يسجلها، وكثيراً ما يقول مثلاً: (وهو المثبت) و(الثابت عندنا) و(القول الاول أثبت عندنا) و(مجمع عليه لا شك فيه)..»[(٤)].

ورغم بعض النقد الذي وجهه جونس للواقدي، فقد صرح بأن مغازية «أكمل وأتم مصدر محايد ـ دون تعصب ـ لتاريخ حياة النبي في المدينة»[(٥)].

كما أثنى مونتغمري وات على كتاب المغازي ضمن حديثه عن مصادره في السيرة بقوله: «وتمثل مغازي الواقدي وسيلة قيمة للتثبت من ابن إسحاق لأنها تعتمد على سلسلة من المصادر المستقلة. وهي عادة أكثر اطلاعاً، ولكنها لا تتحدث إلا عن الفترة المدنية»[(٦)].

ـ كتاب «**السيرة النبوية**» لأبي محمد، عبد الله بن هشام الحميري المعافري (ت٢١٨هـ).

نشأ ابن هشام في البصرة، ثم رحل إلى مصر[(٧)]، ويعد من أعلام النحو واللغة، وله من الكتب «شرح ما وقع في أشعار السيرة من الغريب»، وكتاب

---

(١) دراسات عن المؤرخين العرب: مرجليوث، ص٩٣.

(٢) مارسدن جونز أوجونس jones,marsden (١٩٢٠م ـ ٠٠٠): مستشرق إنجليزي، تخرج من جامعة لندن، وحصل على ليسانس اللغة العربية مع مرتبة الشرف، ثم حصل على الدكتوراه في الفلسفة وعين محاضراً للغة العربية في مدرسة الدراسات الشرقية والافريقية بجامعة لندن ثم أستاذاً للدراسات العربية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، من آثاره: كتاب «المغازي» للواقدي، «سلسلة كتاب مصر»، «أدب المغازي». انظر: معجم أسماء المستشرقين، ص٤٥٢ ـ ٤٥٣.

(٣) انظر: مقدمة كتاب المغازي: الواقدي، تحقيق: الدكتور مارسدن جونس.

(٤) مغازي الواقدي: مقدمة الدكتور جونس، ص٣٤.

(٥) المرجع السابق، ص٣٤.

(٦) محمد في مكة، ص٨.

(٧) ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: همام عبد الرحيم سعيد، ومحمد عبد الله أبو صعليليك (مقدمة التحقيق)، ص١٧.

«أنساب حمير وملوكها»[١]، والكتاب الذي اشتهر به هو كتاب «السيرة النبوية»، وهو تنقيح وتهذيب، وتصويب لكتاب «المغازي» لابن إسحاق. «حيث حذف ابن هشام كثيراً من الإسرائيليات والأشعار المنتحلة، وأضاف معلومات في اللغة والأنساب. . . ومعظم المؤلفات بعده أخذت منه. والحق أن الصورة التي تعطيها مغازيه عن حياة الرسول ﷺ تقترب إلى حدٍّ كبير مما أوردته كتب الحديث الصحيحة مما يعطي سيرته توثيقاً كبيراً»[٢]، ويقع الكتاب في أربعة أجزاء، يبدأ في ذكر نسب الرسول ﷺ، وينتهي بمرثية حسان بن ثابت في الرسول ﷺ، وقد توافر على تحقيقه مجموعة من الباحثين.

وقد نالت السيرة النبوية لابن هشام ـ التي هي في الأصل كتاب المغازي لابن إسحاق ـ عناية بعض العلماء، فتناولوها بالشرح والتعليق ومن أشهرهم: أبو القاسم عبد الرحمٰن بن عبد الله السهيلي (ت٥٨١هـ) الذي شرح السيرة النبوية لابن هشام في كتاب أسماه «الروض الأنف»[٣].

وكتاب السيرة لابن هشام يعتبر من المصادر المهمة عند المستشرقين في كتاباتهم عن النبي ﷺ وسيرته، حيث صرح جمع منهم باعتباره أحد مصادره في استقاء معلوماته عن السيرة ومن هؤلاء: نصر الدين دينيه في كتابه حول السيرة «محمد رسول الله»، ومونتغمري وات في كتبه حول السيرة «محمد في مكة» و«محمد في المدينة»، وكارين أرمسترونج في كتابها «حياة محمد».

ـ كتاب «**الفصول في سيرة الرسول** ﷺ» للحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير (٧٧٤هـ)، نشأ ابن كثير وتربى في دمشق، وتعلم العلوم الشرعية وعمره لم يتجاوز الثامنة عشرة، وتفقه على عدد من علماء عصره منهم البرهان الفزاري والكمال ابن قاضي شهبة، وابن تيمية، والأصبهاني[٤]، كان كثير الاستحضار، قليل النسيان، جيد الفهم، له مشاركات في بعض النصوص الأدبية والشعرية، وقد وصف بأنه الإمام المحدث المفتي البارع، يحفظ المتون[٥]، وقال عنه ابن

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء (١/ ٤٢٩).
(٢) السيرة النبوية الصحيحة: للعمري (١/ ٦٦).
(٣) السيرة النبوية: لابن هشام (مقدمة التحقيق)، ص١٩.
(٤) شذرات الذهب: ابن العماد (٣/ ٢٣١).
(٥) الفصول في سيرة الرسول ﷺ: لابن كثير، تحقيق: محمد العيد الخطراوي، ومحيي الدين مستو، ص٣٠.

حبيب: «إمام روى التسبيح والتهليل، وزعيم أرباب التأويل، سمع وجمع وَصَنَّفَ وأطرب الأسماع بالفتوى، وشنف وحدَّث، وأفاد، وطارت أوراق فتاويه إلى البلاد، واشتهر بالضبط والتحرير، وانتهت إليه رياسة العلم في التاريخ والحديث والتفسير»[(١)].

وقد عرف عند المفسرين بكتابه «تفسير القرآن العظيم»، وعُرِف عند المؤرخين بكتابه «البداية والنهاية»، وله مؤلفات كثيرة توزعت بين الحديث والتفسير والتاريخ[(٢)].

أما كتابه «الفصول في سيرة الرسول ﷺ» فقد احتوى على موضوعات كثيرة ومفيدة في سيرة الرسول ﷺ منها: «ذكر نسبه ﷺ، والهجرة، والجهاد، والمغازي، والبعوث، وأحواله وشمائله وخصائصه ﷺ، وركز ابن كثير على خصائص الرسول وجعلها في قسمين مهمين» ويكاد ينفرد ابن كثير في كتابه هذا بذكر خصائص الرسول عن غيره من مؤلفي السيرة»[(٣)].

والمتأمل في كتاب ابن كثير هذا يدرك بعض السمات والخصائص التي اتسم بها، ومنها:

١ ـ البعد عن السجع والمحسنات البديعية.

٢ ـ لجأ إلى تبسيط المعلومات لكي يستفيد منها أكبر عدد ممكن من الناس مع احتفاظ الكتاب بالأسلوب العلمي الجيد.

٣ ـ غزارة مادته العلمية وسلاسة أسلوبه ووضوح رؤيته.

٤ ـ حرص في كتابه هذا على إيراد الأخبار الصحيحة من الأحاديث والآثار في الغالب، ويناقش الآراء ويرد عليها، فكتابه هذا يعد خلاصة كتب وعصارة أفكار عالم محدث ومؤرخ وفقيه ومفسر.

٥ ـ اعتمد ابن كثير على كتب الحديث ورجَّح ما ورد فيها صحيحاً على أخبار كتب المغازي والسير، وقد تفرد بهذا النهج[(٤)].

---

(١) شذرات الذهب: ابن العماد (٣/ ٢٣١).

(٢) الفصول في سيرة الرسول، (مقدمة التحقيق)، ص٣٢، شذرات الذهب (٣/ ٢٣١).

(٣) انظر: فهارس الكتاب في الصفحات التالية: ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢.

(٤) الفصول في سيرة الرسول، (مقدمة التحقيق)، ص٢١ ـ ٢٦.

٦ ـ وامتاز الكتاب أيضاً باشتماله على فصل للخصائص النبوية، وهو فصل يستحق أن يكون كتاباً مستقلاً بذاته[١].

وقد أفاد عدد من المستشرقين من كتابات ابن كثير رحمه الله حول السيرة ومن هؤلاء المستشرق الأمريكي واشنطن إيرفنج في كتابه «حياة محمد» والذي ترجم تحت مسمى محمد وخلفاؤه، وقد استند إيرفنج في معلوماته عن السيرة النبوية إلى سيرة ابن كثير، ولذلك كانت الحقائق التي يذكرها في السيرة مطابقة للواقع ولما تذكره بقية كتب السيرة الإسلامية خاصة سيرة ابن هشام إلا ما ندر[٢].

ـ **«السيرة الحلبية»** وهو الكتاب المسمى (إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون) لأبي الفرج علي بن برهان الدين الحلبي (ت١٠٤٤هـ) مؤرخ وأديب أصله من حلب ومولدة ووفاته بمصر، له تصانيف كثيرة في اللغة والسيرة أهمها كتابه في السيرة المعروف بالسيرة الحلبية[٣].

وهو من الكتب المشهورة في السيرة النبوية ذكر مؤلفها في المقدمة أن أحسن ما ألّف في السير هو كتاب «عيون الأثر» للحافظ أبي الفتح ابن سيّد الناس؛ غير أنه أطال بذكر الإسناد. ثم ذكر سيرة الشمس الشامي وأنه أتى فيها بالمعادات؛ ثم ذكر أن السير تجمع الصحيح والسقيم والضعيف والبلاغ والمرسل والمنقطع والمعضل دون الموضوع. فرأى أن يلخص هاتين السيرتين مع الضميمة إليهما بإشارة الشيخ أبي المواهب محمد البكري، ثم ذكر شيئا من أبيات القصيدة الهمزية للبوصيري، وتائية السبكي من ديوانه المسمى بـ«بشرى اللبيب بذكر الحبيب»[٤].

والسيرة الحلبية رغم ما تقدم لم يسلم صاحبها من إيراد الروايات الضعيفة والموضوعة بل والقصص الإسرائيلية[٥]، وقد تبع مؤلفها في ذلك عدد من

---

(١) المصدر السابق، ص٢٦.

(٢) انظر: محمد وخلفاؤه: واشنطن إيرفنغ، ترجمة ومقارنة: د. هاني يحيى نصري، ص١٥ ـ ٥٧.

(٣) انظر: خلاصة الأثر: للمحبي (٣/ ١٢٢)، وفهرس الفهارس: للكتاني (١/ ٢٥٥)، الأعلام (٤/ ٢٥١).

(٤) انظر: السيرة الحلبية «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون»: علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، مقدمة المؤلف، ص٥ ـ ٧.

(٥) تاريخ العرب في الإسلام «السيرة النبوية»: د. جواد علي، ص١٧. والسيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم العمري (١/ ٦٩).

المستشرقين الذين نقلوا عنه في سيرته هذه كنصر الدين دينيه في كتابه عن السيرة، وكذلك ألويس شبرنجر في كتابه الواسع حول السيرة المسمى «حياة محمد وتعاليمه».

كتب السيرة كمصدر للمستشرقين:

رغم قلة الأعمال التي تناول بها المستشرقون المسلمون للسيرة النبوية، إلا أن كتاب نصر الدين دينيه: (محمد رسول الله) يمكن أن يمثل نموذجاً لكتابات المستشرقين المسلمين.

فقد اعتمد دينيه ـ خلافاً لجمهور المستشرقين ـ على المصادر الإسلامية فقط في تناوله للسيرة النبوية مؤثراً استبعاد أي مصدر غربي في المناقشة والتحليل لأي من أحداث السيرة. كما يقول في مقدمته:

«ولعل في هذه الملاحظة ما يكفي لتنبيه القراء إلى أنهم لن يجدوا في هذا السفر شيئاً من تلك المذاهب الغربية الغالية، التي تعمل على هدم السُّنَّة، والتي شغف بها حباً أولئك المستشرقون المحدثون بما لهم من غرام وشهوة بكل ما هو بدع من الرأي أو غريب»[١].

ونتيجة لهذا المنهج الذي سلكه دينيه في استبعاد آراء المستشرقين حول السيرة النبوية، فقد ثارت ثائرتهم حيث زعموا أن آراءه تخالف ما انتهى إليه البحث العلمي الحديث، والحقيقة أن دينيه اعتمد هذا المنهج متعمداً، إذ رأى أنه يستحيل أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئاتهم ونزعاتهم المختلفة عند دراساتهم في النبوة الإسلامية، ولذلك كان تحريفهم للسيرة ولحياة الصحابة كبيراً حتى غطى على الحقيقة، وهم «رغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد الحديثة، فإننا نلمس في كتاباتهم محمداً يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلف ألمانياً، ومحمداً يتحدث بالإيطالية، إذا كان الكاتب إيطالياً، وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب»[٢].

وقد أعطى دينيه الكثير من الأمثلة على ما ذكره حيث بيَّن الاختلاف الكبير بين الغربيين في كل المباحث التي عقدوها لحياة النبي ﷺ حتى استحال أمر كتابة

---

(١) محمد رسول الله، ص٥٣.

(٢) محمد رسول الله، ص٢٨.

السيرة بمثل مناهجهم. ولأجل هذا كتب دينيه في السيرة باعتباره مؤمناً وباحثاً، فتجاوز كل آراء المستشرقين التي لم تستطع أن تعبر عن الحقيقة، وقرر «أن صورة نبينا الجليلة التي خلفها المنقول الإسلامي تبدو أجل وأسمى، إذا قيست بهذه الصور المصطنعة الضئيلة التي صيغت في ظلال المكاتب بجهد جهيد. ونرجو أن يعرف العلماء ضلالهم، فيكفوا عن النيل من هذه الصروح المعجزة التي رفعها التاريخ إقراراً بفضل أنبياء العرب وبني إسرائيل والهنود على الإنسانية، فإن أساس هذه الصروح أصلب من أن تخدشه تلك المعاول»(١).

أما جمهور المستشرقين فعند النظر في كتابات المشتغلين بالسيرة منهم نجد أنهم ينقسمون تجاه مصادر السيرة إلى ثلاثة أقسام(٢).

الأول: قسم مشنع على السيرة ومصادرها مكذب لكل أحداثها.

الثاني: قسم ناقد يميز بين عناصرها الصحيحة والمدسوسة.

الثالث: قسم يركز في أبحاثه على الشك في أحداث السيرة، ويشنع على أخبارها نظرياً وعملياً رغم قوله باحتواء مصادر السيرة على مادة علمية صحيحة.

١ ـ الاتجاه المشنع على السيرة ومصادرها:

ويمثله خير تمثيل كايتاني والأب لامنس الذي سعى إلى تحريف كل ما له علاقة بالإسلام. وهو لم يخرج عن هذه القاعدة في مجمل كتاباته عن السيرة النبوية التي ملأها بالتشنيع والتحريف والكذب في دراسته لكل خطوة خطاها النبي ﷺ وكل عمل عمله، وكل قول صدر عنه. ويبدو ذلك بشكل جلي في كتابيه: «الإسلام: عقيدة ومؤسسات» و«فاطمة وبنات محمد». وموقف لامنس من الروايات الإسلامية، سواء ضمتها كتب الحديث أو السير موقف موحد، يتمثل في اتهام المسلمين باختراع كل المادة الموجودة فيهما من أجل تفسير القرآن الكريم، كما يقول: «إن السيرة، مثلها في ذلك مثل الحديث، ذات هدف تفسيري، إنها مادة محولة مباشرة من النص القرآني لتخدمه في التعليق عليه، ولهذا السبب فقد كان عليها أن تضيء في حكايات دقيقة ومليئة بالألوان إشارات القرآن المظلمة، والتلميحات الأكثر غموضاً في الآيات. إنها تصطاد المجهول

---

(١) المرجع السابق، ص٥٧.

(٢) انظر: نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٥١.

وغير المتعين الذي كثيراً ما سبب الحيرة في سور القرآن. . إنها نصب تذكاري يذكر الأسماء والتواريخ التي كان أبو القاسم يبتعد عنها بحذر شديد»[١].

ولم يهتم لامنس أن يسأل نفسه عن السبب في أن يختلف القرآن والحديث والسيرة، من حيث أساليبها، والعلم المحتوى في كل مصدر منها.

والحقيقة أنه ما كان ليسأل نفسه هذا السؤال؛ لأنه قد وقف متحفزاً لدفع الإسلام بكل الوسائل، فشغله ذلك عن البحث عن الحق. وهذه المزاعم تفترض نتائجها عدم قيام النبي ﷺ بفعل شيء البتة، وكأنه ليس شخصاً تاريخياً كانت بعثته سبباً في أكبر تحول شهده التاريخ البشري في المجال الديني والثقافي والعلمي والحضاري والسياسي إلى اليوم. وهي الحقائق التي تفترض وجوده ودعوته إلى ما دعا إليه وتكوينه لرجال يحملون عنه رسالته[٢].

وقد تناول البحث من قبل وقوف المستشرقين في وجه مزاعم لامنس ضمن المستشرقين المتحاملين، وإثباتهم عليه (شدة التعصب) و(تشويه كتبه بكره الإسلام ونبي الإسلام) كما قال درمنغم[٣]. ولكن يبدو أن المستشرق ليفي دلافيدا[٤] لم يسمع بكل هذه الانتقادات والاستياء الشديد الذي قابل له الدارسون كتابات لامنس، فذهب يردد شكوكه ويتخذ منهجه أداة لدراسة السيرة.

ولعل هذا هو ما جعله مؤهلاً عند المشرفين على دائرة المعارف الإسلامية، فمنحوه شرف كتابة مادة (السيرة) كما تولى أستاذه - أي: لامنس - كتابة مادة (الحديث). فبدأ يمهد لتشنيعاته على مرجعية السيرة في التعرف على الدعوة، بزعمه أن أصحاب النبي ﷺ لم يكونوا ينظرون إليه إلا نظرة الجاهليين إلى أمرائهم، وأكد أن سبب نشأتها كان شيوع الرواية عند العرب عن الأحداث التي

---

(١) Fatima et les filles de Mahomet-Intro. (فاطمة وبنات محمد - المقدمة).

(٢) نبوة محمد ﷺ في الفكرالاستشراقي، ص٣٥٢.

(٣) حياة محمد، المقدمة، ح.

(٤) دلافيدا Levi Della Vida G (١٨٨٦ - ١٩٦٧م): جورجيو ليفي دلافيدا من كبار المستشرقين الإيطاليين، مولده ووفاته بروما، كان أستاذ العربية واللغات السامية المقارنة، في جامعتها، له كتابات كثيرة في دائرة المعارف الإسلامية والمجلات العلمية. ومما حققه للنشر «طبقات الشعراء» لابن سلام، و«شعر يزيد الأول» و«نسب فحول الخيل ابن الكلبي»، ومن تأليفه: «فهرس المخطوطات العربية الإسلامية في مكتبة الفاتيكان» الجزء الأول، بالإيطالية، ولم يكمله. انظر: المستشرقون (١/ ٣٩٠)، الأعلام (٢/ ١٤٦).

عاشوها ـ أي: رواياتهم لأيام العرب ـ وأشاح عن هذا التفسير بعد قليل فجعل السبب في اهتمام المسلمين بالسيرة يكمن في رغبتهم في أن يكون لنبيهم صورة موازية لصور الأنبياء في «الكتاب المقدس»[(١)].

ورغم أن شيوع الرواية عن حياة النبي ﷺ، وخصوصاً أخبار الدعوة إلى الإسلام شيء طبيعي تماماً ما دامت هذه الدعوة موجودة أصلاً، مما يجعل تدوين هذه الأخبار بعد مرحلة انتقالها مشافهة موافق تماماً لطبائع الأشياء، ورغم أن رأي المسلمين فيما دوَّنه اليهود والنصارى كان معروفاً، وهو تحريفهم لكتاباتهم الدينية، وهذا عنصر يبعد المسلمين ـ كما أبعدهم في غير هذا الأمر ـ عن محاكاة أهل الكتاب فيما دونوه، إلا أن دلافيدا وقف عند عنصر وجود الخوارق في السيرة، واعتبرها محورها الأساسي حتى كأنه العنصر الوحيد الذي حوته السيرة، واعتمد على ذلك في التشكيك في كل أحداثها فقال: «كيف نفسر هذا التوجه الذي تم بعد قرن من وفاة النبي؟ أتشمل الرواية التي نتجت عن هذا التوسع ـ إلى جانب ما فيها من عناصر أسطورية لا شك فيها ـ أقوالاً تعتمد على رواية أكثر جدارة بالتصديق، قد يتضمن ما ورد فيها من أهواء وتحريفات ومبالغات مبعثها الإطناب والمديح نواة من حقائق التاريخ»[(٢)].

وعوضاً عن اقتراح ـ مثلاً ـ منهج لدراسة السيرة دراسة تاريخية علمية تعتمد على مصادرها الطبيعية، وهي القرآن والحديث والسير، فإنه ذهب ينقل أسوأ آراء المستشرقين فيها، مثل بعض آراء شبرنجر وكل نتائج بحث لامنس، وأكد وجاهة وصحة أبحاث كايتاني وجولدزيهر[(٣)]. ومن المعروف أنه لم يذكر هنا إلا المستشرقين الذين كانت كتاباتهم أسوأ ما شهده الاستشراق المعاصر من إنتاج، وذلك ليؤكد للقارئ شيوع تشنيعاته عند عدد كبير من الدارسين، فيعمي عليه الحقيقة، ويمنعه أن يرى الأشياء إلا من خلال المنظار الذي هدف أصحابه إلى التجهيل بالإسلام[(٤)].

٢ ـ الاتجاه الموضوعي في دراسة السيرة:

ويتميز هذا الاتجاه بتقدير الجهد الكبير الذي بذله العلماء المسلمون في نقل

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: (سيرة) (١/٤٤٦).
(٢) المرجع السابق، (١/٤٤٧).
(٣) المرجع السابق، (١/٤٤٧).
(٤) نبوة محمد ﷺ في الفكرالاستشراقي، ص٣٥٣.

السيرة وتدوينها، وإسهام مناهجهم من حيث شكلها وموضوعيتها في تطوير التدوين التاريخي. ويوجد على رأس هذا الاتجاه المستشرقان هاملتون جب، والدكتور مارسدن جونس.

وتبدو موضوعية هذين المستشرقين في أشياء كثيرة، منها تجاوزهما للزعم الشائع عند جمهور المستشرقين من أن محمد بن إسحاق كان أول من دوَّنها، وهو رأي دومينيك وجانين سورديل[١]، وكلود كاهن الذي كان يتحدث عن السيرة وكأنها من عمل ابن إسحاق[٢]، وقد أثبت جب اشتغال عدد من التابعين بهذا الفن منذ القرن الأول الهجري، وركز على إسهام أبان بن عثمان، وعروة بن الزبير، وابن شهاب الزهري الذي كان أحد المحاور الكبرى التي انتقلت بواسطتها أخبار الدعوة[٣]. وإذا كان جب لم يستطع أن يثبت تدوين أي من هؤلاء العلماء لشيء فيها، إلا أن الدكتور جونس قد أثبت إسهام عروة بن الزبير في حركة التأليف، إذ «إن كثرة النقول عند ابن إسحاق والواقدي تدل بصورة قاطعة على أنه هو أول من دوّن السيرة»[٤]. وقد شك جب في ذلك استناداً إلى عدم نص علماء الإسلام على أن له تأليفاً فيها، بينما أكد جونس الأمر اطمئناناً إلى كثرة النقول عنه مما يبين استناد المتأخرين عنه من العلماء إلى شيء مكتوب.

وقد استنتج الدكتور جونس من إسهام عروة بن الزبير بالإضافة لوهب بن منبه من التابعين في حركة تدوين السيرة أن هذا الأمر قد تم منذ نهاية القرن الأول الهجري، وقد اطمأن في حكمه إلى توالي اشتغال علماء آخرين بهذا الفن، ومنهم عاصم بن عمر بن قتادة (ت١٢٠هـ)، ومحمد بن مسلم الزهري (ت١٢٤هـ)، وعبد الله بن أبي بكر بن حزم (ت١٣٠هـ)، وموسى بن عقبة (ت١٤١هـ)، الذي اشتهر كتابه في السيرة إلى منتصف القرن العاشر الهجري، وقد جاء بعد هؤلاء محمد بن إسحاق صاحب السيرة المشهورة[٥].

وقد قضى الدكتور جونس ببحثه في تاريخ التدوين في السيرة على زعمين

---

(١) أنظر: La civisztion de I'slamchassique-P. 24.

(٢) انظر: I'Islam des orignies-P. 13.

(٣) دراسات في حضارة الإسلام، ص١٤٧.

(٤) كتاب المغازي: الواقدي، تحقيق: الدكتور مارسدن جونس، المقدمة، ص٢١.

(٥) المرجع السابق، ص٢٣.

شهيرين استخدمتهما دائرة الاستشراق في الترويج لحركة التشكيك فيها، وهما[(١)]:

أ ـ زعم المستشرقين تأخر زمان الاشتغال بالسيرة وتدوينها، وقد كان هذا الادعاء مظنة للتشكيك في أخبارها. وقد رد الدكتور جونس على هذا الزعم في رده على دلافيدا بقوله: «ولا شك أن موضوع السيرة ومنهج التأليف فيه ثابت ومقرر قبل أن يكتب ابن إسحاق سيرته المعروفة، وقد أخطأ دلافيدا حين زعم أن سيرة ابن إسحاق تجربة ثورية في الكتابة التاريخية»[(٢)].

ب ـ التشكيك في صحة نقل سيرة ابن اسحاق نفسها، والقدر الذي حذفه ابن هشام منها، وقد تزعم الترويج لهذا الأمر عدد من المستشرقين ومنهم بلاشير ـ كما سيأتي بيانه ـ مستغلين في ذلك ضياع ما دونه ابن إسحاق. وقد أثبت الدكتور جونس العثور على القسم الأول مما دوَّنه ابن إسحاق نفسه، فقال: «وجدت قطعة منها مخطوطة في مسجد القرويين بفاس، وهي تشتمل على الجزء الأول من الكتاب»[(٣)].

وقد رد الأستاذ جب أمر دوافع التأليف في السيرة إلى نصابه، وأثبت اهتمام المسلمين بأحداثها منذ زمن مبكر. وركز الدكتور جونس على أقدم تلك الفترات فقال: «وغني عن القول أن أقوال النبي وأفعاله كان لهما أهمية كبرى إبان حياته، وأهمية أكبر بعد موته. وقد أوجبت هذه الأهمية العناية الشاملة بتدوين تفاصيل حياته.. ولم يكن الدافع لهذه العناية التقوى وحدها، ولكن حاجة المجتمع الإسلامي إلى إرساء وتثبيت العقائد الدينية والأحكام التشريعية هي الحافز الأساسي»[(٤)].

واهتم جب بإسهام السيرة في تطوير منهج البحث التاريخي عند المسلمين فقال: «وبدايات التاريخ العلمي بالعربية تقترن بدراسة سيرة الرسول ودراسة أعماله، وعليه فإننا نجد مصدر هذه الدراسة في جمع الحديث النبوي، وبخاصة الأحاديث المتعلقة بالمغازي»[(٥)].

---

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكرالاستشراقي، ص٣٥٥.
(٢) مغازي الواقدي: المقدمة، ص١٩.
(٣) المرجع السابق، ص٢٧.
(٤) المرجع السابق، ص١٩، ٢٠.
(٥) دراسات في الحضارة الإسلامية، ص١٤٧.

واقترح الدكتور جونس الانتباه إلى الظروف التاريخية باعتبار ذلك مقياساً لدراسة السيرة، فقال: «ومن الضروري أن نحكم على أدب السيرة ونقومه، بل وآداب الحديث والفقه والتفسير أيضاً في ضوء الأحاديث السياسية والاجتماعية والدينية في القرن الأول والثاني للهجرة»[١]. ولكنه لم يتخذ ذلك مظنة الشك في أشياء بعينها في السيرة، إضافة إلى عدم بحثه في العناصر الجديدة التي وفدت عليها بفعل تأثرها بما طرأ على حياة المسلمين من تغيرات. وهو في هذا قد وقف على النقيض من جب الذي ميز بين المدونات الأولى في السيرة، وهي سيرة ابن إسحاق ومغازي الواقدي، وبين ما احتواه كتاب «الطبقات الكبرى» لابن سعد الذي ضم إلى السيرة ـ التي شارك بها صاحبيه ـ فصولاً عن «صفات وأخلاق النبي وعلامات النبوة، التي كانت طليعة لما ظهر فيما بعد من مؤلفات في الشمائل والدلائل»[٢].

وقد اعتبر جب هذا التطور نتيجة «الترابط بين عناصر الحديث الصحيح وتيار ثان من الرواية، رأيناه عند ابن إسحاق، وهي الرواية عن ابن الكلبي وابن منبه في أخبار الجاهلية والإسرائيليات»[٣].

ومعنى هذا أنه قد ميز بين نوعين من الأخبار التي تحتويها السير، قسم صحيح وهو ما نقله الثقات، ويتميز بالواقعية وعدم المبالغة، وقسم يحتوي على أخبار أسطورية إسرائيلية، وقد كان هذا القسم نادراً في مدونات السيرة الأولى، ولكن مجال التوسع فيه ابتدء مع الفصول التي عقدها ابن سعد، والتي ظل طابعها يتوسع على حساب الأخبار التاريخية الصحيحة بواسطة القصاص «الذي يمثل العودة إلى نوع من الأدب الشعبي قريب مما كتبه ابن منبه، وحين اتخذت السيرة هذه الوجهة الجديدة التي احتذاها كتاب السيرة فيما بعد اتضح أن دور السيرة في تطور المنهج التاريخي قد بلغ نهاية»[٤].

وقد أدت دراسة جب للسيرة إلى التأكيد على تاريخية مدوناتها الأولى وسلامة منهجها فقال: «ويفسر لنا ارتباط المغازي بالتاريخ ـ هذا الارتباط الذي

---

(١) مغازي الواقدي، المقدمة، ص٢٠.
(٢) دراسات في الحضارة الإسلامية، ص١٥٠.
(٣) المرجع السابق.
(٤) المرجع السابق.

ترك طابعاً لا يمحى في المنهج التاريخي باستخدام هذا المنهج للإسناد ـ ما طرأ من تغيير هائل منذ هذه اللحظة.. ويمكننا أن نشعر، لأول مرة، بأننا نستند إلى أساس تاريخي قويم حتى وإن اعترفنا بوجود بعض العناصر المشكوك فيها من أخبار الفترتين المدنية والمكية من حياة الرسول»[(١)]. وهو الأمر الذي أكده الدكتور جونس بالنسبة للتدوين في السيرة على سبيل الإجمال، وبالنسبة لمغازي الواقدي التي كانت موضع اهتمامه بشكل خاص، فكتب عن منهجه قائلاً: «ومما يزيد في قيمة هذه الأخبار أن الواقدي يذكر بكل وضوح أنه كان يتبع منهجاً نقدياً واعياً في اختيار وتنظيم أخباره، ثم لا يلبث أن يذكر آراءه وأفكاره عن الأخبار التي كان يسجلها، وكثيراً ما يقول مثلاً: (وهو المثبت) و(الثابت عندنا) و(القول الأول أثبت عندنا) و(مجمع عليه لا شك فيه)..»[(٢)].

ورغم بعض النقد الذي وجهه للواقدي، فقد صرح بأن مغازية «أكمل وأتم مصدر محايد ـ دون تعصب ـ لتاريخ حياة النبي في المدينة»[(٣)(٤)]. ورغم أن ما ذكره قد لا يسلم له في تفضيل مغازي الواقدي على ما سواه من مصادر السيرة، ولكنه دليل بطريق الأولى على تسليمه لمصادر تفوق مغازي الواقدي صحة ووثوقاً.

٣ ـ الاتجاه المتشكك في السيرة:

عند بحث أصحاب هذا الاتجاه من المستشرقين في مناهج المؤرخين المسلمين يظهر قصدهم الواضح إلى التشكيك في كل ما احتوته السيرة من عناصر، إذ نراهم يبعدون عما نظروا له فيشككون في كل خبر ـ تقريباً ـ طارحين الكثير من الأفكار التي لا علاقة لها بالأحداث، ومبعدين في الوقت نفسه أبسط التفسيرات التي تؤدي إليها الروايات، وتؤكدها الوقائع.

ويمثل هذا الاتجاه خير تمثيل كتابات ريجيس بلاشير ومونتغمري وات. وقد ذهب الأول في بحثه لتاريخ التأليف الغربي عن السيرة إلى رصد التطور الذي ميز نظرة الغربيين إلى تاريخ النبوة، منذ اكتشافهم أعمال ابن سعد والطبري وابن

---

(١) المرجع السابق، ص١٤٧.
(٢) مغازي الواقدي: مقدمة الدكتور جونس، ص٣٤.
(٣) المرجع السابق، ص٣٤.
(٤) نبوة محمد ﷺ في الفكرالاستشراقي، ص٣٥٧.

هشام في ١٨٥٨م، فمنذ «تلك اللحظة لم يعد هناك أي شك في أن أعمال أبي الفدا وابن الأثير ليس لها أي سلطة. وفي المقابل قدر الباحثون أننا نقف على أرض صلبة باكتشافهم لهذه الأعمال الجديدة»(١).

وبعد أن نبه بلاشير إلى أن أعمال جولدزيهر قد فتحت أفقاً تثير الانتباه، وبين الإسفاف والقصد إلى الإساءة في كتابات كايتاني ولامنس، أبدى رأيه في المنهج الذي يجب اعتماده في دراسة السيرة، فقال: «وإجمالاً، فإننا لا نتوافر اليوم على وثائق تسمح لنا بكتابة تاريخ مفصل لحياة محمد بترتيب زماني متقارب ومتصل، والاضطرار إلى جهل جزئي أو كلي يبدو ضرورياً، خصوصاً فيما يتعلق بالمرحلة السابقة على الوحي. وأكثر ما يستطيع المؤرخ الذي يحترم المنهج التاريخي هو طرح الإشكاليات المتوالية التي تثيرها هذه المرحلة، والحديث عن الجو العام الذي تطورت فيه الدعوة المحمدية في مكة، ومحاولة ترتيب الوقائع المعلومة، وإعادة الوقائع غير المؤكدة إلى الظل. ومحاولة الذهاب إلى أبعد من هذا هو محاولة كتابة سيرة يغلب عليها الطابع التقديسي أو الرومانسي»(٢).

وما قصد إليه بلاشير من تدوين تاريخ حياة النبي ﷺ تدويناً متصلاً، منذ ميلاده إلى انتقاله إلى الرفيق الأعلى، ربما كان مطلباً مشروعاً ـ نظرياً ـ للمؤرخ إلا أنه مطلب قليل الفائدة بالنسبة للرسل وأتباعهم فإن المقصد لأتباع الدعوة هو الرسالة في حد ذاتها وما احتوته من تعاليم، وليست السيرة الشخصية لصاحب الدعوة ناهيك عن أن المجهول هنا بعض مراحل حياة النبي ﷺ لا كلها، وهو ما يعتبر شيئاً طبيعياً ولا يعتبر نقصاً فيها إلا إذا كان هناك سوء قصد من وراء طرح مثل هذه الفكرة.

ولعل مثل هذا المقصد يظهر مرة أخرى إذا تتبعنا حديثه عن توزع المعلومات بين المرحلتين المكية والمدنية، حيث رأى في عدم تكافئهما فرصة للدس، ويبدو ذلك من تأكيده تاريخية أخبار المرحلة المدنية، مما يوحي بعدم الثقة في أخبار المرحلة السابقة عليها فقال: «ويليق بنا هنا.. أن نولي للمعلومات

---

(١) Le Probleme de Mahomet-P.9. (مشكلة محمد) نقلاً عن نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٥٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٧، ١٨.

الحديثية ثقة أكبر تبررها الظروف التي واصل فيها محمد دعوته.. وسنرى، إجمالاً، أن تواتر هذه المعلومات وكثافتها كافيان لمنح الثقة للمؤرخ»[١].

ومن المعروف أن طرق نقل أخبار المرحلة المكية هي نفسها طرق نقل المرحلة المدنية، مما يعني ضرورة عدم تمايزهما من حيث الحكم عليهما بالصحة أو بالخطأ، ولا يضر هنا قلة المادة أو كثرتها.

ومن المنطقي تماماً أن تتوزع المادة بهذا الشكل؛ لأن النبي ﷺ قد قصد في الفترة الأولى دعوة القرشيين على وجه الخصوص؛ أي: أن الأمر كان أمر عرض دين جديد، ومحاولة الإقناع بصحته بواسطة التعريف به ومجادلة خصومه. ومن الواضح لمن تتبع المعلومات التي وردت في القرآن والسير أنها تستجيب تماماً لهذا الواقع الذي وصفناه، أما حياة النبي ﷺ في الفترة المكية الأخيرة، وهي الفترة التي لم يميزها بلاشير بحكم خاص، ثم المرحلة المدنية فقد كانت مرحلة خروج الدعوة إلى الخاص والعام، وكانت توجهاتها عربية ودولية الأمر الذي أفرز الكثير من الأحداث، مثل عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل، وأحداث البيعة، ثم الهجرة، فدعوة العرب واليهود.. وقد نتج عن ذلك عداوات كثيرة دفعت إلى الجهاد، وهذه كلها حيثيات تجعل المؤرخ (الذي يحترم المنهج التاريخي) يضعها في الاعتبار، فلا يحكم على مادته العلمية إلا في ضوء المتغيرات المحيطة بالحدث، وهو ما لم يعره بلاشير أي اهتمام؛ لأن قصده الأساسي لم يكن العمل على رصد الوقائع ثم تفسيرها تفسيراً يستجيب لها، بل محاولة إثبات نقائص تاريخ الدعوة إلى الإسلام[٢].

ويتضح ما تقدم من قصد غير علمي في منهج بلاشير عندما تتبع الخطوات التي قطعها قبل أن ينص عليه، وأولها إدعاؤه الوضع في السيرة زمن النبي ﷺ نفسه، ففي «هذه المرحلة ـ وإن تم ذلك في سرية ـ فإن العصر العجيب ابتدأ يمتزج بالمرويات»[٣].

ولا ندري في الحقيقة من أين جاء بلاشير التأكيد على هذا الأمر ما دام قد

(١) المرجع السابق، ص٩٣.

(٢) نبوة محمد ﷺ في الفكرالاستشراقي، ص٣٦٠.

(٣) Le Probleme de Mahomet-P.3.

تم في سرية تامة، ولكنه كان يعلم السبب في إيحائه بذلك؛ لأننا نراه منذ قرر ذلك يلتحق برفاقه جولدزيهر وكايتاني ولامنس ودلافيدا في رسم صورة للسيرة لا توجد إلا في خيالاتهم، إننا نراه يجعل إسلام البدو سبباً في الوضع، إذ «منذ ذلك الحين فإن مادة القصص الليلية التي كانت تحكي حول المضارب.. لم تعد (أيام العرب)، بل إنها تبدلت بقصص غزوات محمد ضد المكيين والبدو. وهكذا، وفي اللحظة التي اختفى فيها مشيد الإسلام، فإن مواد سيرته التي تكفل الحديث بنقلها كانت متأثرة بميول مختلفة»[١].

وقد ذهب بعد هذا يطرح تساؤلات أشبه ما تكون بما طرحه دلافيدا فقال مثلاً: «ما هي العناصر التي ما زالت موجودة إلى اليوم؟ وهل بقي شيء فعلاً؟ لا يستطيع أي أحد أن يؤكد ذلك أو ينفيه؛ لأن النقل الشفهي استمر لمدة قرن تقريباً... وأثناء هذه المرحلة عرفت المواد المنقولة المصير الرهيب الذي ينتظر أي شيء يتكفل به النقل الشفهي»[٢].

واتبع بلاشير المنهج الذي اتبعه دلافيدا، فبعد أن شك في العناصر الأصيلة بإدخال الأعراب طرفاً في معادلة نقل السيرة، توجه إلى الميول الدينية الخارجية ليعطيها نصيبها من العمل على تشويه أحداث حياة النبي ﷺ الشخصية والدعوية فقال: «وفي الطريق، فإن أحاديث السيرة تضخمت بعناصر مدسوسة أوحى بها المحيط غير العربي، والاحتياجات الدينية للداخلين الجدد في الإسلام ذوي الأصول اليهودية والمسيحية»[٣].

والحقيقة أن ما قاله بلاشير ليس إلا تشنيعاً مقصوداً، بدليل أن الأعراب لم يكونوا في يوم ما مسؤولين عن نقل الحديث أو السيرة حتى يتغلغل ما يتخيلونه إلى أحداثها، بل تكفل بذلك أصحاب النبي ﷺ ثم العلماء من أبنائهم وأتباعهم الذين أوصلوها إلى مدونيها. أما بالنسبة للعناصر الإسرائيلية التي دخلت في السير فهي أمور معلومة عند الدارسين بحيث لم تؤثر في عملهم بالسيرة، أو قدرتهم على إبعاد العناصر الموضوعة عند استخدام السيرة في الفقه

---

(١) المرجع السابق، ص٤.

(٢) المرجع السابق، ص٤.

(٣) المرجع السابق، ص٥.

ورسم مسار الدعوة(١).

وقد يبدو للقارئ غير المتمرس بقراءة بلاشير أن نفوره من مدونات السيرة يأتي من احتوائها على بعض العناصر الدخيلة عليها، ولكن الأمر على خلاف ذلك تماماً، إذ كان يقصد إلى التعمية الشاملة على أحداث الدعوة الإسلامية، وإننا نرى ذلك بوضوح في تمييزه ـ نظرياً ـ بين المادة التي احتوتها السير، وتلك التي نقلها المحدثون الكبار أمثال الإمام البخاري، إذ «تتوافر في هذه الحالة، بدون شك، على معطيات تمثل أحسن تمثيل الروايات المتناقلة في المدينة في زمان النبي أو بعد وفاته، وصورته تبدو عارية أكثر منها في مؤلف ابن هشام، وأقرب ما نتصوره حسب القرآن»(٢).

ولكنه يرجع فيضم هذه المادة الحديثية من صحيح البخاري إلى تلك التي جاءت بها السير في الحكم عليها فيقول: إن «إحساسنا بالأمان لهذه الوثائق يبقى هشاً»(٣).

وقد أبان بلاشير عن قصده السيء مرة أخرى عند تهجمه على علماء السيرة، فخالف جميع ما قرره مؤرخو الشرق والغرب، وراح يهيئ النفسيات لتقبل الشك في مرويات ابن إسحاق بوساطة التعريض بخفة أخلاقه، ثم لوح بعدم قبول المدنيين له ولسيرته، غير باحث عن الأسباب الحقيقية وراء الخصومة بينه وبينهم، ثم أبدى ترحيب العراقيين به. وقد كانت هذه كلها خطوات لكي يجعل ابن إسحاق يبتعد عن منهج أهل المدينة الصارم في قبول الأخبار، ويتقبل «كل المواد، حتى القصص التي تضخمت بالعناصر العجيبة والساذجة، وخصوصاً في نقول أهل العراق، والقصاص منهم بوجه خاص»(٤).

ومن المعروف أن ابن إسحاق رحمه الله قد تعلم في المدينة، واشتهر أمره فيها، مما يجعل استقباله في العراق وشيوع سيرته فيه أمراً راجعاً إلى أسباب أخرى غير ما ذكر. وقد قصد بهجومه على أكثر السير جمعاً للمادة العلمية عن التابعين مباشرة، والأكثر خلواً من الإسرائيليات ـ بإجماع الدارسين ـ التشكيك في

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكرالاستشراقي، ص٣٦٢.

(٢) Le Probleme de Mahomet-P.7.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق، ص٦.

المصدر الأول للسيرة النبوية، وهو الأمر الذي يظهر في أشياء أخرى غير ما ذكرنا مثل عدم اعتباره ما دوَّن ابن سعد والواقدي ـ وكان مدنياً ـ مصادر أخرى للسيرة، رغم علمه بعدم اعتمادها على ابن إسحاق، وهو لم يكتف بهذا الحكم الغريب، بل انصرف مباشرة إلى البحث عن أسباب هذا الإجراء، وثالثة الأثافي نصحه للقراء بعدم قراءة السير الإسلامية وما كتبه المستشرقون المسلمون مثل محمد أسد ونصر الدين دينيه[١].

ويشبه موقف مونتغمري وات من السيرة موقف بلاشير، إذ أنه وقف منها موقفاً نظرياً سليماً يتمثل في قبوله بوجود الكثير من العناصر الصحيحة ضمن مدونات السيرة، ولذلك وعد بعدم استبعاد أي رواية فيها إلا إذا تبين وضعها، فقال مثلاً: «ولما كنت أبحث في خلفية حياة محمد في (فترتها) المكية، فقد تقدمت في الفكرة القائلة بأن الأحاديث يجب أن تقبل عامة، وأن تؤخذ بحذر، وأن تصحح قدر الإمكان في المسائل التي نشك فيها بوجود (تلفيق مغرض)، ولكن يجب ألا نرفض رفضاً باتاً إلا حيث يقع تناقض داخلي بينها»[٢].

ولكنه لم يلتزم بهذا الموقف ـ النظري ـ إلا فيما ندر من المسائل التي عالجها في كتبه المتعددة، فراح يستبعد ما نقلته أوثق الروايات، في أكثر الموضوعات التي اشتهر حكمها بين العلماء المسلمين، ويقترح تفسيرات غريبة لما لا حصر له من الأحداث التي شهدتها السيرة. ولعلنا نشير إلى مثال لما نقول، وهو محاولته الطعن في أحد الصحابة رغم أن الروايات المتعلقة بالحوادث التي اعتمد عليها ترجع إلى المرحلة المدنية، بل إلى مرحلة الفتوح الإسلامية، ولكن وات يكذب الروايات الموثوقة التي تجعل سبب تغيب سعد بن أبي وقاص عن موقعه غزوة نخلة هو ذهابه للبحث عن بعيره[٣]، ويجعل السبب الحقيقي لاختفائه يكمن في (الجبن)، واستدل على ذلك بإدعائه المرض في معركة القادسية، واستنتج كذب الروايات التي تنص على أنه أول من رمى بسهم في الإسلام، بحجة أنه حديث موضوع ليخفف «من هذين الحادثين»[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص٤، ونبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٦٣.
(٢) محمد في مكة، ص١٢.
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٦٠٢).
(٤) محمد في المدينة، ص١١.

والحقيقة أنه لا يوجد أي مبرر لتكذب الروايات في موضوع عدم حضور سعد الموقعة بين المسلمين والقرشيين في غزوة نخلة، ذلك ألا أحد من أصحابه كان ينتظر أن تكون هناك مواجهة عسكرية بين الطرفين، وشرود بعير، ولحوق صاحبه به ليس بالأمر الغريب حتى يكون مظنة ـ خصوصاً في ظروف عدم وجود قتال ـ للحكم عليه بالجبن. ومن المعلوم أن سعداً قد حضر المواقع كلها، وأبلى فيها كلها بلاء حسناً حتى أصبح من قواد المسلمين الكبار، ومعنى هذا أنه كان مشهوراً بالشجاعة لا الجبن الذي لم يحكم به عليه أحد من معاصريه، واشتهار هذا الأمر هو الذي جعل عمر بن الخطاب يوليه قيادة الجبهة الفارسية مع وجود عدد كبير من القواد المؤهلين، ومعنى هذا أنه رآه أهلاً لذلك، وهو الأمر الذي كان جميع هؤلاء القواد يوافقون عمر فيه، إذ لم ينقل لنا التاريخ أن أحدهم أبدى استياءه من قيادة سعد للمسلمين رغم مرضه، بل إنه كان القائد الفعلي رغم الحال التي كان عليها، وهذه كلها حيثيات تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك شجاعة سعد، ولكن وات بدا غير مهتم بكل هذه الأدلة، ذلك أنه كان يستجيب لرغبة لا تُدفع للعمل على التشكيك في كل أحداث السيرة والتاريخ الإسلامي[1].

---

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٦٤.

الفصل الثالث

المصادر الإسلامية الأخرى



الفصل الثالث

المصادر الإسلامية الأخرى

رغم أن المصادر الإسلامية لدى المستشرقين في الحديث عن سيرة النبي محمد ﷺ ينحصر معظمها في القرآن والسُّنَّة ومصادر السيرة المعروفة، إلا أن هناك مصادر أخرى تكميلية استند إليها المستشرقون في دراساتهم حول السيرة النبوية، ومن أهم هذه المصادر ما يلي:

أولاً: المصادر التاريخية:

اهتمت كثير من المصادر التاريخية بالسيرة النبوية، ويظهر ذلك من استفادة هذه المصنفات في مادتها الأساسية والأولية من مصادر السيرة النبوية المعتمدة. وتعتبر هذه المصادر التاريخية بالنسبة للمستشرقين مصادر أصلية موثوق بها في الإحالة، ودراسة المجتمعات الإسلامية، وبناء النتائج عليها، وأهمها حياة صدر الإسلام وتحديداً العهد النبوي وما جرى فيه من أحداث.

ولما كانت كثير من هذه الكتب لا يجري في رواياتها ورجالها ومصادرها التمحيص والتدقيق على نحو ما جرى في كتب السُّنَّة النبوية؛ فقد وجد فيها ما كان مدخلاً لبعض المستشرقين من الطعن في بعض أحداث السيرة، ومعارضة

ذلك بما هو مشهور في كتب السُّنَّة، ومن هذه المصادر التاريخية التي اعتنى بها المستشرقون في رصد أحداث السيرة:

١ ـ **«فتوح البلدان»** و**«أنساب الأشراف»** لأحمد بن يحيى البلاذري (ت٢٧٩هـ)، ففي الكتاب الأول تحدث البلاذري عن بعض موضوعات السيرة النبوية بدءاً من الهجرة النبوية، ولم يتحدث عن موضوعات السيرة النبوية بالترتيب أو بالشمول، وإنما عرض بعض موضوعاتها باختصار فقط[(١)]، أما كتابه الثاني فهو تاريخ عام خصص القسم الأول منه للسيرة النبوية، والبلاذري يعدُّ من علماء بغداد، وينظر المحدثون إليه نظرة تضعيف[(٢)].

ويعد البلاذري أبرز المؤرخين المسلمين بعد الطبري، من حيث سعة المعلومات التي دونها والفترات التاريخية التي غطاها، لكن كتابه «أنساب الأشراف» أحسن انتقاء للروايات وأنقى أسانيد، وأكثر اتفاقاً مع روايات أهل الثقة والصدق من تاريخ «الطبري»[(٣)].

وقد مدح المستشرق بليائيف «البلاذري» وكتابه: «فتوح البلدان» فيقول: «أما البلاذري فقد جاء قبل الطبري، وهو مؤرخ وجامع للأخبار يتصف بالتحري للروايات واستخلاص مؤداها، ففي كتابه فتوح البلدان وهو كتاب يعنى بأخبار الفتوحات العربية، لا يقصر همّه على سرد الحوادث السياسية والعسكرية، بل يتناول ناحية هامة، ولا سيما بالنسبة لنا، وهي جمع المعلومات الهامة عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في البلدان التي فتحها العرب»[(٤)].

٢ ـ **«تاريخ الرسل والملوك»** لأبي جعفر بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ).

والطبري مؤرخ مشهور، يعول عليه في دراسة تاريخ صدر الإسلام، وقد خصص قسماً كبيراً من كتابه للسيرة النبوية، واتبع منهج الحوليات في سرد أحداث السيرة سنة بسنة. واعتمد على ابن إسحاق، وبعض مؤرخي السيرة[(٥)].

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٦٦).

(٢) المرجع السابق (١/ ٦٧).

(٣) انظر: عصر الخلافة الراشدة: للدكتور: أكرم ضياء العمري، ص١٥ ـ ١٦، ومصادر السيرة النبوية وتقويمها: للدكتور: فاروق حمادة، ص١٣٠ ـ ١٣١.

(٤) كتاب العرب والإسلام والخلافة العربية، ص١٦٩.

(٥) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

ويمكن القول: إن كتاب الطبري يُعدُّ موسوعة تاريخية، قام على جمعها إمام ثقة في دينه وعدالته، قال عنه الخطيب البغدادي في كتابه «تاريخ بغداد»: «كان أحد أئمة العلماء، يحكم بقوله، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره، وكان حافظاً لكتاب الله، عارفاً بالقراءات، بصيراً بالمعاني، فقيهاً في أحكام القرآن، عالماً بالسنن وطرقها، وصحيحها وسقيمها، وناسخها ومنسوخها، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين... ومسائل الحلال والحرام، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم، وله الكتاب المشهور في تاريخ الأمم والملوك، وكتاب في التفسير لم يصنف أحد مثله»[(١)].

والطبري رحمه الله من المحدثين الكبار والفقهاء المجتهدين الأفذاذ، وقد وجد في تاريخه الصحيح والضعيف الواهي، والمكذوب الذي هو من قبيل الأساطير، وقد تعلق به كثير من أهل الأهواء، من المبتدعة، والمستشرقين حيث جعلوه عمدة لهم، ثم احتجوا بأنه من مرويات الطبري الإمام الثقة، وقد وجد رواة في أخبار الطبري من أمثال أبي مخنف[(٢)]، وسيف بن عمر التميمي[(٣)] وغيرهما ممن هو مجروح في عدالته ودينه.

كما أن الإمام الطبري قد سار على طريقة العلماء من قبله حيث يروون في مصنفاتهم الروايات الضعيفة والواهية مع سكوتهم عليها في الغالب؛ لأنهم يرون أنه متى ما أُدرج الإسناد فقد برئوا من العهدة، وأسندوا أمره إلى النظر في إسناده.

وشاهد ذلك قول الطبري في مقدمة تاريخه: «فما يكن في كتابي هذا من

---

(١) (١٦٣/٢).

(٢) أبي مخنف: وهو لوط بن يحيى بن سعيد بن مخنف الأزدي، الغامدي، أبو مخنف، عالم بالسير والأخبار، رافضي من أهل الكوفة. قال يحيى بن معين: ليس بثقة، وقال أبو حاتم: متروك الحديث، وقال الذهبي: أخباري تالف لا يوثق به. ينظر: سير أعلام النبلاء (٣٠١/٧)، وميزان الاعتدال (٤٠٥/٥).

(٣) سيف بن عمر: الضبي الأسيدي، ويقال: التميمي البرجمي، ويقال: السعدي الكوفي، مصنف الفتوح والردة، وغير ذلك. قال أبو حاتم: متروك، وقال ابن حبان: اتهم بالزندقة، وقال ابن عدي: عامة حديثة منكر، توفي سنة ٢٠٠هـ. ينظر: ميزان الاعتدال (٣٥٣/٣)، تهذيب التهذيب (١٢٣/٣)، رقم (٣١٩٠).

خبر ذكرناه عن بعض الماضين مما يستنكره قارئه، أو يستشنعه سامعه، من أجل أنه لم يعرف له وجهاً في الصحة، ولا معنى في الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت في ذلك من قبلنا، وإنما أتى من قبل بعض ناقليه إلينا، وإنا إنما أدينا ذلك على نحو ما أدي إلينا»[(١)].

وعن منزلة تاريخ الطبري لدى المستشرقين، يقول بليائيف: «كتاب الطبري كان المرجع الذي اعتمده المستعربون الأوروبيون في القرن التاسع عشر، ولا يزال حتى يومنا هذا مرجعاً في غاية الأهمية»[(٢)].

ويقول المستشرق جون غلوب (GLUBB)[(٣)] في مقدمة كتابه: «الفتوحات العربية الكبرى» عن أهم المصادر التاريخية التي يمكن الاستفادة منها: «وقد حاولت في كل ما لدي من جهد أن أحصل على قصتي من مصادرها العربية الأصلية. ولعل أهم هذه المصادر تاريخ (محمد الطبري) الذي يسمى كثيراً (بليفي) العرب. لكن سرده للحملات الحربية لا يتسم دائماً بالوضوح»[(٤)].

ويقول ول ديورانت في كلامه عن الطبري وتاريخه وما ينقده عليه:

«وشبيه بليفي في الغرب، أبو جعفر محمد الطبري (٨٣٨ ـ ٩٢٣هـ) عند المسلمين. كان أبو جعفر من أصل فارسي كما كان كثيرون من المؤلفين المسلمين وهب أربعين عاماً من حياته لكتابة تاريخ عام سماه كتاب «أخبار الأمم والملوك» قص فيه تاريخ العالم من بدء الخليقة إلى عام ٩١٣هـ. . . ذا روعة في بعض المواضع، ويتتبع فيه طريقة إيراد الحوادث مرتبة حسب تواريخ وقوعها عاماً بعد عام، وهي في العادة مصنفة منقولة من رواة قبله حتى يصل بها إلى من

---

(١) تاريخ الطبري (١/٨).

(٢) العرب والإسلام والخلافة العربية، ص١٦٩.

(٣) جون باغوت غلوب Sir John Bagot Glubb (١٨٩٧ ـ ١٩٨٦م): المعروف باسم (غلوب باشا)، ضابط بريطاني عرف بقيادته الجيش العربي الأردني، خدم غلوب باشا في فرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم تم نقله إلى العراق أثناء الانتداب البريطاني في العراق، وهناك عمل على بناء علاقات مع القبائل حتى حدود سيطرة الدولة السعودية ولعب دوراً مهما في شكل العلاقات البريطانية ـ العربية في تلك المنطقة. من آثاره: «الفتوحات العربية الكبرى». انظر: مقالة: قراءة في كتاب «حرب في الصحراء ـ مذكرات غلوب باشا» لمحمد العرفج (جريدة الرياض السعودية، عدد١٥٩٠٢، تاريخ١٣/٢/١٤٣٣هـ)، وموقع ويكيبيدا على الشبكة العنكبوتية (غلوب باشا).

(٤) الفتوحات العربية الكبرى، ص٢٠.

شاهدها بعينه، أو وقعت في أيامه، وفضل هذه الطريقة أنها تُعنى بذكر المصادر، ولكن لا يحاول تنسيق الروايات المختلفة ليكون منها قصة موحدة متصلة، ولهذا فإن تاريخه يبقى أكداساً من ثمار الجهد المضني لا عملاً من أعمال الفن»(١).

وعن منهج الطبري في كتابة تاريخه يقول بليائيف: «أما (الطبري) فيستهل تاريخه، كما كان المؤرخون العرب يفهمونه، بسرد وقائع التاريخ العام بدءاً بقصة الخليقة كما وردت في التوراة، ثم يأتي على ذكر جدود العبرانيين والرسل. ويتلو هذا الجزء أخبار تاريخية وأسطورية عن ملوك الفرس القدماء، وعن الساسانيين، معتمداً فيها على مصادر فارسية. وقد ينتهي بعد ذلك إلى التاريخ العربي ونشأة الإسلام.

بدأ الطبري تاريخه المسلسل بالسنة الأولى للهجرة، فذكر الأعمال الحربية والسياسية كما وقعت سنة بعد أخرى حسب التقويم الهجري؛ ولأن الطبري كان يحرص على ذكر مختلف الروايات حول حادثة معينة فإنه ضمَّن تاريخه روايات لا توافق بينها ولا انسجام، تاركاً للقارئ أن يقرر الأمر لنفسه وينهي القول بالعبارة المألوفة (والله أعلم)»(٢).

وعن مميزات تاريخ الطبري عند المستشرقين يقول: «والطبري دقيق في ذكر المصادر التي يرجع إليها ويحرص على ذكر الأسانيد والرجوع بها إلى عدد من الأجيال إلى أن ينتهي إلى شاهد عيان أو إلى خبر يُعد ناقله معاصراً للحادث.

وإلى جانب المعطيات التي توافرت له فقد انتفع (الطبري) بمجموعة الأخبار والروايات التاريخية التي جمعها آخرون كأبي مخنف وغيره.

وبناء على كثرة المعلومات التي توافرت في الكتاب فإنه يعتبر المصدر الأول الهام لدراسة نشأة الخلافة وتاريخها من القرن السابع حتى التاسع. ولكن مما يؤسف له أن هذه المجموعة من المعلومات هي أشبه بمادة خام لم يقصد مؤلفها أن تتعرض للنقد أو حتى إلى مجرد التعميم»(٣).

٣ ـ **«مروج الذهب ومعادن الجوهر»** لأبي الحسن علي بن الحسين المسعودي (ت٣٤٦هـ).

---

(١) قصة الحضارة (١٤/ ١٧٢).

(٢) العرب والإسلام والخلافة العربية، ص١٦٩.

(٣) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

والمسعودي مؤرخ مشهور في دراسته لتاريخ الدولة الإسلامية في عصورها الأولى، وقد خصص قسماً من كتابه لسيرة الرسول ﷺ، وقد اتبع منهج الحوليات في سرد أحداث السيرة حتى إنه سرد ذلك قبل الهجرة النبوية ورتبه على نظام الحوليات. واعتمد في رواياته على كتاب محمد بن إسحاق، ولكن لا يذكر لرواياته أي أسانيد تذكر، وهو كتاب مختصر جداً[(١)].

وقد كانت كتابات المسعودي موضع نقد لبعض أئمة الإسلام، حيث كان ذا نزعة شيعية اعتزالية، كما اتهم بإيراد الأكاذيب في كتبه. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «في تاريخ المسعودي من الأكاذيب ما لا يحصيه إلا الله، فكيف يوثق بحكاية منقطعة الإسناد في كتاب قد عرف بكثرة الكذب؟»[(٢)].

وقال عنه الذهبي رحمه الله: «كان أخبارياً صاحب ملح وغرائب، وعجائب، وفنون، وكان معتزلياً»[(٣)].

وقال ابن حجر رحمه الله: «وكتبه طافحة بأنه كان شيعياً معتزلياً، حتى أنه في حق ابن عمر قال أنه امتنع عن بيعة علي بن أبي طالب، ثم بايع بعد ذلك يزيد بن معاوية، والحجاج لعبد الملك بن مروان، وله من ذلك أشياء كثيرة»[(٤)(٥)].

٤ ـ «**الكامل في التاريخ**» لعز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم ابن الأثير (ت٦٣٠هـ)، خصص جزءاً كبيراً من كتابه للسيرة النبوية، والكتاب محقق، ومبني على نظام الحوليات، ابتدأه بنسب رسول الله ﷺ، واستعرض مكونات السيرة الأساسية كالمغازي والسرايا والبعوث وبعض الشمائل المحمدية. وابن الأثير، مؤرخ مشهور، ثبت وثقة، اعتمد على مصادر السيرة النبوية الأساسية، ولكن بدون إسناد، وجلّ معلوماته نقلها عن تاريخ الطبري[(٦)].

---

(١) انظر كتابه بتحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة دار الفكر، بيروت.
(٢) منهاج السُّنَّة النبوية: لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم (٤/ ٨٤).
(٣) سير أعلام النبلاء: للذهبي (١٥/ ٥٦٩).
(٤) لسان الميزان: لابن حجر (٤/ ٢٢٤).
(٥) وقد أكد الدكتور سليمان السويكت في دراسته للمسعودي: أنه ذو ميول شيعية قوية، وأن حبه لآل أبي طالب لا يكاد ينتهي عند حد، فقد بالغ في الإشادة بهم وتقريظهم، والرفع من شأنهم، وتقصي أخبارهم ووفياتهم، في كلا كتابيه المطبوعين: «المروج»، و«التنبيه». انظر: منهج المسعودي في كتابة التاريخ: د. سليمان بن عبد الله السويكت، ص٧٤.
(٦) انظر الكتاب نفسه.

٥ ـ «**البداية والنهاية**» للحافظ أبي الفداء إسماعيل ابن كثير (٧٧٤هـ). وابن كثير رحمه الله يُعدُّ من الرواد في كتابة السيرة، وله فيها جهود عظيمة. وقد خصص جزءاً كبيراً من كتابه هذا للسيرة النبوية وللشمائل المحمدية، وأَوْلاها عنايته، نظراً لاهتمامه برسول الله ﷺ وحبه لتاريخ الدولة الإسلامية، وهو يوثق معلوماته بشكل مباشر من مصادر السيرة ومن كتب الحديث والتراجم ويعول عليه في دراسة السيرة النبوية[1].

وقد كان للكتابين السابقين أثرهما لدى المستشرقين الغربيين في الحديث عن السيرة النبوية ـ خصوصاً ـ وأنهما قد تمت ترجمتهما قبل أن تتم ترجمة المصادر الأولية للسيرة النبوية، ولهذا نجد أن المستشرق ريجيس بلاشير في بحثه لتاريخ التأليف الغربي عن السيرة يشير إلى أنه قد ظهر تطور في نظرة الغربيين إلى تاريخ النبوة، منذ اكتشافهم أعمال ابن سعد والطبري وابن هشام في سنة ١٨٥٨م، فمنذ تلك اللحظة ـ كما يقول ـ: «لم يعد هناك أي شك في أن أعمال أبي الفدا وابن الأثير ليس لها أي سلطة. وفي المقابل قدر الباحثون أننا نقف على أرض صلبة باكتشافهم لهذه الأعمال الجديدة»[2].

ثانياً: كتب اللغة والأدب:

حفلت كتب اللغة والأدب بكثير من النصوص والمشاهد التي صورت بعض أحداث السيرة النبوية مثل كتب الجاحظ (ت٢٥٥هـ) وخاصة كتابه «البيان والتبيين»، وكتابي ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ)، «المعارف» و«الشعر والشعراء»، وكتاب «الكامل في اللغة» للمبرد[3]، وكتاب «إيضاح الوقف والابتداء»

---

(١) انظر الكتاب، وقد نشر في عدة طبعات متتالية حيث كانت أول طبعة في سنة ١٣٥١هـ ـ ١٩٣٣م، وانظر للاستزادة: منهجية التأليف في السيرة النبوية: ابن كثير ومراجعاته ونقده لمتون مرويات السيرة النبوية نموذجاً: د. عبد الرحمٰن السنيدي، ص٢٠ وما بعدها. ومصادر السيرة النبوية: للزهراني، ص٦٠.

(٢) Le Probleme de Mahomet-P.9. (مشكلة محمد) نقلاً عن نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٥٨.

(٣) المِبْرَد (٢١٠ ـ ٢٨٦هـ): محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد: إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار. مولده بالبصرة ووفاته ببغداد. من كتبه: «الكامل»، و«المذكر والمؤنث»، و«المقتضب»، و«شرح لامية العرب» مع شرح الزمخشريّ، و«إعراب القرآن»، و«طبقات النحاة البصريين»، قال الزبيدي في شرح خطبة =

للأنباري[١][٢].

وتعدُّ دواوين الشعر وثائق مهمة في كثير من الموضوعات، ولعل المطلع على كتاب «المغازي» لابن إسحاق، وكتاب «السيرة النبوية» لابن هشام يرى القدر الهائل من الأبيات الشعرية التي تصور جزءاً مهماً من أحداث السيرة النبوية، والمطلع أيضاً على دواوين الشعر لحسان بن ثابت، وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة، يجد فيها الفائدة الكبيرة في سيرة الرسول ﷺ، بل إن حسان بن ثابت رضي الله عنه يُسمَّى بشاعر الرسول ﷺ. ومع تسليمنا بفائدة كتب الأدب النثرية والشعرية إلا أنه «ينبغي الانتباه إلى أن كتب الأدب تُعنى بالشاذ والغريب، والطريف، فتدونه، أكثر من عنايتها بأحداث الحياة الرتيبة، ومن هنا نتبين خطورة تعميم ما فيها»[٣].

وقد استهوت كتب اللغة والأدب عقول كثير من المستشرقين، وذلك لأمور منها:

١ ـ أنها لا تعتمد على ذكر السند.

٢ ـ لا تبحث عن صحة النقل.

٣ ـ فيها شيء من الحكايات والأساطير.

٤ ـ تسليمهم بما فيها واعتبارها تمثل واقع المجتمع الاسلامي.

٥ ـ اهتمام المستشرقين بتعلم اللغة العربية وآدابها[٤].

ومن أشهر كتب اللغة والأدب التي اعتنى بها المستشرقون كتب الجاحظ من

= القاموس: المبرّد بفتح الراء المشددة عند الأكثر وبعضهم يكسر. انظر: وفيات الأعيان (١/ ٤٩٥)، وتاريخ بغداد (٣/ ٣٨٠)، لسان الميزان (٥/ ٤٣٠)، الأعلام (٧/ ١٤٤).

(١) ابن الأَنْبَاري (٢٧١ ـ ٣٢٨هـ): محمد بن القاسم بن محمد بن بشار، أبو بكر الأنباري: من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة، ومن أكثر الناس حفظاً للشعر والأخبار قيل: كان يحفظ ثلثمائة ألف شاهد في القرآن. ولد في الأنبار (على الفرات)، وتوفي ببغداد. من كتبه: «الزاهر» في اللغة، و«إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله ﷻ»، و«عجائب علوم القرآن»، وأجلّ كتبه «غريب الحديث». انظر: وفيات الأعيان (١/ ٥٠٣)، وتذكرة الحفاظ (٣/ ٥٧)، وطبقات الحنابلة (٢/ ٦٩)، الأعلام (٦/ ٣٣٤).

(٢) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، ص٤٤.

(٣) السيرة النبوية الصحيحة، ص٧١.

(٤) موقف المستشرقين من الصحابة، ص١٠١.

أمثال «الحيوان»، و«البيان والتبيين». فهذه الكتب اهتم المستشرقون بها في النقل والعزو إليها والاعتماد عليها.

والجاحظ قد تكلَّم عليه العلماء بما يفيد عدم الوثوق به. فقد قال عنه تلميذه ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ:

«الجاحظ وهو آخر المتكلمين والمعايير على المتقدمين وأحسنهم للحجة استشارة، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يَعْظُم، وتصغير العظيم حتى يصغُر، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه، ويحتج لفضل السودان على البيضان، وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السُّنَّة، ومرة يفضِّل علياً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ومرة يؤخِّره، ويقول: قال رسول الله ﷺ ويُتْبعه قال (الجماز)، وقال (إسماعيل بن غزوان) كذا وكذا من الفاحش، ويُجَلّ رسول الله ﷺ عن أن يذكر في كتاب ذُكرا فيه فكيف في ورقة أو بعد سطر وسطرين. ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين؛ فإذا صار إلى الرد عليهم تجوز في الحجة، كأنه إنما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون، وتشكيك الضعفة من المسلمين، وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الأحداث وشُرَّاب النبيذ».

وأما عن موقف الجاحظ من السُّنَّة، فيصفه ابن قتيبة بقوله: «ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم كذكره كبد الحوت، وقرن الشيطان، وذكر الحجر الأسود، وأنه كان أبيض فسوَّده المشركون؛ وقد كان يجب أن يبيضه المسلمون حين أسلموا؟!».

ويذكر (الصحيفة) التي كان فيها المُنزل في الرضاع تحت سرير «عائشة» فأكلتها الشاة؟ وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل»[(١)].

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ فيه: «العلامة المتبحر ذو الفنون، أبو عثمان عمر بن بحر بن محبوب البصري المعتزلي صاحب التصانيف»، وفي موضع آخر يقول: «قلت ما جنا قليل الدين له نوادر»[(٢)].

---

(١) تأويل مختلف الحديث: لابن قتيبة، ص٤١ ـ ٤٤.

(٢) سير أعلام النبلاء (١١/ ٥٢٧)، ولسان الميزان: لابن حجر (٤/ ٣٥٥).

ولقد أثرت اعتزاليته عليه في كثير من كتبه مثل: «البيان والتبيين» و«الحيوان» و«البخلاء» وغيرها، حيث تجد الاهتمام بالبلاغة، ومعرفة أشكال الجدل والمناقشات في المنازعات، وهذا تجده في كتابه «البيان والتبيين» وأما كتاب «الحيوان» فتجد الاهتمام بالاستدلالات الشعرية والقصصية وكذلك في كتاب «البخلاء»[١].

وقد خلص أحد الباحثين في دراسته للجاحظ إلى نتائج أهمها: أن الجاحظ قد ستر ما كان يعتقد من مذهب المعتزلة، بكتاباته الأدبية، فقال: «إن طغيان الجانب الأدبي عنده على الجوانب الفكرية الأخرى كان كالغصن الكبير الذي حجب الشجرة؛ فشغف الناس بأدبه وكلفوا به وأعرضوا عن الجوانب الأخرى في حياة الجاحظ خاصة مذهبة (الاعتزالي) فقد قام بنصرته وتوضيح مبادئه وجلاء مفاهيمه، وقد أضاف إلى الفكر الاعتزالي إضافات تنسجم مع منزعه الطبيعي، وتتلاءم مع ما جاء في هذا الميدان، كما أن إسلاميات الجاحظ من التراث ينبغي إعادة النظرة في مجمل هذا التراث، لاستنباط ما هو صالح منه للحياة، بكل طموحاتها، كما ينبغي غربلة هذا التراث نخله مما شابه من الغلو أحياناً والدس أحياناً أخرى»[٢].

- كتاب **«العقد الفريد»**، لابن عبد ربه:

ومن كتب الأدب التي يعتمد عليها المستشرقون كتاب «العقد» كما جاء عند ابن خلكان، والذهبي وغيرهما[٣].

وهذا الكتاب ألفه أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حدير بن سالم القرطبي، مولى هشام بن عبد الرحمٰن الأموي، توفي سنة ٣٢٧هـ، وبرع في الأدب من نثر ونظم، وأتقن الفقه. واتصف بصفات الندمان؛ من حب الموسيقى، وغرام بالصوت الحسن والوجه الحسن؛ إلا أنه عندما أصبح شيخاً ترك اللهو، وندم على ما فرط في زمانه[٤].

---

(١) موقف المستشرقين من الصحابة، ص١٠٤.

(٢) انظر: الجانب الاعتزالي عند الجاحظ: د. بلقاسم الغالي، ص٣٤٣ ـ ٣٤٨، وكتاب أبو عثمان الجاحظ: لمحمد عبد المنعم خفاجي، ص٣٠٩.

(٣) انظر: مقدمة كتاب العقد: لابن عبد ربه، تحقيق: محمد عبد القادر شاهين (١/٦).

(٤) انظر: الإكمال: لابن ماكولا، لعلي بن هبة الله بن ماكولا (٦/٣٦)، وسير أعلام النبلاء (١٥/ ٢٨٣).

«والكتاب كله صدىً لشخصيته، فهو أديب حسن الذوق في الاختيار، وإن كان ذوقه ينبو أحياناً فيروي من الهجر ما لا يليق، ولكن لا يفوتنا أن لكل عصر ذوقه ولكل بيئة حكمها، وهو نديم تابع للأمراء والخلفاء، فيتسع في ذكر الأجواد وعطاياهم حتى يرق قلوبهم ويلين أيديهم فتغدق عليه هو وأمثاله، وهو مثقف ثقافة دينية فيُعنى بحلال النبيذ وحرامه، وبالمذاهب الدينية وأقوال الفرق، وهو أميل إلى التشيع في اعتدال، فيقص ما يعلي شأن الطالبيين في رفق، ولا يتحرج من ذكر ما ليس من مذهبه، وهو شغوف بالموسيقى والغناء، يبث في ثنايا كلامه ما يمجدها ويعلي شأنهما، وهو شاعر يعنى بالعروض، ويضع له باباً طويلاً؛ ثم هو فوق ذلك يمتاز عن غيره. . . بميله الشديد إلى التاريخ يعرضه ويتوسع فيه وينقل منه كثيراً ممزوجاً بالأدب؛ فكلامه كثير في الوفود، وفي الأنساب، وفي أيام العرب، وباب في أخبار زياد والحجاج، ويختارهما ـ خاصة ـ لأنهما شخصيتان تُشبعان ميله التاريخي والأدبي معاً، ثم باب واسع مطول في الخلفاء وتواريخهم»[(١)].

والخلاصة: أن الكتاب مخلوط صحيحه بوَاهِيْه، محذوف منه الأسانيد والرواة، واعتمد على مصادر لا يجوز النقل منها إلا بعد التثبت، وفيه ميل إلى الفكاهة والدُّعابة، وينزع إلى القصص والنوادر، ولا يستنكف عن ذكر بذيء اللفظ وسافل المعنى، ورغم ذلك، فإن المسحة الأدبية تبدو قوية، يشعر بها كل من يقرأ «العقد» أو يتصفحه[(٢)].

ـ كتاب **«الأغاني»**، لأبي فرج الأصفهاني. وهو علي بن الحسين بن محمد بن الهيثم بن عبد الرحمٰن بن مروان بن عبد الله بن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموي، المعروف بالأصفهاني، المتوفى سنة ٣٥٦هـ[(٣)].

لقد كان أبو الفرج الأصفهاني وكتابه مصدراً رئيسياً ومهماً لدى كثير من المستشرقين في كتاباتهم عن الإسلام وأهله. بل جعل بعضهم نصه مقدماً على

---

(١) مقدمة محقق العقد الفريد، (١/ ٩).

(٢) كتب حذر منها العلماء: مشهور حسن آل سلمان (٢/ ٤٤)، وموقف المستشرقين من الصحابة، ص١٠٥.

(٣) انظر في ترجمته: الفهرست: لابن النديم (١٦٦ ـ ١٦٧)، وتاريخ بغداد (١١/ ٣٩٨ ـ ٤٠٠)، ووفيات الأعيان (٣/ ٣٠٧ ـ ٣٠٩)، وسير أعلام النبلاء (١٦/ ٢٠١ ـ ٢٠٣)، ومقدمة الجزء الأول من كتاب الأغاني، طبعة دار الكتب المصرية.

غيره وكأن الحق لا يعدوه، فيحكمون به على كثير من النصوص الشرعية والأخبار والروايات الصحيحة التي رواها جهابذة العلماء.

وقبل أن نبين منزلته عند المستشرقين نقف على أقوال أئمة الإسلام وعلماء الجرح والتعديل في أبي الفرج الأصفهاني وكتابه.

أخرج الخطيب البغدادي في تاريخه أن أبا محمد الحسن بن الحسين ابن النوبختي[١]، كان يقول: «كان أبو الفرج الأصبهاني أكذب الناس، كان يشتري شيئاً كثيراً من الصحف، ثم تكون كل رواياته منها»[٢].

وقال ابن الجوزي: «ومثله لا يوثق بروايته، يُصرِّح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهوِّن شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه، ومن تأمل كتب الأغاني رأى كل قبيح ومنكر»[٣]، وقال الذهبي عنه: «علي بن الحسين أبو الفرج الأصبهاني، الأموي، صاحب كتاب الأغاني شيعي، وهذا نادر في أموي، كان إليه المنتهى في معرفة الأخبار وأيام الناس، والشعر، والغناء والمحاضرات. يأتي بأعاجيب بحدثنا وأخبرنا»[٤].

ولكن منزلة الأصفهاني الضعيفة عند علماء الجرح والتعديل ليست كما هي عند المستشرقين، فللأصفهاني وكتابه الأغاني منزلة عليا كما تقدم، ولهذا فقد قام المستشرقون بتقويمه والثناء عليه قبل أن يطيروا بكتابه وبما جاء فيه من أخبار.

يقول بروكلمان في دائرة المعارف عن أبي الفرج الأصفهاني: «... مؤرخ عربي من نسل الأمويين، ولد في (أصفهان) عام ٢٨٤هـ (٨٩٧م) درس في (بغداد) ثم عاش عيشة الأديب الجوال، وحظي برعاية (سيف الدولة) ثم إسماعيل بن عباد، والمهلبي وهما من وزراء بني بويه، كما نال رعاية الأمويين في الأندلس، مع أنه لم يسع إلى ذلك شخصياً، وتوفي أبو الفرج في الرابع عشر من ذي الحجة عام ٣٥٦هـ».

---

(١) النوبختي (... ـ ٤٠٢هـ): هو الحسن بن الحسين بن علي بن العباس بن إسماعيل، أبو محمد النوبختي الكاتب، قال الأزهري عنه: كان النوبختي رافضيّاً رديء المذهب. وسئل البرقاني عن النوبختي فقال: كان معتزليّاً، وكان يتشيع، إلا أنه تبين أنه صدوق!. انظر: تاريخ بغداد (٧/ ٢٩٩).

(٢) تاريخ بغداد (١١/ ٣٩٨)

(٣) المنتظم: لابن الجوزي (٧/ ٤٠).

(٤) ميزان الاعتدال: للذهبي (٥/ ١٥١)، وانظر: لسان الميزان: لابن حجر (٤/ ٢٢١).

ويقول في موضع آخر: «وأهم تصانيفه، ولم يصل إلينا غيره، مصنفه المشهور كتاب «الأغاني» جمع فيه الأغاني التي كانت شائعة في عصره مع ذكر شيء عن ناظميها وأنسابهم التي كانت تبدو له ذات قيمة، وكان قد جمعها قبل المصنف مجموعة أكبر من الأغاني ذكر ألحانها من غير أن يعلق عليها.

وقد بدا أبو الفرج كتاب «الأغاني» بذكر المائة الصوت التي دونها بأمر «هارون الرشيد» إبراهيم الموصلي، وإسماعيل بن جامع، وفليج بن العوراء، وهم أشهر المغنين في عهد الرشيد، والتي غناها إسحاق بن إبراهيم في عهد الخليفة الواثق»[١].

وعن أهمية كتاب «الأغاني» يقول بروكلمان: «لا يعتبر أهم مرجع للتاريخ الأدبي إلى القرن الثالث الهجري فحسب، بل يعتبر أيضاً أهم مصدر لتاريخ الحضارة، وقد بيَّن لكل أغنية لحنها، وإن كان هذا هو أقل ما اشتمل عليه الكتاب. فلقد أضاف معلومات وفيرة عن الشعراء الذين نظموا هذه الأغاني وساق تفصيلاً عن حياتهم، واستشهد بكثير من أبياتهم، كما تكلم عن الملحنين وألحانهم.

هذا إلى ما زودنا به من تفصيلات كثيرة عن القبائل العربية القديمة وأيامها وحياتها الإجتماعية وحياة البلاط في عهد الأمويين، وحال المجتمع أيام الخلفاء العباسيين وخاصة (هارون الرشيد)، وما كان عليه بيئة الموسيقيين والمغنيين.

وصفوة القول فإن «الأغاني» يعرض لنا الحضارة العربية جمعاء من الجاهلية إلى نهاية القرن الثلاث الهجري (التاسع الميلادي) هذا إلى ما أسداه إلينا صاحب «الأغاني» من فضل آخر بانتهاجه سُنَّة الكُتَّاب العرب واستشهاده بفقرات طويلة لكُتَّاب قدامى لم تصلنا مؤلفاتهم، ومن ثم فإن كتابه مرجع أيضاً لتطور الأسلوب العربي»[٢].

ويقول عنه المستشرق ليفي دلافيدا: «أبو الفرج صاحب كتاب «الأغاني»، وهو من سلالة مروان الأول، ومن غريب أمر أبي الفرج أن له آراء في التشيع تتنافى وانتسابه لبني أمية»[٣].

---

(١) موجز دائرة المعارف الإسلامية (٢/ ٣٨٥).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٣٨٦).

(٣) دائرة المعارف الإسلامية (٢/ ٦٦٤)، مادة: (أمية).

وتقول المستشرقة الإيطالية ماريا نلينو[١] (MARIA NALLINO): «. . .وأجلُّ كتبه شأناً كتاب «الأغاني»، وقد قضى في تصنيفه ـ حسب قوله ـ خمسين عاماً، وفي هذا الكتاب جمع أبو الفرج الأغاني التي اختارها بأمر من «الرشيد» (الموسيقيون المشهورون إبراهيم الموصلي وإسماعيل بن جامع، وفليح بن أبي العوراء، وراجعها من بعدهم إسحاق بن إبراهيم الموصلي) وأضاف أبو الفرج أغاني آخرين مثل معبد، وابن سريج وخلفاء وذراريهم»[٢].

وقد دُرست شخصية أبي الفرج الأصفهاني وكتابه «الأغاني» في عدد من الدراسات المعاصرة، ومنها ما كتبه وليد الأعظمي بعنوان: «السيف اليماني في نحر أبي الفرج الأصفهاني» جاء فيها قوله:

«اعتمد أبو الفرج الأصفهاني في كثير من أخباره السوداء المظلمة المسمومة، على طائفة خبيثة من الرواة الكذابين، والمجروحين، والمطعون عليهم، واعتبر أخبارهم موثقة ولوَّث صفحات تاريخنا وأدبنا بالسخائم والبلايا. وقد رجعت إلى كتب الرجال في الجرح والتعديل، والتوثيق والتضعيف، فرأيت من هؤلاء كل داهية دهياء، وبلية عمياء، واستخرجت أقوال علماء السلف فيهم، وطعنهم عليهم، وتحذيرهم من الاعتماد عليهم، والرواية عنهم» ثم ساق المؤلف قائمة بأسماء أولئك الرواة المجروحين الذين اعتمد عليهم الأصفهاني، وأقوال العلماء فيهم[٣].

كما حمل كتاب «الأغاني» الإساءة إلى آل البيت رضوان الله عليهم، فهو «طافح بالأخبار التي تسيء إلى آل البيت النبوي الشريف، وتجرح سيرتهم، وتقدح في سلوكهم، وتهوِّن أمرهم، وتوهِّن شأنهم، وتجعل منهم عُشَّاقاً للهو والطرب والعبث. فالإمامان الحسن والحسين مغفَّلان منقادان لابن أبي عتيق، والإمام الحسين يقضي وقته لاهياً مع أشعب في المدينة.

---

(١) ماريا نلينو (١٩٠٨ ـ ١٩٧٤م): ابنة المستشرق الإيطالي، حصلت على الدكتوراه عام ١٩٢٩م، اهتمت بالشعر الجاهلي، ولها مشاركات في دائرة المعارف الإسلامية، بالإضافة لكتابات سياسية وتاريخية منها مايتعلق بالجزيرة العربية. موسوعة المستشرقين: لبدوي، ص٥٨٨ ـ ٥٩١.

(٢) موجز دائرة المعارف الإسلامية (٢/ ٣٨٧ ـ ٣٨٩)، وينظر: قصة الحضارة: لديورانت (١٤، ١٣/ ٢٢٥).

(٣) السيف اليماني في نحر أبي الفرج الأصفهاني، ص٢٧ وما بعدها.

ويزيد بن معاوية يشرب الخمر بمجلسه، وعنده الإمام الحسين فلا ينكر عليه، ومعبد يغني لزوجة الإمام الحسين، والسيدة سكينة سفيهة ماجنة رعناء، تحتكم في جمالها إلى عمر بن أبي ربيعة، وتجمع النساء لملاقاة عمر بن أبي ربيعة والحديث معه، وهي تحكم بين المغنين، ويموت المغني (حنين) الحيري في بيتها حين سقط السقف على الحاضرين. إلى غير ذلك من الأخبار التافهة الواهنة الواهية»[١].

ويضيف الباحث بقوله: «كما أساء الأصفهاني إلى آل البيت النبوي الشريف، فقد أساء إلى الأمويين، ولا ندري كيف نوفِّق بين ادعاء الأصفهاني بأنه أموي النسب، وهو يشتم أجداده، ويسيئ إليهم، وكيف يدعي الأصفهاني التشيع والولاء لآل البيت، وهو يطعن فيهم ويجرح سيرتهم»[٢].

«لقد شفى الأصفهاني غيظه من آل البيت، ومن الأمويين، ونال منهم وجرح سيرتهم... ولكنه لم يكتف بذلك، بل راح يشتم دين الإسلام علناً.... ثم فضَّل الجاهلية، واعتبرها خيراً من الاسلام، وذلك على لسان عبد الله بن عباس رضي الله عنه.

ثم راح الأصفهاني يشيد بالبرامكة ويدافع عنهم، ويورد أخباراً في ندم «الرشيد» على الفتك بهم.

ثم أشاد بالفرس، وأنهم بنوا الكعبة في عهد «ابن الزبير»، وأن العرب تعلموا الغناء من الفرس عند بناء الكعبة!!.

وراح الأصفهاني يتخبط ويضطرب في تزوير أحداث التاريخ وأسماء الأعلام وتواريخ الوفيات.

مع شتم للأعلام الكبار من أمثال أبي الأسود الدؤلي، وعطاء بن أبي رباح، ومجاهد، والإمام أبي حنيفة رضي الله عنهم.

ووجه طعنات مختلفة إلى الزهاد والعباد والصالحين، والفقهاء بحكايات تظهر الاستخفاف بهم، وبالصلاة والعبادة والحج... إلى غير ذلك من الأمور الذميمة التي يرتاح لها أعداء الإسلام قديماً وحديثاً»[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص٧٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٦.

(٣) المرجع السابق، ص١٨٧، وانظر: أبو الفرج الأصبهاني وكتابه الأغاني: لمحمد عبد الجواد =

ولعله بعد هذا العرض لبعض ما تضمنه كتاب الأغاني من تزوير لأحداث التاريخ الإسلامي ومحاولات لتشويهه بأسلوب التعميم في ذكر قصص الغناء والمجون، وامتهان أعلام الإسلام ورموزه من الخلفاء والعلماء وأهل الزهد والعبادة يتبين سبب اهتمام كثير من المستشرقين وتلاميذهم من التغريبيين[١] وغيرهم بأبي الفرج الأصبهاني وأغانيه في كتاباتهم عن التاريخ الإسلامي عموماً، وعن العصور والقرون المفضلة فيه على وجه الخصوص.

فقد اعتمد المستشرق لامنس على كتاب الأغاني، في كتابة «تاريخ بني أمية» وفيليب حتي في كتابه «تاريخ العرب المطول» بل وفلهاوزن في كتابه «الإمبراطورية العربية» وغيرهم[٢].

وختاماً «فإن كتب الأدب يجب أن تخضع في طبعاتها للمنهج الإسلامي في الجرح والتعديل، ويعلق على أخبارها ويحكم على صحتها أو اختلاقها بما تستحقه، وهذه خدمة عظيمة للفكر الإسلامي وللأدب نفسه»[٣].

ثالثاً: كتب التراجم:

ونعني بذلك تراجم الصحابة الذين عاشوا أحداث سيرة الرسول ﷺ

= الأصمعي (ص١٦١ ـ ١٩٧)، وكتاب دراسة الأغاني: تأليف: شفيق جبري، ودراسة كتاب الأغاني ومنهج مؤلفه: لداود سلّوم.

(١) ومن هؤلاء طه حسين الذي استقى معظم كتابه «حديث الأربعاء» بأجزائه الثلاثة من كتاب الأغاني، ولم يخضع تلك الأخبار التي أوردها للبحث والتحقيق والتمحيص والنقد كما ادعى، واعتبرها مسلمات بنى عليها أحكامه، مع أن طه حسين في المقابل شكك كثيراً في بعض أحداث السيرة النبوية وأخبار الفتوح والمغازي بل وفي بعض قصص القرآن. لقد ادعى طه حسين في كتابه هذا أن الناس في عصر الأصفهاني قد وافقوه على ما أورده في كتابه كما يقول: «كان القدماء يجدون في أخبار أبي الفرج، وفي أخبار الطبري، ما يكفيهم، ويسد حاجتهم إلى الحفظ والرواية، وكان ما كتب أبوالفرج والطبري وغيرهما من الأدباء ملائماً كل الملائمة لعقول هؤلاء الناس» (١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١)، وفي موضع آخر يصف القرن الهجري الثاني ـ وهو من القرون المفضلة ـ تبعاً للأصفهاني بأنه عصر شك ومجون فيقول: «فاعتقدت وما زلت أعتقد أن القرن الثاني للهجرة، على كثرة من عاش فيه من الفقهاء، والزهاد، وأصحاب الشك، والمشغوفين بالجد، إنما كان عصر شك ومجون، وعصر افتتان وإلحاد عن الأخلاق المألوفة، والعادات الموروثة والدين أيضاً» (٢/ ١٨٦)، وانظر: السيف اليماني، ص٤٨ ـ ٤٩.

(٢) موقف المستشرقين من الصحابة، ص١١٣.

(٣) مصادر السيرة النبوية وتقويمها، ص١٥٠.

وشاهدوا وقائعها سواء في المغازي والسرايا أو البعوث أو الوفود، أو ما يتعلق بشمائله وهديه ﷺ، فكانت كتب التراجم خير معين للتعرف على بعض صور وأحداث السيرة النبوية، وتفيد أيضاً «في التعرف برجال أسانيد كتب السيرة، مما له أثر كبير في دراسة موارد تلك الكتب وفي التمكن من نقد أسانيدها»(١).

وكتب التراجم كثيرة ولعل من أشهرها: كتاب «الطبقات الكبرى» لابن سعد (٢٣٠هـ)، وكتاب «تاريخ الصحابة» للبخاري (ت٢٥٦هـ)، وكتاب «تسمية أصحاب رسول الله» ﷺ للترمذي (ت٢٧٩هـ)، وكتاب «سير أعلام النبلاء» للذهبي (ت٧٤٨هـ)، وكتاب «الإصابة في تمييز الصحابة» لابن حجر (ت٨٥٢هـ). وغيرها من الكتب التي اهتمت بالرجال وبالأسانيد والجرح والتعديل(٢).

ـ ولعل كتاب «**الطبقات الكبرى**» لمحمد بن سعد كان أكثرها عناية من قبل علماء التراجم نظراً لأنه مصدر أولي مهم لكل من أتى بعده من أصحاب كتب التراجم.

وقد خصص ابن سعد رحمه الله الجزء الأول من كتابه للسيرة النبوية الشريفة، وخصص الجزء الثاني لغزوات النبي ﷺ، وبقية أجزاءه خصصها لتراجم الصحابة والتابعين ومن بعدهم من العلماء.

وقد كان ابن سعد كاتباً لدى الواقدي، ولهذا فقد أكثر النقل عنه في المغازي والسير، ورغم التجريح الذي نال أستاذه الواقدي فقد كان ابن سعد ثقة عند علماء الجرح والتعديل، وإن كانوا عابوا عليه رواياته عن الواقدي والكلبي(٣) والإكثار منها، وفيه يقول الحافظ ابن حجر: «صدوق فاضل»، وقال أيضاً: «أحد الحفاظ الكبار والثقات المتبحرين»(٤)، وصنفه الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ

(١) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ٧١).

(٢) مصادر السيرة النبوية للزهراني، ص٦٤.

(٣) ابن السَّائب الكَلْبي (... ـ ٢٠٤هـ): هشام بن محمد أبي النضر ابن السائب ابن بشر الكلبي، أبو المنذر: مؤرخ، عالم بالأنساب وأخبار العرب وأيامها، كثير التصانيف. من أهل الكوفة، ووفاته فيها. له نيف ومئة وخمسون كتاباً، منها: «الأصنام»، و«نسب الخيل»، و«الكنى» و«ملوك الطوائف»، و«ملوك كندة»، و«ما كانت الجاهلية تفعله ويوافق حكم الإسلام»، و«كتاب الأقاليم». انظر: الفهرست (١/ ٩٥)، ووفيات الأعيان (٢/ ١٩٥)، ولسان الميزان (٦/ ١٩٦)، الأعلام (٨/ ٨٧).

(٤) تقريب التهذيب (٢/ ١٦٣).

مع الحفاظ الكبار وقال: «الحافظ العلامة»[١]، وقد أخرج له أبو داود في سننه[٢].

وقد التزم ابن سعد في كتابه «الطبقات» الإسناد خصوصاً فيما يتعلق بالسيرة النبوية، لكنه لم يلتزم الصحة فيها ولهذا جاء في كتابه روايات شاذة ومنكرة تظهر للباحث عند المعارضة والتقصي ومراجعة كتب السير الأخرى والرجال، وخصوصاً في القسم الأول منه فيما يتعلق بتاريخ ما قبل الإسلام. ورغم هذا فقد امتاز كتابه بعدة أمور منها: إكثاره من أحاديث وروايات الشمائل، وصفات رسول الله ﷺ الخَلقية والخُلقية، كما أنه أطال القول في حديثه عن رسل النبي ﷺ إلى الملوك والحكام في عصره، والوفود إليه، وكذلك عن وفاته ومرضه.

كما أنه ومن خلال تراجم الصحابة ـ التي أوردها ابن سعد ـ يظهر للباحث الكثير مما نحن بصدده من الحديث عن السيرة النبوية، فالكتاب غزير الفائدة، عظيم النفع في هذا الباب، ومن الأمهات الأصول للباحث في السيرة النبوية والمجتمع الإسلامي في الصدر الأول[٣].

وهو من المراجع المهمة أيضاً عند المستشرقين في السيرة النبوية، وفي معرفة أحوال صحابته ﷺ[٤] ولهذا يقول مونتغمري وات:

«يمدنا ابن سعد بروايات متعددة عن أكثر من مسألة، وإن كان يجمع كثيراً من الأخبار التي لا قيمة لها، ولا نعثر إلا في النادر بين سطوره على شيء يعتمد عليه. غير أن سيره عن صحابة محمد منجم من المعلومات المفيدة لمعرفة بيئة محمد»[٥]. كما كانت طبقات ابن سعد أحد المراجع المعتمدة في السيرة لدى كل من ألويس شبرنجر في كتابه «حياة محمد وتعاليمه»، ونصر الدين دينيه في كتابه «محمد رسول الله».

---

(١) تذكرة الحفاظ (٢/ ٤٢٥).

(٢) مصادر السيرة النبوية وتقويمها: فاروق حمادة، ص٩٦.

(٣) المرجع السابق، ص٩٦ ـ ٩٧.

(٤) وللاستزادة في هذا الموضوع انظر: موقف المستشرقين من الصحابة: د.سعد بن عبد الله الماجد.

(٥) محمد في مكة، ص٨ ـ ٩.

الفصل الرابع

كتابات المتقدمين من المستشرقين



الفصل الرابع

كتابات المتقدمين من المستشرقين

تأثر كثير من المستشرقين بكتابات أسلافهم من المستشرقين الأوائل في شتى الدراسات الإسلامية التي تناولوها، وقدم كثير من هؤلاء كتابات المستشرقين على المصادر الأساسية في بحوثهم، وجعلوا الحكم في غالب اختياراتهم ونتائجهم إلى ما ذهب إليه سابقيهم، كما صاحب هذا المنهج الدعوة لقراءة نتاجهم الفكري، والثناء عليهم وتضخيم جهودهم في كل مناسبة تحين لهم.

يقول الدكتور محمد خليفة حسن: «وهكذا جاءت الكتب والمؤلفات الحديثة التي صدرت في الغرب عن الإسلام، لا تختلف في روحها ومادتها العلمية ونظرتها عن الإسلام عما كتبه السابقون. وكثيراً ما يستشهد كُتَّاب اليوم في كتاباتهم عن الإسلام بنصوص يقتبسونها من مستشرقي الأمس.

وربما أحسوا وهم يفعلون ذلك بقدر من الزهو، والظهور في صورة المتعمقين في الدراسات الشرقية الإسلامية.

ولو أنهم عكفوا على دراسة الحضارة الإسلامية دراسة واعية أمينة في مصادرها الأولى لصححوا كثيراً من مفاهيمهم الخاطئة أو المبتورة عن تلك الحضارة، فضلاً

عن بعض المفاهيم التي استقوها عمن يعتبرونهم رسل الاستشراق السابقين.

لكن ربما يحول دون قيامهم بمثل هذه الدراسات أن كثيرين منهم لا يعرفون من اللغة العربية وغيرها من اللغات الشرقية إلا القليل الذي لا يكفي إلا للتظاهر والتباهي.

هذا بالإضافة إلى أن كثيرين منهم ليست لديهم القدرة والجرأة على مخالفة السابقين»[(١)].

وفي مقابل الثناء على المستشرقين القدامى ومؤلفاتهم، ومحاولة الاعتبار لهم نجد التقليل من شأن الكتابة التاريخية العربية عن الإسلام في مصادره الأولى والمتأخرة.

فهذا المستشرق بليائيف وهو متخصص في التاريخ الإسلامي يحاول أن يعلي من شأن المستشرقين، ومن كتاباتهم، في حين أنه يحاول التقليل من شأن الكتابات التاريخية التي كتبها بعض أبناء المسلمين، ومن درس على أيديهم، فيقول:

«وما يصدر في يومنا هذا من كتب في «التاريخ العربي» يصنفها العرب أنفسهم، ليس لها من النفع ما للكتب التي يصنفها المستشرقون الغربيون؛ لأن المؤرخين العرب لا يستمدون معلوماتهم من المصادر العربية ذاتها بقدر ما يستمدونها من مقتطفات يقتطفونها من المصنفات الغربية.

وفضلاً عن هذا فإن أسلوب المؤرخين العرب في منتصف القرن العشرين لا يختلف عن أساليب المؤرخين العرب القدامى، الأمر الذي يقلل من قيمة مصنفاتهم ومكانتها العلمية.

ومن هذه المصنفات العربية الموجزة والشاملة معاً عن تاريخ العرب في العصور المتوسطة كتاب الأستاذ حسن إبراهيم حسن وعنوانه «تاريخ الإسلام السياسي» وكتاب الدكتور علي إبراهيم حسن وعنوانه «التاريخ الإسلامي».

ولكن هذين الكتابين، وسواهما من الكتب المشابهة لهما عديما الفائدة للباحث المؤرخ الذي له معرفة بالكتب التاريخية التي ألفها المستشرقون الأوروبيون عن العرب.

إذ أن المؤرخ العربي في يومنا هذا لا ينظر إلى الإسلام على أنه مجرد دين

---

(١) أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر: د. محمد خليفة حسن، ص٦٩ ـ ٧٠.

فحسب، بل لما يشتمل عليه من الحياة السياسية والثقافية في الشرق»[١].

وحتى عندما يخالف المستشرق ما ذهب إليه سابقه، فإن انتقاده يأتي على استحياء، كما لا يخلو في كثير من الأحيان من الثناء المبطن حتى وإن كان سابقه من أصحاب الكتابات المتعصبة على نحو ما وقع في كتابات لامنس، والتي يقول فيها المستشرق الفرنسي درمنغم:

«ومن دواعي الأسف أن كان الأب لامنس، الذي هو من أفضل المستشرقين المعاصرين، من أشدهم تعصباً، وأن شوّه كتبه الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ونبي الإسلام..»[٢].

ومن العجيب في كلام درمنغم المتقدم أن يجتمع في وصفه للامنس أنه من أفضل المستشرقين المعاصرين وأنه من أشدهم تعصباً، ثم يضيف بأن كتاباته عن الإسلام دقيقة لكنها مشوهة بكره الإسلام ونبيه ﷺ.

ومن دواعي اعتماد بعض المستشرقين على كتابات المتقدمين لهم توافر الدراسات السابقة لهم وقربها منهم، وإجادتهم للغات التي كتبت بها إجادة تامة. فقد تكون هي لغتهم الأم، أو اللغة الثانية التي تعلموها لأنها ثرية بالإنتاج العلمي الاستشراقي كالألمانية مثلاً[٣]، بل إن هناك فئة من المستشرقين تركوا لغتهم الأم وجنحوا إلى لغة استشراقية قوية في مجال الدراسات الاستشراقية كما هي الحال مع جولد زيهر المجري الذي تبنى اللغة الألمانية لغة علمية لإنتاجه العلمي في مجال الدراسات الاستشراقية[٤].

وقد أدى اعتماد كثير من المستشرقين في معلوماتهم عن الإسلام ونبيه ﷺ على من سبقهم من المستشرقين إلى أن يقع المتأخرون بالأخطاء نفسها التي وقع بها المتقدمون عن غير قصد أحياناً وعن قصد أحياناً أخرى. ويقع الاحتمال الأخير كثيراً في الكتابات الاستشراقية ذات الأهداف غير العلمية والموضوعية، وفي هذا يقول مونتغمري وات:

«جد الباحثون منذ القرن الثاني عشر في تعديل الصورة المشبوهة التي

---

(١) العرب والإسلام والخلافة العربية (ص٢٠٨)
(٢) حياة محمد: المقدمة، ح.
(٣) المستشرقون الألمان: للمنجد، ص٧ ـ ١٣.
(٤) الاستشراق والدراسات الإسلامية: للنملة، ص٣٠.

تولدت في أوروبا عن الإسلام. وعلى رغم الجهد العلمي الذي بذل في هذا السبيل، فإن آثار هذا الموقف المجافي للحقيقة التي أحدثتها كتابات القرون المتوسطة في أوروبا لا تزال قائمة. فالبحوث والدراسات الموضوعية لم تقدر بعد على اجتنابها»[١]. والمؤلف نفسه قد وقع ضحية نظريته هذه، فلم يستطع التخلص من الاتكاء على الماضي الاستشراقي في كتاباته حول الرسول ﷺ[٢].

ويذكر نورمان دانييل أنه «على الرغم من المحاولات الجدية المخلصة التي بذلها بعض الباحثين في العصور الحديثة للتحرر من المواقف التقليدية للكتاب النصارى من الإسلام فإنهم لم يتمكنوا من أن يتجرَّدوا منها تجرُّداً تاماً كما كانوا يتوهَّمون»[٣].

ولهذا يقول المستشرق برنارد لويس: «لا تزال آثار التعصب الديني الغربي ظاهرة في مؤلفات عدد من العلماء المعاصرين ومستترة في الغالب وراء الحواشي المرصوصة في الأبحاث العلمية»[٤].

والحواشي المرصوصة التي أشار لها «لويس» في الغالب مأخوذة من دراسات المستشرقين السابقين[٥]، ولذا نجد «سلسلة من المستشرقين يرددون ويطورون النظريات نفسها القائمة على ما كتبه المستشرقون من قبل... وأسوأ ما في الأمر جميعاً أن المستشرقين سايروا في كثير من الأحيان تقاليد معينة، حيث يمدون الجمهور الغربي بما يتوقع منهم أن يمدوه به... بل إن الأسوأ أن نجد كثيراً من المستشرقين وقد بنوا مواقفهم على الموقف العام للاستشراق دون نقد أو تمحيص كدليل على كماله، أو باعتباره أمراً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، على الرغم من أن الدراسات النقدية الحديثة لهذه الحركة قد زلزلت بدرجة كبيرة البرج العاجي الذي يعيشون فيه»[٦].

---

(١) الاستشراق والخلفية الفكرية، ص٦٩.

(٢) صور استشراقية: عبد الجليل شلبي، ص٣٧.

(٣) الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية: قاسم السامرائي، ص٦٩.

(٤) العرب في التاريخ: برنارد لويس، ص٦٣ نقلاً عن المستشرقون والإسلام: إبراهيم اللبان، ص٣٦.

(٥) المستشرقون والإسلام، ص٣٦.

(٦) منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي ضمن مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية: محمد بن عبود (١/ ٣٦٤)، والاستشراق والدراسات الإسلامية: للنملة، ص٣٣ ـ ٣٤.

وفي موضوع الكتابة الاستشراقية عن النبي محمد ﷺ وسيرته النبوية الشريفة تبرز في هذا المجال عدة محاور يظهر فيها بجلاء مدى التأثير والتأثر بين كتابات المستشرقين المتقدمة واللاحقة عليها، رغم مرور فترات زمنية متباعدة فيما بينها، ورغم دعوى بعض المستشرقين أن المصادر الاستشراقية المعاصرة قد تحررت من ربقة الكتابات القديمة وسعيها نحو الموضوعية بشكل جاد.

ومن أمثلة هذه المحاور في مجال الحديث عن كتابات المستشرقين عن النبي محمد ﷺ ما يلي:

١ ـ دعوى أن تعاليم الإسلام وكتابه القرآن قد اقتبسهما محمد ﷺ من مصادر يهودية ونصرانية:

وهي دعوى قديمة ظهرت بظهور الإسلام ادعاها المشركون في مكة بادئ الأمر وأخبر الله تعالى عنها في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣][(١)]، ثم تلقفها منهم المناوئون للإسلام من أصحاب الديانات الأخرى، وتولى نشرها والترويج لها كثير من المنتسبين لحركة الاستشراق قديماً وحديثاً، وحاولوا إلباسها صفة البحث التاريخي وبذلوا ـ عبثاً ـ كل ما يستطيعون لأجل جمع الشواهد والحوادث والمقارنات التي تؤيد نظرتهم هذه.

ورغم ما ادعاه بعض المعاصرين من المستشرقين من استقلالية في منهج البحث إلا أن كثيراً منهم قد تبع دعاوى المتقدمين من المستشرقين في هذا الموضوع وإن اختلف الأسلوب عند المتأخرين ـ كما سيأتي ـ حيث ترك كثير منهم الأسلوب المباشر في وصف تبعية النبي ﷺ ورسالته للأديان الأخرى، ونزع الغالب منهم إلى دعوى التأثر والاقتباس والأخذ الجزئي في جوانب معينة.

وعند محاولة التتبع التاريخي لهذه الدعوى في كتابات المستشرقين قديماً وحديثاً، يتبين أثر السابق على اللاحق كثيراً في هذا الجانب، وذلك كما يلي:

ـ ظهرت هذه الدعوى قديماً في كتابات هوجو ايولوجيوس القرطبي (ت٨٥٩م) وبطرس ألفا روس (ت٨٦٩م)، وقد ادعى هذان أن محمداً ﷺ نبي

(١) انظر: تفسير الطبري (١٤/١٧٨)، والقرطبي (١٠/١٧٨).

مزيف مؤسس لهرطقة مسيحية أيام الإمبراطور هرقل، وقد اتصل بأحد المسيحيين الذي أوهمه أنه ملهم من الله بوساطة جبريل[١].

ـ كما ادعى جيوبرت النوجنتي (ت١١٢٤م) في تقريره عن الحملة الصليبية الأولى أن النبي ﷺ تعلم من زاهد نصراني إسكندري مهرطق وحاقد على النصرانية[٢].

ـ زعم بطرس ألفونسي اليهودي الإسباني في سيرته عن محمد ﷺ عام ١١١٠م، أنه ﷺ قد وضع نفسه في اتصال مع مهرطق نصراني على مذهب اليعقوبية كان يعمل شماساً في كنيسة أنطاكية، فقام هذا الشماس اليعقوبي بمساعدة اثنين من الهراطقة اليهود بتعليم محمد أصول دعوته الجديدة، وبسرعة قام محمد ﷺ بنشر هرطقته[٣].

ـ توالت هذه الدعوى عند بطرس الموقر (ت١١٥٦م) لكنه أضاف في هذه المرة اسم الرجل الذي تلقى عنه محمد ﷺ. فقد زعم بطرس أن النبي ﷺ قد ادعى النبوة وأنه مرسل إليه، مستعيناً في ذلك بمساعدة راهب نسطوري يدعى (سرجيوس)، كانت الكنيسة قد طردته ففر إلى بلاد العرب، فألف محمد القرآن بإشرافه وتوجيهه، لكنه أعلن على الملأ أن الملك جبريل هو الذي نزل عليه بالقرآن من السماء. ولأن العرب لم يسمعوا عن النبوة من قبل، فإنهم صدقوا دعوى محمد ﷺ النبوة وجعلوا منه بطلاً[٤].

ـ وامتداداً لما تقدم حاول وليم الطرابلسي في القرن الثالث عشر الميلادي في كتابه المعنون بـ: «حول أحوال السرازنة ومحمد نبيهم الكاذب وحول الشعب نفسه وقوانينه»، والمعروف اختصاراً باللاتينية بـ: «أحوال السرازنة» إثبات تبعية محمد ﷺ الكاملة للنصرانية[٥].

ـ كما ظهر رايموندوس مارتي (ت١٢٨٤م) وكتابه «الفرقة المحمدية وأصل

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٣١ ـ ٣٢.
(٢) المرجع السابق، ص٣٥.
(٣) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٣٩ ـ ٤٠، وصورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى: سوذرن، ص٧٨.
(٤) المرجع السابق، ص٤٥.
(٥) المرجع السابق، ص٤٨. وانظر: دفاع عن محمد ﷺ: د. بدوي، ص٩.

محمد وتطور غايته والأدلة على فساد نبوته وزيفها». وفي هذا الكتاب صور رايموندوس مارتي شخص النبي ﷺ تصويراً خيالياً مغرضاً استهدف إخراج النبي ﷺ من عباءة النصرانية بوصفه شخصاً صاحب هرطقة مسيحية[1].

ـ ثم جاء توماس الإكويني (ت١٢٧٤م) فرأى ما رآه سابقوه، وادعى أن الإسلام عبارة عن دين زائف وهرطقة مسيحية[2].

ـ صنف ريكولدوس دي مونت كروسيز (ت١٣٢٠م) الراهب الدومينياكني النبي ﷺ كالمعتاد أنه تعلم على يد مهرطق مسيحي كون له القرآن الكريم من خليط من التعاليم والهرطقات المسيحية وغير المسيحية[3].

ـ رأى خوان أندريس الإسباني (القرن السادس عشر الميلادي) أن القرآن الموحي به إلى محمد ﷺ ليس غير تلفيق هرطقي من تعاليم اليهودية والنصرانية قام به النبي ﷺ بمساعدة نصارى مكة[4].

ـ كما كان موقف توماس إرينيوس الهولندي (ت١٦٢٤م) من الإسلام امتداداً للفكر الجدلي حيث رأى أن القرآن الكريم وإن كان مثالاً فائقاً للغة إلا أنه من جهة المضمون تقليد مضحك للكتاب المقدس لدى النصارى[5].

ـ أما المستشرق الإنجليزي همفري بريدو (ت١٧٢٤م) فقد ظهر له كتاب في بريطانيا عام ١٦٩٧م بعنوان: «الطبيعة الحقيقية للخداع مجسدة بالكامل في حياة محمد». وفيه يزعم (بريدو) أن النبي ﷺ قد اصطنع لنفسه ديناً مزيجاً من الديانات الوثنية، ومن اليهودية، والهرطقات النصرانية المنتشرة في الشرق، وبوساطة الحيل الخادعة، والمكايد الماكرة، خدع الناس، وأغراهم بهذا الدين[6].

ـ كما ادعى المستشرق الفرنسي لويس سيديو (ت١٨٧٦م) في كتابه «تاريخ العرب العام»: أن النبي ﷺ كان على علم بأديان اليهود والنصارى منذ

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٤٩.

(٢) المرجع السابق، ص٤٩.

(٣) المرجع السابق، ص٥٠.

(٤) المرجع السابق، ص٧٢، وسيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥١ ـ ٥٢.

(٥) تاريخ حركة الاستشراق: يوهان فوك، ص٦٧ ـ ٧٧.

(٦) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٧٤ ـ ٧٦، والرسول في تصورات الغربيين: جوستاف بفانمولر، ص١٢. وسيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥٨.

أن كان بمكة[١].

مع حلول القرن العشرين، وتحديداً في عام ١٩١١م أصدر القس الإسكتلندي، والمنصر الشهير دنكن بلاك ماكدونالد (ت١٩٤٣م) كتابه: «أوجه الإسلام» وفيه رأى أن التعاليم التي جاء بها النبي ﷺ هي تعاليم ناقصة في العديد من الجوانب، ولذلك فإن واجب العاملين في مجال التنصير أن يكملوا هذه الجوانب، ويعملوا على سد نقائضها وعوارها، وذلك بتنقيتها من البدع والهرطقات الأريوسية التي لحقت بها، كي تعود أفكاراً مسيحية خالصة لا سيما في جانب الاعتقاد في شخص المسيح وألوهيته[٢].

- جاء بعد ذلك المستشرق المجري الشهير إجناس جولدزيهر (ت١٩٢١م)، والذي انتهى في كتابيه الشهيرين: «محاضرات في الإسلام» الصادر سنة ١٩١٠م، و«مدارس التفسير الإسلامي» الصادر سنة ١٩٢٠م. إلى أن دعوة النبي محمد ﷺ ما هي إلا مزيج منتخب من معارف وآراء دينية قد عرفها من خلال اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها، تلك المعارف التي عكف عليها بالتأمل والتمثل وهو منطو في عزلته حتى تجذرت في أعماق نفسه فصارت لديه يقيناً راسخاً في شغاف قلبه مما جعله يعدها حقيقة إلٰهية واجبة الإبلاغ والبيان، وأنه هو نفسه مأمور بإنفاذ هذا الواجب، وإبلاغ تلك الحقيقة الإلٰهية[٣].

- حاول بعد ذلك المستشرق بول كازانوفا (ت١٩٢٦م) في كتابه «محمد ونهاية العالم» إثبات تأثر القرآن الكريم بالأناجيل بكل طريق، وركز على فكرة أحداث القيامة التي حاول أن يثبت ببحثها تحكم فكرة قرب نهاية العالم في نفسية النبي ﷺ ووقوعه تحت تأثيرها[٤].

- أما غوستاف لوبون (ت١٩٣١م) فقد تابع من قبله من المستشرقين بقوله: «إذا أرجعنا القرآن إلى أصوله، أمكننا عد الإسلام صورة مختصرة من النصرانية» ثم يتراجع لوبون بعد ذلك حين يصطدم بالفوارق العقدية ليقول: «والإسلام يختلف عن النصرانية ـ مع ذلك ـ في كثير من الأصول، ولا سيما في التوحيد

---

(١) ص٦٨.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٢ ـ ٩٣.

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص٢١ ـ ٢٢.

(٤) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٢٢٠ ـ ٢٢٢.

المطلق الذي هو أصل أساسي»[١].

ـ أما المستشرق سنوك هرجرونيه (ت١٩٣٦م) فقد طبق ما ادعى أنه منهجية تاريخية في تناول رسالة محمد ﷺ وهي منهجية (التمثيل والاستيعاب) انتهى فيها إلى النتائج ذاتها التي انتهى إليها جولدزيهر، فرسالة النبي ﷺ لديه قد استوعبت عناصرها الأساسية من الخارج، فعلى الرغم من معارضة النبي ﷺ للديانات الجاهلية، وكذلك اليهودية والنصرانية إلا أنه قد استوعبها جميعاً وتمثلها في تعاليمه[٢].

ـ ذهب المستشرق هنري لامنس (ت١٩٣٧م) والمشهور بكتاباته المتحاملة على الإسلام ونبيه ﷺ إلى أن الإسلام لم يكن سوى تأليف من مصادر يهودية ومسيحية؛ ولذلك عمل جاهداً على إثبات انتشار اليهود والمسيحيين في شبه الجزيرة العربية قبل البعثة. ولقد كان هذا هو الغرض الوحيد من تأليفه كتاب «غرب الجزيرة العربية قبل الهجرة» الذي نتجت عنه صورة للجزيرة العربية تموج بالمسيحيين القرشيين والعبيد وتجار الحبشة والشام، بل تجاوز ذلك إلى أن أضاف إليهم عدداً معتبراً من الحدادين والأطباء والجراحين وجراحي الأسنان والمعلمين[٣].

ـ ويشير كارل بروكلمان (ت١٩٥٦م) في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» إلى هذه الدعوى، فيقول: «وتذهب الروايات إلى أنه اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى، أما في مكة نفسها فلعله اتصل بجماعات من النصارى كانت معرفتهم بالتوراة والإنجيل هزيلة إلى حد بعيد»[٤].

ـ أخرج بعد ذلك المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير (ت١٩٧٣م) في عام ١٩٥٢م كتابه: «مشكلة محمد: دراسة نقدية لحياة مؤسس الإسلام». تبنى فيه رؤية ماسينون في حصر دور النبي ﷺ في البشارة والنذارة فقط متأسياً ومستعيراً ومستلهماً مصادر اليهود والنصارى المقدسة لديهم، وقد أعاد بلاشير في ذلك الكتاب طروحات هنري لامنس الجدلية التنصيرية المتطرفة، وخصوصاً ما يتعلق

---

(١) حضارة العرب، ص١٥٨.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٤.

(٣) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٢٦٠ ـ ٢٦٣.

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٤.

بعدم أصالة الوحي المحمدي مشككاً في سلامة نقل نصوص الوحي القرآني، ومؤكداً تأثر النبي ﷺ باليهودية والنصرانية[(١)].

ـ كما ادعى المستشرق فيليب حتي (ت١٩٧٨م) أن الإسلام تأثر بالتشريعات اليهودية والنصرانية، حيث نسج «في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس، وتأثر من بعد بطقوس صلاة الأحد التي يمارسها النصارى في البِيَع»[(٢)].

ـ أصدر المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون (ت٢٠٠٤م) كتابه: «محمد» في باريس عام ١٩٦٥م، وفي النسخة الإنجليزية أطلق عليه: «محمد نبي الإسلام». قدم رودنسون بعض البوادر الإيجابية في إطار رؤيته لنبوة محمد ﷺ ومظاهر وحيه، فهو يرفض جميع الأدبيات والبحوث الغربية التي تتهم النبي ﷺ بالكذب والاحتيال والخداع، ثم ينتهي إلى جوهر رؤيته المتمثل في:

أولاً: نفي الأصالة عن الوحي القرآني، وأنه يكوِّن كتاباً إلهياً.

ثانياً: الإصرار على أن النبي محمد ﷺ لم يأت بدين جديد، وأنه محصور في زاوية الإنذار والبشارة فحسب، أما الاعتقاد فمرجعه إلى ديانات سابقة خصوصاً عبادة الأوثان[(٣)].

٢ ـ دعوى ميل النبي ﷺ للنساء واتهام شريعته بالشهوانية:

وقد تناقل معشر المستشرقين هذه الدعوى قديماً وحديثاً، وأخذوا يعيدون ويزيدون فيها، ويؤولون الأحداث ويلوون أعناق النصوص لتأكيد هذا الأمر، وما زال المتأخرون يرددون كلام سابقيهم مع تغيير وتلطف في العبارة، ومحاولة الطعن من طرف خفي مع إثارة الشكوك والريب حول كل قصة تتعلق بتعامل النبي ﷺ مع النساء لأجل استغلالها في محاولة النيل من خلقه ﷺ واستقامته. ولنتابع فيما يلي طرفاً من السير التاريخي لهذه الدعوى، وكيف تأثر فيها بعض المستشرقين ببعض في تناقل هذا الزعم دون تمحيص أو تحقيق أو موضوعية تكشف الغشاوة عن مثل هذا الافتراء، ومن ذلك ما يلي:

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٥.
(٢) تاريخ العرب المطول، ص١٨١.
(٣) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٩.

ـ ظهرت هذه الدعوى قديماً عند كل من هوجو ايولوجيوس القرطبي (ت٨٥٩م) وبطرس ألفا روس (ت٨٦٩م) حيث زعما أن دين الاسلام لا يخطّئ معاشرة الأجنبيات تماماً كما فعل محمد مع زوجة ابنه بالتبني زيد بن حارثة[١].

ـ كما ظهرت هذه الدعوى عند رايموندوس مارتي (ت١٢٨٤م)، في كتابه «الفرقة المحمدية وأصل محمد وتطور غايته والأدلة على فساد نبوته وزيفها». وقد جعل رايموندس مارتي من الشريعة الإسلامية دليلاً على عدم صحة نبوته ﷺ لكونها شريعة شهوانية عدوانية مخالفة للفطرة الإنسانية، على النقيض من شريعة اليهود والنصارى المضمنة في التوراة والإنجيل[٢].

ـ كما زعم توماس الإكويني (ت١٢٧٤م) أن محمداً ﷺ استطاع إغواء كثير من الشعوب في الدخول في عقيدته من خلال تشجيعه إياها على الحصول على الملذات الحسية والشهوات الجنسية في الحقيقة أو بالوعود[٣].

ـ أورد ريكولدوس دي مونت كروسيز (ت١٣٢٠م) الراهب الدومينياكني اعتراضاً على نبوة محمد ﷺ يتمثل في السلوك الأخلاقي غير القويم الذي ينسبه إلى النبي محمد ﷺ جاعلاً منه دليلاً على عدم صحة النبوة والوحي المحمدي[٤].

كما اتهم خوان أندريس الإسباني (القرن السادس عشر الميلادي) النبي ﷺ بالشهوانية الجنسية التي زعم أنها حكمت ووجهت سائر تصرفاته الحياتية[٥].

ـ أما المستشرق الإنجليزي همفري بريدو (ت١٧٢٤م) فقد زعم في كتابه «الطبيعة الحقيقية للخداع مجسدة بالكامل في حياة محمد». أن النبي ﷺ قد اصطنع لنفسه ديناً، وأغرا الناس به مستخدماً كل ما يقدر عليه من ذلك، فأطلق العنان للغرائز الشهوانية بجميع أشكالها لخدمة أغراضه[٦].

ـ كما لم يتوان ليون كايتاني (ت١٩٢٦م) في كتابته عن السيرة النبوية عن

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٣١ ـ ٣٢.
(٢) المرجع السابق، ص٤٩.
(٣) المرجع السابق، ص٤٩.
(٤) المرجع السابق، ص٥٠.
(٥) المرجع السابق، ص٧٢، وسيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥١ ـ ٥٢.
(٦) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٧٤ ـ ٧٦، والرسول في تصورات الغربيين، جوستاف بفانمولر، ص١٢. وسيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥٨.

الضرب على وتر الضعف الإنساني لدى النبي ﷺ ـ بحسب زعمه ـ والذي فتح الباب أمام حب الذات، والأخطاء الدينية، والتجاوزات الأخلاقية[١].

ـ ولم يكتف المستشرق هنري لامنس (ت١٩٣٧م) بإبطال نبوة محمد ﷺ وحكمه على الإسلام بكونه مجرد إصلاح للسامية، وهو الحكم الذي يشاركه فيه عديد من المستشرقين، بل دفعه حقده إلى مخالفتهم في أحكامهم الإيجابية على الشخصية النبوية، حيث لم ينج هذا الجانب من المهزلة التي أقامها في مؤلفاته، فطعن في زوجاته ﷺ وبناته وعلاقاته الأسرية، وجعل النبي ﷺ وأصهاره يتبادلون النساء من أجل المصالح السياسية، حيث كان عثمان رضي الله عنه ـ مثلاً ـ يحل دائماً مشاكل النبي المالية والسياسية، وبالجملة فإن لامنس لم يؤلف كتابه: «فاطمة وبنات محمد» إلا من أجل تحقيق تشويه تام، ومحاولة إحداث انقلاب كلي في كل ما يعرفه العلماء ـ وخصوصاً المستشرقين الذين كانوا هدفه الأساس ـ من شفافية حياة نبينا ﷺ الخاصة والعامة. كما صور لامنس النبي ﷺ بعد الهجرة خاضعاً لمتع الحياة، حيث تحول من الزهد إلى الاشتغال التام، بإحاطة نفسه بمظاهر البذخ وصفات الملك[٢].

هذه أمثلة مختصرة لمقالات حول زعمين رددهما المستشرقون كثيراً، تظهر بجلاء كيف أن كثيراً من دعاوى الاستشراق القديمة ما زالت تدور رحاها إلى يومنا الحاضر في أروقة الاستشراق المعاصر دون تعديل أو تمحيص في أصل الدعوى، وإن كان قد يطرأ عليها تغيير في أسلوب العرض مع محاولة التلطف في العبارة واختيار المفردات غير المصادمة، ومن ثم تدبيج ذلك بدعوى الموضوعية والإنصاف.

ومع توفر المصادر الإسلامية الأساسية بشكل أفضل كثيراً مما كان عليه الأمر مع بدء حركة الاستشراق، وانتفاء الاعتذار الذي روج له المستشرقون المعاصرون لسابقيهم في عدم توافر مصادر المعلومات الأساسية حول السيرة النبوية فإن استمرار المعاصرين في طرح مثل هذه الدعاوى يثير الشكوك والريبة في مدى الموضوعية التي يدعيها هؤلاء، بل تطعن في زعمهم أن الاستشراق

---

(١) المرجع السابق، ص٩١.

(٢) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٢٦٠ ـ ٢٦٣.

والفكر الغربي عموماً أصبح منفتحاً على الآخر بشكل أكثر شمولية وإنصافاً عن ذي قبل، ويؤكد هذا الأمر على أن اتباع المتقدمين في مثل هذه الدعاوى يقف وراءه مقاصد وأهداف غير حميدة ترمي إلى النيل من الإسلام في شخص صاحب الرسالة وهو النبي ﷺ.



الباب الثالث

مناهج المستشرقين
في كتاباتهم عن النبي ﷺ

الفصل الأول: أنواع المناهج الاستشراقية في الكتابة عن النبي ﷺ.

المبحث الأول: المنهج التاريخي الوصفي.

المبحث الثاني: المنهج التحليلي النقدي.

المبحث الثالث: المنهج المادي.

المبحث الرابع: المنهج الانتقائي.

المبحث الخامس: المنهج الإسقاطي.

الفصل الثاني: السمات العامة لمناهج المستشرقين في الكتابة عن النبي ﷺ.

المبحث الأول: إنكار نبوة محمد ﷺ وكون القرآن وحياً إلٰهياً.

المبحث الثاني: كتابة السيرة النبوية بالعقلية الغربية العلمانية.

المبحث الثالث: دعوى تأثر رسالة النبي ﷺ ودعوته بالديانات الأخرى.

المبحث الرابع: المبالغة في الشك والافتراض، واعتماد الضعيف والشاذ في الاستدلال.

المبحث الخامس: إصدار الأحكام المسبقة دون استناد إلى الأدلة.



تمهيد

المنهج لغة: لفظ مشتق من النهج، تدور معانيه اللغوية حول الوضوح، والاستبانة، والاستقامة في الطريق. يقول ابن فارس[١]: «النهج: الطريق. ونهج لي الأمر: أوضحه، وهو مستقيم المنهاج. والمنهج: الطريق أيضاً، والجمع المناهج...»[٢].

فالمنهج في اللغة: هو إيضاح الأمر، وإبانته، واستقامته.

ويعرِّف الدكتور عبد الرحمٰن بدوي «المنهج» في الاصطلاح الحديث بأنه: «الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم، بواسطة طائفة من القواعد العامة تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة»[٣].

فكلمة «المنهج» في الاصطلاح ترتبط بالجانب اللغوي من جهة أن المنهج يهدف إلى إيضاح وبيان حقيقة الشيء والكشف عنه وإقامة البراهين عليه.

ومن هنا فمقصود البحث هو: بيان طرائق المستشرقين في الدراسة والبحث

---

(١) ابن فارس: أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين، من أئمة اللغة والأدب، قرأ عليه البديع الهمذاني والصاحب ابن عباد وغيرهما من أعيان البيان، من تصانيفه: «مقاييس اللغة»، و«المجمل»، و«جامع التأويل» في تفسير القرآن، توفي سنة ٣٩٠هـ. انظر: البداية والنهاية (١١/ ٣٣٥)، وفيات الأعيان (١/ ١١٨).

(٢) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن زكريا بن فارس، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (٥/ ٣٦١)، وانظر: مختار الصحاح: للرازي، ص٣٢٠، ولسان العرب: لابن منظور (٢/ ٣٨٣).

(٣) مناهج البحث العلمي: د. عبد الرحمٰن بدوي، ص٤. وانظر: أزمة البحث العلمي في العالم العربي: د. عبد الفتاح خضر، ص١١.

عن الجوانب المتعلقة بالنبي ﷺ سواء كان في الجوانب الشخصية والإنسانية أو في سيرته ﷺ العملية.

إن الكلام على مناهج المستشرقين يقتضي تتبع كتاباتهم وتحليلها والتدليل على ذلك بالنقولات عنهم قدر الإمكان، وقبل أن يشرع البحث في ذلك من المهم أن نسجل هنا بعض الملحوظات المنهجية على دراسات المستشرقين قبل أن نشير إلى مناهجهم البحثية في المباحث التالية.

ومن أهم هذه الملحوظات المنهجية، ما يلي:

١ ـ إن المستشرقين الذين يكتبون عن الإسلام ونبيه ﷺ لا يمثلون اتجاهاً واحداً، وإن كان ثمت تقاطعات بينهم لأنهم أبناء ثقافة واحدة تختلف جذرياً عن حضارة الإسلام وثقافته، ولذلك من العسير على المستشرق أن يدرك أثر الفكرة الدينية وحركتها في التاريخ وتأثيرها على النفس البشرية كإدراك المسلم «المؤمن». فالمؤرخ غير المسلم يتعامل بتجرد شديد أو لنقل منهج مادي صارم مع الحدث التاريخي، ويغفل دوافع النفس وكوامنها في خلق الحدث وتوجيهه؛ لأنه يتعامل مع حدث غريب عنه، ومن ثم فهو لا يتفاعل معه، ولا تخلو تلك الدراسات من حضور طاغٍ لنموذج يقاس عليه هو النموذج الغربي (المهيمن) في ظل العلاقة العدائية بين الإسلام والغرب. ومن هنا فليس غريباً مثلاً أن يعزو المؤرخ توينبي الفتوحات الإسلامية إلى قحط الصحراء وجوع العرب[١].

٢ ـ إن «الموضوعية» من الصعب تحققها في تلك الدراسات لما تتسم به العلاقة بين الإسلام والغرب من مؤثرات ذات عمق تاريخي (الحروب الصليبية ـ الاستعمار) ولا شك أن التزام الموضوعية والحياد سيؤدي إلى الإقرار بحقائق الإسلام الثابتة وهو الأمر الذي لا يريده جمهور المستشرقين، ولا تقر به غالب المجتمعات التي تحضنهم، ولا ترضى عنه معظم الجهات التي تدعمهم.

٣ ـ إن الدوافع ـ ولا شك ـ تحكم المناهج، ومن المسلّم به أن الاستشراق ارتبط ـ منذ نشأته ـ بالدوافع التنصيرية والكنسية التي ترغب في نشر معتقداتها ودحر مخالفيها، وكذلك نشأ الاستشراق في ظل حماية الجهات

(١) دراسة في التاريخ: توينبي (٣/ ٤٥٣).

الاستعمارية التي تحاول دوماً استكشاف الشرق واحتوائه، ومن هنا فالدوافع غير العلمية تفرز مناهج غير موضوعية.

٤ ـ إن البحث حول النبي محمد ﷺ يختلف كثيراً عن أي بحث آخر؛ لأن الباحث غير المسلم سيصطدم ابتداءً بقضايا غيبية مثل «الوحي» و«المعجزات» وغير ذلك، وبالتالي فهو إن كان ممن ينتمون إلى الاتجاه الاستشراقي الديني «اليهودي أو المسيحي» فهو متهم ابتداءً بالتحيّز لموقف اليهود والنصارى من الإسلام الرافض الاعتراف به كموير، وجولد زيهر، ولامنس، وبروكلمان، الذين أكدوا على صلة الإسلام بالنصرانية واليهودية وأنه ﷺ استلهم تعاليمه منهما.

وإن كان من أصحاب المنهج المادي فهو سينكر ابتداء قضية الوحي أو سيحاول تفسيرها تفسيراً مادياً على نحو ما ادعى جمع من المستشرقين بأن الوحي ناتج من تأثير الأفكار الكتابية والدينية السائدة في الوسط الديني الذي نشأ فيه محمد ﷺ، تلك الأفكار التي شكلت وعي النبي ﷺ في إطار نظرية «الخيال الخلاق» التي طورها مونتغمري وات وزعم من خلالها أن النبي ﷺ تمتع بنوع من الخيال الخلاق المعروف لدى بعض المؤلفين والشعراء والفنانين الذين يعبرون بطرق جذابة ومؤثرة عن آلام الناس وهمومهم، وأفراحهم، ومشاعرهم الداخلية. . . فهو إذاً خيال خلاق متدفق لدى محمد ﷺ ظنه وحياً إلٰهياً[١].

٥ ـ أثر البيئة الأوروبية التي تربّى فيها المستشرقون وأخذوا منها مناهجها، وطرق معالجتها للحضارات والأفكار الإنسانية، وجنوحها إلى رفض القديم، وعدم التعويل عليه، وطرحه جانباً بعد أن عانت منه الأمّرين من الناحية الدينية، والفكرية، والثقافية، والعقلية، والإنسانية. ومن هنا رفض المستشرقون كل مصدر سابق للمعرفة سواء باسم الوحي أو الدين أو الحدس أو المثال، واستبدال ذلك كله بالإيمان المطلق بالعقل البشري وقدرته، وبالثقة التي لا حدود لها بالفكر الإنساني، وإمكانية وصوله إلى الحقيقة بالجهد الإنساني، وإمكانية وصوله بنفسه دون الاعتماد على أي مصدر مسبق[٢]. ولا شك بأن هذه المنهجية قد أورثت المستشرقين العديد من الأخطاء في تناولهم لسيرة النبي محمد ﷺ.

---

(١) انظر: محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١١٤.

(٢) التراث والتجديد: د. حسن حنفي، ص٦٢.

٦ ـ كما أن اتساع نطاق الفلسفة الوضعية، وتأثيرها المباشر على المفكرين الغربيين بعد أن وضع أسسها «أوجست كونت»[١] أدت إلى أن أصبح الباحثون يعتمدون على الدراسات العلمية المجردة لتفسير الظواهر والأفكار الإنسانية. وإخضاع هذه الدراسات الإنسانية إلى مناهج العلوم التجريبية. وهذه المناهج لا تؤدي عادة إلى نتائج علمية مستساغة عند تطبيقها على الدراسات الإسلامية التي يلعب فيها الإيمان بالوحي والنبوة الدور الأكبر والهام فيها[٢].

هذه أبرز الملحوظات الإجمالية لفهم طبيعة المناهج الاستشراقية، وبيان أسباب ابتعاد كثير منها عن الموضوعية وهو ما سيتضح في المباحث التالية، التي تتناول أنواع المناهج الاستشراقية في الكتابة عن النبي ﷺ.

(١) أوجست كونت (١٧٩٨ ـ ١٨٥٧م): فيلسوف فرنسي، مؤسس الفلسفة الوضعية التي كانت القضية الأساسية فيها: أن يقتصر العلم على وصف المظهر الخارجي للظواهر، وقد أكد كونت بناء على هذه النظرية أن الميتافيزيقيا ينبغي أن تلغى، ويعتبر كونت مقترح اصطلاح «علم الاجتماع»، وعنده أن الرأسمالية تتوج تاريخ تطور الإنسان. ويرى أنه يمكن أن يندمج المجتمع في الدين الجديد وهو ـ في زعمه ـ الإنسانية بوجه عام. من أهم كتبه: «دروس في الفلسفة الوضعية». انظر: الموسوعة الفلسفية، ص٣٩٧.

(٢) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

الفصل الأول

أنواع المناهج الاستشراقية في الكتابة عن النبي ﷺ

المبحث الأول: المنهج التاريخي الوصفي.
المبحث الثاني: المنهج التحليلي النقدي.
المبحث الثالث: المنهج المادي.
المبحث الرابع: المنهج الانتقائي.
المبحث الخامس: المنهج الإسقاطي.



المبحث الأول

المنهج التاريخي الوصفي

المنهج التاريخي الذي طبقه المستشرقون على الدراسات الإسلامية هو عبارة عن «ترتيب وقائع تاريخية أو اجتماعية وتبويبها وترتيبها ثم الإخبار عنها والتعريف بها باعتبارها الظاهرة الفكرية ذاتها»[١].

والتاريخ قد يكون عاماً بحيث يشمل دراسة كل الظواهر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والقانونية لمجتمع من المجتمعات. وقد ينصب على النواحي السياسية ـ دون غيرها ـ كوصف نظم الحكم المختلفة، والأسر الحاكمة والظواهر الاجتماعية التي رافقت هذه النظم السياسية. وقد يكون التاريخ منصباً على سيرة العلماء والمفكرين من حيث تراجم حياتهم ومؤلفاتهم وآثارهم وما ساهموا به في مجال الحياة الثقافية والفكرية.

وعندما تناول المستشرقون الحضارة الإسلامية بالدرس والتحليل فقد طبقوا عليها المنهج التاريخي. ومن هنا كان تصنيفهم للتاريخ الإسلامي ومفكريه على نمط العقلية الغربية.

فهم إذا ما تحدثوا عن محمد ﷺ قالوا: إنه كان تاجراً ميسوراً. وعندما

(١) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٦٥ ـ ١٦٦).

يتناولون دعوته يقولون: إنها جاءت للانقضاض على الارستقراطية القرشية. وعندما يتحدثون عن جهاده ﷺ يقولون: إن لديه أغراضاً سياسة يرمي إلى تحقيقها بالقوة المسلحة للوصول إلى السلطة والهيمنة على الجزيرة العربية وهكذا[١]، وأن حركة الفتوحات ـ كما يزعم توينبي ـ كان سببها الجوع وقحط الصحراء العربية[٢]، وهو ما ينتقده حتى بعض المستشرقين كمونتغمري وات الذي رأى أنه ليس هناك برهان على عموم سوء الأحوال المناخية في صحراء جزيرة العرب فلقد كانت الحياة فيها مقبولة، كما أن جمعاً من الصحابة كانوا يعودون أدراجهم إلى حياة الصحراء التي يحبونها كلما توقفت حركة الفتوح[٣].

وإذا كان الهدف من تطبيق المنهج التاريخي هو الحصول على أكبر قدر ممكن من المعارف والمعلومات عن الموضوع المراد دراسته، فإن مهمة الباحث هنا إرجاع الظواهر الفكرية إلى أصولها الأولى. فنحن عندما ندرس الحضارة الإسلامية فإن الذي يعنينا ليس التطور التاريخي للحوادث والأخبار وجمعها وتحقيقها، فهذا السرد لا يؤدي بنا إلى نتائج جديدة لأنه عبارة عن ترداد لما حصل في الماضي، ولكن مهمة الباحث الحقيقية هي إرجاع الظواهر الفكرية الإسلامية إلى أصولها الأولى التي خرجت منها كالقرآن والسُّنَّة مثلاً، لمعرفة كيفية خروجها منها ومحاولة العثور على منهج أو مناهج دائمة يمكن بواسطتها العثور على منهج إسلامي عام[٤].

وأخيراً فإن المنهج التاريخي قد استخدم في أوروبا لدراسة المسيحية لأنها نشأت في بيئة دينية، ودخلت المؤثرات الخارجية كالبابلية[٥] والأشورية[٦]

(١) المرجع السابق (١/١٦٦ ـ ١٦٧).

(٢) دراسة التاريخ: توينبي (٣/٣٤٩، ٤٤٥، ٤٥٣ ـ ٤٥٤).

(٣) محمد في مكة، ص٢٠.

(٤) التراث والتجديد: د.حسن حنفي، ص٦٩.

(٥) البابلية: نسبة إلى بابل مدينة قديمة بأرض الرافدين كانت قاعدة امبراطورية بابل، ازدهرت في الألف الثالثة قبل الميلاد وجعلها حمورابي عاصمة له. وفلسفتها لها تأثير في المسيحية في فكرة تعدد الآلهة وبعض قصص الكتاب المقدس. انظر: الموسوعة العربية، ص٢٩٦. وللاستزادة انظر: العقائد الوثنية في الديانة النصرانية: محمد طاهر التنير.

(٦) الأشورية: نسبة إلى مدينة آشور في أعالي نهر دجلة، قامت حولها امبراطورية قديمة قويت في القرن ١٢ق.م، وانتهت سنة ٦١٢م بهزيمة آخر ملوكها (سن شاد) وآلت أملاكها إلى الامبراطورية الفارسية. انظر: الموسوعة العربية، ص١٦٧.

والغنوصية[1] على نصّها الديني. وهذا المنهج يبيح للباحث الكشف عن العناصر الأساسية التي ساعدت على تكوين المسيحية الأولى. لكن عندما يطبق المستشرق هذا المنهج على الظواهر الفكرية الإسلامية ـ التي هي في حقيقتها مثالية وليست مادية؛ أي: أنها موضوعات فكرية مستقلة وليست موضوعات تاريخية ـ تكون النتائج العلمية ليست صحيحة عند تطبيق هذا المنهج على الدراسات الإسلامية[2].

يضاف إلى ذلك أن استخدام هذا المنهج يؤدي إلى إنكار نبوة محمد ﷺ، وعدم صدقية الوحي الإلٰهي؛ لأنه يحيل كل شيء إلى ظواهر تاريخية.

فبعض المستشرقين إذا ذكروا محمداً ﷺ فإنهم يصنفونه مع أنبياء الفرس وحكمائهم وذلك عندما يعقدون المقابلات بينه وبين «زرادشت»[3] و«ماني»[4] حول الإسراء والمعراج والاتصال بالملكوت الأعلى، وهكذا يصبح هذا المنهج أداة لمحو النبوة المحمدية وتفسيرها ضمن النبوءات الأخرى التاريخية. وهو بذلك يقوم على فكرة مسبقة وعلى تميز حضاري وتعصب ديني[5].

---

(١) الغنوصية: كلمة يونانية الأصل «غنوسيس»، وقد أطلقت على حركة دينية فلسفية في القرون الأولى من المسيحية، كانت تمزج اللاهوت المسيحي وديانات الشرق القديمة والافلاطونية الجديدة والفيثاغورية، والغنوصية ـ اصطلاحاً ـ تعني: التوصل بنوع من الكشف إلى المعارف العليا، أو هو تذوق تلك المعارف تذوقاً مباشراً بأن تلقي في النفس إلقاء فلا تستند إلى الاستدلال أو البرهنة العقلية. وكان شعارها بداية الكمال هي معرفة غنوص الإنسان، أما معرفة الإله فهي الغاية والنهاية. انظر: الموسوعة الميسرة في المذاهب والأديان (٢/ ١١٣١)، والموسوعة الفلسفية، ص٣٢١.

(٢) دراسات إسلامية: د. حسن حنفي، ص٢٢٧.

(٣) زرادشت (القرن التاسع وقيل السادس قبل الميلاد): ولد في آذربيجان ثم انتقل إلى فلسطين فسمع من بعض أنبياء بني إسرائيل، ثم عاد إلى آذربيجان، ولم تطمئن نفسه لليهودية فدرس أديان الفرس، ولما بلغ الثلاثين ادعى أن الله بعثه رسولاً، ونسبت إليه معجزات، وأهم كتبه المنسوبة إليه «الأفستا»، اختلف في ضبط اسمه. انظر: الملل والنحل (١/ ٥٨٣)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص١٢٠، مروج الذهب (١/ ٢٢٩)، الموسوعة الفلسفية، ص٢٢٤.

(٤) ماني بن فاتك (٢١٦ ـ ٢٧٢م): الثنوي لقوله بإلهين، مؤسس المانوية، ربما كان فارسي الأصل، ادعى النبوة في الرابعة والعشرين وشرع يدعو للمانوية، وقصد الهند، لاقت دعوته معارضة شديدة من كهنة الزرادشتية، فلما نصب بهرام بن شابور ملكاً للفرس قضى بإعدامه سنة ٢٧٢م. انظر: الملل والنحل (١/ ٦١٩)، الفهرست، ص٤٥٦، تاريخ ابن خلدون (١/ ٢٥٦)، الموسوعة الفلسفية، ص٤١٧.

(٥) دراسات إسلامية، ص٢٢٨، والظاهرة الاستشراقية (١/ ١٦٨).

والمنهج التاريخي إذا أريد له النجاح في تناول السيرة فإن ذلك يقتضي ثلاثة شروط:

أولها: الإيمان بالله، أو على الأقل احترام المصدر الغيبي لرسالة النبي ﷺ وحقيقة الوحي الذي تقوم عليه.

وثانيها: اعتماد موقف موضوعي بغير حكم مسبق، يتجاوز كل الإسقاطات التي من شأنها أن تعرقل عملية الفهم.

وثالثها: الإحاطة بأدوات البحث التاريخي بدءاً باللغة وجمع المادة، وانتهاء بطرائق المقارنة والموازنة والنقد والتركيب. وإذا كان الغربيون بلغوا حد التمكن في النقطة الأخيرة، فإنهم في النهاية لم يستطيعوا أن يقدموا أعمالاً علمية لواقعة السيرة، ولا قدروا على الاقتراب من حافة الفهم بسبب أنهم كان يعوزهم التعامل الأكثر علمية مع النقطتين الأولى والثانية من احترام المصدر الغيبي واعتماد الموقف الموضوعي[1].

---

(١) انظر: بحث «الاستشراق والسيرة»: لعماد الدين خليل ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية (١/١١٦)، والاستشراق في السيرة النبوية: د. عبد الله النعيم، ص٣٥ ـ ٣٦.

المبحث الثاني

المنهج التحليلي النقدي

يقوم المنهج التحليلي على «تفتيت الظاهرة الفكرية إلى مجموعة من العناصر يتم التأليف بينها في حزمة لا متجانسة من الوقائع أو العوامل التي أنشأتها»[١].

بمعنى أنه إذا كان المنهج التاريخي يقوم باستبدال واقعة مادية بالظاهرية الفكرية فإن المنهج التحليلي يقوم بعد ذلك بتفتيت هذا الظاهرة وردها إلى عناصرها الأولية، كأن تكون ظروفاً اجتماعية أو سياسية أو دينية.

وطبقاً لهذا المنهج وهذه الخطوة يصبح العنصر الديني مع أنه الدافع الأول لتكوين الظاهرة عنصراً مساعداً لبقية العناصر ضامراً متقوقعاً.

وقد عارض المستشرق السويدي «تور أندريه» صاحب كتاب «محمد حياته وعقيدته» هذا المنهج العقيم الذي سلكه بعض المستشرقين في البحث، مبيناً أن جوهر النبوة، لا يمكن تحليله إلى مجموعة من آلاف العناصر الجزئية، ويرى أن مهمة الباحث هي: أن يدرك في نظرة موضوعية كيف تتألف من العناصر والمؤثرات المختلفة وحدة جديدة أصيلة تنبض بالحياة[٢].

---

(١) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٦٨).

(٢) المستشرقون والقرآن: التهامي نقرة، بحث ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات =

ومنهج تفتيت الظواهر إلى جزئيات لا يمكن أن يكون منهجاً عاماً متفقاً عليه؛ لأنه نابع من عقلية الباحث الغربي ومزاجه وثقافته وبيئته وطبيعة الدين الذي نشأ فيه. ومن هنا يتضح خطأ المستشرق حين يطبق هذا المنهج ـ الإقليمي أو المحلي ـ على الظاهرة الدينية الإسلامية.

أما المسيحية، فطبقاً لها يمكن تقسيم الظاهرة إلى عوامل دينية وأخرى غير دينية، وذلك لأن الدين المسيحي لا ينظم إلا الجانب الروحي، أما الجوانب المادية التي تتضمن، عوامل سياسية واقتصادية واجتماعية فلا شأن للدين بها(١).

ومن أخطاء المستشرقين في تطبيق هذا المنهج على النبوة والوحي والقرآن والسيرة، ما يلي:

١ ـ أنه قد يلجأ إليه عامداً من يريد القضاء على الطابع الكلي الشامل، وهو أهم ما يميز الحضارة الإسلامية التي قامت ـ أيضاً ـ على وحي كلي شامل.

٢ ـ قد يُلجأ إليه بطريقة لا شعورية، عن رغبة دفينة في الهدم والقضاء على الظاهرة.

٣ ـ قد يُلجأ إليه حتى يمكن رد كل جزء إلى أجزاء شبيهة في حضارات معاصرة، ومن ثم يكون التحليل مقدمة لإثبات الأثر الخارجي وتفريغ الظاهرة ـ الوحي والنبوة ـ من مضمونها الأصيل.

وأخيراً فإن نظرة المستشرقين إلى هذا المنهج ـ الذي هو نتاج الفكر الاستشراقي الغربي ـ على أنه منهج عام وشامل، يمكن تطبيقه على أي دراسة إنسانية؛ كدراساتهم للإسلام، هذه النظرة أدت بهم إلى أخطاء جسيمة كإصدار أحكام عامة على الحضارة الإسلامية بالجدب، وعلى الدين بالجمود، وعلى الوحي بالإضطراب والاختلاط، وعلى العقائد بالقضاء والقدر، وعلى الشعوب بالتخلف(٢).

= العربية والإسلامية (١/ ٢١ ـ ٥٧).

(١) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٦٨ ـ ١٦٩).

(٢) دراسات إسلامية، ص١٠٠ ـ ١٠٢، والوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده: د. محمود ماضي، ص٣٦ ـ ٣٧.

المبحث الثالث

المنهج المادي

المنهج المادي هو: المنهج الذي يجعل للعامل الاقتصادي أهمية قصوى في تفسير الواقعة التاريخية[(١)].

برز هذا المنهج بعد ظهور التيارات الماركسية عقب نجاح الثورة الشيوعية في روسيا سنة ١٩١٧م، واتسع المنهج المادي التاريخي ليحتكم إليه بعض المستشرقين في تحليلاتهم لتاريخ الإسلام[(٢)].

وممن تأثر بهذا المنهج المستشرق الإنجليزي مونتغمري وات الذي يذكر أن المؤرخين أكثر إدراكاً للعوامل المادية الكامنة وراء التاريخ، وبأن مؤرخ منتصف القرن العشرين يريد أن يسأل أسئلة كثيرة عن الجذور الاقتصادية والاجتماعية والسياسية للحركة التي بدأها محمد، من غير أن يهمل أو يقلل من جوانبها الإيديولوجية. وإنه وإن كان يعتقد بأن هذه العوامل لا تحتم سير حركة التاريخ، إلا أنه يعترف بأهميتها[(٣)].

---

(١) الاستشراق في السيرة، ص٣٤.

(٢) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق، ص٤١، عن: Muhammad at mecca, p.xi. (محمد في مكة)

ويعزو وات ظهور الإسلام بأن ذلك كان رداً على مرض العصر الذي سببه التطور الذي انتقل بالعرب من حياة بدوية إلى اقتصاد حضري[١].

ويذكر «أن التوتر الذي كان يشعر به محمد وبعض معاصريه يعزى في النهاية - وبلا شك - إلى هذا التنافر بين سلوك الناس الواعي والأساس الاقتصادي لحياتهم»[٢].

كما يذكر وات أنه «من المغري أن نفترض أن القبائل الممثلة في العقبة الأولى كانت مؤلفة من البروليتاريا Proletarian»[٣][٤].

كما نلاحظ كذلك أن مونتغمري وات يركز على العامل الاقتصادي في موضوع الغزوات النبوية، فهو يرى بأن المشكل الاقتصادي قد واجه النبي ﷺ مع امتداد النظام الاجتماعي والسياسي: «زيادة السكان بانقطاع الحروب القبلية، البحث عن متنفس للطاقات التي كانت تبذل في الغزوات، المحافظة على مستوى المعيشة، الحاجة إلى مصدر جديد للرزق، تنمية التجارة ولم تكن ذات أهمية، ولم تستطع أن تسد حاجات الشعب. والخشية من أن تشجع التجارة الموقف الديني الخاطئ الذي كان خطيئة المكيين الوثنيين، الأسلاب من غير المسلمين، الطمع في الغنيمة جاء بالكثيرين إلى المدينة، . . . حل المشكل الاقتصادي إذاً يتمثل في التوسع»[٥].

لقد ناقش وات كل هذه المسائل من وجهة نظر مادية بحتة، دون أن يضع اعتباراً للعامل الدعوي في نشر الإسلام خارج نطاق المدينة، وهو العامل الأساس في انفتاح المسلمين على الآخرين سلماً كان أم حرباً[٦].

---

(١) Muhammad at mecca, p.xi.261.

(٢) Muhammad at mecca, p.xi.20.

(٣) البروليتاريا: هو مصطلح اشتهر في القرن التاسع عشر على يد كارل ماركس ويقصد به الطبقة الكادحة التي لا تملك أي وسائل إنتاج وتعيش من بيع مجهودها العضلي أو الفكري، ويرى ماركس أن علي جميع الشعوب أن تناضل الطبقات المالكة المتحكمة (البرجوازية) في مصالح الشعوب الذين بأيديهم الجاه والسلطة والمال حتى يتم استعلاء طبقة البروليتاريا التي ستحكم هي الأخرى حكماً صارماً لا رحمة فيه (دكتاتورية الفقراء) إلى أن يتحقق لهم ما يريدون من إقامة النظام الشيوعي دون منازع. انظر: المذاهب الفكرية المعاصرة: د. غالب عواجي (١٢٠٧/٢).

(٤) Muhammad at mecca, p.xi.176.

(٥) المرجع السابق، ص١٤٤ ـ ١٤٦.

(٦) الاستشراق في السيرة، ص٤١.

كما يظهر المنهج المادي في كتابات المستشرق الألماني كارل بروكلمان الذي يشارك وات منهجيته في جعل العامل الاقتصادي ذو أهمية في تفسير الغزوات الإسلامية، فهو يرى أن النبي ﷺ «لم يجرؤ على إعلان شرعية الحرب ضد المشركين، وتوزيع الغنائم في الشهر الحرام إلا في آيات متأخرة، بعد أن كانت الغنائم العظيمة قد أثارت مطامعه إثارة كافية»[١]؛ أي: أن العامل الاقتصادي كان هو المحرك والمبرر في نفس الوقت لغزوات النبي ﷺ.

ويتحدث بروكلمان عن ميل النبي للاستفادة الشخصية من الغزوات. فيذكر أن النبي ﷺ بعد فشله في الحديبية قاد المسلمين في حملة على المستعمرة الغنية خيبر[٢].

ولنتجاوز عن تعبير بروكلمان عن صلح الحديبية «بالفشل» وزعمه أن المطامع الدنيوية كانت وراء حملته ﷺ على خيبر إلى أن يأتي أوان الرد في مباحث لاحقة[٣]، ولكن ما يهم هنا هو توضيح تلك النظرة المادية النابعة من منهج اعتمده بروكلمان ـ ومن على شاكلته ـ في محاولة استجداء أي موقف في السيرة لتحويره عن حقيقته وإرجاعه إلى دوافع مادية، ولهذا نجد أن هذا المنهج يستمر في أحداث أخرى، فيقول بروكلمان ـ مثلاً ـ عن غزوة تبوك:

«ولسنا نعرف على اليقين ما الذي دعاه إلى انتهاج هذا السبيل في ذلك الوقت بالذات، فقد يكون قصد إلى أن يشغل أتباعه المدنيين الذين كانوا لا يزالون في حال من عدم الارتياح بعد توزيع غنائم حنين. . . . حتى إذا بلغ تبوك، وهي واحة تزهو بما ينبت فيها من حنطة ونخيل قرب الحدود البيزنطية، توقف بعد أن نال منه الجهد، واستشعر وطأة السن العالية»[٤].

ويستمر بروكلمان في منهجه المادي في رواية أحداث السيرة، فيزعم أنه «أضيف إلى مساكن النبي خباء ذو أثاث فخم قد فرشت أرضه بالبسط، لاستقبال وفود القبائل استقبالاً لائقاً، ولقد ظل هذا الخباء طوال حياة النبي، الفناء الذي

(١) الاستشراق في السيرة، ص٤٩، عن كتاب «تاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان»:
History of the Islamic peoples,pp. 14-15.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٥٦.

(٣) انظر: مبحث: جهاده ﷺ للمشركين، وموقف المستشرقين منه.

(٤) المرجع السابق، ص٦٥.

يجتمع فيه المؤمنون لأداء الصلوات اليومية»[١].

وفي معرض حديث بروكلمان عن أهل الصفة ـ وهم فقراء المهاجرين الذين لم يكن لهم مأوى سوى مسجد النبي ﷺ[٢] ـ يقول: «ولقد كان أهل الصفة هؤلاء، يشكلون حرس الرسول، كما كانوا عاملاً مساعداً جداً على تعزيز نفوذه بين أتباعه ومواطنيه الجدد»[٣].

وهكذا فقد كتب بروكلمان متأثراً بالبيئات التي يعيش فيها، أو يسمع عنها، من الملوك والحكام الذين يختفون وراء حرسهم وحجابهم، ونسي بروكلمان أن على المؤرخ أن ينتقل إلى الفترة التي يكتب عنها زماناً ومكاناً وبيئة ومجتمعاً ونفسية وأخلاقاً، ولو أنه فعل ذلك عندما كتب عن عهد الرسول ﷺ، لعرف أنه لم يكن لدى محمد ﷺ حرس خاص يدور معه حيثما دار، ويقف وينام على باب داره عندما يأوي إليه[٤].

كما ظهرت النزعة المادية عند المستشرق الألماني هوبرت جريمي في كتابه: «محمد»، الصادر عام ١٨٩٢م، حيث يتلخص تصوره:

في أن النبي ﷺ لم يكن يهدف إلى تأسيس دين جديد، ولكنه كان يرغب في إصلاح مجتمع مكة الفاسد، فقام ثائراً على الظلم الاجتماعي في توزيع الثروات، وسعى بكل قوة إلى إقامة مجتمع إنساني عادل، ووجد أن أفضل وسيلة للتخلص من المعارضة المكية القوية لرسالته الإصلاحية الاجتماعية ضد النظام الطبقي، هي توظيف فكرة الحساب يوم القيامة وإسنادها إلى الوحي المتلقى من جبريل، وذلك للتأثير على الأغنياء من أجل قبول رسالته الاجتماعية بتوزيع الثروة على الفقراء من خلال فرض الزكاة على الأغنياء، وهو يحاول اصطياد العناصر المؤدية لنظريته التي تفسر حياة محمد ﷺ في ضوء المذهب الماركسي المادي، مما لا يسوغه مسوغ علمي[٥].

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٤٥.
(٢) انظر: الطبقات الكبرى: لابن سعد (١/ ٢٥٥).
(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٤٥.
(٤) كارل بروكلمان في الميزان، ص٥١.
(٥) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٠، عن:
Hubert grimme, Mohammad, Nunster, L. W., Aschendoff 1892.

ولهذا يقول المستشرق الهولندي سنوك هرجرونيه في نهاية نقده لكتاب «جريمي»: «إننا نرى أن الأستاذ (جريم) لو اقتصر على درس السير النبوية القديمة وبحثها في عمق لكان أفضل، وإن الثمار التي كان يمكن أن يجنيها من مثل هذا الدرس لهي أجدر ببلوغ الغاية التي توخاها، ولكنه ظن أن هذا عمل ليست له أهمية كبيرة وأراد أن يُطرف الناس بنبأ جديد، ففشل في وضع السيرة النبوية التي حاول فيها أن يطبع محمداً بطابع الروح الاشتراكي، وفي جعل محمد اشتراكياً، وفي أن تقود الاشتراكية نفسها محمداً لأن يضع الدين الذي أتى به»[١].

وما ذكره هرجرونيه هو حال أصحاب المناهج المادية الذين لا بد أن يفرغوا أي ظاهرة أو موقف يعرض لهم من أي طابع ديني أو أخلاقي أو دَعوي كما هو الحال في سيرة النبي ﷺ لتبقى الصورة لهم في إطارها المادي المجرد.

---

(١) نقلاً عن «محمد رسول الله»: إيتين دينيه، المقدمة، ص٢٩.

المبحث الرابع

المنهج الانتقائي

عرف عن كثير من المستشرقين في كتاباتهم حول السيرة النبوية الشريفة والتاريخ الإسلامي أنهم ينتقون بعض الأحداث والقضايا ويكتبون عنها ويهملون غيرها.

وقد تنوعت الانتقائية في منهج البحث عند المستشرقين لتشمل ثلاثة محاور:

الأول: المصادر. حيث مارس كثير من المستشرقين الانتقائية في اختيارهم للمصادر دون منهج معين، وقد نتج عن ذلك تقديم كثير منهم لمصادر ثانوية على مصادر أولية، ففي مجال السيرة النبوية ـ مثلاً ـ نجد أن كثيراً من المستشرقين يقدم مغازي الواقدي على المصادر الحديثية كصحيح البخاري ومسلم، كما يقدم آخرون السيرة الحلبية المتأخرة زمناً وصحة للمرويات على مصادر أولية في السيرة كسيرة ابن هشام، كما وصل الأمر ببعضهم فقدم بعض المصادر التاريخية بل والأدبية على كثير من مصادر السيرة المعتمدة، وذلك لأغراض مقصودة تهدف إلى التشكيك في وقائع معينة أو لتأييد وجهة شاذة مخالفة لحقائق السيرة ومشهورها.

الثاني: الاستدلال. حيث نجد الانتقائية في اختيار الأدلة وترتيبها ظاهراً في كتابات كثير من المستشرقين، فكثيراً ما يقدم هؤلاء نصوصاً شعرية على نصوص الكتاب والسُّنَّة، كما اختار آخرون روايات ضعيفة أو شاذة ثم قدموها على أحاديث الصحيحين.

يقول الدكتور جواد علي: «لقد غالى كثير من المستشرقين في كتاباتهم في السيرة النبوية، وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك في السيرة. وقد أثاروا الشك حتى في اسم الرسول، ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجود النبي. وطريقة مثل هذه دفعتهم إلى الاستعانة بالشاذ والغريب، فقدموه على المعروف المشهور، استعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً أو كان من النوع الذي استغربه النقدة وأشاروا إلى نشوزه. تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ، هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك»[1].

الثالث: المسائل والآراء. حيث ينتقي كثير من المستشرقين مسائل معينة ومحدودة ليجعلها موضع البحث لغرض ـ غير علمي ـ يريد أن يصل إليه، ولهذا اشتركت كثير من البحوث الاستشراقية في دراسة بعض المسائل المتعلقة بالنبي محمد ﷺ بحيث يندر أن يكتب مستشرق عن سيرة النبي ﷺ دون أن يلج في هذه المسائل.

فعلى سبيل المثال قل أن يخلو بحث استشراقي من مناقشة رحلة النبي ﷺ للشام ومحاولة إثبات التقائه ﷺ ببحيرى الراهب. ومقصدهم من ذلك إثبات أن النبي ﷺ كان قد تعلم عقائد النصارى من بحيرى فهو إما تابع لهم أو متأثر بهم.

كما قل أن نجد مستشرقاً قد تجاوز قصة الغرانيق في كتاباته، وذلك للطعن في عقيدة التوحيد عند النبي ﷺ، وقل مثل ذلك في مسائل ركز المستشرقون عليها كثيراً مثل: تعدد زوجاته ﷺ، وقصة زواجه ﷺ من أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها، وحروبه ﷺ مع اليهود وما جرى فيها، وغير ذلك من مسائل السيرة التي انتقاها المستشرقون حتى أصبحت دراسة هذه المسائل سمة بارزة في كتاباتهم.

كما ظهر المنهج الانتقائي عند المستشرقين في إيراد الآراء عند المناقشة، فهم عادة يقدمون آراء من سلفهم من المستشرقين على آراء الباحثين الإسلاميين،

---

(١) تاريخ العرب في الإسلام «السيرة النبوية»، ص١٥.

وإن كانت هذه الآراء لا تمت لحقيقة الواقعة بصلة، ولكنها تلتقي مع ما يقصد إليه هؤلاء ولهذا جعلوا لها الأولوية، وأما الآراء المخالفة فإما أن يعرض لها عرضاً ضعيفاً أو لا يلتفت إليها البتة.

ولنضرب لهذه المحاور السابقة أمثلة تجتمع فيها الانتقائية بشتى صورها (انتقائية المصادر، والأدلة، والمسائل والآراء):

١ ـ ذهب المستشرق النمساوي ألويس شبرنجر في كتابه عن سيرة النبي ﷺ إلى أن اسم النبي ﷺ الحقيقي هو قثم، وأن النبي ـ ﷺ ـ تسمى باسم محمد في المدينة المنورة، بعد اختلاطه بالنصارى، وقد التقطه من خلال قراءته لنبوءات الأناجيل عن البارقليط. وقد أيده عدد من المستشرقين منهم المستشرق الفرنسي اليهودي هرتويغ درنبرغ Hartwig Derenbourg (١٩٠٨م)، والمستشرق الألماني ثيودور نولدكه (١٩٣٠م) صاحب كتاب «تاريخ القرآن»، والمستشرق الإيطالي الأمير ليون كايتاني في كتابه الشهير حوليات الإسلام[١]، والمستشرق الإنجليزي بودلي[٢]. معتمدين في ذلك على رواية ساقطة ذكرها صاحب السيرة الحلبية في باب «تسمية الرسول»[٣]، ومع أن تلك الرواية تنص على أن جده عبد المطلب عدل عن تسمية «قثم» بعد ولادته مباشرة إلى «محمد»، ورغم تشكيك صاحب السيرة الحلبية في هذه الرواية في قوله «وعلى تقدير صحة الرواية»[٤] إلا أن المستشرقين تجاهلوا هذا كله، وبنو على تلك الرواية أغرب النتائج.

وفي هذا ـ كما هو ظاهر ـ تجاهل شديد لأساسيات منهج النقد التاريخي والحديثي معاً، حيث تم تجاهل الثابت يقيناً على مدى قرون في سبيل إثبات خبر غريب رفضه كل علماء المسلمين أنفسهم.

«وقول مثل هذا، لا يمكن أن يعتد به. فقد عرف الرسول ﷺ بـ (محمد) في جميع أدوار حياته. وعرف بها بمكة؛ أي: قبل هجرته إلى يثرب كما عرف بها بعد هجرته إلى المدينة. حتى الجاهليون عرفوه بها، ودعوه بها في مخاطباتهم

---

(١) تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، ص١٢١ ـ ١٢٥.
(٢) الرسول، ص٣٢.
(٣) السيرة الحلبية «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون»: علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي (١/ ١١٨).
(٤) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

وفي هجائهم له، كما بايعه من دخل في الإسلام بها، ووردت في جميع كتب العهود والمواثيق. وفي كتاب الله وردت عَلماً، غير معرف. ولو كانت صفة له، لعرفت بأداة التعريف، ولم يثبت أنه من النعوت المنقولة عن أصل يهودي أو سرياني»(١).

٢ ـ في حين يتفق جميع المؤرخين المسلمين على أن النبي ﷺ لم يمارس أي لون من ألوان العبادة السائدة في قومه، يذهب «مكسيم رودنسون» مستنداً إلى «رواية نادرة» ـ على حد تعبيره ـ إلى أنه ﷺ أهدى لحماً ـ كان قد تقرب به لبعض الأصنام ـ لأحد الموحدين الذي رفضه وأنبه على ذلك(٢).

ونحن لا نستطيع أن نصدق رواية «رودنسون» من عدة جوانب منها:

أولاً: أن المصادر الإسلامية قد أجمعت قاطبة على أن الرسول ﷺ لم يمارس ديانة قومه، وأنه لم يسجد لصنم قط، وأنه لم يتقرب لتلك الآلهة المبثوثة في أنحاء مكة بأية وسيلة، وأنه ﷺ كان يحتقرها، ويزهد فيها، ويراها أصناماً جامدة لا تنفع ولا تضر.

ثانياً: أن دعوته ﷺ قد أسست منذ بدايتها على الوحدانية المطلقة، ونبذ الأصنام والأوثان وسائر الآلهة الثانوية الأخرى التي يعبدها قومه.

ثالثاً: أن «رودنسون» قد ذكر لنا الوقائع السابقة دون أن يشير إلى المصدر الذي اعتمد عليه، ومن المعروف أن المعلومات التي لا تشير إلى المصادر المستقاة منها تطرح جانباً، ولا يعتد بها من الناحية العلمية، وهكذا تصبح هذه الوقائع لا قيمة لها(٣).

---

(١) تاريخ العرب في الإسلام «السيرة النبوية»: جواد علي، ص١١٣.

(٢) انظر كلام رودنسون في: الظاهرة الاستشراقية (٢/ ٨٩).

(٣) الظاهرة الاستشراقية (٢/ ٨٩ ـ ٩٠).

المبحث الخامس

المنهج الإسقاطي

يتمثل المنهج الإسقاطي في خضوع الباحث إلى هواه، وعدم استطاعته التخلص من الانطباعات التي تركتها لديه بيئته الثقافية المعنية، وعدم تحرره من الأحكام المسبقة التي يكونها على موضوع بحثه سواء أكانت هذه الأحكام عقلية أم انفعالية[١].

وصاحب المنهج الإسقاطي لا يرى إلا صورته الذهنية دون غيرها من الصور الفكرية التي ربما تخالف أحكامه المسبقة، ويحاول جاهداً إخضاع جميع الصور الأخرى إلى ما ارتضاه لنفسه حتى وإن جانبت الموضوعية العلمية.

فالباحث ـ الإسقاطي ـ عندما يضع في ذهنه صورة معينة لأفكار معينة وهذه الأفكار لا وجود لها من الناحية الفعلية فإنه يحاول إيجادها في ذهنه ويلتمس لها الحلول والفروض مهما كانت منتفية. وإذا كانت الظاهرة الفكرية موجودة فعلاً ولكن لا تصور لها في ذهنه فإنه يحاول نفيها مهما كانت صحة وجودها[٢].

وقد طبق كثير من المستشرقين المنهج الإسقاطي على الدراسات الإسلامية،

---

(١) الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٦٩).

(٢) المرجع السابق (١/ ١٦٩).

ووصلوا بتطبيقه إلى أحكام تعسفية لا صلة لها بالتحليل العلمي السليم. وطوعوا هذه الصور الذهنية الكامنة في عقولهم سلباً وإيجاباً لتفسير التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، وبما أن هذا المنهج يخضع لهوى الباحث وأحكامه المسبقة فإن النتائج المرجوة منه لا تكون صائبة في أغلب الأحيان. ذلك أن المستشرق ـ وهو في حقيقة الحال نتاج بيئته ـ وإيمانه الشديد بثقافته ومنهاجه باعتبارها النموذج الأمثل لكل الثقافات والمناهج، ينظر إلى سائر الظواهر الأخرى التي يخضعها للدراسة من علٍّ، ولا يضعها على نفس المستوى لثقافته ومنهاجه فيسهل عليه عملية الإسقاط التي يمارسها من خلال نظرته الاستعلائية فتأتي أحكامه جائرة ومنافية للحياد العلمي الصحيح[1].

وكنتيجة لتطبيق هذا المنهج على الدراسات الإسلامية فإن المستشرق يسقط ـ مثلاً ـ تصوره للمسيحية على الإسلام، فتصبح المسيحية المتصورة هي الإسلام في الواقع، والإسلام الحقيقي منفي، فلا وجود له، كأن يسمى الإسلام «بالمحمدية» كما تنسب المسيحية للمسيح، والبوذية لبوذا، وكثيراً ما تحدث المستشرقون عن الكنيسة الإسلامية أو السلطة الدينية وعلاقتها بالدولة، أو اتهام التوحيد الإسلامي بأنه تجريد خالص، والحكم على التنزيه بأنه تجريد إسقاط أتى من عقيدة التجسيم والتشبيه الذين تعج بهما اليهودية والنصرانية، وواضح أن كل حكم نفي يقوم به المستشرق يقوم على نفي لما لا يوجد في ذهنه، وكل حكم إيجاب يقوم على إثبات لما يقوم في ذهنه[2].

يشير المستشرق الفرنسي المسلم «موريس بوكاي» إلى تطبيقات هذه المناهج لدى بعض المستشرقين بقوله: «إن الأحكام المغلوطة تماماً التي تصدر في الغرب عن الإسلام ناتجة عن الجهل حيناً، وعن التسفيه العامد حيناً آخر، ولكن أخطر الأباطيل المنتشرة تلك التي تخص الأمور الفعلية، وإذا كنا نستطيع أن نغفر لأخطاء خاصة بالتقدير فإننا لا نستطيع أن نغفر لتقديم الوقائع بشكل ينافي الحقيقة»[3].

---

(١) المرجع السابق (١/ ١٦٩).

(٢) الوحي القرآني في المفهوم الاستشراقي، ص٣٧.

(٣) دراسة الكتب المقدسة: موريس بوكاي، ص١٣٥.

وعلى ذلك يمكن القول بأن الإسقاط خطأ في الإدراك يجعل المستشرق في عزلة ذهنية، ويضعه في موقف نرجسي[1] خالص. والإسقاط بهذه الصورة لا يؤسس منهجاً ولا يعطي رؤية لأنه إسقاط لهوى أو مصلحة أو صورة ذهنية بيئية هي الذاتية عندما تتوقف عن أداء دورها في كشف الموضوع[2].

وقد ظهر منهج الإسقاط في كتابات كثير من المستشرقين حول سيرة النبي محمد ﷺ، ومن نماذج ذلك ما يلي:

١ ـ دعوى أن النبي ﷺ قد اقتبس رسالته من مصادر يهودية ونصرانية. حيث تكرر هذا الإسقاط كثيراً في آراء عدد كبير من المستشرقين المعاصرين، ومن هؤلاء:

ـ المستشرق المجري الشهير إجناس جولدزيهر، والذي انتهى في بحوثه: إلى أن دعوة النبي محمد ﷺ ما هي إلا مزيج منتخب من معارف وآراء دينية قد عرفها من خلال اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها، تلك المعارف التي عكف عليها بالتأمل والتمثل وهو منطو في عزلته حتى تجذرت في أعماق نفسه فصارت لديه يقيناً راسخاً في شغاف قلبه مما جعله يعدها حقيقة إلٰهية واجبة الإبلاغ والبيان، وأنه هو نفسه مأمور بإنفاذ هذا الواجب، وإبلاغ تلك الحقيقة الإلٰهية[3].

ـ أما غوستاف لوبون، فقد تابع من قبله من المستشرقين بقوله: «إذا أرجعنا القرآن إلى أصوله، أمكننا عد الإسلام صورة مختصرة من النصرانية»[4].

ـ كما ادعى المستشرق سنوك هرجرونيه أن رسالة النبي ﷺ قد استوعبت عناصرها الأساسية من الخارج، فعلى الرغم من معارضة النبي ﷺ للديانات الجاهلية، وكذلك اليهودية والنصرانية إلا أنه قد استوعبها جميعاً وتمثلها في تعاليمه[5].

---

(١) النرجسية: حالة الشخص المستغرق في حب ذاته والإعجاب بها، وهذا المعنى مأخوذ من أسطورة «نارسيس» الفتى اليوناني الجميل الذي عشق نفسه حتى الموت. انظر: الموسوعة العربية، ص١٨٢٩.

(٢) دراسات إسلامية: د. حسن حنفي، ص١٠٤.

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص٢١ ـ ٢٢.

(٤) حضارة العرب، ص١٥٨.

(٥) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٤.

ـ وذهب المستشرق هنري لامنس، والمشهور بكتاباته المتحاملة على الإسلام ونبيه ﷺ إلى أن الإسلام لم يكن سوى تأليف من مصادر يهودية ومسيحية؛ ولذلك عمل لامنس جاهداً على إثبات انتشار اليهود والمسيحيين في شبه الجزيرة العربية قبل البعثة. ولقد كان هذا هو الغرض الوحيد من تأليفه كتاب «غرب الجزيرة العربية قبل الهجرة»[١].

ـ ويشير كارل بروكلمان في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» إلى هذه الدعوى، فيقول: «وتذهب الروايات إلى أنه اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى، أما في مكة نفسها فلعله اتصل بجماعات من النصارى كانت معرفتهم بالتوراة والإنجيل هزيلة إلى حد بعيد»[٢].

ـ كما مارس المستشرق فيليب حتي هذا الإسقاط فرأى أن الإسلام نسج «في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس، وتأثر من بعد بطقوس صلاة الأحد التي يمارسها النصارى في البِيَع»[٣].

٢ ـ دعوى أن فكرة الدين الإسلامي جاءت على سبيل التدرج في ذهن النبي ﷺ. ومن أبرز من عرض لهذا الإسقاط:

ـ المستشرق مونتغمري وات: حيث عمل وات على إسقاط الرؤية العقلية الغربية المعاصرة حول تدرج الأديان، فتحدث عن تدرج الدين الإسلامي بقوله: «إن أقدم الأجزاء في القرآن لا تحتوي على أي هجوم على الوثنية، بل كانت تقول بوجود (توحيد غامض) عند أتباع محمد، ثم أخذ الإلحاح يشتد على وجود إله واحد مع اشتداد النقد لعبادة الأصنام»[٤].

كما يرى وات أن القرآن بسبب هذا التدرج في فكرة الدين «كان يتحايل على المكيين خشية الارتطام بهم»[٥]؛ أي: أنه يعمل وفق الضرورات المرحلية.

وقد تجاوز وات هنا ـ في سبيل إثبات إسقاطاته ـ خصوصية المرحلة المكية

---

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٢٦٠ ـ ٢٦٣.
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٤.
(٣) تاريخ العرب المطول، ص١٨١.
(٤) الاستشراق في السيرة، ص٤١ عن:
Muhammad at medina, p 309. See also, Muhammad at meca p. 63.
(٥) المرجع السابق، ص١٣٤.

والتي كانت مرحلة تثبيت للعقيدة بينما جاءت مرحلة المدينة مرحلة للتشريع، وذلك بعد تكون الأمة الإسلامية، وهذا تطور طبيعي، وهو عكس ما تصوره المستشرقون حول تدرج الدين الإسلامي متهمين النبي ﷺ بأنه لم يكن يعرف أبعاد دعوته[١].

ـ كما رأى كارل بروكلمان أسوة بغيره من الباحثين الغربيين المؤمنين بتطور الأديان وتدرجها، أن «الوحدانية التجريدية التي كانت إلى حد بعيد أساس قوة الإسلام في غزو القلوب واكتساب الأتباع لم تنشأ إلا تدريجياً. ويبدو هذا في نزوع النبي إلى الاعتراف بالآلهة المكية الرئيسية شفعاء عند الله. وفيما كان المفهوم الإلهي يتبلور في وجدان محمد ـ على حد قول بروكلمان ـ كانت بعض الصفات التشبيهية تجد سبيلها إلى هذا المفهوم»[٢] وهذا شبيه بما ذكره وات سابقاً عن وجود توحيد غامض عند محمد وأتباعه، تطور بتطور النقد الموجه لعبادة الأصنام إلى الاعتراف بالإله الواحد.

٣ ـ دعوى أن رسالة النبي ﷺ خاصة بالعرب فقط. وقد تزعم هذا الإسقاط عدد من المستشرقين تبعاً للرؤية المسيحية الغربية عن الإسلام، ومن هؤلاء:

ـ المستشرق وليم موير، والذي ادعى «أن فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد، وأن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها، لم يفكر فيها محمد نفسه، وعلى فرض أنه فكر فيها، فقد كان تفكيره تفكيراً غامضاً، فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب، كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لها، وأن محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم»[٣].

ـ كما أطلق هذه الدعوى المستشرق جاك. س. ريسلر[٤] في كتابه «الحضارة العربية» في قوله: «إن الإسلام للعرب فقط»[٥].

---

(١) الاستشراق في السيرة، ص٤٢.

(٢) History of the Islamic peoples,p37.

(٣) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د.شوقي أبو خليل، ص١٤١، عن:
Muir. The Caliphate, p.34-44.

(٤) جاك ريسلر j.s.restler: باحث فرنسي معاصر، وأستاذ بالمعهد الإسلامي بباريس. انظر: معجم أسماء المستشرقين، ص١١٣٣.

(٥) الحضارة العربية: جاك ريسلر، ترجمة: غنيم عبدون، ص٣٧، نشر الدار المصرية.

- ويقول المستشرق كايتاني: «لم يتخط محمد بفكره حدود الجزيرة العربية ليدعو أمم العالم في ذلك الوقت إلى هذا الدين»[١].

- كما تابع كارل بروكلمان من سبقه في هذه الدعوى، فقال: «وليس من الميسور أن تقرر، على وجه الدقة، ما إذا كان النبي نفسه قد استشعر أنه مدعو لمثل هذه الرسالة العالمية»[٢].

فهذه نماذج مختلفة لإسقاطات المستشرقين وأحكامهم المسبقة - سيأتي مناقشتها في مباحث لاحقة - وهي تتغافل عن أدلة صريحة في كثير من الأحيان لتلتمس الاستدلال في شبهات ضعيفة ومرويات باطلة إرضاء لهوى الباحث وشهوته في الوصول إلى نتائج يرتضيها.

---

(١) الإسقاط في مناهج المستشرقين، ص١٤١، عن:
Caetani: annali del islam vol. v. p323.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٧٠ - ٧١. وسيأتي الرد على هذه المزاعم ضمن الحديث عن مواقف المستشرقين من عموم رسالته ﷺ.



الفصل الثاني

السمات العامة لمناهج المستشرقين في الكتابة عن النبي ﷺ

المبحث الأول: إنكار نبوة محمد ﷺ وكون القرآن وحياً إلٰهياً.

المبحث الثاني: كتابة السيرة النبوية بالعقلية الغربية العلمانية.

المبحث الثالث: دعوى تأثر رسالة النبي ﷺ ودعوته بالديانات الأخرى.

المبحث الرابع: المبالغة في الشك والافتراض، واعتماد الضعيف والشاذ في الاستدلال.

المبحث الخامس: إصدار الأحكام المسبقة دون استناد إلى الأدلة.



الفصل الثاني

السمات العامة لمناهج المستشرقين في الكتابة عن النبي ﷺ

السمات جمع سمة، وأصلها من الوسم وهو الأثر والعلامة[١]. والمقصود بسمات مناهج المستشرقين هي العلامات والخصائص التي تشترك فيها هذه المناهج الاستشراقية.

والمتأمل في المناهج الاستشراقية في الكتابة عن النبي ﷺ يلحظ أنها تلتقي في سمات عامة تجمع فيما بينها، وستتناول المباحث التالية في هذا الفصل بيان هذه السمات الاستشراقية مع توضيح الدلائل عليها من كتابات المستشرقين وتقريراتهم. وذلك على النحو التالي:

المبحث الأول: إنكار نبوة محمد ﷺ وكون القرآن وحياً إلٰهياً.

المبحث الثاني: كتابة السيرة النبوية بالعقلية الغربية العلمانية.

المبحث الثالث: دعوى تأثر رسالة النبي ﷺ ودعوته بالديانات الأخرى.

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة: لابن فارس (٦/ ١١٠)، مختار الصحاح: للرازي، ص٣٣٨ ـ ٣٣٩، لسان العرب: لابن منظور (١٢/ ٦٣٥ ـ ٦٣٦).

المبحث الرابع: المبالغة في الشك والافتراض، واعتماد الضعيف والشاذ في الاستدلال.

المبحث الخامس: إصدار الأحكام المسبقة دون استناد إلى الأدلة.

المبحث الأول

إنكار نبوة محمد ﷺ وكون القرآن وحياً إلهياً

ينكر جمهور المستشرقين أن يكون محمد ﷺ نبياً مرسلاً من عند الله تعالى، تلقى رسالة الله عن طريق الوحي، ويتخبطون في تفسير الوحي، فمنهم من يرجع ذلك إلى نوبة صرع، ومنهم من يفسره بمرض نفسي، ومنهم من يرجعه إلى تخيلات كانت تملأ ذهنه ﷺ، وهكذا كأن الله تعالى لم يرسل نبياً قط، وكأنهم لم يسمعوا قبل بأن الأنبياء يوحى إليهم. ولما كان غالبيتهم ما بين يهودي ومسيحي يعترفون بأنبياء بني إسرائيل وبما أوحاه الله إليهم كان إنكارهم نبوة محمد ﷺ تعنتاً ومكابرة مبعثها التعصب الديني[1].

ويتبع إنكار النبوة إنكار أن يكون القرآن كتاباً منزلاً من عند الله ﷻ، وحين يفحمهم ما ورد فيه من حقائق تاريخية عن الأمم السابقة مما يستحيل صدور مثله عن أمي مثل محمد ﷺ، فإنهم يزعمون ما زعمه المشركون الجاهليون من قبل من أنه ﷺ استمد هذه المعلومات من أشخاص كانوا يخبرونه بها، وحين يفحمهم ما جاء في القرآن من حقائق علمية لم تعرف ولم تكتشف إلا في هذا العصر، يردون ذلك إلى ذكاء النبي ﷺ وعبقريته.

(١) السيرة النبوية «دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية»: د. أحمد أبوزيد، ص٢٤.

ولا شك بأن إنكار نبوة محمد ﷺ والزعم بأنه افترى القرآن من تلقاء نفسه، سمة بارزة في كتابات المستشرقين بحيث يندر أن توجد كتابة لا تتضمن التأكيد على هذه المسألة إما تصريحاً أو تلميحاً(١).

ونحن لا نطلب من الغربيّين هنا أن يؤمنوا أن القرآن الكريم منزل من السماء، وأنّ محمداً رسول الله حتى تكون دراساتهم منصفة.. وإنما نطلب أن يكونوا أكثر تجرداً وموضوعية فينظروا إلى سيرة الرسول محمد ﷺ كوحدة عضوية متكاملة. وإلى القرآن الكريم كبرنامج عقيديّ مترابط تعلو مكوناته على الظروف المحيطة به(٢).

إن المتأمل في كتابات المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام والذين تعد كتاباتهم أحسن حالاً من كتابات غيرهم من المستشرقين ـ إذا استثنينا المسلمين ـ وأكثرها إنصافاً وأقربها إلى الحق تتحاشى في كثير من جوانبها الإقرار بنبوة محمد ﷺ.

وأصحاب هذه الدراسات في كثير من الأحيان على أتم الاستعداد لوصف النبي ﷺ بصفات الثناء العديدة: كحسن الخلق، والذكاء، والحكمة، والشجاعة، وحسن القيادة والتخطيط، والصبر على الدعوة، والتفاني في سبيلها، والقول بأن النبي ﷺ مصلح عظيم وشخصية عبقرية فذة، كل هذه الأوصاف وغيرها يمنحها هؤلاء للنبي ﷺ مع تأييد ذلك بشتى النماذج والمواقف الدالة عليها من شواهد السيرة النبوية، ولكن قل أن تجد من يسلم في دراساته تلك بوصف النبوة والرسالة، وتنزل الوحي الإلهي، وإثبات المعجزات في حق النبي ﷺ.

إننا كمسلمين نعتقد أنه لا ينبغي أن يحاول أي إنسان للحظة واحدة، فهم حياة رسول الله ﷺ على أنه عبقري عظيم أو قائد خطير أو داهية محنك والاكتفاء بذلك. فمثل هذه المحاولة ليست إلا معاندة أو معابثة للحقائق الكبرى التي تزخر بها حياة محمد عليه الصلاة والسلام. فلقد أثبتت هذه الحقائق الجلية الناصعة أن النبي ﷺ كان متصفاً بكل صفات السمو والكمال الخلقي والعقلي والنفسي، ولكن كل ذلك كان ينبع من حقيقة واحدة كبرى في حياته عليه الصلاة والسلام، ألا وهي أنه نبي مرسل من قبل الله ﷻ.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٤ ـ ٢٥.

(٢) المستشرقون والسيرة النبوية: عماد الدين خليل، ص٣٣.

وإن من العبث الغريب أن نضع الفروع في موضع الأصل ثم نتجاهل وجود الأصل مطلقاً! ولا ريب أن الرد على ذلك لا يكون إلا بلفت النظر إلى الأصل والأصل وحده[١][٢].

(١) انظر: فقه السيرة: البوطي، ص١١.

(٢) سيأتي الحديث في الباب الرابع حول: موقف المستشرقين من نبوته ﷺ وتحريفاتهم لمظاهر نبوته ﷺ.

المبحث الثاني

كتابة السيرة النبوية بالعقلية الغربية العلمانية(١)

كثير من المستشرقين نشأوا وشبوا على الثقافة الغربية وطرقها في التفكير والنظر للأمور، وتشبعوا بروح الفكر المادي العلماني، وحين أخذوا في تحليل السيرة النبوية وتاريخ الإسلام، تأثروا بهذه العقلية.

ولهذا فإن منطق التفكير الأوروبي على هذا النحو لا يمكن أن يأتي - في الغالب - بنتائج صحيحة في تاريخ الأنبياء والرسالات الإلٰهية (الغيبية) والتي ظهرت في الشرق وكان تأثيرها الخاص في تاريخه وحضارته عميقاً(٢).

---

(١) العلمانية: وتعني على الصحيح اللادينية، تعرفها دائرة المعارف البريطانية بأنها: «حركة اجتماعية تهدف إلى صرف الناس وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها». فهي إذاً مذهب هدَّام يُراد به فصل الدين عن الحياة كلها وإبعاده عنها. أو هي إقامة الحياة على غير دين إما بإبعاده قهراً ومحاربته علناً كالشيوعية، وإما بالسماح به وبضده من الإلحاد كما هو الحال في الدول الغربية. ولا شك أن حصر الدين في نطاق فردي بعيداً عن حكم المجتمع وإصلاح شؤونه يجعله مجتمعاً لا دينيّاً لأنه أقام حياته الاجتماعية والثقافية وسائر معاملاته على إقصاء الدين، فالإسلام واللادينية نقيضان لا يجتمعان. انظر: العلمانية: د. سفر الحوالي، ص٢١ - ٢٤، والمذاهب الفكرية المعاصرة: د. غالب عواجي (٢/ ٦٨٣).

(٢) السيرة النبوية «دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية»: د. أحمد أبوزيد، ص٢٢.

وفي إطار هذه السمة المنهجية نضرب نماذج يتبين من خلالها كيف تأثر المستشرقون بهذه السمة عند تحليلهم لأحداث سيرة النبي ﷺ:

١ ـ يتحدث المستشرق مونتغمري وات في مواضع من كتبه عن سيرة النبي ﷺ مستخدماً هذا الأسلوب، ومن ذلك ما يلي[(١)]:

ـ عند حديثه عن وقائع السيرة النبوية في الفترة بين ميلاده ﷺ وزواجه من خديجة رضي الله عنها مثل حادث «شق صدره ﷺ» وقصة «بحيرا» الراهب، يعلق عليها وات بقوله:

«إن هناك العديد من القصص ذات الطابع الديني يكاد يكون من المتيقن بأنها ليست حقيقة من وجهة نظر المؤرخ العلماني الواقعية»[(٢)].

ـ حينما تحدث وات عن نبوته ﷺ، فإنه عزاها إلى «التخيل الخلاق»؛ أي: أن النبوة لم تكن اصطفاء من الله ﷻ لنبينا محمد ﷺ لأداء رسالته، بل هي من إبداع عقلية النبي ﷺ. ولكي تكتمل هذه الرؤية، فإن وات استبعد رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام، على أساس أنها لا يمكن أن تكون تاريخية»[(٣)].

ـ ويتشكك وات في أمر الوحي «فالقول بأن محمداً كان صادقاً لا يعني بأن القرآن وحي حق، وأنه من صنع الله، إذ يمكن أن نعتقد بدون تناقض أن محمداً كان مقتنعاً بأن الوحي ينزل عليه من الله، وأن نؤمن في نفس الوقت بأنه كان مخطئاً»[(٤)].

وخلاصة رأي وات في نبوة النبي ﷺ هي: «إنه رجل تجسدت فيه التخيلية الخلاقة حتى الأعماق، فاستطاع ابتكار أفكار لها الصلة بعمق قضية الوجود البشري»[(٥)].

ـ وفي إطار إسقاط هذه الرؤية العلمانية على عالمية الدعوة الإسلامية، فإن وات يذكر: «أن قول بعض المصادر الإسلامية، وهي ليست أقدم المصادر أنه

---

(١) الاستشراق في السيرة النبوية، ص٣٩ ـ ٤٠.

(٢) Muhamad at mecca p.33.

(٣) Muhamad at mecca p.43.

(٤) المرجع السابق، ص٣٢٥.

(٥) الاستشراق في السيرة، ص٤٠، عن:

Muhahhad prophet stateman. P. 240. Also see, pp.237-244.

(أي: النبي ﷺ) نظر للإسلام على أنه دين عام شامل، وأنه دعا الإمبراطور البيزنطي والفارسي وغيرهما من الملوك للدخول فيه هو قول خاطئ، إذ أنه من غير المعقول أن يوجه رجل سياسي حكيم كمحمد مثل هذا النداء المحدد، وندرك أن تقارير السفراء عند مختلف الحكام مملوءة بالتناقضات»(١). وهو يرى بأن محمداً ﷺ «اعتبر نفسه أول الأمر مرسلاً إلى قومه القرشيين، ثم أخذ شيئاً فشيئاً، وبدرجات لا تبدو بوضوح في القرآن، يتراءى له هدف أوسع لرسالته. دعا قبل الهجرة بعض أفراد القبائل البدوية إلى الإيمان بالله عدا مفاوضة سكان المدينة، ثم احتلت فكرة الأمة القائمة على أساس ديني مكان الصدارة بحلول الهجرة»(٢).

٢ ـ وممن سلك هذه المنهجية المستشرق الألماني كارل بروكلمان الذي نظر إلى نبوة النبي ﷺ نظرة عادية مجردة من بعدها الديني بسبب تأثره بالرؤية الغربية العلمانية، حيث يقول:

ـ «نضجت في نفسه فكرة أنه مدعو لأداء رسالة النبوة. . . وأعلن ما ظن أنه سمعه كوحي من عند الله، ولكن هذا لم يثر اهتمام مواطنيه الذين كانوا معتادين على وجود كاهن في كل قبيلة، يعزو أحكامه فيما يتعلق بالخلافات والمشكلات الغامضة إلى صاحب له غيبي، وأن يذيعها في الناس نثراً مسجوعاً، كما فعل النبي فيما نزل عليه من وحي»(٣).

ـ وفي تفسيره لواقعة الإسراء والمعراج، يقول: «وأمثال هذه الرؤى في أثناء تهجد العراف معروفة ثابتة لدى بعض الشعوب البدائية»(٤).

ـ وفي نطاق هذا المنهج ـ المستبعد للمقاصد الدينية ـ يتحدث بروكلمان عن إقليمية الدعوة الإسلامية، فيقول: «كان هدف محمد النهائي السيطرة على بلاد العرب»(٥). ويضيف «وقد بعث محمد إلى العرب قبل كل شيء، وليس من الميسور أن نقرر على وجه الدقة ما إذا كان النبي ﷺ قد استشعر أنه مدعو لمثل

---

(١) Muhammad at medina, pp. 41-42.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٣، وانظر أيضاً: Muhammad at mecca, p. 138 and p. 141.

(٣) History of the Islamic peoples, pp. 14-15.

(٤) المرجع السابق، ص٢٠.

(٥) المرجع السابق، ص٣٦.

هذه الرسالة العالمية، وفي أي فترة من فترات حياته كان ذلك»[١].

٣ ـ وممن سار على هذه المنهجية ـ العلمانية ـ في عرض السيرة النبوية المستشرق الألماني يوليوس فلهاوزن، والذي تحدث عن النبي ﷺ مسلطاً الأضواء على الطابع السياسي لشخصية النبي ﷺ ـ وكأن هدف النبي ﷺ الأساس هو الوصول إلى سدة الحكم ـ في قوله:

«كان محمداً في مكة ثائراً على قومه. مخالفاً لما هم عليه. أما في المدينة فقد بلغ ما كان يرمي إليه. ولقد أحدث هذا تغييراً كبيراً لا مجرد فرق ظاهري. وذلك لأن المعارضة دائماً تتغير عندما تصل إلى الرئاسة، وإن السياسة عند تطبيقها تبعد كثيراً عن الفكرة التي قامت عليها؛ لأن تقديرها للأشياء في أول الأمر يكون بحسب الإمكان لا بحسب الواقع. وهذا هو الذي يفسر لنا أن النبي لما صار رئيساً سياسياً تغير عما كان عليه لما كان لا يزال طامحاً في الرئاسة، وأن الحكومة الثيوقراطية[٢] الفعلية تغيرت عنها لما كانت فكرة، وعلى هذا صار الطابع السياسي يزداد بروزاً والطابع الديني يزداد تراجعاً»[٣].

وفي ظل هذا الإسراف في القياس السياسي لا قيمة للنبوة عند فلهاوزن. في حين أن فلهاوزن لو نظر للمسألة على أساس النبوة لأمكنه استيعاب ما يترتب على النبوة من انقلاب سياسي واقتصادي واجتماعي، وهذا ما استوعبه المكيون، فقد وجدوا أن إيمان محمد ﷺ بأنه نبي ستكون له نتائج سياسية[٤]، وكما يذكر مونتغمري وات:

«لو أن أهالي مكة أخذوا يؤمنون بإنذار محمد ووعيده، وجعلوا يستفسرون عن الطريقة التي يجب أن تدار بها شؤونهم، فمن ذا الذي يحق له نصحهم غير محمد نفسه»[٥].

وهكذا فإن المناهج السابقة قد تشابهت في سمة مشتركة تجمع بينها وهي

---

(١) المرجع السابق، ص٣٧.

(٢) الثيوقراطية: وصف لكل مذهب يرد السلطة السياسية في الجماعة إلى أساس ديني أو غيبي، وكل نظام يستند إلى تلك المذاهب. انظر: الموسوعة العربية، ص٥٨٩.

(٣) تاريخ الدولة العربية: فلهاوزن، ترجمة: عبد الهادي أبي ريدة، ص٥ ـ ٦.

(٤) الاستشراق في السيرة، ص٥٣.

(٥) Muhammad at mecca, p. 135.

تحليل وقائع السيرة النبوية وأحداثها وفق الرؤية الغربية العلمانية، مبتعدين بذلك عن الهدف الديني الذي كان هو المقصد الأساس من وراء قيام النبي ﷺ بأعباء الرسالة، والذي لازمه طوال حياته ﷺ من مبعثه إلى وفاته.

ولعل أحسن انتقاد لهذه المنهجية الاستشراقية هو الذي قدمه المستشرق الفرنسي المسلم نصر الدين دينيه، في كتابه عن السيرة النبوية: «محمد رسول الله» حيث اعتمد فيه على ما دوَّنه أصحاب السنن والسير الإسلامية، غير ملتفت إلى آراء المستشرقين، كما يقول:

«ولعل في هذه الملاحظة ما يكفي لتنبيه القراء إلى أنهم لن يجدوا في هذا السفر شيئاً من تلك المذاهب الغربية الغالية، التي تعمل على هدم السُّنَّة، والتي شغف بها حباً أولئك المستشرقون المحدثون بما لهم من غرام وشهوة بكل ما هو بدع من الرأي أو غريب»[١].

ونتيجة لهذا المنهج الذي سلكه دينيه في استبعاد آراء المستشرقين حول السيرة النبوية، فقد ثارت ثائرتهم حيث زعموا أن آراءه تخالف ما انتهى إليه البحث العلمي الحديث، والحقيقة أن دينيه اعتمد هذا المنهج متعمداً، إذ رأى أنه يصعب أن يتجرد المستشرقون من عواطفهم وبيئاتهم ونزعاتهم المختلفة عند دراساتهم في النبوة الإسلامية، ولذلك كان تحريفهم للسيرة ولحياة الصحابة كبيراً حتى غطى على الحقيقة، وهم كما يقول: «رغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد الحديثة، فإننا نلمس في كتاباتهم محمداً يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلف ألمانياً، ومحمداً يتحدث بالإيطالية، إذا كان الكاتب إيطالياً، وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب»[٢].

وقد أعطى دينيه الكثير من الأمثلة على ما ذكره حيث بيَّن الاختلاف الكبير بين الغربيين في كل المباحث التي عقدوها لحياة النبي ﷺ حتى استحال أمر كتابة السيرة بمثل مناهجهم. ولأجل هذا كتب دينيه في السيرة باعتباره مؤمناً وباحثاً، فتجاوز كل آراء المستشرقين التي لم تستطع أن تعبر عن الحقيقة، وقرر «أن صورة نبينا الجليلة التي خلفها المنقول الإسلامي تبدو أجل وأسمى، إذا قيست بهذه

(١) محمد رسول الله، ص٥٣.
(٢) المرجع السابق، ص٢٨.

الصور المصطنعة الضئيلة التي صيغت في ظلال المكاتب بجهد جهيد. ونرجو أن يعرف العلماء ضلالهم، فيكفوا عن النيل من هذه الصروح المعجزة التي رفعها التاريخ إقراراً بفضل أنبياء العرب وبني إسرائيل والهنود على الإنسانية، فإن أساس هذه الصروح أصلب من أن تخدشه تلك المعاول»[١].

(١) المرجع السابق، ص٥٧.

المبحث الثالث

دعوى تأثر رسالة النبي ﷺ ودعوته بالديانات الأخرى

وهذه سمة ظاهرة في غالب كتابات المستشرقين قل أن تخلو منها دراسة، ولا شك أن هذا التصور المسبق يكاد يأخذ برقاب المستشرقين، ويضع بصماته العميقة على مناهجهم في التعامل مع وقائع السيرة وظاهرة النبوة[١].

ولعل من أهم أسباب ذلك «أن معظم المستشرقين النصارى هم من طبقة رجال الدين، أو من المتخرجين من كليات اللاهوت، وهم عندما يتطرّقون إلى الموضوعات الحساسة من الإسلام يحاولون جهد إمكانهم ردّها إلى أصل نصرانيّ، وطائفة المستشرقين من اليهود، وخاصة بعد تأسيس (إسرائيل) وتحكّم الصهيونية في غالبيتهم، يجهدون أنفسهم بردّ كل ما هو إسلامي وعربي لأصل يهودي، وكلتا الطائفتين في هذا الباب تبع لسلطان العواطف والأهواء»[٢].

كما اتجه جمع من المستشرقين إلى هذه النزعة تحت ما يعرف بمنهج «الأثر والتأثر» حيث استخدموه بطريقة مبتسرة بحيث فسروا الوحي الإلهي، والفقه

---

(١) المستشرقون والسيرة النبوية: عماد الدين خليل، ص٣٣.

(٢) تاريخ العرب في الإسلام، ص١٤ ـ ١٥.

الإسلامي والسُّنَّة النبوية بأنها مستمدة من عوامل خارجية مارست عليها قواعد الأثر والتأثر فعلها، وكأنّ هذه الحضارة مجتمعة نابعة من تطبيق هذا المنهج الذي ينفي كل أصالة للدين الإسلامي.

وهذا المنهج يقضي على الأفكار الإسلامية قضاء مبرماً، ويرجعها إلى مصادر ثقافية خارجية، ويصدر هذا الحكم التعسفي كلما وجد اتصال بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى، وكلما وجد تشابه بينها وبين الأفكار الإنسانية الأخرى مهما كان هذا التشابه كاذباً وغير حقيقي.

وهذا الخطأ يدافع عنه المستشرقون طبقاً لمعايير الأثر والتأثر، ولا يقتنعون البتة بأن التفاعل الحضاري يحدث أثره كلما التقت حضارتان مع إمكانية احتفاظ كل منهما بخصائصها المميزة[١].

وتأثر المستشرقين بهذا المنهج يأتي بسبب تطبيقه بصورة صارمة في بيئتهم. ذلك أن النهضة الأوروبية قد تأسست على الحضارة اليونانية وكلما أنشئ مذهب فكري وديني جديد خاصة في ما يتعلق بمقاومة سلطان الكنيسة وجد له نظير في الحضارة اليونانية القديمة.

ويلاحظ المرء عدم صحة هذا المنهج بالنسبة للحضارة الإسلامية لأنها ذات أصول وحدود واضحة مؤسسة على معايير دينية وبيئية أصلية مستمدة من الجزيرة العربية والتعاليم الإسلامية. وأنها قادرة على تمثل ثقافات الشعوب المجاورة ووضعها في قالبها لأنه هو القالب الأوسع شمولاً والأكثر عقلانية[٢].

أما تطبيق هذه السمة المنهجية في مجال الكتابة عن النبي ﷺ فقد ظهرت في دراسات عدد من المستشرقين المعاصرين، ومن أمثلتهم:

١ ـ المستشرق جولدزيهر الذي ادعى أن دعوة النبي محمد ﷺ ما هي إلا مزيج منتخب من معارف وآراء دينية قد عرفها من خلال اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها، تلك المعارف التي عكف عليها بالتأمل والتمثل وهو منطو في عزلته حتى تجذرت في أعماق نفسه فصارت لديه يقيناً راسخاً في شغاف قلبه مما جعله يعدها حقيقة إلهية واجبة الإبلاغ والبيان، وأنه هو نفسه مأمور بإنفاذ هذا

(١) انظر: الظاهرة الاستشراقية (١/ ١٧٠).
(٢) المرجع السابق (١/ ١٧٠ ـ ١٧١).

الواجب، وإبلاغ تلك الحقيقة الإلٰهية[١].

٢ ـ المستشرق فيليب حتي، الذي رأى أن الإسلام تأثر بالتشريعات اليهودية والنصرانية، حيث نسج «في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس، وتأثر من بعد بطقوس صلاة الأحد التي يمارسها النصارى في البِيَع»[٢].

٣ ـ المستشرق الألماني رودي باريت في كتابه «محمد والقرآن: تاريخ النبي العربي ودعوته». وقد حاول في مواضع من كتابه مستميتاً إثبات تبعية الإسلام لليهودية والنصرانية، تلك التبعية التي يجلي المؤلف عناصرها فيما يأتي[٣]:

أولاً: المؤثرات الثقافية والدينية العامة التي خلفها اليهود في المدينة والنصارى في مكة والتي هيأت الأجواء لرسالة النبي محمد ﷺ عموماً، وإن كان الأثر المسيحي مضطرباً بسبب الآراء البدعية الشائعة في أوساط مكة، مثل: إنكار صلب المسيح، ونظرية التثليث.

ثانياً: العبادات اليهودية النصرانية، مثل: شعيرة الصلاة المشتملة على الركوع، والسجود والقراءات.

ثالثاً: تطور العقيدة الإسلامية من خلال مراحل التأثر باليهودية والنصرانية، فالمرحلة التمهيدية الإعدادية قبل إعلان محمد ﷺ نبوته كان فيها نبياً بالقوة؛ أي: حاملاً لعقيدة النبوة بوساطة المؤثرات اليهودية والنصرانية.

ومع محاولات باريت لإثبات هذه التبعية إلا أنه وقع في عدة تناقضات، منها على سبيل المثال: ذكره أن المسيحية لم يكن لها أثر في مكة[٤]، وأن النبي ﷺ لم يحدث تماسه المباشر باليهود إلا بالمدينة، وأنه لم تتح له الفرصة كاملة لمعرفة تفاصيل اليهودية، كما أنه لم يطلع على تفاصيل الإنجيل إلا في تلك الفترة مع قوله السابق بتأثر النبي ﷺ في مكة بالمؤثرات اليهودية والنصرانية[٥].

(١) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص٢١ ـ ٢٢.
(٢) تاريخ العرب المطول، ص١٨١.
(٣) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٩، عن:
Rudi Paret, Mohammed und der Koran. Geschichte und, verkuendigung des arabischen Propheten, Suttgart 1966. 2aufl.
(٤) محمد والقرآن، ص٢٠ ـ ٢١.
(٥) المرجع السابق، ص٥٦.

٤ ـ المستشرق الإنجليزي مايكل كوك، في كتابه «محمد» الذي انتهى فيه إلى أهمية المصادر غير الإسلامية وتقديمها على المصادر الإسلامية، أما تعاليم النبي ﷺ فيخضعها لمنهجية النقد التاريخي ويخلص فيها إلى أن:

ـ مفهوم الكون لدى النبي ﷺ قد يكون مأخوذاً بتمامه من سفر التكوين في العهد القديم.

ـ شريعة القرآن غير كاملة وغير متناسقة، كما أن: كثيراً منها مثل تشريعات المرأة لا يرتبط بالتوحيد بل بالشرك أو الإلحاد.

ـ شريعة الجهاد قاسية لا تساعد على نشر الإسلام، وتبدو غريبة لأتباع العهد الجديد الذي لم يقاوم المسيح فيه الشر، ولم يهاجر بعيداً عنه، ولم يشكل لمجابهته تنظيماً سياسياً وإنما هي أقرب إلى روح العهد القديم، وشريعة موسى، وقصة خروجه العنيفة من مصر.

وضوح الأثر اليهودي البارز للعيان في تعاليم محمد ﷺ من خلال الآتي:

● قصص الأمم السابقة، وقصص الأنبياء وحكاياتهم، مثل: حكاية يوسف مع زوجة العزيز.

● مفردات التشريع الإسلامي، مثل: الزكاة.

● شهادة التوحيد لا إله إلا الله، الموجودة لدى السامرة.

ـ تأثير النصرانية في تعاليم محمد ﷺ حول المسيح خصوصاً الفِرق الهرطقية التي تنكر الصلب وإلهية المسيح، وفي أسطورة أهل الكهف، واصطلاح المنافقين.

ـ الأثر الوثني في تعاليم محمد ﷺ يتمثل في الطواف حول الكعبة وتعظيم الأشهر الحرم[١].

٥ ـ مونتغمري وات، في كتابيه «محمد في مكة» و«محمد في المدينة»، حيث رأى أن النبي ﷺ قد تأثر بأفكار «ورقة بن نوفل» المسيحية. بل إن أفكار ورقة أثرت في التطورات الإسلامية اللاحقة. وبهجرته ﷺ إلى المدينة فإنه أخذ ينقل عن اليهودية والمسيحية لصياغة ديانة جديدة هي الإسلام[٢]. وفي سبيل تأكيد

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١١٩، عن:

Michael Cook, Muhammad, p.82-50. Oxford University, 1995.

(٢) الاستشراق في السيرة، ص٣٨.

نظريته حول التأثر والتأثير بين النبي ﷺ وورقة بن نوفل وغيره من المؤثرات الأخرى، يقول وات:

- «لقد وقعت خديجة تحت تأثير ورقة بالتأكيد، ولا شك أن محمداً أخذ من حماسته وآرائه»(١).

- ويقول أيضاً: «فمن المحتمل أنه تحدث في المسائل الدينية مع المسيحيين العرب أو الأحباش من اليمن والقبائل البدوية المسيحية القادمة إلى مكة للتجارة، وهناك يهود المدينة والأماكن الأخرى. ولا شك أنه تحادث مع ورقة المسيحي ابن عم خديجة»(٢).

- كما حاول وات جهده بإظهار جوانب - ادعى - فيها تأثر الإسلام باليهودية والمسيحية. فتحدث عن: فرض صلاة الظهر مجاراة للعادات اليهودية، وصلاة الجمعة، والتوجه نحو القدس في الصلاة، وصيام عاشوراء، وتحليل طعام أهل الكتاب، وزواج الكتابيات، وهذه مجرد نماذج لما ذكره وات عن مدى تأثر الإسلام بالديانات السابقة(٣).

وهذه المنهجية التي تفرغ الإسلام من إبداعه وذاتيته، بحيث تحيلها إلى مصادر خارجية، ليست مقصورة على هؤلاء المستشرقين وحدهم بل هي نماذج شاركهم فيها جمهور كبير من المستشرقين.

ولقد تأسست هذه المنهجية على ضوء مفاهيم خاطئة تبناها المستشرقون الغربيون في دراسة الأديان ومقارنتها. حيث تمت دراسة الأديان الإلهية الثلاثة كأديان منفصلة عن بعضها لا يربط بينها رابط.

وحينما جاء دور المقارنة بين هذه الأديان كانت مخيلة المستشرق تحاول الإجابة عن تساؤلات تشكلت وفق رؤية مسبقة:

- من أخذ؟ وممن؟ وأين أدلة التأثر؟

وأصبحت حالات التشابه بدلاً من أن تكون عامل توحيد للديانات، وتأكيداً

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨ عن:

Muhammad at mecca, p 39-also see: Muhammad at medina, pp.315-316.

(٢) المرجع السابق، ص٣٨.

(٣) Muhammad at medina, p 196-201-also see: pp 303-305.

على وحدة منبعها وغايتها، تحولت في المنهجية الاستشراقية إلى أدلة سطو فكري، يعمل المستشرق جاهداً لتوضيحها وتسليط الضوء عليها، لإقناع اليهود والنصارى بالثبات على عقيدتهم من جانب، ومن جانب آخر لإقناع المسلم بالعودة للأصل الذي أخذ عنه الإسلام أفكاره. إذاً فإن منهج الأثر والتأثر لا يخلو من أهداف تنصيرية وتهويدية[١].

(١) الاستشراق في السيرة، ص٣٨.

المبحث الرابع

المبالغة في الشك والافتراض، واعتماد الضعيف والشاذ في الاستدلال

يكاد يكون هذا الملمح في مناهج المستشرقين قاسماً مشتركاً أعظم بينهم جميعاً، فكثير من المستشرقين يمضون مع شكوكهم إلى أقصى مدى، ويطرحون افتراضات لا رصيد لها من الواقع التاريخيّ، بل إنهم ينفون العديد من الروايات، لهذا السبب أو ذاك؛ بينما نجدهم يتشبّثون ـ في المقابل ـ بكل ما هو ضعيف وشاذ[١].

لقد غالى كثير من المستشرقين في كتاباتهم في السيرة النبوية، وأجهدوا أنفسهم في إثارة الشكوك في السيرة. وقد أثاروا الشك حتى في اسم الرسول ﷺ. ولو تمكنوا لأثاروا الشك حتى في وجود النبي ﷺ. وطريقة مثل هذه دفعتهم إلى الاستعانة بالشاذ والغريب، فقدموه على المعروف المشهور، استعانوا بالشاذ ولو كان متأخراً، أو كان من النوع الذي استغربه النقدة وأشاروا إلى نشوزه. تعمدوا ذلك لأن هذا الشاذ، هو الأداة الوحيدة في إثارة الشك[٢].

---

(١) المستشرقون والسيرة النبوية: د.عماد الدين خليل، ص٢٤.

(٢) تاريخ العرب في الإسلام، ص١٥.

وممن سلك هذه المنهجية «ألويس شبرنجر» في كتابه في السيرة النبوية، فقد حاول جهد إمكانه الإحاطة بكل ما كان معروفاً في زمانه من موارد عن السيرة، ومناقشته وتدقيقه ونقده، على وفق طرق البحث الحديثة التي كانت معروفة في ذلك العهد، وهو مشكور من هذه الجهة كما يشكر كل مؤرخ وباحث يسير على هذا النهج ويتبع طريقة النقد الخالص، ولكنه ـ وللأسف ـ لم يتمسك بالنقد العلمي تمسكاً صحيحاً، بل جرى مع عاطفته وذهب مذهباً شاذاً جعله يأخذ بالخبر الغريب الضعيف لمجرد أنه غريب غير مألوف. ثم يقدمه على الأخبار المشهورة أو المتواترة، ويبني عليه أحكاماً[1].

ويأتي بآراء تبدو لمن ليس له علم بالأخبار وبالروايات المتعددة في كتب السير والتواريخ والتفسير والحديث، أنها آراء جديدة حسنة، تشف عن عمق في البحث وتوسع في النقد وصبر على غربلة الأخبار عجيب فهو يذكر الآراء، ويدوّن الروايات قديمها ومتأخرها، ثم يناقشها ويفندها ويصححها، ويطعن في هذا الراوي ويقوم هذا الخبر، ولكنه ـ وهذا هو الغريب فيه ـ أخذ في كثير من الأماكن بالخبر الغريب المتأخر الشاذ وبالروايات الإسرائيلية والأخبار المدسوسة، فأقام لها وزناً وجعل لها اعتباراً، ثم بنى عليها أحكامه، وكان عليه التفريق والتمييز بين المتأخر والمتقدم من الأخبار، ودراسة سند كل خبر ورواية، والتعرف إلى آراء العلماء في أولئك الرواة حملة الخبر من حيث صدقهم وكذبهم، ودراسة كل نص دراسة عميقة من الناحيتين: انطباق مضمون الرواية والخبر على روح الإسلام وأحكام القرآن والحديث وروح عصر الرسول، ودراسة النص من الناحية اللفظية، لينظر إذا كان صحيحاً ينطبق على أسلوب الزمن الذي ترجع الرواية إليه[2].

ومن هنا فقد جاء «شبرنجر» بآراء مغلوطة، قد تكون سرته وأعجبته وأقنعته بأنه قد كشف هفوات وأغاليط في السيرة، وأنه قد نجح في إثارة كثير من الشكوك سيقف عليها الناس في تاريخ الرسول. ولكنه في الواقع لم يأت بشيء جديد، فإن ما ذكره وأورده لم يكن من لدنه ولا من ظفره به في موارد لم تكن

(١) تاريخ العرب في الإسلام، ص١٥.
(٢) المرجع السابق، ص١٦.

معروفة، بل هو مسطور في كتب السير المطبوعة والمخطوطة، وقد قرأه الناس، ولم يجدوا في ذلك حرجاً ولا غضاضة.

وكل ما فعله «شبرنجر» هو أنه اختصر تلك الأخبار ثم ناقشها ونقدها وبيَّن ما فيها من قوة أو ضعف، إلا أنه بدلاً من أن يستمر في نقده على وفق الأسلوب العلمي، ركبه هوس حب الخبر الغريب النادر، فقدمه على المشهور المتواتر، وأخذ بالروايات الضعيفة وبالقصص الإسرائيلي وبروايات الضعفاء، مع نص العلماء على فسادها فقواها وساندها وأقام لها وزناً، واستند إلى أخبار «السيرة الحلبية»[١] كثيراً، وفي هذه السيرة كما هو معروف حشو وقصص إسرائيلي نبه عليه العلماء، فكان عليه أن يدرك ذلك ولكنه لم ينتبه، ولم يأخذ بوجوب تطبيق أصول النقد عليها فوقع عمداً أو سهواً في أغاليط وفي أحكام فندها جماعة من المستشرقين[٢].

وأما «كايتاني» في كتابه عن سيرة النبي ﷺ فقد سلك أيضاً مسلك «شبرنجر» في دراسة السيرة من ناحية الرجوع إلى موارد كثيرة، ومن الإحاطة جهد إمكانه بكل ما ورد عن سيرة الرسول ﷺ، ومن دراسة كل خبر ونقده والبحث عن رواته، لكن ما لبث أن وقع في مثل أغلاط «شبرنجر».

فقد أولع «كايتاني» بالخبر الغريب، وأخذ بالروايات المتأخرة الضعيفة التي لا نجد لها أصولاً في كتب السيرة القديمة وفي الموارد الأخرى، وأبدى فيها آراءه مبنية على العاطفة في الغالب، فوقع من ثم في تلك الأغلاط.

وقد أثار «كايتاني» كثيراً من التحفظات والشكوك في الذي كتبه عن الرسول ﷺ أعجبت المعجبين المولعين بطريقة المستشرقين في البحث وفي كتابة التاريخ، دون أن يطلعوا بالطبع على مواطن الضعف عند هؤلاء المستشرقين، كما أنه تهجم على بعض الرجال مثل ابن عباس رضي الله عنه فاتهمه بالكذب، لورود روايات يرجع سندها إليه، وهي متناقضة أو غير صحيحة، فحكم عليه حكمه القاسي من غير أن يفطن إلى أن كثيراً مما أسند إلى ابن عباس رضي الله عنه هو مما دس عليه، وليس له دخل فيه؛ لأنه أضيف إليه فيما بعد لأسباب عديدة سياسية وغيرها لا

---

(١) تقدم الحديث عليها ضمن مصادر السيرة.

(٢) تاريخ العرب في الإسلام، ص١٦ ـ ١٧.

مجال هنا للبحث فيها. وقد بحث فيها بعض العلماء وأشاروا إلى سلسلة الكذب[١]، التي يصلها الرواة الضعفاء بابن عباس، كما بحثوا في الإسرائيليات التي أضيفت إليه؛ وقد أخذها كايتاني وغيره على أنها أخبار صحيحة وردت عنه حقاً![٢].

وقد انتقد هذه المنهجية عدد من المستشرقين كونها تقوم على التشكيك والنفي دون دليل، ومن هؤلاء درمنغم حيث يقول:

«من المؤسف حقاً أن غالى بعض هؤلاء المتخصّصين ـ من أمثال: موير ومرجوليوث ونولدكه وشبرنجر ودوزي وكايتاني ومارسين وغريم وجولد زيهر وغود فروا وغيرهم ـ في النقد أحياناً، فكانت مؤلفاتهم عامل هدم على الخصوص... ومن المحزن أن كانت النتائج التي انتهى إليها المستشرقون سلبية ناقصة، ولن تقوم سيرة على النفي، وليس من مقاصد كتابي أن يقوم على سلسلة من المجادلات المتناقضة... ومن دواعي الأسف أن كان الأب لامنس ـ الذي هو من أفضل المستشرقين المعاصرين من أشدّهم تعصّباً، وإنه شوّه كتبه الرائعة الدقيقة وأفسدها بكرهه للإسلام ونبيّ الإسلام، فعند هذا العالم اليسوعي أنّ الحديث إذا وافق القرآن كان منقولاً عن القرآن؛ فلا أدري كيف يمكن تأليف التاريخ إذا اقتضى تطابق الدليلين تهادمهما بحكم الضرورة، بدلاً من أن يؤكّد أحدهما الآخر»[٣].

إننا في مجال التشكيك والنفي الاعتباطي لا بدّ أن نذكر العبارة التي قالها «مونتغمري وات» بهذا الصدد: «إذا أردنا أن نصحّح الأغلاط المكتسبة من الماضي بصدد محمد، فيجب علينا في كل حالة من الأحوال التي لا يقوم الدليل القاطع على ضدها، أن نتمسّك بصلابة، بصدقه، ويجب ألا ننسى أيضاً أن الدليل القاطع يتطلب لقبوله أكثر من كونه ممكناً، وأنه في مثل هذا الموضوع يصعب الحصول عليه»[٤].

ونحن نستطيع أن نضع أيدينا على عشرات الشواهد التي تؤكد سمة

---

(١) انظر: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي: السيوطي، ت: نظر الفريابي (١/١٩٨).
(٢) تاريخ العرب في الإسلام، ص١٧ ـ ١٨.
(٣) حياة محمد، المقدمة، ص: ز ـ ح.
(٤) محمد في مكة، ص٩٤.

التشكيك وتقديم الشاذ والغريب في كتابات المستشرقين حول سيرة النبي محمد ﷺ.

ولنبدأ مع مونتغمري وات الذي ناقض مقالته السابقة في وجوب التحري والدقة، والتمسك بصدق النبي ﷺ في كل موضوع لا يرد فيه دليل معارض - بحسب قوله -، ومع هذا فقد اختار «وات» سلوك منهج التشكيك والنفي والافتراض في مواطن عديده من كتاباته في السيرة، كما تكررت عبارات الشك والارتياب كثيراً في ثنايا سطوره مثل قوله: «يصعب تصديق ذلك» و«إذا أمكن قبول هذه الرواية» و«مما يدعو إلى الشك» و«من الممكن أو يبدو» وكل هذا النفي والتشكيك قد يجتمع - أحياناً - في ورقة واحدة[١]، ومن العبارات التي استخدمها وات عبارة «لو صدقنا الرواية»[٢] و«الرواية موضوعة»[٣] و«لا شيء يثبت أمام النقد والتخمين اللذين مررنا بهما»[٤] و«لا يمكن الاطمئنان إلى التفاصيل»[٥].

وأما أمثلة هذا المنهج في دراسة وات لوقائع السيرة النبوية، فمنها:

- بعد استعراض أهم أحداث السيرة بين ميلاد الرسول ﷺ وزواجه بخديجة رضي الله عنها وتحليلها، يقول وات:

«تلك هي الوقائع التي تهيمن على حياة محمد قبل زواجه، من وجهة نظر المؤرخ بعض هذه الوقائع موضع جدل.. وهناك مع ذلك عدد كبير من الروايات التي يمكن تسميتها «بذات الطابع الفقهي»، ولا شك أنها ليست حقيقة بالمعنى الواقعي للمؤرخ؛ لأنها تحاول وصف وقائع يمكن نسبتها لفترات لاحقة من حياة محمد، ولكنها تعني مع ذلك مغزى مهم بالنسبة للمسلمين المؤمنين؛ فهي بذلك حقيقة بالنسبة إليهم، وتكون ملحقاً مناسباً لحياة نبيهم. وربما يمكن اعتبارها كتعبير (لمن كان له عيون ترى) فرأى لو كان شاهداً لها، ويكفي أن نذكر أشهر هذه القصص كما يرويها ابن إسحاق»[٦].

---

(١) Muhammad at medina, p.7.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠.

(٣) المرجع السابق، ص٥٤.

(٤) المرجع السابق، ص٩.

(٥) المرجع السابق، ص١٣.

(٦) محمد في مكة، ص٦٦.

ـ ويورد «وات» بعد ذلك إرهاصات نبوته ﷺ التي حدثت له وقت نزوله في بني سعد مع مرضعته «حليمة السعدية» ثم ذكر نص رواية «شق الملكين لصدر النبي ﷺ» ثم لقائه ﷺ «بحيرى الراهب» كما يرويها ابن إسحاق، ثم يعقّب عليها بأن القارئ يجد نفسه إزاء أرضيّة مهزوزة لوقائع هذا المدى الزمني الذي يبلغ ربع القرن بين الميلاد والزواج(١).

ـ وعند بدء الدعوة يطرح «وات» عنواناً عريضاً يقول فيه: «يوجد كثير من عدم الاطمئنان حول الظروف التي صحبت دعوة محمد، ومن الممكن إذا محّصنا أقدم الروايات أن ننتهي إلى رسم صورة عامة جديرة بالثقة، وإن كانت مختلفة التفاصيل ولا سيّما التواريخ غير الأكيدة»(٢).

ولكن هل نجح (وات) في بناء الصورة الجديرة بالثقة؟! إن وات لم يستطع ذلك لأنه أصبح أسيراً لحشد من الشكوك، مما جعل كثيراً من صور السيرة ووقائعها تخرج من بين يديه وقد أزيل منها الكثير من مكوّناتها الحقيقية الواقعية(٣).

إن (وات) الذي يتعمد ـ أحياناً ـ إثارة الشك في الواقعة التاريخيّة، أو نفيها إذا اقتضى الأمر، يسعى، بالاتجاه النقدي المبالغ فيه نفسه، إلى ما يقابل هذا ولا يقلّ عنه سوءاً وهو: افتراض وقائع أو استنتاجات معيّنة قد لا تدعمها حقائق السيرة ووقائعها، بل إنه يؤكد صدق رواية ضعيفة أو واقعة مدخولة ليس لها ما يؤيدها في حالة عرضها على التيار العام المتوحّد لتلك الحقائق والوقائع.

إنه إذا كان في الحالة الأولى يشكّك فيما هو أقرب إلى الصدق، فإنه في الحالة الثانية يصدق ما هو أقرب إلى الكذب.

والموقفان في حقيقة الأمر وجهان لعملة واحدة؛ هي عملة النقد الذي يتجاوز حده الإيجابي البنّاء إلى الهدم والنفي والتشكيك(٤).

وممن سلك منهج الشك والارتياب ـ أيضاً ـ المستشرق الألماني «كارل بروكلمان» وإن كان منهجه أقل حدة من وات، وأكثر ميلاً لقبول الرواية الإسلامية

(١) المرجع السابق، ص٦٧ ـ ٧٢.
(٢) المرجع السابق، ص٧٣.
(٣) انظر: المستشرقون والسيرة النبوية، ص٥٤.
(٤) المرجع السابق، ص٦٧.

وتصديقها. وقد يرجع ذلك إلى حظه الوافر من معرفة اللغة العربية، التي مكنته من استيعاب الروايات الإسلامية بعكس المستشرق الذي يأخذ الرواية من مصادر غير عربية[١].

ولكن هذا لا يعني أن بروكلمان لم يعترض ولم ينف، فهو مثلاً يفترض أن أهل الصفة كانوا «يشكلون حرس الرسول، كما كانوا عاملاً مساعداً جداً على تعزيز نفوذه بين أتباعه ومواطنيه الجدد»[٢]. هذا في الوقت الذي نفي فيه وات وجود أهل الصفة أصلاً[٣].

- كما أن بروكلمان مثل وات يتشكك في الروايات الإسلامية حول حياة النبي ﷺ الأولى، حيث يذكر بأنه «لسنا نملك بينة موثوقاً بها عن حياة النبي الأولى إلا الآيات القرآنية من سورة الضحى (٦ ـ ١١)، ويتحدث عن عمل النبي ﷺ في تجارة خديجة بقوله: «يظهر أن محمداً قد رافق في هذا الدور بعض القوافل المكية إلى الجنوب»[٤].

- وفي إطار اعتماد الشاذ من الروايات، نجد بروكلمان يتحدث عن قصة الغرانيق بقوله: «ولكنه على ما يظهر اعترف في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث اللواتي كان مواطنوه يعتبرونهن بنات الله، وقد أشار إليهن في إحدى الآيات الموحاة إليه بقوله: تلك الغرانيق العلي وإن شفاعتهن لترتجى... ثم ما لبث أن أنكر ذلك وتبرأ منه في اليوم التالي»[٥].

وهكذا ظهرت سمة التشكيك والارتياب ومن ثم إعمال الضعيف والشاذ كثيراً في كتابات المستشرقين حول النبي ﷺ وسيرته وبقدر ما يبتعد المستشرق عن الإنصاف والموضوعية يقترب كثيراً من هذه السمة حتى تصبح طاغية في كتاباته وتحليلاته وآرائه، ولهذا ظهرت هذه السمة كثيراً في كتابات المتحاملين على الإسلام بشكل أكثر وضوحاً من غيرهم.

---

(١) الاستشراق في السيرة، ص٥١.
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٤٥.
(٣) Muhammad at medina, p.306.
(٤) History of the Islamic peoples,pp. 13.
(٥) المرجع السابق، ص١٤.

المبحث الخامس

إصدار الأحكام المسبقة دون استناد إلى الأدلة

وهذه سمة بارزة قل أن تخلو منها دراسة استشراقية تتناول المسائل الإسلامية، وسبب ذلك أن كثيراً من المستشرقين كان الدافع وراء كتاباته تحقيق أغراض معينة، ولهذا نجده يبادر لإطلاق الحكم لتحقيق نظريته وفرض الهدف الذي يدعو له دون أن يؤيد وجهته بدليل صحيح أو رأي سديد.

وقد أشار الدكتور جواد علي إلى أن «كايتاني»، وهو من كبار المستشرقين الأوائل الذين كتبوا عن حياة الرسول ﷺ، كان يعتمد منهجاً معكوساً في البحث يذكّرنا بكثير من المختصّين الجدد في حقل التاريخ الإسلامي، والذين يعملون وفق منهج خاطئ من أساسه، إذ إنهم يبيّتون فكرة مسبقة ثم يجيئون إلى وقائع التاريخ لكي يستلّوا منها ما يؤيّد فكرتهم ويستبعد ما دون ذلك، فلقد كان كايتاني (ذا رأي وفكرة) وضع رأيه وفكرته في السيرة قبل الشروع في تدوينها فإذا شرع بها استعان بكلّ خبر من الأخبار ظفر به، ضعيفها وقويّها، وتمسّك بها كلّها ولا سيّما ما يلائم رأيه، ولم يبال في الخبر الضعيف بل قوّاه وسنده وعدّه حجّة، وبنى حكمه عليه، ومن يدري فلعلّه كان يعلم بسلاسل الكذب المشهورة والمعروفة عند العلماء، ولكنه عفا عنها وغضّ نظره عن أقوال أولئك العلماء

فيها؛ لأنه صاحب فكرة يريد إثباتها بأية طريقة كانت، وكيف يتمكن من إثباتها وإظهارها وتدوينها إذا ترك تلك الروايات وعالجها معالجة نقد وجرح وتعديل على أساليب البحث الحديث؟»[١].

والمطلع على كتابات المستشرقين في سيرة النبي ﷺ يلحظ أمثلة كثيرة في إصدارهم أحكاماً مسبقة دون استدلال أو توضيح أو دراسة تسبق هذا الحكم، وتبين صحة استنتاجه، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

١ ـ دعوى أن النبي ﷺ تعلم من راهب تعاليم النصرانية.

وهي من الأحكام المسبقة التي أصدرها جمهور المستشرقين وتناقلوها عبر مراحل زمنية مختلفة دون تمحيص أو استدلال، ولهذا نجد الاختلاف فيما بينهم كبيراً في من هو هذا الشخص الذي تلقى عنه النبي ﷺ بزعمهم؟ وما مهمته؟ وماذا تلقى عنه ﷺ؟ وكيف أخذ عنه؟ كما نستعرض ذلك في الآراء التالية:

ـ ظهرت هذه الدعوى قديماً في كتابات هوجو ايولوجيوس القرطبي (ت٨٥٩م) وبطرس ألفا روس (ت٨٦٩م)، وقد ادعى هذان أن محمداً ﷺ نبي مزيف مؤسس لهرطقة مسيحية أيام الإمبراطور هرقل، وقد اتصل بأحد المسيحيين الذي أوهمه أنه ملهم من الله بوساطة جبريل[٢].

ـ كما ادعى جيوبرت النوجنتي (ت١١٢٤م) في تقريره عن الحملة الصليبية الأولى أن النبي ﷺ تعلم من زاهد نصراني إسكندري مهرطق وحاقد على النصرانية[٣].

ـ زعم بطرس ألفونسي اليهودي الإسباني في سيرته عن محمد ﷺ عام ١١١٠م، أنه ﷺ قد وضع نفسه في اتصال مع مهرطق نصراني على مذهب اليعقوبية كان يعمل شماساً في كنيسة أنطاكية، فقام هذا الشماس اليعقوبي بمساعدة اثنين من الهراطقة اليهود بتعليم محمد أصول دعوته الجديدة، وبسرعة قام محمد ﷺ بنشر هرطقته[٤].

---

(١) تاريخ العرب في الإسلام، ص٩٥.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٣١ ـ ٣٢.

(٣) المرجع السابق، ص٣٥.

(٤) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٣٩ ـ ٤٠، وصورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى: سوذرن، ص٧٨.

ـ توالت هذه الدعوى عند بطرس الموقر (ت١١٥٦م) لكنه أضاف في هذه المرة اسم الرجل الذي تلقى عنه محمد ﷺ. فقد زعم بطرس أن النبي ﷺ قد ادعى النبوة وأنه مرسل إليه، مستعيناً في ذلك بمساعدة راهب نسطوري يدعي (سرجيوس)، كانت الكنيسة قد طردته ففر إلى بلاد العرب، فألف محمد القرآن بإشرافه وتوجيهه، لكنه أعلن على الملأ أن الملك جبريل هو الذي نزل عليه بالقرآن من السماء. ولأن العرب لم يسمعوا عن النبوة من قبل، فإنهم صدقوا دعوى محمد ﷺ النبوة وجعلوا منه بطلاً[١].

ـ كما صنف ريكولدوس دي مونت كروسيز (ت١٣٢٠م) الراهب الدومينياكني النبي ﷺ كالمعتاد أنه تعلم على يد مهرطق مسيحي كون له القرآن الكريم من خليط من التعاليم والهرطقات المسيحية وغير المسيحية[٢].

ـ رأى خوان أندريس الإسباني (القرن السادس عشر الميلادي) أن القرآن الموحي به إلى محمد ﷺ ليس غير تلفيق هرطقي من تعاليم اليهودية والنصرانية قام به النبي ﷺ بمساعدة نصارى مكة[٣].

ـ ويقول المستشرق البريطاني بودلي في كتابه: «الرسول: حياة محمد» والذي طبع في سنة ١٩٤٦م بخصوص هذا الموضوع:

«.. فأخبر بحيرى محمداً بعقيدة عيسى، وسفه عبادة الأصنام، وأرهف محمد إلى ما ينطق به الرجل، إذ كان غريباً يخالف ما نشأ عليه واعتقد فيه..»[٤].

٢ ـ دعوى أن الوحي كان عبارة عن صرع يصيب النبي ﷺ.

وهذه الدعوى وما تضمنته من حكم مسبق ـ يخلو من الدليل ـ مما اشتهر في أوساط المستشرقين قديماً وحديثاً، ومن أشهر من ذكرها:

ـ تيوفانس المهتدي (ت٨١٧م) الذي كتب في حولياته فصلاً عن أصول الإسلام وأحداث السيرة قائلاً عن النبي ﷺ: «... وفي فلسطين اختلط مع

(١) المرجع السابق، ص٤٥.
(٢) المرجع السابق، ص٥٠.
(٣) المرجع السابق، ص٧٢، وسيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥١ ـ ٥٢.
(٤) المرجع نفسه، ص٣٨.

اليهود والنصارى، وبوساطتهم حصل على بعض الكتابات، وأصيب أيضاً بالصرع. ولما علمت زوجته بأنها ـ وهي امرأة من الطبقة الغنية ـ قد ارتبطت برجل ليس فقيراً فقط، ولكنه أيضاً مصاب بالصرع هدأها بقوله: إني أرى ملكاً اسمه جبريل، ولما كنت لا أستطيع تحمل رؤيته فإني أصرع[(١)].

ـ جيوبرت النوجنتي (ت١١٢٤م) والذي كتب تقريراً عن الحملة الصليبية الأولى ضمّنه فصلاً للحديث عن النبي محمد ﷺ، ومما جاء فيه:

«... ولكي يصعد نجم محمد ﷺ اقنع الزاهد امرأة ثرية بالزواج منه، ثم أقنعها أن محمداً ﷺ قد اختاره الله رسولاً له، لكن المرأة تشككت في ذلك بسبب حالات الصرع التي كانت تنتابه، إلا أنه أقنعها بأن ذلك دليل وعلامة على التجلي الإلٰهي على جسد محمد الذي يهتز ويتلوى لذلك»[(٢)].

ـ فالتر الكامبيجني (ت١١٥٥م)، الذي نظم (١٠٩٠) بيتاً من الشعر صور بها محمد ﷺ، ومما جاء فيها: «... وفي ليلة الزواج انتابته حالة الصرع المعتادة، مما أحزن زوجته، لكنه شرح لها أن تلك الحالة ليست مرضاً، ولكنها بسبب نزول الملك جبريل عليه السلام بالوحي الإلٰهي عليه مما يجعل جسده يضطرب بسبب ذلك[(٣)].

ـ المستشرق الإنجليزي همفري بريدو (ت١٧٢٤م) في كتابه: «الطبيعة الحقيقية للخداع مجسدة بالكامل في حياة محمد». وهو من أبرز الكتابات الجدلية في تاريخ الغرب ضد نبي الإسلام، وأكثرها فحشاً ليس في عنوانه فحسب بل في مضمونه الذي ترك تأثيراً غير محدود في أوروبا[(٤)]. ومما زعم فيه: أن النبي ﷺ وظف داء الصرع الذي كان مصاباً به للاحتيال والإيهام بأن نوبة غيبوبة الصرع التي تنتابه هي علامة وأثر من علامات وآثار نزول الملك جبريل عليه بوحي جديد من الله[(٥)].

---

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٩ ـ ٤٠ عن:
Islam Medieval-VON. Grunbaum-p24.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٣٥. وانظر: دفاع عن محمد ﷺ: د. بدوي، ص٦.

(٣) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٣٧.

(٤) سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥٦.

(٥) الرسول في تصورات الغربيين: جوستاف بفانمولر، ترجمة: د. محمود زقزوق، ص١٢.

ـ ألويس شبرنجر (ت١٨٩٣م): في كتابه: «حياة محمد وتعاليمه». وفيه اتسمت دراسته بعدم وضوح طبيعة الدين الإسلامي عنده، مقللاً من شأن دور النبي ﷺ، واصفاً له بأنه كان مصاباً بالصرع والهستيريا معاً[(١)].

٣ ـ دعوى أن انتشار دعوة النبي ﷺ كان بالقوة والسيف.

وقد تزعم هذه الفرية ـ التي لا تستند إلى دليل ظاهر من قول أو عمل النبي ﷺ ـ جمع من المستشرقين، ومن أشهر هؤلاء:

ـ خوان أندريس الإسباني (القرن السادس عشر الميلادي). وقد زعم ضمن حديثه عن النبي ﷺ: أن من أسباب انتشار الإسلام هو الاعتماد على السيف في نشره، وعلى الخوف من مصائر الأمم السابقة التي عصت أنبياءها، واستجابة للعناصر والأصول النصرانية في الديانة الإسلامية[(٢)].

ـ وكذلك إدوارد جيبون في كتابه المعنون بـ: «تدهور الإمبراطورية الرومانية المقدسة وسقوطها» حيث رأى أن انتصار محمد ﷺ على النصرانية الشرقية كان بوساطة القرآن في إحدى يديه والسيف في الأخرى[(٣)].

ـ المستشرق الإنجليزي جورج سال صاحب ترجمة القرآن عام ١٧٣٤م ذات العنوان الفاضح لطبيعة الترجمة منذ البدء: «القرآن أو قرآن محمد».

حيث عرض سال في مقدمة الترجمة لشخص النبي ﷺ وطبيعة رسالته، فقدم محمداً ﷺ على أنه رجل اتصف بنوع من الحكمة التي مكنته من وضع قانون ينظم حياة العرب، ويستدل جورج سال على أن رسالة محمد ﷺ لم تكن سوى ابتكار بشري، بأنها تدين بنشوئها وتطورها إلى السيف وحده[(٤)].

والرد على هذه الدعاوى السابقة سيأتي في حينها، وإنما المقصد بيان نماذج من الأحكام المسبقة التي اعتاد كثير من المستشرقين إطلاقها لتحقيق أغراض معينة.

وقد أورد المستشرق الفرنسي المسلم نصر الدين دينيه في آخر كتابه «الشرق

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٨٩.
(٢) سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥١ ـ ٥٢.
(٣) المرجع السابق، ص٥٨، ومحمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٧٦.
(٤) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٧٩. وانظر: المستشرقون: للعقيقي (٢/ ٤٧).

كما يراه الغرب» بعض الآراء المهمة حول هذا السمة في كتابات المستشرقين حيث يقول رَحِمَهُ اللَّهُ:

«لقد أصاب الدكتور سنوك هيرغرنجه بقوله: (إن سيرة محمد الحديثة تدل على أن البحوث التاريخية مقضيّ عليها بالعقم إذا سخّرت لأية نظرية أو رأي سابق).

هذه حقيقة يجمل بمستشرقي العصر جميعاً أن يضعوها نصب أعينهم؛ فإنها تشفيهم من داء الأحكام السابقة التي تكلّفهم من الجهود ما يجاوز حد الطاقة فيصلون إلى نتائج لا شكّ خاطئة.

فقد يحتاجون في تأييد رأي من الآراء إلى هدم بعض الأخبار وليس هذا بالأمر الهيّن، ثم إلى بناء أخبار تقوم مقام ما هدموا وهذا أمر لا ريب مستحيل.

يحتاج العالم في القرن العشرين إلى معرفة كثير من العوامل الجوهرية: كالزمن والبيئة والإقليم والعادات والحاجات والمطامح والميول.. إلى آخره، ولا سيّما إدراك تلك القوى الباطنة التي لا تقع تحت مقاييس المعقول والتي يعمل بتأثيرها الأفراد والجماعات»[(١)].

ثم يضيف دينيه: «لنضرب مثلاً عكسياً: ما رأي الأوروبيين في عالم من أقصى الصين يتناول المتناقضات التي تكثر عند مؤرخي الفرنسيين، ويمحصها بمنطقه الشرقي البعيد، ثم يهدم قصة الكردينال ريشليو كما نعرفها، ليعيد إلينا ريشليو آخر له عقلية كاهن من كهنة بكين وسماته وطباعه؟.

إن مستشرقي العصر الحاضر قد انتهوا إلى مثل هذه النتيجة فيما يتعلق برسمهم الحديث لصورة الرسول. ويخيل إلينا أنا نسمع محمداً يتحدث في مؤلفاتهم: إما باللهجة الألمانية، وإما باللهجة البريطانية، وإما باللهجة الفرنسية، ولا نتمثله قط ـ بهذه العقلية والطباع التي ألصقت به ـ يحدث عرباً باللغة العربية»[(٢)].

وفي خاتمة هذا الباب المختص بمناهج المستشرقين وسماتهم في الكتابة عن النبي محمد ﷺ، يمكن أن يخلص الباحث إلى القول بأن الصرح الذي شيده

---

(١) محمد رسول الله: آتينين دينيه، مقدمة الشيخ عبد الحليم محمود، ص٤٧.

(٢) المرجع السابق، ص٤٧ ـ ٤٨.

المستشرقون في سيرة الرسول ﷺ إنما هو صرح ضعيف البنيان، والسبب في ذلك يعود إلى أن المستشرقين لم يتبعوا الخطة المثلى فيما ينبغي أن يعتمدوا عليه في دراسة السيرة النبوية. وذلك أن كاتب السيرة النبوية من الغربيين يجب عليه قبل أن يشرع في التدوين التنبه إلى عدة أمور مهمة، وهي:

أولاً: أن يتجرد عن الشهوة والهوى والعصبية، ويبدأ في دراسة الموضوع نافضاً عن رأسه كل ما أوحته إليه الكنيسة من أباطيل عن الإسلام، وكل ما غرسته في نفسه من ترهات خاصة بمؤسس الدين الإسلامي، وقل مثل ذلك في أي جهة أو شخصية متعصبة أو متحاملة، على المستشرق أن يتجرد من آراء هؤلاء جميعاً، وإذا لم يفعل المستشرق ذلك فإن ما يكتبه سيكون لا محالة وهماً وباطلاً.

ثانياً: أن يعتمد على الأخبار الصحيحة التي رواها المسلمون أول عهدهم بالتدوين، يجب عليه أن يعتمد على مصادر السيرة المعتمدة كسيرة ابن هشام، وطبقات ابن سعد، وعلى المصادر الحديثية الصحيحة كصحيح البخاري ومسلم، وعلى مصادر التاريخ المهمة كتاريخ الطبري، وقبل ذلك وبعده على القرآن، إذ هو أصح مصدر يعتمد عليه في حكاية وقائع السيرة متى ما ثبتت دلالته.

ثالثاً: أن يدرس البيئة العربية في مهدها الأصلي: مكة، والمدينة، والطائف، وغيرها حتى ينجلي له الغامض ويتضح له المبهم وتستقيم له الفكرة.

إن البيئة العربية الحالية تكاد ترينا رأي العين أشخاص الأخبار التي رويت في سيرة ابن هشام وطبقات ابن سعد، بل إننا نكاد نتعرف فيها على هذه الشخصيات في أصغر إشاراتها وأبسط أفكارها.

أما إذا قرأنا عن هذه الشخصيات في كتب المستشرقين فإننا لانكاد نعرفها لشدة التحريف في تصويرها، وكثيراً ما نلقى ـ لولا الأسماء العربية ـ صعوبة في فهم أن هؤلاء المسلمين الذين يتحدث عنهم المستشرقون رجال من العرب، وذلك لبعد العقلية التي نسبت إليهم عن العقلية التي كانوا عليها[١].

---

(١) انظر: محمد رسول الله: آتينين دينيه، مقدمة الشيخ عبد الحليم محمود، ص٣٥ ـ ٣٦.

مناهج المستشرقين ومواقفهم من النبي ﷺ

عرض ونقد في ضوء العقيدة الإسلامية

د. رياض بن حمد بن عبد الله العُمري

المجلد الثاني

مركز التأصيل للدراسات والبحوث

الباب الرابع

مواقف المستشرقين من نبوّته ﷺ

الفصل الأول: مواقف المستشرقين من مصدر الوحي على محمد ﷺ.

المبحث الأول: الوحي الإلٰهي.

المطلب الأول: مفهوم الوحي الإلٰهي وأدلته.

المطلب الثاني: موقف المستشرقين من الوحي الإلٰهي.

المبحث الثاني: دعوى الوحي النفسي.

المبحث الثالث: دعوى استمداد الوحي من مصادر سابقة.

المطلب الأول: المصادر اليهودية والنصرانية.

المطلب الثاني: المصادر الجاهلية.

الفصل الثاني: مواقف المستشرقين من دلائل نبوّته ﷺ.

المبحث الأول: البشارة به ﷺ في الكتب السابقة.

المبحث الثاني: إرهاصات نبوته ﷺ.

المبحث الثالث: الإعجاز القرآني.

المبحث الرابع: دلائل نبوته ﷺ الأخرى.

الفصل الثالث: مواقف المستشرقين من خصائص نبوته ﷺ.

المبحث الأول: عصمته ﷺ.

المبحث الثاني: عموم رسالته ﷺ.

المبحث الثالث: نسخ الرسالات السابقة برسالته ﷺ.

المبحث الرابع: ختم النبوة به ﷺ.



تمهيد

النبوَّة لغة: مشتقة إما من (النَّبأ) أو (النَّباوة) أو (النُّبوَّة) أو (النَّبي).

١ ـ فإذا كانت مأخوذة من (النَّبأ) فتكون بمعنى الإخبار؛ لأن النبأ هو الخبر.

٢ ـ وإذا كانت مأخوذة من (النَّباوة أو النُّبوة) فتكون بمعنى الرفعة والعلو؛ لأن (النباوة أو النبوة: هي الشيء المرتفع).

٣ ـ أما إذا كانت مأخوذة من (النبي) بدون همز، فيكون معناها الطريق إلى الله ﷻ لأن معنى «النبي» الطريق[١].

ولو نظرنا إلى النبوة الشرعية لوجدنا أنها تشمل كل هذه المعاني إذ النبوة إخبار عن الله ﷻ، وهي رفعة لصاحبها لما فيها من التشريف والتكريم، وهي الطريق الموصلة إلى الله سبحانه.

أما النبوة شرعاً فهي: «خبر خاص يكرم الله ﷻ به أحداً من عباده فيميزه عن غيره بإلقائه إليه، ويوقفه به على شريعته بما فيها من أمر ونهي ووعظ وإرشاد، ووعد ووعيد»[٢].

وقد أرشد الله تعالى إلى أعلام النبوة في القرآن، فقال ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]،

---

(١) انظر: لسان العرب: لابن منظور، مادة: (نبأ) (١/ ١٦٢ ـ ١٦٣)، ومعجم مقاييس اللغة: لابن فارس (٥/ ٣٨٤، ٣٨٥).

(٢) شعب الإيمان: أحمد بن الحسين البيهقي، حققه وخرَّج أحاديثه: مختار أحمد الندوي (١/ ٢٧٩).

وقال: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥]، وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّآ أَهۡلَكۡنَٰهُم بِعَذَابٖ مِّن قَبۡلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبۡلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخۡزَىٰ ﴿١٣٤﴾﴾ [طه: ١٣٤]، فأخبر تعالى أنه بعث الرسل لقطع حجة العباد.

فالنبوة نعمة مهداة من الله تعالى إلى عبيده، وفضل إلٰهيّ يتفضّل بها عليهم، هذا في حقّ المرسَل إليهم.

أما في حقّ المرسَل نفسه، فهي امتنان من الله يمنّ بها عليه، واصطفاء من الربّ له من بين سائر النّاس، وهبة ربانيّة يختصّه الله بها من بين الخلق كُلّهم.

والنبوة لا تنال بعلم ولا رياضة، ولا تدرك بكثرة طاعة أو عبادة، ولا تأتي بتجويع النفس أو إظمائها، وإنّما هي محض فضل إلٰهيّ، ومجرّد اصطفاء ربانيّ، وأمر اختياريّ؛ فهو جلّ وعلا كما أخبر عن نفسه: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ [البقرة: ١٠٥]. فالنبوة إذاً لا تأتي باختيار النبيّ، ولا تنال بطلبه.

ولذلك لما قال المشركون: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، أجابهم الربّ تبارك وتعالى: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الزخرف: ٣٢].

فالله تعالى هو الذي يقسم ذلك، ويتفضّل به على من يشاء من النّاس، ويصطفي من يشاء من عباده، ويختار من يشاء من خلقه. ما كانت الخيرة لأحدٍ غيره، وما كان الاجتباء لأحدٍ سواه.

والإيمان بالنبوة هو الطريق الموصل إلى معرفة الله ومحبّته، والمسلك المفضي إلى رضوان الله وجنّته، والسبيل المؤدي إلى النجاة من عذاب الله، والفوز بمغفرته.

وحاجة العباد إلى الإقرار بالنبوّة أشدّ من حاجتهم إلى الهواء الذي يتنسمونه، وإلى الطعام الذي يأكلونه، وإلى الشراب الذي يشربونه؛ إذ من فقد أحد هؤلاء خسر الدنيا، أما من عدم الإقرار بالنبوة فخسارته أشدّ وأنكى، إذ خسر الدنيا والآخرة ـ عياذاً بالله تعالى ـ.

ومن حكمة الله تعالى أنّه كلّما كان الناس إلى معرفة شيء أحوج، فإنّه ـ

جلّ وعلا ـ يجعله سهلاً ميسّراً غير ذي عِوَج[١].

الإيمان بالأنبياء والرسل:

من أصول الإيمان: الإيمان بالأنبياء والرسل الكرام الذين أرسلهم الله ﷻ، واعتقاد أنَّهم رسله حقاً وأنبياؤه صدقاً، وأنَّ الله ﷻ بعثهم للناس بالهدى والحق مبشرين ومنذرين. واعتقاد أنهم أدوا الأمانة ونصحوا لأممهم، وبلغوا ما أمرهم الله بتبليغه على الكمال والتمام، وأنَّ من أطاعهم فهو من أهل الجنة، ومن عصاهم فهو من أهل النار. واعتقاد فضلهم ورفعة شأنهم وعلوّ قدرهم، وأنَّ الله ﷻ اجتباهم واختارهم وميزهم على الناس، خصهم برسالته وفضلهم على العالمين. واعتقاد التفاضل بينهم، وأنَّ أفضل الأنبياء الرسل، وأفضل الرسل أولو العزم منهم، وأفضل أولي العزم محمد ﷺ؛ فهو إمام المرسلين وخيرهم ومقدمهم ﷺ.

والإيمان برسل الله ﷻ متلازم، من كفر بواحد منهم فقد كفر بالله تعالى وبجميع الرسل عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٢٨٥﴾ [البقرة: ٢٨٥]. وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ حَقّٗاۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ۝١٥١﴾ [النساء: ١٥٠، ١٥١].

وكما أنَّ الإيمان بالرسل عموماً أصل من أصول الإيمان، فإنَّ الإيمان بنبوة محمد ﷺ وأنَّه خاتم الأنبياء والمرسلين أصل عظيم من أصول هذا الدين، ولا إيمان لمن لم يؤمن بنبوته؛ بَشَّر به الأنبياء قبله، وذكروه لأممهم.

وقد بُعث ﷺ للناس أجمعين، ورحمة للعالمين، لم يبعث للعرب خاصة وإنَّما بعث للناس عامة.

ومن الإيمان به ﷺ: الإيمان بفضائله وخصائصه ومناقبه، وجميع ما منَّ الله تبارك وتعالى عليه به[٢].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: لابن تيمية (٩/ ٦٦) (١٠/ ١٢٩)، وانظر: النبوات: لابن تيمية، تحقيق: د. عبد العزيز الطويان، مقدمة المحقق، ص١٩ ـ ٢١.

(٢) معارج القبول: للشيخ حافظ حكمي، ت: عمر محمود أبو عمر (٢/ ٦٧٦ ـ ٦٨٠)، والإرشاد إلى =

موقف المستشرقين من نبوَّة محمد ﷺ:

أنكر جمهور المستشرقين نبوة محمد ﷺ، وتنوعت آرائهم في تفسير مظاهر النبوة التي اكتنفت حياة النبي ﷺ منذ مولده وحتى مماته.

وقد سلك المستشرقون أنواعاً من التعسف الظاهر في تأويلاتهم لجوانب نبوته ﷺ حتى عند من أظهر بعض الآراء الإيجابية في الثناء على النبي ﷺ في سلوكه وصفاته الخُلقية والإنسانية.

ومن هؤلاء غوستاف لوبون الذي أنصف في جوانب من كتاباته الحضارة الإسلامية وبيَّن فضائلها وأثرها على الحضارات الأخرى، لكنه حين جاء يتحدث عن نبوته ﷺ زعم أن الدين ليس إلا تأليفاً من النبي ﷺ وليس وحياً من الله، ولهذا يقول: «وكان من مقاصد محمد أن يقيم ديناً سهلاً يتمرأه قومه، وقد وفق لذلك حين أخذ من الأديان الأخرى ما يلائمهم، ولم يفكر محمد في إبداع دين جديد قط، وهو الذي أعلن أنه يسير على غرار من تقدمه من أنبياء بني إسرائيل...»[١].

وهكذا فالإسلام في نظر لوبون ما هو إلا تلفيقة من الأديان الأخرى، وهو تقليد لأنبياء بني إسرائيل.

بل حتى توماس كارليل الذي يعدُّ من أكثر المستشرقين الغربيين إنصافاً للنبي ﷺ لم يزد على أن عد النبي ﷺ مصلح وبطل في صورة نبي ضمن سلسلة الأبطال الذين ضمهم كتابه «الأبطال»، وقال في أثناء مديحه إياه: «فكان الإخلاص الحر العميق الكبير أول خواصه، وأول خواص الرجل العظيم كيفما كان، والدليل على شدة إخلاصه أفكاره ودعوته التي يسير عليها الملايين الكثيرة من الناس.

فالرسالة التي دعا إليها محمد ظلَّت سراجاً منيراً طوال اثني عشر قرناً من الزمان، فهل من الممكن أن تكون تلك الرسالة التي عاشت عليها هذه الملايين وماتت، أكذوبة خادعة أو خديعة مخادع؟. وهل عرف التاريخ رجلاً كاذباً استطاع أن يخلق ديناً، ويتعهده بالنشر بهذه الصورة؟... وعلى ذلك فمن الخطأ

= صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد: للشيخ د. صالح الفوزان، ص١٧٧ ـ ١٧٩.

(١) حضارة العرب، ص٣٧ ـ ٣٨.

أن يعد محمداً رجلاً متصنعاً متذرعاً بالحيل والوسائل لأجل غاية أو مطمع»[١].

وعلى الرغم من هذا الإطراء للرسول ﷺ ورسالته فإننا ما نلبث أن تظهر أمامنا صورة من التعصب الغربي المتحيز، فها هو ذا كارليل الذي سمعنا منه إزجاء المديح للرسول ﷺ لا يتحرج في الوقت ذاته من الطعن في القرآن الكريم حيث يرفضه ويزدريه بشكل قاس، إذ يقول: «إنه خليط غير مترابط، يرهق القارئ، غليظ النسيج، ركيك التركيب، غاص بالتكرار وبالإسهاب والمعاضلات التي لا تنتهي، وباختصار فهو بالغ الغلظة والركاكة والغباء الذي لا يطاق»[٢].

كذلك فإن «إميل درمنغم» الذي يعد من المحسوبين على الإنصاف في كتابات المستشرقين، كان هو الآخر متأثراً بثقافة عصور الظلام الأوروبية فيما يتعلق بنبوة محمد ﷺ، فهو عندما يتحدث عن النبي ﷺ وكيف كانت بداية الوحي، يقول: «وأضحى لا يفرق جيداً بين تعاقب الليل والنهار، وبين اليقظة والمنام... وكان كلما سار خُيل إليه أن أصواتاً تخرج من الحجارة فإذا ما تعثر بحجر ارتد، والحجارة كثيرة تحت وهج الشمس، والحجارة تحييه بـ(رسول الله)»، ثم ينتهي درمنغم إلى القول: «... أصبح محمد بعد ستة أشهر نحيفاً منهوك الجسم غير منتظم الخطا أشعث الشعر واللحية غريب النظرات، فأخذ يقنط، هل أصابه مسٌّ كما كان يجد في الغالب؟»[٣]. هكذا يصور درمنغم شخصية الرسول ﷺ في فترة إرهاصات النبوة، ونزول الوحي، وكأنه مجذوب يعاني من الوساوس والتخيلات والمس كذلك.

أما مونتغمري وات، فحينما تحدث عن نبوته ﷺ، فإنه عزاها إلى «التخيل الخلاق»؛ أي: أن النبوة لم تكن اصطفاء من الله ﷻ لنبينا محمد ﷺ لأداء رسالته، بل هي من إبداع عقلية النبي ﷺ. ولكي تكتمل هذه الرؤية، فإن وات استبعد رؤية النبي ﷺ لجبريل ﵇، على أساس أنها لا يمكن أن تكون تاريخية[٤].

وهذا ما يبيِّن لنا بوضوح أن وات لا يعترف مطلقاً بنبوة محمد ﷺ، ويعزو

---

(١) الأبطال، ص٥٣ ـ ٥٥.
(٢) المرجع السابق، ص٥٩.
(٣) حياة محمد، ص٧٧ ـ ٧٨.
(٤) Muhamad at mecca p.43.

كل ما جاء به إلى خياله الخلاق المتدفق، ويعترض على صحة الوحي، وينعت الرسول ﷺ في كل المناسبات باسمه الشخصي (أي: محمد) مجرداً من صفة النبوة.

والأكثر غرابة في أمر وات أنه قس نصراني، وهذا يعني أنه يؤمن بمبدأ النبوة، ولا بد أنه يؤمن بالتوراة والإنجيل، وما دام الأمر كذلك فما الذي يمنعه من قبول مبدأ نبوة محمد ﷺ ورسالته؟.

وإذا ما تركنا أولئك المستشرقين الذين يحسبهم القارئ غير المتخصص قد أنصفوا الإسلام ونبيَّه في جميع مقالاتهم، وحاولنا التعرف على آراء سواهم من المستشرقين الذين تعرضوا لحياة النبي ﷺ ورسالته، فإننا نجد لديهم العجب العجاب من القول.

فعلى سبيل المثال يرى «وليم موير» أن دعوة النبي ﷺ إلى الإسلام كانت وليدة ظروف داخلية وخارجية وتلبية لطموحات شخصية، وأن هذه الأمور مجتمعة قد كوَّنت الفكرة الحقيقية للدعوة الإسلامية التي وصفها هذا الكاتب بأنها تعبير صريح عن «طموحات» محمد الشخصية. وهذه الطموحات الممتزجة بفكرة التعاليم الإلٰهية الواردة إليه من علٍ هي التي أدت في النهاية إلى انتشار الاسلام بصورته المعروفة لدينا. وقد ارتبط هذا الطموح الشخصي كذلك باعتقاد راسخ في ذهن محمد أنه مبعوث العناية الإلٰهية لإخراج قومه من الظلمات إلى النور، ومن هنا كان عند انتظاره الوحي كل مرة تتراءى له قضية يجب عليه البت فيها[1].

وواضح من رأي «موير» أنه لا ينظر إلى محمد رسول ﷺ على أنه نبي أو رسول بل مجرد إنسان عادي شغلته هموم وطنه، وأحوال قومه من أجل البحث عن حلول لها والطموح في بلوغ مركز قيادي بين قومه عزز شعوره بأنه مبعوث العناية الإلٰهية.

ويضيف «بفانموللر» معلقاً على آراء موير فيما يتعلق بالنبي ﷺ بقوله: «أما ميور فإنه على الرغم من أرثوذوكسيته، فقد اكتسب خلال دراسته تعاطفاً معيناً لرجل (أي: محمد ﷺ) ظهر له أنه كان ضحية للشيطان»[2]. وهكذا فإن تعاطف

---

(١) الظاهرة الاستشراقية (٢/ ١١٩ ـ ١٢٠).

(٢) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص١٩ ـ ٢٠.

موير[١] مع رسول الله ﷺ لم يمنعه من الظن أنه كان ضحية للشيطان. وهذا التعاطف المضحك مبعثه إنكار موير لنبوة محمد ﷺ ورسالته، وأن كل ما جاء به من دعوة وتشريع لم يكن له في نظر موير سوى وساوس شيطان.

وشبيه برأي موير ما جاء عند «كارل بروكلمان» حول نبوة محمد ﷺ ورسالته، ففي معرض حديثه عن الحوافز أو الأسباب التي جعلت النبي محمداً ﷺ يعلن نبوته يقول: «إنه قد تحقق عنده أن عقيدة مواطنيه الوثنية فاسدة فارغة، فكان يضج في نفسه الفكرة أنه مدعو إلى أداء هذه الرسالة رسالة النبوة... وقد تعرض لإحدى الخبرات الخارقة في غار حراء. وذلك بأن طائفاً تجلى له هناك يوماً، هو الملك جبريل، على ما تمثله محمد فيما بعد فأوحى إليه أن الله اختاره لهداية الأمة... وتحرر هو نفسه من آخر شكوكه بعد أن تكررت الحالات التي ناداه فيها الصوت الإلٰهي وتكاثرت. ولم تكد هذه الحالة تنقضي حتى أعلن ما ظن أنه قد سمعه كوحي من عند الله»[٢].

ولا حاجة بنا إلى إيضاح ما يريد بروكلمان قوله بخصوص نبوة محمد رسول الله فهي في نظره مبنية على فكرة نضجت في نفس محمد مبعثها الإحساس بفساد عقيدة مواطنيه ومبنية كذلك على ما ظن أنه وحي من الله، لذلك فدعوى نبوة رسول الله ﷺ ورسالته لا تعدو في نظر بروكلمان كونها قائمة على فكرة وظن؛ أي: بمعنى آخر: أنها لا تستند إلى أصل إلٰهي!.

وهو حين يذهب هذا المذهب لا يقدم للقارئ ما يقوي دعواه، وهذا المنهج ليس بدعاً من المستشرقين فالجمع العظيم منهم سلك هذا المسلك المنحرف في التفكير.

أما «تور أندريه»، فإنه ربط بين انتصار الرسول ﷺ في يوم بدر وبين اصطفائه للرسالة، فيقول: «وأخيراً أصبح الوحي الذي كان يظهر في البداية بوصفه تأثيراً من جهة عليا فوق التشخص دون أن يكون ذا صلة واعية بحياة النبي النفسية، أصبح بالتدريج يأتيه أيضاً مرتبطاً بوعي عادي، وهذا الارتباط جعل

---

(١) الذي عليه أكثر الترجمات العربية كتابة اسم هذا المستشرق: (موير) هكذا. وهو الذي سرت عليه إلا ما كان داخل النقول فلم أتصرف بها كما في النقل السابق.

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٦.

الوحي أخيراً واقعاً ـ إلى حد ما ـ تحت مراقبة نفسية. وهكذا ـ كما يقول أندريه ـ وصل الأمر بالنبي بالتدريج إلى الحد الذي جعله يعتبر ما يبدو له من أخطار وقرارات على أنها وحي الله»(١).

والحقيقة أن رسول الله ﷺ بدأ وعيه باصطفائه مع بداية بعثته وإلا لما استطاع أن يصمد هذا الصمود العجيب مدة ثلاثة عشر عاماً في مكة ويدعو فيها إلى دين الله، أما وعيه في الاصطفاء فلم يزدد نتيجة لظروف خارجية أو غير متوقعة فقد كان الأمر بالنسبة إلى رسول الله ﷺ واضحاً كل الوضوح منذ اللحظة التي أمره الله فيها بأن يصرح بدعوته ويعلن للناس رسالته(٢).

أما «مكسيم رودنسون» فيرى أن نبوة رسول الله ﷺ قامت على تأثير يهودي نصراني إضافة إلى تجاربه الخاصة، فقد انفتح في ذهنه كلام كانت عناصره مكونة من تجاربه الحقيقية، وطريقة تفكيره وأحلامه، وذكريات مناقشاته ـ كل هذه في نظر رودنسون ـ قد تبدت (لرسول الله) مفككة ومركبة ببرهان ويقين وشعور حقيقي، قد تلبسه كشهادة لنشاط خارجي موضوعي لا يفهم كنهه الآخرون(٣).

وظاهر من هذا الأسلوب في معالجة مسألة الوحي أنه يقوم على التخمين والفرض دون تقديم برهان على ما يذهب إليه وهو في جملته إنكار لنبوة رسول الله ﷺ.

ولعلَّ أكثر ما يدعو إلى الدهشة ضمن مواقف المستشرقين من نبوة محمد ﷺ، هو نظرة «هيوبرت جريمي» إلى رسول الله ﷺ في كتابه «محمد» حيث جاء فيه: أن النبي ﷺ لم يكن يهدف إلى تأسيس دين جديد، ولكنه كان يرغب في إصلاح مجتمع مكة الفاسد، فقام ثائراً على الظلم الاجتماعي في توزيع الثروات، وسعى بكل قوة إلى إقامة مجتمع إنساني عادل، ووجد أن أفضل وسيلة للتخلص من المعارضة المكية القوية لرسالته الإصلاحية الاجتماعية ضد النظام الطبقي، هي توظيف فكرة الحساب يوم القيامة وإسنادها إلى الوحي المتلقى من جبريل، وذلك للتأثير على الأغنياء من أجل قبول رسالته الاجتماعية بتوزيع الثروة

---

(١) سيرة الرسول في تصورات الغربيين، ص٣٢ ـ ٣٣.

(٢) تعليق للدكتور محمود زقزوق ضمن المرجع السابق، ص٣٣ ـ ٣٤.

(٣) الظاهرة الاستشراقية (٢/١٠٩).

على الفقراء من خلال فرض الزكاة على الأغنياء[١].

وهذا القول من جريمي ينفي عن رسول الله ﷺ صفة النبوة، ويرى فيه مصلحاً اجتماعياً يدعو إلى الاشتراكية والمساواة، وهو مع ذلك لم يأت بدليل واحد ليثبت فيه عدم صحة نبوة محمد ﷺ.

أما «بول كازانوفا» فهو ينظر إلى النبي ﷺ على أنه رجل عبقري عادي ليس غير. فيقول: «بقي لنا نحن غير المسلمين حين ننظر إلى محمد أنه رجل عبقري عادي أن نوضح لماذا أهمل العناية بمسألة لها هذه الأهمية الكبرى (أي: الخلافة) فيعلن أن السبب في أمر الخلافة بسيط، وهو اعتقاده (أي: محمد) بأن نهاية العالم قريبة، وهي عقيدة مسيحية»[٢].

وليس من دليل على تهافت رأي كازانوفا أكبر من أن النبي ﷺ لو كان يعلم أن الساعة تقوم قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى، فلمن أعد هذا التشريع الضخم الذي اشتمل عليه القرآن في الأحوال الشخصية والميراث والمعاملات وتنظيم العلاقات. إن نظرة النبي ﷺ في دار الهجرة إلى حياة الإسلام المستقبلية نظرة اجتماعية متعمقة تدل على البقاء والنماء قبل الزوال والفناء الذي هو سُنَّة الله في الأحياء[٣].

وأخيراً فإن المستشرق «أرند فنسنك»[٤] يرى أن فكرة عقيدة التوحيد ليست عقيدة غريبة عن أهل مكة فقد كانت ـ حسب قوله ـ معروفة لديهم قبل محمد، ولكن تحمُّل محمد الكثير من السخرية لأجل هذه العقيدة وحماسه الذي لا يكل في سبيلها، ومحاولته كسب سكان مدينته لجانبه، بصفته حاملاً لهذه الأفكار فقد

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٠.

(٢) القرآن والمستشرقون: د. التهامي نقرة، ضمن مناهج المستشرقين (١/ ٤٢).

(٣) المرجع السابق (١/ ٤٢).

(٤) أرند جان فنسنك Arend Jan Wensinck (١٨٨٢ ـ ١٩٣٩م): مستشرق هولندي. كان أستاذ اللغة العربية في جامعة ليدن من سنة ١٩٧٢م إلى وفاته. انصرف إلى العناية بالحديث النبوي، فوضع بالإنكليزية معجماً للألفاظ الواردة في أربعة عشر كتاباً من كتب السنن والسيرة، نقله إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي وسماه «مفتاح كنوز السُّنَّة» وتولى فنسنك تحرير (دائرة المعارف الإسلامية سنة ١٩٢٥م، بلغاتها الثلاث، فأتم منها أربعة مجلدات وخمس ملازم، وله كتب بالإنكليزية عن الإسلام والمسلمين، وبدأ بنشر المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) بالعربية وتوفي قبل إتمامه وأكمله مستشرقون آخرون بعد وفاته. انظر: الأعلام (١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩).

اعتقد نفسه نبيّاً، ونجاح محمد في نشر عقيدته يعود إلى قوة شخصيته[١].

إن نبوَّة محمد ﷺ في نظر فنسنك لا تعدو كونها ادعاءاً محضاً، وانتشار عقيدة التوحيد على يد محمد يعود إلى قوة شخصيته ليس غير، وفكرة التوحيد ذاتها ليست جديدة على أهل مكة، ولكن جهاد النبي محمد في سبيل تحقيقها هو الذي أقنعه بأنه نبي. والغريب أن الذي بذل هذا الجهد في محاولة تفسير ظاهرة النبوة لدى محمد رسول الله وإرجاعه فكرة التوحيد إلى فكرة سابقة لظهور محمد لم يبذل القدر نفسه من الجهد لإقناع القارئ لماذا نجح محمد هذا النجاح المذهل في نشر عقيدته حتى أصبحت في زمن وجَيز تنافس الديانة الأولى في العالم ألا وهي النصرانية؟!. في الوقت الذي أخفق فيه كثير من أدعياء النبوة، وسقطت فيه الكثير من الفلسفات والمذاهب الدينية الفاسدة؟![٢].

هذا استعراض وجيز لآراء طائفة من المستشرقين الذين درسوا الإسلام وتعرفوا من خلاله إلى نبي الإسلام، وظنوا أنهم أحاطوا بقدر كاف من المعرفة بالإسلام ونبيه تمكنهم من إصدار الحكم له أو عليه، فجاءت دراساتهم في غالب الأحيان مشوهة ومبتورة؛ وذلك لافتقارها للنظرة الموضوعية الحقة التي كثيراً ما تشدَّق بها المستشرقون.

ولعل من أكثر ما يشد انتباه الباحث أن آراء أولئك المستشرقين في النبي محمد ﷺ ورسالته جاءت متشابهة إلى حد كبير. فنرى أن أحدهم يصف النبي ﷺ بكل أوصاف العظمة إلا أنه يعزو نبوته وظاهرة الوحي إلى حالة من الهوس، وأنه ﷺ اختار دينه خليطاً من الأديان الأخرى.

بينما يرى باحث آخر أن نبوة محمد ﷺ مظهر من مظاهر طموحاته الشخصية؛ أي: ليس لها علاقة بالنبوة الحقة. ومحمد حسب رأي آخر: إنسان يعاني من مس يعتاده في الغالب، ويخيَّل إليه أن الحجارة تحييه بلقب (رسول الله)، وكذلك يرى أحد المستشرقين: أن محمداً قد سمع ورأى كائنات غير عادية وصفها له اليهود والنصارى. ونظر إليه مستشرق آخر على أنه لا يعدو كونه مصلحاً

---

(١) النبي ﷺ ويهود المدينة: د. محمد فارس الجميل، ص٣٠، عن:
Arent j. Wensinck, Muhammad and THE Jews of medina. pp.1-2.

(٢) المرجع السابق، ص٣٠ ـ ٣١.

اجتماعياً يدعو إلى الاشتراكية والمساواة. بينما شعور محمد ﷺ بالنبوة في رأي مستشرق آخر لم يتمثل له بصورة حقيقية إلا بعد انتصاره في معركة بدر.

ولعل أمثل أولئك المستشرقين طريقة في تفسيره لنبوة محمد ﷺ هو إرجاع ذلك إلى خيال محمد المتدفق الخلاق. وهذا آخر مبلغه من العلم، فهو لا يريد الاعتراف صراحة بأن محمداً رسول من الله، أرسله الله لهداية البشرية الحائرة، كما سبق أن أرسل قبله كثيراً من الأنبياء والرسل، بل يتعامى عن ذلك كله، ويصر على أن محمداً صاحب خيال خصب خلاق ليس غير، وهو بهذا الوصف يضعه في زمرة العباقرة ولكنه ضمناً ليس نبياً رسولاً[(١)].

إن هذه المقدمة في الحديث عن نبوة محمد ﷺ وتصورات الغربيين عنها ذات أهمية كمدخل موضوعي لعلاقتها بمواقف المستشرقين من المحاور التي سيتناولها البحث في هذا الباب، والتي ترتبط ارتباطاً مباشراً بمسألة النبوة ومواقف المستشرقين منها على سبيل العموم. وهذه المحاور التي سيتناول البحث مواقف المستشرقين منها في الفصول التالية، هي:

الفصل الأول: مواقف المستشرقين من مصدر الوحي على محمد ﷺ.

الفصل الثاني: مواقف المستشرقين من دلائل نبوته ﷺ.

الفصل الثالث: مواقف المستشرقين من خصائص نبوته ﷺ.

(١) النبي ﷺ ويهود المدينة، ص٣١ ـ ٣٢.



الفصل الأول

مواقف المستشرقين من مصدر الوحي على محمد ﷺ



المبحث الأول

الوحي الإلهي

المطلب الأول: مفهوم الوحي الإلهي وأدلته.
المطلب الثاني: موقف المستشرقين من الوحي الإلهي.

المطلب الأول

مفهوم الوحي الإلٰهي وأدلته

الوحي هو الصلة بين الله تعالى وبين رسله وأنبيائه كي يوصل الله تعالى إليهم ما يريد إيصاله من علم وحكم وأمر ونهي وإرشاد وغير ذلك. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧]. وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

الوحي لغة:

أصل الوحي في اللغة إعلام في خفاء[١]. قال الأزهري[٢]: «... وكذلك الإشارة والإيماء يسمى وحياً، والكتابة تسمى وحياً»[٣]. وقال الراغب الأصفهاني[٤]: «أصل الوحي الإشارة السريعة ولتضمن السرعة قيل: أمر وحي،

---

(١) تاج العروس: للزبيدي (٤٠/ ١٧٤). وانظر: الصحاح: للجوهري (٦/ ٢٥٢٠)، ومعجم مقاييس اللغة: لابن فارس (٦/ ٩٣)، ولسان العرب (١٥/ ٣٧٩).

(٢) الأزهري (٢٨٢ ـ ٣٧٠هـ): محمد بن أحمد بن الأزهر بن طلحة بن نوح بن الأزهر أبو منصور الأزهري، إمام في اللغة، كان فقيهاً صالحاً غلب عليه علم اللغة، من مصنفاته: «تهذيب اللغة»، و«التقريب في التفسير»، و«شرح الأسماء الحسنى»، و«شرح ألفاظ مختصر المزني». انظر: طبقات الشافعية الكبرى (١/ ١٤٤)، وطبقات المفسرين: للداودي ص٨٣، الوافي بالوفيات (١/ ١٠٨).

(٣) تهذيب اللغة للأزهري (٥/ ١٩٣).

(٤) الراغب الأصفهاني (أوائل المائة الخامسة ـ ٥٣٥هـ): الحسين بن محمد أبو القاسم الراغب الأصفهاني، كان عالماً بأنواع العلوم منها التفسير. من مصنفاته: «مفردات القرآن»، و«الذريعة في محاسن الشريعة» بالإضافة لتفسير القرآن. توفي سنة ٥٣٥هـ. انظر: طبقات المفسرين: للداودي، ص١٦٨، الوافي بالوفيات (١٣/ ٢٩).

وذلك يكون بالكلام على سبيل الرمز والتعريض، وقد يكون بصوت مجرد عن التركيب، وبإشارة ببعض الجوارح، وبالكتابة»[١].

وقال الزبيدي[٢]: أوحى إليه: كلمه بكلام يخفى[٣]. وقال ابن تيمية رحمه الله: الوحي الإعلام السريع الخفي، إما في اليقظة وإما في المنام[٤].

وبهذا يظهر أن الوحي في الأصل: الخفاء والسرعة، وعلى هذا فالوحي في اللغة: الإعلام الخفي السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره[٥].

أنواع الوحي اللغوي:

للوحي أنواع بالمعنى اللغوي وأنواع بالمعنى الشرعي، وقد يشتركان في بعضهما من حيث الكيفية لكنهما يختلفان من حيث الاعتبار[٦]، فالوحي بالمعنى الشرعي خاص بالأنبياء عليهم السلام. وأنواعه بالمعنى اللغوي[٧]، هي:

١ ـ إلهام الخواطر أو الإلهام الفطري للإنسان وهو ما يلقيه الله في روع الإنسان السليم الفطرة الطاهر الروح كالوحي إلى أم موسى، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]. ومنه الوحي إلى الحواريين، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُواْ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١].

٢ ـ الإلهام الغريزي للحيوان، كالوحي إلى النحل، قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ

---

(١) المفردات في غريب القرآن، ص٨٥٨.

(٢) مُرْتَضى الزَّبِيدِي (١١٤٥ ـ ١٢٠٥هـ): محمد بن محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي، الملقب بمرتضى: علّامة باللغة والحديث والرجال والأنساب، من كبار المصنفين. أصله من واسط (في العراق) ومولده بالهند (في بلجرام) رحل إلى الحجاز، وأقام بمصر، فاشتهر فضله وانهالت عليه الهدايا والتحف، وكاتبه عدد من الملوك. وزاد اعتقاد بعض الجهال فيه، توفي بالطاعون في مصر. من كتبه: «تاج العروس في شرح القاموس»، و«إتحاف السادة المتقين» في شرح إحياء العلوم للغزالي، و«أسانيد الكتب الستة» و«عقود الجواهر المنيفة في أدلة مذهب الإمام أبي حنيفة». انظر: فهرس الفهارس (١/ ٣٩٨ ـ ٤١٣)، والأعلام (٧/ ٧٠).

(٣) تاج العروس: للزبيدي (٤٠/ ١٧٤).

(٤) مجموع الفتاوى (١٢/ ٣٩٨).

(٥) الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا، ص٣٧.

(٦) دراسات في علوم القرآن: د. فهد الرومي، ص١٧٥ ـ ١٨٠.

(٧) المرجع السابق، ص١٧٥ ـ ١٧٦. وانظر: الوحي المحمدي ص٣٧ ـ ٣٨، ومباحث في علوم القرآن: د. مناع القطان، ص٢٨ ـ ٢٩.

إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [النحل: ٦٨].

٣ - الأمر الكوني للجمادات، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾﴾ [الزلزلة: ١ - ٥]. وقال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: ١٢].

٤ - ما يلقيه الله إلى ملائكته من أمر ليفعلوه، قال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال سبحانه: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [النجم: ١٠] فالإيحاء الأول من جبريل عليه السلام إلى محمد ﷺ والثاني من الله سبحانه وتعالى إلى جبريل عليه السلام. والمعنى: فأوحى جبريل إلى محمد ﷺ ما أوحى الله إليه.

٥ - الإشارة السريعة بجارحة من الجوارح كإيحاء زكريا عليه السلام إلى قومه: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾﴾ [مريم: ١١].

٦ - وسوسة الشيطان، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

الوحي شرعاً:

اختلف العلماء في تعريف الوحي، فمنهم من يعرفه بمعنى «الموحى» فيقول: هو كلام الله تعالى المنزل على أحد أنبيائه، وقيل: هو ما أنزل الله على أنبيائه وعرفهم به من أنباء الغيب والشرائع[1].

ومنهم من يعرفه بمعنى «الإيحاء» فيقول: هو إعلام الله لأحد أنبيائه بحكم شرعي أو نحوه.

وقولنا: «إعلام» يشمل أنواع الوحي بمعناه الشرعي كما سيأتي بيانها. وقولنا: «الله» قصر للوحي الشرعي بأنه من الله لا من غيره سبحانه. وقولنا: «لأحد أنبيائه» قصر للوحي بالمعنى الشرعي على الوحي للأنبياء. وقولنا: «بحكم شرعي» بيان للموحى به. وقولنا: «أو نحوه» يراد به القصص والأخبار ونحوها

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري: بدر الدين العيني (١/ ١٤). وانظر: مناهل العرفان: للزرقاني (١/ ٦٣ - ٦٤).

الواردة في القرآن أو السُّنَّة مما لم يرد فيها حكم شرعي فهي من الوحي أيضاً.

وظاهرٌ أن الوحي بالمعنى الشرعي لا يخرج عن حد المعنى اللغوي والفرق بينهما هو الفرق بين العام والخاص. فالوحي بالمعنى اللغوي عام يشمل كل «إعلام في خفاء» والوحي بالمعنى الشرعي خاص لا يتناول إلا ما كان من الله تعالى لنبي من الأنبياء، فالوحي بالمعنى الشرعي أخص من المعنى اللغوي لخصوص مصدره ومورده فقد خص المصدر بأنه من الله وخص المورد بالأنبياء(١).

أنواع الوحي بالمعنى الشرعي(٢):

١ ـ ما يكون مناماً.

وهو أول مراتب الوحي كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها: «أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ـ وعند مسلم الصادقة ـ في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح الحديث»(٣).

وليست الرؤيا خاصة بالفترة الأولى من الوحي بل وقعت بعد ذلك كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وقد وقع الوحي بالمنام لأنبياء سابقين كما حصل لإبراهيم عليه السلام فيما ذكر القرآن عنه من قوله: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الصافات: ١٠٢ ـ ١٠٥].

ومبادرة إبراهيم عليه السلام للامتثال وقول إسماعيل عليه السلام: ﴿ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ﴾

---

(١) دراسات في علوم القرآن: للرومي، ص١٧٧. وانظر: الوحي والقرآن: محمد حسين الذهبي، ص٨، والمدخل لدراسة القرآن الكريم: د. محمد أبو شهبة، ص٨٤، ومباحث في علوم القرآن: للقطان، ص٣٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٨ ـ ١٨٠.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ (١/٧) حديث رقم (٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/١٣٩) حديث رقم (١٦٠).

وقول الله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ دليل قاطع على أن رؤيا الأنبياء عليهم السلام وحي وأمر من الله سبحانه لهم عليهم السلام.

وفي ابتداء النبي ﷺ من الوحي بالرؤيا الصالحة في المنام تهيئة واستعداد لتلقي الوحي في اليقظة، ويدل على هذا حديث علقمة بن قيس صاحب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي بعد في اليقظة»(١).

ولم ينزل من القرآن شيء عن طريق الوحي بالمنام، وقد ظن بعضهم أن سورة الكوثر نزلت في المنام مستدلاً بحديث أنس بن مالك رضي الله عنه: «بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله؟ قال: **أنزلت عليّ آنفاً سورة** فقرأ: **بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**، ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر: ١ ـ ٣]. . . الحديث»(٢).

والصحيح أن هذه الإغفاءة ليست إغفاءة نوم؛ كما حكى السيوطي في الإتقان عن الرافعي قوله: «فهم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت في تلك الإغفاءة. وقالوا: من الوحي ما كان يأتيه في النوم لأن رؤيا الأنبياء وحي. قال: وهذا صحيح، لكن الأشبه أن يقال: إن القرآن كله نزل في اليقظة، وكأنه خطر له في النوم سورة الكوثر المنزلة في اليقظة، أو عرض عليه الكوثر الذي وردت فيه السورة فقرأها عليهم وفسرها لهم.

ثم قال: وورد في بعض الروايات أنه أغمي عليه، وقد يحمل ذلك على الحالة التي كانت تعتريه عند نزول الوحي ويقال لها: برحاء الوحي. انتهى. قلت ـ أي: السيوطي ـ: الذي قاله الرافعي في غاية الاتجاه وهو الذي كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه، والتأويل الأخير أصح من الأول لأن قوله: «أنزل علي آنفاً»، يدفع كونها نزلت قبل ذلك، بل نقول نزلت في تلك الحالة، وليس الإغفاء إغفاء نوم بل الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي فقد ذكر العلماء أنه كان يؤخذ عن

---

(١) فتح الباري (١/ ٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الصلاة، باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة (١/ ١٣٩) حديث رقم (١٦٠).

الدنيا»[١]. وبهذا يظهر أنه لم ينزل قرآن على الرسول ﷺ في المنام، والله أعلم.

٢ ـ ما كان مكالمة بين العبد وربه:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ [الشورى: ٥١]. ومن هذا النوع تكليم الله ﷻ لموسى ﵇: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾﴾ [النساء: ١٦٤]. وقوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ومنه تكليم الله لنبينا محمد ﷺ في المعراج حيث قال: «**فأوحى الله إلي ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة في كل يوم وليلة**»[٢].

٣ ـ ما يكون إلهاماً يقذفه الله في قلب نبيه على وجه من العلم الضروري لا يستطيع له دفعاً ولا يجد فيه شكاً، ومنه حديث ابن مسعود ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: «**إن روح القدس نفث في روعي**[٣] **أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها، ألا فاتقوا الله، وأجملوا في الطلب**»[٤].

٤ ـ ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل ﵇ وهذا النوع أشهر الأنواع وأكثرها، وهو المصطلح عليه بـ«الوحي الجلي» ووحي القرآن كله من هذا القبيل، ولم ينزل شيء من القرآن على الرسول ﷺ بغير هذا النوع كالإلهام أو المنام أو التكليم بلا واسطة يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [النحل: ١٠٢].

والوحي بجميع أنواعه بالمعنى الشرعي يصحبه علم يقيني ضروري من النبي بأن ما ألقي إليه حق من عند الله ليس من خطرات النفس ولا وسوسة الشياطين،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: جلال الدين السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم (١/ ٨٨ ـ ٨٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، وفرض الصلوات (١/ ١٤٥) حديث رقم (١٦٢)..

(٣) الرُّوع: بضم الراء النفس والقلب والخَلَد والخاطر وهو المراد هنا، وبالفتح الخوف والفزع. انظر: لسان العرب (٨/ ١٣٧).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٧٩)، والبزار في مسنده (٧/ ٣١٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٣/ ١٩)، والبغوي في شرح السُّنَّة (١٤/ ٣٠٤)، والتبريزي في مشكاة المصابيح (٣/ ١٤٥٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزياداته (١/ ٤١٩).

وهذا العلم اليقيني لا يحتاج إلى مقدمات وإنما هو من قبيل إدراك الأمور الوجدانية كالجوع والعطش[١].

وقد ذُكرت هذه الأقسام الأربعة في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [الشورى: ٥١]، وقال الإمام البغوي رحمه الله تعالى في تفسيرها: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ يوحى إليه في المنام أو بالإلهام: ﴿أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ يُسمعه كلامه ولا يراه كما كلم موسى عليه السلام: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ إما جبريل أو غيره من الملائكة[٢].

دلائل ألوهية مصدر الوحي المنزل على محمد ﷺ:

نقرأ في الوحي المنزل على محمد ﷺ أنه ليس من عمله، وإنما هو قول ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾: ذلكم هو جبريل عليه السلام تلقّاه من الله تعالى، ثم نزل به بلسان عربي مبين على قلب محمد ﷺ فتلقنه محمد منه كما يتلقن التلميذ عن أستاذه نصاً من النصوص، ولم يكن له فيه من عمل بعد ذلك إلا:

١ ـ الوعي والحفظ.

٢ ـ ثم الحكاية والتبليغ.

٣ ـ ثم البيان والتفسير.

٤ ـ ثم التطبيق والتنفيذ.

أما ابتكار معانيه وصياغة مبانيه فما هو منهما بسبيل، وليس له من أمرهما شيء، إن هو إلا وحي يوحى[٣].

يقول الشيخ محمد عبد الله دراز[٤] رحمه الله: «والعجب أن يبقى بعض الناس في

(١) المدخل لدراسة القرآن الكريم: د. محمد أبو شهبة، ص٨٧.

(٢) معالم التنزيل: البغوي (٧/ ٢٠٠). وانظر: تفسير الطبري (٢١/ ٥٥٨)، وتفسير ابن كثير (٧/ ١٩٩).

(٣) النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز، ص٤٩ ـ ٥٠.

(٤) محمد دراز (. . ـ ١٣٧٧هـ): محمد بن عبد الله دراز. عالم، أديب مصري. حصل على الشهادة الثانوية الأزهرية، وعلى شهادة العالمية، ثم تعلم اللغة الفرنسية، واختير للتدريس بالقسم العالي بالأزهر، ثم أرسل في بعثة علمية إلى فرنسة، وحصل على شهادة الدكتوراه من السوربون، وعاد فاشتغل بالتدريس في جامعة القاهرة وفي دار العلوم، ونال عضوية جماعة كبار العلماء، وكان =

حاجة إلى الاستدلال على الشطر الأول من هذه المسألة، وهو أنه ليس من عند محمد ﷺ. في الحق أن هذه القضية لو وجدت قاضياً يقضي بالعدل لاكتفى بسماع هذه الشهادة التي جاءت بلسان صاحبها على نفسه، ولم يطلب وراءها شهادة شاهد آخر من العقل أو النقل، ذلك أنها ليست من جنس (الدعاوى) فتحتاج إلى بينة، وإنما هي من نوع (الإقرار) الذي يؤخذ به صاحبه ولا يتوقف صديق ولا عدو في قبوله منه، إن أية مصلحة للعاقل الذي يدعي لنفسه حق الزعامة ويتحدى الناس بالأعاجيب والمعجزات لتأييد تلك الزعامة، نقول: أية مصلحة له في أن ينسب بضاعته لغيره، وينسلخ منها انسلاخاً؟ على حين أنه كان يستطيع أن ينتحلها فيزداد بها رفعة وفخامة شأن، ولو انتحلها لما وجد من البشر أحداً يعارضه ويزعمها لنفسه.

الذي نعرفه أن كثيراً من الأدباء يبسطون على آثار غيرهم فيسرقونها أو يسرقون منها ما خف حمله وغلت قيمته وأمنت تهمته، حتى إن منهم من ينبش قبور الموتى ويلبس من أكفانهم ويخرج على قومه في زينة من تلك الأثواب المستعارة. أما أن أحداً ينسب لغيره أنفس آثار عقله وأغلى ما تجود به قريحته فهذا ما لم يلده الدهر بعد»[(١)].

ثم يرد دراز رحمه الله على من زعم أن النبي ﷺ قد يكون نسب الوحي إلى الله تعالى لأجل استصلاح الناس واستيجاب طاعته ونفاذ أمره عليهم بقوله:

«وهذا قياس فاسد في ذاته، فاسد في أساسه. أما إنه فاسد في ذاته؛ فلأن صاحب هذا القرآن قد صدر عنه الكلام المنسوب إلى نفسه والكلام المنسوب إلى الله تعالى؛ فلم تكن نسبته ما نسبه إلى نفسه بناقصة من لزوم طاعته شيئاً، ولا نسبة ما نسبه إلى ربه بزائدة فيها شيئاً، بل استوجب على الناس طاعته فيهما على السواء، فكانت حرمتهما في النفوس على سواء، وكانت طاعته من طاعة الله، ومعصيته من معصية الله، فهلا جعل كل أقواله من كلام الله تعالى لو كان الأمر كما يهجس به ذلك الوَهِمُ.

وأما فساد هذا القياس من أساسه؛ فلأنه مبني على افتراض باطل، وهو

= عضواً في اللجنة العليا لسياسة التعليم من مؤلفاته: «تاريخ آداب اللغة العربية»، «منهل العرفان في تقويم البلدان»، «كتاب في مبادئ علم الاخلاق»، «كتاب الدين»، و«تفسير آيات الأحكام». انظر: الأعلام (٦/ ٢٤٦)، معجم المؤلفين (١٠/ ٢١٢).

(١) المرجع السابق، ص٥١.

تجويز أن يكون هذا الزعيم من أولئك الذين لا يأبون في الوصول إلى غاية إصلاحية أن يعبروا إليها على قنطرة من الكذب والتمويه، وذلك أمر يأباه علينا الواقع التاريخي كلَّ الإباء، فإن من تتبع سيرته الشريفة في حركاته وسكناته، وعباراته وإشاراته، في رضاه وغضبه، في خلوته وجلوته... لا يشك في أنه كان أبعد الناس عن المداجاة والمواربة، وأن سره وعلانيته كانا سواءً في دقة الصدق وصرامة الحق في جليل الشؤون وحقيرها، وأن ذلك كان أخص شمائله وأظهر صفاته قبل النبوة وبعدها، كما شهد ويشهد به أصدقاؤه وأعداؤه إلى يومنا هذا: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٦]»[(١)].

ـ وقد دلت الدلائل النقلية والعقلية المتواترة، وشواهد سيرته ﷺ على ألوهية مصدر الوحي المنزل عليه، وتقرير ذلك من عدة وجوه:

أولاً: نصوص القرآن الكريم الدالة على أنه وحي من عند الله:

من تتبع النصوص القرآنية في مواطن متعددة، وجد أنها تشير إلى أن القرآن من عند الله، وليس من عند محمد ﷺ ذلك النبي الأمي الذي لا يعرف القراءة والكتابة، ولم يدّع في يوم من الأيام أن القرآن من عنده، وإنما أخبر بأنه كتاب الله تعالى أنزل إليه بواسطة جبريل عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١]. فجبريل عليه السلام هو الذي تلقاه عن ربه فكان واسطة بين الله وبين النبي محمد عليه الصلاة والسلام ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾ [النجم: ٤].

ونجد أن الآيات القرآنية تصرح بأنه لا علاقة لمحمد ﷺ بإنزال القرآن بل هو عبد مأمور تخاطبه الذات الإلٰهية، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ﴾ [الأعراف: ٢٠٣]؛ أي: إذا لم تأتهم أيها الرسول بآية قرآنية طلبوها منك، وتراخى الوحي بإنزالها، قالوا: لولا ألفتها من تلقاء نفسك، قل: إنما أتبع ما يوحى إلي من ربي من غير أن يكون لي دخل في ذلك أصلاً[(٢)].

(١) المرجع السابق، ص٥١ ـ ٥٢.
(٢) تفسير المنار: محمد رشيد رضا (٩/٥٥١).

وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٥، ١٦]. ففي هذه الأيات أمر من الله تعالى لنبيه ﷺ أن يقول: إنه ما يكون له أن يبدل شيئاً من القرآن من تلقاء نفسه. وأما قوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

فهذه الآية حجة واضحة على كفار مكة؛ لأن النبي ﷺ لم يبعث إليهم رسولاً حتى لبث فيهم عمراً من الزمن، وقدر ذلك أربعون سنة، فعرفوا صدقه، وأمانته، وعدله، وأنه بعيد كل البعد من أن يكون كاذباً على الله تعالى، وكانوا في الجاهلية يسمونه الأمين، وقد ألقمهم الله حجرا بهذه الحجة في موضع آخر، وهو قوله: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون: ٦٩] ولذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان، ومن معه عن صفاته ﷺ، قال هرقل لأبي سفيان: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قال أبو سفيان: فقلت: لا، وكان أبو سفيان في ذلك الوقت زعيم الكفار، ورأس المشركين ومع ذلك اعترف بالحق، والحق ما شهدت به الأعداء. فقال له هرقل: فقد أعرف أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس، ثم يذهب فيكذب على الله[(١)]. ولذلك وبخهم الله تعالى بقوله هنا: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾[(٢)].

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت: ٤٧]. فالكتاب منزل من عند الله وليس من عند محمد، وكيف يكون محمد هو صاحب الكتاب ثم ينسبه، فازداد به عظمة وارتفاعاً، وهو الصادق الذي شهد له الأعداء بذلك، وهو الحكم العدل الذي يقبله الأعداء لحل الخصومات، وهو النبي الأمي

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي ﷺ الناس إلى الإسلام والنبوة، وأن لا يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله (٤/ ٤٥) حديث رقم (٢٩٤٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام (٣/ ١٣٩٣) حديث رقم (١٧٧٣).

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: الشيخ محمد الأمين الشنقيطي (٢/ ١٥٢ ـ ١٥٣).

الذي لم يخط كتاباً من قبل: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]، ولكن: ﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [العنكبوت: ٤٩].

والذي يطالع الآيات الواردة في هذا المجال وهي كثيرة، يخرج منها بأمرين هامَّين:

الأول: دلالة ضمائر المتكلم في الآيات على أن القرآن من عند الله، وليس من عند محمد ﷺ؛ لأن الأفعال المسندة إلى الله لا يمكن ولا يعقل أن تصدر إلا من الله ﷻ في أي موطن من مواطن الإسناد.

الثاني: تبرؤ الرسول ﷺ من نسبة أي شيء إلى نفسه من كتاب الله تعالى، وأنه كان يرجع إلى ربه في كل آية منه[١].

ثانياً: اختلاف الأسلوب القرآني عن أسلوب السُّنَّة:

لقد بلغ القرآن الكريم الذروة في الفصاحة والبلاغة، وقد عجز فصحاء العرب عن مجاراته، مع علو كعبهم، ورسوخ قدمهم في أساليب اللغة وفنونها، فالقرآن له أسلوب متميز يختلف عن الشعر والنثر وقد شهدت بذلك حتى أعداء القرآن.

يقول طه حسين: «إن الكلام ينقسم إلى ثلاثة أقسام: شعر ونثر وقرآن»[٢]. فهو يرى أن أسلوب القرآن يسير طريقاً خاصاً به، ولكن له خاصية به، تحسها في تركيب ألفاظه لو أراد إنسان أن يقارن بين القرآن والحديث، لرأى الفرق واضحاً، والتغاير ظاهراً بينهما في أسلوب التعبير، وفي الموضوعات، فحديث النبي ﷺ تظهر فيه المحادثة والتفهيم والتعليم والخطابة في صورها ومعناها المألوف عند العرب، بخلاف أسلوب القرآن الذي لا يعرفه له شبيه في أساليب العرب[٣].

فإذا كان المستشرقون يقولون أن محمداً يأتي بكلام فمرة يقول أنه قرآن، ومرة يقول أنه حديث قدسي، ومرة يقول أنه حديث نبوي، وصنعوا من ذلك مصدر تشكيك.

---

(١) المستشرقون والقرآن: د. محمد أمين حسن، ص٢١٨.
(٢) بحث جديد عن القرآن: محمد صبيح، ص١٠٣، ط٦، مطابع الفاني، مصر.
(٣) الإسلام في قفص الاتهام: شوقي أبو خليل، ص٢٠.

فيقال لهم: «إن الذي أخذتموه لتجعلوه ضد نبي الإسلام هو في صالح نبي الإسلام وعادة يترك الله بعض الحق عند الأحمق، ليدل على حمقه.

هاتوا لنا في عالم الإنس إنساناً له موهبة أن يقول، ثم سجلوا له مميزات أسلوبه، ثم اسألوه أن يغير الأسلوب إلى أسلوب آخر، ثم سجلوا له الأسلوب الآخر، ثم قولوا له: نريد أسلوباً ثالثاً، فإنه لا يستطيع أن يبرأ من أسلوبه الأول أبداً، وذلك لأن الأسلوب هو الطريقة اللازمة للشخص في أداء المعنى، وما دامت له طريقة في أداء المعنى فإن الأداء سيأخذ تشخيصاً لا يمكن أن يبرئ صاحبه نفسه منه.

فإذا ما جئنا بأسلوب قرآني وأسلوب حديث قدسي، وأسلوب حديث نبوي، فسنجد أساليب ثلاثة لا يمتزج فيها أسلوب بأسلوب بل لكل أسلوب خواصه ومميزاته وطبائعه، فهل يستطيع بشر أن يجعل لموهبته الأساسية ثلاثة أساليب بحيث يقول: أنا الآن سأتكلم بأسلوب حديث نبوي، إن هذا لا يمكن في طاقة البشر إذن كما هو: القرآن يوحيه الله له.

والحديث القدسي يوحيه الله له، ولكن الفارق أن القرآن يأتي من الله وحياً معجزاً متحدى به ومتعبداً بتلاوته، والحديث القدسي يأتي وحياً من الله، ولكنه ليس معجزاً ولا متحدى به ولا متعبداً بتلاوته»[١].

ثالثاً: أن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب:

وقد دل على ذلك قوله الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فرسول الله ﷺ عاش بينهم زمناً طويلاً من حياته، لا يقرأ ولا يكتب، ثم جاءهم بهذا الكتاب العجيب الذي يُعجز القارئين الكاتبين، ولربما تكون لهم شبهة لو أنه كان قارئاً كاتباً، فما شبهتهم وهذا ماضيه بينهم.

وحتى لو فرضنا أن رسول الله ﷺ كان قارئاً كاتباً ما جاز لهم أن يشكّوا، فهذا القرآن بذاته يشهد على أنه ليس من صنع البشر، فهو أكبر جداً من طاقة البشر، ومعرفة البشر. فهل يعقل أن أمياً لا يقرأ ولا يكتب يأتي بهذا الإعجاز التشريعي المتكامل دون التناقض الذي أقر به الصديق والعدو.

---

(١) شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها: محمد متولي شعراوي، ص٣٨.

وهل يعقل أن أمياً لا يقرأ ولا يكتب يأتي بهذا الإعجاز اللغوي الفريد الغريب، وهل يعقل أن أمياً لا يقرأ ولا يكتب يأتي بهذا الإعجاز العلمي الذي بهر عقول العلماء، إن هذا الكتاب ينطق: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢](١).

رابعاً: ورود بعض الآيات في معاتبة النبي ﷺ ومخالفته في طبعه واختياره:

فقد نزل الوحي في مواضع متعددة بمخالفة النبي ﷺ: إما بتخطئته في رأي يراه، أو الإذن له في شيء لا يميل إليه، أو معاتبته في شيء اجتهد فيه حتى في أقل الأشياء خطراً، كما يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ [التحريم: ١]، ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ [الأحزاب: ٣٧] ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾﴾ [التوبة: ١١٣]، ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأٓخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨]، ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس: ٥ ـ ١٠](٢).

يقول الشيخ محمد دراز: «أرأيت لو كانت هذه التقريعات المؤلمة صادرة عن وجدانه معبرة عن ندمه ووخزة ضميره حين بدا له خلاف ما فرط من رأيه، أكان يعلنها عن نفسه بهذا التهويل والتشنيع؟ ألم يكن له في السكوت عنها ستر على نفسه، واستبقاء لحرمة آرائه؟ بلى إن هذا القرآن لو كان يفيض عن وجدانه لكان يستطيع عند الحاجة أن يكتم من ذلك الوجدان، ولو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذه الآيات، ولكنه الوحي لا يستطيع كتمانه ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [التكوير: ٢٤]»(٣).

---

(١) المستشرقون والقرآن: د. محمد أمين حسن، ص٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٢) النبأ العظيم، ص٥٤.

(٣) المرجع السابق، ص٥٥.

خامساً: تأخر نزول الوحي على النبي ﷺ رغم حاجته إليه في بعض المواطن، ومن ذلك:

١ ـ في حادثة الإفك: حين أرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه عائشة رضي الله عنها وأبطأ الوحي، وطال الأمر والناس يخوضون، حتى بلغت القلوب الحناجر، وهو ﷺ لا يستطيع إلا أن يقول بكل تحفظ واحتراس: «**إني لا أعلم عنها إلا خيراً**» ثم إنه بعد أن بذل جهده في التحري والسؤال واستشارة الأصحاب، ومضى شهر بأكمله والكل يقولون: ما علمنا عليها من سوء. لم يزد على أن قال لها آخر الأمر: «**يا عائشة، أما إنه بلغني كذا وكذا، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفري الله**»[1].

هذا كلامه ﷺ بوحي ضميره، وهو كما نرى كلام البشر الذي لا يعلم الغيب، وكلام الصديق المتثبت الذي لا يتبع الظن، ولا يقول ما ليس له به علم. على أنه لم يغادر مكانه بعد أن قال هذه الكلمات حتى نزل صدر سورة النور معلناً براءتها، ومصدراً الحكم المبرم بشرفها وطهارتها.

فماذا كان يمنعه ـ لو أن أمر القرآن إليه ـ أن يتقول هذه الكلمة الحاسمة من قبل ليحمي بها عرضه ويذب بها عن عرينه، وينسبها إلى الوحي السماوي لتنقطع ألسنة المتخرصين؟ ولكنه ﷺ ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧][2].

٢ ـ كان رسول الله ﷺ يُسأل عن أمور كثيرة ولا يجيب عليها حتى ينزل عليه الوحي من الله، ومن ذلك سؤال قريش له عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان أمرهم؟. وعن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟. وعن الروح ما هي؟. وكانت قريش قد أرسلت رجلين إلى أحبار اليهود يسألونهم عن هذا الرسول؛ لأنهم أهل كتاب، فقالوا لهما: سلوه عن هذه الأسئلة، فإذا أخبركم بها فاتبعوه فهو نبي وإلا فهو رجل كاذب.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً (١٧٣/٣) حديث رقم (٢٦٦١)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف (٢١٢٩/٤) حديث رقم (٢٧٧٠).

(٢) النبأ العظيم، ص٥٣.

فسألوا الرسول عن ذلك، فقال: «**أخبركم بما سألتم عنه غداً**» ولم يستثن فانصرفوا عنه، فمكث رسول الله ﷺ ـ فيما يذكرون ـ خمس عشرة ليلة لا يوحي الله إليه في ذلك شيئاً، ولا يأتيه جبريل حتى أرجف أهل مكة، وقالوا: وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة ليلة قد أصبحنا منها ولا يخبرنا بشيء مما سألناه عنه، وحزن الرسول ﷺ على تأخر الوحي، وشق عليه ذلك، ثم بعد ذلك نزل عليه جبريل بسورة الكهف فيها معاتبة إياه على حزنه عليهم، وجوابه عن الأسئلة التي سألوه عنها[(١)].

نقف أمام هذه الحادثة، أسئلة تطرح على رسول الله ﷺ من قريش، ويعدهم بالإجابة على هذه الأسئلة في اليوم الثاني، ويتأخر الوحي عنه وتمر الأيام، وتخوض قريش في الحديث، ويضيق صدر الرسول ﷺ بذلك، وهو الذي يرجو هداية هؤلاء القوم، ويبقى الأمر كذلك حتى تمر خمس عشرة ليلة، وهو على حاله، ثم بعد ذلك ينزل عليه جبريل بالوحي من عند الله مجيباً على أسئلة قريش في سورة الكهف، أفلا يدل ذلك على أن القرآن من عند الله، وليس من عند محمد ﷺ[(٢)].

سادساً: إعجاز القرآن يدل على أنه وحي من عند الله:

عرَّف الأستاذ مصطفى صادق الرافعي[(٣)] الإعجاز بقوله: «ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان، واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه»[(٤)]. ومن أهم أوجه الإعجاز القرآني:

١ ـ الإعجاز البياني.

٢ ـ الإعجاز العلمي.

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ١٤٣).

(٢) المستشرقون والقرآن: د. محمد أمين حسن، ص٢٢٢.

(٣) مصطفى صادق الرافعي (١٢٩٨ ـ ١٣٥٦هـ): مصطفى صادق بن عبد الرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبد القادر الرافعي: عالم بالأدب، شاعر، من كبار الكُتَّاب. أصله من طرابلس الشام، أصيب بصمم فكان يُكتب له ما يراد مخاطبته به. ونثره من الطراز الأول. من آثاره: «إعجاز القرآن والبلاغة النبويّة»، و«تحت راية القرآن»، و«على السفّود»، رد على العقاد، و«وحي القلم»، و«المعركة» في الرد على كتاب الدكتور طه حسين في الشعر الجاهلي. انظر: الأعلام (٧/ ٢٣٥).

(٤) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، ص٩٨.

٣ ـ الإعجاز التشريعي.

وكل واحد من هذه الوجوه متضمن لنماذج عديدة يظهر فيها الإعجاز الإلٰهي مما لا يستطيعه أحد من البشر مهما بلغ من الذكاء والفصاحة والعلم والقدرة والحكمة(١).

سابعاً: اشتمال القرآن على أخبار الأمم السابقة:

تعرَّض القرآن للحديث عن أخبار الأمم السابقة، فذكر أحوالها وما أصابها، وذكر أحوال الرسل السابقين وموقف أقوامهم منهم وما أصابهم، وقد وافقت هذه الأخبار الصادقة ما ورد في كتب اليهود والنصارى، والتي سبقت القرآن، علماً بأن الرسول الذي أنزل عليه القرآن كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، من أمة أمية أيضاً فمن أين جاء بهذه الأخبار والمعلومات التاريخية عن الأنبياء والأمم السابقة، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]. كما بيَّن تعالى أن هذه الأخبار وحي من الله تعالى أخبر بها نبيّه ﷺ، كما قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ [آل عمران: ٤٤].

ثامناً: اشتمال القرآن على أخبار تقع في المستقبل:

وقد تحقق وعد الله بوقوعها كما أخبر القرآن، فمن ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقد حصل ذلك في عمرة القضية.

٢ ـ إخبار الله تعالى عن حفظ كتابه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر: ٩].

وهذا هو القرآن قد مضى على نزوله أربعة عشر قرناً وهو محفوظ من العبث الذي لحق الكتب السابقة، ومصون من كل خلل أو قصور عن متطلبات الحياة، وحاجات المجتمع، وهذا يدل على صدق تحقيق ما أخبر الله تعالى به(٢).

---

(١) وسيأتي تفصيل الحديث عن هذا الإعجاز القرآني في مبحث مستقل.

(٢) المستشرقون والقرآن: د. محمد أمين حسن، ص٢٢٥ ـ ٢٢٦.

تاسعاً: سلامة القرآن من التناقض والاختلاف والتفاوت:

رغم كبر حجمه واشتماله على علوم كثيرة، فلو كان من عند غير الله لحصل التناقض والاختلاف، وصدق الله إذ يقول: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

أي: لو كان من عند محمد لا من عند الله الذي أرسله به لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً، لعدم استطاعته واستطاعة أي مخلوق أن يأتي بمثل هذا القرآن في تصوير الحق بصورته كما هي لا يختلف ولا يتفاوت في شيء منها، لا في حكايته عن الماضي الذي لم يشاهده محمد ﷺ ولم يقف على تاريخه، ولا في إخباره عن الآتي في مسائل كثيرة وقعت كما أنبأ بها، ولا في بيانه لخفايا الحاضر، حتى حديث الأنفس ومخبآت الضمائر.

ولعدم استطاعته واستطاعة غيره أن يأتي بمثله في بيان أصول العقائد، وقواعد الشرائع، وفلسفة الآداب والأخلاق، وسياسة الشعوب والأقوام، مع اتفاق جميع الأصول، وعدم الاختلاف والتفاوت في شيء من الفروع.

ولعدم استطاعته واستطاعة غيره أن يأتي بمثله فيما جاء به من فنون القول وألوان العبر في أنواع المخلوقات، في الأرض والسماوات؛ وفيها الكلام على الخلق والتكوين ووصف الكائنات بأنواعها، كالكواكب وبروجها ونظامها، والرياح والبحار والنبات والحيوان والجماد، وما فيها من الحكم والآيات، وكلامه في ذلك كله يؤيد بعضه بعضاً لا شبهة فيه، ولا اختلاف بين معانيه.

ولعدم استطاعته واستطاعة غيره أن يأتي بمثله في بيان سنن الاجتماع، ونواميس العمران، وطبائع الملل والأقوام، وإيراد الشواهد وضروب الأمثال، وتكرار القصة الواحدة، بالعبارات البليغة المتشابهة، تنويعاً للعبر، وتلويناً للموعظة، مع تجاوب ذلك كله على الحق، وتواطئه على الصدق، وبراءته من الاختلاف والتناقض، وتعاليه على التفاوت والتباين.

وفوق ذلك كله ما فيه من العلم الإلٰهي، والخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة، وما فيها من الحساب على الأعمال، والجزاء الوفاق، وكون ذلك موافقاً لفطرة الإنسان، وجارياً على سُنَّة الله تعالى في تأثير الأعمال الاختيارية في الأرواح، فالاتفاق والالتئام بين الآيات الكثيرة في هذا الباب، هو غاية الغايات عند من أوتي الحكمة وفصل الخطاب.

كان هذا القرآن ينزل منجماً بحسب الوقائع والأحوال، فيأمر النبي ﷺ عند نزول الآية أو الطائفة من الآيات أن توضع في محلها من سورة كذا، وهو لا يقرأ في الصحف ما كتب أولاً ولا ما كتب آخراً، وإنما يحفظه حفظاً، ولم تجر العادة بأن الذي يأتي من عند نفسه بالكلام الكثير في المناسبات والوقائع المختلفة يتذكر عند كل قول جميع ما سبق له في السنين الخالية، ويستحضره ليجعل الآخر موافقاً للأول، وإذا تذكرت أن بعض الآيات كان ينزل في أيام الحرب وشدة الكرب، وبعضها كان ينزل عند الخصام، وتنازع الأفراد أو الأقوام، جزمت بأن من المحال عادة أن يتذكر الإنسان في هذه الأحوال جميع ما كان قاله من قبل ليأتي بكلام يتفق معه ولا يختلف، وكان إذا تلا عليهم الآيات يحفظونها عنه في صدورهم ويكتبونها في صحفهم، فلم يكن ثم مجال للتنقيح والتحرير لو فرض، وإن تعجب فعجب أن تمر السنون والأحقاب وتكر القرون والأجيال، وتتسع دوائر العلوم والمعارف، وتتغير أحوال العمران، ولا تنقض كلمة من كلمات القرآن، لا في أحكام الشرع، ولا في أحوال الناس وشؤون الكون، ولا في غير ذلك من فنون القول.

إننا نرى العالم النابغ في علم معين من علماء هذا العصر يؤلف الكتاب فيه ويستعين عليه بمعارف أقرانه من العلماء الباحثين، ثم يطيل التأمل فيه وينقحه ويطبعه فلا تمر سنوات قليلة إلا ويظهر له الخطأ والاختلاف فيه، فلا يعيد طبعه إلا بعد أن يغير منه ويصحح ما شاء، فما بالك بما يظهر للإنسان من الاختلاف والتفاوت في الكتب التي يؤلفها غيره من أول وهلة لا بعد مرور السنين، واتساع دائرة العلوم، وقد ظهر هذا القرآن في أمة أمية لا مدارس فيها ولا كتب على لسان أمي لم يتعلم قراءة ولا كتابة، فكيف يمر عليه قرون متطاولة يتغير فيها العمران البشري كما قلنا، ولا يظهر فيه اختلاف ولا تفاوت حقيقي يعتد به، ويصلح أن يكون مطعناً فيه! أليس هذا برهاناً ناصعاً على كونه من عند الله أوحاه إلى عبده ورسوله محمد ﷺ؟[1].

---

(١) تفسير المنار (٥/٢٣٣ ـ ٢٣٥).

المطلب الثاني

موقف المستشرقين من الوحي الإلٰهي

ينكر جمهور المستشرقين أن يكون محمد ﷺ نبياً مرسلاً من عند الله تعالى، تلقى رسالة الله عن طريق الوحي، وبناء على ذلك فقد أنكر هؤلاء ألوهية مصدر الوحي.

ثم تخبطوا في تفسير مصدر الوحي، فمنهم من يرجع ذلك إلى ذات النبي ﷺ من خلال نوبة صرع، وإلى تخيلات كانت تملأ ذهنه ﷺ وهو ما يعرف بـ«الوحي النفسي» عند بعضهم، وبنظرية «الوحي الخلاق» أو «الخيال المتدفق» عند بعضهم الآخر، ومنهم من يزعم أن مصدره كان مقالات أصحاب الديانات السابقة: اليهودية والنصرانية، ومنهم من يرجعه إلى آراء الجاهلية وأشعارهم إلى غير ذلك، وهكذا فقد سلك جمهور المستشرقين مسالك شتى في تفسير مصدر الوحي، وإن اتفقوا على شيء فهو إنكار ألوهية مصدره وإحالته إلى المصادر البشرية المختلفة، وهكذا انتهج هؤلاء المستشرقين هذا الرأي كأن الله تعالى لم يرسل نبياً قط، وكأنهم لم يسمعوا قبل بأن الأنبياء يوحى إليهم من قبل الله ﷻ.

ولما كان غالبيتهم ما بين يهودي ومسيحي يعترفون بأنبياء بني إسرائيل وبما أوحاه الله إليهم كان إنكارهم نبوة محمد ﷺ تعنتاً ومكابرة مبعثها التعصب الديني كما سيأتي.

أما القلة الباقية بين المستشرقين فهم ما بين متعاطف مع الإسلام ونبيه ﷺ ولذلك فقد أظهر نوعاً من التصديق بألوهية مصدر الوحي، أو مستشرقين مسلمين دعاهم إيمانهم بالله تعالى وتصديقهم بنبوة محمد ﷺ إلى الإقرار ـ من غير شك ـ بألوهية الوحي المنزل على نبينا محمد ﷺ.

أما النوع الأول وهم المتعاطفون فقد أظهر هؤلاء بعضاً من التسليم بألوهية مصدر الوحي، وكثيراً من الثناء العاطر على القرآن في أسلوبه، وسمو وتنوع ما جاء به، والإشادة ببقائه على مر عصور متفاوتة دون تحريف أو تغيير، وقد تنوعت عباراتهم حول هذا الموضوع، ومما جاء فيها:

ـ يقول واشنطن إيرفنج: «كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه. حتى إذا ظهر المسيح (عليه السلام) اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حلّ القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل. حوى القرآن كل شيء، وحوى جميع القوانين، إذ إنه خاتم الكتب السماوية...»[(١)].

ـ ويقول مارسيل بوازار: «لا بدّ عند تعريف النصّ القدسي في الإسلام من ذكر عنصرين، الأول أنه كتاب منزل أزلي غير مخلوق، والثاني أنه (قرآن)؛ أي: كلام حي في قلب الجماعة... وهو بين الله والانسانية (الوسيط) الذي يجعل أي تنظيم كهنوتي غير ذي جدوى؛ لأنه مرضيّ به مرجعاً أصليّاً، وينبوع إلهام أساسي... وما زال حتى أيامنا هذه نموذجاً رفيعاً للأدب العربي تستحيل محاكاته»[(٢)].

ـ ويضيف اللورد هنري دي كاستري[(٣)]: «... إن العقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى. آيات لما سمعها عقبة بن ربيعة[(٤)] حار في جمالها، وكفى رفيع عبارتها لإقناع عمر بن الخطاب رضي الله عنه فآمن

(١) حياة محمد، ص٧٢.

(٢) إنسانية الإسلام، ص٥٢ ـ ٥٣.

(٣) هنري ديك كاستري Castries,Cte H.de (١٨٥٠ ـ ١٩٢٩م): عسكري وكاتب فرنسي، كان مقدماً في الجيش الفرنسي الذي احتل الجزائر، عاش بين الجزائريين زمناً طويلاً، ومن هنا جاء اهتمامه بالإسلام، من أهم مؤلفاته: «الإسلام سوانح وخواطر». عرض فيه بإنصاف للإسلام ونبيّه ﷺ، كما أثنى دي كاستري على المسلمين في عباداتهم وأخلاقهم، وقارن بين إخلاصهم لدينهم واستخفاف الغربيين بدينهم. كما بيَّن أسباب انتشار الإسلام وأسباب قوته ودفع دعوات المناوئين له، ونهى عن محاولات تنصير الجزائريين وفرض الفرنسية عليهم. انظر: الإسلام سوانح وخواطر ـ مقدمة المحقق، ص٤ ـ ١٠، معجم أسماء المستشرقين ص٥٤٦.

(٤) لعل مقصوده الوليد بن المغيرة، فهو القائل عن القرآن: «والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق، وإن فرعه لغدق، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل...». سيرة ابن هشام (١/ ٢٤٣ ـ ٢٤٤).

برب قائلها، وفاضت عين نجاشيّ الحبشة بالدموع لما تلى عليه جعفر بن أبي طالب سورة زكريا[١]، وما جاء في ولادة يحيى وصاح القسس أن هذا الكلام واردٌ من موارد كلام عيسى (عليه السلام)... لكن نحن معشر الغربيين لا يسعنا أن نفقه معاني القرآن كما هي لمخالفته لأفكارنا ومغايرته لما ربيت عليه الأمم عندنا، غير أنه لا ينبغي أن يكون ذلك سبباً في معارضة تأثيره في عقول العرب.

ولقد أصاب (جان جاك روسو) حيث يقول: «من الناس من يتعلم قليلاً من العربية ثم يقرأ القرآن ويضحك منه، ولو أنه سمع محمداً ﷺ يمليه على الناس بتلك اللغة الفصحى الرقيقة وصوته المشبع المقنع الذي يطرب الآذان ويؤثر في القلوب... لخرّ ساجداً على الأرض وناداه: أيها النبي رسول الله خذ بيدنا إلى مواقف الشرف والفخار أو مواقع التهلكة والأخطار فنحن من أجلك نودّ الموت أو الانتصار)... وكيف يعقل أن النبي ﷺ ألّف هذا الكتاب باللغة الفصحى مع أنها في الأزمان الوسطى كاللغة اللاتينية ما كان يعقلها إلا القوم العالمون... ولو لم يكن في القرآن غير بهاء معانيه وجمال مبانيه لكفى بذلك أن يستولي على الأفكار ويأخذ بمجامع القلوب...»[٢].

ـ ويقول ول ديورانت في كتابه «قصة الحضارة» عن القرآن:

«... وقد ظل أربعة عشر قرناً من الزمان محفوظاً في ذاكرتهم، يستثير خيالهم، ويشكل أخلاقهم، ويشحذ قرائح مئات الملايين من الرجال. والقرآن يبعث في النفوس أسهل العقائد، وأقلها غموضاً، وأبعدها عن التقيد بالمراسم والطقوس، وأكثرها تحرراً من الوثنية والكهنوتية. وقد كان له أكبر الفضل في رفع مستوى المسلمين الأخلاقي والثقافي، وهو الذي أقام فيهم قواعد النظام الاجتماعي والوحدة الاجتماعية، وحرضهم على اتباع القواعد الصحية، وحرر عقولهم من كثير من الخرافات والأوهام، ومن الظلم والقسوة، وحسّن أحوال الأرقاء، وبعث في نفوس الأذلاء الكرامة والعزة، وأوجد بين المسلمين... درجة من الاعتدال والبعد عن الشهوات لم يوجد لها نظير في أية بقعة من بقاع العالم يسكنها الرجل الأبيض...»[٣].

---

(١) مقصوده سورة مريم وقد تضمنت قصة زكريا عليه السلام.

(٢) الإسلام: خواطر وسوانح، ص١٨ ـ ٢٠.

(٣) قصة الحضارة (١٣/ ٦٨ ـ ٦٩).

ـ ويقول المستشرق الفرنسي لويس سيديو: «لا تجد في القرآن آية إلا توحي بمحبة شديدة لله... وفيه حث كبير على الفضيلة خلا تلك القواعد الخاصة بالسلوك الخلقي... وفيه دعوة كبيرة إلى تبادل العواطف وحسن المقاصد والصفح عن الشتائم، وفيه مقت للعجب والغضب، وفيه إشارة إلى أن الذنب قد يكون بالفكر والنظر، وفيه حض على الإيفاء بالعهود حتى مع الكافرين، وتحريض على خفض الجناح والتواضع، وعلى استغفار الناس لمن يسيئون إليهم، لا لعنهم، ويكفي جميع تلك الأقوال الجامعة المملوءة حكمة ورشداً لإثبات صفاء قواعد الأخلاق في القرآن...»[1].

ـ وتقول المستشرقة الإيطالية لورا فاغليري: «إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة، من خلاله، أنباء تتصف بيقين مطلق. إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته. إن كلاً من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب، ليس بالطويل أكثر مما ينبغي، وليس بالقصير أكثر مما ينبغي. أما أسلوبه فأصيل فريد. وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي تحدر إلينا من العصور التي سبقته. والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير أيما عون عرضي أو إضافي من خلال سموه السليقيّ. إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة، حتى عندما تعالج موضوعات لا بدّ أن تؤثر في نفسها وجرسها كموضوع الوصايا والنواهي وما إليها. إنه يكرر قصص الأنبياء (عليهم السلام) وأوصاف بدء العالم ونهايته، وصفات الله وتفسيرها، ولكن يكررها على نحو مثير إلى درجة لا تضعف من أثرها. وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته. إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معا ـ وهما صفتان لا تجتمعان عادة ـ حيث تجد كل صورة بلاغية تطبيقاً كاملاً، فكيف يمكن أن يكون هذا الكتاب المعجز من عمل محمد ﷺ، وهو العربي الأميّ الذي لم ينظم طوال حياته غير بيتين أو ثلاثة أبيات لا ينمّ أي منها عن أدنى موهبة شعرية؟»[2]. ثم تضيف حول مصدر القرآن:

«لا يزال لدينا برهان آخر على مصدر القرآن الإلٰهي في هذه الحقيقة: وهي أن نصّه ظل صافياً غير محرف طوال القرون التي تراخت ما بين تنزيله ويوم

(١) تاريخ العرب العام، ص٨٩، ٩٨ ـ ٩٩، ١٠٠، ١١٧.
(٢) دفاع عن الاسلام، ص٥٦ ـ ٥٧.

الناس هذا، وأن نصه سوف يظل على حاله تلك من الصفاء وعدم التحريف، بإذن الله، ما دام الكون»[١]. ثم تقول عن أسلوبه:

«إن هذا الكتاب، الذي يتلى كل يوم في طول العالم الإسلامي وعرضه، لا يوقع في نفس المؤمن أيما حسّ بالملل. على العكس، إنه من طريق التلاوة المكرورة يحبب نفسه إلى المؤمنين أكثر فأكثر يوماً بعد يوم. إنه يوقع في نفس من يتلوه أو يصغي إليه حسّاً عميقاً من المهابة والخشية. إن في إمكان المرء أن يستظهره في غير عسر، حتى إننا لنجد اليوم، على الرغم من انحسار موجة الإيمان، آلافاً من الناس القادرين على ترديده عن ظهر قلب، وفي مصر وحدها عدد من الحفاظ أكثر من عدد القادرين على تلاوة الأناجيل في أوروبا كلها»[٢].

هذه بعض النقولات عن طائفة من المستشرقين الذين أظهروا مقولات منصفة في حق الوحي المنزل على نبينا محمد ﷺ من جهة صدق ما جاء به وسلامة أسلوبه وسموّ ما احتواه من أخلاق وتعاليم، وتشير في جوانب أخرى منها إلى إثبات ألوهية مصدره وإنكار أن يكون هذا الوحي من مصدر بشري.

أما المستشرقون المسلمون فقد انتهجوا مسلك الإيمان بألوهية الوحي المنزل على النبي محمد ﷺ وهذا أمر متقرر، إذ إن هذا من أصول الإيمان بالله تعالى وبرسوله ﷺ، والتي لا يتم الإيمان إلا بها.

يقول الدكتور مراد هوفمان: «ولكي يكون المرء مسلماً، فلا بد من توافر شرطين اثنين فيه: الأول: الإيمان بإله واحد، مع تنزيهه عن الجنس، لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، آثاره الملموسة في العالم تدل على وجوده. الشرط الثاني: الإيمان بما أنزله الله من الوحي، كما هو متجلّ في الحنيفية البيضاء من إبراهيم إلى محمد ﷺ»[٣].

وقد أكد كثير من المستشرقين المسلمين على إظهار إعجاز القرآن الكريم ومقارنة ذلك بالكتب السابقة، بل وتأكيد تفوقه عليها من نواحي عدة، وذلك باعتبار هذا الجانب من أعظم ما يؤكد ألوهية مصدر الوحي المنزل على نبينا

(١) المرجع السابق، ص٥٨ ـ ٥٩.
(٢) المرجع السابق، ص٥٩.
(٣) الإسلام كبديل، ص٣٧.

محمد ﷺ بل ويؤكد تفوقه على ما نزل به الوحي السابق له.

وفي هذا السياق يقول نصر الدين دينيه:

«إن معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمداً كانت في الواقع معجزات وقتية، وبالتالي معرضة للنسيان السريع. بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية: (المعجزة الخالدة)، ذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر. ومن اليسير على المؤمن، في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله، وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي أحرزه الإسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوروبيون؛ لأنهم يجهلون القرآن، أو لأنهم لا يعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلاً عن أنها غير دقيقة.

إن الجاذبية الساحرة التي يمتاز بها هذا الكتاب، الفريد بين أمهات الكتب العالمية، لا تحتاج منا ـ نحن المسلمين ـ إلى تعليل، ذلك أننا نؤمن بأنه كلام الله أنزله على رسوله»[1].

وبعد أن يسترسل دينيه في بيان أثر القرآن على المسلمين الذين آمنوا به في عصر الرسالة والذين آمنوا به في عصرنا الحاضر رغم الاختلاف بين الفئتين في التمكن من معاني اللغة ودقائقها إلا أن التأثير ما زال ظاهراً بيِّناً[2] ليصل دينيه بعد ذلك إلى النتيجة العقلية الصحيحة التي تؤكد على أن مصدر هذا الوحي لن يكون سوى الخالق جلَّ وعلا:

«. . . إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد، وإنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الآيات البينات. إن الرسول لم يكن مخادعاً، حين قال: «**إن الله هو الذي أنزل القرآن**».

لقد كان يؤمن كل الإيمان بمصدره الإلٰهي، فالنوبات الهائلة التي كانت تنتابه عند مجيء الوحي حاملاً إليه ما لم يكن يعلمه، في لغة جديدة كل الجدة بالنسبة له، تختلف كثيراً عن لغته المألوفة. . . هذا الوحي الذي يؤنبه إن أخطأ، ويلزمه بحفظ تلك الآيات دون أن يقدر على المقاومة. . . هذا الوحي، خلال

---

(١) محمد رسول الله، ص١٣٨.

(٢) ص١٤٠.

تلك النوبات، لم يكن ليترك لديه أدنى شك في المصدر الإلٰهي في القرآن»[١].

وتقول المستشرقة الأمريكية ديبورا بوتر في حديثها عن سبب إسلامها: «... عندما أكملت القرآن الكريم غمرني شعور بأن هذا الحق الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها. وأنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية. أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع وأسلوب قاطع لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة، وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة»[٢].

ثم تضيف: «... إن المضمون الإلٰهي للقرآن الكريم هو المسؤول عن النهوض بالإنسان وهدايته إلى معرفة الخلق، هذه المعرفة التي تنطبق على كل عصر...»[٣].

وتستدل على هذا المضمون الإلٰهي بقولها: «... كيف استطاع محمد ﷺ الرجل الأمي الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لا بدّ إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله ﷻ»[٤].

ويقول محمد أسد ضمن حديثه عن إسلامه في كتابه الشهير (الطريق إلى مكة): «... لقد عرفت الآن، بصورة لا تقبل الجدل، أن الكتاب الذي كنت ممسكاً به في يدي كان كتاباً موحى به من الله. فبالرغم من أنه وضع بين يدي الإنسان منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً فإنه توقع بوضوح شيئاً لم يكن بالإمكان أن يصبح حقيقة إلا في عصرنا هذا المعقد الآلي...، لقد عرفت أن هذا لم يكن مجرد حكمة إنسانية من إنسان عاش في الماضي البعيد في جزيرة العرب النائية فمهما كان هذا الإنسان على مثل هذا القدر من الحكمة فإنه لم يكن يستطيع وحده أن يتنبأ بالعذاب الذي يتميز به هذا القرن العشرون. لقد كان ينطق لي، من القرآن، صوت أعظم من صوت محمد»[٥].

---

(١) ص١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) رجال ونساء أسلموا: عرفات كامل العشي (٨/ ١٠٠).

(٣) المرجع السابق (٨/١١٣).

(٤) المرجع السابق (٨/١٠٩).

(٥) الطريق إلى مكة، ص٣٢٨ ـ ٣٢٩.

ويقول مراد هوفمان مبيناً منزلة الوحي القرآني، ومقارناً له بالكتب السابقة: «والمسلم يؤمن أن القرآن كلمة الله، وأنه ليس مخلوقاً من المخلوقات، وأن الله أوحاه إلى محمد بلسان عربي مبين في تلك الفترة الزمنية المحددة، وهو معجزة الإسلام الوحيدة، والدليل القاطع والبرهان الساطع على نبوة محمد.

ليس القرآن إذن كالعهد القديم أو الجديد، حيث يقُصُّ فيهما شخص ما حديثاً غير مباشر عن شخص أو شيء أو عن الله... أما القرآن، فإن القاصّ الذي يقص أحسن القصص هو الله مباشرةً سبحانه، يُخبر الله فيه عمّن يشاء أو عمّا يشاء، كما يُعلّمنا أن ننزّهه عن الجنس والنظير والشبيه... فيخبر عن نفسه بضمير المفرد المتكلم، وضمير المتكلم الجمع، وضمير الغائب المفرد، لكي نظل واعين بمسألة تَنَزُّهه سبحانه عن التجسيد أو التشخيص»[١].

أما المستشرق الفرنسي موريس بوكاي فقد كان من أكثر المستشرقين المسلمين اهتماماً بمسألة الإعجاز القرآني ومقارنة ذلك بالكتب السابقة، ولهذا خصص كتابه «القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم» لبحث هذه المسألة، ومما جاء فيه قوله:

«لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث، وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل.

أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول؛ أي: سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا. وأما بالنسبة للأناجيل... فإننا نجد نصّ إنجيل متى يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض»[٢].

---

(١) الإسلام كبديل، ص٤١.

(٢) ص١٥٠.

المبحث الثاني

دعوى الوحي النفسي

لعلَّ من أكثر الأساليب الاستشراقية مكراً في إثارة الشبهة حول مصدر الوحي المنزل على محمد ﷺ، هو الأسلوب الذي يحاول أن يضفي على النبي محمد ﷺ، صفات الصدق والأمانة والإخلاص والذكاء، الأمر الذي أدى به أن يتخيل نفسه أنه ممن يوحى إليه، وهو ما يسمى بـ(الوحي النفسي) فإن هذا الأسلوب يحاول أن يستر دوافعه المغرضة، بمظاهر الإنصاف والمحبة والإعجاب.

يقول مونتغمري وات: «فالقول بأن محمداً كان صادقاً لا يعني بأن القرآن وحي حق، وأنه من صنع الله، إذ يمكن أن نعتقد بدون تناقض أن محمداً كان مقتنعاً بأن الوحي ينزل عليه من الله، وأن نؤمن في نفس الوقت بأنه كان مخطئاً»[1].

وخلاصة رأي هؤلاء الماديين: أن الوحي إلهام كان يفيض من نفس النبي الموحى إليه لا من الخارج، ذلك أن منازع نفسه العالية وسريرته الطاهرة، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية وتقاليد وراثية رديئة،

---

(١) Muhamad at mecca p.325.

يكون لها في جملتها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الباطن الرؤى والأحوال الروحية فيتصور ما يعتقد وجوبه إرشاداً إلٰهياً نازلاً عليه من السماء بدون وساطة، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب، وقد يسمعه يقول ذلك، وإنما يرى ويسمع ما يعتقده في اليقظة، كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الأنبياء، فكل ما يخبر به النبي كلام ألقي في روعه، أو عن ملك ألقاه على سمعه، فهو خبر صادق عنده[1].

وقد جاءت مقولة هؤلاء المستشرقين بـ«الوحي النفسي» بناء على مقدمات زعموا أنها تؤيد وجهتهم، فهم يرون:

أن محمداً ﷺ قد أدرك بقوة عقله الذاتية، وبما يتمتع به من نقاء وصفاء روحي ونفسي... بطلان ما كان عليه قومه من عبادة الأصنام، كما أدرك ذلك أيضاً أفراد آخرون من قومه. وإن فطرته الزكية ـ بالإضافة إلى بعض الظروف الموضوعية كالفقر ـ حالت دون أن يمارس أساليب الظلم الاجتماعي من الاضطهاد، وأكل المال بالباطل. أو الانغماس بالشهوات، وارتكاب الفواحش كالاستمتاع بالسكر والتسري وعزف القيان وغير ذلك من القبائح.

وأنه طال تفكيره من أجل إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح وتطهيرهم من تلك الفواحش والمنكرات.

وقد استفاد من النصارى الذين لقيهم في أسفاره أو في مكة نفسها كثيراً من المعلومات عن الأنبياء والمرسلين، ممن بعثهم الله في بني إسرائيل وغيرهم، فأخرجوهم من الظلمات إلى النور.

كما أنه لم يقبل جميع المعلومات التي وصلت إليه من هؤلاء النصارى، لما عرض للنصرانية من الأفكار الوثنية والانحرافات، كألوهية المسيح وأمه، وغير ذلك من البدع.

وأنه كان قد سمع أن الله سيبعث نبياً مثل أولئك الأنبياء من عرب الحجاز بشر به عيسى المسيح وغيره من الأنبياء، وتولد في نفسه أمل ورجاء في أن يكون ذلك النبي الذي آن أوانه. وأخذ يتوسل إلى تحقيق هذا الأمل بالانقطاع إلى عبادة الله تعالى في خلوته بغار حراء.

---

(١) الوحي المحمدي، ص٥٩.

وهنالك قوي إيمانه وسما وجدانه، فاتسع محيط تفكيره وتضاعف نور بصيرته، فاهتدى عقله الكبير إلى الآيات والدلائل البينة في السماء والأرض، على وحدانية الله سبحانه خالق الكون ومدبر أموره. وبذلك أصبح أهلاً لهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

ثم ما زال يفكر ويتأمل ويتقلب بين الآلام والآمال، حتى أيقن أنه هو النبي المنتظر، الذي يبعثه الله لهداية البشرية، وتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤى المنامية، ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك يلقنه الوحي في اليقظة.

وأما المعلومات التي جاءته من هذا الوحي، فهي مستمدة في الأصل من تلك المعلومات، التي حصل عليها من اليهود والنصارى، ومما هداه إليه عقله وتفكيره، في التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح. ولكنها كانت تتجلى وكأنها وحي السماء، وخطاب الخالق ﷻ، يأتيه بها الناموس الأكبر، الذي كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى ابن مريم، وغيرهما من النبيين عليهم السلام[1].

تفصيل شبهة المستشرقين حول الوحي النفسي:

يعتبر المستشرق الفرنسي «إميل درمنغم» من أكثر المستشرقين إثارة لهذه الشبهة في كتابه «حياة محمد»، حيث عوَّل عليها في تفسير كثير من أحداث السيرة في فترة ما قبل البعثة ومع بدء تنزل الوحي على محمد ﷺ.

فقد ذهب درمنغم يصور الحالة النفسية لنبينا محمد ﷺ أثناء تحنثه في غار حراء، والانطباعات النفسية التي تركتها مشاهداته وتأملاته. كما يقول:

«أخذ محمد يتحنث، كما رأى زهاد النصارى ونساكهم يصنعون، فكان ينقطع عن الناس في شهر رمضان على الخصوص، وذلك في غار حراء القريب من مكة... ونظر محمد طلوع النجوم الأولى التي كان قد تأمل فيها غير مرة من شرف مكة أو من باب خيمة أقيمت بالقرب من إحدى الآبار، وعجب من نظام الكواكب وانسجامها سابحة في الفضاء، وهذه الكواكب تكون في ليالي صيف الصحراء من الكثرة وشدة النور ما يخيل معه إلى الإنسان أنه يسمع صوتاً للمعانها كما يُسمع صوت نار موقد كبير.

---

(١) الوحي المحمدي، ص٨١ ـ ٨٢ ـ باختصار ـ. وانظر: تفسير المنار (١١/ ١٥٢ ـ ١٥٣).

والحق أن في السماء لآيات لأولي الأبصار، والحق أن العالم حافل بالأسرار وأن العالم سر بنفسه، فلا يكفي المرء أن يفتح عينيه وأذنيه ليرى ويسمع الحقائق؟ وهل يتطلب سماع أصوات ما وراء الكواكب غير قلب نقي ونفس صادقة وروح مستعدة؟ ولم يلبث محمد بعد قصير زمن أن صار يقسم بالكواكب وقبة السماء وبالقمر المنير ومنازله»(١).

ثم يحاول درمنغم توضيح المشكلات الاجتماعية والدينية في البيئة المحيطة بالنبي ﷺ، والتي يريد درمنغم تصويرها ـ بأسلوب غير مباشر ـ على أنها كانت سبباً في تخيلاته للوحي ولقيامه بأعباء الدعوة إلى دين جديد. كما يقول:

«كان لدى محمد ما يحمله على الشك في حكمة الناس، وما كان ليرضى بغير الحقيقة الناصعة، ولم يكن ليستطيع العيش إلا في عالم الحقيقة. وما كان يراه حوله ليس حقاً، وما كانت حياة قريش حقاً، وما كان على شيء من الحق سائقوا القوافل المرابون، ولا الأعراب النهابون الفوضويون، ولا الأفاقون المتحللون، ولا الخلعاء القاصدون لضواحي مكة اللاهون، ولم تكن من الحق تلك الأصنام المحيطة بالكعبة، ولم يكن إلهاً حقاً هبل ذو اللحية واليد الذهبية واللابس رداء ملون والمبلل بالزعفران والأطياب»(٢).

وكما هو دأب جمهور المستشرقين فقد حاول درمنغم إظهار الأثر النصراني في فكر النبي ﷺ وتصوراته الدينية في مرحلة ما قبل الوحي، ولهذا يقول:

«اطلع محمد على أحوال النصارى في رحلته إلى الشام، ولم يكن عدد النصارى قليلاً في ضواحي مكة ولا سيما بين الموالي الذين كان يؤتى بهم من بلاد الحبشة، فهل كان هؤلاء النصارى حملة للحق الذي كان يجهله أشراف قريش؟ مال محمد إلى النصرانية، ولكنه لم يكن حسن الاطلاع على تعاليمهم، ولم يكن أولئك الجهلاء الذين ران حب الخلاف على قلوبهم فلم يتفقوا على أمر قادرين على إرشاده بشيء، فكان محمد محتاجاً، لذلك، إلى ما ينير بصيرته رأساً»(٣).

---

(١) حياة محمد، ص٥٠ ـ ٥١.

(٢) حياة محمد، ص٥٣.

(٣) المرجع السابق، ص٥٣ ـ ٥٤.

ويتحدث درمنغم عن بدء الوحي على محمد ﷺ بما يشبه التخيلات وأحلام اليقظة التي تعرض لعموم الناس، وبما يختلف كثيراً عن مفهوم الوحي الإلٰهي، بقوله:

«. . . ومن هو ذلك الذي يكاد لا يفارق محمداً في منامه؟ ومن هو ذلك الذي لم يذكر اسمه لمحمد ولم يستطع محمد منه فراراً؟.

عاد الغمّ إلى محمد فاحمر وجهه واصفر، وصار يسمع دويّاً في أذنيه وشخص بصره واختلف وضعه وقال: ها هو قد جاءني.

لم يكن ذلك في المنام بعد أن عاد محمد لا ينام ولا يحلم، ولم ينفك ذلك الشخص العجيب عن الاقتراب منه.

هنالك عنَّ لخديجة أمر، وقد تحسّرت وألقت خمارها على محمد وهو جالس في حجرها: لم يعارض محمد في ذلك، فكان كالولد الجاثم في حضن أمه احتماء بها في كل عدوان في الدنيا، ثم قالت له: هل تراه؟.

فقال محمد: لا. فقالت خديجة: يا ابن عم اثبت وابشر، فوالله إنه لملك وما هو بشيطان. وذلك لأن خديجة رأت أن الملك لا يرى الرأس المكشوف من المرأة بخلاف الجن.

جاء شهر رمضان فخرج محمد إلى حراء كما كان يخرج لجواره، حتى إذا استدار الهلال وزاد نوره، وكان محمد نائماً أتاه ذلك الرجل العجيب بنمط من ديباج فيه كتاب: (إقرأ). فقال محمد: «**ما أنا بقارئ**» فغته حتى ظن أنه الموت ثم أرسله فقال: (اقرأ). فقال محمد: «**ما أنا بقارئ**» فغته مرة أخرى حتى ظن أنه الموت ثم أرسله فقال: (إقرأ). فقال محمد: «**ماذا أقرأ**»؟ فقال:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ١ ـ ٥] فقرأ محمد ذلك فشعر بأن النور صب في نفسه صباً، وقد تمثل له ذلك النمط، وهو الأمي فعلم ما هو مكتوب فيه وانجلى له الحق.

جاءه الملك ليؤكد له المعنى الذي خامره منذ عدة شهور، وهو أن الله خلق الإنسان وأوحى إليه الحقائق التي لا تدرك بالعقل وحده، فهو ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾.

ذلك هو سر الوحي، وذلك هو سر الكتاب الإلٰهي المنزل على النبي الأمي، وبذلك سيكون لدى العرب، كما عند اليهود والنصارى، كتاب مقدس هاد يسلكون به سبيل النجاة. انصرف الملك وهب محمد من نومه، وكأن ذلك كتب في قلبه»[١].

فهذه النصوص السابقة يريد درمنغم بها أن يقول: إن القرآن فيض من وجدان محمد ﷺ وصورة من انطباع نفسه بما كان يدور حوله وأمام عينيه، والوحي في رأي هذا المستشرق ليس إلا وحياً من داخل نفس الرسول لا من مصدر خارجي؛ أي: من العقل الباطن لا من رب العالمين.

و«درمنغم» يردد كلاماً قريباً من كلام ذهب إليه الفلاسفة الملحدون من قبل، الذين أنزلوا النبوة منزلة الهلوسة وحديث النفس، فقد ذهبوا إلى أن الجسد سجن النفس، وأن الإنسان أي إنسان، إذا أجاع الجسد وأمرضه، انطلقت نفسه وعندها تتصل بالعالم العلوي فتسمع أصواتاً وترى أشباحاً[٢].

هذه نظرية النبوة عند الفلاسفة، والمستشرق «درمنغم» ومن سلك مسلكه تبنوا هذه الأفكار وأسقطوها على محمد ﷺ.

ـ وممن سار في منهج الوحي النفسي «مونتغمري وات» والذي عبر عنها بـ(الخيال الخلاق) في مواضع من دراساته حول سيرة النبي ﷺ.

فهو يلحق محمداً ﷺ باليهودية والنصرانية، من خلال تأثره بالعناصر الكتابية الحية في شبه الجزيرة العربية ولا سيما ورقة بن نوفل في مكة، والعناصر اليهودية في المدينة النورة.

وإلى جانب العناصر الحية يبرز (وات) تأثير الأفكار الكتابية والدينية السائدة في الوسط الديني الذي نشأ فيه محمد ﷺ، تلك الأفكار التي شكلت وعي النبي ﷺ في إطار نظرية «الخيال الخلاق» التي طورها وات جاعلاً قاعدتها فكرة اللاوعي الجمعي:

وقد فسَّر من خلال هذه النظرية الوحي الإلٰهي بأن النبي ﷺ تمتع بنوع من

---

(١) المرجع السابق، ص٥٨ ـ ٥٩.

(٢) النبوات: لابن تيمية (٢/ ٦٩٨ ـ ٧٠١)، والرد على المنطقيين: لابن تيمية، ص٥١٣، وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان: لابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي (٢/ ٢٦٢).

الخيال الخلاق المعروف لدى بعض المؤلفين والشعراء والفنانين الذي يعبرون بطرق جذابة ومؤثرة عن آلام الناس وهمومهم، وأفراحهم، ومشاعرهم الداخلية، ويعبرون عن ذلك بصيغ تتجاوز الفردية إلى القدرة على تجسيد الشعور الإنساني للبشر ومشكلاتهم وهمومهم وقضاياهم، ومعتقداتهم وحاجاتهم، وتجاربهم الوجدانية، أينما كانوا، وأياً كانت ثقافاتهم وأعراقهم.

لكن (وات) في إصدار متأخر له يكاد يشعرنا بنوع من التطور النوعي في رأيه حول النبي ﷺ ففي كتابه: «الحقيقة الدينية في عصرنا» الصادر عام ١٩٩٥م:

يقرن مونتغمري وات بين نبوة محمد ﷺ وبين أنبياء بني إسرائيل، بل يجعل دوره أقرب شبهاً بدور موسى عليه السلام من جهة أن محمداً ﷺ كان نذيراً منتقداً الانحراف الديني في بيته، وإن كان نقده مختلفاً في أن أنبياء العهد القديم كانوا ينتقدون الانحرافات عن الدين الموجود، أما محمد فكان عليه أن يقدم معرفة بالله وتعاليمه إلى شعب معدوم المعرفة والعلم الديني، ولهذا يكون أقرب إلى موسى، حيث بلَّغ كل منهما القانون الإلٰهي إلى قومه، لذلك فإن غير المسلمين ينبغي أن يروا يد الله وراء انتشار الإسلام بين العديد من القبائل العربية في حياة النبي، وأن رسالة القرآن قد ملأت الفراغ الديني لدى القبائل العربية ذلك الفراغ الذي لم تستطع اليهودية ولا النصرانية سوى ملئ قدر يسير منه[١].

إلا أن ذلك الانطباع الإيجابي عن التطور النوعي في موقف وات سرعان ما يتخلخل عندما يرفض وات تصريح النبي ﷺ بأن القرآن من عند الله، وليس نتاج عقله الواعي بل من خارج نفسه، ويقرر أن ذلك التصريح ينبغي أن يُقوّم، ثم يقدم (وات) بين يدي ذلك بعض الحيثيات المبررة المتمثلة في أن القصص القرآني قد جاء أساساً من العهد القديم، وبعض الإضافات من المصادر اليهودية المقدسة خارج نصوص العهد القديم.

ويضيف وات إلى تلك الحيثية توهين احتجاج المسلمين على صحة نبوة محمد بأميته وأنه كان لا يعرف القراءة ولا الكتابة، بأن محمداً ﷺ كان بإمكانه

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١١٤، عن:

Montgomery Watt, Religious Truth for our Time, P. 80 Oneworld. Oxford Publications USA 1995.

أن يجد شخصاً يقرأ له الكتاب المقدس أو يروي له قصصه[١].

فكل ذلك يجعل من وصف (وات) النبي ﷺ بأنه يشبه أنبياء العهد القديم، أو موسى عليه السلام، يجعله نوعاً من تأكيد عدم أصالة نبوته، بل وتبعيتها لنبوة أنبياء العهد القديم الذي نقل عنهم نصوصهم وقصصهم.

ويزيد ذلك تأكيداً إعراضه عن الحديث عن الوحي المحمدي بمصطلح: Revelation (وحي).

واستخدامه مصطلح: Divine inspiration (إلهام إلٰهي).

وهناك فارق في معنى المصطلحين ومفهومهما ودلالة كل معنى في مسألة النبوة[٢].

وممن شارك هؤلاء المستشرقين في دعوى الوحي النفسي، المستشرق الألماني «كارل بروكلمان» حيث يقول:

«بينما كان بعض معاصري النبي، كأمية بن أبي الصلت شاعر الطائف ـ وهي بلدة بحذاء مكة ـ يكتفون بوحدانية عامة، كان محمد يأخذ بأسباب التحنث، والتنسك، ويسترسل في تأملاته حول خلاصه الروحي، ليالي بطولها في غار حراء قرب مكة، لقد تحقق عنده أن عقيدة مواطنيه الوثنية فاسدة فارغة، فكان يضج في نفسه هذا السؤال، إلى متى يمدهم الله في ضلالهم، ما دام هو ﷻ قد تجلى، آخر الأمر، للشعوب الأخرى بواسطة أنبيائه؟.

وهكذا نضجت في نفسه الفكرة أنه مدعو إلى أداء هذه الرسالة، رسالة النبوة، ولكن حياءه الفطري حال بينه وبين إعلان نبوته فترة غير قصيرة، ولم تتبدَّد شكوكه إلا بعد أن خضع لإحدى الخبرات الخارقة في غار حراء. ذلك بأن طائفاً تجلى له هنالك يوماً، هو الملك جبريل ـ على ما تمثله محمد فيما بعد ـ فأوحى إليه أن الله قد اختاره لهداية الأمة، وآمنت زوجه في الحال برسالته المقدسة، وتحرر هو نفسه من آخر شكوكه بعد أن تكررت الحالات التي ناداه فيها الصوت الإلٰهي وتكاثرت. ولم تكد هذه الحالات تنقضي حتى أعلن ما ظن أنه قد سمعه

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١١٥، عن:
Montgomery Watt, religion Truch for our Tim, PP. 78-79.

(٢) المرجع السابق، ص١١٦.

كوحي من عند الله»[١].

وقد أثرت هذه الفكرة التي حاول تقريرها «درمنغم» و«وات» و«بروكلمان» وغيرهم في كثير من أدبيات الاستشراق، خصوصاً فكرة صدق النبي ﷺ في دعواه مع مخالفة ذلك للواقع، تلك الفكرة التي لم يكد ينجو منها أحد من المستشرقين بل إن نظرية تفسيرية خاصة قد تأسست عليها وهي نظرية «الخداع الشريف» التي قال بها الإنجليزي إدوارد جيبون، وتابعه فيها، الإنجليزي دافيد صموئيل مرجليوث[٢].

ـ وقد امتد تأثير هذه الفكرة حتى عند بعض المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام، ومن هؤلاء:

ـ توماس كارليل الذي رغم تأكيده على صدق النبي ﷺ فيما يقول ويدعو إليه؛ لأنه رجل كبير المكانة ومن المحال أن يكون الكبير كاذباً، إذ لا يكون الكبير كفئاً للقيام بعمل إلا إذا كان الصدق والإخلاص وحب الخير أول بواعثه.

ومن ثم يرى كارليل أنه من العار أن يصغي أي إنسان متمدين إلى وهم القائلين أن دين الإسلام كذب، وأن محمداً ﷺ لم يكن على حق، ويرى كارليل أن الوقت قد حان لمحاربة مثل هذه الإدعاءات السخيفة المخجلة، فلو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير لأضحت الحياة سخفاً وعبثاً وكان الأجدر بها ألا توجد[٣].

لكن هذا الصدق الذي أثبته كارليل لمحمد ﷺ صدق نوعي مغاير لمفهوم الصدق المتفق عليه بين البشر من جهة المطابقة مع الواقع، فهو يثبت صدق أقوال محمد ﷺ من جهة قناعته الشخصية بها، وانبعاثها من نفسه، واستنادها إلى مصادر الإدراك اليقيني لديه، إلا أن هذه الأقوال لا تجاوز مصداقيتها مجرد المطابقة مع ما في نفس النبي ﷺ وإدراكه، أما من جهة الواقع فهي تخالف الواقع؛ لأنها لا تعدو كونها تمثلات وتخيلات تراءت له نتيجة خلواته التي انقطع فيها للتأمل والمناجاة الصامتة لاستجلاء الأمور وغوامض الأسرار، فكانت الخواطر تتراكم، والأفكار تتزاحم في صدره حتى إذا صادفتها الوقائع، فإن روح

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٦.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٤٩ ـ ١٥٠.

(٣) الأبطال، ص٥٣.

محمد ﷺ الحادة النارية التي طفا بها الوجد، ورسبت بها دوامات الفكر كانت إذا تراءت لها بارقة رأي حسبته نوراً هبط عليها من السماء، وكل يقين حل عليه يخاله جبريل ووحيه[١].

ـ كما ظهرت هذه النظرية عند «كارين آرمسترونغ» التي فسرت الوحي الإلٰهي على محمد ﷺ في ضوء نظرية الخيال الخلاق التي عبر عنها مونتغمري وات، فهي بعد أن تثبت لمحمد ﷺ وحياً، تجعل حقيقة هذا الوحي نوعاً من الخيال الخلاق، وتعبيراً عن مكنون اللاوعي الجمعي[٢].

ـ كما سلك «رودي باريت» في كتابه «محمد والقرآن» مثل هذا المسلك في حديثه عن الوحي، حيث جعل مصدره ذات النبي ﷺ وإلهامه، كما يقول:

«فكل فنان مبدع يؤمن بأنه يتلقى إلهاماً، وبخاصة إذا استطاع في لحظة سعيدة أن يعبّر عن إحساس يخالجه، غامض ومتلفت، بالتعبير الواضح والملائم. وكذا الأمر مع العالِم (ذلك أن لدى كل عالم بذرة فنان)، الذي يتمكن من إنجاز شيء في عمليات علمية معقدة فكر فيها طويلاً، ثم فاجأته بأن أصبحت سلسة القياد. وهذه التجارب يعيشها الإنسان المعاصر أيضاً مهما بلغ من تنويريته وعلميته. فكثيرون يتسلل إليهم الإحساس أنهم يتلقون ويُلهمون، وأنهم ليسوا مبادرين فاعلين. والطريف أنه يُعبر عن ذلك في مثل هذه الحالات بأنه (حامل) وهو قريب من مفهوم الحمل المادي. وانطلاقاً مما ذكرناه، تكون الخطوة صغيرة للدخول إلى الإلهام والوحي، اللذين عاشهما النبي»[٣].

مناقشة شبهة الوحي النفسي:

هذا الرأي الذي يروجه المستشرقون اليوم باسم «الوحي النفسي» زاعمين أنهم بهذه التسمية قد جاؤوا برأي علمي جديد، هو في حقيقته ترديد للرأي الجاهلي القديم، لا يختلف عنه في جملته ولا في تفصيله.

فقد صوَّر أهل الجاهلية في مكة النبي ﷺ رجلاً ذا خيال واسع وإحساس

---

(١) المرجع السابق، ص٧٥.

(٢) سيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥ ـ ١٣. ومحمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٢٠ ـ ١٢٤.

(٣) محمد والقرآن، ص١٠٤.

عميق، فهو إذاً (شاعر). ثم زادوا فجعلوا وجدانه يطغى كثيراً على حواسه حتى يخيل إليه أنه يرى ويسمع شخصاً يكلمه، وما ذاك الذي يراه ويسمعه إلا صورة أخيلته ووجداناته، فهو إذاً (الجنون) أو (أضغاث الأحلام). على أنهم لم يطيقوا الثبات طويلاً على هذه التعليلات، فقد اضطروا أن يهجروها، حينما بدا لهم في القرآن جانب الأخبار الماضية والمستقبلة، فقالوا: لعله تلقفها من أفواه العلماء في أسفاره للتجارة، فهو إذاً قد (علمه بشر)[1].

يقول الشيخ محمد عبد الله دراز: «فأي جديد ترى في هذا كله؟ أليس كله حديثاً معاداً يضاهئون به قول جهال قريش؟ وهكذا كان الإلحاد في ثوبه الجديد صورة منسوخة بل ممسوخة منه في أقدم أثوابه، وكان غذاء هذه الأفكار المتحضرة في العصر الحديث مستمداً من فتات الموائد التي تركتها تلك القلوب المتحجرة في عصور الجاهلية الأولى ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

وإن تعجب فعجب قولهم مع هذا كله أنه كان صادقاً أميناً، وأنه كان معذوراً في نسبة رؤاه إلى الوحي الإلٰهي؛ لأن أحلامه القوية صورتها له وحيا إلٰهياً، فما شهد إلا بما علم، وهكذا حكى الله لنا عن أسلافهم حيث يقول: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنعام: ٣٣]، فإن كان هذا عذره في تصوير رؤاه وسماعه، فما عذره في دعواه أنه لم يكن يعلم تلك الأنباء لا هو ولا قومه من قبل هذا، بينما هو قد سمعها بزعمهم من قبل؟ فليقولوا إذاً: إنه افتراء ليتم لهم بذلك محاكاة كل الأقاويل. ولكنهم لا يريدون أن يقولوا هذه الكلمة لأنهم يدَّعون الإنصاف والتعقل. وإلا فقد قالوها من حيث لا يشعرون»[2].

وإذا أردنا أن ندرس هذه النظرية (نظرية الوحي النفسي)، لا نجدها تصمد أمام النقد والمناقشة العلمية، إذ يمكن نقدها من خلال جوانب ثلاثة:

الأول: أن الدلائل التاريخية، وطبيعة الظروف التي مرَّ بها النبي ﷺ تأبى التصديق بهذه النظرية وقبولها.

---

(١) النبأ العظيم، ص٩٧.

(٢) النبأ العظيم، ص٩٧.

الثاني: أن المحتوى الداخلي للقرآن الكريم، بما يضم من تشريع وأخلاق وعقائد وتأريخ، لا يتفق مع هذه النظرية في تفسير الوحي القرآني.

الثالث: أن موقف النبي محمد ﷺ من الظاهرة القرآنية، يشهد بوضوح على رفض تفسيره الظاهرة القرآنية بنظرية الوحي النفسي.

أ ـ الدلائل التاريخية تناقض نظرية الوحي النفسي:

لقد ذكر الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله ـ بصدد مناقشته للمقدمات التاريخية وغيرها التي رتبها (درمنغم) لعرض نظرية الوحي النفسي ـ عشرة أوجه في نقد هذه المقدمات، من أهم ما جاء فيها[1]:

أولاً: أن أكثر المقدمات التي بنى عليها أصحاب النظرية بنيانهم ونظريتهم، لا تقوم على أساس تاريخي صحيح، وإنما تنطلق من نقطة مفروضة على البحث بشكل مسبق، وهي أن الوحي القرآني ليس وحياً منفصلاً عن الذات المحمدية، الأمر الذي كان يدعو أصحاب النظرية إلى اختلاق الحوادث والأخبار، أو تخيلها من أجل إكمال الصورة ووصل بعض الحلقات ببعضها الآخر.

ومن الأمثلة على ذلك ما يذكرونه من تفاصيل في مسألة لقاء الراهب بحيرا مع محمد ﷺ وهو بصحبة عمه أبي طالب، الأمر الذي يدعوهم إلى الاستنتاج وافتراض محادثات دينية وفلسفية معقدة.

وما يذكرونه أيضاً بصدد تعليل اطلاعه ﷺ على أخبار عاد وثمود، من أنه كان نتيجة مروره بأرض الأحقاف، بالرغم من أن هذه الأرض لا تقع على الطريق الاعتيادي لمرور القوافل التجارية، كما أن التاريخ لم يذكر لنا مرور النبي ﷺ بها إلى غير ذلك من الأحداث والقضايا.

ثانياً: أن افتراض تعلم النبي محمد ﷺ من نصارى الشام وغيرهم لا يتفق مع واقع الحيرة والتردد في موقف المشركين من رسول الله. لأن مثل هذه العلاقة لا يمكن التستر عليها أمام أعداء الدعوة من المشركين وغيرهم، الذين عاصروه وعرفوا أخباره وخبروا حياته العامة بما فيها من سفرات ورحلات.

وبالرغم من أن هؤلاء لم يمسكوا عن إطلاق شتى التهم والأراجيف، وافترضوا في الوحي الفروض المتعددة، ومنها فرض التعلم والتلقي من أشخاص

(١) انظر: الوحي المحمدي، ص٨٣ ـ ٨٩.

معينين. ولكن مع ذلك كله لم يكونوا ليفرضوا أن يكون قد تعلم من نصارى الشام أو غيرهم.

ثالثاً: أنه لم يُعرف عن الرسول محمد ﷺ أنه كان ينتظر أن يفاجأ بالوحي. أو يأمل أن يكون هو الرسول المنتظر. لينمو ويتطور هذا الأمل في نفسه، فيصبح واقعاً نفسياً. بالرغم من تدوين كتب السيرة النبوية لأدق الأحداث والتفصيلات عن حياة الرسول ﷺ الشخصية.

ولعل من القرائن التاريخية التي تشهد بكذب هذا الافتراض: هو ما ذكرته كتب السيرة من اضطراب النبي ﷺ وخوفه حين فاجأه الوحي في غار حراء[1].

رابعاً: أن هذه النظرية تفرض أن يكون إعلان النبوة نتيجة مرحلة معينة من التكامل العقلي والنفسي. ونتيجة مراحل طويلة من المعاناة والتفكير والتأمل والحساب... وهذا يستلزم بطبيعة الحال أن ينطلق الرسول في اللحظة الاولى من دعوته إلى طرح مفاهيمه وأفكاره ومناهجه عن الكون والحياة والمجتمع بجوانبه المتعددة.

لأن المفروض أن الصورة كانت متكاملة عنده نتيجة التفكير الطويل... مع أن التاريخ يؤكد أن أسلوب الدعوة وطريقتها كانا يختلفان عن ذلك تماماً، وإن كانت البداية هي الخوف والاضطراب ثم الدعوة إلى التوحيد ومن ثم الانطلاق إلى المجالات الأخرى بشكل تدريجي مع ما كان يتخلل ذلك من ركود وانقطاع في الوحي.

ب ـ المحتوى الداخلي للقرآن الكريم يناقض نظرية الوحي النفسي:

إن لسعة الوحي القرآني وآفاقه المتعددة ومجالاته المتشعبة، أهمية كبرى في رفض نظرية الوحي النفسي. إذ إن هذا الاتساع والشمول لا يتفق مع طبيعة المصادر التي تفرضها النظرية. ويتضح ذلك عندما نلاحظ الأمور التالية:

١ ـ إن الموقف العام للقرآن الكريم تجاه الديانتين اليهودية والمسيحية هو موقف المصدق لهما والمهيمن عليهما. فقد صدق القرآن الكريم الأصل الإلٰهي لهاتين الديانتين وارتباطهما بالمبدأ الأعلى. كما جاء مهيمناً ورقيباً وحاكماً على ما فيهما من ضلالات.

---

(١) النبأ العظيم، ص٩٧.

وجاءت هذه الرقابة دقيقة شاملة، فلم تترك مفهوماً أو حكماً أو حادثة إلا ووضعت القياس الصحيح فيه.

ولا يمكن أن نتصور محمداً ﷺ وهو يأخذ عن أهل الكتاب ثم يتمكن من أن يصفهم بالجهل والتحريف والتبديل بمثل هذا اليقين والثبات.

ويوضح الموقف الصحيح في المسائل الكبرى التي اختلفوا فيها أو خالفوا الواقع الصحيح للديانة، ثم تأتي نظريته بعد ذلك كاملة شاملة ودقيقة ليس فيها تناقض ولا اختلاف... ولكن محمداً لم يكن قد أخذ منهم شيئاً. وإنما تلقى كل ذلك عن الوحي الإلٰهي الذي جاء مصداقاً لما سبقه من الوحي. ومهيمناً على الانحراف والتحريف معاً.

٢ ـ ونجد القرآن أيضاً يخالف التوراة والإنجيل في بعض الأحداث التاريخية، فيذكرها بدقة متناهية ويتمسك بها بإصرار، في الوقت الذي كان بإمكانه أن يتجاهل بعضها على الأقل، تفادياً للاصطدام بالتوراة والإنجيل.

ففي قصة موسى ﷺ: يشير القرآن الى أن التي كفلت موسى هي امرأة فرعون، مع أن سفر الخروج يؤكد أنها كانت ابنته[1].

كما أن القرآن يذكر غرق فرعون بشكل دقيق لا يتجاهل، حتى مسألة نجاة بدن فرعون من الغرق مع موته وهلاكه ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٢].

في الوقت الذي نجد التوراة تشير إلى غرق فرعون بشكل مبهم[2]، ويتكرر نفس الموقف في قضية العجل حيث تذكر التوراة أن الذي صنعه هو هارون[3]، وفي قصة ولادة مريم للمسيح ﷺ وغيرهما من القضايا[4].

ولا يصح لمحمد ﷺ وهو الإنسان الصادق الأمين الذكي أن يذكر هذه التفاصيل، فيصطدم بالتوراة والإنجيل دون سبب معقول، لولا أن يكون قد تلقى ذلك عن طريق الوحي الإلٰهي الذي لا يستطيع مخالفته.

---

(١) انظر: سفر الخروج (٢/٦ ـ ١١).

(٢) انظر: الإصحاح الرابع عشر من سفر الخروج.

(٣) انظر: سفر الخروج (٣٢/١ ـ ٤).

(٤) انظر على سبيل المثال: كيف يحكي إنجيل لوقا (٢٤/٢٦ ـ ٣٩)، قصة حمل مريم بالمسيح ﷺ دون الحديث عن كيفية ميلاده العجيب على نحو ما جاء في القرآن.

٣ ـ أن سعة التشريع الإسلامي وعمقه وشموله للمجالات المختلفة من الحياة، مع دقة التفاصيل التي تناولها، والانسجام الكبير بين هذه التفصيلات، برهان واضح على تلقيه ذلك عن طريق الوحي. إذ لم يكن لمحمد وهو الإنسان الأمي، الذي كان يعيش في ذلك العصر المظلم، والذي قضى أكثر حياة دعوته في خضم الصراع الاجتماعي، لم يكن ليتمكن كإنسان أن يفعل ذلك إلا أن يكون قد تلقى ذلك عن طريق الوحي والسماء.

ج ـ موقف النبي ﷺ من الظاهرة القرآنية شاهد على رفض نظرية الوحي النفسي:

لقد كان النبي محمد ﷺ يدرك بشكل واضح، الانفصال التام بين ذاته المتلقية والذات الإلهية الملقية من أعلى. وهذا الإدراك هو حقيقة الوحي الذي أشرنا إليه سابقاً، وقد صور الرسول ﷺ هذا الوعي والإدراك في مناسبات متعددة، وأوضحه للمسلمين فيما روي عنه حيث قال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول»[١].

وقد انعكس هذا الشعور الواعي بالانفصال في الوحي، بين الذات الآمرة المعطية والذات المخاطبة المتلقية على الظاهرة القرآنية. وكان له مظاهر عديدة نذكر منها الأشكال الثلاثة التالية[٢]:

الشكل الأول: الصورة التي يبدو فيها النبي ﷺ من خلال الظاهرة القرآنية عبداً ضعيفاً لله سبحانه، يقف بين يدي مولاه يستمد منه العون ويطلب منه المغفرة ويمتثل أوامره، ونواهيه، ويتلقى منه العقاب بمختلف مراتبه وأشكاله.

والأمثلة القرآنية على ذلك كثيرة:

فالقرآن يصور محمداً ﷺ في صورة الإنسان المطيع الذي لا يملك لنفسه شيئاً، ويخاف ربه إن عصاه، فيلتزم الحدود التي وضعها له ويرجو رحمته وليس

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ؟ (٦/١) حديث رقم (٢)، ومسلم في صحيحه في كتاب الفضائل، باب عرق النبي ﷺ في البرد وحين يأتيه الوحي (١٨١٦/٤) حديث رقم (٢٣٣٣).

(٢) انظر فيما يأتي: مباحث علوم القرآن: د. صبحي الصالح، ص٢٨ ـ ٣٨، والنبأ العظيم، ص٦٥ ـ ٩٨.

من شيء يأتيه إلا من قبل ربه، فهو يعترف بالعجز المطلق تجاه إرادة الله أو تبديل حرف من القرآن:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يونس: ١٥، ١٦]، ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]. ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ﴾ [الأعراف: ١٨٨]. ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ [الأنعام: ٥٠]. ومن يقرأ هذه الآيات القرآنية ونظائرها ويترك لوجدانه الحكم، لا يسعه الا أن يقتنع من أعماق قلبه ونفسه، بالفرق بين الذات الإلٰهية الآمرة الملقية والذات المحمدية المطيعة المتلقية.

ثم يزداد هذا الفرق وضوحاً بين ذات الله المتكلم منزل الوحي وصفاته، وبين ذات رسوله المخاطب متلقي الوحي وصفاته، في الآيات التي يعتب الله فيها على نبيه عتاباً خفيفاً أو شديداً، أو يعلمه فيها بعفوه عنه وغفرانه ما تقدم من ذنبه وما تأخر:

فمن العتاب الخفيف المقترن بالعفو خطابه لرسوله في شأن من أذن لهم بالقعود عن القتال في غزوة تبوك ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣]، ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. ومن ذلك عتابه في قوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾﴾ الآيات [عبس: ١].

وأشد من هذا ما يوجه إلى الرسول ﷺ من الإنذار والتهديد في مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣ ـ ٧٥]. وهذا الإنذار يبلغ القمة، فيستصغر بعده كل تهديد وكل وعيد حين يقول الله: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ

﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

ومن خلال هذه الآيات المتوعدة والمنذرة، وتلك العاتبة المؤدِّبة يبدو لنا رسول الله ﷺ مخلوقاً ضعيفاً بين يدي ربه ذي القدرة القاهرة، والقوة الكبرى والإرادة التي لا معقب لها.

ويبدو لنا أيضاً: كامل الوعي للفرق بين ذاته المأمورة وذات الله الآمرة، وبوعيه الكامل هذا كان عليه السلام يفرق بوضوح بين الوحي الذي ينزل عليه وبين أحاديثه الخاصة التي كان يعبّر عنها بإلهام من الله.

لذلك نهى ﷺ أول العهد لنزول الوحي عن تدوين شيء عنه سوى القرآن لكي يحفظ للقرآن صفته الربانية. ويحول دون اختلاطه بشيء ليست له هذه الصفة القدسية بينما كان عند نزول الوحي ـ ولو آية أو بعض آية ـ يدعو أحد الكتبة فوراً ليدون ما نزل من القرآن.

الشكل الثاني: يبدو النبي ﷺ في القرآن الكريم بمظهر الخائف من ضياع بعض الآيات القرآنية ونسيانها، الأمر الذي كان يدعوه الى أن يعْجل بقراءة القرآن، قبل أن يقضى إليه وحيه ويأخذ بترديده ويجهد نفسه وفكره من أجل أن لا يفوته شيء من ذلك، ويتضح هذا في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طـه: ١١٤]، ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٦ ـ ١٩].

ولا يسعنا إزاء هذه الحقيقة إلا أن نعترف باستقلال ظاهرة الوحي عن ذات النبي ﷺ استقلالاً مطلقاً. وتفردها عن العوامل النفسية تفرداً كاملاً فالنبي لا يملك حتى حق استخدام ذاكرته في حفظ القرآن، بل الله يتكفل بتحفيظه إياه، وقانون التذكر نفسه بطل الآن سحره وعفا أثره تجاه إرادة الله.

فكيف لا يعي النبي ـ بعد هذا كله ـ الفرق العظيم بين ذاته المأمورة وذات الله الآمرة، وهو يرى بنفسه أنه لا يملك من أمر نفسه شيئاً؟!.

الشكل الثالث: يبدو النبي من خلال تاريخ نزول القرآن أنه كان مقتنعاً بأن التنزيل القرآني مصحوب بانمحاء إرادته الشخصية، وأنه منسلخ عن الطبيعة البشرية حتى ما بقي له عليه الصلاة والسلام اختيار فيما ينزل إليه أو ينقطع عنه.

فقد يتتابع الوحي ويحمى حتى يشعر أنه يكثر عليه. وقد يفتر عنه وهو يشعر أنه أحوج ما يكون إليه. فقد كان الوحي ينزل على قلبه صلوات الله عليه في أحوال مختلفة:

ـ إنه ليأوي إلى فراشه فما يكاد يغفو إغفاءة حتى ينهض ويرفع رأسه مبتسماً فقد أوحيت إليه سورة الكوثر: الخير الكثير(١).

ـ وإنه ليكون وادعاً في بيته وقد بقي من الليل ثلثه. فتنزل عليه آية التوبة في الثلاثة الذين خلفوا: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾ [التوبة: ١١٨](٢).

ـ وإن الوحي لينزل على قلب النبي ﷺ في الليل الدامس والنهار الأضحيان وفي البرد القارس أو لظى الهجير، وفي استجمام الحضر أو أثناء السفر، وفي هدأة السوق أو وطيس الحرب(٣).

ـ ثم ها هو ذا الوحي ينقطع عن النبي ﷺ، وهو أشد ما يكون إليه شوقاً وله طلباً، فبعد أن نزل عليه جبريل بأوائل سورة العلق: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١﴾ [العلق: ١] فتر الوحي ثلاث سنوات فحزن النبي ﷺ(٤).

ثم حمي الوحي وتتابع فاستبشر النبي وتبدل انتظاره الحزين فرحة غامرة، وأيقن أن هذا الوحي الذي استعصى عليه ولم يوافه طوع إرادته، مستقل عن ذاته خارج عن فكره، فاستقر في ضميره الواعي أن مصدر هذا الوحي هو الله علام الغيوب.

ـ ومن ذا الذي ينسى كيف أبطأ الوحي بعد (حديث الإفك) الذي رمى به المنافقون زوج النبي ﷺ، وأثاروا به حولها الفضيحة حتى عصفت بقلب الرسول

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب حديث توبة كعب بن مالك وقول الله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ (٦/ ٣) حديث رقم (٤٤١٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب حديث توبة كعب بن مالك وصاحبيه (٤/ ٢١٢٠) حديث رقم (٢٧٦٩).

(٣) انظر في أماكن نزول الوحي وأزمنته وأحواله: الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم (١/ ٣٦ ـ ٩٠)، والأصلان في علوم القرآن: د. محمد عبد المنعم القيعي، ص٦ ـ ١١.

(٤) تقدم تخريجه من الصحيحين في أحاديث بدء نزول الوحي.

الريبة[١]. من ذا الذي لا يدرك أن هذه المدة التي تصرمت على الحادثة من غير أن يتلقى النبي خلالها وحياً، كانت أثقل عليه من سنين طويلة. بعد أن خاض المنافقون في زوجه خوضاً باطلاً؟ فما بال النبي الذي كان فريسة للشك والقلق يظل صامتاً، وينتظر واجماً، يتربص حتى نزلت آيات النور تبرئ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها؟.

وما له لا يسرع إلى التدخل في أمر السماء ـ على نحو ما يزعم أعداؤه ـ فيرتدي مسوح الرهبان، ويهيئ الأسجاع ويطلق البخور، ويبرئ زوجه من قذف القاذفين؟.

ـ ولقد كان النبي ﷺ يتحرق شوقاً إلى تحويل القبلة إلى الكعبة، وظل يقلب وجهه في السماء ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، لعل الوحي ينزل عليه بتحويل القبلة إلى البيت الحرام، ولكن ربه تعالى لم ينزل في هذا التحويل قرآناً رغم تلهف رسوله الكريم إليه، إلا بعد قرابة عام ونصف العام حين نزل قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤][٢]. فلِم لم يسعف النبي نفسه بوحي عاجل يحقق ما يصبو إليه ويتمناه؟.

إن الوحي ينزل ويكثر على محمد حين يشاء رب محمد، ويفتر إذا شاء له رب محمد الانقطاع، فما تنفع التعاويذ والأسجاع، ولا تقدم عواطف محمد ولا تؤخر في أمر السماء.

وحين نلتفت إلى هذه الأشكال الثلاثة بصورها المختلفة، لا يبقى لدينا مجال لأي تردد في شأن حقيقة الظاهرة القرآنية، وانفصالها عن الذات المحمدية، وبطلان الوحي النفسي وما إليه من شبهات قد تثار.

وهذه الحقيقة قد أقر بها بعض عقلاء المستشرقين، ومن هؤلاء:

ـ فيليب حتي، حيث يقول: «إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرج البخاري في صحيحه في كتاب الصلاة، باب التوجه إلى القبلة حيث كان. عن البراء بن عازب رضي الله عنهما، قال: «كان رسول الله ﷺ صلى نحو بيت المقدس، ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجه إلى الكعبة، فأنزل الله: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤]، فتوجه نحو الكعبة» (١/٨٨) حديث رقم (٣٩٩).

لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلّد. وهذا في أساسه، هو إعجاز القرآن... فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى»[١].

ـ ويقول جاك. س. ريسلر: «... لما كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد أنزل ليقرأ ويتلى بصوت عال. ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية. ويجب أن تقرأه في لغته التي كتب بها لتتمكن من تذوق جمله وقوته وسمو صياغته. ويخلق نثره الموسيقي والمسجوع سحراً مؤثراً في النفس حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة، فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأن محمداً كان ملهماً بجلال الله وعظمته»[٢].

ـ ويقول هنري سيرويا (ترويا) (٢٠٠٧م): «... القرآن وحي من الله، لا يدانيه أسلوب البشر، وهو في الوقت عينه، ثورة عقيدية، هذه الثورة العقيدية لا تعترف لا بالبابا ولا أي مجمع لعلماء الكهنوت والقساوسة، حيث لم يشعر الإسلام يوماً بالخشية والهلع من قيام مبدأ التحكيم العقلي الفلسفي. فإذا قارنا الإسلام باليهودية والمسيحية نجد بعض الخطوط المميزة والتي لا تبدو مطابقة تماماً خاصة مع المسيحية... فالنظام المسيحي اليهودي يخالف الإسلام حيث لا يوجد فراغ بين الخالق والخلق البشري، هذا الفراغ لدى اليهود والمسيحيين ملئ بالواسطة... ولا شيء من هذا يتفق مع الإسلام. فمحمد ﷺ مع كونه مبعوثاً ورسولاً من لدن الله لم يتظاهر بإنكار دعوات كل من موسى وعيسى، كلُّ مجهوده انحصر في تنقيتهما على ما جاء في القرآن...»[٣].

---

(١) الإسلام منهج حياة، ص٦٢.

(٢) الحضارة العربية: جاك.س. ريسلر، ترجمة: غنيم عبدون، مراجعة: د. أحمد الأهواني، ص٣٠ ـ ٣١.

(٣) فلسفة الفكر الإسلامي: لهنري سيرويا، ترجمة: محمد إبراهيم، ص٣٢ ـ ٣٣. وانظر: قالوا عن الإسلام: د. عماد الدين خليل، ص٤٧ ـ ٩٠.



المبحث الثالث

دعوى استمداد الوحي من مصادر سابقة

المطلب الأول: المصادر اليهودية والنصرانية.

المطلب الثاني: المصادر الجاهلية.

المطلب الأول

المصادر اليهودية والنصرانية

لقد زعم جمهور المستشرقين أن الوحي انبثق في الدرجة الأولى عن اليهودية والنصرانية، ولكن محمداً ﷺ - في زعمهم - كيَّفه تكييفاً بارعاً وفقاً لمتطلبات شعبه الدينية[١].

وقد توالت هذه الدعوى قديماً وحديثاً في كتابات جمهور المستشرقين بحيث يندر أن تخلو دراسة استشراقية من الإشارة أو التأكيد على هذا الأمر إما تصريحاً أو تلميحاً.

وحين نعرض لهذه الكتابات والتي امتدت عقب حقب تاريخية متطاولة، تظهر لنا شخصيات استشراقية عديدة تناولت هذه الدعوى، وساهمت في تأكيدها، ومن أهمها:

- هوجو ايولوجيوس القرطبي (ت٨٥٩م) وبطرس ألفا روس (ت٨٦٩م)، وقد ادعى كل منهما أن محمداً ﷺ نبي مزيف مؤسس لهرطقة مسيحية أيام الإمبراطور هرقل، وقد اتصل بأحد المسيحيين الذي أوهمه أنه ملهم من الله بوساطة جبريل[٢].

- كما ادعى جيوبرت النوجنتي (ت١١٢٤م) في تقريره عن الحملة الصليبية الأولى أن النبي ﷺ تعلم من زاهد نصراني إسكندري مهرطق وحاقد على النصرانية[٣].

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية: لبروكلمان، ص٦٩، وحياة محمد: لدرمنغم، ص١٢٥ - ١٢٦، والاستشراق في السيرة النبوية، ص٣٨.

(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٣١ - ٣٢.

(٣) المرجع السابق، ص٣٥.

ـ زعم بطرس ألفونسي اليهودي الأسباني في سيرته عن محمد ﷺ عام ١١١٠م، أنه ﷺ قد وضع نفسه في اتصال مع مهرطق نصراني على مذهب اليعقوبية كان يعمل شماساً في كنيسة أنطاكية، فقام هذا الشماس اليعقوبي بمساعدة اثنين من الهراطقة اليهود بتعليم محمد أصول دعوته الجديدة، وبسرعة قام محمد ﷺ بنشر هرطقته(١).

ـ توالت هذه الدعوى عند بطرس الموقر (ت١١٥٦م) لكنه أضاف في هذه المرة اسم الرجل الذي تلقى عنه محمد ﷺ. فقد زعم بطرس أن النبي ﷺ قد ادعى النبوة وأنه مرسل إليه، مستعيناً في ذلك بمساعدة راهب نسطوري يدعى (سرجيوس)، كانت الكنيسة قد طردته ففر إلى بلاد العرب، فألف محمد القرآن بإشرافه وتوجيهه، لكنه أعلن على الملأ أن الملك جبريل هو الذي نزل عليه بالقرآن من السماء. ولأن العرب لم يسمعوا عن النبوة من قبل، فإنهم صدقوا دعوى محمد ﷺ النبوة وجعلوا منه بطلاً(٢).

ـ وامتداداً لما تقدم حاول وليم الطرابلسي في القرن الثالث عشر الميلادي في كتابه المعنون بـ: «حول أحوال السرازنة ومحمد نبيهم الكاذب وحول الشعب نفسه وقوانينه»، والمعروف اختصاراً باللاتينية بـ: «أحوال السرازنة» إثبات تبعية محمد ﷺ الكاملة للنصرانية(٣).

ـ كما ظهر رايموندوس مارتي (ت١٢٨٤م) وكتابه «الفرقة المحمدية وأصل محمد وتطور غايته والأدلة على فساد نبوته وزيفها». وفي هذا الكتاب صور رايموندوس مارتي شخص النبي ﷺ تصويراً خيالياً مغرضاً استهدف إخراج النبي ﷺ من عباءة النصرانية بوصفه شخصاً صاحب هرطقة مسيحية(٤).

ـ ثم جاء توماس الإكويني (ت١٢٧٤م) فرأى ما رآه سابقوه، وادعى أن الإسلام عبارة عن دين زائف وهرطقة مسيحية(٥).

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٣٩ ـ ٤٠، وصورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى: سوذرن، ص٧٨.

(٢) المرجع السابق، ص٤٥.

(٣) المرجع السابق، ص٤٨. وانظر: دفاع عن محمد ﷺ: د. بدوي، ص٩.

(٤) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٤٩.

(٥) المرجع السابق، ص٤٩.

- صنف ريكولدوس دي مونت كروسيز (ت١٣٢٠م) الراهب الدومينياكني النبي ﷺ كالمعتاد أنه تعلم على يد مهرطق مسيحي كوَّن له القرآن الكريم من خليط من التعاليم والهرطقات المسيحية وغير المسيحية[١].

- رأى خوان أندريس الإسباني (القرن السادس عشر الميلادي) أن القرآن الموحى به إلى محمد ﷺ ليس غير تلفيق هرطقي من تعاليم اليهودية والنصرانية قام به النبي ﷺ بمساعدة نصارى مكة[٢].

- كما كان موقف توماس إرينيوس الهولندي (ت١٦٢٤م) من الإسلام امتداداً للفكر الجدلي حيث رأى أن القرآن الكريم وإن كان مثالاً فائقاً للغة إلا أنه من جهة المضمون تقليد مضحك للكتاب المقدس لدى النصارى[٣].

- أما المستشرق الإنجليزي همفري بريدو (ت١٧٢٤م) فقد ظهر له كتاب في بريطانيا عام ١٦٩٧م بعنوان: «الطبيعة الحقيقية للخداع مجسدة بالكامل في حياة محمد». وفيه يزعم (بريدو) أن النبي ﷺ قد اصطنع لنفسه ديناً مزيجاً من الديانات الوثنية، ومن اليهودية، والهرطقات النصرانية المنتشرة في الشرق، وبوساطة الحيل الخادعة، والمكايد الماكرة، خدع الناس، وأغراهم بهذا الدين[٤].

- كما ادعى المستشرق الفرنسي لويس سيديو (ت١٨٧٦م) في كتابه «تاريخ العرب العام»: أن النبي ﷺ كان على علم بأديان اليهود والنصارى منذ أن كان بمكة[٥].

- أصدر القس الإسكتلندي، والمنصر الشهير دنكن بلاك ماكدونالد (ت١٩٤٣م) كتابه: «أوجه الإسلام» وفيه رأى أن التعاليم التي جاء بها النبي ﷺ هي تعاليم ناقصة في العديد من الجوانب، ولذلك فإن واجب العاملين في مجال التنصير أن يكملوا هذه الجوانب، ويعملوا على سد نقائضها وعوارها، وذلك بتنقيتها من البدع والهرطقات الأريوسية التي لحقت بها، كي تعود أفكاراً مسيحية

---

(١) المرجع السابق، ص٥٠.
(٢) المرجع السابق، ص٧٢، وسيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥١ ـ ٥٢.
(٣) تاريخ حركة الاستشراق: يوهان فوك، ص٦٧ ـ ٧٧.
(٤) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٧٤ ـ ٧٦، والرسول في تصورات الغربيين: جوستاف بفانمولر، ص١٢. وسيرة النبي محمد: أرمسترونج، ص٥٨.
(٥) ص٦٨.

خالصة لا سيما في جانب الاعتقاد في شخص المسيح وألوهيته[١].

ـ جاء بعد ذلك المستشرق المجري الشهير إجناس جولدزيهر (ت١٩٢١م)، والذي انتهى في كتابيه الشهيرين: «محاضرات في الإسلام» الصادر سنة ١٩١٠م، و«مدارس التفسير الإسلامي» الصادر سنة ١٩٢٠م. إلى أن دعوة النبي محمد ﷺ ما هي إلا مزيج منتخب من معارف وآراء دينية قد عرفها من خلال اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها، تلك المعارف التي عكف عليها بالتأمل والتمثل وهو منطوٍ في عزلته حتى تجذرت في أعماق نفسه فصارت لديه يقيناً راسخاً في شغاف قلبه مما جعله يعدها حقيقة إلٰهية واجبة الإبلاغ والبيان، وأنه هو نفسه مأمور بإنفاذ هذا الواجب، وإبلاغ تلك الحقيقة الإلٰهية[٢]. ولم يخف جولد زيهر قوله في أن النبي ﷺ قد تتلمذ على رهبان النصارى مثل ورقة بن نوفل، وبحيرا، ونسطورا، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي، المسيحيي الأصل، وأحبار اليهود مثل عبد الله بن سلام، الذين كانوا أساتذة له ـ على حد زعمه ـ[٣].

ـ حاول بعد ذلك المستشرق بول كازانوفا (ت١٩٢٦م) في كتابه «محمد ونهاية العالم» إثبات تأثر القرآن الكريم بالأناجيل بكل طريق، وركز على فكرة أحداث القيامة التي حاول أن يثبت ببحثها تحكم فكرة قرب نهاية العالم في نفسية النبي ﷺ ووقوعه تحت تأثيرها[٤].

ـ أما غوستاف لوبون (ت١٩٣١م) فقد تابع من قبله من المستشرقين بقوله: «إذا أرجعنا القرآن إلى أصوله، أمكننا عد الإسلام صورة مختصرة من النصرانية» ثم يتراجع لوبون بعد ذلك حين يصطدم بالفوارق العقدية ليقول: «والإسلام يختلف عن النصرانية ـ مع ذلك ـ في كثير من الأصول، ولا سيما في التوحيد المطلق الذي هو أصل أساسي»[٥].

ـ طبق المستشرق سنوك هرجرونية (ت١٩٣٦م) ما ادعى أنه منهجية تاريخية

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٢ ـ ٩٣.
(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص٢١ ـ ٢٢.
(٣) المرجع السابق، ص١٣ ـ ١٤.
(٤) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٢٢٠ ـ ٢٢٢.
(٥) حضارة العرب، ص١٥٨.

في تناول رسالة محمد ﷺ وهي منهجية (التمثيل والاستيعاب) انتهى فيها إلى النتائج ذاتها التي انتهى إليها جولدزيهر، فرسالة النبي ﷺ لديه قد استوعبت عناصرها الأساسية من الخارج، فعلى الرغم من معارضة النبي ﷺ للديانات الجاهلية، وكذلك اليهودية والنصرانية إلا أنه قد استوعبها جميعاً وتمثلها في تعاليمه(١).

ـ ذهب المستشرق هنري لامنس (ت١٩٣٧م) والمشهور بكتاباته المتحاملة على الإسلام ونبيه ﷺ إلى أن الإسلام لم يكن سوى تأليف من مصادر يهودية ومسيحية؛ ولذلك عمل جاهداً على إثبات انتشار اليهود والمسيحيين في شبه الجزيرة العربية قبل البعثة. ولقد كان هذا هو الغرض الوحيد من تأليفه كتاب «غرب الجزيرة العربية قبل الهجرة» الذي نتجت عنه صورة للجزيرة العربية تموج بالمسيحيين القرشيين والعبيد وتجار الحبشة والشام، بل تجاوز ذلك إلى أن أضاف إليهم عدداً معتبراً من الحدادين والأطباء والجراحين وجراحي الأسنان والمعلمين(٢).

ـ زعم بودلي ـ تبعاً لجمهور المستشرقين ـ أن النبي ﷺ تأثر بالديانة اليهودية والنصرانية عن طريق أشخاص بأعيانهم، وقد ردد ذلك في أكثر من موضع في كتابه «الرسول: حياة محمد» (١٩٤٦م)، فمن ذلك قوله: «... حقيقة القوى النابتة في الديانتين القديمتين ظاهرة في كل وجه من وجوه الديانة الجديدة، فترجع إلى ما سمعه محمد في رحلاته، وتعود إلى تعاليم بحيرا وورقة بن نوفل وقس بن ساعدة حبر نجران. وحالة محمد هي حالة وثني تحوَّل إلى التوحيد، وقد امتص نظرياته وتطبيقاته من حلقات العابدين والإنصات إلى الوعاظ المرشدين، وما درس سطراً واحداً مكتوباً من كتاب مقدس»(٣).

ويقول في موضع آخر من كتابه: «... وكان معظم ما عرفه محمد عن التوراة والتلمود والإنجيل نتيجة محاوراته مع ورقة بن نوفل وما التقطته أذناه في رحلاته...»(٤).

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٩٤.
(٢) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٢٦٠ ـ ٢٦٣.
(٣) الرسول: حياة محمد، نفسه ص٧٦.
(٤) المرجع نفسه، ص٧٣.

ـ كما أشار كارل بروكلمان (ت١٩٥٦م) في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» إلى هذه الدعوى، بقوله: «وتذهب الروايات إلى أنه اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى، أما في مكة نفسها فلعله اتصل بجماعات من النصارى كانت معرفتهم بالتوراة والإنجيل هزيلة إلى حد بعيد»(١). ومن جهة أخرى فقد حاول بروكلمان إرجاع كثير من الشرائع الإسلامية إلى اليهودية في قوله: «وتأثرت اتجاهات النبي الدينية في الأيام الأولى من مقامه في المدينة، بالصلة التي كانت بينه وبين اليهود... فشرّع صوم العاشوراء، وهو اليوم العاشر من المحرم، على غرار الصوم اليهودي في يوم الكفار الذي يقع عندهم في العاشر من شهر تشرين، وبينما كان المؤمنون في مكة لا يصلون إلا مرتين في اليوم، أدخل في المدينة على غرار اليهودية أيضاً، صلاة ثالثة عند الظهر... كذلك جعل يوم الجمعة يوم صلاة عامة على غرار السبت اليهودي...»(٢).

ـ كما زعم جوزيف شاخت أن النبي ﷺ قد استقى التشريعات الإسلامية من ديانات سابقة بل وأنظمة وضعية في قوله:

«إن محمداً قد اقتبس من اليهود في المدينة كثيراً من الأحكام. إن روايات جمع القرآن ملفقة، لفّقها الفقهاء؛ وأصول الفقه وكذلك التشريعات الإسلامية منتحلة من القانون الروماني، والقانون البيزنطي، وقوانين الكنائس الشرقية، ومن التعاليم التلمودية، وأقوال الأحبار، ومن القانون الساساني. كل هذه القوانين والتعاليم والقواعد تَشَكَّلَ منها القانون الديني للإسلام»(٣).

ـ أخرج بعد ذلك المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير (ت١٩٧٣م) في عام ١٩٥٢م كتابه: «مشكلة محمد: دراسة نقدية لحياة مؤسس الإسلام». تبنى فيه رؤية ماسينيون في حصر دور النبي ﷺ في البشارة والنذارة فقط متأسياً ومستعيراً ومستلهماً مصادر اليهود والنصارى المقدسة لديهم، وقد أعاد بلاشير في ذلك الكتاب طروحات هنري لامنس الجدلية التنصيرية المتطرفة، وخصوصاً ما يتعلق

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٤.
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٤٦، ٤٧، وانظر: الاستشراق في السيرة النبوية، ص٣٨، ٤٩، ٥٢، ٦٥.
(٣) مقدمة للشريعة الإسلامية ص٢٠، ٢١، نقلاً عن كتاب: القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، حاشية، ص١٠٣.

بعدم أصالة الوحي المحمدي مشككاً في سلامة نقل نصوص الوحي القرآني، ومؤكداً تأثر النبي ﷺ باليهودية والنصرانية[١].

ـ كما ادعى المستشرق فيليب حتي (ت١٩٧٨م) أن الإسلام تأثر بالتشريعات اليهودية والنصرانية، حيث نسج «في ترتيب صلاة الجمعة على منوال اليهود في عبادتهم بالكنيس، وتأثر من بعد بطقوس صلاة الأحد التي يمارسها النصارى في البِيَع»[٢].

ـ المستشرق الألماني رودي باريت (ت١٩٨٢م) في كتابه «محمد والقرآن: تاريخ النبي العربي ودعوته». وقد حاول في مواضع من كتابه مستميتاً إثبات تبعية الإسلام لليهودية والنصرانية، تلك التبعية التي يجلي المؤلف عناصرها فيما يأتي[٣]:

أولاً: المؤثرات الثقافية والدينية العامة التي خلفها اليهود في المدينة والنصارى في مكة والتي هيأت الأجواء لرسالة النبي محمد ﷺ عموماً، وإن كان الأثر المسيحي مضطرباً بسبب الآراء البدعية الشائعة في أوساط مكة، مثل: إنكار صلب المسيح، ونظرية التثليث.

ثانياً: العبادات اليهودية النصرانية، مثل: شعيرة الصلاة المشتملة على الركوع، والسجود، والقراءات.

ثالثاً: تطور العقيدة الإسلامية من خلال مراحل التأثر باليهودية والنصرانية، فالمرحلة التمهيدية الإعدادية قبل إعلان محمد ﷺ نبوته كان فيها نبياً بالقوة؛ أي: حاملاً لعقيدة النبوة بوساطة المؤثرات اليهودية والنصرانية.

ومع محاولات باريت لإثبات هذه التبعية إلا أنه وقع في عدة تناقضات، منها على سبيل المثال: ذكره أن المسيحية لم يكن لها أثر في مكة[٤]، وأن النبي ﷺ لم يحدث تماسه المباشر باليهود إلا بالمدينة، وأنه لم تتح له الفرصة

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٥.
(٢) تاريخ العرب المطول، ص١٨١.
(٣) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٩، عن:
Rudi Paret, Mohammed und der Koran. Geschichte und, verkuendigung des arabischen Propheten, Suttgart 1966. 2aufl.
(٤) محمد والقرآن، ص٢٠ ـ ٢١.

كاملة لمعرفة تفاصيل اليهودية كما أنه لم يطلع على تفاصيل الإنجيل إلا في تلك الفترة ـ كل هذا ـ مع قوله السابق بتأثر النبي ﷺ في مكة بالمؤثرات اليهودية والنصرانية[١].

ـ أصدر المستشرق الفرنسي مكسيم رودنسون (ت٢٠٠٤م) كتابه: «محمد» في باريس عام ١٩٦٥م، وفي النسخة الإنجليزية أطلق عليه: «محمد نبي الإسلام». قدم رودنسون بعض البوادر الإيجابية في إطار رؤيته لنبوة محمد ﷺ ومظاهر وحيه، فهو يرفض جميع الأدبيات والبحوث الغربية التي تتهم النبي ﷺ بالكذب والاحتيال والخداع، ثم ينتهي إلى جوهر رؤيته المتمثل في:

أولاً: نفي الأصالة عن الوحي القرآني، وأنه يكوّن كتاباً إلٰهياً.

ثانياً: الإصرار على أن النبي محمد ﷺ لم يأت بدين جديد، وأنه محصور في زاوية الإنذار والبشارة فحسب، أما الاعتقاد فمرجعه إلى ديانات سابقة خصوصاً عبادة الأوثان[٢].

ـ مونتغمري وات (ت٢٠٠٦م)، في كتابيه: «محمد في مكة» و«محمد في المدينة»، حيث رأى أن النبي ﷺ قد تأثر بأفكار «ورقة بن نوفل» المسيحية. بل إن أفكار ورقة أثرت في التطورات الإسلامية اللاحقة. وبهجرته ﷺ إلى المدينة فإنه أخذ ينقل عن اليهودية والمسيحية لصياغة ديانة جديدة هي الإسلام[٣]. وفي سبيل تأكيد نظريته حول التأثر والتأثير بين النبي ﷺ وورقة بن نوفل وغيره من المؤثرات الأخرى، يقول وات:

أ ـ «لقد وقعت خديجة تحت تأثير ورقة بالتأكيد، ولا شك أن محمداً أخذ من حماسته وآرائه»[٤].

ب ـ ويقول أيضاً: «فمن المحتمل أنه تحدث في المسائل الدينية مع المسيحيين العرب أو الأحباش من اليمن والقبائل البدوية المسيحية القادمة إلى مكة للتجارة، وهناك يهود المدينة والأماكن الأخرى. ولا شك أنه تحادث مع

---

(١) المرجع السابق، ص٥٦.
(٢) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٩.
(٣) الاستشراق في السيرة، ص٣٨.
(٤) المرجع السابق، ص٣٨ عن:
Muhammad at mecca, p 39-also see: Muhammad at medina, pp.315-316.

ورقة المسيحي ابن عم خديجة»[١].

ج ـ كما حاول وات جهده بإظهار جوانب ـ ادعى ـ فيها تأثر الإسلام باليهودية والمسيحية. فتحدث عن: فرض صلاة الظهر مجاراة للعادات اليهودية، وصلاة الجمعة، والتوجه نحو القدس في الصلاة، وصيام عاشوراء، وتحليل طعام أهل الكتاب، وزواج الكتابيات، وهذه مجرد نماذج لما ذكره وات عن مدى تأثر الإسلام بالديانات السابقة[٢].

ـ المستشرق الإنجليزي مايكل كوك، في كتابه «محمد» المنشور سنة ١٩٨٣م، والذي انتهى فيه إلى أهمية المصادر غير الإسلامية إلى حد تقديمها على المصادر الإسلامية، أما تعاليم النبي ﷺ فيخضعها لمنهجية النقد التاريخي ليخلص فيها إلى أن:

أ ـ مفهوم الكون لدى النبي ﷺ قد يكون مأخوذاً بتمامه من سفر التكوين في العهد القديم.

ب ـ شريعة الجهاد قاسية لا تساعد على نشر الإسلام، وتبدو غريبة لأتباع العهد الجديد الذي لم يقاوم المسيح فيه الشر، ولم يهاجر بعيداً عنه، ولم يشكل لمجابهته تنظيماً سياسياً، وإنما هي أقرب إلى روح العهد القديم، وشريعة موسى، وقصة خروجه العنيفة من مصر.

ج ـ وضوح الأثر اليهودي البارز للعيان في تعاليم محمد ﷺ من خلال الآتي:

- قصص الأمم السابقة، وقصص الأنبياء وحكاياتهم، مثل: حكاية يوسف مع زوجة العزيز.
- مفردات التشريع الإسلامي، مثل: الزكاة.
- شهادة التوحيد لا إلٰه إلا الله، الموجودة لدى السامرة.

د ـ تأثير النصرانية في تعاليم محمد ﷺ حول المسيح خصوصاً الفِرق الهرطقية التي تنكر الصلب وإلٰهية المسيح، وفي أسطورة أهل الكهف، واصطلاح المنافقين[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨.

(٢) Muhammad at medina, p 196-201-also see: pp. 303-305.

(٣) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١١٩، عن: =

هذه شخصيات استشراقية قديمة وحديثة اتفقت على هذه الدعوى من خلال عرضها لسيرة النبي ﷺ، كما أنه وفي سبيل تأكيد الدعاوى السابقة في استفادة النبي ﷺ ما جاء في الوحي من المصادر اليهودية والنصرانية، فقد كتب عدد من المستشرقين دراسات مختلفة بهذا الصدد، تهدف جميعاً إلى تأكيد هذه المسألة، ومنها:

١ ـ الأسماء والأعلام اليهودية في القرآن ومشتقاتها، للمستشرق الألماني يوزف هوروفيتش (١٨٧٤م).

٢ ـ توافق القرآن والإنجيل، بوستل. ج (١٥٤٣م).

٣ ـ طابع الإنجيل في القرآن، وولكر، باسلي (١٩٣١م).

٤ ـ عناصر من الهجادة[1] في قصص القرآن، شابيرو، ليبزيج (١٩٠٧م).

٥ ـ عناصر نصرانية في القرآن، آرنس.

٦ ـ عناصر يهودية في مصطلحات القرآن الدينية، المستشرق المجري بيرنات هيللر (١٨٥٧ ـ ١٩٤٣م) نشر عام ١٩٢٨م.

٧ ـ عيسى في القرآن، أدولف جروهمان، الصحيفة الشرقية، فينا (١٩١٤م).

٨ ـ مصادر تاريخ القرآن، آرثر جيفري.

٩ ـ مذهب الطبيعة الواحدة النصراني في القرآن، المستشرق الألماني بومشتارك، مجلة الشرق المسيحي (١٩٥٣م).

١٠ ـ مراجع القرآن وعلومه، المستشرق الألماني بريتنزل.

١١ ـ مصادر القصص الإسلامية في القرآن وقصص الأنبياء، سايدر سكاي، نشر سنة (١٩٣٢م).

١٢ ـ النصرانية واليهودية في القرآن، المستشرق الألماني بومشتارك، مجلة الإسلام (١٩٢٧م)[2].

وهكذا فقد أصبحت حالات التشابه بدلاً من أن تكون عامل توحيد

= Michael Cook, Muhammad, p.82-50. Oxford University, 1995.

(١) الهجادة: الجزء الأسطوري من التلمود. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، ص٩٩٩٠.

(٢) انظر: آراء المستشرقين في القرآن: د. عمر رضوان (١/ ٢٢٠ ـ ٢٣١).

للديانات، وتأكيداً على وحدة منبعها وغايتها، تحولت في المنهجية الاستشراقية إلى أدلة سطو فكري، يعمل المستشرق جاهداً لتوضيحها وتسليط الضوء عليها، لإقناع اليهود والنصارى بالثبات على عقيدتهم من جانب، ومن جانب آخر لإقناع المسلم بالعودة للأصل الذي أخذ عنه الإسلام أفكاره[(١)].

الرد على هذه الدعوى:

أولاً: المتأمل في دعوى المستشرقين هذه يلحظ أن ما ذكروه لا يعدو كونه عين ما ردده جهال قريش من قبل حين قالوا ما ذكره تعالى عنهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

فقي الآية الكريمة السابقة إقسام منه ـ جلَّ وعلا ـ أنه يعلم أن الكفار يقولون: إن هذا القرآن الذي جاء به النبي ﷺ ليس وحياً من الله، وإنما تعلَّمه من بشر من الناس.

وأوضح سبحانه هذا المعنى في غير هذا الموضع، كقوله: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥]، وقوله: ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر: ٢٤]؛ أي: يرويه محمد ﷺ عن غيره، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنعام: ١٠٥].

وقد اختلف العلماء في تعيين هذا البشر الذي زعموا أنه يعلم النبي ـ ﷺ ـ وقد صرح القرآن بأنه أعجمي اللسان؛ فقيل: هو غلام الفاكه بن المغيرة، واسمه جبر، وكان نصرانياً فأسلم. وقيل: اسمه يعيش عبد لبني الحضرمي، وكان يقرأ الكتب الأعجمية. وقيل: غلام لبني عامر بن لؤي. وقيل: هما غلامان: اسم أحدهما يسار، واسم الآخر جبر، وكانا يعملان السيوف، وكانا يقرآن كتاباً لهم. وقيل: كانا يقرآن التوراة والإنجيل، إلى غير ذلك من الأقوال[(٢)].

وقد بيَّن ـ جلَّ وعلا ـ كذبهم وتعنتهم في قولهم: إنما يعلمه بشر، بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل:

---

(١) الاستشراق في السيرة، ص٣٨.

(٢) أضواء البيان: للشنقيطي (٢/٤٥٣ ـ ٤٥٤).

١٠٣]؛ أي: كيف يكون تعلمه من ذلك البشر، مع أن ذلك البشر أعجمي اللسان. وهذا القرآن عربي مبين فصيح، لا شائبة فيه من العجمة؛ فهذا غير معقول.

ثم بيَّن تعالى شدة تعنتهم أيضاً بأنه لو جعل القرآن أعجمياً لكذبوه أيضاً، وقالوا: كيف يكون هذا القرآن أعجمياً مع أن الرسول الذي أنزل عليه عربي؛ وذلك في قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]؛ أي: أقرآن أعجمي، ورسول عربي. فكيف ينكرون أن القرآن أعجمي والرسول عربي، ولا ينكرون أن المعلم المزعوم أعجمي، مع أن القرآن المزعوم تعليمه له عربي[(١)].

ثانياً: أين هذه الرحلات التي يتكلم عنها جمهور المستشرقين والتي التقى فيها النبي ﷺ بأحبار اليهود، ورهبان النصارى، وأخذ عنهم؟ ومتى كانت؟ وأين تم هذا اللقاء؟ وكم مدة قضاها ليتلقى تلك الدروس حتى يهضمها ويستوعبها؟ ومن هم الذين أخذ عنهم؟ وماذا أخذ؟. أسئلة يعجز المستشرقون عن إجابتها؛ لأنها لا إجابة لها البتة، إذ الإجابة عنها من صنع الخيال، وترهات الأفكار.

ثالثاً: ما زعموه من أن محمداً ﷺ قد استفاد من ورقة بن نوفل كمصدر للوحي الذي ادعاه، فهو باطل من وجوه عديدة، وبيان بطلان مزاعم المستشرقين حوله يتضح في النقاط التالية[(٢)]:

١ ـ ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي القرشي الأسدي ابن عم خديجة رضي الله عنها، زوج النبي عليه الصلاة والسلام، كان من الحنفاء الذين كرهوا عبادة الأوثان، وطلب الدين في الآفاق وقرأ الكتب[(٣)]. وقد اختار النصرانية، إذ كان يعرف العبرانية، فدرسها منها، ودرس التوراة، فعلم الديانتين من الينابيع الأصلية، ويظهر أنه علمها ديانة توحيد لا ديانة تثليث. ولقد بلغ علم الرجل بالعبرانية أنه كان يكتب بها، ويقرأ ويدرس، فكان على علم بالبشارات التي جاءت في التوراة والإنجيل بالنبي عليه الصلاة والسلام، وهي تبشر برسول اسمه أحمد. وقد بلغ من الشيخوخة فنضج فكره، وكف بصره[(٤)].

(١) المرجع السابق (٢/ ٤٥٣ ـ ٤٥٤).
(٢) انظر فيما يأتي: المستشرقون والقرآن: د. محمد أمين حسن، ص٢٣٦ ـ ٢٤٢.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر العسقلاني (٦/ ٤٧٤) وما بعدها.
(٤) سيرة ابن هشام (١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣)، خاتم النبيين ﷺ: محمد أبو زهرة (١/ ٢٥١).

وتشير الروايات الصحيحة إلى أنه مات قبل الدعوة الإسلامية، فقد جاء في صحيح البخاري في الحديث الطويل في باب بدء الوحي:

«. . . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرءاً تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «**أو مخرجي هم؟**» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي»[١].

وقد ذكر ابن حجر بأن ورقة خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل لما كرها عبادة الأوثان إلى الشام وغيرها يسألون عن الدين، فأما ورقة فأعجبه دين النصرانية فتنصر، وكان لقي من بقي من الرهبان على دين عيسى، ولم يبدل، ولهذا أخبر بشأن النبي ﷺ والبشارة به إلى غير ذلك مما أفسده أهل التبديل[٢].

ونستفيد من حديث البخاري أموراً منها:

أ ـ إثبات الوحي لرسول الله ﷺ.

ب ـ شهادة ورقة بذلك وهو من أهل الكتاب.

ت ـ موت ورقة قبل بدء الدعوة الإسلامية.

ث ـ إثبات لقاء بسيط بين النبي ﷺ وبين ورقة، وأن هذا اللقاء تم في زمن متأخر بعد نزول الوحي إليه في المرة الأولى، وقد أجمعت المصادر على ذلك[٣].

٢ ـ نصرانية ورقة: الذي يتابع ما كتب المحدثون وأصحاب السير والتاريخ عن حياة ورقة بن نوفل لا يجد رواية واحدة تشير إلى أنه كان داعية إلى

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/ ٢٥).

(٣) المستشرقون والقرآن: د. محمد أمين حسن، ص٢٣٧.

النصرانية، ورواية البخاري هي من أوثق المصادر التاريخية، وكذلك رواية ابن إسحاق[١]، وابن هشام[٢]، كلها تشير إلى أن نصرانية ورقة كانت قاصرة على نفسه، ولم تكن عنده الدوافع التعليمية والقدرة على الدعوة، والتفرغ لها. ولو تحقق ذلك لعمل على إيجاد مدرسة للقيام بهذا الواجب، ولكان لها دوراً عظيماً في التاريخ مع الوثنية والجاهلية، ولو وجدت لوصلت أخبارها إلى العالم.

إن ورقة عندما سمع الخبر من محمد ﷺ وقف متأملاً مستطلعاً، ولو كان معلماً لفرح بأن غرسه قد أثمر، لكنه أعلن بصراحة بأن وصف النبي ﷺ لملك الوحي مطابق لما عنده من صفات ملك الوحي الذي أنزله الله على موسى، لذلك قال له: هذا الناموس الذي نزّل الله على موسى يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: «**أومخرجيّ هم؟**» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً[٣].

٣ ـ المدة التي عاشها ورقة بن نوفل، وهل أدرك الدعوة الإسلامية أم لا؟.

أشار البخاري في روايته في الصحيح إلى أن ورقة لم يتعلق بشيء من الأمور حتى مات: «... ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي»[٤]. فالتعبير بلفظ ثم لم ينشب، يفيد أنه لم يتعلق بأمر من الأمور حتى مات، ولفظة ينشب يعبر بها العرب عن السرعة والعجلة[٥].

وهي تفيد أيضاً أنه لم ينل ما يتمناه من إدراك زمن تبليغ الرسالة لينصر النبي ﷺ، وقد أورد ابن هشام في سيرته عن ابن إسحاق في قصة إيذاء قريش لبلال رضي الله عنه: «... كان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك، وهو يقول: أحد أحد؛ فيقول: «**أحد أحد والله يا بلال**»، ثم يقبل على أمية بن خلف، ومن يصنع ذلك به من بني جمح، فيقول: «**أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حناناً**»[٦].

---

(١) سيرة ابن إسحاق، ص١٢٢.
(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٢٢٢ ـ ٢٢٣).
(٣) فتح الباري (١/ ٢٥ ـ ٢٧)، والمستشرقون والقرآن: د. محمد أمين حسن، ص٢٣٧ ـ ٢٣٨.
(٤) تقدم تخريجه.
(٥) لسان العرب (١/ ٧٥٧).
(٦) سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٨)، ومعنى قوله: حناناً؛ أي: مكاناً أتبرك به كما ذكر المحقق.

فالذي ينظر في رواية البخاري يجد أنها تبين أن ورقة مات بعد نزول الوحي على رسول الله ﷺ مباشرة، ومعنى ذلك أنه لم يدرك الدعوة الإسلامية، ولم يعاصر النبي ﷺ في دعوته، وأما رواية ابن إسحاق فتشير بأنه أدرك جزءاً من الدعوة الإسلامية وشاهد بعينيه تعذيب الصحابة من قِبل كفار قريش ومنهم بلال بن رباح.

فإن قيل هذه روايات متعارضة أجيب بأنه لا نسلم للمعارضة فإن شرط التعارض المساواة، وما روي في السيرة لا يقاوم الذي في الصحيح، ولئن سلمنا فلعل الراوي لما في الصحيح لم يحفظ لورقة بعد ذلك شيئاً من الأمور، فلذلك جعل هذه القصة انتهاء أمره بالنسبة إلى ما علمه منه لا بالنسبة إلى ما في نفس الأمر[(١)].

وبعد ذكر هذه الأدلة على موت ورقة بن نوفل نقول لأولئك المستشرقين: ها هو ورقة قد مات في وقت مبكر، فمن أين لمحمد ﷺ ـ بعده ـ تلك العلوم المتعددة التي جاءت في كتاب الله يتلو بعضها بعضاً على مدار ثلاث وعشرين سنة، علماً بأن وفاة هذا الرجل بعد نزول الوحي ثابتة في أعظم وثيقة تاريخية، وهو صحيح البخاري.

ثم نقول لهم: إن رواية الحديث تشير إلى أن ورقة كان شيخاً كبيراً قد عمي، فماذا يرجى ممن تقدم سنه وعمي بصره، علماً بأن جميع الروايات التي وردت في السنن والسير تشير إلى أن ورقة كان يشعر بدنو أجله، ففي البخاري يقول: «يا ليتني فيها جذعاً، ليتني أكون حياً، إذ يخرجك قومك».

وأما الرواية التي تشير إلى أن ورقة عاش بعد البعثة نحو ثلاث سنين، فلو أخذنا بهذه الرواية، فإننا نقول لهؤلاء الطاعنين بأن الدعوة الإسلامية كانت في طور السرية التامة، فما هي العلوم التي يمكن أن يقدمها هذا الرجل لدعوة الإسلام، التي كان ينزل كتابها منجماً حسب الحوادث، وظل كذلك حتى التحق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى، فعدم معاصرة ورقة للحوادث التي أوردها القرآن يدحض دحضاً قاطعاً هذه الفرية[(٢)].

---

(١) عمدة القاري (١/ ٦٢)، وفتح الباري (١/ ٢٧).

(٢) المستشرقون والقرآن، ص٣٣٩، وفتح الباري (١/ ٢٧).

٤ ـ لقاء النبي ﷺ بورقة.

أفادت الروايات التاريخية الصحيحة أن اللقاء بين النبي ﷺ وورقة بن نوفل تم بعد نزول الوحي عليه، وهذا يدل على أن ورقة لا علاقة له بالوحي، ولا تأثير لآرائه في حصوله قبل هذا اللقاء على الأقل، وإذا كان الأمر كذلك فهذا يثبت صدق النبي ﷺ فيما جاء به عن ربه، وأن ورقة لا علاقة له به.

ولكن كثيراً من المستشرقين أعرضوا عن هذه الروايات الصحيحة ولجؤوا إلى افتراضات لا صحّة لها، ومن هؤلاء المستشرق «مونتغمري وات» حيث يقول: «. . .ولهذا من الأفضل الافتراض بأن محمداً كان قد عقد صلات مستمرة مع ورقة منذ وقت مبكر وتعلم أشياء كثيرة، وقد تأثرت التعاليم الإسلامية اللاحقة كثيراً بأفكار ورقة»[١].

إن الاستدلال بافتراض محض كما فعل وات، اختلاف لا أصل له في التاريخ إطلاقاً، وهو يناقض ما أعلنه في مقدم دراسته للسيرة من التزامه بالحياد الموضوعي؟ فأين هذا الحياد، وما هو وجه الأفضلية في التزوير؟.

ثم نقول لهذا المستشرق: لو كان هناك لقاء سابق بين رسول الله ﷺ وبين ورقة بن نوفل لهرع النبي ﷺ إليه بعد هذا الحادث مباشرة، ولكن الروايات التاريخية الصحيحة تشير بأن خديجة هي صاحبة الفكرة، وقد زعم هذا المستشرق بأن خديجة وقعت تحت تأثير ورقة[٢]، وهذا زعم باطل لا دليل عليه، فالروايات التاريخية تشير إلى أنه لم يكن بين خديجة وورقة زيارة، ولهذا جاء في طبقات ابن سعد:

«ثم انطلقت خديجة إلى ورقة بن نوفل، وهي أول مرة أتته فأخبرته ما أخبرها به رسول الله ﷺ. فقال ورقة: والله إن ابن عمك لصادق، وإن هذا لبدء نبوة، وإنه ليأتيه الناموس الأكبر، فمريه أن لا يجعل في نفسه إلا خيراً»[٣]. فلو كان ورقة أستاذاً لمحمد ﷺ لذهب إليه قبل أن يرجع إلى بيته، ولكن حقائق التاريخ تثبت عدم الصلة بينهما.

---

(١) محمد في مكة، ص٩٣.

(٢) أي: مونتغمري وات، انظر: الاستشراق في السيرة، ص٣٨.

(٣) طبقات ابن سعد (١/ ١٩٥).

٥ ـ موقف ورقة يدل على ربانية الوحي.

الذي يقرأ ما ورد في صحيح البخاري بشأن هذا الحادث، وما ورد في الكتب التاريخية والسير يخرج بالنقاط التالية:

أ ـ موقف ورقة من الخبر موقف استفهام واستطلاع، وهنا نسأل أولئك المستشرقين، فنقول لهم أين التعليم الذي علمه ورقة للنبي ﷺ ولقنه إياه.

ب ـ أن ورقة أخبر رسول الله ﷺ بأن قومه سيكافئونه على هذه الدعوة بالإخراج من البلاد، وبالعداء المستمر بينهما؛ لأن ذلك سُنَّة الله في خلقه، ما بعث الله نبياً إلا عاداه قومه، وهذا تصريح من ورقة بأن الدعوة الإسلامية دعوة ربانية.

ج ـ عدم ادعاء النبوة من قبل ورقة، ولم يطلب منصباً جديداً بهذه الدعوة، فلو كان هو مصدر معارف محمد ﷺ فهل يقف موقف التابع المصدق المناصر؟[1].

٦ ـ موقف قريش من هذا الحديث:

إن المتتبع لتاريخ الدعوة الإسلامية يجد أن قريشاً ما تركت وسيلة من وسائل الحرب والطعن في الرسالة الجديدة إلا وسلكتها، فهي التي رمت رسول الدعوة بالجنون والسحر والكهانة، وهي التي زعمت أنه يتلقى الوحي عن فتى رومي يعمل في مكة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الذاريات: ٣٩]، وقال تعالى أيضاً: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات: ٥٢]، وهنا نقول: لو كان لورقة أي تأثير على محمد ﷺ هل يمكن أن تسكت قريش على ذلك؟ وهي التي تتربص الدوائر بمحمد ﷺ ودينه الجديد، ولكن قريشاً لم تورد شيئاً من هذا القبيل، فهذا يدل على عدمه أصلاً، وعلى أن القول به باطل، فلو توهموا أدنى احتمال للقاء مع ورقة والتلقي منه لما فوتوا تلك التهمة الباطلة لتبرير موقفهم، وكيف يدعونها إلى توهم أشد منها ضعفاً، وهو الأخذ عن قين

---

(١) وحي الله: حسن ضياء الدين، ص٥٩.

رومي جاهل[١].

رابعاً: أن ما زعموه من أنه ﷺ، أخذ ما جاء به من صهيب أو غيره من الروم لهو من أبطل الباطل. إذ أن صهيباً كان حداداً يصنع السيوف، أعجمي اللسان[٢]، ولذا قال تعالى في معرض الرد عليهم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

والمعنى: كيف يتعلم من جاء بهذا القرآن، في فصاحته وبلاغته، ومعانيه التامة الشاملة، التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على نبي أرسل؛ كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ـ! لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل[٣]. ولو كان لصهيب أن يكون مرجعاً علمياً كما أرادوا أن يصفوه، فما الذي منع كفار مكة أن يأخذوا عنه، كما أخذ صاحبهم؟ وبذلك كانوا يستريحون من عنائه، ويداوونه من جنس دائه، بل ما منع صهيب أن يبدي للعالم صفحته، فينال في التاريخ شرف الأستاذية، أو يتولى بنفسه تلك القيادة العالمية؟ بل ما منعه أن يدعي النبوة، فينسب لنفسه هذا المجد والفخار؟[٤] إن في عدم ادعاء صهيب شيء مما سبق، وعدم ثبوته عنه، مع صحة إيمانه برسول الله ﷺ، دليل على صدق رسول الله ﷺ، في دعواه النبوة، وفي عصمته ﷺ في كل ما بلغ من وحي ربه[٥].

خامساً: ما زعموه من أنه ﷺ، تلقى الوحي من علماء أهل الكتاب في عصره محض افتراء يرده القرآن الكريم الذي حفل بجدالهم ومحاوراتهم في العقائد والتواريخ والأحكام.

فالناظر في محاورات القرآن لهم يرى بأيِّ لسان يتكلم عنهم القرآن الكريم. إنه يصور علومهم بأنها الجهالات، وعقائدهم بأنها الضلالات، ومعارفهم بأنها الخرافات، وأعمالهم بأنها المنكرات.

---

(١) وحي الله، ص٦٦، والمستشرقون والقرآن: د. محمد أمين حسن، ص٢٣٦ ـ ٢٤٢.
(٢) انظر: الطبقات الكبرى: لابن سعد (٣/ ١٦٩)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب: لابن عبد البر (٢/ ٧٢٦)، والإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٣٦٤).
(٣) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٤/ ٦٠٣).
(٤) النبأ العظيم، ص٩٤ ـ ٩٥ ـ بتصرف ـ.
(٥) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، ص٣٣٦.

فإذاً لا يعقل أن يصفهم القرآن بذلك ثم يقفون من صاحب هذه النبوة موقف المرشد والناصح! اقرأ إن شئت قول الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ۝٣٠ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣١﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ۝١٥٦ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٦، ١٥٧]، إلى أن قال ﷻ: ﴿وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۝١٦٠ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ [النساء: ١٦٠، ١٦١]. وغير ذلك كثير مما هو منثور في ثنايا سور القرآن الكريم، وهو سهل المنال لمن طلبه. مما يفيدك بأن قوماً أمثال هؤلاء لا يعقل - وحالهم هكذا - أن يتلقى عنهم رسول الله ﷺ، بل إنك ترى فيه معلماً يصحح لهم أغلاطهم، وينعي عليهم سوء حالهم. فلو كانوا معلمين له ﷺ، لمدحهم، وجاملهم، وتودد إليهم، وتقرب منهم، ولم يقف منهم هذا الموقف العدائي، حتى لا يفضحوا أمره، ويكشفوا حاله.

ثم إن كثيراً من هؤلاء الذين يزعمون أنهم كانوا مصدر الوحي، قد أسلموا، وإسلامهم حجة قائمة على صدق نبوة رسول الله ﷺ، وعصمته فيما بلغ من الوحي الإلٰهي، ولو كان هؤلاء أعانوا النبي ﷺ على الوحي، وأنه ليس من عند الله، لكانوا أدرى الناس حينئذٍ بحقيقة الإسلام، وبالتالي كانوا سيكونون أبعد الناس عنه؛ لأنهم يعرفون أنه دين ليس صحيحاً، ولكن أما وقد أسلموا وأخلصوا لله تعالى، لا سيما وأنه كانت هناك منافسة كبيرة بين أصحاب الأديان المختلفة في ذلك الوقت، فإن ذلك كان لاستئصال ألسنة الخراصين، حتى يصابوا بالخرس رحمة بالتاريخ الذي كم لوّثوه بألسنتهم هذه. وصدق رب العزة: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ ۝٤٣﴾ [الرعد: ٤٣]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝١٠﴾ [الأحقاف: ١٠][1].

---

(١) المرجع السابق، ص٣٣٨.

سادساً: من أقوى ما يدل على أن الإسلام لم يكن مقتبساً من اليهودية أو النصرانية، وجود الخلاف في كثير من العقائد والأحكام؛ بل جعل الشارع الحكيم جنس مخالفتهم أمراً مقصوداً له، ومن متطلبات الشرع، وهناك كثير من الأحكام جعلت العلة فيها هي مخالفة اليهود أو النصارى من ذلك:

١ ـ قوله ﷺ: «**إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم**»[١].

٢ ـ وقوله ﷺ: «**خالفوا اليهود فإنهم لا يصلّون في نعالهم ولا خفافهم**»[٢].

٣ ـ وعن أنس بن مالك ﵁، أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم، لم يؤاكلوها، ولم يجامعوهن في البيوت. فسأل أصحاب النبي ﷺ، النبي ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢]، فقال رسول الله ﷺ: «**اصنعوا كل شيء إلا النكاح**» فبلغ ذلك اليهود فقالوا: «ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه»[٣].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فهذا الحديث يدل على كثرة ما شرعه الله لنبيه من مخالفة اليهود، بل على أنه خالفهم في عامة أمورهم، حتى قالوا: ما يريد أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه»[٤].

فهذا إقرار من اليهود بمخالفة النبي ﷺ لما كانوا عليه من شعائر حتى اشتهر ذلك بينهم، ألا يكفي ذلك برهاناً ساطعاً على بطلان قول المستشرقين: أنه كيّف شعائر الإسلام لتتفق مع شعائر اليهود؟ كما زعم بروكلمان[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب الخضاب (٧/ ١٦١) حديث رقم (٥٨٩٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب في مخالفة اليهود في الصبغ (٣/ ١٦٦٣) حديث رقم (٢١٠٣).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب الصلاة في النعال (١/ ١٧٦) حديث رقم (٦٥٢)، والبيهقي في سننه، كتاب الصلاة، باب سُنَّة الصلاة في النعلين ٢/ ٤٣٢، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٩١) حديث رقم (٩٥٦) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحيض، باب اصنعوا كل شيء إلا النكاح (١/ ٢٤٦) حديث رقم (٣٠٢).

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: د. ناصر بن عبد الكريم العقل (١/ ٢١٥).

(٥) تاريخ الشعوب الإسلامية: لبروكلمان، ص٤٦، ٤٧.

أولم يكفهم أنه ﷺ، أخرج اليهود أذلاء حقيرين من المدينة، وأجلاهم عنها لما نقضوا عهودهم معه، وأبى عليهم أن يساكنوه في بلد واحد؟[١] وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله عن يهود بني النضير: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ [الحشر: ٢].

إن النبي ﷺ، منذ أن بعث وحمل رسالة الإسلام، نسخ الأديان السابقة، وأبطل شرعيتها، فلا نجاة لأحد من الخلق يهودياً كان أو نصرانياً إلا بالتزام شرعه، والسير على نهجه، وهو القائل ﷺ: «**والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار**»[٢].

والحديث هنا بياناً وتأكيداً لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فلا بقاء لدين مع دينه ﷺ، ولا شريعة مع شريعته، بل دينه هو الحاكم والمهيمن على كل الأديان. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨][٣].

سابعاً: ما زعموه من إرجاع كثير من شعائر الإسلام إلى اليهودية أو النصرانية، أو الاثنين معاً، زعم باطل لما يلي:

أ ـ لأن استدلالهم بصوم عاشوراء على موافقة اليهود فيه، بناء على ما روي

(١) روى البخاري ومسلم في صحيحهما بسندهما عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «حاربت النضير وقريظة، فأجلى بني النضير، وأقرَّ قريظة، ومنَّ عليهم، حتى حاربت قريظة، فقتل رجالهم، وقسم نساءهم وأولادهم وأموالهم بين المسلمين إلا بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ، فأمنهم، وأسلموا، وأجلى يهود المدينة كلهم بني قينقاع، وهم رهط عبد الله بن سلام، ويهود بني حارثة، وكل يهود المدينة». وهذا اللفظ للبخاري في صحيحه (٥/ ٨٨) حديث رقم (٤٠٢٨)، وانظر: صحيح مسلم (٣/ ١٣٨٧) حديث رقم (١٧٦٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب إيمان أهل الكتاب برسالة الإسلام (١/ ١٣٤) حديث رقم (١٥٣).

(٣) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، ص٣٤٠.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قدم النبي ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: **«ما هذا؟»** قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: **«فأنا أحق بموسى منكم»** فصامه، وأمر بصيامه[(١)].

فعلة الموافقة الواردة في الحديث هي التي بنى عليها المستشرقون شبهتهم السابقة، ويجاب عليها بالآتي:

١ - لقد ثبت أن النبي ﷺ، كان يصوم عاشوراء في الجاهلية قبل قدومه المدينة، ويدل على ذلك قول عائشة رضي الله عنها: «كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش في الجاهلية، وكان النبي ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه، وأمر بصيامه، فلما نزل رمضان كان من شاء صامه، ومن شاء لا يصومه»[(٢)].

وفي رواية: «وكان يوم تستر فيه الكعبة»[(٣)] فدل بهذا على أنه ﷺ، لم يصمه موافقة لليهود واقتداء بهم، وإنما صامه وأمر بصيامه تقريراً لتعظيمه وتأكيداً، وأخبر ﷺ أنه وأمته أحق بموسى من اليهود، فإذا صامه موسى شكراً لله، كنا أحق أن نقتدي به من اليهود، لا سيما إذا قلنا: شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يخالفه شرعنا[(٤)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «فإذا كان أصل صومه لم يكن موافقاً لأهل الكتاب، فيكون قوله: **«فنحن أحق بموسى منكم»** توكيداً لصومه، وبياناً لليهود: أن الذي يفعلونه من موافقة موسى نحن أيضاً نفعله، فنكون أولى بموسى منكم».

ثم يجيب شيخ الإسلام عن شبهة - تعلق بها أعداء الإسلام قديماً والمنتسبون للاستشراق حديثاً - في قوله:

«ثم الجواب عن هذا، وعن قوله: «كان يحب موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء» من وجوه:

---

(١) أخرجه البخاري - بهذا اللفظ - في صحيحه، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء (٣/ ٤٤) حديث رقم (٢٠٠٤)، وأخرجه مسلم في كتاب الصيام، باب صوم يوم عاشوراء (٢/ ٧٩٥) حديث رقم (١١٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب أيام في الجاهلية (٥/ ٤١) حديث رقم (٣٨٣١).

(٣) أخرجها البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب ﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ﴾ (٢/ ١٤٨) حديث رقم (١٥٩٢).

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد: ابن قيم الجوزية، ت: شعيب الأناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط (٢/ ٦٧).

أحدها: أن هذا كان متقدماً، ثم نسخ الله ذلك، وشرع له مخالفة أهل الكتاب، وأمره بذلك، وفي متن الحديث: «أنه سدل شعره موافقة لهم، ثم فرق شعره بعد» ولهذا صار الفَرق شعار المسلمين، وكان من الشروط على أهل الذمة «أن لا يفرقوا شعورهم» وهذا كما أن الله شرّع له في أول الأمر استقبال بيت المقدس موافقة لأهل الكتاب، ثم نسخ ذلك، وأمر باستقبال الكعبة، وأخبر عن اليهود وغيرهم من السفهاء أنهم سيقولون: ﴿مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا﴾ [البقرة: ١٤٢]، وأخبر أنهم لا يرضون عنه حتى يتبع قبلتهم، وأخبره أنه: إن اتبع أهواءهم من بعد ما جاءه من العلم ما له من الله من ولي، ولا نصير، وأخبره أن: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ [البقرة: ١٤٨]، وكذلك أخبره في موضع آخر أنه جعل لكلٍ شرعة ومنهاجاً فالشعار من جملة الشرعة. والذي يوضح ذلك: أن هذا اليوم ـ عاشوراء ـ الذي صامه وقال: «**نحن أحق بموسى منكم**» قد شرع ـ قبيل موته ـ مخالفة اليهود في صومه، وأمر ﷺ بذلك، ولهذا كان ابن عباس رضي الله عنهما، وهو الذي يقول: «وكان يعجبه موافقة أهل الكتاب فيما لم يؤمر فيه بشيء»، وهو الذي روى قوله: «**نحن أحق بموسى منكم**» أشد الصحابة رضي الله عنهم أمراً بمخالفة اليهود في صوم يوم عاشوراء»[1].

٢ ـ إن النبي ﷺ، بيّن نوع مخالفة لليهود في صيام عاشوراء، عندما شرع صيام يوم قبله، أو بعده، فعن ابن عباس قال: «حين صام رسول الله ﷺ، يوم عاشوراء، وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله. إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى. فقال رسول الله ﷺ: «**فإذا كان العام المقبل، إن شاء الله، صمنا اليوم التاسع**» قال: فلم يأت العام المقبل، حتى توفي رسول الله ﷺ»[2]، فدل ذلك على مخالفته لهم في صيامه.

ب ـ وأما زعمهم أن المؤمنين كانوا لا يصلّون في مكة إلا مرتين في اليوم، ثم أدخلت صلاة ثالثة عندما ذهبوا إلى المدينة على غرار اليهودية، فهو زعم في وهن خيط العنكبوت، إذ الصلوات الخمس فرضت بمكة ليلة الإسراء، حين عرج بالنبي ﷺ، إلى السماء، ولا خلاف بين أهل العلم، وأهل السير في ذلك[3].

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٤٦٦ ـ ٤٦٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب أي يوم يصام في عاشوراء (٢/ ٧٩٧) حديث رقم (١١٣٤).

(٣) الجامع لأحكام القرآن: محمد بن أحمد القرطبي (١٠/ ٢١٠).

وهذا الذي دلت عليه الأحاديث الصحيحة، التي وردت في صفة الإسراء والمعراج في الصحيحين وغيرهما، من أحاديث جماعة من الصحابة ﷺ، وفي أحدها قوله ﷺ: «**فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى، وبين موسى عليه السلام، حتى قال: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة، لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة**»(١).

ج ـ وأما زعمهم أنه ﷺ جعل الجمعة، يوم صلاة عامة، على غرار السبت عند اليهود، فهو أيضاً قول مخالف للصواب؛ لأن الله سبحانه شرع لعباده المؤمنين الاجتماع لعبادته يوم الجمعة، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٩﴾ [الجمعة: ٩].

وقد ثبت أن الله أمر الأمم السابقة بتعظيمه، فضلّوا عنه، واختار اليهود السبت، والنصارى الأحد، وفضل الله هذه الأمة بيوم الجمعة لفضيلته، فعن أبي هريرة وحذيفة قالا: قال رسول الله ﷺ: «**أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا، فكان لليهود يوم السبت، وكان للنصارى يوم الأحد، فجاء الله بنا، فهدانا الله ليوم الجمعة، فجعل الجمعة والسبت والأحد، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة. نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضيُّ لهم قبل الخلائق**»(٢) ففي الحديث ذم لأهل الكتابين، على تفريطهم في يوم الجمعة، ثم شرع ﷺ، صيام يوم السبت ويوم الأحد مخالفة لهما، كما جاء في حديث أم سلمة ﵂، قالت: «كان رسول ﷺ، يصوم يوم السبت ويوم الأحد أكثر مما يصوم من الأيام، ويقول: **إنهما عيد المشركين، فأنا أحب أن أخالفهم**»(٣).

---

(١) هذه الرواية أخرجها مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، وفرض الصلوات (١/ ١٤٥) حديث رقم (١٦٢).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (٢/ ٥٨٦) حديث رقم (٨٥٦).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٦/ ٣٢٤)، وله شاهد من حديث عائشة أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الصوم، باب صوم يوم الإثنين والخميس (٣/ ١٢٢) رقم (٧٤٦) وقال: حديث حسن، هذا وقد جاء من الأحاديث ما يدل على النهي عن صيام يوم السبت، إلا أن الإمام أبا داود ﵀ يرى أن ذلك منسوخ. سنن أبي داود (٢/ ٣٢٠) رقم (٢٤٢١)، وينظر: أقوال العلماء في ذلك، فتح الباري (١٠/ ٣٧٤) رقم (٥٩١٧)، والناسخ والمنسوخ: لابن شاهين، ص٣٤١ رقمي (٤١١، ٤١٢)، ونيل الأوطار (٤/ ٢٤٩).

قال الحافظ ابن حجر: «يوم السبت عيد عند اليهود، والأحد عيد عند النصارى، وأيام العيد لا تصام، فخالفهم بصيامها»[(١)].

بعد هذا يتضح لك، أن وحي الله تعالى (كتاباً وسُنَّة) والذي بلغه رسول الله ﷺ، بعصمة الله له، لم يكن مأخوذاً من اليهودية أو النصرانية، وإنما هو وحي مستقل، لم يتأثر بغيره، وبالتالي دين الإسلام، دين قائم بذاته، متميز عن غيره، وإذا وجد تشابه بين نسك إسلامي، وبين عمل سابق منسوب إلى شريعة اليهود أو النصارى. دل ذلك على أن أصل الدين الذي جاء به رسل الله واحد. لقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣]. وبياناً لذلك وتأكيداً له، قال ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد**»[(٢)] والمراد بـ(إخوة لعلات) الذين أمهاتهم مختلفة، وأبوهم واحد. أراد أن إيمانهم واحد، وشرائعهم مختلفة[(٣)(٤)].

٦ ـ شبهة كثرة مواطن الشبه بين القرآن وكتب العهدين:

وقد ترددت هذه الشبهة كثيراً في كتابات جمع من المستشرقين وهي استدلالهم على استفادة النبي محمد ﷺ من كتب اليهود والنصارى من خلال مواطن الشبه الموجود بين القرآن الكريم وكتب العهدين القديم والجديد لدى اليهود والنصارى كما تقدم ذكر نماذج لذلك في نقولات المستشرقين.

فما هي إذن أوجه الشبه، أو ما هي مواطن الشبه بين القرآن والتوراة والإنجيل؟ وهل في التشابه دلالة على أخذ القرآن منهما؟ هل بالضرورة متى ما وجد التشابه أن يكون اللاحق أخذ من السابق؟.

وإذا وجد التشابه ألا يمكن رده إلى علة أخرى غير الإطلاع والنقل كوحدة المصدر مثلاً؟.

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٣٧٥) رقم (٥٩١٧).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ (٤/ ١٦٧) حديث رقم (٣٤٤٣).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/ ٢٩١).

(٤) انظر: رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، ص٣٣٦ ـ ٣٤٣.

وإذا كان التشابه يقتضي أخذ اللاحق عن السابق كقاعدة مضطردة عند المستشرقين من اليهود والنصارى، فما تعليلهم للتشابه لدرجة التطابق بين الإنجيل وكتب البراهمة والبوذية وغيرها من الديانات الوضعية؟[١].

يجمع الكثير من النصارى على أن الإنجيل كتاب إلٰهي، فهل يصح بمقتضى قاعدتهم أن يأخذ الإلٰهي المعصوم عن البشري الناقص؟.

وإذا كان محمد ﷺ قد قرأ توراتهم وإنجيلهم وأخذ منها القصص والتشريعات والأخلاقيات. . .إلخ، فكيف يعللون وجود قصص في القرآن ليس في عهديهما؟ وفي هذا القصص أحداث وقعت قديماً بل موغلة في القدم. كيف عرف محمد هذه الأخبار التي وقعت في الأزمان السحيقة، وهي غير موجودة عندهم؟[٢].

لقد دأب كثير من المستشرقين على القول بأن محمداً ﷺ أخذ عناصر دينية من الأحبار والرهبان وهذا القرار المسبق يحول بينهم وبين التعامل العلمي الصحيح مع القرآن ونبوة محمد ﷺ.

ومن هؤلاء المستشرقين بالإضافة لمن أوردنا أقوالهم، المستشرق اليهودي «جويتين»[٣]، حيث وضع هذا المستشرق كتابين للنيل من الإسلام ونبي الإسلام، الأول تحت عنوان: «دراسات في تاريخ الإسلام ونظمه» والثاني تحت عنوان: «اليهود والعرب».

يقول جويتين في كتابه الأول: «نستطيع أن نتصور أن منشأ ادعاء نظرية الوحي عند محمد، هو خواطره عن دوره الخاص في الإطار العام لهداية البشرية بطريق رسل الله، وبينما كان يستمع إلى مواعظ المبشرين وقصص الأجانب خلد ببال محمد شعور قوي بأنه مطالب بتبليغ رسالة الله إلى عشيرته الأقربين، كما بعثت رسل آخرون إلى أقوام عربية أخرى من قبله، وبدأ محمد إمعان النظر في

---

(١) انظر لنماذج التشابه والتماثل بين هذه الأديان الوضعية وغيرها وبين المسيحية: العقائد الوثنية في الديانة النصرانية، محمد طاهر التنير. انظر مثلاً: مقارنة بين الهندوسية والبوذية وبين المسيحية، ص١٨٣ ـ ٢٢١.

(٢) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي: د. محمود ماضي، ص١٤٥.

(٣) شلومو دوف جويتين أوجويتاين Shelomo Dov Goitein (١٩٠٠ ـ ١٩٨٥م): مؤرخ يهودي - ألماني، ومختص بالتاريخ العربي عرف بأبحاثه التاريخية عن اليهود والمجتمعات اليهودية في ظل الدولة الإسلامية في القرون الوسطى. انظر: المستشرقين، ص٢١١.

الصحائف المكتوبة التي كان يحملها الأحبار والرهبان المتجولون في جزيرة العرب والتي تحتوي على أجزاء من الكتب السماوية... وكانت تلك الصحائف مكتوبة بلغة أجنبية... وفي أثناء تأمله في هذا الشأن استقر فيه الاعتقاد بأن الله لا بد أن تنزل عليه دون غيره يوماً من الأيام في نسخة عربية، وبطريقة الاستماع إلى المبشرين من مختلف الملل والطوائف أدرك أن أصول الأديان كلها واحدة لأنها منزلة من رب واحد، وبالتالي أكد محمد مراراً أن الرسالة التي تبلغ بطريقه إنما هي نفس الرسالات التي أنزلت من قبل»[1].

واستدل جويتين على مزاعمه ببعض آيات من القرآن، ظن أنها تسعفه وقد ساق كلامه حولها دون دليل بيِّن، فمن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٩].

رأى هذا المستشرق أن الآيات الأخيرة تدل على أن محمداً ﷺ تتلمذ على بني إسرائيل وأخذ عن علمائهم، ولكن كيف أخذ؟ متى كان ذلك؟ ما دليله على ذلك؟ لا شيء عنده.

وكل ما في هذه الآيات أن هذه المعلومات ثابتة من قبل وأن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟، والمراد بعلمائهم: العدول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم. كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧][2].

وإذا كان القرآن من عند محمد كما يزعم هذا المستشرق فكيف يقول عن نفسه أنه أخذه من اليهود؟. أما زعمه أن محمداً ﷺ أخذ عن اليهود أو أنه قرأ كتبهم فهذا مردود لأسباب عديدة منها:

---

(١) دراسات في تاريخ الإسلام ونظمه: س. د. جويتين، نقلاً عن: النبوة المحمدية ومفتريات المستشرقين محيي الدين الألوائي، ص٤٥ ـ ٤٦.

(٢) تفسير ابن كثير (٦/ ١٦٣).

١ ـ أن محمداً ﷺ كان أمياً، فلم يتعلم شيئاً من أحد في حضر أو سفر بشهادة قومه المعادين له.

٢ ـ أن العهد القديم لم يكن مترجماً إلى اللغة العربية، باعترافه: «وكان تلك الصحائف مكتوبة بلغة أجنبية».

٣ ـ وقد أشارت الموسوعة البريطانية إلى عدم وجود ترجمة عربية لأسفار اليهود قبل الإسلام، وأن أول ترجمة كانت في أوائل العصر العباسي وكانت بأحرف عبرية[(١)].

٤ ـ لو أخذ محمد ﷺ هذا القرآن من أهل الكتاب مع عدوانهم له لأذاعوه، ولقالوا إن هذا تعلمه منا أو عن نظرائنا، أو قرأه في كتبنا لا سيما وهو يفعل فيهم ما يفعل لغدرهم وتآمرهم في الخفاء، ومن أسلم منهم فإنما كان يقبل على الحرمان والمقاطعة، ولو أنهم قالوا ذلك لنقل إلينا وعرف، فإنه من الحوادث التي تتوافر الهمم والدواعي على نقلها[(٢)].

٥ ـ من المعلوم أن في القرآن ما لا وجود له في كتب اليهود والنصارى، مثل: قصة هود وصالح وشعيب، ولو أن محمداً ﷺ كان يتعلم من أهل الكتاب لما زاد هذه الزيادات، ولما خطأهم في بعض ما ذكر في كتبهم حتى لا يفتح عليه باب معارضتهم إذ لا يليق بالعاقل أن يقدم على فعل يمنعه من مطلوبه، ويبطل مقصوده من غير فائدة[(٣)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في معرض بيان ما تفرد به القرآن عن التوراة والإنجيل:

«ولم تكن شريعة التوراة في الكمال مثل شريعة القرآن، فإن القرآن فيه ذكر المعاد وإقامة الحجج عليه وتفصيله، ووصف الجنة والنار، ما لم يذكر مثله في التوراة. وفيه من ذكر قصة هود وصالح وشعيب وغيرهم من الأنبياء، ما لم يذكر في التوراة، وفيه من ذكر أسماء الله الحسنى وصفاته ووصف ملائكته وأصنافهم

---

(١) انظر: التوراة بين الوثنية والتوحيد: سهيل ويب، ص٢٦ ـ ٢٧.

(٢) انظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، ت: د. علي بن حسن، ود. عبد العزيز بن إبراهيم العسكر، ود. حمدان بن محمد الحمدان (٥/ ٣٢٦، ٣٨٩، ٣٩٤).

(٣) الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

وخلق الإنس والجن ما لم يفصل مثله في التوراة، وفيه من تقرير التوحيد بأنواع الأدلة ما لم يذكر مثله في التوراة، وفيه من ذكر أديان أهل الأرض ما لم يذكر مثله في التوراة، وفيه من مناظرة المخالفين وإقامة البراهين على أصول الدين ما لم يذكر مثله في التوراة، مع أنه لم ينزل كتاب من السماء أهدى من القرآن والتوراة. وفي شريعة القرآن تحليل الطيبات وتحريم الخبائث، وشريعة التوراة فيها تحريم كثير من الطيبات عليهم، حرمت عليهم عقوبة لهم، وفي شريعة القرآن من قبول الدية في الدماء ما لم يشرع في التوراة، وفيها من وضع الآصار والأغلال التي في التوراة ما يظهر به أن نعمة الله على أهل القرآن أكمل.

وأما الإنجيل؛ فليس فيه شريعة مستقلة، ولا فيه الكلام على التوحيد وخلق العالم وقصص الأنبياء وأممهم، بل أحالهم على التوراة في أكثر الأمر. ولكن أحل المسيح بعض ما حرم عليهم، وأمرهم بالإحسان والعفو عن الظالم واحتمال الأذى، والزهد في الدنيا، وضرب الأمثال لذلك.

فعامة ما امتاز به الإنجيل عن التوراة بمكارم الأخلاق المستحسنة، والزهد المستحب، وتحليل بعض المحرمات وهذا كله في القرآن، وهو في القرآن أكمل، فليس في التوراة والإنجيل والنبوات ما هو من العلوم النافعة والأعمال الصالحة إلا وهو في القرآن أو ما هو أفضل منه. وفي القرآن من العلوم النافعة والأعمال الصالحة من الهدى ودين الحق ما ليس في الكتابين»[١].

٧ ـ وقد أنكر دعوى اقتباس النبي ﷺ للوحي مما جاء عند اليهود والنصارى بعض المنصفين من المستشرقين، ومن هؤلاء المستشرق الإنجليزي لايتر Lightner حيث يقول:

«بقدر ما أعرف من ديني اليهود والنصارى أقول بأن ما علمه محمد ليس اقتباساً بل قد أوحى إليه ربه، ولا ريب بذلك طالما نؤمن بأنه قد جاءنا وحي من لدن عزيز عليم، وإني بكل احترام وخشوع أقول: إذا كان تضحية المصالح الذاتي، وأمانة المقصد، والإيمان القوي الثابت والنظر الصادق الثاقب بدقائق وخفايا الخطيئة والضلال، واستعمال أحسن الوسائط لإزالتها، فتلك من العلامات الظاهرة الدلالة على نبوة محمد ـ صلي الله عليه وسلم ـ وأنه قد

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٧١ ـ ٧٣).

أوحى إليه»[١].

ويقول هنري دي كاستري: «... قد نرى تشابهاً بين القرآن والتوراة في بعض المواضع، إلا أن سببه ميسور المعرفة... إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها، كما أن النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين»[٢].

ويقول واشنطن إيرفنج: «كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه. حتى إذا ظهر المسيح (عليه السلام) اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حلّ القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل. حوى القرآن كل شيء، وحوى جميع القوانين، إذ إنه خاتم الكتب السماوية...»[٣].

ويقول المستشرق فرانز روزنثال[٤]: «من الدوافع العملية لدراسة التاريخ توفر المادة التاريخية في القرآن مما دفع مفسريه إلى البحث عن معلومات تاريخية لتفسير ما جاء فيه. وقد أصبح الاهتمام بالمادة التاريخية، على مر الزمن، أحد فروع المعرفة التي تمت بالارتباط بالقرآن. وإذا كان الرسول ﷺ قد سمع بعض الأخبار والمعلومات التاريخية، فإن هذا لا يبرر الافتراض بأنه قد قرأ المصادر التاريخية كالتوراة في ترجماتها العربية. لقد وردت في القرآن معلومات تاريخية تختلف عما يدعي اليهود وجوده في التوراة. وقد ذكر الرسول ﷺ أن اليهود والنصارى حرفوا التوراة، وتمسك المسلمون بما جاء في القرآن...»[٥].

٨ ـ كما ساهم عدد من المستشرقين المسلمين في تفنيد هذه الدعوى وبيان أوجه المفارقة بين الوحي القرآني المنزل على محمد ﷺ وبين ما تضمنته الكتب المقدسة عند اليهود والنصارى.

تقول المستشرقة الأمريكية ديبورا بوتر في حديثها عن سبب إسلامها: «...

---

(١) دين الإسلام: لايتر، ص٥٠٤، ترجمة: عبد الوهاب سليم، المكتبة السلفية، دمشق، ١٣٤٢هـ.

(٢) الإسلام: خواطر وسوانح، ص٢٢ ـ ٢٣.

(٣) حياة محمد، ص٧٢.

(٤) فرانز روزنثال F.rsenthal (١٩١٤ ـ ٢٠٠٣م): من أساتذة جامعة ييل. من آثاره: العديد من الدراسات والأبحاث في المجلات الشهيرة مثل «الثقافة الإسلامية»، «الشرقيات»، «صحيفة الجمعية الأمريكية الشرقية». كما ألّف عدداً من الكتب من أشهرها: «مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي»، «وعلم التاريخ عند المسلمين» نقلاً عن: قالوا عن الإسلام ح(٢) ص٦٥.

(٥) علم التاريخ عند المسلمين، ص٤١ ـ ٤٢، نقلاً عن المرجع السابق، ص٦٥.

عندما أكملت القرآن الكريم غمرني شعور بأن هذا الحق الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها. وأنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية. أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع وأسلوب قاطع لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة، وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة»[(١)].

وتستدل «بوتر» على كون القرآن وحياً إلٰهياً بقولها: «. . . كيف استطاع محمد ﷺ الرجل الأمي الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لا بدّ إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله ﷻ»[(٢)].

ويقول مراد هوفمان مقارناً بين القرآن والكتب السابقة: «والمسلم يؤمن أن القرآن كلمة الله، وأنه ليس مخلوقاً من المخلوقات، وأن الله أوحاه إلى محمد بلسان عربي مبين في تلك الفترة الزمنية المحددة، وهو معجزة الإسلام الوحيدة، والدليل القاطع والبرهان الساطع على نبوة محمد.

ليس القرآن إذن كالعهد القديم أو الجديد، حيث يقُصُّ فيهما شخص ما حديثاً غير مباشر عن شخص أو شيء أو عن الله. . . أما القرآن، فإن القاصّ الذي يقص أحسن القصص هو الله مباشرةً سبحانه، يُخبر الله فيه عمّن يشاء أو عمّا يشاء، كما يُعلّمنا أن ننزّهه عن الجنس والنظير والشبيه. . . فيخبر عن نفسه بضمير المفرد المتكلم، وضمير المتكلم الجمع، وضمير الغائب المفرد، لكي نظل واعين بمسألة تَنزُّهه سبحانه عن التجسيد أو التشخيص»[(٣)].

أما المستشرق الفرنسي موريس بوكاي فقد كان من أكثر المستشرقين المسلمين اهتماماً بمسألة مقارنة القرآن الكريم بالكتب السابقة وبالنظريات العلمية الحديثة، كما يشير إلى تجربته في هذا المجال بقوله:

«لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية. فلم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى

---

(١) رجال ونساء أسلموا: عرفات كامل العشي (٨/ ١٠٠).

(٢) المرجع السابق (٨/ ١٠٩).

(٣) الإسلام كبديل، ص٤١.

الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقة تماماً للمعارف العلمية الحديثة. وذلك في نص كُتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً. في البداية لم يكن لي أي إيمان بالإسلام. وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة.

إن أول ما يثير الدهشة في روح من يواجه مثل هذا النص لأول مرة هو ثراء الموضوعات المعالجة، فهناك الخلق، وعلم الفلك، وعرض لبعض الموضوعات الخاصة بالأرض، وعالم الحيوان، وعالم النبات، والتناسل الإنساني. وعلى حين نجد في التوراة أخطاء علمية ضخمة، لا نكتشف في القرآن أي خطأ.

وقد دفعني ذلك لأن أتساءل: لو كان كاتب القرآن إنساناً، كيف استطاع في القرن السابع من العصر المسيحي أن يكتب ما اتضح أنه يتفق اليوم مع المعارف العلمية الحديثة؟ ليس هناك أي مجال للشك، فنص القرآن الذي نملك اليوم هو فعلاً نفس النص الأول... ما التعليل الإنساني الذي يمكن أن نعطيه لتلك الملاحظة؟... في رأيي ليس هناك أي تعليل، إذ ليس هناك سبب خاص يدعو للاعتقاد بأن أحد سكان شبه الجزيرة العربية... استطاع أن يملك ثقافة علمية تسبق بحوالي عشرة قرون ثقافتنا العلمية فيما يخص بعض الموضوعات»(١).

والذي يلاحظ من هذا النص أن بوكاي لخص أهم النتائج التي خلص بها من دراسة النصوص القرآنية المتعلقة بالعلوم المادية، وأجملها في نتيجتين، هما:

١ ـ أن القرآن محفوظ، لم يحصل به اختلاف عن النص الأول. عبَّر عن هذه النتيجة بقوله: «ليس هنا مجال للشك، فنص القرآن الذي نملك اليوم هو فعلاً النص الأول».

٢ ـ أن القرآن ليس من عند بشر. وقد عبَّر عن هذه النتيجة من خلال مقدمته: «لو كان كاتب القرآن إنساناً، كيف استطاع...».

---

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، ص١٤٥ ـ ١٥٠.

المطلب الثاني

المصادر الجاهلية

ادعى جمع من المستشرقين أن النبي ﷺ قد استقى جزءاً من مادة الوحي من المصادر الجاهلية، وقد حصر هؤلاء هذه المصادر في الشعائر والعبادات الجاهلية، ومنهم جعل الحنيفية التي كان عليها بعض الجاهليين الذين بقوا على ملة إبراهيم مصدراً من مصادر الدين الإسلامي، وأحال بعضهم الآخر إلى الشعر الجاهلي وما جاء فيه زاعمين أن النبي ﷺ قد اقتبس منه في مواضع من القرآن.

وتفصيل هذه الدعوى على النحو التالي:

أولاً: الشعائر والعبادات الجاهلية:

لقد حاول بعض المستشرقين أن يجعلوا من رسالة الإسلام امتداداً ـ مع بعض التهذيب ـ للحركة الدينية التي كانت سائدة في الجزيرة العربية، ذلك أن مجتمع العرب ـ في نظرهم ـ قبل الإسلام كانت تتوافر فيه كل مقومات الحياة الدينية التي جاءت بها رسالة الإسلام من اعتقاد وتشريع وأخلاق.

ففي مجال الاعتقاد زعم هؤلاء أن العرب عرفوا التوحيد، ودانوا به، ولم يشركوا في عبادة الله، وفي مجال العبادات زعموا أن العرب كانوا يصلُّون، ويحجُّون ويعتمرون، وفي مجال الأخلاق زعموا أنهم اتصفوا بالعفة والشجاعة، والكرم وإغاثة الملهوف، وذلك هو ما جاء به الإسلام، فالأمر لا يعدو إذاً أن يكون القرآن نتاج هذه الحياة الراقية، وأن محمداً ﷺ ـ وهو أحد المكيين ـ لا يعدو أن يكون زعيماً استلهم حياة الجاهلية في عصره، وقدمها في كتابه الذي قال فيه: إنه وحي، وإنه رسول الله.

يقول المستشرق شاخت عن الشريعة الإسلامية: «فهي تشتمل على عناصر من شرائع العرب في الجاهلية، وعناصر عديدة مأخوذة من شعوب البلاد التي فتحها المسلمون»[١].

وقال أيضاً: «أما القسم الثاني الكبير ما ينبغي أن نسميه قانون العقوبات فينتمي إلى باب رد المظالم، وهو باب يجمع بين القانون المدني وقانون العقوبات، وقد احتفظ به التشريع الإسلامي من القانون الذي كان سائداً أيام الجاهلية»[٢].

ويقول جولدتسهر عن الحج: «وهذا الركن الأخير احتفظ به محمد عن الوثنية لكنه جعله متفقاً والتوحيد»[٣].

ويقول الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله عن المستشرق الفرنسي رينان: «ففي مقال له أي: (رينان) عن (محمد ومصادر الإسلام): عرض لنا صورة رائعة للجزيرة العربية في القرن السادس بعد الميلاد، وبدلاً من هذا الشعب المشرك الذي تعرفه الدنيا، وضع لنا شعباً آخر لم يعرف في حياته عن الله تعدداً ولا تنوعاً، وإنما عرفه كإلٰه واحد لم يلد ولم يولد، كما نجح هذا المستشرق في إبراز الذوق الأدبي الرفيع لهذا الشعب، ونظرته الواقعية القوية، وفي إغفال سائر الصفات الأخرى التي لا تشرفه، فبدلاً من هذه النزعة المادية الطاغية الفاسدة التي لا تلتفت إلى أي تفكير ينتمي إلى الحقائق السامية، رسم لنا مجتمعاً في أوج حماسه الديني التقت فيه جميع الديانات، وجميع الحضارات، بالإضافة إلى أن الدين كان شغله الشاغل، وعلى هذا المنوال لا تعدو أن تكون رسالة محمد ﷺ امتداداً للحركة الدينية التي سارت في عصره دون أن يسبقها محمد في أي جديد»[٤].

وفي معرض رد هذه الدعوى يقال:

١ ـ في مجال التوحيد وعبادة الله وحده، وهو الركن الأهم والأبرز في معارضة النبي ﷺ لأهل الجاهلية: يتساءل الباحث أكان العرب في الجزيرة وما

---

(١) تراث الإسلام (٣/ ١٠).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٢١).

(٣) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص٢٤.

(٤) المدخل إلى دراسة القرآن الكريم، ص١٢٩، ١٣٠ بتصرف، دار القلم، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.

حولها موحدين حقاً لا يشركون مع الله آلهة أخرى؟ وهل يستقيم هذا الادعاء وما عرفه القاصي والداني من تعدد أصنامهم التي يعبدونها أفراداً بتعدد أشخاصهم، وسماءً بتعدد قبائلهم، حتى وضع حول الكعبة ستون وثلاثمائة نصب، دخل النبي ﷺ مكة عام الفتح وهي كذلك، فجعل يطعنها بعود في يده، ويقول: «**جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً**»[1] كما ذكر القرآن ـ في مجال الإنكار عليهم ـ أسماء كبار أصنامهم: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٣].

وإذا كان هؤلاء موحدين ـ كما يزعم رينان ـ ففيم كان استغرابهم، ونفورهم وغضبهم عندما بعث النبي ﷺ يدعوهم إلى كلمة التوحيد ـ لا إله إلا الله ـ فقالوا منكرين: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾﴾ [ص: ٥ ـ ٧].

فهذه آيات ثلاث من سورة (ص) وهي مكية، تبين الأولى منها: كيف أنكروا دعوة النبي ﷺ إلى التوحيد، وتصرح الثانية بإصرارهم على الشرك والصمود في وجه دعوة التوحيد، وتفيد الثالثة تقادم عهدهم بهذا الشرك.

أفبعد هذا يزعم زاعم أن التوحيد كان دين أهل مكة، وأن القرآن جاء امتداداً لتقرير تلك العقيدة؟!.

٢ ـ وفي مجال العبادات يذكر القرآن الكريم نمطاً من تلك العبادة في صلاة المشركين التي كانت خليطاً من التصفيق والصفير والضجيج واللهو، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥]، فهل تلك هي الصلاة التي شرعها الإسلام في خشوعها وذكرها ودعائها وتجردها لله تعالى؟.

وفي مجال الحج: كانت نداءات الشرك يضج بها المشركون حول الكعبة،

---

(١) ذكر ذلك عبد الله بن مسعود رضي الله عنه فيما أخرجه عنه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾﴾ حديث رقم (٤٧٢٠).

تعلن الكفر الصراح، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك، قال: فيقول رسول الله ﷺ: «**ويلكم قدٍ قدٍ**»[١]، فيقولون: إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك، يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت[٢].

٣ ـ وفي مجال التشريع الذي يقوم عليه بناء المجتمع، وأساسه الأسرة، كان النكاح في الجاهلية في أكثر صوره ضروباً من الزنا الصريح، فجاء الإسلام فمحا كل صوره وأبطلها ولم يستبق منها إلا الصورة النقية المثلى التي شرعها الله تعالى لعباده.

فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «أن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته، فيصدقها ثم ينكحها، ونكاح آخر، كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر: يجتمع الرهط ما دون العشرة، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت، ومر ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت، فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحبت باسمه، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، ونكاح الرابع: يجتمع الناس الكثير، فيدخلون على المرأة لا تمنع من جاءها، وهن البغايا: كن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جُمعوا لها، ودعوا لهم القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاطَتْه به ودعي ابنَه، لا يمتنع من ذلك، فلما بُعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله، إلا نكاح الناس اليوم»[٣].

---

(١) أي: كفاكم هذا الكلام واقتصروا عليه ولا تزيدوا. انظر: لسان العرب (٣/٣٤٧).

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب التلبية وصفتها ووقتها، حديث رقم (١١٨٥).

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب من قال: لا نكاح إلا بولي، حديث رقم (٥١٢٧).

هذا إلى ما حكاه القرآن من وأد الأطفال ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأنعام: ١٤٠]، وابتزاز المهور وإرث النساء وعضلهن كرهاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾﴾ [النساء: ١٩]، وظلم اليتامى وأكل أموالهم: ﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾﴾ [النساء: ٢]، والجشع وإهمال الفقراء وازدراء الضعفاء: ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر: ١٧ ـ ٢٠].

٤ ـ أما الكرم والشجاعة والنجدة وبقية قيم المروءة العربية المشهورة، فلم يكن منطلقها إيماناً أو ديناً كما يزعم المستشرقون، وإنما كانت ضروباً من المباهاة والتفاخر؛ لاستجلاب الثناء وحسن السمعة والذكر، وإلا فبجانبها كان الظلم والبغي والعدوان كما مر.

كانت تلك حياتهم في مجالاتها المذكورة، فجاء القرآن فدعا إلى: نقاء التوحيد، وسلامة العبادة، وعدالة التشريع، وطهارة الأخلاق.

أفبعد هذا كله يقال: إن البيئة الوثنية كانت مصدراً للقرآن في العقيدة والتشريع والأخلاق؟[1].

ثانياً: الحنيفية:

ذهب بعض المستشرقين ومنهم تسدال ومستر كانون إلى أن مصدر القرآن هو الحنيفية ورجالها قبل البعثة المحمدية، بدليل أن هناك توافقاً بين أحكام القرآن وبين ما يدعو إليه الحنفاء، في أمور كثيرة منها:

توحيد الله في ألوهيته، والحديث عن الجنة والنار، والإيمان بالبعث والنشور والحشر والحساب، وأمور القيامة وغير ذلك، وقد زعم شبرنجر أن أفكار محمد ﷺ لا تخرج عن الأفكار التي كان يدعو إليها زيد بن عمرو بن نفيل

(١) انظر: مصدر القرآن الكريم في رأي المستشرقين: د. محمد السيد راضي جبريل، ص٤٦ ـ ٥٢.

أحد هؤلاء الحنفاء، وللمستشرقين بحوث في أصلها ومعناها وفي ورودها عند العرب قبل الإسلام[١].

وقال المستشرق الصهيوني المعروف برنارد لويس: «تروي السُّنَّة بعض الأخبار عن الحنفاء الذين لم يرتضوا دين قومهم الوثني، ولم يقتنعوا لا بالنصرانية ولا باليهودية، فيجب أن نبحث عن أصول محمّد عند هؤلاء»[٢].

الرد على هذه الدعوى:

قبل أن نرد على الدعوى السابقة من المهم أن نتبين معنى الحنيفية ومفهومها في اللغة والشرع.

فالحنيف في اللغة: المائل عن الشيء. والحنيف كذلك المائل من خير إلى شر أو من شر إلى خير؛ ومنه أخذ الحنف.

والحنيف في الشرع: المسلم الذي يتحنف عن الأديان الباطلة؛ أي: يميل عنها إلى الحق. قال أبو عبيدة في قوله ﷻ: «قل بل ملة إبراهيم حنيفاً»، قال: من كان على دين إبراهيم، فهو حنيف عند العرب، وكان عبدة الأوثان في الجاهلية يقولون: نحن حنفاء على دين إبراهيم، فلما جاء الإسلام سموا المسلم حنيفاً، وقال الأخفش: الحنيف المسلم، وكان في الجاهلية يقال: من اختتن وحج البيت حنيف لأن العرب لم تتمسك في الجاهلية بشيء من دين إبراهيم غير الختان وحج البيت، فكل من اختتن وحج قيل له حنيف، فلما جاء الإسلام تمادت الحنيفية، فالحنيف المسلم.

وقال أبو منصور: معنى الحنيفية في الإسلام الميل إليه، والإقامة على عقده. والحنيف: الصحيح الميل إلى الإسلام والثابت عليه[٣].

يقول الشيخ محمد رشيد رضا: «وإنما أطلق على إبراهيم؛ لأن الناس في

---

(١) انظر: دائرة المعارف الإسلامية (٨/ ١٢٤ ـ ١٣٠)، وآراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره (١/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤)، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٢/ ٢٩).

(٢) Lewis, Bernard. The Arabs in History, p.39، نقلاً عن: الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي: للمطبقاني، ص١٣٧. واقرأ أيضاً ما جاء في: مدخل إلى القرآن الكريم: للدكتور محمد عبد الله دراز، ص١٢٩ ـ ١٣١.

(٣) انظر: تهذيب اللغة (٥/ ٧١)، الصحاح (٤/ ١٣٤٧)، النهاية في غريب الأثر (١/ ٤٥١)، لسان العرب (٩/ ٥٦) وما بعدها.

عصره كانوا على طريقة واحدة وهي الكفر، فخالفهم كلهم وتنكب طريقتهم»[١].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحنيفية في عدة مواضع، حيث وردت لفظة «حنيفاً» في عشرة مواضع من القرآن الكريم[٢]. ووردت لفظة «حنفاء» في موضعين منه[٣]. وبعض الآيات التي وردت فيها آيات مكية، وبعضها آيات مدنية. وقد نصَّ تعالى في بعض منها على إبراهيم عليه السلام، وهو على الحنيفية، ولم ينص في مواضع منها على اسمه.

وفي قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: ١٣٥]. ذكر ابن جرير الطبري رحمه الله عند هذه الآية، أربعة أقوال لأهل التفسير في معنى الحنيف، وهي:

١ ـ «الحنيف»: الحاج. وقيل: إنما سمي دين إبراهيم الإسلام «الحنيفية»؛ لأنه أول إمام ألزم العباد ـ الذين كانوا في عصره، والذين جاؤوا بعده إلى يوم القيامة ـ اتباعه في مناسك الحج، والائتمام به فيه. قالوا: فكل من حج البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملته، فهو «حنيف»، مسلم على دين إبراهيم.

٢ ـ أن «الحنيف» هو المتبع لشرع إبراهيم عليه السلام وما كان عليه.

٣ ـ أن «الحنيف» هو كل من اختتن، وإنما سمي دين إبراهيم «الحنيفية»؛ لأنه أول إمام سن للعباد الختان، فاتبعه من بعده عليه. قالوا: فكل من اختتن على سبيل اختتان إبراهيم، فهو على ما كان عليه إبراهيم من الإسلام، فهو «حنيف» على ملة إبراهيم.

٤ ـ أن «الحنيف» هو المُخلص دينه لله وحده[٤].

ولكن ابن جرير رحمه الله يرى أن الحنيفية لا تقتصر على واحد من هذه الأمور بل تشملها جميعاً، ولهذا يقول: «الحنف عندي، هو الاستقامة على دين إبراهيم، واتباعه على ملته. وذلك أن الحنيفية لو كانت حج البيت، لوجب أن يكون الذين كانوا يحجونه في الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء. وقد نفى الله أن يكون

(١) تفسير المنار (١/ ٣٩٥)، وانظر: فتح الباري (١/ ٤٩).

(٢) انظر في هذه المواضع سور: البقرة: ٣٢، آل عمران: ٦٧، ٩٥، النساء: ١٢٥، الأنعام: ٧٩، ١٦١، يونس: ١٠٥، النحل: ١٢٠، ١٢٣، الروم: ٣٠.

(٣) انظر سورة: الحج: ٣١، البينة: ٥.

(٤) جامع البيان: للطبري (٣/ ١٠٤ ـ ١٠٧).

ذلك تحنفاً بقوله: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]. فكذلك القول في الختان. لأن «الحنيفية» لو كانت هي الختان، لوجب أن يكون اليهود حُنفاء. وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧].

فقد صحّ إذاً أن «الحنيفية» ليست الختان وحده، ولا حجَّ البيت وحده، ولكنه هو ما وصفنا: من الاستقامة على ملة إبراهيم، واتباعه عليها، والائتمام به فيها»(١).

وقد جاء في السُّنَّة الإشارة إلى الحنيفية، ففي صحيح مسلم: «أن رسول الله ﷺ، قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم، مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبداً حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً..**»(٢). كما أخرج الإمام أحمد في مسنده والطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «**الحنيفية السمحة**»(٣)؛ أي: السهلة، والمقصود بالأديان الشرائع(٤).

الأحناف في الجاهلية:

يذكر أهل السير أن الجاهليين جميعاً كانوا قبل عمرو بن لحي الخزاعي

---

(١) المرجع السابق (٣/ ١٠٧ ـ ١٠٨).

(٢) كتاب: الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار (٤/ ٢١٩٧) حديث رقم (٢٨٦٥).

(٣) مسند الإمام أحمد (٤/ ١٧)، والمعجم الكبير للطبراني (١١/ ٢٢٧) رقم (١١٥٧٢)، وقال محقق المسند: صحيح لغيره، محمد بن إسحاق مدلس وقد عنعن، وداود بن الحصين ثقة مشهور لكن له غرائب تستنكر. وأخرجه عبد بن حميد (٥٦٩)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢٨٧) من طريق يزيد بن هارون، بهذا الإسناد. وعلَّقه البخاري في «صحيحه» (١/ ٩٣) في كتاب الإيمان، باب الدين يُسر، وحسَّن الحافظ إسناده في «الفتح». وله شاهد بسند قوي من حديث عائشة مرفوعاً: «**إني أرسلت بحنيفية سمحة**» المسند (١٦/ ١١٦ و٢٣٣)، وآخر من حديث أبي أمامة عند أحمد (٥/ ٢٦٦)، والطبراني (٧٨٦٨)، وثالث من حديث جابر عند الخطيب (٧/ ٢٠٩)، وابن النجار في ذيل تاريخ بغداد (٣/ ٥) وسنده ضعيف، ورابع عن حبيب بن أبي ثابت مرسلاً عند ابن سعد في الطبقات (١/ ١٩٢).اهـ. وقال الألباني في صحيح الأدب المفرد، ص١٢٢: حسن لغيره.

(٤) فتح الباري (١/ ١٣٤).

على دين إبراهيم عليه السلام. وكانوا موحدين يعبدون الله جل جلاله وحده، لا يشركون به ولا ينتقصونه. فلما جاء عمرو بن لحي، أفسد العرب، ونشر بينهم أضاليل عبادة الأصنام، ولهذا قال النبي ﷺ فيه كما في صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها: «... **ولقد رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، حين رأيتموني تأخرت، ورأيت فيها عمرو بن لحي وهو الذي سيَّب السوائب**»[1]، وعند مسلم من رواية أبي هريرة: «**رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قُصْبه في النار، وكان أول من سيب السيوب**»[2]. فكان عمرو بن لحي داعية الوثنية عند العرب والمبشر بها ومضلهم الأول.

وقد ذكر أهل السير في سبب وقوع العرب في عبادة الأصنام أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره، فلما قدم مآب من أرض البلقاء، رأى أهلها يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: ألا تعطونني منها صنماً، فأسير به إلى أرض العرب، فيعبدوه؟ فأعطوه صنماً يقال له: هبل، فقدم به مكة، فنصبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[3].

وذكر ابن إسحاق سبباً آخر في تحول العرب إلى عبادة الأوثان، وهو: أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم، حين ضاقت عليهم، والتمسوا الفُسح في البلاد، إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، فحيثما نزلوا وضعوه، فطافوا به كطوافهم بالكعبة، حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم، حتى خلف الخلوف، ونسوا ما كانوا عليه، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره، فعبدوا الأوثان، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات.

فكانت كنانة وقريش إذا أهلُّوا قالوا: «لبيك اللَّهُمَّ لبيك، لبيك لا شريك

---

(١) كتاب: أبواب العمل في الصلاة، باب إذا انفلتت دابته في الصلاة (٢/ ٦٥) حديث رقم (١٢١٢).

(٢) كتاب الجنة ونعيمها وصفة أهلها، باب النار يدخلها الجبارون والنار يدخلها الضعفاء (٤/ ٢١٩٢) حديث رقم (٢٨٥٦)، وقوله ﷺ: «**عمرو بن عامر الخزاعي...**» لا يعارض ما تقدم في رواية البخاري فإن النسب هنا إلى جده من أمة عمرو بن حارثة بن عمرو بن عامر وسبب هذه النسبة هو أن جده لأمه قام بتبنِّيه كما ذكر الحافظ ابن حجر في الفتح (٦/ ٥٤٨ ـ ٥٤٩).

(٣) سيرة ابن هشام (١/ ٧٢).

لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك». فيوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم، ويجعلون ملكها بيده. وفي هذا يقول الله تبارك وتعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يوسف: ١٠٦]؛ أي: ما يوحدونني لمعرفة حقي إلا جعلوا معي شريكاً في خلقي[(١)].

وهكذا تحولت غالبية العرب من التوحيد إلى الشرك، وتناست معها كثيراً من شعائر الدين التي جاء بها إبراهيم وابنه اسماعيل عليهما السلام إلا فئام قليلة بقوا على بعض شعائر التوحيد لا كلها واعتزلوا مظاهر الشرك التي كانت عليها سائر العرب وهم المعروفون بالأحناف.

وقد ذكر أهل السير أن من الشعائر التي بقي عليها الحنفاء من عهد إبراهيم عليه السلام: تعظيم البيت الحرام، والطواف به، والحج والعمرة والوقوف على عرفة والمزدلفة، وهدي البدن، والإهلال بالحج والعمرة، مع إدخالهم فيه ما ليس منه[(٢)].

كما وافق الأحناف ـ في بعض ما أثر عنهم ـ موافقة أصول دعوة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، في الألوهية والتوحيد، والإيمان بالبعث، واليوم الآخر، وأن رسولاً سيبعث في آخر الزمان، ويخرج الله به الناس من الظلمات إلى النور، ومن أشهر هؤلاء الأحناف، أربعة نفر عرفوا بذلك عند العرب، وهم:

١ ـ قسّ بن ساعدة الإيادي: وكان خطيباً، حكيماً، عاقلاً، له نباهة وفضل، وكان يدعو إلى توحيد الله، وعبادته، وترك عبادة الأوثان، كما كان يؤمن بالبعث بعد الموت، وقد بشّر بالنبي ﷺ.

وقد روى أبو نعيم في دلائل النبوة وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم وفد إياد على رسول الله ﷺ قال لهم رسول الله ﷺ: «**أيكم يعرف قس بن ساعدة الإيادي؟**، قالوا: كلنا نعرفه يا رسول الله، قال: **فما فعل؟**، قالوا: مات يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: **رحم الله قس بن ساعدة ما أنساه، وكأني أنظر إليه بسوق عكاظ في الشهر الحرام على جمل له أورق أحمر وهو يخطب الناس،**

---

(١) سيرة ابن إسحاق، ص١٢٠، وسيرة ابن هشام (١/ ٧٢ ـ ٧٣).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ٧٢).

ويتكلم بكلام عليه حلاوة وهو يقول: أيها الناس اجتمعوا واستمعوا واحفظوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، ليل داج، وسماء ذات أبراج، بحار تزخر، ونجوم تزهر، ومطر ونبات، وآباء وأمهات، وذاهب وآت، وضوء وظلام، وبر وآثام، لباس ومركب، ومطعم ومشرب، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور، أقسم قس قسماً حقاً، لئن كان في الأرض رضا ليكون سخطاً، إن لله ديناً هو أحب الأديان إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام هناك فأقاموا، أم تركوا هناك فناموا؟ ثم قال: أقسم قس قسماً براً لا إثم فيه ما لله على الأرض دين هو أحب إليه من دين أظلكم إبانه، وأدرككم أوانه، طوبى لمن أدركه فاتبعه، وويل لمن أدركه ففارقه، ثم أنشأ يقول:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر

لما رأيت موارداً ... للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها ... تمضي الأصاغر والأكابر

لا يرجع الماضي إلي ... ولا من الباقين غابر

أيقنت أني لا محالة ... حيث صار القوم صائر

فقال رسول الله ﷺ: يرحم الله قس بن ساعدة، لأرجو أن يأتي يوم القيامة أمة وحده»[1].

---

(١) دلائل النبوة: لأبي نعيم، ت: د. محمد رواس قلعه جي وعبد البر عباس (١/ ١٠٤ ـ ١٠٥)، وقال المحقق في الموضع السابق: «قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٤١٨): أخرجه الطبراني والبزار وفيه محمد بن الحجاج اللخمي وهو كذاب. وقال ابن حجر في الإصابة (٣/ ٢٦٥) طرقه كلها ضعيفة. وقال ابن عرّاق في تنزيه الشريعة (١/ ٢٤١) وقال السيوطي في الخصائص: ثم وقفت عليه من حديث سعد بن أبي وقاص أخرجه الإمام محمد بن داود الظاهري في كتاب الزهرة له فقال: حدثنا أحمد بن عبيد النحوي ثنا علي بن محمد المدائني ثنا محمد بن عبد الله بن أخي الزهري عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن سعد فذكره، وهو أمثل الطرق، فإن ابن أخي الزهري فمن فوقه من رجال الصحيحين، وعلي المدائني ثقة، وأحمد بن عبيد قال فيه ابن عدي: صدوق له مناكير، فلو وقف الحافظ ابن حجر على هذه الطريق لحكم للحديث بالحسن لما تقدم من الطرق، خصوصاً الطريق الذي فيه زيادات الزهد لابن حنبل فإنه مرسل قوي الإسناد، فإذا ضم إلى هذه الطريق الموصولة التي ليس فيها واه ولا متهم حكم بحسنه دون توقف». اهـ. وأخرجه ابن سعد في الطبقات (١/ ٣١٥)، وانظر تفصيل ما ورد من أخبار قس بن ساعدة في: البداية والنهاية: لابن كثير (٣/ ٢٩٩) وما بعدها.

وقد ذهب المستشرق «شبرنجر» إلى أن قساً كان من «الركوسية»، وهم فرقة عرفهم أهل اللغة بأنهم بين النصارى والصابئين[١]، شملت جماعة من الحائرين في أمر دينهم، ولذلك عمدوا إلى السياحة والترهب والانزواء[٢]. وقد حسبهم العرب نصارى، فأدخلوهم فيهم في أثناء كلامهم على هؤلاء[٣].

ويرى «لامنس» أنه لو كان قس شخصية تاريخية حقاً، فإن زمانه لا يمكن أن يكون في أيام الرسول أو في أيام مقاربة من أيامه. إذ لا يعقل عنده أن يتكون هذا القصص الذي صير قساً شخصية من الشخصيات الخرافية، لو كان من المعاصرين أو المقاربين له. ثم إن إياداً لم تكن في أيام الرسول كتلة واحدة، حتى ينسب قس إليها. فلا بد إذن أن تكون أيام هذا الرجل بعيدة بعض البعد عن أيام الرسول[٤].

غير أن حجج «لامنس» المذكورة لا يمكن أن تكون سنداً يؤيد ادعاءه في أن قساً كان شخصية خرافية، أو أنه كان رجلاً حقاً، ولكنه كان بعيد العهد عن الرسول ﷺ. فقد روى الإخباريون قصصاً كثيراً عن سلمان الفارسي وعن غيره من الصحابة، لا يقل نسيجاً عن نسيج قصص قس، فهل يتخذ هذا القصص حجة لإنكار شخصية سلمان وغيره ممن ورد هذا القصص عنهم؟ وهل يجوز أن نقول إن سلمان إن كان شخصاً حقاً فوجب أن تكون أيامه بعيدة عن أيام الرسول ﷺ.

كما أن لدى الرواة أبياتاً ينسبونها إلى بعض الشعراء الجاهليين، هم: (الأعشى، والحطيئة، ولبيد) ذُكر فيها اسم قس. وقد أشيد فيها بفصاحته وبلاغته وحكمته، حتى جعل لبيد لقمان دون قس في الحكم.

ومن أقوال الشعراء السابقين في قس بن ساعدة، ما ذكره الأعشى في قصيدة له:

وأحلم من قسّ وأجرى من الّذي ... بذي الغيل من خفّان أصبح حادرا

وقال الحطيئة:

وأقول من قسّ وأمضي كما مضى ... من الرّمح إن مسّ النّفوس نكالها

---

(١) لسان العرب (٦/ ١٠١).

(٢) تاج العروس (٤/ ١٣٤).

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٢/ ٤٣) نقلاً عن: Sprenger, Leben, I, S. 43.

(٤) المرجع السابق (١٢/ ٤٤).

وقال لبيد:

وأخلف قسّاً ليتني ولعلّني ... وأعيا على لقمان حكم التّدبّر

وأشار بذلك إلى قول قس بن ساعدة:

وما قد تولّى فهو قد فات ذاهباً ... فهل ينفعني ليتني ولعلّني[١]

فورود اسم «قس» في هذا الشعر وأمثاله، وورود اسمه في الحديث وفي الأخبار، هو تعبير عن رأي أهل الجاهلية والإسلام في شخصية حقيقية لخطيب مفوه عد في نظرهم المثل الأعلى في الخطابة[٢].

٢ ـ زيد بن عمرو بن نفيل: ابن عم الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووالد الصحابي الجليل سعيد بن زيد، أحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان حنيفاً على دين الخليل إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وكان لا يأكل ما ذبح على الأنصاب، وقد التقى بالنبي ﷺ وتوفي قبل البعثة.

وقد عقد الإمام البخاري في صحيحه باباً بعنوان: «حديث زيد بن عمرو بن نفيل» وذكر فيه ما يلي:

أ ـ لقاء النبي ﷺ بزيد بن عمرو بن نفيل قبل نزول الوحي وما جرى فيه، كما جاء في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أن النبي ﷺ لقي زيد بن عمرو بن نفيل بأسفل بلدح[٣]، قبل أن ينزل على النبي ﷺ الوحي، فقُدمت إلى النبي ﷺ سفرة، فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم، ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه، وأن زيد بن عمرو كان يعيب على قريش ذبائحهم، ويقول: الشاة خلقها الله، وأنزل لها من السماء الماء، وأنبت لها من الأرض، ثم تذبحونها على غير اسم الله، إنكاراً لذلك وإعظاماً له»[٤].

ب ـ كما أورد البخاري رحمه الله في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما قصة تحنف زيد بن عمرو وانتسابه لدعوة إبراهيم عليه السلام، وفيها: «أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين، ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم، فقال: إني

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٥/ ٤١٣).

(٢) انظر: المفصل في تاريخ العرب (١٢/ ٤٤).

(٣) بلدح: واد في طريق التّنعيم إلى مكة. انظر: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: لعبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (١/ ٢٧٣).

(٤) كتاب: مناقب الأنصار، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل (٥/ ٤٠) رقم (٣٨٢٦).

لعلي أن أدين دينكم، فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً، وأنى أستطيعه، فهل تدلني على غيره، قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهودياً، ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله، فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله، ولا من غضبه شيئاً أبداً، وأنى أستطيع، فهل تدلني على غيره، قال: ما أعلمه إلا أن يكون حيفاً، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم عليه السلام خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللَّهُمَّ إني أشهد أني على دين إبراهيم»[(١)].

ج - وروى البخاري تعليقاً عن أسماء بنت أبي بكر قالت: «رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائماً مسنداً ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموؤودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته: لا تقتلها، أنا أكفيك مؤنتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤنتها»[(٢)].

ومما جاء عن زيد بن عمرو بن نفيل في إنكار ما كان عليه قومه، قوله:

أرباً واحداً أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني عمرو أدير
ولا غنماً أدين وكان رباً لنا ... في الدهر إذ حلمي يسير
عجبت وفي الليالي معجبات ... وفي الأيام يعرفها البصير
بأن اللَّه قد أفنى رجالاً ... كثيراً كان شأنهم الفجور
وأبقى آخرين ببر قوم ... فيربك منهم الطفل الصغير
وبينا المرء يعثر ثاب يوماً ... كما يتروح الغصن النضير[(٣)]

---

(١) الكتاب والباب السابقين، بنفس الجزء والصفحة، حديث رقم (٣٨٢٧).

(٢) الكتاب والباب السابقين (٥/ ٤١) حديث رقم (٣٨٢٨).

(٣) سيرة ابن إسحاق، ص١١٧، وسيرة ابن هشام (١/ ١٠٨ ـ ١٠٩).

كما روى ابن إسحاق أنه كان يقول: «اللَّهُمَّ لو أني أعلم أحب الوجوه إليك لعبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته»[(١)]، وروى ابن سعد والفاكهي عن عامر بن ربيعة أن زيداً قال له: «إني خالفت قومي واتّبعت ملة إبراهيم، وإسماعيل، وما كانا يعبدان، وكانا يصليان إلى هذه القبلة، وأنا أنتظر نبياً من بني إسماعيل يبعث، ولا أراني أدركه، وأنا أؤمن به وأصدقه، وأشهد أنه نبي، وإن طالت بك حياة فأقرئه مني السلام، قال عامر: فلما أسلمت أعلمت النبي ﷺ بخبره، فردّ عليه السلام، وترحم عليه، وقال: **لقد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً**»[(٢)]. وروي أنه ﷺ سئل عنه فقال: «**يبعث يوم القيامة أمة وحده**»[(٣)].

٣ ـ ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزّى: ابن عم السيدة خديجة رضي الله عنها ـ وكان ممن كره عبادة الأوثان، وما كان عليه قريش من الضلال، فخرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل إلى الشام يبحثان عن دين تركن إليه نفوسهما، فأما زيد فقد انتهى أمره إلى الحنيفية ـ كما أسلفنا ـ واتّبع دين إبراهيم، وأما ورقة فأعجبه دين النصرانية فتنصّر، ولعله لقي من الرهبان من بقي على دين عيسى الحق، ولم يبدل، ولم يحرف، فقد كان موحّداً، وبشر بالنبي ﷺ[(٤)].

وقد تقدم الحديث مفصلاً حول ورقة بن نوفل ورد دعوى المستشرقين في تلقي النبي ﷺ منه في المطلب السابق.

٤ ـ أمية بن أبي الصلت: الشاعر الجاهلي وسيأتي الحديث عنه ضمن الشعر الجاهلي.

فهؤلاء أشهر من عرف عنهم التحنف في الجاهلية واعتزال مظاهر الشرك في تلك الفترة، ومنهم من انتسب إلى ملة إبراهيم عليه السلام ومنهم من دخل في النصرانية غير المحرفة.

---

(١) سيرة ابن إسحاق، ص١١٦.

(٢) الطبقات الكبرى: لابن سعد (١/ ١٦١)، وأخبار مكة في قديم الدهر وحديثه: محمد بن إسحاق الفاكهي، ت: د. عبد الملك بن دهيش (٤/ ٥٣).

(٣) أخرجه الحافظ أبي يعلى في مسنده: ت: حسين سليم أسد (٤/ ٤١) حديث رقم (٢٠٤٧)، وحسَّن إسناده الألباني في صحيح السيرة النبوية، ص٩٤.

(٤) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسُّنَّة (١/ ٨٤).

وفي الجملة يمكن القول عن هؤلاء إنهم كانوا أناساً مصلحين، وقد رأوا أن العقل لا يقر التقرب إلى أحجار وإلى التبرك بها والذبح لها؛ لأنها حجارة لا تعي ولا تفهم وليس في إمكانها أن تسمع أو تجيب فضلاً عن أن تتخذ آلهة ولذلك نفروا منها[1]. ومنهم من آمن بدين كالنصرانية، ولكنه لم يكن على نصرانية قومه؛ لأن عقله لا يقر التقرب إلى المادة مثل الصليب والصور والتماثيل، ومنهم من أبعدته مثل هذه العبادة عن النصرانية، فصيرته حائراً في أمره من الديانات، يعتقد بإلـٰه، ولكنه لم يستقر على دين. عائب على قومه من المشركين ما هم عليه من جهل ومن عبادة أحجار ومن كل تقرب إليها[2].

ومن المهم أن يعلم في سياق الحديث عن تاريخ الأحناف في الجاهلية أنه ليس في أيدينا اليوم مورد يفيد بوجود تكتل وتنظيم في الجاهلية لمن أطلق الإخباريون عليهم لفظة: «الحنفاء» يميزهم عن غيرهم من أهل الأديان.

لذلك، لا نستطيع أن نقول إن الحنيفية كانت فرقة تتبع ديناً بالمعنى المفهوم من الدين، كدين اليهودية أو النصرانية، لها أحكام وشريعة تستمد أحكامها من كتب منزلة مقدسة، ومن وحي نزل من السماء، على نحو ما نفهمه من الأديان السماوية. لذلك، فلا يمكن إقرار رأي من ذهب إلى أنهم كانوا جماعة دينية منظمة، كرأي المستشرق «شبرنجر»[3].

كما ونجد في السيرة النبوية أن الرسول ﷺ كان يعدُّ الرهبانية مخالفة للحنيفية، إذ ورد أن أبا عامر بن صيفي ـ المعروف بالراهب لأنه كان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح ـ أتى رسول الله ﷺ حين قدم المدينة، قبل أن يخرج

---

(١) قال ابن هشام في السيرة: «قال ابن إسحاق: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ويديرون به، وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجيّاً، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا، وليكتم بعضكم على بعض، قالوا: أجل، وهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش وعثمان بن الحويرث بن أسد، زيد بن عمرو بن نفيل، فقال بعضهم لبعض: تعلموا والله ما قومكم على شيء! لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به، لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟! يا قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية، دين إبراهيم» (١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥)، وسيرة ابن إسحاق، ص١١٥ ـ ١١٥، والروض الأنف في شرح السيرة النبوية: للسهيلي، ت: عمر السلامي (٢/ ٢٢٧).

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (١٢/ ٣٣).

(٣) المرجع السابق (١٢/ ٣٤).

إلى مكة فقال: ما هذا الدين الذي جئت به؟ فقال: «جئت بالحنيفية دين إبراهيم»، قال: فأنا عليها، فقال له رسول الله ﷺ: «**إنك لست عليها**»، قال، بلى، قال: إنك أدخلت يا محمد في الحنيفية ما ليس منها، قال: «**ما فعلت، ولكني جئت بها بيضاء نقية**»، قال: الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً ـ يعرّض برسول الله ﷺ ـ أي أنك جئت بها كذلك. فقال رسول الله ﷺ: «**أجل، فمن كذب ففعل الله تعالى ذلك به**»، فكان هو كذلك، خرج إلى مكة، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكة خرج إلى الطائف فلما أسلم أهل الطائف لحق بالشام، فمات بها طريداً غريباً وحيداً[1].

ومما تقدم يمكن القول إن:

١ ـ الحنيفية هي ملة الإسلام، وفي الحديث: قيل لرسول الله ﷺ: أي الأديان أحب إلى الله؟ قال: «**الحنيفية السمحة**»[2] والحنفاء هم أناس مالوا عن الوثنية إلى التوحيد التي هي ملة إبراهيم عليه السلام والأنبياء من قبله.

٢ ـ المعروف من سيرة الرسول ﷺ أنه لم يجلس مع أحد من الحنفاء جلسة تعلم، وإنما حصل له لقاء عابر مع بعضهم.

٣ ـ هؤلاء الحنفاء كانوا في حيرة من أمرهم، ولهذا خرجوا يلتمسون من يوصلهم لدين الله الذي يرضاه لهم؛ أي: دين إبراهيم عليه السلام.

٤ ـ أن هؤلاء الأحناف كانوا يخبرون الناس بقرب بعثة محمد ﷺ وكانوا يطلبون من الناس أن يتبعوه، وأن لا يخالفوه، ويتمنوا لو يدركوه فيسلموا معه، وينصروه، فلو كانوا هم الأصل في دعوته وتعليمه لقاموا بالدعوة بأنفسهم، ونسبوا لأنفسهم هذا الشرف العظيم.

٥ ـ أما التشابه بين الإسلام ودعوة الحنفاء فلا غرابة في ذلك؛ لأن ما عندهم بقايا لدين إبراهيم عليه السلام، والإسلام ودين إبراهيم كلاهما من مصدر واحد وهو مصدر إلٰهي.

٦ ـ وهو الأهم: أين يأتي ما أثر عن هؤلاء الأحناف من مظاهر دينية بجانب الدين الإسلامي في بنائه وشموليته وتكامله، أين معتقدات الأحناف بجوار

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٦٧)، دلائل النبوة: لأبي نعيم (١/ ٨٠).

(٢) تقدم تخريجه.

العقيدة الإسلامية وتفصيلاتها المتعلقة بالخالق جلَّ وعلا في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته، وكتبه، ورسلة، وتفصيلات اليوم الآخر والبعث والحساب والجزاء، والقدر خيره وشره.

وأين يأتي ما أثر عن هؤلاء من عبادات بجانب الشريعة الإسلامية وتفاصيلها وأركانها وواجباتها وسننها إلى غير ذلك من مسائل عديدة يتناولها التشريع الإسلامي لا تمت بصلة مع ما أثر عن هؤلاء من تفاصيل بسيطة ورثوها عمن كان قبلهم، واحتاروا مع وجودها في كيفية التعبد للخالق جلَّ وعلا كما تقدم قول زيد بن عمرو بن نفيل: «اللَّهُمَّ لو أني أعلم أحب الوجوه إليك لعبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحته»[1].

فثبت بهذا تحير هؤلاء الأحناف في أوجه العبادة والتدين، وهو ما يدل على أنه لم يكن لديهم تشريع خاص بهم يرجعون إليه ويستفيدون منه، وبالتالي هم أحوج إلى أن يتأثروا من أن يكون لهم تأثير خاص على من سواهم كما زعم بعض المستشرقين.

ثالثاً: الشعر الجاهلي:

إن مسألة تأثر القرآن بالمصادر العربية الخالصة مسألة اعتنى بها المستشرقون، فقد كان هؤلاء يرون أن القرآن تأثر باليهودية والنصرانية، ومذاهب أخرى كانت منتشرة في عرض البلاد العربية وطولها، وفي البلاد المجاورة.

ولكنهم رأوا أن يضيفوا إلى هذه المصادر مصدراً عربياً خالصاً، والتمسوا هذا المصدر من شعراء العرب الجاهليين، لا سيما الذين كانوا يتحنفون منهم، وقد زعم المستشرق الفرنسي كليمان هوارت (C. Hurt) (١٩٢٧م) في فصل نشره في المجلة الآسيوية سنة ١٩٠٤م بأنه قد ظفر من ذلك بشيء قيِّم، واستكشف مصدراً جديداً من مصادر القرآن، هذا الشيء القيم، وهذا المصدر الجديد هو شعر أمية بن أبي الصلت، وقد أطال هورت في البحث، وقارن بين هذا الشعر الذي ينسب إلى أمية بن أبي الصلت، وبين آيات من القرآن وانتهى من هذه المقارنة إلى نتيجتين:

الأولى: أن هذا الشعر الذي ينسب لأمية بن أبي الصلت صحيح لأن هناك

---

(١) سيرة ابن إسحاق، ص١١٦.

فروقاً بين ما جاء فيه، وما جاء في القرآن من تفصيل بعض القصص ولو كان منحولاً لكانت المطابقة تامة بينه وبين القرآن، وإذا كان هذا الشعر صحيحاً، فيجب في رأي المستشرق هوار أن يكون النبي ﷺ قد استعان به قليلاً أو كثيراً في نظم القرآن.

الثانية: أن صحة هذا الشعر، واستعانة النبي به في نظم القرآن قد حملت المسلمين على محاربة شعر أمية بن أبي الصلت، ومحوه ليستأثر القرآن بالجدة، وليصح أن النبي قد انفرد بتلقي الوحي من السماء(١).

الرد على هذه الشبهة:

وقبل الرد على هذه التهمة، نذكر طرفاً من أخبار أمية بن أبي الصلت وشعره:

يعد أمية بن أبي الصلت بن عوف الثقفي من أحسن الحنفاء حظاً في بقاء الذكر، فقد بقي كثير من شعره، وربما وضع كثير منه على لسانه، وحفظ قسط لا بأس به من أخباره. وسبب ذلك بقاؤه إلى ما بعد البعثة، واتصاله بتاريخ النبوة والإسلام اتصالاً مباشراً وملاءمة شعره بوجه عام لروح الإسلام، مع أنه لم يكن مسلماً ولم يرض أن يدخل في الإسلام؛ لأنه كان يأمل أن تكون النبوة فيه، وأن ينزل الوحي عليه، فيكون نبي العرب والعالم أجمعين، فلما رأى النبوة في الرسول ﷺ، حسده، وأثار المشركين عليه، ورثى قتلاهم في معركة بدر، وحرض قريشاً عليه، حتى مات على حسده وعناده سنة تسع للهجرة بالطائف قبل أن يسلم قومه الثقفيون. ولم يمت مسلماً، ولم يمت على دين الوثنيين من قومه: بل مات كافراً بالديانتين. وقد جاء في بعض الروايات، إن وفاة «أمية»، كانت في السنة الثانية من الهجرة. وورد في روايات أخرى أنه توفي سنة تسع للهجرة، كافراً قبل أن يسلم الثقفيون(٢).

ورثاؤه قتلى معركة بدر، محفوظ في قصيدة حائية. مطلعها:

ألا بكيت على الكرا م بني الكرام أولي الممادح

كبكا الحمام على فرو ع الأيك في الغصن الصوادح(٣)

(١) السيرة النبوية على ضوء القرآن والسُّنَّة (١/ ٨٥).

(٢) المفصل في تاريخ العرب (١٢/ ٥٤).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٧٥).

وهي قصيدة يتوجع فيها أمية لسقوط قتلى المشركين، ودفنهم بالقليب، وفيهم «عتبة» و«شيبة» ابنا «ربيعة بن عبد شمس»، وهما ابنا خالة أمية، وقد ذكر بعض الرواة أن الذي حمله على قول هذا الشعر، هو أنه لما وصل إلى القليب موضع مدفن قتلى قريش في بدر، وكان ذاهباً إلى المدينة يريد الدخول في الإسلام، قال له بعض من كان معه من غلاظ الأكباد من المشركين: هل تدري ما في هذا القليب؟ قال: لا. قيل: فيه شيبة وربيعة وفلان وفلان. فجدع أنف ناقته، وشق ثوبه، وبكى، وعاد إلى الطائف(١).

وأمية مثل سائر المتألهين الآخرين من طبقة الحنفاء، سافر إلى الشام، واتصل بأهلها، وأوى إلى الأديرة ورجال الدين يسأل منهم عما يهمه من مشكلات دينية وعما كان يجول في خاطره من عبادة قومه وحقيقة العالم، وكان تاجراً، يذهب مع التجار في قوافلهم إلى تلك الديار التي كانت في أيدي الروم. ثم إنه كان على ما يظهر من الروايات التي وردت في ترجمته وسيرته قارئاً كاتباً، قرأ الكتب، ووقف عليها، ومنها ومن اتصاله برجال الدين وبأهل الكتاب تكونت عنده فكرته عن الدين، وشكه في عبادة قومه وفيما كانوا عليه من عقائد وعبادات. وقد بدا هذا التأثر في الكلمات والمصطلحات الأعجمية والغريبة المستعملة في شعره، وفي الأمثلة والقصص المنتزع من الكتابين: للعهد القديم والعهد الجديد، ومن موارد أخرى عديدة من الموارد الشائعة المستعملة عند أهل الكتاب(٢).

وقد ورد في بعض الأخبار أن أمية سافر مرة مع أبي سفيان بن حرب في تجارة إلى بلاد الشام، فكان كلما نزل منزلاً أخذ فيه سفراً له يقرأه على من معه، كما كان يزور علماء النصارى ويتباحث معهم، وكان يلبس ثوبين أسودين حينما يقابلهم. ولم تذكر الروايات شيئاً عن السِّفر أو الأسفار التي كان يقرأ منها أمية ويشرحها لمن معه من التجار(٣).

ومما جاء من الآثار الصحيحة عن شعر أمية بن أبي الصلت ما أخرجه

---

(١) المفصل في تاريخ العرب (١٢/ ٥٥).
(٢) المرجع السابق (١٢/ ٥٥ ـ ٥٦).
(٣) المرجع السابق (١٢/ ٥٦ ـ ٥٧).

الإمام مسلم في صحيحه عن عمرو بن الشريد عن أبيه، أن النبي ﷺ قال له: «**هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟**»، قلت: نعم، قال: «**هيه**» فأنشدته بيتاً، فقال: «**هيه**» ثم أنشدته بيتاً، فقال: «**هيه**» حتى أنشدته مائة بيت»[(١)]. وجاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال عنه: «**كاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم**»[(٢)]، وقال عن شعره: «**لقد كاد يسلم في شعره**»[(٣)].

الرد على دعوى تأثر النبي ﷺ بشعر أمية بن أبي الصلت:

ومن أجل الرد على هذه التهمة الباطلة التي يزعم أصحابها أن النبي ﷺ تأثر بشعر أمية فإننا سنفترض افتراضين رددهما المستشرقون ومن نحى نحوهم، فإذا أجبنا عليهما زال الإشكال[(٤)]:

الأول: أن يكون الرسول ﷺ أخذ أفكاره عن أمية.

الثاني: أن يكون الرسول ﷺ وأمية أخذا من مصدر واحد.

أما الافتراض الأول فيظهر بطلانه بما يلي:

١ ـ أن أمية كان شاعراً ولم يدع في يوم من الأيام أنه يوحى إليه، ولم ينقل ذلك عنه، بل إنه كان يسمع غيره في جزيرة العرب، يقول بأن نبياً سيبعث هذا زمانه، فكان يتمنى أن يكون ذلك النبي وعندما ظهرت النبوة في قريش، وقام بالدعوة محمد بن عبد الله ﷺ أدركه الحسد، وزين له الشيطان سوء عمله، فصده عن السبيل فلم يسلم، وبالغ في العداء للمسلمين ورثى قتلى بدر من المشركين.

بينما في المقابل نجد أن النبي ﷺ أعلن من أول يوم نزل عليه الوحي أنه رسول من عند الله إلى الناس كافة، وأنه لم يتلقى علمه من البشر: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ثم قام ﷺ وتحدى الناس بالقرآن وهم أصحاب الفصاحة والبلاغة فعجزوا

---

(١) كتاب الشعر (٤/١٧٦٧) حديث رقم (٢٢٥٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار، باب أيام الجاهلية (٥/٤٢) حديث رقم (٣٨٤١)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الشعر (٤/١٧٦٨) حديث رقم (٢٢٥٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الشعر (٤/١٧٦٧) حديث رقم (٢٢٥٥).

(٤) انظر فيما يأتي: المستشرقون والقرآن: د. محمد أمين حسن، ص٢٥٣ وما بعدها.

عن الإتيان بمثله، أو بعشر سور، أو بسورة، فلو أن قريشاً سمعوا أن محمداً أخذ القرآن عن أمية، واقتبس شعره فماذا يكون موقفهم منه، إنهم سيعلنون للدنيا قاطبة بأن محمداً قد سرق من أمية وأخذ عنه أفكاره التي يدعي الأصالة فيها.

٢ ـ أن أمية بن أبي الصلت الثقفي الذي عاش في الطائف واتصف بالدهاء، وكثرة الأسفار في البلاد، والطمع في النبوة[١]. ما كان ليصمت لو أنه وجد أن أفكاره أخذها محمد ﷺ ووضعها في القرآن، كما أنه لا يغيب عن الذهن أن أمية عاصر النبي ﷺ وسمع القرآن منه كما سمع غيره، فلو كان القرآن ترديداً لأفكاره لأعلن ذلك للدنيا كاملة، ولكن كل ذلك لم يكن.

٣ ـ القرآن الكريم تحدى به النبي ﷺ قريشاً والدنيا بكاملها، فعجزوا، فهل شعر أمية يُتحدى به، بل ما مستوى شعر أمية من شعر غيره من الشعراء الجاهليين والإسلاميين في صدر الإسلام، ولقد رأيتهم حين طبقوا الشعراء جعلوا امرئ القيس وزهيراً والنابغة والأعشى في طبقة[٢]، فهل جعل أهل هذا الفن شعر أمية من طبقة هؤلاء الشعراء؟ لا، فقد جعلوا هؤلاء الشعراء في الطبقة الأولى، وجعلوا أمية في الطبقة العاشرة والأخيرة[٣]، وحتى لو جعلوه من طبقتهم، ألا يمكن معارضة شعره؟ فإن لهم أكفاء ونظراء يمكن أن يقولوا مثل شعرهم، أو ما هو أحسن.

يقول أحمد حسن الزيات[٤] عن شعر أمية: «أكثره قلق اللفظ، سخيف النسج، نابي القافية»[٥].

فإذا كانت هذه هي صفة شعر أمية فكيف يمكن أن يوازن بالقرآن الكريم

---

(١) الحيوان: لعمرو بن بحر الجاحظ (٢/ ٤٢٠).

(٢) ثلاث رسائل في الإعجاز، الرسالة الشافية: عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ص١٣٣، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م.

(٣) طبقات الشعراء: ابن سلام الجمحي، ص٧٢، دار الفكر للجميع.

(٤) الزيات (١٣٠٢ ـ ١٣٨٨هـ): أحمد بن حسن الزيات، أديب من كبار الكُتَّاب، مصري، اختير عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة، وعُيِّن في المجلس الأعلى للآداب والفنون. وكان قبل ذلك من أعضاء المجمع العلمي العربيّ بدمشق، ونال جائزة الدولة التقديرية سنة (٦٢). من آثاره: «تاريخ الأدب العربيّ»، «دفاع عن البلاغة» و«وحي الرسالة»، و«في أصول الأدب». انظر: الأعلام (١/ ١١٣).

(٥) تاريخ الأدب العربي: أحمد حسن الزيات، ص٧٦ ـ ٧٧، ط٢١، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.

الذي عجز العرب عن معارضته وهم فرسان البلاغة؟ وكيف يكون القرآن من صنع محمد ﷺ اقتبس أفكاره من شعر أمية الذي اتصف بالركاكة، وضعف الأسلوب، إذاً فمما تقدم يظهر لنا فساد الافتراض الأول(١).

أما بالنسبة للافتراض الثاني: وهو أخذ محمد ﷺ وأمية من مصدر آخر، فإن هذا الافتراض فاسد من وجوه:

الأول: لو أن النبي ﷺ أخذ من المصدر الذي أخذ منه أمية شعره، فإن أمية لن يسكت على ذلك، وإنما سيعمل على كشف هذا الأمر للناس جميعاً، خصوصاً أنه كان ينتظر النبوة ويأملها، ويناصب النبي ﷺ العداوة ويرثي أعداؤه.

الثاني: لو أن محمداً ﷺ أخذ من المصدر الذي أخذ منه أمية فإن قريشاً أيضاً لن تسكت على ذلك، ولاتخذت ذلك حجة على الرسول ﷺ، فإنهم كانوا يوردون عليه ما هو أضعف وأسخف من هذه الشبهة، كما أن هناك فارقاً بين النبي ﷺ وبين أمية، فالنبي ﷺ أميّ لم يطلع على كتب اليهود والنصارى، ولم يخرج خارج الجزيرة إلا إلى بصرى الشام، بينما نجد أمية يتصف بالقراءة والكتابة والاطلاع على كتب اليهود والنصارى وكثرة الأسفار.

فإذا ثبتت هذه الأمور بطل الاحتمال الثاني، وثبت أن القرآن كلام الله لا صلة بينه وبين شعر أمية(٢).

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: «ونلاحظ أولاً أن القرآن يوضح لنا أن الرسول لم يكن يألف الشعر بوجه عام، بحيث اعتبره القرآن بالنسبة للرسول لهواً لا يليق بشخصه ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ [يس: ٦٩].

ونمر على هذه النقطة بسرعة، ونتساءل عن هذا التعليم الذي يمكن أن يخرج من هذا النوع من الأدب؟ وهنا نجد اتجاهين في الأدب الجاهلي:

٢**الأول**: وهو أن بعض الشعراء، مثل الأعشى، كان يهتم بوصف التقاليد والطقوس الكنسية، وهو ما لا نجد له أثراً في القرآن، بل لقد كان اهتمام هؤلاء الشعراء ينصب أكثر على شرب الخمر، الذي سيوجه إليه القرآن ضربته

(١) المستشرقون والقرآن: د. محمد بني عامر، ص٢٥٤ ـ ٢٥٥.
(٢) المستشرقون والقرآن، ص٢٥٦.

القاضية بدلاً من تحبيذه، فالقرآن لا ينتمي إذن إلى هذه الفئة.

أما النوع الثاني من الشعر: فقد كان يكاد يتخصص تماماً في الأفكار الدينية، وقصائد أمية بن أبي الصلت أصلح نموذج لهذا النوع حيث نقابل موضوعين أساسين هما:

وصف الحياة الأخروية، وقصص الديانات القديمة، وفي بعض المواضع بنفس عبارات القرآن، فلماذا لا نرى هنا النموذج الذي أخذ عنه محمد؟ وإذا حالف التوفيق محاولة إثبات هذه العلاقة، سيكون ذلك أهم اكتشاف علمي، يخفف عنا عبء التفسيرات الغيبية ولو جزئياً، وستكون نظرة الكتّاب الذين اعتبروا شعر أمية الحلقة بين القرآن والتوراة نظرة صائبة.

ولكي نتمسك بهذه الحجة لا شك أن أول شرط يطلب إثباته أو طرحه، هو صحة الشعر موضوع البحث، ولكننا لا ننوي أن نثير أي خلاف على هذه النقطة، فإذا كان هناك بعض جامعي الشعر، مثل حماد وخلف الأحمر، قد اشتبه في أنهم لفقوا بعض الأشعار ونسبوها إلى القدماء بعد أن خلطوها بشعر هؤلاء، فإن تعميم هذا العمل المشبوه، بحيث يشكل كل الشعر العربي أو الجاهلي على الأقل، يتضمن نوعاً من المبالغة.

إلا أنه لا يكفي ذلك أن يكون صحيحاً لكي يمكن اعتباره مصدراً للنص المشابه له، وإنما يجب أن يكون سابقاً له في التاريخ، ولكن قضية أسبقية شعر أمية بالنسبة لآيات القرآن قضية مستحيلة الحل؛ لأن محمداً وأمية قد عاصر كل منهما الآخر، وهما أيضاً من نفس العمر تقريباً، فضلاً عن أن أمية عاش واستمر في قرض الشعر طوال ما يقرب ثماني سنوات بعد نزول آخر آية من سور القرآن المكية التي يوجد تشابه بينها وبين شعر أمية، بحيث يكون من التعسف الادعاء بأن هذا الشعر كان سابقاً للقرآن من حيث التاريخ.

ونضيف أن أمية لم يدع الأصالة ولا الإلهام، بل إنه كثيراً ما عبّر عن خيبة أمله وأسفه في هذا الشأن، مما يحملنا على الاعتقاد بأنه قد اندفع إلى التقليد بروح المنافسة، وعلى عكس ذلك لقد أعلن محمد ﷺ على مسمع من جميع معاصريه بأنه لم يتلق علمه من بشر، ولنأخذ في اعتبارنا موقف خصوم النبي في هذا الموضوع، فلقد كانوا دائماً على يقظة لأقل ثغرة ليوجهوا من خلالها ضربتهم، ويحولوها إلى سخرية واستهزاء، ألم يكن من الأيسر لهم أن يضعوا يده

على مسروقاته المفضوحة من شعر أمية الذي لم يكن قد جف مداده، بدلاً من أن يوجهوا حججهم في كل اتجاه، وأن يلجأوا إلى كل افتراض، وصل إلى حد وصم الرسول بالجنون لتفسير ظاهرة القرآن العجيبة»[١].

ثم يخلص الدكتور دراز رحمه الله إلى نتيجة مهمة فيقول:

«ومن هذا نخلص ـ إن لم يكن بتأكيد ـ فعلى الأقل باحتمال كبير بأن القرآن هو الذي كان أساس الإنتاج الأدبي في عصر نزوله، كما كان يقيناً أساسه في العصور التالية، ولا يضير فن الشعر في شيء أن نشكك في أصالة مصادره، بعكس ما قد يحدث إذا قلنا نفس الشيء عن مذهب ديني؛ لأن الشاعر لا يركز اهتمامه في الحقيقة التي يعلنها، بقدر ما يركز في جمال القالب الذي يقدمها فيه، بغض النظر عن المصدر الذي يبحث فيه عن خاماته، سواء في حكمة القدماء أو المعاصرين في وقائع تجارية أو في الرأي العام، في أي شعور أو خيال، مهما كانت درجة هبوطه، ولقد أثبت نقد شعر أمية بصفة خاصة، أنه يرجع إلى عدة مصادر مختلفة ـ وهذا ما لاحظه هوارت ـ فعندما يتكلم الشاعر عن وصف الجنة يستخدم عبارات القرآن، وعندما يقص التاريخ الديني يلجأ أحياناً إلى الأسطورة الشعبية، وإلى ما يشبه الأساطير الميثولوجية (أساطير الآلهة اليونانية) حيث يتمثل الشخص أحياناً في صورة إنسان، وأحياناً في صورة حيوان أو نبات»[٢].

وأما الأستاذ بهجة عبد الغفور ففي دراسته لشعر أمية بن أبي الصلت يقسم شعر أمية إلى قسمين:

أ ـ قسم يظهر عليه أثر الحنيفية والكتب المقدسة كالتوراة والإنجيل.

ب ـ وقسم يظهر عليه أثر القرآن.

ثم يقول بعد هذا التقسيم:

أما القسم الأول: فأنا أميل إلى أن يكون له، كما يظهر من لغته وأسلوبه ومعانيه.

وأما القسم الثاني: فأنا أميل إلى أن يكون منحولاً عليه، وهذا واضح أيضاً

(١) مدخل إلى القرآن الكريم، ص١٤٢ ـ ١٤٤.

(٢) مدخل إلى القرآن الكريم، ص١٤٤.

من ركاكة لغته وضعف صياغته وأسلوبه المستمد من القرآن(١).

ومن المفارقات العجيبة هنا أن المستشرقين وأتباعهم ـ الذين يزعمون أن النبي ﷺ قد تأثر بأمية بن أبي الصلت ـ يعملون على إثبات تلك الصلة بينهما دون دليل عقلي أو سند تاريخي يدل على ذلك من حياة الرسول ﷺ.

لماذا يستكثرون على أمية أن ينظم بعض القصص التي قرأها من التوراة والإنجيل، وهو باعترافهم قد جالس الرهبان، ولبس المسوح، وقرأ الكتب القديمة، وتجول في البلدان(٢).

وقد أنكر المستشرق الألماني فريدرك سولتهيس (Frydrk Solthys) الذي جمع شعر أمية وطبع ديوانه سنة ١٩١٠م، رأي كليمان هورت في قوله: «أن محمداً استعان بشعر أمية بن أبي الصلت، ولكنه يرى أنهما اشتركا في ثقافة واحدة، ونقلا عن مصدر واحد»(٣).

يقول محمد هاشم عطية في الرد على هذه الشبهة: «ومن العجب أن يكون ذلك البحث العقيم مذهباً لغير واحد من علماء الأجانب، وأنت ترى لجمعياتهم العلمية وجهودهم الغزيرة من الأثر على العلم والأدب، وسائر نتائج العقول البشرية ما لا يجهل؛ لأن من المعلوم أن القصص في القرآن، وإن وجد منه شيء في الشعر أو كان متفقاً مع ما وردت به شرائع المتقدمين، إنما يجيء دائماً على نمط يخالف مذاهب المؤرخين في توخيهم لسراد الحوادث كما هي من غير محاولة لزيادة أو نقص، فهو يرمي إلى اتخاذ الماضي وسيلة إلى العبرة وطريقاً إلى تقرير قواعد النظام والتنبيه إلى مواطن الانتفاع بأدق أساليب الاجتماع»(٤).

ثم يستشهد في رده بقصة إبراهيم وسليمان ﷺ وبلقيس، ليبين أن الغاية من نظم هذه القصص في القرآن الكريم لم يكن تأليف تاريخ ولا حكاية حال كما يفعل شعراء القصص وكتّاب الأساطير، وإنما الغرض هو إثارة العقول إلى النظر في حقائق الأديان وتوجيه الفكر إلى نشأة العقيدة، والتأمل في كيفية تطورها في الأديان الماضية، والإشارة إلى تأليه الإنسان القديم لكثير من الظواهر الكونية،

---

(١) أمية بن أبي الصلت، حياته وشعره، دراسة وتحقيق: بهجة عبد الغفور، ص١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (٢/ ٦٦٠ ـ ٦٦٢).

(٣) الأدب العربي وتاريخه في العصر الحديث، محمد هاشم عطية، ص٣٥٢.

(٤) المرجع السابق، ص٣٥٢.

بسبب ما كانت تثيره في نفسه من القلق والرعب حتى يتبين له من تغيرها وطروء الفساد عليها عدم استحقاقها للعبادة، وهو مسك المنطق السليم في بلاغة الاستدلال وإلزام الحجة، ويتكرر القصص ليتكرر معه ما يتصل به من العظة، وليحكي من جديد ناحية أخرى من الحكمة مع الرقي إلى الإحسان والخروج عن طوق البشر بوجوه الإعجاز:

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢][١].

وبعد كل ما تقدم فإن دائرة المعارف الاستشراقية تعود لتؤكد هذه الفرية بأن أمية ومحمداً ﷺ قد أخذا من مصدر واحد هو تأثير البيئة التي عاشا بها، بعد أن تستبعد احتمال تأثر القرآن بشعر أمية كما يزعم المستشرق هورت.

تقول دائرة المعارف: «والآراء الدينية في كلام أمية مطابقة لما جاء في القرآن إلى حد كبير، يكاد الاتفاق يقع كلمة كلمة في كثير من الأقوال، ولهذا أثيرت بالطبع مسألة اعتماد أحد القولين على الآخر.

أما القول بأن محمداً قد اقتبس شيئاً من قصائد أمية فهو زعم بعيد الاحتمال؛ لأن أمية كان على معرفة أوسع بالأساطير التي نحن بصددها، كما كانت أساطيره تختلف في تفصيلاتها عما ورد بالقرآن، وإن كان هذا غير مستحيل من الوجهة التاريخية، فقد ورد في أحد الروايات أن أمية كان أول من اقتبس من كتاب الله، يمكن أن نعلل تشابه قصائد أمية لما جاء في القرآن بحقيقة لا تحتمل شكاً، هي أنه في أيام البعثة المحمدية وقبلها بقليل من الزمان، انتشرت نزعات فكرية شبيهة بآراء الحنيفية واستهوت الكثيرين من أهل الحضر، وخصوصاً في مكة والطائف، وكانت تغذيبها وتنشطها تفاسير اليهود والتوراة، وأساطير المسيحيين، مما كان معروفاً ومتداولاً في تلك البقاع وجنوبي الجزيرة من جهات متفرقة منعزلة، ويعلل لنا هذا ما يعرض من اختلاف بين ما جاء في القرآن، وما ورد في أشعار أمية ومحمد وأمية وغيرهما من الرجال المتدينين كزيد بن عمرو وورقة وسلمة اقتبسوا جميعاً من مصدر واحد سواء أكانت مدونة أم مروية»[٢].

(١) المرجع السابق، ص٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (٢/ ٦٦٠ ـ ٦٦٢).

وقد عقب الأستاذ محمد عرفة في حاشيته على كلام دائرة المعارف بقوله: لدينا دليل عظيم الخطر على أن النبي ﷺ لم يقتبس من أمية بن أبي الصلت ولا غيره ما أوتي به من القرآن الكريم، ولم يكن شعر أمية ولا غيره مصدراً من مصادره، ذلك الدليل هو أن النبي ﷺ أتى بالقرآن وفيه من أخبار الأولين ما لم يكونوا يعلمون، وفيه من المواعظ والنذر ما لا عهد لهم به، وقد تحداهم وجعله دليلاً على أنه من عند الله، وقد جعلوا من مصادره رجلاً أعجمياً كان بمكة، قال الله مبيناً قيلهم، ومفنداً ما زعموا: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

فلو كانت مشابهة بين شعر أمية والقرآن لجعله المشركون مصدراً من مصادره، أو على الأقل لقالوا أن الأخبار التي تذكره وتقول:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود: ٤٩]. قد ذكرها أمية بن أبي الصلت في شعره، ولكنهم لم يجعلوها مصدراً من مصادره، ولم يقولوا له شيئاً مما ذكرناه، فهذا يدلنا على أنه لم تكن مشابهة بين شعر أمية والقرآن المجيد، وهذا الدليل يخرج بنا إلى نتيجة أخرى وهي أن الأشعار المنسوبة إلى أمية في أخبار القرون الأولى وما سبق ذلك ليست له، بل نحله الرواة إياها، وإنك تقف على ذلك إذا قرأتها، فستدرك فيها الصنعة وسترى فيها ضعف المولدين، ولا ترى فيها قوة الجاهليين[(١)].

وبعد سرد ما ذكره الأستاذ محمد عرفة من رد على المستشرقين نورد بعض الأمثلة على قوله، ومن ذلك: أن النبي ﷺ أتى بالقرآن وفيه من أخبار الأولين ما لم يكونوا يعلمون، فهذه دعوى صحيحة والبينة عليها: أن التوراة والإنجيل لم يتحدثا عن أمور كثيرة ذكرها القرآن الكريم من أنباء التاريخ، فالمحاورة بين الله والملائكة عن آدم وسجود الملائكة وامتناع إبليس، وتخلف ابن نوح عن ركوب السفينة، ومناشدته إياه أن يركب، وعتاب الله لنوح حين قال:

﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود: ٤٦].

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية (٢/ ٦٦٠ ـ ٦٦٢).

ومحاورة إبراهيم لأبيه آزر، وذهابه مع إسماعيل ولده إلى مكة، وبناء البيت بواد غير ذي زرع، وحديث مؤمن آل فرعون في قصة موسى، وصنع داود للدروع السابغة، وقصة داود وسليمان إذ يحكمان في الحرث، وقد نفشت فيه غنم القوم، وتسخير الجبال والطير لداود، والجن والريح والطير لسليمان، وقصة الهدهد، وسبأ والصرح الممرد من القوارير، والجسد الملقى على كرسي سليمان، ومائدة عيسى، كل ذلك لم يأت في التوراة والإنجيل، فمن أين علمه محمد ﷺ ـ إن كان مصدره ثقافة أهل الكتاب ـ بل إن قصتي عاد وثمود لم تأتيا في التوراة والإنجيل، وقد قامت الأدلة الأثرية بالأحقاف على وجودهما السحيق، فمن أين عرفهما الرسول ﷺ، وتحدث عنهما بما صدقته الآثار الماثلة بعد أربعة عشر قرناً من الزمان[1].

(١) الموقف الأدبي من الشعر الجاهلي: محمد البيومي، ص١٧٨ ـ ١٧٩، وانظر: تفسير المنار (١١/ ١٩٠).

الفصل الثاني

مواقف المستشرقين من دلائل نبوته ﷺ



الفصل الثاني

مواقف المستشرقين من دلائل نبوته ﷺ

إن للنبوة أهمية كبيرة في حياة البشر، فالنبوة واسطة بين الخالق والمخلوق في تبليغ شرعه وأوامره وأخباره سبحانه، وهي نعمة مهداة من الله ـ تبارك وتعالى ـ إلى عبيده، وفضل إلٰهيّ يتفضّل بها عليهم.

ولما كانت النبوة بهذه المثابة، ولما كان للأنبياء هذا الدور فإنه من رحمة الله ﷻ وعدله بعباده أن أرسل أنبيائه ورسله تترى إلى البشر، غير أنه كيف للبشر أن يعرفوا النبي الصادق من الدعيّ الكاذب، خاصة وأن الشيطان قد زين لكثيرين ادعاء دعوى النبوة والتزيي بزي الرسل من أجل إضلال العباد، ولهذا فإن الله ﷻ منح رسله وأنبيائه دلائل وعلامات هي من الكثرة بمكان ومن الوضوح بمحل تكفي الواحدة منها أن تكون سبباً ودافعاً لإيمان البشر بهذا النبي.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «ودلائل النبوّة من جنس دلائل الربوبية، فيها الظاهر والبيِّن لكلّ أحد؛ كالحوادث المشهودة... فإنّ الخلق كلّهم محتاجون إلى الإقرار بالخالق، والإقرار برسله»[1].

(١) الجواب الصحيح (٥/ ٤٣٥).

ولا شك أنّ معرفة الله، والإيمان به، وعبادته، ومعرفة رسوله، وطاعته، يحتاجها كلّ مخلوق مكلّف.

ومن حكمة الله تعالى أنّه كلّما كان الناس إلى معرفة شيء أحوج، فإنّه ـ جلّ وعلا ـ يجعله سهلاً ميسّراً غير ذي عِوَج.

ولحاجة الناس إلى معرفة النبوة، والإقرار بالرسول، فقد وضّحها المولى ـ جلّ وعلا ـ في كتابه توضيحاً أعظم من أن يُشرح في هذا المقام، إذ الشرح يطول.

يقول شيخ الإسلام: «فتقرير النبوات من القرآن الكريم أعظم من أن يُشرح في هذا المقام، إذ ذلك هو عماد الدين، وأصل الدعوة النبوية، وينبوع كلّ خير، وجماع كلّ هدى»[1].

معنى دلائل النبوة:

الدليل لغة: هو المرشد والهادي، سواء كان أمارة وعلامة، أو ناصبها وواضعها، أو ذاكرها والمنبه عليها. وهو فعيل بمعنى فاعل على المبالغة، كعليم وعالم، وقدير وقادر، و(دليل) كذلك معدول عن دالّ، والمصدر منه دلالة بالفتح والكسر، والفتح أفصح.

وقد يسمى الدليل «دلالة» تسمية للشيء بمصدره، ويجمع الدليل على أدلة وأدلاء[2].

وأما الدليل في الاصطلاح: فعند الأصوليين هو ما يتوصّل بصحيح النّظر فيه إلى العلم بمطلوبٍ خبريٍّ ولو ظنّاً، وقد يخصّه بعضهم بالقطعيّ[3].

وقال الجرجاني في التعريفات: «الدليل في اللغة: هو المرشد، وما به الإرشاد، وفي الاصطلاح: هو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء آخر»[4].

---

(١) شرح الأصفهانية (٢/٦٠٦)، والنبوات (١/٢١).

(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة: لابن فارس (٢/٢٥٩)، مختار الصحاح: للرازي ص١٠٦، لسان العرب: لابن منظور (١١/٢٤٨ ـ ٢٤٩)، المفردات في غريب القرآن: للأصفهاني، ص١٧٠، والكليات: للكفوي، ص٤٣٩.

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف: للمناوي، ص١٦٧، والكليات: للكفوي، ص٤٣٩، وكشاف اصطلاحات الفنون: للتهانوي (١/٧٩٣).

(٤) التعريفات، ص١٠٤.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن دلائل النبوة:

«وهي الأدلة والعلامات المستلزمة لصدقهم، والدليل لا يكون إلّامستلزماً للمدلول عليه مختصاً به، لا يكون مشتركاً بينه وبين غيره؛ فإنّه يلزم من تحقّقه تحقّق المدلول.

وإذا انتفى المدلول انتفى هو؛ فما يوجد مع وجود الشيء، ومع عدمه، لا يكون دليلاً عليه، بل الدليل ما لا يكون إلّا مع وجوده، فما وجد مع النبوّة تارةً، ومع عدم النبوّة تارةً، لم يكن دليلاً على النبوّة، بل دليلها ما يلزم من وجوده وجودها»[١].

تنوع دلائل النبوة:

أفراد الأدلة الدالة على صدق كل رسول كثيرة متنوعة، وقد عدّ الذين ألّفوا في دلائل نبوة نبينا محمد ﷺ أدلة صدقه، فنافت على الألف عند بعضهم[٢]، ويمكننا أن نقسم هذه الأدلة إلى أقسام، يضمُّ كل قسم منها مجموعة متشابهة، وهي:

الأول: الآيات والمعجزات التي يجريها الله تصديقاً لرسله.

الثاني: بشارة الأنبياء السابقين بالأنبياء اللاحقين.

الثالث: النظر في أحوال الأنبياء.

الرابع: النظر في دعوة الرسل.

الخامس: نصر الله وتأييده لهم[٣].

فكل واحد من هذه الأمور وما يتضمنه من أدلة تدور في فلكه تدل دلالة واضحة على كون الرسول أو النبي مبعوث من قبل الله تعالى، وقد حاز النبي محمد ﷺ من كل نوع من هذه الأدلة أفراداً كثيرة من الأدلة، يعجز المقال هنا عن تعدادها والتفصيل فيها.

---

(١) النبوات (١/ ٢١٣).

(٢) كما ذكر البيهقي في دلائل النبوة عن بعض أهل العلم (١/ ١٠)، وذكر النووي أنها تزيد على ألف ومائتين (شرح النووي على مسلم ١/ ٢). ونقل ابن حجر عن الزاهدي من الحنفية أنه ظهر على يديه ﷺ ألف معجزة وقيل ثلاثة آلاف (فتح الباري ٦/ ٥٨٣).

(٣) الرسل والرسالات: د. عمر سليمان الأشقر، ص١١٩ ـ ١٢٠.

وقد وردت دلائل نبوته ﷺ ضمن كتب الحديث والسير ثم ما لبث بعض العلماء أن أفردها بالتأليف. والاسم الأشهر الذي عنون به العلماء هذه المؤلفات هو «دلائل النبوة» كما فعل الرازي وأبو نعيم والبيهقي وغيرهم ممن ألف في هذا الفن. وبعضهم سماها «آيات النبي ﷺ» كالمدائني، وبعضهم «أعلام النبوة» كما فعل أبو داود السجستاني وابن قتيبة والماوردي، أو «أمارات النبوة» كالجوزجاني، أو «معجزات النبي ﷺ» كعبد الحق الإشبيلي. وهي كلها أسامي تفيد معنى واحداً، هو تلك الدلائل والأمارات والبراهين الدالة على صدق محمد ﷺ في دعواه النبوة.

المستشرقون ودلائل النبوة:

لما كان معظم المستشرقين ينكرون نبوة محمد ﷺ فقد أنكروا دلائل نبوته ﷺ، وأما القسم المتشكك منهم فقد سلك منهج التشكيك في تناول دلائل نبوته ﷺ، كما أن مفهوم دلائل النبوة عند الأعم الأغلب من المستشرقين ينحصر في جانب المعجزات المادية ومدى حصولها للنبي محمد ﷺ من عدمه.

وهذا المنهج الذي سلكه هؤلاء المستشرقون في جعل المعجزة هي الدليل الوحيد لصدق النبوة دون النظر إلى الأمور الأخرى من قرائن حال الداعي من الصدق والخلق وحسن السيرة والاستقامة وسلامة ما يدعو إليه إلى غير ذلك منهج خاطئ مماثل لمنهج المتكلمين من المسلمين الذي أنكره أهل السُّنَّة والجماعة.

يقول ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: «والطريقة المشهورة عند أهل الكلام والنظر، تقرير نبوة الأنبياء بالمعجزات، لكن كثير منهم لا يعرف نبوة الأنبياء إلا بالمعجزات، وقرروا ذلك بطرق مضطربة، والتزم كثير منهم إنكار خرق العادات لغير الأنبياء، حتى أنكروا كرامات الأولياء والسحر، ونحو ذلك.

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح، لكن الدليل غير محصور في المعجزات، فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين. بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما، وتعرف بهما، والتمييز بين الصادق والكاذب له طرق كثيرة فيما دون دعوى النبوة، فكيف بدعوى النبوة؟ وما أحسن ما قال حسان رضي الله عنه:

لو لم يكن فيه آيات مبينة   كانت بديهته تأتيك بالخبر

وما من أحد ادعى النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب والفجور واستحواذ الشياطين عليه ـ ما ظهر لمن له أدنى تمييز ـ. فإن الرسول لا بد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور، ولا بد أن يفعل أموراً يبين بها صدقه. والكاذب يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة. والصادق ضده»[1].

ويمكن تقسيم مواقف المستشرقين إجمالاً تجاه المعجزات النبوية التي حصلت للنبي محمد ﷺ إلى ثلاثة أقسام:

الأول: القسم الرافض لهذه المعجزات جملة وتفصيلاً:

وهذا الموقف سلكه جمهور المستشرقين قديماً وحديثاً انطلاقاً من مبدأ إنكار نبوة محمد ﷺ، ويمكن استعراض جملة من آراء أصحاب هذا القسم فيما يلي:

ـ ظهر هذا الرأي قديماً عند المسيحيين الشرقيين (البيزنطيين) وتحديداً عند الراهب الملكاني بارثولوميو الإديسي في القرن الثالث عشر الميلادي، حيث زعم في كتابه «الرد على أحد أبناء هاجر» والذي اتسم بالجدل البذيء ضد شخص النبي ﷺ أن النبي لم يتصف بمعايير النبوة وأسسها والتي من أهمها:

- عدم تنبؤه بحوادث مستقبلية تقع كما يخبر بها.
- تفاوت تعاليمه في القرآن بين الصواب والخطأ.
- نتيجة تحليل تعاليم القرآن عن الله وعن محمد ﷺ وعن المسيح عليه السلام تبيِّن بوضوح أنه لا يمكن أن يكون وحياً.

ويخلص الإديسي من ذلك إلى أن محمداً ﷺ ـ وبحسب نتيجة تلك المعايير ـ نبي غير حقيقي، كما يعقد الإديسي مقارنة بين النبي ﷺ وبين المسيح عليه السلام ومما زعمه فيها أن:

- المسيح مؤيد بالمعجزات منذ ولادته وحتى رحلته السماوية، تلك المعجزات التي تؤيد ألوهيته من خلال المعجزات فوق الطبيعية والعلامات الإلٰهية، في حين محمد بخلاف ذلك لا يملك دليلاً واحداً أو معجزة شاهدة على نبوته.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية: لابن أبي العز الحنفي، ت: د. عبد الله التركي، شعيب الأرناؤوط (١/ ١٤٠ ـ ١٤٢).

• المسيح جسّد الحقيقة الإلٰهية، في حين محمد زيَّف تلك الحقيقة التي علمه إياها بحيرا الراهب، فاشتملت تعاليمه على الإضلال والأباطيل(١).

وهذا الكلام الذي ذكره الأديسي وزعم فيه المقارنة بين شخص النبي محمد ﷺ والمسيح ﷺ إن دل على شيء فهو يدل على الجهل المطبق عند الأديسي بحقيقة تاريخ النبي ﷺ وسيرته والتي كانت مصحوبة بالمعجزات في جميع مراحل حياته ﷺ وسيرته.

ـ وفي القرن الرابع عشر وضع القيصر كانتا كوزينوس مؤلفاً جدلياً ضخماً من أكبر الجدليات البيزنطية ضد الإسلام خصص القسم الرابع منه للهجوم على النبي ﷺ. وكان من ضمن ما زعمه في عدم مشروعية نبوة محمد ﷺ ما ادعاه أنه لم يؤيد بمعجزة تبرهن على صدقه، وإنما نشر تعاليمه بوساطة السيف والعنف.

في الجانب المسيحي الغربي ظهرت آراء كثيرة تؤيد هذا الاتجاه الرافض لإثبات المعجزات النبوية لمحمد ﷺ، وممن سلك هذا المذهب:

ـ بطرس ألفونسي الطبيب الإسباني، والذي صاغ سيرة محمد ﷺ عام ١١١٠م في شكل حوار متخيل بينه وبين صديق صباه موسى:

ومما جاء في كتابه هذا محاولته اختلاق الأدلة والبراهين للإيهام بالواقعية والموضوعية، ويظهر ذلك جليّاً عندما يعرض لمعايير النبوة التي على أساسها يحكم بعدم صحة نبوة محمد.

فهو يضع لذلك أربعة معايير، هي: السلوك الحياتي المستقيم، والمعجزات، وصدق الحديث، وتحقق النبوءات.

ولكي لا يجعل واحداً منها ينطبق على محمد ﷺ فإنه ينسب إليه العنف والشهوانية، ليخرجه من السلوك المستقيم. ويرميه بالكذب، ليبعده عن دائرة الصدق في الحديث، وينفي تحقيق المعجزات على يديه؛ ليسلب منه دلالتها على النبوة، ويختلق قصة تنبؤ محمد ﷺ بقيامته من بين الأموات بعد ثلاثة أيام والتي لم تقع إخباراً أو فعلاً لمخالفتها عقيدة المسلمين القرآنية في أن الموتى لا يرجعون إلا يوم القيامة، ويكمل تلك الفرية بإدعاء أن علي بن أبي طالب هو المقصود بالنبوءة، وذلك كي يثبت ألفونسي أن نبوءات محمد ﷺ لم تتحقق.

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص٢٧ ـ ٢٨.

ـ بطرس الموقر الراهب البندكتيني رئيس رهبان دير كلوني (ت١١٥٦م) من أشهر رموز الفكر الديني الغربي. قام بطرس بنشر مجموعة دير كلوني الجدلية المترجمة من العربية إلى اللاتينية والمشتملة على عدة كتابات منها هنا ما يسمى بـ «رسالة عبد المسيح الكندي في الرد على الهاشمي، ترجمها بطرس التوليدو».

وقد احتوت هذه الرسالة على أنواع من التحريف والافتراء في عرض سيرة النبي ﷺ، وما يهمنا في هذا المقام ما يتعلق بجانب دلائل النبوة:

فقد زعم مؤلفها أن محمداً ﷺ لم يستطع أن يظهر شيئاً من علامات النبوة أو شروطها مثل الإعلام بالجديد الذي لم تسبقه إليه الأنبياء، أو الإنباء بالأمور المستقبلية التي تقع كما أخبر، أو وقوع الآيات والأعاجيب والخوارق على يديه. فلم ينطق كتابه بشيء من ذلك، لهذا يكون ما نسبه إليه أصحابه من معجزاته مثل: بكاء الذئب بين يديه، وتكليم الشاة له، وفيضان الماء من بين أصابعه، يكون نوعاً من الأباطيل والأكاذيب، وليست من علامات النبوة لأن النبوة قد أخبر المسيح في الإنجيل بختامها ونهايتها.

ـ كما زعم توماس الأكويني (١٢٧٤م) أن الإسلام دين زائف وهرطقة، وأنه يحتوي على الشهوانية، ويمزج الحقيقة بالأساطير والعقائد الباطلة، وأن نبوة محمد ﷺ لم تؤيد بالمعجزات.

ـ كما شارك الأكويني في هذه المزاعم رايموندوس مارتي (١٢٨٤م) الراهب والمنصر الإسباني الحالم بالقضاء على الإسلام وتحول المسلمين إلى النصرانية. وقد ألف مارتي عدة كتب جدلية ضد الإسلام ونبيّه ﷺ من أجل مساعدة الرهبان والمنصرين على تنصير المسلمين، وكان مما جاء فيها: دعواه أن محمداً ﷺ لم يأت بمعجزة قط، وبذلك يفتقد أيّ أهلية للنبوة.

ـ أما ريكولدوس دي مونت كروسيز (ت١٣٢٠م) الراهب والمنصر الدومينيكاني، فقد ادعى أن القرآن الكريم يخلو من ذكر أي معجزة لمحمد ﷺ وهو الزعم الذي سيتكرر فيما بعد عند جمع من المستشرقين وخصوصاً المشككين منهم.

ـ خوان أندريس الإسباني (القرن السادس عشر الميلادي) والذي خص النبي ﷺ بفصل كامل وعدة أجزاء ومواضع من كتاباته ذات الطابع الجدلي الخالص. وفي هذه الكتابات لم يتورع خوان أندريس اتساقاً مع رؤيته الجدلية

لشخص النبي ﷺ عن نفي معجزاته ﷺ بزعم عدم وقوعها أمام الجمع الغفير من المؤمنين مثلما وقع لموسى وعيسى عليهما السلام، أو بدعوى كونها مجرد رؤى وأحلام صدقها النبي ﷺ على أنها حقائق.

وما زالت دعوى إنكار المعجزات النبوية تتوالى عند جمهور المستشرقين رغم حلول القرن العشرين وتوفر وسائل التواصل بين الشرق والغرب، والأهم من ذلك توفر المصادر الإسلامية بشكل أضخم وأسهل عن ذي قبل، والتي تجمع على إثبات دلائل النبوة والمعجزات النبوية بشتى أصناف الأدلة التاريخية والنقلية والعقلية، ففي عام ١٩٦٧م ظهر للإيطالي فرانسيسكو جابريلي كتاب بعنوان: «محمد والعالم العربي»، وفيه:

جعل جابريللي من شمائل النبي ﷺ ومعجزاته خصوصاً الإعجاز القرآني، ضرباً من تأثير الأسطورة في حياة المسلمين الذين استندوا إلى الحكايات والقصص الشعبية في بناء اعتقادهم في شخص نبي الإسلام وسيرته، مما جعلهم يحوِّلونه إلى شخصية مثالية في جانب المعجزات المتحققه له، والسلوك الأخلاقي، والعصمة من الذنوب، بل قادتهم تلك الأساطير إلى جعله كائناً فوق طبيعي وجوده في العالم يسبق وجوده التاريخي؛ إذ يبدو كما يظهر في كتابات الشيعة والصوفية، حقيقة حاضرة إلى جوار الحضرة الإلٰهية قبل خلق العالم.

وبذلك يكون جابريلي قد نزع عن نبوة محمد رسول الله ﷺ وسيرته، أصالتها وحقيقتها التاريخية، وألحقها بعالم الأساطير والقصص الشعبي المتطور بفعل التناقل والسرد[1].

الثاني: القسم المشكك في حصول المعجزات النبوية:

وقد سلك هذا المنهج جمع من المستشرقين وخصوصاً المحدثون منهم، كما تمسك كثير منهم في نفيه لهذه المعجزات بأن هناك نصوصاً في القرآن نفى فيها النبي ﷺ أن يكون قد جاء بمعجزات، وممن قال بهذا القول من المستشرقين:

- توماس كارليل الذي اتسمت كتابته بجوانب من الإنصاف في وصفه لسيرة

---

(١) انظر: كلام المستشرقين السابق ومصادره بشكل موسع ضمن الفصل الخاص بتطور الكتابات الاستشراقية عن النبي ﷺ في الباب الأول.

النبي ﷺ، إلا أنه حين مطالعته للقرآن الكريم والسيرة النبوية لم يرصد فيهما أي معجزة سواء أكانت حسية أم معنوية، لذلك جعل جواب النبي ﷺ على كفار مكة عندما سألوه أن ياتي بمعجزة، هو إحالتهم إلى الكون بوصفه معجزة وعلى الأرض بوصفها آية من آيات عظمة الله وصنعه، بما اشتملت عليه من طريق ومسالك ومناكب فيها الطعام وفيها الشراب، وفيها النبات، وفيها الماء وسيلة الحياة، وأحالهم كذلك إلى معجزة الخلق الإنساني الذي وجد من عدم، ثم أصبح في قوة وجمال وعقل، ثم يعتريه الشيب ثم الموت[1].

ـ ويقول المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون: «ولم يقل محمد إنه يأتي بالخوارق مع إيمانه برسالته، وعزا المسلمون إليه خوارق كثيرة مجاراة للعنعنات الشائعة القائلة إنه لا نبوة بغير خوارق»[2].

ـ ويقول المستشرق سيديو: «... وما أكثر ما طُلب منه أن يأتي بمعجزات يؤيد بها رسالته، فيجيبهم عن سؤالهم بالآية (٧)[3] من سورة الرعد: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾»[4]. ويقول في موضع آخر: «وما أكثر ما كان محمد يعترض على بعض ما يعزوه إليه أشد أتباعه حماسة من الأعمال الخارقة للعادة!. ولكن ذلك كان من دواعي ألم المسلمين الحقيقيين الذين ودوا لو أن محمداً أيد رسالته بالآيات البينات، وهم، لكي يخففوا في نفوس أتباعه من أثر اعترافه بعدم قدرته على الإتيان بها، لم يحجموا عن اكتشافهم في القرآن نبوءات كانت قد تحققت، أو عن عدهم أمراً واقعياً ما صدر عن الخيال الجامح من الرؤى... ويظهر أن محمداً أراد في الآيات: ٨٩ ـ ٩٣[5] من سورة الإسراء أن ينقض سلفاً جميع تلك القصص الوهمية، فجاء فيها:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ۝٨٩

---

(١) الأبطال، ص٧٦.
(٢) حضارة العرب، ص١١٣.
(٣) في المصدر: بالآية (٨) من سورة الرعد ثم ذكر الآية (٧) التي ذكرت في المتن، فلعله سهو من المؤلف أو المترجم.
(٤) تاريخ العرب العام، ص٧١.
(٥) في المصدر: ذكر أن رقم الآيات ٩٢ ـ ٩٥ ثم ذكر الآيات المثبتة أعلاه، وهو خطأ ظاهر.

﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾[1].

وقد خفف بعض المستشرقين حدة الإنكار فأثبت الإعجاز القرآني، ونفى ما سواه محتجاً بما ذكره سابقوه، ومن هؤلاء: المستشرق الإنكليزي بوسورث سميث (١٨٩٢م) في مقدمة كتابه: «الأدب في آسيا» حيث يقول:

«إن المعجزة الخالدة التي أداها محمد هي القرآن والحقيقة إنها لكذلك، وإذا قدرنا ظروف العمر الذي عاش فيه، واحترام أتباعه إياه احتراماً لا حد له، ووازناه بآباء الكنيسة أو بقديس القرون الوسطى، تبيَّن لنا أن أعظم ما هو معجز في محمد نبي المسلمين أنه لم يدع القدرة على الإتيان بالمعجزات وما قال شيئاً إلا فعله وشاهده منه في الحال أتباعه، ولم ينسب إليه الصحابة معجزات لم يأتها أو أنكروا مبدأ صدورها منه، فأي برهان أقطع من ذلك، ولقد كان محمد يذهب من آخر حياته كما ذهب من مبدأ أمره إلى أنه رسول الله حقاً، وإني أعتقد أن الفلسفة المسيحية المآلية ستعترف له بذلك يوماً من الأيام»[2].

فهذا الاتجاه الاستشراقي المتشكك لايطعن في مبدأ نبوة محمد ﷺ أو على الأقل لا يصرح بذلك لكنه في ذات الوقت لا يسلم له ﷺ بالمعجزات التي تواترت النصوص بنسبتها إليه، متعلقاً بشبهة ما جاء في بعض النصوص من إنكار النبي ﷺ أن يأتي بالمعجزات من تلقاء نفسه، وسيأتي مناقشة هذه الشبهة والرد على فهم المستشرقين الخاطئ لها.

القسم الثالث من المستشرقين:

من أيقن بصدق دلائل نبوة محمد ﷺ وخصوصاً ما يتعلق بالمعجزة العظمى له ﷺ وهي الوحي الإلٰهي المتمثل في القرآن الكريم، وهؤلاء هم المستشرقون المسلمون.

فهؤلاء آمنوا بدين الإسلام وصدقوا بنبوة محمد ﷺ ورسالته، وبالتالي

---

(١) تاريخ العرب العام، ص٩١. وانظر نحوه عن: واشنطن إيرفنج: محمد وخلفاؤه ص١٣٣ ـ ١٣٧.
(٢) نقلاً عن الرسول ﷺ في الكتابات الاستشراقية المنصفة، ص٣٢٤.

فالأصل أن يؤمنوا بكل ما جاء به ﷺ من ربه، ومن جملة ذلك ما ثبت له ﷺ من دلائل النبوة ومعجزات الرسالة.

وقد احتلّ الإعجاز القرآني قصب السبق في هذا المجال، حيث أبرز هؤلاء المستشرقون مكانة القرآن العظيم وما احتواه من أنواع الإعجاز، وحاول كثير منهم في سبيل الدعوة إلى الإسلام توضيح ملامح الإعجاز في القرآن مما يؤكد على كونه وحياً إلٰهياً من عند الله يستحيل أن يأتي بشر بمثل ما جاء فيه كماسيأتي في المبحث الخاص به.

يقول الدكتور مراد هوفمان: «والمسلم يؤمن أن القرآن كلمة الله، وأنه ليس مخلوقاً من المخلوقات، وأن الله أوحاه إلى محمد بلسان عربي مبين في تلك الفترة الزمنية المحددة، وهو معجزة الإسلام الوحيدة، والدليل القاطع والبرهان الساطع على نبوة محمد»(١).

وما ذكره الدكتور هوفمان هنا هو حقيقة ما يعتقده المسلمون فكلامه نابع من الإيمان بنبوة محمد ﷺ ورسالته وما جاء به، ولكن يحسب هنا على هوفمان وصفه للقرآن الكريم بأنه المعجزة الوحيدة للنبي ﷺ مما يفهم منه نفيه للمعجزات الأخرى الواردة في حقه ﷺ، ويتأكد هذا القول حين نتأمل الأسطر التالية من كتابه «الإسلام كما يراه ألماني مسلم» وفيه يقول:

«طالب المكيون المتشددون ـ حسب التقاليد السامية ـ الرسول أن يثبت نبوته من خلال معجزة... وكان لهذا الطلب وزنه؛ لأن المعجزات التي أقرت للسيد المسيح كانت معروفة، وهي مذكورة في القرآن الكريم... وقد أوضح القرآن الكريم حول هذه المسألة بأن الله تعالى فقط هو الذي يأتي بالمعجزة ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ [الرعد: ٣٨]، وكذلك ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩]، بحيث بإمكانه هو أن يخرق عادته التي نطلق عليها اسم «القوانين الطبيعية». وقد أدرك الرسول أن الله قد جعل له معجزة واحدة وهي التنزيل المستمر للقرآن: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ

(١) الإسلام كبديل، ص٤١ ـ ٤٢.

صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ [البقرة: ٢٣]»[١].

وما ذكره هوفمان هنا يظهر فيه التأثر بمنهج بعض المستشرقين الذي أنكروا المعجزات الأخرى للنبي ﷺ سوى القرآن متعلقين بالنصوص التي ذكرها هوفمان، وهذا التأثر ظهر أيضاً عند مستشرقين آخرين كنصر الدين دينيه، والذي يقول في مقدمة كتابه عن سيرة النبي ﷺ:

«وقد آثرنا، بالاتفاق مع نصوص القرآن ـ وهو الكتاب الوحيد الذي لم يعارض ولا يقبل المعارضة ـ وبالاتفاق مع علماء الصدر الأول، ومع أصحاب الفكر الحر من المعاصرين كالشيخ محمد عبده... أن نضرب صفحاً عن جميع الخوارق التي نسبت للنبي العربي بعد زمن طويل من وفاته، والتي يبدو أن في نسبتها إليه ما يسلبه سيماء الحقيقة، والحق أننا نرى أن محمداً هو الوحيد (من بين الأنبياء) الذي استطاع أن يستغني عن مدد الخوارق والمعجزات المادية، معتمداً فقط على بداهة رسالته ووضوحها، وعلى بلاغة القرآن الإلٰهية»[٢].

ورغم أن هذا التعليل الذي ذكره دينيه في إضرابه عن مثل هذا النوع من أحداث السيرة يعدُّ غير كاف في مقابل النصوص والأحداث التاريخية المتواترة المثبتة لمثل هذه المعجزات إلا أن موقف دينيه المبدئي من الإسلام باعتباره دين العقل بالإضافة إلى تأثره بالمنهج العقلي الذي سلكه بعض دعاة الإسلام المعاصرين له كالشيخ محمد عبده من الممكن أن يكون قد دفعه إلى هذا الموقف[٣].

وهكذا فقد ظهر المنهج العقلي المادي لدى دينيه جليّاً في مسألة تأويل المعجزات أو دلائل النبوة المحمدية، وهو الأمر الذي اشترك فيه جمع من المستشرقين المسلمين ربما بسبب لوثة المادية الغربية، والتي لم يستطع بعض المستشرقين المسلمين التخلص منها رغم دخولهم في الإسلام وإعلانهم الإيمان بكل ما جاء فيه.

وإذا ما جئنا إلى المستشرق النمساوي المسلم محمد أسد فإنه قد سلك

---

(١) ص٣٣ ـ ٣٤.

(٢) محمد رسول الله، ص٦٢.

(٣) المرجع السابق، ص٧٧، ونبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص١٦٢ ـ ١٦٦.

قريباً من هذا المنهج في مؤلفاته، فهو قد سلك منهج التأويل التعسفي لكثير من المعجزات التي جاءت في حق جميع الأنبياء عليهم السلام والتي ورد ذكرها في القرآن، ولهذا أمثلة عديدة في تفسيره، ومن ذلك:

أ ـ يرى أسد أن إبراهيم عليه السلام لم يُلق في النار، وأن ذلك إشارة رمزية إلى نار الاضطهاد التي كان على إبراهيم عليه السلام أن يقاسيها، والتي ستصبح بعد ذلك، بسبب عنفوانها، مصدر قوة روحية وسلام باطني له(١).

ب ـ وبالمثل يصف المؤلف قصة سليمان عليه السلام مع النملة وفهمه لما قالته لزميلاتها من جماعة النمل بأنها قصة خرافية قصد بها الإشارة إلى إعجاب سليمان بعالم الطبيعة وفهمه له وعطفه على أحقر مخلوقات الله شأناً. كما يرى أن قصة سليمان عليه السلام مع الهدهد مجرد مثل ضربه الله ليبين لنا أن سليمان نفسه بكل حكمته يمكن أن يجهل بعض الأشياء، وهو من شأنه أن يحذرنا من فتنة الغرور التي تصيب البشر، والعلماء منهم بوجه خاص(٢). وعلى هذا المنوال يقول أسد عن قصة يونس عليه السلام والتقام الحوت له كما وردت في سورة «الصافات» فهي ـ حسب ما يقول ـ حكاية خرافية ذات دلالة رمزية، وبطن الحوت عنده إشارة إلى العناء الروحي الذي كان يرزح تحته يونس عندما فر من أداء رسالته، واليقطينة استعارة قصد بها الإيماء إلى رحمة الله له وعودته إلى طريق النور والحياة الروحية كرة أخرى(٣).

ج ـ ولم تكن معجزات عيسى عليه السلام بمعزل عن منهج التأويل الذي سلكه أسد، فهو يرى أن كلام عيسى في المهد إنما هو إشارة للحكمة النبوية التي كانت تلهم عيسى منذ وقت جد مبكر ويؤول أسد في هذا السبيل قوله تعالى:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم: ٣٠]، بأن المراد أن الله سيؤتيني الكتاب وسيجعلني نبياً في المستقبل. وفي خلق عيسى عليه السلام من الطين طيراً بإذن الله يرى أنه عبارة عن الحظ أو المصير؛ لأن «الطائر» أو «الطير» قد تكرر مجيئهما في القرآن بهذا المعنى، وبناء على هذا التأويل يكون معنى الآية:

---

(١) ص٤٩٥ ـ ٤٩٦/هـ٦٤ في التعليق على الآية ٦٨ من سورة الأنبياء.

(٢) فكر محمد أسد، ص٢٩.

(٣) المرجع السابق، ص٣٠.

أن عيسى عليه السلام أراد بأسلوبه المعروف أن يضرب لبني إسرائيل مثلاً يبيِّن لهم فيه أنه من طين حياتهم الحقير، سوف يشكل لهم رؤيا مصير يحلق عالياً في أجواء الفضاء، وأن هذه الرؤيا التي سوف تتحقق على أرض الواقع بإلهام من ربه ستكون مصيرهم الحقيقي بإذن الله وبقوة إيمانهم. وعلى ذات النهج يمضي أسد مفسراً معجزة إحياء الموتى التي عضد الله بها أيضاً عيسى عليه السلام بأن من المحتمل أن يكون المقصود بها بث حياة جديدة في الميتين روحياً. ثم يضيف بأنه إذا صح هذا التفسير ـ وهو صحيح عنده ـ فحينئذ يكون لإبراء الأكمه والأبرص نفس المعنى، ألا وهو بث الحياة الباطنية من جديد في مرضى الروح الذين لا يستطيعون إبصار الحقيقة[١].

د ـ أما بالنسبة لمعجزات موسى عليه السلام فقد استعمل لها أسد لفظ «المعجزة» ـ بخلاف معجزات الرسل السابقة ـ ثم أضاف لها معنى رمزياً صوفياً. فهو يقول عن معجزة العصا التي ألقاها عليه السلام: «إن التحول الإعجازي لعصا موسى إلى ثعبان له، فيما أعتقد، مغزى صوفي، إذ يبدو أنه إشارة إلى الفارق الجوهري بين المظهر الخارجي والحقيقة، ومن ثم فهو إشارة إلى البصيرة الروحية التي يدرك الإنسان بها هذا التميز الذي يختص الله به عباده المصطفين»[٢]. ويمضي أسد فيسمي انفلاق البحر معجزة لكنه يذكر لها تعليلاً علمياً فيقول: «إن ذلك الموضع لم يكن في ذلك الزمان البعيد بالعمق الذي هو عليه اليوم، وربما كان يشبه من بعض الجوانب ذلك الجزء الضحل من بحر الشمال... الذي يترك أعماقها الرملية صالحة للعبور مؤقتاً، والذي يعقبه مد عنيف مفاجئ يغمرها تماماً»[٣].

ورغم موقف أسد الذي سلك فيه منهج التاويل المنحرف في صرف دلائل النبوة للأنبياء عليهم السلام عن معانيها الصحيحة اللغوية والشرعية فإنه في ترجمته لـ«صحيح البخاري» والتي صدرت قبل ترجمته هذه للقرآن الكريم بعشرات السنين نجده ترجم كلمة «آية» بـ:

«a miracle»؛ أي: معجزة، وذلك في حديث: «انشقاق القمر» بل إنه لم

(١) المرجع السابق، ص٣٠.
(٢) المرجع السابق، ص٣٣.
(٣) المرجع السابق، نفس الصفحة.

يحاول تأويل هذه المعجزة بما يخرجها عن إعجازيتها كما فعل في تفسيره لآيات القرآن[١].

يقول الدكتور إبراهيم عوض في منهج تأويل المعجزات الذي سلكه محمد أسد في ترجمته: «بعض المفسرين في العصر الحديث قد درجوا على تأويل هذه المعجزات بما يخرجها عن إعجازيتها ويلحقها بالحوادث المعتادة التي تخضع لقوانين الطبيعة المطردة، ومن هؤلاء الأستاذ محمد أسد. وقد سبقه إلى هذه الخطة المفسرون القاديانيون مثل مولاي محمد علي وملك غلام فريد في ترجمتيهما التفسيريتين للقرآن الكريم إلى الإنجليزية. ولعل مولاي محمد علي هو الوحيد الذي ورد اسمه في ترجمة محمد أسد من بين المفسرين غير العرب، ولهذا دلالته، وإن كان الحق يوجب أن نقول: إن أسد لا يذهب مذهب القاديانيين في فتح باب النبوة بعد محمد ﷺ، إذ يؤكد أنه هو آخر الأنبياء، فلا نبي بعده»[٢].

هذه أبرز المواقف الاستشراقية تجاه المعجزات النبوية إجمالاً، وفيما يلي سيتناول البحث بعض دلائل النبوة التي حصلت لنبينا محمد ﷺ والمواقف الاستشراقية التفصيلية حولها.

---

(١) المرجع السابق، ص٣٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧.

المبحث الأول

البشارة به ﷺ في الكتب السابقة

لقد أخذ الله تعالى الميثاق على الأنبياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وينصروه إذا بعث وهم أحياء، وأن يبلغوا أقوامهم بذلك ليشيع خبره بين جميع الأمم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١]. وذلك لأن الرسل كانوا يبعثون في أقوامهم خاصة، وبعث محمد ﷺ للناس كافة، فبشر به جميع الأنبياء، وكان مما قاله عيسى عليه السلام لقومه كما ذكر الله تعالى عنه: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

ومن الأحاديث في هذا السياق: حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إني عبد الله لخاتم النبيين، وإن آدم عليه السلام لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين ترين**»[1]. وعن أبي أمامة رضي الله عنه أنه قال: «يا نبي الله ما كان

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨/ ٣٧٩ ـ ٣٨٠) قال: حدثنا عبد الرحمٰن بن مهدي، حدثنا =

أول بدء أمرك؟ قال: **دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي كأنه يخرج منها نور أضاءت منها قصور الشام»**[(١)].

والبشارات في الكتب السابقة: هي تلك الأنباء والأوصاف التي وردت عن مقدم محمد ﷺ مبينة اسمه وصفاته البدنية والمعنوية ونسبه ومكان بعثته، وصفة أصحابه وصفة أعدائه، ومعالم الدين الذي يدعو إليه، والحوادث التي تواجهه، والزمن الذي يبعث فيه، ليكون ذلك دليلاً على صدقه عند ظهوره بانطباق تلك الأوصاف عليه، وهي أوصاف وبشارات تلقاها أهل تلك الأديان نقلاً عن رهبانهم وأحبارهم وكهنتهم قبل ولادة محمد ﷺ بقرون كثيرة[(٢)].

= معاوية؛ يعني: ابن صالح، عن سعيد بن سويد الكلبي، عن عبد الأعلى بن هلال السلمي، عن عرباض بن سارية ثم ذكر الحديث.. وقال محقق المسند: حديث صحيح لغيره دون قوله: «وكذلك أمهات النبيين ترين»، سعيد بن سويد الكلبي روى عنه اثنان، وذكره ابن حبان في «الثقات»، وقال البخاري: لم يصح حديثه، فذكر الحافظ في ترجمته في «التعجيل» أنه يريد هذا الحديث، وقال: وخالفه ابن حبان والحاكم فصححاه، وقال البزار في كشف الأستار (٣/ ١١٣): شامي لا بأس به. وعبد الله بن هلال السلمي لم يسمه عبد الله إلا عبد الرحمٰن بن مهدي، وهو خطأ، والصواب: عبد الأعلى، نبه على ذلك عبد الله بن أحمد بإثر الرواية (١٧١٥٤)، وقد ترجمه الحسيني في الإكمال، ص٢٥١، وقال: مجهول، ولم يترجم له الحافظ في التعجيل، وهو على شرطه، وترجم له البخاري في التاريخ الكبير، وابن أبي حاتم في الجرح والتعديل، باسم عبد الأعلى بن هلال، ولم يذكرا في الرواة عنه سوى اثنين، وذكره ابن حبان في الثقات، فهو مجهول الحال. وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة من طريق الإمام أحمد، بهذا الإسناد، مختصراً. اهـ. وذهب الألباني رحمه الله إلى أن الحديث حسن دون لفظة: وكذلك ترى أمهات الأنبياء. انظر: السلسلة الضعيفة (٥/ ١٠٤).

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٦/ ٥٩٦)، وقال محقق المسند: صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف كسابقه. وأخرجه الطيالسي (١١٤٠)، وابن سعد (١/ ١٠٢)، والحارث بن أبي أسامة (٨٤٩٢)، والطبراني في الكبير (٧٧٢٩)، وفي الشاميين (١٥٨٢)، وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٠٥٥)، وأبو أحمد الحاكم في «الكنى» ٢/ ٩، والبيهقي في الدلائل (١/ ٨٤) من طرق عن الفرج بن فضالة، بهذا الإسناد. ورواية ابن سعد مختصرة. وفي الباب عن العرباض بن سارية، سلف برقم (١٧١٥٠)، وانظر تتمة شواهده هناك. قال السندي: قوله: «ما كان أول بدء أمرك»؟ أي: أي شيء ظهر أولاً في هذا العالم من أمر نبوتك. «**دعوة أبي**»؛ يعني: قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]. «**وبشرى عيسى**» بقوله: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦]. وذكر الألباني في السلسلة الصحيحة أن إسناده حسن وله شواهد تقويه، فهو صحيح لغيره (٤/ ٦٢).

(٢) بينات الرسول ﷺ ومعجزاته: د. عبد المجيد بن عزيز الزنداني، ص١٣.

وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك البشارات، ودلل بها على صدق محمد ﷺ. فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [الرعد: ٤٣]. وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُاْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾ [الشعراء: ١٩٧]. وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء: ١٩٦]، وقال تعالى عن محمد ﷺ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]. وهذا يعني أن انطباق البشارات على محمد ﷺ يدل على أنه المقصود بها، وأنه الرسول الذي أخبر الله تعالى بمقدمه كما آمن بذلك بعض أهل الكتاب وأنكره كثير منهم.

موقف المستشرقين:

شارك كثير من المستشرقين الغربيين جمهور أهل الكتاب السابقين في نظرتهم للبشارة بالنبي ﷺ، فمنهم من أنكر ذلك صراحة، ومنهم من شكك في ذلك بأساليب مختلفة.

فالمستشرق الفرنسي درمنغم في كتابه «محمد» ذكر قصة إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه ونبوءة سيده بظهور النبي ﷺ، وكذلك معرفة أمية بن أبي الصلت بكتب اليهود والنصارى وأنه سيخرج نبي من العرب. ثم يقول بعد ذلك: «وكان بعض المذاهب النصرانية المنتشرة في شمال جزيرة العرب يقول باقتراب ظهور نبي آخر الزمان في آخر الزمان، وبلغ هذا الاعتقاد من الانتشار ما سرى معه إلى بعض مشركي العرب»[1]. فهو ينسب هذه البشارات والتنبؤات الى اعتقادات بعض المذاهب النصرانية لا إلى الكتب المقدسة ذاتها، والتي لا يسلم بتنبؤها بخروجه ﷺ وبعثته.

وأما المستشرق النمساوي ألويس شبرنجر في كتابه عن سيرة النبي ﷺ فيزعم أن اسم النبي ﷺ الحقيقي هو قثم، وأن النبي - ﷺ - تسمى باسم محمد في المدينة المنورة، بعد اختلاطه بالنصارى، وقد التقطه من خلال قراءته لنبوءات الأناجيل عن البارقليط.

(١) ص١٥.

وقد أيده عدد من المستشرقين، منهم: المستشرق الفرنسي اليهودي هرتويغ درنبرغ Hartwig Derenbourg (١٩٠٨م)، والمستشرق الألماني ثيودور نولدكه (١٩٣٠م) صاحب كتاب «تاريخ القرآن»، والمستشرق الإيطالي الأمير ليون كايتاني في كتابه الشهير حوليات الإسلام[١].

وقد شارك في هذه النظرة المشككة حتى بعض المتعاطفين من المستشرقين كحال كارين أرمسترونج التي أشارت في كتابها عن سيرة النبي ﷺ إلى أن «بعض المسيحيين العرب في الكنيسة السريانية قد ترجموا جزءاً من الإنجيل بطريقة تبيِّن أنهم كانوا يتوقعون رسالة محمد. فقد ذُكر أن المسيح قال: إنه سيرسل بعد وفاته إلى أتباعه (روح القدس) Paraclete يقوم بتذكرتهم بكل ما علمهم إياه ويساعدهم على فهمه. وترجم اللفظ Paraclete في ذلك الجزء من الكتاب المقدس السرياني إلى الكلمة (Munahhema) والتي بدت، بعد الحدث، قريبة جداً من محمد. وكان اللفظ الذي ظهر لدى بعض المسيحيين العرب الآخرين هو (Periklytos)، والتي تترجم إلى اللفظ العربي (أحمد). وهو اسم كان شائعاً في بلاد العرب»[٢].

فأرمسترونج في النص السابق تزعم تبعاً لتفسيرات النصارى - والتي سيأتي الرد عليها - أن المقصود بـ(paraclete) هو الروح القدس الإلـٰه، وترى أنه قد حوَّر معنى الترجمة عند بعض المسيحيين العرب إلى كلمة (محمد) أو (أحمد).

وتزيد أرمسترونج من مزاعمها لتؤكد علم النبي ﷺ بهذه الترجمة، وأن هذا ما جعل القرآن يشير إليها كما تقول: «ولا بد أن محمداً قد أُعلم بتلك الترجمة، كما أن القرآن يشير إلى المعتقد بأن المسيح قد بشر برسول يأتي من بعده اسمه (أحمد) ليؤكد رسالته»[٣].

وأفضل هؤلاء المستشرقين حالاً في هذه المسألة هو من يعرض لهذه المسألة دون تشكيك أو تعليق، وهذا كحال مونتغمري وات في كتابه «محمد في

(١) تاريخ العرب في الإسلام، جواد علي، ص١٢١ ـ ١٢٥.
(٢) ص١١٤ ـ ١١٥.
(٣) ص١١٥.

مكة» حيث عرض للقاء النبي ﷺ ببحيرا الراهب وتعرفه على النبي ﷺ بما كان يعلمه من وصفه في الكتب المقدسة، وكذلك أورد قوله ﷺ: «**أنا دعوة إبراهيم، وبشرى عيسى**...»[١] ونحو ذلك من أحداث السيرة المؤيدة للبشارة به في الكتب السابقة دون مناقشة أو تحليل[٢].

أما المستشرقين المسلمين فلا شك في أن عرضهم لهذه المسألة سيكون موافقاً للقرآن باعتبارهم آمنوا به وحياً إلٰهياً منزلاً من قبل الله تعالى يذكر أن رسالته ﷺ قد بشر بها أنبياء قبله، كما أن ذكره ﷺ وصفته موجود فيما أنزله الله في الكتب السابقة، وإن كانت هذه البشارات قد تعرضت لكثير من التحريف كما أن كتبهم ذاتها قد طرأ عليها تغيير وتبديل.

وفي سياق هذه البشارة بالنبي ﷺ يتحدث المستشرق الفرنسي المسلم نصر الدين دينيه في كتابه «محمد رسول الله» عن رحلة النبي ﷺ في شبابه إلى بصرى، فيقول: «وفي هذا القطر أثار المصطفى في قوة، اهتمام كل الرهبان ـ حفظة الكتب المقدسة ـ وقد كانوا ينتظرون رسولاً جديداً من قبل الله. . .»[٣].

هذه أبرز المواقف الاستشراقية من موضوع البشارة به ﷺ في الكتب السابقة.

نماذج من البشارة به ﷺ في الكتب السابقة:

قبل أن نبيِّن نماذج من هذه البشارات وفق الرؤية الإسلامية وموقف أهل الكتاب منها، فإنه ينبغي أن نبين في هذا المقام أمرين:

الأول: أن هذه البشارات ليست لازمة لصدق رسالة النبي محمد ﷺ؛ لأن هذه الرسالة ليست في حاجة إلى دليل يقام عليها من خارجها، بحيث إذا لم يوجد ذلك الدليل بطلت تلك الرسالة؛ وذلك لأنها رسالة أدلة صدقها وشواهدها نابعة من ذاتها، متعددة في جوانبها.

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: ص٦٩ ـ ٧٢.

(٣) محمد رسول الله، ص٨٨.

يقول العلامة ابن القيِّم رحمه الله:

«إن شواهد النبوة وآيتها لا تنحصر فيما عند أهل الكتاب من نعت النبي وصفته، وشواهدها متنوعة متعددة جداً، ونعته في الكتب المتقدمة فرد من أفرادها. وجمهور أهل الأرض لم يكن إسلامهم عن الشواهد والأخبار التي في كتبكم، وأكثرهم لا يعلمونها ولا سمعوها بل أسلموا للشواهد التي عاينوها، والآيات التي شاهدوها، وجاءت تلك الشواهد التي عند أهل الكتاب مقوية وعاضدة من باب تقوية البنية، وقد تم النصاب بدونها.

فهؤلاء العرب من أولهم إلى آخرهم لم يتوقف إسلامهم على معرفة ما عند أهل الكتاب من الشواهد، وإن كان ذلك قد بلغ بعضهم وسمعه منهم قبل النبوة وبعدها، كما كان الأنصار يسمعون من اليهود صفة النبي ﷺ وبعثه ومخرجه، فلما عاينوه وأبصروه عرفوه بالنعت الذي أخبرهم به اليهود فسبقوهم إليه، فشرق أعداء الله بريقهم وغصوا بمائهم، وقالوا: ليس هو الذي كنا نعدهم به.

والعلم بنبوة محمد والمسيح وموسى لا يتوقف على العلم بأن من قبلهم أخبر بهم وبشر بنبوتهم، بل طرق العلم بها متعددة، فإذا عرفت نبوة النبي ﷺ بطريق من الطرق ثبتت نبوته ووجب اتباعه، وإن لم يعلم أن من قبله بشَّر به»[(١)].

الثاني: أن أهل الإسلام حينما يتحدثون عن هذه البشارات الواردة في الكتب السابقة عنه ﷺ والتي أخبر عنها الكتاب والسُّنَّة، فهم لا يقصدون بذلك أن هذه البشارات قد جاءت باسمه ﷺ العربي الصريح، فإن هذا ـ كما يذكر العلامة ابن القيم ـ لم يقله عالم من علماء المسلمين، ولا أخبر الله سبحانه وتعالى به في كتابه عنهم، ولا رسوله، ولا قاله أحد من الصحابة، ولا الأئمة بعدهم، ولا علماء التفسير، ولا المعتنون بأخبار الأمم وتواريخهم[(٢)]. وإنما مقصودهم أن هذه البشارات قد جاءت بذكره ﷺ في نعته وصفته وعلاماته ودعوته وصفة أمته، ووقت مخرجه ونحو ذلك، وهذا يحصل به التمييز أكثر من الاسم الصريح الذي

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، ت: محمد أحمد الحاج (٢/ ٤٣٣).

(٢) المرجع السابق (١/ ٢٩٦).

قد يُشتبه فيه بادعاء غيره له، وهذا القدر الذي ذكرناه من نعته وصفته ﷺ مذكور في التوراة والإنجيل، وغيرها من النبوات التي بأيدي أهل الكتاب[1] كما ستأتي الإشارة إلى طرف منها.

وفيما يلي نعرض لنماذج من هذه البشارات الواردة في مصادر أهل الكتاب السابقة، وذلك على النحو التالي:

١ ـ بشاراته ﷺ في التوراة.

٢ ـ بشاراته ﷺ في الإنجيل.

أولاً: البشارات به ﷺ في التوراة[2]:

تعددت البشارات برسول الإسلام في التوراة وملحقاتها، ولكن اليهود أزالوا

---

(١) المرجع السابق (١/ ٢٩٧).

(٢) التوراة: كلمة عبرية معناها: الشريعة، وتسمّى الناموس؛ أي: القانون. كما تسمى أيضاً: (البانتاتيك) وهي كلمة يونانية تعني: الأسفار الخمسة، وهي:

١ ـ سفر التكوين: يقع في (٥٠) إصحاحاً، وسمي بذلك لاشتماله على قصة خلق العالم، ثم قصص آدم وذريته ونوح وإبراهيم وذريته، ينتهي هذا السفر باستقرار بني إسرائيل بمصر وموت يوسف عليه السلام.

٢ ـ سفر الخروج: ويقع في (٤٠)، إصحاحاً، وسمي بذلك نسبة إلى حادثة خروج بني إسرائيل من مصر إلى أرض سيناء بقيادة موسى عليه السلام، وفيه ذكر الحوادث التي جرت لبني إسرائيل في أرض التيه، والوصايا العشر والكثير من الأحكام والتشريعات.

٣ ـ سفر اللاويّين: ويقع في (٢٧)، إصحاحاً، ويحتوى على شؤون العبادات وخاصة القرابين والطقوس الكهنوتية وكانت الكهانة موكولة إلى سبط لاوي بن يعقوب، فلذلك نسب السفر إليهم.

٤ ـ سفر العدد: ويقع في (٣٦) إصحاحاً، وسمي بذلك لأنه حافل بالعد والإحصاء لأسباط بني إسرائيل ومما يمكن إحصاؤه من شؤونهم ويتخلل ذلك بعض الأحكام والتشريعات.

٥ ـ سفر التثنية: ويقع في (٣٤) إصحاحاً، وسمي بذلك لإعادة ذكر الوصايا العشر وتكرار الشريعة والتعاليم مرة ثانية على بني إسرائيل عند خروجهم من أرض سيناء. انظر: قاموس الكتاب المقدس (ص٢٣٥، ٢٣٩، ٦٠٩، ٨٠١، ٨٠٨). وقد جاء في آخر سفر التثنية النص الآتي: «فمات هناك موسى، عبد الرّبّ في أرض مؤاب بأمر الرّبّ وتَمَّ دفنه في الوادي في أرض مؤاب تجاه بيت فاعور ولم يعرف إنسان قبره إلى اليوم وكان موسى ابن مائة وعشرين سنة حين مات...». التثنية (٣٤/ ٥ ـ ٧). وهذا النص السابق صريح في أن كاتبه ليس موسى عليه السلام، وهو ما صرح به الفيلسوف اليهودي باروخ سبينوز (ت١٦٧٧م)، في كتابه: رسالة في اللاهوت والسياسة، ص٢٦٦ ـ ٢٦٧، وكذلك المؤرخ ول ديورانت في موسوعته قصة الحضارة (٢/ ٣٧٦). =

عنها كل معنى صريح، وصيروها نصوصاً احتمالية تسمح لهم بصرفها عنه ﷺ، ومع هذا فقد بقيت كثير من ألفاظها بعد تعديلها وتحريفها قوية الدلالة على معناها الأصلي من حملها على رسول الإسلام ﷺ؛ لأن حملها على غيره متعذر أو متعسر أو محال.

فهي أشبه ما تكون برسالة مغلقة مُحي عنوانها ولكن صاحب الرسالة قادر ـ بعد فتحها ـ أن يثبت اختصاصها به؛ لأن الكلام الداخلي الذي فيها يقطع بأنه له دون سواه؛ لما فيها من قرائن وبينات واضحة[1]، ومن هذه البشارات ما يلي:

١ ـ جاء في سفر التثنية: «وهذه هي البركة التي بارك بها موسى رجل الله بني إسرائيل قبل موته * فقال جاء الرب من سيناء[2] وأشرق لهم من سعير[3] وتلألأ من جبل فاران[4] وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم *»[5].

= علماً بأن هذه التوراة تعتبر جزءاً رئيساً من (الكتاب المقدس) عند اليهود ـ والذي يسمّيه النصارى بالعهد القديم ـ وينقسم بحسب محتوياته إلى أربعة أقسام هي: ١ ـ التوراة. ٢ ـ الأسفار التاريخية وهي: (١٢)، سفر تعرض لتاريخ بني إسرائيل منذ دخولهم فلسطين حتى فترة السبي البابلي وهذه الأسفار هي: سفر يوشع، القضاة، راعوث، صموئيل الأوّل والثاني، الملوك الأول والثاني، أخبار الأيام الأوّل والثاني وعزرا ونحميا وأستير. ٣ ـ أسفار الأناشيد: وعددها (٥)، أسفار هي: أيوب، المزامير، الأمثال، الجامعة، نشيد الأناشيد. ٤ ـ أسفار الأنبياء وعددها (١٧) سفراً تنسب إلى أنبيائهم ومنهم أشعيا وأرميا وحزقيال وغيرهم. انظر: الكتاب المقدس (الترجمة العربية)، طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، الفهرس، ص٢.

(١) الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي: د. عبد العظيم المطعني، ص٥٩١.

(٢) سيناء: أو حوريب اسم جبل واقع في شبه جزيرة سيناء جنوباً. وهناك رأيان في موقعه: أحدهما أنه جبل سربال في واد فيران. والآخر: أنه جبل موسى. قاموس الكتاب المقدس، ص٤٩٨.

(٣) سعير أو ساعير: جبال ممتدة في الجهة الشرقية من وادي عربة من البحر الميت إلى خليج العقبة سميت كذلك نسبة إلى سعير الحوري. ويطلق على جبل في أرض يهوذا. بين قرية يعاريم وبيت شمس. قاموس الكتاب المقدس، ص٤٦٦.

(٤) فاران: كلمة عبرانية معربة. من أسماء مكة أو جبال الحجاز. وقيل: إن (فاران) اسم أحد العمالقة السبعة الذين اقتسموا الأرض. فجعلوا الفاران الحجاز. معجم البلدان للحموي (٤/ ٢٢٥)، النصيحة الإيمانية، ص٣٤٦، تحفة الأريب، ص٢٦٥. يقول شيخ الإسلام في تعليقه على هذه البشارة: «وعلى هذا فيكون ذكر الجبال الثلاثة حقاً. جبل حراء الذي ليس حول مكة، جبل أعلى منه، ومنه كان نزول أوّل الوحي على النبيّ ﷺ. وحوله من الجبال جبال كثيرة حتى قد قيل: إن بمكة اثني عشر ألف جبل. وذلك المكان يسمى فاران إلى هذا اليوم والبرية التي بين مكة وطور سيناء تسمى (برية فاران). ولا يمكن أحد أن يدّعي أنه ـ بعد المسيح ـ نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ولا بعث نبي». الجواب الصحيح (٣/ ٣٠١).

(٥) تثنية (٣٣/ ١ ـ ٣). وقد تكرر معنى هذه البشارة في سفر حقبوق (٣/ ٣) كالآتي: «الله جاء من =

وهذا النص فيه إشارة إلى ثلاث نبوات:

الأولى: نبوة موسى عليه السلام التي تلقاها على جبل سيناء.

الثانية: نبوة عيسى عليه السلام، وساعير هي قرية مجاورة لبيت المقدس، حيث تلقى عيسى عليه السلام أمر رسالته.

الثالثة: نبوة محمد ﷺ، وجبل فاران هو المكان الذي تلقى فيه ﷺ أول ما نزل عليه من الوحي وفاران هي مكة المكرمة مولد ومنشأ ومبعث محمد ﷺ.

وهذه العبارة ـ مرة أخرى ـ تضمنت خبراً وبشارتين:

فالخبر هو تذكير موسى بفضل الله عليه حيث أرسله إليهم رسولاً.

والبشارتان:

الأولى: خاصة بعيسى عليه السلام. والثانية خاصة بمحمد ﷺ.

وموقف اليهود منهما النفي: فلا الأولى بشارة بعيسى ابن مريم، ولا الثانية بشارة برسول الإسلام.

أما موقف النصارى فإن النفي ـ عندهم ـ خاص ببشارة رسول الإسلام. ولهم في ذلك مغالطات عجيبة، حيث قالوا: إن «فاران» هي برية الشام قريبة من برية بئر السبع وهو ما اتفق عليه واضعوا قاموس الكتاب المقدس(١).

ولم يقتصر ورود ذكر «فاران» على هذا الموضع من كتب العهد القديم، فقد ورد في قصة إسماعيل عليه السلام مع أمه هاجر حيث تقول التوراة: إن إبراهيم عليه السلام استجاب لسارة بعد ولادة هاجر ابنها إسماعيل وطردها هي وابنها فنزلت وسكنت

= تيمان والقدوس من جبال فاران، سلاه. جلاله غطى السماوات والأرض أمتلات من تسبيحه وكان لمعان كالنور».

وقد وردت البشارة في: الدين والدولة: لعلي بن ربن الطبري، ص١٣٨، الفصل في الملل والنحل: لابن حزم (٨/ ١٩٤)، تخجيل من حرف التوراة والإنجيل: للجعفري (٢/ ٦٥٤)، الجواب الصحيح: لشيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ٢١٢)، وهداية الحيارى: لابن القيم ص١١٢، الأجوبة الفاخرة: للقرافي، ص١٦٥، إفحام اليهود للسموأل ص١١٨، تحفة الأريب: لعبد الله الترجمان، ص٢٦٥، إظهار الحق: رحمت الله الهندي، ص٥١٧، النصيحة الإيمانية في فضيحة الملة النصرانية: لنصر بن يحيى المتطبب، ص٣٤٦، محمّد ﷺ في الكتاب المقدس: عبد الأحد داود، ص٣٢، محمّد ﷺ: لإبراهيم خليل، ص٦٥ ـ ٦٧.

(١) انظر: ص٦٦٧.

في «برية فاران»[١]. على أنه يلزم من دعوى واضعي قاموس الكتاب المقدس من تفسيرهم فاران ببرية الشام أن الكذب باعترافهم وارد في التوراة. لأنه تعالى لم يبعث نبياً من برية الشام حتى تكون البشارة صادقة. ومستحيل أن يكون هو عيسى عليه السلام؛ لأن العبارة تتحدث عن بدء الرسالات وعيسى إنما تلقى الإنجيل بساعير.

فليست «فاران» إلا «مكة المكرمة» وباعتراف الكثير منهم، وجبل فاران هو جبل «النور» الذي به غار حراء، الذي تلقى فيه رسول الإسلام ﷺ بدء الوحي. وهجرة إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة المكرمة «فاران» أشهر من الشمس.

وترتيب الأحداث الثلاثة في العبارة المذكورة، يدل على ذلك:

- جاء من سيناء.
- وأشرق من ساعير.
- وتلألأ من فاران.

هذا الترتيب الزمني دليل ثالث على أن «تلألأ من جبل فاران» تبشير قطعي برسول الإسلام ﷺ.

وفي بعض «النسخ» كانت العبارة: «واستعلن من جبل فاران» بدل «تلألأ».

وأيّاً كان اللفظ فإن «تلألأ» و«استعلن» أقوى دلالة من «جاء» و«أشرق» وقوة الدلالة هنا ترجع إلى «المدلولات» الثلاثة. فالإشراق جزء من مفهوم «المجيء» وهكذا كانت رسالة عيسى بالنسبة لرسالة موسى عليهما السلام.

أما تلألأ واستعلن فهذا هو واقع الإسلام، رسولاً ورسالة وأمة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

هذه المغالطة (فاران هي برية الشام) لها مثيل حيث تزعم التوراة أن هاجر أم إسماعيل عندما أجهدها العطش هي وابنها إسماعيل بعد أن طردا من وجه «سارة» طلبت الماء فلم تجده إلا بعد أن لقيا ملاك «الرب» في المكان المعروف الآن «ببئر سبع»؟! وأنها سميت بذلك لذلك..؟! وكما كذبت فاران دعوى «برية

---

(١) تكوين (٢١/ ٢١).

الشام» كذَّبت «زمزم الطهور» دعوى «بئر سبع»؟[١][٢].

يقول العلامة ابن القيِّم: «في التوراة في السفر الخامس: أقبل الله من سيناء، وتجلى من ساعير، وظهر من جبال فاران، ومعه ربوات الأطهار عن يمينه، وهذه متضمنة للنبوات الثلاثة: نبوة موسى، ونبوة عيسى، ونبوة محمد ﷺ. فمجيئه من سيناء وهو الجبل الذي كلم الله موسى ونبأه عليه إخبار عن نبوته. وتجليه من ساعير هو مظهر عيسى المسيح من بيت المقدس، وساعير: قرية معروفة هناك إلى اليوم، وهذه بشارة بنبوة المسيح، وفاران: هي مكة، وشبَّه ﷻ نبوة موسى بمجيء الصبح، وفلقه، ونبوة المسيح بعدها بإشراقه وضيائه، ونبوة خاتم النبيين بعدهما ﷺ باستعلان الشمس وظهورها، وظهور ضوئها في الآفاق، ووقع الأمر كما أخبر به سواء، فإن الله صدع بنبوة موسى ليل الكفر فأضاء فجره بنبوته، وزاد الضياء والإشراق بنبوة المسيح، وكمل الضياء واستعلن وطبق الأرض بنبوة محمد ﷺ.

وذكر هذه النبوات الثلاثة التي اشتملت عليها هذه البشارة نظير ذكرها في أول سورة التين ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾. فذكر أمكنة هؤلاء الأنبياء وأرضهم التي خرجوا منها، والتين والزيتون: المراد به منبتهما وأرضهما، وهي الأرض المقدسة التي هي مظهر المسيح، وطور سينين الجبل الذي كلم الله عليه موسى فهو مظهر نبوته، وهذا البلد الأمين: مكة، حرم الله وأمنه التي هي مظهر نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين. فهذه الثلاثة نظير تلك الثلاثة سواء.

قالت اليهود: فاران هي أرض الشام وليست أرض الحجاز، وليس هذا ببدع من بهتهم وتحريفهم، وعندهم في التوراة: أن إسماعيل لما فارق أباه سكن في برية فاران، هكذا نطقت التوراة ولفظها (وأقام إسماعيل في برية فاران وأنكحته أمه امرأة من أرض مصر).

ولا يشك علماء أهل الكتاب أن فاران مسكن لآل إسماعيل، فقد تضمنت التوراة نبوة تنزل بأرض فاران، وتضمنت نبوة تنزل على عظيم من ولد إسماعيل،

---

(١) التكوين (٢١/٢١).

(٢) الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي: د. عبد العظيم المطعني، ص٥٩٢ ـ ٥٩٤.

وتضمنت انتشار أمته وأتباعه حتى يملؤوا السهل والجبل، كما سنذكره إن شاء الله. ولم يبق بعد هذا شبهة أصلاً أن هذه هي نبوة محمد ﷺ التي نزلت بفاران على أشرف ولد إسماعيل حتى ملأ الأرض ضياء ونوراً، وملأ أتباعه السهل والجبل... ويقال لهؤلاء المكابرين: أي نبوة خرجت من الشام فاستعلنت استعلان ضياء الشمس، وظهرت فوق ظهور النبوتين قبلها؟! وهل هذا إلا بمنزلة مكابرة من يرى الشمس قد طلعت من المشرق فيغالط ويكابر ويقول بل طلعت من المغرب؟»[(١)]

ويبيِّن الدكتور منقذ السقار أوجه تحقق هذه البشارة في شخص النبي ﷺ في عدة أمور:

أ ـ أن جبل فاران هو جبل مكة، حيث سكن إسماعيل، تقول التوراة عن إسماعيل: «كان الله مع الغلام فكبر، وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر»[(٢)]. وانتشر أبناؤه في هذه المنطقة، كما جاء في التوراة: «هؤلاء هم بنو إسماعيل... وسكنوا من حويلة إلى شور»[(٣)]، وحويلة كما جاء في قاموس الكتاب المقدس منطقة في شمال أرض اليمن، بينما شور في جنوب فلسطين[(٤)]. وعليه فإن إسماعيل وأبناءه سكنوا هذه البلاد الممتدة جنوب الحجاز وشماله، وهو يشمل أرض فاران التي سكنها إسماعيل.

كما وقد قامت الأدلة التاريخية على أن فاران هي الحجاز، حيث بنى إسماعيل وأبوه الكعبة، وحيث تفجر زمزم تحت قدميه، وهو ما اعترف به عدد من المؤرخين كما نقل عنهم المؤرخ الهندي مولانا عبد الحق فدرياتي في كتابه «محمد في الأسفار الدينية العالمية»، ومن هؤلاء المؤرخ الكنسي يوسبيوس في كتابه «أماكن الكتاب المقدس»، فقد ذكر بأن فاران في صحراء العرب، وقد ترجمه اللاهوتي جيروم من اليونانية إلى اللاتينية، فوافقه وزاد عليه بقوله: إنّ صحراء السرسيين تسمى فاران. وجاء في قاموس الكتاب المقدس بالعبرية

---

(١) الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، ص٥٩٢ ـ ٥٩٤.

(٢) التكوين (٢١/ ٢٠ ـ ٢١).

(٣) التكوين (٢٥/ ١٦ ـ ١٨).

(٤) ص٣٢٩.

(Strong's Hebrew Bible Dictionary) أن فاران هي صحراء العرب، حيث يقول: «Paran, a desert of Arabia»[(١)].

ب ـ أن وجود منطقة اسمها فاران في جنوب سيناء لا يمنع من وجود فاران أخرى، هي تلك التي سكنها إسماعيل، فقد ورد مثلاً إطلاق اسم سعير على المنطقة التي تقع في أرض أدوم والتي هي حالياً في الأردن، وتكرر ذلك الإطلاق في مواضع عديدة في الكتاب، ولم تمنع كثرتها أن يطلق ذات الاسم على جبل في وسط فلسطين غربي القدس في أرض سبط يهوذا[(٢)].

ولنا أن نسأل أولئك الذين يصرون على أن فاران هي فاران سيناء: من هو القدوس الذي تلألأ من ذلكم الجبل الذي لا يرتبط بأدنى علاقة بأي من أحداث الإنسانية المهمة، فمن الذي تلألأ عليه؟... ونقول: لم خص جبل فاران بالذكر دون سائر الجبال لو كان الأمر مجرد إشارة إلى انتشار مجد الله كما زعم بعض كتاب اليهود، فإن مجد الله لم يتوقف عند حدود فاران أو جبل سعير.

ت ـ ومما يؤكد أن الأمر متعلق بنبوءة، الحديث عن آلاف القديسين، والذين تسميهم بعض التراجم «أطهار الملائكة»؛ أي: أطهار الأتباع، إذ يطلق هذا اللفظ ويراد به: الأتباع، كما جاء في سفر الرؤيا أن «ميخائيل وملائكته حاربوا التنين، وحارب التنينُ وملائكتُه...»[(٣)]. فمتى شهدت فاران مثل هذه الألوف من الأطهار إلا عند ظهور محمد ﷺ وأصحابه؟.

ث ـ وما جاء في سفر حبقوق يؤيد قول المسلمين حيث يقول: «الله جاء من تيمان، والقدوس من جبل فاران. سلاه. جلاله غطى السماوات، والأرض امتلأت من تسبيحه، وكان لمعان كالنور. له من يده شعاع، وهناك استتار قدرته، قدامه ذهب الوبأ، وعند رجليه خرجت الحمى، وقف وقاس الأرض، نظر فرجف الأمم...»[(٤)].

فالنص شاهد على أنه ثمة نبوة قاهرة تلمع كالنور، ويملأ الآفاق دوي آذان

---

(١) هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟ ص٨٤ ـ ٨٥.
(٢) يشوع (١٥/ ١٠).
(٣) الرؤيا (١٢/ ٧).
(٤) حبقوق (٣/ ٣ ـ ٦).

هذا النبي بالتسبيح. وتيمان كما يذكر محررو الكتاب المقدس هي كلمة عبرية معناها: «الجنوب»[(١)]، لذا ومن هذا كله فالقدوس المتلألئ في جبال فاران هو نبي الإسلام، فكل الصفات المذكورة لنبي فاران متحققة فيه، ولا تتحقق في سواه من الأنبياء الكرام[(٢)].

٢ ـ ومن البشارات به ﷺ ما جاء في التوراة من قول الله لموسى عليه السلام حسب ما تروي التوراة: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك، وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه»[(٣)].

حدث هذا حسب روايات التوراة وعداً من الله لموسى في آخر عهده بالرسالة، وكان يهمه أمر بني إسرائيل من بعده، فأعلمه الله ـ حسب هذه الرواية التوراتية ـ أنه سيبعث فيهم رسولاً مثل موسى عليه السلام.

ولقوة دلالة النص على نبوة محمد ﷺ فقد وقف أهل الكتابين ـ اليهود والنصارى ـ موقفين مختلفين هدفهما واحد، وهو أن النص ليس بشارة برسول الإسلام.

أما اليهود فلهم فيه رأيان[(٤)]:

الأول: أن العبارة نفسها ليست خبراً بل هي نفي، ويقدرون قبل الفعل «أقيم» همزة استفهام يكون الاستفهام معها «إنكارياً» وتقدير النص عندهم هكذا: «أأقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك..؟ ـ!».

وهذا الرأي باطل، ولا يحتاج في بيان بطلانه إلى أكثر من كلام التوراة نفسها. وذلك؛ لأنه لو كان النص كما ذكروا بهمزة استفهام إنكاري محذوفة هي في قوة المذكور لكان الكلام نفياً فعلاً... ولو كان الكلام نفياً لما صح أن يعطف عليه قوله بعد ذلك:

---

(١) قاموس الكتاب المقدس، ص٢٢٨.

(٢) هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ، ص٨٤ ـ ٨٧.

(٣) التثنية (١٨/١٨ ـ ١٩). وانظر هذه البشارة في: هداية الحيارى (١/٣١٦)، إظهار الحق (٤/١١١٦)، محمّد ﷺ: لإبراهيم خليل ص٦٧، هل بشَّر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟ ص٧٥.

(٤) هداية الحيارى (١/٣١٧).

«ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه»؟! فهذا المقطع إثبات قطعاً فهو مرتب على إقامة النبي الذي وعد به المقطع الذي قبله. فدل هذا «العطف» على أن المقطع السابق وعد خبري ثابت لا نفي. ويترتب على ذلك بطلان القول الذاهب إلى تقدير الاستفهام..؟!.

الثاني: وقد أحس اليهود ببطلان القول بالاستفهام فاحتاطوا للأمر وقالوا: لا مانع أن يكون النص خبراً ووعداً مثبتاً، ولكنه ليس المقصود به عيسى ابن مريم عليه السلام، ولا محمد بن عبد الله رسول الإسلام ﷺ، بل المراد به نبي من أنبياء إسرائيل يوشع بن نون فتى موسى[1]، أو صموئيل..؟![2].

أما النصارى[3]: فيحملون البشارة في النص على عيسى عليه السلام، فقد قال

---

(١) يوشع بن نون عليه السلام، كان اسمه في الأصل: هوشع، يهوشوع ثم دعاه موسى يوشع، ومعناه: يهوه قد خلص، وهو خليفة موسى الذي قاد بني إسرائيل لدخول الأرض المقدسة ومحاربة أهلها. وينسب إليه سفر باسمه عدد إصحاحاته (٢٤) إصحاحاً، وكاتب هذا السفر مجهول وقد ينسب إلى أشخاص متعددين. انظر ترجمته في مصادر أهل الكتاب: سفر يشوع، وقاموس الكتاب المقدس، ص١٠٦٧، ١٠٧٠. أما في المصادر الإسلامية، فإن القرآن الكريم لم يصرح باسمه في قصة الخضر في آخر سورة الكهف، وقد ورد النص على نبوته وأنه خليفة موسى في بني إسرائيل فيما رواه الإمام مسلم (٣/ ١٣٦٦)، وأحمد (٣/ ٣١٨)، والبخاري مختصراً (الفتح ٩/ ٢٢٣) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**غزا نبي من الأنبياء فقال لقومه: لا يتبعني رجل قد ملك بضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولم يبن، ولا آخر قد بنى بنياناً ولم يرفع سقفها، ولا آخر قد اشترى غنماً أو خلفات وهو ينتظر أولادها**». قال: فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر أو قريباً من ذلك، فقال للشمس: «**أنت مأمورة وأنا مأمور، اللَّهُمَّ احبسها عليّ شيئاً**»، فحسبت عليه حتى فتح الله عليه... الحديث. ويتبين لنا اسم هذا النبي الذي حبست له الشمس من الحديث الذي رواه الإمام أحمد (٢/ ٣٢٥) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الشمس لم تحبس على بشر إلّا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس**». قال الإمام ابن كثير: «انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري». وصحّحه الشيخ الألباني. انظر: الأحاديث الصحيحة (١/ ٣٤٧ ـ ٣٥١، ح٢٠٢).

(٢) صموئيل معناه: (اسم الله)، وهو في العهد القديم أول أنبياء العبرانيين بعد موسى وآخر القضاة في بني إسرائيل، وقد أمره الله أن يمسح شاؤل ملكاً على بني إسرائيل، وينسب إليه سفران باسمه، الأول إصحاحاته (٣١)، والثاني (٢٤) إصحاحاً. أما مؤلِّف السفر الأوّل والثاني فهو مجهول. ويقول سبينوزا: لم يكتب صموئيل سفره؛ لأن الرواية تمتد إلى ما بعد موته بقرون عديدة. انظر: رسالة في اللاهوت، ص٢٧٥، قاموس الكتاب المقدس، ص٥٥٢ وما بعدها.

(٣) هداية الحيارى (١/ ٣١٨).

بطرس[1] في سياق حديثه عن المسيح: «فإن موسى قال للآباء: إن نبياً مثلي سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم، له تسمعون في كل ما يكلمكم به، ويكون أن كل نفس لا تسمع لذلك النبي تباد من الشعب، وجميع الأنبياء أيضاً من صموئيل فما بعده، جميع الذين تكلموا سبقوا وأنبأوا بهذه الأيام»[2]، فبطرس يرى نبوءة موسى متحققة في شخص المسيح. وينفي أن يكون المراد بها رسول الإسلام ﷺ، وقد علمنا قبلاً أن اليهود ينفون أن تكون لعيسى عليه السلام.

والواقع أن كل ما ذهب إليه اليهود والنصارى باطل. ولا يُحتاج في بيان بطلانه إلى أبعد من دلالة النص المتنازع عليه نفسه. أما الحق الذي لا جدال فيه فإن هذا النص ليس له محمل مقبول إلا البشارة برسول الإسلام ﷺ، وبيان ذلك أن يقال:

إن النص المتنازع عليه يقيد البشارة بالنبي الموعود به، بشرطين:

أحدهما: أنه من وسط إخوة بني إسرائيل.

وثانيهما: أنه مثل موسى عليه السلام صاحب شريعة وجهاد لأعداء الله.

وهذان الشرطان لا وجود لهما لا في يوشع بن نون، ولا في صموئيل كما يدعي اليهود في أحد قوليهم. ولا في عيسى عليه السلام كما يدعي النصارى.

ـ أما انتفاء الشرط الأول فلأن يوشع وصموئيل وعيسى من بني إسرائيل، وليسوا من وسط إخوة بني إسرائيل. ولو كان المراد واحداً منهم لقال في الوعد: أقيم لهم نبياً منهم..؟!. هذا هو منهج الوحي في مثل هذه الأمور كما قال في شأن النبي ﷺ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]. وكما جاء على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩].

---

(١) بطرس: اسم يوناني معناه: صخرة أو حجر، والصخرة باليونانية بيتروس ومنها بطرس. وكما جاء في قاموس الكتاب المقدس أن المسيح هو من سماه بهذا الاسم، وأن المسيح دعاه ثلاث مرات: دعاه ليكون تلميذاً، ثم دعاه ليكون رفيقاً، ثم دعاه ليكون رسولاً له. وقد كان أحد أهم ثلاثة تلاميذ للمسيح عليه السلام. ولبطرس رسالتين ضمن العهد الجديد: الأولى وإصحاحاتها (٥)، والثانية وإصحاحاتها (٣). انظر: القاموس، ص١٧٤ ـ ١٧٩.

(٢) أعمال الرسل (٣/ ٢٢ ـ ٢٤).

ـ وأما انتفاء الشرط الثاني، فلأن: لا صموئيل ولا يوشع ولا عيسى ابن مريم كانوا مثل «موسى» عليه السلام.

فموسى كان صاحب شريعة، ويوشع وصموئيل وعيسى وجميع الرسل الذين جاؤوا بعد موسى عليه السلام من بني إسرائيل لم يكن واحد منهم صاحب شريعة، وإنما كانوا على شريعة موسى عليه السلام. وحتى عيسى ما جاء بشريعة ولكن جاء متمماً ومعدلاً كما قال تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]. فشريعة موسى هي الأصل، ولهذا جاء في التوراة: «ولم يقم بعدُ نبيٌّ في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه»[١]، كما أن دعوى النصارى في ألوهية المسيح الإلٰهية يبطل هذه البشارة في عيسى لقوله (نبياً مثلكم) فهو لم يقل: أقيم نفسي، أو أقيم إلهاً، وإن كان الصحيح أن عيسى عليه السلام لم يكن إلا نبياً ورسولاً مذكراً لبني إسرائيل، ومجدداً الدعوة إلى الله على هدى من شريعة موسى عليه السلام!!، فالمثلية بين هؤلاء ـ وهي أحد شرطي البشارة ـ وبين موسى عليه السلام لا وجود لها!.

ـ أما حين ننظر في حال النبي محمد ﷺ ودعوته، نجد أن الشرطين متحققين بشكل واضح وظاهر، وبيان ذلك: أن النبي ﷺ من نسل إسماعيل، وإسماعيل أخو إسحاق، الذي هو أبو يعقوب المسمى إسرائيل. فهو من وسط إخوة بني إسرائيل ـ بنو عمومتهم ـ وليس من إسرائيل نفسها. وبهذا تحقق الشرط الأول من شرطي البشارة.

ـ ومحمد ﷺ صاحب شريعة جليلة الشأن لها سلطانها الخاص بها ـ جمعت فأوعت ـ مثلما كان موسى ـ أكبر رسل بني إسرائيل ـ صاحب شريعة مستقلة كانت لها منزلتها التي لم تضارع فيما قبل من بدء عهد الرسالات إلى مبعث عيسى عليه السلام.

وبهذا يتحقق الشرط الثاني من شرطي البشارة وهو «المثلية» بين موسى ومحمد عليهما صلوات الله وسلامه[٢].

---

(١) التثنية (٣٤/ ١٠).

(٢) انظر: الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي، ص٥٩٤ ـ ٥٩٨. وأيضاً: هداية الحيارى (١/ ٣١٦)، إظهار الحق (٤/ ١١١٦)، محمّد ﷺ: لإبراهيم خليل، ص٦٧، هل بشَّر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟ ص٧٥.

ثانياً: البشارات به ﷺ في الإنجيل[1]:

أسفار العهد الجديد (الأناجيل والرسائل) حافلة بالنصوص التي يتعين أن تكون «بشارات» برسول الإسلام ﷺ.

تلك البشارات تعلن أحياناً في صورة الوعد بملكوت الله أو ملكوت السمٰوات، وأحياناً أخرى بالروح القدس. ومرات باسم المعزِّي أو الفارقليط، تلك هي صورة البشارات في الأناجيل في صيغها المعروفة الآن. ونعرض فيما يلي نماذج لهذه البشارات:

---

(١) الإنجيل لغة: كلمة مأخوذة من اللفظ اليوناني: (إيفا نجليون EVANGELION) ومعناه: (الخبر الطيب) أو البشارة. **واصطلاحاً**: يزعم النصارى أن المسيح عليه السلام قد استعمل كلمة الإنجيل بمعنى (بشرى الخلاص من خطيئة آدم الأزلية) التي حملها إلى البشر، واستعملها تلاميذه من بعده بالمعنى نفسه، ثم استعملت هذه الكلمة على الكتاب الذي يتضمن هذه البشرى وهي سيرة المسيح عليه السلام، وقد غلب استعمالها بهذا المعنى على إنجيل متى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا.

والأناجيل تمثل جزءاً رئيساً من (الكتاب المقدس) عند النصارى، الذي ينقسم عندهم إلى قسمين رئيسين هما: **أوّلاً**: العهد القديم: الذي يحتوي على أسفار الأنبياء الذين كانوا قبل المسيح عليه السلام ومنها التوراة. **ثانياً**: العهد الجديد: ويحتوي على الأسفار التي تبدأ بظهور المسيح عليه السلام، وتنقسم بحسب محتوياتها إلى ثلاثة أقسام هي: ١ ـ قسم الأسفار التاريخية: وتشمل: الأناجيل الأربعة سالفة الذكر، وسفر أعمال الرسل. ٢ ـ الأسفار التعليمية: وتشمل: رسائل الحواريّين وتلاميذ المسيح. ٣ ـ رؤيا يوحنا اللاهوتي.

وقد تَمَّ اعتماد الأناجيل الأربعة عند النصارى (متى، مرقس، لوقا، يوحنا) بموجب قرار مجمع نيقية عام ٣٢٥هـ، وهو مما يدل على أن العقيدة النصرانية المنحرفة قد أقرت أوّلاً ثم بحث من بين الأناجيل المعروضة على المجمع ما يوافقها مع أنّها لم تكن الأناجيل الوحيدة التي دونت في القرون الأولى للمسيحية وعرضت على مجمع نيقية.

وأما تعريف الإنجيل في الإسلام فهو كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [المائدة: ٤٦]. فهو إذن: وحيٌ وكتابٌ أنزله الله على عبده عيسى عليه السلام فيه هدىً ونورٌ وموعظة ومصدِّقاً لما بين يديه من التوراة، وهو إنجيلٌ واحدٌ وليس أناجيل متعددة، أما هذه الأناجيل الأربعة فإنه ليس واحداً منها هو الإنجيل الصحيح؛ لأنها تنسب إلى غير المسيح ولِما فيها من الباطل الذي بيَّنه تعالى في كتابه وسُنَّة نبيِّه ﷺ، ومع ذلك فإن هذا لا ينفي وجود بعض بقايا الوحي الإلٰهي في خطب المسيح، ومواعظه التي نقلها تلاميذه وتوافق ما جاء في القرآن الكريم والسُّنَّة الصحيحة وفيها البشارة بالنّبي محمّد ﷺ. انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص١٢٠ ـ ١٢٢، قصة الحضارة: لديورانت (١١/٢٠٦)، دائرة معارف القرن العشرين: لفريد وجدي (١/٦٥٥، ٦٥٦)، المسيح في مصادر العقائد المسيحية، ص٣٦ ـ ٣٨، أحمد عبد الوهّاب: تخجيل من حرف الإنجيل، بتحقيق: د. محمود قدح، حاشية ص٩٨ ـ ٩٩.

١ ـ في إنجيل متى[(١)] وردت هذه العبارة مسندة إلى يحيى عليه السلام المسمى في الأناجيل: يوحنا المعمدان. وفيها يقول: «توبوا؛ لأنه قد اقترب ملكوت السمٰوات»[(٢)].

فمن هو ملكوت السمٰوات الذي بشر به يحيى: يقول النصارى ـ كما في قاموس الكتاب المقدس ـ إن المقصود بـ(ملكوت الله، ملكوت السماوات، وملكوت ربنا) هو الإخبار عن تأسيس مملكة المسيح وامتدادها[(٣)]. ويجاب عن ذلك بما يلي:

أ ـ أن يقال هذا احتمال يدفعه كلام متى نفسه حيث روى عن عيسى عليه السلام نفس العبارة: «توبوا؛ لأنه قد اقترب ملكوت السمٰوات»[(٤)].

---

(١) متّى: من الاسم العبري «متثيا» الذي معناه: عطية يهوه. وهو أحد الاثني عشر رسولاً وكاتب الإنجيل الأول المنسوب إليه. وكان عشاراً؛ أي: جابياً للضرائب في كفر ناحوم. انظر: القاموس، ص٨٣٢ ـ ٨٣٣، ويقول المؤرخ ول ديورانت في قصة الحضارة (٢٠٨/١) عن إنجيل متى: «إنّ النقاد يميلون إلى القول بأنه من تأليف أحد أتباع متّى وليس من أقوال العشار (متّى) نفسه».اهـ. ويقول فيلبس ـ القسيس بالكنيسة الإنجيليكانية بإنجلترا ـ في تقديمه لإنجيل متّى: «تنسب التقاليد القديمة جدّاً هذا الإنجيل إلى الحواري متّى، ولكن علماء العصر الحاضر غالباً ما يرفضون هذا الرأي». ويقول موريس بوكاي: إنه لم يعد مقبولاً اليوم القول بأن (متّى) أحد حواريّ المسيح، ولم يعد أحد يعتقده في عصرنا.

هذه بعض أقوالهم في هذا الإنجيل الذي يواجه انتقادات ومشاكل كثيرة من أبرزها:

أ ـ الاختلاف في تاريخ تدوين هذا الإنجيل ما بين سنة ٣٧م إلى سنة ٦٤م.

ب ـ الاختلاف في لغة التدوين، فقيل: بالعربية، وقيل: الآرامية، وقيل: اليونانية.

ج ـ الجهالة التامة لمترجم النسخة الأصلية المفقودة للإنجيل ـ سواء كانت بالعبرية أو الآرامية ـ إلى اللغة اليونانية.

د ـ جهالة مكان تأليفه.

هـ ـ إيراده لروايات خالف بها بقية الأناجيل الأخرى يصعب تصديقها أو إيجاد تعليل لها، خصوصاً عن قيامة المسيح من قبره، وأيضاً خطأ الاستشهاد بنبؤات العهد القديم. انظر للتوسع: إظهار الحقّ: لرحمت الله الهندي، ص٢٥٠ ـ ٢٥٣، الذي نقل أقوالاً كثيرة لعلماء النصارى في إنكار نسبة هذا الإنجيل إلى متّى الحواري، المسيح في مصادر، ص٥٧ ـ ٦١، لأحمد عبد الوهّاب، رسالة الغفران بين الإسلام والمسيحية ص١٦، المهتدي إبراهيم خليل أحمد، هل الكتاب المقدس كلام الله؟ ص١٥٥ ـ ١٥٦: لأحمد ديدات، دراسة الكتب المقدسة، ص٨٠، ٨١: موريس بوكاي، تخجيل من حرف الإنجيل (١١١/١).

(٢) متّى (٢/٣).

(٣) ص٩١٩.

(٤) متّى (١٧/٤).

فلو كان المراد بملكوت السمٰوات ـ هذه ـ عيسى عليه السلام ومملكته لما وردت هذه «البشارة» على لسان عيسى؛ إذ كيف يبشر بنفسه، وهو قائم موجود، والبشارة لا تكون إلا بشيء محبوب سيأتي، كما أن الإنذار ـ قسيمه ـ لا يكون إلا بشيء «مكروه» قد يقع. فكلاهما: التبشير والإنذار أمران مستقبلان.

كما إن ورود هذه العبارة عن عيسى نفسه تخصيص لذلك العموم المستفاد من عبارة يحيى عليه السلام. فدل ذلك على أن المراد بملكوت السمٰوات رسول آخر غير عيسى. ولم يأت بعد عيسى ـ باعتراف الجميع ـ رسول غير رسول الإسلام ﷺ.

فدل ذلك على أنه هو المراد بملكوت السمٰوات في عبارة عيسى عليه السلام ـ جزماً ـ، وباحتمال أرجح من عبارة يحيى، إذ لا مانع أن يكون يحيى عليه السلام قد بشر بها كما فعل عيسى عليه السلام.

أما بشارة عيسى فلا موضع لها إلا الحمل ـ القطعي ـ على رسول الإسلام ﷺ.

٢ ـ وفي صيغة الصلاة التي علمها المسيح لتلاميذه ـ كما يروى مَتَّى نفسه ـ بشارة أخرى بنبي الإسلام. وهذا هو نص مَتَّى في هذا: «فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السمٰوات ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك»[١].

ووردت هذه الصيغة في إنجيل لوقا[٢] هكذا: «متى صليتم فقولوا: أبانا

---

(١) متّى (٦/ ٩ ـ ١٠).

(٢) لوقا: اسم لاتيني ربما كان اختصار «لوقانوس» أو «لوكيوس» وهو صديق بولس ورفيقه وقد اشترك معه في أعمال مختلفة وسماه «الطبيب المحبوب» كما جاء في بعض المواضع من العهد الجديد. وقد اختلف الباحثون في شخصية لوقا، وفي القوم الذين كتب لهم إنجيله، ولا يعرف شيء عن زمن وكيفية موته، وإن كان الباحثون قد اتّفقوا على أن لوقا ليس من تلاميذ المسيح ولم يكن أحد السبعين الذين أرسلهم المسيح للتبشير، وإنما كان الصديق المخلص والمرافق لبولس. القاموس، ص٨٢٢.

يضاف إلى ما سبق من الجهالة في شخصية لوقا، الخلاف في تاريخ تدوينه ما بين سنة ٥٣م إلى سنة ٦٤م، كما أن مقدمة إنجيله (١/ ١ ـ ٥) تثير عدة ملاحظات من أهمّها: أن هذا الإنجيل لم يكن إلهامياً، وإنما هو عبارة عن رسالة شخصية من لوقا إلى شخصية اسمها ثاوفيلس، وبأن كثيرين قد أخذوا في تأليف أناجيل، اعتراف لوقا بأنه لم ير المسيح ولم يكن من تلاميذه. ويؤكّد بعض الباحثين تطرق الشّكّ إلى بعض إصحاحات وفقرات هذا الإنجيل، فقد صرح جيروم في كتبه أن بعض العلماء المتقدمين وبعض القدماء كانوا يشكّون في بعض الآيات من الإصحاح =

الذي في السمٰوات ليتقدس اسمك ليأت ملكوتك...»[١].

ويذكر لوقا أن المسيح جمع تلاميذه، وعلمهم كيف يقهرون الشياطين، ويشفون الأمراض ثم قال: «وأرسلهم ليكرزوا ـ أي: يبشروا ـ بملكوت الله».

أما مرقس[٢] فيسند هذه البشارة إلى المسيح نفسه إذ يقول: «جاء يسوع إلى الجبل يكرز ببشارة ملكوت الله، ويقول: قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله»[٣].

= (٢٢) من إنجيل لوقا، وبعض القدماء كانوا يشكّون في الإصحاحين الأولين من هذا الإنجيل، إذ إنهما لم يكونا في نسخة فرقة مارسيوني. وأخيراً ما نقل عن اتّفاق المؤرخين المسيحيين بأن لوقا كتب إنجيله بإرشاد بولس، ولا يخفى على أحد الدور الخطير الذي لعبه بولس في انحراف النصرانية وتحويلها إلى ديانة وثنية شركية!!!. انظر: دراسة الكتب المقدسة، ص٨٧، ٨٨، بوكاي: محاضرات في النصرانية، ص٤٨، ٤٩، محمد أبو زهرة: إظهار الحقّ، ص١٠٠، المسيح في مصادر، ص٦٣، تخجيل من حرف الإنجيل (١/ ١١٢).

(١) لوقا (١١/ ٢).

(٢) مرقس: اسم لاتيني معناه «مطرقه» وهو لقب ليوحنا. وينسب أحد الأناجيل إلى مرقس الذي لم يكن حوارياً ولا من تلاميذ المسيح وإنما كان تلميذ بطرس ومرافقه. انظر: القاموس، ص٨٥٣. ويقول د. بوكاي عن إنجيل مرقس: «إنه ليس كتاب أحد الحواريّين، هو على أكثر تقرير كتاب حرره تلميذ أحد الحواريّين». اهـ.
وعن حقيقة شخصية مرقس يقول نينهام ـ أستاذ اللاهوت بجامعة لندن ـ في تفسير إنجيل مرقس، ص٣٩: «لم يوجد أحد بهذا الاسم عرف أنه كان على صلة وثيقة وعلاقة خاصة بيسوع، أو كانت له شهرة خاصة في الكنيسة الأولى... ومن غير المؤكّد صحّة القول المأثور الذي يحدد مرقس كاتب الأنجيل بأنه يوحنا مرقس المذكور في أعمال الرسل (١٢/ ١٢، ٢٥)، أو أنه مرقس المذكور في رسالة بطرس الأولى (٥/ ١٣)، ثم يقول: لقد كان من عادة الكنيسة أن تفترض أن جميع الأحداث التي ترتبط باسم فرد ورد ذكره في العهد الجديد، إنما ترجع جميعها إلى شخص واحد له هذا الاسم، ولكن عندما نتذكر أن اسم مرقس كان أكثر الأسماء اللاتينية شيوعاً في الإمبراطورية الرومانية... فعندئذٍ نتحقق من مقدار الشّكّ في تحديد الشخصية في هذه الحالة». اهـ.
كما أن صاحب الإنجيل مجهول الهوية فإنه لا واسطة لتحقيق زمن كتابة الإنجيل، ولا دليل على مكان كتابته فقيل: رومية، وقيل: أنطاكية، وقيل: الإسكندرية. انظر: الكنْز الجليل في تفسير الإنجيل: د. وليم إدير (١/ ٦).
يضاف إلى ما سبق اعتقاد الكثير من المحقّقين أن خاتمة هذا الإنجيل (١٦/ ٩ ـ ٢٠)، مؤلّف مضاف إليه؛ لأنها ليست موجودة في أقدم مخطوطتين كاملتين للأناجيل ويرجع تاريخها إلى القرن الرابع الميلادي، وقال وارد الكاثوليكي في كتابه «صرح جيروم في كتبه أن بعض العلماء كانوا يشكّون في الإصحاح الأخير من إنجيل مرقس». انظر: دراسة الكتب المقدسة، ص٨٤ ـ ٨٧، المسيح في مصادر، ص٥٣، إظهار الحقّ، ص١٠٠، محاضرات في النصرانية، ص٤٦، ٤٧، تخجيل من حرف الإنجيل ح(١/ ١١٢) .

(٣) مرقس (١/ ١٤ ـ ١٥).

فهؤلاء ثلاثة من التلامذة يتفقون على أن يحيى وعيسى (عليهما السلام) قد بشرا بملكوت الله الذي اقترب. فمن المراد بملكوت الله إذا لم يكن هو رسول الإسلام ﷺ؟.

ونكاد نجزم بأن عبارة «المسيح، قد كمل الزمان» لا تعني سوى انتهاء عصر الرسالات الموقوتة وإقبال الرسالة الخالدة!»[١].

ـ أما دعاوى النصارى وتحريفاتهم لمعنى ملكوت الله، وزعمهم أن المراد به مملكة المسيح أو الخلاص الذي يأتي معه، فيعرض لها الدكتور منقذ السقار بقوله:

«يجيب النصارى بأن الملكوت: «شيوع الملة المسيحية في جميع العالم وإحاطتها كل الدنيا بعد نزول المسيح»، وفسره آخرون بأنه انتصار الكنيسة على الملحدين، وفسره آخرون بأنه البشارة بالخلاص بدم المسيح، يقول القمص تادرس يعقوب ملطي في تفسيره لإنجيل متى: «فإن الملكوت الذي أعلنه السيد المسيح هو «بشارة الملكوت» أو «إنجيل الملكوت»... تعبر عن أخبار الخلاص المفرحة التي قدمها لنا الله في ابنه يسوع.

ـ ويعجب المسلمون لانصراف النصارى عن معنى الملكوت وتعلقهم بما لا طائل وراءه، فلقد انتصرت الكنيسة وحكمت أوروبا قروناً عدة، ولم نر ما يستحق أن يكون أمراً يبشر به المعمدان والمسيح والتلاميذ.

ـ وكذلك فإن أخبار الخلاص المزعوم لا يمكن أن تكون هي البشارة التي كان المسيح يطوف مبشراً بها في المدن والقرى، فأقرب تلاميذه لم يفهموا هذا المعنى، ومنهم التلميذان المنطلقان لعمواس بعد حادثة الصلب، فقد كانا يبكيان لفوات الخلاص بموت المسيح»... كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه، ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدي إسرائيل، ولكن مع هذا كله اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك»[٢]. لقد جهل التلميذان موضوع الخلاص بموت المسيح، فهما يبحثان عن خلاص آخر، وهو الخلاص الدنيوي الذي ينتظره بنو إسرائيل.

---

(١) الإسلام في مواجهة الاستشراق، ص٦٠٥ ـ ٦٠٧.

(٢) لوقا (١٧/٢٤ ـ ٢١).

وأيضاً جهلت الجموع المؤمنة التي شهدت الصلب أن الصلب هو البشارة المفرحة التي كان يبشر بها المسيح ـ كما يزعم النصارى ـ فرجعوا وهم يبكون وينوحون «وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين لهذا المنظر لما أبصروا ما كان، رجعوا وهم يقرعون صدورهم»(١).

ـ ولا يمكن أن يكون الملكوت الموعود هو الخلاص بدم المسيح لأن النصوص ذكرت أموراً تحدث قبل مجيء الملكوت، فهي علامات تتحقق قبل حلول الملكوت، «ومن بينها قيام أمة جديدة ومملكة جديدة، وهو ما لم يتحقق قبل انتشار المسيحية في العالم، ولا حين صلب المسيح، يقول متى: «فسألوه قائلين: يا معلّم متى يكون هذا؟ وما هي العلامة عندما يصير هذا؟ فقال: انظروا لا تضلوا، فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين: إني أنا هو، والزمان قد قرب، فلا تذهبوا وراءهم، فإذا سمعتم بحروب وقلاقل فلا تجزعوا؛ لأنه لا بد أن يكون هذا أولاً، ولكن لا يكون المنتهى سريعاً»(٢)»(٣).

٣ ـ أما يوحنا(٤) صاحب الإنجيل الرابع. فإنه يذكر هذه البشارات في مواضع متعددة من إنجيله باسم (المعزِّي أو الروح القدس).

---

(١) لوقا (٢٣/ ٤٨ ـ ٤٩).

(٢) لوقا (٢١/ ٦ ـ ٣٦).

(٣) هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟ ص٩٧ ـ ٩٩.

(٤) يوحنا: هو الحواري يوحنا بن زبدي من بيت صيدا في الجليل ـ كما تذكر المصادر النصرانية ـ، وأن المسيح دعاه مع أخيه يعقوب ليكون من تلاميذه، وينسب إليه كذلك خمسة أسفار في العهد الجديد: الإنجيل الرابع، وثلاث رسائل، وسفر الرؤيا. انظر: الكنْز الجليل (٣/ ٥، ٦)، القاموس، ص١١٠٨ ـ ١١١٤. إلّا أن عدداً كبيراً من الباحثين وعلماء النصارى يقطعون بعدم صحة النسبة لهذا الإنجيل ووجهوا إليه انتقادات عنيفة فيقول الأستاذ إبراهيم خليل عن إنجيل يوحنا: «كتبه كاتب مجهول، ولا يوجد عالم من العلماء المتحررين من يعتبر هذا الإنجيل من أعمال يوحنا بن زيدي». وجاء في دائرة المعارف الكبرى الفرنسية (١٦/ ٨٧١، ٨٧٢): «أما إنجيل يوحنا فإنه لا مرية ولا شك كتاب مزور، أراد صاحبه مضادة اثنين من الحواريين بعضهما لبعض وهما: القديسان يوحنا ومتّى... وإننا لنرأف ونشفق على الذين يبذلون منتهى جهدهم ليربطوا ولو بأوهى رابطة، ذلك الرجل الفلسفي ـ الذي ألّف هذا الكتاب في الجيل الثاني ـ بالحواري يوحنا الصياد الجليل، وإن أعمالهم تضيع عليهم سدى لخبطهم على غير هدى». ويرى إستادلين في كتابه العصور المتأخرة: «إن كاتب إنجيل يوحنا طالب من طلبة مدرسة الإسكندرية بلا ريب». وهناك الكثير من هذه الاعترافات التي تنفي نسبة هذا الإنجيل إلى الحواري يوحنا، كما أن حال هذا الإنجيل لا يختلف عن الأناجيل الأخرى من حيث الجهالة في مكان كتابته، والخلاف في تاريخ تدوينه ما بين سنة ٦٨م إلى سنة ٩٨م. =

ومن ذلك ما يرويه عن المسيح عليه السلام: «الذي لا يحبني لا يحفظ كلامي، والكلام الذي تسمعونه ليس لي بل للأب الذي أرسلني. بهذا كلمتكم وأنا عندكم. وأما المعزِّي، الروح القدس، الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بما قلته لكم»[١]

كما يروي يوحنا قول المسيح الآتي مع تلاميذه: «لكني أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق. لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزِّي، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم. ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية، وعلى بر وعلى دينونة»[٢].

ويروي كذلك قول المسيح لتلاميذه: «وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية»[٣].

فمن هو المعزِّي أو روح القدس أو روح الحق الذي بشر به المسيح عليه السلام حسبما يروي يوحنا..؟!.

إن المسيح يقول: إن ذلك المعزِّي أو الروح القدس لا يأتي إلا بعد ذهاب المسيح، والمسيح ـ نفسه ـ يُقِرُّ بأن ذلك المعزِّي أو الروح أَجَلُّ منه شأناً، وأعم نفعاً وأبقى أثراً، ولذلك قال لتلاميذه: خير لكم أن أنطلق. إن لم أنطلق لا يأتيكم المُعَزِّي.

وكلمة «خير» أفعل تفضيل بمعنى أكثر خيراً لكم ذهابي ليأتيكم المعزِّي، ولو كان «المعزِّي» مساوياً للمسيح في الدرجة لكانا مستويين في الخيرية ولما ساغ للمسيح أن يقول خير لكم أن أنطلق.

= يضاف إلى ما سبق شيء خطير وهو كثرة الاختلافات المهمة بين إنجيل يوحنا والأناجيل الأخرى كالاختلافات في الفترة الزمنية لبعثة المسيح وظهور لتلاميذه بعد قيامه من الموت وغيرها، وهي اختلافات صريحة لا تجد لها حلاً ولا تأويلاً إلّا بتصديق أحد الأناجيل وتكذيب الآخر. وهو ما دفع د. موريس بوكاي أن يتساءل: «إذن فمن يجب أن نصدّق؟! أنصدق متّى أو مرقص أو لوقا أو يوحنا؟!».

انظر: دراسة الكتب المقدسة، ص٩٣، إظهار الحقّ، ص٨٣ ـ ١٠٠، المسيح في مصادر ص٧٠، محاضرات في النصرانية، ص٥٠، تخجيل من حرف الإنجيل ح(١/١١٣).

(١) يوحنا (١٤/٢٦).

(٢) يوحنا (١٦/٧ ـ ٨).

(٣) يوحنا (١٦/١٣).

ومن باب أولى لو كان «المعزِّي» أقل فضلاً من المسيح. فعبارة المسيح دليل قاطع على أنه بشر بمن هو أفضل منه، لا مساوٍ له ولا أقل.

ثم يصف المسيح ذلك المعزِّي أو الروح بأوصاف ليست موجودة في المسيح نفسه عليه السلام، ومن تلك الأوصاف:

أ ـ أنه يعلم الناس كل شيء. وهذا معناه شمول رسالته لكل مقومات الإصلاح في الدنيا والدين. وذلك هو الإسلام.

ب ـ أنه يبكت العالم على خطية. والشاهد هنا كلمة «العالم» وهذا معناه شمول الإسلام لكل أجناس البشر، عرباً وعجماً، في كل زمان ومكان، ولم توصف شريعة بهذين الوصفين إلا الإسلام.

ت ـ أنه يخبر بأمور آتية، ويذكر بما مضى، وقد تحقق هذا في رسالة محمد ﷺ.

فأخبر بأمور آتية لم يخبر بها من سبقه أو أخبروا ولكن ليس على وجه التفصيل والتأكيد الذي كان على يديه ﷺ، فكم في القرآن من أمور أخبر بها قبل أن تقع فوقعت كما أخبر، وكم فيه من الإخبار بما سيكون في الحياة الآخرة من أوصاف الجنة، والنار، والبعث، وعلامات الساعة، وتخاصم أهل النار، وحوار أصحاب الجنة مع «رجال الأعراف»، وندم من باعوا دينهم بدنياهم. . .إلخ.

وكم ذكّر بما مضى من أحوال الأمم، وقيام الحضارات ثم سقوطها وأحوال المرسلين وما بلغوا به أقوامهم، والشهادة لهم بالصدق والأمانة والإخلاص والوفاء، ومسلك بعض الأقوام من رسلهم والصراع الذي دار بين المحقين وأهل الباطل، وعاقبة بعض المكذبين. . . إلخ.

كما استوعبت رسالته الحياة كلها فأرست قواعد الاعتقاد الصحيح وسنت طرق العبادة المثمرة، ووضعت أصول التشريع في كل ما هو متعلق بالحياة عاجلها وآجلها، ووضحت العلاقة السليمة بين المخلوق والخالق، وبين الناس بعضهم بعضاً. وحررت العقول، وطهرت القلوب ورسمت طريق الهدى لكل نفس ولكل جماعة ولكل أمة. أي أنها أرشدت إلى كل شيء. وعلمت كل شيء مما يحتاج تعلمه إلى وحي وتوقيف، ذلك هو الإسلام، ولا شيء غير الإسلام.

وشهدت رسالة النبي محمد ﷺ ـ فيما شهدت ـ للمسيح عليه السلام بأنه رسول

كريم أمين أدى رسالته وبشر وأنذر بني إسرائيل. وأنه عبده ورسوله: (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون).

وشهادة رسول الإسلام لعيسى ﵇ منصوص عليها في بشارات عيسى نفسه به ﷺ. فاسمع إلى يوحنا وهو يروي عن المسيح ﵇ قوله الآتي:

«ومتى جاء المعزِّي الذي سأرسله أنا إليكم من الأب روح الحق الذي من عند الأب ينبثق فهو يشهد لي. وتشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتداء»[(١)].

روح القدس هذا، أو المعزِّي، أو روح الحق لا يمكن أن يكون عيسى؛ لأن عيسى لم يبشر بنفسه، وهو كان موجوداً ساعة قال هذا ولا يمكن أن يكون المراد به نبياً بعد عيسى غير محمد ﷺ لأن الجميع متفقون على أن عيسى لم يأت بعده نبي قبل رسول الإسلام ﷺ.

فتعيَّن أن يكون روح القدس، أو المعزِّي، أو روح الحق تبشيراً بمحمد ﷺ إذ فيه تجتمع تلك الأوصاف، كما يتحقق فيه معنى «الأفضلية» إذ هو خاتم النبيين، الذي جاء بشريعة خالدة عامة، وعلى هذا حملنا قبلاً قول عيسى: خير لكم أن أنطلق. إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزِّي «وهذا إقرار من عيسى بأن المبشَّر به أفضل من المُبَشِّر وكفى بذلك شواهد»[(٢)].

٤ ـ أورد علماء المسلمين بشارة بالنبي ﷺ في إنجيل يوحنا على لسان المسيح ﵇ ونصها كالآتي:

«إن الفارقليط روح الحقّ الذي يرسله أبي هو يعلمكم كلّ شيء»[(٣)].
والفارقليط كما يذهب علماء الإسلام المقصود به: محمد ﷺ كما سيأتي بيانه.

وقد استبدلت كلمة: «الفارقليط» في النسخ الحديثة للأناجيل بكلمة:

---

(١) يوحنا (١٥/٢٦ ـ ٢٧).

(٢) الإسلام في مواجهة الاستشراق، ص٦٠٧ ـ ٦١٠.

(٣) انظر هذه البشارة بلفظ (الفارقليط) في: الدين والدولة، ص١٧٤، ١٨٥، أعلام النبوة، ص٢١١ ـ ٢١٣: للماوردي، تخجيل من حرف الإنجيل ٢/٧٠١، الجواب الصّحيح ٤/٦ ـ ٨، هداية الحيارى، ص١١٧ ـ ١٣٤، تحفة الأريب، ص٢٦٧ ـ ٢٧٠، الإعلام، ص٢٦٨ ـ ٢٧٠ للقرطبي، النصيحة الإيمانية، ص٣١٩ ـ ٣٢٠، محمّد ﷺ، ص٢١٩، ٢٢٩ لعبد الأحد داود، محمّد ﷺ، ص٧٢ لإبراهيم خليل، الفصل في الملل والنحل (١/)١٩٥، الأجوبة الفاخرة، ص١٦٥، ١٦٨، السيرة النبوية (١/٢٩٥) لابن هشام.

«المعزِّي». وأصبحت العبارة في إنجيل يوحنا الحالي على هذا النحو: «وأما المعزِّي الروح القدس الذي سيرسله الأب باسمي فهو يعلمكم كلّ شيء ويذكركم بكلّ ما قلته لكم»(١). وقد ذكر قاموس الكتاب المقدس بأن كلمة «المعزِّي» هو الروح القدس، ولم ترد إلّا في إنجيل يوحنا، وبأن الكلمة الأصلية اليونانية: «براكليتيس» وتعني: «معز، ومعين، وشفيع، ومحام»(٢).

والصحيح أن كلمة فارقليط تعني: الحمد، وهو معنى اسم نبيّنا محمّد ﷺ، ولهذا يعتقد المسلمون أن هذه النصوص إنما هي بشارة من المسيح عليه السلام بنبينا محمد ﷺ، ويردون دعاوى النصارى في تحريف معناه، وذلك من عدة أوجه منها:

أولاً: أن لفظة «المعزِّي» لفظة حديثة استبدلتها التراجم الجديدة للعهد الجديد، فيما كانت التراجم العربية القديمة سنة (١٨٢٠م، ١٨٣١م، ١٨٤٤م) تضع الكلمة اليونانية (البارقليط) كما هي، وهو ما تصنعه كثير من التراجم العالمية(٣).

وفي تفسير كلمة «بارقليط» اليوناني نقول: إن هذا اللفظ اليوناني الأصل، لا يخلو من أحد حالين:

الأول: أنه «باراكلي توس» فيكون حسب قول النصارى بمعنى: المعزِّي والمعين والوكيل. **والثاني**: أنه «بيروكلوتوس»، فيكون قريباً من معنى: محمد وأحمد(٤).

وعلى هذا المعنى الثاني شهادات متوافرة من أهل الكتاب أنفسهم، ومن ذلك:

١ ـ شهادة العلامة علي بن ربنّ الطبري(٥) ـ الذي كان مسيحياً فأسلم ـ في

---

(١) يوحنا (١٤/ ٢٦).

(٢) ص٦٢٦.

(٣) انظر: إظهار الحق (٤/ ١١٨٥).

(٤) هل بشَّر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ، ص١٢٩.

(٥) علي بن رَبَن الطبري (. . . ـ ٢٤٧هـ): أبو الحسن: طبيب فيلسوف، مولده ومنشأه بطبرستان. كان يخدم ولاتها ويقرأ علم الحكمة (الفلسفة)، وانفرد بالطبيعيات. وقامت فتنة فيها فأخرجه أهلها، فنزل بالريّ. ثم رحل إلى سامراء، وصنف فيها كتابه «فردوس الحكمة». وفي فهرست ابن النديم أنه أسلم على يد المعتصم، وظهر في الحضرة فضله، فأدخله المتوكل في جملة =

القرن الثالث الهجري بذلك في كتابه: الدين والدولة[١].

٢ ـ أن هذه الكلمة كانت سبباً في إسلام القس الإسباني: أنسلم تورميدا في القرن التاسع الهجري بعدما أخبره أستاذه القسيس (نقلاً ومرتيل) ـ بعد إلحاح منه ـ أن الفارقليط هو اسم من أسماء محمّد ﷺ. فكان ذلك سبباً في إشهار إسلامه وتغيير اسمه إلى عبد الله الترجمان، وتأليف كتابه: تحفة الأريب في الرّدّ على أهل الصليب، وذكر فيه قصته مفصلة[٢].

٣ ـ شهادة القسيس (دافيد بنجامين كلداني) ـ الذي هداه الله إلى الإسلام وغيّر اسمه إلى: (عبد الأحد داود)[٣] ـ في كتابه القيم: «محمّد ﷺ في الكتاب المقدس» فقد وضح فيه أن الفارقليط ليس هو الروح القدس وليس أي شيء يدعيه النصارى، وإنما هو اسم محمّد ﷺ. وبيّن ذلك بأدلة من نصوص الأناجيل وقواميس اللغة اليونانية[٤].

٤ ـ ذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار في كتابه قصص الأنبياء، أنه كان في سنة ١٨٩٤م زميلَ دراسة اللغة العربية للمستشرق الإيطالي (كارلو نالينو)، وقد

= ندمائه. ومن كتبه: «الدين والدولة» و«تحفة الملوك» و«كناش الحضرة» و«منافع الأطعمة والأشربة والعقاقير». انظر: الفهرست، ص٣٥٨، وهو فيه «ابن ربل» باللام، وطبقات الأطباء (١/ ٣٠٩) وهو فيه: «علي بن سهل بن ربن»، والأعلام (٤/ ٢٨٨).

(١) ص١٨٤.

(٢) انظر: ص٦٥ ـ ٧٥.

(٣) عبد الأحد داود (دافيد بنجامين الكلداني) (١٨٦٧ ـ ١٩٤٠م): ولد قرب أورميا في إيران وفيها بدأ مرحلته التعليمية، وفي عام ١٨٩٢م أرسل إلى روما حيث تلقى تدريباً منتظماً في الدراسات الفلسفية واللاهوتية، ثم تم ترسيمه كاهناً، وأثناء عودته توقف في إستانبول عام ١٨٩٥م وأسهم في كتابة ونشر بعض المقالات عن الكنائس الشرقية في الصحف اليومية الإنجليزية والفرنسية. رغم انشغال الأب بنيامين في العمل التبشيري إلا أنه كانت هناك أموراً تؤرقه في الديانة النصرانية خاصة عقيدة التثليث ووساطة الكهنة بين العباد ورب العباد، وبدأ بنيامين أو عبد الأحد داود يعيد حساباته عن المسيحية، إلى أن قرر أن يعتزل في منزله ويتفرغ للصلاة والتأمل مع قراءة الكتاب المقدس، وفي النهاية قدم استقالته وبدأ العمل في التدريس، ثم سافر إلى بريطانية وهناك انضم إلى طائفة مسيحية تدعى الموحدون التي أرسلته إلي إيران عام ١٩٠٤م وفي طريقه إلى إيران توقف في إسطنبول حيث ناظر فيها الشيخ جمال الدين أفندي وعدد من المشايخ المسلمين، وأسلم القس بنيامين بعدها وتسمى بعبد الأحد داود. انظر ترجمة عبد الأحد داود من مقدمة كتابيه: «الإنجيل والصليب» و«محمد كما ورد في كتاب اليهود والنصارى».

(٤) انظر: ص٢٠٧ ـ ٢٢٩.

سأله النجار في ليلة ما معنى: (بيريكلتوس)؟. فأجابه قائلاً: إن القسس يقولون إن هذه الكلمة معناها: (المعزِّي). فقال النجار: إني أسأل الدكتور كارلونالينو الحاصل على الدكتوراه في آداب اليهود باللغة اليونانية القديمة. ولست أسأل قسيساً. فقال: إن معناها: «الذي له حمد كثير». فقال النجار: هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد؟ فقال الدكتور: نعم. فقال النجار: إن رسول الله ﷺ من أسمائه (أحمد)، فقال الدكتور: يا أخي أنت تحفظ كثيراً ثم افترقنا[(١)].

٥ ـ يقول أسقف بني سويف الأنبا أثناسيوس في تفسيره لإنجيل يوحنا: «إن لفظ بارقليط إذا حرف نطقه قليلاً يصير «بيركليت»؛ ومعناه: الحمد أو الشكر، وهو قريب من لفظ أحمد»[(٢)].

ثانياً: أنه أيّاً كان المعنى للبارقليط: أحمد أو المعزِّي فإن الأوصاف والمقدمات التي ذكرها المسيح للبارقليط تمنع أن يكون المقصود به روح القدس، وتؤكد أنه كائن بشري يعطيه الله النبوة. وذلك واضح من خلال التأمل في نصوص يوحنا عن البارقليط[(٣)]:

أن يوحنا استعمل في حديثه عن البارقليط أفعالاً حسية (الكلام، والسمع، والتوبيخ) في قوله: «كل ما يسمع يتكلم به» وهذه الصفات لا تنطبق على الألسنة النارية التي هبت على التلاميذ يوم الخمسين، إذ لم ينقل أن الألسنة النارية تكلمت يومذاك بشيء، وأما الروح فغاية ما يصنعه إنما هو الإلهام القلبي، وأما الكلام فهو صفة بشرية، لا روحية.

وقد فهم أوائل النصارى قول يوحنا بأنه بشارة بكائن بشري، وادعى مونتنوس في القرن الثاني (١٨٧م) أنه البارقليط القادم، ومثله صنع ماني في القرن الرابع فادعى أنه البارقليط، وتشبه بالمسيح فاختار اثنا عشر تلميذاً وسبعون أسقفاً أرسلهم إلى بلاد المشرق، ولو كان فهمهم للبارقليط أنه الأقنوم الثالث لما تجرؤوا على هذه الدعوى[(٤)].

---

(١) قصص الأنبياء، ص٥٣٤.

(٢) تفسير إنجيل يوحنا، الأنبا أثناسيوس، ص١١٧، وللتوسع في الأدلة والشواهد انظر: إظهار الحق (٤/ ١١٨٥) وما بعدها، دراسة الكتب المقدسة، ص١٢٥ ـ ١٢٩.

(٣) انظر فيما يأتي: هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟ ص١٣٠ ـ ١٣٥.

(٤) انظر: الجواب الفسيح لما لفقه عبد المسيح: خير الدين الألوسي (١/ ٢٨٦ ـ ٢٩١)، محمد في =

ومن صفات الآتي أنه يجيء بعد ذهاب المسيح من الدنيا، فالمسيح وذلك الرسول المعزِّي لا يجتمعان في الدنيا، وهذا ما يؤكد مرة أخرى أن المعزِّي لا يمكن أن يكون الروح القدس الذي أيد المسيح طيلة حياته، بينما المعزِّي لا يأتي الدنيا والمسيح فيها «إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزِّي».

وروح القدس ـ كما يعتقد النصارى ـ سابق في الوجود على المسيح، وموجود في التلاميذ من قبل ذهاب المسيح، فقد كان شاهداً عند خلق السماوات والأرض[1]، وكان مع بني إسرائيل طويلاً «أين الذي جعل في وسطهم روح قدسه»[2]. وكان لروح القدس دور في ولادة عيسى، حيث أن أمه «وجدت حبلى من الروح القدس»[3]، فدل ذلك على وجوده، كما اجتمعا سوياً يوم تعميد المسيح، حين «نزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة»[4].

وهكذا فالروح القدس موجود مع المسيح وقبله، وأما المعزِّي أو الروح القدس القادم، فهو «إن لم أنطلق لا يأتيكم»، فهو ليس الروح القدس الذي يتحدث عنه المسيحيون.

ج ـ ومما يدل على بشرية الروح القدس ـ في نص يوحنا ـ أنه من نفس نوع المسيح، والمسيح كان بشراً، وهو يقول عنه: «وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر»، وهنا يستخدم النص اليوناني كلمة (allon) وهي تستخدم للدلالة على الآخر من نفس النوع، فيما تستخدم كلمة (hetenos) للدلالة على آخر من نوع مغاير. وإذا قلنا إن المقصود من ذلك رسول آخر أصبح كلامنا معقولاً، ونفتقد هذه المعقولية إذا قلنا: إن المقصود هو روح القدس الآخر؛ لأن روح القدس واحد وغير متعدد.

د ـ ثم إن الآتي عرضة للتكذيب من قبل اليهود والتلاميذ، لذا فإن المسيح يكثر من الوصية بالإيمان به وأتباعه، فيقول لهم: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا

= الكتاب المقدس: عبد الأحد داود، ص (٢٢٤ ـ ٢٢٥)، البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل: أحمد حجازي السقا (٢/ ٢٧٦ ـ ٢٧٨).

(١) انظر: التكوين (١/ ٢).

(٢) اشعيا (٦٣/ ١١).

(٣) متّى: (١/ ١٨).

(٤) لوقا (٣/ ٢٢).

وصاياي»، ويقول: «قلت لكم قبل أن يكون، حتى إذا كان تؤمنوا»، ويؤكد على صدقه فيقول: «لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به». وهذه الوصاة لا معنى لها إن كان الآتي هو الروح القدس، حيث نزل على شكل ألسنة نارية، فكان أثرها في نفوسهم معرفتهم للغات مختلفة ـ كما يزعم النصارى ـ[1] فمثل هذا لا يحتاج إلى وصية للإيمان به والتأكيد على صدقه؛ لأنه يقوم في القلب من غير حاجة لرده أو قدرة على تكذيبه.

هـ كما أن الروح القدس أحد أطراف الثالوث، وينبغي وفق عقيدة النصارى أن يكون التلاميذ مؤمنين به، فلم أوصاهم بالإيمان به؟.

و ـ وروح القدس وفق كلام النصارى إلٰه مساو للآب في ألوهيته، وعليه فهو يقدر أن يتكلم من عند نفسه، وروح الحق الآتي: «لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به».

ز ـ ودل نص يوحنا على تأخر زمن إتيان البارقليط، فقد قال المسيح لهم: «إن لي أموراً كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق. . .»[2]، فثمة أمور يخبر بها هذا النبي لايستطيع التلاميذ إدراكها؛ لأن البشرية لم تصل لحالة الرشد التام في فهم هذا الدين الكامل الذي يشمل مناحي الحياة المختلفة، ومن غير المعقول أن تكون إدراكات التلاميذ قد اختلفت خلال عشرة أيام من صعود المسيح إلى السماء، وليس في النصوص ما يدل على مثل هذا التغيير.

بل إن النصارى ينقلون عنهم أنهم بعد نزول الروح عليهم قد أسقطوا كثيراً من أحكام الشريعة وأحلّوا المحرمات، فسقوط الأحكام عندهم أهون من زيادةٍ ما كانوا ليحتملوها أو يطيقوها زمن المسيح. فالبارقليط يأتي بشريعة ذات أحكام تثقل على المكلفين الضعفاء، كما قال الله: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾ [المزمل: ٥].

ح ـ كما أن المسيح أخبر أنه قبل أن يأتي البارقليط ستقع أحداث هامة وبارزة «سيخرجونكم من المجامع، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه

---

(١) انظر: أعمال الرسل (٢/١ ـ ٤).

(٢) يوحنا (١٦/١٢ ـ ١٣).

يقدم خدمة لله»[١]، وهذا الأمر إنما حصل بعد الخمسين، بل بعد قرون من رفع المسيح، فالنص لا يتحدث عن اضطهاد الرومان أو اليهود لأتباع المسيح، وإنما يتحدث عن اضطهاد رجالات الكنيسة لأتباع المسيح الموحدين، وهم ـ أي: رجال الكهنوت ـ يظنون أنهم بذلك يحسنون صنعاً، ويقدمون خدمة لله ودينه، فقررت مجامعهم طرد آريوس والموحدين، وأخرجوهم من المجامع الكنسية، وحكموا عليهم بالحرمان والاضطهاد، واستمر الاضطهاد بأتباع المسيح حتى ندر الموحدون قبيل ظهور الإسلام.

ط ـ وذكر يوحنا أن المسيح خبّر تلاميذه بأوصاف البارقليط، والتي لم تتمثل بالروح القدس الحالّ على التلاميذ يوم الخمسين، فهو شاهد تنضاف شهادته إلى شهادة التلاميذ في المسيح «فهو يشهد لي، وتشهدون أنتم أيضاً»[٢] فأين شهد الروح القدس للمسيح؟ وبم شهد؟ بينا نجد أن رسول الله ـ ﷺ ـ شهد للمسيح بالبراءة من الكفر وادعاء الألوهية والبنوة لله، كما شهد ببراءة أمه مما رماها به اليهود ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦].

ي ـ وأخبر المسيح عن تمجيد الآتي له، فقال: «ذاك يمجدني؛ لأنه يأخذ مما لي ويخبركم»[٣] ولم يمجد المسيح أحد ظهر بعده كما مجَّده نبي الإسلام، فقد أثنى عليه، وبيّن فضله على سائر العالمين.

في حين أنه لم ينقل لنا أي من أسفار العهد الجديد أن روح القدس أثنى على المسيح أو مجده يوم الخمسين، حين نزل على شكل ألسنة نارية.

ك ـ وأخبر المسيح أن البارقليط يمكث إلى الأبد؛ أي: دينه وشريعته، بينا نجد أن ما أعطيه التلاميذ من قدرات يوم الخمسين ـ إن صح ـ[٤] اختفت بوفاتهم، ولم ينقل مثله عن رجالات الكنيسة بعدهم. وأما رسولنا ـ ﷺ ـ فيمكث إلى الأبد بهديه ورسالته، إذ لا نبي بعده ولا رسالة.

ل ـ كما أن البارقليط «يذكركم بكل ما قلته لكم» وليس من حاجة بعد رفعه بعشرة أيام إلى مثل هذا التذكير، ولم ينقل العهد الجديد أن روح القدس ذكرهم

---

(١) يوحنا (١٦/ ٢).
(٢) يوحنا (١٥/ ٢٦ ـ ٢٧).
(٣) يوحنا (١٦/ ١٤).
(٤) انظر: أعمال الرسل (٢/ ١ ـ ٤).

بشيء، بل إنا نجد كتاباتهم ورسائلهم فيها ما يدل على تقادم الزمن ونسيان الكاتب لبعض التفاصيل التي يذكرها غيره، بينما ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ بكل ما غفلت عنه البشرية من أوامر الله التي أنزلها على أنبيائه ومنهم المسيح عليه السلام.

ومن استعراض ما سبق يثبت أن روح القدس ليس هو البارقليط، فكل صفات البارقليط صفات لنبي يأتي بعد عيسى، وهو النبي الذي بشر به موسى عليه السلام، فالبارقليط «لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به»، وكذا الذي بشر به موسى «أجعل كلامي في فمه، فيكلمهم بكل ما أوصيه به»[1]، وهو وصف النبي ـ ﷺ ـ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾﴾ [النجم: ٣].

بل كل ما ذكر عن البارقليط له شواهد في القرآن والسُّنَّة تقول بأن الرسول ـ ﷺ ـ هو صاحب هذه النبوءة، إذ هو الشاهد للمسيح، وهو المخبر بالغيوب، الذي لا نبي بعده، وقد ارتضى الله دينه إلى قيام الساعة ديناً[2].

(١) التثنيه (١٨/١٨).

(٢) انظر فيما تقدم: هل بشَّر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ، ص١٣٠ ـ ١٣٥.

المبحث الثاني

إرهاصات نبوَّته ﷺ

اقتضت حكمة الله ﷻ أن الأحداث العامة لا تأتي للناس بغتة، وإنما لها بين يديها مقدمات تمهد لها، وبشائر تعلن عن قدومها، لتتهيأ الأذهان لتلقيها، ولتستعد القلوب للتجاوب معها.

ونبوَّة محمد ﷺ آية الآيات في النبوات، ولها من الآثار في الحياة بقدر ما تفرق في النبوات السابقة كلها، فهي ليست لشعب أو قبيلة أو بلدة، وليست لجيل أو جيلين أو ثلاثة من الناس، بل هي للإنسانية كلها، وللأجيال جميعها... منذ ظهور هذه النبوة إلى أن ينتهي دور الإنسانية على هذه الأرض.

لذلك فإن ظهور النبي، بل خاتم الأنبياء ﷺ، لا يمكن أن يقع دون أن يقوم بين يدي موكبه من يعلن في الناس نبأه، ويفسح الطريق لهذا الموكب الجليل المهيب.

ومن ثم كانت الإرهاصات التي سبقت وصاحبت ميلاده ﷺ، وكذلك التي صاحبت نشأته وتقدمت نبوته ﷺ، وبقدر ما كانت نبوته ورسالته جليلة القدر، عظيمة المنزلة، وبقدر مكانته العظيمة عند ربه، بقدر ما كان الإرهاص له ﷺ أعمق في التاريخ أثراً، وأفسح مدى في جوانبه العلمية.

والإرهاص هو: أمر خارق للعادة دال على بعثة نبي قبل بعثته. وقيل: هو ما يصدر من النبي ﷺ قبل النبوة من أمر خارق للعادة[١].

ومن هذا التعريف نجد أن الإرهاص والمعجزة يشتركان في خرق العادة، لكن الإرهاص زمنه قبل النبوة، فهو إما سابق لميلاد النبي أو مصاحب لميلاده ونشأته، ويكون توطئة للنبوة وتأسيساً للرسالة، بخلاف المعجزة، فإنها تكون في زمن النبوة وما بعدها[٢].

ومن تلك الإرهاصات التي دلت على بعثته ونبوته ﷺ:

١ ـ حادثة الفيل.

والتي كانت تمهيداً لمبعثه عليه الصلاة والسلام. يقول الإمام ابن كثير وهو يتحدث عن هذه الحادثة التي قصها تعالى في كتابه:

«هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيَّب سعيهم، وأضلَّ عملهم، وردَّهم بشر خيبة. وكانوا قوماً نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالاً مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان. ولكن كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم ـ يا معشر قريش ـ على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي محمد، صلوات الله وسلامه عليه»[٣].

٢ ـ ومن العلامات والدلائل على نبوته ﷺ والتي كانت عند مولده، ما أخبر به ﷺ لما سأله أصحابه عن نفسه فقال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام»[٤]. وينبه في هذا السياق إلى أن كثيراً من المؤلفين في السيرة

---

(١) التعريفات، ص١٦، والتوقيف على مهمات التعاريف، ص٤٦.

(٢) لوامع الأنوار البهية: للسفاريني (٢/ ٣٩٢)، والنبوات: لابن تيمية (١/ ١٤٢).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٨/ ٤٨٣).

(٤) أخرجه ابن إسحاق قال: «حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان، عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا...» وهذا إسناد حسن، فقد صرح ابن إسحاق بالتحديث وهو صدوق، وتدل الرواية عن الصحابة بصيغة الجمع على استفاضة الخبر في جيل الصحابة وكلهم عدول فلا تؤثر جهالة =

النبوية قد أوردوا أخباراً وروايات لا تثبت تقترن بميلاد النبي ﷺ، وكما أن المنهج الصحيح يقتضي وجوب قبول ما ثبتت به الأخبار في حقه ﷺ فكذلك ينبغي طرح ما كان موضوعاً أو ضعيفاً لعدم صحة نسبته إليه. ومن أمثلة هذه الأخبار ما أورده أصحاب السير من روايات حول هواتف الجان في ليلة مولده ﷺ وتبشيرها به، وانتكاس بعض الأصنام في المعابد الوثنية بمكة. وحول ارتجاس إيوان كسرى وسقوط شرفاته، وخمود نيران المجوس، وغيض بحيرة ساوة، ورؤيا الموبذان (رئيس كهنة الفرس) الخيل العربية تقطع دجلة وتنتشر في بلاد الفرس، وإخبار اليهود بليلة مولده ﷺ إلى غير ذلك[1].

٣ ـ ومن هذه الإرهاصات والعلامات على نبوته بعد مولده ﷺ ما جاء في قصة حليمة السعدية حيث أخبرت أنها لما أخذته من أمه، كثر اللبن في ثديها، ووجد زوجها اللبن في ناقته، وكثر اللبن في شياهها، إلى غير ذلك من الأمور التي خرجت عن مألوف العادة، والتي حصلت ببركة وجوده بينهم ﷺ[2].

٤ ـ ومما ثبت من إرهاصات نبوته ﷺ تسليم الحجر عليه قبل النبوة كما أخبر ﷺ بقوله: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن**»[3].

٥ ـ ويتوج ذلك كله حادثة شق صدره ﷺ وهو ابن أربع سنين، فقد أخرج مسلم في «صحيحه» عن أنس رضي الله عنه «أن النبي ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع

= أسمائهم. انظر: السيرة النبوية الصحيحة (١/١٠١) د. أكرم العُمري. وقال ابن كثير عنه: «هذا إسناد جيد قوي» السيرة النبوية (١/٢٢٩). وصححه الحاكم ووافقه الذهبي في المستدرك (٢/٦٠٠).

(١) انظر في تخريج روايات هذه الأحداث وبيان ضعفها: السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم العُمري (١/١٠٠ ـ ١٠١).

(٢) هذا الخبر أخرجه: ابن إسحاق في سيرته، ص٢٦ ـ ٢٨، وابن هشام، ص٩٤ ـ ٩٥، ومن طريقه الطبري ٢/١٥٨ ـ ١٦٠، وابن حبان في صحيحه (٦٣٣٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٢٤/٥٤٥)، وأبو نعيم في دلائل النبوة (٩٤)، والبيهقي في الدلائل (١/١٣٢ ـ ١٣٦)، وأخرجه ابن سعد في الطبقات (١/١٥٢) من طريق الواقدي. وقال ابن كثير: «وهذا الحديث قد روي من طرق أُخر، وهو من الأحاديث المشهورة المتداولة بين أهل السير والمغازي» السيرة (١/٢٢٨)، وذكر ابن عبد البر شهرته كذلك في الاستيعاب (٤/١٨١٣).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، وتسليم الحجر عليه قبل النبوة (٤/١٧٨٢) حديث رقم (٢٢٧٦).

الغلمان فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج منه علقةً، وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم جمعه فأعاده إلى مكانه»[1] وهذه الواقعة كانت من أهم البشائر على قرب مبعثه ﷺ ليكون للعالمين بشيراً ونذيراً.

موقف المستشرقين:

هذه الأحداث المشهورة التي تناقلتها كتب السيرة والتاريخ والحديث حول إرهاصات نبوته ﷺ، وقف منها جمهور المستشرقين موقف التشكيك تارة والإنكار التام تارة أخرى. ومن ذلك ما يلي:

- يقول المستشرق الفرنسي جوستاف لوبون حول مولده ﷺ ونشأته وما جاء في كتب السيرة الإسلامية فيها: «ورأى العرب أن يقرنوا ميلاد زعيمهم الأعظم بالآيات فرووا أن العالم اهتز لولادته، وأن نار المجوس المقدسة خبت، وأن شياطين الشر دحرت من أعلى الشهب، وأنه تصدع من أبراج إيوان كسرى ـ ملك الملوك ـ أربعة عشر برجاً إيذاناً بقرب انهيار دولة الفرس العظمى. ورضع محمد أمه في البداءة، ثم دفعت به إلى قبيلة في البادية وفق عادة لا تزال تصادَف حتى اليوم، فلما بلغ الثالثة من سنيه، ورأى أبواه من الرّضاعة ما رأيا من الخوارق التي كانت تلازمه، على زعم كتب السيرة، خافا مغبة الأمر، ولم يريدا بقاءه عندهما»[2].

- ويقول المستشرق بودلي: «لا توجد أسرار تحيط بمولد محمد، إذا استثنينا عدة خرافات لا يقبلها عقل، فما كان هناك من بشائر على أنه المصطفى من الله، فما زارت الملائكة أمه قبل مولده، ولا بشرتها بقدومه، حملته أمه ووضعته، كما تحمل كل أنثى وتضع»[3].

- ويورد مونتغمري وات إرهاصات نبوته ﷺ التي حدثت له وقت نزوله في بني سعد مع مرضعته حليمة السعدية، ثم ذكر نص رواية «شق الملكين لصدر النبي ﷺ» ثم لقائه ﷺ «بحيرا الراهب» كما يرويها ابن إسحاق، ثم يعقّب عليها

(١) تقدم تخريجه.

(٢) حضارة العرب، ص١٠١.

(٣) حياة محمد، ص٢٨.

بأن القارئ يجد نفسه إزاء أرضيّة مهزوزة لوقائع هذا المدى الزمني الذي يبلغ ربع القرن بين الميلاد والزواج[(١)].

ـ أما المستشرقة الروسية بانوفا في كتابها «النبي محمد» بالاشتراك مع فاختين، فتقول عند ذكر هلاك أصحاب الفيل:

اتفق المؤرخون أن هذه الظاهرة الخارقة للطبيعة إنما كانت وباء الجدري شب في جيش الأحباش، وقد ثبت أن الجدري دخل جزيرة العرب لأول مرة في ذاك الوقت. إلى جانب هذا تكتم بانوفا الأحاديث العديدة عن معجزات رسول الله ﷺ التي دُهش منها كفار قريش وغيرهم، وتسكت عما رأت حليمة السعدية من بركة النبي ﷺ في صغره[(٢)].

ويذكر «إميل درمنغم» حادثة شق صدره ﷺ ضمن كتابه «حياة محمد»، ثم يقول: «والذي أراه أن هذه القصة نشأت عن قول القرآن: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ [الشرح: ١ ـ ٣]. . . وأن أسطورة شق الصدر ذات مغزى فلسفي لما تشير إليه تلك الدرنة السوداء من الخطيئة الأولى التي لم يعف منها غير مريم وعيسى ولما يدل عليه تطهير القلب من معنى الورع الصوفي»[(٣)].

ـ أما مكسيم رودنسون في كتابه عن سيرة النبي ﷺ فيفسر حادثة شق الصدر تفسيراً أسطورياً حين يقول: «إن محمداً قد لجأ إلى الاهتمام بالمسألة الدينية لأنه لم يكن لديه القدرة على العمل في غيرها، في هذه المرحلة من حياته، إذ إن كفار قريش قد جمعوا كل أسباب القوة في أيديهم، وكان محمد على الجانب الآخر يعتقد أنه أفضل رجل في مكة، وأنه لا يوجد فيها من الرجال من يتفوق عليه، وأنه من أجل إظهار محمد في أحسن صورة قد لفقت له أسطورة شق الصدر التي جاءت في كتب السيرة. إن محمداً كان يعتقد في طفولته ما كان يعتقده السحرة والكهنة في شمال ووسط آسيا، وسحرة أستراليا أيضاً، من أنهم أثناء تلقيهم التنزلات أو أثناء تأديتهم للشعائر والصلوات المخصوصة، كانوا

---

(١) محمد في مكة، ص٦٧ ـ ٧٢.

(٢) النبي محمد: لبانوفا وفاختين، ص٤٦، باللغة الروسية، دار فينيكس، روستوف، ١٩٩٩م. نقلاً من: الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الروسية، ص٣٠.

(٣) حياة محمد، ص٣٠.

يشعرون أن روحاً قد أخذت أعضاءهم الداخلية منهم، ووضعت مكانها أعضاء أخرى أحسن منها. وربما كان هذا هو السبب الذي جعل محمداً بالتأكيد يعاني من بعض الأزمات من هذا النوع في سن المراهقة، وهذا الشيء نفسه هو الذي جعل أعداء محمد من النصارى يزعمون أنه كان مصاباً بداء الصرع، وإذا صح هذا الزعم فإن صرع محمد كان معتدلاً فلم يمثل خطورة عليه»[1].

وقريباً من رأي رودنسون يذهب جمع من المستشرقين في سبب وقوع حادثة شق الصدر: مثل «نيكولوسون» الذي يرجعه إلى حالة عصبية كانت تنتابه ﷺ في فترات متقطعة[2] بينما نجد «موير» يوافقه ويزيد عليه أنها لم تؤثر في شخصيته، معللاً ذلك بحسن تكوينه وسلامة أعضائه، ونجد أن «شبرنجر» يؤيدهما أيضاً ويتلمس مخرجاً لظهور هذه الحالة عنده، فيعللها بأنها موروثة له عن أمه بسبب الرؤيا التي كانت تراها أثناء حمله... وما هي إلا من قبيل الخرافات[3] وهو يقصد أن أمه ﷺ آمنة كانت مصابة بداء الصرع، يدلنا على وجوده عندها تلك الرؤيا المتكررة لها أثناء حملها له، وليس لها نصيب من الحق، وقد ورث هذا الصرع منها[4].

- ويقول جوزف هوروفتش تعليقاً على ما تزعمه العرب من شق صدر أمية بن أبي الصلت[5] قبل بعثة النبي ﷺ: «ليس واضحاً تماماً ما هي العلاقة بين هذه الأخبار أو فتح صدر محمد. لكن ليس مرجحاً على الإطلاق، كما يقول بور، أن يكون لفق للمرة الأولى كمقابل لها. وأن الأرجح أن تكون هذه الحكايا مأخوذة من الشعراء والمتنبئين العرب فرضت على محرري السيرة النبوية ضرورة أن يخترعوا لبطلهم تجربة مماثلة. لكن ذلك غير مؤكد. فكما رأينا من قبل، يمكن أن تكون الأمثولات غير العربية، قد لعبت دوراً أيضاً في إدخال هذه

(١) محمد: مكسيم رودنسون، ص٥٦ نقلاً عن: محمد بين الحقيقة والافتراء، ص٨٦.
(٢) تاريخ أدب العرب، ص١٤٧، ١٤٨.
(٣) دائرة المعارف ٢/ ٦٣٠ مادة: (آمنة). وانظر: الاستشراق في السيرة: لعبد الله النعيم، ص٣٩، ٦٠، والرسول في كتابات المستشرقين: لنذير حمدان، ص١١٢، ١٣٤، ومحمد رسول الله: لآتيين دينيه، ص٨٥، والظاهرة القرآنية: لمالك بنُ نبَيّ، ص٧٦.
(٤) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، ص٢٨٤.
(٥) انظر: سيرة ابن كثير، ص١٣١.

الحكاية في سيرة محمد»[١].

- كما أنكر حادثة شق الصدر بعض المستشرقين المتعاطفين مع نبي الإسلام كحال كارين آرمسترونغ، والتي تعلق على هذه الحادثة بقولها:

«ولتلك القصة مثيلاتها في أقصوصات الحضارات الأخرى التي تصف شعائر الإعداد (intiation)، وهي ترمز إلى النقاء الضروري للشاب المعد لكي يتلقى تجربة سماوية دون تلويث الرسالة المقدسة. وقد قال بعض كتاب المسلمين: إن تلك الحادثة وقعت قبل الإسراء، الأمر الذي يدل على إلمامهم بمغزاها الحقيقي»[٢].

- وممن تأثر بهذا المنهج المستشرق المسلم نصر الدين دينيه في كتابه عن السيرة النبوية حيث استبعد المعجزات الحسية للنبي ﷺ لأن دينيه رأى في ذلك مخالفة لنصوص القرآن الكريم، وقد كتب في مقدمة سيرته قائلاً: «وقد آثرنا، بالاتفاق مع نصوص القرآن - وهو الكتاب الوحيد الذي لم يعارض ولا يقبل المعارضة - وبالاتفاق مع علماء الصدر الأول، ومع أصحاب الفكر الحر من المعاصرين كالشيخ محمد عبده... أن نضرب صفحاً عن جميع الخوارق التي نسبت للنبي العربي بعد زمن طويل من وفاته، والتي يبدو أن في نسبتها إليه ما يسلبه سيماء الحقيقة، والحق أننا نرى أن محمداً هو الوحيد (من بين الأنبياء) الذي استطاع أن يستغني عن مدد الخوارق والمعجزات المادية، معتمداً فقط على بداهة رسالته ووضوحها، وعلى بلاغة القرآن الإلٰهية»[٣].

ورغم أن هذا التعليل الذي ذكره دينيه في إضرابه عن مثل هذا النوع من أحداث السيرة يعد غير كاف في مقابل الأحاديث النبوية المتواترة المثبتة لمثل هذه المعجزات إلا أن موقف دينيه المبدئي من الإسلام باعتباره دين العقل بالإضافة إلى تأثره بالمنهج العقلي الذي سلكه بعض دعاة الإسلام المعاصرين له كالشيخ محمد عبده من الممكن أن يكون قد دفعه إلى هذا الموقف، ولهذا فقد اعتمد دينيه على الفهم اللغوي (البسيط) في تأويل ما جاء في القرآن الكريم من

(١) تاريخ تدوين السيرة النبوية، دراسة موثقة للمغازي الأولى وأبرز مؤلفيها: ترجمة: حسين نصار، باريس (٦/ ٧٥).

(٢) محمد، ص١٢٠.

(٣) المرجع السابق، ص٥٤ - ٥٥.

آيات المعجزات دون الالتفات لما ورد فيها من الأحاديث النبوية، ومن ذلك أنه أورد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١]، ثم أتبعه بذكر الروايات في شق صدره عليه الصلاة والسلام، ثم قال: «وهذه القصة، ككل القصص التي من نوعها، والتي يجدها القارئ أثناء قراءته لهذا الكتاب، يجب أن تؤول تأويلاً رمزياً، والقصة التي نحن بصددها تعني أن الله تعالى شرح صدر محمد إلى الفرح بحقيقة التوحيد، إذ أزال عنه منذ الطفولة وزر الوثنية»[١].

ويتوجه الرد على دعاوى المستشرقين السابقة في إنكارهم لإرهاصات نبوته ﷺ في النقاط التالية:

أولاً: أن استبعادهم لهذه الإرهاصات وما فيها من أوجه الإعجاز ينطلق من منهج سلكه هؤلاء، وهو أنهم وزنوا كل أحداث حياة النبي ﷺ بميزان الواقع البشري المألوف، أو بعبارة أخرى بميزان الفكر المادي الوضعي الذي لا يقبل أي صلة بالغيبيات والروحانيات[٢]، حتى ولو كان الأمر يتعلق بحياة الأنبياء، ولا يدري هؤلاء أن استخدام هذا الميزان يبطل معجزات الأنبياء جميعاً، بما فيهم موسى وعيسى عليهما السلام وأنبياء بني إسرائيل الذين يقر غالب المستشرقين بنبوتهم.

فقد تكرر في سير هؤلاء الأنبياء ما يجريه الله من الخوارق على أيديهم لحكمة يريدها. ولقد كانت ولادة عيسى وطفولته وسيرته ستاراً لأمور خارقة، فهو مولود بلا أب، وتكلم في المهد صبياً، ووقعت لموسى في طفولته أمور غريبة

---

(١) محمد رسول الله، ص٧٧، ونبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص١٦٢ ـ ١٦٦.

(٢) ومما يؤسف له تأثر بعض كُتَّاب المسلمين بهذا الفكر الاستشراقي، ومنهم الدكتور محمد حسنين هيكل، حيث يقول في كتابه حياة محمد: «لا يطمئن المستشرقون، ولا يطمئن جماعة من المسلمين كذلك إلى قصة الملكين هذه، ويرونها ضعيفة السند، فالذي رأى الرجلين في رواية كُتَّاب السيرة إنما هو طفل لا يزيد على سنتين إلا قليلاً، وكذلك كانت سن محمد يومئذ». حياة محمد ص١٠٤، وانظر ممن تأثر بهذا المنهج: تفسير محمد عبده (٣/ ٢٩١، ٢٩٢)، وتفسير المنار: لمحمد رشيد رضا (٣/ ٢٩٢)، ومجلة المنار المجلد (١٠/ ١٦٦)، والمجلد (١٩/ ٥٣١، ٥٣٢)، وفقه السيرة، ص٦٥، والسُّنَّة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، ص١١٨، كلاهما للشيخ محمد الغزالي، وأضواء على السُّنَّة المحمدية، ص١٩١ وما بعدها لمحمود أبي ريه، والنبي محمد ﷺ: لعبد الكريم الخطيب، ص١٩٤ ـ ١٩٧، وأسئلة حرجه: لعبد الرازق نوفل، ص١٦٦. وانظر في الرد: رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ: د. عماد الشربيني، ص٢٨٤ ـ ٣٠١.

كذلك، فليس من التحقيق العلمي أن توزن أحداث حياة الأنبياء بمقاييس الفكر المادي الوضعي وحدها.

يقول الحافظ ابن حجر، بعد أن عرض لذكر الروايات الدالة على شق الصدر وتكرره: «وجميع ما ورد من شق الصدر، واستخراج القلب، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة، مما يجب التسليم به دون التعرض لصرفه عن حقيقته، لصلاحية القدرة الإلٰهية، فلا يستحيل شيء من ذلك»[(١)].

ولا شك أن التطهير من حظ الشيطان إرهاص مبكر بالنبوة. وإعداد للعصمة من الشر ومن عبادة غير الله. وقد دلت أحداث صباه ﷺ، على تحقق ذلك، فلم يرتكب إثماً، ولم يسجد لصنم بالرغم من شيوع ذلك في قومه.

إن نفي المعجزات الحسية الثابتة بالنقل الصحيح، إنما هو في الحقيقة خضوع وانصياع للفكر المادي والفلسفات الوضعية. وسير الأنبياء ووقائع حياتهم وخصائصهم وروابطهم لا توزن بميزان هذا الفكر.

ثانياً: فيما يتعلق بحادثة شق الصدر فقد رويت عن رسول الله ﷺ بروايات ثابتة صحيحة، وفي مصادر عدة بطرق صحيحة لا يسع العقل المدرك إنكارها.

وقد شرح الله صدر نبيه ﷺ كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١]، وهذا من منته تعالى على نبيه لإعداده للقيام بعبء الدعوة، وحمل الرسالة، وعصمته من الشيطان الرجيم[(٢)]. والاستفهام في الآية (ألم) للتقرير؛ أي: قد شرحنا لك صدرك، والشرح هنا في حقه ﷺ، شرح معنوي وحسي معاً.

أما الشرح المعنوي: فهو بالنور الإلٰهي كما في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٢٢].

وأما الشرح الحسي: فقد حدث له ﷺ أربع مرات[(٣)]، وبه قال كثير

---

(١) فتح الباري (٧/ ٢٠٥).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٨/ ٤٤٨).

(٣) وروى شق صدره الشريف مرة خامسة، وهو ابن عشرين سنة فيما قيل ولا تثبت فلا تذكر إلا مقرونة ببيان عدم الثبوت كما قال أئمة الحديث. انظر: شرح الزرقاني على المواهب (١/ ٢٨٩، =

من الأئمة[(١)]:

ـ وكانت المرة الأولى: عندما كان ابن أربع سنين من عمره المبارك، وكان القصد منها ـ كما جاء في الرواية ـ نزع العلقة السوداء من قلبه، كرامة له من عند ربه ﷻ، تلك العلقة التي ولد بها تكملة للخلق الإنساني؛ لأنها حظ الشيطان من كل البشر، وقد تم بنزعها من قلبه ﷺ، أن نشأ مبرءاً من كل عيب، فنشأ على أكمل أحوال البشر من العصمة من الشيطان، والاتصاف بالمحامد العليا منذ نعومة أظفاره، والتي لا يفوقه فيها غيره[(٢)].

وقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه هذه المرة الأولى لشق صدره الشريف مجملة عن أنس بن مالك رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني: ظئره ـ فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره» فالحديث نص صريح على الشق الحسي لصدر رسول الله ﷺ خلافاً لمن أنكر من المستشرقين وأذيالهم[(٣)].

ـ وقد تكرر شق صدره الشريف للمرة الثانية، وهو ابن عشر سنين وأشهر من عمره الطيب المبارك، وهو سن بداية الكمال، وذلك لقربه من سن التكليف، من أجل أن لا يلتبس بشيء مما يعاب على الرجال، وحتى لا يكون في قلبه شيء إلا التوحيد، كما كان أيضاً شق صدره الشريف هذه المرة توطئة لما بعده عند البعثة الشريفة[(٤)].

فقد أخرج عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن أبا هريرة رضي الله عنه كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله

= ٥/ ٤٧٢)، وفتح الباري (١/ ٥٤٩) رقم (٣٤٩)، (١٣/ ٤٨٩) رقم (١٥١٧).

(١) انظر: رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، ص١٠٦ وما بعدها.

(٢) ينظر: الروض الأنف: للسهيلي (١/ ٢٩١)، وفتح الباري (٧/ ٢٤٤) رقم (٣٨٨٧)، وشرح الزرقاني على المواهب (١/ ٢٨٩، ٥/ ٤٦٨، ٤٦٩، ٨/ ٦٧).

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) انظر: الروض الأنف (١/ ٢٩١)، وشرح الزرقاني على المواهب (١/ ٢٧٩، ٥/ ٤٧١).

عنها غيره، فقال: يا رسول الله ما أول ما رأيت في أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله ﷺ جالساً. وقال: **لقد سألت أبا هريرة؛ إني لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟ قال: نعم، فاستقبلاني بوجوه لم أراها لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إليّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهم بعضدي، لا أجد لأحدهما مسّاً، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه؛ فأضجعاني بلا قصر ولا هصر، وقال أحدهما لصاحبه: أفلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري، ففلقها فيما أرى بلا دم، ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج يشبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى، فقال: اغد واسلم، فرجعت بها أغدو رقة على الصغير، ورحمة للكبير»**[١].

ـ وكانت المرة الثالثة لشق صدره الشريف عند المبعث، وذلك لإعداد قلبه لتحمل عبء الوحي والرسالة، بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير[٢]، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ نذر أن يعتكف شهراً هو وخديجة بحراء، فوافق ذلك شهر رمضان، فخرج النبي ﷺ ذات ليلة فسمع: السلام عليك، فقال: **فظننتها فجأة الجن، فجئت مسرعاً حتى دخلت على خديجة، فسجتني ثوباً،** وقالت: ما شأنك يا ابن عبد الله؟ فقلت: **سمعت السلام عليك، فظننتها فجأة الجن،** فقالت: أبشر يا ابن عبد الله، فإن السلام خير، قال: **ثم خرجت مرة فإذا بجبريل على الشمس، جناح له بالمشرق، وجناح له بالمغرب، قال: فهِلت**[٣] **منه، فجئت مسرعاً، فإذا هو بيني وبين الباب، فكلمني حتى أنست به، ثم وعدني موعداً، فجئت له فأبطأ عليّ، فأردت أن أرجع، فإذا أنا به وميكائيل قد سدّا**

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في زوائده على المسند (٥/ ١٣٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٣): رواه عبد الله بن أحمد ورجاله ثقات، وثقهم ابن حبان.اهـ. وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١/ ٢١٩) رقم (١٦٦)، وللحديث شاهد من حديث عتبة بن عبد السلمي أخرجه أحمد في مسنده (٤/ ١٨٤)، وإسناده حسن كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢١)، والدارمي في سننه، المقدمة، باب كيف كان أول شأن النبي ﷺ (١/ ٢٠) رقم (١٣)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٧٥) رقم (٣٩٤٩)، وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: صحيح على شرط مسلم.

(٢) انظر: شرح الزرقاني على المواهب (١/ ٢٨٨، ٤١٩، ٤٢٠)، وفتح الباري (٧/ ٢٤٤) رقم (٣٨٨٧).

(٣) أي: فَهِبتُ منه، كما جاء في رواية الطيالسي في مسنده ص٢١٦ رقم ١٥٣٩.

الأفق، فهبط جبريل وبقي ميكائيل بين السماء والأرض، فأخذني جبريل، فاستلقاني لحلاوة القفا، ثم شق عن قلبي، فاستخرجه، ثم استخرج منه ما شاء الله أن يستخرج، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم أعاده مكانه، ثم لأمه، ثم أكفأني كما يكفأ الأديم، ثم ختم في ظهري حتى وجدت مس الخاتم في قلبي، ثم قال: اقرأ، ولم أك قرأت كتاباً قط، فلم أجد ما أقرأ، ثم قال: اقرأ، قلت: ما أقرأ قال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، حتى انتهى إلى خمس آيات منها، فما نسيت شيئاً بعد، ثم وزنني برجل، فوزنته، ثم وزنني بآخر فوزنته، حتى وزنني بمائة رجل، فقال ميكائيل: تبعته أمته ورب الكعبة، فجعلت لا يلقاني حجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، حتى دخلت على خديجة قالت: السلام عليك يا رسول الله»[(١)].

ـ أما المرة الرابعة التي شق فيها صدر النبي ﷺ فكانت ليلة الإسراء والمعراج وذلك تأهباً لمناجاة ربه ﷻ، والمثول بين يديه، واستعداداً لما يلقى إليه من سائر أنواع الفيوضات الإلٰهية، وما يراه من عظيم الآيات الربانية[(٢)].

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث أن رسول الله ﷺ قال: «**فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل** عليه السلام، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغها في صدري، ثم أطبقه. ثم أخذ بيدي، فعرج بي إلى السماء...» الحديث[(٣)].

والحكمة هنا في شق صدره الشريف، مع القدرة على أن يمتلئ قلبه إيماناً وحكمة بغير شق؛ الزيادة في قوة اليقين؛ لأنه أعطى برؤية شق بطنه، وعدم تأثره بذلك، ما أمن معه من جميع المخاوف العادية المهلكة، فكمل له ﷺ بذلك ما أريد منه من قوة الإيمان بالله ﷻ وعدم الخوف مما سواه، فلذلك كان ﷺ أشجع الناس، وأعلاهم حالاً ومقالاً، ولذلك وصف بقوله تعالى: ﴿مَا

---

(١) أخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١/ ٢١٥، ٢١٦) رقم (١٦٣)، وأبو داود الطيالسي في مسنده، ص٢١٥، ٢١٦ رقم (١٥٣٩)، وإسناده حسن كما قال ابن حجر في فتح الباري (١/ ٣٣) رقم (٣)، وأخرجه الحارث بن أسامة في مسنده كما قال الحافظ في الفتح (١٣/ ٤٨٩) رقم (٧٥١٧).

(٢) انظر: شرح الزرقاني على المواهب (٨/ ٥٠)، والبداية والنهاية (٢/ ٢٥٧).

(٣) أخرجه مسلم بهذا اللفظ في كتاب: الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١/ ٤٨٩) رقم (٢٦٣)، والبخاري في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ذكر إدريس عليه السلام (٦/ ٤٣١) رقم (٣٣٤٢).

﴿كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: ١١]، وقوله سبحانه: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧﴾ [النجم: ١٧][١].

ثالثاً: أن ما زعمه المستشرقون ومن تابعهم في إنكارهم لشق الصدر لا يستندون فيه إلى نقل صحيح ولا عقل سليم، وتفصيل ذلك كما يلي:

١ ـ مستند إنكار «رودنسون» و«موير» و«نيكولسون» و«شبرنجر» فيكمن في: أن ما حدث لرسول الله ﷺ إنما كان ضرباً من نوبات الصرع التي كانت تتعاوده بين الحين والحين، وهو ما زعموه أيضاً في حالات نزول الوحي عليه بهدف إنكار نبوته!.

لكن المتأمل في معجزة شق الصدر يجد أن هناك بوناً شاسعاً بينه وبين الصرع، فإن نوبة الصرع لا تذر عند من تصيبه أي ذكر لما مر به أثناءها، بل هو ينسى هذه الفترة من حياته بعد إفاقته من نوبته نسياناً تاماً، ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حل به خلالها، ذلك أن حركة الشعور والتفكير تتعطل فيه تمام التعطيل.

هذه أعراض الصرع كما يثبتها العلم الحديث الذي يؤمن به هؤلاء المنكرون، ولم يكن ذلك ليصيب رسول الله ﷺ، بل كانت تنتبه حواسه المدركة في تلك الأثناء تنبهاً لا عهد للناس به، وكان يذكر كل ما يطرأ عليه بدقة فائقة، بدليل قوله ﷺ لما سئل عن كيفية إتيانه الوحي قال: «**أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس، وهو أشده علي، فيفصم عني، وقد وعيت عنه ما قال...**»[٢].

هذا بالإضافة إلى أن قصة شق صدره الشريف تحدَّث به الأطفال الذين كانوا في صحبته إبان حدوثها، ومن البعيد، بل ومن المستحيل أن يتفق الأطفال على اختراع حادثة لا أساس لها، وذلك لطهرهم وصفاء سريرتهم ونقائها على أن رسول الله ﷺ تحدث بها أيضاً بعد الرسالة على ما جاء في رواية مسلم عن أنس بن مالك، وتصريحه بأنه كان يرى أثر المخيط في صدره ﷺ!.

وكذلك جاء التصريح بقصة شق الصدر صريحاً على لسان رسول الله ﷺ على ما جاء في رواية عبد الله ابن الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه، وكذلك جاء التصريح بالشق ليلة الإسراء والمعراج على ما جاء في الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه.

---

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، ص١٠٦ ـ ١١١.

(٢) تقدم تخريجه.

أما ما زعمه «موير» من عدم تأثير النوبة فيه لحسن تكوينه فإنه دس خبيث، وطعن مردود، مؤداه إنكار شق صدره لإنكار نبوته، متذرعاً بما هو مقرر عند المسلمين من كمال هيئته وحسن تكوينه ﷺ، وليس في الروايات ما يساعد على زعمه وافتراءاته.

إذ كيف يجتمع حسن التكوين، وحدوث الصرع؟! لا شك بأن هذا تناقض ظاهر.

وأما ما زعمه «شبرنجر» من أن رسول الله ﷺ كانت له حالات عصبية تنتابه، وأنه ورثها عن أمه بسبب الرؤيا التي كانت تراها أثناء حمله، وما هي إلا من قبيل الخرافات! يكذبه ما سبق من أن أعراض الصرع ما كان ليصيب رسول الله ﷺ منها شيء.

وحمله سبب الصرع، على رؤيا آمنة يكذبه أيضاً ما ثبت في الصحيح من تأكيده ﷺ لرؤيا أمه، في قوله ﷺ: «**إني عبد الله وخاتم النبيين وأبي منجدل في طينته، وسأخبركم عن ذلك، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي آمنة التي رأت، وكذلك أمهات المؤمنين يرين**، وأن أم رسول الله ﷺ رأت حين وضعته له نوراً أضاءت لها قصور الشام، ثم تلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦][(١)].

وإذا كان «شبرنجر» يعتبر رؤيا أم رسول الله ﷺ، من قبيل الخرافات، فهل يعتبر أيضاً رؤيا أم موسى من قبيل الخرافات؟ والواردة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾﴾ [القصص: ٧].

إن أم رسول الله ﷺ آمنة، كانت من أعقل الناس، وأصحهم بدناً، ومن زعم خلاف ذلك من المستشرقين فعليه الدليل، ولا دليل!. لأن الحق المؤيد

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٣، ٦٥٦) رقمي (٣٥٦٦، ٤١٧٥) وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي وأحمد في المسند (٤/ ١٢٧)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/):٢٢٣ رواه أحمد بأسانيد والبزار والطبراني بنحوه، وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح غير سعيد بن سويد، وقد وثقه ابن حبان، وأخرجه ابن حبان في صحيحه «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان» كتاب التاريخ، باب صفته ﷺ وإخباره (٨/ ١٦٠)، وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١/ ٤٨) رقم (٩)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٣٠).

بالأدلة القاطعة أن أم رسول الله ﷺ كانت مؤمنة بعصمة ابنها (محمد بن عبد الله ﷺ) من الشيطان، وأنه سيكون له شأن، وكان هذا بناءاً على أمارات تحدثت بها لحليمة السعدية عندما تخوفت على رسول الله ﷺ لما بلغها قصة شق صدره الشريف مع الغلمان.

قالت لها: «أفتخوفت عليه الشيطان؟ قالت حليمة: قلت: نعم، قالت آمنة: كلا! والله ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لابني شأناً! أفلا أخبرك خبره، قالت: قلت: بلى، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء لي به قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به، فوالله ما رأيت من حمل قط كان أخف، ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته، وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك، وانطلقي راشدة»[(١)].

أما ما ادعاه «درمنغم» من أن قصة شق الصدر لا تستند إلا إلى الآية الكريمة وأنه عمل روحي خالص، فإن الدليل ليس هو الآية فقط، وإنما الدليل على وقوع شق الصدر على جهة الحس، إنما هو الروايات المتواترة والمتكاثرة، التي ذخرت بها كتب السُّنَّة كما أسلفنا، وحسبك بمصدرها أحد الصحيحين (مسلم) فلا سبيل إلى التشكيك في وقوع القصة بعدها، وخاصة أنها جاءت مؤكدة ومفسرة للآية الكريمة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١].

وإن كانت دعوى المفكرين من المستشرقين، ومن لف لفهم من المسلمين، بأن حياة الرسول ﷺ حياة إنسانية رفيعة، فلا معنى لمثل هذا الحادث بالنسبة له!! فإننا نقول لهم: إن الحياة الإنسانية الرفيعة لا تتعارض والمعجزات الحسية للأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولماذا ينكر هذا على سيد ولد آدم، ولا ينكر على غيره ممن سبقه من الأنبياء ممن ظهرت على أيديهم خوارق العادات كموسى وعيسى عليهما السلام، ولم يقل أحد من أهل العلم إن ذلك كان مجافياً لحياتهما الإنسانية الرفيعة؟.

وقصة شق الصدر لا تخالف العقل أيضاً من جهة كونها تمَّت دون إراقة دم، والتأمت دون آلات طبية، فإن العلم الحديث يؤيد ذلك ويصدقه، فقد اخترعت آلات للجراحة تجعل الجرح يلتئم بدون سيلان دم من جسم المريض،

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٦٥).

كما وجد بعض الأدوية تمنع سيلان الدم بمجرد بثها على الجرح، والطبيب لا يدعي أنه يفعل الأشياء الخارقة، وإنما يعتقد أن ذلك قد تم بعلم مدروس له قواعده وأصوله. كيف وقد تم زرع بعض الأجسام المنقولة من ميت أو صحيح إلى آخر مريض، ويزاول حياته الطبيعية بعد أن برأ وعافاه الله وزال عنه المرض؟ وإذا جاز ذلك في حق البشر وهو من جملة ما خلق الله ﷻ، أيستبعد ذلك على الخالق جل جلاله؟[١].

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، ص٢٨٨ ـ ٢٩١.

المبحث الثالث

الإعجاز القرآني

جرت سُنَّة الله في ابتعاث رسله إلى خلقه، لتبصيرهم بعظمته وجمعهم على عبادته، أن يؤيدهم بأمور حسية تخالف السنن الكونية، وتشذ عن النواميس الطبيعية، وتكون من قبيل ما استحكم في زمانهم، وغلب على خاصتهم، وعظم في نفوس عامتهم، لتكون معجزة الرسول المرسل إليهم مفحمة لأعجب الأمور في أنظارهم، ومبطلة لأقوى الاشياء في حسبانهم، ولئلا يجد المبطلون متعلقاً يتشبثون به، ولا سبيلاً يتخذونه إلى اختداع الضعفاء، فقد أيد الله ﷻ موسى عليه السلام ـ وكان عصره عصر سحر ـ بفلق البحر، وانقلاب العصا حية تسعى، وانبجاس الحجر الصلد بعيون الماء الرواء.

وأيد عيسى عليه السلام ـ وكان عهده عهد طب ـ بإبراء الأكمه والأبرص وخلق الطير من الطين، وإحياء الموتى بإذنه.

ولما أرسل تعالى رسوله محمداً، ﷺ، إلى الناس أجمعين، ـ وجعله خاتم النبيين ـ أيده بمعجزات حسية كمعجزات من سبقه من المرسلين، وخصه بمعجزة عقلية خالدة، وهي إنزال القرآن الكريم، الذي لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لم يستطيعوا ولم يقاربوا، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وكان ذلك في زمان سما فيه شأن البيان، وجلت مكانته في صدور أهله، وعرفوا باللسن والفصاحة، وقوة العارضة في الإعراب عن خوالج النفوس، والإبانة عن مشاعر القلوب.

وظل رسول الله صلوات الله عليه، يتحداهم بما كانوا يعتقدون في أنفسهم القدرة عليه، والتمكن منه، ولم يزل يقرعهم ويعجزهم، ويكشف عن نقصهم، حتى استكانوا وذلوا، وطبع عليهم الخزي بطابعه، وصاروا حيال فصاحته في أمر مريج.

وقد أدهش القرآن العرب لما سمعوه، وحيَّر ألبابهم وعقولهم بسحر بيانه، وروعة معانيه، ودقة ائتلاف ألفاظه ومبانيه، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر، وافترقت كلمة الكافرين على وصفه، وتباينت في نعته، فقال بعضهم: هو شعر، وقال فريق: إنه سحر، وزعمت طائفة: إنه أساطير الأولين اكتتبها محمد، فهي تملى عليه بكرة وأصيلا، وذهب قوم: إنه إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون. وقال غير هؤلاء وهؤلاء: لو نشاء لقلنا مثل هذا.

ولكنهم لم يقولوا هم ولا غيرهم لأن تأليف القرآن البديع، ووصفه الغريب، ونظمه العجيب، قد أخذ عليهم منافذ البيان كلها وقطع أطماعهم في معارضته، فظلوا مقموعين مدحورين ثلاثة وعشرين عاماً، يتجرعون مرارة الإخفاق، ويهطعون لقوارع التبكيت، وينغضون رؤوسهم تحت مقارع التحدي والتعيير، مع أنفتهم وعزتهم، واستكمال عدتهم وكثرة خطبائهم وشعرائهم، وشيوع البلاغة فيهم، والتهاب قلوبهم بنار عداوته، وترادف الحوافز إلى مناهضته، وعرفانهم أن معارضته بسورة واحدة أو آيات يسيرة أنقض لقوله، وأفعل في إطفاء أمره، وأنجع في تحطيم دعوته، وتفريق الناس عنه من مناجزته، ونصبهم الحرب له، وإخطارهم بأرواحهم وأموالهم، وخروجهم عن أوطانهم وديارهم.

وقد ندب الله المسلمين إلى تلاوة القرآن، وقراءة ما تيسر منه، وحضهم على ادكار معانيه، وتدبر أغراضه ومراميه، ليهتدوا ببصائره وهداه، وليستضيئوا بأنواره في الحياة، حتى تكون كلمتهم فيها هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

فأقبل عليه علماؤهم يتدبرونه ويفسرونه، ويجلون آياته على أعين الناس

لعلهم يشهدون ما فيها من المنافع لهم، فيأتمروا حيث أمر، وينتهوا حيث زجر.

وأقبل عليه غيرهم، من أعدائه وأعدائهم، فاتبعوا ما تشابه من آيه ابتغاء الفتنة بتأويلها، وتحريف كلمه عن مواضعها، وخيلت لهم أفهامهم الكليلة، وأذهانهم العليلة، أن في نظمه فساداً، وفي أسلوبه لحناً، وفي معانيه تناقضاً، وفي نقله اضطراباً، فنفوا عنه صفة الإعجاز، وسددوا نحوه المطاعن، وبثوا حوله الشكوك[١].

ومن هنا فقد نهض علماء المسلمين لبيان هذا الإعجاز في كتاب الله، وظهرت لهم مصنفات في هذا المجال الذي أصبح فيما بعد علماً قائماً بذاته، وقد ابتدأ هذا التأليف الجاحظ (ت٢٥٥هـ) في كتابه «نظم القرآن» وهو أولُ كتاب أفرد لبعض القول في الإعجاز أو فيما يهيئ القولَ به، ثم تلاه أول كتاب وضع لشرح الإعجاز وبسط القول فيه وهو كتاب «إعجاز القرآن» لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي (ت٣٠٦هـ)، وهو كتاب شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحاً كبيراً سماه «المعتضد»، وشرحاً آخر أصغر منه. كما بنى عبد القاهر كتابه «دلائل الإعجاز» على كتاب الواسطي المتقدم، ثم وضع أبو عيسى الرماني (ت٣٨٤هـ) كتابه في الإعجاز «النكت في إعجاز القرآن»، وجاء بعده القاضي أبو بكر الباقلاني (ت٤٠٣هـ) فوضع كتابه المشهور «إعجاز القرآن» الذي أجمع المتأخرون من بعده على أنه باب في الإعجاز على حدة.

وممن ألَّف في الإعجاز أيضاً على وجوه مختلفة من البلاغة والكلام وما إليهما: الخطابي (ت٣٨٨هـ) في (بيان إعجاز القرآن)، وفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ) في (نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز)، وعبد الواحد الزملكاني (ت٧٢٧هـ) في (البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن)، وجلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) في (معترك الأقران في إعجاز القرآن)[٢][٣].

---

(١) إعجاز القرآن: للباقلاني، ت: السيد أحمد صقر، مقدمة المحقق، ص٥ ـ ٦.

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: د. مصطفى صادق الرافعي، ص١٠٦، ١٠٨، ومباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، ص٤٥ وما بعدها، ودراسات في علوم القرآن: د. فهد الرومي، ص٢٦٩.

(٣) وأما المؤلفات الحديثة: فكثيرة جدّاً في مختلف أوجه الإعجاز، من أشهرها:
١ ـ إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: للأستاذ مصطفى الرافعي (ت١٣٥٦هـ) طبع عدة مرات في مصر، وهو بحق من أفضل المؤلفات في موضوعه قديماً وحديثاً. =

مفهوم الإعجاز القرآني:

المعجزة في اللغة: من أعجز وعجز وهو ما يقابل القدرة، والهاء فيها للمبالغة[(١)].

وأما الإعجاز في اللغة فيقول فيه ابن منظور: «ومعنى الإعجاز الفوت والسبق، يقال: أعجزني فلان؛ أي: فاتني؛ ومنه قول الأعشى:

فذاك ولم يعجز من الموت ربه ... ولكن أتاه الموت لا يتأبق

وقال الليث: أعجزني فلان إذا عجزت عن طلبه وإدراكه...»[(٢)].

ويعرِّف الأستاذ مصطفى صادق الرافعي الإعجاز بقوله:

«ضعف القدرة الإنسانية في محاولة المعجزة ومزاولته على شدة الإنسان، واتصال عنايته، ثم استمرار هذا الضعف على تراخي الزمن وتقدمه»[(٣)].

أما إعجاز القرآن فيمكن تعريفه بأنه: عجز المخاطبين بالقرآن وقت نزوله ومن بعدهم إلى يوم القيامة عن الإتيان بمثل هذا القرآن مع تمكنهم من الأسباب وتوفر الدواعي واستمرار البواعث[(٤)].

القدر المعجز من القرآن الكريم:

ومما يتصل بالحديث عن إعجاز القرآن الكريم، بيان القدر المعجز منه. فقد اختلف العلماء في هذا القدر على عدة أقوال:

= ٢ ـ النبأ العظيم: د. محمد عبد الله دراز (ت١٣٧٧هـ) وهو كتاب في الإعجاز اللغوي للقرآن الكريم أحد ثلاثة أنواع من الإعجاز وعد المؤلف بالكتابة عنها فأتم الأول، وتوفي قبل تمام الباقي، وامتاز بأسلوبه الأدبي المتميز، ودقة استنباطه، وسلاسة لفظه.

٣ ـ مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم وكتبه مؤلفه لطلاب قسم القرآن وعلومه في كلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية لمادة إعجاز القرآن، وهو كتاب قيم يقع في حوالي ثلاثمائة صفحة.

٤ ـ فكرة إعجاز القرآن: تأليف: نعيم الحمصي وهو في أصله مقالات نشرها في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ثم جمعها في هذا الكتاب، وصدرت طبعته الأولى عام ١٣٧٤هـ، ويقع في حوالي خمسمائة صفحة وهو عرض لقضية إعجاز القرآن الكريم منذ البعثة إلى حين تأليفه. انظر: دراسات في علوم القرآن: للرومي، ص٢٦٩.

(١) انظر: مختار الصحاح، ص٢٠٠، لسان العرب (٥/ ٣٦٩).

(٢) لسان العرب (٥/ ٣٧٠). وانظر: تهذيب اللغة (١/ ٢٢٠)، الكليات، ص١٤٩.

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، ص٩٨.

(٤) دراسات في علوم القرآن: للرومي، ص٢٦٣.

القول الأول: أن الإعجاز متعلق بجميع القرآن لا ببعضه وهذا القول مردود بالآيات التي تتحدى بعشر سور وبسورة واحدة أو حديث مثله.

القول الثاني: أن الإعجاز متعلق بسورة تامة طويلة أو قصيرة وهذا رأي الجمهور، وزاد بعضهم أنه يتعلق أيضاً بقدر سورة تامة من الكلام بحيث يظهر به تفاضل قوى البلاغة، وأقصر سورة في القرآن هي سورة الكوثر ثلاث آيات فيكون مقدار هذه السورة من الآيات هو المعجز.

القول الثالث: أن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره لقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الطور: ٣٤]، والتحدي بجنس القرآن لا بالمقدار، وهذا هو الأقرب والله أعلم[(١)].

والتحدي في القرآن الكريم ليس خاصّاً بأمة دون أمة أو عصر دون عصر بل هو باق ما بقي القرآن يعلن للناس تحديه فقوله عزَّ شأنه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الإسراء: ٨٨]. عام يشمل جميع الإنس والجن في جميع العصور.

ولأن القرآن خاتم الكتب، والرسول ﷺ خاتم الرسل، والإسلام خاتم الأديان، فقد اقتضت الحكمة بقاء المعجزة لتكون شاهدة على كل جيل كما هي شاهدة على الجيل الأول.

ولئن عجز الجيل الأول وهم أهل الفصاحة والبلاغة وأهل البيان والبديع عن الإتيان بمثل هذا القرآن أو بعضه أو مجرد محاولة ذلك لعلمهم سلفاً بعجزهم عن ذلك فإن من بعدهم أعجز وأبعد عن الاستطاعة، فالإعجاز مستمر والتحدي قائم إلى يوم القيامة[(٢)].

أوجه الإعجاز في القرآن:

مع اتفاق علماء المسلمين على ثبوت الإعجاز في القرآن الكريم إلا أنهم اختلفوا في أوجه الإعجاز فيه، ولهذا تعددت أقوالهم في هذا الجانب فكان من أهمها ما يلي:

١ ـ ذهب قوم إلى أن القرآن مُعجز ببلاغته التي وصلت إلى مرتبة لم يُعهد

---

(١) المرجع السابق، ص٢٧١ ـ ٢٧٢.

(٢) المرجع السابق، ص٢٧٢.

لها مثيل، وهذه النظرة نظرة أهل العربية الذين يولعون بصور المعاني الحية في النسج المحكم، والبيان الرائع.

٢ ـ وبعضهم يقول: إن وجه إعجازه في تضمنه البديع الغريب المخالف لما عُهِد في كلام العرب من الفواصل والمقاطع.

٣ ـ ويقول آخرون: بل إعجازه في الإخبار عن المغيبات المستقبلة التي لا يُطّلع عليها إلا بالوحي. أو الإخبار عن الأمور التي تقدمت منذ بدء الخلق بما لا يمكن صدوره من أميّ لم يتصل بأهل الكتاب.

كقوله تعالى في أهل بدر: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ [القمر: ٤٥]، وقوله: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٧]، وقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]، وقوله: ﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾﴾ [الروم: ١ ـ ٣]، وقوله: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩] وسائر قصص الأولين. وهذا القول يلزم منه أن الآيات التي لا خبر فيها عن المغيبات المستقبلة والماضية لا إعجاز فيها، وهو باطل، فقد جعل الله كل سورة معجزة بنفسها.

٤ ـ وذهب جماعة إلى أن القرآن مُعجز لما تضمنه من العلوم المختلفة، والحِكَم البليغة.

وهناك وجوه أخرى كثيرة للإعجاز ذكرها أهل العلم تدور في هذا الفلك[(١)]. والحقيقة أن القرآن معجز بكل ما يتحمله هذا اللفظ من معنى:

فهو مُعْجز في ألفاظه وأسلوبه، والحرف الواحد منه في موضعه من الإعجاز الذي لا يغني عنه غيره في تماسك الكلمة، والكلمة في موضعها من الإعجاز في تماسك الجملة، والجملة في موضعها من الإعجاز في تماسك الآية.

وهو مُعْجز في بيانه ونظمه، يجد فيه القارئ صورة حية للحياة والكون والإنسان.

---

(١) انظر: إعجاز القرآن: للباقلاني ص٣٣، الإتقان في علوم القرآن (٤/٧)، مناهل العرفان (٢/ ٣٣٢)، وبحث: عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم: لحسن عبد الفتاح.

وهو مُعجز في معانيه التي كشفت الستار عن الحقيقة الإنسانية ورسالتها في الوجود.

وهو مُعجز بعلومه ومعارفه التي أثبت العلم الحديث كثيراً من حقائقها المغيبة.

وهو مُعجز في تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان وتكوين مجتمع مثالي تسعد الدنيا على يديه[١].

يقول الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: «فخرج من هذا أن القرآن إنما صار معجزاً؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ، في أحسن نظوم التأليف، مضمناً أصح المعاني، من توحيد الله وتنزيهه في صفاته، ودعاء إلى طاعته، وبيان لمنهاج عبادته، في تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساويها، واضعاً كل شيء منها موضعه الذي لا يُرى شيء أولى منه، ولا يُتوهم في صورة العقل أمر أليق به منه، مودعاً أخبار القرون الماضية وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئاً عن الكوائن المستقبلة في الأعصار الماضية من الزمان ـ جامعاً في ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل والمدلول عليه ـ ليكون ذلك أوكد للزوم ما دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به ونهى عنه.

ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين شتاتها حتى تنتظم وتتسق، أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم، فانقطع الخلق دونه، وعجزوا عن معارضته بمثله»[٢].

موقف المستشرقين من إعجاز القرآن:

وقف المستشرقون من الإعجاز القرآني موقفهم من مصدر القرآن، وذلك لأن الإيمان بإعجاز القرآن فرع عن الإيمان بمصدره.

فالمستشرقون المسلمون أكدوا على إعجاز القرآن الكريم ومقارنة ذلك بالكتب السابقة، واعتبار هذا الجانب من أعظم ما يؤكد ألوهية مصدر الوحي

---

(١) مباحث في علوم القرآن: د. مناع القطان، ص٢٦٨ ـ ٢٧٢.

(٢) بيان إعجاز القرآن: للخطابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ت. محمد خلف الله أحمد، ود. محمد زغلول سلام، ص٢٧ ـ ٢٨.

المنزل على نبينا محمد ﷺ، والذي كان الإيمان به وبمعجزته الخالدة وهي القرآن أمراً سابقاً وممهداً لدخولهم في الإسلام.

وقد حاول كل واحد من المستشرقين المسلمين إظهار أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، وخصوصاً ما كان أشدها تأثيراً فيه وفي بني قومه، وأكثرها دعوة لهم للتصديق بأن وراء هذا القرآن مصدراً إلٰهياً هو الخالق جلَّ وعلا، وما ينفي أن يكون لهذا القرآن أي ارتباط بمقولات البشر ومنطوقاتهم.

يقول نصر الدين دينيه مبيناً عظمة القرآن وتفوقه على الكتب السابقة: «إن معجزات الأنبياء الذين سبقوا محمداً كانت في الواقع معجزات وقتية، وبالتالي معرضة للنسيان السريع. بينما نستطيع أن نسمي معجزة الآيات القرآنية: (المعجزة الخالدة)، ذلك أن تأثيرها دائم ومفعولها مستمر. ومن اليسير على المؤمن، في كل زمان وفي كل مكان أن يرى هذه المعجزة بمجرد تلاوة كتاب الله، وفي هذه المعجزة نجد التعليل الشافي للانتشار الهائل الذي أحرزه الإسلام، ذلك الانتشار الذي لا يدرك سببه الأوروبيون؛ لأنهم يجهلون القرآن، أو لأنهم لايعرفونه إلا من خلال ترجمات لا تنبض بالحياة فضلاً عن أنها غير دقيقة.

إن الجاذبية الساحرة التي يمتاز بها هذا الكتاب، الفريد بين أمهات الكتب العالمية، لا تحتاج منا ـ نحن المسلمين ـ إلى تعليل، ذلك أننا نؤمن بأنه كلام الله أنزله على رسوله»[١].

وبعد أن يسترسل دينيه في بيان أثر القرآن على المسلمين الذين آمنوا به في عصر الرسالة والذين آمنوا به في عصرنا الحاضر رغم الاختلاف بين الفئتين في التمكن من معاني اللغة ودقائقها إلا أن التأثير ما زال ظاهراً بيِّناً[٢] ليصل دينيه بعد ذلك إلى النتيجة العقلية الصحيحة التي تؤكد على أن مصدر هذا الوحي لن يكون سوى الخالق جلَّ وعلا:

«. . . إن هذا القرآن لمستحيل أن يصدر عن محمد، وإنه لا مناص من الاعتراف بأن الله العلي القدير هو الذي أملى تلك الآيات البينات. إن الرسول لم يكن مخادعاً، حين قال: (إن الله هو الذي أنزل القرآن).

---

(١) محمد رسول الله، ص١٣٨.

(٢) ص١٤٠.

لقد كان يؤمن كل الإيمان بمصدره الإلٰهي، فالنوبات الهائلة التي كانت تنتابه عند مجيء الوحي حاملاً إليه ما لم يكن يعلمه، في لغة جديدة كل الجدة بالنسبة له، تختلف كثيراً عن لغته المألوفة... هذا الوحي الذي يؤنبه إن أخطأ، ويلزمه بحفظ تلك الآيات دون أن يقدر على المقاومة... هذا الوحي، خلال تلك النوبات، لم يكن ليترك لديه أدنى شك في المصدر الإلٰهي في القرآن.

لهذا كله كان إعجاب الرسول بالقرآن؛ أي: بكلام الله، لا حدّ له. وقد أوحي إليه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾﴾ [هود: ١٣].

ولا عجب في أن نرى النبي الأمي يتحدى الشعراء، ويعترف لهم بحق نعتهم له بالكذب، إن أتوا بعشر سور من مثله، فقد آمن بعجزهم عن ذلك»[(١)].

ويقول في موضع آخر مبيِّناً إعجاز القرآن اللغوي وفضله على اللغة العربية:

«لقد حقق القرآن معجزة لا تستطيع أعظم المجامع العلمية أن تقوم بها، ذلك أنه مكّن للغة العربية في الأرض بحيث لو عاد أحد أصحاب رسول الله ﷺ إلينا اليوم لكان ميسوراً له أن يتفاهم تمام التفاهم مع المتعلمين من أهل اللغة العربية، بل لما وجد صعوبة تذكر للتخاطب مع الشعوب الناطقة بالضاد. وذلك عكس ما يجده مثلاً أحد معاصري (رابيليه) من أهل القرن الخامس عشر الذي هو أقرب إلينا من عصر القرآن، من الصعوبة في مخاطبة العدد الأكبر من فرنسيّي اليوم»[(٢)].

وتقول المستشرقة الأمريكية ديبورا بوتر في حديثها عن سبب إسلامها: «... عندما أكملت القرآن الكريم غمرني شعور بأن هذا الحق الذي يشتمل على الإجابات الشافية حول مسائل الخلق وغيرها. وأنه يقدم لنا الأحداث بطريقة منطقية نجدها متناقضة مع بعضها في غيره من الكتب الدينية. أما القرآن فيتحدث عنها في نسق رائع وأسلوب قاطع لا يدع مجالاً للشك بأن هذه هي الحقيقة، وأن هذا الكلام هو من عند الله لا محالة»[(٣)].

---

(١) ص١٤٠ ـ ١٤١.

(٢) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص٣٥.

(٣) رجال ونساء أسلموا (٨/ ١٠٠).

ثم تضيف: «... إن المضمون الإلٰهي للقرآن الكريم هو المسؤول عن النهوض بالإنسان وهدايته إلى معرفة الخلق، هذه المعرفة التي تنطبق على كل عصر...»[١].

وتستدل على هذا المضمون الإلٰهي بقولها: «... كيف استطاع محمد ﷺ الرجل الأمي الذي نشأ في بيئة جاهلية أن يعرف معجزات الكون التي وصفها القرآن الكريم، والتي لا يزال العلم الحديث حتى يومنا هذا يسعى لاكتشافها؟ لا بدّ إذن أن يكون هذا الكلام هو كلام الله ﷻ»[٢].

ويقول محمد أسد ضمن حديثه عن إسلامه في كتابه الشهير «الطريق إلى مكة»: «... لقد عرفت الآن، بصورة لا تقبل الجدل، أن الكتاب الذي كنت ممسكاً به في يدي كان كتاباً موحى به من الله. فبالرغم من أنه وضع بين يدي الإنسان منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً فإنه توقع بوضوح شيئاً لم يكن بالإمكان أن يصبح حقيقة إلا في عصرنا هذا المعقد، الآلي... لقد عرفت أن هذا لم يكن مجرد حكمة إنسانية من إنسان عاش في الماضي البعيد في جزيرة العرب النائية فمهما كان هذا الإنسان على مثل هذا القدر من الحكمة فإنه لم يكن يستطيع وحده أن يتنبأ بالعذاب الذي يتميز به هذا القرن العشرون. لقد كان ينطق لي، من القرآن، صوت أعظم من صوت محمد»[٣].

ويقول مراد هوفمان مبيناً منزلة القرآن ومقارناً له بالكتب السابقة:

«والمسلم يؤمن أن القرآن كلمة الله، وأنه ليس مخلوقاً من المخلوقات، وأن الله أوحاه إلى محمد بلسان عربي مبين في تلك الفترة الزمنية المحددة، وهو معجزة الإسلام الوحيدة، والدليل القاطع والبرهان الساطع على نبوة محمد.

ليس القرآن إذن كالعهد القديم أو الجديد، حيث يقُصُّ فيهما شخص ما حديثاً غير مباشر عن شخص أو شيء أو عن الله... أما القرآن، فإن القاصّ الذي يقص أحسن القصص هو الله مباشرةً سبحانه، يُخبر الله فيه عمّن يشاء أو عمّا يشاء، كما يُعلّمنا أن ننزّهه عن الجنس والنظير والشبيه... فيخبر عن نفسه

---

(١) المرجع السابق (٨/ ١١٣).
(٢) المرجع السابق (٨/ ١٠٩).
(٣) الطريق إلى مكة، ص٣٢٨ ـ ٣٢٩.

بضمير المفرد المتكلم، وضمير المتكلم الجمع، وضمير الغائب المفرد، لكي نظل واعين بمسألة تَنَزُّهه سبحانه عن التجسيد أو التشخيص.

ومع أن القرآن لا يمكن ترجمته دون فقد جانب مهم من المعنى، يكفي سبباً لذلك طبيعة اللغة العربية ذاتها، والقادرة على صياغة جمله خبرية غير مرتبطة بالتقسيم الزمني الذي نعرفه وغير خاضعة له، وبسبب ثراء نظمه المتساوق المترابط المحكم، فقد أصبح الكتاب الوحيد الذي تعددت ترجماته في لغة واحدة، أكثر من أي كتاب مترجم في العالم، وجاوزت طبعاته أعلى رقم لأي كتاب مترجم في تاريخ الطباعة، فضلاً عن أنه الكتاب الوحيد الذي يحفظه عن ظهر قلب مئات الآلاف من مختلف الأجناس (حتى من غير الناطقين بالعربية)، بل إن لغته العربية أصبحت حبلاً يعتصم به أكثر من مليار مسلم في العالم الإسلامي وحده: فتجد أن نحوه وتراكيبه اللغوية وألفاظه ومشتقاتِها أسدت للّغة العربية الكثير، فأصبحت اللغة الوحيدة، التي يستطيع الناطقون بها، المتوسطو الثقافة، أن يقرأوا نصوصها التي يزيد عمرها عن ألف وأربعمئة عام، دون الحاجة إلى ترجمتها إلى لغة عربية حديثة»[1].

أما المستشرق الفرنسي موريس بوكاي فقد كان من أكثر المستشرقين المسلمين اهتماماً بمسألة الإعجاز العلمي في القرآن ومقارنة ذلك بالكتب السابقة وبالنظريات والمكتشفات العلمية الحديثة، ولهذا خصص كتابه «القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم» لبحث هذه المسألة، ومما جاء فيه قوله:

«لقد قمت أولاً بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أي فكر مسبق وبموضوعية تامة باحثاً عن درجة اتفاق نص القرآن ومعطيات العلم الحديث. وكنت أعرف، قبل هذه الدراسة، وعن طريق الترجمات، أن القرآن يذكر أنواعاً كثيرة من الظاهرات الطبيعية ولكن معرفتي كانت وجيزة. وبفضل الدراسة الواعية للنص العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلى أبعد من الكتاب الأول؛ أي: سفر

---

(١) الإسلام كبديل، ص٤١ ـ ٤٢.

التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخاً في عصرنا. وأما بالنسبة للأناجيل... فإننا نجد نصّ إنجيل متى يناقض بشكل جليّ إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض»[١].

وأما المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام فقد أظهر كثير منهم قدراً كبيراً من التعظيم والتقدير للنواحي البلاغية والبيانية في القرآن الكريم، وتوقف بعضهم كثيراً عند مسألة تأثير القرآن في قلوب وعقول سامعيه، وأشادوا بذلك كثيراً، وإن كان بعضهم عزى ذلك لمصدره الإلهي إلا أن الغالبية منهم قد ردوا ذلك إلى شخصية النبي ﷺ وحسن منطقه، وبالتالي أنكروا ضمناً ألوهية مصدره، ولم يجرؤ هؤلاء أن يخرجوا من هذا التناقض الذي يعزو هذا التأثير إلى بشر ثم لا يستطيع بقية البشر الإتيان بمثله، وهو ما يؤكد أن الفكر الاستشراقي في غالب الأحيان لا يستطيع التحرر من قيود الفكر المسيحي ومعتقداته.

تقول المستشرقة الإيطالية لورا فاغليري: «إن معجزة الإسلام العظمى هي القرآن، الذي تنقل إلينا الرواية الراسخة غير المنقطعة من خلاله أنباء تتصف بيقين مطلق. إنه كتاب لا سبيل إلى محاكاته، إن كلاً من تعبيراته شامل جامع، ومع ذلك فهو ذو حجم مناسب... أما أسلوبه فأصيل فريد، وليس ثمة أيما نمط لهذا الأسلوب في الأدب العربي... والأثر الذي يحدثه في النفس البشرية إنما يتم من غير عون عرضي أو إضافي... إن آياته كلها على مستوى واحد من البلاغة حتى عندما تعالج موضوعات... كموضوع الوصايا والنواهي... إنه يكرر قصص الأنبياء وأوصاف بدء العالم ونهايته وصفات الله... ولكنه يكررها بنحو مثير إلى درجة لا تضعف من أثرها، وهو ينتقل من موضوع إلى موضوع من غير أن يفقد قوته. إننا نقع هنا على العمق والعذوبة معاً»[٢].

ويقول إميل درمنغم: «ولا بد لكل نبي من دليل على رسالته، ولا بد له من معجزة يتحدى بها... والقرآن هو معجزة محمد ﷺ الوحيدة، فأسلوبه المعجز وقوة أبحاثه لا تزال... إلى يومنا يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من

---

(١) ص١٥٠.

(٢) دفاع عن الإسلام، ص٥٦، ٥٧.

الأتقياء العابدين، وكان محمد يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله، وكان هذا التحدي أقوم دليل لمحمد على صدق رسالته. . . ولا ريب أن في كل آية منه، ولو إشارة إلى أدق حادثة في حياته الخاصة، تأتيه بما يهزّ الروح بأسرها من المعجزة العقلية، ولا ريب في أن هنالك ما يجب أن يبحث به عن سرّ نفوذه وعظيم نجاحه»[1].

وعلى هذا النسق جاءت غالب كتابات المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام فقلَّ أن تخلو واحدة منها من الثناء على القرآن في أسلوبه ولغته أو في تأثيره فيمن تنزل عليهم الوحي، وإن كان من استثناء في هذا الأمر فهو ما أثارته كتابات بعضهم كتوماس كارليل ـ وهو المعروف بتعاطفه وإنصافه لشخصية النبي ﷺ في جوانب متعددة ـ من استغراب حين انتقد أسلوب القرآن ونظمه ـ بما ينفي إعجازه ـ وادعى أن نظمه ملائم للبيئة العربية دون غيرها. ولهذا يقول:

«أما القرآن فإن فرط إعجاب المسلمين به وقولهم بإعجازه هو أكبر دليل على اختلاف الأذواق في الأمم المختلفة. هذا وإن الترجمة تذهب بأكثر جمال الصنعة وحسن الصياغة. ولذلك لا عجب أن الأوروبي يجد في قراءة القرآن أكبر عناء فهو يقرؤه كما يقرأ الجرائد، لا يزال يقطع في صفحاته قفاراً من القول الممل المتعب، ويحمل على ذهنه هضاباً وجبالاً من الكلم لكي يعثر في خلال ذلك على كلمة مفيدة، أما العرب فيرونه على عكس ذلك لما بين آياته وبين أذواقهم من الملاءمة، ولأنه لا ترجمة ذهبت بحسنه ورونقه فلذلك رآه العرب من المعجزات وأعطوه من التبجيل ما لم يعطه أتقى النصارى لإنجيلهم، وما برح في كل زمان ومكان قاعدة التشريع والعمل، والقانون المتبع في شؤون الحياة ومسائلها، والوحي المنزل من السماء هدى للناس وسراجاً منيراً يضيء لهم سبل العيش ويهديهم صراطاً مستقيماً، ومصدر أحكام القضاة والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به في غياهب الحياة»[2].

وقريباً من هذا الرأي تذهب كارين أرمسترونج في قولها:

«يجد المسلمون القرآن محركاً من الأعماق، ويقولون إنهم يشعرون ـ عند

---

(١) حياة محمد، ص٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٢) الأبطال، ص٧٤.

سماعه ـ أن صوتاً ذا بعد إلٰهي يغلفهم إلى حد ما. . . يجد الغربيون صعوبة في فهم هذا الأمر. فقد رأينا أن علماء من أمثال غيبون وكارليل، اللذين يتعاطفان بشكل معقول مع الإسلام، كانا محتارين بالقرآن، وهذا أمر لا يدعو إلى الدهشة لأن تذوُّق الكتب المقدسة في ثقافات أخرى أمر يصعب فهمه في أغلب الأحيان. . . أما فيما يتعلق بالقرآن فإن الترجمة تشكل مشكلة كبرى. . . إن في العربية شيئاً ما غير قابل للنقل إلى مصطلح آخر. فحتى خطب الساسة العرب تبدو غريبة ومصطنعة بعد ترجمتها إلى الإنجليزية، فإذا كان هذا صحيحاً بالنسبة للعربية العادية، لغة الكلام الدنيوية أو الأدب التراثي، فما بالك بلغة القرآن التي هي لغة لماحة مكثفة ومعقدة جداً. يقول العرب ممن يتكلمون الإنجليزية بطلاقة إنهم عندما يقرؤون القرآن مترجماً إلى الإنجليزية يشعرون أنهم يقرؤون كتاباً آخر تماماً»[١].

وهذا القول الذي ذكره كارليل وأرمسترونج له وجه من الصحة من جهة إعجاز القرآن في نظمه وبيانه فإن الترجمة تذهب بجوانب من جودة النظم والبيان والأسلوب ورونقها، ولهذا لا يمكن أن نقارن بين اللفظ الأصلي للقرآن وترجمة معانيه إلى اللغات الأخرى من جهة الإعجاز اللفظي، ورغم ذلك الاختلاف فإن التأثير في الأسلوب والمعنى ما زال له بقية كما صرح بذلك كثير ممن أسلم من الغربيين، وقد تناولنا قريباً بعضاً من هذه الشهادات في كتابات المستشرقين المسلمين، ولهذا فإن في عبارات كارليل وقوله إن الأوروبي يجد في قراءة القرآن أكبر عناء وأنه يقرؤه كما يقرأ الجرائد لا يزال يقطع في صفحاته قفاراً من القول الممل المتعب هذا من قبيل المبالغة المخرجة عن الحقيقة.

ويقال أيضاً إن هناك جوانب كثيرة من الإعجاز القرآني تختلف عن إعجاز النظم واللفظ وهذه لا تتأثر بالترجمة، ومن وجوه الإعجاز تلك:

أ ـ اشتمال القرآن على العلوم المختلفة، والحِكَم البليغة.

ب ـ اشتماله على الحقيقة الإنسانية ومبدأ الخلق ومنتهاه وغايته ورسالته في الوجود.

ج ـ إعجازه في الإخبار عن المغيبات الماضية وأخبار القرون السالفة، وكذلك تنبؤه بالحوادث المستقبلية.

---

(١) الإسلام في مرآة الغرب، ص٥٦.

د ـ إعجازه من جهة علومه ومعارفه التي أثبت العلم الحديث كثيراً من حقائقها المغيبة.

هـ ـ إعجازه من جهة التشريع وصيانته لحقوق الإنسان وتكوين مجتمع مثالي[١]. . . إلى غير ذلك من أوجه الإعجاز في القرآن والتي لا تزول ولا تندثر بعد ترجمة معانيه إلى لغات أخرى.

ـ أما بالنسبة لجمهور المستشرقين فإن الغالبية لا يختلفون كثيراً عن موقف المتعاطفين في ثناءهم على الأسلوب البياني للقرآن، ولهذا فإن من النادر أن تجد مستشرقاً يتبنى القول بتدني مستوى الخطاب القرآني كحال جرونباوم، حيث يقول:

«وقد انتقد القرآن بشدة من جراء النقائص في أسلوبه. وقد أجمع الغرب تقريباً على هذا الأمر، وكثير من المسلمين لا يخفون خيبتهم أمام كل من أسلوبه وصوره وبعض هذه الانتقادات مصيبة تماماً، فلم يكن محمد كاتباً في مرتبة أفلاطون. . . وإلهامه لم يكن يستطيع الاحتفاظ بمستوى سام إلا لبعض الوقت، ثم يسقط بعدها في المستوى العادي، لنقص في الخيال»[٢].

وكذلك المستشرق الإيطالي فرانسيسكو جابريلي في كتابه: «محمد والعالم العربي» الصادر سنة ١٩٦٧م، والذي ادعى أن شمائل النبي ﷺ ومعجزاته خصوصاً الإعجاز القرآني، إنما هي ضرب من تأثير الأسطورة في حياة المسلمين الذين استندوا إلى الحكايات والقصص الشعبية في بناء اعتقادهم في شخص نبي الإسلام وسيرته[٣].

وهذا الذي ذهب إليه جرونباوم وجابريلي ـ وشاركهما فيه لامنس المعروف بتعصبه ضد نبي الإسلام ـ خالفوا به جمهور المستشرقين الذين اتفقوا على سمو الأسلوب القرآني، من حيث لفظه وتراكيبه وصوره. حتى إن جولدزيهر ـ المعروف بتحامله ـ قد قرر هذا الأمر وإن تبنى القول بالمفاضلة بين المكي والمدني، وأكده بروكلمان رغم دسه الخفي حين أشار إلى المشابهة بين الوحي المكي وبين سجع الكهان، حيث يقول:

---

(١) مباحث في علوم القرآن: د. مناع القطان، ص٢٦٨ ـ ٢٧٢.

(٢) l islam medieval-p91-92.

(٣) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١١١.

«وإنما يظهر هذا السمو الروحي الذي عرفه محمد في تلك السنوات الأولى من البعثة في أسلوب الآيات نفسه، فهي زاخرة بالصور الرائعة، عابقة بالنفس الخطابي الذي يضج بين جنباته بالتناغم الموسيقي والإحساس الشعري الأصيل»[١].

ورغم بحث بلاشير الحثيث على مطاعن في أسلوب القرآن، حيث تبنى القول بعدم تناسقه واحتوائه على عناصر متناقضة، إلا أنه في مواضع كثيرة تحدث عن سموِّه البلاغي فقال في (المدخل إلى القرآن):

«إن شكل الوحي لا علاقة له بالشعر، وإيقاع الوحدات المقفاة، في تنوعها وكثرتها وطلاوتها، لا تخضع لأي من قوانين الشعر العربي... ومهما كان الأمر، وإذا تقبلنا أن يختلط أسلوب القرآن ـ في البداية ـ عند أعداء الإسلام بسجع الكهان، فإن هذا الخلط لا يمكن أن يستمر إلا إذا كان صاحبه ذا نية سيئة، فمن الناحية الجمالية لا يوجد أدنى مقياس بين أقوال الكهان التي وصلتنا، وبين السور الأولى من الوحي المحمدي القوية والمفعمة بالمعاني... ونستطيع أن نقرر أن المعاصرين للوحي قد أحسوا بالفرق بينهما»[٢]. وقد أكد هذا الحكم في كتابه «القرآن» حيث نوه بشمولية تأثير أسلوبه فقال: «إن الاتهام الخطير للنبي بأنه كاهن أو ساحر، هو اعتراف بالتأثير العجيب لهذا النثر الموزون الذي يشيع عبقاً جمالياً يحس به حتى أعداؤه... والقرآن إضافة إلى هذا يؤثر حتى في غير العرب»[٣].

وذهب جب إلى تقرير سحر القرآن الكريم الذي لا يمكن تحدي مصدره، والذي يدل عليه العجز عن ترجمته فقال: «والواقع أن القرآن لا يمكن ترجمته بشكل أساسي... إذ ليس بالإمكان التعبير عن مكنونه باللغة العادية. ولا يمكن أن يعبر عن صوره وأمثاله؛ لأن كل عطف أو مجاز أو براعة لغوية يجب أن تدرس طويلاً قبل أن ينبثق المعنى للقارئ. وفي القرآن كذلك صور تلعب فيها موسيقى النغم دوراً لا يمكن تحديده؛ لأنها تعد بسحرها أفكار الشخص الذي يصغي إلى القرآن لتلقي تعاليمه»[٤].

---

(١) Introduction au Coran-p177-178.

(٢) le Coran-p72.

(٣) دعوة تجديد الإسلام، ص١٧ ـ ١٨.

(٤) دراسات في حضارة الإسلام، ص٢٥٦.

وقريباً مما ذكره جب يقول المستشرق الفرنسي جاك. س. ريسلر: «... لما كانت روعة القرآن في أسلوبه فقد أنزل ليقرأ ويتلى بصوت عال. ولا تستطيع أية ترجمة أن تعبر عن فروقه الدقيقة المشبعة بالحساسية الشرقية. ويجب أن تقرأه في لغته التي كتب بها لتتمكن من تذوق جمله وقوته وسمو صياغته. ويخلق نثره الموسيقي والمسجوع سحراً مؤثراً في النفس حيث تزخر الأفكار قوة وتتوهج الصور نضارة، فلا يستطيع أحد أن ينكر أن سلطانه السحري وسموه الروحي يسهمان في إشعارنا بأن محمداً كان ملهماً بجلال الله وعظمته»(١).

ويشيد فيليب حتي بالأسلوب القرآني الرفيع بل ويصفه بالمعجز في قوله:

«إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلّد. وهذا في أساسه، هو إعجاز القرآن... فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى»(٢).

ويضيف مبيناً أثره في اللغة العربية ومقارناً له بالكتب الأخرى: «... إن إعجاز القرآن لم يحل دون أن يكون أثره ظاهراً على الأدب العربي. أما إذا نحن نظرنا إلى النسخة التي نقلت في عهد الملك جيمس من التوراة والإنجيل وجدنا أن الاثر الذي تركته على اللغة الإنكليزية ضئيل، بالإضافة إلى الأثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية. إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق لهجمات»(٣).

وباستثناء من ذكرناهم ممن انتقدوا أسلوب القرآن أو إعجازيته وهم جرونباوم وجابريلي ولامنس، فقد شارك عدد من المستشرقين المتحاملين على الإسلام في الإعجاب بالبلاغة القرآنية، ومن هؤلاء بروكلمان وأندري ميكال الذي قال: «وكما أن لغة القرآن قد نبعت من لغة الشعراء، فإن أساليبه تذكر ببعض طرق الخطاب التي كان الناس يسعون إلى الوصول إليها في ذلك الوقت، وهي النثر الموزون المقفى الذي كان معروفاً عند الكهان الجاهلين. وقد اتخذ أعداء النبي من هذا التشابه سلاحاً، حيث اتهموه بالكهانة. وهذا نقد تافه... فجدة

(١) الحضارة العربية، ص٣٠ ـ ٣١.
(٢) الإسلام منهج حياة، ص٦٢.
(٣) المرجع السابق، ص٢٨٧ ـ ٢٨٨.

القرآن وأصالته، وأبعاد لغته، وأسلوبه يتجاوز بمراحل بعيدة... تلعثمات الكهان. إضافة إلى أن عفوية الجملة التي تخضع لحاجات الوحي، ولها وحدها تصنع ظواهر أبعد من الوزن والقافية التي تخضع هي نفسها لهذه العفوية»[١].

ونخلص من استعراض هذه الآراء الاستشراقية في أسلوب القرآن الكريم إلى تأكيد إجماعهم على سموِّه، بل روعته وسحره، وبعبارة أخرى فإنهم قد أجمعوا على تقرير أن القرآن تحفة تسمو «على جميع ما أقرته الإنسانية وبجلته من التحف» حسب تعبير بلاشير[٢] ومعنى هذا أنهم قد شاركوا ـ إلى حد بعيد ـ المستشرقين المسلمين والمتعاطفين مع الإسلام في هذا الحكم[٣].

وفي ضوء هذه الحقيقة يجب علينا أن نتساءل عن السر في رفضهم الإيمان بالمصدر الرباني للقرآن، وما هي الحيثيات التي استندوا عليها في كفرهم به؟.

ويجب أن نؤكد هنا أنه كان بإمكاننا أن نتقبل هذا الموقف لو أن جمهور المستشرقين قد وجدوا تفسيرات علمية مقبولة يفسرون بها «تقديم تاجر قوافل أمي مثل هذا النص الذي لا يضاهى في الجمال وإثارة الانفعالات» كما يقول روجيه دوباسكوبه[٤].

ولكن في غياب أي مستند موضوعي لهذا الموقف، يجب أن نندهش كما اندهش سلفنا نصر الدين دينيه عندما قال: «وإنه ليدهشني أن يرى بعض المستشرقين أن محمداً قد انتهز فرصة الخلوة... فروى ورتب عمله المستقبل، بل لقد ذهب بعضهم إلى أبعد من ذلك، فوسوس بأن محمداً قد ألف في تلك الفترة القرآن كله. أحقاً لم يلاحظوا أن هذا الكتاب الإلٰهي خال من أية خطة سابقة على وجوده... وأن كل سورة من سوره منفصلة عن غيرها؟»[٥].

أما من جهة الإعجاز القرآني الذي أنكره جمهورهم فيقال في الرد: إن أيسر وجوه إعجاز القرآن الكريم تكمن في بشاراته وإخباره بالحوادث المستقبلية؛

---

(١) تاريخ الأدب العربي: بلاشير (٢/ ١٠٣).

(٢) انظر: محمد رسول الله: نصر الدين (دينيه)، ص١٣٥، ودفاع عن الإسلام: لورا فاغليري، ص٥٦.

(٣) إظهار الإسلام، ص٧٣.

(٤) محمد رسول الله، ص١٠٧.

(٥) انظر: 1&LItterature Arabe-p 14,15

إضافة إلى دلالة هذا الوجه على قناعة النبي ﷺ التامة بربانية الوحي، وتعود السهولة إلى قدرة كل أحد على معرفة ذلك، إذ كان يكفي كل كافر أن ينتظر حدوث الأمر الذي أخبر عنه القرآن ليعرف مدى صدقه أو كذبه.

أما دلالة هذا الوجه على إيمان النبي ﷺ بالمصدر الإلٰهي للوحي فلأنه ما كان ليجازف بالنص على هذه التحديدات الحديثة والزمانية التي وردت في القرآن لو لم يكن على يقين من صدقه، إذ إن بإمكانها تبيين كذبه ببساطة تامة في حالة عدم وقوعها.

وما انطبق على العرب المعاصرين للنبوة ينطبق على البشر الذين يعيشون بيننا اليوم، إذ بإمكان كل أحد أن يستوثق من هذه المعجزة بمجرد النظر في أسلوب القرآن الكريم، وتوالي الحوادث التاريخية التي تحدث عنها.

ولكن المستشرقين أغمضوا أعينهم عن هذا الدليل الساطع، فلم يبحثوا في العديد من الآيات التي تحتوي بشارات واضحة، وذلك مثل قولة تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ [الفتح: ٢٧].

وهم لم يكتفوا بذلك، بل عمدوا إلى إحدى أوضح الآيات ـ وأشهرها عندهم إذ تتعلق بحدث يخص ماضيهم ـ الدالة على الصدق الكامن في الإخبار بالمستقبل، وهي قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥﴾ [الروم: ١ ـ ٥].

فحاولوا أن يقضوا على الإعجاز فيها بتأويلات بعيدة. ولتحقيق ذلك جعل ديورانت قدرات النبي ﷺ الفذة هي أساس نبوءات القرآن، حيث كان يتأمل بعين الفيلسوف إلى الحروب الفارسية الرومانية، فتعرَّف بذلك على موازين القوى بينهما[1].

ومن المؤكد أن غرونبام قد قرأ التأويل السابق، فلم يستسغ وصف ديورانت للنبي ﷺ بالعبقرية، ففسر هذه النبوءة بتحيزه للروم، كما يقول:

«وقد حافظت مكة على تعاطفها مع الفرس... ولما تعرض أتباع محمد

---

(١) انظر: قصة الحضارة (١١/ ١٤).

للقهر أرسل قسماً كبيراً منهم إلى الحبشة، ليس لأنه يعتبر دعوته قريبة من المسيحية فحسب، بل لأن عداوة مواطنيه قد دفعته إلى البحث عن مساندة منافسيهم السياسيين. وللأسباب نفسها انحاز إلى جانب البيزنطيين لما كانت كل مكة تحتفل بانهزامهم المدوي أمام الفرس، الذين فتحوا القدس سنة ٦١٤م... وقد ساند قضيتهم بين السنوات (٦١١ ـ ٦١٦م) وتنبأ بانتصارهم النهائي. وقد تحققت نبوءته عام ٦٢٧م عندما غاص هرقل في بلاد الساسانيين، ولكن يبدو أن توقعه كان نتيجة لانحيازه، لا إلى تقدير موضوعي للقوى المتصارعة التي من المؤكد أنه يستحيل أن يكون عالماً بها في ظل العزلة التي كانت مكة فيها»[1]

أما بلاشير فقد انتبه إلى أن تأويلات زملائه تعطي تأصيلاً لإعجاز هذا الوجه القرآني وإن حاولت أن تميعه، ولذلك عمد إلى إنكار حقيقة الإخبار بالمستقبل في هذه الآية رأساً، بواسطة عمله على إلقاء الضبابية حولها، فقال:

«وأول هذه المنطلقات، أننا لا نستطيع أن نحدد للآيات الأولى من سورة الروم زماناً دقيقاً، حيث أن هناك احتمالين لتفسير النص: فقد يكون تاريخه هو زمن انتصار الفرس على الروم في سوريا وفلسطين عام ٦١٣م، أو يكون معاصراً لتاريخ هجوم هرقل المعاكس على الساسانيين سنة ٦٢٤م... وفي الحالة الأولى يكون زمن النص هو زمن بداية الوحي تقريباً، ويصعب تصديق هذا. وفي الحالة الثانية يكون تاريخ تنزيله بعد سنتين من وصول محمد إلى المدينة. ونستطيع ـ ولنا كل الحق في ذلك ـ أن نبدي رأياً آخر، ونتسأل: ألسنا في الواقع أمام نص موجه لبعث الأمل وروح الثقة في المسلمين بعد هزيمتهم في مؤتة سنة ٦٢٩م»[2].

وهكذا يتبيَّن سعي هؤلاء المستشرقين ـ كلٌّ بطريقته ـ إلى إبطال الإعجاز في هذه الآيات، وإننا نتساءل حقاً: هل خفي الأمر عليهم حتى ذهبوا إلى هذه التأويلات البعيدة؟. إن أسلوب آيات سورة الروم واضح تماماً، بحيث يستطيع كل قارئ أن يعرف أنها تتحدث في زمن الحال عن الاستقبال، فقد قرر الله تعالى (غلبة) الروم، وقرر (غلبتهم) على أعدائهم، وخلص هذا الحادث للاستقبال

---

(١) I islalm medieval-p78-79.

(٢) introduction au Coran-p 252-253.

باستعمال (السين) في قوله: ﴿سَيَغْلِبُونَ ۝٣﴾ كما حدد زمان انقلاب الموازين لصالحهم في قوله: ﴿بِضْعِ سِنِينَ ۝٤﴾ ومعنى هذا أن المستشرقين قد تعمدوا إخفاء نبوءات القرآن على قرائهم؛ لأنها تدل بشكل صريح على إعجازه[1].

(١) انظر: نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٥٤٤ ـ ٥٥٦.

المبحث الرابع

دلائل نبوَّته ﷺ الأخرى

تقدم بيان مواقف المستشرقين تجاه بعض دلائل نبوة محمد ﷺ ومعجزاته، ومن ضمن ذلك مواقفهم من البشارة به ﷺ في الكتب السابقة، وكذلك مواقفهم من إرهاصات نبوته والإعجاز القرآني الذي هو من أظهر هذه الدلائل على نبوته ﷺ عند من أقر بها من المستشرقين.

وكما تبيَّن في مواقف المستشرقين الإجمالية من دلائل النبوة ومعجزاته ﷺ، فإن السمة الغالبة على المستشرقين كانت في جهة الإنكار الكامل لدلائل نبوته ﷺ، وادعاء أنها مما أضافه المسلمون لسيرته ﷺ:

يقول المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون: «ولم يقل محمد إنه يأتي بالخوارق مع إيمانه برسالته، وعزا المسلمون إليه خوارق كثيرة مجاراة للعنعنات الشائعة القائلة إنه لا نبوة بغير خوارق»[(١)].

ويقول المستشرق سيديو: «... وما أكثر ما طُلب منه أن يأتي بمعجزات يؤيد بها رسالته، فيجيبهم عن سؤالهم بالآية (٧) من سورة الرعد: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ

(١) حضارة العرب، ص١١٣.

كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾»[(١)]. ويقول في موضع آخر: «وما أكثر ما كان محمد يعترض على بعض ما يعزوه إليه أشد أتباعه حماسة من الأعمال الخارقة للعادة!. ولكن ذلك كان من دواعي ألم المسلمين الحقيقيين الذين ودوا لو أن محمداً أيد رسالته بالآيات البينات، وهم، لكي يخففوا في نفوس أتباعه من أثر اعترافه بعدم قدرته على الإتيان بها، لم يحجموا عن اكتشافهم في القرآن نبوءات كانت قد تحققت، أو عن عدهم أمراً واقعياً ما صدر عن الخيال الجامح من الرؤى... ويظهر أن محمداً أراد في الآيات: ٨٩ ـ ٩٣ من سورة الإسراء أن ينقض سلفاً جميع تلك القصص الوهمية، فجاء فيها:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾[(٢)].

وحتى أولئك الذين أثبتوا شيئاً من الإعجاز للقرآن الكريم وأشادوا بأسلوبه وبيانه وتأثيره لم تخل كتاباتهم من الإنكار لبقية دلائل نبوته، وهذه حال كثير من المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام.

فتوماس كارليل الذي اتسمت كتابته بجوانب من الإنصاف في وصفه لسيرة النبي ﷺ، حين مطالعته للقرآن الكريم والسيرة النبوية لم يرصد فيهما أي معجزة سواء أكانت حسية أم معنوية، لذلك جعل جواب النبي ﷺ على كفار مكة عندما سألوه أن ياتي بمعجزة، هو إحالتهم إلى الكون بوصفه معجزة وعلى الأرض بوصفها آية من آيات عظمة الله وصنعه، بما اشتملت عليه من طريق ومسالك ومناكب فيها الطعام وفيها الشراب، وفيها النبات، وفيها الماء وسيلة الحياة، وأحالهم كذلك إلى معجزة الخلق الإنساني الذي وجد من عدم، ثم أصبح في قوة

(١) تاريخ العرب العام، ص٧١.

(٢) تاريخ العرب العام، ص٩١. وانظر نحوه عن: واشنطن إيرفنج: محمد وخلفاؤه، ص١٣٣ ـ ١٣٧.

وجمال وعقل، ثم يعتريه الشيب ثم الموت[١].

وكذلك المستشرق الإنكليزي بوسورث سميث حيث يقول:

«إن المعجزة الخالدة التي أداها محمد هي القرآن والحقيقة إنها لكذلك، وإذا قدرنا ظروف العمر الذي عاش فيه، واحترام أتباعه إياه احتراماً لا حد له، ووازناه بآباء الكنيسة أو بقديس القرون الوسطى، تبيَّن لنا أن أعظم ما هو معجز في محمد نبي المسلمين أنه لم يدع القدرة على الإتيان بالمعجزات، وما قال شيئاً إلا فعله وشاهده منه في الحال أتباعه، ولم ينسب إليه الصحابة معجزات لم يأتها أو أنكروا مبدأ صدورها منه، فأي برهان أقطع من ذلك، ولقد كان محمد يذهب من آخر حياته كما ذهب من مبدأ أمره إلى أنه رسول الله حقاً، وإني أعتقد أن الفلسفة المسيحية المآلية ستعترف له بذلك يوماً من الأيام»[٢].

ويقول إميل درمنغم في كتابه حول سيرة النبي ﷺ: «ولا بد لكل نبي من دليل على رسالته، ولا بد له من معجزة يتحدى بها... والقرآن هو معجزة محمد ﷺ الوحيدة...»[٣].

وإن كان من أمر لافت هنا ـ ضمن مواقف المستشرقين من المعجزات ـ فهو أن بعضاً من المستشرقين المسلمين قد ظهر منهم تأويل ونفي لبعض المعجزات المادية للنبي ﷺ، حيث ادعى بعضهم أن النبي ﷺ لم يكن له معجزات سوى القرآن.

وممن أظهر ذلك في كتاباته مراد هوفمان حيث يقول: «طالب المكيون المتشددون ـ حسب التقاليد السامية ـ الرسول أن يثبت نبوته من خلال معجزة... وكان لهذا الطلب وزنه؛ لأن المعجزات التي أقرت للسيد المسيح كانت معروفة، وهي مذكورة في القرآن الكريم... وقد أوضح القرآن الكريم حول هذه المسألة بأن الله تعالى فقط هو الذي يأتي بالمعجزة ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ۝٣٨﴾ [الرعد: ٣٨]، وكذلك ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَـٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ

(١) الأبطال، ص٧٦.

(٢) محمد والمحمدية، ص٩٢.

(٣) حياة محمد، ص٢٧٩.

﴿١٠٩﴾ [الأنعام: ١٠٩]، بحيث بإمكانه هو أن يخرق عادته التي نطلق عليها اسم «القوانين الطبيعية». وقد أدرك الرسول أن الله قد جعل له معجزة واحدة وهي التنزيل المستمر للقرآن: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [البقرة: ٢٣]»[(١)].

وما ذكره هوفمان هنا يظهر فيه التأثر بمنهج بعض المستشرقين الذين أنكروا المعجزات الأخرى للنبي ﷺ سوى القرآن كحال سيديو وسميث ودرمنغم وغيرهم، كما أن هذا التأثر ظهر أيضاً عند مستشرقين آخرين كنصر الدين دينيه، والذي يقول في مقدمة كتابه عن سيرة النبي ﷺ:

«وقد آثرنا، بالاتفاق مع نصوص القرآن ـ وهو الكتاب الوحيد الذي لم يعارض ولا يقبل المعارضة ـ وبالاتفاق مع علماء الصدر الأول، ومع أصحاب الفكر الحر من المعاصرين كالشيخ محمد عبده... أن نضرب صفحاً عن جميع الخوارق التي نسبت للنبي العربي بعد زمن طويل من وفاته، والتي يبدو أن في نسبتها إليه ما يسلبه سيماء الحقيقة، والحق أننا نرى أن محمداً هو الوحيد (من بين الأنبياء) الذي استطاع أن يستغني عن مدد الخوارق والمعجزات المادية، معتمداً فقط على بداهة رسالته ووضوحها، وعلى بلاغة القرآن الإلهية»[(٢)].

وقبل أن نبيِّن نماذج من دلائل نبوته ﷺ الأخرى، ونذكر آراء المستشرقين حولها، فإنه من المهم هنا التوقف حول المقالات السابقة لبعض المستشرقين الغربيين والتي تأثر بترددادها حتى المسلمين منهم، وفيها الاستدلال ببعض النصوص القرآنية على أن النبي ﷺ لم تكن له معجزات سوى القرآن، وأنه ﷺ كان إذا سئل أن يأتي بمعجزة فإنه يرفض ذلك ويعتذر منها، كما قال تعالى في سورة الإسراء:

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ

(١) الإسلام كبديل، ص٣٣ ـ ٣٤.
(٢) محمد رسول الله، ص٦٢.

لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: ٨٩ ـ ٩٣]. وقوله سبحانه في سورة الرعد: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد: ٧]. وقوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام: ١٠٩].

وهذه النصوص رتب عليها هؤلاء المستشرقون إنكار جميع المعجزات وبعضهم استثنى من ذلك القرآن، واتهموا بعض كتاب السيرة وغيرهم من المسلمين بإضافة معجزات إلى السيرة النبوية ورواياتها لإضفاء القداسة على سيرة نبينا محمد ﷺ.

ويقال في مقام الرد:

أولاً: إن الله ﷻ لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن السهل الميسّر الهيّن عليه تعالى أن يلبّي جميع المطالب التي طلبها الجاهليون من النبي ﷺ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك لحكم:

الحكمة الأولى: أن هؤلاء الجاهليين غير جادّين بهذه المطالب ولو لبّيت لهم لما آمنوا لأن قصدهم هو التعجيز كما أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]. فمن العبث عندئذ اتباع أهوائهم ورغباتهم ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض.

ومما يدل على ذلك ما أورده ابن هشام في السيرة النبوية أن أشراف قريش اجتمعوا يوماً عند الكعبة «ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك، فأتهم. فجاءهم رسول الله ﷺ سريعاً، وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصاً يحب رشدهم، ويعز عليه عنتهم، حتى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرّقت الجماعة فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً. . . فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما بي ما تقولون، ما**

جئت بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكنّ الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»..

قالوا: يا محمد؛ فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك قد علمت أنه ليس من الناس أحد أضيق بلداً، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشاً منا، فسل ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسيّر عنا هذه الجبال التي ضيّقت علينا، ويبسط لنا في بلادنا، ويفجر لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصيّ بن كلاب فإنه كان شيخ صدق، فنسألهم عما تقول أحقّ هو أم باطل؟ فإن صدقوك، وصنعت ما سألناك، صدقناك وعرفنا به منزلتك من الله وأنه بعثك رسولاً كما تقول.

فقال لهم صلوات الله وسلامه عليه: «**ما بهذا بعثت إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلّغتكم ما أرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم**»، قالوا: فإذا لم تفعل لنا فخذ لنفسك، سل ربك أن يبعث معك ملكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً كما تزعم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**ما أنا بفاعل وما أنا الذي يسأل ربه هذا...**». قالوا: فأسقط السماء علينا كسفاً كما زعمت أن ربّك إن شاء فعل. فإنا لا نؤمن لك إلا أن تفعل، فقال رسول الله ﷺ: «**ذلك إلى الله إن شاء أن يفعله بكم فعل...**».

فلما قام رسول الله ﷺ قام معه ابن عمته عبد الله بن أبي أمية، قال: يا محمد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم... فو الله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ سلّماً إلى السماء ثم ترقى فيه، وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك. ثم انصرف رسول الله ﷺ»[1].

---

(١) سيرة ابن هشام (١/٢٦٢ ـ ٢٦٤).

والشاهد هنا أن المراء والعناد واضح في مطالبهم، ولو أن هذه الخوارق وقعت كما اقترحوا ما كانت بالتي تقنعهم، فإن الله يضل من يشاء فلا يؤمن ولو أجيب إلى ما يقترحه من الآيات، ويهدي إليه من أناب فيؤمن بغير اقتراح آيات.

إن مطالبهم كانت بقصد التعجيز ولو لبيّت لانتقلوا إلى غيرها، ومواقفهم العنادية كانت تحتاج إلى تبرير للاستمرار عليها كما يقول تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ [المؤمنون: ٧١]. إن كون القرآن بلسانهم وأسلوبهم فيه رفع لمقامهم وإعلاء لمكانتهم بين الناس ولكنهم يعرضون عن هذه المزية لعدم إدراكهم لقيمتها وحقيقتها.

الحكمة الثانية: في هذا الصرف عن المعجزات المادية: إظهار مكانة القرآن الكريم، وأن المعجزات المادية تتضاءل بجانب معجزته فهو المعجزة الباقية الخالدة إلى يوم القيامة. والرسالة الشاملة الباقية لا بدّ لها من معجزة توائم خلودها وشمولها، فكان في هذا الإلتفات والصرف عن المعجزات المادية التي طلبها المشركون إلى المعجزة الفكرية رفع لشأن الأمة من جهة وإبراز لميزات القرآن العظيم وبيان مكانته الرفيعة من جهة أخرى. كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الحشر: ٢١]، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [يونس: ٣٧ ـ ٣٩].

الحكمة الثالثة: أن في هذا الصرف رحمة بهم، فقد جرت سنّة الله ﷻ في رسالاته إلى الناس أن القوم إن أجيبوا إلى مطالبهم من المعجزات المادية الباهرة القاهرة ثم نكصوا على أعقابهم فكفروا بعد ذلك، جرت سنّة الله أن يكون العذاب المستأصل حظّهم في الدنيا والعذاب المهين مصيرهم في الأخرى. وهذا ما يتجلى في الآيات التي تحكي مصائر الأمم والشعوب:

ـ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ

أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣].

ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر: ٤١، ٤٢].

ـ ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٢ ـ ١١٥].

يقول السهيلي[(١)] في الروض الأنف: «. . . إن التكذيب بالآيات من نحو ما سألوه من إزالة الجبال عنهم، وإنزال الملائكة، يوجب في حكم الله ألا يلبث الكافرين بها وأن يعاجلهم بالنقمة كما فعل بقوم صالح وبآل فرعون، فلو أعطيت قريش ما سألوه من الآيات وجاءهم بما اقترحوا ثم كذّبوا لم يلبثوا، ولكن الله أكرم محمداً ﷺ في الأمة التي أرسله إليهم، إذ قد سبق في علمه أن يكذّب به من يكذب ويصدّق من يصدّق، وابتعثه رحمة للعالمين برّ وفاجر، أما البرّ فرحمته إياهم في الدنيا والآخرة، وأما الفاجر فإنهم أمنوا من الخسف والغرق وإرسال حاصب عليهم من السماء كذلك قال بعض أهل التفسير في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]»[(٢)].

وإلى هذه الحكمة تشير الآية الكريمة عند صرف القوم عن المعجزات المادية إلى معجزة القرآن الكريم في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ

---

(١) السُّهَيْلي (٥٠٨ ـ ٥٨١هـ): عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد الخثعميّ السهيليّ: حافظ، عالم باللغة والسير، ضرير. ولد في مالقة، وعمي وعمره ١٧ سنة. ونبغ، فاتصل خبره بصاحب مراكش فطلبه إليها وأكرمه، فأقام يصنف كتبه إلى أن توفي بها. نسبته إلى سهيل (من قرى مالقة) من كتبه: «الروض الأنف» في شرح السيرة النبويّة: لابن هشام، و«تفسير سورة يوسف» و«الإيضاح والتبيين لما أبهم من تفسير الكتاب المبين». انظر: وفيات الأعيان (١/ ٢٨٠)، وتذكرة الحفاظ (٤/ ١٣٧)، الأعلام (٣/ ٣١٣).

(٢) (٣/ ٦٢ ـ ٦٥).

مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

ولا شك إذاً أن في هذا الصرف رحمة من الله بهم ليدخل بعضهم في الإسلام أو يخرج من أصلابهم من تتفتّح بصيرته لنور الحق والهداية(١).

ثانياً: إن استبعاد المستشرقين للمعجزات الحسية الواردة في حقه ﷺ ينطلق من منهج سلكه هؤلاء، وهو أنهم وزنوا كل أحداث حياة النبي ﷺ بميزان الواقع البشري المألوف، أو بعبارة أخرى بميزان الفكر المادي الوضعي الذي لا يقبل أي صلة بالغيبيات والروحانيات، حتى ولو كان الأمر يتعلق بحياة الأنبياء، ولا يدري هؤلاء أن استخدام هذا الميزان يبطل معجزات الأنبياء جميعاً، بما فيهم موسى وعيسى عليهما السلام وأنبياء بني إسرائيل الذين يقر غالب المستشرقين بنبّوتهم.

فقد تكرر في سير هؤلاء الأنبياء ما يجريه الله من الخوارق على أيديهم لحكمة يريدها. ولقد كانت ولادة عيسى وطفولته وسيرته ستاراً لأمور خارقة، فهو مولود بلا أب، وتكلم في المهد صبياً، ووقعت لموسى في طفولته أمور غريبة كذلك، فليس من التحقيق العلمي أن توزن أحداث حياة الأنبياء بمقاييس الفكر المادي الوضعي وحدها.

إن نفي المعجزات الحسية الثابتة بالنقل الصحيح، إنما هو في الحقيقة خضوع وانصياع للفكر المادي والفلسفات الوضعية. وسير الأنبياء ووقائع حياتهم وخصائصهم وروابطهم لا توزن بميزان هذا الفكر.

ولنضرب مثلاً لدلائل نبوته ﷺ بحادثة الإسراء والمعراج، والتي أنكرها جمهور المستشرقين مع أنها من معجزاته ﷺ الثابتة بنص القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة، قال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١].

ويقصد بالإسراء الرحلة التي أكرم الله بها نبيَّه من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس، أما المعراج فهو ما أعقب ذلك من العروج به ﷺ إلى

(١) مباحث في إعجاز القرآن: د. مصطفى مسلم، ص٣٢ ـ ٣٦.

طبقات السماوات العلا ثم الوصول به إلى حد انقطعت عنده علوم الخلائق من ملائكة وإنس وجن، كل ذلك في ليلة واحدة.

وقد اختلف في ضبط تاريخ هذه المكرمة الإلٰهية هل كانت في العام العاشر من بعثته ﷺ أم بعد ذلك. والذي رواه ابن سعد في طبقاته الكبرى أنها كانت قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً[(١)].

وجمهور المسلمين على أن هذه الرحلة كانت بالجسم والروح معاً ـ كما سيأتي ـ ولذلك فهي من معجزاته ﷺ الباهرة التي أكرمه الله بها.

أما تفاصيل هذه المعجزة فقد رواها البخاري ومسلم بطولها، ومما جاء فيها: أنه ﷺ أُتي بالبراق، وهو دابة فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه... وفيها أنه ﷺ دخل المسجد الأقصى فصلى فيه ركعتين، ثم أتاه جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاختار عليه الصلاة والسلام اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة... وفيها أنه عرج به ﷺ إلى السماء الأولى فالثانية فالثالثة.. وهكذا حتى ذهب به إلى سدرة المنتهى وأوحى الله إليه عندئذ ما أوحى... وفيها فرضت الصلوات الخمس على المسلمين، وهي في أصلها خمسون صلاة في اليوم والليلة[(٢)].

ولما كانت صبيحة اليوم التالي وحدَّث رسول الله ﷺ الناس بما شاهد، طفق المشركون يجمع بعضهم بعضاً ليتناقلوا هذا الخبر الطريف ويضحكوا منه. وتحداه بعضهم أن يصف لهم بقايا بيت المقدس ما دام أنه قد ذهب إليه وصلى فيه، والرسول حينما زاره لم يخطر في باله أن يجيل النظر في أطرافه ويحفظ أشكاله وعدد سواريه، فجلّى له الله ﷻ صورته بين عينيه وأخذ يصفه لهم وصفا تفصيلياً كما يسألون.

روى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لما كذبتني قريش قمت في الحجر، فجلّى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر إليه**»[(٣)].

---

(١) (١/٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار، باب المعراج (٥/٥٢) ح(٣٨٨٧)، ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (١/١٤٥) ح (١٦٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ (٦/٨٣) ح (٤٧١٠).

أما أبو بكر رضي الله عنه فقد حدثه بعض المشركين عما يقوله الرسول، رجاء أن يستعظمه فلا يصدقه، فقال: «إن كان قال ذلك لقد صدق، إني لأصدقه على أبعد من ذلك».

وفي صبيحة ليلة الإسراء جاء جبريل وعلم رسول الله ﷺ كيفية الصلاة وأوقاتها. وكان عليه السلام قبل مشروعية الصلاة يصلي ركعتين صباحاً ومثليهما مساءً كما كان يفعل إبراهيم عليه السلام[١].

أما موقف المستشرقين تجاه هذه المعجزة فهو دائر بين الإنكار أو التأويل، فمنهم من أنكر هذه الحادثة ابتداء وشكك فيها وزعم أنها مما أضيف إلى سيرته ﷺ، ومنهم من وجد في تأويلات بعض المنتسبين إلى الإسلام ملاذاً وملجأً فادعى أن هذه الحادثة لا تعدو أن تكون رؤيا منام أريها النبي ﷺ وبهذا ينفي عنها صفة الإعجاز واشترك في هذا الرأي حتى بعض المسلمين من المستشرقين.

يقول المستشرق الفرنسي سيديو: «ومما يروى، أيضاً، أن عروج محمد الخارق للعادة قد تمَّ في تلك السنة على البراق[٢] الذي هو حيوان عجيب فانتهى إلى حضرة الله العلي، ولم تكن هذه الرحلة غير ضرب من الرؤى عند أكثر علماء المسلمين، ولم تكن هذه الأحاديث التي تلائم خيال العرب المتقد من الوسائل التي يبحث عنها الرسول الجديد للتأثير، وما أكثر ما طلب منه أن يأتي بمعجزات يؤيد بها رسالته، فيجيبهم عن سؤالهم بالآية (٧) من سورة الرعد: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾»[٣]

ويقول المستشرق بودلي: «... فلا يوجد عن محمد ما يثبت أن هذه الرحلة الليلية قد تمَّت، وما كنت أدري أن مَدني [صاحبه المسلم العربي الذي كان يرافقه] كان يقص عليَّ عقيدة يدين بها كثير من العرب، ويعتقدون في صحتها اعتقادهم في القرآن، استناداً إلى حديث متواتر، وإن كل ما جاء فعلاً عن هذه الرحلة الإلهية على لسان محمد، هو ما ذكر في سورة «الإسراء»، وفي هذه

---

(١) فقه السيرة النبوية، ص١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) المعروف في كتب السُّنَّة أن الإسراء لا المعراج هو الذي تم على البراق.

(٣) تاريخ العرب العام، ص٧١.

السورة خاصة لا توجد أية إشارة إلى ما ذكره مدني وما يعتقده العرب، وكل ما جاء عن الإسراء في هذه السورة هو: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]، وما الحكاية في الغالب إلا خرافة من الخرافات التي تذكر للتدليل على معجزات محمد، وما قال محمد يوماً إنه أتى بمعجزات»[١].

أما درمنغم في سيرته فقد ذكر تفاصيلاً لحادثة الإسراء يبدو أنه اقتبس جزءاً منها من كتب القصص والأساطير فهو يذكر أن جبريل عليه السلام قد أتى النبي ﷺ بدابة هي البراق لها رأس كرأس الإنسان وأجنحة كأجنحة النسر، وأنه ﷺ ركبها متجهاً إلى الشام، وأن جبريل توقف به فوق طور سيناء حيث كلم الله موسى ليصلي عليه للمرة الأولى، ثم وقف به مرة أخرى في بيت لحم حيث ولد عيسى، ثم بلغ محمد بيت المقدس فربط البراق وصلى على أطلال معبد سليمان ثم عرج به على صخرة يعقوب إلى السماوات، وأن السماء الأولى من الفضة الخالصة وكانت النجوم معلقة فيها بسلاسل من ذهب، والتقى النبي ﷺ في مروره بالسماوات ببعض الأنبياء عليهم السلام، ورأى ملك الموت عزرائيل وكان يقضي وقته في كتابة المواليد والوفيات في سجل كبير، ورأى ملك الدموع الذي كان يبكي من ذنوب العالم، ورأى ملك الانتقام صاحب الكثير من البثور والموكل إليه عنصر النار وكان جالساً على عرش من لهب، ورأى ملكاً ضخماً نصفه من ثلج ونصفه من نار... إلى آخر ما ذكره مما لا دليل ولا مستند عليه بل هو مخالف لما هو الثابت من وصف هذه الحادثة[٢]. إلى أن قال بعد ذلك:

«وقد اختلف في مسألة وقوع الإسراء والمعراج بالجسد والروح أو بالروح وحدها... ويبدو لنا أن ما دار حول ذلك من الجدل الذي ملأ المجلدات لا يعدو حد اللغو ما دمنا لا نرى للمعراج ما يمتاز به عن رؤى النبي التي صحت روايتها والتي لم تصح، والمهم في أمر المعراج هو اتخاذه أساساً لتأملات كثير من متصوفي الإسلام الروحية»[٣].

---

(١) الرسول، ص١٠١ ـ ١٠٢.

(٢) انظر: حياة محمد، ص١٢٧ ـ ١٣٠.

(٣) المرجع السابق، ص١٣١.

كما ذهبت أيضاً كارين أرمسترونج إلى أن حادثة الإسراء والمعراج لم تكن سوى رؤيا منام في قولها:

«كان يزور ابنة عمه أم هانئ التي كانت تسكن قرب الحرم، وقرر قضاء الليلة في الصلاة أمام الكعبة، كما كان يحب أن يفعل. أخيراً غلب عليه النوم لفترة. ثم رأى أن جبريل أيقظه وحمله بشكل أعجوبي إلى القدس، المدينة المقدسة لدى اليهود والمسيحيين، وسجلت آيات القرآن ذلك: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء: ١]. . . لم تسفر الرؤيا عن وحي قرآني، فقد كانت تجربة شخصية للنبي ﷺ نفسه، لكن وضعها المؤرخون الأوائل في تلك اللحظة من حياة محمد ﷺ فكانت بمثابة تعليق رائع على السياق الداخلي لذلك الحدث الخارجي»(١).

كما أوَّل عدد من المستشرقين المسلمين حادثة الإسراء والمعراج، تارة بأنها بالروح لا بالجسد وتارة أخرى بأنها ليست سوى رؤيا منام.

يقول نصر الدين (دينيه): «أثار الإسراء والمعراج كثيراً من المناقشات بين علماء الإسلام، فبعضهم يرى أن ذلك معجزة حصلت فعلاً بالجسم، بينما الآخرون يعتمدون على أصح الآثار، من بينها حديث عائشة زوج الرسول المفضلة وبنت أبي بكر، ويرون أن الروح وحدها هي التي أسري بها وعرج إلى السماء، وليس ذلك إلا رؤيا صادقة، كما كان يحصل كثيراً للرسول أثناء نومه»(٢).

ويقول مراد هوفمان: «ثم عايش الرسول عام ٦٢١م رؤيا حقيقية هي الإسراء إلى القدس ثم المعراج إلى السماء. . .»(٣).

والجواب على ما تقدم أن يقال:

إن الزعم بأن الإسراء كان بالروح لا بالجسد فضلاً عن أن يكون رؤيا منام كما زعم بعض المستشرقين مخالف لدلالة النصوص من الكتاب والسُّنَّة وما عليه جمهور السلف والخلف من أن الإسراء كان ببدنه وروحه ﷺ.

---

(١) محمد نبي لزماننا، ص٨٦ ـ ٨٧.
(٢) محمد رسول الله، ص١٦١ ـ ١٦٢.
(٣) الإسلام كما يراه ألماني مسلم، ص٣٥.

يقول القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ساق مقالات أهل العلم في هذه المسألة:

«والحق من هذا، والصحيح إن شاء الله تعالى أنه إسراء بالجسد والروح في القصة كلها، وعليه تدل الآية وصحيح الأخبار والاعتبار، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند الاستحالة، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة، إذ لو كان مناماً لقال (بروح عبده) ولم يقل (بعبده)، وقوله تعالى ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [النجم: ١٧].

ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة، ولما استبعده الكفار ولا كذبوه ولا ارتدَّ به ضعفاء من أسلم وافتتنوا به، إذ مثل هذا من المنامات لا ينكر، بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن جسمه وحال يقظته»(١).

ثم إن ظاهر السياقات يدل على ذلك من ركوبه وصعوده في المعراج وغير ذلك، ولهذا قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]. والتسبيح إنما يكون عند الآيات العظيمة الخارقة فدل على أنه بالروح والجسد، والعبد عبارة عنهما(٢).

يقول المستشرق فيليب حِتّي مؤيداً هذا القول بما جاء في الكتاب المقدس من أحوال الأنبياء السابقين:

«إن ذلك (الصعود) الرائع قد سبقه مشهد سابق عنه روعة في انتقال محمد في طرفة عين من مكة إلى القدس على حيوان غريب جسمه أصغر من جسم الحصان قليلاً ووجهه يشبه وجه البشر يدعى البراق. وإذا كان موسى قد كلم الله وجهاً لوجه، وإذا كان ادريس قد سار مع الله جنباً إلى جنب، وإذا كان المسيح قد نسب إلى بنوة الله، فلماذا لا يستحق محمد شيئاً من مثل ذلك؟»(٣).

وهكذا فقد وقف غالب المستشرقين موقف الإنكار التام أو المشكك من نصوص الكتاب والسُّنَّة المظهرة للمعجزات النبوية، وتعسفوا في ردها وتحوير

---

(١) الشفا: (١/ ١٨٩).

(٢) السيرة النبوية: لابن كثير (٢/ ١٠٤).

(٣) الإسلام منهج حياة، ص٨٠ ـ ٨١.

معناها لسلب صفة الإعجاز منها، وننقل فيما يأني نصوصاً ونماذج مؤكدة لما نقول:

- يقول المستشرق بودلي في معرض الكلام عن غزوة بدر: «... وإن الذين يعتقدون في المعجزات يقولون: إن شيئاً غير عادي قد وقع في هذه اللحظة، فإن جيشاً من الملائكة على رأسها جبريل، قد استجاب لنداء محمد، وشاركوا المسلمين في قتالهم...»[1].

- أما المستشرق الروسي بولشاكوف صاحب الدراسة الكاملة والمطولة للسيرة النبوية باللغة الروسية في كتابه «تاريخ الخلافة»، فإنه ينسب أي ذكر للملائكة والجن والمعجزات في حياة النبي ﷺ إلى عناصر الأسطورة الإسلامية المخترعة من طرف المؤرخين لتزيين الأحداث الحقيقية، وفي بعض الأحيان يربط هذا بأسباب أخرى. فعلى سبيل المثال يستغرب من مناصرة آلاف من الملائكة للمسلمين في غزوة بدر، فيقول: إن هزيمة أقوى الخصمين أدهشت الطرفين كليهما، ولشرحها ظهرت أسطورة عن مساعدة ألف مَلَك للمسلمين إجابة لدعوة محمد، وهذا الشرح كان يناسب تماماً الطرف المهزوم حفاظاً على ماء وجوههم؛ لأن الوقوع في الأسر من طرف عدو ضعيف شيء، ومن طرف ملائكة في هيئة إنسان شيء آخر[2].

واستمراراً لهذا النهج ينفي بولشاكوف تلك العوامل التي أثرت بشكل أساس في سير أحداث غزوة الخندق، مثل إرسال الله الريح والجنود من السماء، كما لا يعد من عوامل الانتصار الأساسية الخطة الجديدة التي لم يعهدها العرب واختارها المسلمون بمشورة سلمان الفارسي[3].

- كما أنكر المستشرق نصر الدين (دينيه) معجزة انشقاق القمر لنبينا محمد ﷺ استمراراً لمنهجه في إنكار المعجزات النبوية سوى القرآن - والذي تقدم الحديث عنه - حين يقول في معرض حديثه عن جهود المشركين في تكذيب النبي ﷺ:

---

(١) الرسول، ص١٤١.

(٢) تاريخ الخلافة (١/ ١٠١).

(٣) المصدر السابق (١/ ١٣٥).

«ولكن تلك الجهود ذهبت هباء وانهارت من نفسها دون ما حاجة إلى معجزة انشقاق القمر التي يزعمونها مستندين إلى الآية الكريمة: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر: ١]، فبعضهم يدَّعي أن حبيباً سأل الرسول أن يأتيه بمعجزة تؤيد كلامه، فانشق القمر بأمره شقين متساويين، وذهب أحدهما غرباً والثاني شرقاً، أما علماء الإسلام الموثوق بهم مثل البيضاوي والزمخشري فيرون أن هذا أحد رأيين: قال البيضاوي: «وقيل معناه: سينشق يوم القيامة. ويؤيد هذا الرأي الآيات التي تليها مباشرة، وهي: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧﴾ [القمر: ٦، ٧]، وفي الواقع أننا لا نستطيع تصديق تلك المعجزة المزعزعة؛ لأنها تتنافى في صراحة ووضوح، مع الكثير من آيات القرآن، يقول تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩]»[١].

وفي خاتمة هذا المبحث من المهم أن نوضح منشأ ظاهرة إنكار المعجزات النبوية عند المستشرقين ومن تأثر بهم من كتاب المسلمين المعاصرين.

وعندئذ فلا بد أن نبين أن هؤلاء الباحثين ـ كما يذكر الدكتور البوطي في دراسته لهذه الظاهرة[٢] ـ قد أولعوا بالمبالغة في تصوير حياة النبي ﷺ على أنها حياة بشرية عادية. وذلك من خلال الإطناب في بيان أن حياته ﷺ لم تكن معقدة وراء الخوارق والمعجزات. بل كان منكراً لها غير عابئ بها ولا ملتفت إلى المطالبين بها.

وأنه ﷺ كان يؤكد دائماً أن المعجزات والخوارق ليست من شأنه، وليس له إليها سبيل. ويكثرون في هذا من الإستشهاد بمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠﴾ [العنكبوت: ٥٠]. بحيث يخيل إلى القارىء أو السامع أن سيرته ﷺ كانت بعيدة كل البعد عن المعجزات والآيات التي يؤيد الله بها في العادة أنبياءه الصادقين. وإذا أمعنا في منبع هذه النظرية عن رسول الله ﷺ. نجد أنها في الأصل فكرة بعض المستشرقين والباحثين الأجانب من أمثال غوستاف لوبون، وأوجست كونت، وجيوم، وجولد زيهر وغيرهم. وأساس هذه

(١) محمد رسول الله، ص٣٦ ـ ٣٧.

(٢) فقه السيرة: للبوطي، ص١٤٧ وما بعدها.

النظرية عندهم وسببها هو عدم الإيمان بخالق المعجزات أولاً. ذلك لأن الإيمان بالله ﷻ إذا استقر في النفس، سهل الإيمان بكل شيء يحصل في هذه الدنيا ولو كان معجزاً.

ثم تلقف هذه النظرية منهم أناس من المسلمين، كان من سوء حظ العالم الإسلامي أن جندوا كل مساعيهم وعلومهم للتبشير بأفكار أولئك الأجانب دون أي مؤيد سوى الإفتتان بزخرف خداعهم وانخطاف أبصارهم بمظهر النهضة العلمية التي هبت في أنحاء أوروبا، وكان من هؤلاء المسلمين الشيخ محمد عبده، وفريد وجدي، وحسين هيكل.

ثم نظر محترفوا التشكيك وأرباب الغزو الفكري، فوجدوا في هذا الذي يقوله بعض من المسلمين أنفسهم ما يفتح لهم آفاقاً وميادين جديدة لغزوهم الفكري، وتشكيك المسلمين بدينهم، يغنيهم عن وسيلتهم العتيقة وسيلة الحرب المباشرة للعقيدة الإسلامية، فراحوا يروجون صفات معينة لرسول الله ﷺ كالبطولة والعبقرية والقيادة في عبارات من الإعجاب والإطراء. ويبالغون في نفس الوقت في تصوير حياته ﷺ العامة بعيدة عن كل ما لا يدركه العقل من المعجزات وخوارق العادات، كي يتم لهم إنشاء صورة جديدة للنبي ﷺ في أذهان المسلمين مع مرور الزمن قد تكون صورة (محمد العبقري) أو تكون صورة (محمد القائد) أو تكون صورة (محمد البطل) ولكنها لا ينبغي على أي حال من الأحوال أن تكون صورة (محمد النبي الرسول).

وهنا تكون جميع حقائق النبوة بما يحف بها ويستلزمها من وحي وغيبيات وخوارق قد قذف بها إلى عالم ما يسمونه: الميتيولوجيا (الأساطير) ذلك لأن ظاهرة الوحي والنبوة تعتبران في رأس المعجزات. وحينئذ لا ينبغي أن يتصور - بطبيعة الحال - أي سبب لتكاثر مختلف الناس والأمم من حول الرسول وانضوائهم تحت لوائه وانسياقهم في دعوته إلا التأثر بالعبقرية ومقومات القيادة في حياته[١].

ولا شك بأن الموقف السابق من المعجزات النبوية والذي سلكه هؤلاء يستوجب وقفات مهمة، نستظهر فيها الموقف الصحيح حول حياة النبي ﷺ

---

(١) انظر: فقه السيرة: للبوطي، ص١٤٧ - ١٤٩.

وسيرته وما ورد فيها من معجزات، وذلك من خلال ما يلي[١]:

أولاً: إذا تأملنا في ظاهرة الوحي التي تجلت واضحة في حياة النبي ﷺ رأينا أبرز صفة في حياته ﷺ هي (النبوة) لا شك في ذلك ولا ريب.

والنبوة هي من المعاني الغيبية التي لا تخضع لمقاييسنا المحسوسة. وإذاً فإن معنى المعجزة الخارقة قائم في أصل كيانه عليه الصلاة والسلام فلا يتسنى نفي المعجزات والخوارق عنه ﷺ إلا بهدم معنى النبوة نفسها ونسخها من حياته. وذلك يساوي بالبداهة إنكار الدين نفسه. ولئن لم يصرح بهذه النتيجة بعض الباحثين المستشرقين. مكتفين ببيان ذكاء الرسول ومدى عبقريته وشجاعته وسياسته للأمور. فذلك إكتفاء منهم برسم المقدمات عن بيان النتائج إذ النتيجة تأتي بطبيعتها بعد التسليم بمقدماتها. ولا شك بعد ذلك أنه لا معنى للبحث في إنكار جزئيات المعجزات أو إثباتها، إذا كان أصل الدين محل شك أو إنكار.

ثانياً: إذا تأملنا في سيرته ﷺ ووقائع حياته، وجدنا أن الله ﷻ أجرى معجزات كثيرة على يديه ﷺ، لا مناص من قبولها، ولا مجال لردها؛ لأنها نقلت إلينا بالأسانيد الصحيحة المتواترة التي ترتقي بالفكر والعقل إلى درجة اليقين والقطع. وقد مر معنا شيء من ذلك في المعجزات التي ذكرناها آنفاً.

ومن العجيب أن هؤلاء الذين لا يفتأون يروجون صفة العبقرية، والعبقرية وحدها لرسول الله ﷺ، ويبعدون اسم المعجزات والخوارق عن حياته ﷺ، يتجاهلون هذه الأحاديث المتواترة التي بلغت من الصحة درجة القطع، فلا يتحدثون عنها سلباً ولا إيجاباً كأن كتب الحديث غير ممتلئة بها.

ومن الواضح أن سبب هذا التجاهل هو التهرب من الإشكال العويص الذي سيواجهونه لدى النظر في هذه الأحاديث، إذ هي تناقض في خط صريح واضح النظرية التي تطوف برؤوسهم.

ثالثاً: المعجزة. كلمة لا يوجد لها معنى ذاتي مستقل عند التأمل والتدبر، وما يراد بها إنما هو معنى نسبي مجرد؛ فالمعجزة فيما تواضع عليه إصطلاح الناس كل أمر خارج على المألوف والعادة، وكل من المألوف والعادة يتطور بتطور الأزمنة والعصور، ويختلف باختلاف الثقافات والمدارك والعلوم؛ فرب أمر

(١) انظر: المرجع السابق، ص١٤٩ ـ ١٥١.

كان قبل فترة من الزمن معجزة فانقلب اليوم إلى شيء معروف ومألوف، ورب أمر مألوف في بيئة متمدنة مثقفة، ينقلب معجزة بين أناس بدائيين غير مثقفين.

بل الحق الذي يفهمه كل عاقل أن المألوف وغير المألوف معجزة في أصله؛ فالكواكب معجزة، وحركة الأفلاك معجزة، وقانون الجاذبية معجزة، والمجموعة العصبية في الإنسان معجزة، والدورة الدموية فيه معجزة، والروح التي فيه معجزة، والإنسان نفسه معجزة. وكم كان دقيقاً العالم الفرنسي شاتوبريان (١٧٦٨ ـ ١٨٤٨م) الذي أطلق على الإنسان اسم (الحيوان الميتافيزيقي)؛ أي: الحيوان الغيبي المجهول. ولكن الإنسان ينسى ـ من طول الأُلف واستمرار العادة ـ وجه المعجزة وقيمتها في هذا كله. فيحسب جهلاً منه وغروراً أن المعجزة هي تلك التي تفاجئ ما ألفه واعتاده فقط!.

ثم يمضي يتخذ مما ألفه واعتاده مقياساً لإيمانه بالأشياء أو كفره بها!. وهذا جهل عجيب من الإنسان مهما ترقى في مدارج المدنية والعلم[1].

(١) فقه السيرة: للبوطي، ص١٤٩ ـ ١٥١.

الفصل الثالث

مواقف المستشرقين من خصائص نبوته ﷺ

المبحث الأول: عصمته ﷺ.

المبحث الثاني: عموم رسالته ﷺ.

المبحث الثالث: نسخ الرسالات السابقة برسالته ﷺ.

المبحث الرابع: ختم النبوة به ﷺ.

المبحث الأول

عصمته ﷺ

وردت العصمة في اللغة لعدة معان من أهمها: المنع والحفظ[(١)].

وفي «لسان العرب»: «العصمة في كلام العرب المنع، وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه، يقال: عصمه، يعصمه، عصماً: منعه ووقاه... وقال الزجاج في قوله تعالى: ﴿سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: ٤٣]؛ أي: يمنعني من الماء، والمعنى: من تغريق الماء... والعصمة: الحفظ. يقال: عصمته فانعصم. واعتصمت بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية. وعصمة الطعام: منعه من الجوع. وهذا طعام يعصم؛ أي: يمنع من الجوع. واعتصم به واستعصم: امتنع وأبى؛ قال الله ﷻ حكاية عن امرأة العزيز حين راودته عن نفسه: (فاستعصم)؛ أي: تأبى عليها ولم يجبها إلى ما طلبت...»[(٢)].

العصمة في الاصطلاح:

يعرِّف الراغب الأصفهاني العصمة بقوله: «عصمة الله تعالى الأنبياء حفظه

---

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة: لابن فارس (٤/ ٣٣١)، النهاية في غريب الحديث: لابن الأثير (٣/ ٢٤٩)، مختار الصحاح، ص٢١١.

(٢) لسان العرب (١٢/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤).

إياهم أولاً بما خصهم به من صفاء الجواهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسمية والنفسية ثم بالنصرة وتثبيت أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق»[١].

ويقول الحافظ ابن حجر موضحاً المقصود بالعصمة: «وعصمة الله الأنبياء - على نبينا وعليهم الصلاة والسلام - حفظهم من النقائص، وتخصيصهم بالكمالات النفسية والنصرة والثبات في الأمور وإنزال السكينة عليهم»[٢].

وقد اتفقت الأمة على أن الرسل معصومون في تحمل الرسالة[٣]، فلا ينسون شيئاً مما أوحاه الله إليهم إلا شيئاً قد نسخ، وقد تكفل الله لرسوله ﷺ بأن يقرئه فلا ينسى شيئاً مما أوحاه إليه، إلا شيئاً أراد الله أن ينسيه إياه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ [الأعلى: ٦، ٧]، وتكفل له بأن يجمعه في صدره: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾ [القيامة: ١٦ - ١٨].

وهم معصومون في التبليغ، فالرسل لا يكتمون شيئاً مما أوحاه الله إليهم، ذلك أن الكتمان خيانة، والرسل يستحيل أن يكونوا كذلك، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾ [المائدة: ٦٧]، ولو حدث شيء من الكتمان أو التغيير لما أوحاه الله، فإن عقاب الله يحل بذلك الكاتم المغير ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقة: ٤٤ - ٤٦].

ومن العصمة ألا ينسوا شيئاً مما أوحاه الله إليهم، وبذلك لا يضيع شيء من الوحي، وعدم النسيان في التبليغ داخل في قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ۝٧﴾ [الأعلى: ٦، ٧]، ومما يدل على عصمته في التبليغ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤].

كما أن من خصائص محمد ﷺ عن الأنبياء السابقين عصمة الله له من القتل حتى يبلغ رسالة ربه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ

---

(١) المفردات في غريب القرآن، ص٥٧٠.

(٢) فتح الباري (١١/ ٥٠١ - ٥٠٢).

(٣) نقل الإجماع على العصمة في هذا غير واحد من أهل العلم، انظر: مجموع الفتاوى: لابن تيمية (١٠/ ٢٩١)، ولوامع الأنوار البهية (٢/ ٣٠٤).

تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [المائدة: ٦٧]، قال سفيان الثوري فيما نقله عنه ابن كثير في تفسير هذه الآية: «بلغ أنت رسالتي، وأنا حافظك، وناصرك ومؤيدك على أعدائك، ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن، فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك»[(١)]. وقد أورد ابن كثير في تفسيره هذه الآية الأحاديث التي تفيد أن الصحابة كانوا يحرسون الرسول ﷺ قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت ترك رسول الله ﷺ الحرس[(٢)].

وقد استثنى جمهور أهل العلم من العصمة صغائر الذنوب دون كبائرها فإن الأنبياء عليهم السلام قد يقعون فيها. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام، وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام، كما ذكر أبو الحسن الآمدي أن هذا قول أكثر الأشعرية، وهو أيضاً قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء، بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول. . .»[(٣)].

وقد استدل جمهور أهل العلم على ذلك بما ذكره الله تعالى في كتابه من معاصي وقعت من بعض الأنبياء عليهم السلام مع عدم إقرارهم عليها ومسارعتهم في التوبة وقبولها منهم، ومن أمثلة ذلك ما ذكره الله تعالى عن آدم عليه السلام في أكله من الشجرة التي نهي عنها، ومناداة نوح عليه السلام ربه في شأن ابنه الكافر، وموسى عليه السلام حين أراد نصرة الذي من شيعته فوكز خصمه فقضى عليه، وداود عليه السلام تسرَّع في الحكم قبل سماع قول الخصم الثاني، فأسرع إلى التوبة فغفر الله له ذنبه ﴿قَالَ لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦۖ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡخُلَطَآءِ لَيَبۡغِي بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسۡتَغۡفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّۤ رَاكِعٗاۤ وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرۡنَا لَهُۥ ذَٰلِكَۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢٤، ٢٥]. ونبينا محمد ﷺ عاتبه ربه في أمور: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١﴾﴾ [التحريم: ١]، ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾

---

(١) (٣/ ١٥١ ـ ١٥٢).

(٢) (٣/ ١٥٢ ـ ١٥٥)، وانظر: الرسل والرسالات، ص٩٧ ـ ٩٩.

(٣) مجموع الفتاوى (٤/ ٣١٩).

أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ [عبس: ١ ـ ٤]، إلى غير ذلك مما ذكره تعالى عن الأنبياء عليهم السلام.

وقد استعظم المنكرون لذلك، وقوع الأنبياء عليهم السلام في صغائر الذنوب التي أخبرت نصوص الكتاب والسُّنَّة بوقوعها منهم، وذهب هؤلاء إلى تهويل الأمر، والزعم أن القول بوقوع مثل هذا منهم فيه طعن بالرسل والأنبياء، ثم تحملوا في سبيل ذلك تأويل النصوص، وهو تأويل يصل إلى درجة تحريف آيات الكتاب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «... وذنب أبي الإنس كان ذنباً صغيراً ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيْهِۚ﴾ [البقرة: ٣٧]، وهو إنما فعل المنهي عنه وهو الأكل من الشجرة؛ وإن كان كثير من الناس المتكلمين في العلم يزعم أن هذا ليس بذنب؛ وأن آدم تأول حيث نهي عن الجنس بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: ١٩] فظن أنه الشخص فأخطأ؛ أو نسي والمخطئ والناسي ليسا مذنبين. وهذا القول يقوله طوائف من أهل البدع والكلام والشيعة وكثير من المعتزلة وبعض الأشعرية وغيرهم ممن يوجب عصمة الأنبياء من الصغائر وهؤلاء فروا من شيء ووقعوا فيما هو أعظم منه في تحريف كلام الله عن مواضعه. وأما السلف قاطبة من القرون الثلاثة الذين هم خير قرون الأمة؛ وأهل الحديث والتفسير؛ وأهل كتب قصص الأنبياء والمبتدأ وجمهور الفقهاء والصوفية؛ وكثير من أهل الكلام كجمهور الأشعرية وغيرهم وعموم المؤمنين؛ فعلى ما دل عليه الكتاب والسُّنَّة مثل قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ١٢١]، وقوله: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣]، بعد أن قال لهما: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: ٣٧]، مع أنه عوقب بإخراجه من الجنة. وهذه نصوص لا ترد إلا بنوع من تحريف الكلام عن مواضعه»[1].

والذين منعوا من وقوع الصغائر من الأنبياء أوردوا شبهتين:

الأولى: أن الله أمر باتباع الرسل والتأسي بهم ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. وهذا شأن كل رسول، والأمر باتباع الرسول يستلزم

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/٨٨ ـ ٨٩).

أن تكون اعتقاداته وأفعاله وأقواله جميعها طاعات لا محالة؛ لأنه لو جاز أن يقع من الرسول معصية لله تعالى لحصل تناقض في واقع الحال، إذ يقتضي أن يجتمع في هذه المعصية التي وقعت من الرسول الأمر باتباعها وفعلها من حيث كوننا مأمورين بالتأسي بالرسول، والنهي عن موافقتها من حيث كونها معصية منهي عنها، وهذا تناقض، فلا يمكن أن يأمر الله عبداً بشيء في حال أنه ينهاه عنه.

وقولهم هذا يكون صحيحاً، لو بقيت معصية الرسول خافية غير ظاهرة، بحيث تختلط علينا الطاعة بالمعصية، أما وأن الله ينبه رسله وأنبياؤه إلى ما وقع منهم من مخالفات ويوفقهم إلى التوبة منها من غير تأخير، فإن ما أوردوه لا يصلح دليلاً بل يكون التأسي بهم في هذا منصباً على الإسراع في التوبة عند وقوع المعصية، وعدم التسويف في هذا، تأسِّياً بالرسل والأنبياء الكرام في مبادرتهم بالتوبة من غير تأخير.

الثانية: أن هؤلاء توهموا أن الذنوب تنافي الكمال، وأنها تكون نقصاً وإن تاب التائب منها، وهذا غير صحيح، فإن التوبة تغفر الحوبة، ولا تنافي الكمال، ولا يتوجه إلى صاحبها اللوم، بل إن العبد في كثير من الأحيان يكون بعد توبته من معصيته خيراً منه قبل وقوع المعصية، وذلك لما يكون في قلبه من الندم والخوف والخشية من الله تعالى، ولما يجهد به نفسه من الاستغفار والدعاء، ولما يقوم به من صالح الأعمال، يرجو بذلك أن تمحو الصالحات السيئات، وقد قال بعض السلف: «كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً منه قبل الخطيئة»، وقال آخر: «لو لم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه».

وقد ثبت في «الصحاح»: «**لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه، من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة، فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها، قائمة عنده، فأخذ بخطامها، ثم قال من شدة الفرح: اللَّهُمَّ أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح**»[1]. وفي الكتاب الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢][2].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في الحض على التوبة والفرح بها (٤/ ٢١٠٤) حديث رقم (٢٧٤٧).

(٢) انظر: الرسل والرسالات، ص١٠٩ ـ ١١٠.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وإنما ابتلى الله الأنبياء بالذنوب رفعاً لدرجاتهم بالتوبة وتبليغاً لهم إلى محبته وفرحه بهم، فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، ويفرح بتوبة التائب أشد فرح، فالمقصود كمال الغاية لا نقص البداية؛ فإن العبد يكون له الدرجة لا ينالها إلا بما قدره الله له من العمل أو البلاء»(١).

موقف المستشرقين من عصمته ﷺ:

أنكر جمهور المستشرقين جوانب كثيرة من عصمته ﷺ سواء ما يتعلق منها بالتبليغ عن الله تعالى، أو ما كان متعلقاً منها بالجانب النفسي والبدني لشخص النبي ﷺ. وتوضيح ذلك فيما يلي:

الجانب الأول: ما يتعلق بالوحي والتبليغ عن الله تعالى:

ذهب جمهور المستشرقين في القديم والحديث إلى الزعم أن النبي ﷺ قد افترى الوحي، وذلك إما أن يكون بنقله عن مصادر سابقة كأهل الكتاب من اليهود والنصارى أو من مصادر الجاهلية وغيرها مما كان محيطاً به، أو أن يكون قاله من تلقاء نفسه وذلك بقصد منه عن طريق التأليف والعكوف على إنتاج مقولات تنسب للخالق جلَّ وعلا، أو من غير قصد عن طريق وساوس وتخيلات ظنها حقيقة، وهي ما تعرف عند المتأخرين بالوحي النفسي أو نظرية (الوحي الخلاق).

وتحت كل قسم وتفريع مما سبق آراء كثيرة للمستشرقين في تأييد كل فكرة من هذه الأفكار ـ تقدمت الإشارة إليها مفصلة ـ وهي في الحقيقة تصب في مؤداها إلى نتيجة واحدة هي إنكار كون هذا الوحي إلٰهيّاً فضلاً أن يكون معصوماً عن الخطأ والزلل في التبليغ والبيان.

ومع ذلك فقد رأى بعض المستشرقين ألا يأخذ منحى المواجهة في إنكار ألوهية الوحي، وحاول أن يدع لأفكاره مجالاً للقبول عن طريق التلبيس وإثارة الشبهات في عصمة النبي ﷺ في التبليغ والوقوع في الكبائر أو الإصرار على الصغائر من الذنوب فعمد إلى بعض النصوص والأحداث، وحاول أن يستدل بها

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٠/ ٨٩).

على الطعن في عصمة النبي ﷺ، ومن أهم هذه الأحداث التي توقف جمهور المستشرقين عندها كثيراً الاستدلال بنصوص العتاب في حق النبي ﷺ.

فقد ذهب جمع من المستشرقين الى الاستدلال بهذه الآيات في سبيل الطعن بعصمة النبي ﷺ، ومن هؤلاء:

درمنغم في كتابه «حياة محمد»[(١)]، ومونتجمري وات في كتابه «محمد في المدينة»[(٢)]، وغوستاف لوبون في «حضارة العرب»[(٣)]، وكارل بروكلمان في كتابيه «تاريخ الشعوب الإسلامية»[(٤)]، و«تاريخ العرب»[(٥)]، وجولد زيهر في «العقيدة والشريعة في الإسلام»[(٦)].

وقد استدل هؤلاء الطاعنون بجملة من آيات العتاب نحو قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾﴾ [عبس: ١ ـ ١٠]، وقوله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأنفال: ٦٧، ٦٨].

وهذه الآيات ونحوها قد أبان عن معانيها علماء الإسلام وبينوا عدم تعارضها مع ما تقرر بالإجماع من عصمة النبي ﷺ من الوقوع في الكبائر أو الإقرار على الصغائر ناهيك عن عصمتة ﷺ فيما يتعلق بجانب التبليغ.

ولو ذهبنا نستعرض توضيحات العلماء حول هذه الآيات وما كان على شاكلتها لطال بنا المقام، ولكن يمكن أن يجاب عن ذلك بأجوبة إجمالية يتضح منها المقصود فيقال:

---

(١) ص٢٦٣.
(٢) ص٤٣٤، ٥٠٢.
(٣) ص١١٢.
(٤) ص٦٧.
(٥) ص١٦٦.
(٦) ص١٤٣.

أولاً: إن عتاب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الوارد في القرآن الكريم، هو في الظاهر عتاب، وفي الحقيقة كرامة وقربة لله ﷻ، وتنبيه لغيرهم ممن ليس في درجتهم من البشر، بمؤاخذتهم بذلك، فيستشعروا الحذر، ويلتزموا الشكر على النعم، والصبر على المحن، والتوبة عند الزلة[1].

ثانياً: أن الله تعالى أن يعاتب أنبياءه وأصفياءه، ويؤدبهم، ويطلبهم بالنقير والقطمير من غير أن يلحقهم في ذلك نقص من كمالهم، ولا غض من أقدارهم، حتى يتمحصوا للعبودية لله ﷻ[2].

ثالثاً: أن غاية أقوال الأنبياء وأفعالهم التي وقع فيها العتاب من الله ﷻ لمن عاتبه منهم، أن تكون على فعل مباح، كان غيره من المباحات أولى منه في حق مناصبهم السَّنية.

رابعاً: المباحات جائز وقوعها من الأنبياء، وليس فيها قدح في عصمتهم ومنزلتهم، فهم لا يأخذون من المباحات إلا الضرورات، مما يتقوون به على صلاح دينهم، وضرورة دنياهم، وما أخذ على هذه السبيل التحق بالطاعة، وصار قربة[3].

خامساً: أنه ليس كل من أتى ما يلام عليه يقع لومه، فاللوم قد يكون عتاباً، وقد يكون ذمّاً، فإن صح وقوع لومه، كان من الله عتاباً له لا ذمّاً، إذ المعاتب محبور[4] والمذموم مدحور، وفرق بين اللوم والذم كما قال الشاعر:

لعل عتبك محمود عواقبه فربما صحت الأجسام بالعلل[5]

وقول الآخر:

إذا ذهب العتاب فليس ود ويبقى الود ما بقي العتاب[6]

سادساً: أن العتاب فيما قيل أنه عوتب عليه رسول الله ﷺ، إنما كان على

---

(١) الشفا (٢/ ١٧١) بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص١٣٢ - ١٣٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٧.

(٤) أي: مظنة للحبور، وهو السرور. النهاية في غريب الحديث (١/ ٣١٦).

(٥) البيت للمتنبي في ديوانه (بشرح العكبري) (٣/ ٨٦).

(٦) البيت في الأمثال والحكم: للرازي، ص١٠٣ ولم ينسبه، وينظر: تنزيه الأنبياء: لعلي السبتي، ص١١٨، ١١٩.

ما حَكَمَ فيه رسول الله ﷺ بالاجتهاد، والاجتهاد محتمل الخطأ، فكان تصحيح الخطأ في اجتهاده من الله ﷻ، بتوجيهه ﷺ إلى الأخذ بالصواب فعاد الحكم بذلك إلى الوحي.

سابعاً: عدم ورود نهي عما عوتب فيه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، حتى يكون عتابهم ثمَّ ذم.

ثامناً: إنه ما من آية ظاهرها عتاب رسول الله ﷺ إلا وهي واردة في مقام المنَّة على رسول الله ﷺ، وبيان عظيم فضله ومكانته عند ربه ﷻ بأعظم ما يكون البيان[1].

ولتوضيح ما تقدم لنتأمل في آية من آيات العتاب في القرآن الكريم وماهية دلالتها، لنتبين الفرق بين ذلك وما زعمه جمهور المستشرقين، فعلى سبيل المثال قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: ٤٣].

هذه الآية بحسب الأسلوب العربي، تفيد تكريم النبي ﷺ وتعظيمه، خلافاً لمن وهم، ففهم منها عتابه أو تأنيبه؛ لأن النبي ﷺ لم يخالف أمراً ولا نهياً، فيستوجب ما فهمه ذلك الواهم.

فرسول الله ﷺ لما عزم على الخروج إلى تبوك، استأذنه بعض المنافقين في التخلف، لأعذار أبدوها، فأذن لهم فيه لسببين:

أحدهما: أن الله لم يتقدم إليه في ذلك بأمر ولا نهي.

ثانيهما: أنه لم يرد أن يجبرهم على الخروج معه، فقد يكون في خروجهم على غير إرادتهم ضرر.

فأنزل الله تعالى يبيِّن له أن ترك الإذن لهم كان أولى، لما يترتب عليه من انكشاف الصادق من الكاذب، فيما أبدوه من الأعذار، واستفتح رب العزة ما أنزله بجملة دعائية. هي قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ على عادة العرب في استفتاح كلامهم بهذه الجملة، أو بقولهم: غفر الله لك، أو جعلت فداك، أو نحوها يقصدون تكريم المخاطب؛ إذا كان عظيم القدر، ولا يقصدون المعنى الوصفي للجملة[2].

---

(١) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، ص٢٢٨.

(٢) دلالة القرآن المبين على أن النبي ﷺ أفضل العالمين، ص٦٨، بتقديم وتأخير، وينظر: خواطر =

ولو بدأ رب العزة حبيبه ومصطفاه بقوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ لخيف عليه أن ينشق قلبه من هيبة هذا الكلام، لكن الله تعالى برحمته أخبره بالعفو حتى سكن قلبه، ثم قال له: لم أذنت لهم بالتخلف حتى يتبين لك الصادق في عذره من الكاذب؟.

وفي هذا من عظيم منزلته عند الله ما لا يخفى على ذي لب، ومن إكرامه إياه وبرّه به، ما ينقطع دون معرفة غايته نياط القلب.

فليتأمل كل مسلم! هذه الملاطفة العجيبة في السؤال من رب الأرباب، المنعم على الكل، المستغني عن الجميع، ويستثير ما فيها من الفوائد.

وكيف ابتدأ بالإكرام قبل العتب (وهل سمعتم بمعاتبة أحسن من هذا إن كان ثمَّ عتب) وأنس بالعفو قبل ذكر الذنب إن كان ثمَّ ذنب، وهكذا في أثناء عتبه براءته، وفي طي تخويفه تأمينه وكرامته[(١)].

إن قوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ غاية ما يمكن أن يُدَّعى فيها أن تكون دالة على أنه ﷺ ترك الأولى والأفضل، وقد بينت أن ترك الأولى ليس بذنب، وقد يقول أحدنا لغيره إذا ترك الندب، لم تركت الأفضل، ولم عدلت عن الأولى، ولا يقتضي ذلك إنكاراً، ولا ذنباً[(٢)].

أما قول بعضهم: إن هذه الآية تدل على أنه وقع من الرسول ذنب؛ لأنه تعالى قال: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ والعفو يستدعي سابقة ذنب، وأن الاستفهام في قوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ استفهام بمعنى الإنكار.

فهذا قول من يجهل لغة العرب في استفتاح كلامهم بهذه الجملة ونحوها يقصدون بها تكريم المخاطب، إذا كان عظيم القدر، وتحاشياً عن جعل الاستفهام أول كلام للمعظم.

وليس «عفا» هنا في الآية بمعنى «غفر»؛ أي: ستر، وترك المؤاخذة بل بمعنى: لم يلزمك شيئاً في الإذن، كما قال ﷺ: «**إني قد عفوت عنكم عن صدقة**

= دينية، ص٤٣، ٤٤، كلاهما لعبد الله الغماري، وشرح الزرقاني على المواهب (٩/ ٤٠ ـ ٤٢)، والشفا (٢/ ١٥٨، ١٥٩).

(١) الشفا (١/ ٢٨، ٢٩، ٣٠) بتصرف، وقارن بشرح الزرقاني على المواهب (٩/ ٤٠).

(٢) ينظر: تنزيه الأنبياء: لعلي الحسين الموسوي، ص١١٤ بتصرف.

الخيل والرقيق، ولكن هاتوا ربع العشر من كل أربعين درهماً، درهماً»[(١)].

ولم تجب عليهم زكاة في خيل ورقيق قط؛ أي: لم يلزمكم ذلك، فليس معناه: إسقاط ما كان واجباً، ولا ترك عقوبة هنا فتأمل[(٢)].

وصفوة القول: أن يقال: إما أن يكون صدر عن رسول الله ﷺ ذنب أم لا؟ فإن قلنا: لا! امتنع على هذا التقدير أن يكون قوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ إنكاراً عليه. وإن قلنا: إنه صدر عنه ذنب ـ وحاشاه الله من ذلك ـ فقوله ﷻ: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ يدل على حصول العفو، وبعد حصول العفو يستحيل أن يتوجه الإنكار عليه.

فثبت أنه على التقديرين المذكورين، يمتنع أن يقال: إن قوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ يدل على كون الرسول مذنباً، وهذا جواب شاف كاف قاطع.

وعند هذا يحمل قوله: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ على ترك الأولى والأكمل، بل لم يعد هذا أهل العلم معاتبة[(٣)].

الجانب الثاني: ما يتعلق بالجانب النفسي والسلوكي للنبي ﷺ:

وفي هذا الجانب تناول جمهور المستشرقين شخصية النبي ﷺ بما يقدح في عصمته ﷺ، وإن كان ذلك في جوانب معينة فإن الغالب منهم ـ وخصوصاً المتأخرين ـ الثناء على حسن خلقه ﷺ، ولعل أكثر الصفات التي قدح فيها هؤلاء هو ما يتعلق بميل النبي ﷺ إلى النساء، وتعدد زواجه ﷺ حتى اتهمه كثير منهم بميله إلى الشهوة الجامحة التي أثرت على كثير من تصرفاته حاشاه ﷺ من ذلك، ومن أبرز الأحداث والقصص التي استوقفتهم كثيراً في هذا السياق قصة زواجه ﷺ من زينب بنت جحش وحاولوا الاستدلال ببعض النصوص وأقوال بعض

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الزكاة، باب زكاة الورق والذهب (١/ ٥٥٩) رقم (١٧٩٠)، وأبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب زكاة السائمة (٢/ ١٠١) رقم (١٥٧٤)، والترمذي في سننه، كتاب الزكاة، باب ما جاء في زكاة الذهب والورق (٣/ ١٦) رقم (٦٢٠) وقال: حديث صحيح، والنسائي في سننه الصغرى، كتاب الزكاة، باب زكاة الورق (٥/ ٣٧) رقم (٢٤٧٧) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) ينظر: المواهب اللدنية وشرحها: للزرقاني (٩/ ٤١، ٤٢)، والشفا (٢/ ١٥٨)، وشرح السيوطي على النسائي، وحاشية السندي (٥/ ٣٧) رقم (٢٤٧٧).

(٣) رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، ص٢٣١.

المفسرين حول هذه الحادثة في تأييد أهوائهم وآرائهم البعيدة كل البعد عن واقع هذه الحادثة وحقيقتها.

فهذا المستشرق درمنغم يطلق العنان لخيالاته وشهواته ويصور مسوغات زواج النبي ﷺ من زينب بنت جحش رضي الله عنها بعدة أحداث جرت.

فهو يزعم أن النبي ﷺ زار مرة بيت زيد بن حارثة رضي الله عنه وكان حينها غائباً عن بيته، وأنه وجد زينب بنت جحش ـ وكانت أجمل فتيات قومها ـ سافرة، فأثر ذلك في نفس النبي ﷺ فلم يزد أن قال: «**سبحان مقلب القلوب**». وأن زينب قصت ذلك على زيد فما كان إلا أن احتار في أمره ثم قرر ألا يمسكها وذكر ذلك للنبي ﷺ فقال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. بيد أن زيد أدرك أن ذلك لا يعبر عما يخفيه محمد في نفسه، فأصر على حل عقدة النكاح متعللاً أنه أضحى كارهاً لزينب، فطلقها بعد بضعة أيام، ثم يمضي ـ درمنغم ـ فيزعم أن زينب بعد انقضاء عدتها أرسلت إلى محمد ﷺ من يقول له: إن زيداً قد طلقها إرضاء له، وأن محمداً ﷺ سر بذلك وأرسل إليها من يبشرها، وأن عائشة رضي الله عنها غضبت فأخبرها أن ذلك أمر الله فسكتت[١].

وتقول المستشرقة الإنجليزية كارين أرمسترونج: «فيرى كُتّاب مثل فولتير وبريدو الحادث برهاناً على شهوة محمد للنساء وعن استغلاله الوحي من أجل تحقيق ما يشتهيه!! كما أنهم يقدمون رواية أكثر إثارة عن الحادثة تلك التي يقدمها المسلمون...»[٢] ثم تمضي في وصف ادعاءات فولتير وبريدو حول هذه الحادثة والتي لا تبتعد كثيراً عما ذكره درمنغم آنفاً[٣].

ولعلَّ أفضل المستشرقين حالاً من يروي وجهة النظر الإسلامية دون إسقاط الرؤية الاستشراقية غير المنصفة في هذا الجانب، ومن هؤلاء: المستشرقة أرمسترونج التي تقول:

«وينكر المسلمون اليوم أن محمداً تزوج زينب عن شهوة. ويبنون اعتراضهم على أنه من غير المحتمل أن امرأة في التاسعة والثلاثين كانت طوال حياتها تعيش

(١) حياة محمد، ص٢٦٣ ـ ٢٦٤.

(٢) محمد، ص٢٩٢.

(٣) المرجع السابق، ص٢٩٢ ـ ٢٩٣.

على حافة سوء التغذية وتعرضت للهيب شمس بلاد العرب المحرقة كان لها أن تثير مثل تلك العاصفة في صدر أي رجل، دعنا من إثارتها عاصفة في صدر ابن عم لها كان قد عرفها منذ أن كانت طفلة. كما أن محمداً كان دائماً وثيق الصلة بأسرة جحش، وزينب من بينهم. ويفسر المسلمون ما حدث على أن محمداً شعر بالمسؤولية تجاهها بعد أن طُلقت، وكان ـ كما نعلم ـ يولي اهتماماً بالنساء غير المحصنات من الأمة. فلو أنه ابتغى زينب لجاذبيتها الجنسية لتزوجها قبل ذلك بسنوات عديدة. كما أن الحادثة تبرهن أيضاً على أن العلاقة بالتبني تختلف عن صلة الدم وليس لها أن تمنع الزواج»[1].

الرد على مزاعم المستشرقين:

أما قوله تعالى في قصة زيد بن حارثة رضي الله عنه: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ۝٣٧﴾ [الأحزاب: ٣٧].

فهذه الآية الكريمة ذكر فيها كلام من بعض الذين تصدوا لتفسير القرآن الكريم، وتحمَّلوا أمانة تجلية معانيه، وبعضه مما لا يليق بمنصب النبوة، ولا بالعصمة، اتخذ فيما بعد منطلقاً لضجيج يرمى بالنقيصة، وعدم العصمة لأكمل الناس خلقاً، وأحمدهم سيرة. ومن ذلك أقوال وآراء تضمنتها تفاسير الطبري، والزمخشري، والنسفي، ومن نحا نحوهم حول الآية الكريمة.

فقد ذكرت هذه التفاسير: أن نبيّنا ﷺ رأى زينب بنت جحش رضي الله عنها، وهي تحت زيد بن حارثة، على حالة جعلت قلبه يتعلق بها، ويود لو فارقها زيد فيتزوجها، وخشى أن يقول الناس، أمر ابنه بطلاق امرأته، ونكحها حين طلقها، والله أحق أن يخشاه من الناس[2]. وفي هذا طعن على نبينا ﷺ، فتح الباب لأعداء الإسلام قديماً وحديثاً من المنصرين والمستشرقين الذين أطلقوا العنان

---

(١) المرجع السابق، ص٢٩٣.

(٢) انظر: جامع البيان: للطبري (٢٠/ ٢٧٣)، والكشاف: للزمخشري (٣/ ٥٤٠)، والنسفي (٣/ ٣٢)، ومع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزينب دراسة تحليلية: للدكتور زاهر الألمعي، ص٩ ـ ٢١.

لخيالهم، وهم يتحدثون عن تاريخ رسول الله ﷺ في هذا الموضوع، والذي اتخذوا منه دعامة للطعن في نبوته، وعصمته ﷺ.

والجواب عن ذلك: أنه لا حجة لهم في التعلق بما ظنوه ظاهر الآية، ولا بالآراء التي قيلت في تأويلها ولا سند لها بل هي باطلة لوجوه:

الوجه الأول: أنه ليس في الآية ما يدل على أن رسول الله ﷺ صدر منه في هذه الواقعة مذمة، ولا عاتبه الله على شيء منه، ولا ذكر أنه عصى أو أخطأ، ولا ذكر استغفار النبي ﷺ منه، ولا أنه اعترف على نفسه مخطئاً، وأنه لو صدر عنه زلة لوجد من ذلك شيء، كما حصل لسائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام متى صدرت عنهم زلة أو ترك مندوب.

الوجه الثاني: أنه ذكر في القصة بصريح القرآن الكريم: ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾ [الأحزاب: ٣٨]، ونفي الحرج عن النبي ﷺ تصريح بأنه لم يصدر منه ذنب البتة، كما أن نفي الحرج رد على من توهم من المنافقين نقصاً في تزويجه ﷺ امرأة زيد مولاه، ودعيه الذي كان قد تبناه[1].

الوجه الثالث: أنه تعالى ذكر الحكمة والعلة من زواجه ﷺ من زينب رضي الله عنها بقوله: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ ولم يقل: إني فعلت ذلك لأجل عشقك! أو نحو ذلك.

الوجه الرابع: قوله تعالى: ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ ولو حصل في ذلك سوء لكان قدحاً في الله تعالى، وهو ما يؤكد أنه لم يصدر منه ﷺ ذنب البتة في هذه القصة.

الوجه الخامس: أنه لو كان ما زعموه صحيحاً، لكان قوله ﷺ لزيد كما حكى القرآن الكريم ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ نفاقاً؛ لأنه أظهر بلسانه خلاف ما يضمره في نفسه! لكن الله ﷻ عصم نبيه ﷺ من ذلك.

الوجه السادس: أن رسول الله ﷺ لم يكن يرى زينب للمرة الأولى، فهي بنت عمته، ولقد شاهدها منذ ولدت، وحتى أصبحت شابة؛ أي: شاهدها مرات عديدة، فلم تكن رؤيته لها مفاجأة، كما تصور القصة الكاذبة!. ولو كان

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم: لابن كثير (٦/ ٤٢٧).

رسول الله ﷺ يحمل أي ميل نحو زينب رضي الله عنها لتقدم بزواجها، وقد كان هذا أملها، وأمل أخيها حين جاء ﷺ يخطبها منه، فلما صرح لهما بزيد، أبيا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فقالا: رضينا بأمر الله ورسوله(١) وكانت هذه الآية توطئة وتمهيداً لما ستقرره الآيات التالية لها من حكم شرعي يجب على المؤمنين الانصياع له، وامتثاله والعمل به، وتقبله بنفس راضية، وقلب مطمئن، وتسليم كامل.

الوجه السابع: أن ما أخفاه النبي ﷺ، وأبداه الله تعالى هو: أمره بزواج زينب ليبطل حكم التبني، هذا ما صرحت به الآية، لا شيء آخر غيره، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾.

فكيف يُعدل عن صريح القرآن الكريم إلى روايات لا زمام لها ولا خطام؟!(٢) وليس في هذا الإخفاء ما يعاب عليه ﷺ أصلاً، وإلا لكان ذنباً تجب منه التوبة، وليس في الآية الكريمة ما يشعر بشيء من ذلك.

وعليه؛ فالإخفاء هو غاية العقل، وعين الكمال؛ لأن ذلك إنما كان سرّاً بينه وبين خالقه ﷻ، لم يأمره بإذاعته قبل أوانه، فكتمانه في الحقيقة، قبل مجيء وقته هو الكمال الذي لا ينبغي غيره.

إذن؛ ليس في الإخفاء المذكور منقصة، ولا خيانة للوحي، كلا، بل لو أنه ﷺ كان قد أذاع هذا السر المكنون، والأمر المصون، لكان ذلك هو الخروج عن دائرة الحزم والكمال.

---

(١) فعن قتادة رحمه الله قال: خطب النبي ﷺ زينب بنت عمته، وهو يريدها لزيد، فظنت أنه يريدها لنفسه، فلما علمت أنه يريدها لزيد أبت، فأنزل الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ الآية، فرضيت وسلمت. رواه الطبراني بأسانيد، ورجال بعضها رجال الصحيح كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ٩١، ٩٢)، وهكذا قال مجاهد، ومقاتل بن حيان، وابن عباس: إنها نزلت في زينب بنت جحش حين خطبها رسول الله ﷺ لمولاه زيد بن حارثة، فامتنعت ثم أجابت. انظر: رواية الطبراني في مجمع الزوائد (٩/ ٢٤٦، ٢٤٧).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٦/ ٤٢٤ ـ ٤٢٥): «ذكر ابن جرير، وابن أبي حاتم، هاهنا؛ أي: في تفسير قوله تعالى: ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ آثاراً عن بعض السلف أحببنا أن نضرب عنها صفحاً لعدم صحتها فلا نوردها». اهـ. وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٤٢٥): «ووردت آثار أخرى أخرجها ابن أبي حاتم، والطبري، ونقلها كثير من المفسرين، لا ينبغي التشاغل بها، والذي أوردته منها هو المعتمد».

وهنا نصل إلى أصح المحامل في قصة زينب ﵂، وهو:

أن الله تعالى قد أعلم نبيَّه ﷺ أنها ستكون من أزواجه، فلما شكاها له زيد، وشاوره في طلاقها، ومفارقتها، قال له على سبيل النصيحة والموعظة الخالصة: «**أمسك عليك زوجك واتق الله**»؛ أي: واتق الله في شكواك منها[١]، واتهامك لها بسوء الخلق، والترفع عليك؛ لأنه شكا منها ذلك، وأخفى رسول الله ﷺ في نفسه ما كان أعلمه الله به من أنه سيتزوجها، مما الله مبديه، ومظهره بتمام التزويج، وطلاق زيد لها[٢].

ويصحح هذا قول المفسرين في قوله تعالى بعد هذا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾؛ أي: لا بد لك أن تتزوجها، ويوضح هذا أيضاً أن الله ﷻ لم يبد من أمره ﷺ معها غير زواجه لها، فدل أنه الذي أخفاه ﷺ مما كان أعلمه به ربه ﷻ.

وبهذا القول الذي تعطيه التلاوة: من أن الذي أخفاه النبي ﷺ هو إعلام الله له أنها ستكون زوجة له بعد طلاقها من زيد، قال به جمهور السلف، والمحققون من أهل التفسير، والعلماء الراسخون كابن العربي والقرطبي والقاضي عياض والقسطلاني في المواهب، والزرقاني في شرحها[٣] وغيرهم[٤] ممن يعنون بفهم

(١) انظر: السنن الكبرى: للبيهقي (٧/ ٢٢١).

(٢) فعن السدي الكبير (إسماعيل بن عبد الرحمٰن بن أبي كريمة) قال: «بلغنا أن هذه الآية: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ نزلت في زينب بنت جحش، وكانت أمها أميمة بنت الحارث بن عبد المطلب، عمة رسول الله ﷺ، فأراد أن يزوجها زيد بن حارثة مولاه، فكرهت ذلك، ثم إنها رضيت بما صنع رسول الله ﷺ فزوجها إياه، ثم أعلم الله ﷻ نبيه بعد أنها من أزواجه، فكان يستحي أن يأمر بطلاقها، وكان لا يزال يكون بين زيد وزينب ما يكون من الناس، فأمره رسول الله ﷺ أن يمسك عليه زوجه، وأن يتقي الله، وكان يخشى الناس أن يعيبوا عليه، ويقولوا: تزوج امرأة ابنه، وكان قد تبنى زيداً». أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٩/ ٣١٣٧) برقم (١٧٦٩٦)، وقد أثنى الحافظ ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٥٢٤) رقم (٤٧٨٧)، على رواية السدي هذه دون غيرها من التي أخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره، وقال الحافظ في رواية السدي: هي أوضح سياقاً، وأصح إسناداً اليه، يقصد من التي أطنب الترمذي الحكيم في تحسينها من رواية ابن أبي حاتم عن علي بن زيد بن جدعان الضعيف.

(٣) شرح الزرقاني على المواهب (٧/ ١٧٠).

(٤) وانظر: روح المعاني: للألوسي (٢٢/ ٢٣، ٢٤)، ومحاسن التأويل: للقاسمي (١٣/ ٤٨٦٤ ـ ٤٨٧٧)، وآيات عتاب المصطفى ﷺ في ضوء العصمة والاجتهاد: د. عويد بن عيَّاد المطرَفي، ص٢٤٣، ٢٤٤.

الآيات القرآنية وفقهها، وتنزيه الرسل عما لا يليق بهم من الروايات البعيدة عن منطق الحق والواقع[١].

كما ذهب إلى هذا القول المستشرق المسلم نصر الدين (دينيه) حيث يقول:

«لم يكن الرسول يفكر في الزواج بزينب، لا قبل زيد ولا بعده، وإلا فأي شيء كان يمنعه من التزوج بها بكراً غضة الإهاب، وقد كان يملك من أمرها كل شيء؟. على أن زواج زيد بزينب كان بوحي سماوي وأمر إلٰهي؛ لأن زينب وأهلها أبوا أن تتزوج بهذا العبد المحرر، ذلك أن العرب تتعصب للأنساب، وتفتخر بالآباء والأجداد، فامتنعوا، ورأوا أن ذلك عار عليهم، فنزلت الآية الكريمة:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ وامتثلت زينب أمر الله ورسوله في هذا الزواج، إلا أنها كانت تشعر بأنها شريفة قرشية، وبأن زيداً كان عبداً مملوكاً. لذلك كانت تتكبر عليه وتنفر منه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، وأراد غير مرة أن يطلقها، ولكن الرسول كان يقول له: «**أمسك عليك زوجك**». مع علمه ﷺ بأن الله سيزوجه بها تشريعاً جديداً، وقضاء على عادة تأصلت في نفوس العرب: هي معاملة المتبنى معاملة الابن الحقيقي»[٢].

بقي في القصة: قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ فليس مرد هذه الخشية عند رسول الله ﷺ رهبة شيء يحول بينه وبين تبليغ رسالته من قريب أو بعيد، ولا يصح أن يفهم منها أنه ﷺ لم يكن يخشى الله تعالى، بدليل ما ورد في القرآن الكريم في أكثر من آية الشهادة له ﷺ بالخشية والخوف قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾﴾ [الزمر: ١٣]، وقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾ [الأحزاب: ٣٩]، وهذه الآية الكريمة تشمله ﷺ شمولاً أوليّاً لأنها في صدر الحديث عنه[٣]، ومن هنا فالخشية في آية بحثنا: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ مردها إلى

---

(١) انظر فيما تقدم: رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، ص٢٥٢ ـ ٢٥٩.

(٢) محمد رسول الله، ص٢٤٩ ـ ٢٥٠.

(٣) يراجع تفصيل ذلك ص١٣٠ ـ ١٣٢.

شدة حيائه ﷺ، فقد كان يتحرج حياء من بيان ما قد أطلعه الله عليه، مما سيؤول إليه أمر زينب رضي الله عنها؛ لأن الناس كانوا يعدّون ذلك أمراً كبيراً، ولكن لمّا كان شرعاً محكماً، كان لا بد من بيانه.

أما ما ارتضاه كثير من المفسرين في معنى الخشية بأنها: مجرد خوفه من قالة المنافقين، وطعنهم في ذاته الكريمة بقولهم: تزوج زوجة ابنه؛ أي: من تبناه[1]. فهذا التأويل ترده سيرته العطرة مما علم وعرف في تاريخ تبليغه الرسالة على مدى مدة الإقامة في مكة ـ ثلاثة عشر عاماً ـ وما مضى من مدة قدومه ﷺ المدينة إلى حين وقوع قصة زيد وزينب، وهي قد وقعت في السنة الثالثة أو الرابعة من الهجرة، من مناهضة الكفر والشرك والوثنية، وطغيان ملأ قريش وعتوهم وفجور سفهائهم من مواقف حفظها تاريخ السيرة النبوية العطرة من صبر على البلاء، ومجابهة الأعداء في وقائع وأحداث كثيرة تدل قطعاً على أن النبي ﷺ ما كان في حياته المباركة يخشى أحداً غير الله تعالى، ولا يقيم وزناً لأقوال الناس فيه، وأفعالهم معه، وفي مهاجره ﷺ لقي من أعداء الإسلام اليهود والمنافقين وبقايا المشركين ما لا يقل في عنفوانه وعتوّه، عن فجور مشركي مكة، فلم يحفل به، ولا خشي أحداً من الناس، ولو لم يكن من صور صبره ﷺ على سفاهة السفهاء، وقالة السوء من أعدى أعداء الإسلام المنافقين واليهود إلا صبره في قصة الإفك[2] وعدم المبالاة بتقول المتقولين، وافتراء المفترين، لكفاه ﷺ ذلك في مواقف الفخر بالاعتصام بالله، وإفراده تعالى وحده بالخشية دون خشية أحد من خلقه.

والذي يظهر في المراد بالخشية في قوله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ هو ما أشار إليه ابن حزم في كتابه الفصل في الملل والنحل: «أنه ﷺ خشي ضرر الناس، ووقوعهم في الهلاك بسبب إساءة ظنهم به، وبسط ألسنتهم فيه بالسوء»[3]

---

(١) فعن عائشة رضي الله عنها قالت: لما تزوج ﷺ زينب، قالوا تزوج حليلة ابنه، فنزل: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ الآيـة [الأحـزاب: ٤٠]، والحديث أخرجه الترمذي في سننه، كتاب التفسير، باب سورة الأحزاب (٥/ ٣٢٨) رقم (٣٢٠٧) وقال: حديث غريب. وينظر: فتح الباري (٨/ ٣٨٤) رقم (٤٧٨٧)، والسيرة النبوية في ضوء الكتاب والسُّنَّة: للدكتور محمد أبو شهبة (٢/ ٢٩٧، ٢٩٨).

(٢) تقدم تخريجها.

(٣) الفصل في الملل والنحل (٢/ ٣١٢).

كما وقع له ﷺ، أنه كان واقفاً مرة مع زوجته صفية بنت حيي بن أخطب ﵂، ليلاً، فمرَّ عليه رجلان من أصحابه، فلما أبصراه واقفاً معها أسرعا في المشي، فقال لهما رسول الله ﷺ، «**على رسلكما، إنها صفية بنت حيي**» فقالا: سبحان الله يا رسول الله، وكبر عليهما ذلك[1] فقال النبي ﷺ: «**إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وقد خشيت[2] أن يقذف في قلوبكما شيئاً**»[3].

فالخشية كانت من سوء الظن، والإشاعات الكاذبة التي قد تؤثر على بعض ضعفاء الإيمان، أو تقف عقبة في سبيل تبليغ الرسالة، فيستغلها الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وهذا هو المعقول اللائق بعظيم منزلته ﷺ، وإلا فمجرد الخوف من قالة الناس، وخشية الطعن منهم، مما يجب أن ينزه عنه مقام النبوة الأسمى، فإنه؛ أي: خوف الناس، لا ينشأ إلا من حب المحمدة والثناء، والحرص على الجاه عند الناس، وحسن الأحدوثة بينهم، وهذا مما يترفع عنه آحاد الأتقياء، فضلاً عن سيد الأنبياء، وعلى ذلك فليست قصة زينب المذكورة، مسوقة مساق العتاب له ﷺ، كما توهمه المفسرون، وإنما سيقت في الحقيقة لبيان كماله وحزمه ﷺ، وشدة شفقته على الناس، وحرصه على سلامتهم من الأذى، كما يومئ إليه قوله تعالى قبل هذه القصة: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فإن إعطاء النبي ﷺ هذا المنصب العظيم، وإحلاله هذه المنزلة الرفيعة، التي جعلت رأيه فوق رأي الجميع، بحيث لا يكون لمؤمن ولا مؤمنة الخيرة في شيء ما، بعد قضائه ورأيه ﷺ، يدل على دلالة ظاهرة على أن هذه القصة، وهي قصة زينب المذكورة، إنما ذكرت هنا كالتعليل

---

(١) أي: عظم عليهما توضيح الرسول ﷺ لهما؛ لأنه ﷺ فوق الشك.

(٢) ليس في هذه الروايات ما يشير إلى أنه ﷺ ظن بهما سوءاً، لما تقرر عنده من صدق إيمانهما، ولكن خشي عليهما أن يوسوس لهما الشيطان، ذلك لأنهما غير معصومين، فقد يفضي بهما ذلك إلى الهلاك، فبادر إلى إعلامهما حسماً للمادة، وتعليماً لمن بعده إذا وقع له مثل ذلك، فهذه الخشية كانت من قبيل الرحمة والإحسان إلى المؤمنين ليحفظ ﷺ إيمانهم.اهـ. انظر: فتح الباري (٤/٣٢٨) رقم (٢٠٣٥).

(٣) أخرجه البخاري ـ واللفظ له ـ في كتاب الاعتكاف، باب هل يخرج المعتكف لحوائجه إلى باب المسجد (٣/٤٩) حديث رقم (٢٠٣٥)، ومسلم في صحيحه في كتاب السلام، باب بيان أنه يستحب لمن رئي خالياً بامرأة وكانت زوجته أو محرماً له أن يقول هذه فلانة ليدفع ظن السوء به (٤/١٧١٢) حديث رقم (٢١٧٥).

لاستحقاقه ﷺ ما ذكر، فلا بد حينئذ أن يكون مضمونها مدحاً له ﷺ، وتنزيهاً له عن جميع الأغراض والحظوظ النفسية، فما قيل من أنه ﷺ أبصرها فتعلق قلبه بها وأخفاه، فهو قول باطل كما قال بعض العلماء، لا يلتفت إليه، وإن جلَّ ناقلوه، فإن أدنى الأولياء لا يصدر عنه مثل هذا، وكذلك لا يجدي فيه الاعتذار، بأن ميل القلب غير مقدور، فإنه هنا أيضاً مما يجب صيانة النبي ﷺ وعصمته عنه، ويرد هذا القيل: أن الله ﷻ لم يبده؛ أي: لم يبد الميل القلبى كما زعمتم، وإنما أبدى نكاحه إياها نسخاً لما كان عليه الجاهلية من تحريم أزواج الأدعياء[1].

(١) انظر: رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، ص٢٥٩ ـ ٢٦٥، النفحات الشذية فيما يتعلق بالعصمة والسُّنَّة النبوية: لمحمد الطاهر الحامدي، ص٦٦ ـ ٦٨، وآيات عتاب المصطفى ﷺ في ضوء العصمة والاجتهاد، ص٢٤٠ ـ ٢٤٧، وخواطر دينية: لعبد الله الغماري، ص٤٥، ٤٦، والشفا ١٨٨/٢ ـ ١٩١، وعصمة الأنبياء: للرازي، ص١٠٠ ـ ١٠٤، ومحمد رسول الله لفضيلة الشيخ عرجون ٤٣٨/٢ ـ ٤٤١، وتنزيه الأنبياء: لعلي السبتي، ص٥٠ ـ ٦٣، وعصمة الأنبياء: للدكتور محمد أبو النور الحديدي، ص٤٥٣ ـ ٤٦٦.

المبحث الثاني

عموم رسالته ﷺ

رغم وضوح الأدلة التي تستند عليها العقيدة الإسلامية في أن الإسلام دين عالمي في توجهاته، ومنذ لحظاته الأولى، إلا أن جمهور المستشرقين أنكروا هذا المبدأ وزعموا أن الإسلام ما هو إلا دين للعرب خاصة، وحاول بعضهم أن يرد ظهور فكرة العالمية إلى التطورات التي أحدثها تغيير موازين القوى في الجزيرة العربية بعد فترة من إقامة النبي ﷺ في المدينة.

وقد تبنى هذا الموقف كايتاني والأب لامنس، اللذان أوحت أفكارهما للمستشرق الإنجليزي سوندرز بقوله: «ما من دليل واف يدل على أن محمداً كان يتصور الإسلام ديناً عالميّاً. . . أو يتصور أنه أرسل لهداية شعب من الشعوب غير شعبه العربي، وليست قصة رسائله إلى الإمبراطور هرقل وشاه فارس وملك الحبشة للدخول في دينه بالقصة التي تقوم على أساس»[1].

كما قال بهذا الزعم عدد من المستشرقين، منهم:

ـ المستشرق وليم موير، والذي ادعى «أن فكرة عموم الرسالة جاءت فيما بعد، وأن هذه الفكرة على الرغم من كثرة الآيات والأحاديث التي تؤيدها، لم

---

(١) ما يقال عن الإسلام: عباس محمود العقاد، ص٧١.

يفكر فيها محمد نفسه، وعلى فرض أنه فكر فيها، فقد كان تفكيره تفكيراً غامضاً، فإن عالمه الذي كان يفكر فيه إنما كان بلاد العرب، كما أن هذا الدين الجديد لم يهيأ إلا لها، وأن محمداً لم يوجه دعوته منذ بعث إلى أن مات إلا للعرب دون غيرهم»(١).

ـ كما أطلق هذه الدعوى المستشرق جاك.س. ريسلر في كتابه «الحضارة العربية» في قوله: «إن الإسلام للعرب فقط»(٢).

ـ ويتابع كارل بروكلمان من سبقه في هذه الدعوى، فيقول: «وليس من الميسور أن تقرر، على وجه الدقة، ما إذا كان النبي نفسه قد استشعر أنه مدعو لمثل هذه الرسالة العالمية»(٣).

ـ ويقول فيليب حِتّي: «ويروي لنا المؤرخون المسلمون أن النبي بعث ـ في هذه الفترة ـ برسائل إلى ملوك البلاد المجاورة، بما فيهم ملكا القسطنطينية وفارس، يدعوهم إلى الإسلام. وقد أثبت المؤرخون نصوص هذه الرسالة المروية في كتبهم. (غير أن نفراً من المؤرخين الغربيين) يرون أن من غير المنتظر أن يكون النبي قد بعث برسائل إلى ملوك أجانب قبل أن يكون قومه كلهم قد آمنوا به»(٤).

ـ أما المستشرق الإيطالي دافيد سانتيلانا (١٩٣١م) فقد نسب إلى الصحابة رضوان الله عليهم انتقال الإسلام من طابعه العربي إلى العالمية فقال: «هذه الجماعة تفضل غيرها بوصفها الجماعة الممتازة، أو الشعب المقدس الذي عهد إليه ببث الصلاح... إنه مهبط العدل، وينبوع الإيمان الأوحد في هذا العالم، وهو رسول الله إلى الشعوب الأخرى كما كان محمد رسول الله إلى العرب»(٥).

ـ ولم يمنع بلاشير علمه الواسع بالمصادر الإسلامية من القول: «وهنا نطرح مجدداً مشكلة البعد المكاني الذي خصصه مشيد الإسلام لنشاطه، وإذا

---

(١) الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د. شوقي أبو خليل، ص١٤١، عن:
Muir. The Caliphate, p.34 - 44.

(٢) الحضارة العربية: ترجمة: غنيم عبدون، ص٣٧.

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٧٠ ـ ٧١.

(٤) الإسلام منهج حياة، ص٤٩.

(٥) Le Probleme de Mahomet-P. 118.

كانت الدعوة في المرحلة السابقة على الهجرة تهدف إلى إدخال الحجازين في الإسلام، فإننا نعتقد أن محمداً قد ابتدأ يحلم بعد فتح خيبر وفدك بمد دعوته إلى ما وراء الحجاز»[١].

ـ وسار مونتغمري وات على خطى بلاشير فأرجع نشأة فكرة العالمية الإسلامية إلى ما وراء الحجاز[٢] إلى المرحلة المدنية، وإن قدّم زمانها على التاريخ الذي حدده بلاشير، فقال: «ومن الطبيعي القول بأن همه الوحيد كان دحر المكيين... ولكن يظهر بوضوح بعد انتهاء الحصار ـ يقصد غزوة الخندق ـ أن أهداف محمد كانت أوسع وأجدر برجل دولة. حتى إذا ما تأملنا في بداية تاريخ الإسلام وقعنا على إشارة تدل على أن هذه الأهداف الواسعة كانت دائماً موجودة، أو منذ أن أظهر النصر في بدر إمكانية إحداث تغييرات واسعة»[٣].

وقد قدم بلاشير ووات التبريرات نفسها التي استند عليها كايتاني ولامنس وغيرهم في إنكار أصولية عالمية الإسلام، وهي التشكيك في صحة الروايات التي نقلت لنا مراسلاته عليه الصلاة والسلام لملوك العالم. وقد دفع الشك بلاشير إلى إطراحها كلية فقال: «وتحاول السيرة أن تبرهن على أكثر من هذا، إنها تجعل محمداً يراسل ملوك العالم بعد صلح الحديبية... ومن هنا فهي تطرح فكرة أن النبي قد حاول دعوة العالم... وتاريخية هذه المعطيات ضعيفة جداً، ورواياتها تتسم بجو القصص العجيبة، مما يدفعنا إلى عدم أخذها مأخذ الجد»[٤].

كما ذهب وات إلى إنكار وجود مراسلات دعوية وجهها النبي ﷺ إلى ملوك العالم، وبرر ذلك بعدم معقولية هذا الإجراء «لأنه لا يمكن تصور إمبراطور الروم، ونجاشي الحبشة يستجيبان لمثل هذه الدعوة»[٥]، وحكم بوضع المسلمين لهذه الروايات لتكون سنداً لفكرة عالمية الإسلام، كما يقول:

«والروايات التاريخية الإسلامية تقول: إن محمداً أرسل بعد عقده صلح الحديبية ستة رسل إلى ملوك البلدان المحيطة يدعوهم إلى الإسلام، ولكن الطرق

---

(١) محمد في المدينة، ص٦٠.

(٢) Le Probeleme de Mahomet-P. 118.

(٣) محمد في المدينة، ص٦٢.

(٤) Mahomet prophete et H. d'Etat-P. 170.

(٥) المرجع السابق، ص١٧٠.

النقدية الحديثة تبين بأن هذه الرواية مشكوك فيها. ومن المحتمل أن تكون من وضع المسلمين ليثبتوا أن محمداً كان يفكر بأن دينه عالمي»(١).

وفي مقابل إنكاره لمحتوى هذه الرسائل فإنه لم ينكر وجود مراسلات تمَّت بين النبي ﷺ وملوك ذلك الزمان، ولكنه ابتدع لها أهدافاً غير الأهداف الدعوية فقال:

«ولكن إذا قيل لنا بأن الأشخاص المذكورين حملوا فعلاً رسائل، فليس من المستحيل أن يكون محتوى الرسائل قد تبدل نوعاً ما خلال فترة الرواية... وتسمح لنا هذه الفريضة أن ندعي أنه إذا كان محمد قد ألمح إلى معتقداته الدينية، فإن المشكلة الحقيقية كانت سياسية، ربما اقترح عقد محالفة حياد، وربما أراد مجرد منع المكيين من الحصول على المساعدة الخارجية»(٢).

وقد أضاف وات إلى هذه الأهداف أهدافاً أخرى في كتابه: «محمد نبيّاً ورجل دولة» حيث النبي ﷺ يراسل هؤلاء الملوك من أجل المفاوضة في أمر المسلمين المهاجرين إلى الحبشة، أو الزواج من أم حبيبة، أو طلب جاريتين من مصر(٣).

وبهذه النقول يستبين أن هذا القسم الأكبر من المستشرقين قد أنكر أصولية التوجهات العالمية للدعوة الإسلامية، وتوارث القائلون بهذا الرأي الأدلة التي استخدموها في البرهنة على مواقفهم، والحقيقة أن هذا الإجراء الاستشراقي غريب حقاً على منهج البحث العلمي، خصوصاً في موضوع واضح مثل هذا، حيث تؤكد الكثير من الأدلة القرآنية مبدأ العالمية في أكثر من موضع، ومنها:

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ويقول ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: ٢٨]، وقد وعد الله ﷻ رسوله ﷺ بالغلبة على كل الأديان فقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ٩﴾ [الصف: ٩]، كما بيَّن الله تعالى في مواضع متعددة شمول الدعوة إليه، ووجوب

(١) Mahomet prophete et H. d'Etat-P. 170.

(٢) محمد في المدينة: ص٦٢.

(٣) Mahomet Prophete et H. d' Etat-P. 171.

استجابة كل الخلق لرسالته فقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

إن مجرد عرض هذه الآيات كاف في أن يتبنى أي باحث القول بعالمية الإسلام منذ لحظاته الأولى، ولذلك ذهب عدد من المستشرقين إلى تقرير هذه الحقيقة:

ومن هؤلاء المستشرقين الألمانيين نولدكه وساخاو (١٩٣٠م)، وقد قال هذا الأخير: «إن الرسالة الإلٰهية ليست مقصورة على العرب، بل إن إرادة الله تشمل جميع المخلوقات، ومعنى ذلك خضوع الإنسانية كلها خضوعاً مطلقاً»(١).

وأكد ذلك جولدزيهر الذي قال في موضوع إحساس النبي ﷺ بالمدى المكاني لرسالته: «هل كان يشعر في قرارة نفسه أنه نبي وطني أو نبي أرسل للناس كافة؟ أعتقد أننا نستطيع أن نأخذ بوجهة النظر الثانية، ولا يمكن أن يكون الأمر على خلاف ذلك. إنه ردد أولاً دعوة الله التي أحسها في قرارة نفسه... في الوسط المباشر الذي تفتح فيه الشعور برسالته النبوية فأدركها، ويتبين ذلك مما جاء في القرآن: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء: ٢١٤]».

ولكن مما لا شك فيه أن نظرته الداخلية قد امتدت منذ أول رسالته إلى مدى أوسع وأفق أرحب، برغم أن أفقه الجغرافي المحدود لم يكن ليترك له مجالاً للتفكير في وضع خطة أولية لدين عالمي، فمنذ بدء الأمر كانت فكرته عن رسالته أن الله أرسله رحمة للعالمين. وهناك جملة تكررت كثيراً في القرآن، وهي وصف التعاليم الإلٰهية بأنها ﴿ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ١٠٤، وصٓ: ٨٧]، وكلمة ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ لها في القرآن دائماً معنى عالمي، فالله ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾، وقد جعل ما أراده من اختلاف الألسنة والألوان آيات ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، إذ المقصود هو الإنسانية بأوسع معانيها(٢).

وقد أضاف جولدزيهر إلى دلالة القرآن الكريم الأدلة الحديثية فقال: إننا نجد أن «المتوافر من الأحاديث الإسلامية نفسها يعبر عن إدراك النبي بأن رسالته موجهة إلى الجنس الإنساني بأسرة... وبحسب هذه الأحاديث نرى النبي قد عبَّر

---

(١) الدعوة إلى الإسلام: توماس أرنولد، ص٤٨.

(٢) العقيدة والشريعة في الإسلام، ص٣١.

عن فكرته في فتح العالم بأقوال واضحة، وتنبَّأ بأعمال رمزية، وبعض هذه الأحاديث ترى أن في القرآن نفسه وعداً بفتح إمبراطورية فارس والروم»[١].

والحقيقة أن جولدزيهر قد بحث هذه المسألة بشكل جيد، حيث جمع عدداً كبيراً من النصوص والأدلة التي تؤكد التوجهات العالمية للرسالة الإسلامية منذ بدء الدعوة، ومن ذلك غزوات النبي ﷺ نحو الشمال، ووصيته بإتمام غزو أسامة بن زيد للشام، وهي النصوص والشواهد التي اعتمد عليها غيره من المستشرقين في تأكيد الحقيقة نفسها، فقالت لورا فاغليري:

«إن الآية القرآنية التي تشير إلى عالمية الإسلام بوصفه الدين الذي أنزله الله على نبيِّه ﴿رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧] هي نداء مباشر للعالم كله، وهذا دليل ساطع على أن الرسول قد شعر في يقين كلي أن رسالته مقدر لها أن تتجاوز حدود الأمة العربية، وأن عليه أن يبلغ الكلمة الجديدة إلى شعوب تنسب إلى أجناس مختلفة... وثمة دليل آخر على هذا الشعور نفسه في الحديث النبوي: «**بعثت إلى كل أحمر وأسود**»... بل إننا نجد دليلاً إضافيّاً في الإشارة إلى الفتوح المستقبلية وراء تخوم بلاد العرب، وأخيراً في الاتصالات التي بدأ محمد نفسه القيام بها مع البلدان الأجنبية»[٢].

ونظراً لوضوح الأدلة على أصولية العالمية الإسلامية أبدى سير توماس أرنولد تعجبه من إنكار «بعض المؤرخين أن الإسلام قد قصد به مؤسسه، (منذ) بادئ الأمر، أن يكون ديناً عالميّاً».

وقد ذهب إلى تأكيد هذا المبدأ بقوله: «لم تكن رسالة الإسلام مقصورة على بلاد العرب، بل إن للعالم أجمع نصيب فيها، ولم يكن هناك غير إله واحد، كذلك لا يكون هناك غير دين واحد يدعى إليه الناس كافة»[٣].

ويجب أن نقرر هنا أن تعجب سير أرنولد في محله، خصوصاً عندما نستعرض منهج بلاشير ووات مثلاً ـ ونستطيع تعميم ما سنقوله هنا على عدد كبير من المستشرقين ـ فنرى أن كليهما كان يغلب جانب القرآن الكريم في كل قضية

---

(١) المرجع السابق، ص٣٢.

(٢) دفاع عن الإسلام، ص٢٤، ٢٥.

(٣) الدعوة إلى الإسلام، ص٤٨.

يبحثها، ولكنهما توقفا ـ فجأة ـ عن اعتماد الأسباب العميقة التي دفعتهما إلى هذا الإجراء، والتي تكمن في التناقض بين الأدلة التي تؤكد وجود مبدأ العالمية في الإسلام منذ لحظاته الأولى، وبين نظريتهما حول تطور وعي النبي ﷺ برسالته تبعاً لتغير محيطها، وقد دفعهما هذا إلى إخفاء الأدلة التي تؤكد عكس ما يذهبان إليه حتى لا تتحطم النظرية، ويؤكد ما ذهبنا إليه عدم عرض أحدهما للآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي استند عليها غيرهما من المستشرقين عند بحثهما للموضع، ويؤدي بنا هذا إلى التأكيد على علم كايتاني ولامنس وبلاشير ووات وغيرهم بمجمل الأدلة التي استخدمها غيرهم، ولكنهم جميعاً رفضوا ـ متعمدين ـ الاستناد عليها أو مجرد عرضها؛ لأنها تؤدي إلى إثبات معرفة النبي ﷺ التامة بمحتوى وحدود رسالته منذ اتصل بالملأ الأعلى، وهو أمر يناقض نظريتهم حول وعيه التدريجي بالدين الذي كان يدعو إليه، وتعلمه التدريجي عن اليهود والنصارى[١].

وقد أضاف وات إلى المنهج الذي اتبعه زملاؤه، منهجاً جديداً يتمثل في تفسير التوجهات العالمية الجديدة للإسلام بالأسباب السياسية، فذهب إلى الإكثار ـ وإن كان هذا منهجه في مجمل عمله ـ من الإحالة إلى العبقرية (السياسية) للنبي، والأسباب (السياسية) التي كانت تحرك مسعاه، والمصالح (السياسية) التي كان يهدف إلى تحققيها من وراء مراسلاته لملوك العالم.

وإذا عدنا الآن إلى تحقيق موضوع مراسلات النبي ﷺ إلى ملوك الدنيا في زمانه، فلا بد أن نؤكد منذ البدء أن تركيز المستشرقين المنكرين لشمولية الرسالة الإسلامية على إنكار صحتها يستجيب لغرضهم بتحويل الانتباه عن الأدلة الكثيرة التي تجعل مبدأ العالمية حقيقة من حقائق الإسلام، ويبدو أن هؤلاء قد فشلوا في تحقيق مسعاهم، كما يدل على ذلك استنكار عدد كبير من المستشرقين لموقفهم.

لقد أنكر بلاشير تاريخية هذه الرسائل لطابعها الخرافي، وإننا نؤكد هنا عدم احتواء أية رسالة من الرسائل التي هي موضوع بحثنا على شيء أكثر من الدعوة إلى الإسلام[٢]، وإنكارها بدعوى لا معقولية محتواها الدعوي، واستبعاده أن

---

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٥١٨ ـ ٥٢٤.

(٢) انظر: الروض الأنف: السهيلي (٢٤٨/٤).

يسلم الملوك الذين راسلهم النبي، يجعلنا نتساءل: منذ متى منعت الردود المستنكرة والإجابات المستهجنة والأفعال القبيحة النبي ﷺ من تبليغ دعوته حتى يمنعه يأسه من إسلام هؤلاء الملوك من مراسلتهم؟.

لقد كان النبي ﷺ يعتقد اعتقاداً جازماً بمسؤوليته عن دعوة جميع الناس بما فيهم هؤلاء الملوك ـ وخصوصاً لأنهم ملوك ـ إلى الإسلام، وكان يعلم يقيناً أنه ليس مسؤولاً عن الاستجابة، بل عن الدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الغاشية: ٢١، ٢٢]، وفي ضوء هذا العلم النبوي فقد دعاهم إلى الإسلام، وهو يأمل في إيمانهم، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن مهتماً ببقائهم على الباطل ما دام قد أدى واجب الدعوة نحوهم.

على أن توماس آرنولد يضيف هنا قائلاً: «إن كانت هذه الكتب قد بدت في نظر من أرسلت إليهم ضرباً من الخرق، فقد برهنت الأيام على أنها لم تكن صادرة عن حماسة جوفاء»[(١)].

وقد حاول وات أن يخلط بين هذه الرسائل الدعوية، وبين غيرها من المراسلات التي قد يكون النبي ﷺ قد أرسلها إلى عدد من الملوك.

ونحن لن نذهب إلى إنكار إمكانية تعدد مراسلات النبي إليهم، فقد أورد ابن كثير مثلاً رواية عن رسالة إلى قيصر في رجب سنة (٩) للهجرة[(٢)]، ومن المحتمل أن هناك رسائل أخرى لم تبلغنا نصوصها، وقد يكون موضوعها شكره عليه الصلاة والسلام للنجاشي على إكرامه للمسلمين... أو غير ذلك من الأسباب. ولكن محاولة الإيهام بالغرض الدنيوي للرسائل الدعوية لا يستند على أي دليل، وليس له أي مبرر علمي. وإن أرض العرب لم تخل يوماً من النساء ـ أو الجواري ـ حتى يكون هذا سبباً ليبعث الرسول للمقوقس من أجل استجلاب جاريتين.

ومن المؤكد أن المشركين القرشيين أو غير القرشيين لم يستعينوا في يوم ما بالدول والإمبراطوريات المحيطة بأرضهم لطلب نصرتها على المسلمين، فيعمل

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص٤٩.
(٢) سيرة ابن كثير (٢/ ٢٧٧).

النبي ﷺ على قطع الطريق عليهم بمحاولته عقد تحالفات معها. وأقصى ما ورد في المصادر حول مساعي قريش ضد المسلمين خارج أرض العرب لا تبلغ درجة استعداء القوى الخارجية عليهم، بل إن في قصة وفد قريش إلى النجاشي دليلاً على عكس ذلك، حيث لم يطالب وفدها بأكثر من رد المسلمين إلى بلادهم ليحاسبوا هناك؛ أي: أن قريشاً قد اعتبرت الأمر موضوعاً داخليّاً بحتاً(١).

ومما يثبت تاريخية هذه الرسائل النبوية إلى الملوك، شيئان:

أولاً: إجماع المؤرخين المسلمين على أمر إرسال النبي ﷺ عدداً من أصحابه إلى قيصر الروم، وكسرى فارس، ونجاشي الحبشة، وأمير مصر، وملك حمير، وملك اليمن، وملكي اليمامة، وملك البحرين، وأمير غسان. كما أجمعوا على أن موضوع رسائله كان دعويّاً، فقد خرج النبي ﷺ يوماً إلى أصحابه وقال لهم: «**إن الله بعثني رحمة وكافة، فأدّوا عني يرحمكم الله**»(٢)، ثم أرسل رسله إلى العالم.

وقد وجدت هذه الرسائل مكتوبة، كما تم نقلها بالرواية، واستوثق منها العلماء فقال ابن إسحاق: «حدثني يزيد بن حبيب المصري أنه وجد كتاباً في ذكر من بعث رسول الله ﷺ إلى البلدان وملوك العرب والعجم، وما قال لأصحابه حين بعثهم... فبعثت به إلى محمد بن شهاب الزهري فعرفه»(٣).

ولم يختلف علماءنا إلا في تاريخ هذه الرسائل، فقد جعلها البيهقي بعد مؤتة؛ أي: في السنة الثامنة للهجرة، وجعلها الواقدي في ذي الحجة أخر سنة ست، بعد عمرة الحديبية(٤)، وجعلها ابن هشام بعد فتح مكة، كما نستنتج ذلك من حديثه عنها بعد حديثه عن فتح مكة وحنين(٥)، أما ابن إسحاق، فلم يحدد لها تاريخاً دقيقاً، بل جعلها بين الحديبية ووفاة النبي عليه الصلاة والسلام.

والأقرب توجيهه ﷺ لهذه الرسائل بعد الحديبية وقبل مؤتة؛ أي: أن تاريخها تقريباً بين ذي القعدة سنة ست للهجرة وجمادى الأولى سنة ثمان

---

(١) انظر فيما تقدم: نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٢٥.
(٢) سيرة ابن هشام (٦/ ١٣).
(٣) المرجع السابق (٦/ ١٣).
(٤) سيرة ابن كثير (٢/ ١٥٢).
(٥) سيرة ابن هشام (٦/ ١٢).

للهجرة، وقد جعلناها بعد الحديبية نظراً لانعدام أي رواية عن مراسلات سابقة على هذا التاريخ، إضافة إلى كون صلح الحديبية كان مرحلة جديدة استغلها النبي ﷺ في الدعوة، وذلك بعد أمنه من خطر قريش. وأما تحديدنا لتاريخها بمرحلة قبل مؤتة، فلأنه ليس من عادة النبي ﷺ أن يبدأ قوماً بالحرب قبل أن يدعوهم للإسلام، وقد أرسل حملة ضد الروم في جمادى الأولى من سنة ثمانية، وهذا دليل على توجيه الرسالة إلى قيصر قبلها.

ثانياً: أما الدليل الثاني، فقد سبق أن ذكرنا جزءاً منه في آخر العنصر السابق، ويتمثل في أن انتقال النبي إلى الحرب دليل على إعلانه للدول المحيطة ضرورة الإيمان به، ولما لم يأت رد يبيِّن إسلامهم فقد انتقل مباشرة إلى الخطوة التالية، وهي استعمال القوة التي تفرض عليهم الإذعان لسلطة الإسلام أو الحرب. وبالفعل فقد شهدت الحدود البيزنطية وصول أول حملة إسلامية إليها في سنة ثمان للهجرة، ثم تلتها غزوة تبوك التي قادها النبي ﷺ بنفسه سنة تسع، وقد يعتقد البعض أن إعلان الفرس باستعمال القوة قد تأخر إلى عهد الخلفاء، ولكن المصادر تبيِّن لنا أن هذا الأمر تم في عهد النبي ﷺ نفسه وإن كان ذلك بشكل محتشم، وهكذا شهدت الحدود الفارسية ـ سنة (٩هـ) ـ وصول حملة عبد الرحمٰن بن عوف إلى دومة الجندل[١]. وشهدت المنطقة الجنوبية قدوم رسل ملوك حمير يعلنون فيها إسلامهم[٢][٣].

وهكذا فإن رسالة الإسلام التي جاء بها محمد ﷺ من عند الله لما كانت آخر الرسالات الإلٰهية كان من الضرورة الشرعية والعقلية أن تكون شاملة لكل زمان ومكان لإيصال دين الله تعالى ونور الوحي الإلٰهي إلى الناس أجمعين. ولهذا يقول المستشرق الفرنسي المسلم نصر الدين (دينيه):

«إن الإسلام، الذي أصبح يجمع أناساً من مختلف الأجناس، والذي يقول بأن الله يملأ الكون، لم يكن ليقتصر على بلاد العرب وحدها، بل كان عليه أن يشمل العالم أجمع، إذ قيل في كتاب الله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا

---

(١) المرجع السابق (٤/ ٢٤٢).

(٢) المرجع السابق (٤/ ٢٤٦).

(٣) انظر فيما تقدم: نبوة محمد ﷺ، ص٥٢٦ ـ ٥٢٧.

وَنَذِيرًا ﴿٢٨﴾ [سبأ: ٢٨]. ولذلك بعث محمد بالرسل إلى أعاظم ملوك المشرق والمغرب مزودين تعرض عليهم اعتناق الإسلام دين الله الذي لا إله غيره...»[1].

---

(١) محمد رسول الله، ص٢٩٢.

المبحث الثالث

نسخ الرسالات السابقة برسالته ﷺ

دين الله في حقيقته واحد، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده والإخلاص له في ذلك، وهذا المفهوم للدين جاءت به الرسل جميعاً، وتعاقبت عليه، وهو عهد أخذه تعالى على كل رسول من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى خاتم الرسل ﷺ. ولكن كما كان دين الأنبياء والمرسلين ديناً واحداً، وأمتهم أمة واحدة، كان لكل واحد منهم شرعة ومنهاج.

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ﴾ [المائدة: ٤٨].

فهذه الحقيقة أعلنها القرآن وهي تدحض شبه المارقين والماديين الذين ينكرون الأديان بسبب اختلافها، ويدّعون أن كل نبي يأتي من عنده بدين يناقض سابقيه، وهذا ادعاء كاذب مجاف للواقع، ولا يمت إلى حقيقة الأديان بصلة، فالدين واحد في أصوله، ولكن تختلف الأديان في تشريعاتها لاختلاف أحوال الأمم الاجتماعية ودرجة استعدادها العقلي.

لقد كانت الرسالات قبل رسالة محمد ﷺ رسالات محلية، قومية، محدودة

بفترة من الزمان ـ ما بين عهدي رسولين ـ وكانت كل رسالة تتضمن تعديلاً وتحويراً في الشريعة، يناسب تدرج البشرية، وكانت البشرية تخطو على هدي هذه الرسالات خطوات محدودة، حتى جاءت رسالة محمد بن عبد الله ﷺ إلى الإنسانية كلها، وختم الله سبحانه بها جميع الرسالات السماوية، وجعلها ناسخة لها، وأتم بها نعمته على العالمين، واختار الأمة المسلمة؛ لتتلقى تراث الرسالة كله، وتقوم على دين الله في الأرض(١).

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت، ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار**»(٢). وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [آل عمران: ٨١، ٨٢].

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «يخبر تعالى أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم عليه الصلاة والسلام إلى عيسى عليه الصلاة والسلام لما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أيَّ مبلغ، ثم جاء رسول ـ من بعده ـ ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته؛ ولهذا قال تعالى وتقدس: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ الآية، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عمر وابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيّاً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد ﷺ وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه. وقال طاوس والحسن البصري وقتادة: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً، وهذا لا يضاد ما قاله علي وابن عباس ولا ينفيه بل يستلزمه ويقتضيه»(٣).

وروى الإمام أحمد رحمه الله بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قيل لرسول الله ﷺ: أيُّ الأديان أحب إلى الله؟ قال: «**الحنيفية السمحة**»(٤).

---

(١) انظر: الرسل والرسالات: للأشقر، ص٢٣٩.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تفسير ابن كثير (٢/ ٦٧ ـ ٦٨).

(٤) تقدم تخريجه.

لقد جمعت الشريعة الخاتمة محاسن الرسالات السابقة، وفاقتها كمالاً وجلالاً. وفي هذا يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

«إن القرآن قرر ما في الكتب المتقدمة من الخبر عن الله وعن اليوم الآخر، وزاد ذلك بياناً وتفصيلاً، وفصّل الأدلة والبراهين على ذلك، وقرر نبوة الأنبياء كلهم ورسالة المرسلين، وقرر الشرائع الكلية التي بعث بها الرسل كلهم، وجادل المكذبين بالكتب والرسل بأنواع الحجج والبراهين، وبيَّن عقوبات الله لهم، ونصره لأهل الكتب المتبعين لها، وبين ما حرِّف منها وبدِّل، وما فعله أهل الكتاب في الكتب المتقدمة. وبيَّن أيضاً ما كتموه مما أمر الله ببيانه، وكل ما جاءت به النبوات بأحسن الشرائع والمناهج، التي نزل بها القرآن، فصارت له الهيمنة على ما بين يديه من الكتب من وجوه متعددة، فهو شاهد بصدقها وشاهد بكذب ما حرف منها، وهو حاكم بإقرار ما أقره الله، ونسخ ما نسخه، فهو شاهد في الخبريات حاكم في الأمريات، ومن تأمل ما تكلم به الأولون والآخرون في أصول الدين والعلوم الإلٰهية، وأمور المعاد والنبوات والأخلاق والسياسات والعبادات، وسائر ما فيه كمال النفوس وصلاحها وسعادتها ونجاحها، لم يجد عند الأولين والآخرين من أهل النبوات ومن أهل الرأي كالمتفلسفة وغيرهم إلا بعض ما جاء به القرآن»[1].

نستخلص مما تقدم أن الإسلام هو آخر الشرائع الإلٰهية إلى البشر، وأن محمداً ﷺ خاتم النبيين، وأن شريعة الإسلام ودعوته خالدتان، فليست شريعة الإسلام موقوتة بوقت مستقبل محدود، يقف عنده وجوب تطبيقها لإصلاح الحياة البشرية، بل هي رسالة عامة للبشرية كلها، رسالة خاتمة أنزلت على خاتم الأنبياء والرسل. رسالة تخاطب فطرة الإنسان التي لا تتبدل ولا تتحور، ولا ينالها التغيير ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠] وقد فصلت هذه الرسالة شريعة تتناول حياة الإنسان من جميع أطرافها، وفي كل جوانب نشاطها تحتوي على كل ما يحتاج إليه، منذ تلك الرسالة إلى آخر الزمان.

وبرهان آخر على نسخ الشريعة الإسلامية للشرائع السابقة، في قول الله

(١) مجموع الفتاوى (١٧/ ٤٤ ـ ٤٥).

تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾ [البقرة: ٤٠، ٤١].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم﴾ [النساء: ٤٧].

فأهل الكتاب مأمورون بالإيمان بمحمد ﷺ، وبالكتاب الذي أنزل عليه، وألا يسارعوا إلى الكفر به، فيصبحوا أول الكافرين، وكان ينبغي أن يكونوا أول المؤمنين. ولا يحكم عليهم بالكفر إلا إذا كانت الشريعة الإسلامية ناسخة لشرائعهم.

وبهذا فإن الإيمان بأن محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء والمرسلين، فلا نبي بعده، قد اصطفاه ربه لإبلاغ آياته وحمل رسالته، وأن أقواله وأفعاله وتقريراته وأخلاقه بل ونواحي حياته كلها تعد ركناً في الدين وشريعة للمؤمنين، والمسلم مكلف بأن يبذل وسعه في معرفة ما جاء به والعمل به، وتقديمه على غيره، ورد كل ما سواه، والإيمان بأن الشريعة الإسلامية هي الرسالة الأخيرة إلى البشر، بل إلى الثقلين جميعاً، أراد بها منزلها جلَّ وعلا أن تكون كذلك شريعة عامة خالدة، وشريعة مثالية محكمة، قد أتت بالمبادئ التشريعية والخلقية، التي تسمو بالإنسان إلى أعلى درجات الكمال، وتضمن له إن هو عمل بمقتضاها وسار على منهجها خيري الدنيا والآخرة(١).

موقف المستشرقين:

إن المتأمل في مواقف المستشرقين من نبوته ﷺ وإنكار جمهورهم لها باستطاعته أن يستنتج كيف هي حالهم ومواقفهم تجاه مسألة نسخ شريعة الإسلام للشرائع السابقة، وأن الإنكار لهذه المسألة سيكون هو الحصيلة اليقينية لكل من شكك في أصل نبوته ﷺ أو صحة رسالته، وهذا هو واقع الحال الذي كانت عليه مواقف جمهور المستشرقين بل إننا نجد أن غالب المستشرقين لم يتعبوا أنفسهم

(١) حتمية تطبيق شرع الله: د. صالح بن غانم السدلان، ص١٩٥ ـ ٢٠١.

كثيراً حتى في المناقشة والتحليل لهذه المسألة كما فعلوا في مسائل أخرى تتعلق بنبوته ﷺ.

واللافت في هذه المسألة أن من ينظر في كتابات جمهور المستشرقين سيجد أنهم اتخذوا في هذه المسألة موقفاً مضاداً لهذا المعتقد الإسلامي في نسخ الشرائع السابقة يتضح ذلك في محاولتهم إثارة الشبهات حول بعض النصوص ليستدلوا بها على أن النبي ﷺ لم يكن يرى بطلان الشرائع السابقة ـ وخصوصاً النصرانية منها ـ بل إنه كان يرى صحة ما هم عليه، وأن هذا الرأي قد تغيَّر ـ على حد زعم بعضهم ـ بسبب الخلافات السياسية بين النبي ﷺ وبين اليهود والنصارى.

وممن أيد هذا الاتجاه المستشرق الروسي سولوفيوف، وذلك في النقاط التالية:

أ ـ حاول سولوفيوف ضمن حديثه عن الوحي والدعوة أن يركِّز على أن الرسول ﷺ وصف الإسلام بأنه دين كل الرسل ونفى عن نفسه أن يكون مؤسس هذا الدين، وفي هذا الصدد أشار إلى مكانة نبي الله إبراهيم عليه السلام في القرآن الكريم حيث قال: إن محمداً ادعى أن الإسلام دين إبراهيم، وكان يأمل بهذا أن يجعل دعوته مقنعة وملزمة لأتباع موسى والمسيح الصادقين. وكان يريد أن يوحِّد بين أديان التوحيد ويُرْجِعها إلى أصلها.

ب ـ زعم سولوفيوف أن محمداً ﷺ لم يُلزم أهل الكتاب بالدخول في الإسلام وإنما ألزمهم التمسك بكتبهم. وفي هذا يقول: إذا فرضنا أن محمداً لم يبدل أفكاره فلماذا طالب اليهود والنصارى بقبول القرآن شرطاً للنجاة، وأوجب عليهم فقط تطبيق أحكام شرائعهم. هكذا يعرض سولوفيوف موقف الإسلام من الأديان التي يحسبها أديان التوحيد.

ت ـ ثم يقول: إن القرآن كتاب للعرب، ولا ينسخ التوراة والإنجيل لمن أنزل إليهم، ولكن ينسخهما للعرب، فالأحكام الدينية تبقى ثابتة للأمم التي أنزلت إليها، ويحاسبون على أساسها في الدنيا والآخرة. وقد استدل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]، وقوله: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ

﴿ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٧]، وقوله: ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [النحل: ٣٩][1].

كما ذهب درمنغم في حديثه عن علاقة النبي ﷺ بأهل الكتاب والنصارى منهم على وجه التحديد إلى التأكيد على هذه المسألة، وهي موافقة النبي ﷺ للنصارى في كثير من الأمور، وأنهم ـ أي: النصارى ـ كانوا محل اهتمام بل وعطف النبي ﷺ في جوانب كثيرة، كما يقول:

«ولم يُخفِ محمد من عطفه على النصارى، فالقرآن مملوء بالشواهد على ذلك فضلاً عما جاء في سورة الروم حول الحروب الرومية الفارسية، وكان يرى المثال في الشهداء نصارى القرون القديمة وفي شهداء نصارى القرون الأخيرة في اليمن (شهداء الأخدود)، وكان يثني على القسيسين والرهبان الذين رأى فضائلهم في تخوم الشام، وقد سرَّه ما أسفر عنه انتصار الروم من عدم هدم كنائس النصارى وبيعهم التي ﴿يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾، وكان محمد يرى في أهل الكتاب الحلفاء الذين يؤيدون ما يقول ويؤمنون بالحق الذي يدعو إليه، والذين ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة: ٨٣، ٨٤].

وكان محمد يتخذ انضمام حملة العلم من أهل الكتاب إليه دليلاً على صدق الإسلام وبطلان دعوى المشركين... ولم ينفك محمد عن مجاملة النصارى حتى بعد أن قاطع اليهود، فكان لا يألوا جهداً في أن يكون له أطيب الصلات بالروم والأحباش والمصريين مقتصراً في الحمل على المشركين واليهود الذين أنكر عروبتهم لا عروبة النصارى. جاء في القرآن: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢]. ذلك نص صريح، وفي القرآن ما فيه نجاة لليهود والنصارى والصابئين كالمسلمين إذا ما عملوا الصالحات وآمنوا بالله واليوم الآخر. جاء في القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

(١) انظر بحث: «الأخطاء العقدية في ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية» تأليف إلمير رفائيل كولييف، ص٨ ـ ١٩.

وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [البقرة: ٦٢]. . .»[1].

ثم يضيف درمنغم مؤيداً حديثه السابق:

«وقد أباح القرآن للمسلمين نكاح النصرانيات، وأحل للمسلمين طعام النصارى فكان ذلك دليلاً على معنى الإخاء الخالص كما ذكر ذلك المصلح العصري محمد عبده، وليس بعسير أن يجد الباحث في القرآن أصول النصرانية على الرغم من بعض الظواهر، كخطيئة آدم الأصلية وإخراج آدم من جنة عدن لأنه أكل من الشجرة المنهي عنها، وتضامن البشر، وطرد إبليس من الجنة لأنه أبى السجود لآدم، ورسالة نوح وإبراهيم وموسى والأنبياء، والكتب المنزلة والملائكة الحافظين والمسيح الدجال وآخر الزمن والبعث والحساب. ويبدو الإسلام في هذا كله أقرب إلى النصرانية منه إلى اليهودية»[2].

ثم يقول بعد ذلك:

«والقرآن يستشهد بالتوراة والإنجيل على الدوام، وما كان للقرآن أن يناقضها لذلك، والقرآن يفسر بهما، وفي القرآن: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤]، وفي القرآن ذكر لبعض ما جاء في الكلام المنزل قبله وتوكيد له وترنم به، وفي القرآن توقع للاتحاد في شخص إبراهيم الذي هو أبو المؤمنين: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران: ٦٧]»[3].

أما المستشرق مونتغمري وات ـ صاحب شعار الموضوعية في كتاباته ـ فبدلاً أن يقر بصراحة النصوص الإسلامية في مخالفة شريعة النصارى وعقائدهم المحرفة، يدعي أن التحريف أو كما يزعم «التنقيح» قد لازم هذه النصوص، كما يقول:

«يجب علينا أن نستنتج، على ضوء موقف المسلمين الطيب من المسيحيين في وقت كان فيه المسلمون أعداء لليهود، أن كثيراً من الآيات التي ترجع لأول

(١) حياة محمد، ص١٠٥ ـ ١٠٦.
(٢) المرجع السابق، ص١٠٦ ـ ١٠٧.
(٣) المرجع السابق، ص١٢٠.

الفترة المدنية والتي تنتقد اليهود والمسيحيين كانت في الأصل موجهة ضد اليهود. ففي السورة الثانية مثلاً الآيات ١٢٩ ـ ١٣٥ و١٤١[1]، يمكن حذف الإشارة إلى المسيحيين بحذف بعض الكلمات، وهناك شك قوي في أن تكون هذه الآيات قد (نقحت) فيما بعد حتى يمكن تطبيقها على اليهود والمسيحيين. ويحتوي القرآن طبعاً على انتقادات للعقائد التي كان المسلمون يعتقدون أنها مسيحية. والمسألة الأساسية التي يوضحها القرآن هي أن المسيح وأمه ليسا إلٰهين. لأن المسيح كائن مخلوق كسائر المخلوقات[2].

وخلاصة ما يصبوا إليه هؤلاء المستشرقون هو محاولة إنكار الفوارق بين الإسلام والنصرانية فضلاً عن أن يكون الإسلام ناسخاً لشريعة النصارى التي طرأ عليها شتى أنواع التحريف والتبديل متمسكين بذلك ببعض النصوص من القرآن ظنوا فيها ـ بقصد أو من غير قصد ـ أنها مؤيدة لشريعة النصارى وما هم عليه من معتقدات.

الرد على هذه الشبهة:

قبل أن نشرع في الرد على هذه الشبهة فإنه يحسن التنبيه إلى أن هذه المقولات التي ذكرها هؤلاء المستشرقون وغيرهم هي في الحقيقة ليست حديثة النشأة بل هي مما تداوله أهل الكتاب فيما بينهم منذ عهد الرسالة إلى عصرنا الحاضر.

فقد ردد بعض أتباع اليهودية والنصرانية في بعض بقاع الجزيرة العربية كالمدينة، وخيبر، ونجران الادعاء بأن في القرآن ما يشهد لصحة معتقدهم. وما إن تبيَّنت قوة الإسلام والمسلمين في الجزيرة العربية حتى بدأت وفود القبائل العربية

---

(١) لعل وات يقصد الآيات (١٣٥ ـ ١٤٠) من سورة البقرة فهي أقرب إلى مقصوده، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً ۖ وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾.

(٢) محمد في المدينة، ص٤٨٤ ـ ٤٨٥.

تفد إلى رسول الله ﷺ من مختلف أنحاء الجزيرة، وكان من أوائل هذه الوفود وفد نصارى نجران الذين جادلوا رسول الله ﷺ زاعمين أن القرآن يدل على التثليث، وعلى ألوهية عيسى عليه السلام وأنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً[(١)].

وبذلك كانوا أول من سلك هذا الطريق المضل من النصارى في حياة الرسول ﷺ، وقد ذكر ابن هشام: «أن الله ﷻ أنزل في ذلك من قولهم؛ (أي: زعمهم دلالة القرآن على ألوهية عيسى عليه السلام والتثليث وبنوته) واختلاف أمرهم: صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها»[(٢)].

هذا فيما يتعلق ببداية الافتراء على كتاب الله من النصارى وادعاء أنه يؤيد بعض اعتقاداتهم. أما من حيث كتابة المنصرين والنصارى لذلك في مؤلفاتٍ فإن من أقدم ما كتبوه في ذلك ما يعود إلى أواخر القرن الثاني وأوائل القرن الثالث الهجري، وهي «رسالة عبد المسيح بن إسحاق الكندي إلى عبد الله الهاشمي»، ثم تتابعت بعد ذلك الكتب والرسائل التنصيرية التي زعمت أن كتاب الله يؤيد بعض معتقدات النصارى، أو بنوته، أو التثليث، أو صلب المسيح، أو أن القرآن يدل على صحة كتب النصارى وأنها ليست محرفة، إلى غير ذلك من مزاعم وافتراءات على كتاب الله أرادوا بها تحقيق أهدافٍ عدة منها:

أولاً: إبعاد النصارى عن الإسلام بزعم أن القرآن يؤيدهم على ما هم فيه من معتقدات باطلة، وأن ما في القرآن موجود في التوراة والإنجيل فَلِمَ الإسلام ما دام الأمر ـ في زعمهم ـ كذلك؟.

ثانياً: الطعن في القرآن وبلبلة اعتقادات المسلمين، وإبعادهم عن دينهم، توطئةً لتنصيرهم من خلال القرآن نفسه، بحجة أن ما عليه النصارى ليس باطلاً فضلاً عن أن يكون كفراً، لما زعموه من تأييد القرآن لهم.

ومن أهم المؤلفات النصرانية التي انتهجت الأسلوب الآنف الذكر ما يلي:

١ ـ «رسالة عبد المسيح إلى الهاشمي يرد بها على الهاشمي ويدعوه إلى النصرانية» وذلك في عصر الخليفة المأمون (ت٢١٨هـ)[(٣)].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٦٠)، وتفسير ابن كثير (٢/ ٥٠).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٥١).
(٣) تقدم التعريف بها.

٢ ـ «رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها» في عصر الباجي رحمه الله (ت٤٧٤هـ)[١].

٣ ـ «رسالة حنا مقار العيسوي إلى أبي عبيدة الخزرجي»، في عصر أبي عبيدة الخزرجي من فقهاء الأندلس (ت٥٨٢هـ)[٢].

٤ ـ «الكتاب المنطيقي الدولة خاني المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأي المستقيم» لبولس الراهب ـ أسقف صيدا ـ الأنطاكي، والذي رد عليه شيخ الإسلام ابن تيمية (ت٧٢٨هـ) في كتابه العظيم: «الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح» وكان مما تضمنه كتاب بولس هذا في فصله الثاني كما يذكر شيخ الإسلام: «دعواهم أن محمداً ﷺ أثنى في القرآن على دينهم الذي هم عليه، ومدحه بما أوجب لهم أن يثبتوا عليه»[٣].

٥ ـ «مفتاح الخزائن ومصباح الدفائن» لأحد المنصرين في عهد الشيخ عبد العزيز آل معمر رحمه الله (ت١٢٤٤هـ)، وقد رد عليه الشيخ في كتاب سماه: «منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب»[٤].

٦ ـ «ميزان الحق» للقسيس فندر، في القرن الثالث عشر الهجري، التاسع عشر الميلادي، وقد رد عليه عدد من علماء المسلمين من أهمهم الشيخ رحمت الله الهندي في كتابه الشهير إظهار الحق[٥].

٧ ـ «الصلب في الإسلام» لحبيب زيات طبع سنة (١٩٣٥م).

٨ ـ «المسيحية في الإسلام» لإبراهيم لوقا. في بدايات القرن العشرين الميلادي.

٩ ـ «الإنجيل والقرآن» ليوسف درة الحداد.

---

(١) انظر: رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها: دراسة وتحقيق: د. محمد عبد الله الشرقاوي.

(٢) طبعت الرسالة ورد أبي عبيدة عليها ضمن كتاب «بين الإسلام والمسيحية»، تحقيق وتعليق الدكتور: محمد شامة.

(٣) الجواب الصحيح (١/١٠١).

(٤) انظر: منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب: للشيخ العلامة عبد العزيز بن حمد آل معمر، مقدمة المؤلف، ص١٣٩.

(٥) انظر: إظهار الحق (١/٦).

١٠ ـ «القرآن والكتاب» للمؤلف نفسه، وهو منصر لبناني معاصر[(١)].

إن هذه المؤلفات غيضٌ من فيضٍ وإلا فإن الكتب والرسائل المشابهة لما سبق بيانه كثيرة، وإن كان الغالب في العصر الحاضر اتجاه كثير من المنصرين إلى كتابة خلاصات مركزة في مطويات صغيرة مستلة من الكتب القديمة والحديثة في هذا المجال: مسايرة للعصر، ومحاولةً منهم للهجوم على المسلمين من خلال الافتراء على آي القرآن الكريم، للتأثير فيهم وبلبلة أفكارهم، سعياً لتنصيرهم. والمتوقع اليوم استغلال وسائل الاتصال الأكثر حداثة في عرض هذا الأسلوب وبخاصة الشبكة العنكبوتية[(٢)].

أما فيما يتعلق بالإجابة على مقولات المستشرقين السابقة، وزعمهم أن القرآن الكريم وسيرة النبي ﷺ في تعامله مع النصارى لم توح ببطلان ديانة النصارى فضلاً عن أن تكون ناسخة لها، فيجاب على ذلك بما ذكره علماء الإسلام ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله الذي توسع في الإجابة عن هذه المسألة في رده على بولس ـ أسقف صيدا الإنطاكي ـ الذي احتج ببعض هذه النصوص زعماً منه أنها تدل على ثناء القرآن على إنجيلهم بعد تبديله وتحريفه فيقول:

«وأما تعظيمه لإنجيلنا وكتبنا التي بأيدينا فيقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال في سورة آل عمران: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ ... مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢ ـ ٤]. وقال في سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾ [البقرة: ١ ـ ٥]، فأعني بالكتاب الإنجيل والذين يؤمنون بالغيب نحن النصارى الذين آمنا بالمسيح وما رأيناه، ثم أتبع بالقول: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۝٤﴾ [البقرة: ٤] فأعني بهم المسلمين الذين آمنوا بما أتي به وما أتي من قبله. وقال في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ

(١) انظر: افتراءات المنصرين على القرآن الكريم أنه يؤيد زعم ألوهية المسيح عليه السلام: د. علي بن عتيق الحربي، ص٥ ـ ٧.

(٢) المرجع السابق، ص٧.

يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٦، ٤٧]، وقال في سورة آل عمران: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ [آل عمران: ١٨٤]، فأعني أيضاً بالكتاب المنير الذي هو الإنجيل المقدس.

وقال أيضاً: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [يونس: ٩٤]. فثبت بهذا ما معنا ونفى عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التهم والتبديل والتغيير لما فيها بتصديقه إياها»[(١)].

وقد أجاب شيخ الإسلام عن هذه الشبهة بجواب مفصل ومما جاء فيه:

«والجواب: بعد أن تعرف أن لفظ الآية الأولى من سورة المائدة: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨]. أن يقال: أما تصديق خاتم الرسل محمد رسول الله ﷺ لما أنزل الله قبله من الكتب ولمن جاء قبله من الأنبياء فهذا معلوم بالاضطرار من دينه متواتر تواتراً ظاهراً كتواتر إرساله إلى الخلق كلهم وهذا من أصول الإيمان.

قال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾﴾ [البقرة: ١٣٦، ١٣٧]... وتصديقه للتوراة والإنجيل مذكور في مواضع من القرآن وقد قال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨]... فبيَّن أنه أنزل هذا القرآن مهيمناً على ما بين يديه من الكتب، والمهيمن الشاهد المؤتمن الحاكم يشهد بما فيها من الحق، وينفي ما حرف فيها، ويحكم بإقرار ما أقره الله من أحكامها، وينسخ ما نسخه الله منها، وهو مؤتمن في ذلك عليها، وأخبر أنه أحسن الحديث، وأحسن القصص، وهذا يتضمن أنه كل من كان متمسكاً بالتوراة

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٢٦٨ ـ ٢٦٩).

قبل النسخ من غير تبديل شيء من أحكامها، فإنه من أهل الإيمان والهدى، وكذلك من كان متمسكاً بالإنجيل من غير تبديل شيء من أحكامه قبل النسخ فهو من أهل الإيمان والهدى، وليس في ذلك مدح لمن تمسك بشرع مبدل فضلاً عمن تمسك بشرع منسوخ، ولم يؤمن بما أرسل الله إليه من الرسل وما أنزل إليه من الكتب. بل قد بيَّن كفر اليهود والنصارى بتبديل الكتاب الأول وبترك الإيمان بمحمد ﷺ في غير موضع.

وأما تأويلهم قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أنه الإنجيل و﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ [البقرة: ٣]، عني بهم النصارى، فهو من تحريف الكلم عن مواضعه وتبديل كلام الله؛ كما فعلوه في قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا﴾ [آل عمران: ٨٥]، وفي قوله: ﴿بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]؛ أي: باللاهوت وفي قوله: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]. وفي غير ذلك مما ذكروه وتأولوه من القرآن على غير المعنى الذي أراد الله به وهذا مما يؤيد أنهم فعلوا كذلك بالتوراة والإنجيل، فإنه إذا كان القرآن الذي قد عرف تفسيره والمراد به العام والخاص، ونقل ذلك عن الرسول نقلاً متواتراً حتى عرف معناه علماً يقيناً اضطرارياً فيبدلون معناه ويحرفون الكلم عن مواضعه، فماذا يصنعون بالتوراة والإنجيل ولم ينقل لفظ ذلك ومعناه؛ كما نقل القرآن، وليس في أهل تلك الكتب من يذب عن لفظها ومعناها؛ كما يذب المسلمون عن لفظ القرآن ومعناه؟.

وهؤلاء غرَّهم قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ [البقرة: ٢]، فظنوا أن لفظ ذلك لمّا كان يشار بها إلى الغائب أشير بها إلى الإنجيل. فيقال لهم: هذا كقوله: ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ۝٥٨﴾ [آل عمران: ٥٨]، وأشار بذلك إلى ما تلاه قبل هذه الآية، وقوله: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْـَٔلُوا۟ مَآ أَنفَقُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ١٠]... وقد قال: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٢، ٣]، وقد وصف النصارى بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر وأنهم كافرون ظالمون فكيف يجعلهم المتقين الذين يؤمنون بالغيب.

قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ۝٢٩﴾ [التوبة: ٢٩]. وأول التقوى تقوى الشرك وقد

وصف النصارى بالشرك في قوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١]، وقال تعالى لما ذكر المسيح: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ [مريم: ٣٧، ٣٨]، وقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧]، وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، ونهى عن موالاتهم فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقد أخبر أن الله ولي المتقين فقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُواْ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩]»[(١)].

ثم بيّن شيخ الإسلام ابن تيمية كيف أن نهي الله عن موالاتهم وما جاءت به الشريعة من المفارقة عن دين النصارى كل ذلك يبطل مزاعمهم في ثناء الله على شريعتهم المحرفة، كما يقول رحمه الله:

«فلو كانوا من المتقين فضلاً عن أن يكونوا هم المتقين لكان الله وليهم، ولكانت موالاتهم واجبة على المؤمنين، وهو قد نهى عن موالاتهم وجعل من يتولاهم ظالماً، وجعل المؤمنين بعضهم أولياء بعض، والكفار بعضهم أولياء بعض، ولهذا لما قطع الله الموالاة بين المؤمنين وبين الكافرين.

قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «**لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم**». واتفق المسلمون على أن اليهودي والنصراني لا يرث مسلماً ولو كان ابنه وأباه؛ لأن الله قطع الموالاة بينهما وقد قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: ٢٢]»[(٢)].

---

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٢٧٠ _ ٢٧٧).

(٢) المرجع السابق (٢/ ٢٧٨ _ ٢٨٤).

ثم يجيب ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ على شبهة النصارى في ثناء القرآن على إنجيلهم بقوله:

«وأما قوله في سورة المائدة: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٦، ٤٧]، فهذا ثناء منه على المسيح والإنجيل وأمر للنصارى بالحكم بما أنزل فيه؛ كما أثنى على موسى والتوراة بأعظم مما عظم به المسيح والإنجيل فقال تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [المائدة: ٤٦، ٤٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ﴾ [المائدة: ٤١]؛ أي: قائلون للكذب مصدقون مستجيبون مطيعون لقوم آخرين لم يأتوك فهم مصدقون للكذب مطيعون لمن يخالفك وأنت رسول الله. فكلٌّ من تصديق الكذب والطاعة لمن خالف رسول الله ﷺ من أعظم الذنوب.

... وإذا كان ما ذكره من مدح موسى والتوراة لم يوجب ذلك مدح اليهود الذين كذبوا المسيح ومحمداً ﷺ وليس فيه ثناء على دين اليهود المبدل المنسوخ باتفاق المسلمين والنصارى، فكذلك أيضاً ما ذكره من مدح المسيح والإنجيل ليس فيه مدح النصارى الذين كذبوا محمداً، وبدلوا أحكام التوراة والإنجيل واتبعوا المبدل المنسوخ.

واليهود توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح للنصارى، والنصارى توافق المسلمين على أنه ليس فيما ذكر مدح لليهود بعد النسخ والتبديل. فعلم اتفاق أهل الملل كلها: المسلمون واليهود والنصارى على أنه ليس فيما ذكر في القرآن من ذكر التوراة والإنجيل وموسى وعيسى مدح لأهل الكتاب الذين كذبوا محمداً ﷺ ولا مدح لدينهم المبدل قبل مبعثه. فليس في ذلك مدح لمن تمسك بدين مبدل ولا بدين منسوخ، فكيف بمن تمسك بدين مبدل منسوخ»[١].

---

(١) الجواب الصحيح (٢/ ٢٨٥ ـ ٢٩٠).

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن تحريف الإنجيل وشريعة النصارى ـ التي زعم المستشرقون أن النبي ﷺ أثنى عليها وحاول موافقتها في كثير من الأحيان ـ لم يقل بتحريف مصادرها علماء المسلمين فقط بل شهد بذلك كثير من الباحثين والمتخصصين في هذا المجال من الغربيين. ومن تلك الشهادات ما يلي:

ـ يقول المستشرق ول ديورانت: «تفيض الآداب المسيحية في القرن الثاني بالأناجيل، والرسائل والرؤى، والأعمال»[١].

فديورانت يرى أن هذه الأناجيل لا تعدوا من جهة الصياغة أن تكون كتباً أدبية لا تحمل صفة القدسية، بل هي أدب مفكك كما يقول موريس بوكاي:

ـ «. . . اللمحة العامة التي أعطيناها عن الأناجيل، والتي استخرجناها من الدراسة النقدية للنصوص، تقود إلى اكتساب مفهوم أدب مفكك تفتقر خطته إلى الاستمرار، وتبدو تناقضاته غير قابلة للحل»[٢].

ـ وأما من جهة التركيب والرواية للأحداث التي تضمنتها هذه الأناجيل، فيقول شارل جينيبر: «وتصفح الأناجيل وحده، يكفي بأن مؤلفيها قد توصلوا إلى (تركيبات) واضحة التعارض، لنفس الأحداث والأحاديث، مما يتحتم معه القول: بأنهم لم يلتمسوا الحقيقة الواقعية، ولم يستلهموا تاريخاً ثابتاً، بغرض تسلسل حوادثه عليهم، بل على العكس من ذلك: اتبع كل هواه، وخطته الخاصة في تنسيق وترتيب مؤلفه»[٣].

ومن ذلك النقد لمصادر النصارى ما وجهه المستشرق الفرنسي المسلم نصر الدين (دينيه) حيث يبدأ نقده للإنجيل من خلال لغته التي كتب بها فيقول:

«أما أن الله سبحانه قد أوحى الإنجيل إلى عيسى بلغته ولغة قومه، فالذي لا شك فيه إن هذا الإنجيل قد ضاع، واندثر، ولم يبق له أثر، أو أنه أبيد؟. ولهذا قد جعلوا مكانه (تأليفات) أربع مشكوكاً في صحتها، وفي نسبتها التاريخية، كما أنها مكتوبة باللغة اليونانية، وهي لغة لا تتفق طبيعتها مع لغة عيسى الأصلية التي هي لغة سامية، لذلك كانت صلة السماء بهذه الأناجيل

---

(١) قصة الحضارة (١١/ ٣١٤).

(٢) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص٩٣.

(٣) المسيحية نشأتها وتطورها، ص١٠.

اليونانية أضعف بكثير من صلتها بتوراة اليهود، وقرآن العرب»[١].

ويتساءل (دينيه) بعد ذلك قائلاً:

«ثم الأناجيل: ألم يدخل عليها التنقيح والتهذيب في كثير من المواضيع؟ التي لم تعرف بعد، ولماذا أغفل رجال الأناجيل ثلاثين عاماً من حياة المسيح؟ دون أن يذكروا لنا فيها شيئاً إلا ما اختص بالسنين الثلاث الأخيرة. وإذا أخذنا بما قيل أن اثنين من الرسل الأربعة قد ذكروا أشياء عن عهد الطفولة الأولى للمسيح، فإن هذا الحذف من السنين بعد ذلك يدعو إلى فداحة الأمر لأنه يترك المجال فسيحاً لجميع أنواع التأويلات والشبهات التي قد يكون أقلها خطراً ما يقال من أن المسيح طول سني حياته الناضجة لم يكن شيئاً مذكوراً، وأن تصرفاته لم تكن تدل على حياة خارقة للعادة مماقد تنسب إلى (ابن) الله!»[٢].

ثم ينتقد (دينيه) الأناجيل حتى في أسلوب تحريفها وما طرأ عليها من تغيير وتبديل، فيقول:

«وأمر آخر فات رجال الأناجيل، ذلك أنه مع عظيم خطر هذه الثلمة في سني حياة المسيح فإن الأناجيل لم ينلها التنقيح الواجب الدال على المهارة والذكاء ذلك لأن واضعيها ـ وهم قليلوا الخبرة بعلم النفس ـ لم يدركوا أن ما يصح ذكره على لسان نبي لا يصح أن يقال على لسان ابن الله!. وإلا كان الأمر غريباً شاذّاً نابياً على أن هذا هو ما قد حصل، فقد جاءت في أناجيلهم كلمات كثيرة على لسان المسيح يعجب لها المرء لصدورها من شخص في منزلته...»[٣].

ثم يبين (دينيه) موقفه ومعتقده الإسلامي تجاه عقائد النصارى في ألوهية المسيح بكل وضوح، فيقول:

«... أما ونحن المسلمون نعظم المسيح ونحترمه، ونرفعه مكاناً عليّاً فلا نسمح لأنفسنا بالاعتقاد بصحة هذه الأقوال وأمثالها، وهي لا تصح نسبتها إلى أحد الأنبياء فما بالك بنسبتها إلى (رب)، ولكن بما أن المسيحيين ذكروها على

(١) أشعة خاصة بنور الإسلام، ص٤١ ـ ٤٢.
(٢) المرجع السابق، ص٤٤.
(٣) المرجع السابق، ص٤٤.

لسان يسوع (الغربي) فقد وضعوا بين أيدينا أكبر حجة على أن عيسى ليس ابناً لله وأنه هو نفسه لم يدّع هذه الدعوى الإلٰهية، والواقع أنه في حالة يأسه الأخير لم يتوجه إلى (أبيه) وإنما إلى إلٰهه وربه كي لا يتركه، على أن هذه الجملة بذاتها ـ وهي من الجمل النادرة التي ترجمت بنصها الذي نطق بها يسوع ذاته ـ لا تبيح بأي حال اقتراف الغلطات المتكررة الموجودة في ترجمة الأناجيل اليونانية.

ويظهر أن الغربيين جعلوا من المسيح الحقيقي مسيحاً آخر، وبينما يقاوم مسيح الغرب قوانين الطبيعة التي أملاها (أبوه)، يقوم مسيح الشرق بالخضوع إلى أحكام الطبيعة التي سنَّها الله»[١].

هذا هو رأي أحد المسيحيين الغربيين الذين أسلموا بعد البحث، وهو رجل لا يطلب من الدخول في الإسلام شكراً أو إحساناً، كما أعلن ذلك بنفسه في الاحتفال الذي أقيم في الجامع الجديد بالجزائر عام ١٩٢٧م بمناسبة إعلان إسلامه، إذ قال: إنه يُشهد الناس جميعاً على أنه يدين بالإسلام من عشرات السنين، وأنه لم يجهر به إلا اليوم، ويريد منهم أن يدفنوه في قبره مسلماً حنيفاً، ولم يكن له من مأرب وراء إسلامه ولا مطمع ولا مغنم اللّٰهم إلا إرضاء يقينه وإثبات صحة دينه، وأنه لم يتخذه إلا بعد بحث وتدقيق، وأنه ناقش الناصرين والطاعنين حتى علم علم اليقين أن الدين عند الله الإسلام فخرج من (دينيه) إلى ناصر الدين[٢].

وبعد هذا الذي قدمناه من شهادات المستشرقين والباحثين الغربيين من النصارى أنفسهم، يمكن القطع: بأنه من الخطأ الكبير أن نعتبر أسفار الكتاب المقدس عند أهل الكتاب ـ الموجودة حاليّاً ـ كتباً إلٰهية بالمعنى الصحيح، فليست إلا من وضع كاتبيها، ولم يحفظوا فيها من الكتب السماوية الحقيقية إلا القليل بل النادر إذا قيس إلى ما أثبتوه فيها من تحريفات وتناقضات ومبتدعات، واتهام النصوص الإسلامية وعلماء الإسلام لهذه الكتب بوقوع التحريف والتناقض فيها اتهام حقيقي له من الأدلة ما يؤيده[٣].

---

(١) المرجع السابق، ص٤٧ ـ ٤٨.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٧ ـ ٨.

(٣) أخبر تعالى في القرآن الكريم بتحريف أهل الكتاب وكتمانهم وإخفائهم لما أنزله الله من البيّنات والهدى فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٧١﴾. =

وإذا كانت هذه الكتب السابقة قد تعرضت للتحريف والتبديل حتى انطمس نور الوحي الإلٰهي فيها، وانحرفت العقائد والشرائع من خلالها، وندر الحق فيها وظهر الباطل عليه، كان لا بد للناس إذاً ـ والحال هذه ـ من مصدر جديد يبيِّن الله تعالى فيه الحق من الباطل والهدى من الضلال، وإلا لزم أن يعيش الناس في ظلمات الجهل والتيه والتخبط في معرفتهم بالله ودينه وشرعه، ومن هنا فقد أرسل الله تعالى نبيَّه ﷺ بالرسالة الحقة والشريعة الناسخة لما قبلها فكان القرآن ـ مصدرها ـ شاهداً وناسخاً ومهيمناً على ما قبله من الكتب وزاد عنها بالتفصيل والإحكام لمسائل الدين ودوام التشريع وسلامته من التبديل والتحريف فكان خير كتب الله وآخرها وباقيها إلى قيام الساعة.

= [آل عمران: ٧١]. وقال تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣] وغيرهما من الآيات الكريمة. وقد أجمع المسلمون على وقوع التحريف في التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب المتقدمة إما عمداً وإما خطأً في ترجمتها وفي تفسيرها وشرحها وتأويلها، إلّا أنهم اختلفوا في مقدار التحريف فيها. والذي يظهر أن تحريفاً كثيراً قد وقع في كتبهم إلّا أنه لا تزال فيها بقايا من الوحي الإلٰهي المنَزّل على أنبيائه ﷺ، وهذه البقايا طريق معرفتها هو موافقتها لما جاء في القرآن الكريم والسُّنَّة الصحيحة.

وأما أنواع التحريف في كتبهم فهو: تحريف بالتبديل، وتحريف بالزيادة، وتحريف بالنقصان، وتحريف بتغيير المعنى دون اللفظ، والشواهد على ذلك كثيرة جداً. انظر: مجموع الفتاوى (١٣/ ١٠٤، ١٠٥)، والجواب الصحيح (١/ ٣٥٦، ٣٦٧، ٢/ ٥، ٣/ ٢٦٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٥٢٠)، تفسير الرازي (١٠/ ١١٨)، هداية الحياري، ص١٠٥، تخجيل من حرف الإنجيل (١/ ٢٨٣)، التوراة دراسة وتحليل، ص٦٤ ـ ٦٨: د. محمّد شلبي شتيوي.

المبحث الرابع

ختم النبوَّة به ﷺ

يعتقد المسلمون بختم النبوة به ﷺ تصديقاً لما أخبر به القرآن وما جاء به النبي ﷺ من الأخبار المتواترة والتي تفيد ختم النبوة بمحمد ﷺ، وانتهاء إنباء الله للناس وانقطاع وحي السماء[1].

ومنها قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقال ﷺ: «... **وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي**»[2]، وذلك يستلزم ختم المرسلين لأن ختم الأعم يستلزم ختم الأخص.

(١) عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية: د. أحمد سعد الغامدي، ص١٦.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه في أبواب الفتن، باب ما جاء لا تقوم الساعة حتى يخرج كذابون (٤/ ٤٩٩) حديث رقم (٢٢١٩)، ولفظه: «**لا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى يعبدوا الأوثان، وإنه سيكون في أمتي ثلاثون كذابون كلهم يزعم أنه نبي وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي**». وقال هذا حديث صحيح. وأخرجه بنحوه أبو داود في سننه في كتاب الفتن، باب ذكر الفتن ودلائلها (٤/ ٩٧) حديث رقم (٤٢٥٢). والحاكم في المستدرك (٤/ ٤٩٦) وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، والبيهقي في سننه (٩/ ٣٠٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٢٥٢).

ومعنى ختم النبوة بنبوته عليه الصلاة والسلام: أنه لا تبدأ نبوة ولا تشرع شريعة بعد نبوته وشرعته. فهو ﷺ النبي الخاتم للأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين قد بعث بخير كتاب وأتم شريعة وأفضل ملة وأكمل دين، جاء بشريعة كافية لحاجة الخليفة في كل زمان ومكان إلى أن تقوم الساعة، وكمل به عقد النبيين؛ فلا نبي بعده(١).

وفي «الصحيحين» وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين**»(٢).

وفي «الصحيحين» أيضاً: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون**»(٣).

وعن جابر بن سمرة؛ قال: «رأيت خاتماً في ظهر رسول الله ﷺ كأنه بيضة حمام» رواه مسلم(٤). قال الحافظ ابن حجر: «قال القرطبي: اتفقت الأحاديث الثابتة على أن خاتم النبوة كان شيئاً بارزاً أحمر عند كتفه الأيسر، قدره إذا قلَّ قدر بيضة الحمامة، وإذا كبر جمع اليد، والله أعلم»(٥).

وقد أجمع علماء الإسلام على ما تضمنته هذه النصوص من ختم النبوة بمحمد ﷺ وأنه لا نبي ولا رسول ولا شريعة إلٰهية بعده(٦).

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد: د. صالح الفوزان، ص٢١٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ (٤/ ١٨٦) حديث رقم (٣٥٣٥)، ومسلم في صحيحه في كتاب الفضائل، باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين (٤/ ١٧٩١) حديث رقم (٢٢٦٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل (٤/ ١٦٩) حديث رقم (٣٤٥٥)، ومسلم في صحيحه في كتاب الإمارة، باب الأمر بالوفاء ببيعة الخلفاء، الأول فالأول (٢/ ١٤٧١) حديث رقم (١٨٤٢).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب إثبات خاتم النبوة وصفته ومحله من جسده ﷺ (٤/ ١٨٢٣) حديث رقم (٢٣٤٤).

(٥) فتح الباري (٦/ ٥٦٣).

(٦) للاستزادة في أدلة الكتاب والسُّنَّة والإجماع وأقوال أهل العلم والكتب السابقة حول هذه المسألة، انظر: عقيدة ختم النبوة، ص١٧ ـ ٧٠.

وبعد هذه النصوص المتواترة من الكتاب والسُّنَّة وإجماع أهل العلم يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن هذه العقيدة:

«فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد ﷺ إليهم، ثم من تشريفه لهم ختم الأنبياء المرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر الله ـ تبارك وتعالى ـ في كتابه ورسوله ﷺ في السُّنَّة المتواترة عنه أنه لا نبي بعده؛ ليعلموا أن كل من ادعى هذا المقام بعده؛ فهو كذاب أفاك دجال ضال مضل، ولو تخرف وشعبذ وأتى بأنواع السحر والطلاسم والنيرجيات؛ فكلها محال وضلال عند أولي الألباب؛ كما أجرى الله تعالى على يد الأسود العنسي باليمن ومسيلمة الكذاب باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة ما علم كل ذي لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان لعنهما الله، وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة، حتى يختموا بالمسيح الدجال؛ [فكل واحد من هؤلاء الكذابين] يخلق الله معه من الأمور ما يشهد العلماء والمؤمنون بكذب من جاء بها.

وهذا من تمام لطف الله تعالى بخلقه، فإنهم بضرورة الواقع [أي: الكذابون] لا يأمرون بمعروف ولا ينهون عن منكر إلا على سبيل الاتفاق، أو لما لهم فيه من المقاصد إلى غيره، ويكون في غاية الإفك والفجور في أقوالهم وأفعالهم، كما قال تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ [الشعراء: ٢٢١، ٢٢٢]. وهذا بخلاف الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، فإنهم في غاية البر والصدق والرشد والاستقامة والعدل فيما يقولونه ويفعلونه ويأمرون به وينهون عنه، مع ما يؤيدون به من الخوارق للعادات، والأدلة الواضحات، والبراهين الباهرات، فصلوات الله وسلامه عليهم دائماً مستمرّاً ما دامت الأرض والسمٰوات»[(١)].

وليس الناس بحاجة إلى بعثة نبي بعد محمد ﷺ؛ لكمال شريعته، ووفائها بحاجة البشرية.

فإن قيل: إن الأمة قد فسدت؛ فالعمل على إصلاحها يحتاج إلى بعثة نبي جديد.

فيقال: إن بعث النبي في الدنيا ليس لمجرد الإصلاح حتى يبعث في هذا الزمان لمجرد هذا الغرض؟!.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٣٠ ـ ٤٣١).

إن النبي لا يبعث إلا ليوحى إليه، ولا تكون الحاجة إلى الوحي إلا لتبليغ رسالة جديدة، أو إكمال رسالة متقدمة، أو لتطهيرها من شوائب التحريف والتبديل، فلما قضت كل هذه الحاجات إلى الوحي بحفظ القرآن وسُنَّة محمد ﷺ وإكمال الدين على يده ﷺ؛ لم تبق حينها الحاجة الآن إلى الأنبياء، وإنما هي إلى المصلحين.

وقد أعلن الله ختم النبوات والرسالات بنبوة محمد ﷺ في قوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠].

ومن البديهي الذي لا يقبل الاعتراض أن استمرار بقاء القرآن الحاوي بشرائعه وأحكامه أسس مطالب البشر التشريعية كلها محفوظاً كما أنزل على محمد مع استمرار بقاء سيرة الرسول وسُنَّته المبيِّنة لمعاني القرآن صحيحة ثابتة هو بمثابة استمرار وجود الرسول فينا على قيد الحياة.

قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩]، والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول بعد وفاته هو الرد إلى سُنَّته.

وبذلك؛ فقد أصبح العالم بغنية عن بعث أنبياء وإرسال رسل وتجديد شرائع للناس بعد محمد صلوات الله وسلامه عليه؛ لأنه لو بعث الله رسلاً وأنبياء؛ فلن يحدثوا شيئاً، ولن يزيدوا على ما جاء به الرسول محمد ﷺ من أسس في العقيدة أو في التشريع؛ فقد أكمل الله الدين وأتمَّ الشريعة؛ حيث يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

وإن كان الغرض من إرسال الرسل هو نشر هذه الرسالة ودعوة الناس إليها؛ فهذه وظيفة علماء المسلمين؛ فعليهم أن يقوموا بتبليغ هذه الدعوة للناس.

فمن ادَّعى عدم ختم النبوة بعد محمد ﷺ، أو صدق من يدَّعي ذلك؛ فهو مرتد عن دين الإسلام، ولهذا؛ حكم الصحابة على من ادَّعى النبوة بعد محمد ﷺ بالردة، وقاتلوه هو وأتباعه، وسمّوهم بالمرتدين، وهذا مما أجمع عليه علماء المسلمين سلفاً وخلفاً(١).

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، ص٢١٢ ـ ٢١٣.

الحكمة في ختم النبوة بمحمد ﷺ:

لقد كانت نبوة محمد ﷺ خاتمة للنبوات؛ لأنه بعث إلى الناس كافة إلى أن تقوم الساعة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سبأ: ٢٨]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾﴾ [الفرقان: ١]، ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وإذا كانت رسالته عامة للناس؛ فلا بد أن تكون شريعته كاملة شاملة لمصالح البشر، لا يحتاج معها إلى شريعة أخرى وبعثة نبي آخر؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وقد ذكر الشيخ أبو الأعلى المودودي ـ في رده على القاديانية[1] ـ أننا إذا تتبعنا القرآن بغية أن نعرف الأسباب التي لأجلها ظهرت الحاجة إلى إرسال نبي في أمة من أمم الأرض؛ علمنا أن هذه الأسباب أربعة:

١ ـ أن تكون هذه الأمة ما جاءها من الله نبي من قبل، ولا كان لتعاليم نبي مبعوث في أمة غيرها أن تصل إليها.

٢ ـ أن تكون قد أرسل إليها نبي من قبل، ولكن كان تعليمه قد انمحى أو

---

(١) القاديانية: هي نحلة ضالة مؤسسها الميرزا غلام أحمد القادياني، نسبة إلى بلدة قاديان بالهند، ادعى أن علم عن طريق الكشف أنه مكلف من الله تعالى بإصلاح الخلق على نهج المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، وقد صرح أن له إلهام ومكاشفات، ومن مكاشفاته (مزاعمه): أن روح المسيح حلت فيه. ما يلهمه هو كلام الله كالقرآن الكريم والتوراة والإنجيل. المسيح (الذي هو هو) سينزل في قاديان. قاديان هي البلدة المقدسة الثالثة المكنى عنها في القرآن بالمسجد الأقصى والحج إليها فريضة. أُوحي إليه بآيات تربو على عشرة آلاف آية. من يكفر به فهو كافر. القرآن ومحمد وسائر الأنبياء قبله قد شهدوا له بالنبوة وعينوا زمن بعثته ومكانها، هلك القادياني سنة ١٩٠٨م بعد مباهلة مع الشيخ ثناء الله الأمر تسري على أن يموت الكاذب منهما في حياة الصادق. انظر: القاديانية: لحسن عبد الظاهر، ص٧٧. وللاستزادة انظر: ما هي القاديانية: أبو الأعلى المودودي. القادياني والقاديانية: أبو الحسن علي الندوي. القاديانية: دراسة وتحليل: إحسان إلٰهي ظهير.

لعبت به يد النسيان أو التحريف حتى لم يعد بإمكان الناس أن يتبعوه اتباعاً كاملاً صحيحاً.

٣ ـ أن تكون قد أرسل إليها نبي من قبل، ولكن تعاليمه ما كانت شاملة لمن يأتي بعده وافية لمتطلبات عصرهم؛ فألحت الحاجة إلى المزيد من الأنبياء لإكمال الدين.

٤ ـ أن تكون قد أرسل إليها نبي، ولكن كانت الحاجة تقتضي أن يرسل معه نبي آخر لتصديقه وتأييده.

وكل سبب من هذه الأسباب الأربعة قد زال بعد النبي محمد ﷺ؛ فلا حاجة للأمة الإسلامية ولا أمة أخرى في العالم إلى أن يرسل إليها نبي جديد بعد محمد ﷺ.

وقد تولى القرآن بنفسه بيان أن بعثة النبي محمد ﷺ إلى الناس كافة ولهداية الناس عامة؛ قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وأيضاً مما يدل عليه تاريخ الحضارة في الدنيا أن الظروف في العالم ما زالت منذ بعثته ﷺ ولا تزال مهيأة بحيث من الممكن أن تصل دعوته إلى كل صقع من أصقاع العالم، وإلى كل أمة من أممه؛ فلا حاجة بعد ذلك إلى نبي جديد إلى أمة من أمم الدنيا أو صقع من أصقاعها؛ فلذلك قد زال السبب الأول.

ومما يشهد به القرآن، كذلك تؤيده عليه ذخيرة كتب الحديث والسيرة أن التعليم الذي جاء به النبي ﷺ لا يزال حيّاً محفوظاً على صورته الحقيقة، ولم تلعب به يد النسيان ولا التحريف والتبديل، وأما الكتاب الذي جاء به؛ فما وقع التحريف ولا النقص ولا الزيادة في أي حرف من أحرفه، ولا من الممكن أن يقع إلى يوم القيامة، وأما الهداية التي أعطاها للناس بأقواله وأفعاله؛ فإننا نجد آثارها حتى اليوم حية مصونة كأننا أمام شخصه ﷺ وفي زمانه؛ فبذلك قد زال السبب الثاني.

ثم إن القرآن ليصرح كذلك بأن الله تعالى قد أكمل دينه بواسطة محمد ﷺ؛ فبذلك قد زال السبب الثالث ـ أيضاً ـ.

ثم إن الحاجة لو كانت تقتضي إرسال نبي مع النبي محمد ﷺ لتأييده وتصديقه؛ لأرسل في زمانه ﷺ؛ فبذلك قد زال السبب الرابع ـ أيضاً ـ. فأي سبب بقي بعد زوال هذه الأسباب الأربعة؟[١].

موقف المستشرقين:

مسألة ختم النبوة ليست من المسائل التي استوقفت جمهور المستشرقين كثيراً خلال بحثهم ومناقشتهم لسيرة النبي ﷺ، ورغم ذلك فإن بعض المستشرقين قد أظهر الإنكار لهذه المسألة، وحاول إلقاء الشبهات والشكوك حول ختم النبوة بمحمد ﷺ.

ومن تلك المواقف المنكرة ما جاء في الموسوعة الاستشراقية ضمن مادة (محمد) ﷺ، وفيها قولهم:

«ومع ذلك فقد ظل محمد، كما كان في الماضي لا يفكر إلا في إصلاح الديانتين السابقتين وهداية مشركي قريش دين جديد، وإنما كان سعيه منصبّاً على إعادة الديانة الحقة التي نادى بها الأنبياء منذ البداية.

ومن الواجب حول هذه النقطة أن نميز بين المعتقدات الدينية والصياغات الثيولوجية (اللاهوتية) اللاحقة من جانب، وبين النتائج التي تتوصل إليها البحوث التاريخية والاجتماعية من جانب آخر.

فالمعتقد الإسلامي مثلاً هو أن محمداً (آخر وأعظم الأنبياء)، وهو اعتقاد من الراجح أنه يقوم على تفسير لاحق لتعبير (خاتم النبيين) الذي وصفت النبي به الآية ٤٠ من سورة الأحزاب. . . وليس من المستغرب أن نجد المؤرخين ينظرون إلى بدء ورود هذه الأفكار في القرآن خلال السنوات الأولى بعد الهجرة باعتباره بداية لنشأة جماعة دينية جديدة. ويبدو أن معارضة يهود المدينة له كان لها ـ بالأخص ـ تأثير كبير في وضوح صورة الإسلام كدين متميز»[٢].

فمحرر الموسوعة يرى أن تفسير ختم النبوة لم يأت إلا متأخراً عند المسلمين، كما أن هذه العقيدة فرضتها ظروف الحياة السياسية والاجتماعية في المجتمع المدني بعد الهجرة والتي كانت تحتم أن يتميز المسلمون عن غيرهم وعلى وجه الخصوص اليهود.

---

(١) انظر: الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، ص٢١٤ ـ ٢١٥.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية، ص٩١٣٣ ـ ٩١٣٤.

وبهذا يحاول صاحب الموسوعة قطع الرابطة بين هذه العقيدة وبين الوحي الإلٰهي المنزل على النبي ﷺ، والذي يقرر هذه العقيدة بكل وضوح ودون مواربة أو نظر لظروف معينة، وهذا التشكيك له نظائر كثيرة في هذه الموسوعة الاستشراقية تهدف في محصلتها إلى الطعن في نبوة محمد ﷺ ولكن بطريق غير مباشر وأسلوب ملتف ينتهج منهج التشكيك.

كما سلك بعض المستشرقين أسلوب العرض المباشر لهذه المسألة دون تدخل أو تعليق عليها، وهذا كحال المستشرق الفرنسي سيديو الذي يقول:

«... لم يعد محمد نفسه غير خاتم لأنبياء الله، وهو قد أعلن أن عيسى ابن مريم كان ذا موهبة في الإتيان بالمعجزات، مع أن محمداً لم يعط مثل هذه الموهبة، وما أكثر ما كان يعترض محتجّاً على بعض ما يعزوه إليه أشد أتباعه حماسة من الأعمال الخارقة للعادة!»[1].

أما المستشرقون المسلمون فانطلاقاً من كون مسألة ختم النبوة تعتبر عقيدة واضحة عند المسلمين فقد أشاروا إلى التأكيد عليها مستدلين على ذلك بصريح النصوص الإسلامية.

ومن هؤلاء الدكتور مراد هوفمان في كتابه المعروف: «الإسلام كما يراه ألمانيٌّ مسلم» حيث يقول:

«يرى المسلمون أن عصر النبوات قد انتهى من تاريخ الإنسانية ببعث الرسول الكريم محمد ﷺ؛ لأن دين إبراهيم القائم على التوحيد قد اكتمل بالقرآن الكريم الذي يصلح لكل زمان ولكل الشعوب. وقد وصف القرآن الرسول الكريم محمداً ﷺ بأنه خاتم الأنبياء.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب: ٤٠]. وفي التاسع من ذي الحجة عام ٦٣٢م أوحي في عرفات قرب مكة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة: ٣].

(١) تاريخ العرب العام، ص٩٠.

وبالفعل لم يشهد العالم بعد ذلك ظهور نبي حقيقي، بالرغم من أن البهائي والقادياني أو المورمون يمكن أن يروا غير ذلك»[(١)].

كما أقر هذا المعتقد الإسلامي في ختم النبوة بمحمد ﷺ بعض المستشرقين المنصفين والمتعاطفين مع الإسلام، ومن هؤلاء:

ـ واشنطون إيرفنج، الذي يقول: «كان محمد خاتم النبيين وأعظم الرسل الذين بعثهم الله ليدعو الناس إلى عبادة الله»، ويقول أيضاً:

«كانت التوراة في يوم ما هي مرشد الإنسان وأساس سلوكه. حتى إذا ظهر المسيح اتبع المسيحيون تعاليم الإنجيل، ثم حلّ القرآن مكانهما، فقد كان القرآن أكثر شمولاً وتفصيلاً من الكتابين السابقين، كما صحح القرآن ما قد أدخل على هذين الكتابين من تغيير وتبديل. حوى القرآن كل شيء، وحوى جميع القوانين، إذ إنه خاتم الكتب السماوية...»[(٢)].

ـ هنري ديكاستري، حيث يقول: «... قد نرى تشابهاً بين القرآن والتوراة في بعض المواضع، إلا أن سببه ميسور المعرفة... إذا لاحظنا أن القرآن جاء ليتممها، كما أن النبي ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين»[(٣)].

ـ إدوار بروي Edourd Perroy، المستشرق الفرنسي المعاصر والأستاذ بجامعة السوربون حيث يقول: «جاء محمد بن عبد الله، النبي العربي وخاتمة النبيين، يبشر العرب والناس أجمعين، بدين جديد، ويدعو للقول بالله الواحد الأحد، كانت الشريعة [في دعوته] لا تختلف عن العقيدة أو الإيمان، وتتمتع مثلها بسلطة إلٰهية ملزمة، تضبط ليس الأمور الدينية فحسب، بل أيضاً الأمور الدنيوية، فتفرض على المسلم الزكاة، والجهاد ضد المشركين... ونشر الدين الحنيف... وعندما قبض النبي العربي، عام ٦٣٢م، كان قد انتهى من دعوته، كما انتهى من وضع نظام اجتماعي يسمو كثيراً فوق النظام القبلي الذي كان عليه العرب قبل الإسلام، وصهرهم في وحدة قوية، وهكذا تمَّ للجزيرة العربية وحدة دينية متماسكة، لم تعرف مثلها من قبل...»[(٤)].

---

(١) ص٥٠.

(٢) حياة محمد، إيرفنج، ص٧٢.

(٣) الإسلام خواطر وسوانح، ص١٨ ـ ٢٠.

(٤) تاريخ الحضارات العام: إدوار بروي وآخرون، ترجمة: فريد داغر ويوسف داغر (٣/ ١١٢).



الباب الخامس

مواقف المستشرقين من سيرته ﷺ

الفصل الأول: مواقفهم من العهد المكي.

المبحث الأول: اسمه ونسبه ومولده ﷺ.

المبحث الثاني: نشأته ﷺ.

المبحث الثالث: صفاته ﷺ الخُلقية.

المبحث الرابع: موقفه ﷺ من الوثنية.

المبحث الخامس: أميَّته ﷺ.

المبحث السادس: زواجه ﷺ.

المبحث السابع: موقف المشركين منه ﷺ.

الفصل الثاني: مواقفهم من العهد المدني.

المبحث الأول: هجرته ﷺ إلى المدينة.

المبحث الثاني: علاقته ﷺ باليهود.

المبحث الثالث: جهاده ﷺ للمشركين.

المبحث الرابع: نجاحه ﷺ في تبليغ الرسالة ونشرها.



تمهيد

تقدَّم الحديث عن الكتابات الاستشراقية عن النبي ﷺ ومصادر المستشرقين ومناهجهم في الكتابة عنه ﷺ.

وفي هذا الباب سيتناول البحث مواقف المستشرقين من سيرته ﷺ وما تضمنته من أحداث من خلال أهم المحاور التي تقسم السيرة النبوية في ضوئها.

وقد تبيَّن فيما مضى الموقف الإجمالي للمستشرقين من السيرة النبوية ودراساتهم حولها، واختلافهم فيها تبعاً للدوافع والاتجاهات والمعتقدات لديهم.

فبالنسبة للمستشرقين المسلمين لم تظهر لهم دراسات كثيرة حول السيرة النبوية، ربما كان لمبعث الإيمان والاطمئنان للدراسات الإسلامية السابقة دوره في ذلك حيث لم يكن لهؤلاء المستشرقين ما يضيفونه حول السيرة النبوية كما لم يكن لهم بعض الأهداف المشبوهة التي رامها جمع من المستشرقين الغربيين في دراساتهم للسيرة النبوية.

ولعل أبرز عمل يظهر في هذا المجال هو كتاب المستشرق الفرنسي المسلم نصر الدين (دينيه) في السيرة وعنوانه: «محمد رسول الله» الذي اشترك فيه مع أحد الباحثين الجزائريين وهو سليمان بن إبراهيم.

والملاحظ أن كتاب (دينيه) في السيرة لا يختلف من حيث مادته عن المؤلفات الإسلامية الأخرى، ولكنه يتميز عن الكثير منها بالأسلوب الشاعري الذي ألفت به مباحث مثل: معاناة النبي ﷺ ومجاهدته من أجل إعلاء كلمة الله، وتسامحه، وعلو همته، وطيب شمائله عليه الصلاة والسلام[١].

---

(١) محمد رسول الله، ص٥٢.

أما دراسات جمهور المستشرقين للسيرة النبوية فقد جاءت متنوعة بحسب اهتمامات وأغراض المستشرق نفسه. ولعل الكثير من هذه الدراسات لم تكن في المستوى المطلوب من جهة الحيادية والموضوعية حيث تأثر كثير منها بميول واتجاهات المستشرق صاحب الدراسة.

وقد صدق (دينيه) حين قال: «رغم ما يزعمون من اتباعهم لأساليب النقد الحديثة، فإننا نلمس في كتاباتهم محمداً يتحدث بلهجة ألمانية إذا كان المؤلف ألمانيّاً، ومحمداً يتحدث بالإيطالية، إذا كان الكاتب إيطاليّاً، وهكذا تتغير صورة محمد بتغير جنسية الكاتب»[١].

وعموماً يمكن تقسيم آراء ومواقف جمهور المستشرقين حول سيرة النبي ﷺ إلى قسمين:

الأول: مواقف وآراء متحاملة.

الثاني: مواقف وآراء متعاطفة.

وسيعرض البحث في هذا الباب لهذه المواقف ـ إن شاء الله تعالى ـ من خلال عرض آراءهم بالإضافة لآراء المستشرقين المسلمين حول أبرز أحداث السيرة النبوية بشقيها المكي والمدني.

---

(١) المرجع السابق، ص٢٨.

الفصل الأول

مواقفهم من العهد المكي



تمهيد

يقسم علماء السيرة النبوية حياة النبي ﷺ وسيرته إلى قسمين:

الأول: يتناول حياة النبي ﷺ في بلدته مكة، حيث ولد ونشأ، وحيث قضى مراحل شبابه ﷺ وتزوج فيها أول زوجاته خديجة رضي الله عنها، وفيها شهد النبي ﷺ مبدء نزول الوحي، وتكليفه من الله تعالى بأعباء الرسالة، وبعثته إلى الناس بالدين الحق من عند الله تعالى، ودعوته ﷺ لأصحابه وقومه سرّاً ثم جهراً، وما تحمله ﷺ ومن آمن معه بعد ذلك في سبيل تبليغ الدعوة وبيانها إلى قومهم من مشركي قريش إلى أن بلغ الإيذاء منتهاه وحاول المشركون قتل النبي ﷺ والقضاء عليه بكل وسيلة حينها أذن الله تعالى لنبيِّه ﷺ بالهجرة من مكة إلى المدينة. وتعرف هذه المرحلة عند جمهور المصنفين في السيرة النبوية باسم العهد المكي أو المرحلة المكية.

الثاني: يتناول حياة النبي ﷺ في المدينة، وتبتدأ من هجرته ﷺ من مكة إلى المدينة واستقراره فيها، ومؤاخاته ﷺ بين المؤمنين الذين أقاموا بها سواء كانوا ممن هاجر معه ﷺ من مكة وهم المهاجرون، أو ممن استقبله من أهلها من قبائل الأوس والخزرج والذين عرفوا بلقب الأنصار، وكذلك تعامله ﷺ مع اليهود الذين كان يقيم قبائل منهم في المدينة، ثم ما تلا مرحلة الاستقرار من صعوبات واجهها النبي ﷺ من محاولة المشركين في مكة الهجوم على المدينة وقتال المسلمين فيها، وكذلك ما واجهه ﷺ من مكائد اليهود والمنافقين فيها، ثم سعيه ﷺ لنشر هذا الدين وتبليغه إلى الناس كافة وما وقع في سبيل ذلك من الغزوات والسرايا والبعوث إلى داخل الجزيرة وخارجها، ثم إن شرائع الدين قد اكتملت ودخل الناس في دين الله أفواجاً، واستبان دين الله تعالى للناس كافة،

فكان ﷺ بهذا قد أدى الأمانة التي أنيطت به من قبل الله تعالى، وبلغ الدين أتم بلاغ، ولم يترك أمراً يترتب عليه خير في الدنيا والآخرة إلا بيَّنه ﷺ لأمته وأوضحه غاية البيان، وعندها توفاه الله تعالى بعد أن كمُل الدين كله عقيدة وشريعة وسلوكاً وهدياً فصلوات ربي وسلامه الأتمَّان الأكملان عليه وعلى آله وصحبه. وبهذا تكون قد انتهت هذه المرحلة التي يطلق عليها مصنفوا السيرة اسم المرحلة أو العهد المدني.

والحديث عن جوانب السيرة وأحداثها ومواقفها حديث ذو شجون، وذلك أن سيرة النبي ﷺ ليست كغيرها من سير العظماء فهي شاملة لكل جانب من جوانب حياته ﷺ بل إنها تبتدئ بما قبل ولادته، وكيف ظهر ﷺ إلى الدنيا، ثم كيف عاش كل مرحلة من مراحل حياته، وما حصل له فيها بكل دقة وتفصيل، بل كل ما حصل في داره وبيته مع أزواجه ونسائه، لقد دونت كتب السيرة كل جزئية من خصوصياته ﷺ؛ لأنه كان يمثل في نظر المؤمنين به المثل الأعلى والقدوة الأسمى في كل شؤون الحياة فضلاً عن أنه القائد وصاحب التطبيق العملي لكل جانب من جوانب الدين الذي بعثه الله به، ولهذا كان هو القدوة قبل أن يكون قائداً: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١].

ولهذا فإن البحث فيما يأتي إنما يتناول جوانب معينة من سيرته ﷺ، وهي الجوانب التي كانت موضع اهتمام جمهور المستشرقين، وفيها نعرض الأحداث وفق ما ورد فيها من كتب السيرة ثم نذكر آراء المستشرقين ومواقفهم من هذه المسائل، نبيِّن المنصف منها ونرد على المتحامل بصحيح المنقول وصريح المعقول، ونبتدئ في عرض جوانب السيرة بالعهد المكي، والذي نناقش فيه المسائل التالية:

المبحث الأول: اسمه ونسبه ومولده ﷺ.

المبحث الثاني: نشأته ﷺ.

المبحث الثالث: صفاته ﷺ الخُلقية.

المبحث الرابع: موقفه ﷺ من الوثنية.

المبحث الخامس: أميَّته ﷺ.

المبحث السادس: زواجه ﷺ.

المبحث السابع: موقف المشركين منه ﷺ.

المبحث الأول

اسمه ونسبه ومولده ﷺ

النبي ﷺ من أشرف الناس نَسَباً، وأكملهم خَلْقاً وخُلُقاً، وقد ورد في شرف نسبه ﷺ أحاديث صحاح، منها ما رواه مسلم: أن النبي ﷺ قال: «**إن الله ﷻ اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»(١).

وقد ذكر الإمام البخاري رحمه الله نسب النبي ﷺ فقال: «محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك بن النضر، بن كنانة، بن خزيمة، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان»(٢).

وقال ابن القيِّم رحمه الله: بعد ذكر النسب إلى عدنان: «إلى هنا معلوم الصحة، ومتفق عليه بين النسابين، ولا خلاف البتة، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام»(٣).

---

(١) مسلم، كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي (٤/ ١٧٨٢) حديث رقم (٢٢٧٦).
(٢) كتاب مناقب الأنصار، باب مبعث النبي (٤/ ٢٨٨) حديث رقم (٣٨٥١).
(٣) زاد المعاد (١/ ٧١).

وقال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «وعدنان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ بإجماع الناس، لكن اختلفوا فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء»(١).

ولا شك بأن شرف النسب له مكانة في النفوس؛ لأن ذا النسب الرفيع لا تنكر عليه الصدارة، نبوة كانت أو مُلكاً، وينكر ذلك على وضيع النسب، فيأنف الكثير من الانضواء تحت لوائه، ولما كان محمد ﷺ يعد للنبوة هيَّأ الله تعالى له شرف النسب ليكون مساعداً له على التفاف الناس حوله(٢).

ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن النبي ﷺ كان أول ما سأله عن نَسَبه ﷺ فقال له كما في «صحيح البخاري»: «أيكم أقرب نَسَباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه مني، وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه: قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه. فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب»، ثم علَّل هرقل سؤاله هذا لما فرغ من أسئلته بقوله: «سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها»(٣).

إن معدن النبي ﷺ طيب ونفيس، فهو من نسل إسماعيل الذبيح، وإبراهيم خليل الله، واستجابة لدعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبشارة أخيه عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كما حدّث هو عن نفسه، فقال: **«أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة أخي عيسى»**(٤). ودعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هي قوله: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩]. وبشرى عيسى: كما أشار إليه قوله عَزَّ وَجَلَّ حاكياً عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

وقد أخرج الشيخان عن أبي هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: **«تجدون الناس**

---

(١) السيرة النبوية: للذهبي، ص١.

(٢) انظر: دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ، ص٩٦.

(٣) كتاب الوحي، باب كيف بدء بالوحي على رسول الله (١/٨) حديث رقم (٧).

(٤) تقدم تخريجه.

معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه»[١]. فأصحاب المروءات ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا أو فقهوا فهم خيار الناس[٢].

قال ابن حجر في «الفتح»: «وجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صفته، فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها، بل من كان شريفاً في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس، فإن أسلم استمر شرفه وكان أشرف بمن أسلم من المشروفين في الجاهلية»[٣].

وطيب المعدن والنسب الرفيع يرفع صاحبه عن سفاسف الأمور ويجعله يهتم بمعاليها وفضائلها، والرسل والدعاة يحرصون على تزكية أنسابهم وطهر أصلابهم، ويُعرفون عند الناس بذلك فيحمدونهم ويثقون بهم[٤].

ورغم اشتداد المواجهة بين الرسول ﷺ وأهل مكة لم نسمع يوماً مطعناً منهم في نسب رسول الله ﷺ وأصله، ولا نقداً لخلقه وسلوكه، ولا همزاً حول شيء من هذا يتصل به ﷺ، ولو وجد شيء من هذا لتحدثوا عنه وأظهروه، ولنقل إلينا خبره وأثره فدل على سلامته ﷺ من ذلك كله[٥].

وأما والد النبي ﷺ فهو عبد الله بن عبد المطلب من أحب ولد أبيه إليه، ولما نجا من الذبح وفداه عبد المطلب بمائة من الإبل وأوفى بنذره ـ وهو أن يذبح أحد أبنائه إذا بلغوا عشرة ـ زوَّجه من أشرف نساء مكة نَسَباً، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب[٦].

ولم يلبث عبد الله أن توفي بعد أن حملت آمنة بالنبي ﷺ، ودفن بالمدينة عند أخواله بني (عدي بن النجار)، فإنه كان قد ذهب بتجارة إلى الشام فأدركته

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات: ١٣] (١٧٨/٤) حديث رقم (٣٤٩٣)، ومسلم في صحيحه ـ واللفظ له ـ في كتاب الفضائل، باب خيار الناس (١٩٥٨/٤) حديث رقم (٢٥٢٦).

(٢) شرح مسلم: للنووي (٢٣٠/٥).

(٣) فتح الباري (٥٢٩/٦).

(٤) انظر: السيرة النبوية، دراسة تحليلية: محمد أبو فارس، ص١٠٢.

(٥) انظر: السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي: أحمد أحمد غلوش، ص١٢٧ ـ ١٣٢.

(٦) انظر: سيرة ابن هشام (١٠٠/١)، ووقفات تربوية مع السيرة، أحمد فريد ص٤٦.

منيَّته بالمدينة وهو راجع[(١)].

وقد صح أن مولد الحبيب المصطفى ﷺ كان يوم الاثنين بلا خلاف[(٢)]، والأكثرون على أنه لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول[(٣)].

والمجمع عليه أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل[(٤)]، وهو الذي تؤيده الدراسات الحديثة التي قام بها باحثون مسلمون ومستشرقون اعتبروا عام الفيل موافقاً لشهر إبريل لعام ٥٧٠ أو ٥٧١ الميلادي[(٥)].

إن حادثة الفيل ثابتة الوقوع بنص القرآن: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: ١ ـ ٥].

فنص القرآن يقدم أدق تصوير لما حدث لجيش أبرهة، ولا تكاد الروايات التاريخية تخرج عن الوصف القرآني إلا في تحديد جزئيات وتفصيلات يسيرة.

وقد ذكر ابن إسحاق عن الصحابي قيس بن مخرمة وحسان بن ثابت ما يفيد بمولد النبي ﷺ عام الفيل[(٦)]، وقد رأت عائشة رضي الله عنها قائد الفيل وسائسه أعميين يستطعمان الناس بمكة[(٧)] كما بيَّن الصحابي قباث بن أشيم أن أمه أوقفته على بقايا روث فيل أبرهة وقد تغير لونها، وكان يعقل حيث ولد قبل الفيل بسنوات يسيرة[(٨)].

ولهذا فإن القرائن التاريخية المحتفَّة بالروايات التي تفيد مولد النبي ﷺ عام

---

(١) السيرة النبوية، عرض وقائع وتحليل أحداث: د. علي محمد محمد الصلابي، ص٤٦.

(٢) كما في صحيح مسلم أنه ﷺ سئل عن صوم يوم الاثنين؟ قال: «**ذاك يوم ولدت فيه، ويوم بعثت ـ أو أنزل علي فيه ـ**» كتاب: الصيام، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر وصوم يوم عرفة وعاشوراء والإثنين والخميس (٢/ ٨١٩) حديث رقم (١١٦٢).

(٣) وهو اختيار ابن إسحاق، انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٤٦).

(٤) تاريخ خليفة بن خياط، ص٥٣.

(٥) تاريخ العرب في الإسلام: د. جواد علي، ص١٢٨.

(٦) سيرة ابن هشام (١/ ١٤٧).

(٧) المرجع السابق (١/ ٥٠).

(٨) أخرجه الترمذي في سننه (٥/ ٥٨٩) وقال: «هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث محمد بن إسحاق»، والحاكم في المستدرك (٢/ ٦٠٣ و٣/ ٤٥٦) وقال: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، مع أن في إسناده المطلب بن عبد الله «مقبول» فقط. انظر: السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم العُمري (١/ ٩٨).

الفيل قوية، ويرى ابن القيم ويتابعه القسطلاني أن مولد النبي ﷺ كان في عام الفيل بعد حادثة الفيل؛ لأن قصة الفيل توطئة وإرهاص لظهوره، حيث دفع الله نصارى الحبشة عن الكعبة دون حولٍ من العرب المشركين تعظيماً لبيته(١).

والمعروف المشهور أن النبي ﷺ ولد يتيم الأب. قال ابن كثير:

«والذي رجحه الواقدي وكاتبه الحافظ محمد بن سعد أنه عليه الصلاة والسلام توفي أبوه وهو جنين في بطن أمه، وهذا أبلغ اليتم وأعلى مراتبه»(٢). وقد صحت الرواية في ذلك(٣) فلا مندوحة عن الأخذ بها وإن خالفها البعض. وقد ذكر يتمه ﷺ في القرآن في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: ٦](٤).

موقف المستشرقين:

رغم وضوح ما ذكرته كتب السيرة النبوية في بيان اسمه ﷺ ونَسَبه وما يتعلق بمولده ﷺ، إلا أن طوائف من المستشرقين انتهجت منهج التشكيك في هذه المسائل الثلاثة، ورغم إجماع المستشرقين على إثبات شخصية النبي ﷺ إلا ما ذكر عن بعض المستشرقين الروس(٥)، إلا أن هناك اختلافاً بينهم في التسليم بما ذكره علماء المسلمين في كتب السيرة النبوية.

وأول هذه المسائل التي شكك بها هؤلاء المستشرقون ما يتعلق باسمه ﷺ، يقول فيليب حِتّي: «أما الاسم الذي يجب أن تكون والدة هذا الرجل الواحد قد سمته به فلسنا على بينة منه اليوم. وأما الاسم الذي دعاه به (جده عبد المطلب) فهو الاسم المعروف: محمد؛ أي: المحمود كثيراً، وهو اسم يبدو وكأنه من ألقاب المدح والثناء. ومن الصعب أن نجد قبل محمد رسول الله رجلاً كان اسمه محمداً»(٦).

---

(١) زاد المعاد (١/ ٧٦)، وشرح المواهب اللدنية (١/ ١٣٠).

(٢) سيرة ابن كثير (١/ ٢٠٦).

(٣) صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٢).

(٤) السيرة النبوية الصحيحة: د. أكرم العمري (١/ ٩٦).

(٥) وعلى رأس هؤلاء المستشرق الروسي (تولستوف) الذي زعم اسطورية شخص النبي ﷺ. انظر: تفسير التاريخ: عبد العزيز الدوري وآخرون، ص١٤ ـ ١٦.

(٦) الإسلام منهج حياة، ص١١.

ولمَا كان اسم النبي ﷺ قد ورد في أربع سور من القرآن الكريم، هي: آل عمران، والأحزاب، ومحمد، والفتح، وكلها سور مدنية. اتخذ بعض المستشرقين ذلك حجة على أن الرسول ﷺ لم يكن يعرف قبل الهجرة بمحمد، لكن باسم آخر.

فذهب المستشرق النمساوي ألويس شبرنجر في كتابه عن سيرة النبي ﷺ إلى الزعم أن اسم النبي ﷺ الحقيقي هو قثم، وأن النبي ﷺ تسمى باسم محمد في المدينة المنورة، بعد اختلاطه بالنصارى، وقد التقطه من خلال قراءته لنبوءات الأناجيل عن البارقليط.

وقد أيده عدد من المستشرقين منهم: المستشرق الفرنسي اليهودي هرتويغ درنبرغ Hartwig Derenbourg (١٩٠٨م)، والمستشرق الألماني ثيودور نولدكه (١٩٣٠م) صاحب كتاب «تاريخ القرآن»، والمستشرق الإيطالي الأمير ليون كايتاني في كتابه الشهير «حوليات الإسلام»[(١)].

وقد اعتمد هؤلاء في ذلك على رواية ساقطة ذكرها صاحب السيرة الحلبية في باب «تسمية الرسول»[(٢)]، ومع أن تلك الرواية تنص على أن جده عبد المطلب عدل عن تسمية «قثم» بعد ولادته مباشرة إلى «محمد»، ورغم تشكيك صاحب السيرة الحلبية في هذه الرواية في قوله: «وعلى تقدير صحة الرواية»[(٣)] إلا أن المستشرقين تجاهلوا هذا كله، وبنوا على تلك الرواية أغرب النتائج.

يقول المستشرق بودلي: «وسمي الطفل عقب مولده (قثم)، ولكن عبد المطلب بعد أن شكر آلهة الكعبة على منحه حفيداً ذكراً، سماه محمد، فلما علم القوم منه أنه أسمى الطفل محمد، سألوه: لم رغب عن أسماء آبائه؟ قال: أردت أن يكون محموداً في السماء لله وفي الأرض لخلقه»[(٤)].

وقد شارك في هذه النظرة المشككة حتى بعض المتعاطفين من المستشرقين كحال كارين أرمسترونج التي أشارت في كتابها عن سيرة النبي ﷺ إلى أن «بعض المسيحيين العرب في الكنيسة السريانية، قد ترجموا جزءاً من الإنجيل بطريقة تبيِّن

(١) تاريخ العرب في الإسلام: جواد علي، ص١٢١ ـ ١٢٥.
(٢) السيرة الحلبية (١/١١٨).
(٣) المرجع السابق، بنفس الصفحة ب.
(٤) الرسول: حياة محمد، ص٣٢.

أنهم كانوا يتوقعون رسالة محمد. فقد ذُكر أن المسيح قال: إنه سيرسل بعد وفاته إلى أتباعه (روح القدس) Paraclete يقوم بتذكرتهم بكل ما علمهم إياه ويساعدهم على فهمه. وترجم اللفظ Paraclete في ذلك الجزء من الكتاب المقدس السرياني إلى الكلمة (Munahhema) والتي بدت، بعد الحدث، قريبة جدّاً من محمد. وكان اللفظ الذي ظهر لدى بعض المسيحيين العرب الآخرين هو (Periklytos)، والتي تترجم إلى اللفظ العربي (أحمد). وهو اسم كان شائعاً في بلاد العرب»(١).

فأرمسترونج في النص السابق تزعم تبعاً لتفسيرات النصارى أن المقصود بـ(paraclete) هو الروح القدس الإله، وترى أنه قد حوَّر معنى الترجمة عند بعض المسيحيين العرب إلى كلمة (محمد) أو (أحمد).

وتزيد أرمسترونج من مزاعمها لتؤكد علم النبي ﷺ بهذه الترجمة، وأن هذا ما جعل القرآن يشير إليها كما تقول: «ولا بد أن محمداً قد أُعلم بتلك الترجمة، كما أن القرآن يشير إلى المعتقد بأن المسيح قد بشر برسول يأتي من بعده اسمه (أحمد) ليؤكد رسالته»(٢).

الرد على مزاعم المستشرقين:

إن تشكيك المستشرقين في اسم النبي ﷺ فيه تجاهل شديد لأساسيات منهج النقد التاريخي والحديثي معاً، حيث تم تجاهل الثابت يقيناً على مدى قرون في سبيل إثبات خبر غريب رفضه كل علماء المسلمين أنفسهم. وقول مثل هذا، لا يمكن أن يعتد به. فقد عرف الرسول ﷺ بـ (محمد) في جميع أدوار حياته. وعرف بها بمكة؛ أي: قبل هجرته إلى يثرب، كما عرف بها بعد هجرته إلى المدينة. حتى الجاهليون عرفوه بها، ودعوه بها في مخاطباتهم وفي هجائهم له، كما بايعه من دخل في الإسلام بها، ووردت في جميع كتب العهود والمواثيق. وفي كتاب الله وردت عَلماً، غير معرف. ولو كانت صفة له، لعرفت بأداة التعريف، ولم يثبت أنه من النعوت المنقولة عن أصل يهودي أو سرياني(٣).

وعلى سبيل المثال نجد في كتاب الصلح الذي عقد بين النبي ﷺ

---

(١) ص١١٤ ـ ١١٥.

(٢) ص١١٥.

(٣) تاريخ العرب في الإسلام «السيرة النبوية»: د. جواد علي، ص١١٣.

والمشركين في أمر الهدنة بعد الحديبية، دليلاً واضحاً صريحاً يفند مزاعم المستشرقين السابقة. ولو كان هناك أدنى شك في اسم النبي ﷺ، وأنه قد تسمى بـ«محمد» في المدينة، لرفض «سهيل بن عمرو» ممثل قريش ومبعوثها قبول هذه التسمية الجديدة، ولدعاه باسمه القديم، فقد اعترض «سهيل» على النبي في استعمال الجمل والمصطلحات الإسلامية، مثل جملة (بسم الله الرحمٰن الرحيم)، التي اعترض عليها ولم يقبل استعمالها ووافق الرسول على استعمال باسمك اللَّهُمَّ، ثم اعترض على استعمال جملة: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله» بقوله: لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن أكتب اسمك واسم أبيك فكتب: «هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله»[١].

ومن الواضح أن شبرنجر وغيره لم يكن يستطيع هذا الزعم ـ بأن محمد ﷺ لم يتسم بهذا الاسم إلا في المدينة بتأثير من أهل الكتاب ـ لو اعتمد على السيرة، ولكن توقفه عند القرآن فقط في الحديث عن أحداث السيرة أمكنه من أن يحاول تحطيم حقيقة ثابتة. وقد تجاوز هذا المستشرق عن كل حقائق التاريخ من أجل تحقيق غرضه، وهو تدعيم فكرة تعلم النبي ﷺ من النصارى. كما تعمد الكذب في اختراع تاريخ جديد للمدينة، يتمثل في القول بانتشار النصارى فيها، مع أن المعلوم يقيناً أن سكانها كانوا إما من العرب الوثنيين أو اليهود.

كما ضرب شبرنجر عرض الحائط بالحقائق العلمية، وهي التي تحكم باستحالة هذا الأمر حتى ولو فرضنا بوجود نصارى في المدينة، إذ يحتاج الموضوع حينذاك إلى إثبات معرفة النبي ﷺ بالسريانية أو اللاتينية أو اليونانية، وهي اللغات التي كتبت بها الأناجيل، كما يحتاج هذا الزعم إلى إثبات أن النبي قد أنجز في هذا المجال بحثاً علميّاً حقيقيّاً ـ لم ينجز إلا بدءاً من القرن ١٩م ـ ليستخرج دلالة كلمة باراقليط على معنى الحمد، ومن المعلوم أنه كان سيخالف بذلك كل فرق النصارى الذين جعلوا الكلمة تعني: الروح القدس[٢].

ولم يذكر أحد من الكتبة النصارى القدماء من أمثال: (ثيوفانس البيزنطي) و(يوحنا الدمشقي) وأمثالهما من الكتبة المعروفين بتهجمهم على الإسلام والذين

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٣٣٢).

(٢) المرجع السابق (٣/ ٣٣٢).

كانوا يتلصصون الأخبار عن الرسول، تسمية من التسميات الوثنية الخالصة من مثل عبد اللات وعبد مناف وعبد العزى وعبد ود وما شابهها كانت للرسول، ولو كان الرسول قد عرف بإحداها أو بأمثالها، لأشار إلى ذلك ـ ولا شك ـ أولئك المتعصبون على الإسلام[١].

وقد سمى كفار قريش النبي ﷺ (مذمماً)؛ أي: ضد محمد، لغيظ النبي والمؤمنين به، مما يدل على أن قريشاً ما كانت تعرف النبي ﷺ إلا بهذا الاسم، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «**ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمماً، ويلعنون مذمماً وأنا محمد**»[٢].

وليس يضير النبي ﷺ أن يكون اسمه محمداً أو أحمد أو قثم أو غير ذلك من أسماء، فكل هذه وأمثالها هي تسميات لم يضعها النبي ﷺ لنفسه ولم يبتدعها من عنده، لقد جاء إلى هذا العالم، فدعي بها، ومحمد وأحمد وقثم وأمثاله كلها من التسميات المعروفة في الجاهلية، وقد دعي وعرف بها أناس قبل الإسلام بالطبع.

ولفظة محمد، من أصل «حمد»، ومن هذا الأصل: أحمد وحامد وحماد وحميد وحمد وحُميد «تصغير حمد» ومحمود، وما شاكل ذلك من أسماء[٣].

وقد ذكر الإخباريون أسماء عدد من الجاهليين عرفوا بـ«محمد» ونصوا على أسماء سبعة أو أكثر من ذلك عرفوا به[٤]، فليس النبي ﷺ أول من تسمى بهذا الاسم عند العرب بل سبقه أناس إليه.

---

(١) نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٣٨٤ ـ ٣٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المناقب، باب ماجاء في أسماء النبي ﷺ (٤/ ١٨٥) حديث رقم (٣٥٣٣).

(٣) انظر: لسان العرب (٤/ ١٢٥)، وتفسير الطبري (٢/ ١٧٢).

(٤) وممن سمّوا بذلك: محمد بن سفيان بن مجاشع التيمي، ومحمد بن عنوازة الليثي الكناني، ومحمد بن بلال بن عقبة بن أحيحة الجلاح الأروسي أحد بني جحجي، ومحمد بن حمران بن مالك الجعفي المعروف بالشويعري، ومحمد بن مسلمة الأنصاري أخو بني حارثة، ومحمد بن خزاعي بن علقمة، ومحمد بن حرماز بن مالك التميمي. انظر: لسان العرب (٤/ ١٢٥)، تاج العروس (٢/ ٣٣٩)، طبقات ابن سعد (١/ ١٦٩). والذي أدرك الإسلام ممن تسمى باسمه ﷺ: «محمد بن ربيعة ومحمد بن الحرث ومحمد بن مسلمة، وادعى بعضهم أن محمد بن مسلمة ولد بعد مولد النبي ﷺ بأكثر من خمسة عشر سنة وقد ذكر ابن الجوزي: إن أول من تسمى في الإسلام بمحمد: محمد بن حاطب». السيرة الحلبية (١/ ٩٨)، الآثار الباقية: للبيروني (١/ ٣٨).

وتذكر كتب السير أن عبد المطلب هو الذي سمى الرسول ﷺ محمداً بهذا الاسم رغبة منه عن أسماء أهل بيته، وعندما سأله قومه عن سبب رغبته عن أسماء أهل بيته، أجابهم بأنه يريد أن يحمده الله في السماء ويحمده خلقه في الأرض[١].

وقد جعل المقريزي في كتابه «إمتاع الأسماع» أبا قثم ضمن كنى النبي ﷺ، ولم يجعله اسم علم له[٢]. كما ذكر البلاذري في «أنساب الأشراف» في أثناء حديثه عن عبد الله بن عبد المطلب والد النبي ﷺ أنه كان يكنى أبا قثم[٣].

وما ذكره هؤلاء الإخباريون مخالف لما اشتهر عند المؤرخين من أن عبد الله والد النبي ﷺ لم يتزوج امرأة غير آمنة، وأنه لم يعقب ولد غير الرسول ﷺ وبه كني.

ومن الجائز أن تكون هذه الكنية، هي التي أوهمت أولئك المستشرقين فجعلتهم يتصورون أن قثم هو اسم حقيقي، وأنه اسم الرسول ﷺ الأول[٤].

ومن أسمائه ﷺ: «أحمد» وقد جاء ذكره في سورة (الصف) وهي من السور المدنية، في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦].

وقد اتخذ بعض المستشرقين الآية المتقدمة دليلاً على أن الرسول غيَّر في المدينة اسمه «محمد» فجعله (أحمد)، وأنه فعل ذلك بتأثير أهل الكتاب.

كحال كارين أرمسترونج التي أشارت إلى أن «بعض المسيحيين العرب في الكنيسة السريانية، قد ترجموا جزءاً من الإنجيل بطريقة تبيِّن أنهم كانوا يتوقعون رسالة محمد. فقد ذُكر أن المسيح قال: إنه سيرسل بعد وفاته إلى أتباعه (روح القدس) Paraclete يقوم بتذكرتهم بكل ما علمهم إياه ويساعدهم على فهمه. وترجم اللفظ Paraclete في ذلك الجزء من الكتاب المقدس السرياني إلى الكلمة

---

(١) دلائل النبوة: للبيهقي (١/ ١٦١)، وذكر ابن حجر في الفتح (١٥/ ٣): أن إسناده مرسل.

(٢) إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع: تقي الدين المقريزي، ت: محمد عبد الحميد النميسي (١/ ٥).

(٣) جمل من أنساب الأشراف: أحمد بن يحيى البلاذري، ت: سهيل زكار ورياض الزركلي (١/ ٩١).

(٤) تاريخ العرب في الإسلام، ص١١٥ ـ ١١٦.

(Munahhema) والتي بدت، بعد الحدث، قريبة جدّاً من محمد. وكان اللفظ الذي ظهر لدى بعض المسيحيين العرب الآخرين هو (Periklytos)، والتي تترجم إلى اللفظ العربي (أحمد). وهو اسم كان شائعاً في بلاد العرب»[(١)].

وتزيد أرمسترونج من مزاعمها لتؤكد علم النبي ﷺ بهذه الترجمة، وأن هذا ما جعل القرآن يشير إليها[(٢)].

وغريب جدّاً قولهم إن الرسول ﷺ سمى نفسه (أحمد) من تلك اللفظة اليونانية فليس بين اللفظة اليونانية وبين التسمية العربية وهي (أحمد) شبه أو تقارب، أو معنى، كما أن الزعم الثاني وهو ترجمة بعض الجاهليين (إنجيل يوحنا) إلى العربية واستخدامهم لفظة أحمد في موضع اللفظة اليونانية، هو زعم غريب لا يستند إلى خبر تاريخي. ولو كان ذلك حقّاً لما سكت عنه المؤرخون العرب أو السريان. ثم إن استعمال هذه اللفظة في تلك الترجمة معناها إفساد الترجمة وافتراء عليها، وهذا ما لا يمكن السكوت عليه أو وقوعه من أحد[(٣)].

يقول القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «الشفا»:

«وقد سماه الله تعالى في كتابه محمداً وأحمد فمن خصائصه تعالى له أن ضمّن أسماءه ثناءه، فطوى أثناء ذكره عظيم شكره، فأما اسمه أحمد فأفعل مبالغة من صفة الحمد، ومحمد مفعل مبالغة من كثرة الحمد، فهو ﷺ أجلُّ من حمد، وأفضل من حمد، وأكثر الناس حمداً، فهو أحمد المحمودين وأحمد الحامدين ومعه لواء الحمد يوم القيامة، وليتم له كمال الحمد ويشتهر في تلك العرصات بصفة الحمد، ويبعثه ربه هناك مقاماً محموداً كما وعده يحمده فيه الأولون والآخرون بشفاعته لهم، ويفتح عليه فيه من المحامد كما قال ﷺ ما لم يعط غيره وسمى أمته في كتب أنبيائه بالحمادين فحقيق أن يسمى محمداً وأحمد. . .»[(٤)].

وقد جاء في النصوص ذكر عدة أسماء للنبي ﷺ، فقد قال ﷺ: «**إن لي أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**». وفُسر العاقب في الحديث

---

(١) سيرة النبي محمد، ص١١٤ ـ ١١٥.
(٢) المرجع السابق، ص١١٥.
(٣) تاريخ العرب في الاسلام، ص١١٨ ـ ١١٩.
(٤) الشفا (٢٢٩/١).

بأنه الذي ليس بعده نبي(١)، وزاد ابن سعد: والخاتم(٢)، وزاد مسلم أسماء أخرى، وهي المقفى ونبي الرحمة(٣)، وزاد الترمذي في الشمائل: نبي الملاحم(٤).

كما شكك طائفة من المستشرقين في نسبه ﷺ وفي منزلة أجداده محاولين بذلك القدح في مكانته ﷺ في قومه، ومن ذلك ما أشار إليه مونتغمري وات بقوله:

«والمسألة الأولى في حياة محمد هي معرفة ما إذا كان لأجداده هذه المكانة في الحياة العامة في مكة كما تقول الروايات، أم أن مكانتهم قد ضخمت كما يعتقد بعض العلماء الغربيين. فلقد فخر فيما بعد العباسيون بأنهم ينتسبون لهاشم بينما كان الأمويون يدعون أنهم يتحدرون من أخيه عبد شمس. وإذا قدرنا أن الأمويين قد أسيئت معاملتهم على يد المؤرخين الذين كتبوا في عهد حكم العباسيين لم ندهش، إذا رأينا المؤرخين ينسبون لهاشم وأولاده وأحفاده دوراً أهم من الذي قاموا به فعلاً»(٥).

ويقول فيليب حِتّي: «. . . أما الأسرة التي ولد فيها محمد، أسرة بني هاشم، فكانت قد قعد بها الدهر فلم تكن تشرك سائر أسر القبيلة من قريش في الازدهار الاقتصادي الذي تمتعت به تلك الأسر، ولا في السلطة التي كانت لها»(٦).

وجاء في «الموسوعة الاستشراقية»:

«وأما عن نسبه فإن عدة قصائد قديمة لشعراء مثل حسان بن ثابت والأعشى وكعب بن مالك، قيلت في النبي أو في جعفر أو حمزة أو أبي لهب تؤكد ما ذكرته الروايات من أنه من بني هاشم؛ أي: أنه من أنسب عشائر مكة. ومع ذلك

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله ﷺ (٤/ ١٨٥) حديث رقم (٣٥٣٢)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ (٤/ ١٨٢٨) حديث رقم (٢٣٥٤).

(٢) طبقات ابن سعد (١/ ١٠٤).

(٣) كتاب الفضائل، باب في أسمائه ﷺ (٤/ ١٨٢٨) حديث رقم (٢٣٥٥).

(٤) الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية: محمد بن عيسى الترمذي، ت: سيد بن عباس الجليمي (١/ ٣٠٦) رقم (٣٦٨).

(٥) محمد في مكة، ص٦١.

(٦) الإسلام منهج حياة، ص١٣.

فإن أعداء النبي من أهل مكة يقولون له كما توضح الآية (٣١) من سورة الزخرف: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾؛ أي: أنهم كانوا أكثر استعداداً لقبول دعوته لو أنه كان من كبار رجال مكة أو الطائف. وعلى أي الأحوال فما كان يمكن مقارنة بني هاشم بكبار العشائر مثل مخزوم وأمية. ويوحي ما روي عن فقر محمد وبعض أقربائه أن بني هاشم كانوا وقت شبابه في ضائقة.

ومما يذكر أن أبا محمد مات قبل مولده. وهو شخصية تبدو في المصادر غير واضحة المعالم. ويمكن أن يكون اسمه عبد الله قد حلَّ فيما بعد محل اسم وثني. وجده شيبة أو عبد المطلب، والعلاقة بين الاسمين غامضة غموض الصلة بين عبد المطلب وبني المطلب. أما من ناحية أمه آمنة بنت وهب فكانت لها صلة غير واضحة بالمدينة. ولا نكاد نعلم شيئاً آخر مؤكداً عن نسب محمد غير ذلك»[1].

إن أول ما يجب أن نلاحظه هنا هو أن الكاتب استخدم أسلوباً تطغى عليه النزعة التشكيكية، وتعتمد نشر ظلال الغموض على نسب النبي ﷺ.

والغريب أنه اكتفى في تقرير انتمائه ﷺ إلى بني هاشم على أبيات شعرية غير موثقة، وكأن تلك الأشعار هي كل ما يمكن أن يستدل به على هذه المسألة، وهو دليل على تجاهله لمصادر الحديث والسيرة النبوية وكتب التاريخ.

وأما قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]، فهو إخبار عن قول كفار قريش الذين كفروا بنبوة محمد ﷺ ثم أخذوا يتعللون بعلل مستمدة من معاييرهم الخاصة، ومنها أن محمداً ﷺ لم يكن من عظماء القريتين؛ أي: مكة والطائف. واقترحوا أن تنزل النبوة والرسالة على رجل عظيم من إحدى القريتين.

هذا باختصار مقصود الآية الكريمة ـ بإيجاز ـ مما يتبين معه أن الآية لا تتعلق بشرف النسب ـ كما ظن الكاتب ـ وإنما تتعلق بالمركز الاجتماعي والزعامة القبلية التي ترتكز عند الجاهليين على كثرة المال والسيادة في أوساط القبيلة.

هذا الإصرار على التقليل من شرف نَسَبه ﷺ مخالف للحقيقة والواقع، فبنو

---

(١) ص٩١١٣.

هاشم في الذروة من قريش نسباً وشرفاً، وقد أقر بهذه الحقيقة أبو سفيان مع أنه كان حينها من ألد اعداء النبي ﷺ، وذلك حين سأله هرقل: كيف نسبه فيكم؟ ثم قال هرقل ـ بعد ذلك ـ: «فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها»(١).

وقد ذكر الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ نسب النبي ﷺ كاملاً إلى معد بن عدنان(٢)، وهذا الجزء من نسبه متفق عليه بين علماء الأنساب. واتفقوا كذلك على أن نسبه ينتهي إلى إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فهو جده الأعلى، وإن كانوا مختلفين في الحلقات الواصلة بين معد بن عدنان وإسماعيل.

وقال ابن القيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: بعد ذكر النسب إلى عدنان: «إلى هنا معلوم الصحة، ومتفق عليه بين النسابين، ولا خلاف البتة، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أن عدنان من ولد إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ»(٣).

فالنبي ﷺ من أشرف الناس نسباً، وأكملهم خَلْقاً وخُلُقاً، وقد ورد في شرف نسبه ﷺ أحاديث صحاح، منها ما رواه مسلم: أن النبي ﷺ قال: «**إن الله عَزَّ وَجَلَّ اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**»(٤).

فبأي مقياس علمي بعد هذا كله يسمح كاتب هذه المادة في الموسوعة لنفسه أن يتجاهل هذه النصوص الصحيحة والأدلة القوية الساطعة، على شرف نَسَبه ﷺ، وأن يصدر أحكاماً خطرة بلا دليل ولا حجة؟.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «وبذلك يتقرر أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان رفيع النسب، وليس المراد بشرف النسب أن تكون عشيرته ذات مال كثير، وأن يكون قد نال منهم تركة مثرية كبيرة، فإن المال لا يكون نَسَباً، وقد كان عمه أبو طالب كبير البطحاء وشريفها، وكان مع ذلك في المال قِلّاً، والنبي ﷺ مع علو نسبه بين العرب كان فقيراً، وكان يتيماً، وكان يرعى الغنم، فليس علو النسب والشرف ملازماً لكثرة المال، أو قوة البطش، أو عظمة السلطان، إنما شرف النسب أن يكون من كورة يعلو آحادها عن النقائص، ويخشون العار من أن

(١) تقدم تخريجه.
(٢) تقدم تخريجه.
(٣) زاد المعاد (١/ ٧١).
(٤) تقدم تخريجه.

يقغوا في رذيلة يستنكرها العرف، ويستهجنها ذوو العقول السليمة، وأن يكون لهم شرف نفسي، ولم يجعل النبي عليه الصلاة والسلام شرفه في العرب بالمال، أو السطوة، بل جعل شرفه بأنه من خيرهم نفساً وبيتاً، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «**جعلني في خيرهم بيتاً وخيرهم نفساً**».

وانظر إلى أبي سفيان الذي كان من أعلى قريش عندما سأله هرقل أجاب بالصدق والأمانة، وإن كان صدقه حجة عليه، ومعطياً للنبي ﷺ قوة، واستعلاء بدعوته ورسالته، ويقول أبو سفيان وهو على الشرك: «لولا أني أخشي أن تحفظ عني كذبة في العرب لكذبت».

ولماذا كان الأنبياء لا يكونون إلا من كورة عرفت بشرف النفس وعلو المحتد، وإن تولدت الرفعة من غير كبرياء، واحترام النفس من غير استعلاء. ذلك لأن الرسالة تحتاج إلى دعوة قوية لا يرنقها كدرة التعييب، أو عدم الثقة، أو نقص في شرف النفس، أو رميه بالرذيلة ابتداء، وإن كان هو في ذاته كاملاً.

إن النبي الذي ليس فيه رفعة، ولم يعرف بأنه من عشيرة ذات تقاليد فاضلة، كان أول ما يبادر به هو الرد، لعدم شرف أسرته، وإنما نجد النبيين كانوا يعيرون بأن أتباعهم من أراذل القوم، لا من أشرافهم، ولا من ذوي النسب، ويتخذون ذلك ذريعة لرد الدعوة، وإن كانوا في ذلك ظالمين، وإن رد قوم نوح أبي الإنسانية الثاني ليبيِّن هذا، فقد قال تعالى عنه وعن قومه الذين ردوه: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [هود: ٢٧ ـ ٣١]»[1].

وأما دعوى كاتب الموسوعة بأن شخصية والد النبي ﷺ مغمورة، فليس

---

(١) خاتم النبيين (١/ ٧٣ ـ ٧٤).

لهذه الدعوى أي تأثير سلبي على شرف نسبه ولا على نبوته ﷺ، ويبدو أن الكاتب كان يتصور أن النبوة شكل من أشكال الزعامة السياسية، وأن النبي ينبغي أن يكون من أسرة ذات زعامة ونفوذ سياسي.

ثم إن والد النبي ﷺ توفي وهو في قرابة الخامسة والعشرين؛ أي: في المرحلة الأولى من شبابه، ولو امتد به العمر لكان من الممكن أن يحل محل والده في زعامة العائلة الهاشمية، وإذن لكان من سادات قريش وشيوخها من ذوي الشهرة الواسعة.

وأما شكه في أن يكون والده ﷺ سُمي عبد الله، ودعواه أن هذا الاسم أطلق عليه بعد الإسلام، فلا أساس له؛ لأن مصادر الحديث والسيرة والتاريخ متفقة عليه، ولم يذكر عن أحد من علماء التاريخ والأنساب أنه تردد في ذلك أو أبدى أدنى شك فيه.

وأما ما ذكره من الغموض في العلاقة بين الاسمين اللذين سمي بهما جد النبي ﷺ، وهما شيبة وعبد المطلب، فيرجع إلى قلة معلوماته ومعرفته بأحداث السيرة وتفاصيلها.

وقد ذكر أهل السير في سبب تسمية عبد المطلب بهذا الاسم: أن هاشم بن عبد مناف قدم المدينة، فتزوج سلمى بنت عمرو أحد بني عدي بن النجار، ثم إنها ولدت لهاشم ولداً سماه شيبة، فتركه هاشم عندها حتى كان غلاماً، ثم خرج إليه عمه المطلب؛ ليقبضه، فيلحقه ببلده وقومه فقالت له سلمى: لست بمرسلته معك، فقال لها المطلب: إني غير منصرف حتى أخرج به معي إن ابن أخي قد بلغ، وهو غريب في غير قومه، ونحن أهل بيت شرف في قومنا؛ نلي كثيراً من أمرهم؛ وقومه وبلده وعشيرته خير له من الإقامة في غيرهم، أو كما قال. وقال شيبة لعمه المطلب: لست بمفارقها إلا أن تأذن لي، فأذنت له، ودفعته إليه، فاحتمله، فدخل به مكة مردفه معه على بعيره، فقالت قريش: عبد المطلب ابتاعه، فبها سمي شيبة: عبد المطلب. فقال المطلب: ويحكم! إنما هو ابن أخي هاشم، قدمت به من المدينة[1].

وأما دعواه بأن صلة نَسَبه ﷺ، من جهة أمه بالمدينة ليست واضحة، فترجع

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/١٢٦ ـ ١٢٧)، والروض الأنف (٢/٥٨).

إلى قلة معلوماته، أو تجاهله لما ورد في كتب السيرة والتاريخ.

ولعله استند في رأيه هذا إلى ما وجده في كتب السيرة من إشارة إلى أن أخواله ﷺ هم بنو النجار، أحد أحياء يثرب، وظن أن أمه لها علاقة مباشرة بالمدينة، وهذا غير صحيح. فأمه ﷺ هي آمنة بنت وهب، من بني زهرة القرشيين، وتجتمع مع زوجها عبد الله في جدهما الأعلى كلاب، فهي قرشية خالصة.

وأما صلة نَسَبه ﷺ بالمدينة، فهي آتية من أم جده عبد المطلب، وهي سلمى بنت عمرو النجارية، التي تزوج بها هاشم بن عبد مناف فأنجبت له عبد المطلب كما مر معنا[١].

أما فيما يتعلق بمولده ﷺ فإن المجمع عليه بين كتاب السيرة النبوية من المسلمين أنه عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل[٢]، وهو الذي تؤيده الدراسات الحديثة التي قام بها باحثون مسلمون ومستشرقون اعتبروا عام الفيل موافقاً لشهر إبريل لعام ٥٧٠ أو ٥٧١ الميلادي[٣].

وقد ذهب إلى هذا الرأى غالب المستشرقين الذين كتبوا في سيرة النبي ﷺ من أمثال المستشرق سيديو[٤]، وبودلي[٥]، وجوستاف لوبون[٦] وغيرهم.

يقول مونتغمري وات: «ولد محمد عام الفيل حين فشل أبرهة في حملته على الكعبة. وكان ذلك نحو عام ٥٧٠م»[٧].

ويقول فيليب حِتّي: «والبلد الذي كان فيه مولد محمد في عام ٥٧٠م اسمه مكة»[٨].

---

(١) انظر: السيرة النبوية (دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في لايدن): د. أحمد أبو زيد، ص٤٣ ـ ٤٧.
(٢) تاريخ خليفة بن خياط، ص٥٣.
(٣) تاريخ العرب في الإسلام: د. جواد علي، ص١٢٨.
(٤) تاريخ العرب العام، ص٥٩.
(٥) الرسول: حياة محمد، ص٢٨.
(٦) حضارة العرب، ص١٠١.
(٧) محمد في مكة، ص٦٥.
(٨) الإسلام منهج حياة، ص١١.

وهو الذي ذهب إليه المستشرقون المسلمون، كما يقول نصر الدين (دينيه): «ولد سيدنا محمد ﷺ قبل إشراق نجمة الصباح بلحظات يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل (٢٩ أغسطس ٥٧٠م)»[١].

ورغم وضوح هذه المسألة لجمهور المؤرخين ومن كتبوا في السيرة من المسلمين وغير المسلمين، إلا أن هناك من حاول أن يشكك في تاريخ مولده ﷺ، ومن ذلك ما جاء في الموسوعة الاستشراقية من قول كاتبها:

«من الصعب الإجابة بدقة قاطعة عن أول سؤال يفرض نفسه على كاتب السيرة، وهو متى ولد محمد؟. لقد استغرق نشاط محمد في المدينة نحو عشر سنوات... غير أن معلوماتنا عن الفترة المكية من حياته غير أكيدة. ومع ذلك فليس ثمة سبب وجيه يدعونا إلى الشك فيما ذهبت إليه قصيدة ينسبها البعض إلى أبي قيس بن أبي أنس، والبعض الآخر إلى حسان بن ثابت، من أن دعوة محمد إلى الإسلام في مكة دامت عشراً وبضع سنين.

ويذهب كتّاب السيرة عادة إلى أنه كان عند بدء الدعوة في الأربعين، بينما يذكر البعض أنه كان في الثالثة والأربعين. فإن أخذنا هذا وغيره من التواريخ التي ذكرناها في الحسبان، أمكن القول بأن محمداً ولد حوالي عام ٥٧٠م. ومع ذلك فإنه حين تذكر الروايات أنه ولد عام الفيل، فالواجب اعتبار هذا القول غير مقبول حيث إن هجوم أبرهة على مكة حدث قبل عام ٥٧٠م بمدة طويلة. والأفضل القول إنه ولد بعد عام ٥٧٠م خلال العقد الثامن من القرن السادس وأن نترك موضوع تحديد عام مولده مفتوحاً. أما عن الفترة التي سبقت ظهوره، فليس لدينا ما نهتدي به لتحديدها سوى تعبير غير قاطع ورد في الآية (١٦) من سورة يونس ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ [يونس: ١٦] حيث إن كلمة (عمراً) قد تعني خمسة وثلاثين أو أربعين أو ثلاثة وأربعين عاماً»[٢].

وهذا الرأي الذي ذكره كاتب مبحث حياة محمد ﷺ في الموسوعة، والذي أنكر فيه أن يكون ميلاده ﷺ عام الفيل، وأنكر فيه وقوع حادث الفيل عام ٥٧٠م، وزعم أنه «ينبغي أن يكون وقع قبل هذا التاريخ» هذا الرأي لا يقوى على

---

(١) محمد رسول الله، ص٧١. وانظر: الإسلام كما يراه ألماني مسلم: مراد هوفمان، ص١٥٧.
(٢) ص٩١١٢.

الوقوف أمام النصوص والأدلة المؤيدة لهذا الأمر والتي مرَّ ذكرها، ولا يعتبر ما كتبه شيئاً يستحق أن يضاف لمادة البحث في هذا الموضوع.

وسبب ذلك كله أن كاتب هذه المبحث يتخذ موقف الإنكار، ويصدر الأحكام، من غير أن يكلف نفسه إثباتها بالدليل. وهذا سلوك يأباه المنهج العلمي الصحيح والعقل المتحرر السليم، وتأباه قواعد الفكر الوضعي الذي يؤمن به جلّ الكتاب الغربيين، ومنهم هذا الكاتب.

وأما دعواه أننا لا نملك معلومات تاريخية عن المرحلة المكية من حياة النبي ﷺ، فليس لها أساس من الصحة. ويبدو أن كاتب هذا المبحث جعل القرآن المصدر الأساس لبحثه، وتجاهل كتب الحديث، واتخذ موقف الشك من مصادر السيرة. لذلك ذهب به الظن إلى هذا الرأي، وذلك لأنه لم يجد في القرآن سرداً مفصلاً لأحداث حياته ﷺ في طفولته وفتوته، وكنتيجة لهذا المنهج الخاطئ في التعامل مع السيرة أخذ الكاتب في التشكيك بكل ما لم يرد في القرآن ويتعامل بانتقائية مع أحداث السيرة[1]، وهو منهج واضح البطلان.

---

(١) انظر: السيرة النبوية: د. أحمد أبو زيد، ص٤١.

المبحث الثاني

نشأته ﷺ

بعدما وضعت والدة النبي ﷺ آمنة بنت وهب حملها أرسلت إلى جده عبد المطلب وأخبرته بولادة حفيده، فسر به كثيراً، وأخذه ودخل به الكعبة، ودعا له بخير، وسماه محمداً، فلما سئل عن سبب هذه التسمية مع أنها لم توجد في آبائه أو في أقربائه، قال: أردت أن يحمد في السماء عند الله، وفي الأرض عند الناس[١].

وقد سر عبد المطلب بولادة محمد كثيراً، وعق عنه بكبش، وقد عاش الوليد في كنف أمه سبعة أيام أرضعته فيها، وقد سر أعمامه بميلاد ابن لأخيهم الذي فقدوه صغيراً، لدرجة أن أبا لهب أعتق جاريته ثويبة عندما أخبرته بميلاد محمد ﷺ، فذهبت إلى أمه «آمنة»، وأرضعته معها[٢].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، ص١٨٤. وقد ورد ما يثبت رضاعه ﷺ من ثويبة في كتب الصحاح، انظر: صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ﴾ (٧/ ٩) برقم (٥١٠١)، وصحيح مسلم، كتاب النكاح، باب يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب (٢/ ٢٢١)، برقم (٢٠٥٦). وثويبة: هي التي أرضعت عمه حمزة وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي؛ ليكون لهما أخاً في الرضاع.

وأقبلت آمنة على وليدها بالحنان والرفق، في انتظار مرضعة تستلمه؛ لتقوم بتربيته في البادية؛ حيث الخلاء الواسع، وبساطة الحياة، وفطرة الناس، وكانت عادة أثرياء أهل مكة أن يسلموا أولادهم بعد ولادتهم، لمرضعات من البادية لقاء أجر ورزق.

واتفق أن جاءت المراضع من بني سعد يلتمسن أبناء الأغنياء؛ طمعاً في الرزق واليسار ومروا جميعاً على آمنة، فرأوا ولدها يتيماً فقيراً، فتركنه لقلة الأجر، وضآلة العطاء المنتظر من يتيم فقير. ووجد النسوة عند أبناء الأثرياء ما يأملون، ما عدا حليمة السعدية، فإنها كانت فقيرة ضعيفة، رأت الأمهات منها ما صرفهن عن اختيارها مرضعة لأبنائهم، فلبنها قليل، وجسدها نحيل، وأتانها هزيل، والفقر باد عليها، فانصرفوا عنها إلى غيرها.

ووجدت حليمة نفسها مضطرة لأخذ محمد ﷺ حتى لا تعود لديارها خاوية الوفاض، فكان في أخذها له الخيرة والبركة، وظهر ذلك في كافة جوانب حياتها وأسرتها، ونعمت بهذا الخير هي وقومها بعد ذلك.

وحليمة هي بنت أبي ذؤيب، وهو عبد الله بن الحارث بن سعد من هوازن، وتعرف بحليمة السعدية، وكنيتها أم كبشة. وزوجها هو الحارث بن عبد العزى بن رفاعة من هوازن كذلك، ويكنى بأبي كبشة.

وقد شرفها الله تعالى بإرضاع محمد ﷺ، فصارت له أماً، وصار زوجها له أباً، وصار أبناؤها إخوته[١].

وقد أكرمها الله تعالى، ففاض الخير في كل جوانب حياتها ببركته ﷺ، حيث أخصبت أرضها الجدباء، ودر لبن إبلها الجاف، وصارت ترى النعيم في كل شؤونها.

ولا شك أن هذا من رعاية الله تعالى المستمرة مع رسول الله ﷺ، وخبر إرضاع حليمة السعدية له ﷺ في ديار بني سعد، وما ظهر عليه من البركة خبر مستفيض في كتب السيرة قديمها وحديثها، وأقدم من أورده من كتاب «السيرة» ابن إسحاق (ت١٥١هـ)[٢].

---

(١) السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي، ص١٨٤ ـ ١٨٥، وانظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٤٨).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ١٥٠)، والسيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٠٢).

ولما بلغ عمره ﷺ سنتين فصلته حليمة، وعادت به إلى أمه في مكة. وذلك على عادة سائر المراضع مع أبنائهن، ولم تكن حليمة سعيدة بعودته لأمه؛ لأنها تخاف توقف الخير الذي تدفق عليها، تقول حليمة: «فقدمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا؛ لما كنا نرى من بركته»(١).

عرضت حليمة على آمنة أن تعود بمحمد ﷺ إلى ديارها مرة ثانية لتستمر بركته، ولتبتعد به عن وباء كان بمكة يومذاك، فوافقتها آمنة، وأعادته معها مرة ثانية إلى ديار بني سعد، وبخاصة أن مكة يومذاك كانت موبوءة، وأملت أن يزداد محمد نضارة وازدهاراً ونمواً في بدنه وعقله وشخصيته، ليشب رجلاً له قدره ومنزلته ويقوم بدوره مع جده وأعمامه وقومه(٢).

وتتواصل إرهاصات النبوة مع رسول الله ﷺ وهو عند حليمة بعد عودته معها مرة ثانية، ومن هذه الإرهاصات حادثة شق الصدر، الثابتة بالروايات الصحيحة.

روى مسلم بسنده عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، واستخرج منه علقة سوداء، فقال: هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه - يعني: ظئره - فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه، وهو منتقع اللون، قال أنس: وقد كنت أرى ذلك المخيط في صدره»(٣).

وقد تناولت كتب السيرة حادثة شق الصدر برواياتها وتفاصيلها(٤). وهذه الحادثة التي وقعت لرسول الله ﷺ منذ الطفولة المبكرة، تكررت معه حوالي أربع مرات اثنتان منها في مرحلة الطفولة، فالمرة الأولى تقدم الحديث عنها.

وأما الثانية فحصلت له ﷺ وهو ابن عشر سنين، لِما أخرجه عبد الله بن

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٥٢).

(٢) السيرة النبوية في العهد المكي، ص١٨٨.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٥٣)، دلائل النبوة: لأبي نعيم (١/ ٢٢١)، دلائل النبوة: للبيهقي (١/ ١٤٦)، الشفا (١/ ٣٣٧)، الروض الأنف (٢/ ١٠٩)، إمتاع الأسماع (٣/ ٣٧)، السيرة النبوية: لابن كثير ص٢٢٩، السيرة الحلبية (١/ ١٤١)، الخصائص الكبرى: للسيوطي (١/ ١١٢).

أحمد في زوائده على المسند عن أبيّ بن كعب ﷺ أن أبا هريرة ﷺ كان جريئاً على أن يسأل رسول الله ﷺ عن أشياء لا يسأله عنها غيره، فقال: يا رسول الله ما أول ما رأيت في أمر النبوة؟. فاستوى رسول الله ﷺ جالساً، وقال: «**لقد سألت أبا هريرة إني لفي صحراء ابن عشر سنين وأشهر، وإذا بكلام فوق رأسي، وإذا رجل يقول لرجل: أهو هو؟. قال: نعم، فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط، وأرواح لم أجدها من خلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط، فأقبلا إليّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي، لا أجد لأحدهما مسّاً، فقال أحدهما لصاحبه: أضجعه؛ فأضجعاني بلا قصر ولا هصر، وقال أحدهما لصاحبه: أفلق صدره، فهوى أحدهما إلى صدري، ففلقها فيما أرى بلا دم، ولا وجع، فقال له: أخرج الغل والحسد، فأخرج شيئاً كهيئة العلقة ثم نبذها فطرحها، فقال له: أدخل الرأفة والرحمة، فإذا مثل الذي أخرج يشبه الفضة، ثم هز إبهام رجلي اليمنى، فقال: اغد وأسلم، فرجعت بها أغدو رقة على الصغير، ورحمة للكبير**»(١).

والمرتان الأخريان في شق الصدر حصلت له عند مبعثه ﷺ وعند الإسراء والمعراج به، وقد تقدم الكلام عنها مفصلاً وبيان موقف المستشرقين منها ضمن الحديث عن إرهاصات نبوته ﷺ.

وأحاديث شق الصدر صحيحة بالسند، أجمعت عليها سائر مؤلفات السيرة، فلا مجال للشك في سندها، كما أن أحاديث شق الصدر مروية عن رسول الله ﷺ بعد مبعثه، فهي بذلك من الوحي المنزل على رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى أبداً.

إن شق صدر النبي ﷺ كان لإخراج حظ النفس والشيطان من قلبه، لقد كان بوسع الخالق جلَّ وعلا أن يضع في محمد ﷺ ما يشاء له من فضل وخير، بصورة معنوية غير مدركة بالحواس، لكنه تعالى أراد له هذه الصورة الحسية؛ ليشهد الناس على هذه المعجزة العجيبة الخالدة التي جعلت من محمد ﷺ إنساناً قويّاً، شجاعاً طاهراً، نظيف الظاهر والباطن. ولا نستطيع القول بأن حظ الشيطان مرتبط في النفس بجزء مادي أو غدة معينة؛ لأن هذا مما يستحيل تحديده.

وكل ما يمكن الإشارة إليه أن شق صدر محمد ﷺ من عناية الله به؛ ليترقى

(١) تقدم تخريجه.

في الطهر، ويسمو في السلوك، ويعلو في روحانيته وشفافيته، ويقترب في نورانيته من الروح والملأ الأعلى[١].

عاد محمد ﷺ من ديار بني سعد بعدما بلغ خمس سنوات للمرة الثانية والأخيرة، وسُرَّت أمه بقدومه، وأخذت في توجيهه وتنشئته، تساعدها أم أيمن، وكذلك جده عبد المطلب الذي رأى في محمد صورة ابنه عبد الله.

لقد كان لطفولة النبي ﷺ في بادية بني سعد أثرها على بنيته الجسدية وتحمله للمحن، كما تكون في تلك البادية استعداده للتأمل الفكري منذ نعومة أظفاره. يقول المستشرق الفرنسي نصر الدين (دينيه):

«هذه الصحة الأخلاقية والجسمية التي يدين بها إلى البادية، ساعدته كثيراً على تحمل ما ابتلي به بعد من محن. كان محمد يحب إعادة ذكريات تلك الفترة، كثيراً ما كان يقول: «إن من نعم الله علي التي لا تقدر، أني ولدت في قريش أشرف القبائل، وأني نشأت في بادية بني سعد، أصح المواطن بالحجاز»، وقد بقيت منطبعة في نفسه صور البادية التي كانت أول الأشياء تأثيراً في حسه عندما كان يسرح فيها مع الرعاة فيتسلق شرفاً ليلاحظ القطعان في مراعيها»[٢].

لاحظت آمنة أن محمداً يتمتع بقوة بدنية وعقلية، تفوق أقرانه من الأطفال، ورأت أن تذهب به لزيارة أخوال أبيه من بني عدي بن النجار، وليعرف قبر أبيه الذي دفن في دارهم، وليعلم أصوله من جهة أمه كما علمها من جهة أبيه. وأخذته ﷺ ورحلت به على ناقتين لها، ومعهما أم أيمن، ومكثت في المدينة شهراً كاملاً؛ ليتمكن وليدها الصغير من التعرف بالمكان وأهله، ويرى ما هم فيه من عادات وأديان وأعمال، من خلال لعبه مع الصغار، أو جلوسه مع الكبار.

وعند عودة آمنة من المدينة إلى مكة ماتت في الطريق عند الأبواء[٣]، ودفنت بها. ورجعت القافلة مرة أخرى إلى مكة بلا آمنة، فاستقبلها عبد المطلب، وضمَّ حفيده إليه، فكفل محمداً ﷺ ومعه حاضنته «أم أيمن» تخدمه.

وبقيت ذكريات رحلة المدينة مع رسول الله ﷺ طوال حياته؛ لأنه ﷺ لما

---

(١) السيرة النبوية في العهد المكي، ص١٧٩.

(٢) محمد رسول الله، ص٧٥.

(٣) الأبواء: قرية صغيرة بين مكة والمدينة، بينها وبين المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً، انظر: معجم البلدان (١/ ٧٩).

هاجر في الإسلام إلى المدينة المنورة بعد سبع وأربعين سنة؛ نظر إلى أطم[١] بني النجار وقال: «كنت ألاعب «أنيسة» ـ وهي جارية من الأنصار ـ على هذه الأطم، وكنت مع الغلمان أبناء أخوالي نطير طائراً كان يقع علينا، وأحسنت العوم في بئر بني عدي بن النجار»، وقال: «وفي دار بني عدي نزلت مع أمي، وفيها قبر أبي»[٢].

وقد زار النبي ﷺ بعد البعثة أيضاً قبر أمه فبكى وأبكى، فلما سئل: ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «**تذكرت رحمتها فبكيت**»[٣].

وهكذا نشأ النبي ﷺ يتيماً لحكمة أرادها الخالق جلَّ وعلا يتبيَّن من خلالها مدى تفضله سبحانه على رسوله الأمين ﷺ، ويجمل الله تعالى هذا التفضيل على محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦﴾ [الضحى: ٦]؛ حيث يشير إلى أن محمداً ﷺ ولد في رعاية الله تعالى، فبرغم يتمه إلا أن الله أحاطه بالإيواء الشامل، فأحبه كل من رآه، بدءاً بمراضعه ومروراً بمن شاركهم في طفولته وشبابه ورجولته.

فهو إيواء يتضمن الرعاية والاهتمام والمعاملة والتضحية في مودة صادقة، أغنت محمداً ﷺ عن رعاية الوالد الحنون.

وفي ولادته ﷺ ونشأته يتيماً فقيراً إشارة إلى بعض الحكم الإلٰهية، التي يمكن استنباطها في العصر الحديث، ومن أهمها:

١ ـ أراد الله تعالى أن ينشأ محمد ﷺ محاطاً بالرعاية الإلٰهية التامة منذ اللحظة الأولى لوجوده في الدنيا، وحتى لا تفسر خيرات الله له بسبب أبيه أو أمه أو بتأثير ماله وغناه... ولو فكر عقلاء هذا الزمان في تميز هذا اليتيم عن أقرانه ولداته؛ لأدركوا شيئاً عن هذه العناية الإلٰهية بمحمد ﷺ.

٢ ـ في ولادته ﷺ يتيماً فقيراً ردٌّ لأي شبهة يمكن أن يختلقها الأفاكون الضالون كأن يقولوا: إن محمداً أخذ تعاليم النبوة من أبيه أو من أمه؛ حيث يحاول الآباء دائماً غرس قيمهم وعاداتهم واهتماماتهم في أبنائهم، بل إن الابن

(١) الأطم: الحصون، ومفردها أطمة، انظر: لسان العرب (١٢/ ١٩).
(٢) الطبقات الكبرى (١/ ١١٦).
(٣) المرجع السابق (١/ ١١٧).

يحاول بصورة تلقائية أن يقلد أباه، ويجتهد في حمل فكره ومذهبه.

لقد زعم كفار مكة أن محمداً ﷺ يأخذ ما يقوله لهم من رجل غريب، وقالوا ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [الفرقان: ٤، ٥]، وفي وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ [النحل: ١٠٣]. لقد بحث كفار مكة عن شخص له صلة برسول الله ﷺ ليزعموا أنه مؤلف الوحي، وأن محمداً يأخذ منه، وقد بيَّن الله كذبهم وضلالهم فيما يزعمون.

فلو كان عبد الله والد النبي ﷺ حيّاً لسهل عليهم ادعاء أنه المعلم لولده، وأن الوحي من كلامه وتأليفه. لكن الله تعالى قطع عنهم هذا الطريق بوفاة عبد الله، وميلاد محمد ﷺ بعد وفاته(١).

وهكذا فقد الرسول ﷺ أبويه، ووجد نفسه وحيداً فريداً، حرم من الآباء والإخوة، ولو كان غير محمد لأصابه الكثير، إلا أن الرعاية الإلهية كانت معه ﷺ؛ حيث قام عبد المطلب بكفالته بعد رجوعه إلى مكة مباشرة، وشمله بعنايته واهتمامه، وكان يرعاه أكثر من أبنائه.

وقد ذكر ابن إسحاق في «السيرة» أن عبد المطلب كان يوضع له فراش في ظل الكعبة، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك، حتى يخرج إليه، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له، قال: فكان رسول الله ﷺ يأتي، وهو غلام جفر(٢)، حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه، ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب، إذا رأى ذلك منهم: دعوا ابني، فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده، ويسره ما يراه يصنع(٣).

ولما شعر عبد المطلب بدنوِّ أجله، وصى ابنه أبا طالب بكفالته وكان شقيقاً لوالد النبي ﷺ(٤)، فكفله عمه أبو طالب بعد وفاة جده عبد المطلب، وعمر

---

(١) السيرة النبوية في العهد المكي، ص١٧٧ ـ ١٧٨. وانظر: فقه السيرة: للبوطي، ص٤٥ ـ ٤٦.
(٢) الجفر: الصبي إذا انتفخ لحمه وأكل. لسان العرب (٤/ ١٤٢).
(٣) سيرة ابن هشام (١/ ١٥٦).
(٤) المرجع السابق (١/ ١٦٤).

النبي ﷺ حينها ثماني سنوات[١].

يقول ابن سعد: «ومات عبد المطلب فدفن بالحجون، وهو يومئذ ابن اثنتين وثمانين سنة، ويقال: ابن مائة وعشر سنين. وسئل رسول الله ﷺ: أتذكر موت عبد المطلب؟. قال: «**نعم، أنا يومئذ ابن ثماني سنين**». قالت أم أيمن: رأيت رسول الله ﷺ يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب»[٢].

عاش النبي ﷺ بعد ذلك في كفالة عمه أبي طالب، تحيطه رعاية الله الذي حفظه من ذل اليتم وضرر الفقر.

وتهيئة أبي طالب لكفالة محمد ﷺ قدر إلٰهي خالص؛ لأن أبا طالب كان كثير العيال، فقير الحال، وكان الطعام يقدم لأولاده، فيتطاولون عليه لقلته، وكان الفقر بادياً عليهم. وقد رأى محمد ﷺ رغم صغره حاجة عمه أبي طالب للمال، فأخذ على عاتقه أن يعمل ويكتسب شيئاً يعين به عمه.

وأراد الله لمحمد ﷺ أن يخرج إلى الناس، ويختلط بهم، ويتعامل معهم، في بيئته، وبعيداً عنها؛ لينال أهلية الرسالة بصورة عملية تطبيقية.

إن التربية العملية لها دور رئيس في بروز الشخصية السوية، وكلما اختلط الصغير بالناس اكتسب خبرة ومعرفة، وكلما سافر ورحل عرف المزيد؛ لهذا نرى ـ والله أعلم ـ أن الله هيأ لحبيبه محمد ﷺ مجالاً رحباً لهذه التنشئة. فقد عاش ﷺ في بادية بني سعد خمس سنوات، اختلط بالناس وقام بالعمل والرعي، ورحل إلى المدينة برفقة أمه في رحلتها التي ماتت فيها وأقام بالمدينة شهراً، وفي كفالة جده اختلط بحكماء مكة ورجالاتها. ومع عمه أبي طالب رأى ﷺ حنان الأب واهتمامه؛ حيث كان يصطحبه معه أينما ذهب، وكان يحبه حباً شديداً، لا يتركه ينام إلا بجواره، ولا يخرج إلا في معيته، ولا يطعم أبناءه إلا وهو معهم[٣].

كان أبو طالب مُقلّاً في الرزق فعمل النبي ﷺ برعي الغنم مساعدة منه لعمه، فلقد أخبر ﷺ عن نفسه الكريمة وعن إخوانه من الأنبياء أنهم رعوا الغنم،

---

(١) المرجع السابق (١/١٥٦).

(٢) الطبقات الكبرى (١/١١٩).

(٣) السيرة النبوية في العهد المكي، ص٢٠٧.

أما هو فقد رعاها لأهل مكة وهو غلام وأخذ حقه عن رعيه، ففي الحديث الصحيح قال رسول الله ﷺ: «**ما بعث الله نبيّاً إلا رعى الغنم**»، فقال أصحابه: وأنت؟ قال: «**نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**»(١).

إن رعي الغنم كان يتيح للنبي ﷺ الهدوء الذي تتطلبه نفسه الكريمة، ويتيح له المتعة بجمال الصحراء، ويتيح له التطلع إلى مظاهر جلال الله في عظمة الخلق، ويتيح له مناجاة الوجود في هدأة الليل وظلال القمر ونسمات الأشجار، يتيح له لوناً من التربية النفسية من الصبر والحلم والأناة، والرأفة والرحمة، والعناية بالضعيف حتى يقوى، وزم قوى القوي حتى يستمسك للضعيف ويسير بسيره، وارتياد مشارع الخصب والري وتجنب الهلكة ومواقع الخوف من كل ما لا تتيحه حياة أخرى بعيدة عن جو الصحراء وهدوئها وسياسة هذا الحيوان الأليف الضعيف(٢).

وتذكرنا رعايته للغنم بأحاديثه ﷺ التي توجه المسلمين للإحسان للحيوانات فكان رعي الغنم للنبي ﷺ دربة ومراناً له على سياسة الأمم(٣).

موقف المستشرقين:

رغم وضوح ما ذكرته كتب السيرة النبوية من أحداث تتعلق بنشأته ﷺ والمراحل التي مر بها ﷺ منذ ولادته وحتى كفالة عمه أبي طالب له، وما بعدها من تفاصيل ـ ستأتي الإشارة إليها ـ إلا أن طائفة كبيرة من المستشرقين أعلنت عن دعوى تناقلوها فيما بينهم دون تحقيق ولا تمحيص، ومفادها أن هذه الفترة من حياة النبي ﷺ كانت غامضة غير واضحة المعالم. وقد أشار إلى ذلك غير واحد من المستشرقين، ومن هؤلاء:

ـ المستشرق فيليب حِتّي حيث يقول: «ومع أن الحقائق التاريخية المتعلقة بمحمد معروفة، فإن حياة محمد الرجل (قبل البعثة) يخفى علينا منها شيء

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإجارة، باب رعي الغنم على قراريط (٣/ ٨٨) حديث رقم (٢٢٦٢).

(٢) محمد رسول الله: محمد الصادق العرجون (١/ ١٧٧).

(٣) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، ص٥٤ ـ ٥٥، والسيرة النبوية الصحيحة: أكرم العمري (١/ ١٠٦).

كثير. . . وأول لمحة يتيحها لنا التاريخ من حياة محمد أنه طفل ولد في أسرة فقيرة، وتلك حقيقة تؤكدها السورة الثالثة والتسعون، سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: ٦ ـ ٨]. ولا ريب في أن القرآن الكريم أحسن المصادر لأحداث حياة محمد: لقد مات والد محمد في أثناء إحدى سفراته بالتجارة إلى الشام قبل مولد محمد. ثم توفيت أمه وعمره نحو ست سنوات. . .»[١].

ـ ويقول المستشرق سيديو: «كانت سنوات محمد الأولى غامضة، فقد توفي أبوه قبل ولادته بشهرين، فعنيت أمه آمنة به، ثم فقدها وهو في السادسة من سنيه، وهو لم يرث غير جارية سوداء مسنة كنيتها أم أيمن وغير خمسة جمال»[٢].

ـ ويضيف رودي باريت: «وهكذا فإن التوثيق لما قبل البعثة من حياة النبي يظل شديد الندرة. فمع أن تلك الحقبة من حياته تبلغ من حيث عدد السنين ثلثي عمره، فإننا لا نملك عنها غير معلومات قليلة موثوقة»[٣]. وإلى هذا الرأي ذهب مستشرقون آخرون ممن كتبوا حول سيرة النبي ﷺ من أمثال: كارول بروكلمان[٤]، ومكسيم رودنسون[٥].

ـ كما شارك في هذه الدعوى بعض المتعاطفين من المستشرقين من أمثال كارين أرمسترونج حيث تقول: «لا نعرف عن حياة محمد المبكرة سوى النزر القليل، ويمدنا القرآن بأكثر الأوصاف ثقة عن حالة النبي قبل تلقيه الرسالة في سن الأربعين، يأتي ذلك في سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ أما فيما بعد فقد أضاف الموروث الإسلامي بعض التفاصيل»[٦].

ورغم ما ذكره هؤلاء المستشرقون من تفاصيل دقيقة في سيرة النبي ﷺ بدءاً

---

(١) الإسلام منهج حياة، ص١٢ ـ ١٣.
(٢) تاريخ العرب العام، ص٦٦.
(٣) محمد والقرآن، ص٥٤.
(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٣.
(٥) الظاهرة الاستشراقية (٢/ ٦٢).
(٦) سيرة النبي محمد، ص١١٣.

من مولده ووفاة والديه ﷺ ورضاعته في ديار بني سعد وكفالة جده عبد المطلب له ومن ثم عمه أبي طالب وما مرَّ به ﷺ بعد ذلك من أحداث متعاقبة حتى زواجه ﷺ ثم بعثته، أقول: إن كل هذه الأحداث المفصلة وغيرها لم تمنع هؤلاء أن يزعموا عدم وجود معلومات كافية عن نشأته ﷺ، وكأنهم جهزوا هذه الدعوى مسبقاً وأصروا عليها لاحقاً.

والحق أن الباحث في سيرته ﷺ لا يجد سبباً مقنعاً يدعو هؤلاء المستشرقين إلى هذا القول المغاير للحقيقة والواقع، فكيف أجازوا لأنفسهم أن يقولوا ذلك، وهم يعلمون كما يعلم كل إنسان أتيح له شيء من الثقافة والدراسة التاريخية أنه لم تعرف ترجمة لحياة إنسان في التاريخ، كما عرفت ترجمة حياة محمد بن عبد الله، ونبي الإسلام ﷺ، فلم يكن من أسرة مغمورة أو مجهولة، فهو حفيد سيد قريش وعظيمها عبد المطلب، وهو من تحدثت عنه مكة ويثرب، لما أحاط ولادته من ظروف قاسية، حيث توفي أبوه عبد الله في دار الغربة، في يثرب، تاركاً ابناً لم تلده أمه آمنة بعد، وما أعقب ذلك من حياته في حجر جده عبد المطلب، ومتابعة أخباره وهو في رعاية عمه أبي طالب، وما أرفق ذلك من مشاركته في أحداث مكة، إلى تجارته إلى الشام بمال خديجة بنت خويلد، ثم زواجه منها، وقد أصبح ذلك حديث مكة، كما كان موقفه من خلاف بطون قريش حول إعادة الحجر الأسود إلى مكانه في الكعبة حديث مكة أيضاً، فهل يقال بعد ذلك إن هذه الفترة من حياته ﷺ كانت مجهولة أو غامضة، وأن معلوماتنا عنها غير موثقة.

إن شخصية أقل بكثير من النبي ﷺ كشاعر، أو خطيب، أو وجيه في قبيلة عربية، يذكر الرواة عن نشأته ومراحل حياته الشيء الكثير فكيف بمحمد بن عبد الله، وهو حفيد عبد المطلب زعيم قومه؟.

لقد تناسى هؤلاء المدعين ـ وغالبهم من النصارى ـ أن ثماني عشرة سنة ضائعة من حياة يسوع، لا يدري عنها إنسان قديماً وحاضراً ومستقبلاً، كلمة واحدة، وخبراً واحداً[١].

---

(١) حتى ألَّف (تشارلز فرانسيس بوتر) كتاباً عنوانه: «الكشف عن السنين المفقودة من حياة يسوع»، انظر: علماء ومفكرون عرفتهم: محمد المجذوب (٢/ ٢٧٢).

لننظر في الأناجيل الأربعة واحداً إثر آخر فماذا نجد؟.

الإنجيل الأول: إنجيل متى، نراه في الإصحاح الثاني ينتهي ويسوع رضيع: «وأتى وسكن في مدينة يقال لها ناصرة، لكي يتم ما قيل بالأنبياء إنه سيدعى ناصريّاً»[1]، ليبدأ الإصحاح الثالث مباشرة بتعميد يسوع وهو ابن الثلاثين عاماً: «في تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية... حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليتعمد منه...»[2].

والإنجيل الثاني: إنجيل مرقس، بدأ بتعميد يسوع مباشرة، فلا طفولة فيه أبداً، وهذه هي السنوات الضائعة الغامضة من حياة يسوع، ففي الإصحاح الأول مباشرة: «... وفي تلك الأيام جاء يسوع من ناصرة الجليل اعتمد من يوحنا في الأردن»[3].

والإنجيل الثالث: إنجيل لوقا، ينتهي كلامه عن يسوع وهو ابن اثنتي عشرة سنة في الإصحاح الثاني، ليبدأ الحديث عنه وهو ابن الثلاثين من عمره في الإصحاح الثالث:

«وكان أبواه يذهبان كل سنة إلى أورشليم في عيد الفصح، ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا إلى أورشليم كعادة العيد»[4].

وفي الإصحاح الثالث مباشرة يتكلم عن يسوع وهو ابن الثلاثين: «ولما اعتمد جميع الشعب، اعتمد يسوع أيضاً»[5].

والإنجيل الرابع: إنجيل يوحنا، يتحدث مباشرة منذ إصحاحه الأول عن حياة يسوع في سنواته الأخيرة.

فمن الذي لا يملك بيِّنة ومعلومات موثوقاً بها؟ المسلمون أم النصارى؟.

إن كل الدارسين لتاريخ الإسلام أولاً ورسوله ﷺ ثانياً، يعرفون كل التفاصيل عن حياة محمد بن عبد الله ﷺ، منذ ولادته، وحتى وفاته، ما فاتهم منها قليل أو كثير، ولا يغير من حقائق هذه المعرفة إنكار حاقد أو متعصب أو

---

(١) متّى (٢/٢٣).
(٢) متّى (٣/١، ١٣).
(٣) مرقس (١/٩).
(٤) لوقا (٢/٤١ ـ ٤٢).
(٥) لوقا (٣/٢١).

موتور، أراد أن يرمينا بدائه وينسل!![1].

يقول (ول ديورانت) في قصة الحضارة: «هل وجد المسيح حقاً؟ أو أن قصة حياة مؤسس المسيحية وثمرة أحزان البشرية، وخيالاتها، وآمالها، أسطورة من الأساطير شبيهة بخرافات كرشنا، وأوزريس، وأتيس، وأدنيس، وديونسيس، ومثراس؟ لقد كان (بولنجرك) والملتفون حوله، وهم جماعة ارتاح لأفكارهم فولتير نفسه، يقول في مجالسهم الخاصة: إن المسيح قد لا يكون له وجود على الإطلاق، وجهر فلني (Volney) بهذا الشك نفسه في كتابة خرائب الإمبراطورية، الذي نشره في عام ١٧٩١م، ولما التقى نابليون في عام ١٨٠٨م بفيلاند (Wieland) العالم الألماني، لم يسأله القائد الفاتح سؤالاً تافهاً في السياسة أو الحرب، بل سأله هل يؤمن بتاريخية المسيح؟»[2].

ويتابع ديورانت قائلاً: «وبلغت المدرسة الفلسفية صاحبة البحوث الدينية ذروتها في أواخر القرن التاسع عشر على يد الأب لوازي (Loisy) الذي حلَّل نصوص العهد الجديد تحليلاً بلغ من الصرامة حدّاً اضطرت معه الكنيسة الكاثوليكية إلى إصدار قرار بحرمانه، هو وغيره من (المُحدثين)، وفي هذه الأثناء وصلت المدرسة الهولندية مدرسة بيرسن (pierson) ونابر (Naber) وميثاس (Metthas) بالحركة إلى أبعد حدودها إذ أنكرت بعد بحوث مضنية حقيقة المسيح التاريخية، وفي ألمانيا عرض آرثر دروز (Arthur Drews) هذه النتيجة السالبة عرضاً واضحاً محدداً ١٩٠٦م، وفي إنجلترا أدلي و. ب. أسمث (W.b.smith)، وج. م. ربرتسن (j.m.robertson) بحجج من هذا النوع أنكر فيها وجود المسيح وهكذا بدا أن الجدل الذي دام مائتي عام، سينتهي إلى إفناء شخصية المسيح إفناءً تاماً»[3].

ومع أن المسلم لا يقول عن المسيح ﷺ ما قاله هؤلاء العلماء ولا يرى ما رأوا بل يحمل كل إجلال وتقدير لشخص المسيح وحقيقة دعوته التي جاء بها بوصفه واحداً من أعظم أنبياء الله تعالى، فإن الكنيسة ودعاتها لم تحفظ ذلك للمسلمين بل ذهبت تسقط ما فيها.

---

(١) انظر: الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين: د. شوقي أبو خليل، ص٤١ ـ ٤٤.

(٢) (٢٠٢/١١).

(٣) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

بل حتى ولادة السيد المسيح عليه السلام، بطريقة لا يتصورها عقل أو منطق قبلها المسلمون بكل إيمان وتسليم، وبقيت أمه مريم في نظرهم (الطاهرة البتول) فهل حفظت الكنيسة للمسلمين هذا المعتقد؟.

كما أن القرآن في ثلث دفتيه يتحدث عن حياة مريم والمسيح، وجاء في القرآن الكريم سورة باسم عائلة السيد المسيح (آل عمران)، و(آل) كلمة تخاطب بها العائلة الكريمة الطيبة الشريفة، وجاءت سورة باسم معجزة السيد المسيح (المائدة) وفيها ثلاث معجزات للسيد المسيح لم تذكرها الأناجيل، وهي: نزول المائدة، وإحياء الطير، والتكلم في المهد، وجاءت سورة أخرى باسم والدته البتول (مريم)، وسورة باسم الأتباع (الكهف) وكلها من السور الطوال[١].

يقول المستشرق بودلي في مقدمة كتابه «الرسول» الذي تحدث فيه عن سيرة النبي ﷺ: «إننا لا نجد ما دونه معاصرو موسى أو كونفوشيوس أو بوذا، ولا نعرف إلا شذرات عن حياة المسيح بعد رسالته، ولا نعرف شيئاً عن الثلاثين سنة التي مهدت الطريق للسنوات الثلاث التي بلغ فيها أوجه، ولكننا نجد أن قصة محمد واضحة كل الوضوح.

ففي سيرة محمد نجد التاريخ بدل الظلال والغموض، ونعرف الشيء الكثير عن محمد، كما نعرف ذلك عن رجال عاشوا في أزمان أكثر قرباً من زماننا، وما كان تاريخه الخارجي وشبابه وأقاربه وعاداته، خرافة من الخرافات، ولا شائعة من الشائعات، وما كان تاريخه الداخلي، وقد وضح بعد رسالته، برواية مبهمة لمبشر غامض أو مشوَّش»[٢].

ثم يضيف بودلي بعد ذلك: «إن البدو الذين عشت معهم في الصحراء لا يتحدثون عن محمد، كما يتحدثون عن شخص غامض بعيد عنهم، كما يتحدث المسيحيون عن المسيح، وإن المرء لا يحس أبداً ذلك الغموض، ولا تلك العزلة التي يحسها إنسان يرتدي ثياباً تختلف عن ثياب القوم، ويعيش في أرض غريبة، بين أناس غرباء. وليس هنالك مثل تفكير السيدة العجوز من بالتيمور التي قالت عن الصلب: «لقد كان منذ أمد بعيد جداً، ولنأمل ألا يكون صحيحاً».

---

(١) انظر: الإسقاط في مناهج المستشرقين، ص٤٥.

(٢) الرسول، ص٧.

يتحدث العرب عن مؤسس دينهم، كما يتحدثون عن شخص يعرفونه، لقد كان راعياً، وقد ارتدى نفس الثياب التي يلبسونها، وامتطى إبلاً كما يفعلون، وكان التمر الذي عاش عليه تمرهم، إنهم ليشاركونه في كل ما فعله، لقد كان محمد بالنسبة لهؤلاء البدو حيّاً كفرد منهم.

لذلك كانت استعادة ذلك المشهد، الذي مرَّ عليه ثلاثة عشر قرناً بالنسبة إليهم، أيسر من وصف جامعي من أكسفورد الحياة في عصر إليزابيث، وأبسط من كتابة مؤرخ أمريكي عن الولايات المتحدة، قبل حرب الاستقلال...»[١].

رحلاته ﷺ:

ضمن الحديث عن نشأة النبي ﷺ وشبابه في كنف عمه أبي طالب فإن هناك حدثاً توقف المستشرقون عنده طويلاً، وقل أن تخلو منه كتاباتهم، ولهذا فحريٌّ أن نتوقف عنده، ونتأمل فيه، ونرد على ما أثير حوله من مزاعم استشراقية، ذلكم هو رحلة النبي ﷺ مع عمه أبي طالب إلى الشام.

فقد ادَّعى جمهور المستشرقين أن النبي ﷺ تعلم من علم أهل الكتاب خلال هذه الرحلة من راهب ذكر بعضهم أن اسمه «بحيرا»، وقد تناقل هؤلاء هذه الدعوى عبر مراحل زمنية مختلفة دون تمحيص أو استدلال، ولهذا نجد الاختلاف فيما بينهم كبيراً في من هو هذا الشخص الذي تلقى عنه النبي ﷺ بزعمهم؟ وما مهمته؟، وماذا تلقى عنه ﷺ؟، وكيف أخذ عنه؟.

فعلى سبيل المثال يزعم المستشرق بودلي أن النبي ﷺ تأثر بالديانة اليهودية والنصرانية عن طريق ما سمعه خلال رحلاته فيقول:

«... وكان معظم ما عرَّفه محمد عن التوراة والتلمود والإنجيل نتيجة محاوراته مع ورقة بن نوفل وما التقطته أذناه في رحلاته، وإن هذه المعلومات مجتمعة، لهي التي جعلت محمداً يشرد بذهنه أثناء عمله، ويتكاسل فوق راحلته...»[٢].

ويصرح في موضع آخر عن كيفية سماع النبي ﷺ خلال رحلته وممن أخذ فيقول: «... فأخبر بحيرا محمداً بعقيدة عيسى، وسفَّه عبادة الأصنام، وأرهف

---

(١) المرجع السابق، ص١٠ ـ ١١.
(٢) حياة محمد، ص٧٣.

محمد إلى ما ينطق به الرجل، إذ كان غريباً يخالف ما نشأ عليه واعتقد فيه. . .»[١].

ويشير كارل بروكلمان في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية» إلى هذه الدعوى، فيقول: «وتذهب الروايات إلى أنه اتصل في رحلاته ببعض اليهود والنصارى، أما في مكة نفسها فلعله اتصل بجماعات من النصارى كانت معرفتهم بالتوراة والإنجيل هزيلة إلى حد بعيد»[٢].

وكذلك يزعم المستشرق غوستاف لوبون بقوله: «وتقول القصة إن محمداً سافر مع عمه إلى سورية مرة، وتعرف في بصرى إلى راهب نسطوري في دير نصراني، وتلقى منه علم التوراة»[٣].

ثم يضيف حول رحلته ﷺ الثانية إلى الشام: «وتهيأ له السفر إلى سورية بذلك، والاجتماع مرة ثانية بالراهب الذي أطلعه على علم التوراة سابقاً. . .»[٤].

كما أثار هذه الشبهة، المستشرق إميل درمنغم والمستشرق مونتيه[٥] فزعما: أن محمداً ﷺ قد لقي بحيرا الراهب في مدينة بصرى بالشام، وقالوا: إنه كان نسطوريّاً مع آريوس في التوحيد، وينكر ألوهية المسيح وعقيدة التثليث، وأن محمداً لا بد أن يكون علم منه عقيدته، وقالوا في بحيرا أيضاً أنه: كان عالماً فلكيّاً منجماً وحاسباً ساحراً، وإنه كان يعتقد أن الله ظهر له وأنبأه بأن سيكون هادياً لآل إسماعيل إلى الدين المسيحي، كذلك قالوا: إن بحيرا كان معلماً لمحمد ومصاحباً له بعد رسالته، وزعموا: أن محمداً ﷺ ما حرم الخمر إلا لأنه قتل أستاذه بحيرا وهو سكران[٦].

الرد على هذه الدعوى:

إن مقصد من كتب هذه الشبهة وافترى هذه الدعوى وأمثالها هو إثبات عدم

---

(١) المرجع نفسه، ص٣٨.
(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٣٤.
(٣) حضارة العرب، ص١٠٢.
(٤) المرجع السابق، ص١٠٢ ـ ١٠٣.
(٥) إدوارد مونتيه (١٨٥٦ ـ ١٩٢٧): مستشرق سويسري. له: ترجمة فرنسية للقرآن الكريم، وحاضر العالم الإسلامي ومستقبله. انظر: المستشرقون (١/ ٢١٨).
(٦) تفسير المنار (١/ ١٦٩)، الوحي المحمدي: محمد رشيد رضا، ص٩٥.

صحة النبوة المحمدية لا غير، وقد اخترعوا هذه الأكاذيب على أمل إدخال الريب والشبهات في نبوة محمد ﷺ، وفي نزول الوحي عليه.

وإذا أردنا أن نناقش هذه الشبهة فلا بد من بحث النقاط التالية:

- من هو الراهب بحيرا.
- متى لقي النبي ﷺ بحيرا وكم كان عمره، وما موقف منكري النبوة من هذه الحادثة.
- شهادة بعض المستشرقين ببطلان هذه الفرية.

أولاً: الراهب بحيرا:

(بحيرا) بفتح الموحدة وكسر الحاء المهملة وسكون المثناة التحتية آخره راء مقصوراً، وقيل ممدوداً. وهو جِرجس، بكسر الجيم. وقيل: أنه كان نصرانيّاً من عبد القيس، وهذا ما رجحه ابن إسحاق، يقال بأنه سمع قبل الإسلام بقليل هاتف يهتف: ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة: بحيرا، ورباب الشني، والثالث: المنتظر، فكان الثالث رسول الله ﷺ(١).

وقد جاء في «سيرة ابن هشام» بأن هذا الراهب كان يقيم ببصرى من أرض الشام في صومعة له، وكان إليه علم أهل النصرانية، ولم يزل في تلك الصومعة على مدار الدهر راهب إليه يصير علمهم عن كتاب فيها فيما يزعمون يتوارثونه كابراً عن كابر(٢).

ولعلنا نشير هنا إلى أن عدداً من الروايات الواردة في قصة بحيرا ضعفها أهل الحديث، ولعل أقربها للصحة هي الطريق التي أخرجها الإمام الترمذي في «سننه»، وقال فيها: حدثنا الفضل بن سهل أبو العباس الأعرج البغدادي قال: حدثنا عبد الرحمٰن بن غزوان قال: أخبرنا يونس بن أبي إسحاق، عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري، عن أبيه، قال: «خرج أبو طالب إلى الشام وخرج معه النبي ﷺ في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب هبطوا فحلّوا رحالهم، فخرج إليهم الراهب وكانوا قبل ذلك يمرون به فلا يخرج إليهم ولا يلتفت. قال: فهم يحلون رحالهم، فجعل يتخللهم الراهب حتى جاء فأخذ بيد رسول الله ﷺ،

---

(١) الإصابة (١/ ١٢٩)، سيرة ابن هشام (١/ ١٦٥)، الروض الأنف (١/ ٢٠٥).

(٢) سيرة ابن هشام (١/ ١٦٥).

فقال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه الله رحمة للعالمين.

فقال له أشياخ من قريش: ما علمك، فقال: إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا خرَّ ساجداً ولا يسجدان إلا لنبي، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة، ثم رجع فصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به وكان هو في رعية الإبل، قال: أرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال: انظروا إلى فيء الشجرة مال عليه، قال: فبينما هو قائم عليهم وهو يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إن رأوه عرفوه بالصفة فيقتلونه، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا: جئنا، إن هذا النبي خارج في هذا الشهر، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس وإنا قد أخبرنا خبره فبعثنا إلى طريقك هذا، فقال: هل خلفكم أحد هو خير منكم؟ قالوا: إنما أخبرنا خبره بطريقك هذا. قال: أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا: لا، قال: فبايعوه وأقاموا معه. قال: أنشدكم بالله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب، فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وبعث معه أبو بكر بلالاً وزوده الراهب من الكعك والزيت». هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه[1].

---

(١) سنن الترمذي (٥/ ٥٩٠ ـ ٥٩١). وقال الدكتور أكرم العمري في السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٠٧ ـ ١٠٩): «وصححه الحاكم (تلخيص المستدرك ٢/ ٦١٥ ـ ٦١٦)، وتعقبه الذهبي قائلاً: «أظنه موضوعاً وبعضه باطل» وبيَّن اعتراضاته على سند الرواية ومتنها ووصفها بالنكارة، بل يفهم من كلامه شكه في الرواية كلها». السيرة، ص٢٨. فأما انتقاده للسند فقد قال عن عبد الرحمٰن بن غزوان ـ راويها ـ «له مناكير» ثم قال: أنكر حديثه عن يونس بن أبي إسحاق في سفر النبي ﷺ وهو مراهق مع أبي طالب إلى الشام (ميزان الاعتدال ٢/ ٥٨١)، وأما انتقاده للمتن فقد قال: «وهذا حديث منكر جداً، وأين كان أبو بكر؟ كان ابن عشر سنين، فإنه أصغر من رسول الله ﷺ بسنتين ونصف، وأين كان بلال في هذا الوقت؟ فإن أبا بكر لم يشتره إلا بعد المبعث، ولم يكن ولد بعد، وأيضاً فإذا كان عليه غمامة تظله كيف يتصور أن يميل فيء الشجرة؟ لأن ظل الغمامة يُعدم فيء الشجرة التي نزل تحتها، ولم نرَ النبي ﷺ ذكَّر أبا طالب قط بقول الراهب، ولا تذاكرته قريش، ولا حكته أولئك الأشياخ مع توافر هممهم ودواعيهم على حكاية مثل ذلك، فلو وقع لاشتهر بينهم أيما اشتهار، ولبقي عنده ﷺ حسٌّ من النبوّة، ولما أنكر مجيء الوحي إليه أولاً بغار حراء، وأتى خديجة خائفاً على عقله، ولما ذهب إلى شواهق الجبال ليرمي نفسه ﷺ، وأيضاً فلو أثَّر هذا الخوف في أبي طالب ورده كيف كانت تطيب نفسه أن يمكنه من السفر إلى الشام تاجراً لخديجة؟ وفي الحديث ألفاظ منكرة تشبه ألفاظ الطرقيَّة، مع أن ابن عائذ قد روى =

ثانياً: متى لقي النبي ﷺ بحيرا وكم كان عمره، وما موقف منكري النبوة من هذه الحادثة:

أ ـ لما تمَّ له عليه الصلاة والسلام من العمر اثنا عشرة سنة، وقيل تسع سنين[1]، سافر عمه أبو طالب إلى الشام في ركب للتجارة، فأخذه معه، فلما نزل الركب بصرى من أرض الشام، مروا على راهب هناك يقال له: بحيرا، وكان عليماً بالإنجيل خبيراً بشؤون النصرانية، وهناك أبصر بحيرا النبي ﷺ فجعل يتأمله ويكلمه، ثم التفت إلى أبي طالب، فقال له: ما هذا الغلام منك؟ فقال: ابني (وكان أبو طالب يدعوه بابنه لشدة محبته له وشفقته عليه)، فقال بحيرا: ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون أبو هذا الغلام حيّاً، فقال: هو ابن أخي، قال: فما

= معناه في مغازيه دون قوله: «وبعث معه أبو بكر بلالاً. . إلى آخره». فقال: حدثنا الوليد بن مسلم أخبرني أبو داؤد سليمان بن موسى فذكره بمعناه (السيرة النبوية: للذهبي ٢٨). وإنما سقت كلام الذهبي بتمامه لأنه أعلم من انتقد هذه الرواية، فضلاً عما يكشفه كلامه من عناية بالغة بنقد المتون وعدم الاقتصار على نقد الأسانيد ـ كما يتهم البعض المحدثين ـ وكان ابن سيد الناس قد تعقب رواية الترمذي ونبّه على ما في متنها من نكارة، لكنه حصر النكارة في إرسال أبي بكر مع النبي ﷺ بلالاً الذي ورد في آخر الرواية (عيون الأثر ١/ ٢٨). ولعل الحافظ الذهبي استفاد منه في نقده لمتن الرواية، وكذلك فإن ابن القيِّم أفاد منه فيما يبدو حين بيَّن أن ذكر بلال في الرواية خطأ فاحش (زاد المعاد ١/ ١٧). بل يمكن اعتبار ابن إسحاق أول من شكك بالرواية باستعماله صيغة التمريض (يزعمون) ثلاث مرات!!.

وقال الحافظ ابن حجر بعد أن نقل توثيق النقاد لقراد: «وله عند الترمذي حديث من رواية أبي موسى الأشعري فيه ألفاظ منكرة» هدي الساري، ص٤١٨. وقال في التعقيب على ذكر أبي بكر وبلال «بأن هذه اللفظة مدرجة في هذا الحديث مقتطعة من حديث آخر. . وفي الجملة هي وهم من أحد رواته». الإصابة (١/ ١٧٧).

ومن هذا العرض يتبين أن نقد الأئمة لهذه الرواية ينصب على المتن، وخاصة الفقرة الأخيرة من الرواية التي تذكر أبا بكر وبلالاً. وقد بيَّن الألباني أن الجزري صحح الإسناد وقال: «وذكر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ»، وعقب الألباني بذكر ما ورد في رواية البزار «وأرسل معه عمه رجلاً» مما جعل احتمال التصحيف في عبارة حديث الترمذي قويّاً بين «رجلاً» و«بلال» (دفاع عن الحديث النبوي والسيرة: الألباني، ص٦٦ ـ ٦٧). لكن تبقى صعوبةُ تصحيف «أبي بكر» إلى «عمه» وعلى أية حال فإن وجود النكارة في الفقرة الأخيرة لا يعني ضعف سائر الرواية. ما دام السند صحيحاً، وقول الذهبي في قراد: «له مناكير» لا يؤثر في توثيقه لأن الثقة قد تقع في روايته المناكير، ويحتمل منه ذلك إذا لم يُكثر منها، وأما توسع الذهبي في رد سائر الرواية لمجرد احتمالات قابلة للنقاش، ولا تصلح أدلة للطعن في سائر الرواية فلا مبرر له.

ويمكن أن تطمئن النفس إلى إثبات سفره ﷺ مع عمه إلى بُصرى، وتحذير الراهب بحيرا لعمه من يهود والروم بالاعتماد على رواية الترمذي، والاستئناس بالروايات الضعيفة الأخرى».اهـ.

(١) سيرة ابن هشام (١/حاشية ١٦٥)، البداية والنهاية (٢/ ٢٢٩)، الروض الأنف (١/ ٢٠٦).

فعل أبوه؟ قال: مات وأمه حبلى به، قال بحيرا: صدقت فارجع به إلى بلده، واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه هنا ليبلغنه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم، فأسرع به أبو طالب عائداً إلى مكة(١).

وتعليقاً على هذه الرحلة نقول: إن النبي ﷺ لم يخرج في هذه الرحلة لدراسة دين أو فلسفة، ومن كان عمره تسعاً أو اثنتي عشرة سنة فماذا يدرس؟ وماذا يحصل من العلم في جلسة زمنها قصير؟ إنه إنسان أمي لا يقرأ ولا يكتب ولا يتكلم لغة غير العربية، ثم إنه في هذه الرحلة لم يلق من يتحدث معه في المسائل الدينية.

لقد ذكرت كتب السير والتاريخ بعض الخوارق لرسول الله ﷺ في رحلته، وذكرت أنه التقى بالراهب بحيرا الذي تفرس فيه ورأى معالم النبوة في وجهه وبين كتفيه، فلما سأل أبو طالب عنه: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال: ما ينبغي أن يكون أبوه حيّاً، قال أبو طالب: فإنه ابن أخي مات أبوه وأمه حبلى به، قال: صدقت، ارجع إلى بلدك واحذر عليه اليهود.

ثم نقول لأولئك الطاعنين: إن هذه القصة لم تخلف بعدها أثراً، فلا محمد عليه الصلاة والسلام تشوق للنبوة أو استعد لها من أجل كلام الراهب، ولا أصحاب القافلة تذاكروا هذا الحديث أو نقلوه إلى أهل مكة، لقد طويت الأخبار كأن لم تحدث، فلو أن قريشاً علمت أن محمداً ﷺ أخذ شيئاً مما جاء به عن هذا الراهب، هل يمكن أن تسكت عنه، وهي الحريصة على أن تمسك عليه هفوة واحدة من أجل الطعن فيما جاء به.

ب ـ ولما بلغ ﷺ من العمر خمساً وعشرين عاماً سافر مرة أخرى إلى بلاد الشام في تجارة لخديجة رضي الله عنها، وذلك لما بلغها عن رسول الله ﷺ ما يتحلى به من صدق الحديث، وعظم الأمانة، وكرم الأخلاق، بعثت إليه فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً، وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار، مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله رسول الله ﷺ وخرج في مالها ذلك، وخرج معه غلامها ميسرة حتى قدم الشام، فنزل رسول الله ﷺ في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب من الرهبان، فاطلع الراهب إلى ميسرة، فقال له: من هذا

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٦٥) وما بعدها.

الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟ قال له ميسرة: هذا رجل من قريش من أهل الحرم، فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي[(١)].

بعد ذكر هاتين الرحلتين اللتين قام بهما الرسول ﷺ في سن طفولته وشبابه إلى قرية بصرى ببلاد الشام، ولم يتجاوزها إلى داخل البلاد فإن منكري نبوة محمد ﷺ يرددون ما قاله إخوانهم سابقاً مما أشار إليه القرآن الكريم: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ [النحل: ١٠٣].

لقد جاء المستشرقون وتلقفوا هذه الشبهة، وقالوا بأن محمداً أخذ القرآن عن ورقة بن نوفل، ومنهم من قال: أخذ القرآن عن بحيرا الراهب في رحلته إلى بلاد الشام، فنقول لهم[(٢)]:

١ ـ القرآن إنما كان معجزاً لما فيه من الفصاحة العائدة إلى اللفظ، فهو معجز بلفظه كما هو معجز بمعناه، فإن زعمتم أن بحيرا يعلمه معناه، فكيف يعلمه هذا النظم الذي أعجز جميع أهل الدنيا.

٢ ـ إن هؤلاء المستشرقين أعداء لرسول الله ﷺ، وهم لا يؤمنون برسالته، ومتى كان الأمر كذلك فإن شهادتهم لا تقبل، وهي ضرب من الهذيان.

٣ ـ إن أمر التعليم لا يتأتى في جلسة واحدة، ولا يتم في الخفية، بل التعليم إنما يتم إذا اختلف المعلم إلى المتعلم أزمنة متطاولة ومدداً متباعدة، ولو كان الأمر كذلك لاشتهر فيما بين الخلق أن محمداً ﷺ يتعلم العلوم عن ورقة أو عن بحيرا أو عن غيرها.

٤ ـ إن العلوم الموجودة في القرآن متعددة وكثيرة، وتعلمها لا يتأتى إلا إذا كان المعلم في غاية الفضل والتحقيق، فلو حصل فيهم إنسان بلغ في التعليم والتحقق إلى هذا الحد، لكان مشاراً إليه بالأصابع في التحقيق والتدقيق، فكيف يمكن تحصيل هذه العلوم من عند ورقة الذي كان منعزلاً على نفسه، أو من عند بحيرا الذي أقام في صومعته، أو من بيسار الرومي، أو جبير بن مطعم، أو من عند فلان وفلان.

---

(١) سيرة ابن هشام (١/ ١٧٢).

(٢) انظر: المستشرقون والقرآن: د. محمد بني عامر، ص٢٤٧ ـ ٢٤٩.

إن الطعن في نبوة رسول الله ﷺ بمثل هذا الكلام الركيك السخيف لهو دليل راجح على قوة حجة رسول الله ﷺ حيث عجز الخصوم عن مجاراته فلجأوا إلى الطعن في نبوته[١].

٥ ـ لقد جاءت روايات المستشرقين مختلفة، فمرة يقولون يعلمه القرآن ورقة، ومرة أخرى بحيرا، وثالثة جبير بن مطعم، ورابعة بيسار، وخامسة سلمان... إلخ، واختلاف الروايات يدل على أن التهمة لم يتفق عليها أصحابها، ولم تكن محكمة.

٦ ـ بينت روايات السيرة أن عمر النبي ﷺ كان في المرة الأولى تسعاً، او اثنتي عشرة سنة، فهل يعقل أن طفلاً في جلسة بسيطة يعي ويستوعب ما يمليه عليه بحيرا، علماً بأن هذه المقابلة كانت بحضور جميع أفراد القافلة، وفي الرحلة الثانية كان له من العمر خمساً وعشرين عاماً، ومعه ميسرة يرافقه في سفره، ولم يتكلم بشيء إلا ما شاهده من عناية الله بمحمد، ولم يجتمع في هذه الرحلة مع راهب، فلماذا يعمل أعداء الله على إنكار معجزة الله لنبيِّه من أجل حقد دفين في نفوسهم على الإسلام ورسوله وكتابه، ثم نقول لهم: لماذا خص هذا الراهب محمداً بالذات وأعطاه هذا التشريع؟، ولم يعطه لأهله وولده وأصحابه، أو يدعيه لنفسه، لماذا يعطي هذه الشهرة لمحمد ﷺ؟ أليس بحيرا أولى بذلك من محمد؟؟.

٧ ـ إن بحيرا وورقة وأضرابهم لم يعاصروا التسلسل الزمني للأحداث التي وردت في كتاب الله، فأين ورقة أو بحيرا من سؤال يوجه للنبي ﷺ من يهود المدينة، أو من كفار قريش، ثم يأتي الجواب في حينه، فهذا أمر ينفي ما يزعمه أعداء الإسلام من أن القرآن من عند هؤلاء، فلو كان جزءاً منه عندهم لكانت الحوادث التي جرت بعدهم تخالف في الأسلوب الحوادث الأولى.

٨ ـ إن بحيرا راهب نصراني، وورقة رجل نصراني، وآيات القرآن تخالف النصارى في أمور كثيرة، في نظرتهم إلى المسيح، فهل يعقل أن يقول ورقة أو بحيرا أو غيرهم من النصارى ذلك؟!.

ونوجه سؤالاً إلى أولئك المستشرقين الذين يجادلون في مصدر القرآن

---

(١) انظر: تفسير الرازي (١٠/ ١٢٠ ـ ١٢١).

ويرون أنه مأخوذ عن بحيرى النصراني وغيره من البشر، ما المانع أن يكون مصدر القرآن من عند الله؟ كما كان مصدر التوراة والإنجيل من عند الله، ثم ما المانع أن يكون هذا الكتاب هو خاتم الكتب الذي أقام الاتصال بين السماء والأرض على مدى تاريخ البشرية.

لماذا تحرمون على الإسلام ما تبيحونه لأنفسكم؟! لا نرى جواباً لذلك غير التعصب الذميم والكراهية. «لقد جاء القرآن الكريم بما هو أعلى وأوسع وأكمل من كل المعلومات التي كانت لدى بحيرا الراهب نسطور ولدى كل النصارى واليهود في شتى بقاع العالم، دع الأعراب الذين كان يمر بهم النبي ﷺ بالطريق إلى الشام أو حضرهم.

لقد جاء القرآن مصدقاً لكتب أهل الكتاب من حيث كونها في الأصل من وحي الله إلى موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم، ونزل أيضاً مهيمناً عليها؛ أي: رقيباً وحاكماً، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨]»[١].

ثالثاً: شهادة بعض المستشرقين ببطلان هذه الفرية:

إذا كان جمهور المستشرقين قد تعصبوا لفرية تعلم النبي ﷺ من أهل الكتاب خلال رحلاته، فإن هناك طائفة حاولت الإنصاف في بعض الأمور، وها هو المستشرق كارادي فو يتعرض إلى خرافة الراهب بحيرا التي يزعم بعض المستشرقين أنه هو الذي كان علم محمداً العقيدة، وهو الذي ألّف القرآن، وقال: إن هذه الأسطورة موجودة، وإنها مكتوبة بالعربي، وقد نشرت عنها فصلاً في مجلة «الشرق المسيحي»، وإن هذه الخرافة ليس فيها شيء يستحق الاعتبار، ولكنه لا يزال في سورية قسيسون من الفئة التابعة لرومية، يعتقدون بأن بحيرا كان معلماً لمحمد، وأنه هو الذي لقنه القرآن[٢].

---

(١) المستشرقون والقرآن، ص٢٤٧ ـ ٢٤٩.

(٢) حاضر العالم الإسلامي: لوثروب ستودارد، ت: شكيب أرسلان (١/ ٤٠).

ثم نقول: كيف لا تكون هذه القصة خرافة، حيث أنها تجعل راهباً أعجمياً ينطق بمثل القرآن الذي عجز البلغاء والفصحاء والشعراء عن مجاراته، ووقفوا حائرين أمام إعجازه.

إنها قصة وصفها أصحاب دائرة المعارف الإسلامية ـ وهم غير مسلمين ولا مدافعين عن الإسلام ـ بأن مقصد من كتبوها هو إثبات عدم صحة النبوة المحمدية لا غير[(١)].

ومن المستشرقين الذين حملوا على هذه الخرافات التي نشرها بعض إخوانهم ضد رسول الإسلام، المستشرق الإنجليزي توماس كارليل، حيث شدد النكير على المطاعن الأثيمة التي نشرها رجال الكنيسة وألصقوها بأذهان الأوروبيين في حق الرسول العربي الكريم[(٢)].

يقول كارليل: «ولما شب محمد وترعرع، صار يصحب عمه في أسفار تجارية وما أشبه، وفي الثامنة عشر من عمره نراه فارساً مقاتلاً يتبع عمه في الحروب، غير أن أهم أسفاره ربما كان ذاك الذي حدث قبل هذا التاريخ ببضع سنين، رحلة إلى مشارف الشام، إذ وجد الفتى نفسه هنالك في عالم جديد إزاء مسألة أجنبية عظيمة الأهمية جدّاً في نظره؛ أعني: الديانة المسيحية. وإني لست أدري ماذا أقول عن ذلك الراهب سرجياس (بحيرا) الذي يُزعم أن أبا طالب ومحمداً سكنا معه في الدار، ولا ماذا عساه أن يتعلمه غلام في هذه السن الصغيرة من أي راهب ما، فإن محمداً لم يكن يتجاوز إذ ذاك الرابعة عشر، ولم يكن يعرف إلا لغته»[(٣)].

وكتب المستشرق هوارت بالجريدة الآسيوية عدد يوليو/أغسطس سنة ١٩٠٤م تحت عنوان: مصدر جديد للقرآن. يقول: «لا تسمح النصوص العربية التي عثر عليها، ونشرت وبحثت منذ ذلك الوقت بأن نرى في الدور المسند إلى هذا الراهب السوري إلا مجرد قصة من نسج الخيال»[(٤)].

وأخيراً نسوق ما قاله الدكتور محمد عبد الله دراز رحمه الله في الرد على هؤلاء

---

(١) المرجع السابق (١/ ٤١).

(٢) المرجع السابق (١/ ٤٢).

(٣) الأبطال، ص٦١.

(٤) مدخل إلى القرآن الكريم: محمد عبد الله دراز، ص١٣٤.

المتعصبين، حيث يقيم عليهم الحجة بأن قريشاً وهم أعرف الناس بمحمد، وأحرص الناس على إبطال دعوته، لم يقولوا بهذا القول، ولم يوجهوا إليه هذه الفرية.

هؤلاء قوم محمد ﷺ وهم كانوا أحرص الناس على خصومته وأدرى الناس بأسفاره ورحلاته، وأحصاهم لحركاته وسكناته، قد عجزوا كما ترى أن يعقدوا صلة علمية بينه وبين أهل العلم في عصره، فما للملحدين اليوم، وقد مضى نيف وثلاثة عشر قرناً انفضت فيها سوق الحوادث، وجفت الأقلام، وطويت الصحف، لا يزالون يبحثون عن تلك الصلة في قمامات التاريخ، وفي الناحية التي أنف قومه أن ينبشوها.

ألا فليريحوا أنفسهم من عناء البحث، فقد كفتهم قريش مؤونته، وليشتغلوا بغير هذه الناحية التي قضى التاريخ والمنطق على كل محاولة فيها بالفشل، فإن أبوا فليعلموا أن كل شبهة تقام في وجه الحق الواضح سيحيلها الحق حجة لنفسه يضمها إلى حججه وبيناته[1].

---

(١) النبأ العظيم: محمد عبد الله دراز، ص٩٥ ـ ٩٦.

المبحث الثالث

صفاته ﷺ الخُلُقية

كان ﷺ قبل البعثة أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلقاً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وألينهم عَرِيكة، وأعفهم نفساً، وأوفاهم عهداً.

إنه - ببساطة - كما وصفته زوجته خديجة رضي الله عنها، يصل الرحم، ويحمل الكل، ويُكسب المعدوم، ويُقري الضيف، ويُعين على نوائب الحق[1].

لقد شب رسول الله ﷺ، يحفظه الله عز وجل، ويعصمه من أقذار الجاهلية ومعائبها في أديانها وكذلك في أخلاقها، ويتحدث رسول الله ﷺ عن مظاهر عصمة الله عز وجل له في صغره، وقبل النبوة قائلاً:

«ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمون بها إلا مرتين الدهر، كلتاهما يعصمني الله عز وجل منها، قلت ليلة لفتى من قريش بأعلى مكة في أغنام لأهلنا نرعاها: انظر غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان، قال: نعم، فخرجت فجئت أدنى دار من دور مكة، سمعت غناء وضرب دفوف وزمراً،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/٧) برقم (٣)، وأخرجه مسلم في صحيحة كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ (١/ ١٣٩) برقم (١٦٠).

فقلت: ما هذا؟ قالوا: فلان تزوج فلانة، لرجل من قريش تزوج امرأة من قريش، فلهوت بذلك الغناء، وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك، ففعل، فخرجت، فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مس الشمس، ثم رجعت إلى صاحبي، فقال لي: ما فعلت؟ فقلت: **ما فعلت شيئاً**، قال رسول الله ﷺ: «**فوالله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله ﷻ بنبوته**»[١].

وفيما قصَّه النبي ﷺ عن نفسه من خبر حفظ الله إياه من كل سوء منذ صغره وصدر شبابه، ما يوضح لنا حقيقتين كل منهما على جانب كبير من الأهمية:

الأولى: أن النبي ﷺ كان متمتعاً بخصائص البشرية كلها، وكان يجد في نفسه ما يجده كل شاب من مختلف الميولات الفطرية التي اقتضت حكمة الله أن يجبل الناس عليها. فكان يحس بمعنى السمر واللهو ويشعر بما في ذلك من متعة، وتحدثه نفسه لو تمتع بشيء من ذلك كما يتمتع الآخرون.

الثانية: أن الله ﷻ قد عصمه مع ذلك عن جميع مظاهر الانحراف، وعن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هيأه الله لها، فهو حتى عندما لا يجد لديه الوحي أو الشريعة التي تعصمه من الاستجابة لكثير من رغائب النفس، يجد عاصماً آخر خفيّاً يحول بينه وبين ما قد تتطلع إليه نفسه مما لا يليق بمن هيأه ربه لتتميم مكارم الأخلاق وإرساء شريعة الإسلام.

وفي اجتماع هاتين الحقيقتين لديه ﷺ دليل واضح على أن ثمة عناية إلٰهيّة خاصة تسيّره وتأخذ بيده دون وساطة الأسباب المعروفة كوسائل التربية والتوجيه،

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه «الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان» كتاب التاريخ، باب ذكر الخبر المدحض قول من زعم أن النبي ﷺ كان على دين قومه قبل أن يوحى إليه (١٤/ ١٦٩) رقم (٦٢٧٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٣) رقم (٧٦١٩)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأخرجه البزار ورجاله ثقات كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٦)، وصححه جماعة من الأئمة غير من سبق ذكرهم. منهم ابن حزم في الفصل في الملل والنحل (٢/ ٣٢١)، والقاري في شرح الشفا (١/ ٢٩٩)، والشهاب الخفاجي في نسيم الرياض (١/ ٤٨٣)، وابن حجر في المطالب العالية (٤/ ١٧٨) رقم ٤٢٥٩، وقال: قال البوصيري: رواه ابن إسحاق بإسناد حسن، وابن حبان في صحيحه، وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١/ ١٨٦) رقم (١٢٨) واللفظ له، وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٣، ٣٤).

ومن ذا الذي يوجهه في طريق هذه العصمة وكل الذين حوله من أهله وبني قومه وجيرانه، غرباء عن هذا الطريق، ضالّون عن هذه الوجهة؟.

لا جرم إذن أن هذه العناية الإلٰهية الخاصة التي جعلت لشباب النبي ﷺ طريقاً دقيقاً من النور يمخر عباب ظلام الجاهلية، من أعظم الآيات الدالة على معنى النبوة التي خلقه الله لها وهيأه لحمل أعبائها، وعلى أن معنى النبوة هو الأساس في تكوين شخصيته واتجاهاته النفسية والفكرية والسلوكية في الحياة.

وكان من اليسير أن يولد الحبيب الأعظم ﷺ، وقد انتزعت من نفسه كل هذه الدوافع الغريزية إلى التمتع بالشهوات والأهواء، فلا يجد في نفسه ما يدفعه أصلاً إلى ترك أغنامه أمانة عند زميله ليهبط إلى بيوت مكة فيبحث بينها عن قوم يسمرون أو يلهون ويمرحون. غير أن ذلك لا يدل حينها على أكثر من شذوذ في تركيبه النفساني، وهي ظاهرة يوجد لها نماذج في كل قوم وعصر، وإذن فليس ثمة ما يدل على العناية الخفية التي تصرفه عما لا يليق رغم وجود الدوافع الغريزية نحوه. وإنما اقتضت حكمة الله ﷻ أن يتبدى للناس من هذه العناية الإلٰهية بالرسول الكريم ما يسهل عليهم أسباب الإيمان برسالته ويبعد عن أفكارهم عوامل الريب في صدقه[١].

وهكذا نشأ المصطفى ﷺ، محفوظاً ومعصوماً قبل النبوة وبعدها من الشيطان الرجيم، ومعصوماً من كل ما يمس عقيدته بسوء، بل ومن كل ما يمس خلقه، حتى كان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأعظمهم حلماً وأمانة، وأصدقهم حديثاً حتى سماه قومه «الأمين»[٢].

وهذا الاسم العظيم «الأمين» يمثل أصدق تمثيل مدح رب العزة له بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم: ٤].

ومن مميزاته ﷺ التكافؤ الخلقي في شخصيته؛ أي: أن أخلاقه ﷺ كلها قبل النبوة وبعدها تنبع من عصمة المولى ﷻ له، فهو الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، ومن هنا كانت أخلاقه كلها في نِسَبها متفقة، فشجاعته مثل كرمه، وكرمه

---

(١) انظر: فقه السيرة: للبوطي، ص٥٠ ـ ٥١.

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ١٦٧)، دلائل النبوة: لأبي نعيم (١/ ٨٥)، الروض الأنف (٢/ ١٨٣)، السيرة النبوية: لابن كثير ص٢٤٩.

مثل حلمه... وهكذا لا تجد له خلقاً في موضعه من الحياة يزيد أو ينقص على خلق آخر في موضعه منها، وهذا التكافؤ الخلقي في وجوده الواقعي في شخصيته ﷺ معجزة في الحياة؛ لأن الإنسان معترك الغرائز، والتكافؤ الخلقي في الشباب ضرب من المحالات في متعارف الحياة، فإذا حققه الوجود الواقعي في شباب سيدنا محمد ﷺ كان وجوده معجزة، ودليل على عصمة رب العزة له، وعنايته به وحفظه من مظاهر الجاهلية.

وكذلك التكافؤ الخلقي في شخصيته ﷺ بعد النبوة يعد معجزة ودليل على عصمته؛ لأن التاريخ لم يذكر من النماذج العليا للبشرية من كان هذا التكافؤ الخلقي خليقته العامة سوى المصطفى محمد ﷺ، وإذا ذكر التاريخ غيره من النماذج العليا ذكره عنواناً لتبرير جزئي في بعض الفضائل والأخلاق. فهذا مثل مضروب في الصبر، وذاك في الحلم، وثالث في الكرم، ورابع في الشجاعة. وهكذا تتفرق النهايات في الأخلاق والفضائل في نماذج متعددة، ولكنها تجتمع متكافئة في شخصيته ﷺ، وهذا من الإعجاز والعصمة.

وإذا أردت مثلاً على هذا التكافؤ الخلقي في شخصيته ﷺ فتأمل حاله قبل زواجه من خديجة رضي الله عنها من شظف العيش، وقلة ذات يده، وتأمل حاله بعد زواجه منها، حيث أصبح ﷺ بين عشية وضحاها من أغنياء قريش، وذوي ثرواتها، حيث أصبح عُرفاً مالها ماله، وثراؤها ثراءه. فهل غيَّر ذلك تكافؤه الخلقي؟!.

كلا! إن سيدنا محمداً ﷺ ظل بعد هذا الثراء الغامر، كما كان من ولد ونهد وشب، يعيش في شظف عيشه؛ لا من قلة المال في يده، بل لأن خصيصة التكافؤ الخلقي عنده طبعته على الزهادة في الحياة المادية المترهلة التي كانت تحياها قريش، وطبعته على التسامي بنفسه عن مطامع الماديين، إذا هبط عليهم الثراء من غير كدٍّ ولا تعب.

فحياته ﷺ قبل زواجه من خديجة كانت تقلل من الدنيا، وكذلك كانت حياته بعد زواج خديجة، حياة تقلل من الدنيا وهي ملء يده وهكذا كان آخر حياة شبابه، صورة من أولها[1].

---

(١) انظر: محمد رسول الله ﷺ: الشيخ محمد الصادق عرجون (١/ ٢١١ ـ ٢١٣)، وأعلام النبوة: للماوردي، ص٣٠٩.

ولا غرو في أن يكون رسول الله ﷺ بتلك المثابة من التكافؤ الخلقي، فقد عصمه ربه ﷻ، واصطنعه لنفسه، وأراد منه أن يكون خاتم أنبيائه ورسله إلى الخلق كافة، ولا يقوم بذلك إلا أمين صاحب خلق عظيم، ينال ثقة الناس فيستجيبون له ويؤمنون به[(١)].

وقد سجلت كتب السيرة والشمائل دقائق أخلاقه ﷺ وتصرفاته في كل مكان وزمان وجد فيه، بدقة متناهية لا تجد لها مثيلاً في كل ما كتب في سير الأنبياء والعظماء على مر التاريخ.

يقول أبو الشيخ الأصبهاني[(٢)] في مقدمة كتابه «أخلاق النبي ﷺ وآدابه»:

«ما ذُكر من حسن خلق رسول الله ﷺ، وكرمه، وكثرة احتماله، وشدة حيائه، وعفوه، وجوده، وسخائه، وشجاعته، وتواضعه، وصبره على المكروه، وإغضائه، وإعراضه عما كرهه، ورفقه بأمته، وكظمه الغيظ، وحلمه، وكثرة تبسمه، وسروره، ومزاحه، وبكائه، وحزنه، ومنطِقه، وألفاظه، وقوله عند قيامه من مجلسه، ومشيه، والتفاته، وذكر محبته الطيب، وتطيبه، وذكر قميصه، وجبته، وشكره ربه عند لبسه»[(٣)]. ثم أخذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يفصل في كل جزئية مما ذكره ويذكر أمثلتها وأحوالها في سيرته ﷺ وأقوال صحابته ﷺ فيها.

ومن أشهر ما ورد من مقالات أصحاب النبي ﷺ حول خلقه ﷺ، وهم الذين عاصروه في المواقف كلها حتى توفاه الله ﷻ، ودونوا في ذاكرتهم صفاته ﷺ وكريم أخلاقه ما يلي:

ـ يقول جبير بن نفير: «دخلت على عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، فسألتها عن خلق رسول الله ﷺ، فقالت: القرآن[(٤)]. ومعنى هذا ـ كما يقول ابن كثير ـ أنه ﷺ قد ألزم نفسه ألا يفعل إلا ما أمره به القرآن، ولا يترك إلا ما نهاه عنه القرآن، فصار امتثال أمر ربه خلقاً له وسجية، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى

---

(١) رد شبهات حول عصمة الرسول، ص١١٣ ـ ١١٤.

(٢) أبو الشيخ الأصبهاني (٢٧٤ ـ ٣٦٩هـ): عبد الله بن محمد بن جعفر بن حبان الأصبهاني، أبو محمد: من حفاظ الحديث، العلماء برجاله. يقال له: أبو الشيخ. له تصانيف منها: «أخلاق النبيّ وآدابه»، و«كتاب السُّنَّة». انظر: الرسالة المستطرفة، ص٢٩، الأعلام (٤/ ١٢٠).

(٣) أخلاق النبي وآدابه: أبي الشيخ الأصبهاني، ت: صالح بن محمد الونيان، ص٧١.

(٤) المرجع السابق، ص٩٠.

هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]»[١].

ـ ويقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كان رسول الله ﷺ يخزن لسانه إلا مما يعنيهم ويؤلفهم، ولا يفرقهم، يكرم كريم كل قوم، ويوليه عليهم، ويحذر الناس ويحترس عنهم، من غير أن يطوي عن أحد بِشره وخلقه، ويتفقد أصحابه، ويسأل الناس عما في الناس، ويحسن الحسن ويصوبه، ويقبح القبيح ويوهنه، معتدل الأمر غير مختلف، لا يغفل مخافة أن يغفلوا، أو يملوا، لكل حال عنده عتاد، لا يقصر عن الحق، ولا يجاوزه إلى غيره، الذين يلونه من الناس خيارهم، وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة وأعظمهم عنده منزلة: أحسنهم مواساة ومؤازرة»[٢].

ـ وقال هند بن أبي هالة رضي الله عنه، في وصف منطق رسول الله ﷺ: «كان رسول الله ﷺ متواصل الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة، طويل السكت، لا يتكلم في غير حاجة، يفتتح الكلام ويختمه باسم الله تعالى، ويتكلم بجوامع الكلم، كلامه فصل، لا فضول ولا تقصير، ليس بالجافي ولا المهين، يعظم النعمة، وإن دقت لا يذم منها شيئاً غير أنه لم يكن يذم ذواقاً (أي: الطعام) ولا يمدحه، ولا تغضبه الدنيا، ولا ما كان لها، فإذا تُعدي الحق لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، ولا يغضب لنفسه، ولا ينتصر لها، إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها، وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، يفتر عن مثل حب الغمام»[٣].

موقف المستشرقين:

كان الموقف الغربي في مجمله يحمل نظرة سلبية تجاه النبي ﷺ وخُلقُه في فترة القرون الوسطى الميلادية، أو (حقبة الجهل) كما يسميها ريتشارد سوذرن في كتابه «صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى». وهي عبارة تلخص طبيعة الفكر الديني الغربي عن الإسلام ونبيه ﷺ بقسميه البيزنطي واللاتيني في فترة

---

(١) الفصول، ص٢٦٤ ـ ٢٦٥.

(٢) انظر: الشمائل المحمدية: للترمذي، ص١٩٢، ودلائل النبوة: لأبي نعيم (١/ ٦٢٧)، والشفا (١/ ١٥٩).

(٣) الشمائل المحمدية للترمذي، ص١٨٤. وقوله: يفتر عن مثل حب الغمام تشبيه لبياض أسنانه ﷺ، انظر: المرجع السابق.

القرون الوسطى[١].

وهذا الجهل الذي ذكره «سوذرن» منشأه جهتين:

الأولى: نقص المعرفة الحقيقية بالإسلام ونبيه ﷺ نتيجة قعود مفكري الغرب في تلك الفترة عن الاطلاع على المصادر الأصيلة للإسلام.

الثانية: غياب التوازن الأخلاقي في الطرح والتناول مما قاد كثيراً من مفكري الغرب في تلك الفترة إلى إطلاق الأحكام التي تهدف إلى الحط من شأن النبي محمد ﷺ، بل فاق الأمر ذلك حتى تطبع الفكر في تلك المرحلة بطابع البذاءة والتطاول والسب والشتم، ومعاملة الرسول الكريم ﷺ بالسخرية والازدراء وذكره بالتجريح والذم، ووصمه بأقسى الافتراءات والأباطيل.

بحيث لا يصبح من الخطل القول بأنه لا يوجد نبي قط أو شخصية تاريخية أو مؤسس لدين، يمكن أن يكون قد تعرض ـ في الغرب ـ في تلك الفترة لمثل ما تعرض له النبي ﷺ من سب وشتم وافتراء[٢].

وقد تقدم ذكر نماذج لهذه المقولات المسيحية المتطرفة بشقيها الشرقي (البيزنطي) والغربي (اللاتيني) في وصف النبي ﷺ ضمن الحديث عن الكتابات الاستشراقية عن النبي ﷺ في فترة القرون الوسطى.

ومع أن العصر الحديث قد شهد تحولاً كبيراً لدى المستشرقين في الوصف الإيجابي للنبي ﷺ والثناء على خلقه، إلا أن لذلك التحول استثناءات تتمثل في بعض المستشرقين الذين حاولوا التشكيك في صفات النبي ﷺ الأخلاقية والنيل منه من خلال بعض المواقف في السيرة النبوية التي إما لم تصح نسبتها إليه ﷺ، أو تم تحميلها ما لا تحتمل وتوجيهها نحو نتائج مسبقة يصبو إليها الباحث.

وقد تصدر هذا النوع من الكتابات الاستشراقية المعاصرة، وبشكل فريد المستشرق هنري لامنس، الذي حاول قلب كل ما تناقلته المصادر العلمية الموثوقة عن أخلاقه عليه الصلاة والسلام.

لقد شكك لامنس في زهد النبي ﷺ بأسلوب السخرية الموحية فقال:

«وكان محمد نفسه فقيراً فإنه لم يرث شيئاً من زوجته الأولى، وطيلة الفترة

---

(١) انظر ص٣٥.

(٢) محمد في مكة: مونتغمري وات، ص٩٤.

المكية ظل الله رافضاً لنبيه أن يقرن الغنى إلى المواهب غير الطبيعية لرسوله. وفي المدينة سدت السياسة الرشيدة للمصلح هذا النقص، وهنا يجب أن ننظر بعين الشك إلى وصف مسند عائشة لفقر عائلة النبي: عندما تظل شهرين دون أن يوقد في بيتها نار، وعندما يشكل التمر والماء الطعام الأساسي، فهذه تفاصيل أسطورية هدفها رسم فكرة مبالغ فيها عن زهد محمد»[(١)].

وأبدع لامنس فكرة التغير الحاصل في الشخصية النبوية بين المرحلتين المكية والمدنية، حيث قرر تحوله من مجرد داعية ديني إلى ملك حقيقي، يريد أن يحقق أغراضه الدنيوية، وتعمد لامنس الكذب الصريح من أجل رسم صورة محمد (الملك) التي أرادها أن تثبت في أذهان قرائه، فقال مجملاً نظريته:

«ومثل غيره من (الحكام الإمبراطوريين) كان محمد يمتلك تابعين ومستشارين ومؤذنين، وكان هؤلاء ملحقين بجهاز الإعلام لديه، وهم أعوانه الأكثر نشاطاً من مستشاريه المحليين المكلفين بالإعلانات والاستدعاءات للاجتماعات والمجالس والصلاة»[(٢)]، وأكد هذه النظرية بمجموعة من الشبهات، هي:

١ ـ اتخاذه ﷺ وسائل للزينة التي كان ينهي غيره عنها، فزعم لامنس أن بيته ﷺ كان مزداناً بالصور التي «نجدها دون جهد. . . في غرف استقباله، وفوق الزرابي والستائر والأبواب، وفي بيوت زوجاته، وفوق قطع القماش المخصصة للباسهن، وفوق قبب الخواتيم مثل تلك التي أعطاها لعقيل، وفوق الأدوات التي يستخدمها النبيين وحتى بالنسبة للدمى المخصصة للعب عائشة المدللة»[(٣)].

٢ ـ بعض مظاهر حياته عليه الصلاة والسلام، حيث يذكر لامنس: «أن بلال كان يسير أمام النبي حاملاً فوق رأسه عوداً عليه ثوب ليحميه من حرارة الشمس. وقد كان هذا العبد ـ كما وصفه بذلك لامنس ـ الذي دسه أبو بكر على النبي من أجل معرفة أخباره مكلفاً (بحراسة) النبي (العاشق للاستعراض)، والذي كان كلما ارتقى المنبر وقف بلال عند أسفل (العرش) والسيف مصلت بيده»[(٤)].

---

(١) Fatima et les filles de Mohomet-P. 19.

(٢) المرجع السابق، ص٦٨.

(٣) المرجع السابق، ص٧٥.

(٤) المرجع السابق، ص٦٩.

٣ ـ شهادة المعاصرين للنبي ﷺ على هذا التحول في شخصيته، وقد لاحظت ذلك ـ كما زعم ـ (فراسة البدو) الشديدي الملاحظة عموماً، فقال شيخ طيء زر بن سدوس: «إن هذا الرجل يسعى إلى ملك العرب»[١].

وقد كان يكفي في الرد على هذه المزاعم ما كتبه جملة من المستشرقين الذين سيأتي ذكر آرائهم بعد قليل، ولكن هناك ضرورة أكيدة للإبانة عن الكذب الصريح للأب لامنس، وقصده الإساءة إلى النبي ﷺ وصحابته، وخصوصاً كشف التلاعبات في منهجه، حيث حاول الإيحاء باعتماده على المصادر الإسلامية في رسم هذه الصورة المشوهة التي قدمها للنبي ﷺ. ولذلك سوف نتتبع كل ما قرره لنرى مدى مطابقته للواقع وكيفية استخدامه للمادة العلمية المتوفرة في الموضوع[٢]:

أولاً: أما بالنسبة لتزيين بيت النبي ﷺ بالزرابي وغيرها من المفروشات التي زعمها لامنس، فهو من الكذب الصريح، وقد أجمعت على ذلك المصادر التي لم تذكر في هذا الباب إلا اتخاذ إحدى زوجات النبي ﷺ سترين فيهما تصاوير لتزين بهما بيتها. أما أحدهما فكان على الباب، وأما الآخر فكان بالبيت، وكلاهما كان فيه تصاوير. وقد أمر جبريل عليه السلام بأن يقطع رأس إحدى الصور، وأن يتخذ أهل النبي ﷺ من الستر الثاني بساطين، وقد أورد الحديث الذي نقل لنا هذا الأمر الإمام أحمد[٣] والترمذي[٤]، والنسائي[٥]. ورواه أبو داود عن أبي هريرة، بلفظ: «قال رسول الله ﷺ: **أتاني جبريل عليه السلام، فقال لي: أتيتك البارحة فلم يمنعني أن أكون دخلت إلا أن كان على الباب تماثيل، وكان في البيت قرام ستر فيه تماثيل، وكان في البيت كلب، فمر برأس التمثال الذي في البيت يقطع فيصير كهيأة الشجرة، ومر بالستر فليقطع فيجعل منه وسادتين منبوذتين توطآن، ومر بالكلب فليخرج**»[٦].

---

(١) المرجع السابق، ص٦١. وانظر: نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٤١٨ ـ ٤١٩.
(٢) انظر فيما يأتي: نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٤١٩ ـ ٤٢٢.
(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٣/٤١٣)، برقم (٨٠٤٤).
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الأدب، باب ما جاء أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه صورة (٥/١٠٦)، برقم (٢٨٠٦).
(٥) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الزينة، باب ذكر أشد الناس عذاباً (٨/٦٠٧)، برقم (٥٣٨٠).
(٦) أخرجه أبي داود في سننه، كتاب اللباس، باب في الصورة (٢/٤٧٢)، برقم (٤١٥٥).

ولم تعرض جميع الروايات التي ذكرت لنا التصاوير المعلقة في هذا البيت إلا لهذا الحادث، ومعنى ذلك أن هناك مبالغة كبيرة، وتضخيم مقصود أراد به لامنس أن يجعل من هذه القصة الجزئية حقيقة ثابتة تحكم حياة النبي ﷺ في كل ملامحها، ولا بد أن ننبه في هذا الخصوص أن زعم لامنس نصب النبي ﷺ لتمثال على باب بيته ليس إلا دليلاً على قلة فهمه، ويدل على هذا أن مجرد عرض الروايات تبين أن المقصود بكلمة (تمثال) ليس التمثال للجسم، بل مجرد الصورة، وهذا هو معنى الكلمة في اللغة العربية التي كان لامنس من أجهل خلق الله بها[١].

ثانياً: أما بالنسبة لزعم لامنس أن من علامات تحول النبي ﷺ إلى ملك أن بلالاً رضي الله عنه كان يحمل فوق رأسه ثوباً ليحميه من الشمس، فليس فيه دليل على تعظيم النبي ﷺ لنفسه، بل على مجرد حب أصحابه رضوان الله عليهم له، ويشترط في الخبر ليكون دليلاً على تعظيم النبي ﷺ لنفسه أن يكون هذا الأمر من عاداته عليه الصلاة والسلام، كما يشترط فيه ليكون خبراً يستحق أن ندرسه أن يكون صحيحاً، والحديث لا يحتوي على أدنى إشارة إلى تكرير ذلك من النبي ﷺ، بل يوجد الكثير من الروايات التي تنقل تفضيل النبي ﷺ خدمة نفسه، وهي بمجموعها تشكل صورة مخالفة تماماً لما أراد لامنس أن يؤكده.

إضافة إلى هذا فإن الحديث غير صحيح، وذلك لضعف أحد رواته، وهو يزيد بن علي. وقد تكلم فيه غير واحد من الأئمة لا سيما في حديثه عن القاسم بن أبي أمامة ـ وهو طريق أحمد هنا ـ فقال فيه ابن معين: «أحاديث علي بن يزيد عن القاسم عن أبي أمامة مرفوعة ضعيفة»[٢]. وضعفه أحمد، ووصفه الإمام البخاري بنكارة الحديث[٣]، وقال النسائي فيه: «متروك الحديث»[٤][٥].

---

(١) تماثيل: جمع تمثال (بالكسر)، وهو الصورة، كما في القاموس وغيره، والمعنى صورة من صور الإنسان أو الحيوان. تحفة الأحوذي (٨/ ٧٢).

(٢) تهذيب الكمال (٢١/ ١٧٩).

(٣) التاريخ الصغير (١/ ٣١٠).

(٤) الضعفاء والمتروكين، ص٧٧، رقم (٤٣٢).

(٥) ونص الحديث في المسند: حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن عثمان بن أبي العاتكة، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عمن رأى رسول الله ﷺ: «راح إلى =

والملاحظ أن منهج لامنس الذي نبهنا عليه في العنصر السابق، وهو تعمد اتخاذ حادثة جزئية أصلاً لبناء صورة كاملة للنبي ﷺ قد تكرر هنا أيضاً، كما أن كذبه على المصادر من الأمور المؤكدة، وموضع هذا الكذب هنا هو زعمه أن النبي ﷺ قد اتخذ بلالاً حارساً له، وحين الرجوع إلى المصدر الذي أخذ منه لامنس هذه الفكرة، لا نجد أثراً للقول بتكليف النبي ﷺ لصاحبه بلالاً بهذه المهمة، ولا تعوده الوقوف (شاهراً سيفه) أسفل المنبر الذي جعله لامنس (عرشاً)، وكل ما في الأمر أن إحدى الروايات قد صورت بلالاً واقفاً (متقلداً) سيفه، لا (شاهراً) له كما أورد ذلك.

والحادثة لا تتعلق بحراسته للنبي ﷺ، بل بحادث خاص وهو رجوع ـ أو خروج ـ لإحدى الغزوات، فلا عجب إذن أن يتقلد الرجال سيوفهم في المسجد ما داموا خارجين للغزو، وما دام المسجد هو المكان الذي كانت تدار منه الدولة الإسلامية آنذاك.

وقد أورد الإمام أحمد الحديث الذي استخدمه لامنس هذا الاستخدام العجيب ثلاث مرات، ذكر في مرتين منها بلالاً، ولم يذكره في الرواية الثالثة، وهو عن الحارث بن حسان البكري، قال: «قدمنا المدينة، فإذا رسول الله ﷺ على المنبر، وبلال قائم بين يديه (متقلداً) السيف، وإذا رايات سود، وسألت: ما هذه الرايات؟ فقالوا: عمرو بن العاص قدم من غزاة»[1].

ثالثاً: أما بالنسبة للشهادة التي اعتمد عليها لامنس، والتي اتخذ منها دليلاً على كون النبي ﷺ قد أصبح ملكاً. فإن نصها العربي الذي أورده هو نفسه في الهامش دليل، إما على سوء نيته أو على قلة فقهه بالعربية، لقد قال زر بن

= منى يوم التروية وإلى جانبه بلال بيده عود عليه ثوب، يظل به رسول الله ﷺ». مسند الإمام أحمد بتحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون (٣٦/ ٦٤٣) حديث رقم (٢٢٣٠٥). وقال المحقق: إسناده ضعيف جداً، علي بن يزيد ـ وهو ابن أبي هلال الألهاني ـ متروك الحديث، وعثمان بن أبي العاتكة ضعيف. والقاسم: هو ابن عبد الرحمٰن الدمشقي. وأخرجه الطبراني في الكبير (٧٨٨٨) من طريق عمرو بن عثمان الحمصي، عن الوليد بن مسلم، بهذا الإسناد. وفي الباب عن أم الحصين الأحمسية، سيأتي في مسندها (٦/ ٤٠٢)، وهو في صحيح مسلم (١٢٩٨)، ولفظه: قالت: حججت مع النبي ﷺ حجة الوداع، فرأيت أسامة بن زيد وبلالاً، وأحدهما آخذ بخطام ناقة النبي ﷺ، والآخر رافع ثوبه يستره من الحر حتى رمى جمرة العقبة». (٣٦/ ٦٤٣).

(١) مسند أحمد (٢٥/ ٣٠٣)، رقم (١٥٩٥٢).

سدوس: «إني لأرى رجلاً ليملكن رقاب العرب»[1]، وقد تحول هذا النص عند لامنس إلى (أن هذا الرجل يسعى إلى ملك العرب)، ويتأكد قصده السيئ عند المقارنة بين النص العربي وترجمته الفرنسية، فيتبين أن النص العربي لا يحتوي إلا على تقرير هذا الشيخ لمقدرة النبي ﷺ وسرعة قبول الناس لدعوته وانتشارها، أما الترجمة فإنها تحتوي على تحريف واضح، إذ تحولت النبوءة إلى (تقرير) عن سعي النبي ﷺ إلى تحقيق (ملك) العرب[2].

وبالرغم من وجود نماذج معاصرة تحاول الطعن في صفاته ﷺ الأخلاقية، والتشكيك في رسالته، بسبب الحقد على الإسلام وإطباق الجهل على أصحابها، والبعد عن الموضوعية العلمية في البحث والتدقيق، فإن التيار العام عند المتأخرين من المستشرقين، شهد تحوُّلاً كبيراً في مجمله ناحية التقدير الحقيقي لشخصية النبي ﷺ وبيان أثره في تاريخ البشرية، وفضل رسالته على الإنسانية، بشكل يتخذ من الإنصاف شعاراً له بعيداً عن الأحقاد الصليبية وتعاليم الكنيسة في القرون الوسطى.

وبالاطلاع على ما قيل في النبي محمد ﷺ من طرف المفكرين والمستشرقين والفلاسفة الغربيين المنصفين والمتعاطفين مع الإسلام نجد أن هؤلاء يمثلون طائفة من كبار مفكري الغرب وأعمدة الفكر والفلسفة فيه، وقد حاولوا الوقوف على جوانب عظمة الرسول الكريم، منبهرين بشخصيته العظيمة، ونبل أخلاقه، وطهارة حياته، وخلوها من كل ما يثلم أخلاقه القرآنية. والبعض منهم اكتفى بوضع شخصية نبي الإسلام في إطارها الحقيقي الذي يعرفه المسلمون أجمع، دون أن يمس الإسلام ودعوته شغاف قلوبهم، والبعض الآخر ممن ظلوا بعيدين عن الإسلام تعرضوا للشخصية العامة للنبي ﷺ كواحد من الأبطال والعباقرة الذين أثروا في مسيرة التاريخ، لكن فئة من هؤلاء كان اطلاعهم على خصائص شخصية الرسول ﷺ وفضائلها وسمو أخلاقها مدخلاً إلى البحث في الإسلام، ومن ثم إلى إعلان إسلامهم علناً كما تقدم في المستشرقين المسلمين.

وقد حاول هؤلاء المستشرقون جميعاً تسليط الضوء على جميل أخلاقه ﷺ

---

(١) الروض الأنف (٧/ ٤٧٤).

(٢) انظر: نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٤١٨ ـ ٤٢٢.

خلال مراحل حياته وسيرته ﷺ، وهذه المراحل التي ركز عليها هؤلاء المستشرقون يمكن تقسيمها إلى ما يلي:

أولاً: المرحلة المكية: سواء ما كان منها قبل البعثة أو بعدها، وتلك الفترة عاش فيها النبي ﷺ أغلب سني عمره ﷺ، ففيها ولادته، ونشأته، وزواجه، ومبعثه، ومبدء دعوته. ومن تلك الشهادات الاستشراقية التي جاءت في هذا المجال ما يلي:

ـ يقول المستشرق آرثر جيلمان: «وقد اتفق المؤرخون على أن محمداً كان ممتازاً بين قومه بأخلاق جميلة؛ من صدق الحديث، والأمانة، والكرم، وحسن الشمائل، والتواضع حتى سماه أهل بلده ـ الأمين ـ وكان من شدة ثقتهم به يودعون عنده ودائعهم وأماناتهم، وكان لا يشرب الأشربة المسكرة، ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً»[١].

ويقول المستشرق الإنجليزي وليم موير في كتابه «حياة محمد»:

«إن محمداً نبي المسلمين لقب بالأمين منذ الصغر بإجماع أهل بلده لشرف أخلاقه، وحسن سلوكه. ومهما يكن هناك من أمر فإن محمداً أسمى من أن ينتهي إليه الواصف، ولا يعرفه من جهله. وخبير به من أنعم النظر في تاريخه المجيد، ذلك التاريخ الذي ترك محمداً في طليعة الرسل ومفكري العالم»[٢]. ويضيف في موضع آخر:

«إن النبي محمداً في شبابه طبع بالهدوء والدعة، والطهر والابتعاد عن المعاصي التي كانت قريش تعرف بها»[٣].

ـ ويعرض توماس كارلايل لصفات نبينا محمد ﷺ في تلك الفترة من حياته قائلاً:

«ولوحظ عليه منذ فتائه أنه كان شاباً مفكراً، وقد سماه رفقاؤه الأمين ـ رجل الصدق والوفاء ـ الصدق في أفعاله وأقواله وأفكاره. وقد لاحظوا أنه ما من كلمة تخرج من فيه إلا وفيها حكمة بليغة. وإني لأعرف عنه أنه كان كثير الصمت

(١) الشرق: آرثر جيلمان، ص١١٧ عن كتاب: الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، ص٩٥.
(٢) ص٢٠.
(٣) المرجع السابق، ص١٠٣.

يسكت حيث لا موجب للكلام فإذا نطق فما شئت من لب وفضل وإخلاص وحكمه لا يتناول غرضاً فيتركه إلا وقد أنار شبهته، وكشف ظلمته، وأبان حجته واستثار دفينته. وهكذا يكون الكلام وإلا فلا»[١].

- ويتحدث الباحث البلجيكي ألفرد الفانز في كتابه (علم النفس) عن أخلاقه ﷺ فيقول:

«شبَّ محمد حتى بلغ، فكان أعظم الناس مروءة وحلماً وأمانة، وأحسنهم جواباً، وأصدقهم حديثاً، وأبعدهم عن الفحش حتى عُرف في قومه بالأمين، وبلغت أمانته وأخلاقه المرضية خديجة بنت خويلد القرشية، وكانت ذات مال، فعرضت عليه خروجه إلى الشام في تجارة لها مع غلامها ميسرة، فخرج وربح كثيراً. . .»[٢].

- وعن رفيع أخلاقه وسامي خصاله وعصمته من الانزلاق في مهاوي الرذيلة التي كانت توجد في بلده يتحدث المستشرق جرسان دتاسي، قائلاً:

«إن محمداً ولد في حضن الوثنية، ولكنه منذ نعومة أظفاره أظهر بعبقرية فذة، انزعاجاً عظيماً من الرذيلة وحباً حاداً للفضيلة، وإخلاصاً ونية حسنة غير عاديين إلى درجة أن أطلق عليه مواطنوه في ذلك العهد اسم الأمين»[٣].

- وبدهي أن يعتبر الباحثون المسلمون والمؤرخون العرب تلك الصفات، وهذه السجايا من دلائل النبوة، وتتمثل أشد ما تتمثل بعصمة الله رسوله المرتقب من أجواء الرذيلة الشائعة في جاهلية العرب، وأنه ﷺ كان يشعر انطلاقاً من حدسه بأن عليه الابتعاد عن المعاصي والموبقات، وأن الله جلَّت عظمته اختاره لأداء رسالة عظيمة. . . وعن هذا الأمر يتحدث الباحث الأرجنتيني جوردون بايرون (ت١٩٠٠م) في مؤلفه: (أتح لنفسك فرصة) فيقول:

«لا يبعد أن يكون محمد يحس بنفسه أنه في طينته أرق من معاصريه، وأنه يفوقهم جميعاً ذكاء وعبقرية، وأن الله اختاره لأمر عظيم، وقد اتفق المؤرخون على أن محمد بن عبد الله كان ممتازاً بين قومه بأخلاق حميدة، من صدق

---

(١) الأبطال، ص٦٢.

(٢) نقلاً عن الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، ص١٧.

(٣) المرجع السابق، ص٨٧.

الحديث والأمانة والكرم وحسن الشمائل والتواضع حتى سماه أهل بلده الأمين، وكان من شدة ثقتهم به وبأمانته يودعون عنده ودائعهم وأماناتهم، وكان لا يشرب الأشربة المسكرة، ولا يحضر للأوثان عيداً ولا احتفالاً، وكان يعيش مما يدرّه عليه عمله من خير، ذلك أن والده لم يترك له شيئاً يذكر، ولما تزوج خديجة كان يعمل بأموالها»(١).

أما الكاتبة الإيطالية لورا فيشيا فاغليري، فتقول في ردها على من يحاول انتقاص قدر النبي ﷺ وخلقه:

«حاول أقوى أعداء الإسلام، وقد أعماهم الحقد، أن يرموا نبي الله ببعض التهم المفتراة. لقد نسوا أن محمداً كان قبل أن يستهل رسالته، موضع الإجلال العظيم من مواطنيه بسبب أمانته وطهارة حياته. ومن العجب أن هؤلاء الناس لا يجشمون أنفسهم عناء التساؤل؛ كيف جاز أن يقوى محمد على تهديد الكاذبين والمرائين، في بعض آيات القرآن اللاسعة بنار الجحيم الأبدية، لو كان هو قبل ذلك رجلاً كاذباً؟ كيف جرؤ على التبشير، على الرغم من إهانات مواطنيه، إذا لم يكن ثمة قوى داخلية تحثه ـ وهو الرجل ذو الفطرة البسيطة ـ حثاً موصولاً؟ كيف استطاع أن يستهل صراعاً كان يبدو يائساً؟ كيف وفق إلى أن يواصل هذا الصراع أكثر من عشر سنوات، في مكة، في نجاح قليل جدّاً، وفي أحزان لا تحصى، إذا لم يكن مؤمناً إيماناً عميقاً بصدق رسالته؟ كيف جاز أن يؤمن به هذا العدد الكبير من المسلمين النبلاء والأذكياء، وأن يؤازروه، ويدخلوا في الدين الجديد ويشدوا أنفسهم بالتالي إلى مجتمع مؤلف في كثرته من الأرقاء، والعتقاء، والفقراء المعدمين إذا لم يلمسوا في كلمته حرارة الصدق؟ ولسنا في حاجة إلى أن نقول أكثر من ذلك، فحتى بين الغربيين يكاد ينعقد الإجماع على أن صدق محمد كان عميقاً وأكيداً»(٢).

ثانياً: المرحلة المدنية: وهي الفترة التي أعقبت هجرته ﷺ إلى المدينة وفيها استقرت التشريعات الدينية، وظهرت ملامح الدولة الإسلامية، وأصبح النبي ﷺ فيها بالإضافة لمركزه النبوي رجل دولة وقائد أمة، يقودها في السلم

---

(١) عن: الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، ص٩٢.

(٢) دفاع عن الإسلام، ص٣٧ ـ ٣٨.

والحرب، ويوقع العهود والمواثيق مع المخالفين له. ولا شك أن هذه الفترة المهمة من حياته ﷺ وسيرته قد كانت محط أنظار المستشرقين ولهذا توافرت فيها شهادات استشراقية كثيرة على حسن خلقه ﷺ وتعامله مع المخالفين له حتى في حال الحرب. ومن ذلك ما يلي:

- يقول المفكر الفرنسي مارسيل بوازار: «منذ استقر النبي محمد في المدينة، غدت حياته جزءاً لا ينفصل من التاريخ الإسلامي. فقد نُقلت إلينا أفعاله وتصرفاته في أدق تفاصيلها... ولما كان مُنظماً شديد الحيوية، فقد أثبت نضالية في الدفاع عن المجتمع الإسلامي الجنيني، وفي بث الدعوة... وبالرغم من قتاليته ومنافحته، فقد كان يعفو عند المقدرة، لكنه لم يكن يلين أو يتسامح مع أعداء الدين. ويبدو أن مزايا النبي الثلاث، الورع والقتالية والعفو عند المقدرة قد طبعت المجتمع الإسلامي في إبان قيامه وجسّدت المناخ الروحي للإسلام...»(١).

ويضيف قائلاً: «وكما يظهر التاريخ محمداً قائداً عظيماً ملء قلبه الرأفة، يصوره كذلك رجل دولة صريحاً قوي الشكيمة له سياسته الحكيمة التي تتعامل مع الجميع على قدم المساواة وتعطي كل صاحب حق حقه. ولقد استطاع بدبلوماسيته ونزاهته أن ينتزع الاعتراف بالجماعة الإسلامية عن طريق المعاهدات في الوقت الذي كان النصر العسكري قد بدأ يحالفه. وإذا تذكرنا أخيراً على الصعيد النفساني هشاشة السلطان الذي كان يتمتع به زعيم من زعماء العرب، والفضائل التي كان أفراد المجتمع يطالبونه بالتحلي بها، استطعنا أن نستخلص أنه لا بدّ أن يكون محمد الذي عرف كيف ينتزع رضا أوسع الجماهير به، إنساناً فوق مستوى البشر حقّاً، وأنه لا بد أن يكون نبيّاً حقيقيّاً من أنبياء الله!!»(٢).

- ويقول المستشرق الفرنسي سيديو في وصف مفصل وشامل لخُلق النبي ﷺ في السلم والحرب:

«ومن التجني على حقائق التاريخ ما كان من عزو بعض الكتاب إلى محمد من القسوة والجبن، فقد نسي هؤلاء أن محمداً لم يأل جهداً في إلغاء عادة الآثار

---

(١) إنسانية الإسلام: مارسيل بوازار، ترجمة: عفيف دمشقية، ص٤٦.

(٢) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

الموروثة الكريهة التي كانت ذات حظوة لدى العرب كحظوة المبارزات بأوروبة... وكأن أولئك الكتاب لم يقرأوا آيات القرآن التي قضى محمد فيها على عادة الوأد الفظيعة... وكأنهم لم يفكروا في العفو الكريم الذي أنعم به على أشد أعدائه بعد فتح مكة، ولا في الرحمة التي حبا بها كثيراً من القبائل عند ممارسة قواعد الحرب الشاقة، ولا إلى ما أبداه من أسف على بعض الأحكام المبتسرة، وكأنهم لم يبصروا أن الأمة العربية تعد الانتقام أمراً واجباً، وأنها ترى من حق كل شخص أن يقتل من غير عقاب من يكون خطراً عليه ذات يوم، وكأنهم لم يعلموا أن محمداً لم يسئ استعمال ما اتفق له من السلطان العظيم قضاء لشهوة القسوة الدنيئة، وأنه لم يأل جهداً، في الغالب، في تقويم من يجور من أصحابه.

وكلٌّ يعلم أنه رفض، بعد غزوة بدر، رأي عمر بن الخطاب في قتل الأسرى، وأنه عندما حل وقت مجازاة بني قريظة ترك الحكم في مصيرهم لحليفهم القديم سعد بن معاذ، وأنه صفح عن قاتل عمه حمزة، وأنه لم يرفض، قط، ما طلب إليه من اللطف والسماح، وليس بمجهول أن خالد بن الوليد الذي كان من أشجع قواده لم يستطع أن يرعوي بعد إسلامه من روح القسوة والصولة التي كانت تلازمه في زمن الجاهلية فلاحت له الفرصة بأن يثأر بقريبه القتيل فأثخن في بني جذيمة[1] فأجمع المسلمون على استفظاع عمله، فلما نُبئ محمد

---

(١) جزم سيديو بأن قتل خالد بن الوليد رضي الله عنه لبني جذيمة كان من أجل الثأر ليس له ما يؤكده. وقد ذكرت كتب السير أن النبي ﷺ أرسل سرية بقيادة خالد بن الوليد في شهر شوال من سنة ثمان للهجرة إلى بني جذيمة في يلملم جنوب مكة بثلاثين كيلاً، داعياً لهم إلى الإسلام، فلما وصلهم دعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: «صبأنا صبأنا»، فقتل منهم وأسر، ثم أمر بعد حين بقتل الأسرى، وقد توقف عبد الله بن عمر وعبد الرحمٰن بن عوف وبعض الصحابة عن قتل الأسرى، حتى قدموا على النبي ﷺ الذي تبرأ مما صنع خالد مرتين. وقد تأول خالد بن الوليد قولهم: «صبأنا» بأنهم لا يريدون إعلان إسلامهم أو أنهم ينتقصون الإسلام بذلك فلم يحقن دماءهم، ورأى عبد الرحمٰن بن عوف وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم أنهم عبروا عن إسلامهم بما يعرفون، ولم تكن المصطلحات الشرعية قد اتضحت لسائر العرب آنذاك، لذلك فإن الرسول ﷺ وإن تبرأ من فعل خالد لعجلته وعدم تثبته فإنه لم يعاقبه ولم يعزله عن غمارة جنده، إذ إنه اجتهد فأخطأ. وتقول رواية لا تصلح للاحتجاج بها لانقطاعها: أن النبي ﷺ دفع ديات القتلى جميعاً وزادهم فيها تطييباً لنفوسهم وبراءة من دمائهم. وهذا يتفق مع أحكام الإسلام في قتل الخطأ، وقد ساق ابن إسحاق روايات منقطعة تفيد أن عمل خالد كان ثأراً لعمه الفاكه بن المغيرة الذي قتلته بن جذيمة في الجاهلية. وقد عقب ابن كثير في السيرة النبوية (٣/٥٩٣) على =

بما صنع خالد أسرع في ذمه جهاراً فرفع يديه إلى السماء قائلاً: «**اللَّهُمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد**»...

وليس من الصواب أن يقال إن محمداً كان يجبن في الغالب، لما روي من أن رجفة خفيفة اعترته في بدء يوم بدر، فما أكثر ما عرّض حياته للخطر انتصاراً لدعوته في عهده الأول بمكة، وهو لم ينفك عن القتال في واقعة أُحد حتى بعد أن جُرح جبينه وخده وسقطت ثنيتاه، ووقع في حفرة من ظهر فرسه... وهو قد أوجب النصر بصوته ومِثاله في معركة حنين... وهو لم ينتحل أوضاع الأمراء قط مع ما ناله من غنى وجاه عريض... وكان محمد حليماً معتدلاً، وكان يأتي بالفقراء إلى بيته ليقاسمهم طعامه، وكان يستقبل بلطف ورفق جميع من يودون سؤاله، فيسحر كلماءه بما يعلو وجهه الرزين الزاهر من البشاشة، وكان لا يضجر من طول الحديث، وكان لا يتكلم إلا قليلاً فلا ينمُّ ما يقول على كبرياء أو استعلاء، وكان يوحي في كل مرة باحترام القوم له فيعرف كيف يستوجب ما تقتضيه الرسالة من تبجيلهم إياه»[(١)].

ويقول أستاذ اللغات الشرقية في جامعة جنيف المستشرق إدوار مونتيه في كتابه «حاضر الإسلام ومستقبله»، باحثاً جماع خصاله ﷺ وجميل سجاياه ونزاهة مقاصده وصحة أحكامه وطبيعته الدينية كمصلح عظيم يدهش الفكر، ويثير مكامن الإعجاب، يقول مونتيه:

«أما محمد فكان كريم الأخلاق حسن العشرة، عذب الحديث، صحيح الحكم، صادق اللفظ، وقد كانت الصفة الغالبة عليه هي صحة الحكم، وصراحة اللفظ، والاقتناع التام بما يقبله ويقوله، إن طبيعة محمد الدينية تدهش كل باحث مدقق نزيه القصد، بما يتجلى فيها من شدة الإخلاص، فقد كان محمد مصلحاً دينيّاً، ذا عقيدة راسخة ولم ينهض إلا بعد أن تأمل كثيراً، وبلغ سن الكمال بهاتيك الدعوة العظيمة، التي جعلته من أسطع أنوار الإنسانية، وهو في قتاله الشرك والعادات القبيحة التي كانت عند أبناء زمنه، كان في بلاد العرب أشبه بنبي

= روايات ابن إسحق بقوله: «وهذه مرسلات ومنقطعات»؛ أي: لا تقوم بها حجة. كما أن أعظم ما يبرئ ساحة خالد ويفيد أنه اجتهد فأخطأ هو عدم معاقبة الرسول ﷺ له واكتفاؤه بالبراءة من عمله. انظر: السيرة النبوية الصحيحة: أكرم العُمري (١/ ٤٩٣ ـ ٤٩٤).

(١) تاريخ العرب العام، ص١٠٠ ـ ١٠٣.

من أنبياء بني إسرائيل الذين كانوا كباراً جدّاً في تاريخ قومهم، ولقد جهل كثير من الناس محمداً وبخسوه حقه، وذلك لأنه من المصلحين الذين عرف الناس أطوار حياتهم بدقائقها»[١].

ـ ولقد رد توماس كارليل على أولئك المتعصبين الحاقدين من المستشرقين الذين اتهموا الإسلام ورسول الإسلام بالشهوانية، فالإسلام برأيه دين ينأى عن الشهوانية، أما سيرة حياة النبي ﷺ التي اتسمت بالبساطة والزهد والتقشف، فأبعد من أن تخفى على باحث، ولهذا يقول:

«وما كان محمد أخا شهوات برغم ما اتهم به ظلماً وعدواناً، وأشد ما نجور ونخطئ إذا حسبناه رجلاً شهويّاً، لا هم له إلا قضاء مآربه من الملاذ، كلا، فما أبعد ما كان بينه وبين الملاذ أيّاً كانت، لقد كان زاهداً متقشفاً في مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر أموره وأحواله، وكان طعامه عادة الخبز والماء، وربما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار، وإنهم ليذكرون ـ ونعم ما يذكرون ـ أنه كان يصلح ويرفو ثوبه بيده، فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة؟

فحبذا محمد من رجل خشن اللباس خشن الطعام، مجتهد في الله، قائم النهار، ساهر الليل، دائب في نشر دين الله، غير طامح إلى ما يطمح إليه أصاغر الرجال من رتبة أو دولة أو سلطان، غير متطلع إلى ذكر أو شهرة كيفما كانت، رجل عظيم وربكم، وإلا فما كان ملاقياً من أولئك العرب الغلاظ توقيراً واحتراماً، وإكباراً وإعظاماً، وما كان ممكناً أن يقودهم ويعاشرهم معظم أوقاته ثلاثاً وعشرين حجة، وهم ملتفون به، يقاتلون بين يديه، ويجاهدون حوله، لقد كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة وبادرة وعجرفة، وكانوا حماة الأنوف، أباة للضيم، وعري المُقادة صعاب الشكيمة، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا، فذلك وأيم الله بطل كبير ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا له ولا أذعنوا، وكيف وقد كانوا أطوع له من بنانه، وظني أنه لو كان أتيح لهم بدل محمد قيصر من القياصرة بتاجه وصولجانه لما كان مصيباً من طاعتهم مقدار ما ناله محمد في ثوبه المرقع بيده، فكذلك تكون العظمة، وهكذا يكون الأبطال»[٢].

---

(١) نقلاً عن الرسول في الدراسات الاستشراقية، ص٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٢) الأبطال، ص٨٧ ـ ٧٩.

- إن الخُلق المحمدي الذي هو خلق القرآن، قد طبع بالرحمة والطيبة، لا سيما وأن الله بعثه لينقذ البشرية من ضلالها، ويكون هادياً لها إلى خير سبيل، حاملاً لها الرحمة والخير... وفي هذا يقول المستشرق الإسباني جان ليك في كتابه «العرب» مؤكداً هذه الحقيقة:

«وحياة محمد التاريخية لا يمكن أن توصف بأحسن مما وصفها الله نفسه بألفاظ قليلة، بيَّن بها سبب بعث النبي (محمد) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقد برهن بنفسه على أن لديه أعظم الرحمات لكل ضعيف، ولكل محتاج إلى المساعدة، كان محمد رحمة حقيقة لليتامى والفقراء وابن السبيل والمنكوبين والضعفاء والعمال وأصحاب الكد والعناء، وإني بلهفة وشوق لأن أصلي عليه وعلى أتباعه»[١].

وفي الختام نرى أن ما ذهب إليه المستشرق الإنجليزي وليم موير في كتابه: «حياة محمد» هو خير ما يمكن أن نختم به النظرة الاستشراقية المنصفة لأخلاق النبي ﷺ وشمائله، إذ يقول:

«وباختصار فإنه مهما ندرس حياة النبي محمد نجدها على الدوام عبارة عن كتلة فضائل مجسمة مع نقاء سريره وخلق عظيم، وستبقى تلك الفضائل عديمة النظير على الإطلاق في جميع الأزمان: في الماضي وفي الحاضر والمستقبل»[٢].

أما بالنسبة للمستشرقين المسلمين فمن أحسن من عني بهذا الموضوع المستشرق الفرنسي نصر الدين (دينيه) رحمه الله الذي تناول الجانب الخلقي للنبي ﷺ في ثنايا عرضه للسيرة النبوية، كما أفرده بعنوان مستقل قال فيه: (صورة وصفية للرسول). ومما جاء تحته:

«وكانت المعاني تتدفق غزيرة من ألفاظه المحكمة الموجزة، التي تعبر عن مراده خير تعبير. أما سحر بيانه فكان شيئاً إلٰهيّاً، يغزو القلب ويأسر اللب ولا يقوى أحد على مقاومته. وكان الرسول لا يغرق أبداً في الضحك، فإذا ما اشتد

---

(١) جان ليك: العرب، ص٤٣.

(٢) نقلاً عن الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، ص٣٧٥. وللاستزادة في الشهادات الاستشراقية المنصفة حول خلقه ﷺ انظر: نبي الرحمة وقيم حضارية كلاهما: لمحمد مسعد ياقوت، والرسول في عيون غربية منصفة: للحسيني معدي، قالوا عن الإسلام: لعماد الدين خليل، الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين: لنذير حمدان.

به المرح حجب وجهه بيده. وكان هادي الخلق حليم الطبع، لا تكبّر فيه ولا خشونة، لا يدعوه أحد إلا أجابه في الحال. يحب الأطفال ويلاعبهم ويضمهم إلى صدره الكريم... وكان يرعى شؤون الجميع، سواء ذلك في الأشراف أو العبيد، بعطفه، وقد روي: أن الناس أغفلوا، مرة، إخباره بموت خادم فقيرة تعمل في المسجد، فغضب لذلك غضباً شديداً، وسأل عن المكان الذي دفنت فيه حتى وجده، فجلس يصلي على الميت.

وكان إذا رفع سائل شفتيه إلى أذنه ليكلمه سراً، يميل برأسه إليه حتى ينتهي من حديثه، وإذا صافح زائراً لا يسحب يده من يده حتى يردها الرجل إليه، ومن كلامه ﷺ: «**لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه**».

ولم يرفع يده أبداً على امرأة أو على عبد. روى أنس، الذي خدم الرسول عشر سنين: أن سيده لم يلمه أبداً على شيء ولم يراجعه في أمر. وروى أبو ذر: أنه سمع الرسول يوصي بالخدم والعبيد ويدعو إلى معاملتهم كإخوة في الدين وعدم الإجحاف بهم في المأكل والملبس...

وكانت طبيعته محبة وحناناً، إذ تألم صغيراً من افتقاره إلى عطف الأم، وشغل كبيراً بمسائل التربية، وعلاقة الأبناء بالأمهات، وكان يؤكد دائماً: أن الجنة تحت أقدام الأمهات، كان إذا سمع بكاء طفل، وهو في صلاة الجماعة، أسرع في صلاته من أجل أن يسمح للأم بإسكات طفلها، فقد كان يعلم مقدار تألم الأمهات لبكاء أطفالهن.

ولم تكن فطنته العجيبة، ومعرفته بخفايا النفوس وجواهر الأشياء، لتمنعاه من مشاورة أصحابه في كل الشؤون، ويذكر عن عائشة في هذا الشأن أنها لم تر إنساناً قط يحب المشاورة كما يحبها محمد.

وكانت أخلاق الكرم تحول بين الرسول والسخرية المبتذلة أو القاسية، ولكنه كان مرحاً يحب المداعبات التي لا يحرِّمها الله، والتي فيها شيء كبير من الحق إن لم تكن الحق بعينه...

وكان عدله ورحمته من الشمول بحيث تناولا الحيوان الأعجم، حتى لقد قال يوماً: «**بينما رجل يمشي في يوم شديد الحر، إذ هو بكلب يلهث [يأكل] الثرى من العطش، فنزع خفه، ثم نزل إلى البئر، فملأه ماء، ثم رقي فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له!**»...

كان النبي ﷺ، يقوم بأعماله الخاصة بنفسه: فكان يحلب شاته، ويخصف نعله، ويرقع ثوبه، ويطعم إبله، وينصب خيمته، ويمارس هذه وسواها من الأعمال دون الاستعانة بأحد. وكان يحمل بنفسه ما يشتريه من السوق، وأراد يوماً بعض المؤمنين أن يحمل عنه متاعاً فقال له: «**صاحب الشيء أحق بحمله**»، وبهذه القدوة أراد أن يقضي على تلك العادة التي كان يسير عليها أولئك الأغنياء الذين يشترون من السلع ما يوقرون به ظهور خدمهم دون أن يبدوا تعاطفاً عليهم.

وكان يتباعد، إلى أقصى حدود التباعد، عن عرض الدنيا وزينتها... أما قناعته ﷺ فكانت مضرب الأمثال، روي أنه لم يجمع بين صنفين من الطعام في أكلة واحدة إلا نادراً... وكان عندما ينال الجوع منه، يشد على بطنه حجراً لتخفيف ألم الجوع، ولقد فارق الدنيا دون أن يشبع من طعام قط حتى من خبز الشعير...

وقبل مماته أعتق كل عبيده، وتصدق بما كان له من المال القليل، حيث رأى أنه لا يليق به أن يلقى ربه وفي حوزته شيء من الذهب. ولما لحق بربه لم يوجد في بيته سوى ثلاثين وزناً من الشعير، كان قد رهن فيها درعه لأحد التجار»[1].

بهذا الوصف المفصل عرض (دينيه) لصفات النبي ﷺ وخصوصاً الخلقية منها، ولا شك أن هذه الصفات الإنسانية العظيمة لصاحب الدعوة ومبلغ الرسالة ﷺ هي من أعظم العوامل الداعية للإيمان بنبوته ﷺ وصدق ما جاء به من الوحي من ربه، وهذا ما دعى بعض المستشرقين وغيرهم للإنضواء تحت لواء الإسلام بعد أن اطلعوا على جميل صفاته ﷺ وسمو أخلاقه مما دعاهم للاعتقاد الجازم بأن هذه الصفات لا يمكن أن يقوم بها على هذا النحو من العظمة الإنسانية والكمال الخُلقي البشري إلا من أكمله الله للنبوة واصطفاه تعالى للرسالة.

يقول المستشرق الألماني المسلم مراد هوفمان:

«إن محمداً ﷺ ـ دون أدنى شك ـ هو واحد من أكثر الشخصيات التي أُفتري عليها في تاريخ الإنسانية، ولذلك فمن المهم لغير المسلمين أن يعلموا أنه

---

(١) محمد رسول الله، ص٣٥٩ ـ ٣٦٦.

بالنسبة للمسلمين الإنسان الكامل الذي اختاره الله، فهو التقي المتواضع المتقشف الزاهد العطوف المؤتمن المسالم الشجاع ورجل الدين الحكيم. وهو أيضاً الصديق والتاجر والزوج والأب والقاضي والجندي وصاحب الاستراتيجية والمشرّع ورجل الدولة الناجح. كل هذه الصفات اجتمعت في شخص واحد»[1].

(1) الإسلام كما يراه ألماني مسلم، ص٣٨.

المبحث الرابع

موقفه ﷺ من الوثنية

لقد صان الله تعالى نبيه ﷺ عن شرك الجاهلية وعبادة الأصنام قبل البعثة، لما روى الإمام أحمد في مسنده عن هشام؛ يعني: ابن عروة، عن أبيه، قال: حدثني جار، لخديجة بنت خويلد أنه سمع النبي ﷺ وهو يقول لخديجة: **«أي خديجة، والله لا أعبد اللات، والله لا أعبد العزى أبداً»**، قال: فتقول خديجة: خل اللات، خل العزى، قال: **«كانت صنمهم التي كانوا يعبدون ثم يضطجعون»**[1].

ويدل على عصمته ﷺ من استلام الأصنام، ما جاء عن زيد بن حارثة رضي الله عنه قال: «كان صنم من نحاس يقال له: أساف أو نائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تمسه»**، قال زيد: فطفنا. فقلت في نفسي: لأمسنه؛ حتى أنظر ما يقول! فمسحته فقال رسول الله ﷺ: **«ألم تنه؟»** قال زيد: فوالذي أكرمه وأنزل عليه الكتاب، ما استلم صنماً حتى أكرمه الله بالذي أكرمه، وأنزل عليه الكتاب... الحديث»[2].

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/٢٣٨) وقال: صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، والنسائي =

أما ما روي مما يفيد ظاهره من استلامه ﷺ الأصنام، فليس ظاهره مراداً على فرض صحة الرواية، كيف والرواية في ذلك لم تصح.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كان النبي ﷺ يشهد مع المشركين مشاهدهم، قال: فسمع مَلَكين خلفه، وأحدهما يقول لصاحبه: اذهب بنا حتى نقوم خلف رسول الله ﷺ. قال: كيف نقوم خلفه، وإنما عهده باستلام الأصنام قبل؟ قال: فلم يعد بعد ذلك أن يشهد مع المشركين مشاهدهم»[١]؛ أي: لم يعد رسول الله ﷺ يشهد مع المشركين مشاهدهم التي فيها شيء من الوثنية، وإلا فقد كان يشهد مشاهد الحلف ونحوه، لا مشاهد استلام الأصنام.

كما إن الله تعالى قد حمى نبيه ﷺ من الأكل مما ذبح على النصب، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ أن النبي ﷺ، لقي زيد بن عمرو بن نفيل، بأسفل بلدح قبل أن ينزل عليه ﷺ الوحي، فقدمت إلى النبي ﷺ سفرة، فأبى أن يأكل منها، ثم قال زيد: إني لست آكل مما تذبحون على أنصابكم ولا آكل إلا ما ذكر اسم الله عليه»[٢]. ففي الحديث تصريح بعدم أكله ﷺ، مما ذبح على النصب.

أما ما جاء في حديث سعيد بن زيد بن عمرو؛ أن رسول الله ﷺ وزيد بن حارثة مر بهما زيد بن عمرو، فدعوه إلى سفرة لهما، فقال: يا ابن أخي إني لا آكل مما ذبح على النصب، فما رؤي النبي ﷺ بعد ذلك أكل شيئاً مما ذبح على النصب[٣].

= في السنن الكبرى (٧/ ٣٥٢)، وقال الألباني في صحيح السيرة النبوية، ص٣٢: إسناده حسن.

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٥)، وأبو يعلى، والحديث فيه عبد الله بن محمد ابن عقيل، ولا يحتمل هذا من مثله كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٦).

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/ ١٨٧) برقم (١٦٤٨). وقال محقق المسند: إسناده ضعيف، المسعودي ـ واسمه عبد الرحمٰن بن عبد الله ـ قد اختلط، ويزيد ـ وهو ابن هارون ـ روى عنه بعد الاختلاط، ونفيل بن هشام وكذا أبوه لم يوثقهما غير ابن حبان.
وأخرجه الطيالسي (٢٣٤)، ومن طريقه البيهقي في دلائل النبوة (٢/ ١٢٣ ـ ١٢٤)، وأبو نعيم في معرفة الصحابة (٥٦٨)، وأخرجه الطبراني (٣٥٠) من طريق عبد الله بن رجاء، كلاهما عن المسعودي، بهذا الإسناد. وبعضهم يزيد فيه على بعض.
وأورده الهيثمي في المجمع (٩/ ٤١٧)، ونسبه لأحمد وقال: وفيه المسعودي وقد اختلط وبقية رجاله ثقات!.

وفي حديث زيد بن حارثة رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ وهو مردفي إلى نصب من الأنصاب، فذبحنا له شاة، ووضعناها في التنور حتى إذا نضجت، استخرجناها فجعلناها في سفرتنا، ثم أقبل رسول الله ﷺ يسير، وهو مردفي في أيام الحر، من أيام مكة، حتى إذا كنا بأعلى الوادي لقي فيه زيد بن عمرو ـ فذكر الحديث مطولاً ـ وفيه: ثم قدّمنا إليه؛ يعني: زيد بن عمرو ـ السفرة التي كان فيها الشواء ـ فقال: ما هذه؟ فقلنا: هذه شاة ذبحناها لنصب كذا وكذا، فقال: «**إني لا آكل ما ذبح لغير الله**»»[١].

وفي رواية قال: «ما كنت لآكل مما لم يذكر اسم الله عليه»[٢]. فليس في الروايتين ما يتعارض مع رواية البخاري السابقة من عصمته ﷺ من أكل ما ذبح للأصنام؛ لأن قول زيد: «هذه شاة ذبحناها لنُصب كذا وكذا» تعني الحجر الذي ذبحت عليه الشاة، وليس هذا الحجر بصنم ولا معبود، وإنما هو من آلات الجزار التي يذبح عليها؛ لأن النُصب في الأصل حجر كبير. فمنها ما يكون عندهم من جملة الأصنام، فيذبحون له وعلى اسمه! ومنها ما لا يعبد، بل يكون من آلات الذبح، فيذبح الذابح عليه لا للصنم!.

وهذا أكثر ما تحمله العبارة السابقة: أن يكون زيد بن حارثة ذبح شاة، واتفق ذلك الذبح عند صنم، كانت قريش تذبح عنده، لا أنه ذبحها للصنم!. فظن زيد بن عمرو أن ذلك اللحم مما ذبح لصنم، فامتنع لذلك حسماً للمادة، ولم يكن الأمر كما ظن زيد[٣].

ويكون امتناع النبي ﷺ بعد ذلك عن أكل شيء ذبح على النصب؛ أي: الحجر، مثل امتناع زيد بن عمرو حسماً للمادة. هذا ولا يعني قول زيد بن حارثة: «فما رؤي النبي ﷺ بعد ذلك أكل شيئاً مما ذبح على النصب» أنه ﷺ

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٢٣٨ ـ ٢٣٩) رقم (٤٩٥٦) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وأخرجه الطبراني ورجاله رجال الصحيح كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٦)، وأخرجه أبو نعيم في دلائل النبوة (١/ ١٨٧) رقم (١٣٠)، والبيهقي في دلائل النبوة (٢/ ٣٤).

(٢) أخرجه أبو يعلى، والبزار، والطبراني، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/ ٤١٨) ورجال أبي يعلى والبزار، وأحد أسانيد الطبراني رجال الصحيح غير محمد بن عمرو بن علقمة وهو حسن الحديث. وينظر: مجمع الزوائد (٨/ ٢٢٦).

(٣) انظر: فتح الباري (٧/ ١٧٨) رقم (٣٨٢٦)، والنهاية في غريب الحديث (٥/ ٥٢).

قبل ذلك كان يأكل مما ذبح لصنم! كلا!، وحاشاه ﷺ من ذلك، ويؤكده ما جاء في نفس الرواية السابقة من حديث زيد بن حارثة قال: «وكان صنماً من نحاس يقال له أساف أو نائلة يتمسح به المشركون إذا طافوا، فطاف رسول الله ﷺ وطفت معه، فلما مررت مسحت به، فقال رسول الله ﷺ: **«لا تمسه»**، قال زيد: فطفنا. فقلت في نفسي لأمسنه حتى أنظر ما يقول، فمسحته! فقال رسول الله ﷺ: **«ألم تنه؟»**[(١)]».

فكيف يعقل إذن أن ينهى رسول الله ﷺ عن استلام الأصنام ثم يذبح لها؟!.

أما ما يستشكل من قول زيد بن عمرو: «إني لا آكل مما لم يذكر اسم الله عليه» وهو ما يعني أنه علم أن الشاة المذبوحة، إنما ذبحت على النصب الذي هو من آلات الذبح، ولم تذبح لصنم، ولكنه مع ذلك امتنع عن الأكل منها؛ لأنها لم يذكر عليها اسم الله ﷻ، وهو ما يعني أن رسول الله ﷺ كان أولى بهذه الفضيلة من زيد بن عمرو.

فالجواب: أنه ليس في الحديث أنه ﷺ أكل منها، وعلى تقدير أن يكون أكل، فزيد إنما كان يفعل ذلك برأي يراه، لا بشرع بلغه، ولا سيما وزيد يصرح عن نفسه بأنه لم يتبع أحداً من أهل الكتابين. وهو وإن كان على دين سيدنا إبراهيم، فشرعه على تحريم الميتة، لا تحريم ما لم يذكر اسم الله عليه، واستمر ذلك حتى جاء الإسلام[(٢)].

موقف المستشرقين:

رغم ما جاءت به الآثار السابقة في موقف النبي ﷺ من الوثنية السائدة في قومه قبل البعثة، وموقفه الأشد صرامة ووضوحاً منها بعد البعثة فقد حاولت طوائف من المستشرقين التشكيك في هذا الموقف، وادعاء أن النبي ﷺ قد شارك قومه في جاهليتهم الوثنية، بل تجاوز بعضهم هذا الأمر ليدعي أن النبي ﷺ بعد البعثة قد ضمّن في الوحي والتشريعات شيئاً من تعاليم الجاهلية وعباداتهم، وهو

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ١٤٤)، والروض الأنف (١/ ٣٨٣)، وينظر أيضاً: رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ، ص٩٦ ـ ١٠١.

الأمر الذي تقدم الحديث عنه ضمن مواقف المستشرقين من مصدر الوحي على محمد ﷺ.

ومن هؤلاء الذين أشرنا إليهم غوستاف لوبون الذي تحدث عن الفترة التي كانت بين زواجه ﷺ وبعثته بقوله: «ولم يبد منه في تلك السنين أي نفور من عبادات العرب مع ذلك، كما أنه لم يقع فيها ما يدل على تفكيره في قلب تلك العبادات رأساً على عقب»(١).

وحتى في المسائل الحاسمة التي لا تقبل مداراة ولا التواء، يحاول بعض المستشرقين كمونتغمري وات أن يقتحم (بشكّه) و(نفيه الكيفيّ) جدار الوقائع، لكي يزرع هناك افتراضاته وتحليلاته.

يقرر وات أن الرسول ﷺ لم يهاجم يوماً عبادة الأصنام في الكعبة، وإنما انصبّ هجومه على عبادة الأصنام القابعة في المعابد الكائنة في ضواحي مكة. ولذا فإن معارضة مكة للإسلام لم يكن سببها الأساسي إلا «الخوف من أنه إذا دان أهل مكة بالإسلام وتركوا الإلحاد كفّ البدو عن زيارة الكعبة، وحلّ الخراب بذلك في تجارة مكة، وهذا السبب غير مرض، فسوف نحاول عبثاً العثور في القرآن على أي أثر لمهاجمة عبادة الأصنام في الكعبة... ولقد رأينا أن الهجوم على عبادة الأصنام كان في المعابد الكائنة في ضواحي مكة ولم يكن لهذه المعابد أهمية تجعل التخلّي عنها يهدد بانهيار التجارة المكّية عامة». ويخلص (وات) إلى القول بأن «فتح مكة لم يغيّر سوى الميزات الثانوية»(٢).

ولا شك أن هذا الكلام فيه مغالطة كبيرة تتعارض مع ما جاء في الوحي وواقع السيرة النبوية، لقد كانت دعوة الرسول ﷺ منذ لحظات (إعلانها) الأولى وحتى دخول مكة وتحطيم الأصنام، صيحة متواصلة ضد الوثنية، وصراعاً مكشوفاً ضد الأصنام أيّاً كانت في مكة أو خارجها.

إن هذا التجزيء الذي يمارسه (وات) أسوة بكثير من المستشرقين مرفوض تاريخيّاً وعقيديّاً؛ فالحركة الإسلامية حركة توحيد مطلق ينفي منذ اللحظة الأولى أي توجه وثني، وقد أدركت الزعامة القرشية هذا جيداً، ولذا فإنها كانت مستعدة

(١) حضارة العرب، ص١٠٣.
(٢) محمد في مكة، ص٢١٣ ـ ٢١٤.

للتنازل عن أي شيء، لمنح الرسول ﷺ كل ما يريده إلا هذه: شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وكان الرسول ﷺ في المقابل مستعداً أن يدخل في حوار مع الزعامة الوثنية في كل شيء إلا في هذه: شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وما تعنيه بالضرورة من رفض مطلق للوثنية أو عبادة الأصنام.

ولا يدري المرء، إذا أخذ بوجهة نظر (وات) أين يذهب بروايات السيرة التي تشير إلى اشتداد معارضة قريش للدعوة بعد جهر النبي ﷺ بالإسلام وإظهاره لعداوة آلهتهم وأصنامهم التي كانوا يقدسونها[1]، ولا أين يذهب بالروايات التي تذكر أن المشركين أخذوا ـ يوماً ـ بمجامع رداء الرسول ﷺ، وقالوا له: أنت الذي تقول كذا وكذا في عيب آلهتنا وديننا؟ فما كان جوابه إلا أن قال لهم: «**نعم أنا الذي أقول ذلك!!**»[2].

ولا برواية ابن هشام التي تتحدث عن ذلك الاجتماع الذي عقده زعماء قريش وبعثوا فيه إلى النبي ﷺ ليكلموه... وقالوا له: إنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام وفرّقت الجماعة.. فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسوّدك علينا... فأجابهم الرسول ﷺ: «**ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً... فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم...**»[3].

ولا يدري المرء كذلك أين يذهب برواية ابن سعد التي تقول: إن وفداً من زعماء قريش قدموا إلى أبي طالب ليلتمسوا إليه أن يكفّ ابن أخيه، فاستدعاه، وقال له: يابن أخي هؤلاء عمومتك وأشراف قومك، وقد أرادوا أن ينصفوك، فقال رسول الله ﷺ: «**قولوا أسمع**»!! قالوا: تدعنا وآلهتنا وندعك وإلٰهك، قال أبو طالب: قد أنصفك القوم فاقبل منهم، فقال رسول الله ﷺ: «**أرأيتم إن**

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٢٣٨).

(٢) انظر: سيرة ابن إسحاق، ص٢٣٠، سيرة ابن هشام (١/ ٢٥٩)، دلائل النبوة: للبيهقي (٢/ ٢٧٦).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٦٣).

أعطيتكم هذه، هل أنتم معطيي كلمة إن أنتم تكلمتم بها ملكتم العرب ودانت لكم بها العجم؟»، فقال أبو جهل: إن هذه كلمة مربحة، نعم وأبيك لنقولنها وعشر أمثالها!! فقال الرسول ﷺ: «**قولوا (لا إله إلا الله)**» فاشمأزّوا ونفروا منها، وغضبوا وقاموا وهم يقولون: اصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد[1].

ومن عجب أن (وات) يضع يده في أكثر من موضع من كتابه على إحدى الحقائق الأساسية للحركة الإسلامية؛ أن التغيير الديني يتمخّض بالضرورة عن تغييرات اجتماعية واقتصادية وسياسية، وكان يجب عليه من أجل أن يكون منطقيّاً مع هذه القناعة أن يؤكد حقيقة التغيير الشامل الذي ينتظر مكة على يد الدعوة الجديدة، لكنه يتّجه وجهة معاكسة تماماً، فيطرح مقولته تلك: أن فتح مكة لم يغيّر سوى الميزات الثانوية.

وثمّت فرق بطبيعة الحال بين الاعتماد على نظرية الأسباب الاقتصادية التي يفرضها (وات) في تفسير تخوف المكيّين من الإسلام[2]. وبين أن الدعوة الإسلامية جاءت لكي تقلب الأوضاع في الحياة المكية، بما فيها الاقتصادية، رأساً على عقب[3].

ولعلَّ من أهم الحوادث في السيرة النبوية، والتي حاول من خلالها جمع كبير من المستشرقين الطعن في عقيدة التوحيد ومحاولة ربط الوثنية بالإسلام أو على الأقل في بداية الدعوة في المرحلة المكية هي حادثة أو قصة الغرانيق.

يقول كارل بروكلمان وهو يتحدث عن قصة الغرانيق: «ولكنه على ما يظهر اعترف في السنوات الأولى من بعثته بآلهة الكعبة الثلاث اللواتي كان مواطنوه يعتبرونهن بنات الله، وقد أشار إليهن في إحدى الآيات الموحاة إليه بقوله: تلك الغرانيق العلي وإن شفاعتهن لترتجى. . . ثم ما لبث أن أنكر ذلك وتبرأ منه في اليوم التالي»[4].

كما ردد بودلي هذه القصة في حديثه عن سيرة النبي ﷺ[5]، وكذلك فعل

---

(١) الطبقات الكبرى (٢/ ٢٠٢).

(٢) محمد في مكة، ص٢١٤.

(٣) المستشرقون والسيرة النبوية، ص٦٤ ـ ٦٧.

(٤) (تاريخ الشعوب الإسلامية) .History of the Islamic peoples,pp14

(٥) الرسول، ص٧٣.

مكسيم رودنسون في كتابته عن السيرة[١].

وتأسياً بالمستشرقين قبله فقد ركز المستشرق الروسي سولوفيوف على قصة الغرانيق ليقول: إن الرسول ﷺ بعد هجرة المسلمين إلى الحبشة، في لحظة الإنهيار النفسي قرر أن يتنازل ويجمع بين التوحيد الحق ووثنية وطنه. وهنا نجد أن سولوفيوف لا يتعجب من أن الرجل الذي يسميه نبيّاً يقع في مثل هذا الخطأ، ثم يتخلى عن قوله؛ لأنه من البداية يعد رسالة محمد ﷺ ناقصة غير كاملة[٢].

كما شارك في تأكيد هذه الحادثة ومحاولة الطعن من خلالها حتى بعض من يوصفون بالتعاطف مع نبي الإسلام، ومن ذلك ما ذكرته كارين أرمسترونج في حديثها حول السيرة بقولها:

«لم يركز محمد في مرحلته الأولى على مضمون التوحيد في دعوته لتجنب الخلاف مع قريش. مثل الأحناف، اعتقد محمد بوحدانية الله، ولكنه لم يشجب في البداية عبادة الأصنام حول الكعبة، أو الغرانيق الثلاثة. ومثل معظم المتدينين العظام، لم يكن ذا اهتمام بالغ بالآراء العقدية...»[٣] ثم تضيف:

«ذهل محمد عندما وجد نفسه يتلفظ ببعض آيات عن الغرانيق الثلاثة (بنات الله): ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] وهنا وقفت قريش تصغي بانتباه، فقد أحبت قريش الآلهة التي تتوسط بينها وبين الله، فأكمل محمد تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى... وربما كان قد فكر في أنه إذا استطاع أن يدمج الغرانيق في دينه، فقد ينظرون بعين أكثر عطفاً على رسالته. وعندما قرأ تلك الآيات الشاذة، كانت رغبته الداخلية تتكلم، وليس كلام الله، وتبين أن تصديق شفاعة الغرانيق كان خطأً. وعزا محمد ذلك مثل كل العرب، إلى الشيطان»[٤].

---

(١) محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي، ص١٠٩، عن:
Maxime Rodinson, Muhammad prophet of Islam, Tauris Parke Paperbacks. London-New York 2002.

(٢) انظر بحث: «الأخطاء العقدية في ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية» تأليف: إلمير رفائيل كولييف، ص١٥ ـ ١٦.

(٣) محمد نبي لزماننا، ص٦٢.

(٤) المرجع السابق، ص٦٣.

وهكذا يكاد يجمع المستشرقون على قبول مسألة الغرانيق على أنها قضية مسلمة، دون عرضها على محك النقد والتحليل، أو العقل والمنطق والتمحيص، كأنهم لا يحبون أن ينكشف الحق في مسألة تصلح موضعاً للكلام والتجريح باستثناء المؤرخ الإيطالي كايتاني الذي جرى مع المحققين من علماء المسلمين على إنكار قصة الغرانيق لتهافتها في الإسناد وفي الحوادث(١).

الرد على قصة الغرانيق:

وقبل أن نتوجه بالرد على هذه الفرية نذكر ملخص ما جاء فيها كما أوردها ابن كثير رحمه الله وفيها: أن النبي ﷺ لما رأى تجنب قريش إياه، وإيذاءهم لأصحابه تمنى فقال: «**ليته لا ينزل عليّ شيء ينفهم مني**»، وقارب قومه ودنا منهم ودنوا منه، فجلس يوماً في ناد من تلك الأندية التي تقوم حول الكعبة، فقرأ عليهم سورة النجم حتى وصل قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [النجم: ١٩] ثم قرأ بعد ذلك: تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى ثم مضى في قراءة السورة حتى آخرها وسجد، وسجد القوم جميعاً، لم يختلف منهم أحد حتى أن الوليد بن المغيرة لهرمه لم يستطع السجود، فحمل في كفه حفنة تراب وسجد عليها(٢).

وجاء في «صحيح البخاري»: أن النبي ﷺ قرأ والنجم، بمكة، فسجد فيها، وسجد من معه غير شيخ أخذ كفاً من حمى أو تراب فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا(٣).

وجاء في «البخاري» أيضاً: عن عكرمة عن ابن عباس قال: سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس(٤).

ومن الملاحظ أن روايات البخاري لم ترد فيها قصة الغرانيق، وهذا مما يدل على ضعفها كما سيأتي.

ويتوجه الرد لهذه القصة من عدة أوجه:

---

(١) الإسلام في قفص الاتهام، ص٨٢.

(٢) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٤٢ ـ ٤٤٣)، والطبري (١٦/ ٦٠٤)، والشفا: للقاضي عياض (٢/ ١٢٤).

(٣) كتاب الجمعة، باب ما جاء في سجود القرآن وسننها (٢/ ٤٠) حديث رقم (١٠٦٧).

(٤) كتاب الجمعة، باب سجود المسلمين مع المشركين (٢/ ٤١) حديث رقم (١٠٧١).

أولاً: القرآن الكريم:

فقد وردت آيات متعددة في كتاب الله تدل على بطلان هذا القول، وهي في الأساس دالة على أن الله لم يجعل للشيطان سلطاناً على النبي ﷺ وإخوانه من الرسل، وأتباعهم المخلصين:

١ ـ قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]؛ أي: أن الشيطان ليس له حجة على المؤمنين في إغوائهم ودعائهم إلى الضلالة، حيث أنهم يفوضون أمورهم إلى الله في كل قول وفعل فالإيمان بالله، والتوكل عليه يمنعان الشيطان من وسوسته لهم، وإنما تسلطه بالإغواء يكون على الذين يتخذونه وليّاً ويطيعونه في وساوسه[1].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝٤٢﴾ [الحجر: ٤٢]؛ أي: ليس لك عليهم تسلط وتصرف بالإغواء إلا من اختار اتباعك منهم، فهؤلاء يكون لك عليهم سلطان.

٣ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [سبأ: ٢١] فالآيات القرآنية المتقدمة تدل دلالة واضحة على أنه لا يتسلط على النبي ﷺ خاصة في شأن التنزيل والقرآن الكريم، ولو حصل الشك الباطل في شأن القرآن الكريم وجوّز الفاسقون على مقتضاه أن يكون قد أصابه التغيير والتحريف، وجوزوا أيضاً أن النبي ﷺ وهو مبلغ الرسالة قد أصابه الخرف وابتعد عن رسالته، وذلك باطل فما يؤدي إليه باطل بلا ريب[2].

٤ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، وعلى القول المزعوم أن الشيطان ألقى على لسانه ﷺ ذلك الكفر البواح، فأي سلطان له أكبر من ذلك[3].

٥ ـ وقال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣، ٤]، وقال أيضاً: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦].

---

(١) فتح القدير: للشوكاني (٣/ ٢٣٢).

(٢) خاتم النبيين: أبو زهرة، ص٣٧٠.

(٣) أضواء البيان (٥/ ٢٨٦).

فلو حصل مثل هذا الشيء الذي ورد في حكاية الغرانيق لكان مناقضاً لما ثبت من الآيات في كتاب الله تعالى، والتي تقدمت.

وبعد ذكر هذه الآيات نقول: لقد قامت الحجة، وأجمعت الأمة على عصمة الرسول ﷺ ونزاهته عن مثل هذه الرذيلة، وحاشاه عن أن يجري على قلبه أو لسانه شيء من ذلك لا عمداً ولا سهواً، أو يكون للشيطان عليه سبيل، أو أن يتقول على الله ﷻ لا عمداً ولاسهواً[١].

ثانياً: السُنَّة النبوية:

إن قصة الغرانيق مع استحالتها في الشرع، ودلالة القرآن على فسادها فهي لم تثبت عن طريق صالح للاحتجاج، وقد صرح عدد كبير من العلماء بفسادها وبطلانها.

كما أن علماء التفسير يروون هذه القصة عن ابن عباس من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن ابن عباس، ومعلوم أن الكلبي متروك[٢].

وقد ذكر ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسيره: أن كثيراً من المفسرين أوردوا قصة الغرانيق ولكنها من طرق مرسلة، ولم يرها مسندة من وجه صحيح، وبعد أن سرد عدداً من الروايات قال في آخرها: وكلها مرسلات ومنقطعات والله أعلم[٣].

وقال القاضي عياض في «الشفا»: «فيكفيك أن هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل بل رواه جماعة بأسانيد ضعيفة واهية مقطوعة أو موضوعة أو مرفوعة، وأنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب، المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم»[٤].

ثم نقل القاضي عياض عن أبي بكر بن العربي قوله: «لقد بلي الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون مع ضعف نقلته، واضطراب رواياته، وانقطاع إسناده واختلاف كلماته فقائل يقول: إنه في الصلاة، وآخر يقول: قالها في نادي قومه حين أنزلت عليه السورة، وآخر يقول: قالها وقد

---

(١) المستشرقون والقرآن، ص٣٣٧ ـ ٣٣٨.

(٢) انظر: الكامل في ضعفاء الرجال: لابن عدي (٧/ ٢٧٥)، وميزان الاعتدال: للذهبي (٤/ ٣٠٤).

(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٤٤٢).

(٤) الشفا (٢/ ١٢٥).

أصابته سنة، وآخر يقول: بل حدث نفسه فسها، وآخر يقول: إن الشيطان قالها على لسانه. . . وأن النبي ﷺ لما عرضها على جبريل قال: ما هكذا أقرأتك، وآخر يقول: بل أعلمهم الشيطان أن النبي ﷺ قرأها فلما بلغ النبي ﷺ ذلك، قال: «**والله ما هكذا أنزلت**»، إلى غير ذلك من اختلاف الرواة.

ومن حكيت هذه الحكاية عنه من المفسرين والتابعين لم يسندها أحد منهم ولا رفعها إلى صاحب، وأكثر الطرق عنهم فيها ضعيفة واهية، والمرفوع فيها حديث شعبة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: فيما أحسب الشك في الحديث أن النبي ﷺ كان بمكة، وذكر القصة. . .»[1].

وقد أشار الشيخ ناصر الدين الألباني رحمه الله إلى أن روايات هذه القصة كلها معلة بالإرسال والضعف والجهالة، مبيِّناً أنه ليس فيها ما يصلح للاحتجاج به، ولا سيما مثل هذا الأمر الخطير، ومن أهم النقاط التي ذكرها في بيان ضعف هذه القصة من جهة المتن والتي تتعارض مع مقام النبوة ما يلي:

١ ـ في الروايات كلها وجلها أن الشيطان تكلم على لسان النبي ﷺ بتلك الجملة الباطلة التي تمدح أصنام المشركين (تلك الغرانيق العلى وأن شفاعتهن لترتجى).

٢ ـ بعض الروايات تذكر أن المؤمنين سمعوا ذلك من النبي ﷺ ولم يشعروا بأنه من الشيطان بل اعتقدوا أنه وحي الرحمٰن.

٣ ـ في بعض الروايات أن النبي ﷺ سهى حتى قال ذلك، أفلا ينتبه من سهوه؟.

٤ ـ في إحدى الروايات أن النبي ﷺ بقي مدة لا يدري أن ذلك من الشيطان حتى أخبره جبريل بذلك.

٥ ـ وفي رواية أن ذلك ألقي عليه وهو يصلي.

٦ ـ في بعض الروايات أنه عندما أنكر جبريل ذلك على الرسول ﷺ، قال: «**وافتريت على الله ما لم يقل وشركني الشيطان في أمر الله**»، فهذه طامات يجب تنزيه الرسول منها لا سيما الافتراء على الله من قبل الرسول ﷺ.

٧ ـ تذكر بعض الروايات أن النبي ﷺ تمنى أن لا ينزل عليه شيء من

(١) الشفا (٢/ ١٢٥ ـ ١٢٦).

الوحي يسبّ آلهة المشركين لئلا ينفروا عنه، فهذه أمور تدل على بطلان القصة سنداً ومتناً[١].

ثالثاً: دلالة اللغة على بطلانها:

إن اللغة تشير إلى دفع هذه التهمة الباطلة، وقد قام الشيخ محمد عبده بتحليل (حكاية الغرانيق) حيث أشار إلى أن العرب لم يصفوا آلهتهم بالغرانيق قطعاً فلم يأت لهم في نظم ولا في خطب ولم يكن ذلك جارياً على ألسنتهم، ولم يستعمل (الغرنوق) و(الغرنيق) إلا لاستعماله الحقيقي بكونه طائراً مائيّاً أسود أو أبيض واسمه ـ مالك الحزين ـ واستعمل لغة بشكل مجازي للشباب الأبيض الجميل، إذا نظرنا إلى كلام الأستاذ محمد عبده فإننا نجد أن لفظ الغرانيق لا يلائم وصف الآلهة عند العرب ولا معناها[٢].

رابعاً: دلالة العقل على بطلانها:

وقد أقام أبو بكر ابن العربي المالكي رحمه الله مجموعة من الأدلة الأخرى في بيان بطلان هذه القصة تعتمد على العقل، وتستند إلى أدلة النقل، ومن أهم ما جاء فيها:

١ ـ أن النبي ﷺ إذا أرسل إليه الملك بوحيه فإنه يخلق له العلم به حتى يتحقق أنه رسول من عنده، ولولا ذلك لما صحت الرسالة ولا بينت النبوة.

٢ ـ أن الله قد عصم رسوله من الكفر، وأمته من الشرك، وأجمعت الأمة على عصمة الرسول، فمن ادعى أنه يجوز عليه أن يكفر بالله، فقد تخلى عن الإيمان.

٣ ـ أن الله عز وجل عرّف رسوله بنفسه وبصّره بأدلته، وأراه ملكوت سماواته وأرضه، وعرّفه سنن من كان قبله من إخوته فلم يكن يخفى عليه من أمر الله ما نعرفه اليوم.

٤ ـ الرواية القائلة بأن النبي ﷺ لما جلس مع قريش تمنى أن لا ينزل عليه من الله وحي. كيف يجوز لمن معه أدنى مسكة أن يخطر بباله أن النبي ﷺ آثر وصل قومه على وصل ربه، وأراد أن لا يقطع نسبه بهم بما ينزل عليه من عند ربه من الوحي الذي كان حياة جسده وقلبه، وأنس وحشته وغاية أمنيته.

---

(١) نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق، ص٣٥ ـ ٣٦.

(٢) مشكلات القرآن الكريم: محمد عبده، ص٨٠ ـ ٨١. حياة محمد: هيكل، ص١١٤.

٥ ـ إن قول الشيطان: (تلك الغرانيق العلى، وأن شفاعتهن لترتجى) للنبي ﷺ قبله منه، فالتبس عليه الشيطان بالملك، واختلط عليه التوحيد بالكفر حتى لم يفرق بينهما، فهذا لا يقبله أحد، فكيف يخفى هذا على الرسول.

٦ ـ إن قول العربي: (كاد يكون كذا) معناه قارب ولم يكن، فأخبر الله في هذه الآية أنهم قاربوا أن يفتنوه عن الذي أوحى إليه، ولم تكن فتنة ثم قال: ﴿لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾ [الإسراء: ٧٣]. ولم يفتر، ولو فتنوك وافتريت لاتخذوك خليلاً، فلم تفتن ولا افتريت ولا اتخذوك خليلاً.

٧ ـ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ [الإسراء: ٧٤] فأخبر الله ﷻ أنه ثبته وقرر التوحيد والمعرفة في قلبه، وضرب عليه سرادق العصمة وآواه في كنف الحرمة، ولو وكله إلى نفسه، ورفع عنه ظل عصمته لحظة لألممت بما راموه، ولكننا أمرنا عليك بالمحافظة وأشرقنا بنور الهداية فؤادك، فاستبصر وأزاح عنك الباطل وادحر، فهذه الآية نص في عصمته من كل ما نسب إليه فكيف يتأولها أحد؟ عدواً عما نسب إليه من الباطل.

٨ ـ قوله: (فما زال مغموماً ومهموماً حتى نزلت عليه): ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢]، فأما غمه وحزنه فبأن تمكن الشيطان مما تمكن مما يأتي بيانه، وكان النبي ﷺ يعز عليه أن ينال الشيطان شيئاً وإن قل تأثيره.

٩ ـ إن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، هي أصل في براءة النبي ﷺ فأخبره الله تعالى أن من سُنَّته في رسله، وسيرته في أنبيائه أنهم إذا قالوا عن الله قولاً زاد الشيطان فيه من قبل نفسه كما يفعل سائر المعاصي.

كما تقول: ألقيت في الدار كذا... وألقيت في الكيس كذا، فهذا نص في أن الشيطان زاد في الذي قاله النبي ﷺ؛ لا أن النبي ﷺ قاله، وذلك أن النبي ﷺ كان إذا قرأ تلا قرآناً مقطعاً، وسكت في مقاطع الآي سكوتاً محصلاً، وكذلك كان حديثه مترسلاً فيه، متأنياً، فتبع الشيطان تلك السكنات التي بين قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ٢٠] وبين قوله تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [النجم: ٢١]، فقال يحاكي صوت النبي ﷺ (وإنهن الغرانقة العلى، وإن شفاعتهن لترتجى) فأما المشركون، والذين في قلوبهم مرض لقلة البصيرة وفساد السريرة، فتلوها عن النبي ﷺ، ونسبوها بجهلهم إليه حتى سجدوا معه اعتقاداً أنه

معهم، وعلم الذين أوتوا العلم والإيمان أن القرآن حق من عند الله، فيؤمنون به، ويرفضون غيره، وتجيب قلوبهم إلى الحق، وتنفر عن الباطل؛ وكل ذلك ابتلاء من الله ومحنة[١].

خامساً: مخالفتها لدلالة النص:

فسياق الآيات في سورة النجم لا يمكن أن يحتمل استطراداً من هذا القبيل؛ لأنه مصبوب على تسفيه الكفار، فالآيات تقول: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ١٨ ـ ٢٣].

فهذه الآيات تصرح بأن اللات والعزى أسماء سماها المشركون وآباؤهم، ما أنزل الله بها من سلطان، فكيف يحتمل أن يجري السياق بما يأتي: «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى تلك الغرانيق العلا إن شفاعتهن ترتجى، ألكم الذكر وله الأنثى تلك إذاً قسمة ضيزى، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان».

فهذا السياق يحتوي على الفساد والاضطراب والتناقض، ويشتمل على مدح اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ثم ينتقل إلى ذمها في أربع آيات متعاقبة، وهذا أمر لا يرضاه العقل السليم، فكيف مر عليهم التقريع الشديد والامتهان البالغ الذي أعقب هذه الكلمات التي سرتهم وشرحت صدورهم (أفرأيتم اللات. . . إلخ)، وأين كانت عقول قريش وعلمهم بفنون القول؟. وكيف يسجدون مع رسول الله ﷺ وهم يسمعون ذم آلهتهم[٢].

ـ وقد أقر جمع من المستشرقين المتعاطفين مع الإسلام بمدى المفارقة بين موقف النبي ﷺ وبين موقف قومه المشركين من الوثنية، رغم أن التزام شعائرها كانت السمة البارزة لأصحاب هذا المجتمع المكي.

---

(١) أحكام القرآن: أبو بكر بن العربي، راجعه وخرَّج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا (٣/ ٣٠٤ ـ ٣٠٧).

(٢) حياة محمد: هيكل، ص١١٤، والمستشرقون والقرآن: محمد عامر، ص٤٤٦. وانظر: ص٤٣٣ ـ ٤٥٤.

يقول المستشرق والمؤرخ الفرنسي رينيه غروسيه في كتابه «مدنيات من الشرق»:

«كان محمد لما قام بهذه الدعوة شاباً كريماً نجداً، ملآن حماسة لكل قضية شريفة، وكان أرفع جدّاً من الوسط الذي يعيش فيه، وقد كان العرب يوم دعاهم إلى الله منغمسين في الوثنية، وعبادة الحجارة، فعزم على نقلهم من تلك الوثنية إلى التوحيد الخالص البحت، وكانوا يهتفون بالفوضى، وقتال بعضهم بعضاً فأراد أن تؤسس لهم حكومة ديموقراطية موحدة، وكانت لهم عادات وحشية همجية صرفة، فأراد أن يلطف أخلاقهم، ويهذب من خشونتهم»[(١)].

بينما نظر إليه المستشرق السويسري إدوار مونتيه في مؤلفه: «المدنية الشرقية» نظرته إلى الأنبياء التوراتيين القدماء بقوله:

«كان محمد نبيّاً بالمعنى الذي كان يعرفه العبرانيون القدماء، ولقد كان يدافع عن عقيدة خالصة لا صلة لها بالوثنية، وأخذ يسعى لانتشال قومه من ديانة جافة لا اعتبار لها بالمرة، وليخرجهم من حالة الأخلاق المنحطة كل الانحطاط، ولا يمكن أن يشك لا في إخلاصه، ولا في الحمية الدينية التي كان قلبه مفعماً بها»[(٢)].

وقد رأى هؤلاء المستشرقون أن نضال النبي ﷺ كان ملحميّاً، وإيمانه بالرسالة كان عميقاً، لم تثنه مواقف قومه عن المضي في نشر الدعوة ومحاربة الوثنية التي كانوا عليها، كما تحدث المستشرق الإيطالي ميخائيل إيماري (١٨٩٩م) في كتابه «تاريخ المسلمين»، عن هذه المسألة بقوله:

«وحسب محمد ثناءً عليه أنه لم يساوم ولم يقبل المساومة لحظة واحدة في موضوع رسالته على كثرة فنون المساومات واشتداد المحن وهو القائل: «**لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته**». عقيدة راسخة، وثبات لا يقاس بنظير، وهمة تركت العرب مدينين لمحمد بن عبد الله، إذ تركهم أمة لها شأنها تحت الشمس في تاريخ البشر»[(٣)].

---

(١) الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، ص١١٧ نقلاً عن الكتاب المذكور دون ذكر الصفحة.

(٢) المدنية الشرقية، ص٤٧.

(٣) الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، ص١٢٦ نقلاً عن الكتاب المذكور دون ذكر الصفحة.

وتقول الشاعرة الإنجليزية المسلمة اللايدي إيفلين (زينب) كوبولد (١٩٣٦م)[١] في كتابها «الأخلاق»:

«لعمري لقد استطاع محمد القيام بالمعجزات والعجائب، لما تمكن من حمل هذه الأمة العربية الشديدة العنيدة على نبذ الأصنام، وقبول الوحدانية الإلٰهية، ولقد كان محمد شاكراً حامداً إذ وفق إلى خلق العرب خلقاً جديداً، ونقلهم من الظلمات إلى النور، ومع ذلك كان محمد سيد جزيرة العرب، وزعيم قبائلهم، فإنه لم يفكر في هذه، ولا راح يعمل لاستثمارها، بل ظل على حاله، مكتفياً بأنه رسول الله، وأنه خادم المسلمين، ينظف بيته بنفسه، ويصلح حذاءه بيده، كريماً بارّاً كأنه الريح السارية، لا يقصده فقير أو بائس إلا تفضل عليه بما لديه، وكان يعمل في سبيل الله والإنسانية»[٢].

ويقول المفكر البريطاني روم لاندو (١٩٧٤م):

«أدرك ـ أي: النبي ﷺ ـ أن الإصلاحات الضرورية ينبغي أن تقدم إلى البدو الذين لا يعرفون انضباطاً وإلى المدنيين الوثنيين، وفي آن معاً، على نحو تدريجي. وفي الوقت نفسه كان محمد يملك إيماناً لا يلين بفكرة الإلٰه الواحد... وعزماً راسخاً على استئصال كل أثر من آثار عبادة الأصنام التي كانت سائدة بين الوثنيين العرب»[٣].

ويؤكد هنري دي كاستري ما تقدم بقوله:

«ولقد نعلم أن محمداً مرّ بمتاعب كثيرة وقاسى آلاماً نفسية كبرى قبل أن يخبر برسالته، فقد خلقه الله ذا نفس تمحّضت للدين ومن أجل ذلك احتاج إلى العزلة عن الناس لكي يهرب من عبادة الأوثان ومذهب تعدد الآلهة الذي ابتدعه المسيحيون، وكان بغضهما متمكناً من قلبه وكان وجود هذين المذهبين أشبه بإبرة في جسمه، ولعمري فيم كان يفكر ذلك الرجل الذي بلغ الأربعين وهو في ريعان الذكاء، ومن أولئك الشرقيين الذين امتازوا في العقل بحدة التخيّل وقوة الإدراك... إلا أن يقول مراراً ويعيد تكراراً هذه الكلمات (**الله أحد، الله أحد**).

---

(١) انظر: المستشرقون (٢/١٠٦).

(٢) المرجع السابق، ص٤٢٩، نقلاً عن الأخلاق: إيفلين كوبرلد ص٦٦.

(٣) الاسلام والعرب، ص٣٣.

كلمات رددها المسلمون أجمعون من بعده وغاب عنا معشر المسيحيين مغزاها لبعدنا عن فكرة التوحيد»[١].

ولأجل الخلاف حول الوثنية دخل الرسول ﷺ في صراع مع أصحاب هذه النزعات كما تبيِّن ذلك لورا فاغليري بقولها:

«دعا الرسول العربي بصوت ملهم باتصال عميق بربه، دعا عبدة الأوثان وأتباع نصرانية ويهودية محرّفتين على أصفى عقيدة توحيدية. وارتضى أن يخوض صراعاً مكشوفاً مع بعض نزعات البشر الرجعية التي تقود المرء إلى أن يشرك بالخالق آلهة أخرى»[٢].

ـ أما بالنسبة للمستشرقين المسلمين فتعتبر مخالفة النبي ﷺ للوثنية أمراً مسلماً لهم وواضحاً لا إشكال فيه، بل إنهم مقرون بمفارقة النبي ﷺ لشعائر الوثنية حتى قبل البعثة.

ولهذا نجد المستشرق المسلم نصر الدين (دينيه) يؤكد على أن مظاهر الوثنية التي كانت سائدة في مكة هي الباعث الرئيس للنبي ﷺ على اعتزال قومه لئلا يشاركهم في شيء منها، ولهذا حرص ﷺ على الخلوة بنفسه بعيداً عن هذه الشعائر الجاهلية، كما يقول:

«ولكن بجانب هذه الجوانب المزهرة، الفطرية في العرب، كم من ضلال يرثى له؟! لقد نسوا نسياناً تاماً دين التوحيد، الذي نشره فيهم جدهم إبراهيم، وإن كانوا قد استمروا في تقديس الكعبة التي بناها بيديه، فقد اتخذوا لله شركاء بزعمهم، من أصنام تحظى عادة بتفضيلهم. وكان لكل قبيلة، بل ولكل أسرة، صنم تؤثره عما عداه... ذلك هو الضلال الذي أحزن محمداً وأرقه وجعله لا يستطيع الصبر على رؤيته؛ وهو ضلال ليس في طوقه إزالته؛ لأنه متأصل عميق، ولأنه عام شامل... لهذا كان يلجأ إلى الأماكن الخالية من بني البشر حتى لا يختلط بهم، وحتى يزيل من ذاكرته شبح ما هم فيه من ضلال بشع أليم»[٣].

---

(١) الإسلام: خواطر وسوانح، ص١٦ ـ ١٧.

(٢) دفاع عن الإسلام، ص٤٣.

(٣) محمد رسول الله، ص٩٨ ـ ٩٩.

المبحث الخامس

أمِّيَّته ﷺ

لقد اعتنى الفكر الاستشراقي الحديث، اعتناء خاصاً، ببحث مسألة (أُمِّيَّة) النبي الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ، حتى إنه ليندر أن لا يعرض لها أحد المستشرقين بالبحث الجاد أو العرضي، رغم عدم تأثير إثبات هذه الصفة أو نفيها عنه عليه الصلاة والسلام ـ كما قد يتصور كثير من المسلمين ـ على نظرياتهم التي حاولوا بواسطتها تفسير نبوته ﷺ(١).

ولا يعني هذا الاهتمام الاستشراقي بالموضوع، بالضرورة، ما قد يتبادر إلى الذهن من أنهم مجمعون على إثبات علمه عليه الصلاة والسلام بالقراءة والكتابة، بل لقد ذهب قسم منهم إلى تبني النظرة الإسلامية في الموضوع، والمتمثلة في تأكيد أُمِّيَّته، ومن هؤلاء المستشرقين الفرنسيين ألبيركازيميرسكي (١٨٨٧م)، وإدوارد مونتيه؛ حيث ذهبا إلى ذلك في ترجمتيهما للقرآن الكريم.

وقد كتب المؤرخ ول ديورانت يؤكد هذا الأمر ويفسره في الوقت نفسه، بقوله: «ولكن يبدو أن أحداً لم يعن بتعليمه القراءة والكتابة، ولم تكن لهذه الميزة قيمة عند العرب في ذلك الوقت، ولهذا لم يكن في قبيلة قريش كلها إلا سبعة

---

(١) هل كان محمد ﷺ أمياً: د. لخضر شايب، ص١١.

عشر رجلاً يقرؤون ويكتبون. ولم يعرف عن محمد أنه كتب شيئاً بنفسه، وكان بعد الرسالة يستخدم كاتباً خاصاً»[(١)].

وفي مقابل هذا الرأي الذي لم يسانده، عند البحث، إلا القلة، ذهب جمهور المستشرقين إلى تأكيد علمه عليه الصلاة والسلام بالقراءة منذ الفترة السابقة على الوحي إليه. وإن تتبع الكتابات الاستشراقية في الموضوع تؤدي بنا إلى الكشف عن جملة العناصر التي استدلوا بها على مذهبهم. والتي يمكن إجمالها فيما يلي[(٢)]:

١ ـ استنتج عدد من المستشرقين من «الوضعية الحضارية» التي كانت عليها مكة المكرمة فكرة تعلم النبي عليه الصلاة والسلام. فقد كانت القراءة والكتابة، حسب ما ذهب إليه هذا الفريق، منتشرة في هذه المدينة. وفي ضوء مشاركة النبي ﷺ في النشاط التجاري، فقد افترض بعضهم، وأكد آخرون، حصوله على قسط من التعليم. ومن الذين ذهبوا إلى ذلك مونتغمري وات، فقال:

«ورغم أن الإسلام الأصولي يقرر أن محمداً كان لا يعرف القراءة والكتابة إلا أن هذه المعلومة مشكوك فيها بالنسبة للعلماء الغربيين المحدثين؛ لأنها تبدو موضوعة من أجل إبراز الطابع المعجز لوجود القرآن، وهو عمل لا يستطيع أمي أن ينجزه. وعلى العكس، نجد أن عدداً كبيرا من المكيين كان يعرف القراءة والكتابة، ولذلك يفترض أن تاجراً نشيطاً كمحمد كان يتوافر على حظ من هذه الفنون»[(٣)].

وإذا كان وات غير قاطع في استخدامه لهذا الدليل، فقد وجد من المستشرقين من كان مطمئناً تمام الاطمئنان إليه. ومن هؤلاء المستشرق الألماني رودلف الذي تشبع بعبارات أحد كبار المستشرقين المعاصرين الحاقدين على الإسلام، وهو الأب هنري لامنس، فقال: «أما السؤال عن معرفته القراءة والكتابة، ففي استطاعتنا أن نجيب عنه بالإيجاب، وليس من السهل أن نفترض فيه الأمية... فإن (مكة)... كانت تضطرب بالتجارة، وتعج بالحياة المالية،

---

(١) قصة الحضارة (١١/ ٢١).

(٢) انظر فيما يأتي: هل كان محمد ﷺ أميّاً، ص١١ ـ ١٦.

(٣) (محمد النبي، ص٣٧). Mahomet prophete et h. d'etat-p 37.

ويدلى فيها بالمحاضرات والبحوث»[١].

٢ ـ وقد استدل عدد من علماء المستشرقين على ما ذهبوا إليه بجملة من الروايات الواردة في كتب الحديث والسِّيَر.

ومن هؤلاء وات الذي عاد إلى روايات بدء الوحي التي نقلها الأئمة ابن إسحاق والبخاري ومسلم، واستنتج منها ما أكد به فكرته حول معرفة النبي بالقراءة والكتابة، فقال: «تتضمن الرواية المتعلقة بسورة العلق عدة أشكال... ويجب تفسير قول محمد: **(ما أقرأ)**، في رده على قول الملك: (اقرأ)، بـ: (لا أستطيع القراءة) أو (التلاوة). يتضح لنا ذلك من وجود رواية ـ عند البخاري ـ تقول: **(ما أنا بقارئ)**. وقد ميَّز ابن هشام بين (ما أقرأ) و(ماذا أقرأ)، وهذا التعبير الثاني لا يمكن أن يعني إلا (ماذا أتلو)، وهذا هو المعنى الطبيعي لقوله: (ما أقرأ). ويبدو من المؤكد تقريباً أن المفسرين التقليديين اللاحقين تجنبوا المعنى الطبيعي لهذه الكلمات، ليجدوا أساساً للعقيدة التي تريد أن محمد لم يكن يعرف الكتابة. وهذا عنصر رئيسي للتدليل على طبيعة القرآن المعجزة»[٢].

وقد قرر جولدزيهر تعلم النبي ﷺ معتمداً على ظواهر أخبار جاءت بها المصادر؛ حيث زعم نصها على تدوين النبي ﷺ للسُّنَّة، فقال في معرض إنكاره لوجود مصدرين للتشريع الإسلامي، **أحدهما**: مكتوب، وهو القرآن الكريم، **وثانيهما**: شفوي، وهو السُّنَّة الشريفة وأن هذا الرأي لم يعترف به الجميع: «ولولا ذلك لما نقل المسلمون معلومات أكيدة تتعلق بالأزمنة القديمة؛ حيث نجد النبي نفسه يكتب بيده بعض الأحكام غير القرآن»[٣].

وعلى عكس جولدزيهر، فقد كانت مسألة أمية النبي ﷺ من أكثر المباحث دوراناً في مؤلفات ريجيس بلاشير. الذي كان إضافة إلى هذا، أكثر المستشرقين اهتماماً بالروايات الإسلامية في الموضوع، والتي جعلها تدل دلالة قاطعة على تعلم النبي عليه الصلاة والسلام. وقد ردد هذا الرأي بأسلوب واحد ـ تقريباً ـ في كل مؤلفاته، كما أثبته في ترجمته للقرآن الكريم. وهو يقول في «مدخل إلى

---

(١) انظر حقيقة كتاب صلة الإسلام باليهودية والمسيحية: أبو المجد أحمد، ص١٤.

(٢) محمد في مكة، ص٨٥.

(٣) انظر: (الدراسات الإسلامية) Etudes sur la tradition islamique-p 242.

القرآن»: «ويجب علينا هنا أن نعطي قيمة أكبر لبعض الروايات المتناثرة في الحديث، فهكذا نرى سهيل بن عمرو، ممثل قريش في عقد صلح الحديبية، يعترض على محمد عندما ابتدأ يملي على كاتبه الافتتاحية الإسلامية (**بسم الله الرحمٰن الرحيم**)، وقال له: اكتب كما كنت تكتب من قبل: (باسمك اللّٰهُمَّ)»[(١)].

ورغم أن بلاشير قد كتب تعليقاً في هامش الصفحة، أوضح فيه أن معنى قول سهيل (اكتب) قد يكون (استكتب) أو (امل)، إلا أنه كان قاطعاً في الاستدلال بهذه الحادثة في متن كتابه، فقال: «ومن البديهي أن سهيلاً هنا يشير إلى بعض كتابات محمد بيده قبل هجرته من مكة، وربما قبل البعثة»[(٢)].

وأكثر إقناعاً ـ حسب زعم بلاشير ـ جملة الأحاديث التي تصور لنا النبي ﷺ، أثناء احتضاره، يطلب عظم كتف أو عرقاً ـ حسب روايات أخرى ـ ومحبرة؛ «لكي يكتب وصيته السياسية. ولم يندهش أحد من طلبه، الذي لم تتم تلبيته إلا لاعتراض أبي بكر وعائشة حتى يتم عزل علي بن أبي طالب»[(٣)].

٣ ـ وقد استخدم بعض المستشرقين القرآن الكريم لإثبات صفة التعلم للنبي ﷺ ومن هؤلاء بلاشير الذي اعتبر قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان: ٥] دليلاً جديداً يضاف إلى مجموع الأدلة التي استند عليها لتأكيد نظريته[(٤)].

والملاحظ أن عدداً كبيراً من المستشرقين لم يتوقف عند هذا الحد من البحث، بل ذهب يناقش الأدلة التي استخدمها العلماء المسلمون في النص على أمِّية النبي ﷺ، وقد أكد جمهورهم على أن السبب الرئيس لتوجه المسلمين إلى تأكيد الأمية كان يهدف إلى إثبات صحة النبوة المحمدية؛ بواسطة التنبيه إلى المعجزة الكامنة في المسألة، والتي أكدوها بالمقابلة بين جهله بالقراءة والكتابة وبين إتيانه، مع هذا، بكتاب احتوى على علم لا يوجد له مثيل[(٥)].

---

(١) introduction au Coran-p7. Et/le problem-de Mahomet-blachere-32.

(٢) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

(٣) المرجع السابق، بنفس الصفحة. وزعم بلاشير أن أبا بكر وعائشة رضي الله عنهما قد منعا النبي ﷺ من تدوين ما يشاء مجرد افتراء على المصادر وعلى الحقيقة.

(٤) انظر: le problem de Mahomet-b-32

(٥) هذا هو رأي وات مثلاً كما هو واضح من النصوص التي نقلناها عنه قبل قليل.

وكانت وسيلة المسلمين إلى ذلك ـ حسب ما ذهب إليه المستشرقون ـ هي الميل إلى إعطاء كلمة (أُمِّيّ) الواردة في القرآن معنى (الجاهل بالقراءة)، بينما معناها: «يجب أن يعني شخصاً ينتسب إلى جماعة ليس لها كتاب منزل، أي: لا يعرفون الكتب السماوية، ولا ما فيها»[(١)].

وقد سعى بلاشير إلى إنجاز تحقيق حول مرجع العلماء المسلمين لتفسيرهم كلمة (أُمِّيّ) بالجاهل بالقراءة، وجعله حديثاً مأثوراً عن النبي ﷺ، وهو: «**نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**». وأكد، بعدها، أن كل كلمة (أُمِّيّ) في القرآن «تعني: العرب الكفار الذين ـ على العكس من اليهود والنصارى ـ لم يتلقوا أي رسالة، وبالتالي فقد كانوا يجهلون الشرائع السماوية»[(٢)].

وقد أقصى الفكر الاستشراقي بهذه الطريقة مجموعة الآيات القرآنية التي وردت فيها عبارات: (النَّبِيِّ الأُمِّيّ)، وكل اشتقاقات كلمة (أُمِّيّ). والتي اعتمد عليها العلماء المسلمون في تأكيد عدم تعلمه عليه الصلاة والسلام؛ إذ جعل معنى تلك العبارة (نبي المشركين)، وجعل معنى اشتقاقاتها (غير الكتابيين). وعلى هذا فإن مرجع فهم كلمة (أُمِّيّ) الواردة في القرآن الكريم، حسب المستشرق الأب هنري لامنس، ليس عربيّاً، بل يهودي؛ حيث أن مصدرها هو كلمة (أمة) التي كان اليهود يعنون بها شعوب الأرض جميعاً. . . وذلك في مقابل الإسرائيليين، أبناء الله وأحباؤه[(٣)].

وحاصل هذا العرض أن جمهور المستشرقين قد ذهبوا إلى:

١ ـ أن النبي ﷺ كان متعلماً.

٢ ـ أن كلمة (أُمِّيّ) القرآنية، حسب جمهور المستشرقين، صفة لكل إنسان غير منتمي إلى إحدى الديانات التوحيدية السابقة للإسلام. وقد ذهب الأب لامنس إلى أنها مصطلح يهودي يعني ـ بإطلاق ـ غير اليهود.

٣ ـ أن هدف تفسير المسلمين لكلمة (أُمِّيّ) بالجاهل بالقراءة هو الاستدلال على الطابع المعجز للقرآن الكريم؛ حيث أن ما ورد فيه من العلوم لا يمكن أن

---

(١) الإسلام منهج حياة، فيليب حِتّي، ص٢١.

(٢) introduction au Coran-p 7. Et/le problem-de Mahomet-blachere-p32.

(٣) (المعتقدات الإسلامية والمؤسسات) i islam croyances et institutions-p 38.

تصدر إلا عن شخص يمتلك ناصية المعرفة، فمجيء النبي ﷺ به، وهو رجل أمي، ليس له إلا تفسير واحد، وهو أنه من عند الله ﷻ[١].

الرد على موقف المستشرقين:

ينبغي أن نبيِّن هنا أن ما عرضناه من بعض الأدلة التي استخدمها جمهور المستشرقين في تأكيد صفة التعلم للنبي ﷺ قد سبق لقلة من علماء المسلمين استخدامها للاستدلال على تعلمه ﷺ ولكن بعد البعثة.

ومن هؤلاء: ابن أبي شيبة، وأبي ذر الهروي، وأبو الوليد الباجي، والألوسي[٢]، وقد كان اعتماد هؤلاء العلماء على قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨].

يقول الآلوسي رحمه الله: «واختُلف في أنه عليه الصلاة والسلام هل صدر عنه الكتابة في وقت أم لا؟. فقيل: نعم صدرت عنه عام الحديبية فكتب الصلح، وهي معجزة أيضاً له ﷺ، وظاهر الحديث يقتضيه، وقيل: لم يصدر عنه أصلاً. وإنما أسندت إليه في الحديث مجازاً. وجاء عن بعض أهل البيت رضي الله عنهم أنه ﷺ كان تنطق له الحروف المكتوبة إذا نظر فيها، ولم أر لذلك سنداً يعول عليه، وهو ﷺ فوق ذلك. نعم أخرج أبو الشيخ من طريق مجاهد قال: حدثني عون بن عبد الله بن عتبة عن أبيه قال: «ما مات النبي ﷺ حتى قرأ وكتب» فذكرت هذا الحديث للشعبي فقال: صدق سمعت أصحابنا يقولون ذلك»[٣].

وقد ذكر ابن حجر رحمه الله جملة ممن ذهب إلى هذا القول من أهل العلم ضمن بيانه لتشنيع علماء الأندلس على أبي الوليد الباجي لقوله بانتفاء أمية النبي ﷺ بعد البعثة، فقال:

«ولفظة فأخذ الكتاب وليس يحسن أن يكتب فكتب مكان رسول الله ﷺ: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله. وقد تمسك بظاهر هذه الرواية أبو الوليد الباجي فادعى أن النبي ﷺ كتب بيده بعد أن لم يكن يحسن يكتب، فشنع عليه

---

(١) هذا هو رأي وات مثلاً كما هو واضح من النصوص التي نقلناها عنه قبل قليل. وانظر: هل كان محمد ﷺ أمياً، ص١١ ـ ١٦.

(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٥٠٣)، هل كان محمد ﷺ أمياً، ص١٧.

(٣) روح المعاني: الآلوسي (٥/ ٧٥).

علماء الأندلس في زمانه ورموه بالزندقة، وأن الذي قاله مخالف القرآن، حتى قال قائلهم: برئت ممن شرى دنيا بآخرة، وقال: إن رسول الله قد كتب. فجمعهم الأمير فاستظهر الباجي عليهم بما لديه من المعرفة، وقال للأمير: هذا لا ينافي القرآن، بل يؤخذ من مفهوم القرآن لأنه قيد النفي بما قبل ورود القرآن فقال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ [العنكبوت: ٤٨] وبعد أن تحققت أميته وتقررت بذلك معجزته وأمن الارتياب في ذلك لا مانع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك من غير تعليم فتكون معجزة أخرى. وذكر ابن دحية أن جماعة من العلماء وافقوا الباجي في ذلك، منهم: شيخه أبو ذر الهروي وأبو الفتح النيسابوري وآخرون من علماء إفريقية وغيرها»[(١)].

ويدل ما تقدم على أن بعض علمائنا ـ رحمهم الله ـ قد وجدوا إمكانية لتبني هذا الرأي في الآية السابقة، وفي بعض الروايات الحديثية التي بلغتنا، وهو الأمر الذي وافقهم فيه بعض الباحثين المسلمين المعاصرين؛ كالشيخ الزرقاني، الذي ذكر أدلة القائلين بقراءته عليه الصلاة والسلام بعد أن لم يكن يقرأ، وإن لم يجزم بذلك، فقال:

«ونحن إذا استعرضنا حجج هؤلاء وهؤلاء نلاحظ أن أدلة أميته ﷺ قطعية يقينية، وأن أدلة كونه كتب وخطَّ بيمينه ظنية... ثم إن التعارض ظاهر فيما بين هذه وتلك، غير أنه تعارض ظاهري يمكن رفعه بأن نحمل أدلة كتابته على أخريات حالاته، وذلك جمعاً بين الأدلة، أما لو لم يمكن الجمع فلا مشاحة حينئذ من قبول القطعي»[(٢)].

وتأسيساً على ما سبق، فإن الدراسة التالية للأحاديث الواردة في هذا الموضوع تعتبر مناقشة للمستشرقين، إضافة للقلة القائلة بتعلمه عليه الصلاة والسلام بعد البعثة من العلماء المسلمين. وسنبدأها بعرض عدد من الروايات المشكلة، أي: التي تحتوي نصوصها على (ما يمكن) أن يدل على ما ذهب إليه هؤلاء العلماء، والتي استندوا عليها (بالفعل) في تقرير ما ذهبوا إليه.

ـ فمن ذلك ما أورده الشيخان، واللفظ للبخاري قال: «... لما صالح

---

(١) فتح الباري (٧/ ٥٠٣).
(٢) مناهل العرفان (١/ ٣٦٧).

رسول الله ﷺ أهل الحديبية كتب علي بن أبي طالب رضوان الله عليه بينهم كتاباً، فكتب (محمد رسول الله)، فقال المشركون: لا تكتب (محمد رسول الله)، لو كنت رسولاً لم نقاتلك، فقال لعلي: **امحه**، قال علي: ما أنا بالذي أمحوه، فمحاه رسول الله ﷺ وصالحهم»[(١)].

وأكثر إشكالاً من الحديث السابق ما أورده الإمام البخاري عن البراء بن عازب، قال: «... فلما كتبوا الكتاب كتبوا: هذا ما قاضى عليه (محمد رسول الله)، فقالوا: لا نقربها، فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبد الله، قال: **«أنا رسول الله وأنا محمد بن عبد الله»**، ثم قال لعلي: **امح (رسول الله)**، قال: لا، والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب، فكتب: **«هذا ما قاضى محمد بن عبد الله»**»[(٢)].

ـ ومن ذلك أيضاً الاستدلال بالحديث الذي أورده الإمام البخاري عن ابن عباس، قال: «لما حضر رسول الله ﷺ، وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: **«هلموا أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده»**، وتنازعوا عنده، وكثر اللغط، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: **«قوموا»**»[(٣)].

والخبر عند ابن سعد أكثر تفصيلاً؛ إذ ورد فيه عن ابن عباس: «... يوم الخميس وما يوم الخميس، اشتد بالنبي ﷺ وجعه، فقال: **«ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً»**. قال: فقال بعض من كان عنده: إن النبي ليهجُرُ، قال: فقيل له: ألا نأتيك بما طلبت، قال: **«أو بعد ماذا؟»** قال: فلم يدع به»[(٤)].

والحقيقة أن فهم هذه الروايات، فهماً سليماً، يوجب على الباحث أن يرد أمر أمِّيّة النبي ﷺ أو تعلمه إلى طبائع الأشياء؛ أي: إلى ظروف المحيط الذي كان يعيش فيه النبي عليه الصلاة والسلام، وإلى الصورة التي تشكلت عنه لدى معاصريه، والتي تنقلها عشرات الأحاديث الصحيحة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا: ما صالح فلان بن فلان، وفلان بن فلان، وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه (٣/ ١٨٤) حديث رقم (٢٦٩٨).

(٢) أخرجه البخاري في الكتاب والباب السابقين (٣/ ١٨٤) حديث رقم (٢٦٩٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب كتابة العلم (١/ ٣٤) حديث رقم (١١٤).

(٤) الطبقات الكبرى (٢/ ٢٤٢). و(الهجر): هو هذيان الألم.

إضافة إلى وضع الروايات السابقة في إطار كلي يشملها، ويشمل غيرها من الروايات التي عرضت للموضوع، والتي يبدو بوضوح نقلها للحقيقة في الأمر الذي نبحثه.

ولتطبيق هذا المنهج، نحتاج إلى العودة إلى فكرة المستشرقين الذين استنتجوا من الحالة الحضارية التي زعموها لمكة المكرمة فكرة شيوع الكتابة بها، والذين انتقلوا من شيوع الكتابة إلى تقرير معرفة النبي ﷺ بالقراءة. ويجب أن نبادر إلى الحكم بأنه لا توجد علاقة بين مقدمة هذا الاستدلال ونتيجته؛ إذ لا يلزم من شيوع الكتابة ببلد أن يكون أهله جميعاً متعلمون.

والملاحظ أننا إذا توقفنا عند هذا الحد، فإننا نجد أن ما قرره مونتغمري وات وغيره لا يؤدي إلى أكثر من فتح (احتمال) تعلمه عليه الصلاة والسلام. ولكننا إذا تعمقنا في البحث، فإننا نجد هذا الاحتمال يسقط من نفسه؛ إذ لا يوجد أي دليل علمي يسنده، بل إن كل الأدلة تؤدي إلى بطلانه. ومن الواضح أن منهج المستشرقين هنا منهج معوج؛ إذ استندوا إلى استنتاج الأزرقي[١] في تأكيد شيوع الكتابة بمكة؛ إذ ذكر «أن بلداً مثل مكة كانت تكثر فيه التجارة، ولذلك ما كان يخلو من كثيرين يكتبون ويقرؤون، فالتجارة تحتاج إلى الحساب، والحساب يحتاج إلى تدوين»[٢]. وتركوا الكثير من الأخبار الموثوقة التي تعرض لأمر التعلم بمكة في زمن البعثة. ورغم أن أبا الوليد أحمد بن محمد الأزرقي يعتبر مؤرخاً موثوقاً لأخبار مكة المكرمة إلا أن استنتاجه يبقى مجرد استنتاج؛ إذ لا يعتمد على مادة علمية، إضافة إلى أنه يخالف ما اشتهر بين العلماء من أن مكة لم تكن تضم، في ذلك الزمان، أكثر من سبعة عشر رجلاً يقرؤون ويكتبون. وهو عدد ينافي وصف (كثيرين) الذي ورد عنده[٣].

والحقيقة أن التعلم في أرض الحجاز، وفي غيرها من بلاد العرب، ما عدا

---

(١) الأَزْرَقي (.. ـ نحو ٢٥٠هـ): محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد ابن الوليد بن عقبة بن الأزرق. أبو الوليد الأزرقي: مؤرخ، يماني الأصل، من أهل مكة. له: «أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار». وفي أكثر المصادر أن نسبة الأزرقي إلى جده الأزرق أبي عقبة، من غسان. واختلف في وفاته. انظر: الفهرست: لابن النديم ص١١٢، الأعلام (٦/ ٢٢٢).

(٢) انظر: بحث جديد عن القرآن: محمد صبيح، ص٦٩، ودائرة المعارف الإسلامية (٢/ ٤٠)، مادة: (الأزرقي).

(٣) هل كان محمد ﷺ أمياً؟، ص٢٤ ـ ٢٧.

مناطق محدودة كانت على صلة بالدول الكبرى ذلك الزمان، لم يكن بالأمر الشائع، ولا بالقضية المهمة التي يقصد الناس إلى تحصيلها؛ إذ كان العرب يعتمدون في حياتهم الثقافية والاجتماعية والسياسية ـ كما هو معلوم ـ على الحفظ في الصدور. وحتى التجارة فما كانت تحتاج بالضرورة إلى تدوين؛ لأنها لم تكن بهذه السعة التي شهدتها التجارة الحديثة، التي أراد المستشرقون أن يسحبوا معلوماتهم عنها إلى حال التجارة العربية في ذلك الزمان القديم.

ومن المعلوم أن معاملات كل تاجر قرشي لم تكن تتعدى أمواله وأموال بعض المضاربين الذين يستلم منهم أموالهم. وقد كانت الذاكرة تكفي لسد هذه الحاجيات، ولذلك لم تذكر لنا المصادر رواية عن معاملة تجارية تمَّت بواسطة التدوين.

وفي ظل هذه الظروف، فلم يكن من الضروري أن يهتم أولياء النبي ﷺ بتعليمه، كما كان النبي ﷺ لم يكن مضطراً، بأي حال من الأحوال، لتعلم القراءة والكتابة لتسيير شؤونه التجارية.

وتستند المعلومات المتوافرة في ال مصادر التاريخية المعتمدة كل ما ذهبنا إليه؛ إذ نجدها تنص على عدد من أسماء العرب الحجازيين المتعلمين. ومعنى هذا أنهم كانوا معروفين مشهورين بين الناس باختصاصهم بهذا الفن. وعدد هؤلاء المتعلمين لم يكن يتجاوز سبعة عشر مكِّيّاً، إضافة إلى بعض المدنيين وعدد من النساء. وهذا دليل قوي على (قلة) المتعلمين في الحجاز آنذاك. ومن المعلوم أن اسم النبي ﷺ لا يوجد في أي مكان من هذه القوائم.

والملفت للنظر أن الوحي قد ظل يتنزل على النبي ﷺ مدة ثلاث وعشرين سنة كاملة، ولكنه لم يشاهد يوماً وهو يحمل أداة لتدوين القرآن الكريم، مع أنه كان أحب الأشياء إلى قلبه. وقد فسر لنا بلاشير ذلك بأنه إجراء قصد به التمييز بينه وبين أصحابه، أو أنه لم يكن يجيد الكتابة بشكل كاف.

ولكن هذا الزعم لا يفسر عدم تدوين النبي ﷺ لشيء من القرآن الكريم في غياب كتّابه من الصحابة رضوان الله عليهم، بل إنه كان ينتظر حضور أحدهم من أجل أن يملي عليه ما أراد كتابته. وقد كان من الممكن لنا أن نتقبل رأي بلاشير لو أن القرآن الكريم كان يتنزل في مكة أو المدينة فقط، ولكن الوحي كان يتنزل على النبي ﷺ بالليل، وفي السفر، وفي غياب كتبته، وقد كان من البديهي تماماً

أن يسجل القرآن بيده في هذه الحالات لو كان عارفاً بالكتابة، ولكنه لم يشاهد وهو يدوِّن آية في صحيفة، ولو مرة واحدة.

وشبيه بهذا في الدلالة على أمية النبي اتخاذه ﷺ كتبة لتدوين مراسلاته إلى الدول والإمارات المحيطة بأرض العرب، إضافة إلى تسجيل عهوده ومواثيقه ورسائله إلى أمرائه. ولم يحدث، مرة، أن تولى بنفسه تدوين شيء من هذه الأمور. ومن المعلوم أنه لو حدث شيء من هذا القبيل لانتشر العلم به بين الناس، فكلما سكتت الروايات عن ذلك كان دليلاً قوياً على عدم حدوثه.

ومعنى هذا كله أن المحيط الذي كان يعيش فيه النبي ﷺ لم يكن محيطاً متعلماً، كما أن الصورة التي شكلها معاصروه عنه كانت صورة رجل جاهل بالقراءة والكتابة، فهل يوجد في الروايات التي استند عليها المستشرقون وعدد من العلماء المسلمين ما يسمح لنا بموافقتهم فيما ذهبوا إليه؟[(١)].

إن أول ما يتبادر إلى ذهن الباحث، وهو يعالج هذه الجزئية، هو تلك الأحاديث الموثوقة التي لم يعرها القائلون بتعلمه عليه الصلاة والسلام أي اهتمام، حتى بدت وكأنها غير موجودة. وهي أحاديث تثبت صفة جهل النبي ﷺ بالقراءة والكتابة بشكل صريح، كما أنها، وهذا هو الأهم فيما نحن يصدده، تشكل أصلاً لفهم الروايات المشكلة التي أوردناها آنفاً. ومن هذه الأحاديث ما أورده الإمام البخاري في صلح الحديبية، قال:

«. . . فجاء سهيل بن عمرو فقال: هات أكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب، فقال النبي ﷺ: **اكتب: (بسم الله الرحمٰن الرحيم)**، قال سهيل: أما الرحمٰن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب (باسمك اللَّهُمَّ)، كما كنت تكتب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلا (بسم الله الرحمٰن الرحيم)، فقال النبي ﷺ: **اكتب (باسمك اللَّهُمَّ)**، ثم قال: **هذا ما قاضى عليه محمد (رسول الله)**، فقال سهيل: والله لو كنا نعلم أنك (رسول الله) ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ولكن اكتب (محمد بن عبد الله)، فقال النبي ﷺ: **«والله، إني لرسول الله وإن كذبتموني، اكتب: (محمد بن عبد الله)...»»**[(٢)].

---

(١) هل كان محمد ﷺ أمياً؟، ص٢٦ ـ ٢٨.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة مع أهل =

وقد ورد في سيرة ابن إسحاق مثل ذلك، وتعين فيها ـ وفي روايات أخرى ـ الكاتب، فجعلته علي بن أبي طالب[١].

ويبدو واضحاً للعيان أن قلة من علماء المسلمين وجمهور المستشرقين لم يحكموا ما اشتهر بين الناس، ودلت عليه الروايات الصريحة السابقة من أمر أمِّية النبي ﷺ في فهم الأخبار المشكلة التي اعتمدوا عليها، والتي قد توحي ألفاظها بتعلمه عليه الصلاة والسلام، مع أن البحث العلمي الحقيقي يوجب أن نحتكم إلى قطعي الدلالة في فهم الظني. وفي هذا الخصوص، فقد وردت روايات كثيرة تجعل عليّاً يتولى كتابة صحيفة عهد الحديبية من بدايتها إلى نهايتها. كما وردت روايات أخرى تجعله يدل الرسول ﷺ على مكان الكلمة التي تقرر محوها، فقد أورد الإمام مسلم: «. . . فقال له المشركون: لو نعلم أنك رسول الله اتبعناك، ولكن اكتب: (محمد بن عبد الله)، فأمر عليّاً لأن يمحوها، فقال علي: والله لا أمحوها، فقال رسول الله ﷺ: **«أرني مكانها»**، فأراه مكانها فمحاها، وكتب: **(ابن عبد الله)**. . .»[٢].

وننبه، هنا، إلى أن عدداً من الأحاديث تروى بالمعنى، ولذلك فيجب أن لا يتوقف الباحث عند ألفاظ هذا النوع منها، بل عليه أن يضع نصوصاً في إطار علم الراوي بأمر ما، وخصوصا علم المروي له بهذا الأمر بالذات.

وقد كان جميع رواة أخبار صلح الحديبية التي اعتمد عليها المستشرقون يعلمون أميته عليه الصلاة والسلام، ويعلمون أن عليّاً رضي الله عنه هو الذي تولى كتابة الصحيفة. وهو الأمر الذي دلت عليه غيرها من رواياتهم التي أوردنا بعضها قبل قليل. أما المتلقون لهذه الروايات فقد كانوا يعلمون مثل ما يعلمه الرواة من أمر جهله عليه الصلاة والسلام بالقراءة، ولهذا فقد وضعوا الروايات المشكلة في إطارها الطبيعي، وفهموا من نص بعض الأحاديث على (فمحاه رسول الله بيده وكتب)، أو (فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب فكتب) ـ حسب روايتي الإمام البخاري ـ أو (فمحاه النبي ﷺ بيده) ـ حسب رواية الإمام مسلم ـ أمراً واحداً، وهو أنها

= الحرب وكتابة الشروط (٣/١٩٣) حديث رقم (٢٧٣١).

(١) سيرة ابن هشام (٤/٢٨٤)، وسيرة ابن كثير (٢/٦١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٤/١٨٧٠) حديث رقم (٢٤٠٤).

روايات بالمعنى، وأنها تحتوي على إحالة إلى الروايات الأخرى التي تنص على أن علياً رضي الله عنه هو الذي دل النبي ﷺ على الكلمة المراد حذفها. وقد تولى النبي ﷺ بنفسه هذه المهمة التي رفض كاتبه القيام بها، إعظاماً وإجلالاً لشأن النبوة، ثم أعاد له الكتاب ليتم تدوين العهد[(١)].

وهناك نص شهير اعتمد عليه بعض علمائنا وجمهور المستشرقين في القول بتعلمه عليه الصلاة والسلام، مع أن النظر السليم فيه يجعله غاية في الدلالة على ما علمناه، يقيناً من أميته. أما هذا النص فهو: «... قال ﷺ لعلي: **امح (رسول الله)**، قال علي: والله لا أمحوك أبداً، فأخذ رسول الله ﷺ الكتاب و(ليس يحسن يكتب) فكتب...»[(٢)]. وقد جعل بعض علماء المسلمين، مثل الباجي[(٣)] والقاضي عياض[(٤)] من نص الرواية على (عدم إحسانه) عليه الصلاة والسلام للكتابة، ثم من إيرادها للفعل (فكتب) دليلاً قوياً على حصول معجزة جديدة له؛ أي: أنه تحول من رجل أمي إلى قارئ، وذلك ليلزم سهيل بن عمرو الحجة[(٥)].

والحقيقة أن الرواية لا تدل على أي معجزة، بل على مجرد إدراج هو قوله: (وليس يحسن يكتب)، وذلك تنبيه من أحد الرواة على أن النبي ﷺ كان رجلاً أمياً، وأن فعل (فكتب) لا يجوز أن يُرد عليه، بل على كاتب الصحيفة.

وقد ذهب ابن حجر رحمه الله إلى مثل هذا الفهم العلمي منذ قرون طويلة؛ حيث قال عند شرحه لهذا الحديث:

«وأجاب الجمهور بضعف هذه الأحاديث، وعن قصة الحديبية بأن القصة واحدة، والكاتب فيها علي. وقد صرح في حديث المسور بأن علياً هو الذي كتب، فيحمل على النكتة في قوله: (فأخذ الكتاب...) لبيان أن قوله: أرني إياها، أنه ما احتاج إلى أن يريه موضع الكلمة التي امتنع عن محوها إلا لكونه

---

(١) هل كان محمد ﷺ أمياً؟، ص٢٨ ـ ٣٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب عمرة القضاء حديث (٤٢٥١)، وتاريخ الطبري (٢/ ١٢٣، ١٢٤).

(٣) انظر: تاريخ قضاة الأندلس: أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي، ص٢٠٢، وفتح الباري (٧/ ٥٠٣).

(٤) انظر: شرح مسلم (٦/ ١١٦).

(٥) انظر: روح المعاني: الألوسي (١١/ ٦).

كان لا يحسن الكتابة، وعلى أن قوله بعد ذلك (فكتب) فيه حذف تقديره: فمحاها، فأعادها لعلي، فكتب»[١].

كما أننا نجد عند هذا الحافظ الجليل ما يشبه أن يكون تأكيداً لما ذكرنا من أن جملة (وليس يحسن يكتب) هي إدراج من أحد الرواة للتنبيه على أُمِّيَّة النبي ﷺ؛ حيث قال معلقاً على الحديث السابق:

«تقدم هذا الحديث في الصلح عن عبيد الله بن موسى بهذا الإسناد، وليست فيه هذه اللفظة (ليس يحسن...) ولهذا أنكر بعض المتأخرين على أبي مسعود نسبتها إلى تخريج البخاري، وقال: ليس في البخاري هذه اللفظة، ولا في مسلم»[٢].

وأضعف ما اعتمد عليه القائلون بتعلمه في تأكيد ذلك هو قوله عليه الصلاة والسلام عند احتضاره: «**ائتوني بدواة وصحيفة أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً...**»، ذلك أن لفظ (اكتب)، بذاته، لا يدل على أنه سيتولى عليه الصلاة والسلام الكتابة بنفسه، بل فقط على أنه أراد أن يملي شيئاً على أحد الكتبة. ويدل على هذا المعنى أنه ما شوهد ﷺ يوماً وهو يدون كتاباً، بل كان يتولى كل مراسلاته وعهوده أصحابه الكتبة رضوان الله عليهم، وكذلك الأمر هاهنا.

ويتقوى هذا الدليل إذا علمنا أن صيغة (كتب) يجب أن تفهم حسب المقام، فإذا قيل مثلاً: كتب الملك (فلان) إلى أميره (فلان) بكذا وكذا... فإن المعنى الأكثر تبادراً إلى أذهان أكثر الناس هو أن الأمر لا يتعلق برسالة خطية بل بإملائها، أو تحديد معانيها للكاتب الذي يتولى صياغتها.

وهناك أقوى مما ذكرنا في الدلالة على صحة فهمنا لهذه الصيغة، في هذا الموضع بالذات، وهو أن النبي ﷺ كان طريح الفراش، فكيف يستطيع الكتابة مع ما كان يعانيه من ألم شديد، اتفقت الروايات على النص عليه.

ولا بد علينا أن نعالج هنا موقف المستشرق بلاشير من هذا الحديث، فقد زعم أن النبي ﷺ كان يريد كتابة وصيته السياسية، وأنه عليه الصلاة والسلام كان سيقوم بذلك لولا أن تدخل أبو بكر الصديق وابنته السيدة عائشة لمنعه. والحقيقة

---

(١) فتح الباري (٧/ ٥٠٤).

(٢) المرجع السابق (٧/ ٥٠٣).

أنه لا يوجد أكثر تضليلاً من هذا الرأي، الأمر الذي يتأكد بمجرد مراجعة بسيطة لجملة الروايات الواردة في الموضوع. وقد أورد منها ابن سعد ثمانية أحاديث كاملة، ولا يوجد في أي حديث منها أن الأمر يتعلق بوصية سياسية، خصوصاً إذا كان معنى هذا المصطلح هو ما تبادر إلى ذهن بلاشير، ويتبادر إلى أذهان جمهور البشر المعاصرين حالما تطلق كلمة (سياسة)، والذين لا يفهمون كيف تتداخل دائرة الدين والدنيا في الإسلام، وفي مسيرة النبي ﷺ الدعوية، فيجعلون المصطلح الذي أطلقه بلاشير دالّاً على مسائل الحكم والخلافة.

لقد أوصى النبي ﷺ في جملة هذه الأحاديث بإخراج المشركين من أرض العرب، وإجازة الوفود بمثل ما كان يجيزهم هو نفسه عليه الصلاة والسلام، كما أوصى بالصلاة والزكاة وبالعبيد[١]. ولا يوجد في أي موضع منها أنه ﷺ كان يريد الوصاية لعلي رضي الله عنه، أو أي شخص آخر، بالخلافة، فيبادر أبو بكر وابنته رضي الله عنهما إلى منعه منها. والحقيقة أن أبا بكر لم يكن موجوداً عند احتضار النبي ﷺ أصلاً، كما تجمع على ذلك كل الروايات، فقد استأذنه ـ عندما رأى تحسن حالته الصحية ـ في الخروج لإحدى زوجاته، فأذن له النبي ﷺ فخرج، وقد التحق النبي بالرفيق الأعلى وهو غائب[٢]. ويبدو أن عائشة رضي الله عنها كانت غائبة هي الأخرى عن المجلس، عندما طلب النبي ﷺ من أصحابه أن يدونوا عنه ما كان يريد؛ إذ أننا لا نراها، بل نرى سيدة واحدة من زوجاته عليه الصلاة والسلام، هي زينب رضي الله عنها. ولا ندري، أخيراً، كيف تجرَّأ بلاشير على مثل هذا الكذب، إلا أن يكون هدفه منه أهم بكثير عنده من الحقائق التاريخية[٣].

وقد تفرَّد المستشرق مونتغمري وات بالاستشهاد بروايات بدء الوحي على ما ذهب إليه. وعند التحقيق، يتبين أنها لا تصلح دليلاً على صواب رأيه، بل إنها من الأدلة القوية على أميته عليه الصلاة والسلام، لقد جعل وات من رد النبي ـ كما جاء عند ابن إسحاق ـ على المَلك الذي كان يطلب منه القراءة بـ: **(ما أقرأ)** استفهاماً عن المقروء، لا نفياً للعلم بالقراءة: وقد استدل على صواب فهمه بقوله ﷺ بعدها: **(ماذا أقرأ؟)**، وهو استفهام صريح، دل عنده على عدم أميته.

---

(١) انظر: الطبقات الكبرى (٢/ ٢٤٢).

(٢) انظر: كتاب المغازي: الواقدي (٣/ ١١٢٠).

(٣) هل كان محمد ﷺ أمياً؟، ص٣٠ ـ ٣٣.

ومن الواضح أن المنهج الذي أعتمده وات في بحث هذه المسألة منهج قاصر تماماً؛ لأنه لم يعط أي قيمة لروايات الشيخين التي تنص صراحة على الأمية؛ حيث ورد في الصحيحين: **(ما أنا بقارئ)** عوضاً عن **(ما أقرأ)** التي جاءت في السيرة.

وأكبر من هذا في الخطأ، بل في الدلالة على سوء قصد هذا المستشرق، أنه لم يعط لنفسه فرصة القراءة الكاملة للقصة التي يرويها إمام السيرة عن بدء الوحي؛ حيث نصت صراحة على الأمية، وقضت بالتالي على ما ذهب إليه هذا المستشرق وبعض العلماء المسلمين الذين جعلوا مثل وات، من صيغة (ما أقرأ) مظنة ليكون معناها هو ما ذهب إليه؛ أي: أنها للاستفهام لا للنفي. فقد ورد في هذه الرواية ـ مباشرة بعد العبارة التي اقتطعها وات ـ قوله عليه الصلاة والسلام: «**ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي**»[1]. وهذا دليل على أن قوله عليه الصلاة والسلام: **(ماذا أقرأ؟)** هو استفهام فعلاً ـ كما هو واضح ـ ولكنه في الوقت نفسه يعتبر دليلاً على أن النبي ﷺ لم يكن يحسن القراءة؛ ذلك أنه قد أوضح بنفسه أن سؤاله الملك ليعين له ما كان يطلب منه قراءته لم يكن إلا لخوفه من أن يعود إلى خنقه، كما حدث في كل مرة أنكر فيها عليه الصلاة والسلام معرفته بالقراءة.

واستناداً إلى ما سبق فإننا نستطيع أن نطمئن تماماً إلى دلالة مقتضى حال النبي ﷺ على جهله بالقراءة والكتابة؛ فقد عُرف بذلك عند معاصريه من أصحابه وخصومه، ودل عليه عدم توليه قراءة أو كتابة شيء في يوم من الأيام بنفسه. ولا تنقض هذه الحقيقة، بتاتاً، الروايات التي وردت في صلح الحديبية، والتي أشكلت على بعض العلماء المسلمين، واستغلها المستشرقون للزعم بتعلُّمه؛ إذ هي روايات ناقصة المتون كما تبين من مقارنتها بغيرها من الروايات التي عرضت للموضوع. كما لا تؤثر مزاعم المستشرقين حول شيوع الكتابة بمكة المكرمة في هذه الحقيقة؛ إذ لا تعدو أن تكون استنتاجات ضعيفة لا تقوم على أي مادة علمية، بل إنها تخالف الدلالة الصريحة للمادة العلمية المتوافرة[2].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٧١)، وسيرة ابن كثير (١/ ١٩١).

(٢) هل كان محمد ﷺ أميّاً؟، ص٣٣ ـ ٣٥.

أما بالنسبة للأدلة القرآنية التي ساقها المستشرقون وغيرهم عند بحثهم لمسألة الأُمِّيَّة النبوية، فهي مخالفة لموقف جمهور علماء المسلمين الذين أقروا بأن هذه الآيات القرآنية ما هي إلا شواهد على أمية النبي ﷺ[1]، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال سبحانه: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾﴾ [الفرقان: ٥][2]، وقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقال ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

فهذه الآيات قاطعة الدلالة عند جمهور علماء المسلمين على أن النبي ﷺ كان أُمِّيّاً، بيد أن بعض المشككين فهم بعض هذه الآيات فهماً خاطئاً، فأخذ يجعلها دليلاً على تعلم النبي ﷺ القراءة والكتابة. ومن هذه الآيات قوله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]. إذ يتساءل هؤلاء: كيف يتلو النبي ﷺ ويزكي ويعلم وهو أُمِّيّ؟!.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٠/ ٥٠)، المحرر الوجيز: لابن عطية (٤/ ٣٢١)، مفاتيح الغيب: للرازي (٢٥/ ٦٤)، تفسير القرطبي (١٣/ ٣٥١)، تفسير ابن كثير (٦/ ٢٨٥).

(٢) يقول الطاهر بن عاشور في تفسيره: «وجملة: (اكتتبها) نعت أو حال لـ (أساطير الأولين). والاكتتاب: افتعال من الكتابة، وصيغة الافتعال تدل على التكلف لحصول الفعل؛ أي: حصوله من فاعل الفعل، فيفيد قوله: (اكتتبها) أنه تكلف أن يكتبها. ومعنى هذا التكلف أن النبي عليه الصلاة والسلام لما كان أمياً كان إسناد الكتابة إليه إسناداً مجازياً. فيؤول المعنى: أنه سأل من يكتبها له؛ أي: ينقلها، فكان إسناد الاكتتاب إليه إسناداً مجازياً لأنه سببه، والقرينة ما هو مقرر لدى الجميع من أنه أمي لا يكتب، ومن قوله: (فهي تملى عليه) لأنه لو كتبها لنفسه لكان يقرأها بنفسه. فالمعنى: استنسخها. وهذا كله حكاية لكلام النضر بلفظه أو بمعناه، ومراد النضر بهذا الوصف ترويج بهتانه لأنه علم أن هذا الزور مكشوف قد لا يقبل عند الناس لعلمهم بأن النبي أمي فكيف يستمد قرآنه من كتب الأولين فهيأ لقبول ذلك أنه كتبت له، فاتخذها عنده فهو يناولها لمن يحسن القراءة فيملي عليه ما يقصه القرآن. والإملاء: هو الإملال وهو إلقاء الكلام لمن يكتب ألفاظه أو يرويها أو يحفظها. وتفريع الإملاء على الاكتتاب كان بالنظر إلى أن إملاءها عليه ليقرأها أو ليحفظها». التحرير والتنوير (١٨/ ٣٢٥).

وحول المعنى المراد لكلمة «الأُمِّيين» يقول العلامة ابن عاشور[(١)]:

«والأُمِّيُّون: الذين لا يقرؤون الكتابة ولا يكتبون، وهو جمع أمي نسبة إلى الأمة، يعنون بها أمة العرب؛ لأنهم لا يكتبون إلا نادراً، فغلب هذا التشبيه في الإطلاق عند العرب، حتى صارت الكلمة تطلق على من لا يكتب ولو من غيرهم، قال ﷻ في ذكر بني إسرائيل: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾ [البقرة: ٧٨]»[(٢)].

وأوثر التعبير بالأميين في الآية ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، ـ كما يذكر ابن عاشور ـ مشاكلة على اليهود؛ لأنهم كانوا يقصدون به الغض من العرب ومن النبي ﷺ جهلاً منهم، فيقولون: هو رسول الأميين، وليس رسولاً إلينا، وقد قال ابن صياد للنبي ﷺ لما قال له: «**أتشهد أني رسول الله؟** فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهد أنك رسول الأُمِّيين»[(٣)]، وكان ابن صياد متديِّناً باليهودية؛ لأن أهله كانوا حلفاء لليهود.

وكان اليهود ينتقصون العرب بأنهم أميون كما قال ﷻ: ﴿قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥]، فتحدى الله اليهود بأن بعث رسولاً إلى الأميين، وبأن الرسول أُمِّيّ، وأعلمهم أن ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء كما في آخر الآية، وأن فضل الله ليس خاصاً باليهود ولا بغيرهم، وقد قال ﷻ من قبل لموسى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥﴾ [القصص: ٥].

ووصف الرسول ﷺ بأنه منهم ـ أي: من الأميين ـ شامل لمماثلته لهم في

---

(١) ابن عاشُور (١٢٩٦ ـ ١٣٩٣هـ): محمد الطاهر بن عاشور: رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه. مولده ووفاته ودراسته بها. عين (عام ١٩٣٢م) شيخاً للإسلام. وهو من أعضاء المجمعين العربيين في دمشق والقاهرة. له مصنفات منها: «مقاصد الشريعة الإسلامية»، و«أصول النظام الاجتماعي في الإسلام»، و«التحرير والتنوير» في تفسير القرآن، و«موجز البلاغة» وكتب كثيراً في المجلات. انظر: الأعلام (٦/ ١٧٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢٨/ ٢٠٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب كيف يعرض الإسلام على الصبي (٤/ ٧٠) حديث رقم (٣٠٥٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر ابن صياد (٤/ ٢٢٤٤) حديث رقم (٢٩٣٠).

الأمية وفي القومية، وفي وصف الرسول الأمي بأنه يتلو على الأميين آيات الله، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة التي علمها الرسل السابقون أممهم، في كل هذه الأوصاف تحدٍّ بمعجزة الأمية في هذا الرسول ﷺ؛ أي: هو مع كونه أمياً، قد أتى أمته بجميع الفوائد التي أتى بها الرسل غير الأميين أممهم ولم ينقص عنهم شيئاً، فتمحضت الأمية للكون معجزة حصل من صاحبها أفضل مما حصل من الرسل الكاتبين مثل موسى عليه السلام[(١)].

ومما تقدم فإنه لا وجه إذاً لتفسير آية الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة: ٢]، أو آية العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، تفسيراً خاطئاً يوهم بتعلم النبي ﷺ القراءة والكتابة، أو إنكار التفسير الحقيقي، والقول بغيره للنيل من حقائق ثابتة في حق النبي ﷺ، ونفي ما وصف به وما اقترن بنبوته.

على أن هناك بعض الغربيين قد اعترف ـ بكل وضوح ـ بأُمِّيَّة النبي ﷺ، فمن ذلك ما كتبه المستشرق سيديو في كتابه «تاريخ العرب» في قوله: «ولما كان رسول الله غير متعلم مثل أبناء وطنه كان لا يعرف القراءة»[(٢)].

ويقول المستشرق الإنجليزي توماس كارليل: «شيئاً أخر وهو أنه لم يتلقَّ دروساً على أستاذ أبداً، وكانت صناعة الخط حديثة العهد إذ ذاك في بلاد العرب. ويظهر لي أن الحقيقة هي أن محمداً لم يكن يعرف الخط والقراءة، وكل ما تعلّم هو عيشة الصحراء وأحوالها وكل ما وفق إلى معرفته هو ما أمكنه أن يشاهده بعينيه ويتلقى بفؤاده من هذا الكون العديم النهاية، وعجيب وأيم الله أُمِّيَّة محمد، نعم إنه لم يعرف من العالم ولا من علمه إلا ما تيسر له أن يبصره بنفسه أو يصل إلى سمعه في ظلمات صحراء العرب، ولم يضره ولم يزر به أنه لم يعرف علوم العالم لا قديمها ولا حديثها لأنه كان بنفسه غنيّاً عن كل ذلك، ولم يقتبس محمد من نور أي إنسان آخر ولم يغترف من مناهل غيره. . .»[(٣)].

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨/٢٠٨).

(٢) تاريخ العرب العام، ص٦٧.

(٣) الأبطال، ص٦٢.

ويقول الكونت هنري دي كاستري: «إن محمداً ما كان ليقرأ أو ليكتب، بل كان ـ كما وصف نفسه مراراً ـ نبيّاً أُمِّيّاً، وهو وصف لم يعارضه فيه أحد من معاصريه، ولا شك أنه يستحيل على رجل في الشرق أن يتلقى العلم بحيث لا يعلمه الناس؛ لأن حياة الشرقيين كلها ظاهرة للعيان، على أن القراءة والكتابة كانت معدومة في ذلك الحين من تلك الأقطار. ولم يكن بمكة قارىء أو كاتب سوى رجل واحد ذكره جارسين دي تاسي في كتابه الذي طبعه سنة ١٨٧٤م، كذلك من الخطأ ـ مع معرفة أخلاق الشرقيين ـ أن يستدل على معرفة النبي للقراة والكتابة باختيار السيدة خديجة إياه لمتاجرها في الشام، ولم تكن لتعهد إليه بأعمالها إن كان جاهلاً غير متعلم، فإنا نشاهد بين تجار كل قوم غير العرب وكلاء لا يقرأون ولا يكتبون، وهم في الغالب أكثرهم أمانة وصدقاً. . . والعقل يحار كيف يتأتى أن تصدر تلك الآيات عن رجل أمي، وقد اعترف الشرق قاطبة بأنها آيات يعجز فكر بني الإنسان عن الإتيان بمثلها لفظاً ومعنى»[١].

كما أن هذا الأمر أقر به المستشرقون المسلمون، كما يقول مراد هوفمان عن النبي ﷺ: «كان أُمِّيّاً لا يحسن القراءة والكتابة كما ورد في سورة الأعراف، الآية ١٥٨: ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾»[٢].

وإننا نجد في الكتاب المقدس ـ عند اليهود والنصارى ـ ما يؤكد أُمِّيَّته ﷺ، فقد جاء في سفر إشعياء: «أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة، ويقال له: اقرأ هذا، فيقول: لا أعرف الكتابة»[٣]. وعلينا أن نلفت الانتباه إلى أن هذا النص في صورته العربية التي نقلناها، محرف، والسبب أن أصحاب الترجمة العربية التي بين أيدينا يعلمون معنى هذا النص.

إن الذي يعنينا هو استعمال كلمة «القراءة» في هذه التراجم محل كلمة «الكتابة». فكيف يقول: «وقال له: اقرأ هذا، فيقول: لا أعرف الكتابة»؟! إن سياق الكلام يدل على التحريف المقصود؛ لأن سياق الكلام الصحيح في العبارة متمشياً معها «لا أعرف القراءة»[٤].

---

(١) الإسلام: لهنري دي كاستري، ص١٥٢ نقلاً عن مقدمة كتاب: محمد رسول الله: لأتينين دينيه، ص١٦.

(٢) الإسلام كما يراه ألماني مسلم، ص٣٢.

(٣) إشعياء (٢٩: ١٢).

(٤) انظر: محمد رسول الله في الكتب المقدسة: سامي عامري، ص٣٠٣ ـ ٣٠٥.

وعندما بعث النبي ﷺ بكتابه مع عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي، ثم قرأه عليه قال النجاشي: أشهد بالله أنه النبي الأُمِّيّ الذي ينتظره أهل الكتاب، وأن بشارة موسى براكب الحمار كبشارة عيسى براكب الجمل[١]. وهكذا بشرت الكتب السماوية السابقة بصفة النبي ﷺ، وأنه نبي أمي يبعث في قوم أميين، رغم محاولة اليهود والنصارى تحريف ما جاء في كتبهم بهذا الشأن.

---

(١) انظر: دلائل النبوة: للأصبهاني ص٢٣٦، الروض الأنف (٦/ ٢٨٧)، السيرة الحلبية (٣/ ٣٤٨)، محمد رسول الله في الكتب المقدسة، ص٣١٢.

المبحث السادس

زواجه ﷺ

نالت مسألة زوجات النبي ﷺ جانباً مهماً في كتابات المستشرقين قديماً وحديثاً، وكانت مسألة التعدد في زواجه ﷺ منفذاً حاول من خلاله كثير منهم التشكيك في نبي الإسلام والطعن في رسالته والنيل من كرامته، وحين يبحثون عن الأسباب فلا يجدون تعليلاً لهذا التعدد في زوجاته ﷺ سوى الشهوة الجنسية والثورة الغريزية دون البحث عن الأسباب الحقيقية لهذا التعدد.

يقول المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون: «وضعف محمد الوحيد هو حبه الطارئ للنساء، وهو الذي اقتصر على زوجته الأولى حتى بلغ الخمسين من عمره، ولم يخف محمد حبه للنساء فقد قال: «**حُبِّب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وجعل قرة عيني في الصلاة**». ولم يبال محمد بسن المرأة التي يتزوجها، فتزوج عائشة وهي بنت عشر سنين، وتزوج ميمونة وهي في الحادية والخمسين من سنيها... وتزوج محمد أربع نسوة في سنة واحدة، وبلغ عدد من تزوجهن خمس عشرة امرأة، واجتمع منهن إحدى عشرة في وقت واحد، وقد يرى الأوروبي أن هذا العدد كبير، ولكن الشرقيين لا يرون إفراطاً فيه ما رَأوا أنه يمكن للنبي أن يتزوج نساءاً أكثر من أولئك لو سمح لنفسه أن يسير على غرار

الملك سليمان العظيم الذي هو أكثر ملوك التوراة حكمة»[١].

كما اهتمت المستشرقة الروسية بانوفا بزواج النبي ﷺ بشكل خاص ولكن استنتاجاتها كانت خاطئة باطلة. فتزعم المؤلفة تعليقاً على زواج رسول الله ﷺ بخديجة أنه أقدم على هذا الأمر من أجل المال حيث تقول: «زواج محمد بخديجة خيَّب آماله في الغنى، ومن المستبعد أنه كان يرجو محبة زوجية عالية»[٢]. أما زواجه ﷺ بسودة فتصفه إظهاراً للمحبة الأخوية والتضامن الذي كان يدعو إليه[٣]، وزواجه بعائشة تعلِّله بحسابات سياسية[٤]، وزواجه بحفصة سببه الرغبة في الحيلولة دون نشوب خلاف بين سادة الأمة الإسلامية بعدما رفض أبو بكر وعثمان الزواج بحفصة بنت عمر[٥]، وزواجه بجويرية تعده صفقة سياسية رابحة مع بني المصطلق[٦]، وأما زواجه بريحانة وزينب وصفية فتسوغه بأنه ﷺ لم يصمد أمام مظهرهن الجميل[٧].

وكنموذج لمواقف المستشرقين من زواجه ﷺ، فإن موقفهم من زواجه بأهم زوجتين في حياته ﷺ وهما: خديجة بنت خويلد وعائشة بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما، يعطي ملمحاً عن منهجهم وكيفية تناولهم لزواجه وتعدد نسائه ﷺ.

فالمستشرق درمنغم يطيل الحديث عن موقف خديجة رضي الله عنها حين جاءها زوجها ﷺ من غار حراء «خائفاً مقروراً أشعث الشعر واللحية، غريب النظرات. فإذا بها ترد إليه السكينة والأمن، وتسبغ عليه ودَّ الحبيبة وإخلاص الزوجة وحنان الأمهات، وتضمه إلى صدرها فيجد فيه حضن الأم الذي يحتمي به من كل عدوان في الدنيا»[٨].

وكتب عن وفاتها فقال: «وقد فقد محمد بوفاة خديجة تلك التي كانت أول من علم أمره فصدقته، تلك التي لم تكف عن إلقاء السكينة إلى قلبه، تلك التي

---

(١) حضارة العرب، ص١١٢.
(٢) النبي محمد، ص١٤٠.
(٣) المرجع السابق، ص٣٠٩.
(٤) المرجع السابق، ص٣١١.
(٥) المرجع السابق، ص٤٠٠ ـ ٤٠١.
(٦) المرجع السابق، ص٤٥٠.
(٧) المرجع السابق، ص٤٦٥ و٤٦٦ و٤٨٨.
(٨) حياة محمد، ص٥٨.

كانت تشمله بحب الأزواج وحنو الأمهات، وكانت خديجة حين وفاتها في الستين من عمرها، ولم يفكر محمد في الزواج من غيرها ما دامت حية، وبقي آية في الوفاء لها، وقد أتى جبريل إلى محمد مرة وقال له: بشر خديجة ببيت من قصب»[١].

ودرمنغم هنا، يدرك ما غاب عن كثير من قومه المستشرقين الذين فاتهم أن يقدروا حاجة الشاب اليتيم إلى الأمومة، حين تحدثوا عن زواجه بالأرملة الموسرة.

بل فات عنهم جميعاً أن خديجة رضي الله عنها هي التي رغبت في زواج النبي ﷺ منها، كما ذكر ابن هشام في «السيرة»: «وكانت خديجة امرأة حازمة شريفة لبيبة، مع ما أراد الله بها من كرامته، فلما أخبرها ميسرة مما أخبرها به ـ أي: من أمانته ﷺ وحسن إدارته لرحلة التجارة لخديجة ـ بعثت إلى رسول الله ﷺ، فقالت له فيما يزعمون: يابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك وسيطك في قومك وأمانتك، وحسن خلقك، وصدق حديثك، ثم عرضت عليه نفسها»[٢].

وقد زعم مرجليوث أن لمال خديجة المكان الأول في زواج كهذا «بين شاب فقير، وأرملة كهذه كهلة مات عنها زوجان من بني مخزوم وتركا لها ثروة ذات شأن» ثم يمضي فيكتب، بكلمات مسيئة:

«إن دعوة خديجة جاءت محمداً وهو يجتر كلمات مريرة سمعها من عمه أبي طالب حين خطب إليه ابنته أم هانئ، فرده لفقره وزوجها لذي مال. واستشعر محمد ذلة الفقر ومهانته، فما كاد يسمع عن رغبة خديجة في الزواج منه حتى أقبل متلهفاً على الثراء، يداوي به جرح كرامته التي أهدرها فقره»[٣].

وكذب مرجليوث فما كان مال خديجة هو الذي جذب محمداً ﷺ وجعله يتجاوز عما بينه وبينها من فرق السن، وإنما جذبه إليها جمال شخصيتها ودماثة طبعها ولطف سجاياها. وكان ما بينهما من فرق السن كافياً وحده لأن يرضي حاجته الملحة إلى عطف الأمومة التي افتقدها منذ كان طفلاً في السادسة، وظل

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٤.
(٢) المرجع السابق، ص١٢٤.
(٣) نساء النبي ﷺ: د. عائشة بنت عبد الرحمٰن، ص٥٤.

على الأيام يجد لذعة الحرمان منها مرة المذاق[١].

وأعجب من قول مرجليوث هذا، ما تحدث به موير عما وراء وفاء محمد ﷺ لخديجة من تهيب لمركزها المالي والاجتماعي، وخوف من أن تطالبه بالطلاق!.

وكان على موير أن يفسر لنا: فيم إذن كان وفاؤه ﷺ لها بعد موتها؟... وهل كان ﷺ يخاف أن تطالبه بالطلاق، وهو يخاصم «عائشة» فيها بعد وفاتها بسنين، ويأبى عليها أن تمس ذكرها؟!.

جاء في «صحيح البخاري» عن عائشة رضي الله عنها، قالت: ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ، ما غرت على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة، فيقول: «**إنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد**»[٢].

لقد كانت خديجة ملء حياة المصطفى ﷺ حية وميتة، وهل كان باستطاعة امرأة سواها أن تأسو جرحه القديم الغائر الذي تركه في أعماقه موت أمه بين يديه؟!. وهل كان لأنثى غيرها، أن تهيئ له الجو المسعف على التأمل، وأن تبذل له من نفسها في إيثار نادر، ما أعده لتلقي رسالة الله؟!.

هل كان لزوجة عداها، أن تستقبل عودته التاريخية من غار «حراء» بمثل ما استقبلته هي به من حنان مستثار وعطف فياض وإيمان قوي، دون أن يساورها في صدقه أدنى ريب، أو يتخلى عنها يقينها في أن الله غيرُ مخزيه أبداً؟!.

هل كان في طاقة سيدة غير خديجة، غنية مترفة منعمة، أن تتخلى راضية عن كل ما ألفت من راحة ورخاء ونعمة لتقف إلى جانب زوجها في أحلك أوقات المحنة، وتعينه على احتمال أفدح ضروب الأذى والاضطهاد، في سبيل ما تؤمن بأنه الحق؟.

كلا... بل هي وحدها، التي أعدها الخالق لتملأ حياة الرجل الموعود بالنبوة، وتكون لليتيم أماً وللبطل ملهمة، وللمجاهد ملاذاً وسكناً، وللنبي

---

(١) نفس المرجع والصفحة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب تزويج النبي ﷺ خديجة وفضلها رضي الله عنها (٣٨/٥) حديث رقم (٣٨١٨).

المصطفى وزيراً[(١)].

قال ابن إسحاق: «كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدق ما جاء به، فخفف الله بذلك عن رسول الله ﷺ، لا يسمع شيئاً يكرهه من رد عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها، إذا رجع إليها تثبته وتخفف عنه، وتصدقه وتهون عليه أمر الناس، رحمها الله»[(٢)].

كما حاول بعض المستشرقين الطعن في زواجه ﷺ من عائشة بنت الصديق رضي الله عنهما، من جهة صغر سنها وكبر سنه ﷺ حينها.

وقد أتى هؤلاء المستشرقون بعد فترات طويلة من هذا الزواج النبوي الكريم يهدرون فروق العصر والبيئة، ويطيلون القول فيما وصفوه بأنه «الجمع الغريب بين الزوج الكهل والطفلة الغريرة العذراء» كما يذكر المستشرق بودلي عنهم[(٣)]، ويقيسون بعين الهوى، زواجاً عقد في مكة قبل الهجرة، بما يحدث اليوم في الغرب المتحضر ـ كما تذكر كارين أرمسترونج ـ حيث لا تتزوج الفتاة عادة قبل سن الخامسة والعشرين، وهي سن تعتبر حتى وقتنا هذا متأخرة في الجزيرة العربية، بل في الريف والبوادي من المشرق والمغرب[(٤)].

وهذا ما أدركه بودلي الذي زار الجزيرة العربية وعاد يقول:

«كانت عائشة على صغر سنها نامية ذلك النمو السريع الذي تنموه نساء العرب، والذي يسبب لهن الهرم في أواخر السنين التي تعقب العشرين، وقرر محمد الزواج بها، لما اقترح عليه أبو بكر وزوجه.

... وشغلت مسألة زواج الرجل، الذي كان في سن الخمسين، من الفتاة التي كانت في العاشرة، بعض مؤرخي محمد، كما شغلهم الإسراء وحالة الصرع، وكان المؤرخون ينظرون إلى كل حالة من وجهة نظر المجتمع الذي يعيشون فيه، فلم ينظروا إلى هذا الزواج على أنه كان ولا يزال عادة آسيوية، ولم يفكروا في أن هذه العادة لا زالت في شرق أوروبا، وكانت طبيعية في إسبانيا والبرتغال إلى سنين قليلة، وأنها ليست غير عادية اليوم، في بعض المناطق الجبلية

---

(١) انظر: نساء النبي ﷺ، ص٥٤ ـ ٥٥.

(٢) سيرة ابن إسحاق، ص١٣٢.

(٣) الرسول: حياة محمد: بودلي، ص١٠٢.

(٤) انظر: نساء النبي ﷺ، ص٧٥.

البعيدة في الولايات المتحدة، وبغض النظر عن العادة، فإنهم لم ينظروا نظرة اعتبار إلى ظروف هذه الحالة الخاصة»[١].

ثم يضيف بودلي مفصلاً في الظروف المحيطة بهذا الزواج ودوافعه، فيقول: «فهناك أول شيء أبو بكر أبو الزوجة، وهو رجل أعمال مكي موسر، قد ضحى بكل شيء في سبيل قضية محمد، وكان من المفهوم أن يبغي أن يرتبط ارتباطاً سياسيّاً دائماً بقائده وقد أعانه وساعده في أحلك أيامه. وقد يكون هناك دوافع مادية أقل أهمية، فهو يؤمن بمحمد، ويحترمه ويحبه، فكان واثقاً من أن ابنته ستجد الرعاية الطيبة في دار صديقه.

ويجب أن لا يُهمل محمد نفسه، فحتى تلك اللحظة، لم يكن في حياته شيء مسل أو بهيج، بل كانت حياته كداً ونصباً، فكان يستحق بعض ما يرفهه، غير التعذيب والحكم عليه بالإعدام، وما كان له حتى نصيبه العادي من النساء، فقد بقي حتى السابعة والعشرين عفيفاً كعائشة، وختم ذلك العفاف بالتزوج بأرملة تكبره بخمسة عشر سنة.

والنقطة الثالثة التي تُنسى عادة، والتي يجب لذلك تأكيدها ثانية، هي أن عائشة على الرغم من أنها طفلة بالنسبة لسنها، فإنها لم تكن طفلة لا حول لها، تركت تحت رحمة شيخ هرم، فلو أن هناك شابة عرفت ما هي مقبلة عليه، لكانت عائشة بنت أبي بكر...»[٢].

الرد على شبهات المستشرقين في تعدد زوجات النبي ﷺ:

أما دعوى المستشرقين أن الشهوانية كان الدافع والمحرك وراء تعدد زوجات النبي ﷺ فهذه دعوى كاذبة ما زال يرددها هؤلاء قديماً وحديثاً وهي كلمة يصدق عليها قول الحق تبارك وتعالى: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝﴾ [الكهف: ٥]، فالنبي ﷺ ما كان رجلاً شهوانيّاً كما يدَّعون، إنما كان رسولاً إنسانيّاً، تزوج كما يتزوج البشر ليكون قدوة لهم، وما كان عليه الصلاة والسلام بدعاً من الرسل حتى يخرج عن سُنَّتهم ويخالف طريقهم، فالله ﷻ حكى عن الرسل فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد:

(١) الرسول: حياة محمد: ص١٤١.
(٢) المرجع السابق، ص١٤١ ـ ١٤٢.

٣٨]، فالأنبياء الذين سبقوا محمداً ﷺ تزوجوا بأكثر من واحدة.

إن المستشرقين الذي يطعنون في شخص رسول الله ﷺ وسلوكه معظمهم من اليهود والنصارى، وهم أصحاب كتاب ورسالة فلو أنهم رجعوا إلى سيرة أنبيائهم في الزواج والتعدد لما طعنوا في رسالة خاتم الأنبياء، فتعدد زوجات الأنبياء لا يتعارض مع واجبات النبوة وأهدافها بل قد يعين عليها.

وللرد على هذه الشبهة الباطلة لا بد من بحث النقاط التالية(١):

- بيان الحكمة في تعداد أزواجه عليه الصلاة والسلام.
- السِّن الذي عدَّد فيه النبي ﷺ وتزوج فيه الأرامل ما عدا عائشة رضي الله عنها.
- شهادات بعض المستشرقين ببطلان هذه الفرية.

أولاً: الحكمة من تعدد زوجات الرسول ﷺ:

١ ـ الحكمة التعليمية:

يقول الدكتور محمد أبو شهبة رحمه الله: «إن نبينا محمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء والرسل، ودينه خاتم الأديان وشريعته عامة لكل البشر في كل زمان ومكان، لقد كانت زوجاته خير معوان له على تحقيق واجب البلاغ الذي هو أهم واجبات الرسالة، ولا سيما فيما يتعلق بالحياة الزوجية»(٢).

وفي غالب المجتمعات البشرية يزيد عدد النساء على عدد الرجال، وهذا العدد يحتاج إلى تعليم، كالرجال سواء بسواء، وامرأة واحدة لا يمكن أن تقوم بهذا الواجب، ومن هنا تقتضي الضرورة وجود عدد من النساء للقيام بواجب التعليم، وخاصة في المسائل التي يستحيين أن يسألن عنها رسول الله ﷺ كمسائل الحيض والنفاس والطهارة، وقد أيدت السُّنَّة هذا الجانب.

عن عائشة رضي الله عنها، أن امرأة سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض، فأمرها كيف تغتسل، قال: «**خذي فرصة من مسك، فتطهري بها**» قالت: كيف أتطهر؟ قال: «**تطهري بها**»، قالت: كيف؟، قال: «**سبحان الله، تطهري**» فاجتبذتها إلي، فقلت: تتبعي بها أثر الدم(٣).

---

(١) انظر فيما يأتي: المستشرقون والقرآن: د. محمد بني عامر، ص٥٢٢ وما بعدها.

(٢) مفتريات على الإسلام: أحمد محمد جمال، ص٩٦.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحيض، باب دلك المرأة نفسها إذا تطهرت من المحيض، =

فالرسول ﷺ استحى أن يصرح لها بوضع القطعة في المكان الذي يخرج منه الدم، حتى أخذتها عائشة وأفهمتها ذلك. والأمثلة من السُّنَّة على ذلك كثيرة ومتعددة، فهل زوجة واحدة تصلح للقيام بهذا العبء والواجب تجاه نساء الأمة بمفردها؟.

٢ ـ الحكمة التشريعية:

وهذه الحكمة تتجلى في إبطال عادة التبني التي كانت ديناً متوارثاً عند العرب، يتبنى أحدهم ولداً ليس من صلبه، ويجعله في حكم ولده الصلبي في الميراث والطلاق والزواج ومحرمات المصاهرة، ومحرمات النكاح إلى غير ذلك.

فالإسلام لا يقر الناس على الباطل، بل لا بد من بيان وجه الحق، فمهّد لذلك بأن ألهم رسوله ﷺ أن يتبنى زيد بن حارثة، ثم زوجه ﷺ بابنة عمته (زينب بنت جحش) ولم تدم الحياة الزوجية بينهما طويلاً، ولحكمة يريدها الله، طلق زيد زوجته فأمر الله رسوله أن يتزوجها، ليبطل (بدعة التبني) ويقيم أسس الإسلام.

٣ ـ الحكمة الاجتماعية لتعدد زوجات النبي ﷺ:

لقد حرص النبي ﷺ أن يربط بين بطون قريش وبين القبائل العربية برباط وثيق، فتزوج بابنة الصديق أبي بكر رضي الله عنه، ثم تزوج بابنة الفاروق عمر رضي الله عنه وأرضاه، وهكذا تزوج ببعض النساء من أجل أن يربط بين قريش وبين القبائل العربية.

٤ ـ الحكمة السياسية لتعدد زوجات النبي ﷺ:

لقد كان زواج النبي ﷺ ببعض النساء طريقاً لتأليف القلوب عليه، وجمع القبائل حوله.

لقد تزوج جويرية بنت الحارث من بني المصطلق، فكانت أيمن امرأة على قومها، وقد تسبب عن هذا الكرم العظيم، وهذه المعاملة الجليلة أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم، وكانوا للمسلمين بعد أن كانوا عليهم[1].

= وكيف تغتسل، وتأخذ فرصة ممسكة، فتتبع أثر الدم (١/ ٧٠) حديث رقم (٣١٤).

(١) نور اليقين: محمد الخضري، ص١٣٩.

وتزوج ﷺ بأم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها، وكان تزوجه بها تأليفاً لأبي سفيان سيد قريش، وزعيم مكة، وترغيباً له في الدخول بالإسلام، ومن ناحية أخرى لخاطرها وجمعاً لشملها بعد أن تنصر زوجها وفارقها.

وقد حققت هذه المصاهرة فيما بعد ما كان يأمله النبي ﷺ من دخول أبي سفيان في الإسلام(١).

وكذلك تزوج ﷺ بصفية بنت حيي بن أخطب الإسرائيلية رضي الله عنها. وقد كان الهدف من زواجه بها تحريض اليهود على اعتناق الإسلام أو على الأقل تخفيف عدوانهم له(٢).

ثانياً: السّن الذي عدَّد فيه النبي ﷺ وتزوج فيه الأرامل ما عدا السيدة عائشة رضي الله عنها(٣):

• إن حقائق التاريخ تذكر أن النبي ﷺ تزوج خديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة، وهي ثيب بنت أربعين سنة، ولم يكن فارق السن بينهما بالأمر الذي يقف عقبة في طريق الزواج؛ لأنه لم يكن الغرض منه قضاء (الوطر والشهوة) وإنما كان هدفاً إنسانيّاً ساميّاً.

وقد أمضى مع خديجة زهرة شبابه فلم يتزوج عليها، وقد عاشت معه خمساً وعشرين سنة، وحين انتقلت إلى الرفيق الأعلى كان الرسول ﷺ قد بلغ الخمسين من العمر، وليس عنده سواها.

• ثم تزوج بعدها سودة بنت زمعة، وهي أرملة السكران بن عمرو الأنصاري، وكانت بلغت من العمر الخامسة والخمسين، ولو كان غرض الرسول ﷺ الشهوة كما زعم المستشرقون لاستعاض عنها بالنواهد الأبكار.

• ثم تزوج بعدها عائشة بنت أبي بكر الصديق، وكانت بكراً وهي الوحيدة من بين نسائه الطاهرات.

---

(١) فقه السُّنَّة: محمد الغزالي، ص٤٧٦.

(٢) فقه السيرة: البوطي، ص٣٣٢.

(٣) انظر: المرأة ومكانتها في الإسلام: أحمد عبد العزيز الحصين، ص١٤٥ وما بعدها، تعدد الزوجات في الإسلام: عبد الله ناصح علوان، ص٩٣ وما بعدها، شبهات وأباطيل: الصابوني، ص٣٤ وما بعدها، نساء النبي: عائشة عبد الرحمٰن، ص٢٨ وما بعدها، زاد المعاد: ابن القيم الجوزية (١/ ١٠٥) وما بعدها.

• ثم تزوج حفصة بنت عمر بن الخطاب ﵄ وعن أبيها، وهي أرملة، كانت تحت خنيس بن حذافة، وقد مات شهيداً في غزوة بدر.

• ثم تزوج زينب بنت خزيمة بعد حفصة بنت عمر، وهي أرملة الشهيد عبيدة بن الحارث ابن عبد المطلب الذي مات في بدر، وكانت قد بلغت الستين من عمرها حينما تزوج بها النبي ﷺ.

• ثم تزوج زينب بنت جحش بعد طلاق زيد بن حارثة لها، وهي أرملة لحكمة لا تعلوها حكمة في زواج أحد من أزواجه، وهي إبطال بدعة التبني كما ذكرنا سابقاً.

• ثم تزوج أم سلمة هند المخزومية، وهي أرملة عبد الله بن عبد الأسد، الذي استشهد في غزوة أُحد، فبقيت هي وأيتامها الأربعة بلا كفيل، فلم ير ﵇ عزاء ولا كافلاً لها ولأولادها غير أن يتزوج بها، وكانت امرأة مسنة.

• ثم تزوج أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان وهي أرملة عبد الله بن جحش مات زوجها بأرض الحبشة.

• ثم تزوج جويرية بنت الحارث بن ضرار سيد بني المصطلق، وهي أرملة مسافع بن صفوان الذي قتل يوم المريسيع.

• ثم تزوج صفية بنت حيي بن أخطب.

• ثم تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية، وهي أرملة أبي رهم بن عبد العزى.

وبعد هذا العرض لزوجات النبي ﷺ نتوصل إلى الحقائق التالية:

١ ـ أن النبي ﷺ لم يعدد في الزواج إلا بعد أن بلغ الخمسين من عمره؛ أي: بعد أن ذهبت زهرة شبابه.

٢ ـ إن التعدد عند النبي ﷺ كان بعد الهجرة في السنة التي بدأت فيها الحروب بين المسلمين والمشركين.

٣ ـ إن كل زواج للنبي ﷺ يحمل في طياته حكمة بالغة.

٤ ـ لو كان هدف الرسول ﷺ من تعدد الزوجات الهوى لتزوج في حال الشباب، ولتزوج الأبكار.

ثالثاً: شهادة المستشرقين ببطلان هذه الفرية:

لقد رضي كثير من المستشرقين المنصفين فكرة تعدد زوجات النبي ﷺ، والتي اعتبرها البعض الآخر وسيلة للطعن برسول الإسلام ممن ملأت البغضاء ألسنتهم وأخفت صدروهم ما هو أكبر، وفيما يلي نشير إلى عدد من الشهادات الاستشراقية المنصفة في هذا الموضوع، والتي تقضي ببطلان هذه الفرية ونقضها، ومن ذلك ما يلي:

توقف المفكر الإنكليزي توماس كارليل عند زواج الرسول الأمين من خديجة التي أعجبت به، وحبه العميق إياها، وعيشه معها تلك العيشة الهادئة، حتى شهدت معه عصر النبوة، دون أن يحاول تغيير هذه الحياة بالزواج من أخرى، فيقول:

«وما ألذ وما أوضح قصته مع خديجة، وكيف أنه كان أولاً يسافر في تجارات لها إلى أسواق الشام، وكيف كان ينهج في ذلك أقوم مناهج الحزم والأمانة، وكيف جعل شكرها له يزداد وحبها ينمو، ولما زوجت منه كانت في الأربعين، وكان هو لم يتجاوز الخامسة والعشرين، وكان لا يزال عليها مسحة من ملاحة.

ولقد عاش مع زوجه هذه على أتم وفاق وألفة وصفاء وغبطة، يخلص لها الحب وحدها، ومما يبطل دعوى القائلين أن محمداً لم يكن صادقاً في رسالته، بل كان ملفقاً مزوراً أنه قضى عنفوان شبابه وحرارة صباه في تلك العيشة الهادئة المطمئنة، لم يحاول أثناءها إحداث ضجة ولا دوي، مما يكون وراءه ذكر وشهرة وجاه وسلطة، ولما يك إلا بعد الأربعين أن تحدث برسالة سماوية.

ومن هذا التاريخ تبتدىء حوادثه وشواذه، حقيقة كانت أم مختلقة، وفي هذا التاريخ توفيت خديجة. نعم، لقد كان حتى ذاك الوقت يقنع بالعيش الهادىء الساكن، وكان حسبه من الذكر والشهرة حسن آراء الجيران فيه، وجميل ظنونهم به، ولم يك إلا بعد أن ذهب الشباب وأقبل المشيب أن فار بصدره ذلك البركان الذي كان هائجاً، وثار يريد أمراً جليلاً وشأناً عظيماً»[(١)].

ويقول المستشرق مونتغمري وات: «وبالرغم من أن الكتّاب المسلمين رووا

---

(١) الأبطال، ص٦٣.

فيما بعد قصصاً ممتعة حول حساسية محمد أمام سحر النساء، وبالرغم من أنه ليس لدينا أي سبب للافتراض بأنه كان يهمل تماماً تأثير الجاذبية الجسدية، فإنه من الأكيد أنه كان يسيطر تماماً على عواطفه أمام الجنس اللطيف، وأنه لم يكن يتزوج إلا إذ كان هذا الزواج مستحسناً سياسيّاً واجتماعيّاً»[١].

ويرد إميل درمنغم على هجوم المستشرقين بقوله:

«وإن بعضهم يعيب محمداً في كثرة ميله إلى النساء، فإنه مما لا مشاحة فيه، أن محمداً لم يكن شرهاً ولا فخوراً ولا متعصباً ولا منقاداً للمطامع، بل كان حليماً رقيق القلب عظيم الإنسانية»[٢].

وتقول المستشرقة كارين أرمسترونج عن زواج النبي ﷺ بخديجة، وردها على شبهات المستشرقين:

«ورغم أن محمداً كان متقد العاطفة فلم يتزوج بأخرى أصغر سناً من خديجة طوال سنوات زواجه بها، وتلك حقيقة أولى لهؤلاء الذين ينتقدونه لتعدد زوجاته في السنوات الأخيرة من حياته أن يبرروها. والواقع أنه بعد وفاتها كان مدح محمد الدائم لخديجة يغضب النساء اللاتي تزوجهن، كما أنه في إحدى المناسبات شحب وجهه من الأسى لاعتقاده أنه سمع صوتها. ليس إذاً هذا زواج مصلحة»[٣].

ويناقش المستشرق الفرنسي المسلم نصر الدين (دينيه) في كتابه «محمد رسول الله» من يعيب على النبي ﷺ حبه النساء، بقوله:

«كان محمد يحب النساء، وقد عاب عليه الكثير من الأعداء ذلك. وحقاً كان محمد رجلاً بكل ما في الكلمة من معان خلقية ومادية، ورجولته امتازت بالعفة التي لا تتعارض مع أسباب اللذة البريئة المجردة من الدنس، وعلى منواله سلك العرب الذين يمتازون حتى أيامنا هذه بالعفة والحياء الخاليتين من كل تكلف ورياء، لا كحياء المغالين في الدين وعفتهم المصطنعة المدعاة.

وإذا كان محمد قد عقد على ثلاث وعشرين زوجة فإنه لم يتصل إلا باثنتي

---

(١) محمد في المدينة، ص٥٠٦.

(٢) حياة محمد، ص١٨٣.

(٣) محمد، ص١٢٥.

عشرة منهن. أما الأخريات فتزوجهن لأسباب سياسية محضة، إذ كانت كل القبائل ترغب في شرف مصاهرته. وقد كثرت عليه الطلبات في شأن ذلك ويروى أن عزة أخت دحية الكلبي ماتت من شدة الفرحة عندما نبئت أن الرسول قبل الزواج بها، وقد كان الرسول يعطف على النساء جميعاً وحاول في كل مناسبة إنصافهن. فحرم أول ما حرم وأد البنات، تلك العادة القبيحة القاسية التي تحدثنا عنها فيما سبق. ثم وضع حداً لتعدد الزوجات، فجعل العدد الأقصى منهن أربعاً، وزاد على ذلك أن نصح المؤمنين بالتفكير في الآية: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾ [النساء: ٣]. ومن أحاديثه: «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»... وأتبع ذلك بأن منح المرأة حق المطالبة بالطلاق إن لم يوف الرجل بواجباته الزوجية»[١].

ثم يضيف (دينيه) رَحِمَهُ اللَّهُ: «وبفضل تشريعاته الحكيمة أصبحت البنت البالغ تستشار قبل زواجها، وأصبح المهر لا يعطى للأب بل للعروس نفسها، وقد وصف أعداء الإسلام تلك السُّنَّة الحكيمة بأنها: (شراء للمرأة). وهم لم يسمعوا، فيما أظن، ذلك الجواب المفعم الذي يمكن أن يرد به المسلمون عليهم حين يقولون لهم: إن المهر في بعض الأقطار الغربية يدفعه والد البنت إلى رجلها!... وفوق ذلك، فالمسلم مكلف بسائر حاجات البيت دون أن يكون له أي حق في التصرف في مال امرأته.

ومنح الرسول المرأة كذلك حق في الميراث. وحقها به: نصف حق الذكر، وذلك لأن المرأة لا تدفع مهراً كالرجل، وليست مكلفاً بحاجات البيت»[٢].

موقف المستشرقين من تعدد الزوجات في الإسلام[٣]:

تعدُّد الزوجات إحدى المسائل التي كان لصوت الغرب المتعصب ودعايته المسيئة أثر في توجيه الأفكار إلى الطعن فيها. ولذلك ذهب بعض الباحثين الاجتماعيين الغربيين ليقرر أن تعدد الزوجات جريمة اجتماعية على الأسرة والأمة، فيجب الحد منها بقدر المستطاع.

---

(١) محمد رسول الله، ص٣٢٨ ـ ٣٢٩.

(٢) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

(٣) انظر فيما يأتي: المستشرقون والقرآن: محمد بني عامر، ص٥٠٦ وما بعدها.

ويزعم هؤلاء أن التعدد يترتب عليه ما يلي:

١ ـ الخصام والشقاق بين الرجل وبين زوجاته، وبينه وبين أولاده مما يفسد الأولاد وينشئهم على مساوئ الأخلاق.

٢ ـ الإخلال بكرامة المرأة؛ لأن المرأة لا تحس أنها موفورة الحق والكرامة ما دامت تشعر أن غيرها يشاركها قلب زوجها، وحبه وحنانه، فالمرأة تريد من الزوج أن يكون لها وحدها، كما أن للزوج الحق في أن تكون زوجته له وحده دون سواه..!

٣ ـ كثرة النسل التي يتسبب عنها في كثير من الأحوال الفقر وضعف التربية، كما أنها تؤدي إلى التشرد والسقوط في مهاوي الرذيلة والانحراف[١].

٤ ـ إيقاع الظلم بالزوجة.

هذه مزاعم باطلة بتهويلات خبيثة ألبسها أعداء الإسلام ثوباً قشيباً وعرضوها عرضاً حسناً للنيل من أنظمة الإسلام وقوانينه.

وقد ردد هذه الفرية بعض من المستشرقين كما يقول هنري ماسيه:

«إن القرآن كان قليل الرأفة بالنساء»[٢].

وكذلك المستشرق جولدزيهر والمستشرقة (كلاوده) حيث قالوا:

«إن نساء المسلمين يعشن كالإماء والعبيد»، وبعضهم يغلو في التهم فيقول:

«إنهن يعشن كالبهائم لأن كل رجل يستطيع أن يتزوج أربعاً، وأن يملك إلى جانبهن ما يشاء من الجواري بغير حساب... وفي ذلك منقصة لحق المرأة، ومهانة لكرامتها»[٣].

الرد على الشبهة:

للرد على هذه الشبهة من المهم دراسة النقاط التالية:

أولاً: موقف الأمم السابقة من التعدد.

---

(١) انظر: ماذا عن المرأة: نور الدين عتر، ص١٤٣، ط. دار الفكر، بيروت، وبيت الطباعة. وتعدد الزوجات والطلاق في الإسلام: علي عبد الواحد وافي، ص٣١، وحقوق الإنسان في الإسلام: علي عبد الواحد وافي، ص١٦١.

(٢) مفتريات على الإسلام: أحمد محمد جمال، ص٧٥.

(٣) المرجع السابق، ص٧٧.

ثانياً: موقف علماء الغرب من التعدد.

ثالثاً: الحكمة من التعدد.

رابعاً: رعاية الشريعة الإسلامية لنظام التعدد.

أولاً: موقف الأمم السابقة من التعدد:

أ ـ التعدد عند الأمم السابقة: ليس تعدد الزوجات بدعاً في تاريخ البشرية، فقد كان معروفاً عند قدماء المصريين والفرس والأشوريين واليابانيين والهندوس والصينيين، وقد سمحت شريعة ليكي الصينية بتعدد الزوجات إلى مائة وثلاثين امرأة، وكان عند أحد أباطرة الصين نحو ثلاثين ألف امرأة[(١)].

ب ـ موقف اليهودية من التعدد: إن اليهودية تبيح بدون حد، وبهذه الإباحة وردت، أخبار إبراهيم ويعقوب وموسى وداود وسليمان[(٢)]، جاء في كتاب حقائق الإسلام وأباطيل خصومة ما يلي:

«ولا حجر على تعدد الزوجات في التوراة وفي الإنجيل بل هو مباح مأثور عن الأنبياء أنفسهم من عهد إبراهيم الخليل عليه السلام إلى عهد الميلاد، ولم يرد في الإنجيل نص واحد يحرم ما أباحه العهد القديم للآباء والأنبياء»[(٣)].

وقد جاء في سفر الملوك الأول ما يلي: «وأحب الملك سليمان نساء غريبة كثيرة مع بنت فرعون مؤابيات وعمونيات وأدوسيات وصدونيات، وحثيات من الأمم الذين قال عنهم الرب لبني إسرائيل لا تدخلون إليهم، وهم لا يدخلون إليكم؛ لأنهم يميلون قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمان بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبعمائة من النساء والسيدات وثلاثمائة من السراري، فأمالت نساؤه قلبه»[(٤)].

فليت هؤلاء الذين يطعنون بأنظمة الإسلام يقرأون ما ورد في كتبهم المقدسة.

---

(١) المرأة بين الفقه والقانون: مصطفى السباعي، ص٦٠. وتعدد الزوجات في الإسلام: عبد الله علوان، ص١٥، تاريخ الطبري (٤/ ٣٤١).

(٢) حقائق الإسلام وأباطيل خصومه: عباس محمود العقاد (٥/ ١٨٥).

(٣) المرجع السابق (٥/ ١٧٦).

(٤) سفر الملوك الأول (١١/ ١ ـ ٤).

ج ـ موقف النصرانية من التعدد: لم يرد في الإنجيل نص يحرم تعدد الزوجات، بل إنه ورد في رسالة بولس الأولى ما يفيد جواز التعداد:

«يجب أن يكون الأسقف بلا لوم بعل امرأة واحدة، صاحياً عاقلاً محتشماً مضيفاً للغرباء صالحاً للتعليم»[١]. ففي إلزام الأسقف وحده بذلك يدل على جوازه لغيره.

كما أن التاريخ يثبت أن المسيحيين القدامى كانوا يتزوجون أكثر من واحدة، جاء في كتاب المرأة في القرآن الكريم عن (وسترمارك): «أن تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السادس عشر، وكان يتكرر كثيراً في الحالات التي لا تحصيها الكنيسة والدولة»[٢].

ويقول أيضاً: «إن (ديار ماسدت) ملك إيرلنده كان له زوجتان وسريتان»[٣].

وذكر أيضاً: «أن بعض الطوائف المسيحية ذهبت إلى إيجاب تعدد الزوجات، ففي سنة ١٥٣١م نادى اللامعمدانيون في مونستر صراحة بأن المسيحي ـ حق المسيحي ـ ينبغي أن تكون له عدة زوجات، ويعتبر المورمون، كما هو معلوم أن تعدد الزوجات نظام إلٰهي مقدس»[٤].

وذهب جورج زيدان: إلى أنه لا يوجد في النصرانية نص صريح يمنع أتباعها من التزوج بامرأتين فأكثر، ولو شاؤوا لكان تعدد الزوجات جائزاً عندهم، ولكن رؤساء النصرانية القدامى وجدوا الاكتفاء بزوجة واحدة، أقرب لحفظ نظام العائلة واتحادها، وكان ذلك شائعاً في الدولة الرومانية، فلم يعجزهم تأويل آيات الزواج حتى صار التزويج بغير امرأة حراماً كما هو مشهور[٥].

كما أن النصرانية المعاصرة اعترفت بنظام تعدد الزوجات في أفريقيا السوداء للأفريقيين النصارى إلى غير حدود. كما ذكر (نورجيه) (Norgeh) مؤلف كتاب الإسلام والنصرانية في أواسط أفريقية، ذلك بقوله:

«وليس من الكياسة أن نحرم عليهم التمتع بأزواجهم ما داموا نصارى

---

(١) رسالة بولس الأولى إلى ثموتاوس (٣/ ٢).

(٢) المرأة بين الفقه والقانون: مصطفى السباعي، ص٦١.

(٣) المرأة في القرآن: عباس محمود العقاد، الموسوعة (٤/ ٤٧١).

(٤) المرجع السابق (٤/ ٤٧١).

(٥) المرأة بين الفقه والقانون: السباعي، ص٩٣.

يدينون بدين المسيح، بل لا ضرر من ذلك ما دامت التوراة، وهي الكتاب الذي يجب على المسيحيين أن يجعلوه أساس دينهم يبيح هذا التعدد فضلاً عن أن المسيح قد أمر بذلك في قوله: لا تظنوا أني جئت لأهدم بل لأتمم[١].

كما أن الشعوب النصرانية الحديثة عملت على معالجة زيادة عدد النساء بإباحة تعدد الزوجات، ففي أعقاب الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥م نشرت الصحف الغربية أخباراً عن مطالبة نساء ألمانيا بتعدد الزوجات بسبب ذهاب كثير من رجالهن في الحرب.

وفي عام ١٩٤٨م عقد مؤتمر للشباب في ميونيخ بألمانيا، وبحث مشكلة زيادة عدد النساء، وكانت النتيجة أن أقرت اللجنة توصية المؤتمر بالمطالبة بإباحة تعدد الزوجات لحل المشكلة، وفي عام ١٩٤٩م طلب أهالي بون من السلطات المختصة أن ينص الدستور الألماني على إباحة تعدد الزوجات[٢].

وجاء في مجلة «لواء الإسلام» المصرية: أن كبير أساقفة إنجلترا أعلن أنه لا يجد علاجاً لمنع التحلل الخلقي والإنهيار العائلي اللذين فشيا بعد الحرب العالمية الثانية إلا بإباحة تعدد الزوجات، فهو الذي يمنع المرأة الإنجليزية من الانهيار النفسي، وارتكابها للجريمة والعار، ويرد إليها الكرامة والعزة حيث لا تكون فراشاً لرجل إلا بكلمة الله»[٣].

ـ التعدد عند العرب في الجاهلية:

لقد انتشر تعدد الزوجات عند العرب في الجاهلية، فكان الواحد منهم يجمع بين عشر نسوة، حتى جاء الإسلام وقيد هذا الإطلاق وحصرها بأربع نسوة فقط، عن ابن عمر أن غيلان بن مسلمة الثقفي أسلم وله عشر نسوة في الجاهلية، فأسلمن معه فأمره النبي ﷺ أن يتخير منهن أربعاً[٤].

---

(١) المرجع السابق، ص٦٢ ـ ٦٣.

(٢) المرجع السابق، ص٦٣.

(٣) المرجع السابق، ص٩٣.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه في أبواب النكاح، باب ما جاء في الرجل يسلم وعنده عشر نسوة (٣/ ٤٢٧) حديث رقم (١١٢٨)، وابن ماجه في سننه، كتاب النكاح، باب الرجل يسلم وعنده أكثر من أربع نسوة (١/ ٦٢٨) حديث رقم (١٩٥٣)، والإمام أحمد في مسنده (٨/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) وذكر محققه أن الحديث صحيح بطرقه وشواهده، وبعمل الأئمة المتبوعين به، ورجاله ثقات رجال الشيخين ثم بيَّن طرقه وشواهده. انظر: (٨/ ٢٢١)، وأخرجه الطبراني في الأوسط (٢/ ١٩٠)، =

ـ موقف أوروبا الحديثة من التعدد:

وأما أوروبا المسيحية فقد منعت تعدد الزوجات الشرعيات، وفتحت مكانه باب السفاح، وجعلت المرأة سلعة تتاجر ببضعها، وسمحت للرجل في أن يعير زوجته لذوي الشأن للنجابة والتبريك، يقول الفيلسوف الإنجليزي هربرت سبنر (Herbt Spnr):

«إن الزوجة كانت تباع في إنجلترا خلال القرن الحادي عشر، وأنه حدث في القرن الحادي عشر أن المحاكم الكنسية سنَّت قانوناً ينص على أن للزوج أن ينقل أو يعير زوجه إلى رجل آخر لمدة محدودة»(١).

ثانياً: موقف علماء الغرب من التعدد:

لقد أثنى كثير من علماء الغرب على نظام تعدد الزوجات في الإسلام لما له من أثر كبير في إصلاح المجتمع والأخلاق، فمنع التعدد يؤدي إلى ارتفاع نسبة اللقطاء والمؤودين، وقد أدرك ذلك علماء الغرب فنادى به مصلحوها في أوائل القرن العشرين.

يقول الفيلسوف الألماني الشهير (شوبنهور) (Choupin Hour) في رسالته كلمة عن النساء:

«إن قوانين الزواج في أوروبا فاسدة المبنى بمساواتها المرأة بالرجل، فقد جعلتنا نقتصر على زوجة واحدة فأفقدتنا نصف حقوقنا، وضاعت علينا واجباتنا، على أنها ما دامت أباحت للمرأة حقوقاً مثل الرجل، كان من اللازم أن تمنحها أيضاً عقلاً مثل عقله»(٢).

ثم يقول: «ولا تعدم امرأة من الأمم التي تجيز تعدد الزوجات زوجاً يتكفل بشؤونها، والمتزوجات عندنا نفر قليل، وغيرهن لا يحصين عدداً تراهن بغير كفيل، بين بكر من الطبقات العليا، قد شاخت وهي هائمة متحسرة، ومخلوقات ضعيفة من الطبقات السفلى يتجشمن الصعاب، ويتحملن مشاق الأعمال، وربما

= والحاكم في المستدرك (٢/ ٢١٠)، وصححه الألباني كَلَلهُ في إرواء الغليل (٦/ ٢٩١ ـ ٢٩٥) بعد أن أفاض في تخريجه وذكر طرقه وشواهده.

(١) حقوق النساء في الإسلام: محمد رشيد رضا، ص٦٢.

(٢) المرأة بين الفقه والقانون: السباعي، ص٦٤.

ابتذلن فيعشن تعيسات متلبسات بالخزي والعار، ففي مدينة (لندن) وحدها ثمانون ألف بنت عمومية (هذا على عهد شوبنهور) سفُك دم شرفهن على مذبحة الزواج ضحية الاقتصار على زوجة واحدة، ونتيجة تعنت السيدة الأوروبية، وما تدعيه لنفسها من الأباطيل»[(١)].

وتقول أستاذة ألمانية في الجامعة: «إن حل مشكلة المرأة الألمانية هو في إباحة تعدد الزوجات... إنني أفضل أن أكون زوجة مع عشر نساء لرجل ناجح على أن أكون الزوجة الوحيدة لرجل فاشل تافه، إن هذا ليس رأيي وحدي بل هو رأي نساء كل ألمانيا»[(٢)].

ثالثاً: الحكمة من التعدد:

شرع الإسلام التعدد لحكمة سامية ومصلحة عامة وضرورات اجتماعية وشخصية، فالله تعالى ما أحل شيئاً إلا أن يكون فيه مصلحة ومنفعة جمعاء، فالتعدد يهدف إلى تلبية طبيعية خلق عليها الرجل.

ويمكن أن نوجز الفوائد التي يحققها التعدد بما يلي:

١ ـ الفائدة الاجتماعية.

٢ ـ الفائدة الشخصية.

٣ ـ الفائدة الخُلقية.

أما الفائدة الاجتماعية فتتحقق في الحالات التالية:

أولاً: عند زيادة عدد النساء على عدد الرجال في المجتمع كما هو الحال في كثير من دول الشرق والغرب.

ثانياً: عند قلة الرجال عن النساء قلة بالغة، نتيجة الحروب والمصائب العامة، كما حصل في أوروبا في الحربين العالميتين حيث هلك فيهما ملايين الرجال، وبقيت جماهير النساء على حالها، وقلة الرجال لا تدع مجالاً للمكابرة في أن الطريق الوحيد لتلافي الخسارة البالغة بالرجال هو السماح بتعدد الزوجات[(٣)].

---

(١) المرجع السابق، ص٦٤ ـ ٦٥.

(٢) محاضرات في الثقافة الإسلامية: أحمد جمال، نقلاً عن جريدة الأخبار، المصرية، عدد ٧٢٣.

(٣) معالم الثقافة الإسلامية: عبد الكريم عثمان، ص٦٩. وتعدد الزوجات في الإسلام: عبد الله =

إن هبوط عدد الرجال عن عدد النساء يسبب أزمة أو مشكلة لغير المتزوجات، فإذا اكتفى كل رجل بواحدة فماذا يصنعن الباقيات؟.

ويمكن إيجاز الفوائد الشحصية التي يحققها التعدد بما يلي[١]:

١ ـ إذا كانت المرأة عقيماً، والرجل يريد إنجاب الأولاد فليس أمامه إلا أحد أمرين، إما أن يطلق زوجته، وإما أن يتزوج أخرى عليها، والزواج عليها أفضل من طلاقها.

٢ ـ إذا أُصيبت المرأة بمرض مزمن أو معد، بحيث لا يستطيع الرجل أن يعاشر زوجته معاشرة الأزواج فليس أمام الزوج إلا الطريقين السابقين، ومما لا شك فيه أن بقاء المرأة مع زوجها مع السماح له بأن يتزوج عليها أصون لكرامتها وأحفظ لحقوقها.

٣ ـ كثرة الأسفار والتنقل في البلاد للرجل، وتعذر نقل الزوجة معه والأولاد كلما سافر فهو بين حالين إما أن يقع في الحرام أو يتزوج أخرى، والزواج بأخرى فيه مصلحة الدين والأخلاق والمجتمع.

٤ ـ وجود القوة الجنسية عند الرجل، حيث لا يكتفي بزوجة واحدة، فإما أن يشبع غريزته عن طريق المعاشرة المحرمة، وإما أن يكون عن طريق الزواج المشروع، والشريعة ترضي الزواج المشروع وترفض غيره.

وقد ذكر أبو حامد الغزالي سبب إباحة الزواج بالنظر إلى العامل الجنسي فقال:

«ومن الطباع ما تغلب عليه الشهوة بحيث لا تحصنه المرأة الواحدة فيستحب لصاحبها الزيادة عن الواحدة إلى الأربع، فإن يسر الله له مودة ورحمة، واطمأن قلبه بهن، وإلا فيستحب له الاستبدال»[٢].

ثم قال أيضاً: «ومهما كان الباعث معلوماً فينبغي أن يكون العلاج بقدر العلة، فالمراد تسكين النفس فلينظر إليه في الكثرة والقلة»[٣].

= ناصح علوان، ص٢٧ وما بعدها، والمرأة ومكانتها في الإسلام: أحمد عبد العزيز الحصين، ص١٣٤، والمرأة بين الفقه والقانون: السباعي، ص٨٠ وما بعدها، والإسلام والمرأة المعاصرة: البهي الخولي، ص٩٣.

(١) المرأة بين الفقه والقانون: السباعي، ص٧٠ ـ ٧١.

(٢) إحياء علوم الدين: الغزالي (٢/ ٣٠).

(٣) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

فالغزالي رحمه الله يشير إلى أن التعدد لتحصين النفس أمر مرغوب فيه شرعاً؛ أي: مع أخذ النفس بالعدل الواجب بين الزوجات، ويشير أيضاً إلى أن الذين يعددون زوجاتهم لمجرد الانتقال من ذوق إلى ذوق دون حاجة إليه في تحصين النفس وعفتها عن المحرم يعملون عملاً تأباه الشريعة، ويمقته أدب الدين.

٥ ـ رغبة الآباء في إكثار النسل مما يحتاج فيه الرجل إلى تعدد الزوجات.

الفائدة الخُلُقية:

إن الأمة التي يزيد فيها عدد النساء على عدد الرجال يكون التعدد واجباً أخلاقيّاً، وواجباً اجتماعيّاً على السواء، فالتعدد أفضل من تسكع النساء في الشوارع وبيوت الدعارة بلا عائل ولا مأوى.

وقد دلت الإحصائيات التي تنشر في أوروبا وأمريكا، عن ازدياد نسبة الأولاد غير الشرعيين، وكثرة النساء اللاتي لا يجدن طريقاً مشروعاً للاتصال الجنسي.

وقد نشرت هيئة الأمم المتحدة في عام ١٩٥٩م تقول:

«لقد أثبتت هذه النشرة بالأرقام والإحصائيات أن نسبة الأطفال غير الشرعيين قد ارتفع إلى ستين في المائة، وأما في بعض البلاد وعلى سبيل المثال (بنما) فقد جاوزت هذه النسبة الخمسة والسبعين في المائة؛ أي: أن ثلاثة عن طريق الحرام من كل أربعة مواليد، وأعلى نسبة لهؤلاء الأطفال غير الشرعيين موجودة في أمريكيا اللاتينية».

وتثبت هذه النشرة أيضاً أن نسبة الأطفال غير الشرعيين تصل إلى العدم في البلدان الإسلامية، يقول معدّ هذه النشرة: الإحصائية إن البلدان الإسلامية محفوظة من هذا الوباء؛ لأنها تتبع نظام تعدد الزوجات[١].

إن هذا الوباء الذي فاضت به المجتمعات البشرية لا علاج له إلا أن يعود العالم إلى نظام الإسلام في التعدد، فتصبح كل امرأة ربة بيت وأم أولاد شرعيين.

رابعاً: رعاية الشريعة الإسلامية لنظام التعدد:

لقد نظمت الشريعة الإسلامية أحكام التعدد ووضعت لها شروطاً وضوابط

---

(١) الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، ص١٧١.

ينبغي مراعاتها حرصاً على تحقيق مصلحة الزوجين والأولاد بل والمجتمع بأسره، وتتلخص أحكام التعدد في الإسلام بما يلي:

١ ـ الأمر بالتعدد للإباحة لا للإيجاب قال تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ٣﴾ [النساء: ٣].

وقد ذهب جمهور العلماء إلى أن الأمر في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ﴾ للإباحة مثل الأمر في قوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ﴾[١].

وقد دلت الآية أيضاً على وجوب الاقتصار على واحدة إذا خشي الإنسان عدم العدل بين نسائه[٢].

٢ ـ لا يجوز للرجل أن يجمع بين أكثر من أربع نسوة لقوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ﴾ [النساء: ٣].

فهذه الآية فيها دلالة على حرمة الزيادة على أربع، وقد أجمع العلماء والفقهاء على ذلك، ولا يقدح في هذا الإجماع ما ذهب إليه بعض المبتدعة من جواز التزوج بتسع نسوة، بناءً على أن الواو للجمع، وأن المراد أن يجمع الإنسان اثنتين وثلاثاً وأربعاً.

يقول القرطبي رحمه الله تعالى: «اعلم أن هذا العدد مثنى وثلاث ورباع لا يدل على إباحة تسع، كما قال من بعد فهمه للكتاب والسُّنَّة، وأعرض عما كان عليه سلف هذه الأمة، وزعم أن الواو جامعة، وعضد ذلك بأن النبي ﷺ نكح تسعاً، وجمع بينهن في عصمته. والذي صار إلى هذه الجهالة، وقال: هذه المقالة الرافضة وبعض أهل الظاهر، فجعلوا مثنى مثل اثنين، وكذلك ثلاث ورباع... وهذا كله جهل باللسان والسُّنَّة، ومخالفة لإجماع الأمة، إذ لم يسمع عن أحد من الصحابة ولا التابعين أنه جمع في عصمته أكثر من أربع. وأخرج مالك في موطئه، والنسائي والدارقطني في سننهما أن النبي ﷺ قال لغيلان بن أمية الثقفي وقد أسلم وتحته عشر نسوة: «**اختر منهن أربعاً وفارق سائرهن**». وفي

---

(١) روائع البيان، تفسير آيات الإحكام: محمد علي الصابوني (١/ ٤٢٥).
(٢) المرجع السابق (١/ ١٣٨).

كتاب أبي داود عن الحارث بن قيس قال: أسلمت وعندي ثمان نسوة، فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «**اختر منهن أربعاً**».

وقد خاطب الله تعالى العرب بأفصح اللغات، والعرب لا تدع أن تقول (تسعة) وتقول اثنين وثلاثة وأربعة، وكذلك تستقبح ممن يقول: اعط فلاناً أربعة، ستة، ثمانية، ولا يقول: (ثمانية عشر)»[(١)].

٣ ـ التعدد في الإسلام مشروط بالعدل بين الزوجات لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُوا۟ ﴿٣﴾﴾ [النساء: ٣].

وقد أكَّد الرسول ﷺ هذا المبدأ بقوله: «**من كانت له امرأتان، يميل مع إحداهما على الأخرى، جاء يوم القيامة وأحد شقيه ساقط**»[(٢)]؛ أي: أحد نصفيه. والمعنى: يجيء يوم القيامة غير مستوي الطرفين بالنظر إلى المرأتين لأنه كان يرجح إحداهما. والحكم غير مقصور على امرأتين بل هو اقتصار على الأدنى، فمن له ثلاث أو أربع كان كذلك[(٣)].

فهذا هو مبدأ الإسلام قائم على العدل والمساواة بين النساء والبعد كل البعد عن الجور والظلم بينهن.

٤ ـ قرر الإسلام بأنه لا يجوز أن يميل عن زوجته الأولى كل الميل فيذرها كالمعلقة، لا هي زوجة يؤديها حقوقها، ولا مطلقة تعرف سبيلها قال تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء: ١٢٩].

فالله تعالى يخبر بنفي الاستطاعة في العدل بين النساء في المحبة القلبية؛ لأن هذا الأمر اضطراري لا اختياري فلا إثم فيه، فالآية تدل على أمور منها:

أ ـ إباحة التعدد في الزوجات.

ب ـ إباحة عدم التسوية في الحب القلبي؛ لأنه أمر خارج عن إرادة الإنسان.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (١٧/٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه بلفظه في سننه، كتاب النكاح، باب القسمة بين النساء (١/٦٣٣) حديث رقم (١٩٦٩)، والإمام أحمد في مسنده (١٤/٢٣٧) وقال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه البزار في مسنده (١٧/٣٦)، وابن حبان في صحيحه (١٠/٧)، والبيهقي في سننه الصغرى (٧/٤٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢/١٩٩).

(٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/٦٠٧ ـ ٦٠٨).

ت ـ تحريم عدم التسوية في النفقة والعطاء بين الزوجات[١].

وقد زعم المنكرون لهذا التشريع الإسلامي أن هذه الآية دلت على عدم مشروعية تعدد الزوجات مع قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]؛ لأن هاتين الآيتين أفادتا أن العدل غير مستطاع.

والذي يرجع إلى كتب التفسير يجد أن هذا القول تلاعب بكتاب الله وتحريف لكلامه عن معناه الصحيح إلى معنى فاسد باطل؛ لأنه ليس من المعقول أن يفتح القرآن الحكيم باب التعدد في سياق التحذير من ظلم اليتيمات، ويقيده بشرط يجعله مغلقاً لا يدخل منه أحد.

والمعنى الصحيح للآيتين: أن العدل الذي يشترط للتعدد ليس هو العدل الذي يوجب التسوية فيما لا يملكه الإنسان من ميل القلب والعاطفة، ولكنه العدل الذي يسوي بين الزوجتين أو الزوجات من حيث المعاملة، وإيفاء الحقوق، وما يدخل في طوق الإنسان إمكان التصرف فيه، وجو النص يدل على ذلك فإنه جاء في الإجابة على أسئلة عرضت للصحابة حول أمور النساء، منها قضية العدل بين الزوجات، فيبيِّن لهم في هذه الآية رفع الحرج عن ميل القلب؛ لذلك قال: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩]؛ أي: لا تميلوا إلى إحدى الزوجات ميلاً يخل بتوازن المعاملة وعدالتها، فتذروا الزوجة الأخرى بأن تنقص من حقوقها، وكأنها ليست زوجة أيضاً، فالآية تحدثت عن وجود زوجتين معاً أو أكثر للرجل وحذرت عن عدم العدل بينهن، وهذا ظاهر في إقرار التعدد.

ولو كان المعنى ما فهم هؤلاء المنحرفون لقال: «فلا تنكحوا أكثر من واحدة» لكنه لم يقل ذلك، بل نهى عن الميل المفرط الذي يتجاوز نطاق المشاعر فيؤدي إلى الإجحاف في المساواة بين الزوجات، وفي أداء الحقوق، وهذا يدل على مشروعية التعدد؛ لأن الميل إنما ينهي عنه إذا كان التعدد مشروعاً، وإلا ما كان للنهي عن الميل مكان في سياق الآية[٢].

٥ ـ قرر الإسلام القدرة على الزوجات وأولادهن فقال: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن: القرطبي (٥/٤٠٧).

(٢) ماذا عن المرأة: نور الدين عتر، ص١٤٩ ـ ١٥٠.

أي: بما يناسب حالها، ويليق بمثيلاتها من مستوى المعيشة، وذلك أمر يقدره المعروف، وقد أكد النبي ﷺ ذلك بقوله: «**يا معشر الشباب، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجاء**»[١].

وختاماً: فإن الإسلام دين إلٰهي يراعي الفطرة التي فُطر الإنسان عليها فهو يعمل على تصريف غرائزه وفق خطة تتناسب مع حياته، وحياة المجتمع الذي يعيش فيه، لذلك قرر الإسلام:

أولاً: أن من حسنات السماح بتعدد الزوجات عند الحاجة أن يكون ذريعة من ذرائع المجتمع لدفع غوائل العيلة والفاقة عند اختلاف النسبة العددية بين الجنسين.

ثانياً: أن الإسلام لم ينشئ تعدد الزوجات بل كان أمراً موجوداً قبل ظهور الإسلام، ولم يستحسنه لكنه أباحه وأوجب الاكتفاء بزوجة واحدة عند عدم القدرة على القيام بشروط التعدد.

ثالثاً: أن نظام التعدد يعمل على إغلاق باب الفساد الأخلاقي الذي قد يوجد في حياة النساء، ويحول بينهن وبين التشرد والتسكع وبه يصان المجتمع من كثرة الفواحش وازدياد الأولاد غير الشرعيين.

رابعاً: أن المجتمعات الأوروبية لو عملت بنظام التعدد لقضت على الفساد الأخلاقي الذي اجتاح مجتمعاتهم، وعمل على تدميرها.

خامساً: أن الإسلام عمل على إصلاح نظام التعدد، فقصره على أربع زوجات، وشدد فيه على العدل، وبعث ضمير الزوج المسلم على خوف الله ومراقبته[٢].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ووجد مؤنه، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم (٢/١٠١٨) حديث رقم (١٤٠٠).

(٢) المستشرقون والقرآن: د. محمد بني عامر، ص٥٢٠.

المبحث السابع

موقف المشركين منه ﷺ

لا شك أن الاستجابة للأمر الإلٰهي بإعلان الدعوة في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٩٤﴾ [الحجر: ٩٤][(١)] اقتضى من النبي ﷺ مواجهة المشركين بحقائق التوحيد وبفساد الشرك، وقد أدى ذلك ـ كما اتفقت عليه كتب السيرة ـ أن جعل المشركين يلحقون أنواع الأذى بالنبي ﷺ وأصحابه[(٢)].

واتخذ الأذى صوراً شتى فأولها ظهوراً ماكان من الهمز والاستهزاء ثم السب والشتم للنبي ﷺ ودعوته التي دعا إليها، ومن ذلك ما ذكره ابن هشام في السيرة بقوله:

«فجعلت قريش... يهمزونه ويستهزئون به ويخاصمونه، وجعل القرآن ينزل في قريش بأحداثهم، وفيمن نصب لعداوته منهم، ومنهم من سُمي لنا، ومنهم من نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار، فكان ممن سمي لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن عمه أبو لهب بن عبد المطلب وامرأته أم جميل

(١) انظر: تفسير الطبري (١٧/ ١٥١)، تفسير ابن كثير (٤/ ٥٥١).

(٢) انظر: سيرة ابن إسحاق، ص١٤٥، سيرة ابن هشام (١/ ٢٣٨)، دلائل النبوة: لأبي نعيم (١/ ٢٦٥)، الروض الأنف (٢/ ٣٠٥)، نور اليقين، ص٣٥، خاتم النبيين: أبو زهرة (١/ ٣٠٥).

بنت حرب بن أمية، حمالة الحطب، وإنما سماها الله تعالى حمالة الحطب لأنها كانت - فيما بلغني - تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله ﷺ حيث تمر، فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾ [المسد: ١ - ٥]. . . قال ابن إسحاق: فذكر لي: أن أم جميل، حمالة الحطب، حين سمعت ما نزل فيها، وفي زوجها من القرآن، أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق، وفي يدها فهر من حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر: أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أما والله إني لشاعرة، ثم قالت:

مذمماً عصينا، وأمره أبينا، ودينه قلينا. ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: «**ما رأتني؟ لقد أخذ الله ببصرها عني**»[(١)].

وكان رسول الله ﷺ يفرح لأن المشركين يسبون مذمماً يقول: «**ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمماً ويلعنون مذمماً وأنا محمد**»[(٢)].

ويحكي شاهد عيان هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه كيفية انتقال الإيذاء للنبي ﷺ من صورة السب والشتم إلى الإيذاء البدني فيقول:

«بينما رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة وجمع قريش في مجالسهم، إذ قال قائل منهم: ألا تنظرون إلى هذا المرائي؟ أيكم يقوم إلى جزور آل فلان، فيعمد إلى فرثها ودمها وسلاها، فيجيء به، ثم يمهله حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه، فانبعث أشقاهم، فلما سجد رسول الله ﷺ وضعه بين كتفيه؟ وثبت النبي ﷺ ساجداً، فضحكوا حتى مال بعضهم إلى بعض من الضحك، فانطلق

---

(١) انظر: سيرة ابن إسحاق، ص١٤٥، سيرة ابن هشام (١/ ٢٣٨)، دلائل النبوة: لأبي نعيم (١/ ٢٦٥)، الروض الأنف (٢/ ٣٠٥)، نور اليقين، ص٣٥، خاتم النبيين: أبو زهرة (١/ ٣٠٥).

(٢) تقدم تخريجه.

منطلق إلى فاطمة عليها السلام ـ وهي جويرية ـ، فأقبلت تسعى وثبت النبي ﷺ ساجداً حتى ألقته عنه، وأقبلت عليهم تسبهم، فلما قضى رسول الله ﷺ الصلاة، قال: «**اللَّهُمَّ عليك بقريش، اللَّهُمَّ عليك بقريش، اللَّهُمَّ عليك بقريش**»، ثم سمى: «**اللَّهُمَّ عليك بعمرو بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط وعمارة بن الوليد**». قال عبد الله: فوالله لقد رأيتهم صرعى يوم بدر، ثم سحبوا إلى القليب ـ قليب بدر ـ ثم قال رسول الله ﷺ: «**وأتبع أصحاب القليب لعنة**»»(١).

وقد بيَّنت الروايات الصحيحة الأخرى أن الذي رمى الفرث عليه هو عقبة بن أبي معيط، وأن الذي حرضه هو أبو جهل، وأن المشركين تأثروا لدعوة الرسول، وشق عليهم الأمر؛ لأنهم يرون أن الدعوة بمكة مستجابة، كما أنه من المهم أن نلاحظ أن دعوته ﷺ عليهم كانت بسبب تكذيبهم إياه واستعصائهم على الإيمان، وليس بسبب إيذائهم له.

فطالما احتمل ﷺ أذاهم ولم يدع عليهم، بل دعا لهم بالهداية مما يصلح مثلاً أعلى في الصبر على الدعوة واحتمال المدعوين وإن آذوا أصحاب الدعوة في أموالهم ومصالحهم وأنفسهم(٢).

وكان المشركون إذا سمعوا القرآن يجهر به الرسول ﷺ وهو يصلي بأصحابه مستخفياً يسبون القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فأمره الله تعالى أن يتوسط بالقراءة بحيث يسمعه أتباعه دون المشركين قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾﴾ [الإسراء: ١١٠](٣).

إن حرص الرسول ﷺ على الصلاة في المسجد الحرام أدى إلى الاحتكاك بالمشركين مراراً، ولعله حرص على إظهار شعائر الإسلام، واحترام الكعبة، ولقاء الناس لأغراض الدعوة.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب المرأة تطرح عن المصلي، شيئاً من الأذى (١/ ١١٠) حديث رقم (٥٢٠).

(٢) السيرة النبوية الصحيحة: أكرم العمري (١/ ١٤٨ ـ ١٥٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ (٦/ ٨٧) حديث رقم (٤٧٢٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب التوسط في القراءة في الصلاة الجهرية بين الجهر والإسرار، إذا خاف من الجهر مفسدة (١/ ٣٢٩) حديث رقم (٤٤٦).

ومن هنا حاول المشركون تفويت هذه الأغراض عليه بمضايقته وإيذائه دون التورع عن ذلك حتى وهو يسجد لله في صلاته!![١].

إن التهديد بالأذى والقتل على لسان زعماء المشركين لم يكن ينقطع في مرحلة الدعوة العلنية، بل كان يتصاعد ويشتد مع الأيام. فمرة قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحة، فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً**»[٢].

لقد خلّد القرآن هذا الحَدَث فقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [العلق: ٦ ـ ١٣]. ولعله في هذه المرة نفسها جاءه أبو جهل فقال: ألم أَنْهكَ عن هذا؟ ألم أَنْهكَ عن هذا؟ فانصرف النبي ﷺ بعد أن نهر أبا جهل وغلظ له القول، فقال أبو جهل: إنك لتعلم ما بها نادٍ أكثر مني. فأنزل الله: ﴿نَاصِيَةٍ كَـٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ [العلق: ١٦، ١٧][٣].

وقد سأل عروةُ بن الزبير عبد الله بن عمرو بن العاص: «أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله ﷺ؟ قال: بينا رسول الله صلى الله عليه يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي مُعَيط، فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب قوله: ﴿...إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦، ٧] (٤/ ٢١٥٤) حديث رقم (٢٧٩٧).

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾﴾ (٥/ ٤٤٤) حديث رقم (٣٣٤٩) وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب، وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠/ ٣٤٠)، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٥٥٨): إسناده صحيح على شرط مسلم.

ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: ٢٨]»[(١)]. وكان عمرو بن العاص والد عبد الله شاهدَ عيانٍ للحادثة، والغالب أنه سمع الخبر منه[(٢)].

وكانت السخرية والاستهزاء من الرسول ﷺ ودعوته أحد الأساليب التي اتبعها المشركون في الحرب الكلامية لصرف الناس عن الدعوة، فكان أبو جهل يقول ساخراً: «اللَّهُمَّ إن كان هذا هو الحق من عندك، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم!! فنزلت الآية ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الأنفال: ٣٣]»[(٣)].

وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكية مما كان سبباً مباشراً للهجرة إلى المدينة[(٤)].

ولم يقتصر أذى قريش على الاتهام الباطل، والتكذيب السافر والسخرية المرة، والأذى لرسول الله ﷺ، بل تصاعد إلى ذروة العنف وخاصة في معاملة المستضعفين من المسلمين. فنكلت بهم لتفتنهم عن دينهم، ولتجعلهم عبرة لسواهم، ولتنفس عن غضبها بما تصبه عليهم من العذاب.

قال عبد الله بن مسعود ـ وهو شاهد عيان ـ: «أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سُميّة، وصهيب، وبلال، والمقداد. فأما رسول الله ﷺ فمنعه بعمه أبي طالب. وأما أبو بكر فمنعه الله بقومه. وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أدرع الحديد، وصهروهم الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلال، فإنه هانت عليه نفسُه في الله

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب سورة المؤمن (٦/ ١٢٧) حديث رقم (٤٨٥١).

(٢) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: ﴿وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال: ٣٢] (٦/ ٦٢) حديث رقم (٤٦٤٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار. باب في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ ﴿٣٣﴾﴾ الآية [الأنفال: ٣٣] (٤/ ٢١٥٤) حديث رقم (٢٧٩٦).

(٤) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٣).

وهان على قومه، فأعطوه الولدان وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أحَدٌ أحَد»[(١)].

وقد وردت روايات كثيرة في ألوان العذاب التي لقيها عمار بن ياسر وأهله، وهي تكفي لإثبات وقوع الحادث تاريخيّاً، وقد ذكر المفسرون أن الآية ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، نزلت في عمار[(٢)].

وممن ناله الأذى في سبيل الله خبّاب بن الأرتّ حتى سأل رسول الله أن يدعو الله ليخفف عن المستضعفين. فقال: «أتيت النبي ﷺ، وهو متوسدٌ بُردة، وهو في ظل الكعبة، وقد لقينا من المشركين شدّة. فقلت: يا رسول الله ألا تدعو لنا؟ فقعد ـ وهو محمرٌّ وجهه ـ فقال: «**لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط الحديد ما دون عظامه من لحمٍ أو عَصَب، ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق باثنين، ما يصرفه ذلك عن دينه، وليتمنَّ الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت ما يخاف إلا الله**»»[(٣)].

وكان خبّاب يعمل حداداً، فعمل للعاص بن وائل سيفاً، فاجتمع له عنده مال، فذهب يتقاضاه. فقال العاص: لا أقضيك حتى تكفر بمحمد. فردَّ عليه خباب: حتى تموت ثم تبعث. فقال العاص ساخراً بأنه سيقضيه يوم القيامة من ماله!! فنزلت الآية: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ [مريم: ٧٧][(٤)].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الإيمان وفضائل الصحابة، باب فضل سلمان وأبي ذر والمقداد (١/ ٥٣) حديث رقم (١٥٠)، وأحمد في مسنده (٦/ ٣٨٢) وقال محققه: إسناده حسن من أجل عاصم، وهو ابن أبي النجود، وبقية رجاله ثقات رجال الشيخين. وأخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥/ ٥٥٩)، والحاكم في المستدرك (٣/ ٣٢٠) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في الكبرى (٨/ ٣٦٢)، وحسَّنه الألباني في صحيح السيرة النبوية، ص١٢١.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب ما لقي النبي ﷺ وأصحابه من المشركين بمكة (٥/ ٤٥) حديث رقم (٣٨٥٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ـ واللفظ له ـ في كتاب الإجاره، باب هل يؤاجر الرجل نفسه من مشرك في أرض الحرب (٣/ ٩٢) حديث رقم (٢٢٧٥)، ومسلم في صحيحه في كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب سؤال اليهود النبي ﷺ عن الروح وقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ الآية [الإسراء: ٨٥] (٤/ ٢١٥٣) حديث رقم (٢٧٩٥).

وهذا مما يدل على ما لحق المستضعفين من ظلم وغصب لأموالهم فضلاً عن أذى أبدانهم[١].

ولا شك أن المسلمين ـ على ضعفهم ـ كانوا يرغبون في الدفاع عن أنفسهم ويبدو أن الموقف السلمي أغاظ بعضهم وخاصة الشباب منهم. وقد أتى عبد الرحمٰن بن عوف وأصحابه إلى النبي بمكة فقالوا: يا نبي الله، كنا في عزة ونحن مشركون، فلما آمنا صرنا أذلة! قال: إني أُمرت بالعفو فلا تقاتلوا القوم، فلما حوله الله إلى المدينة أمره بالقتال فكفوا، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ﴾ [النساء: ٧٧][٢].

وقد بقيت المأساة التي يعيشها المستضعفون حاضرة في نفس رسول الله ﷺ فكان يدعو لمن بقي منهم بمكة بالنجاة من المشركين، وذلك بعد هجرته إلى المدينة[٣].

وقد أمر النبي ﷺ أصحابه بضبط النفس والتحلي بالصبر، وعدم مقارعة القوة بالقوة، والعدوان بالعدوان، حرصاً على حياتهم ونظراً لمستقبل الدعوة، وإمساكاً بزمام الدعوة الوليدة أن يئدها الشر وهي لا تزال غضَّة طرية، ولعل المشركين كانوا يحرصون على مواجهة حاسمة مع الدعوة تُنهي أمرها، لكن الحكمة الإسلامية فوتت عليهم الفرصة[٤].

موقف المستشرقين:

رغم الحشد الذي مر معنا من وقائع السيرة وشواهدها، والنصوص النبوية المبينة لحقيقة موقف المشركين من النبي ﷺ، والذي اتسم بالعداوة بكافة

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٦).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٥/ ١٧٠ ـ ١٧١)، والمستدرك (٢/ ٣٠٧) وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخاري وأقره الذهبي. والصحيح أنه على شرط مسلم فقط لأن البخاري أخرج للحسين بن واقد تعليقاً فقط. وانظر أيضاً: تفسير ابن كثير (١/ ٤٥١)، والسيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٨).

(٣) أخرج البخاري في صحيحه عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة، يقول: «**اللَّهُمَّ أنج عياش بن أبي ربيعة، اللَّهُمَّ أنج سلمة بن هشام، اللَّهُمَّ أنج الوليد بن الوليد، اللَّهُمَّ أنج المستضعفين من المؤمنين، اللَّهُمَّ اشدد وطأتك على مضر، اللَّهُم اجعلها سنين كسني يوسف**»، وأن النبي ﷺ قال: «**غفار غفر الله لها وأسلم سالمها الله**» (٢/ ٢٦) حديث رقم (١٠٠٦). وانظر: فتح الباري (٢/ ٢٨٥).

(٤) السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٥٩).

أشكالها وصورها منذ اليوم الأول لإعلان الدعوة والجهر بها، بل وتعدى هذا الأذى النبي ﷺ ليشمل كل من آمن برسالته وصدق ما جاء به.

رغم ذلك كله فإن طائفة من المستشرقين قد شككت في هذا الموقف، وزعمت أن هذه الأخبار غامضة ومبالغ فيها كما أنها قابلة للطعن والتشكيك.

جاء في «الموسوعة الاستشراقية»: «وتقص الروايات بتفصيل واف ما لقيه محمد واتباعه من الاضطهاد والأذى على أيدي أهل مكة، وهو ما تصوره كتب السيرة على أنه من الأحداث المهمة في حياة محمد إبان الفترة المكية. غير أنها للأسف روايات غير واضحة قابلة لتفسيرات هي الأخرى غامضة»[(١)].

أما المستشرق مونتغمري وات فإنه يشكّ في أنها كانت بالعنف الذي تشير إليه المصادر، وينفي أن تكون (بالشدة) التي يعرفها الناس جيلاً بعد جيل... ويثير الشكّ حول ما يعدّه مبالغة في تصوير الموقف... ويسعى لوضع لمساته على الوقائع كي تميل أكثر إلى الاعتدال، فهو يقول: «لا شك أن المصادر حين تتحدث عن فتنة المسلمين إنما تشير لمثل أعمال أبي جهل، وهي ليست مع ذلك فتنة قاسية، يتأكد ذلك إذا ما فحصنا بدقة سير ابن هشام والطبري وابن سعد؛ لأن ما يذكر فيها يتحدّث بلا شك عن أفظع الشواهد. وكل شيء يدعو إلى إقناعنا بأن الاضطهاد كان خفيفاً. ومن الممكن أن المبالغة في الاضطهاد نشأت من محاولة نفي تهمة الارتداد عن الدين عن شخص من الأشخاص.

وتشهد الوثائق التي لدينا على مختلف مظاهر المعارضة المذكورة عن ابن إسحاق؛ فقد شتم محمد وتعرض لإهانات بسيطة كأن تجمع أوساخ جيرانه أمام منزله، وربما زاد الإزعاج بعد وفاة أبي طالب. ومن الممكن أن يكون انخفاض رأسمال أبي بكر من ٤٠٠٠٠ درهم إلى ٥٠٠٠ بين اعتناق الإسلام والهجرة سببه الضغط الاقتصادي الذي كان يلوح به أبو جهل، وليس شراء العبيد كما يقول ابن سعد؛ لأن ثمن العبد لم يكن يتجاوز الـ٤٠٠ درهم تقريباً، وأشهر الأمثلة على التعذيب الجسدي ما نزل بالعبيد؛ كبلال وعامر بن فهيرة، كذلك رفض العاص بن وائل أن يسدد ديناً لخباب بن الأرتّ، ويمكن أن نذكر نوعاً رابعاً من الاضطهاد؛ وهو الضغط الذي يقوم به الآباء والأعمام والإخوة على

---

(١) الموسوعة الإسلامية: مادة محمد ﷺ، ص٩١١٩.

أفراد عائلاتهم أو قبائلهم»[١].

ويخلص (وات) إلى النتيجة التالية: «كان اضطهاد المسلمين إذن خفيفاً؛ لأن نظام الحماية في مكة ـ حماية القبائل لأفرادها ـ كان يمنع من أن يؤذى المسلم على يد فرد من قبيلة أخرى حتى لو كانت قبيلة المسلم لا تميل إلى الإسلام؛ لأن الامتناع عن نصرة العشير في نزاعه مع الآخر يعد مساساً بشرف القبيلة، ولهذا اقتصر الاضطهاد على:

١ ـ حالات لا تمس علاقات القبائل حين يكون المضطهدون في القبيلة نفسها، أو حين تكون الضحية لا تحميها أية قبيلة.

٢ ـ أعمال غير مذكورة في شريعة الشرف التقليدية؛ كالإجراآت الاقتصادية والشتائم اللفظية التي لا تمس إلا الفرد وليس القبيلة.

وقد كان هذا الاضطهاد المحدود كافياً لتنشيط الإسلام الوليد ولكنه لم يستطع ردّ أيّ مؤمن عن دينه»[٢].

والحديث عن عنف الاضطهاد يطول، ولن يتّسع المجال سوى لطرح إشارات فحسب عن بعض ما كان يجري بين المسلمين وخصومهم ـ بالإضافة لما قدمناه في مبدء هذا المبحث ـ يتبين من خلالها أن الاضطهاد لم يكن (خفيفاً) كما ذهب (وات).

لقد كانت كل قبيلة من المشركين تثب على من فيها من المسلمين، أحراراً وعبيداً، فتحبسهم وتعذبهم بالضرب والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي ينصب عليه، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم... وكان بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه، إذا حميت الظهيرة، يعذبونهم في رمضاء مكة، فيمرّ بهم الرسول ﷺ فيقول: صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة!! وقتلت أمه وهي تأبى إلا الإسلام، ويقال بأنها أغلظت لأبي جهل في القول فطعنها في بطنها.. وكان عمار يعذّب حتى لا يدري ما يقول[٣].

---

(١) محمد في مكة، ص١٩٠ ـ ١٩١.

(٢) المرجع السابق، ص١٩٢.

(٣) الأنساب: للبلاذري (١/١٥٨ ـ ١٥٩).

وجيء بخباب بن الأرتّ فجعلوا يلصقون ظهره بالأرض على الرضف حتى ذهب ماء متنه (أي: ظهره)، ويقول خباب نفسه: لقد رأيتني يوماً وقد أوقدوا لي ناراً ثم سلقوني فيها، ثم وضع رجل رجله على صدري فما أتيت الأرض إلا بظهري، ولولا أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يتمنّينّ أحدكم الموت**» لتمنّيته!![1].

وقد بلغ من شدّة الاضطهاد أن بعض المسلمين قد تضعضعوا أمام المحنة ولم يطيقوا تحمل الأذى والاضطهاد، وأنهم أبدوا شكّهم في نصر الله الموعود للمسلمين، فنزلت الآيات ١١ ـ ١٥ من سورة الحج تحمل على هذا النوع من الناس بأسلوب عام حملة لاذعة:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١١﴾ [الحج: ١١].

عن سعيد بن جبير، قال: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم؟ قال: نعم!، والله إن كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه وما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرب الذي نزل به[2].

وقد أقر جمع من المستشرقين ضمن عرضهم لحياة النبي ﷺ وسيرته ـ بكل وضوح ـ بموقف المشركين المعاند للدعوة الإسلامية، وكيف وجه هؤلاء أنواعاً مختلفة من الأذى للنبي ﷺ ومن معه من المسلمين أملاً منهم في رجوعهم عن دين الله تعالى، وهو ما يدحض مزاعم مونتغمري وات ومن كان على شاكلته.

يقول المستشرق الروسي تولستوي: «وفي سني دعوة محمد الأولى، احتمل كثيراً من اضطهاد أصحاب الديانات القديمة، شأن كل نبي قبله نادى أمته إلى الحق، ولكن هذه الاضطهادات لم تثن عزمه، بل ثابر على دعوة أمته»[3].

ويقول توماس آرنولد في كتابه الدعوة إلى الإسلام: «واشتدت عداوة قريش للدين الجديد اشتداداً مرّاً، حين رأوا كثرة عدد المشايعين للإسلام، وأيقنوا أن

---

(١) المرجع السابق (١/ ١٥٨ ـ ١٥٩).

(٢) سيرة ابن إسحاق، ص١٩٢، سيرة ابن هشام (١/ ٢٧٩)، وانظر: المستشرقون والسيرة النبوية، ص٥٩ ـ ٦٢.

(٣) الأعمال الكاملة: تولستوي، ص٤٣.

انتصار الدين الجديد معناه تحطيم دين العرب الموروث والعبادة القومية، وضياع ما كان يتمتع به سدنة الكعبة المقدسة من ثروة ونفوذ. وكان محمد نفسه في حماية أبي طالب وبني هاشم، فهؤلاء وإن كانوا لم يظهروا أية عاطفة نحو التعاليم التي أذاعها قريبهم في الناس، إلا أن قوة العصبية للقبيلة التي يتميز بها العرب قد حمته من أية محاولة اعتداء على حياته، وإن كان قد ظل معرضاً لأذى واعتداء كثير. أما الفقراء الذين لم يكن لهم من يقوم بحمايتهم، وكذلك الموالي، فقد تحملوا أقسى ألوان الاضطهاد، فسجنوا، وعذبوا، كي يرتدوا عن هذا الدين الجديد»[١].

وجاء في كتاب «الإسلام منهج حياة» لفيليب حِتّي: «وأخيراً عزم كبار قريش ـ من بني أمية خاصة ـ على أن يسوقوا على النبي واتباعه اضطهاداً فعالاً، هذا الاضطهاد (جعل النبي يخاف على الضعفاء من المسلمين ألا يحتملوا التعذيب فيرتدوا عن الإسلام) فأمرهم بالهجرة عام ٦١٥م إلى الحبشة النصرانية... وبقي محمد نفسه في مكة يدعو إلى الله ويتحمل الاضطهاد. وكان أبو طالب ـ عم الرسول والمدافع عنه في وجه قريش ـ يحميه من أذى قريش ويرفض أن يسلمه... ولجأت قريش إلى سلاح من الاضطهاد جديد: إلى المقاطعة الاقتصادية والاجتماعية»[٢].

ويقول المستشرق سيديو عن محاولات قريش لإيذاء النبي ﷺ: «وهي لم تقصر في رميه بأقذع الشتائم وتعذيب أتباعه، فكانت كلما طاف حول الكعبة أسمعته ما فيه إهانة وما فيه تهديده، ويدخل محمد، ذات يوم، بيته قانطاً، ثم يتجلد في الغد ويواظب على مواعظه، ويؤدي إسلام عمه حمزة إلى جعل خصومه أشد حذراً مما كانوا عليه مع عدم تغييرهم شيئاً من عداوتهم... ويمعنون في فتن محمد ويمنعون الإصغاء إلى كلامه فيفرضون عقوبات شديدة على من يخالف، وتبتلي كل عشيرة من يسلم من أبنائها بأقسى معاملة فتصبح الرمضاء مكان تعذيب لهؤلاء البائسين، ويهجر كثير من المسلمين مكة إلى بلاد الحبشة...»[٣].

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص٣٧، وانظر: الأبطال: توماس كارليل، ص٧٤، ومحمد: كارين أرمسترونج، ص١٨٥.

(٢) الإسلام منهج حياة، ص٢٨.

(٣) تاريخ العرب العام، ص٦٩ ـ ٧٠.

أما المستشرق درمنغم فيقول حاكياً معاناة النبي ﷺ والمسلمين الأوائل معه مع المشركين فيقول: «ظلت طبقة الأشراف مناهضة له، وقد ذكر القرآن أن مجرمي كل قرية أكابرها، وأكابر مكة هم الذين كانوا يغرون القوم به. لم يجرؤ المسلمون على الصلاة في الكعبة ببطن مكة، فكانوا إذا صلوا ذهبوا في الشعاب، واستخفوا بصلاتهم من قومهم، وكان هؤلاء القوم يفسدون عليهم صلاتهم في الغالب بأن يفرقوهم بالحجارة... وكانت قريش تحاول أن تفسد على محمد دعوته بالاستهزاء، فكان إذا ما وعظ خنقوا صوته بالمكاء والتصدية، وكان إذا سار من طريق تهانقوا، وأغروا به صبيانهم وسفهائهم»[(١)].

أما المستشرق المسلم نصر الدين (دينيه) فيفصل في موقف المشركين من دعوة النبي ﷺ بعد انتقالها من السر للجهر، وما حصل للنبي ﷺ والمؤمنين معه بعدها فيقول:

«أصبح المؤمنون منذ أن جاهر الرسول بالدعوة لا يخفون إيمانهم، ولكنهم ـ ليتجنبوا الاحتكاك الذي لا فائدة فيه بالمشركين ـ كانوا يذهبون إلى شعاب مكة المقفرة سرّاً ليؤدوا صلاتهم... وفي هذه الآونة أقبل محمد يطوف بالكعبة، فوثبوا عليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: «أأنت الذي تقول كذا وكذا في آلهتنا وآبائنا؟ فأجاب بكل هدوء ورزانة: **نعم، أنا الذي أقول ذلك**». فارتمى عليه أحدهم وأخذ بمجمع ردائه محاولاً أن يقتله خنقاً، فقام أبو بكر رضي الله عنه دونه وهو يبكي ويقول: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله» وانتشل محمداً من يد الرجل، بيد أنه أوذي هو الآخر وتساقط بعض لحيته... وذهب رجل بأمر أبي جهل يبحث عن أمعاء شاة، فأتى بأمعاء دابة مضى على ذبحها أيام كثيرة، ثم ترقب الرسول حتى سجد في صلاته، وإذ ذاك رمى بما في يده على عنقه وأكتافه.

... وإذا ذكرنا أبا جهل وسلوكه المشين تجاه الرسول، فلنذكر أيضاً أحد أعمام الرسول، وهو أبو لهب، فقد سجل عليهما التاريخ مواقفهما المخزية الدنيئة، فبينما الرسول يعظ جماعة من أهل مكة على الصفا، إذا بأبي لهب

---

(١) حياة محمد، ص٧٠ ـ ٧١. وفي الحاشية ص٧١: مكأ الرجل: صفر بفيه أو شبك بأصابعه ونفخ فيها، والتصدية من صدى بيديه: صفق، وتهانف: ضحك باستهزاء.

يقاطعه في صفاقة وسماجة قائلاً: «تباً لك سائر هذا اليوم، ألمثل هذا جمعتنا؟»... أما زوجه أم جميل التي أثارت الآية ذكرها بتلك الصفات التي بلغت ذلك المبلغ من الصدق رغم حدتها وخشونتها، فقد كاد الغيظ يمزق صدرها تمزيقاً حمالة حطب!! هي؟ إنها لم تستطع أن تتحمل ذلك النعت. ولكن أليست هي التي نثرت الشوك على طريق الرسول؟ أليس لسانها هو الذي أشعل نيران الحقد بحطب النميمة التي كانت تحملها إلى كل مكان؟.

ومنذ ذلك اليوم وهذان الزوجان لا يتراجعان أمام أقبح الأفعال فراحا يرميان، كل صباح، بأكوام القاذورات على بيت محمد وأمامه، وكان جارهما!.

وأخذت الجمهرة العظمى من أهل مكة ـ خائفة من هؤلاء المتعصبين الطغاة أو متحمسة بهم ـ يصدون عن الرسول، أو يفرون منه، وأصبح الأطفال والرجال، الذين لا ضمائر عندهم، يلاحقونه في الشوارع بسخريتهم، ولكنه تحمل الأذى صابراً غير مبال. وماذا يضيره من السخرية؟ إنها دخان في الهواء. لم يكن يهتم، حتى ولا بمعرفة من هم مصدر هذا الأذى، لم يكن يهمه إلا أمر الذين يأمل في اعتناقهم الإسلام»[1].

(١) محمد رسول الله، ص١٢٠ ـ ١٢٦.

الفصل الثاني

مواقفهم من العهد المدني

المبحث الأول: هجرته ﷺ إلى المدينة.

المبحث الثاني: علاقته ﷺ باليهود.

المبحث الثالث: جهاده ﷺ للمشركين.

المبحث الرابع: نجاحه ﷺ في تبليغ الرسالة ونشرها.

تمهيد

إن سيرة الرسول ﷺ في المدينة المنورة تختلف عن سيرته ﷺ في مكة من ناحية أحداثها، ووقائعها، وحركتها، وإن اتفقت في أنها جميعاً كانت في مجال الدعوة إلى الله تعالى.

في مكة عاش ﷺ بعيداً عن الوحي حتى بلغ سن الأربعين! وكان الله معه، يرعاه ويصنعه للرسالة فهيأ له التربية الصحيحة، وأبعده عن مزالق الهوى، وأحاطه بخوارق العادات في صورة إرهاصات، ومبشرات، وعلامات... كما أنه ﷺ عاش بعد البعثة فترة الرسالة في مكة وسط قلة من المؤمنين مستضعفة أمام ظلم الكفرة وعدوانهم، وكثيراً ما عانت هذه القلة، وتحملت، وصبرت، وتمسكت بدينها الذي آمنت به. أما في المدينة المنورة فقد عاش النبي ﷺ والمسلمون معه حياة القوة العادلة، وسط كثرة من المؤمنين تمثل أمة الإسلام الوليدة بمزاياها ومحاسنها مع استمرار تتابع نزول الوحي لتوضيح الطريق، وتحديد معالم النجاح.

لقد احتاج المسلمون في مكة إلى عقيدة تربطهم بالله، وتؤملهم في الجنة، وتدفعهم إلى الصبر والتحمل وهذا يكفيهم، وقد تمَّ لهم ذلك مع شيء من التوجيهات الخلقية التي لا بد منها للإنسان المسلم.

أما في المدينة المنورة فقد أصبح المسلمون في حاجة إلى الشريعة لتأكيد اعتقادهم الراسخ، وكان لا بد لهم من فقه أحكام الحياة، التي أخذت تتنزل عليهم تبعاً للأحداث.

لقد كان الله رؤوفاً بهؤلاء الصفوة، وكان معهم يمدهم بشريعته، ويفصل

لهم أحكامها ويوضح مزاياها وفوائدها، ويركز على ضرورة التهيؤ للعمل بها، وربطها بسائر أركان الإسلام؛ لأنها جميعاً تنتج الدين بكماله، وتمامه.

لقد كان المسلمون في مكة يبحثون عن أمن ييسر لهم العبودية، ويرجون استقراراً يمكنهم من العمل لله بين أهليهم وأقوامهم، لكن هذا الأمل لم يتحقق وهم في مكة فهاجروا إلى الحبشة، وبعدها كانت الهجرة إلى المدينة المنورة حتى أصبحوا آمنين في حياتهم، وعباداتهم، وتوجههم لله ربِّ العالمين، فحملوا الأمانة مع رسول الله ﷺ وصاروا مسؤولين عن نشر الإسلام، وتبليغه إلى كل مكان استطاعوا أن يصلوا إليه وإلى أي إنسان يمكنهم تبليغه ودعوته وفق منهج الله للوصول إلى الغايات المحددة بواسطة وحي الله تعالى[1].

ورغم ما تحقق للنبي ﷺ والمؤمنين من استقرار في العهد المدني إلا أن المرحلة لم تخل من صعوبات وشدائد في مراحل مفصلية في حياة الدعوة وسيرة النبي ﷺ، وقد ظهرت هذه الصعوبات في مبدء المرحلة وأوسطها ومنتهاها.

ففي البدء كانت الهجرة النبوية، وفيها خرج النبي ﷺ من مكة متخفياً وأعداؤه من خلفه يتربصون به ويرومون القضاء عليه، ثم لما استقر مقامه ﷺ بالمدينة كانت هناك صعوبة التعامل مع أناس كان من ضمنهم طوائف غلب الحقد والتعصب عليهم فأنكروا الرسالة وجحدوا النبوة وأخذوا يحيكون للنبي ﷺ والمؤمنين معه المكائد والمؤامرات، وهؤلاء هم اليهود ومن شايعهم من أهل النفاق، ثم جاءت صعوبة أعداء الدعوة القدامى من مشركي قريش ومن تحزب معهم من العرب فقد شرعوا سيوفهم لقتال النبي ﷺ والقضاء على دينه فكانت الغزوات النبوية وجهاد المشركين فيها، ثم كانت صعوبة التبليغ والدعوة لأقوام بعدت ديارهم وأماكنهم فكانت البعوث والرسل والمكاتبات بين النبي ﷺ وهؤلاء الأقوام ورؤسائهم.

وداخل هذه الصعوبات الكبرى التي مرت معنا صعوبات أخرى أقل شأناً لم تخل منها هذه المرحلة، وقد يسَّر الله تعالى لنبيِّه التعامل معها جميعاً، والقضاء عليها قضاء مبرماً حتى تمكن ﷺ من تبليغ الدعوة وإقامة الحجة ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

---

(١) انظر: السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني: أحمد علوش، ص٨ ـ ١٠.

وفي ظل هذه المواقف المهمة في حياة وسيرة النبي ﷺ في العهد المدني كان للمستشرقين الغربيين آراؤهم ونظرياتهم وتحليلاتهم لهذه الأحداث، أصابوا في بعضها وأخطؤوا في بعضها الآخر، ولهذا فسيتناول البحث فيما يلي ـ بالدراسة والمناقشة ـ آراء المستشرقين ومواقفهم من هذه الأحداث، وذلك وفق المحاور التالية:

المبحث الأول: هجرته ﷺ إلى المدينة.

المبحث الثاني: علاقته ﷺ باليهود.

المبحث الثالث: جهاده ﷺ للمشركين.

المبحث الرابع: نجاحه ﷺ في تبليغ الرسالة ونشرها.

المبحث الأول

هجرته ﷺ إلى المدينة

بُعث رسول الله ﷺ إلى العالم كله فأخذ يبلغ الإسلام، ويتحرك به وفق منهج شرعي وواقعي، فبدأ بالدعوة في مكة حيث نزل الوحي فيها، واستمرت الدعوة في مكة موطنها الأول ثلاثة عشر عاماً، تنوعت فيها الوسائل، وتعددت الأساليب، وتحمل المسلمون مع رسول الله ﷺ مسؤولية تبليغ الإسلام، ونشره بين الناس.

وقد رأينا في دراسة العهد المكي مدى عدوانية كفار مكة، واضطهادهم لكل من أسلم ووقوفهم سداً يصد الناس عن استماع دعوة الله، وأخذوا يتهمون محمداً ﷺ بالأكاذيب المضللة حتى لا يسمعه أحد، مستفيدين من كثرتهم ومنزلتهم في قلوب الناس وتحكمهم في التجارة والمال، وقد نجحوا في عدوانيتهم إلى حد بعيد.

أما عرب الجزيرة فكان لسان حالهم يقول: «أهل الرجل أعرف به» فنأوا بأنفسهم عن الصراع الموجود في مكة، منتظرين نتائجه ليتخذوا بعد ذلك الموقف الذي يرونه.

لقد دخل في الإسلام عدد قليل من أهل مكة، ولو استمر إيمان الناس

بالوتيرة التي سارت عليها خلال العهد المكي لاحتاج رسول الله ﷺ إلى الزمن كله ليصل الإسلام إلى الناس في العالم كله؛ لأن جملة من دخل في الإسلام خلال العهد المكي لم يزد عن المائتين إلا قليلاً، على خوف من طواغيت مكة واعتداء كبرائها.

أمام هذا كان لا بد لدعوة الله تعالى أن تتخذ منهجاً جديداً، ومساراً آخر تحقق به انطلاقة كبرى للإسلام. وكان قدر الله تعالى مع حاجات الدعوة وواقعها، ومع آمال رسول الله ﷺ والمسلمين فأُمر المسلمون بالهجرة العامة من مكة إلى بلد آخر.

وقد سبق للمسلمين أن هاجر نفر منهم إلى الحبشة، تدريباً لهم على ترك مكة، واكتشافاً لمعرفة حياة الآخرين ومذاهبهم، وليعلموا أن ترك الديار والأهل والمال والولد من أجل العقيدة والدين أمر مشروع، ولربما كان واجباً حين لا يأمن المسلم على دينه وعقيدته.

وقد بلغ عدد المهاجرين إلى الحبشة قريباً من ثمانين مسلماً ومسلمة، ولذلك فهي هجرة خاصة في عدد المهاجرين وفي الأهداف المقصودة، أما الهجرة إلى المدينة فإنها تعرف بالهجرة العامة لأن جميع المسلمين كلفوا بها كما تعرف بالهجرة النبوية لأن النبي ﷺ هاجر فيها مع المسلمين[(١)].

وتدل النصوص الصحيحة على أن اختيار المدينة مهاجراً لرسول الله ﷺ كان بوحي إلٰهي كما في الحديث: «**رأيت في المنام أني أهاجر من مكة إلى أرض بها نخل، فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب**»[(٢)]. وللحديث: «**إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين**»[(٣)].

فكأن النبي ﷺ أُري دار الهجرة بصفة تجمع المدينة وغيرها، ثم أري الصفة المختصة بالمدينة فتعينت[(٤)].

---

(١) انظر: السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني: أحمد علوش، ص٥٥ ـ ٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام (٤/٢٠٣) حديث رقم (٣٦٢٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ (٤/١٧٧٩) حديث رقم (٢٢٧٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة (٥/٥٨) حديث رقم (٣٩٠٥). واللابتين هما الحرتان، انظر: فتح الباري (٧/٢٣٤).

(٤) فتح الباري (٧/٢٣٤).

ولعل من حكمة تأخير تحديد المكان كونه سبباً يؤدي إلى صرف أذهان القرشيين عن أهمية الهجرة، وإدراك خطورتها عليهم وعلى تجارتهم؛ لأنهم كانوا يخافون من دخول أهل المدينة في الإسلام، لتأثيرهم على أهل مكة وبخاصة إذا انضم الرسول ﷺ إليهم، وقادهم بدينه الذي يدعو إليه.

ولم يتصور أهل مكة أن الهجرة هذه المرة ستكون شاملة للرسول والمسلمين جميعاً وظنوها واحدة تشبه سابقيها، ولذا لما بدأ المسلمون في الرحيل إلى المدينة لم يتعرض لهم أحد، مع أنهم كانوا يخرجون جماعات ظناً من أهل مكة أن الرسول ﷺ لن يلحق بهم كما فعل مع مهاجري الحبشة.

واستمر رحيل المسلمين من مكة حتى لم يبق منهم إلا رسول الله ﷺ وبنوه، وأبو بكر وبنوه، وعلي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد حيث أبقاهم رسول الله ﷺ بأمر الله تعالى، فلما علم أهل مكة بإعداد الرسول ﷺ للهجرة خافوا من الأمر ووقع في أيديهم، فأخذوا في التخطيط لقتل رسول الله ﷺ حتى لا يقع ما يحذرون منه[١].

وقد فصل ابن إسحاق رحمه الله في «السيرة» كيف خططت قريش لقتل النبي ﷺ فذكر: أن قريشاً لما رأت أن رسول الله ﷺ قد صارت له شيعة وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً، وأصابوا منهم منعة، فحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم. فاجتمعوا له في دار الندوة وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضي أمراً إلا فيها يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله ﷺ حين خافوه.

. . . ثم إن إبليس عرض لهم في هيئة شيخ جليل، عليه بتل (كساء غليظ)، فوقف على باب الدار فلما رأوه واقفاً على بابها؟ قالوا: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتعدتم له فحضر معكم ليسمع، ما تقولون، وعسى أن لا يعدمكم منه رأياً ونصحاً، قالوا: أجل فادخل معهم، وقد اجتمع فيها أشراف قريش. . .

فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم، فإنا والله

---

(١) انظر: السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، ص٥٧ ـ ٥٨.

ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتبعه من غيرنا، فأجمعوا فيه رأياً. قال: فتشاوروا ثم قال قائل منهم: احبسوه في الحديد، وأغلقوا عليه باباً، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله، زهيراً والنابغة، ومن مضى منهم، من هذا الموت، حتى يصيبه ما أصابهم. فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي. والله لئن حبستموه كما تقولون ليخرجن أمره من وراء الباب الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه، فلأوشكوا أن يثبوا عليكم، فينزعوه من أيديكم، ثم يكاثروكم به، حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي، فانظروا في غيره. فتشاوروا.

ثم قال قائل منهم: نخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أخرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع، إذا غاب عنا وفرغنا منه، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت، فقال الشيخ النجدي: لا والله، ما هذا لكم برأي، ألم تروا حسن حديثه، وحلاوة منطقه، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به، والله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حي من العرب، فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم، فيأخذ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه رأياً غير هذا.

قال: فقال أبو جهل بن هشام: والله إن لي فيه لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعد، قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه، فنستريح منه. فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم. قال: فقال الشيخ النجدي: القول ما قال الرجل، هذا الرأي الذي لا رأي غيره، فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له.

قال ابن إسحاق: فأتى جبريل عليه السلام رسول الله ﷺ فقال: لا تبت هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبيت عليه، قال: فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام، فيثبون عليه؟ فلما رأى رسول الله ﷺ مكانهم، قال لعلي بن أبي طالب: «**نم على فراشي وتسجَّ ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم**»، وكان رسول الله ﷺ ينام في برده ذلك إذا نام.

قال ابن إسحاق: لما اجتمعوا له، وفيهم أبو جهل بن هشام، فقال وهم على بابه: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره، كنتم ملوك العرب والعجم، ثم بعثتم من بعد موتكم، فجعلت لكم جنان كجنان الأردن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح، ثم بعثتم من بعد موتكم، ثم جعلت لكم نار تحرقون فيها. قال: وخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال: أنا أقول ذلك، أنت أحدهم. وأخذ الله تعالى على أبصارهم عنه، فلا يرونه، فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾ [يس: ١ ـ ٥]، إلى قوله: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝٩﴾ [يس: ٩]، حتى فرغ رسول الله ﷺ من هؤلاء الآيات، ولم يبق منهم رجل إلا قد وضع على رأسه تراباً، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب، فأتاهم آت ممن لم يكن معهم، فقال:

ما تنتظرون هٰهنا؟ قالوا: محمداً: قال: خيبكم الله! قد والله خرج عليكم محمد، ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، وانطلق لحاجته، أفما ترون ما بكم؟ قال: فوضع كل رجل منهم يده على رأسه، فإذا عليه تراب ثم جعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجياً ببرد رسول الله ﷺ فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائم عليه برده. فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا[١]، فقام علي رضي الله عنه عن الفراش فقالوا: والله لقد كان صدقنا الذي حدثنا.

قال ابن إسحاق: وكان مما أنزل الله عز وجل من القرآن في ذلك اليوم، وما كانوا أجمعوا له: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقول الله عز وجل: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١﴾ [الطور: ٣٠، ٣١].

---

(١) قال السهيلي: «وذكر بعض أهل التفسير السبب المانع لهم من التقحم عليه في الدار مع قصر الدار وأنهم إنما جاءوا لقتله، فذكر في الخبر أنهم هموا بالولوج عليه، فصاحت امرأة من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله إنها لسبة في العرب أن يتحدث عنا أنا تسورنا الحيطان على بنات العم، وهتكنا ستر حرمتنا، فهذا هو الذي أقامهم بالباب حتى أصبحوا ينتظرون خروجه، ثم طمست أبصارهم عنه حين خرج». انظر: الروض الأنف (٤/ ١٢٥ ـ ١٢٦).

قال ابن إسحاق: وأذن الله تعالى لنبيِّه ﷺ عند ذلك في الهجرة[١].

وترجع أهمية الهجرة إلى المدينة المنورة إلى أنها تمثل الانطلاقة الكبرى لانتشار الإسلام بعد ما وقف أهل مكة من الإسلام والمسلمين موقف العنت والكبرياء، وأخذوا يصدون عن سبيل الله بكل وسيلة ممكنة، مهما كان فيها من الكذب والغلو والبعد عن الحق والسداد.

ولذلك كان الإذن بالهجرة نهاية لفترة مؤلمة عاشها المسلمون، وبداية لقوة الإسلام وتطبيقه في حركة الحياة والناس... وكان هذا سبب رضى المؤمنين وسعادتهم.

لقد كانت هجرة المسلمين من مكة إلى المدينة مرحلة طبيعية، انطلقت فيها دعوتهم بعد حصارها الطويل، وكانت انفراجة حاسمة لا بد منها لنشر كلمة الحق بين القاصي والداني بلا عائق أو عناد.

وكان المسلمون قد أدركوا بعد أن استعصى عليهم الانطلاق إلى غايتهم الكبرى أن تغيير المكان والأقوام أمر ضروري لتحقيق النجاح المنشود[٢].

موقف المستشرقين:

أقرَّ جمهور المستشرقين بالصعوبات التي واجهها النبي ﷺ في دعوته إبان المرحلة المكية وكيف كان موقف المشركين منه ﷺ مليئاً بالمواجهات والإيذاء ومحاولة الصد عن سبيل الله بكل ما استطاعوا من وسائل وإمكانيات.

كما أقرَّ جمهورهم أن هذه الصعوبات والتي وصلت إلى حد محاولة القتل، كانت السبب الرئيس لهجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وإن كانت طائفة منهم قد ذكرت أن هذه الأحداث قد ضخمت في الروايات الإسلامية للسيرة وأن إيذاء قريش للنبي ﷺ لم يصل إلى هذه المرحلة كما زعم مونتغمري وات.

فقد أثار وات شكاً حول الرواية المعروفة في السيرة ـ التي تقدم إيرادها ـ والتي تتحدث عن اجتماع الزعامة القرشية لاتخاذ موقف نهائي من الرسول ﷺ قبيل هجرته إلى المدينة[٣]، فيزعم: أن النية لم تنعقد على قتل محمد ﷺ،

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٨٩ ـ ٩٢).

(٢) انظر: السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني، ص٦٢.

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٨٩ ـ ٩٢).

ويستبدل بذلك ـ كعادته ـ افتراضاً يراه، وهو أن محمداً ربما قد يكون رجم في مكة ذاتها بعد الاجتماع، وهو يطرح المسألة بالشكل التالي:

«ليس هناك داع للشك بأنّ هذا الاجتماع قد عقد، وأن الحاضرين أدركوا أن محمداً يهيّئ مشاريع معادية لهم، كما يقول ابن إسحاق، وتوضح الحوادث التي وقعت فيما بعد بأن النية لم تنعقد على قتل محمد؛ لأنّ الاتفاق على ذلك لن يكون بالاجتماع كما تؤكده المصادر، ولربما كان وقوع الخطر يهدد محمداً وأتباعه برحيل محمد، ومن الصعب التأكّد من طبيعة الخطر الذي كان يهدد محمداً وأتباعه، فلقد أضيفت أشياء كثيرة على قصة الهجرة لتجميلها، حتى إن المصادر الأولى نفسها لم تخل من الإضافات، ولا يستبعد أن يكون محمد قد رجم في مكة ذاتها بعد الاجتماع»[١].

إن (وات) الذي يعتمد ـ أحياناً ـ إثارة الشك في الواقعة التاريخيّة، أو نفيها إذا اقتضى الأمر، يسعى، بالاتجاه النقدي المبالغ فيه نفسه، إلى ما يقابل هذا ولا يقلّ عنه سوءاً: وهو افتراض وقائع أو استنتاجات معيّنة قد لا تدعمها حقائق السيرة ووقائعها.

إنه إذا كان في الحالة الأولى يشكّك فيما هو أقرب إلى الصدق، فإنه في الحالة الثانية يصدق ما هو أقرب إلى الكذب... والموقفان في حقيقة الأمر وجهان لعملة واحدة؛ هي عملة النقد الذي يتجاوز حده الإيجابي البنّاء إلى الهدم والنفي والتشكيك[٢].

وهذه الرؤية لأحداث الهجرة التي شابها التشكيك من قبل وات ومن سلك سبيله تخالف في الحقيقة ما ذهب إليه جمهور المستشرقين حين وصفهم لأحداث الهجرة النبوية.

فممن عرض لهذه الأحداث وقام بتحليلها من المستشرقين الباحث الإنجليزي غلوب باشا[٣] الذي ذكر أن الهجرة قد تمَّت بشكل سريع حيث «لم تنقض سبعة أسابيع أو ثمانية حتى كان جميع المسلمين قد هاجروا من مكة باستثناء النبي نفسه

(١) محمد في مكة، ص٢٣٧.
(٢) المستشرقون والسيرة النبوية: د. عماد الدين خليل، ص٦٧ ـ ٦٨.
(٣) تقدمت ترجمته باسم جون أو جان غلوب.

وابن عمه علي بن أبي طالب وولده بالتبني زيد بن حارثة ورفيقه الأمين أبو بكر الصديق. وارتد عن الإسلام نفر خوفاً من أهلهم بينما حال هؤلاء دون هجرة نفر آخر، وجدير بنا أن نعترف هنا بأن محمداً أبدى جرأة منقطعة النظير ببقائه في مكة حيث لم يعد يحظى بحماية عمه أبو طالب كبير بني هاشم.

وأدركت قريش خطورة ما وقع من تطور وهالهم أن المسلمين أخذوا يقيمون الآن في يثرب مجتمعاً متلاحم الوشائج خارجاً على نفوذهم وبعيداً عن متناول أيديهم، وأنهم شرعوا يكسبون أنصاراً إلى جانبهم من أبناء القبائل الأخرى الذين قد يتحولون إلى معاداة قريش. واجتمع كبار القوم في دار الندوة يتشاورون في أمر محمد ورأى بعضهم أن محمداً هو سبب كل ما يواجهونه من متاعب، وان من الخير لهم لو تخلصوا منه في أسرع وقت ممكن قبل أن يتمكن من اللحاق بأصحابه في يثرب»[(١)].

وعن محاولة قريش قتل النبي ﷺ وما قرروه في سبيل ذلك عند اجتماعهم بدار الندوة يتحدث المستشرق الفرنسي نصر الدين (دينيه) قائلاً:

«أقرت الجماعة الغادرة هذا الرأي، واعتقد المشركون ـ منذ إقراره ـ أنهم قد تخلصوا من عدوهم، غير أن المشيئة الإلٰهية أخلفت ظنهم، فقد أرسل الله جبريل إلى رسوله يعرفه بمؤامرة دار الندوة، ويأمره بالهجرة ويطلب إليه أن لا يبيت على فراشه الذي كان يبيت عليه.

كان بمنزل الرسول أمانات وضعها عنده المشركون لثقتهم في طهارته، فأبت نفسه الهجرة قبل رد الأمانات إلى أهلها، لذلك أتى بعلي المخلص الوفي، وكلفه بردها، بعد أن أخبره بنبأ دار الندوة، وقال له: **«نَمْ على فراشي، وتسج ببردي هذا الحضرمي الأخضر، فنم فيه فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم»**»[(٢)].

كما أكد المستشرق الفرنسي سيديو في كتابه «تاريخ العرب» ضمن بحثه لمسألة الهجرة النبوية على أن دافعها كان السلامة من أذى قريش ومحاولتهم قتله ﷺ، ولهذا يقول:

---

(١) جان باغوت غلوب: الفتوحات العربية الكبرى، ص٨٠ ـ ٨١.

(٢) محمد رسول الله، ص١٦٩. وانظر: حياة محمد: درمنغم، ص١٣٩ ـ ١٤٠، ومحمد: كارين أرمسترونج، ص٢٣٠ وما بعدها.

«وعلمت قريش خبر ذلك الحلف (بيعة العقبة) فزادت قسوة فاستمر المسلمون على الهجرة فاقتحم محمد الخطر الذي كان يهدده، فقد حُكم بقتله، فحاصر أعداؤه بيته، فبحث عن سلامته بالفرار، فهاجر هو وأبو بكر، على حين كان علي مدثراً ببردة محمد الخضراء محولاً أبصار المهاجمين عنه بإخلاص سخي. . . ووصلا بعد ستة أيام إلى قرية قباء التي هي من أراضي يثرب فأقيم فيها المسجد الإسلامي الأول الذي لا يزال قائماً، واتخذت هجرة محمد مبدأ لتاريخ المسلمين، ووقتت، على العموم في ١٦ يوليه سنة ٦٢٢م»(١).

وتحدث المستشرق الأمريكي ماكس (١٧٩٥م) في كتابه: «عظماء الشرق» عن هجرة النبي ﷺ ودلائل النبوة والقوة التي ظهرت في تلك المرحلة التي مثلت منعطفاً تاريخيّاً عظيماً في سيرة رسول الله وتطوراً نوعيّاً في مسار الدعوة الإسلامية، فيقول:

«لقد نفذت روح الإسلام من محمد رسول الله إلى المسلمين، إلى الهداة والصالحين، وإن هذه الروح القوية حدت بالنبي إلى الهجرة من مكة إلى المدينة، بينما كان أعداؤه من المشركين يجدون في البحث عنه ليؤذوه بل ليذيقوه ريب المنون، ومن الغريب أن أعداء النبي لم يقنعوا أنفسهم بتركه مكة بل تعقبوه في هجرته، وهناك ضربوا على منزله سياجاً من الحيطة لأجل القبض عليه، ولكن روح الإسلام الدفينة في أعماق الهمة، ألهمته أن يتناول قبضة من تراب فتناولها وربي بها عليم فأخذتهم سنة من النوم تمكن خلالها النبي من النجاة منهم إلى الصحراء حيث اختفى في غار هناك، لا تقل إن اختفاءه في الغار يحول دون هلاكه وحتفه، ولكن الإسلام وما في ثناياه من روحانية وقوة، جعل الحَمام يبيض على باب الغار، ولما أفاق أعداؤه من غشيانهم تتبعوا أثره إلى الغار، وأخذتهم هواجس الظن، لعلمهم بأن النبي لا يمكن بأي حال أن يكون في الغار، فمن يرد أن يؤمن بوحدانية الله، فعليه أن يشاهد بسهولة يد الله المحركة للكائنات من غير أن تبصرها العين المجردة وخاصة عندما أحيطت حياة النبي من يد العدوان برعاية الطير الذي اندفع إلى حماية محمد بيد الإلٰه الخافية عن الأبصار»(٢).

---

(١) تاريخ العرب، ص٧٣.

(٢) عظماء من الشرق: ماكس، ص٩٣ نقلاً عن: الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، ص١٥٨ ـ ١٥٩.

كما تضمنت الهجرة النبوية دلائل إيمانية بخروج المسلمين من عهد الجاهلية وتشكيل بداية التاريخ الإسلامي، ولهذا يقول المستشرق الفرنسي مارسيل بوازار في كتابه «إنسانية الإسلام»:

«وائتمر المكيون لقتل النبي، وعلم بالأمر، وتمكن من النجاة بشبه معجزة بمساعدة شجاعة من ابن عمه علي، كما تقول كتب السيرة. وفي المدينة استقبل محمد بالتهليل في شهر تموز عام ٦٢٢م، وكانت «الهجرة» التي يحدد بها المسلمون مطلع سنتهم، والتي تعتبر بداية التاريخ الإسلامي. وتعني اللفظة حرفيّاً ترك البلاد إلى أخرى، والمنفى، والنجاة بالنفس. أما الدين فقد أضفى عليها معنى خاصاً هو الخلاص من الجهل، ورفض الشر، واطراح الكفر، وبكلمة تكون الهجرة فعل إيمان. ومن المفيد التذكير بأن الهجرة (ابتعاد طوعي وإن يكن محدداً بأسباب لا إرادية) يتجدد بلا انقطاع إذا حدث إذلال أو اضطهاد. وعلى المسلم أن (يهاجر إذا اقتضى الأمر ليجاهد في سبيل الله حتى يزول كل ظلم)»[١].

ومع وصول النبي ﷺ إلى المدينة عام ٦٢٣ أو ٦٢٢م ـ كما يؤرخ لذلك غالبية المستشرقين ـ بدأت مرحلة جديدة في تاريخ الحركة الإسلامية الفتية، هي مرحلة كانت ما بين عهدي الجاهلية والإسلام. وأخذت تتبلور فيها معالم الدولة الإسلامية الأولى، المبنية على قاعدة الإخاء الإسلامي ما بين الأنصار (الأوس والخزرج) والمهاجرين المكيين وأسس الدستور الإسلامي الجديد ـ كما يطلق عليه المستشرقون ـ الذي نظم العلاقات ما بين قوى المدينة، المسلمين والقبائل التي لا تدين بالإسلام واليهود، فكان التعايش بين مختلف الطوائف هو مدى هذا الدستور، والإخاء لحمته.

يقول المستشرق الروماني جيورجيو: «وقد حوى هذا الدستور اثنين وخمسين بنداً، كلها من رأي رسول الله. خمسة وعشرون منها خاصة بأمور المسلمين وسبعة وعشرون مرتبطة بالعلاقة بين المسلمين وأصحاب الأديان الأخرى، ولا سيما اليهود وعبدة الأوثان. وقد دون هذا الدستور بشكل يسمح لأصحاب الأديان الأخرى بالعيش مع المسلمين بحرية، ولهم أن يقيموا شعائرهم

---

(١) إنسانية الإسلام، ص٤٤ ـ ٤٥.

حسب رغبتهم، ومن غير أن يتضايق أحد الفرقاء. وضع هذا الدستور في السنة الأولى للهجرة؛ أي: عام ٦٢٣م. ولكن في حال مهاجمة المدينة من قبل عدو عليهم أن يتحدوا لمجابهته وطرده»[١].

وحقق المجتمع المدني في ظل التنظيم الجديد نقلة نوعية، وثورة اجتماعية، إذ غدت الأمة الإسلامية هي البديل العملي للعصبية القبلية، والإخاء والمساواة عوضاً عن طبيعة العلاقات الاجتماعية الجائرة... وأخذ بالسطوع نجم الرسول ﷺ الذي أصبح عمليّاً الحاكم السياسي للمدينة، فكان الداعية والنبي والحاكم والقائد العسكري، وأصبحت سيرة حياته ﷺ تاريخاً للحركة الإسلامية[٢].

---

(١) نظرة جديدة في سيرة رسول الله: كونستانس. جيورجيو، تعريب: محمد التونجي، ص٩١٢.
(٢) الرسول في الدراسات الاستشراقية المنصفة، ص١٦١.

المبحث الثاني

علاقته ﷺ باليهود

وصل النبي ﷺ إلى قباء في ضواحي يثرب (المدينة) في يوم الإثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول من السنة الأولى للهجرة (٦٢٢م)، واستقبله الأنصار استقبالاً كريماً[١]. وحسب ما جاء في بعض الروايات أن أول اتصال جرى بينه ﷺ وبين اليهود كان في قباء؛ أي: قبل أن يرتحل إلى يثرب التي عرفت فيما بعد باسم المدينة أو مدينة الرسول.

فقد نقل لنا ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر بن حزم شهادة صفية بنت حيي بن أخطب التي تزوجها الرسول ﷺ فيما بعد، عن أول اتصال بين اليهود والرسول ﷺ، حيث قالت: «فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة، نزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أبي، حيي بن أخطب، وعمي أبو ياسر بن أخطب مغلسين. قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس. قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينى. قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلي واحد منهما، مع ما بهما من الغم.

قالت: وسمعت عمي أبا ياسر، وهو يقول لأبي حيي بن أخطب: أهو هو؟

---

(١) انظر: السيرة النبوية: لابن هشام (٢/ ٩٢).

قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت»[(١)].

ومما يؤكد صحة رواية صفية عن عداوة أبيها لرسول الله ﷺ ما جاء عن عروة بن الزبير أن أول من أتى رسول الله ﷺ من يهود أبو ياسر بن أخطب فسمع منه، فلما رجع قال لقومه: «أطيعوني فإن هذا النبي الذي كنا ننتظر» فعصاه أخوه حيي وكان مطاعاً فيهم، فاستحوذ عليه الشيطان فأطاعوه على ما قال[(٢)].

وعلى كلٍّ مهما اختلفت الروايات في أول من قدم على رسول الله من يهود سواء أكان أبا ياسر بن أخطب أم أخاه حييّاً فإن مضمون المقابلة وما أسفرت عنه من نتيجة لا خلاف عليه وهو عدم اعترافهم في النهاية بنبوة رسول الله ﷺ وتكذيبهم ومعاداتهم له.

إن شهادة أم المؤمنين صفية لا تفصح لنا عما دار بين الرسول ﷺ وبين أبيها وعمها حتى إنهما عادا حزينين بائسين. ولكن ما داما قد أمضيا سحابة يومهما مع رسول الله فليس من المستبعد أنه دار بينهم جدل وحوار أدى إلى اقتناع هذين اليهودين بنبوة محمد ﷺ ومن ثم معاداته. وجاء في رواية أخرى لابن إسحاق ما يفسر لنا فيها سر هذه العداوة ويؤكد فيها أن حيي بن أخطب وأخاه أبا ياسر، كانا من أشد يهود حسداً للعرب، إذ خصهم الله تعالى برسوله ﷺ، وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا وجاء فيهما قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٠٩﴾ [البقرة: ١٠٩]. فقد جاء عن ابن عباس أن هذه الآية قد نزلت في حيي بن أخطب وأخيه أبو ياسر لأنهما من أشد اليهود حسداً للعرب إذ خصهم الله برسوله ﷺ[(٣)].

يتبيَّن من كل ما تقدم أن موقف حيي وأخيه من النبي لم يكن موقفاً صحيحاً من حيث بواعثه؛ أي: اعتقادهما أنه ليس نبيّاً مرسلاً من الله، فهما في قرارة

---

(١) المرجع السابق (٢/ ١١٩).
(٢) انظر: فتح الباري (٧/ ٢٧٥).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٢).

أنفسهما يعرفان أنه رسول الله ولكن حسدهما أن يكون عربيّاً هو الذي دفعهما إلى مجافاة العقل والمنطق والحيلولة بين قومهما وبين التصديق بنبوة محمد وأتباعه(١).

وعندما انتقل الرسول الكريم من قباء إلى المدينة كان أول من أسلم من يهودها من بني قينقاع حبرهم وأعلمهم الحصين بن سلام بن الحارث الذي سماه رسول الله بعد إسلامه عبد الله. وأسلم معه أهل بيته وعمته خالدة بنت الحارث.

وقد فضح عبد الله بن سلام رضي الله عنه حبر قينقاع قومه اليهود حين جادلهم وكشف عن أهوائهم المنحرفة أمام رسول الله ﷺ كما ذكر ابن إسحاق عنه أنه لما أسلم قال: «وكتمت إسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ فقلت له: يا رسول الله، إن يهود قوم بهت، وإني أحب أن تدخلني في بعض بيوتك، وتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني حتى يخبروك كيف أنا فيهم، قبل أن يعلموا بإسلامي، فإنهم إن علموا به بهتوني وعابوني. قال: فأدخلني رسول الله ﷺ في بعض بيوته، ودخلوا عليه، فكلموه وساءلوه، ثم قال لهم: أيُّ رجل الحصين بن سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحبرنا وعالمنا. قال: فلما فرغوا من قولهم خرجت عليهم، فقلت لهم: يا معشر يهود، اتقوا الله واقبلوا ما جاءكم به، فوالله إنكم لتعلمون إنه لرسول الله، تجدونه مكتوباً عندكم في التوراة باسمه وصفته، فإني أشهد أنه رسول الله ﷺ وأومن به وأصدقه وأعرفه، فقالوا: كذبت ثم واقعوا بي»(٢).

وقد جاء القرآن معاتباً اليهود وواصفاً إياهم بالظلم، ومشيداً بشهادة عبد الله بن سلام على صدق رسول الله ﷺ ونبوته في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٠﴾(٣) [الأحقاف: ١٠].

---

(١) النبي ﷺ ويهود المدينة: د. محمد بن فارس الجميل، ص٤٢ ـ ٤٤.

(٢) سيرة ابن هشام (١١٨/٢).

(٣) وقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عامر بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه، قال: «ما سمعت النبي ﷺ، يقول لأحد يمشي على الأرض إنه من أهل الجنة، إلا لعبد الله بن سلام» قال: وفيه نزلت هذه الآية ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ الآية [الأحقاف: ١٠] (٣٧/٥) حديث رقم (٣٨١٢). وذكر ابن كثير في تفسير هذه الآية: أن الشاهد هو عبد الله بن سلام، وذكر أسماء طائفة من السلف قالوا بذلك، انظر: تفسير ابن كثير (٢٧٨/٧).

ثم إن زعماء يهود مثل: حيي بن أخطب وكعب بن أسد، سيد قريظة وغيرهما لجوا في عنادهم ومكابرتهم، وقالوا لعبد الله بن سلام: «ما تكون النبوة في العرب، ولكن صاحبك ملك؛ أي: النبي»[١]. ثم إن الرسول ﷺ دعا جموع اليهود إلى الإسلام ورغبهم فيه، وحذرهم عذاب الله ونقمته، فما كان جوابهم إلا أن قالوا: «بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا فهم كانوا أعلم وخير منا»[٢]. ثم إن القرآن ازدرى آباءهم واتهمهم بقلة العقل ومجانبتهم لطريق الهداية بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [البقرة: ١٧٠].

ولكن هذا الجواب البارد من اليهود وإصرارهم على تقليد آبائهم، وإن كانوا على غير طريق الحق والهداية، لم يثنيا رسول الله ﷺ ولم يثبطا عزيمته عن الاستمرار في دعوتهم والإلحاح عليهم بالدخول في دين الحق في مواطن كثيرة أشارت إليها كتب السيرة[٣].

إن الهدف من كل ما تقدم، ليس عرض كل ما جاء في السيرة عن اليهود في المدينة ومواقفهم المشينة من الرسول ﷺ ودعوته، فإن الأمر يطول وقد دونت كتب السيرة النبوية كل ذلك بشكل واف ومفصل، ولكن الهدف من هذا إبراز محاولات الرسول ﷺ الحثيثة لدعوة اليهود إلى الإسلام، وكذلك إظهار النجاح المحدود الذي تمخضت عنه الجهود المخلصة للرسول الكريم.

وفي مجال العبادات، كان من الشعائر التي عمل بها الرسول ﷺ وحث أتباعه في المدينة على فعلها صيام عاشوراء، وقد جاء في بعض الروايات شرح السبب الذي من أجله صام اليهود عاشوراء وتبعهم المسلمون في صيامه، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء، فسئلوا عن ذلك، فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى، وبني إسرائيل على فرعون، ونحن نصومه تعظيماً له، فقال رسول الله ﷺ: «**نحن أولى بموسى منكم، ثم أمر بصومه**»[٤].

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٥٧).

(٢) المرجع السابق (٢/ ١٤٣).

(٣) انظر: المرجع السابق (٢/ ١٣٦ ـ ١٤٥).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار، باب إتيان اليهود النبي ﷺ حين =

ثم إن الرسول ﷺ عندما هاجر إلى المدينة كان يتوجه في صلاته قبل بيت المقدس، فقد جاء عند البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان أول ما قدم المدينة نزل على أجداده، أو قال أخواله من الأنصار، وأنه «صلَّى قبل بيت المقدس ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت، وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر، وصلَّى معه قوم» فخرج رجل ممن صلى معه، فمر على أهل مسجد وهم راكعون، فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قبل مكة، فداروا كما هم قبل البيت، وكانت اليهود قد أعجبهم إذ كان يصلي قبل بيت المقدس، وأهل الكتاب، فلما ولى وجهه قبل البيت، أنكروا ذلك[(١)].

فاليهود والمنافقون استنكروا صرف القبلة إلى الكعبة، وبدؤوا يشككون الناس في صحة نبوة سيدنا محمد ﷺ، فأنشأت اليهود تقول: قد اشتاق الرجل إلى بلده وبيت أبيه ومالهم حتى تركوا قبلتهم، يصلون مرة وجهاً، ومرة وجهاً آخر[(٢)].

ثم قالت اليهود: خالف قبلة الأنبياء قبله، ولو كان نبيّاً لكان يصلي إلى قبلة الأنبياء. وأما المنافقون فقالوا: ما يدري محمد أين يتوجه إن كانت الأولى حقاً فقد تركها، وإن كانت الثانية هي الحق، فقد كان على الباطل، وكثرت أقاويل السفهاء من الناس[(٣)] فرد عليهم القرآن الكريم بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾﴾ [البقرة: ١٤٢][(٤)].

وذكر ابن عباس أن رسول الله ﷺ حين كان في مكة كان يصلِّي إلى بيت المقدس لكنه لا يستدبر الكعبة، بل يجعلها بينه وبين بيت المقدس[(٥)].

ثم إن بعض علماء اليهود وزعمائهم مثل: رفاعة بن قيس وقردم بن عمرو

= قدم المدينة، حديث رقم (٣٩٤٣) (٥/ ٧٠).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان، حديث رقم (٤٠) (١/ ١٧).

(٢) المغازي: موسى بن عقبة: جمع ودراسة وتحقيق: محمد باقشيش، ص١١٦.

(٣) المرجع السابق (٣/ ٥٧).

(٤) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/ ٦٠)، وسيرة ابن هشام (٢/ ١٤٢).

(٥) فتح الباري (١/ ٩٦).

وكعب بن الأشرف وغيرهم استبد بهم الغضب من تحول الرسول ﷺ نحو الكعبة، وحاولوا فتنته عن دينه، فقالوا له: يا محمد، ما ولاك عن قبلتك التي كنت عليها، وأنت تزعم أنك على ملة إبراهيم ودينه! ارجع إلى قبلتك التي كنت عليها نتبعك ونصدقك[1].

وهكذا استمر الجدل بين النبي ﷺ واليهود في أمور العقيدة والعبادات وما كان لهذا الجدل أن يصل إلى نتيجة نهائية إلا بعد أن أصبحت الكلمة العليا للمسلمين؛ أي: بعد معركة بدر.

موقف المستشرقين:

إن مما يبعث على الدهشة أن بعض المستشرقين قد فهم أن سياسة اللين التي اتبعها النبي ﷺ مع اليهود في بداية العهد المدني، وكذلك بعض الشرائع اليهودية التي لم يكن الإسلام قد نسخها بعد، مثل التوجه في الصلاة نحو بيت المقدس، إنما هي تقليد لليهود في شعائرهم، وأحياناً كان تنازلاً منه عن بعض شعائر دينه، رجاء جلب اليهود إليه والإيمان به واتباعه.

فقد ذكر بروكلمان أن الرسول عند وصوله إلى المدينة حاول أن يكسب اليهود، وأن يدخلهم في دينه، وذلك عن طريق تكييف شعائر الإسلام بحيث تتفق وشعائرهم في بعض المناحي[2].

أما مونتغمري وات فيرى أنه لما أصبح بإمكان محمد الانتقال إلى المدينة، أراد أن يصوغ الإسلام على شاكلة اليهودية فكان التوجه نحو القدس في الصلاة، وصيام عاشوراء، وهو عيد الكفارة اليهودي، بل يزعم وات أن صلاة الظهر إنما فرضت مجاراة لليهود حيث لم يكن للمسلمين في مكة سوى صلاة الصبح والمغرب، ويتجاوز وات كل الحدود حين يزعم أنه قيل إن النبي ﷺ كان قد بنى مسجده في المدينة على شكل كنيس اليهود[3].

ثم يقول وات: «وبالرغم من هذه الملاحظات فإنه من البديهي أن محمد قبيل الهجرة وبعدها، كان يميل لصياغة ديانته على شكل الديانة اليهودية،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٢).

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية، ص٤٦ ـ ٤٧.

(٣) محمد في المدينة، ص٣٠٢ ـ ٣٠٤.

وتشجيع أتباعه في المدينة على الاحتفاظ بالطقوس اليهودية التي تبنوها. ولا شك أن نفس الفكرة في استمالة اليهود هي التي أوحت بآيات القرآن التي تحل للمسلمين طعام الذين أوتوا الكتاب ومحصناتهم»[١].

إن آراء هؤلاء المستشرقين ـ بالغة العجب ـ أتت من كونهم ينظرون إلى النبي محمد ﷺ نظرة إنسان عادي تأتي تصرفاته وفقاً لرغباته الشخصية وليدة الساعة، فهم لا يؤمنون به رسولاً يتلقى وحيه من السماء. وعلى أساس هذا التصور لم يكونوا يدركون ـ أو لم يريدوا أن يدركوا ـ أن محمداً رسول من الله يدعو إلى دين إلٰهي جديد يجمع الناس جميعاً تحت رايته، بما فيهم النصارى واليهود، وأن تشابه بعض الأمور في الأديان الثلاثة إنما هو ناتج من كونها تنبعث في الأصل من مصدر واحد. والإسلام وحده هو الذي اعترف برسالات السماء السابقة[٢].

وإذا ما تركنا شبهات بعض المستشرقين جانباً فإن العلاقة بين النبي ﷺ ويهود المدينة قبل أحداث بدر ربما لم تكن على قدر كبير من الوضوح، فقد ذكر ابن إسحاق أن الرسول ﷺ عندما قدم المدينة كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه اليهود وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم[٣].

وذكر الإمام ابن القيم أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة صار الكفار معه ثلاثة أقسام:

١ ـ قسم: صالحهم ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه وهم على كفرهم آمنون، على دمائهم وأموالهم (وهم اليهود).

٢ ـ وقسم: حاربوه ونصبوا له العداء (كمشركي قريش).

٣ ـ وقسم: تاركوه فلم يصالحوه، ولم يحاربوه بل انتظروا ما يؤول إليه أمره وأمر أعدائه (وهم بقية العرب والعجم)، ثم من هؤلاء من كان يحب ظهوره، وانتصاره في الباطن، ومنهم: من كان يحب ظهور عدوه عليه

---

(١) المرجع السابق، ص٣٠٥.

(٢) انظر: العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين: صالح موسى درادكة، ص٢٨١.

(٣) سيرة ابن هشام (١٠٦/٢).

وانتصارهم، ومنهم: من دخل معه في الظاهر، وهو مع عدوه في الباطن، ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون، فعامل النبي ﷺ كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى.

فصالح يهود المدينة، وكتب بينهم وبينه كتاب أمن، وكانوا ثلاث طوائف حول المدينة، وهم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة[١].

وقبل أن نبيِّن موقف النبي ﷺ من هذه الطوائف اليهودية الثلاث نجد من المناسب أن نتحدث قبل ذلك عن قضية فردية لواحد من زعماء اليهود وهو كعب بن الأشرف اليهودي، الذي شغلت مسألته عدداً من المستشرقين، حيث أمر النبي ﷺ بالقضاء عليه، فما سبب ذلك؟ وما هي دعاوى المستشرقين حوله؟.

كعب بن الأشرف الطائي اليهودي:

وهو ثالث الشخصيات اليهودية وأخطرها، وأحد الزعامات اليهودية البارزة في المدينة عند قدوم النبي ﷺ إليها. وكعب من بني نبهان من طيئ حليف بني النضير وأمه عقيلة بنت أبي الحقيق، حيث أن والده أصاب دماً في قومه فأتى المدينة في الجاهلية وحالف بني النضير[٢].

وذكر البخاري، في حديث طويل أن سبب مقتل كعب بن الأشرف أنه آذى الله ورسوله، فقال ﷺ: «**من لكعب بن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله**»، فقام محمد بن مسلمة، فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: «**نعم**»[٣].

وذكر موسى بن عقبة عن ابن شهاب أن كعب بن الأشرف اليهودي وهو أحد بني النضير وقيمهم، قد آذى رسول الله ﷺ بالهجاء، فقال له أبو سفيان: أناشدك الله أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه؟ وأينا أهدى في رأيك وأقرب إلى الحق. . . فقال ابن الأشرف: أنتم أهدى منهم سبيلاً[٤].

ثم إن كعباً عاد إلى المدينة بعد أن أجمع رأي المشركين على قتال

---

(١) انظر: زاد المعاد (٣/ ١١٤)، فتح الباري (٧/ ٣٣٠).
(٢) أنساب الأشراف (١/ ٢٨٤)، فتح الباري (٧/ ٣٣٧).
(٣) انظر الخبر بتمامه عند: البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب مقتل كعب بن الأشرف، حديث رقم (٤٠٣٧) (٥/ ٩٠).
(٤) المغازي، ص١٨٠.

رسول الله ﷺ معلناً عداوته وهجاءه له، فقال رسول الله ﷺ: «**من لنا بكعب بن الأشرف، قد استعلن بعداوتنا وهجاءنا وخرج إلى قريش فأجمعهم على قتالنا قد أخبرني الله ﷻ بذلك ثم قدم على أخبث ما كان، ينتظر قريشاً أن تقدم فيقاتلنا معهم**»، ثم قرأ رسول الله ﷺ على المسلمين ما أنزل الله فيه:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾[١] [النساء: ٥١].

وذكر أن رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ اكفني ابن الأشرف بما شئت**»، فقال له محمد بن مسلمة: أنا يا رسول الله أقتله. فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**»[٢].

فقد تبيَّن لنا مما تقدم الأسباب والدواعي التي جعلت النبي ﷺ والمسلمين معه يسعون إلى القضاء على كعب بن الأشرف اليهودي، وهي أسباب واضحة بينة تدعو كل منصف أن يتبين صحة هذا العمل بالنظر إلى أسبابه ومقتضياته.

أما جمهور المستشرقين فقد كان لهم نظرة أخرى لا تعبأ بهذه الأسباب والدواعي لقتل كعب بن الأشرف، وكأنها تنتظر مثل هذه الحوادث لتصطاد في الماء العكر، ولتصدر نتائجها المسبقة دون النظر إلى الأسباب والمقدمات.

فقد قال موير عن مقتل كعب بن الأشرف: «يجب على المرء أن لا يتغاضى عن تلك الأعمال الوحشية الجبانة التي سودت صفحات حياة النبي محمد، لقد أدرك محمد أن التعبير الحر عن مشاعر العداء من قبل أشخاص ذوي نفوذ مثل كعب بن الأشرف، يمكن أن يقوض سلطته في المدينة»[٣]. ثم يضيف موير قائلاً: «إنه يعطي أدق التفاصيل لمقتل كعب؛ لأنها توضح بإخلاص التعصب الذي لا يرحم، إذ إن تعاليم النبي انحرفت بسرعة عن مسارها»[٤].

ومن العجيب في أمر موير إدراكه خطورة إثارة الجماهير ضد النبي ﷺ ودعوته، وفي الوقت نفسه ينكر على النبي ﷺ إسكات أصوات النشاز، مثل كعب بن الأشرف وغيره من الشعراء الذين وقفوا ضد الإسلام ونبيِّه!.

---

(١) المرجع السابق، ص١٨١.

(٢) المرجع السابق، ص١٨١.

(٣) the life of Muhammad., p. 246.

(٤) ibid.,p.248.

أما «مرجليوث» فيرى أن قصة مصرع كعب لا بد أن تكون حدثت بطريقة مخالفة لما هو شائع في كتب السيرة التي تذكر لنا أن الرسول يطلب علناً ممن حوله من أصحابه أن يقتلوا كعب بن الأشرف. وكذلك لا يمكن تصديق أن شراء الطعام مقابل ضمان يحتاج أن يكون سرّاً[١]. لذلك فإن مرجليوث، يفترض أن قصة الهجوم الليلي على كعب قصة مختلقة، ولا بد من الافتراض أن كعباً خرج ليلاً لمقابلة أصحابه بذريعة الهجوم على النبي، وهي مغامرة جعلتها خيانة رفاقه تأخذ اتجاها مغايراً وغير متوقع[٢].

ومهما يكن نصيب فرضيات مرجليوث من الصحة فإن المقدم عليها ما جاء في صحيح البخاري من حديث جابر بن عبد الله، وهي الرواية التي يؤكد فيها أن محمد بن مسلمة ورفاقه ذهبوا إلى كعب بن الأشرف بذريعة شراء الطعام منه ورهنه السلاح وما نتج عن ذلك من قتل لكعب؛ لأنه «قد آذى الله ورسوله»[٣] وحتى لو كان الأمر حسب ما افترض مرجليوث فإن تلك الفرضيات ليست ذات أهمية بالنسبة إلى مقتل كعب، فالسبب في مقتله واضح، أما الذريعة التي توسل بها من تطوعوا لقتله فليست بذات أهمية.

وكذلك فإن المستشرق تور أندريه تطرق بإيجاز إلى سبب مقتل كعب بن الأشرف، ورأى أن كعباً الذي تجرأ على الذهاب إلى مكة بعد معركة بدر بغرض تحريض قريش على الثأر من محمد عن طريق قصائده الساخرة سقط هو الآخر ضحية لانتقام النبي[٤].

ويظهر أن تور أندريه وغيره من المستشرقين أمثال موير ومرجليوث وغيرهم قد غاب عن بالهم أن كعب بن الأشرف أحد يهود بني النضير البارزين، ولا بد أنه كان طرفاً في المعاهدة أو المعاهدات التي عقدها الرسول ﷺ مع قومه إبان مقدمه المدينة، وأنه يعدّ أحد مواطني الدولة التي نشأت حديثاً في المدينة برئاسة محمد ﷺ، وأن أي خروج عليها أو تحريض على النيل منها يعد خيانة يجب العقاب عليها وخرقاً للاتفاقيات الموقعة بين الجانبين.

---

(١) Muhammad., pp. 278-88.

(٢) ibid.,p.248.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) النبي ﷺ ويهود المدينة عن: Muhammad the man and his faith, p. 207-208.

إضافة إلى ذلك فلو سكت النبي ﷺ على تصرفات كعب غير اللائقة التي عبر عنها في قصائده، ونال فيها من شخص الرسول الكريم، وخدش سمعة بعض نساء المسلمين في المدينة، إضافة إلى تحالفه مع قريش، أقول لو سكت الرسول ﷺ على ذلك كله لتجرأ الكثير من اليهود والمنافقين على الرسول وجماعة المسلمين مما يؤدي بالضرورة إلى اهتزاز هيبة الدولة الناشئة، مما يهوِّن على الأعداء التحرش بها. لذلك فلم يكن هناك بد من إسكات ذلك الصوت النشاز، الذي نشأ عن إسكاته خوف اليهود، فأصبح كل يهودي بالمدينة يخاف على نفسه(١)(٢).

والغريب في أمر تور أندريه أنه يدرك مدى خطورة الهجاء بالنسبة إلى العرب، فهو يقول: يجب ألا ننسى أن شعر الهجاء السياسي يعد في بلاد العرب في ذلك الوقت بصورة خاصة سلاحاً مميتاً(٣).

ثم يضيف قائلاً: بالنسبة إلى رجل مثل محمد الذي يعتمد نجاحه على قدر كبير من الاحترام الذي يستطيع تحقيقه، فإن الهجاء قد يكون أكثر خطورة عليه من الهزيمة في معركة(٤). فما دام الهجاء يمثل هذا القدر من الخطورة؛ لأنه سلاح مميت وأشد خطورة من الهزيمة في ميدان المعركة، فما الذي ينتظره أندريه وغيره من المستشرقين من رجل في مثل مكانة النبي ﷺ أن يفعله تجاه كعب بن الأشرف ومن على شاكلته من الشعراء الذين وظفوا شعرهم للنيل من النبي الكريم والمجتمع المسلم؟ أليس في قتلهم قطع لدابر الفتنة وسد لمنافذ الشر؟(٥).

أما عن علاقته ﷺ بطوائف اليهود الثلاث: بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، فالحديث سيتناولها على النحو التالي:

أولاً: بني قينقاع:

يظهر من روايات السيرة أن قبيلة بني قينقاع كانت أول القبائل اليهودية التي أسلم بعض أفرادها إما عن إيمان ويقين، مثل حبرهم عبد الله بن سلام، أو تعوذاً

---

(١) سيرة ابن هشام (٣/ ٦٠).

(٢) النبي ﷺ ويهود المدينة، ص١٢٢ ـ ١٢٤.

(٣) Muhammad, p. 208.

(٤) ibid.,p. 208.

(٥) النبي ﷺ ويهود المدينة، ص١٢٥.

بالإسلام وهم يضمرون النفاق. وقد ذكر ابن إسحاق ثمانية من كبار أحبارهم الذين اشتهروا بالنفاق[١].

إن المتتبع للعلاقة بين الرسول ﷺ وبني قينقاع في المرحلة الأولى يظن أن الأمر ربما ينتهي بإسلام معظم بني قينقاع لا سيما أن سيدهم وكبير أحبارهم عبد الله بن سلام قد أعلن إسلامه في الأيام الأولى لمقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة، ولكن الغريب في الأمر أن العلاقة بين الطرفين لم تتطور أو تصل إلى هذا المستوى المرجو! بل سارت على النقيض من ذلك.

لهذا السبب فإن الباحث يسأل ما الذي قاد إلى سوء العلاقة بين الرسول ﷺ ويهود بني قينقاع حتى آل الأمر إلى طردهم من المدينة؟.

إن أولى الروايات التي تتعلق بما حدث بين الرسول ﷺ وبني قينقاع ما ذكره ابن إسحاق من أنه فيما بين بدر وأُحد جمع رسول الله ﷺ بني قينقاع في سوقهم، ثم قال:

«يا معشر يهود احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم»، قالوا: يا محمد إنك ترى، أنا قومك! لا يغرنك إن لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس[٢]. ولم يذكر ابن إسحاق السبب الذي جعل النبي ﷺ يدعو يهود بني قينقاع إلى الإسلام دون غيرهم من القبائل اليهودية الأخرى.

ثم ذكر ابن إسحاق آيتين من سورة آل عمران وقال: إنهما نزلتا في بني قينقاع، وهما قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ﴾ [آل عمران: ١٢]. وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ﴾ [آل عمران: ١٣][٣].

ثم يردف ابن إسحاق قائلاً: إن عاصم بن عمر بن قتادة حدثه أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه. ويشير ابن إسحاق بعد ذلك إلى تدخل عبد الله بن أبي بن سلول لصالح بني قينقاع،

---

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ١٢٥).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٢ ـ ١٤٤) ط. السقا، والعزو في هذا المبحث لسيرة ابن هشام سيكون من خلالها.

(٣) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

حيث منّ عليهم الرسول ﷺ وقال لابن أبي: «**هم لك**» وكانت محاصرته إياهم خمس عشرة ليلة[(١)].

ومن الملاحظ أنه في أثناء عرض ابن هشام لرواية ابن إسحاق المتعلقة ببني قينقاع يضيف في السياق رواية لعبد الله بن جعفر بن المسور بن مخرمة عن أبي عون لم ترد عند ابن إسحاق ومضمونها أن امرأة من العرب ذهبت إلى سوق بني قينقاع وجلست إلى صائغ هناك فجعل اليهود يريدونها على كشف وجهها وهي تأبى ثم عمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوءتها فضحكوا بها، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله وكان يهوديّاً، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه فغضب المسلمون، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[(٢)].

وقد ذكر الواقدي في رواية نقلها عن الزهري عن عروة بن الزبير قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨].

سار إليهم رسول الله ﷺ بهذه الآية، فحاصرهم في حصنهم خمس عشرة ليلة أشد الحصار حتى قذف الله في قلوبهم الرعب. قالوا: أفننزل وننطلق؟ فقال رسول الله ﷺ: «**لا، إلا على حكمي!**». فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بهم فربطوا. قال: فكانوا يكتفون كتافاً... ثم توسط في شأنهم عبد الله بن أبي بن سلول فأطلقوا وكانوا أربع مئة دارع وثلاث مئة حاسر. وقال رسول الله ﷺ: «**لعنهم الله ولعنه معهم وأمر بهم أن يجلوا من المدينة**»[(٣)].

وجاء في رواية أخرى عند الواقدي؛ أن رسول الله ﷺ لما رجع من بدر حسده بنو قينقاع فأظهروا الغش، فنزل عليه جبرائيل عليه السلام بهذه الآية: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨]. قال: فلما فرغ جبريل، قال له رسول الله ﷺ: فأنا أخافهم[(٤)].

فهذه الرواية ـ كما هي سابقتها ـ تدل على أن النبي ﷺ خشي غدر بني

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٢٤٣)، فتح الباري (٧/ ٣٣٠).

(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٨).

(٣) المغازي (١/ ١٧٧).

(٤) المرجع السابق (١/ ١٨٠).

قينقاع، وقد ظهر منهم ما يدل لذلك، ولهذا ألغى النبي ﷺ هذا العهد معهم، وأشعرهم بذلك بناء على أمر الله له ووفاء بالعهد في قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨].

فهذه عدة أسباب تضمنتها روايات السيرة تبين سبب قيام الحرب ضد بني قينقاع، وكل واحد من هذه الأسباب سواء كان الاعتداء على المرأة المسلمة وقتل الرجل الذي انتصر لها، أو حسدهم للمؤمنين بعد انتصار بدر، أو محاولتهم للغش والخداع ونقض العهد كلها أمور تتعارض مع العهد الذي أبرموه مع النبي ﷺ.

يقول الدكتور البوطي: «لقد رأينا أن مصدر الحادثة هو إرادة اليهود المرأة العربية المسلمة على كشف وجهها، وذلك حينما دخلت في سوقهم لأمر يخصها. ولا تنافي بين هذا السبب الذي رواه ابن هشام والسبب الآخر الذي رواه بقية رواة السيرة، من حقدهم على المسلمين عقب انتصارهم في غزوة بدر وقولهم لرسول الله ﷺ: «**إنا والله لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس**»، فالأغلب أن السببين واقعان معاً وكل منهما يتمم الآخر، إذ من البعيد أن ينبذ إليهم رسول الله ﷺ عهدهم لمجرد ظهور بوادر الضغينة على وجوههم وفي كلماتهم، بل لا بد أنهم قد تصرفوا مع ذلك تصرفاً أساؤوا فيه إلى المسلمين على نحو ما رواه ابن هشام»(١).

موقف المستشرقين:

أما المستشرقون فلهم نظرتهم الخاصة بالنسبة إلى العلاقة بين النبي ﷺ وبني قينقاع، فإدوارد جيبون مثلاً يرى: أن النبي ﷺ استغل بعض الاضطراب العارض في المدينة ليجتمع ببني قينقاع، ويخيرهم بين دينه (الإسلام) أو الحرب. وأن موقف بني قينقاع كان ضعيفاً جداً، وذلك أنهم أجابوا محمد بهلع وهم يرتجفون قائلين: نحن لا نحسن استخدام السلاح، ولكننا نتمسك بدين آبائنا، وهكذا حسم الصراع غير المتكافئ بعد خمسة عشر يوماً لمصلحة محمد، الذي أبقى بعد إلحاح شديد على حياة الأسرى(٢).

---

(١) فقه السيرة، ص١٧٦.

(٢) النبي ﷺ ويهود المدينة، ص١٤٢، عن:

=

فالمسألة في نظر جيبون هي خيار صعب بين تغيير المعتقد أو الحرب، وأما ما عدا ذلك من الأسباب فلا قيمة له. وينسى جيبون أنه «لا إكراه في الدين» وأن الإسلام يعترف بحرية العقيدة، ويحترم عقائد أهل الكتاب، بل إن ما عرف بصحيفة أو معاهدة المدينة كفلت لليهود حريتهم الدينية، ويظهر جليّاً أن جيبون لم يحاول التعرف إلا إلى الأسباب التي دفعت بالأمور إلى تلك النهاية المرة بين الطرفين.

وكذلك فإن موير يقول: إن مقاصد محمد أصبحت بالنسبة إلى يهود بني قينقاع واضحة، إن المسألة ليست مجرد حادثة تافهة ـ على حد قوله ـ كإهانة المرأة؛ لأن الدم قد أهريق بين الطرفين، ولو لم يكن هناك عداوة لا تلين وتصميم مسبق لاقتلاع اليهود، لكان بالإمكان تسوية الخلاف بسهولة. زيادة على ذلك كما يقول موير: إن المعاهدة تلزم محمد بالتعامل مع قبيلة بني قينقاع بعدل وصورة ودية، بحيث إن المذنب وحده هو الذي يجب أن يعاقب. وبالطبع ـ كما يقول موير ـ فإن نزاعاً غير ذي أهمية كهذا، لدرجة أن بعض مؤلفي السيرة لم يشيروا إليه على الإطلاق ـ أي: حادث سوق قينقاع ـ كان مسوغاً كافياً للوحي الإلٰهي أن يهاجم اليهود ويكشف خيانتهم(١).

يلاحظ هنا أن موير يجعل من حادث سوق بني قينقاع صلب المشكلة التي نشأت بين النبي ﷺ وبني قينقاع، كما أن الوحي ـ والذي يشير إلى أنه إلٰهي ـ أصبح في نظره يتصيد الفرص لإلصاق التُّهم ببني قينقاع ووصمهم بالخيانة.

أما المستشرق «فنسنك» فقد أشار إلى الآية الكريمة: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنفال: ٥٨]. في معرض حديثه عن غزوة بني قينقاع وعلق عليها قائلاً: إنه من الممكن أن محمداً كان يتمنى أن يوحى إليه مثل هذه الكلمات قبل أن يقوم بالعمل، وعلى أي حال إن أفعال محمد هذه تؤكد رأينا بأنه لم يكن هناك غش أو مخاتلة من جانب اليهود(٢)، لذلك فإن أول الضحايا نتيجة لتغير تصرف محمد بعد معركة بدر كانوا

= The Saracens: their history and rise and fall of their. Edward Gibbon and simon ockley (London: 1984) p. 35.

(١) the Life of muhammad, p.242.

(٢) Muhammad and the jews. Wensinck, p. 108.

بنو قينقاع[١]. ولم يبين فنسنك الدليل على أن يهود بني قينقاع لم يظهروا غشاً ومخاتلة، ولم يبين كذلك ممن كان النبي ﷺ يتمنى أن يوحى إليه بالآية السابقة.

وكذلك فإن المستشرق جرونباوم حين تطرق إلى قضية بني قينقاع ذكر أن محمداً ﷺ استغل هذه الموجة من الحماسة والاحترام والهيبة المتزايدة لمصلحته، مستخدماً بعض الحوادث التافهة ذريعة لطرد أول قبيلة من القبائل اليهودية من غزوة بدر. فبعد حصار قصير أجبرت قبيلة بني قينقاع على مغادرة المدينة تاركين وراءهم أسلحتهم وممتلكاتهم غير المنقولة، التي استولى عليها المهاجرون[٢]. وواضح هنا أن جرونباوم مثله مثل فنسنك، لم يذكر الأسباب التي دعت النبي ﷺ إلى حصار بني قينقاع ومن ثم طردهم عن المدينة، فهو يوحي للقارئ أن موقف النبي ﷺ من اليهود قائم على الكراهية لهم والرغبة في الاستفادة من ثرواتهم، لذلك فقد أصبح ما خلفوه من ثروة من نصيب المهاجرين. وهو موقف بلا شك واضح في التحامل وعدم موضوعية.

ولا يبعد عن هذا الموقف الذي اتخذه جرونباوم من موقف تور أندريه، فقد زعم أن النبي ﷺ استخدم نفوذه المتصاعد في المدينة ليثأر من أعدائه اليهود. فقد حدث أن يهوديّاً من بني قينقاع مزح ـ كما يزعم أندريه ـ مع إحدى السيدات المتزوجات من المسلمين في سوق بني قينقاع وسرعان ما حاصر محمد القبيلة في منازلها. وبعد حصار قصير اضطرت القبيلة إلى الاستسلام فاستفاد محمد من ثروتهم التي أجبروا على تركها لعلاج مشكلة الفقر لدى المهاجرين[٣].

إن تفسير أندريه لموقف النبي ﷺ من يهود بني قينقاع يكاد يماثل تماماً تفسير جرنباوم فهو مبني على التعصب لليهود، واتهام الرسول ﷺ في موقفه منهم. فالسبب فيما جرى لبني قينقاع يقوم على حادثة السوق فقط، والهدف من وراء إجلائهم ومصادرة أموالهم هو حل مشكلة الفقر لدى المهاجرين! ومن الطريف في حادثة بني قينقاع أن ابن إسحاق هو من أوائل من نقلوا أخبارهم،

---

(١) Ibid., p. 110.

(٢) النبي ﷺ ويهود المدينة، ص١٤٤، عن:

G.E von Grunebaum classical islam, A History 600-1258, trans by Katherinw Watson.(Chicago: 1970) pp. 36-37.

(٣) Muhammad, p. 207.

ولم يذكر قط إجلائهم أو مصادرة أموالهم، بل لم يشر حتى إلى مصادرة سلاحهم[١].

أما المستشرق «إسرائيل ولفنسون»[٢] فله جملة آراء حول أسباب غزوة بني قينقاع لعل من أهمها، رغبة النبي ﷺ في تطهير المدينة وأحياء الأنصار من المشركين ومن جميع من يخالفون دينه. وأن يهود بني قينقاع كانوا أغنى طوائف اليهود في يثرب، لهم الأموال الطائلة والحلي الكثيرة من الذهب والفضة، وكان العرب يطمعون في ذلك[٣].

إن آراء ولفنسون لا تحتاج إلى تعليق لأنها قائمة على التعصب لبني جنسه لا غير. لذلك فهو يفسر بواعث غزوة بني قينقاع بالكراهية لليهود، والرغبة في تطهير البلاد منهم والحاجة إلى مصادرة ثرواتهم. فالمحرك الأساس لكل ما حدث مرجعه ـ في نظر ولفنسون ـ إلى أسباب دنيوية ومادية خالصة.

وغاب عن باله أن عيش بني قينقاع داخل الأحياء المسلمة في المدينة، ربما جعل منهم عيناً لأعداء المسلمين، ولا يستبعد كذلك أنهم كانوا عنصر شغب في المدينة؛ ولأنهم أكثر اليهود احتكاكاً بالمسلمين بسبب المخالطة في السكن؛ فلا غرابة أن أصبح أكثر المنافقين من اليهود هم من بني قينقاع[٤]. ومن يتعوذ بالإسلام ويبطن الكفر فلا يستبعد أن يجلب الشر والأذى لمن يعيش بينهم[٥].

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (٢/٤٨).

(٢) إسرائيل ولفنسون (١٨٩٩ ـ ١٩٨٠م): باحث ومؤرخ يهودي، اشتهر بمؤلفاته عن تاريخ اليهود في بلاد العرب. درس بفلسطين اللغة العربية والعلوم الإسلامية واليهودية، ثم سافر إلى مصر والتحق هناك بالجامعة المصرية، وصار أول طالب يهودي يحصل على شهادة الدكتوراه من الجامعة المصرية بإشراف أستاذه الدكتور طه حسين. عين فترة أستاذاً للغات السامية بكلية دار العلوم العليا بمصر، وكتب في عدد من الصحف والدوريات المصرية. من مؤلفاته العربية: تاريخ اليهود في بلاد العرب، تاريخ اللغات السامية: موسى بن ميمون. انظر: مقالة: (إسرائيل ولفنسون: اليهودي التائه والمستشرق الأريب، رامي الجمل، مجلة التفاهم التابعة لوزارة الشؤون الإسلامية بسلطنة عُمان ـ على الشبكة العنكبوتية ـ)، معجم أسماء المستشرقين، ص١١١٥.

(٣) تاريخ اليهود في بلاد العرب: إسرائيل ولفنسون، ص١٢٨.

(٤) انظر: ابن هشام: السيرة النبوية (٢/ ١٧٤ ـ ١٧٥).

(٥) النبي ﷺ ويهود المدينة، ص١٥٢.

ثانياً: بني النضير:

ذكرت عدد من المصادر أنه لما قدم النبي ﷺ المدينة صالحه بنو النضير على أن لا يقاتلوه ولا يقاتلوا معه. وقبل رسول الله ﷺ ذلك منهم[١]. وعلى الرغم من وجود هذا النوع من التفاهم على التعايش بين الطرفين، فإن بعض علماء بني النضير وزعمائهم كانوا يضمرون العداء لرسول الله ﷺ ولجماعة المسلمين مثل: حيي بن أخطب وأخويه أبي ياسر بن أخطب، وجدي بن أخطب، وسلام بن مشكم، وكنانة بن الربيع، وغيرهم[٢]. وربما أسهمت بعض الأسئلة ذات الصفة الغيبية التي كان يثيرها بعض علماء يهود بني النضير في تأجيج الخلاف بين النبي واليهود. وكما قال ابن إسحاق: إنهم يسألون النبي ويتعنتونه، ويأتونه باللبس، ليلبسوا الحق بالباطل[٣].

وذكر ابن إسحاق أن حيي بن أخطب وأخاه ياسر بن أخطب كانا من أشد اليهود حسداً للعرب، إذ خصهم الله تعالى برسوله ﷺ وكانا جاهدين في رد الناس عن الإسلام بما استطاعا[٤].

ولا شك أن يهود بني النضير مثل بقية اليهود لم يكونوا سعداء بما أسفرت عنه معركة بدر من نتائج، فقد أعز الله المسلمين وكسر شوكة المشركين؛ لذلك ما إن مضى شهران تقريباً على وقعة بدر، حتى بدأت تظهر دسائس يهود بني النضير وتأليبهم على المسلمين.

ولعل أول مؤامراتهم المكشوفة ضد المسلمين في المدينة هو ما حدث في غزوة السويق فقد جاء أبو سفيان على رأس قوة من فرسان قريش حتى نزل بالقرب من المدينة، ثم توجه إلى بني النضير فاستقبله سيدهم وصاحب كنزهم حينذاك سلام بن مشكم، فقراه وسقاه وكشف له عن خبر المسلمين. فبعث أبو سفيان رجالاً من فرسانه فعاثوا فساداً في بعض نخيل المدينة وقتلوا رجلاً من

---

(١) أسباب النزول: للواحدي، ص٣١٠، وتفسير الرازي (٢٩/٢٧٩)، والجامع لأحكام القرآن (١٨/٤).

(٢) وقد ذكر ابن إسحاق أسماء اثنى عشر رجلاً من يهود بني النضير كانوا يناصبون الرسول ﷺ العداء. انظر: سيرة ابن هشام (٢/١١).

(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/١٣٩) وما بعدها.

(٤) سيرة ابن هشام (٢/١٤١).

الأنصار وحليفاً له. فما إن علم بهم رسول الله ﷺ حتى سار في طلبهم فبلغ قرقرة الكدر[١] ولكن القوم فاتوه بعد أن تخففوا مما كانوا يحملون من أزواد السويق. فسميت غزوة السويق[٢].

ثم إن كعب بن الأشرف ـ الذي سبق الحديث عنه ـ وهو أحد سادة بني النضير، قد شرق بريقه وأغاظه نصر الله للمسلمين في بدر، فذهب إلى مكة مغاضباً ومحرضاً قريش على رسول الله ﷺ والمسلمين، فأمر رسول الله باغتياله عند عودته من مكة إلى المدينة[٣].

وكان مقتله في ربيع الأول من السنة الثالثة للهجرة[٤]. وقد أثار مقتل كعب موجة استياء وذعر لدى اليهود، فجاؤوا صباح اليوم التالي يشكون الأمر لرسول الله ﷺ، وقالوا: طرق صباحنا فقتل فذكر لهم النبي ﷺ الذي كان يقول، ودعاهم إلى أن يكتب بينه وبينهم كتاباً ينتهون إلى ما فيه، فكتب النبي ﷺ بينه وبينهم وبين المسلمين عامة صحيفة[٥].

وذكر موسى بن عقبة سببين لغزو الرسول ﷺ لبني النضير:

أحدهما: أن الرسول ﷺ خرج يستعين ببني النضير في دية الكلابيين[٦]، **والسبب الثاني**: أن بني النضير كانوا قد دسوا إلى قريش حين نزلوا أحداً لقتال رسول الله ﷺ فحضوهم على القتال ودلوهم على العورة، فلما كلمهم رسول الله ﷺ في دية الكلابيين، قالوا: اجلس يا أبا القاسم حتى تطعم وترجع بحاجتك، ونقوم ونتشاور ونصلح أمرنا فيما جئتنا له. ثم يذكر في نهاية الرواية أن بني النضير تآمروا على قتل رسول الله ﷺ، وأن الله أوحى لنبيه بنية غدرهم

---

(١) قرقرة الكدر: موضع ماء لبني سليم، يبعد عن المدينة ثمانية برد، انظر: معجم البلدان (٤/ ٤٤١).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٤٤ ـ ٤٥)، والمغازي (١/ ١٨١ ـ ١٨٢).

(٣) تقدم تخريج حديث قتل كعب بن الأشرف من صحيح البخاري.

(٤) المغازي: للواقدي (١/ ١٨٤)، طبقات ابن سعد (٢/ ٣١)، تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٤٨٧).

(٥) أبو داود: السنن (٢/ ١٧٠)، وقارن الواقدي: المغازي (١/ ١٩٢).

(٦) قصة الكلابيين: كان عمرو بن أمية الضمري، أحد الناجين من مذبحة بئر معونة، التي وقعت في شهر صفر من السنة الرابعة للهجرة على يد بني عامر من بني كلاب... وفي طريق عمرو الى المدينة التقى برجلين من بني عامر عائدين من المدينة فغافلهما وقتلهما، وظن أنه قد أخذ بثأر شهداء بئر معونة. وعندما أخبر الرسول ﷺ بذلك. قال له: «بئس ما صنعت» أو قال: «لقد قتلت قتيلين، لأدينهما». انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٥٦٣).

فغادر المكان، وعاد إلى المدينة، وأن الله أمر رسوله بإجلائهم وإخراجهم من ديارهم فمضى رسول الله ﷺ لأمر الله تعالى فيهم فحاصرهم، ثم قاضاهم على أن يجليهم ولهم أن يتحملوا بما استقلت به الإبل من الذي كان لهم إلا ما كان من حلقة أو سلاح. وكان إجلاء بني النضير في المحرم من السنة الثالثة للهجرة(١).

ولعل أفضل شهادة تدين يهود بني النضير، هو ما نزل فيهم من آي الذكر الحكيم، فقد نزلت فيهم سورة الحشر كاملة(٢)، وعرفت عند بعض العلماء بسورة بني النضير(٣)، وقد أفاضت تلك السورة في بيان مساوئهم وإظهار معايبهم ووصفتهم بالكفر وأنهم شاقوا الله ورسوله.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾﴾(٤) [الحشر: ٢ ـ ٤].

هذه هي الصورة العامة التقريبية للعلاقة بين النبي ﷺ ويهود بني النضير من خلال الروايات التاريخية والنصوص القرآنية، وتكاد كلها تجمع على أن أسباب تدهور العلاقة بين الطرفين تعود إلى اليهود أنفسهم بالدرجة الأولى حيث إنهم كثيراً ما ينقضون العهود والمواثيق ويتآمرون على حياة النبي ﷺ ويهددون أمن المجتمع وسلامته بالتحالف مع العدو، وإنهم شاقوا الله؛ أي: عادوه وخالفوا أمره، وعصوا ربهم في ما أمرهم به من اتباع محمد ﷺ، ومن يخالف الله في أمره ونهيه فإن الله شديد العقاب(٥).

---

(١) انظر: المغازي، ص٢١٠ ـ ٢١٣، فتح الباري (٧/ ٣٣١).
(٢) أسباب النزول: للواحدي، ص٣١٠ ـ ٣١٤.
(٣) أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن سعيد بن جبير، قال: قلت لابن عباس: سورة الحشر، قال: «قل سورة النضير» رقم (٤٠٢٩) (٥/ ٨٨).
(٤) انظر: الجامع لأحكام القرآن (١٨/ ٦).
(٥) النبي ﷺ ويهود المدينة، ص١٧٤.

موقف المستشرقين:

ما من شك أن للمستشرقين المهتمين بقضية بني النضير آرائهم المختلفة بشأن العلاقة بين النبي ﷺ ويهود بني النضير، وهي آراء مبنية غالباً على الاستنتاج والتفسير الشخصي، وفي غالب الأحوال لا تستند إلى مصادر مغايرة للمصادر الإسلامية التي تعد المحور الأساس الذي تدور عليه العلاقة بين النبي واليهود في المدينة.

فمثلاً يقول إدوارد جيبون: إن جرم بني النضير الأكبر أنهم تآمروا على اغتيال النبي، لذلك فقد حاصر حصنهم، لكن تصميمهم على الدفاع عن أنفسهم جعلهم يحصلون على استسلام مشرف(١). إن جيبون يحاول هنا أن يجعل ذنب بني النضير غير ذي أهمية، وفي الوقت نفسه يظهر عظم العقوبة التي حلت بهم.

وكذلك فعل موير عندما ناقش مصير بني النضير، فقد أشار فقط إلى قضية الكلابيين أو قتيلي بني عامر، وأن رسول الله ﷺ ذهب هو وبعض رجاله إلى بني النضير طالباً مساعدتهم على دفع دية القتلى لأن بني النضير حلفاء لبني عامر، وأنه شعر أنهم يتآمرون على قتله فانسلَّ من بين الحاضرين ذاهباً إلى المدينة، وأصدر أمره بجلاء بني النضير لأنهم هموا بقتله(٢). ثم إن موير يشكك في أمر المؤامرة بقوله: «ولكنه لم يشر إليها في القرآن الذي تحدث بإسهاب عن الحصار، ولم يحدث ما يثير شكوك أصحابه، لذلك فإن القصة مشكوك فيها. ويستطرد موير قائلاً: على كل حال يمكن القول إن محمداً كان مصمماً على ألا تبقى هذه القبيلة بجواره في المدينة(٣). وفي موضع آخر يناقش موير أهمية انتصار الرسول ﷺ على بني النضير قائلاً: إن طرد بني النضير يعد انتصاراً ماديّاً لمحمد، الذي أخذ يدمر المستوطنات اليهودية الواحدة بعد الأخرى مضعفاً بذلك أسباب السخط عليه؛ لأنه في حالة حدوث أي وئام بين اليهود وأي من أعداء الإسلام فإن ذلك سيشكل خطراً على سلامة محمد في المدينة(٤).

والغريب في موقف موير تجاه مؤامرة بني النضير هو قوله: إن محمداً لم

---

(١) Gibbon and Ockley, the saracwns..., p. 35.

(٢) the Life of muhammad, p.280-281.

(٣) Ibid., p. 281.

(٤) Ibid., p. 283-284.

يشر إليها في القرآن، وكأن القرآن ـ بزعمه ـ من صنيع أو تأليف الرسول ﷺ!. ثم لو أشار القرآن الكريم إلى تلك الحادثة، هل سيصدقها موير؟ أليس القرآن في نظره من تأليف الرسول؟! أو محمد كما يدعوه. وكذلك بالنسبة إلى قوله: إن أصحاب محمد الذين كانوا برفقته لدى بني النضير لم يلاحظوا على تصرفات اليهود ما يثير الشكوك.

وهذا أمر بديهيٌّ ـ لو كان موير دقيقاً في ملاحظاته ـ لأن اليهود إن كانوا حقاً قد أرادوا التخلص من الرسول ﷺ بقتله غيلة، فإنهم لن يقوموا بأي حركة تثير شكوكه أو شكوك أصحابه، ولا بد أن يبالغوا بالحيطة والحذر. ولذلك فإن الرسول ﷺ قال لأصحابه حين عادوا إلى المدينة: «**إن الخبر جاءه من السماء**»[١]، ولم يقل إنه لاحظ في تصرفات يهود بني النضير ما أثار شكوكه ومخاوفه. وما دام أن الوحي يأتيه من السماء فما وجه الغرابة أن يأتيه كذلك بخبر بني النضير؟.

وأخيراً؛ فإن موير حين يشكك بقصة المؤامرة فإنه في الوقت نفسه يكاد يؤكد أن طرد بني النضير من المدينة كان وليد رغبة صادقة في التخلص من اليهود، فهم في نظره لم يرتكبوا جرماً. وإذا كان الأمر كذلك فما الذي يدفع برسول الله ﷺ إلى طردهم؟ هل لأنهم يهود فقط؟ أم أن هناك أسباب أخرى آثر موير عدم الكشف عنها؟»[٢].

وكذلك فإن المستشرق الهولندي فنسنك يكاد يتفق مع موير بشأن إجلاء بني النضير، فهو يرى أن موقف النبي ﷺ تجاه يهود بني النضير كان قد تقرر منذ البداية بأنه يجب التخلص منهم إلى الأبد لأن وجودهم كان عائقاً في سبيل إقامة حكومة دينية في المدينة[٣]، ثم يستطرد قائلاً: إن القرآن لم يشر إلى أي سبب واضح وراء توتر العلاقة بين النبي ﷺ وبني النضير[٤].

وللباحث أن يسأل هنا أولاً كيف عرف فنسنك أن اليهود كانوا يعارضون قيام حكومة دينية في المدينة؟ ثم إذا كانت مثل تلك الحكومة ستوفر لهم الأمن

---

(١) المغازي (١/ ٣٦٦)، وسيرة ابن هشام (٢/ ١٩٠).

(٢) النبي ﷺ ويهود المدينة، ص١٧٧ ـ ١٧٩.

(٣) muhammad, p.116.

(٤) Ibid., p. 117.

والاستقرار إضافة إلى كفالة حقوقهم الأساسية وعلى رأسها الحرية الدينية فما الذي يريد اليهود أكثر من ذلك؟ ألم يكن اليهود في المدينة قبل مجيء النبي ﷺ إليها يفتقرون إلى الحياة الآمنة المستقرة؟ ألم تنهكهم الحروب والنزاعات التي طالما نشبت بينهم وبين حلفائهم من القبائل العربية؟.

أما قوله: إن القرآن لم يذكر سبباً واضحاً لتوتر العلاقة بين الطرفين، فيمكن طرح السؤال بطريقة أخرى وهي، لو ذكر القرآن سبباً واضحاً وأكد فيه على جرم يهود بني النضير فهل لفنسنك أن يقبل به؟ لأنه إن قبل ذلك فسيكون الموقف مختلفاً تماماً[١].

أما مرجليوث فعندما يناقش مسألة بني النضير يلاحظ أنه يميل أيضاً إلى التشكيك في الرواية الإسلامية، ولكن دون تقديم الأساس الذي يدعم شكوكه! فهو لا يصدق الراوية القائلة: إن بني النضير تآمروا على حياة الرسول ﷺ بمحاولة رمي الحجر عليه من علٍ؛ لأنه لا يجد شيئاً عن ذلك في المصادر اليهودية. ثم يقول: ولكن بما أن الرسول لديه فكرة ثابتة أن اليهود دائماً يرغبون في قتله، وهي فكرة تعود في أصلها إلى مقولة: «أن اليهود قتلة الأنبياء» وهي تهمة أطلقها عليهم مؤسس المسيحية. فمن الممكن أن النبي اقتنع أن اليهود حاولوا التآمر على حياته، لذلك فقد جمع أنصاره وحاصر بني النضير[٢].

وهكذا في نظر مرجليوث يمكن للنبي ﷺ أن يحاصر قبيلة ويصادر أملاكها ويجليها من بلادها لسبب بسيط وتصور ساذج، وهو ظنه بأنهم يتآمرون على حياته. فالرسول ليس لديه أي سبب آخر لاتخاذ مثل هذا الموقف الصارم من بني النضير سوى شكه في تآمرهم على حياته!!.

ثم يمضي مرجليوث موضحاً الأمر فيقول: إن التهمة الرئيسية التي وجهها القرآن لبني النضير والتي كانت سبب الحملة ضدهم هي مقاومتهم للرسول ليس غير، ثم يردف قائلاً: ومن الممكن جدّاً أن محمداً اكتشف في الوقت نفسه الذي أوحي إليه بسورة الحشر أن شكوكه في بني النضير (أي: تآمرهم على حياته) لم يكن لها أساس من الصحة. وواضح أن الغرض من الوحي هو إعطاء المسوغ

(١) النبي ﷺ ويهود المدينة، ص١٧٩.
(٢) Muhammad, p. 314.

الشرعي لتوزيع أراضي بني النضير على المهاجرين دون سواهم[١].

إن مرجليوث يحاول من خلال هذا التفسير لما حدث لبني النضير أن يقنع القارئ بأن الرسول ﷺ مثله مثل أي إنسان عادي، يتخذ من القرارات ما يمكن أن يكون فيها خطئاً تماماً، فحملته على بني النضير لم يكن لها أي مسوغ، فهي قائمة على الظن ليس غير، وقد أثبت الوحي في زعمه عدم صحة مخاوف النبي من بني النضير؛ لأن التهمة التي وجهها القرآن لهم: هي مقاومتهم للرسول ولا شيء غير ذلك.

ثم إن مرجليوث يغالط نفسه حين يقول: إن الوحي جاء لتسويغ قسمة الأرض بين المهاجرين دون غيرهم. والسؤال الذي يمكن طرحه هنا هو: ممن جاء الوحي؟ والى من؟ إن كان الوحي من عند الله فلا مجال لمناقشته، وإن كان من عند محمد عليه الصلاة والسلام فكيف يوحي محمد إلى نفسه؟.

ومرة أخرى يمكننا القول بأن ما يرمي إليه مرجليوث من مثل هذه المقولة، هو تأكيد أن الرسول ﷺ رجل سياسة تحركه طموحاته السياسية ورغباته الدنيوية، وأنه أبعد ما يكون عن النبوة[٢].

ثالثاً: بني قريظة:

إن مصادر السيرة النبوية تطرقت في أكثر من مناسبة إلى أن الرسول ﷺ عندما قدم المدينة اتفق مع يهودها على التعايش فيما بينهم واحترام كل منهم للآخر. فقد جاء في رواية عند الواقدي، أن رسول الله ﷺ حين قدم المدينة صالح بني قريظة والنضير ومن في المدينة من اليهود على أن لا يكونوا معه ولا عليه. ويقال صالحهم على أن ينصروه ممن دهمه منهم ويقيموا على معاقلهم الأولى التي بين الأوس والخزرج[٣]. وجاء في رواية أخرى أنه حين قدم رسول الله ﷺ المدينة وادع أهلها وكتب بينه وبينهم كتاباً، واشترط عليهم ألا يمالئوا عدوه، وأن ينصروه على من دهمه، وألا يقاتل عن أهل الذمة[٤].

---

(١) Ibid., p. 316.

(٢) النبي ﷺ ويهود المدينة، ص١٨١.

(٣) المغازي: للواقدي (٢/ ٤٥٤)، وإمتاع الأسماع: للمقريزي (١/ ٢٢٥ ـ ٢٢٦).

(٤) أنساب الأشراف (١/ ٢٨٦)، تاريخ الرسل والملوك (٢/ ٤٧٩).

وذكر ابن قيِّم الجوزيه رَحِمَهُ اللَّهُ: أن رسول الله ﷺ صالح يهود المدينة بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، ووادعهم على ألا يحاربوه ولا يظاهروا عليه ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم، آمنون على دمائهم وأموالهم وكتب بينهم وبينه كتاب أمن[١]. وأضاف ابن القيم أن النبي ﷺ لم يؤقت عقد الصلح والهدنة بينه وبين اليهود لما قدم المدينة، بل أطلقه ما داموا كافين عنه غير محاربين له[٢].

ثم كانت معركة الخندق أو الأحزاب التي وقعت في ذي القعدة سنة خمس من الهجرة بين المسلمين في المدينة وخصومهم من المشركين وبعض قبائل العرب ممن تحزبوا مع قريش وأجمعوا أمرهم على قتال المسلمين فكان أن حاصروا المدينة[٣]، واستمر الحصار بضعة عشر يوماً، وقيل: عشرين يوماً، وقيل: خمسة عشر يوماً، وهذا الذي رجحه الواقدي[٤]. وكانت حالة الجو وأحوال المسلمين النفسية والمعاشية حينذاك في غاية السوء، فكان حذيفة بن اليمان يقول: لقد رأيتنا في الخندق مع رسول الله ﷺ في ليلة شديدة البرد قد اجتمع علينا البرد والجوع والخوف[٥].

ويظهر من بعض الروايات أنه لم يقع كبير قتال بين المسلمين والمشركين طوال أيام الحصار، اللَّهُمَّ إلا بعض المناوشات والمراماة المتقطعة، إضافة إلى المبارزة الفردية المحدودة[٦].

ولكن يبدو أن الأحزاب استطاعوا إغراء يهود بني قريظة بالانضمام إليهم والغدر بالمسلمين، فأصبح المسلمون بين فكي الأسد، كما يقال، فقد ذهب حيي بن أخطب إلى بني قريظة وحثهم على الوقوف بجانب الأحزاب ضد المسلمين. «فواثقهم وعاهدهم لئن انفضت جموع الأحزاب أن يجيء حتى يدخل

(١) زاد المعاد (٣/ ١١٤).
(٢) المرجع السابق (٣/ ١٢٣).
(٣) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ١٥١)، الروض الأنف (٦/ ١٩٦)، السيرة النبوية: لابن كثير (٣/ ١٨٢)، إمتاع الأسماع: للمقريزي (٨/ ٣٧٢).
(٤) انظر: المغازي (٢/ ٤٩١).
(٥) المرجع السابق (٢/ ٤٨٨).
(٦) انظر: المرجع السابق (٢/ ٤٤٦ ـ ٤٧٤)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٣).

معهم أطمهم فأطاعوه حينئذ بالغدر بالنبي والمسلمين»[١]. ونجد في إحدى الروايات: أن يهود بني قريظة لم يكونوا في أول الأمر متحمسين لمجيء قريش ولا الغدر برسول الله ﷺ، فقد كانوا يومئذ سلماً للنبي ﷺ يكرهون قدوم قريش[٢].

وعندما جاء حيي بن أخطب داعياً زعيم قريظة لنقض الحلف مع النبي ﷺ والانضمام إلى الأحزاب رد عليه كعب بقوله: «يا حيي إني قد عاقدت محمداً وعاهدته، فلم نر منه إلا صدقاً، والله ما أخفر لنا ذمة ولا هتك لنا ستراً ولقد أحسن جوارنا»[٣]. ولم يزل حيي بكعب بن أسد حتى لان له، وأراد كعب قبل الإقدام على نقض العهد استشارة كبار رؤساء يهود بني قريظة، فقال لحيي: ارجع عني يومك هذا حتى أشاور رؤساء اليهود، فقال له حيي: قد جعلوا العهد والعقد إليك فأنت ترى لهم، وجعل يلح عليه حتى فتله عن رأيه[٤]. ومن ثم نقض كعب العهد الذي كان بينه وبين رسول الله، ودعا حيي بالكتاب الذي كتب رسول الله ﷺ بينهم فشقه حيي[٥].

وتكاد توحي الرواية نفسها أن تردد كعب في نقض العهد ليس حباً في رسول الله ﷺ ولا وفاء لعهده، ولكن، كما قال في حديثه لحيي: يا حيي إني دخلت فيما ترى كارهاً له، وأنا أخشى ألا يقتل محمد، وتنصرف قريش إلى بلادها، وترجع أنت إلى أهلك، وأبقى في عقر الدار، وأقتل ومن معي[٦]. لذلك فإن سبب تردد كعب هو الخوف من سوء العاقبة، فهو لا يزال يذكر ما حل بقبائل اليهود الأخرى؛ أي: قينقاع والنضير.

وفي هذه الأثناء علم رسول الله ﷺ أن قريظة ربما نقضت عهدها، فقد أخبره عمر بن الخطاب أن بني قريظة نقضت العهد وحاربت[٧]، وجاء في رواية

---

(١) انظر: تفصيل المحادثة التي جرت بين حيي بن أخطب وكعب بن أسد في: المغازي: للواقدي (٢/ ٤٥٤)، سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٠).
(٢) انظر: المغازي (٢/ ٤٤٥ ـ ٤٤٦).
(٣) المرجع السابق (٢/ ٤٥٥).
(٤) المرجع السابق (٢/ ٤٥٦).
(٥) المرجع السابق، بنفس الصفحة.
(٦) المغازي (٢/ ٤٥٦).
(٧) المصدر السابق (٢/ ٤٥٧)، وانظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٢).

أخرى، أن يهود بني قريظة مزقوا «صحيفة القضية» التي كانت بين رسول الله ﷺ وبينهم، ونبذوا إلى رسول الله ﷺ بالحرب وتحصنوا[١].

وبعث رسول الله ﷺ الزبير بن العوام، فقال: اذهب إلى بني قريظة، فذهب ثم رجع فقال: يا رسول الله، رأيتهم يصلحون حصونهم ويدربون طرقهم، وقد جمعوا ماشيتهم[٢].

وإمعاناً من رسول الله ﷺ في الروية وعدم أخذ القوم بالظن، بعث رسول الله ﷺ سعد بن معاذ بن النعمان، وهو يومئذ سيد الأوس، وسعد بن عبادة بن دليم، أحد بني ساعدة بن كعب بن الخزرج وهو يومئذ سيد الخزرج، ومعهما عبد الله بن رواحة، أخو بني الحارث بن الخزرج، وخوات بن جبير، أخو بني عمرو بن عوف، فقال: **«انطلقوا حتى تنظروا، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا؟ فإن كان حقاً فالحنوا لي لحناً أعرفه، ولا تفتوا في أعضاد الناس، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس»**. فخرجوا حتى أتوهم، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم، نالوا من رسول الله ﷺ، وقالوا: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد. فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه، وكان رجلاً فيه حدة، فقال له سعد بن عبادة: دع عنك مشاتمتهم، فما بيننا وبينهم أربى (أي: أعظم) من المشاتمة. ثم أقبل سعد وسعد ومن معهما، إلى رسول الله ﷺ، فسلموا عليه، ثم قالوا: عضل والقارة؛ أي: كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع، خبيب وأصحابه، فقال رسول الله ﷺ: **«الله أكبر، أبشروا يا معشر المسلمين»**[٣].

إن خيانة بني قريظة للرسول ﷺ والمسلمين مسألة مؤكدة من وقائع السيرة المؤكدة، كما أن القرآن الكريم قد أشار إليها وصوَّر ما نتج عنها، فعندما عاد الوفد إلى رسول الله ﷺ وأخبره بحقيقة نقض بني قريظة للعهد، وشاع الخبر في معسكر المسلمين، وعظم البلاء، واشتد الخوف، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، حتى ظن المؤمنون كل ظن، ونجم النفاق من بعض المنافقين، حتى

---

(١) المغازي: لموسى بن عقبة، ص٢١٧.
(٢) المغازي: للواقدي (٢/ ٤٥٧).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٢).

قال بعض بني حارثة: يا رسول الله إن بيوتنا عورة من العدو، فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج من المدينة[١]. وخيف على الذراري والنساء، ورسول الله ﷺ والمسلمون وجاه العدو، لا يستطيعون الزوال عن مكانهم يعتقبون خندقهم ويحرسونه وتكلم قوم بكلام قبيح، فقال معتب بن قشير: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط[٢].

لقد صوَّر القرآن الكريم المؤامرة الدنيئة التي قادتها الأحزاب ضد المسلمين، كما صور أبلغ تصوير الهلع النفسي الذي أحاط بالمسلمين حتى زاغت أبصارهم وبلغت القلوب الحناجر وتسرب لنفوس بعض ضعاف الإيمان منهم؛ أي: المنافقين سوء الظن بالله، إذ قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الأحزاب: ١٠ ـ ١٢].

وقد اختلف المفسرون في تحديد المقصود بالذين جاؤوا من فوق المسلمين ومن أسفل منهم، فأورد الطبري عدة أقوال منها: عن ابن إسحاق: أن الذين جاؤوهم من فوقهم بني قريظة، والذين جاؤوا أسفل منهم قريش وغطفان[٣]. وجاء في رواية عن حذيفة بن اليمان قوله: لقد رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود وأبو سفيان ومن معه من الأحزاب فوقنا وقريظة أسفل نخافهم على ذرارينا[٤].

ولما انفرط عقد الأحزاب وتفرقت جموعهم بإذن الله تعالى، وارتحلت قريش ومن معها من قبائل العرب لم يكد النبي ﷺ يصل إلى بيته في المدينة، ويضع سلاحه ويغتسل حتى أتاه الأمر الإلٰهي بالمسير نحو بني قريظة، كما ذكرت عائشة رضي الله عنها: «أن رسول الله ﷺ لما رجع يوم الخندق ووضع السلاح، واغتسل، فأتاه جبريل وقد عصب رأسه الغبار، فقال: وضعت السلاح فوالله ما وضعته،

(١) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٢)، والمغازي (٢/ ٤٥٩).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٢).
(٣) انظر: جامع البيان (٢١/ ١٣١)، وسيرة ابن هشام (٢/ ٢٥٧).
(٤) الدر المنثور (٥/ ١٨٤).

فقال رسول الله ﷺ: «**فأين؟**». قال: ها هنا، وأومأ إلى بني قريظة، قالت: فخرج إليهم رسول الله ﷺ»[١].

ولئن كان قرار مواجهة الأحزاب قراراً دفاعيّاً اتخذه رسول الله ﷺ لحماية المدينة من كيد قوى الشر المتحالفة فإن أمر المسير إلى قريظة، كان أمرا إلٰهيّاً، ولا دخل لمشيئة النبي ﷺ فيه، حيث إنه منفذ لمشيئة الله، لذلك فقد أمر مناديه أن ينادي في أرجاء المدينة: «لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة»[٢].

وقدّم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس. فسار علي بن أبي طالب، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال: يا رسول الله، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: «**لم؟ أظنك سمعت منهم لي أذى؟**» قال: نعم يا رسول الله، قال: «**لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً**». فلما دنا رسول الله ﷺ من حصونهم. قال: «**يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟**» قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً[٣].

وذكر ابن إسحاق في السيرة أن زعيم بني قريظة كعب بن أسد قال لهم: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبيَّن لكم أنه لنبي مرسل، وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولانستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم علي هذه، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإن نهلك نهلك، ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟. قال: فإن أبيتم علي هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجهاد، باب الغسل بعد الحرب والغبار، حديث رقم (٢٨١٣) (٤/٢١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم، حديث رقم (٤١١٩) (٥/١١٢).

(٣) سيرة ابن هشام (٢/٢٣٤).

محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرة، قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ!. قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً[(١)].

وقد ذكر ابن إسحاق: أن النبي ﷺ حاصر بني قريظة خمساً وعشرين ليلة، حتى جهدهم الحصار، وقذف الله في قلوبهم الرعب[(٢)].

ثم إنه نتيجة لتضييق المسلمين الحصار على يهود بني قريظة ويأسهم من نجدة الأحزاب لهم، قرروا المفاوضة مع النبي ﷺ رجاء حفظ دمائهم، فأنزلوا نباش بن قيس، فكلم رسول الله ﷺ ساعة وقال: يا محمد، ننزل على ما نزلت عليه بنو النضير، لك الأموال والحلقة وتحقن دمائنا، ونخرج من بلادكم بالنساء والذراري، ولنا ما حملت الإبل إلا الحلقة. فأبى رسول الله ﷺ.

فقالوا: فتحقن دماءنا وتسلم لنا النساء والذرية، ولا حاجة لنا فيما حملت الإبل. فقال رسول الله ﷺ: «**لا، إلا أن تنزلوا على حكمي**»[(٣)].

فلما أصبح يهود بني قريظة في اليوم التالي، نزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فأمر بأسراهم فكتفوا رباطاً، وجعل على كتفهم محمد بن مسلمة، ونحو ناحية، وأخرجوا النساء والذرية من الحصون. فتواثبت الأوس، فقالوا: يا رسول الله موالينا دون الخزرج وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت. فقال لهم الرسول: «**ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟**» قالوا: بلى. قال: «**فذاك إلى سعد بن معاذ**»[(٤)]. وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها: رفيدة، كانت تداوي الجرحى، وكان سعد قد جرح يوم الخندق[(٥)].

فأرسل النبي ﷺ إلى سعد فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم، أو خيركم**». فقاموا إليه، فقالوا:

---

(١) المرجع السابق (٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٦).
(٢) المرجع السابق (٢/ ٢٣٥).
(٣) المغازي (٢/ ٥٠١).
(٤) سيرة ابن هشام (٢/ ٢٣٩).
(٥) انظر: المرجع السابق (٢/ ٢٤١).

يا أبا عمرو، إن رسول الله ﷺ قد ولاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أنّ الحكم فيهم لما حكمت؟ قالوا: نعم: وعلى من هاهنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ، وهو معرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: «**نعم**»، قال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء[١]. وقد ذكر ابن إسحاق أن من قتل منهم كانوا ست مائة أو سبع مائة، والمكثر لهم يقول: كانوا بين الثمان مائة والتسع مائة[٢]، وجاء في رواية في المسند أنهم كانوا أربع مائة فقط[٣]، وجمع ابن حجر بين هذا العدد وماسبقه بأن الزيادة هي في الأتباع والموالي المنتسبين إليهم[٤].

موقف المستشرقين:

لقد أولى كثير من المستشرقين اهتماماً خاصاً بأمر العلاقة بين النبي ﷺ ويهود بني قريظة وما آل إليه مصيرهم، وجاءت رؤيتهم لتلك العلاقة وتقويمهم للنتائج النهائية لها، متشابهة في كثير من الأحيان.

فإدوارد جيبون مثلاً عندما يناقش قضية بني قريظة يتحاشى ذكر الأسباب التي دعت النبي ﷺ إلى محاصرتهم وإنزال العقوبة بهم، فهو يوحي للقارئ بأن الرسول ﷺ لديه كره متأصل لبني قريظة، فيقول: ما إن انسحبت الأحزاب حتى بادر محمد بالمسير لاستئصال الجنس المعادي له من أبناء بني قريظة. ثم يعطي تفاصيل أكثر دقة فيما يتعلق بعدد من قتل منهم وهم سبع مئة ـ حسب رأيه ـ وكذلك ما غنمه المسلمون من أسلحتهم بالتفصيل[٥].

أما موير فإنه يعترف أن يهود بني قريظة تحالفوا مع أعداء الرسول ﷺ في ساعة حرجة، وأنه أصبح لديه سبب مقنع في أن يكون على حذر منهم، وأن إجلائهم عن المدينة صار ضرورة سياسية، إضافة إلى أن سلوك قادتهم بلغ حد الخيانة العظمى التي يستحقون عليها العقوبة الصارمة. ولكن موير يتحفظ على

---

(١) انظر: المرجع السابق (٢/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠).
(٢) انظر: المرجع السابق (٢/ ٢٣٩ ـ ٢٤٠).
(٣) مسند أحمد (٣/ ٣٥٠).
(٤) انظر: فتح الباري (٧/ ٤١٤).
(٥) the Saracens, pp. 35-36.

العقوبة التي أنزلت بقبيلة بني قريظة. فهو يعد أن قتل ثمان مئة رجل دون تمييز وإخضاع جميع نساء القبيلة وأطفالها للاستعباد يعدُّ وحشية رهيبة[١].

وقد غاب عن ذهن موير ومن شايعه ما حصل قبل ذلك، عندما حقن رسول الله ﷺ دماء يهود بني النضير قبل سنتين تقريباً من حادثة بني قريظة، وأجلاهم إلى خيبر، فاستجمعوا قواهم وحزبوا الأحزاب ضد رسول الله ﷺ والمسلمين في المدينة، وكانوا فيما بعد السبب المباشر فيما آل إليه مصير بني قريظة. ثم إن دعوى أن رسول الله ﷺ قتل ثمان مئة رجل من بني قريظة أمر يحتاج إلى تمحيص، كان يجدر بمؤرخ مثل موير أن يبحث عن الحقيقة في شتى مظانها حتى يصل إلى ما يمكن أن يطمئن إليه بهذا الصدد. أما استعباد نساء القبيلة وأطفالها فهو ليس غريباً على الممارسة البشرية في تلك الفترة من الزمن[٢].

أما فنسنك فبعد مناقشة طويلة لمشكلة بني قريظة قال: إن كل الذي فعله بنو قريظة أنهم قرروا بعد التردد إلغاء مبدأ التفاهم الطيب الذي كان يربطهم بمحمد[٣]، وإن المصادر التاريخية الأولى لا تذكر شيئاً عن مشاركة اليهود في الحصار، ولكن بعض أهل المدينة المتوجهين إلى منازلهم استقبلهم القرشيون بزخات من السهام، وأن صفية أخت حمزة بن عبد المطلب قطعت رأس أحد القرشيين حين اقترب من منزلها[٤]. هذا ما تقوله لنا الروايات لدى الواقدي عن عدوانية اليهود[٥]. ثم يجمل فنسنك وجهة نظره في الحكم الصادر بحق بني قريظة ومسوغاته بقوله:

«إن رأي أكثر مؤرخي السيرة من الأوروبيين اعتدالاً في إعدام بني قريظة أنه وحشي. ولكن إذا حكمنا على أخلاق محمد بناء على هذا التصرف، فسيكون حكمنا قاصراً؛ لأن محمد في مناسبات أخرى ظهر فيها رجلاً رحيماً ومتسامحاً، ويكفي أن نذكر موقفه حين استولى على مكة. ويمكن فهم السبب الذي جعل

---

(١) the Life of muhammad, p.322.

(٢) النبي ﷺ ويهود المدينة، ص٢٥٦.

(٣) Muhammad, p. 123.

(٤) Ibid.,p. 123.

(٥) Ibid.,p. 124.

محمداً يتصرف تجاه يهود بني قريظة على هذا النحو، ذلك أنه غضب من موقفهم غير الثابت إبان حصار المدينة، هذا الموقف الذي جعله قلقاً وخائفاً عدة أسابيع، فلو أن بني قريظة ساندوا الأحزاب بطريقة أكثر فاعلية لكان المحتمل أنهم سيلحقون ضرراً بالغاً بالمدينة. لذلك قرر النبي أن يضع نهاية للتهديد اليهودي مرة وإلى الأبد. ولم يكن هناك وسيلة غير إبادتهم؛ لأنه لو طردهم لاتحدوا مع خيبر القوية، وأصبحوا خطراً دائماً على المدينة»[١].

وكما يتبيَّن للقارئ أن آراء فنسنك لا تخلو من حق وباطل، أما ما يظهر أنه باطل فهو قوله: إن بني قريظة لم يفعلوا شيئاً سوى إلغائهم لمبدأ التفاهم الذي كان يربطهم مع محمد. وهو هنا يريد أن يقول: إنه لم يكن هناك معاهدة ملزمة للفريقين للدفاع المشترك عن المدينة. ولو سلمنا جدلاً أن الرابط الوحيد بين النبي ﷺ ويهود بني قريظة هو «مبدأ التفاهم الطيب» فما الذي يدعو بني قريظة لنقضه في هذا الوقت بالذات؟ وما الذي يمكن أن يترتب عليه؟.

أما أن المصادر التاريخية لم تذكر شيئاً عن مشاركة بني قريظة في حصار المدينة فهذا صحيح، ولكنها ذكرت نشاطهم العدواني المحموم ضد سكان المدينة وقطعهم السبيل، وإخافة الناس[٢]، وتمويلهم لقوات الأحزاب بالمؤونة[٣]. والذي يصعب فهمه مما أورده فنسنك: قوله إن بعض أهل المدينة العائدين إلى منازلهم تعرضوا لسهام القرشيين، وأن صفية قتلت أحد القرشيين حين اقترب من منزلها. فالمعروف أن الذين كانوا يتحرشون بأهل المدينة ويرشقونهم بالسهام هم يهود بني قريظة[٤]. ويقال كذلك أن صفية بنت عبد المطلب قتلت يهوديّاً من بني قريظة حين اقترب من الحصن الذي كانت فيه مع بقية النساء والذراري وليس رجلاً من قريش، كما يظن فنسنك[٥].

وكذلك رأى فنسنك في أن السبب الذي دفع النبي ﷺ إلى التصرف تجاه يهود بني قريظة بقسوة يعود إلى موقفهم المتذبذب أو غير الثابت خلال حصار

---

(١) Ibid.,p. 127.

(٢) انظر: المغازي (٢/ ٤٥١، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٧٤)، وأيضاً: الطبقات (٥/ ٨١).

(٣) وفاء الوفاء: للسمهودي (١/ ٣٠٤)، والسيرة الحلبية (٢/ ٦٤٧).

(٤) انظر: المواضع المذكورة أعلاه لدى الواقدي.

(٥) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٨)، وانظر: المغازي (٢/ ٤٦٢ ـ ٤٦٣).

المدينة، وهذا قول تنقصه الدقة. حيث إن موقفهم من المسلمين كان موقفاً ثابتاً، وذلك على الأقل ما تشير إليه المصادر الإسلامية، فقد انضموا إلى الأحزاب ومزقوا المعاهدة التي بينهم وبين المسلمين. بل أغلظوا في القول، وقالوا للوفد الذي أرسله رسول الله ﷺ للتأكد من صحة ما يقال عن نقضهم العهد: «من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد» أما ما جاء في قوله: «إنه لو تعاون يهود بني قريظة مع الأحزاب تعاوناً وثيقاً لألحقوا ضرراً بالغاً بالمدينة، وإن قتلهم كان الطريقة الوحيدة للتخلص من خطرهم الدائم»، فهذا رأي لا خلاف عليه[١].

بل ذهبت كارين آرمسترونج إلى ما هو أبعد من هذا في تقديرها للضرر الذي سيلحق بالمسلمين لو لم يعاقب بنو قريظة على هذا النحو فقالت: «وكانت الأمة الإسلامية قد نجت من الإبادة بأعجوبة وقت الحصار. وبطبيعة الحال، كانت العواطف متقدة، كما أن القرظيين أوشكوا أن يدمروا المدينة. ولو أن محمد أطلق سراحهم لعملوا على زيادة معارضة اليهود في خيبر ولنظموا هجوماً آخر ضد المدينة حيث لم يكن هناك ضمان أن يحالف الحظ المسلمين مرة أخرى. كما أن المعركة الدموية من أجل البقاء كانت ستستمر إلى ما لا نهاية»[٢].

أما رؤية تور أندريه، لقضية بني قريظة فإنه يشوبها الغموض، فهو لا يألو جهداً في سباب النبي ﷺ ولكنه لا يذكر بوضوح ما الذي اقترفه بنو قريظة، إنه يذكر أن النبي ﷺ خلال فترة الحصار أصبح مدركاً للخطر الذي يمكن أن يلحق به من جراء وجود عدو خطير على حدود مدينته، خاصة وقت الأزمات. فقد قرر معاقبة بني قريظة آخر القبائل اليهودية في المدينة بسبب ما أظهروه من عدم جدارتهم بالاعتماد عليهم أيام الحصار[٣].

وواضح هنا أن أندريه لم يذكر للقارئ ما الذي اقترفه بنو قريظة حتى يستحقوا عقوبة الرسول لهم؟. ثم يستدرك قائلاً: إن اليهود اختاروا سعد بن معاذ ليحكم في أمرهم، وكان على فراش الموت من جراء إصابته أيام الحصار،

---

(١) النبي ﷺ ويهود المدينة، ص٢٥٧ ـ ٢٥٨.

(٢) سيرة النبي محمد، ص٣٠٨.

(٣) Muhammad, the Man and his Faith, p. 218.

فأجابهم الرسول لذلك، وهو يعرف حقاً ماذا يفعل. فقد حكم سعد أن يقتل الرجال وتسبى الذرية والنساء[١].

إن الذي يريد أن يقوله أندريه: أن الرسول ﷺ كان مبتهجاً لاختيار بني قريظة سعداً ليحكم فيهم؛ لأنه يعلم سلفاً ما سيقرره سعد بشأنهم. ثم يعلق على حكم سعد بقوله: «**ونفذ هذا الحكم القاسي دون رحمة**»[٢]. ولا أحد يختلف مع أندريه أن الحكم كان قاسياً، ولكنه كان يتناسب مع الجرم الذي اقترفوه. لذلك نلاحظ أن أندريه نفسه يعود ويحاول تسويغ ما حدث لبني قريظة، بقوله: يجب أن ننظر لقسوة محمد تجاه اليهود في مقابل حقيقة احتقارهم ورفضهم له، فقد كان ذلك أعظم خيبة أمل له في حياته، بل إنهم في وقت من الأوقات هددوا بتدمير سلطته النبوية تدميراً كاملاً[٣].

وكذلك فإن جرونباوم لم يكن موضوعيّاً في معالجة مشكلة بني قريظة، فكان همه أن يذكر للقارئ العقوبة التي لحقت بهم دون أن يتعرض للذنب الذي ارتكبوه، بل على العكس من ذلك فقد برأ ساحتهم، فذكر أن محاولة الأحزاب مع قبيلة بني قريظة المحايدة لم تفلح في إقناعهم بفتح جبهة جنوبية ضد أهل المدينة، وبعد انسحاب الأحزاب مباشرة تم القضاء على آخر قبيلة يهودية لها أهمية سياسية، وهي قبيلة بني قريظة؛ وذلك بسبب موقفهم الغامض خلال فترة الحصار، فقد قتل ست مئة رجل وبيع النساء والأطفال في أسواق النخاسة[٤].

وهكذا فمن السهل في نظر جرونباوم أن يقتل رجال قبيلة بكاملها وتباع نساؤها وأطفالها في سوق النخاسة من غير جناية سوى عدم وضوح موقفهم في أيام الخندق. ومثل هذا القول يتجافى مع أبسط قواعد البحث الموضوعي، وفيما سبق ذكره عن موقف بني قريظة أيام الخندق ما يكفي عن الإعادة.

أما المستشرق بودلي فيرى أن سعد بن معاذ رضي الله عنه حكم بإعدام يهود بني قريظة لأنهم تسببوا بطريق غير مباشر في جرحه[٥].

---

(١) Ibid., p. 218.

(٢) Ibid., p. 218.

(٣) Ibid., p. 218.

(٤) classical Islam, p. 40.

(٥) الرسول، ص١٩١.

ويشير بودلي هنا إلى الجرح الذي أصاب سعداً أثناء حصار المشركين للمدينة في غزوة الخندق، وكون بني قريظة تسببوا في جرحه بطريق غير مباشر فليس ببعيد عن الصواب، ولكن هل كان هذا سبباً وراء حكمه بإعدامهم؟! من الواضح أن هذا مجرد استنتاج من بودلي ومشايخه، لم تذكره مصادرنا المعتمدة على التحرير، بل ذكرت أن السبب نقضهم العهد الذي بينهم وبين المسلمين، وإرادتهم لحرب المسلمين مع الأحزاب. وهو حُكْمٌ حَكَمَ به الله عليهم قبل حكم سعد، وهو ما صرح به الرسول ﷺ عندما علق على حكم سعد، إذ قال: «**قضيت بحكم الله**»[(١)].

وقد دعا سعدٌ الله تعالى ـ حين أصيب ـ بأن لا يميته حتى يقر عينيه من بني قريظة؛ لأنهم نقضوا العهد، وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية[(٢)] ولعل الذي حمل بودلي على هذا الزعم، هو هذا الأثر المروي عنه حين أصيب، وواضح بعد إيرادنا له أنه استنتج منه ذلك الزعم.

ولعل الجيد في موقف بودلي أنه عاد ـ بعد ما تقدم ـ ليذكر القارئ بمدى أهمية عقوبة بني قريظة وخطورتها بالنسبة إلى دولة الرسول ﷺ فيقول: «ويجب أن لا يغيب عن البال كيف كان من الضروري بالنسبة له (أي: الرسول) ألا يدع أي شك يخامر الناس في سلطانه هذا... فلو أنه أظهر ضعفاً، أو سمح بوقوع خيانات دون أن يوقع الجزاء الرادع، لما عاش الإسلام أبداً. لقد كانت مذبحة اليهود هذه شديدة. ولكنها ليست الأولى في التاريخ، وإنها لعدل في نظر المسلمين. ومن ذلك الوقت أصبحت القبائل العربية واليهود يفكرون مرتين قبل أن يتحدوا ذلك الرجل الذي صمم على أن يسير في طريقه»[(٣)].

ويعلق مونتغمري وات على حكم سعد بن معاذ في بني قريظة بقوله: «لا جدوى إذن من أن نظن بأن محمد ضغط على سعد بن معاذ للحكم على قريظة كما فعل. فلقد أدرك رجل بعيد النظر كسعد أن السماح للعصبية القبلية بالتغلب على الولاء للإسلام يؤدي إلى العودة للحروب بين الأخوة التي كانت المدينة

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب، ومخرجه إلى بني قريظة ومحاصرته إياهم، حديث رقم (٤١٢١) (٥/ ١١٢).

(٢) انظر: سيرة ابن هشام (٢/ ٢٢٧) ط. السقا.

(٣) الرسول، ص١٩٣ ـ ١٩٤.

ترجو التخلص منها بمجيء محمد»[١].

وأخيراً، فمهما اختلفت آراء المستشرقين وتشعبت أهواءهم في شأن عقوبة بني قريظة، فإن الأمر الذي يجب ألا يغيب عن البال هو أن رسول الله ﷺ لم ينظر إلى قضيتهم على أنها قضية أسرى وقعوا في يده، بل نظر إليهم وعاملهم معاملة الخونة الذين نقضوا العهد، وتآمروا مع الأعداء ـ في وقت الحرب ـ على سلامة الدولة، وهددوا أمن المجتمع في ظل ظروف استثنائية بالغة الخطورة. وهذا هو ما يعرف بالخيانة العظمى في القانون الدولي، ومعلوم أن عقوبة هذه الخيانة هي الموت[٢].

(١) محمد في المدينة، ص٣٢٨.

(٢) انظر فيما تقدم: النبي ﷺ ويهود المدينة، ص٢٧٤ ـ ٢٧٦.

المبحث الثالث

جهاده ﷺ للمشركين

ينظر عدد كبير من المستشرقين إلى موضوع القتال في الإسلام باعتباره لازمة من لوازم الدولة بعد انتقال النبي ﷺ إلى المدينة، حيث استعان به من أجل إحكام سلطته فيها، ثم الامتداد بحدود دولته إلى مناطق جديدة بواسطة إخضاعها لسلطان الدين الذي جاء به.

ومعنى هذا: أنهم نظروا إلى الجهاد نظرتهم إلى استعمال القوة في الدول الحديثة؛ أي: باعتباره رافداً للسياسة، ولهذا فقد كان استخدام القوة في الإسلام بالنسبة لهم إحدى النقلات التي شهدها الإسلام في العهد المدني، حيث تحول النبي ﷺ من داعية إلى مشيد دولة.

ولا يعني هذا بالضرورة أن المستشرقين المعاصرين قد وقفوا من الأمور موقفاً متماثلاً، بل لقد انقسموا منه تبعاً لميولهم، فجعله بلاشير ووات مثلاً لازمة من لوازم المحلة الجديدة دون أن يذهبا إلى اتهام النبي ﷺ بالظلم أو الاعتداء، أو تحوله إلى رجل سياسة، أو تحويل ممارسة السياسة له إلى ملك.

وقد كتب وات في العلاقة بين دائرتي الدين والسياسة في نفس النبي ﷺ فقال: «وكان الجانب الديني من الأحداث رئيساً بالنسبة إليه حتى يكون مدركاً

للجوانب السياسية، وكان هدفه الأسمى من ذلك الحين دعوة جميع العرب إلى الإسلام، ولا يمكن أن تكون الوحدة السياسية قد غابت عن تفكيره، ولكنها ظلت في المؤخرة»[١].

ويقابل هذا القسم عدد من المستشرقين ذهبوا إلى إبراز الطابع الوضيع ـ بزعمهم ـ لغزوات النبي، حيث لم يروا فيها إلا حركة قوم جياع احتاجوا إلى تحصيل القوت.

وقد ذهب إلى هذا المؤرخون بصفة خاصة، ومن هؤلاء ول ديورانت حيث يقول: «وهاجرت إلى المدينة مئتا أسرة من مكة فنشأت فيها من جراء هذه الهجرة مشكلة الحصول على ما يكفي أهلها من الطعام، وحل المشكلة كما يحلها كل الأقوام الجياع بالحصول على الطعام أنى وجد، ومن ذلك أنه أمر أتباعه بالإغارة على القوافل المارة بالمدينة، متبعاً في ذلك ما كانت تتبعه معظم القبائل العربية في ذلك الوقت»[٢].

وقد أضاف ديورانت إلى سطحية هذا التفسير المغرض، والجاهل بالأسباب الدينية والدنيوية لحروب النبوة وأهدافها الربانية، فكره اعتداء المسلمين على قريش بالذات، فزعم أن «كثرة الغزوات على القوافل هي التي روعت قريشاً، ودفعتها إلى طلب الانتقام من محمد»[٣].

وقد سبق ديورانت، وجاء بعده عدد من المستشرقين الذين راحوا يعملون على إبراز الطابع العدواني للتحول الذي شهده الإسلام في المدينة، ومن هؤلاء جولدزيهر الذي تدل كتاباته في الموضوع على تبنيه فكرة السعي الحثيث للنبي ﷺ في المرحلة الجديدة إلى استعمال القوة، وتحوله ـ بدرجة كبيرة ـ إلى رجل سياسة وملك، فقال:

«إنه في المدينة فقط ظهر الإسلام نظاماً له طابع خاص، وله في الوقت نفسه صورة الهيئة المكافحة، إنه في المدينة قامت طبول الحرب... وفي المدينة صار الرجل الذي كان بالأمس ضحية صابرة... والذي كان خاضعاً مسلماً... ينظم أعمالاً حديثة، كما ينظم طريقة توزيع الغنائم، ويضع القوانين لتنظيم

---

(١) محمد في المدينة، ص٦٠.

(٢) قصة الحضارة (١١/ ٣٤).

(٣) المرجع السابق، بنفس الصفحة.

الأموال والمواريث، بعد أن كان زاهداً في المال وجمعه، نعم، إنه استمر في التحدث عن باطل هذه الحياة. . . لكنه مع هذا أصبح يملي القوانين، ويضع الترتيب لأمور الدين العملية وأهم احتياجات الحياة الاجتماعية»[١].

وقد ذهب ماكدونالد إلى تحليل موضوع الجهاد، ولاحظ أنه قد مر بمراحل متعددة، حيث تحول استعماله من وسيلة لرد العدوان إلى وسيلة مبادرة لمهاجمة المشركين، ثم العالم أجمع.

والحقيقة: أن ملاحظة هذا المستشرق المبشر حول المراحل التي مر بها استعمال القتال في الإسلام صحيحة في مجملها، وكذلك إشارته إلى ارتباط استعمال النبي ﷺ للقوة بالتغيرات المحيطة بالدعوة. ولكنه مع هذا لم يستطع، كما لم يستطع غيره من المستشرقين، أن يفهم مدى ارتباط أي دعوة بمحيطها، وعدم دلالة ذلك بالضرورة على التطور في جانبه السلبي؛ أي: ذلك الجانب الذي يفترض عدم وجود الفكرة أو الهدف في وعي النبي ﷺ إلا بعد أن تدفعه الظروف وما تحققه دعوته إلى التفكير فيه والاستعانة به[٢].

وقد سبق في الحديث عن الأب لامنس ـ ضمن المستشرقين المتحاملين على الإسلام ـ بيان كيف قرر لامنس فكرة تحول النبي ﷺ من داعية إلى ملك[٣]، وكل ما يفترض ذلك من بطش وسطوة وسعي إلى السيطرة على رقاب الناس وأموالهم، وكان هذا صريح في الدلالة واعتبار حروب النبي ﷺ حروباً عدوانية غاشمة، سواء مع العرب أم مع اليهود، الذين راح يبرر شجاعتهم ونبلهم، وتعرضهم لظلم المسلمين وادعائهم عليهم، وقد اتهم كتب السيرة بتشويه صورة المنافقين، وخصوصاً حليف اليهود الأول عبد الله بن أبي سلول.

وفي المقابل فقد راح لامنس يكيل صفات النقص للمسلمين، ويتهم الأنصار بالجبن حينما كانوا يواجهون بصدورهم سيوف اليهود والمشركين قاطبة، واتهم بعد ذلك العرب جميعاً بالجبن بعد أن أصبحت المواجهة بين المسلمين وبين غيرهم من الأمم.

---

(١) العقيدة والشريعة، ص١١.

(٢) انظر: نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٥٠٩ ـ ٥١١.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٢٦٢ نقلاً عن:

Ftim et les filles de Mhomet-P. 82.

وقد جمع فلهاوزن بين فكرتي ماكدونالد ولامنس، فلوح بتحول الإسلام من الحرب الدفاعية إلى المبادأة بالحرب، وقرر التوجهات العدوانية للنفسية النبوية فقال: «ولم يبق الإسلام على تسامحه ـ بعد بدر ـ، بل شرع في الأخذ بسياسة الإرهاب في داخل المدينة، وكانت إثارة المنافقين علامة على هذا التحول. . . أما اليهود فقد حاول أن يظهرهم بمظهر المعتدين الناكثين للعهد، وفي غضون سنوات قليلة أخرج كل الجماعات اليهودية، أو قضى عليها في الواحات المحيطة. . . وقد التمس لذلك أسباباً واهية»[1].

وقد كان بالإمكان الرد على هذه المزاعم الاستشراقية بوساطة التنوية بعدم إكراه النبي ﷺ أحداً على اعتناق الإسلام، وبمقارنة غزواته عليه الصلاة والسلام وحروب الفتوحات الإسلامية بالحروب اليهودية كما ترويها كتبهم، ومقارنتها بحروب النصارى كما تنقلها إلينا المصادر التاريخية. فنبرز بهذه الطريقة تسامح النبي ﷺ والمسلمين عموماً في حروبهم، وتنزههم عن قتل الأطفال، والشيوخ والنساء وغير المحاربين، وعدم تعمدهم التخريب، وهذا في مقابل قضاء اليهود على كل مظاهر الحياة ـ وحتى مظاهر العمران ـ في الأقاليم التي دخلوها. وسنبرز بهذه الطريقة دموية تنصير الامبراطور الروماني شارلمان (ت٨١٤م) لقبائل الشمال، وفظاعة ما أحدثه المسيحيون الصليبيون في القدس وغيرها من مدن الإسلام.

وبالإمكان أن نعتمد على أوثق المصادر لنبين تمييز المسلمين بين طرق الدعوة إلى الدين باعتباره قناعة، وبين المغالبة باعتبارها حقيقة وجودية، ونبيِّن إكراه المسيحيين الناس على اعتناق المسيحية[2]. وبإمكاننا قبل كل شيء أن نحصي عشرات الملايين من القتلى، وتخريب آلاف المدن، وتشويه ما لا حصر له من الثقافات بفعل الحركة الاستعمارية الحديثة.

هذا منهج، ولكننا نفضل أن نكتب في موضوع الجهاد في الإسلام بشكل يبيِّن تدخل أسباب وأهداف متعددة في تقرير هذه الحقيقة فيهن، وهو التعدد الذي

---

(١) دراسة في السيرة: عماد الدين خليل، ص٢٩، نقلاً عن الدولة العربية وسقوطها: فلهاوزن، ص١٥.

(٢) انظر: عبقرية محمد: عباس محمود العقاد، ص٣٤، والشيوعية والإنسانية: للعقاد، ص٢٧٧.

كان سبباً في اختلاط الأمر على بعض الباحثين، فتبنى بعض المسلمين القول بدفاعية الحرب في الإسلام، وعدم سعيه بالتالي للتوسع على حساب القوى السياسية المخالفة له، بينما ذهب المستشرقون إلى الزعم بوجود أسباب اقتصادية وراء حروب النبي عليه الصلاة والسلام والفتوحات الإسلامية.

وأول ملمح يجب التنبيه إليه، هو أن الإسلام يعتمد في نظره إلى القتال نظرة إلٰهية، ونقصد بهذا أن المجاهد فيه ليس هو ذلك الشخص الذي يهدف إلى تحصيل امتداد في الأرض من أجل أن يحرز أموالها ويستعبد أهلها، بل إنه شاهد من شهودها على وجود الحق ﷻ، وبيانه ـ بوساطة رسله ـ للحقيقة، وبالتالي فإن الأمر يصل بهذا الشاهد إلى أن يستشهد في سبيل الله؛ أي: أن يجود بدمه لتتحقق هذه الشهادة.

ومن جهة ثانية، فإن الحكم على الناس بالنسبة للإسلام يعتمد على ثنائية الإيمان والكفر، وبهذا الاعتبار فإن الناس ينقسمون إلى شهود ومشهود عليهم. والمشهود عليهم هم أولئك البشر الذين تمَّت دعوتهم إلى الحق فلم يستجيبوا له، ومنهم من لا يكتفي بذلك، بل يعمل على منع الحق من الانتشار بوساطة إشهار السلاح في وجهه.

وفي المنظور نفسه، فإن فعل القتل أو وقوعه على الإنسان ليس نهاية الأشياء، بل إن هناك عالماً آخر ينال فيه الكفار عقابهم، ويجازى فيه شهداء الله بأحسن ما عملوا، كما يقول تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ [آل عمران: ١٦٩، ١٧٠]. ويفسر كل هذا فرضية الجهاد على المؤمنين، ووجوب قتل المحاربين ما داموا يمنعون الحق من الوصول إلى مخاطبة الناس، أو يهدفون إلى تحقيق العلو على المؤمنين، ولهذا قاتل النبي ﷺ والمسلمون قريشاً وقبائل العرب واليهود والعالم أجمع.

ولكن هل معنى هذا أن الحروب الإسلامية هي حروب دينية، إذا قصد من صفة (الدينية) فرض الإيمان على الناس؟.

إن الهدف من الجهاد هو هدف ديني ولا شك، ولكن الأصول الدينية الإسلامية لم تبح لأحد من الناس فرض الإيمان بالقوة، ذلك أن هناك تناقضاً

حقيقياً بين الإيمان ـ باعتباره فعلاً باطنياً وقناعة ذاتية ـ وبين مبدأ الغصب ذاته.

وقد حكم عدد من علمائنا بنسخ الآيات التي تمنع الإكراه، وتقرر حرية التدين، مثل قوله تعالى في يونس: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس: ٩٩]، ومثل قوله تعالى في الكهف: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩]، وخصوصاً الآية التي كانت موضوع بحث العلماء، وهي قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وكان الناسخ لها بالنسبة إليهم هو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التحريم: ٩].

ولكن الناظر في آيات حرية التدين في الإسلام يرى أنها تدل دلالة واضحة على إحكامها، وأنه «لا موجب للقول بالنسخ؛ لأنه لا تعارض بين هذه الآية وبين الناسخ الذي ادعوه... فليس في النص أي تصريح أو تلميح إلى إكراه الناس على اعتناق الإسلام»[1].

وقد تبيَّن هذا الموقف الزمخشري والجصاص وابن كثير وغيرهم[2]، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «جمهور السلف على أنها ليست منسوخة ولا مخصوصة، وإنما النص عام، فلا نكره أحد على الدين، والقتال لمن حاربنا، فإن أسلم عصم ماله ودمه، وإذا لم يكن من أهل القتال لا نقتله، ولا يقدر أحد أن ينقل أن رسول الله ﷺ أكره أحداً على الإسلام، لا ممتنعاً ولا مقدوراً عليه، ولا فائدة في إسلام مثل هذا. لكن من أسلم قبل منه ظاهر الإسلام»[3].

ومن أوضح الأدلة على عدم نسخ هذا الحكم أننا تتبعنا سيرة النبي ﷺ فوجدناه لم يعمد إلى غصب أحد على اعتناق ما يدعو إليه.

والنتيجة اللازمة عن كل ما قلناه سابقاً هي: أن الإسلام قد قرر فرضية الجهاد من أجل المغالبة لا إجبار الناس على الإيمان، وأن تحقيق المسلمين

(١) آيات الجهاد في الإسلام: د. كامل سلامة الدقس: ص٩٧.
(٢) المرجع السابق، ص٩٨.
(٣) السياسة الشرعية، ص١٢٣.

للنصر كان باباً لرفع الموانع التي قد تحجز بين الشعوب وبين معرفة الحق واعتناقه، والهدف من المغالبة هو تحقيق العلو لله وللمؤمنين، وإلزام المذلة والصغار لكل كافر بالله أو جاحد لنبوة محمد ﷺ، ولهذا السبب الأخير قاتل المسلمون اليهود والنصارى تبعاً لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ٢٩﴾ [التوبة: ٢٩].

ومع تقرير الإسلام للقتال باعتباره حقيقة وجودية يتحقق بها العدل إلا أن له شأناً يتمايز به عن كل قتال شهدته البشرية، فقد حرم على المسلمين الإفساد فيه، ومنه قتل غير المحاربين والعجزة؛ لأن هؤلاء جميعاً ليسوا من الذين يسعون إلى منع تحقيق غرض الجهاد.

هذا من حيث حقيقة القتال في الإسلام فهل معنى ذلك أن حروب النبي ﷺ بالذات كانت من هذا النوع الذي وصفناه؟.

وللإجابة على هذا السؤال يجب توضيح أن حروب النبي ﷺ قد انقسمت إلى ما يلي:

١ ـ قسم تحقق فيه مفهوم الجهاد الإسلامي كاملاً؛ أي: ضرورة مغالبة المسلمين لغيرهم لمنع الفتنة، وتحقيق علو المؤمنين، وتلك هي الغزوات التي وجهها النبي ﷺ لحروب الروم وبعض غزواته وسراياه في بلاد العرب.

٢ ـ قسم لم يكن إلا رد فعل على العدوان، وينضوي تحته حربه لليهود، وبعض غزواته ضد القبائل العربية التي بادرت بالاعتداء على المسلمين.

٣ ـ قسم خاص يحقق مفهوم الجهاد كاملاً، ولكنه وقع عمليّاً رداً للعدوان، وهو حرب النبي ﷺ للقرشيين بصفة خاصة.

ولتوضيح خصوصية النوع الأخير من أنواع القتال الذي خاضه النبي ﷺ يجب أن نقرر بطلان مزاعم المستشرقين الذين ذهبوا إلى أن جهاد النبي ﷺ لمشركي قريش كانت حروباً عدوانية، بل الحقيقة أن المسلمين قد تعرضوا لظلم قريش بمنعهم من حرية التعبد لله تعالى والدعوة إليه، وتعذيبهم والتضييق عليهم في أرزاقهم، مما دعاهم إلى الهجرة عن وطنهم وترك ممتلكاتهم التي نهبها المشركون بعد ذلك، وهذه كلها أسباب موضوعية تؤدي إلى أن يحكم كل أحد بعدوان قريش

وتعديها على المسلمين، ولهذا فلم يكن تعرض النبي ﷺ لقوافلها إلا إجراءً قصد به التضييق عليها، واسترداد ما أخذته من المسلمين، يدل لذلك قول الله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، ويقول تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾ [البقرة: ٢١٧].

والملاحظ أن المقطع الأخير من الآية السابقة يوضح بشكل متميز انتساب قتال النبي ﷺ لقريش إلى حروبه التي أراد بها فسح المجال لانتشار الإسلام، حيث تُبين علم النبي ﷺ اليقيني بأن عداوة القرشيين لن تنتهي أبداً إلا إذا قضوا على دعوته، ولهذا خاض معهم حرباً طويلة النفس انتهت باستسلامهم، ودخول الإسلام إلى جميع ربوع بلاد العرب(١).

يقول توماس كارليل:

«وكانت نية محمد حتى الآن أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة فقط. فلما وجد أن القوم الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته السماوية وعدم الإصغاء إلى صوت ضميره وصيحة لبّه، حتى أرادوا أن يسكتوه فلا ينطق بالرسالة، عزم ـ ابن الصحراء ـ على أن يدافع عن نفسه دفاع رجل ثم دفاع عربي، ولسان حاله يقول: «**وأما وقد أبت قريش إلا الحرب، فلينظروا أي فتيان هيجاء نحن**»، وحقاً رأى. فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق، وشريعة الصدق، وأبوا إلا تمادياً في ضلالهم يستبيحون الحريم، ويهتكون الحرمات، ويسلبون وينهبون، ويقتلون النفس التي حرم الله قتلها، ويأتون كل إثم ومنكر، وقد جاءهم محمد من طريق الرفق والأناة، فأبوا إلا عتوّاً وطغياناً، فليجعل الأمر إذن إلى الحسام المهند، والوشيج المقوم، وإلى كل مسرودة حصداء، وسابحة جرداء، وكذلك قضى

---

(١) انظر فيما تقدم: نبوة محمد ﷺ في الفكر الاستشراقي، ص٥١٢ ـ ٥١٨.

محمد بقية عمره وهي عشر سنين أخرى في حرب وجهاد لم يسترح غمضة عين، وكانت النتيجة ما تعلمون»[١].

ويقول المستشرق المسلم نصر الدين (دينيه) بعد وصفه لتكالب الأعداء على النبي ﷺ في المدينة: «شعر الرسول حينئذ أنه لا بد من الالتجاء ـ وفي سرعة ـ إلى السيف لانتصار الإيمان، هذا الانتصار الذي لم تتوطد أركانه إلا بعد فتح مكة حيث الكعبة المقدسة عند العرب. ولقد تلقى الرسول الوحي باستعمال السيف في جهاده ضد الوثنيين: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝١٩٠ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾ [البقرة: ١٩٠، ١٩١]. تلك هي الآيات التي فرضت الجهاد، والتي أثارت من جانب المسيحيين عاصفة من النقد: بيد أن المسيح نفسه، وهو سيدنا وسيد المسيحيين، يعلن:

(لا تظنوا أني جئت أنشر السلام على الأرض، إنني لم آت أحمل السلام، وإنما السيف... إنجيل مَتّى، الإصحاح العاشر ٣٤) (إني جئت لألقي النار على الأرض، وماذا أريد من ذلك إلا اشتعالها، إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني عشر، ٤٦).

وإذا كان الجهاد من أجل نصرة الحق على الوثنية، قد أثار، أثناء بضع سنوات، الاختلاف في أسر مواطني الجزيرة، فما ظنك بكلمات عيسى، وهي الآمرة بالاختلاف أمراً، ألم تستتبع نتائج مفزعة لدى كل الطوائف المسيحية أثناء عصور متطاولة؟.

(إذ إني جئت لأفرق بين الولد وأبيه، والبنت وأمها، وبين زوجة الابن وأمه. إنجيل متى، الإصحاح العاشر، ٣٥) (إن كان أحد يأتي إلي ولا يبغض أباه وأمه، وامرأته وأولاده، وإخوته وأخواته، حتى نفسه أيضاً، فلا يقدر أن يكون لي تلميذاً. إنجيل لوقا، الإصحاح الرابع عشر، ٢٦).

... لقد صبر محمد طويلاً، وصبر المؤمنون معه كذلك حقبة من طويلة على إيذاء المشركين، الذين أخرجوهم من ديارهم بعد أن أذاقوهم فيها أليم العذاب. فرأى المسلمون ـ مؤيدين بالقرآن ـ أن لهم الحق في استعمال السيف دفاعاً عن أنفسهم.

---

(١) الأبطال، ص٧٠ ـ ٧١.

كان موقع المدينة يساعدهم على النصر، ذلك لأنها تسيطر على كل الطرق التي تمر بها القوافل إلى سوريا، وكانت التجارة المورد الوحيد بمكة المحوطة بواد غير ذي زرع، فإذا ما منع الرسول هذه القوافل فلا بد من أن المجاعة ستسود هذه البلدة الجاحدة وتضطرها إلى الإتيان خاضعة للرسول دون أن يلجأ إلى إراقة دماء قومه المكيين، الذين كان يحافظ عليهم، رغم إيذائهم له، والذين كان يود لهم الخير، أملاً في أن يهتدوا يوماً، فيكون منهم الأساس الإسلامي الوطيد. عندئذ بدأت السلسلة الطويلة من السرايا والغزوات..»[1].

(١) محمد رسول الله، ص٢٠٣ ـ ٢٠٤.

المبحث الرابع

نجاحه ﷺ في تبليغ الرسالة ونشرها

يعزو كثير من المستشرقين نجاح دعوة الإسلام وانتشار رسالة النبي ﷺ إلى الجهاد الذي قام على حد السيف، وكان سبباً في إرغام الناس على عقيدة الإسلام، فالسيف في زعم هؤلاء كان من أهم الأسباب لانتشار رسالة الإسلام ودعوة النبي ﷺ والتي بلغت ذروتها في فترة الفتوحات التي تلت وفاته ﷺ.

وإلى هذا الرأي ذهب جماعة كبيرة من المستشرقين قديماً وحديثاً:

١ ـ يقول المستشرق الهولندي فان فلوتن (ت١٩٠٣م): وقد أصبح الإسلام بفضل ذلك النفوذ الذي كان يتمتع به الرسول ديناً قويّاً قام بحد السيف، وانتشر بين الشعب عن طريق الإنذار والوعيد، ولم يكن اعتناق أهل جزيرة العرب للإسلام، أو بالأحرى خضوعهم له نتيجة دعاية سليمة وادعة، فقد أرغم ما كان للنبي محمد من قوة ونفوذ بعض القبائل العربية من أهل البدو على الدخول في الإسلام[١].

٢ ـ ويقول المستشرق موير: إن الدعائم التي سار عليها محمد، وقد كانت سياسية محضة إذ أنه لم يكن قد أقر حتى ذلك الحين ـ يعني: مذبحة بني قريظة ـ

(١) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات: فان فلوتن، ص٥.

طريقة إكراه الناس على اعتناق الإسلام أو معاقبتهم على رفضه[١].

٣ ـ ويقول المستشرق واشنطون إرفنج: «بدأت فترة هامة في حياة محمد، فقد ظل حتى الآن ينشر الإسلام معتمداً على الحجة والإقناع، صابراً على ما يلقاه من أذى المشركين حتى نزل كثير من الآيات تحثُّ المسلمين على الجهاد، وتبشر من استشهد بالجنة، وهكذا انتقل الإسلام من دور الحجة والإقناع إلى دور الجهاد والقوة، ولم يكن ذلك غريباً على العرب الذين عرفوا بالشجاعة والإقدام وحب القتال»[٢].

٤ ـ وتحدث المستشرق الإنجليزي ويلز (Wells) (ت١٩٤٦م) تحت عنوان: (غدر محمد) قائلاً: «كان دين الله الوحيد، قد بدأ بتعدد هجوم وغارات نحو قوافل مكة»[٣].

٥ ـ وصرح المستشرق هاملتون جب بقوله: «إن الحروب الإسلامية عدوانية توسعية»[٤].

٦ ـ ويقول المستشرق ماكدونالد: «نشر الإسلام بالسيف فرض كفاية على المسلمين كافة»، ثم يقول: «ومن ثم وجب الاستمرار في الجهاد إلى أن يدخل الناس كافة في حكم الإسلام»[٥].

٧ ـ وأما المستشرق الإنجليزي أندرسون (Anderson) فيرى: أن الجهاد لا يتفق مع الأوضاع الدولية الحديثة لارتباط المسلمين بالمنظمات العالمية والمعاهدات الدولية؛ ولأن الجهاد هو الوسيلة لحمل الناس على الإسلام، وأوضاع الحرية، ورقي العقول، لا تقبل فكرة تفرض بالقوة[٦].

٨ ـ ويصور المستشرق كولي (M. Colly) الإسلام في كتابه «البحث عن الدين الحق» بهذه الصورة: «في القرن السابع برز في الشرق عدو جديد ذلك هو الإسلام الذي أُسس على القوة، وقام على أشد أنواع التعصب، لقد وضع محمد

(١) آيات الجهاد في الإسلام: د. كامل سلامة الدقس، ص٩٩.
(٢) المرجع السابق، بنفس الصفحة.
(٣) المرجع السابق، ص٩٩، نقلاً عن كتاب: Wells H.J.The out Line of The History. P.600.
(٤) دراسات في حضارة الإسلام: هاملتون جب، ص٥٠ وما بعدها.
(٥) دائرة المعارف الإسلامية، مادة: (جهاد).
(٦) كما نقل ذلك عنه د. وهبة الزحيلي في كتابه: آثار الحرب في الفقه الإسلامية، ص٩٥.

السيف في أيدي الذين اتبعوه، وتساهل في أقدس قوانين الأخلاق، ثم سمح لأتباعه بالفجور، والسلب ووعد الذين يهلكون في القتال بالاستمتاع الدائم بالملذات (في الجنة)، وبعد قليل أصبحت آسيا الصغرى وأفريقيا وإسبانيا فريسة له، حتى إيطاليا هددها الخطر، وتناول الاجتياح جنوب فرنسا.

لقد أصبحت المدينة مصابة، ولكن هياج هؤلاء الأشياع (المسلمين) تناول في الأكثر كلاب النصارى... ولكن انظر، ها هي النصرانية تضع بسيف شارل مارتل (Charles M.) سدّاً منيعاً في وجه الإسلام المنتصر عند بواتيه سنة ٧٥٢م، ثم تعمل الحروب الصليبية في مدى قرنين (١٠١٩ ـ ١٢٥٤م) في سبيل الدين. فتدجج أوروبا بالسلاح، وتنجي النصرانية، وهكذا تقهقرت قوة الهلال أمام راية الصليب، وانتصر الإنجيل على القرآن، وعلى ما فيه من قوانين الأخلاق الساذجة[١].

وقد نال هذا الكتاب رضا البابا ليون الثالث عشر سنة ١٨٨٧م وعاش في المدارس المسيحية في الشرق والغرب إلى اليوم[٢].

٩ ـ وأما المستشرق و.س نيلسون (Nielson) فيقول: «لقد أخضع سيف الإسلام شعوب إفريقيا وآسيا وشعباً بعد شعب»[٣].

١٠ ـ ويقول المستشرق بروكلمان: كيف يتسق في عقل إنسان مفكر موضوعي يبتغي الحقيقة أن ينادي الإسلام بحرية الفكر والمعتقد، ويدعي الحجة والإقناع كما ورد في قرآنه.

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾﴾ [النحل: ٨٢].

ثم يعتمد على السيف ليفرض نفسه على الشعوب؟ يتحتم على المسلم أن يعلن العداوة على غير المسلمين حيث وجدهم؛ لأن محاربة غير المسلمين واجب ديني[٤].

---

(١) البحث عن الدين الحق: المونسنيور كولي، ص٢٢٠، الاستشراق والتبشير وصلتها بالإمبراطورية العالمية: إبراهيم خليل أحمد، ص٦٣.

(٢) الاستشراق والتبشير وصلتها بالإمبراطورية العالمية، ص٦٣.

(٣) التبشير والاستعمار: الخالدي وفروخ، ص٤١.

(٤) تاريخ الشعوب الإسلامية: كارل بروكلمان، ص٨٧.

ويمكن أن نلخص أراجيف المستشرقين، والتي تقدم ذكر نصوصها بما يلي:

١ ـ تصوير الإسلام بأنه يقوم على القهر والغلبة، فهو يعمل على فرض نفسه على الناس بالقوة.

٢ ـ وكذلك يقوم على حرمان الناس من حرية الرأي والعقيدة.

٣ ـ أن الإسلام سلك في سبيل نشر دعوته طريق الحرب.

٤ ـ الحرب أصل الصلة بين الإسلام وشعوب الأرض، والسلم لا يكون إلا موقوتاً لضرورة مؤقتة.

٥ ـ عدم الالتزام بالعهود والمواثيق(١).

أهداف المستشرقين من هذه الفرية:

إن ترويج هؤلاء المستشرقين لفرية أن الإسلام قام بحد السيف، وأن المسلمين حملوا سيوفهم لإرغام الناس على عقيدة الإسلام، يرمي إلى تحقيق أهداف كثيرة منها:

١ ـ تثبيط مشاعر المسلمين الجهادية، والتقليل من شأن الجهاد، والتنفير منه، حتى يصلوا في النهاية إلى أنه لا حاجة اليوم لهذه الأداة المروعة للناس.

٢ ـ كما أنهم أرادوا أن يزرعوا في نفوس أبناء المسلمين الذين لم يبق لهم من الإسلام إلا اسمه أن آباءهم وأجدادهم دخلوا في الإسلام مكرهين خوفاً من سيوف المسلمين، وما دام لاخوف منهم اليوم فلا حاجة إلى الإسلام، بل عليهم بدين عيسى وموسى دين السلام والرحمة والتسامح(٢).

وبعد ذكر أهداف المستشرقين من شبهاتهم يظهر لنا أن أعداء الإسلام قاموا بمحاولات ذكية ماكرة أرادوا بها تدمير ذروة سنام الإسلام من واقع المسلمين عن طريق تحريف معنى الجهاد، وتفريغه من مضامينه، ووضع قوى سرابية باردة مكانه يسهل عليهم أن يوجهوا ضدها ضرباتهم القاصمة.

---

(١) آيات الجهاد في القرآن الكريم، ص٩٨ ـ ٩٩.

(٢) آيات الجهاد في القرآن الكريم: كامل سلامة الدقس، ص١٠١، ومنهج الإسلام في الحرب والسلام: عثمان جمعة ضميرية، ص١٣٤.

الرد على هذه الفرية[1]:

والرد على هذه الفرية يتضمن ثلاثة أمور:

١ ـ إبطال هذه الفرية من حيث المبدأ.

٢ ـ إبطالها من حيث الواقع.

٣ ـ شهادة بعض المستشرقين المنصفين على بطلانهما.

أولاً: تعارض هذه الفرية مع مبادئ الإسلام الأساسية يدل على بطلانها:

١ ـ إن دعوى المستشرقين بأن الإسلام استخدم السيف وسيلة لإرغام الناس على الدخول فيه دعوة باطلة؛ لأن الإسلام انتشر بمبادئه وتعاليمه السامية، تلك المبادئ التي تقوم على الحجة والإقناع، وتخالف ما جاء به المستشرقون وتلامذتهم فالله تعالى يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

يقول ابن كثير رحمه الله: أي: لا تكرهوا أحداً على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيّن واضح جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه، بل من هداه الله للإسلام وشرح صدره ونوَّر بصيرته دخل فيه على بيِّنة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فإنه لا يفيده الدخول في الدين مكرهاً مقسوراً[2].

فمن هذا يتبيَّن لنا أن قول المستشرقين يتعارض مع مبادئ الإسلام الأساسية، وهذا مما يدل على فساد قولهم.

٢ ـ الدعوة في الإسلام تقوم على أسس ثابتة لا تتغير، هذه الأسس تتمثل في الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: ١٢٥]

فالله يخاطب رسوله بأن يدعو الناس إلى الدخول في دين الله بالأسلوب الحكيم لا بالزجر والقسوة والشدة، وهذا المبدأ يتعارض مع باطل المستشرقين وقولهم بأن الإسلام انتشر بالسيف.

---

(١) انظر: المستشرقون والقرآن: د. محمد بني عامر، ص٤٦٢ وما بعدها.

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٦٨٢).

٣ ـ قامت الدعوة الإسلامية على أسس منها احترام العقل، فهو دليل صحيح في إثبات وجود الله تعالى، وهو مما يتميز به الإنسان عن غيره من الحيوانات، به يستطيع أن يفكر، ويحصّل العلم. وقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله تحض على التفكر والتدبر، فالإسلام يجعل من التدبر والتأمل طريقته المثلى لمعرفة الله وخشيته، وهو يعمل على إطلاق العقل من إساره، ويضع عنه الأغلال التي قد تعطله، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [يونس: ١٠١]. فالآية تدعو العقل إلى النظر والتفكير دون حدود.

ولقد نعى الإسلام على المقلدين الذين ساروا على طريق الآباء والأجداد، وتركوا حرية التفكير: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ [البقرة: ١٧٠]، فالإسلام عظم العقل وكرّمه قال تعالى: ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [الحج: ٤٦].

فإذا كان هذا موقف الإسلام من حرية الفكر، فهو يطالب باستعمال العقل، وينعي على المقلدين، فكيف به يرضى بالإكراه، إن الإسلام دين يعتبر الحرية والاختيار أساس الاعتقاد والمسؤولية. وهذا يدل على بطلان قول المستشرقين.

ثانياً: واقع الإسلام يخالف هذه الفرية الباطلة:

أ ـ إن واقع الدعوة الإسلامية في مكة يشير إلى بطلان هذا القول، حيث إن النبي ﷺ عاش في مكة ثلاث عشرة عاماً يدعو إلى الله فآمن به من آمن وكفر من كفر، وهنا نقول لأولئك المستشرقين:

من الذي أجبر الناس على الدخول في الإسلام في بداية الدعوة عندما كان المسلمون مستضعفين في الأرض لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، وكان المشركون يفتنون المسلم بأنواع من العذاب، ولا يجدون رادعاً، فهل كان السيف يعمل عمله في إكراه الناس على الإسلام بمكة، ومن الذي أجبر الأوس والخزرج على الدخول في الإسلام؟.

إن دخول هؤلاء الأقوام في الإسلام كان بالحجة والإقناع وهو ما يدل دلالة واضحة على بطلان مبدأ السيف، والتاريخ يسجل أنه ما كان للمسلمين من

سيف يصول على أعدائه الأقوياء، بل كان بعض المسلمين ضحايا السيف وطرائد الغشم والجبروت.

ب ـ ومما يدل على بطلان هذا المبدأ أن قادة الفتح الإسلامي كانوا يخيرون أصحاب البلاد المفتوحة بين أمور ثلاثة، إما قبول الدعوة الإسلامية، أو دفع الجزية، أو القتال لمن أبى، فكانت الدعوة تسبق القتال.

وقد ذكر ابن كثير في كتابه البداية والنهاية: أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بعث طائفة من أصحابه إلى كسرى يدعونه إلى الله قبل وقعة القادسية فلما دخلوا عليه وسألهم عن سبب قدومهم إلى هذه البلاد بين له النعمان بن مقرن رضي الله عنه ذلك: «بأن الله رحم العرب فأرسل لهم رسولاً يدلهم على الخير وينهاهم عن الشر».

ثم قال: «وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين الإسلام حسّن الحسن، وقبّح القبيح كله، فإن أبيتهم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء (الجزية) فإن أبيتهم فالمناجزة، وإن أجبتم إلى ديننا خلّفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه على أن تحكموا بأحكامه ونرجع عنكم، وبلادكم، وإن أتيتمونا بالجزية قبلنا ومنعناكم وإلا قاتلناكم»[1].

ج ـ نقول لأولئك المستشرقين: بأن الإسلام انتقى السيف، وناضل وجاهد في تاريخه الطويل لا ليكره أحداً على الإسلام، ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضي الجهاد:

١ ـ جاهد ليدفع عن المسلمين الظلم والأذى والفتنة التي كانوا يسامونها، وليتحقق لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، قال الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ﴾ [الأنفال: ٧٢].

٢ ـ وجاهد المسلمون لإزالة العقبات من طريق الدعوة أيّاً كانت هذه العقبات اقتصادية، أو سياسية، أو بشرية، وهي تلتزم هذا الهدف أبداً فلا يغريها الاستيلاء على البلاد، ولا استعباد العباد، ولا الاستعلاء على الأرض بغير الحق، ولا انتهاب الثروات، فالإسلام يركز اهتمامه على إبلاغ الناس الخير، ومن هنا فلا بد من إزالة الحواجز التي تقف في وجه الخير، ولا بد من إزالة العقبات التي تمنع الناس أن يسمعوا، وأن يقتنعوا، وأن ينضموا إلى موكب

---

(١) البداية والنهاية (٩/ ٦٢٦).

الهدى إذا أرادوا؛ لأن الدعوة الإسلامية رسالة اجتماعية إصلاحية تنطوي على مبادئ الخير والصلاح.

٣ ـ وجاهد الإسلام لإقامة نظامه الخاص، وتقريره وحمايته، وهو النظام الذي يعمل على تحقيق السعادة للبشرية جمعاء، ويسعى إلى إلغاء عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها، فمن حق هذا النظام أن يجاهد ليقطع النظم الباغية التي تقوم على عبودية البشر للبشر.

٤ ـ وجاهد لرد الظلم والبغي والعدوان عن الدين والوطن والأهل والمال والولد ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [الحج: ٣٩]، إذن الإسلام لم يحمل السيف ليكره الناس على اعتناقه، ولم ينتشر بالسيف كما زعم أعداء الإسلام، إنما حمل السيف ليقيم نظاماً آمناً يأمن في ظله أصحاب العقائد جميعاً، ويعيشون في إطاره خاضعين له، وإن لم يعتنقوا عقيدته.

د ـ قوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، هذه قاعدة كبرى من قواعد الإسلام، وركن عظيم من أركان سياسته، فالإسلام لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه ولا يسمح لأحد أن يكره أحداً من أهله على الخروج منه، والمسلم يتمكن من تنفيذ هذا الركن وحفظ هذه القاعدة إذا كان صاحب قوة ومنعة يستطيع بها حماية نفسه ودينه ممن يحاول فتنه وإبعاده عنه.

فالإسلام يقيم دعوته على الحكمة والموعظة الحسنة، والمجادلة بالتي هي أحسن للمخالفين معتمداً على تبين الرشد من الغي بالبرهان، وهو الصراط المستقيم إلى الإيمان، مع حرية الدعوة، وأمن الفتنة، ولو صح قول المستشرقين لما قبل الإسلام الجزية من أهل الذمة، فالجهاد ليس من جوهر الدين ومقاصده وإنما هو سياج له وجُنة، فهو أمر سياسي لازم له للضرورة[١].

يقول الدكتور محمد الحبيب بن الخوجة التونسي: «لم تكن الدعوة الإسلامية إلزاماً، ولكنها إيقاظ وتنبيه، وتوجيه وإرشاد تأخذ بالناس إلى طريق الخير والهداية، بعد أن تملأ عقولهم إقناعاً وقلوبهم إيقاناً، وهي في نفس الوقت تكفل لهم حرية المعتقد والسلوك»[٢].

---

(١) تفسير المنار (٣/ ٣٩).

(٢) مفتريات على الإسلام: أحمد محمد جمال، ص٢١٥.

ولو أن الاسلام انتشر بالسيف لما سمح لأصحاب الديانات أن يمارسوا شعائرهم الدينية بحرية تامة.

هـ ـ نقول لأولئك المستشرقين ومعظمهم من اليهود والنصارى، لقد رميتم المسلمين بالتعصب والقسوة، فهلا راجعتم مصادركم لتشاهدوا فرض المبادئ بالقوة.

فالحرب في اليهودية حرب إبادة وتدمير، وإفناء لكل عدو يقف في وجهها وتمتلكه يداها، تقول التوراة في سفر التثنية:

«فضرباً تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف، وتحرقها بكل ما فيها من بهائمها بحد السيف، تجمع كل أمتعتها إلى وسط ساحتها، وتحرق بالنار المدينة أمتعتها كاملة للرب إلٰهك، فتكون تلالاً إلى الأبد لا تبنى بعد»[١].

وجاء فيها أيضاً: «إذا خرجت للحرب على عدوك ورأيت خيلاً ومراكب قوم أكثر منك فلا تخف منهم لأن معك الرب إلٰهك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك وعملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب إلٰهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم، وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك، ونأكل غنيمة أعدائك، التي أعطاك الرب إلٰهك، هكذا تفعل في جميع المدن البعيدة جدّاً أما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلٰهك نصيباً فلا تستبقي منها نسمة ما»[٢].

فليت هؤلاء الطاعنين يقفون عند نصوص كتبهم، ويعرفون ما بها من حب لسفك الدماء، وقسوة ووحشية في الحروب، وأما المستشرقون النصارى الذين يرمون الإسلام بالأباطيل، فليتهم يرجعون إلى نصوص أناجيلهم ليروا كيف جاء في إنجيل متى: «لا تظنوا أني جئت لألقي سلاماً بل سيفاً، فإنني جئت لأُفرق الإنسان ضد أبيه، والابنة ضد أمها، والكنة ضد حماتها»[٣].

وليت هؤلاء يراجعون تاريخهم وحملاتهم التي كان هدفها القضاء على الإسلام منذ بعثته ﷺ حتى يومنا الحاضر، إن مؤامرات اليهود في المدينة المنورة

(١) سفر التثنية (١٣/ ١٥ ـ ١٦).
(٢) سفر التثنية (٢٠/ ١٠ ـ ١٨).
(٣) سفر متّى (١٠/ ٢٤).

ما زال التاريخ يسجلها، وما زالت الأجيال تتناقلها جيلاً بعد جيل.

كما أن حملات الصليب على بلاد المسلمين تركت في التاريخ أقسى ما عرف من التعصب، إن مذابح بيت المقدس في ١٥/٧/١٠٩٩م التي لم يرحموا فيها شيخاً ولا طفلاً، لقد حطموا رؤوس الصبيان على الجدران، وألقوا الأطفال الرضع من أسوار المعاقل والحصون، وشووا الرجال على النار، وبقروا بطون الحوامل ليروا هل ابتلع أهلها الذهب، واستمرت هذه المذبحة ثلاثة أيام، ولم تنته إلا لما أعياهم الإجهاد من القتل، وقد شوهد القاصد الرسولي مندوب البابا وهو يشارك في هذا الانتصار(١).

حقّاً إن حملات الصليب حملات بربرية همجية، وكيف لا تكون كذلك وهي صفحة سوداء في تاريخ أوروبا كلها. وما زال التاريخ يذكر محاكم التفتيش التي كانت تأمر بتعميد العرب كُرهاً، ثم بحرق كثير من المعمدين، يقول المستشرق غوستاف لوبون:

«الراهب بليدا أبدى ارتياحه لقتل مائة ألف مهاجر من قافلة واحدة مؤلفة من (١٤٠٠٠٠) مهاجر مسلم حينما كانت متجهة إلى إفريقية»(٢). وبعد أن ذكر لوبون في كتابه «حضارة العرب» خسارة ثلاث ملايين مسلم بين ذبح وحرق وتهجير في إسبانية قال: «ولا يسعنا سوى الاعتراف بأننا لم نجد بين وحوش الفاتحين الإسبان من يؤاخذ على اقترافه مظالم قتل، كتلك التي اقترفت ضد المسلمين»(٣).

إن قلوب هؤلاء تقطر حقداً على الإسلام فها هو البابا نيقولا الرابع، والبابا أريانوس (Aryanos) السادس يصدرا هذه الفتوى الدينية التاريخية التي تشير إلى هذا الحقد الدفين، «إن الغدر إثم، ولكن الوفاء مع المسلمين أكثر إثماً»(٤).

ثم نقول بعد ذلك لأولئك المستشرقين، من كان هذا حاله فهل يحق له أن يتهم الإسلام بالهمجية، والمجاهدين بسفك الدماء.

---

(١) روح الإسلام: سيد أمير علي، ص٨٦.
(٢) حضارة العرب، ص٢٧٠ ـ ٢٧١.
(٣) المرجع السابق، ص٢٧٢.
(٤) آيات الجهاد في القرآن الكريم: كامل الدقس، ص١٠٣، نقلاً عن:
Ofijire-du-droit-des. Jens (enjs) P. 216.

لقد زعم المبشرون والمستشرقون أن روح المسيحية تنكر القتال على إطلاقه، لكن تاريخ المسيحية شاهد عدل وتاريخ الإسلام أمامنا شاهد عدل، فمنذ فجر المسيحية إلى يومنا هذا خضبت أقطار الأرض جميعاً بالدماء، باسم السيد المسيح خضبها الروم، وخضبتها أمم أوروبا كلها، والحروب الصليبية إنما أذكى لهيبها المسيحيون لا المسلمون، ولقد ظلت الجيوش باسم الصليب تنحدر من أوروبا خلال مئات السنين قاصدة أقطار الشرق الإسلامية، تقاتل وتحارب وتريق الدماء، وفي كل مرة كان البابوات خلفاء المسيح يباركون هذه الجيوش الزاحفة للاستيلاء على بيت المقدس، وعلى الأماكن النصرانية المقدسة.

أفكان هؤلاء البابوات جميعاً هراطقة؟، وكانت عقيدتهم زائفة؟ أم كانوا أدعياء جهالاً لا يعرفون أن المسيحية تنكر القتال على إطلاقه؟، أم يقولون: تلك كانت العصور الوسطى عصور الظلام فلا يحتج على المسيحية بها؟.

وإن يكن ذلك بعض ما قد يقولون، فإن القرن الذي نعيش فيه والذي قبله يسمونه عصر الحضارة والرقي والتقدم قد شاهد ما شهدته تلك العصور المظلمة، شاهد حرب الإبادة لشعوب كاملة باسم الحضارة.

لقد وقف اللورد الإنجليزي اللنبي (ت١٩٣٦م) ممثل الحلفاء: انكلترا وفرنسا وإيطاليا ورومانيا وأمريكا، يقول في بيت المقدس في سنة ١٩١٨م حين استيلائه عليها في أخريات الحرب العالمية الأولى: اليوم انتهت الحرب الصليبية(١).

إن الشواهد التاريخية خير دليل على أن الإسلام لم ينتشر بقوة السلاح، ولكنه انتشر بعقلانيته وسماحته، وقوته الذاتية وكمال منطقه، وخصاله الحميدة، فأين السيف في حال ضعف المسلمين.

لقد بدأت دعوة الإسلام قوية ثم أصابها الضعف والوهن، فتعرضت لغزو المغول والتتار في القرن السابع الهجري، وسار هؤلاء القوم في قلب العالم الإسلامي يعيثون في الأرض فساداً، ثم لم يلبث الإسلام أن نهض من تحت أنقاض عظمته الأولى، وأطلال مجده التالد، واستطاع بواسطة دعاته أن يجذب أولئك الغزاة ويحملهم على الإسلام.

---

(١) حياة محمد: محمد حسنين هيكل، ص٢٥٣.

وهنا نقول للمستشرقين: فهل دخل هؤلاء بقوة السيف، وأي سيف يمشق على رؤوسهم بينما كانت سيوفهم هي التي تمشق على رؤوس المسلمين، فمن يصدق أن هؤلاء المتوحشين يدخلون الإسلام.

وها عصر الحضارة المزعوم في القرن العشرين شاهد على ذلك، المسلمون يعيشون في ضعف، والإسلام ينتشر بمبادئه حتى لا تكاد تخلو منه دولة من دول العالم في هذه الأيام فهل السيف أوصل الإسلام إلى هذه الدول، لقد انتشر الإسلام في أفريقيا انتشار شعاع النور في الظلمة السوداء تلقائيّاً دون عناء، فأقبل عليه الأفارقة باعتباره دين الفطرة من غير قوة أو عنف.

وانتشر الإسلام في الهند والصين وأوروبا وحتى أمريكا عن طريق الإقناع والموعظة الحسنة على يد دعاة هذا الدين.

وانتشر في جنوب شرقي آسيا في أندونيسيا والفلبين... إلخ، وإذا ألقينا نظرة عامة على خريطة العالم الحاضر، في بلاد أندونيسيا والهند والصين وسواحل إفريقية، فكيف يفسرون لنا انتشار الإسلام في هذه البلاد.

و ـ اعتراف بعض المستشرقين الغربيين بهذه الحقيقة وردهم على إخوانهم الذين انحرفت فطرهم، وأسوق بعض شهاداتهم لا من أجل تقرير هذه الحقيقة في الإسلام، وإنما من باب (وشهد شاهد من أهلها):

١ ـ يتحدث المستشرق توماس كارليل عن هذه الدعوى فيقول:

«ولقد قيل كثيراً في شأن نشر محمد دينه بالسيف، فإذا جعل الناس ذلك دليلاً على كذبه، فشد ما أخطأوا وجاروا. فهم يقولون ما كان الدين لينتشر لولا السيف، ولكن ما هو الذي أوجد السيف؟ هو قوة ذلك الدين وأنه حق، والرأي الجديد أول ما ينشأ يكون في رأس رجل واحد، فالذي يعتقده هو فرد، فرد ضد العالم أجمع. فإذا تناول هذا الفرد سيفاً وقام في وجه الدنيا فقلما والله يضيع. وأرى على العموم أن الحق ينشر نفسه بأي طريقة، حسبما تقتضيه الحال.

أو لم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحياناً؟ وحسبكم ما فعل شارلمان بقبائل السكسون. وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف، أم باللسان، أم بأية آلة أخرى.

فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار. لندعها تكافح

وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يهزم، وليس في طاقتها قط أن تفني ما هو خير منها بل ما هو أحط وأدنى، فإنها حرب لا حكم فيها إلا للطبيعة ذاتها، ونعم الحكم ما أعدل وما أقسط، وما كان أعمق جذراً في الحق، وأذهب أعراقاً في الطبيعة فذلك هو الذي ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة، نامياً زاكياً وحده[١] . . .

٢ ـ ويذهب المستشرق إدوارد مونتيه إلى القول: لقد تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة التي وطدت سلطة نبي الإسلام محمد ﷺ وإصلاحه بعيداً عن حدود بلاد العرب، ولقد كرروا ولا يزالون يكررون حتى الآن أن نجاح العقيدة الإسلامية يرجع إلى العنف وإلى القوة والسيف في عهد محمد وعهد خلفائه الأولين ـ يعني: الخلفاء الأربعة ـ ولكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع، فإن الفكرة لا تضع موضع الاعتبار العناصر المختلفة للمسائل المراد حلها والوقوف على حقيقتها»[٢].

٣ ـ ويقرر المستشرق دوزي تسامح الإسلام فيقول: «إننا نرى الإسلام قد انتشر بسرعة مدهشة بين تلك الشعوب التي غزاها، وهذه ظاهرة لم ير لها العالم مثيلاً من قبل، وهي تبدو لأول وهلة لغزاً مستتراً لا سبيل إلى حلّه وتعليله، لا سيما إذا عرفنا أن هذا الدين لا يكره أحداً على الدخول فيه، وقد كان محمد يأمر بالتسامح والإغضاء، وقد وضع للمسلمين قاعدة الجزية وفرضها على كل من لم يدن به من أهل الكتب المنزلة من اليهود والنصارى، فمنحهم حريتهم الدينية على أن يدفعوا ما فرضه عليهم من الجزية، وزاد في تسامحه فمنح هذه المزية لمن يقطن إقليم البحرين من المشركين.

ثم قال: أضف إلى هذا أن الحكم الإسلامي كان يتوخى التيسير والخير العام والبر بالشعوب المحكومة، لا سيما النصارى، فقد كان سواد المسيحيين في الشرق ينتمي إلى مذاهب لقيت من اضطهاد حكومة قسطنطينية واعتنانها ما أرهق أصحابها إرهاقاً، فلما جاء الإسلام ومن طبيعته التسامح والإخاء ترك لهم الحرية

---

(١) حياة محمد: محمد حسنين هيكل، ص٢٥٣.

(٢) محمد رسول الله في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه وكتابه: محمد فهمي عبد الوهاب، ص١٧.

التامة في البقاء على دينهم ما داموا يؤثرونه على غيره من الأديان، وظللهم بحمايته وساوى بينهم في الحقوق على اختلاف مذاهبهم وشتى نحلهم.

ثم ذكر الأسباب التي دعت إلى الدخول في دين الإسلام، ومنها:

أ ـ تخلصهم من الضرائب الفادحة التي كانت تأخذها منهم حكومة الرومان.

ب ـ رأوا أن الجزية التي فرضها الإسلام قليلة في مقابل حمايته لهم وإعطائهم الحرية الدينية.

ت ـ شعورهم بالكرامة في ظل الإسلام، ونيل حقوقهم كاملة غير منقوصة»[١].

٤ ـ ويقول المستشرق هوبيرد يشان (Huberd yasan) حاكم المستعمرات الفرنسية في أفريقيا: «لم تقم دعوة الإسلام على القسر، بل قامت على الإقناع الذي يتولاه فريق من الدعاة الذين لا حول لهم ولا طول إلا إيمانهم العميق بالله، وكثيراً ما انتشر الإسلام بتسرب سلمي بطيء من قوم إلى قوم... ولقد سهَّل انتشاره أمر آخر هو أنه دين الفطرة، سهل التناول لا لبس فيه ولا تعقيد، سهل التكييف والتطبيق في جميع الظروف»[٢].

أسباب انتشار الإسلام:

الذي يدقق النظر في تاريخ الدعوة الإسلامية يجد أنها في فترة بسيطة من الزمان قد وصلت إلى بقاع متعددة في العالم، ولا يمكن إرجاع سرعة انتشار الإسلام إلى السيف، وإنما يمكن القول بأن الإسلام انتشر بمبادئه وعقلانيته وسهولة تعاليمه وبساطته.

ولهذا يعلل المؤرخ (دوزي) إقبال أهل الذمة على الإسلام بأنهم رأوا فيه اليسر والبساطة، مما لم يألفوه في دياناتهم السابقة[٣].

(١) الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب: أحمد بن حجر آل أبو طامي، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

(٢) مفتريات على الإسلام: أحمد محمد جمال، ص٦٠.

(٣) الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب: أحمد بن حجر آل أبو طامي، ص١٤٧ ـ ١٤٨.

وأما المستشرق توماس أرنولد فيرجع سرعة انتشار الإسلام إلى عاملين:

الأول: نجاح العرب الواسع الذي زعزع عقيدة المسيحيين.

الثاني: ما كان ينادي به الإسلام من مثل عليا ترمي إلى أخوة المؤمنين كافة[١].

وقد نفى أرنولد أن يكون الاضطهاد هو الدافع لأهل الذمة على اعتناق الإسلام فيقول: «وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد على هذا النحو إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي، ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة عن التصديق»[٢].

ويرى المستشرق الإيطالي كايتاني: أن إقبال أهل الذمة على اعتناق الإسلام كان بسبب أحوال الكنيسة الشرقية، وتعقيد التعاليم المسيحية فيقول: «إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهلينية إلى اللاهوت المسيحي، أما الشرق الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهيلينية وبالاً عليه من الوجهة الدينية؛ لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوظة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك والشبهات[٣]»[٤].

وقد ذكر المستشرق غوستاف لوبون ضمن كتابه الشهير «حضارة العرب» جملة من الأسباب عزا إليها سرعة انتشار الإسلام مقارنة بالأديان الأخرى كما رد على مزاعم بعض المستشرقين في هذه المسألة، كما يقول:

«وتشتق سهولة الإسلام العظيمة من التوحيد المحض، وفي هذه السهولة سر قوة الإسلام، وإدراكه سهل، خالٍ مما نراه في الأديان الأخرى ويأباه الذوق السليم، غالباً، من المتناقضات والغوامض، ولا شيء أكثر وضوحاً وأقل غموضاً من أصول الإسلام القائلة بوجود إله واحد وبمساواة جميع الناس أمام الله، وببضعة فروض يدخل الجنة من يقوم بها ويدخل النار من يعرض عنها، وإنك إذا ما اجتمعت بأي مسلم من أية طبقة، رأيته يعرف ما يجب عليه أن يعتقد ويسرد

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص٧٠.

(٢) المرجع السابق، ص٨٨.

(٣) المرجع السابق، ص٨٩ ـ ٩٠.

(٤) انظر فيما تقدم: المستشرقون والقرآن: د. محمد بني عامر، ص٤٦٢ ـ ٤٧٤.

لك أصول الإسلام في بضع كلمات بسهولة، وهو بذلك على عكس النصراني الذي لا يستطيع حديثاً عن التثليث والاستحالة وما ماثلهما من الغوامض من غير أن يكون من علماء اللاهوت الواقفين على دقائق الجدل.

وساعد وضوح الإسلام البالغ وما أمر به من العدل والإحسان كل المساعدة على انتشاره في العالم، ونفسر بهذه المزايا سبب اعتناق كثير من الشعوب النصرانية للإسلام، كالمصريين الذين كانوا نصارى أيام حكم قياصرة القسطنطينية فأصبحوا مسلمين حين عرفوا أصول الإسلام، كما نفسر السبب في عدم تنصر أية أمة بعد أن رضيت بالإسلام ديناً، سواء كانت هذه الأمة غالبة أم مغلوبة.

... والإسلام من أكثر الديانات ملاءمة لاكتشافات العلم، ومن أعظمها تهذيباً للنفوس وحملاً على العدل والتسامح، والبُدهيةُ (البديهية) وإن فاقت جميع الأديان السامية فلسفة، تراها مضطرة أن تتحول تحولاً تاماً لتستمرئها الجموع، وهي لا شك، دون الإسلام في شكلها المعدل هذا»[١].

ثم يمضي لوبون في مناقشة دعاوى بعض المستشرقين الباطلة حول سبب انتشار الإسلام فيقول:

«وقضى أعداء الإسلام من المؤرخين العجب من سرعة انتشار القرآن العظيمة فعزوها إلى ما زعموه من تحلل محمد وبطشه، ويسهل علينا أن نثبت أن هذه المزاعم لا تقوم على أساس، فنقول: إن من يقرأ القرآن يجد فيه ما في الأديان الأخرى من الصرامة، وإن ما أباحه القرآن من تعدد الزوجات لم يكن غريباً على الشعوب المسلمة التي عرفته قبل ظهور محمد، وإن هذه الشعوب لم تجد نفعاً جديداً في القرآن لهذا السبب.

وما قيل من دليل حول تحلل محمد نقضه العلامة الفيلسوف بيل منذ زمن طويل، وقال بيل: بعد أن أثبت أن ما أمر النبي بالتزامه من قيود الصيام وتحريم الخمر ومبادئ الأخلاق هو أشد مما أمر به النصارى: (إن من الضلال، إذن، أن يعزى انتشار الإسلام السريع في أنحاء الدنيا إلى أنه يلقي عن كاهل الإنسان ما شقَّ من التكاليف والأعمال الصالحة، وأنه يبيح له البقاء على سيئ الأخلاق، وقد دوَّن هوتنجر قائمة طويلة بالأخلاق الكريمة والآداب الحميدة عند المسلمين،

(١) حضارة العرب، ص١٢٥ ـ ١٢٦.

فأرى، مع القصد في مدح الإسلام، أن هذه القائمة تحتوي أقصى ما يمكن أن يؤمر به إنسان من التحلي بمكارم الأخلاق والابتعاد عن العيوب والآثام).

ومما نبَّه إليه العلامة بيل أن ملاذ الجنة التي وعد بها المسلمون لا تزيد على ما وعد به النصارى في الإنجيل: (لم تر عين ولم تسمع أذن ولم يخطر على قلب إنسان ما أعده الله للذين يحبونه).

وسيرى القارئ، حين نبحث في فتوح العرب وأسباب انتصاراتهم، أن القوة لم تكن عاملاً في انتشار القرآن، فقد ترك العرب المغلوبين أحراراً في أديانهم، فإذا حدث أن اعتنق بعض الأقوام النصرانية الإسلام واتخذوا العربية لغة لهم فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين ما لم يروا مثله من سادتهم السابقين، ولما كان عليه الإسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل.

وقد أثبت التاريخ أن الأديان لا تفرض بالقوة، فلما قهر النصارى عرب الأندلس فضل هؤلاء القتل والطرد عن آخرهم على ترك الإسلام.

ولم ينتشر الإسلام بالسيف إذن، بل انتشر بالدعوة وحدها، وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخراً كالترك والمغول، وبلغ القرآن من الانتشار في الهند، التي لم يكن العرب فيها غير عابري سبيل، ما زاد معه عدد المسلمين على خمسين مليون نفس فيها، ويزيد عدد مسلمي الهند يوماً فيوماً مع أن الإنكليز، الذين هم سادة الهند في الوقت الحاضر، يجهزون البعثات التبشيرية ويرسلونها تباعاً إلى الهند لتنصير مسلميها على غير جدوى.

ولم يكن القرآن أقل انتشاراً في الصين التي لم يفتح العرب أي جزء منها قط، وسترى في فصل آخر سرعة الدعوة الإسلامية فيها، ويزيد عدد مسلميها على عشرين مليوناً في الوقت الحاضر»[١].

وهذه الإحصائيات التي ذكرها لوبون المتوفى سنة ١٩٣١م قد تجاوزتها أعداد المسلمين كثيراً في يومنا الحاضر، فللّه الحمد والمنة.

إن هذه الامتيازات التي يصف بها هؤلاء المستشرقون الفتوحات الإسلامية لا يصح معها أبداً الاتهام بأن هذه الفتوحات كان هدفها ماديّاً اقتصاديّاً أو كان الدافع إليها الجوع أو الفقر، أو الحاجة للتوسع وفرض النفوذ، أو أن الإكراه

---

(١) المرجع السابق، ص١٢٦ ـ ١٢٩.

على المعتقد كان ملازماً لها، وأن هذه الأمور السابقة جميعاً كانت سبباً وراء انتشار الإسلام، ونجاح دعوة النبي ﷺ ورسالته في الوصول لأرجاء الأرض، وانضمام كثير من الشعوب إليها، فكل هذه الدعاوى ليس لها أساس من الصحة وليس لها استناد من الحقيقة والواقع.



الخاتمة

بعد حمد الله ﷻ على توفيقه وتيسيره في إتمام كتابة هذا البحث، ألخص أهم مضامين البحث ونتائجه التي توصلت إليها، وذلك على النحو التالي:

أولاً: تناول تمهيد البحث التعريف بالاستشراق ببيان مفهومه ونشأته وأهدافه ووسائله، وقد اتضح من خلاله ما يلي:

أ ـ الاستشراق: علم يحاول أصحابه من الغربيين دراسة الشرق وكل ما يتعلق به من حضارة ولغات وآداب ومعتقدات وعلوم وفنون وما شابهها، وذلك لتحقيق دوافع وأهداف مختلفة. وأما المستشرق فهو: باحث غربي يعنى بدراسة الشرق وحضارته وعلومه المختلفة لتحقيق أهداف معينة.

ب ـ الاستشراق لم يظهر بشكل صريح في أوروبا إلا مع نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وإن كانت جذوره تمتد إلى فترة الحروب الصليبية. كما أن الواقع المشاهد يدل على استمرار مفهوم الاستشراق فالاهتمام الغربي بالعالم العربي والإسلامي لم يضعف ولم يتوقف، واستبدال الغرب له بغيره من المسميات اليوم مع بقاء مضمونه لا يغير من الأمر شيئاً.

ج ـ اتجاه الغربيين لدراسة الشرق وإقامة مؤسسة ضخمة لذلك هي مؤسسة

الاستشراق لا بد أن يكون وراءه أهداف معينة، والتي يمكن تلخيصها في الأهداف: الدينية، الاستعمارية، العلمية، الاقتصادية.

د ـ سعى المستشرقون إلى تحقيق أهدافهم من خلال العديد من الوسائل والأساليب. فلم يترك المستشرقون مجالاً من مجالات الأنشطة المعرفية والتوجيهية العليا إلا تخصصوا فيها.

ثانياً: الكتابات الاستشراقية عن النبي ﷺ، وقد ظهر فيها ما يلي:

١ ـ كتابات الفكر المسيحي البيزنطي عن النبي محمد ﷺ:

أ ـ احتوت كتابات المفكرين في تلك الفترة على القليل النادر من الحقائق التي أعمل فيها بعد ذلك الوضع عمله، فأنتجت صورة في غاية التشويه والإساءة للإسلام ونبيِّه ﷺ اختلطت فيها الأكاذيب مع الأساطير والخيالات.

ب ـ تميزت هذه الكتابات البيزنطية بغياب المصدرية الإسلامية فيها غياباً تامّاً، حيث إن صورة النبي ﷺ والتي جاءت بها أفكار هؤلاء الكتَّاب البيزنطيين لا تتفق ولو في أبسط جزئياتها مع الصورة الحقيقية التي جاءت بها المصادر الإسلامية.

ج ـ تعتبر هذه الكتابات البيزنطية أصولاً لكل ما أنتجه الغرب عن الإسلام في القرون الوسطى، وقد ظلَّت أصولاً للتهم الموجهة إلى شخصية النبي ﷺ في الكتابات الغربية الحاقدة على الإسلام حتى اليوم، وإن تغير أسلوب التعبير عنها في الكتابات والأبحاث المعاصرة.

٢ ـ كتابات الفكر المسيحي الغربي (اللاتيني) عن النبي محمد ﷺ في فترة القرون الوسطى:

أ ـ جاءت الرؤية الدينية لهذا الفكر حول نبي الإسلام متمثلة في رفض دعوى نبوة محمد ﷺ، وتلقيه الوحي الإلٰهي، وذلك بزعم عدم امتلاكه ما يؤيد دعواه من الدلائل والبراهين.

ب ـ ساد في هذا المجال الفكر الأسطوري والخيال الواسع في تقديم التفسيرات حول حقيقة الوحي المحمدي، وتسلك هذه التفسيرات مسارين مختلفين: فبالنسبة للمعتقدات والأخبار والقصص النبوي، فإن التفسير الذي يتم اعتماده لديهم يقوم على فرضية الاستعارة والاقتباس من الأصول التوراتية

والإنجيلية، وهو المنهج الذي استمر إلى وقتنا الحاضر في كثير من دوائر الاستشراق. أما إذا كان مظهر النبوة متعلقاً بالأثر النفسي الذي يعتري النبي ﷺ في أثناء نزول الوحي عليه، فإن التفسير هنا يحتكم إلى الأوهام الخيالية، والحكايات الخرافية، والتي تتمحور حول إرجاع تلك المظاهر إلى مرض عصبي كان قد ألم به ﷺ.

ج ـ ظهر الدعم المؤسساتي للفكر الجدلي ضد نبي الإسلام ﷺ في تلك الفترة جليّاً، حيث لم يفتقد هذا الفكر لأي من أشكال المساندة والدعم من البيئة التي نشأ فيها.

د ـ غياب روح التسامح والرغبة في الوصول للحقيقة. فقد كان لغياب هذين الأمرين مع سطوة الحقد والبغضاء أكبر الأثر في عملية التشويه التاريخي والديني التي تعرضت لها حياة النبي محمد ﷺ ونبوته على أيدي مفكري الغرب في تلك الفترة.

٣ ـ فيما يتعلق بالكتابات الاستشراقية عن النبي ﷺ في العصر الحديث، وقد ظهر فيها ما يلي:

أ ـ تواري لغة البذاءة والسب والشتم عند تناول شخصية النبي ﷺ في الأعم الأغلب، باستثناء بعض الشواهد التي لا زالت متأثرة بفكر القرون الوسطى.

ب ـ ظهور العديد من الدراسات التي تبرز وتقدِّر بعض الجوانب والأبعاد في شخصية النبي ﷺ، مثل: الحكمة السياسية، والأبعاد الاجتماعية في رسالته، وكذلك صدقه الشخصي ﷺ، وتحليه بالصفات الإنسانية الكريمة.

ج ـ ظل أمر التسليم للنبي ﷺ بصحة نبوته، أو إثبات تلقيه الوحي الإلٰهي، وكذلك أصالة القرآن الكريم المنزل عليه، أمراً غير وارد في معظم دوائر الفكر الاستشراقي حتى في هذه المرحلة حيث انحصرت رؤيتهم لنبوته ﷺ ووحيه في أنه ضرب من الأحلام والرؤى، أو الأوهام والتخيلات، أو الإلهام النفسي العقلي. . .إلخ، والتي ولدت لديه أفكاراً وتطلعات ومعارف فرضت نفسها على العقل والنفس.

د ـ تميز هذا القرن بظهور شخصيات المستشرقين المسلمين من أمثال: الفرنسي ألفونس إيتيان (دينيه) نصر الدين (دينيه)، والنمساوي ليوبولد فايس (محمد أسد) وغيرهم، والذين حاولوا نقل الصورة صحيحة وواضحة حول الإسلام عموماً وما يتعلق بنبوة محمد ﷺ وشخصيته على وجه الخصوص، والرد على المفتريات والمزاعم التي أطلقها بعض المستشرقين الغربيين في هذا السياق.

٤ ـ فيما يتعلق بالمدارس الاستشراقية وكتاباتهم عن النبي ﷺ، وقد ظهر فيها ما يلي:

أ ـ مع صعوبة تصنيف المستشرقين بسبب اختلاف اتجاهاتهم وتخصصاتهم فإنه من الممكن الالتجاء إلى التوزيع الجغرافي كأساس للتصنيف انطلاقاً من أن البيئة بما لها من خصائص ـ إيجابية كانت أو سلبية ـ ذات أثر كبير في تكوين شخصية الكاتب وتوجيه أفكاره.

ب ـ يمكن توزيع الاستشراق بالنظر إلى الناحية الجغرافية إلى مجموعة مدارس رئيسة مع الإشارة إلى كل مدرسة بملامح ومميزات غالبة وليست قطعية، والمدارس التي تناولها البحث هي مدرسة الاستشراق: الإنجليزي، الألماني، الفرنسي، الأمريكي، الروسي، النمساوي.

٥ ـ فيما يتعلق بأصناف المستشرقين في كتاباتهم عن النبي ﷺ، فقد ظهر في هذا الموضوع ما يلي:

من يدرس نتاج المستشرقين وما كتبوه عن الإسلام كدين، وعن محمد ﷺ كإنسان وكنبيّ ورسول لهذا الدين الإلٰهي، يجد نفسه أمام ثلاثة أصناف من المستشرقين:

الأول: صنف كتب بروح علمية صادقة، فدرس الشرق ونتاجه دراسة عميقة، ونظر إلى الإسلام كدين ودعوة ومنهج حياة، ورأى في نبيِّه محمد ﷺ الأنموذج الكامل الذي توافرت فيه صفات النبوة والرسالة الإلٰهية حتى دعاه ذلك إلى الاهتداء للإسلام واعتناقه، بل وأصبح بعضهم في سبيل ذلك سيفاً من سيوفه، وصوتاً منافحاً عن جنابه، وهؤلاء هم المستشرقون المسلمون.

الثاني: صنف كتب بروح علمية جادة محاولاً إفادة قومه بما يكتب عن حضارة الإسلام ونبيه محمد ﷺ، مبتعداً عن تأثير المتحاملين من بني جلدته قدر المستطاع، فصار له ـ رغم وقوعه في بعض الأخطاء ـ آراء منصفة وعبارات جيدة، ورغم إعجاب هؤلاء واقتناعهم بصحة هذا الدين وسمو ما يدعو إليه فإن ذلك لم يقدهم إلى إعلان إسلامهم، وهؤلاء هم المستشرقون المتعاطفون مع الإسلام.

الثالث: صنف كتب بحقد وكراهية مبتعداً عن المنهج العلمي ومتأثراً بروح العصور الوسطى حتى أنتجت كتاباته وكلماته آراء متحاملة على الإسلام ونبيه محمد ﷺ، ورغم ادعاء بعض أصحاب هذا الاتجاه الإنصاف والعدل فإن كتاباتهم لا تحتمل في طياتها معنى صحيح أو تأويل حسن يعتذر به لقائله، وهؤلاء هم المستشرقون المتحاملون على الإسلام.

٦ ـ فيما يتعلق بأثر كتابات المستشرقين عن النبي ﷺ في الكتابات المعاصرة، فقد اتضح فيه ما يلي:

أ ـ أثر الكتابات الاستشراقية في الكتابات الغربية عن النبي ﷺ. فالمجتمع الغربي بدءاً من مثقفيه وأعلامه وانتهاء بعامته يستند في كثير من تصوراته وفهمه عن الإسلام ونبيه ﷺ على ما يكتبه هؤلاء المستشرقون.

ب ـ أثر الكتابات الاستشراقية في الكتابات العربية عن النبي ﷺ. حيث تلقف عدد من الباحثين العرب كتابات المستشرقين وآرائهم حول النبي ﷺ على محمل الجد والاهتمام بل والتبجيل في أحيان كثيرة، وتبع هؤلاء المستشرقين في ترجيحاتهم واختياراتهم ومناهجهم دون تمحيص أو تحقيق.

ثالثاً: فيما يتعلق بمصادر المستشرقين في كتاباتهم عن النبي ﷺ، وقد اتضح فيه ما يلي:

١ ـ الباحث في نتاج المستشرقين يرى اتفاقاً كبيراً بينهم في عد القرآن الكريم المصدر المعرفي الأهم والأبرز في الكتابة عن حياة النبي محمد ﷺ وسيرته، وفي رصد سلوكه وأخلاقه، وفي توضيح رسالته ودعوته. وإن اختلفت مناهجهم وطرائقهم في كيفية استخدام هذا المصدر، وما شابها من إشكاليات وانحرافات.

٢ ـ تأتي السُّنَّة النبوية في مرتبة متأخرة عن القرآن الكريم عند المستشرقين، ومع طعن كثير منهم في مصدرها وحجيتها إلا أنهم قد أقروا بأهميتها في معرفة الدين الإسلامي وشعائره وأصوله، ونظر آخرون إليها باعتبارها أحد المصادر المهمة في تأريخ سيرة النبي محمد ﷺ ومعرفة وقائعها وأحداثها باعتبارها أكثر تفصيلاً في هذه الجوانب من القرآن الكريم.

٣ ـ استند جمهور المستشرقين إلى مصادر أخرى تكميلية في دراساتهم حول النبي ﷺ، وهذه المصادر هي: المصادر التاريخية، كتب اللغة والأدب، كتب التراجم «تراجم الصحابة». وقد شاب استدلالات المستشرقين بهذه المصادر ملحوظات منهجية وعلمية كما بالغ بعضهم في الاستدلال بها حتى جعلها منافسة للمصادر الأصيلة وهي القرآن الكريم والسُّنَّة النبوية.

٤ ـ تأثر كثير من المستشرقين بكتابات أسلافهم من المستشرقين الأوائل في شتى الدراسات الإسلامية التي تناولوها، وقدم كثير من هؤلاء كتابات المستشرقين على كثير من المصادر الأساسية في بحوثهم.

رابعاً: فيما يتعلق بمناهج المستشرقين في كتاباتهم عن النبي ﷺ، وقد ظهر في هذا الموضوع ما يلي:

١ ـ هناك ملحوظات منهجية عامة ينبغي العناية بها أثناء دراسة مناهج المستشرقين، من أهمها:

أولاً: إن المستشرقين الذين يكتبون عن الإسلام ونبيِّه ﷺ لا يمثلون اتجاهاً واحداً، وإن كان ثمت تقاطعات بينهم.

ثانياً: إن الموضوعية السليمة من الصعب تحققها في تلك الدراسات لما تتسم به العلاقة بين الإسلام والغرب من مؤثرات ذات عمق تاريخي (الحروب الصليبية ـ الاستعمار) ولا شك أن التزام الموضوعية والحياد سيؤدي إلى الإقرار بحقائق الإسلام الثابتة وهو الأمر الذي لا يريده جمهور المستشرقين، ولا تقر به غالب المجتمعات التي تحضنهم، ولا ترضى عنه معظم الجهات التي تدعمهم.

ثالثاً: إن الدوافع تحكم المناهج، ومن المسلّم به أن الاستشراق ارتبط ـ منذ نشأته ـ بالدوافع التنصيرية والكنسية التي ترغب في نشر معتقداتها ودحر

مخالفيها، وكذلك نشأ الاستشراق في ظل حماية الجهات الاستعمارية التي تحاول دوماً استكشاف الشرق واحتوائه، ومن هنا فالدوافع غير العلمية تفرز مناهج غير موضوعية.

رابعاً: إن البحث حول النبي محمد ﷺ يختلف كثيراً عن أي بحث آخر. لأن الباحث غير المسلم سيصطدم ابتداءً بقضايا غيبية مثل «الوحي» و«المعجزات» وغير ذلك، وبالتالي فهو إن كان ممن ينتمون إلى الاتجاه الاستشراقي الديني «اليهودي أوالنصراني» فهو متهم ابتداءً بالتحيّز لموقف اليهود والنصارى من الإسلام الرافض للاعتراف به. وإن كان من أصحاب المنهج المادي فهو سينكر ابتداء قضية الوحي أو سيحاول تفسيرها تفسيراً ماديّاً على نحو ما ادعى جمع من المستشرقين.

٢ ـ سلك المستشرقون عدداً من المناهج في كتاباتهم عن النبي ﷺ، وقاموا بتحليل أحداث السيرة ووقائعها وفق هذه المناهج وقد أدى ذلك بهم إلى الوقوع في أخطاء متنوعة، وهذه المناهج التي سلكها المستشرقون هي: المنهج التاريخي الوصفي، المنهج التحليلي النقدي، المنهج المادي، المنهج الانتقائي، المنهج الإسقاطي.

٣ ـ تشترك كثير من المناهج الاستشراقية في الكتابة عن النبي ﷺ في سمات عامة تجمع فيما بينها، وهذه السمات هي: إنكار نبوة محمد ﷺ وكون القرآن وحياً إلٰهيّاً، كتابة السيرة النبوية بالعقلية الغربية العلمانية، دعوى تأثر رسالة النبي ﷺ ودعوته بالديانات الأخرى، المبالغة في الشك والافتراض واعتماد الضعيف والشاذ في الاستدلال، إصدار الأحكام المسبقة دون استناد إلى الأدلة.

خامساً: فيما يتعلق بمواقف المستشرقين من نبوته ﷺ، وقد ظهر في هذا الموضوع ما يلي:

١ ـ بالنسبة لمواقف المستشرقين من مصدر الوحي على محمد ﷺ. فقد أنكر جمهور المستشرقين أن يكون محمداً ﷺ نبيّاً مرسلاً من عند الله تعالى، تلقى رسالة الله عن طريق الوحي، وبناء على ذلك فقد أنكر هؤلاء ألوهية مصدر الوحي.

أ ـ لعل من أكثر الأساليب الاستشراقية مكراً في إثارة الشبهة حول مصدر الوحي المنزل على محمد ﷺ، هو الأسلوب الذي يحاول أن يضفي على النبي محمد ﷺ، صفات الصدق والأمانة والإخلاص والذكاء، الأمر الذي أدى به أن يتخيل نفسه أنه ممن يوحى إليه، وهو ما يسمى بـ(الوحي النفسي) فإن هذا الأسلوب يحاول أن يستر دوافعه المغرضة، بمظاهر الإنصاف والمحبة والإعجاب.

ب ـ زعم جمهور المستشرقين أن الوحي انبثق في الدرجة الأولى عن اليهودية والنصرانية، ولكن محمداً ﷺ ـ في زعمهم ـ كيَّفه تكييفاً بارعاً وفقاً لمتطلبات شعبه الدينية. وقد توالت هذه الدعوى قديماً وحديثاً في كتابات جمهور المستشرقين بحيث يندر أن تخلو دراسة استشراقية من الإشارة أو التأكيد على هذا الأمر إما تصريحاً أو تلميحاً.

ج ـ ادعى جمع من المستشرقين أن النبي ﷺ قد استقى جزءاً من مادة الوحي من المصادر الجاهلية، وقد حصر هؤلاء هذه المصادر في الشعائر والعبادات الجاهلية، ومنهم جعل الحنيفية التي كان عليها بعض الجاهليين الذين بقوا على ملة إبراهيم عليه السلام مصدراً من مصادر الدين الإسلامي، وأحال بعضهم الآخر إلى الشعر الجاهلي وما جاء فيه زاعمين أن النبي ﷺ قد اقتبس منه في مواضع من القرآن.

٢ ـ لما كان معظم المستشرقين ينكرون نبوة محمد ﷺ فقد أنكروا دلائل نبوته ﷺ، كما أن مفهوم دلائل النبوة عند غالب المستشرقين ينحصر في جانب المعجزات المادية ومدى حصولها للنبي محمد ﷺ من عدمه، كما طرح عدد من المستشرقين شبهة مفادها أن النبي ﷺ لم يكن له معجزات سوى القرآن الكريم وقد شابههم في هذا الاتجاه عدد من المستشرقين المسلمين فاقتصروا في إثبات المعجزات على القرآن الكريم.

٣ ـ بالنسبة لمواقف المستشرقين من خصائص نبوته ﷺ:

أ ـ أنكر جمهور المستشرقين جوانب كثيرة من عصمته ﷺ سواء ما يتعلق منها بالتبليغ عن الله تعالى، أو ما كان متعلقاً منها بالجانب النفسي والبدني لشخص النبي ﷺ.

ب ـ رغم وضوح الأدلة التي تستند عليها العقيدة الإسلامية في أن الإسلام دين عالمي في توجهاته، ومنذ لحظاته الأولى، إلا أن جمهور المستشرقين أنكروا هذا المبدأ وزعموا أن الإسلام ما هو إلا دين للعرب خاصة، وحاول بعضهم أن يرد ظهور فكرة العالمية إلى التطورات التي أحدثها تغيير موازين القوى في الجزيرة العربية بعد فترة من إقامة النبي ﷺ في المدينة.

ج ـ أنكر جمهور المستشرقين مسألة نسخ شريعة الإسلام للشرائع السابقة تبعاً لإنكارهم مبدأ النبوة، بل اتخذوا موقفاً مضاداً حيث أثاروا الشبهات حول بعض النصوص ليستدلوا بها على أن النبي ﷺ لم يكن يرى بطلان الشرائع السابقة، وأن هذا الرأي قد تغير بسبب الخلافات السياسية بين النبي ﷺ وبين اليهود والنصارى.

د ـ من خصائص نبوته ﷺ ختم النبوة به، وهذه المسألة لم تستوقف جمهور المستشرقين كثيراً خلال بحثهم ومناقشتهم لسيرة النبي ﷺ، ورغم ذلك فإن بعض المستشرقين قد أظهر الإنكار لهذه المسألة، وحاول إلقاء بعض الشبهات والشكوك حولها.

سادساً: فيما يتعلق بمواقف المستشرقين من سيرته ﷺ، وقد ظهر فيه ما يلي:

١ ـ ما يتعلق بالعهد المكي:

أ ـ رغم وضوح ما ذكرته كتب السيرة النبوية في بيان اسمه ﷺ ونسبه وما يتعلق بمولده ﷺ، إلا أن طوائف من المستشرقين انتهجت منهج التشكيك في هذه المسائل الثلاثة.

ب ـ مع ما ذكره المستشرقون من تفاصيل دقيقة في سيرة النبي ﷺ قبل بعثته إلا أن ذلك لم يمنع طائفة من هؤلاء أن يزعم عدم وجود معلومات كافية عن نشأته وحياته ﷺ قبل البعثة ووصف تلك الفترة من حياته ﷺ بالغموض وعدم الوضوح.

ج ـ توقف المستشرقون طويلاً عند رحلة النبي ﷺ مع عمه أبي طالب إلى الشام. وادعى جمهور المستشرقين أن النبي ﷺ أخذ من علم أهل الكتاب خلال هذه الرحلة حين التقى براهب يدعى «بحيرا»، وقد تناقل كثير من المستشرقين هذه الدعوى عبر مراحل زمنية مختلفة دون تمحيص أو تحقيق.

د ـ فيما يتعلق بموقف المستشرقين من أخلاقه ﷺ فإن العصر الحديث قد شهد تحولاً كبيراً لدى المستشرقين في الوصف الإيجابي للنبي ﷺ والثناء على خُلقه، وتوافرت في هذا السياق الشهادات الاستشراقية العديدة إلا أن لذلك التحول استثناءات كانت تستلهم في إساءاتها مقولات القرون الوسطى.

هـ ـ رغم ما جاءت به الآثار في بيان موقف النبي ﷺ من الوثنية السائدة في قومه قبل البعثة، وموقفه الأشد صرامة ووضوحاً منها بعد البعثة فقد حاولت طوائف من المستشرقين التشكيك في هذا الموقف، وادعاء أن النبي ﷺ قد شارك قومه في جاهليتهم الوثنية، وحاولوا في سبيل تقرير هذا الموقف الاستشهاد بحادثة أو قصة الغرانيق الباطلة شرعاً وعقلاً.

و ـ اعتنى الفكر الاستشراقي الحديث ببحث مسألة (أُمِّيَّة) النبي ﷺ، ومقصدهم من ذلك تقرير تعلم النبي ﷺ من أهل الكتاب ومدارسته لهم واستفادته منهم فيما جاء به من الوحي والشرع. وقد أثاروا في هذا السبيل بعض الشبهات التي زعموها دالة على عدم أميته ﷺ.

ز ـ نالت مسألة زواج النبي ﷺ جانباً مهمّاً في كتابات المستشرقين قديماً وحديثاً، وكانت مسألة التعدد في زواجه ﷺ منفذاً حاول من خلاله كثير منهم التشكيك في نبي الإسلام والطعن في رسالته والنيل من كرامته، وحين يبحثون عن الأسباب فلا يجدون تعليلاً لهذا التعدد سوى الشهوة الجنسية والثورة الغريزية دون البحث عن الأسباب الحقيقية لهذا التعدد وبيان ظروفه وملابساته والحكمة منه.

ح ـ اتفقت كتب السيرة النبوية على بيان أنواع الأذى الذي ألحقه المشركون بالنبي ﷺ وأصحابه من السابقين الأولين ـ رضوان الله عليهم ـ في مكة، ومع هذا فإن طائفة من المستشرقين قد شككت في هذا الموقف، وزعمت أن هذه الأخبار غامضة ومبالغ فيها. وهو ما لم يسلم به جمع من المستشرقين المنصفين.

٢ ـ ما يتعلق بالعهد المدني:

أ ـ أقر جمهور المستشرقين بالصعوبات التي حدثت للنبي ﷺ في مكة والتي وصلت إلى حد محاولة القتل، وأنها كانت السبب الرئيس لهجرة النبي ﷺ إلى المدينة، وإن كانت طائفة منهم قد ذكرت أن هذه الأحداث قد ضخمت في الروايات الإسلامية للسيرة.

ب ـ احتلت العلاقة بين النبي ﷺ واليهود في المدينة شأناً بارزاً في كتابات المستشرقين، وقد كانت نتائج هذه الدراسات في مجملها تقرر نتيجة مسبقة تتمثل في اضطهاد النبي ﷺ لليهود. فقد رأى جمع من المستشرقين أن اليهود في المدينة حصل لهم اضطهاد على مستوى الأفراد والجماعات من قبل النبي ﷺ أدى إلى قتل عدد منهم وإجلاء بني قينقاع والنضير وقتل بني قريظة، وأن خيانة اليهود المستمرة للنبي ﷺ في السلم والحرب وإيذاءهم للمسلمين ومحاولتهم قتله ﷺ كانت غير كافية لمعاقبة اليهود.

ج ـ نظر عدد كبير من المستشرقين إلى موضوع جهاده ﷺ للمشركين باعتباره لازمة من لوازم الدولة بعد انتقال النبي ﷺ إلى المدينة، ورأوا في ذلك تحولاً للنبي ﷺ من داعية إلى مشيد دولة. بل تجاوز الأمر بطائفة من المستشرقين المعاصرين ليزعم تحول الإسلام من الدفاع إلى العدوانية.

د ـ عزا كثير من المستشرقين نجاح النبي ﷺ في الدعوة وانتشار رسالة الإسلام إلى الجهاد الذي قام على حد السيف، وكان سبباً في إرغام الناس على عقيدة الإسلام، وغاب عنهم أن الإسلام انتشر بمبادئه وتعاليمه السامية ودخول الناس فيه بالاختيار لا بالقوة والإكراه، وهذا ما أقر به عدد من المستشرقين الغربيين في شهاداتهم بهذا الخصوص.

ـ وبعد ذكر أهم مضامين البحث ونتائجه، فأشير إلى جملة من التوصيات التي أرى أهميتها من خلال ما تناوله موضوع البحث، وذلك على النحو التالي:

• أهمية الرد والتقويم للدراسات الاستشراقية المعاصرة عن النبي ﷺ بكافة أشكالها وصورها مع التركيز على أصول المسائل التي غالباً ما يهتم المستشرقون بإثارة الشبهات حولها وتشويه صورتها لدى الفكر الغربي الحديث.

• ضرورة أن يتولى المسلمون بأنفسهم عرض سيرة نبيهم ﷺ ورسالته وإيضاح عظم شمائله وأخلاقه، وإيصال هذه الجوانب إلى المجتمعات الغربية لإلغاء دور الوسيط غير المؤتمن والذي كانت تؤديه دوائر الاستشراق عبر مراحل زمنية متطاولة عرضت فيها الإسلام ونبيه ﷺ بصورة سلبية في مجملها.

• انتقاء المسائل التي يكثر الخوض فيها ضد النبي ﷺ في الغرب، وكتابة الردود المختصرة عليها بطريقة تتفق مع روح العصر وأسلوب الحوار مع العقلية الغربية المخالفة وترجمتها إلى لغاتهم المختلفة ونشرها بطرق إعلامية متنوعة.

• إنشاء موسوعات إسلامية باللغات الغربية المختلفة تتناول عرض مسائل الدين الإسلامي بأسلوب سهل ومختصر، وبإشراف من مؤسسات علمية متخصصة تكون بديلاً عن الموسوعات الاستشراقية.

• تنظيم ندوات ومؤتمرات فكرية في الغرب حول شخصية النبي ﷺ وسيرته ودعوته وأخلاقه، وخصوصاً في المؤسسات التعليمية والبحثية: كالجامعات والمعاهد العلمية والجمعيات المختلفة ومراكز البحوث والدراسات المنتشرة في كافة البلاد الغربية.

• ترتيب زيارات لأكاديميين ومثقفين وإعلاميين غربيين لبعض البلاد الإسلامية بهدف توعيتهم بحقيقة دين الإسلام ودعوة النبي ﷺ ورسالته وتصحيح ما قد يوجد لديهم من مفاهيم وتصورات خاطئة.

• إصدار كتيبات ومطويات باللغات الأجنبية بأسلوب قصصي شيق تتناول سيرة النبي محمد ﷺ وحياته وأخلاقه.

• إنتاج أفلام وثائقية أجنبية ـ بإشراف هيئات علمية شرعية ـ لعرض سيرة النبي ﷺ ودعوته للمجتمعات الغربية بطريقة سلسة وجذابة، ودعم بعض المشاريع في مجال الإنتاج التلفزيوني التي تشرح طبيعة الرسالة الإسلامية.

• شراء صفحات من الصحف والمجلات الغربية الشهيرة لكتابة المقالات الإسلامية فيها، والتي تشرح جوانب الرحمة والحب والسلام في حياة النبي ﷺ ورسالته.

• تأهيل أكاديميين متخصصين في مجال العقيدة والأديان والمذاهب الفكرية المعاصرة باللغات الغربية المختلفة للقيام بمهمات الحوار والنقاش والتأليف ومخاطبة المخالفين باللغات التي يجيدونها، والقضاء على سلبيات الترجمة والتي تتم غالباً على يد غير المتخصصين.

• إنشاء مواقع متعددة على الشبكة العنكبوتية باللغات الغربية المختلفة تكون مخصصة لعرض سيرة النبي محمد ﷺ، وتستعرض الكتب والأبحاث والمقالات التي تناولت حياته ﷺ، والرد على الاتهامات الموجهة ضده.

• المشاركة والحضور في ملتقيات حوار الأديان (الإسلامي ـ المسيحي) لتفعيل آليات التفاهم المشترك حول الكثير من القضايا والمسائل الدينية.

• دعم أنشطة المؤسسات الإسلامية الموثوقة في الغرب والتي لديها اهتمامات في مجال التعريف بالدين الإسلامي ونبيِّه ﷺ وينقصها الدعم المادي والعلمي.

• التعاون مع الجاليات الإسلامية في البلدان الغربية لإقامة الأنشطة الإجتماعية المختلفة التي تهدف لعرض الصورة الصحيحة للإسلام ونبيِّه ﷺ.

• السعي لدى الدول والمؤسسات الغربية والهيئات والمنظمات الدولية لسن القوانين والتشريعات التي تجرم الإساءة للنبي ﷺ بكافة أشكالها وصورها.

• تنظيم الجهود المتعلقة بتوضيح صورة النبي ﷺ لدى الغرب ضمن جمعيات وهيئات تتولى العمل المؤسسي المنظم، وفق خطط وأهداف واضحة، وبإشراف علمي يقوم عليه متخصصون في مجال العقيدة والأديان والمذاهب الفكرية المعاصرة.

(الفهارس)[١]

* فهرس المصادر والمراجع.
* فهرس الموضوعات.

(١) نظراً لطول فهارس البحث وتعددها فقد تم الاقتصار على: فهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات. المؤلف



فهرس المصادر والمراجع

ـ المصادر والمراجع العربية:

أولاً: الكتب:

١ ـ **الأبطال**، توماس كارليل، ترجمة: محمد السباعي، نشر مكتبة مصر، القاهرة.
٢ ـ **الإتقان في علوم القرآن**، جلال الدين السيوطي، ت: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٣٩٤هـ.
٣ ـ **آثار الحرب في الفقه الإسلامية**، د. وهبه الزحيلي، دار الفكر، دمشق، ط٣، ١٤٠٣هـ.
٤ ـ **أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها: التبشير ـ الاستِشراق ـ الاستعمار**، عبد الرحمٰن حَبَنكة، دار القلم ـ دمشق، ط٤، ١٤٠٥هـ.
٥ ـ **الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان**، أبو حاتم البستي، ت: يوسف كمال الحوت، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
٦ ـ **الإحسان في تعقب الإتقان**، عبد الله الصديق الغماري، دار الأنصار، القاهرة.
٧ ـ **أحكام القرآن**، أبو بكر بن العربي، راجعه وخرج أحاديثه وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ.
٨ ـ **الإحكام في أصول الأحكام**، ابن حزم، ت: الشيخ أحمد محمد شاكر، قدم له: الدكتور إحسان عباس، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٩ ـ **أخبار مكة في قديم الدهر وحديثه**، محمد بن إسحاق الفاكهي، ت: د. عبد الملك بن دهيش، دار خضر ـ بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ.
١٠ ـ **أخلاق النبي وآدابه**، أبي الشيخ الأصبهاني، ت: صالح بن محمد الونيان، دار المسلم للنشر والتوزيع، ط١، ١٩٩٨م.
١١ ـ **الأدب العربي وتاريخه في العصر الحديث**، محمد هاشم عطية، ص٣٥٢، مطبعة الحلبي، ١٩٣٦م.

١٢ - **أديان الهند الكبرى**، د. أحمد شلبي، مكتبة النهضة، مصر، ط٦، ١٩٨٦م.

١٣ - **آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره ـ دراسة ونقد ـ**، د.عمر بن إبراهيم رضوان، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٣هـ.

١٤ - **إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب**، ياقوت الحموي، ت: عمر الطباع، مؤسسة المعارف، ١٩٩٩م.

١٥ - **الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد للشيخ**، د. صالح الفوزان، دار ابن الجوزي، ط٤، ١٤٢٠هـ.

١٦ - **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، محمد ناصر الدين الألباني، إشراف: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ.

١٧ - **أزمة الاستشراق الحديث والمعاصر**، د. محمد خليفة حسن، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٢٢هـ.

١٨ - **أزمة البحث العلمي في العالم العربي**، د. عبد الفتاح خضر، معهد الإدارة، الرياض، ١٤٠١هـ.

١٩ - **أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي**، د. علي محمد جريشة ومحمد شريف الزيبق، دار الاعتصام، ط٣، ١٣٩٩هـ.

٢٠ - **أسباب النزول**، الواحدي، كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٢١ - **الإستشراق**، أدوارد سعيد، ترجمة: كمال أبو ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م.

٢٢ - **الإستشراق المعاصر في منظور الإسلام**، د. مازن مطبقاني، نشر دار اشبيليا، الرياض، ط١، ١٤٢١هـ.

٢٣ - **الاستشراق بين الموضوعية والافتعالية**، قاسم السامرائي، دار الرفاعي ـ الرياض، ط١، ١٤٠٣هـ.

٢٤ - **الإستشراق بين دعاته ومعارضيه**، هاشم صالح، دار الساقي، لندن، ١٩٩٤م.

٢٥ - **الإستشراق في أفق انسداده**، سالم حميش، المجلس القومي للثقافة العربية، الرباط، ١٩٩١م.

٢٦ - **الإستشراق في السيرة النبوية**، د. عبد الله النعيم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٧هـ.

٢٧ - **الاستشراق من منظور فلسفي عربي**، عبد الأمير الأعسم، ضمن في الإستشراق: سلسلة كتب الثقافة المقارنة، العدد الأول، ١٩٨٧م.

٢٨ - **الاستشراق والاتجاهات الفكرية في التاريخ الإسلامي**، د. مازن مطبقاني، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٦هـ.

٢٩ ـ **الاستشراق والتبشير وصلتها بالإمبراطورية العالمية**، إبراهيم خليل أحمد، مكتبة الوعي العربي.
٣٠ ـ **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، محمود حمدي زقزوق مكتبة الشروق الدولية ـ القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ.
٣١ ـ **الاستشراق والدراسات الإسلامية**، د. عبد القهار العاني، دار الفرقان، الأردن، ط١، ١٤٢١هـ.
٣٢ ـ **الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم**، مصطفى السباعي، دار الوراق ـ المكتب الإسلامي.
٣٣ ـ **الاستشراق: أهدافه ووسائله ـ دراسة تطبيقية حول منهج الغربيين في دراسة ابن خلدون، د. محمد فتح الله الزيادي، دار قتيبة، دمشق ـ سوريا، ط٢، ٢٠٠٢م.**
٣٤ ـ **الاستشراق: نشأته وتطوره وأهدافه**، إسحاق موسى الحسيني، ص١، مطبعة الأزهر، الأمانة العامة للمجمع البحوث الإسلامية، ١٩٦٧م.
٣٥ ـ **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، أبو عمر يوسف بن عبد الله عبد البر، ت: علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.
٣٦ ـ **الإسقاط في مناهج المستشرقين والمبشرين**، د. شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.
٣٧ ـ **الإسلام في مرآة الغرب**، كارين ارمسترونج، ترجمة: محمد الجورا، دار الحصاد، سوريا، ط١، ٢٠٠٢م.
٣٨ ـ **الإسلام**، هنري ماسيه، ترجمة: بهيج شعبان، عويدات للنشر والتوزيع، ط٣، ١٩٨٨م.
٣٩ ـ **الإسلام اليوم**: مارسيل بوازار، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٦م.
٤٠ ـ **الإسلام سوانح وخواطر**، هنري دي كاستري، ترجمة: أحمد فتحي زغلول، تقديم: د. محمود النجيري، مكتبة النافذة، مصر، ط١، ٢٠٠٨م.
٤١ ـ **الإسلام عام ٢٠٠٠**، د. مراد هوفمان، مكتبة العبيكان الرياض، ط١، ٢٠٠٣م.
٤٢ ـ **الإسلام في تصورات الغرب**، د. محمد حمدي زقزوق، مكتبة وهبة، مصر، ط١، ١٩٨٧م.
٤٣ ـ **الإسلام في قفص الاتهام**، شوقي أبو خليل، دار الفكر المعاصر، ١٩٨٢م.
٤٤ ـ **الإسلام في مواجهة الاستشراق العالمي**، د. عبد العظيم المطعني، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر، ٢٠٠٠م.
٤٥ ـ **الإسلام في مواجهة التحديات المعاصرة**، أبو الأعلي المودودي، دار القلم، ط٥، ١٩٨٣م.
٤٦ ـ **الإسلام كما يراه ألماني مسلم**، د. مراد هوفمان، ترجمة: كامل إسماعيل، مكتبة العبيكان ـ الرياض، ط٢، ١٤٣٠هـ.

٤٧ ـ **الإسلام منهج حياة**، د. فيلب حتي، ترجمة: د. عمر فروخ، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٨٣م.

٤٨ ـ **الإسلام والدعوات الهدامة**، أنور الجندي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٨٢م.

٤٩ ـ **الإسلام والرسول في نظر منصفي الشرق والغرب**، أحمد بن حجر آل أبو طامي، مكتبة الثقافة، قطر، ط٣، ١٤٢٨هـ.

٥٠ ـ **الإسلام والمرأة المعاصرة**، البهي الخولي، ط٣، دار القلم، الكويت.

٥١ ـ **الإسلام والمستشرقون**، محمد الدسوقي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٣هـ.

٥٢ ـ **الإسلام والوجه الآخر للفكر الغربي**، د. عماد الدين خليل، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٧م.

٥٣ ـ **الإسلام يتحدى**، وحيد الدين خان، الشركة المتحدة للنشر والتوزيع، ١٩٨٥م.

٥٤ ـ **أشعة خاصة بنور الإسلام**، إيتين (ناصر الدين) دينيه، ترجمة: راشد رستم، سلسلة الثقافة الإسلامية رقم ١٧، المكتب الفني للنشر، بيروت، ١٩٦٠م.

٥٥ ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، لابن حجر العسقلاني، أحمد بن حجر العسقلاني، ت: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٥٦ ـ **الأصلان في علوم القرآن**، د. محمد عبد المنعم القيعي، ط٤، ١٤١٧هـ.

٥٧ ـ **أصول الحديث**، علومه ومصطلحه: عجاج الخطيب، دار الفكر، بيروت، ط٣، ١٩٧٥م.

٥٨ ـ **أصول الفقه**، يوسف شاخت، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرين، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨١م.

٥٩ ـ **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٤١٥هـ.

٦٠ ـ **أضواء على أخطاء المستشرقين في المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي**، د. سعد المرصفي، دار القلم ـ الكويت، ١٩٨٨م.

٦١ ـ **أضواء على الإستشراق**، محمد عبد الفتاح عليان، دار البحوث العلمية، القاهرة، ١٩٩٨٠م.

٦٢ ـ **أضواء على السُّنَّة المحمدية**، محمود أبي ريه، دار المعارف، مصر، ط٣، دون تاريخ.

٦٣ ـ **إظهار الحق**، محمد رحمت الله بن خليل الرحمٰن الكيرانوي الهندي، ت: الدكتور محمد أحمد ملكاوي، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية، ط١، ١٤١٠هـ.

٦٤ ـ **اعتقادات فرق المسلمين والمشركين**، للرازي ص٩١.
٦٥ ـ **إعجاز القرآن للباقلاني**، ت: السيد أحمد صقر، مقدمة المحقق ص٥ ـ ٦.
٦٦ ـ **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، مصطفى صادق الرافعي، ص٩٨.
٦٧ ـ **الأعلام**، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، ط١٥، ٢٠٠٢م.
٦٨ ـ **أعلام المحدثين**، د. محمد أبو شهبة، ط. مصر.
٦٩ ـ **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، ابن قيم الجوزية، ت: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
٧٠ ـ **أعلام النبوة**، أبي الحسن الماوردي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠١هـ.
٧١ ـ **الأعمال الكاملة لتولستوي**، اعتنى بإخراجها: محمود النجيري، نشر مكتبة النافذة، ط١، مصر.
٧٢ ـ **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، ابن قيم الجوزية، ت: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف، الرياض، السعودية.
٧٣ ـ **افتراءات فيليب حتي وكارل بروكلمان على التاريخ الإسلامي**، عبد الكريم علي باز، تهامة للنشر، جدة، ط١، ١٤٠٣هـ.
٧٤ ـ **إفحام اليهود وقصة إسلام السموأل ورؤياه النبي ﷺ**، السموأل بن يحيى بن عباس المغربي، ت: الدكتور محمد عبد الله الشرقاوي، دار الجيل، بيروت، ط٣، ١٤١٠ ـ ١٩٩٠م.
٧٥ ـ **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيميه، ت: د. ناصر بن عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت ـ لبنان، ط٧، ١٤١٩هـ.
٧٦ ـ **الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب**، أبو نصر علي بن هبة الله بن جعفر بن ماكولا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.
٧٧ ـ **الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع**، عياض بن موسى اليحصبي، ت: السيد أحمد صقر، دار التراث، المكتبة العتيقة، القاهرة، تونس، ط١، ١٣٧٩هـ.
٧٨ ـ **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**، تقي الدين المقريزي، ت: محمد القيسي، دار الثقافة، ١٤٠١هـ.
٧٩ ـ **أمية بن أبي الصلت: حياته وشعره**، دراسة وتحقيق: بهجة عبد الغفور، مطبعة العاني، بغداد.
٨٠ ـ **انتاج المستشرقين وأثره في الفكر الحديث**، مالك بن نبي، دار الإرشاد، بيروت، ط١، ١٩٦٩م.
٨١ ـ **انتصار الحضارة**، بريستيد، ترجمة: أحمد فخري، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٣٨٩هـ.

٨٢ - **إنسانية الإسلام**، مارسيل بوازار، ترجمة: عفيف دمشقية، نشر دار الآداب، بيروت.
٨٣ - **آيات الجهاد في الإسلام**، د. كامل سلامة الدقس، البيان، الكويت، ١٩٧٢م.
٨٤ - **آيات عتاب المصطفى ﷺ في ضوء العصمة والاجتهاد**، د. عويد بن عيَّاد المطرَفي، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز، مكة، ط٣، ١٤٢٦هـ.
٨٥ - **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**، إسماعيل بن محمد الباباني البغدادي، عنى بتصحيحه وطبعه على نسخة المؤلف: محمد شرف الدين بالتقايا رئيس أمور الدين، والمعلم رفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان.
٨٦ - بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط٨، ١٤٢٦هـ.
٨٧ - **الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير**، الشيخ أحمد شاكر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
٨٨ - **بحث جديد عن القرآن**، محمد صبيح، مطابع الفاني، مصر.
٨٩ - **البداية والنهاية**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ت: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر، ط١، ١٤١٨هـ.
٩٠ - **البشارة بنبي الإسلام في التوراة والإنجيل**، أحمد حجازي السقا، دار البيان العربي، القاهرة، ١٩٧٧م.
٩١ - **البوذية تاريخها وعقائدها وعلاقة الصوفية بها**، د. عبد الله مصطفى تومسوك.
٩٢ - **بيان إعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن**، ت. محمد خلف الله أحمد ود. محمد زغلول سلام، طبعة دار المعارف.
٩٣ - **البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانة والسحر والنارنجات**، للقاضي أبي بكر الباقلاني، ت: مكارثي، المكتبة الشرفية، بيروت، ١٩٥٨م.
٩٤ - **بينات الرسول ﷺ ومعجزاته**، د. عبد المجيد بن عزيز الزنداني، دار الإيمان، القاهرة.
٩٥ - **تاج العروس من جواهر القاموس**، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني الزَّبيدي، ت: مجموعة من المحققين، دار الهداية.
٩٦ - **تاريخ ابن خلدون = ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، عبد الرحمٰن بن محمد بن خلدون، ت: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط٢، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
٩٧ - **تاريخ الأدب العربي**، بلاشير، تحقيق: إبراهيم الكيلاني، دار الفكر المعاصر، ١٩٩٨م.
٩٨ - **تاريخ الأدب العربي**، أحمد حسن الزيات، ط٢١، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.
٩٩ - **تاريخ الحضارات العام**، إدوار بروي وآخرون، ترجمة: فريد داغر ويوسف داغر، من منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط٢، ١٩٨٧م.

١٠٠ ـ **تاريخ الدولة العربية**، فلهاوزن، ترجمة: عبد الهادي أبي ريدة، ص٥ ـ ٦.
١٠١ ـ **تاريخ الشعوب الإسلامية**، كارل برو كلمان، ترجمة: نبيه فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٧٧م.
١٠٢ ـ **تاريخ الطبري = تاريخ الرسل والملوك**، محمد بن جرير الطبري، دار التراث، بيروت، ط٢، ١٣٨٧هـ.
١٠٣ ـ **تاريخ العرب الاقتصادي قبل الإسلام**، د. علي معطي، دار المنهل اللبناني للنشر، لبنان، ٢٠٠٣م.
١٠٤ ـ **تاريخ العرب العام: إمبراطورية العرب، حضارتهم، مدارسهم الفلسفية والعلمية والأدبية**، ل. أ. سيديو، ترجمة: عادل زعيتر، نشر دار العالم العربي ـ القاهرة، ط١، ١٤٣١هـ.
١٠٥ ـ **تاريخ العرب المطول**، د. فيليب حتي، ترجمة: أدوارد جورجي وجبرائيل جبور، ص١٦٨، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٥١م.
١٠٦ ـ **تاريخ العرب في الإسلام «السيرة النبوية»**، د. جواد علي، الناشر: دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط٢، ٢٠٠٤م.
١٠٧ ـ **تاريخ اليهود في بلاد العرب**، إسرائيل ولفنسون، مطبعة الاعتماد، مصر، ١٣٤٥ ـ ١٩٢٧م.
١٠٨ ـ **تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٦م.
١٠٩ ـ **تاريخ بغداد**، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، ت: الدكتور بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢ م.
١١٠ ـ **تاريخ تدوين السيرة النبوية**، دراسة موثقة للمغازي الأولى وأبرز مؤلفيها، ترجمة: حسين نصار، باريس، دار بيبليون، ط٢، ٢٠٠٥م.
١١١ ـ **تاريخ حركة الاستشراق**، الدراسات العربية والإسلامية في أوربا حتى بداية القرن العشرين، يوهان فوك، ترجمة: عمر لطفي العالم، دار المدار الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٢، ٢٠٠١م.
١١٢ ـ **تاريخ خليفة بن خياط**، خليفة بن خياط الشيباني العصفري البصري، ت: د. أكرم ضياء العمري، دار القلم، مؤسسة الرسالة، دمشق، بيروت، ط٢، ١٣٩٧هـ.
١١٣ ـ **تاريخ قضاة الأندلس**، أبو الحسن علي بن عبد الله النباهي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٤٠٠هـ.
١١٤ ـ **تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة**، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المكتب الإسلامي، مؤسسة الإشراق، ط٢، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.
١١٥ ـ **التبشير والاستشراق**، محمد عزت الطهطاوي، مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة، ١٣٩٧هـ.

١١٦ ـ **التبشير والاستعمار في البلاد العربية**، مصطفى الخالدي وعمر فروخ، المكتبة العصرية، ط٤، ٢٠٠٣م.

١١٧ ـ **تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد مطبوع مع تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي**، إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعين، ت: عبد الرحمٰن الوكيل، نشر مكتبة عباس أحمد الباز ـ مكة المكرمة.

١١٨ ـ **تحطيم الصنم العلماني**، د. محمد موسى الشريف، نشر دار البيارق، عمان ـ الأردن، ط١، ١٤٢١هـ.

١١٩ ـ **تحفة الأريب**، عبد الله الترجمان، ت: عمر وفيق الداعون، دار البناء الإسلامية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ.

١٢٠ ـ **تخجيل من حرف التوراة والإنجيل**، صالح بن الحسين الجعفري، ت: محمود عبد الرحمٰن قدح، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

١٢١ ـ **تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي**، السيوطي، ت: نظر الفريابي، دار طيبة.

١٢٢ ـ **تذكرة الحفاظ**، شمس الدين أبو عبد الله الذهبي، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ.

١٢٣ ـ **تراث الإسلام**، شاخت وبوزورث، ترجمة: محمد السمهوري، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٧٨م.

١٢٤ ـ **التراث والتجديد**، د. حسن حنفي، مكتبة الجديد، القاهرة.

١٢٥ ـ **تراثنا بين ماض وحاضر**، د. عائشة بنت عبد الرحمٰن، دار المعارف، مصر.

١٢٦ ـ **التصوف.. المنشأ والمصدر**، إحسان إلهي ظهير، إدارة ترجمان السنة، لاهور ـ باكستان، ط١، ١٤٠٦هـ.

١٢٧ ـ **التصوف عند المستشرقين**، د. أحمد الشرباصي، المكتب الفني للنشر، القاهرة، ١٩٦١م.

١٢٨ ـ **تعدد الزوجات في الإسلام**، عبد الله علوان، دار السلام، ط٢، ١٤٠٤هـ.

١٢٩ ـ **تعدد الزوجات والطلاق في الإسلام**، علي عبد الواحد وافي، مؤسسة المطبوعات الحديثة، ١٩٦٠م.

١٣٠ ـ **التعرف لمذهب أهل التصوف**، محمد بن أبي إسحاق الكلاباذي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٣١ ـ **التعريفات**، علي بن محمد الجرجاني، ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان، ط١، ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م.

١٣٢ ـ **تفسير ابن عاشور = التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد»**، محمد الطاهر بن محمد ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤هـ.

١٣٣ ـ **تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ت: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ.

١٣٤ ـ **تفسير الآلوسي = روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، ت: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

١٣٥ ـ **تفسير التاريخ**، عبد العزيز الدوري وآخرون، بغداد.

١٣٦ ـ **تفسير القاسمي = محاسن التأويل**، محمد جمال الدين القاسمي، ت: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلميه، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

١٣٧ ـ **تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن**، محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، ت: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ.

١٣٨ ـ **تفسير المراغي**، أحمد بن مصطفى المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، ط١، ١٣٦٥هـ.

١٣٩ ـ **تفسير المنار = تفسير القرآن الحكيم**، محمد رشيد بن علي رضا الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ١٩٩٠م.

١٤٠ ـ **تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، أبو البركات عبد الله بن أحمد النسفي، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، ط١، ١٤١٩هـ.

١٤١ ـ **تفسير جزء عم**، محمد عبده، المطبعة الأميرية، ط١، ١٣٢٢هـ.

١٤٢ ـ **تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي**، د. محمد أحمد لوح، دار الهجرة، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.

١٤٣ ـ **تقريب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت: محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، ط١، ١٤٠٦هـ.

١٤٤ ـ **تكملة المعاجم العربية**، رينهارت بيتر آن دُوزِي، نقله إلى العربية وعلق عليه: محمَّد سَليم النعَيمي، جمال الخياط، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، ط١، من ١٩٧٩ ـ ٢٠٠٠ م.

١٤٥ ـ **تكملة معجم المؤلفين**، محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٨هـ.

١٤٦ ـ **التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٩هـ.

١٤٧ ـ **التنبيه والإشراف**، أبو الحسن على بن الحسين المسعودي، تصحيح: عبد الله إسماعيل الصاوي، دار الصاوي، القاهرة.

١٤٨ ـ **تنزيه الأنبياء**، على بن الحسين الموسوي (الشريف المرتضى)، قم ـ إيران.

١٤٩ ـ **تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء**، علي بن أحمد السبتي، ت: محمد رضوان الديه، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

١٥٠ ـ **تهذيب التهذيب**، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، ط١، ١٣٢٦هـ.

١٥١ ـ **تهذيب اللغة**، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، ت: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٥٢ ـ **تهذيب سنن أبي داود لابن قيم الجوزية مع عون المعبود شرح سنن أبي داود**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ.

١٥٣ ـ **التوجيه والإرشاد النفسي**، د. حامد عبد السلام زهران، دار عالم الكتب، بيروت، ط٣.

١٥٤ ـ **التوراة بين الوثنية والتوحيد**، سهيل ويب، دار النفائس، ط٤، ١٩٨٩م.

١٥٥ ـ **التوراة دراسة وتحليل**، د. محمّد شلبي شتيوي، دار السحاب، ١٩٨٨م.

١٥٦ ـ **التوقيف على مهمات التعاريف**، عبد الرؤوف المناوي، عالم الكتب، القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

١٥٧ ـ **ثلاث رسائل في الإعجاز**، الرسالة الشافية، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق: محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، ط٢، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٨م.

١٥٨ ـ **الجانب الاعتزالي عند الجاحظ**، د. بلقاسم الغالي، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ.

١٥٩ ـ **جمل من أنساب الأشراف**، أحمد بن يحيى البلاذري، ت: سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤١٧هـ.

١٦٠ ـ **جهود المستشرقين في التراث العربي بين التحقيق والترجمة**، محمد عوني عبد الرؤوف، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٤م.

١٦١ ـ **الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، ت: د. علي بن حسن، ود. عبد العزيز بن إبراهيم العسكر، ود. حمدان بن محمد الحمدان.

١٦٢ ـ **حاضر العالم الإسلامي**، لوثروب ستودارد، ت: شكيب أرسلان، ط٤، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٣هـ.

١٦٣ ـ **الحديث النبوي**، مصطفى أحمد الزرقا، ت: مجد مكي، دار البشائر، ط٣، ٢٠٠٩م.

١٦٤ ـ **الحركة الصليبية، د. سعيد عبد الفتاح عاشور، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٦٣م.**

١٦٥ ـ **حضارة العرب**، غوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، نشر دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.

١٦٦ ـ **الحضارة العربية**، جاك ريسلر، ترجمة: غنيم عبدون، مراجعة: د. أحمد الأهواني، الدار المصرية، القاهرة.

١٦٧ ـ **حقائق الإسلام وأباطيل خصومه**، عباس محمود العقاد، دار نهضة مصر، ط٨، ٢٠٠٩م.

١٦٨ ـ **حقوق الإنسان في الإسلام**، علي عبد الواحد وافي، دار مصر، ط٤، ١٩٦٧م.

١٦٩ ـ **حقوق النساء في الإسلام**، محمد رشيد رضا، المكتب الإسلامي.

١٧٠ ـ **حقيقة كتاب صلة الإسلام باليهودية والمسيحية**، أبو المجد أحمد، دار البعث، قسنطينة، ١٩٨٦م.

١٧١ ـ **حول تاريخ الاستعراب الروسي**، كراتشكوفسكي، موسكو ـ لينتجراد، ١٩٥٠م.

١٧٢ ـ **حياة محمد**، إميل درمنغم، ترجمة: عادل زعيتر، نشر دار إحياء الكتب العربية، ١٩٤٥م.

١٧٣ ـ **الحيوان**، عمرو بن بحر الشهير بالجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ.

١٧٤ ـ **خاتم النبيين** ﷺ، محمد بن أحمد بن مصطفى المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة.

١٧٥ ـ **الخالدون مائة أعظمهم محمد رسول الله** ﷺ، مايكل هارت، ترجمة أنيس منصور، نشر المكتب المصري الحديث.

١٧٦ ـ **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٤، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

١٧٧ ـ **الخطط = المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، أحمد بن علي بن عبد القادر المقريزي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٨هـ.

١٧٨ ـ **خواطر دينية**، عبد الله الصديق الغماري، مطبعة القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

١٧٩ ـ **دائرة المعارف الإسلامية**، ترجمة: محمد ثابت الفندي وأحمد الشنتناوي وإبراهيم خورشيد، إصدار مركز الشارقة للإبداع الفكري، ط١، ١٤١٨هـ.

١٨٠ ـ **دائرة معارف القرن البريطانية**، ط١٥، في عام ١٩٨٣م.

١٨١ ـ **دائرة معارف القرن العشرين**، محمد فريد وجدي، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٩٧١م.

١٨٢ ـ **درء تعارض العقل والنقل**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، ت: الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية، ط٢، ١٤١١هـ.

١٨٣ ـ **دراسات إسلامية**، د. حسن حنفي، دار التنوير، ط١، ١٩٨٢م.

١٨٤ ـ **الدراسات العربية في ألمانيا**، أ. ديتريش، نشر فرانز شتاينر، بفسبادن، ١٩٦٢م.

١٨٥ ـ **الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية**، ر. بارت، ترجمة: مصطفى ماهر، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة، ١٩٦٧م.
١٨٦ ـ **الدراسات العربية والإسلامية في أوروبا**، د. ميشال جحا، معهد الإنماء العربي، ط١.
١٨٧ ـ **الدراسات العربية والإسلامية في بعض البلاد الأوروبية**، مجموعة محاضرات، جامعة بيروت العربية، ١٩٧٣م.
١٨٨ ـ **دراسات عن المؤرخين العرب**، مرجليوث، ترجمة: حسين نصار، المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠م.
١٨٩ ـ **دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية**، د. سعود بن عبد العزيز الخلف، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط٤، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.
١٩٠ ـ **دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه**، محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، ١٤٠٠هـ.
١٩١ ـ **دراسات في حضارة الإسلام**، هاملتون جب، ترجمة: د. إحسان عباس وآخرون، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٧٩م.
١٩٢ ـ **دراسات في علوم القرآن**، د. فهد بن عبد الرحمٰن الرومي، مكتبة التوبة، الرياض، ١٤١٢هـ.
١٩٣ ـ **دراسة الأغاني**، تأليف: شفيق جبري، دار البشائر للطباعة والنشر، ط٢، ٢٠٠١م.
١٩٤ ـ **دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة**، موريس بوكاي، مكتبة مدبولي الكبير، مصر، ط١، ١٩٩٦م.
١٩٥ ـ **دراسة تحليلية لشخصية الرسول محمد ﷺ**، محمد رواس قلعه جي، دار النفائس، ط١، ١٤٠٨هـ.
١٩٦ ـ **دراسة في السيرة**، د. عماد الدين خليل، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٤٢٥هـ.
١٩٧ ـ **دراسة كتاب الأغاني ومنهج مؤلفه**، لداود سلوم، عالم الكتب للطباعة والنشر، ط٣، ١٩٨٥م.
١٩٨ ـ **دراسة للتاريخ**، آرنولد توينبي، ترجمة: فؤاد محمد شبل، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٩٤م.
١٩٩ ـ **درس العربية في أوروبا**: هنري لامنس، المشرق، نوفمبر، ١٩٠١م.
٢٠٠ ـ **دعوة تجديد الإسلام**، هاملتون جب، ترجمة: د. إحسان عباس وآخرون، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨١م.
٢٠١ ـ **دفاع عن الإسلام**، لورا فيشيا فاغليري، ترجمة: منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨١م.
٢٠٢ ـ **دفاع عن السنة ورد شبه المستشرقين والكتاب المعاصرين**، محمد أبو شُهبة، مجمع البحوث الإسلامية ـ القاهرة، ط٢، ١٤٠٦هـ.

٢٠٣ ـ **دفاع عن محمد ﷺ ضد المنتقصين من قدره**، د. عبد الرحمٰن بدوي، ترجمة: كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر.

٢٠٤ ـ **دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن مهران الأصبهاني، ت: د. محمد رواس قلعه جي وعبد البر عباس، دار النفائس، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ.

٢٠٥ ـ **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، أحمد بن الحسين البيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ.

٢٠٦ ـ **دلالة القرآن المبين على أن النبي ﷺ أفضل العالمين**، عبد الله الصديق الغماري، المكتبة المكية بالسعودية، ط١، ١٤٠٨هـ.

٢٠٧ ـ **دين الإسلام**، لايتر، ترجمة: عبد الوهاب سليم، المكتبة السلفية، دمشق، ١٣٤٢هـ.

٢٠٨ ـ **الدين والدولة في إثبات نبوة محمّد ﷺ**، عليّ بن ربن الطبري، ت: عادل نويهض، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩م.

٢٠٩ ـ **رؤية إسلامية للاستشراق**، أحمد غراب، دار رسالة البيان، ١٩٩٠م.

٢١٠ ـ **رجال ونساء أسلموا**، عرفات كامل العشي، دار القلم، الكويت، ج١، ط٢، ج٢ ـ ٣، ط١، ١٩٧٣ ـ ١٩٨٣م.

٢١١ ـ **رد شبهات حول عصمة النبي ﷺ في ضوء القرآن والسُّنَّة**، د. عماد السيد الشربيني، دار اليقين للنشر والتوزيع، مصر، ط١، ١٤٢٩هـ.

٢١٢ ـ **الرد على المنطقيين**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني، ت: دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٢١٣ ـ **الرسالة المحمدية**، سليمان الندوي، مكتبة دار الفتح، دمشق، ١٩٧٣م.

٢١٤ ـ **رسالة حنا مقار العيسوي إلى أبي عبيدة الخزرجي**، ورد أبي عبيدة عليها ضمن كتاب (بين الإسلام والمسيحية)، تحقيق وتعليق الدكتور: محمد شامة، نشر مكتبة وهبة بمصر، سنة ١٣٩٥هـ.

٢١٥ ـ **رسالة راهب فرنسا إلى المسلمين وجواب القاضي أبي الوليد الباجي عليها**، دراسة وتحقيق: د. محمد عبد الله الشرقاوي، نشر دار الصحوة للنشر والتوزيع بالقاهرة ـ مصر، سنة ١٤٠٦هـ.

٢١٦ ـ **رسالة في اللاهوت والسياسة**، باروخ سبينوزا، ترجمة: د. حسن حنفي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٧١م.

٢١٧ ـ **الرسل والرسالات**، د. عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع ـ دار النفائس للنشر والتوزيع، الكويت، ط٤، ١٤١٠هـ ـ ١٩٨٩م.

٢١٨ ـ **الرسول: حياة محمد**، ر.ف. بودلي، ترجمة: محمد محمد فرح وعبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر، القاهرة.

٢١٩ ـ **الرسول ﷺ في تصورات الغربيين**، جوستاف بفانمولر، ترجمة: د. محمود زقزوق، مكتبة ابن تيميه، البحرين، ١٤٠٦هـ.

٢٢٠ ـ **روائع البيان تفسير آيات الإحكام**، محمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي، دمشق، ط٢، ١٣٩٧هـ.

٢٢١ ـ **روح الإسلام**، سيد أمير علي، ت: أمين محمود الشريف ومحمد بدران، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٢٢ ـ **الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام**، أبو القاسم عبد الرحمٰن بن عبد الله بن أحمد السهيلي، ت: عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

٢٢٣ ـ **زاد المعاد في هدي خير العباد**، ابن قيم الجوزية، ت: شعيب الأناؤوط، عبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، ط٢٧، ١٤١٥هـ..

٢٢٤ ـ **السامريون واليهود**، د. سيد فرج راشد، دار المريخ، ط١، ١٩٨٧م.

٢٢٥ ـ **سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى**، جوزيف داهموس، ترجمة وتحقيق: محمد فتحي الشاعر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٢م.

٢٢٦ ـ **سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ١٩٩٥م.

٢٢٧ ـ **السُّنَّة المفترى عليها**، المستشار سالم البهنساوي، دار الوافاء بالمنصورة، ١٩٩٢م.

٢٢٨ ـ **السُّنَّة بين أهل الفقه وأهل الحديث**، الشيخ محمد الغزالي، دار الشروق، مصر، ١٩٨٩م.

٢٢٩ ـ **السُّنَّة قبل التدوين**، د. محمد عجاج الخطيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٠٠هـ.

٢٣٠ ـ **السُّنَّة ومكانتها في التشريع الإسلامي**، د. مصطفى حسن السباعي، المكتب الإسلامي: دمشق ـ سوريا، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٠٢هـ.

٢٣١ ـ **سنن = مسند الدارمي**، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، ت: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، السعودية، ط١، ١٤١٢هـ.

٢٣٢ ـ **سنن ابن ماجه**، ابن ماجه أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي.

٢٣٣ ـ **سنن أبي داود**، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق السِّجِسْتاني، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت.

٢٣٤ ـ **سنن الترمذي**، محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد بن محمد شاكر وآخرون، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٣٩٥هـ.

٢٣٥ ـ **سنن الدارقطني**، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد الدارقطني، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ.

٢٣٦ ـ **السنن الكبرى**، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٢٤هـ.

٢٣٧ ـ **سنن النسائي = المجتبى من السنن مع شرح السيوطي وحاشية السندي**، أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي، ت: عبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ط٢، ١٤٠٦هـ.

٢٣٨ ـ **السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات**، فان فلوتن، ترجمة وتحقيق: حسن إبراهيم حسن ومحمد زكي إبراهيم، دار السعادة للطباعة، ١٩٣٤م.

٢٣٩ ـ **السياسة الشرعية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية الحراني، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٤٠ ـ **سير أعلام النبلاء**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٤٠٥هـ.

٢٤١ ـ **سيرة ابن إسحاق = كتاب السير والمغازي**، محمد بن إسحاق بن يسار المطلبي، ت: سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٣٩٨هـ.

٢٤٢ ـ **سيرة ابن هشام = السيرة النبوية لابن هشام**، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، ت: طه عبد الرؤوف سعد، شركة الطباعة الفنية المتحدة.

٢٤٣ ـ **سيرة ابن هشام = السيرة النبوية لابن هشام**، عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري المعافري، ت: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط٢، ١٣٧٥هـ.

٢٤٤ ـ **سيرة ابن هشام = السيرة النبوية لابن هشام**، ت: همام عبد الرحيم سعيد، ومحمد عبد الله أبو صعليليك (مقدمة التحقيق)، مكتبة المنار، الأردن، ط١، ١٤٠٩هـ.

٢٤٥ ـ **السيرة الحلبية = إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون**، علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٧هـ.

٢٤٦ ـ **سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن الكريم**، محمد عزة دروزة، مطبعة الاستقامة القاهرة، ط١، ١٩٤٨م.

٢٤٧ ـ **السيرة النبوية (دراسة لتصحيح الأخطاء الواردة في الموسوعة الإسلامية الصادرة عن دار بريل في لايدن)**، د. أحمد أبو زيد، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، إيسيسكو، ٢٠٠٤م.

٢٤٨ ـ **السيرة النبوية**، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، ت: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان، ١٣٩٥هـ.

٢٤٩ ـ **السيرة النبوية الصحيحة محاولة لتطبيق قواعد المحدثين في نقد روايات السيرة النبوية**، د. أكرم ضياء العُمري، مكتبة العبيكان، ط٧، ١٤٢٨هـ.

٢٥٠ ـ **السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسُّنَّة للدكتور**، د. محمد أبو شهبة، دار القلم، بيروت، ط٣، ١٤١٧هـ.

٢٥١ ـ **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**، دراسة تحليلية، د. مهدي رزق الله، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٩٩٢م.

٢٥٢ ـ **السيرة النبوية والدعوة في العهد المدني**، أحمد أحمد غلوش، ص١٢٧ ـ ١٣٢، نشر مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

٢٥٣ ـ **السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي**، أحمد أحمد غلوش، ص١٢٧ ـ ١٣٢، نشر مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٣م.

٢٥٤ ـ **السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث**، د. علي محمد محمد الصلابي، نشر دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، ط٧، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

٢٥٥ ـ **السيرة النبوية**، دراسة تحليلية، محمد أبو فارس، ص١٠٢، دار الفرقان، عمان، ط١، ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٧م.

٢٥٦ ـ **سيرة النبي محمد**، كارين أرمسترونج، ترجمة: د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، دار سطور، ط٢، ١٩٩٨م.

٢٥٧ ـ **سيرة سيد المرسلين**، محمود أبو الفيض الحسيني، دار نهضة، مصر ـ القاهرة.

٢٥٨ ـ **السيف اليماني في نحر أبي الفرج الأصفهاني**، وليد الأعظمي، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، ط١، ١٤٠٨هـ.

٢٥٩ ـ **شارك في تحقيقه**: عبد الفتاح أبو سنة، الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٨هـ.

٢٦٠ ـ **الشبه الاستشراقية في كتاب مدخل إلى القرآن الكريم**، د. محمد عابد الجابري ـ رؤية نقدية ـ، عبد السلام البكاري، الصديق بوعلام، الدار العربية للعلوم، لبنان، ط١، ١٤٣٠هـ.

٢٦١ ـ **شبهات وأباطيل حول تعدد زوجات الرسول** ﷺ، محمد علي الصابوني، طبعة حسن عباس الشربتلي، ط١، ١٤٠٠هـ.

٢٦٢ ـ **شبهات وأباطيل خصوم الإسلام والرد عليها**، محمد متولي شعراوي، مكتبة التراث الإسلامي، مصر.

٢٦٣ ـ **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، عبد الحي بن أحمد بن محمد بن العماد الحنبلي، ت: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ.

٢٦٤ ـ **شذرات من علوم السُّنَّة**، محمد الأحمدي أبو النور، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٧٥م.

٢٦٥ ـ **شرح الزرقاني على المواهب اللدنية**، للقسطلاني، لمحمد الزرقاني، دار الكتب العلمية، ١٩٩٦م.

٢٦٦ ـ **شرح السُّنَّة**، البغوي، ت: زهير الشاويش وآخرون، المكتب الاسلامي، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ.

٢٦٧ ـ **شرح العقيدة الأصفهانية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم عبد السلام ابن تيمية، ت: محمد بن رياض الأحمد، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ.

٢٦٨ ـ **شرح العقيدة الطحاوية**، عليّ بن محمد بن أبي العز الحنفي، ت: شعيب الأرنؤوط، د.عبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١٠، ١٤١٧هـ.

٢٦٩ ـ **شرح الكوكب المنير**، تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد الفتوحي المعروف بابن النجار، ت: محمد الزحيلي ونزيه حماد، مكتبة العبيكان، ط٢، ١٤١٨هـ.

٢٧٠ ـ **شرح مسلم للنووي = المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢، ١٣٩٢هـ.

٢٧١ ـ **الشرق والإسلام في أدب جوته**، ترجمة: عبد الرحمٰن صدقي، دار الهلال، القاهرة.

٢٧٢ ـ **شعب الإيمان**، أحمد بن الحسين البيهقي، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، ط١، ١٤٢٣هـ.

٢٧٣ ـ **الشفا بتعريف حقوق المصطفى**، القاضي عياض، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٧٤ ـ **الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية للترمذي**، تعليق: محمد عفيفي الزعبي، دار المطبوعات الحديثة بالسعودية، ط٣، ١٤٠٩هـ.

٢٧٥ ـ **الشيوعية والإنسانية في شريعة الإسلام**، عباس محمود العقاد، دار الهلال، مصر، ١٣٨٢هـ.

٢٧٦ ـ **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، إسماعيل بن حماد الجوهري، ت: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤٠٧هـ.

٢٧٧ ـ **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمي البُستي، ت: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤١٤هـ.

٢٧٨ ـ **صحيح الأدب المفرد للبخاري**، محمد ناصر الدين الألباني، دار الصديق، ط١، ١٤٢١هـ.

٢٧٩ ـ **صحيح البخاري = الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه**، محمد بن إسماعيل البخاري، ت: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ.

٢٨٠ ـ **صحيح الجامع الصغير وزياداته**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي.

٢٨١ ـ **صحيح مسلم = المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ**، ت: مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٨٢ ـ **صفة الصفوة**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، ت: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، مصر، ١٤٢١هـ.

٢٨٣ ـ **صور استشراقية**، عبد الجليل شلبي، نشر مجمع البحوث الإسلامية، ١٣٩٨هـ.

٢٨٤ ـ **صورة الإسلام في أوروبا في القرون الوسطى**، ريتشارد سوذرن، ترجمة: د. رضوان السيد، دار المدار الإسلامي، بيروت ـ لبنان، ٢٠٠٦م.

٢٨٥ ـ **صورة العالم الإسلامي في أوروبا**: مكسيم رودنسون، الطليعة، فبراير ١٩٧٠م.

٢٨٦ ـ **صورة النبي محمد ﷺ في الكتابات الأنكلو ـ أمريكية**، د.عبد النبي أصطيف، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠٠٨م.

٢٨٧ ـ **طبقات الأطباء = عيون الأنباء في طبقات الأطباء**، أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس الخزرجي، ابن أبي أصيبعة، ت: الدكتور نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.

٢٨٨ ـ **طبقات الشافعية الكبرى**، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين السبكي، ت: د. محمود محمد الطناحي، د. عبد الفتاح محمد الحلو، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٣هـ.

٢٨٩ ـ **الطبقات الكبرى**، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي المعروف بابن سعد، ت: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٠هـ.

٢٩٠ ـ **طبقات المستشرقين**، عبد الحميد ناصر حمدان، مكتبة مدبولي، مصر، ١٩٩٥م.

٢٩١ ـ **طبقات المفسرين**، محمد بن علي بن أحمد الداوودي، راجع النسخة وضبط أعلامها: لجنة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٩٢ ـ **طبقات فحول الشعراء**، محمد بن سلام بن عبيد الله الجمحي، ت: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة.

٢٩٣ ـ **الطريق إلى الإسلام**، محمد أسد، نشر دار العلم للملايين، بيروت، ط٨، ١٩٩٤م.

٢٩٤ ـ **طه حسين في ميزان العلماء والأدباء**، لمحمود مهدي الإستانبولي، المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٨٣م.

٢٩٥ ـ **الظاهرة الاستشراقية وأثرها في الدراسات الإسلامية**، د. ساسي سالم الحاج، نشر دار المدار الإسلامي، ط١، بيروت ـ لبنان ـ، ٢٠٠٢م.

٢٩٦ ـ **الظاهرة القرآنية**، مالك بن نبي، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٥م.

٢٩٧ ـ **عبقرية محمد**، عباس محمود العقاد، دار نهضة، مصر، القاهرة.

٢٩٨ ـ **العرب والإسلام والخلافة العربية**، ي. أ. بليايف، ترجمة: أنيس فريحة، نشر الدار المتحدة للنشر، بيروت ـ لبنان.

٢٩٩ ـ **عصر الخلافة الراشدة**، محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق مناهج المحدثين، للدكتور أكرم ضياء العُمري، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٩٩٦م.

٣٠٠ ـ **عصمة الأنبياء**، فخر الدين الرازي، مطبعة الشهيد، قم بإيران، ١٤٠٦هـ.

٣٠١ ـ **عصمة الأنبياء والرد على الشبه الموجهة إليهم**، الدكتور محمد أبو النور الحديدي، مطبعة الأمانة، مصر.

٣٠٢ ـ **العقائد الوثنية في الديانة النصرانية**، محمد طاهر التنير، مكتبة النافذة، ط١، ٢٠٠٥م.

٣٠٣ ـ **العقد الفريد**، لابن عبد ربه، ت: محمد عبد القادر شاهين، المكتبة العصرية، ط١، ١٩٩٠م.

٣٠٤ ـ **عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية**، د. أحمد سعد الغامدي، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٤٠٥هـ.

٣٠٥ ـ **العقيدة والشريعة في الإسلام**، إيناس جولد زيهر، ترجمة: محمد يوسف موسى وآخرون، دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٤٦م.

٣٠٦ ـ **العلاقات العربية اليهودية حتى نهاية عهد الخلفاء الراشدين**، صالح موسى درادكه، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٣٠٧ ـ **العلاقة بين الاستشراق والتبشير**، د. أحمد السائح، طبعة كلية أصول الدين والدعوة بشبين الكوم، مصر، ١٩٨٩م.

٣٠٨ ـ **علم التأريخ عند المسلمين**، فرانز روزنثال، ترجمة: د. صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٣هـ.

٣٠٩ ـ **علم الشرق وتاريخ العمران**، م. أ. جويدي، منشور للجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة، ١٩٣٠م.

٣١٠ ـ **علماء ومفكرون عرفتهم**، محمد المجذوب، دار الشواف، السعودية، ١٩٩٢م.

٣١١ ـ **العلمانية ـ نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلاميَّة المعاصرة**، د. سفر بن عبد الرحمٰن الحوالي، مكتب الطيب، القاهرة، ط١، ١٤١٨هـ.

٣١٢ ـ **العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان، ت: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، مكتبة أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.

٣١٣ ـ **علوم الحديث ومصطلحه ـ عرضٌ ودراسة ـ**، د. صبحي إبراهيم الصالح، دار العلم للملايين، بيروت ـ لبنان، ط١٥، ١٩٨٤م.

٣١٤ ـ **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، بدر الدين العيني، مطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ١٣٩٢هـ.

٣١٥ ـ **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، محمد بن محمد ابن سيد الناس، اليعمري، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

٣١٦ ـ **غوستاف لوبون في الميزان**، شوقي أبو خليل، نشر دار الفكر المعاصر، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ.
٣١٧ ـ **فتح الباري فتح الباري شرح صحيح البخاري**، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة ـ بيروت، ١٣٧٩هـ.
٣١٨ ـ **الفتوحات العربية الكبرى**، جون باجوت غلوب، ترجمة خيري حماد، مكتبة المثنى، بغداد.
٣١٩ ـ **فرق الشيعة للنوبختي**، ت: عبد المنعم الحفني، دار الرشاد، ط١، ١٤١٢هـ.
٣٢٠ ـ **الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية**، عبد القاهر بن طاهر البغدادي الأسفراييني، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، ط٢، ١٩٧٧م.
٣٢١ ـ **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، أبو محمد علي بن أحمد ابن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي، القاهرة.
٣٢٢ ـ **الفصول في سيرة الرسول ﷺ لابن كثير**، ت: محمد العيد الخطراوي، ومحيي الدين مستو، دار ابن كثير بدمشق، ومكتبة دار التراث بالمدينة المنورة، ط٤، ١٤٠٥هـ.
٣٢٣ ـ **فقه السيرة**: محمد الغزالي، خرج أحاديثه: الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، دار الشروق، مصر، ط٤، ٢٠٠٨م.
٣٢٤ ـ **فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة**، محّمد سعيد رمضان البوطي، دار الفكر، دمشق، ط٢٥، ١٤٢٦هـ.
٣٢٥ ـ **الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي**: محمد البهي، مكتبة وهبة، ط٨.
٣٢٦ ـ **الفكر الإسلامي المعاصر**، دراسة وتقويم، غازي التوبة، دار القلم، بيروت، ط٣، ١٩٧٥م.
٣٢٧ ـ **الفكر العربي ومكانه في التاريخ**، ديلاسي أوليري، ت: تمام حسان، المؤسسة المصرية العامة للتأليف.
٣٢٨ ـ **فكر محمد أسد (ليوبولد فايس) كما لا يعرفه الكثيرون**، د. إبراهيم عوض، نشر دار الثقافة قطر، ط١، ٢٠٠٠م.
٣٢٩ ـ **فلاسفة الشرق**، أ. ر. ف. توملين، ترجمة: عبد الحليم سليم، دار المعارف، القاهرة.
٣٣٠ ـ **فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر**، أحمد سمايلوفتش، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤١٨هـ.
٣٣١ ـ **فلسفة الفكر الإسلامي**، لهنري سيرويا، ترجمة: محمد إبراهيم، سلسلة الثقافة الإسلامية، عدد ٣٢، دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٦١م.
٣٣٢ ـ **فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية ـ لويس عرديه وج. قنواتي**، ترجمة: صبحي الصالح ود. فريد جبر، ط١، دار العلم للملايين، بيروت.

٣٣٣ ـ **فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات**، محمد عَبْد الحَيّ بن عبد الكبير، المعروف بعبد الحي الكتاني، ت: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م.

٣٣٤ ـ **الفهرس الوصفي للمنشورات الاستشراقية في جامعة الإمام**، د. قاسم السامرائي، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٤٠٨هـ.

٣٣٥ ـ **الفهرست**، أبو الفرج محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم، ت: إبراهيم رمضان، دار المعرفة بيروت ـ لبنان، ط٢، ١٤١٧هـ.

٣٣٦ ـ **في الفلسفة الإسلامية**، إبراهيم مدكور، الطبعة الثانية، دار المعارف بمصر، سنة ١٩٦٨م.

٣٣٧ ـ **فيليب حتي: عصر النبوة والخلافة الراشدة ـ دراسة نقدية ـ**، د. فاضل محمد الكبيسي، نشر دار الفرقان، عمان ـ الأردن، ط١، ١٤٢٥هـ.

٣٣٨ ـ **القاديانية: نشأتها وتطورها**، د. حسن عيسى عبد الظاهر، دار القلم، الكويت، ط٣، ١٩٨١م.

٣٣٩ ـ **قالوا عن الإسلام**، د. عماد الدين خليل، إصدار الندوة العالمية، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ.

٣٤٠ ـ **قاموس الكتاب المقدس**، د. بطرس عبد الملك ود. جون طومسون وإبراهيم مطر، دار مكتبة العائلة بالبحرين، ط١٤، ٢٠٠١م.

٣٤١ ـ **القاموس المحيط**، محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ت: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة.

٣٤٢ ـ **قراءة نقدية في السيرة النبوية**، أصلان عبد السلام حسن، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط١، ١٩٨٨م.

٣٤٣ ـ **القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، دراسة نقدية تحليلية**، د. محمد محمد أبو ليلة، دار النشر للجامعات، مصر، ط١، ١٤٢٣هـ.

٣٤٤ ـ **القرآن والإنجيل والقرآن والعلم**، موريس بوكاي، الملتقى للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٣م.

٣٤٥ ـ **قصة الحضارة**، ول ديورانت، تقديم: د. محيي الدّين صَابر، ترجمة: زكي نجيب محمود وآخرون، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، ١٤٠٨هـ.

٣٤٦ ـ **قصص الأنبياء**، عبد الوهاب النجار، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط٣، ١٤٠٦هـ.

٣٤٧ ـ **قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث**، محمد جمال الدين بن محمد سعيد القاسمي، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان.

٣٤٨ ـ **قيم حضارية في القرآن الكريم، عالم ما قبل القرآن**، توفيق محمد سبع، دار المنار، ١٩٨٤م.

٣٤٩ ـ **الكامل في التاريخ**، أبو الحسن علي بن أبي الكرم ابن الأثير، ت: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤١٧هـ.

٣٥٠ ـ **الكامل في ضعفاء الرجال**، أبو أحمد بن عدي الجرجاني، ت: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض.

٣٥١ ـ **الكتاب المقدس (الترجمة العربية)**، طبعة دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط، دون طبعة وتاريخ.

٣٥٢ ـ **كتب حذر منها العلماء**، مشهور حسن آل سلمان، دار العصيمي، ط١، ١٩٩٥م.

٣٥٣ ـ **كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**، محمد بن علي الحنفي التهانوي، تقديم وإشراف ومراجعة: د. رفيق العجم، ت: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

٣٥٤ ـ **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، للزمخشري، المكتبة التجارية بمصر، ط١، ١٣٤٥هـ.

٣٥٥ ـ **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي المشهور بحاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٤١م.

٣٥٦ ـ **الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، ت: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.

٣٥٧ ـ **الكنْز الجليل في تفسير الإنجيل**، د. وليم إدير، طبع ونشر مجمع الكنائس في الشرق الأدنى، بيروت، ١٩٧٣م.

٣٥٨ ـ **لسان العرب**، محمد بن مكرم بن علي جمال الدين ابن منظور، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ.

٣٥٩ ـ **لسان الميزان**، أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، ت: عبد الفتاح أبو غدة، دار البشائر الإسلامية، ط١، ٢٠٠٢ م.

٣٦٠ ـ **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**، محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي، مؤسسة الخافقين ومكتبتها، دمشق، ط٢، ١٤٠٢هـ.

٣٦١ ـ **المؤرخون وروح الشعر**، ترجمة: توفيق إسكندر، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٦١م، القاهرة.

٣٦٢ ـ **ما يقال عن الإسلام**: عباس محمود العقاد دار الكتاب الاسلامي، ط١.

٣٦٣ ـ **ماذا عن المرأة**، نور الدين عتر، ط. دار الفكر، بيروت، وبيت الطباعة.

٣٦٤ ـ **مباحث في إعجاز القرآن**، د. مصطفى مسلم، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤٢٦هـ.

٣٦٥ ـ **مباحث في علوم القرآن**، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، ط٢٤، كانون الثاني/يناير ٢٠٠٠م.

٣٦٦ ـ **مباحث في علوم القرآن**، د. مناع بن خليل القطان، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٢١هـ.

٣٦٧ ـ **مجلة المجمع العلمي**، إصدار المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٩٢٣م.

٣٦٨ ـ **مجلة المنار**، محمد رشيد رضا وآخرون، مطبعة المنار، ١٣١٥هـ.

٣٦٩ ـ **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، للهيثمي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٢هـ.

٣٧٠ ـ **مجموع الفتاوى**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، ت: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م.

٣٧١ ـ **مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة**، محمد حميد الله، نشر دار النفائس، بيروت، ط٦، ١٤٠٧هـ.

٣٧٢ ـ **محاضرات في النصرانية**، محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٦ م.

٣٧٣ ـ **محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية**، محمد الخضري بك، المكتبة التجارية، مصر، ط٤، ١٣٥٤هـ.

٣٧٤ ـ **محمد ﷺ في أدبيات الفكر الغربي**، د. سليمان محمد الجار الله ود. عبد الراضي محمد عبد المحسن، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ١٤٣١هـ.

٣٧٥ ـ **محمد رسول الله ﷺ**، للشيخ محمد الصادق عرجون، دار القلم، بيروت، ط٢، ١٤١٥هـ.

٣٧٦ ـ **محمد رسول الله في الكتب المقدسة**، سامي عامري، ص٣٠٣ ـ ٣٠٥، مركز التنوير الإسلامي، القاهرة، ط١، ١٤٢٦هـ.

٣٧٧ ـ **محمد رسول الله في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير علمائه وكتابه**، محمد فهمي عبد الوهاب، دار أبو سلامة للطباعة والنشر والتوزيع، تونس.

٣٧٨ ـ **محمد رسول الله**، نصر الدين دينيه وسليمان بن إبراهيم، مقدمة الشيخ عبد الحليم محمود، ص٨ ـ ٩، نشر مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط٢، ١٩٥٨م.

٣٧٩ ـ **محمد ﷺ بين الحقيقة والافتراء**، د. محمد محمد أبو ليلة، دار النشر للجامعات، مصر، ط١، ١٤٢٠هـ.

٣٨٠ ـ **محمّد ﷺ في الكتاب المقدس**، عبد الأحد داود، ترجمة: فهمي شما، دار الضياء للنشر، قطر، ط٢، ١٤٠٥هـ.

٣٨١ ـ **محمد ﷺ نبي لزماننا**، كارين أرمسترونج، ترجمة: فاتن الزلباني، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ١٤٢٩هـ.

٣٨٢ ـ **محمّد ﷺ في التوراة والإنجيل والقرآن**، إبراهيم خليل أحمد، دار المنار، القاهرة، ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٩م.
٣٨٣ ـ **محمد في المدينة**، مونتجومري وات، ترجمة: شعبان بركات، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، صيدا ـ لبنان.
٣٨٤ ـ **محمد في مكة**، مونتجومري وات، ترجمة: شعبان بركات، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، صيدا ـ لبنان.
٣٨٥ ـ **محمد والقرآن: دعوة النبي العربي ورسالته**، رودي باريت، ترجمة: د. رضوان السيد، مؤسسة شرق غرب، ديوان المسار للنشر، دبي ـ الإمارات العربية المتحدة، ط١، ٢٠٠٩م.
٣٨٦ ـ **محمد والمحمدية**، بوسورث سميث، لندن، ١٨٧٤م.
٣٨٧ ـ **محمد وخلفاؤه (سيرة مقارنة)**، واشنطن إيرفنغ، ترجمة ومقارنة: د. هاني يحيى نصري، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ـ المغرب، ط١، ١٩٩٩م.
٣٨٨ ـ **مختار الصحاح**، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الرازي، ت: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت ـ صيدا، ط٥، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
٣٨٩ ـ **مختصر علم اللاهوت**، الحقير فرنسيس أيوب رئيس أساقفة حلب، منشورات المطبعة الكاثوليكية، بيروت.
٣٩٠ ـ **مداخل المثقفين العرب للاستشراق**، محسن جاسم الموسوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٧م.
٣٩١ ـ **مدارس الإستشراق**، محمد فتح الله الزيادي.
٣٩٢ ـ **مدخل إلى القرآن الكريم**، د. محمد عابد الجابري، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ٢٠٠٦م.
٣٩٣ ـ **المدخل إلى دراسة القرآن الكريم**، د.عبد الله دراز، دار القلم، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م.
٣٩٤ ـ **المدخل لدراسة القرآن الكريم**، د. محمد أبو شهبة، مكتبه السنة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣ م.
٣٩٥ ـ **المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها**، د. غالب بن علي عواجي، المكتبة العصرية الذهبية، جدة، ط١، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.
٣٩٦ ـ **المرأة بين الفقه والقانون**، مصطفى بن حسني السباعي، دار الوراق للنشر والتوزيع، بيروت، ط٧، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
٣٩٧ ـ **المرأة في القرآن**، عباس محمود العقاد، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١.
٣٩٨ ـ **المرأة ومكانتها في الإسلام**، أحمد عبد العزيز الحصين، ط١، ١٤٠١هـ.
٣٩٩ ـ **المستدرك على الصحيحين**، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري، ت: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ.

٤٠٠ ـ **المستشرقون**، نجيب العقيقي، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٦٤م.

٤٠١ ـ **المستشرقون الألمان**، صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ط١، ١٩٧٨م.

٤٠٢ ـ **المستشرقون البريطانيون**، : آ. أربري، ترجمة: محمد السوقي النويهي، مطبعة وأيام كولينز، لندن، ١٩٤٦م.

٤٠٣ ـ **المستشرقون والتاريخ الإسلامي**، علي حسني الخربوطلي، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.

٤٠٤ ـ **المستشرقون والتراث**، د. عبد العظيم الديب، دار الوفاء، المنصورة ـ مصر، ط٢، ١٤١٣هـ.

٤٠٥ ـ **المستشرقون والحديث النبوي**، د. محمد بهاء الدين، دار النفائس، عمان ـ الأردن، ط١، ١٩٩٩م.

٤٠٦ ـ **المستشرقون والدراسات القرآنية**، د. محمد حسن الصغير، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

٤٠٧ ـ **المستشرقون والسيرة النبوية**، عماد الدين خليل، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ.

٤٠٨ ـ **المستشرقون وترجمة القرآن**، د. محمد البنداق، نشر دار الأفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ.

٤٠٩ ـ **مسند أبي داود الطيالسي**، أبو داود سليمان بن داود الطيالسي، ت: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، ط١، ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

٤١٠ ـ **مسند أبي يعلى**، لأبي يعلى الموصلي، ت: حسين سليم أسد، دار المأمون، ١٤١٥هـ.

٤١١ ـ **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، ت: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، إشراف: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ.

٤١٢ ـ **مسند البزار = البحر الزخار**، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق العتكي المعروف بالبزار، ت: محفوظ الرحمٰن زين الله وعادل بن سعد وصبري عبد الخالق الشافعي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٨م ـ ٢٠٠٩م.

٤١٣ ـ **المسيح في مصادر العقائد المسيحية**، المهندس أحمد عبد الوهّاب، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٣٩٨هـ ـ ١٩٧٨م.

٤١٤ ـ **المسيحية نشأتها وتطورها**، شارل جنيبر، ترجمة: د. عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية، صيدا.

٤١٥ ـ **مشكاة المصابيح**، محمّد بن عبد الله الخطيب التبريزي، ت: الشيخ محمّد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٩٩هـ.

٤١٦ ـ **مشكلات القرآن الكريم**، محمد عبده، مكتبة الحياة، بيروت.
٤١٧ ـ **المصادر العامة للتلقي عند الصوفية ـ عرضاً ونقداً ـ**، د. صادق سليم صادق، ط٢، ١٤٢٧هـ.
٤١٨ ـ **مصادر السيرة وتقويمها**، د. فاروق حماده، منشورات دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤٢٤هـ ـ ٢٠٠٢م.
٤١٩ ـ **مصادر المعلومات عن الاستشراق والمستشرقين استقراء للمواقف**، د. علي بن إبراهيم النملة، مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ١٤١٤هـ.
٤٢٠ ـ **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت.
٤٢١ ـ **المصنف = الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**، أبو بكر بن أبي شيبة، ت: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.
٤٢٢ ـ **مع المفسرين والمستشرقين في زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش ـ دراسة تحليلية**، الدكتور زاهر الألمعي، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر، ط٢، ١٣٩٦هـ.
٤٢٣ ـ **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، ت: عمر بن محمود أبو عمر، دار ابن القيم، الدمام، ط١، ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.
٤٢٤ ـ **معالم في الثقافة الإسلامية**، د. عبد الكريم عثمان، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٢م.
٤٢٥ ـ **معجم أسماء المستشرقين**، يحيى مراد، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م.
٤٢٦ ـ **المعجم الفلسفي**، جميل صليبا، دار الكتاب اللبناني، لبنان، ١٩٨٢م.
٤٢٧ ـ **المعجم الكبير**، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير الطبراني، ت: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢.
٤٢٨ ـ **معجم اللغة العربية المعاصرة**، د. أحمد مختار عبد الحميد عمر وآخرون، عالم الكتب، ط١، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.
٤٢٩ ـ **معجم المخطوطات المطبوعة**، صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٣٩٨هـ.
٤٣٠ ـ **معجم المطبوعات العربية**، يوسف إليان سركيس، مكتبة الثقافة الدينية.
٤٣١ ـ **المعجم الوسيط**، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ت: إبراهيم مصطفى وأحمد الزيات وآخرون، دار الدعوة.
٤٣٢ ـ **معجم بلدان فلسطين**، محمد محمد شراب، دار المأمون للتراث، ط١، ٢٠٠٨م.
٤٣٣ ـ **معجم علوم الحديث النبوي**، د. عبد الرحمٰن الخميسي، دار الأندلس، جدة، ودار ابن حزم ـ بيروت، ١٤٢١هـ.
٤٣٤ ـ **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، لعبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي، عالم الكتب، بيروت، ط٣، ١٤٠٣هـ.

٤٣٥ ـ **معجم متن اللغة موسوعة لغوية حديثة**، أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٩م.

٤٣٦ ـ **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، ت: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٤٣٧ ـ **مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير برواية أبي الأسود عنه**، ت: د. محمد مصطفى الأعظمي، نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج، الرياض، ١٤٠٤هـ.

٤٣٨ ـ **المغازي**، محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي الواقدي، ت: الدكتور مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، ط٣، ١٤٠٩هـ.

٤٣٩ ـ **مفتاح السُنَّة أو تاريخ فنون الحديث**، محمد عبد العزيز الخولي، دار الكتب العلمية.

٤٤٠ ـ **مفتريات على الإسلام**، أحمد محمد جمال، مطبوعات الشعب، ط٣، ١٣٥٩هـ.

٤٤١ ـ **مفتريات وأخطاء دائرة المعارف الإسلامية (الاستشراقية)**، د. خالد بن عبد الله القاسم، دار الصميعي للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٣١هـ.

٤٤٢ ـ **المفردات في غريب القرآن**، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، ت: صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ.

٤٤٣ ـ **المفصل في تاريخ الأدب العربي**، أحمد الإسكندري وأحمد أمين، القاهرة، ١٩٣٤م.

٤٤٤ ـ **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، الدكتور جواد علي، دار الساقي، ط٤، ١٤٢٢هـ.

٤٤٥ ـ **مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين**، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري، عني بتصحيحه: هلموت ريتر، دار فرانز شتايز، بمدينة فيسبادن (ألمانيا)، ط٣، ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

٤٤٦ ـ **مقدمة ابن الصلاح = معرفة أنواع علوم الحديث**، عثمان بن عبد الرحمٰن، تقي الدين المعروف بابن الصلاح، ت: عبد اللطيف الهميم، ماهر ياسين الفحل، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٢م.

٤٤٧ ـ **الملل والنحل**، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، مؤسسة الحلبي، القاهرة.

٤٤٨ ـ **المنار المنيف في الصحيح والضعيف**، ابن قيم الجوزية، ت: عبد الفتاح أبو غدة، مكتبة المطبوعات الإسلامية، حلب، ط١، ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

٤٤٩ ـ **مناهج البحث العلمي**، د. عبد الرحمٰن بدوي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٣م.

٤٥٠ ـ **مناهج البحث في الإسلاميات لدى المستشرقين وعلماء الغرب**، د. محمد البشير مغلي، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض، ١٤٢٢هـ.

٤٥١ ـ **مناهج المؤلفين في السيرة النبوية وخصائص المنهج الصحيح في الدراسة**، سعد المرصفي، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، مكتبة ابن كثير، ٢٠٠٢م.

٤٥٢ ـ **مناهل العرفان في علوم القرآن**، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط٣.

٤٥٣ ـ **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي بن محمد الجوزي، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

٤٥٤ ـ **منحة القريب المجيب في الرد على عباد الصليب**، للشيخ العلامة عبد العزيز بن حمد آل معمر، نشر دار ثقيف للنشر والطباعة، الطائف ـ السعودية، ط٣، ١٤٠٠هـ.

٤٥٥ ـ **منهاج السُّنَّة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية**، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، ت: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط١، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

٤٥٦ ـ **منهج الإسلام في الحرب والسلام**، عثمان جمعة ضميرية، دار الأرقم، ط١، ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٤٥٧ ـ **منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير**، د.فهد بن عبد الرحمٰن الرومي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت، ط٤، ١٤١٤هـ.

٤٥٨ ـ **منهج المسعودي في كتابة التاريخ**، د. سليمان بن عبد الله السويكت، ط١، ١٤٠٧هـ.

٤٥٩ ـ **منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه**، محمد بن صامل السلمي، دار الوفاء للطباعة والنشر المنصورة، ط١، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٤٦٠ ـ **منهج نقد الاستشراق**، د. محمد أحمد محمد، الكتاب الدوري لقسم الاستشراق، كلية الدعوة بالمدينة، العدد الأول، ١٤١٣هـ.

٤٦١ ـ **الموافقات**، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، ت: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

٤٦٢ ـ **المواقف في علم الكلام**، عضد الدين عبد الرحمٰن بن أحمد الإيجي، عالم الكتب، بيروت.

٤٦٣ ـ **موجز تاريخ المسيحية**، القمص يسطس الدويري، مطبعة ملجأ الأيتام القبطي الخيري، بمصر، ١٩٤٩م.

٤٦٤ ـ **الموسوعة العربية الميسرة**، محمد شفيق غربال وآخرون، دار نهضة، لبنان ـ بيروت، ١٤٠٧هـ.

٤٦٥ ـ **موسوعة المستشرقين**، د. عبد الرحمٰن بدوي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٣، ١٩٩٣م.

٤٦٦ ـ **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي**، إشراف وتخطيط ومراجعة: د. مانع بن حماد الجهني، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط٤، ١٤٢٠هـ.

٤٦٧ ـ **موضوعية فيليب حتي في كتابه تاريخ العرب المطول**، شوقي أبو خليل، نشر دار الفكر، دمشق، ١٤٠٦هـ.

٤٦٨ ـ **موقف الاستشراق من السيرة والسُّنَّة النبوية**، د. أكرم ضياء العُمري، نشر دار إشبيليا، الرياض، ١٤١٧هـ.

٤٦٩ ـ **موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين**، الشيخ مصطفى صبري، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٠م.

٤٧٠ ـ **موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسُّنَّة ـ عرضاً ونقداً ـ**، د. سليمان بن صالح الغصن، دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤١٦هـ.

٤٧١ ـ **موقف المستشرقين من الصحابة** ﭫ، د. سعد بن عبد الله الماجد، دار الفضيلة للنشر والتوزيع، الرياض، ط١، ١٤٣١هـ.

٤٧٢ ـ **موقف النقد الأدبي من الشعر الجاهلي**، د. محمد رجب البيومي، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

٤٧٣ ـ **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، ت: علي محمد البجاوي، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٣٨٢هـ ١٩٦٣م.

٤٧٤ ـ **النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم**، د. محمد بن عبد الله دراز، اعتنى به: أحمد مصطفى فضلية، قدم له: أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني، دار القلم للنشر والتوزيع، طبعة مزيدة ومحققة، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٤٧٥ ـ **النبوات**: لابن تيمية، ت: د. عبد العزيز الطويان، أضواء السلف، الرياض، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ٢٠٠٠م.

٤٧٦ ـ **النبوة المحمدية ومفتريات المستشرقين**، محيي الدين الألوائي، قدم له وعقب عليه: محمد عبد الله السمان، دار الثقافة العربية للطباعة، ١٤١٠هـ.

٤٧٧ ـ **نبوة محمد ﷺ في الفكر الإستشراقي المعاصر**، د. لخضر شايب، مكتبة العبيكان ـ الرياض، ط١، ١٤٢٢هـ.

٤٧٨ ـ **النبي ﷺ ويهود المدينة**، د. محمد بن فارس الجميل، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط٢، ١٤٢٧هـ.

٤٧٩ ـ **النبي محمد ﷺ إنسان الإنسانية ونبي الأنبياء**، د. عبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٣٩٦م.

٤٨٠ ـ **النبي محمد لبانوفا وفاختين**، دار فينيكس، روستوف، ١٩٩٩م.

٤٨١ ـ **نساء النبي ﷺ**، د. عائشة بنت عبد الرحمٰن، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٣م.

٤٨٢ ـ **نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق**، محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط٣، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.

٤٨٣ ـ **النصرانية والإسلام**، محمّد عزت الطهطاوي، دار الأنصار، القاهرة.

٤٨٤ ـ **نظرة الغرب إلى الإسلام: سوذرن**، ترجمة: د. علي فهمي خشيم ود. صلاح الدين حسني، ص١٧، مكتبة الفكر، طرابلس ـ ليبيا، ١٩٧٥م.

٤٨٥ ـ **نظرة جديدة في سيرة رسول الله**، كونستانس، جيورجيو، تعريب: محمد التونجي، الدار العربية للموسوعات، ط١، ١٩٨٣م.

٤٨٦ ـ **النفحات الشذية فيما يتعلق بالعصمة والسُّنَّة النبوية**، محمد الطاهر الحامدي، مكتبة الآداب بمصر، ط١، ١٤١٧هـ.

٤٨٧ ـ **نقد المتن بين صناعة المحدثين ومطاعن المستشرقين**، نجم الدين عبد الرحمٰن خلف، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ.

٤٨٨ ـ **النهاية في غريب الحديث والأثر**، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير، ت: طاهر أحمد الزاوي ـ محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

٤٨٩ ـ **نور الإسلام وأباطيل الاستشراق**، د. فاطمة نجا، دار الإيمان، طرابلس ـ لبنان، ط١، ١٤١٣هـ.

٤٩٠ ـ **نور اليقين في سيرة سيد المرسلين**، محمد بن عفيفي الباجوري، المعروف بالشيخ الخضري، دار الفيحاء ـ دمشق، ط٢، ١٤٢٥هـ.

٤٩١ ـ **نيل الأوطار**، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، ت: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، مصر، ط١، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

٤٩٢ ـ **هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى**، شمس الدين بن قيم الجوزية، ت: محمد أحمد الحاج، دار القلم ـ دار الشامية، جدة ـ السعودية، ط١، ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

٤٩٣ ـ **هل بشر الكتاب المقدس بمحمد ﷺ؟**، منقذ بن محمود السقار، دار الإسلام للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧ م.

٤٩٤ ـ **هل كان محمد ﷺ أمياً؟**، د. لخضر شايب، دار قتيبة للنشر والتوزيع، دمشق ـ سوريا، بيروت ـ لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ.

٤٩٥ ـ **الوحي القرآني في المنظور الاستشراقي ونقده**، د. محمود ماضي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الإسكندرية، ط١، ١٤١٦هـ.

٤٩٦ ـ **وحي الله حقائقه وخصائصه في الكتاب والسُّنَّة ـ نقض مزاعم المستشرقين ـ**، د. حسن ضياء الدين عتر، دار المكتبي، دمشق ـ سوريا، ط١، ١٤١٩هـ.

٤٩٧ ـ **الوحي المحمدي**، محمد رشيد بن علي رضا القلموني الحسيني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

٤٩٨ ـ **الوحي والقرآن**، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة للطباعة والنشر، القاهرة.

٤٩٩ ـ **وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى**، علي السمهودي، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت.

٥٠٠ ـ **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان، ت: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.

٥٠١ ـ **وقفات تربوية مع السيرة**، أحمد فريد، نشر دار طيبة، الرياض، ط٣، ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

ثانياً: الرسائل العلمية والبحوث والمقالات:

٥٠٢ ـ **افتراءات المنصرين على القرآن الكريم أنه يؤيد زعم ألوهية المسيح** عليه السلام، د. علي بن عتيق الحربي، بحث نشر بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

٥٠٣ ـ **الأثر الاستشراقي في موقف محمد أركون من القرآن**، سعيد السرحاني، بحث نشر بمجمع الملك فهد لطباعة المصاحف، ١٤٢٧هـ.

٥٠٤ ـ **الأخطاء العقدية في ترجمات معاني القرآن الكريم إلى اللغة الروسية**، تأليف: إلمير رفائيل كوليف، بحث نشر بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، سنة ١٤٢٣هـ.

٥٠٥ ـ **الاستشراق الأمريكي والسيرة النبوية إرفنج نموذجاً**، المقدمة، سامي أحمد الزهو، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي من كلية التربية بجامعة تكريت، العراق، سنة ٢٠٠٦م.

٥٠٦ ـ **الاستشراق: التاريخ والمنهج والصورة**، د. رضوان السيد، مجلة الفكر المعاصر، عدد ٣١، ١٩٨٣م.

٥٠٧ ـ **الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الإنجليزية**، الأستاذ الدكتور محمد مهر علي، بحث نشره مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

٥٠٨ ـ **الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الروسية**، إلمير رفائييل كولييف، بحث نشره مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ١٤٢٧هـ.

٥٠٩ ـ **الاهتمام بالسيرة النبوية باللغة الفرنسية**، عرض وتحليل، د. حسن عزوزي، بحث نشره مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة، ١٤٢٥هـ.

٥١٠ ـ **الدراسات القرآنية في ألمانيا دوافعها وآثارها**، أحمد محمود هويدي، مجلة عالم الفكر، (إصدار: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت)، العدد ٢، المجلد ٣١ أكتوبر/ديسمبر، ٢٠٠٢م.

٥١١ ـ **الرد على مزاعم المستشرقَين إجناتس جولدتسيهر ويوسف شاخت ومن أيدهما من المستغربين**، د. عبد الله عبد الرحمٰن الخطيب، ضمن بحوث ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسُّنَّة والسيرة النبوية، المدينة المنورة، ١٤٢٥هـ.

٥١٢ ـ **الرسول ﷺ في كتابات المستشرقين**، نذير حمدان، نشر رابطة العالم الإسلامي، مكة، ضمن (دعوة الحق) سلسة الكتاب الشهري.

٥١٣ ـ **السيرة النبوية بين الخيال والتاريخ الشعبي**، نبيلة إبراهيم سالم، مجلة عالم الفكر المجلد ١٢، العدد ٤، السنة ١٩٨٢م.

٥١٤ ـ **السيرة النبوية بين الخيال والتاريخ الشعبي**، نبيلة إبراهيم سالم، مقالة في مجلة عالم الفكر المجلد ١٢، العدد ٤، السنة ١٩٨٢.

٥١٥ ـ **الكتابة العربية المعاصرة في السيرة النبوية**، قضايا وملاحظات: أحمد محمد فكير، بحث إصدار كلية الآداب ـ أكادير، المغرب.

٥١٦ ـ **المستشرقون ليسوا سواء**، أحمد محمد جمال، مقالة في مجلة المنهل، عدد ٤٧١، عام ١٤٠٣هـ.

٥١٧ ـ **المستشرقون والآداب العربية**، علي العناني، مقالة في مجلة «الهلال»، سنة ١٩٣٢م.

٥١٨ ـ **المستشرقون والإسلام**، زكريا هاشم زكريا، بحث نشره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٥م.

٥١٩ ـ **المستشرقون والسيرة النبوية**، د. عماد الدين خليل، بحث ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٥م.

٥٢٠ ـ **المستشرقون والإسلام**، إبراهيم عبد المجيد اللبان، بحث نشره مجمع البحوث الإسلامية، ١٩٧٠م.

٥٢١ ـ **المستشرقون والقرآن**، التهامي نقرة، بحث ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، إصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٥م.

٥٢٢ ـ **المستشرقون ودورهم في ترجمة القرآن الكريم**، محمد شيخاني، الندوة العالمية حول ترجمات معاني القرآن الكريم، الرياض، ط، ١٩٨٦م.

٥٢٣ ـ **النصيحة الإيمانية في فضيحة الملة النصرانية**، للمهتدي نصر بن يحيى بن عيسى المتطبب، ت: الطالب محمود عبد الرحمٰن قدح، رسالة ماجستير مقدمة في الجامعة الإسلاميّة بالمدينة المنورة، للعام الجامعي، ١٤٠٧هـ.

٥٢٤ ـ **أهداف الترجمات الاستشراقية لمعاني القرآن الكريم ودوافعها**، د. محمد أشرف المليباري، ضمن بحوث ندوة «القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية»، إصدار مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤٢٧هـ.

٥٢٥ ـ **أهمية دراسة السيرة النبوية والعناية بها في حياة المسلمين**، د. محمد العواجي، ضمن بحوث ندوة عناية المملكة العربية السعودية بالسُّنَّة والسيرة النبوية بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة، ١٤٢٥هـ.

٥٢٦ ـ **ترجمات معاني القرآن الكريم وتطور فهمه عند الغرب**، د. عبد الله الندوي، إصدار رابطة العالم الإسلامي، مكة، سلسلة الكتاب الشهري، العدد ١٧٤، السُّنَّة الخامسة عشرة، ١٩٩٦م.

٥٢٧ ـ **تفسير القرآن الكريم في كتابات المستشرقين**، عبد الرزاق هرماس، مجلة البحوث الإسلامية، إدارة البحوث العلمية والإفتاء، الرياض، العدد ٦٧.

٥٢٨ ـ **تقويم الأعمال التي تناولت الإعجاز العلمي والطبي في «السُّنَّة النبوية»**، د. أحمد أبو الوفاء عبد الآخر، ضمن بحوث ندوة «عناية المملكة العربية السعودية بالسُّنَّة والسيرة النبوية»، المدينة المنورة، ١٤٢٥هـ.

٥٢٩ ـ **جهود الاستشراق الروسي في مجال السُّنَّة والسيرة**، د. سليمان الجار الله، نشرمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

٥٣٠ ـ **جهود المستشرقين في مجال التكشيف الإسلامي**، عبد الستار الحلوجي، مجلة كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، العدد ٦، ١٣٩٦هـ.

٥٣١ ـ **حتمية تطبيق شرع الله**، د. صالح بن غانم السدلان، بحث ضمن مجلة البحوث الإسلامية الصادرة عن الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، العدد ٢٩، صفر ١٤١٠هـ ـ ١٤١١هـ.

٥٣٢ ـ **حقيقة موقف الفيلسوف الفرنسي فولتير من رسول الله محمد ومن رسالته**، خالد بن عبد الرحمٰن الشايع، مقالة في جريدة الشرق الأوسط، العدد ١٠٧٨٧، ٦ جماد الآخرة، ١٤٢٩هـ.

٥٣٣ ـ **دراسة نقدية لكتاب الدعوة إلى الإسلام تأليف توماس ولكر آرنولد**، محمود حمزة عزوني، بحث تكميلي لنيل درجة الماجستير في الدعوة من المعهد العالي للدعوة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٥٣٤ ـ **صفحات من تاريخ الاستشراق**، محمد كامل عياد، صفحات من تاريخ الاستشراق، محمد كامل عياد، مجلة مجمع اللغة العربية، المجلد الثالث والأربعون، الجزء الثالث، دمشق، ١٣٨٨هـ.

٥٣٥ ـ **صورة النبي ﷺ في الفكر الأوروبي بين الإجحاف والإنصاف**، أ. د. محمد زرمان، من أبحاث المؤتمر الدولي «نبي الرحمة محمد ﷺ»، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، شوال ١٤٣١هـ.

٥٣٦ ـ **عناية المسلمين بإبراز وجوه الإعجاز في القرآن الكريم لحسن عبد الفتاح أحمد بحص**، بحث نشر بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٥٣٧ ـ **كتاب جديد عن فولتير الذي اعتبر الإسلام أكبر تغيير حدث على الكرة الأرضية**، مقالة للدكتور أحمد بوعزي ضمن مجلة مطالعات الثقافية التونسية (٢٦ سبتمبر ٢٠٠٩م).

٥٣٨ ـ **ماذا عن المستشرقين**، بدر الهلالي، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٢٣٠، صفر ١٤٠٤هـ، السنة العشرون.

٥٣٩ ـ **مدارس الاستشراق**، محمد فتح الله الزيادي، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ـ ليبيا، العدد الثالث، ١٩٨٦م.

٥٤٠ ـ **مزاعم وأخطاء وتناقضات وشبهات بودلي في كتابه «الرسول: حياة محمد» دراسة نقدية**، د. مهدي رزق الله أحمد، بحث نشر بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ١٤٢٥هـ.

٥٤١ ـ **مستشرق إيرلندي (ديلاسي أوليري) ينتقد الفكر العربي**، محمد عبد الشافي، مقالة في جريدة عكاظ، العدد ٢٥٨٩، ١٦/٧/١٤٢٩هـ.

٥٤٢ ـ **مصادر الدراسات الإسلامية في أوروبا**، عبد الغني أبو العزم، مجلة دراسات عربية، العدد السابع، بيروت، ١٩٨٠م.

٥٤٣ ـ **مصادر السيرة النبوية**، د. ضيف الله الزهراني، بحث نشر بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ١٤٢٥هـ.

٥٤٤ ـ **مصدر القرآن الكريم في رأي المستشرقين ـ عرض ونقد ـ**، د. محمد السيد راضي جبريل، ضمن بحوث ندوة القرآن الكريم في الدراسات الاستشراقية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ١٤٢٥هـ.

٥٤٥ ـ **مفهوم التصوف وأنواعه في الميزان الشرعي**، محمود يوسف الشوبكي (مجلة الجامعة الإسلامية ـ المجلد العاشر).

٥٤٦ ـ **منقبة للملك فيصل**، مقالة لمحمد تقي الدين الهلالي، ضمن مجموع مجلة البحوث الإسلامية، (١١/٣١٣).

٥٤٧ ـ **منهجية الاستشراق في دراسة التاريخ الإسلامي**، محمد بن عبود، بحث ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، اصدار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ١٩٨٥م.

٥٤٨ ـ **منهجية التأليف في السيرة النبوية**، د. عبد الرحمن بن علي السنيدي، بحث نشر بمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة.

٥٤٩ ـ **نحن والمستشرقون**، حسين الهروي، مقال في مجلة المعرفة، يوليو، ١٩٣٢م.

المراجع الأجنبية الواردة في البحث

1. Adrian Reland, Four Treatises Concerning the Doctrine, discipline and Worship of the Mahometans, anonymous Translator, London, 1712.
2. Alois Sprengetr, Das Leben und die Lehre des Mohammad, Berlin, 1861.
3. Andrae, Tor. Muhammad The Man and his Faith, translated by Thephil Menzel (London: Geoge Allen and Unwin).
4. Asin palacios, Abenmasarra y su escuela. Origines de la filosofia hispano-muslmana Discurso leido en el acto de la recepcepcion en la Real Academia de Ciencias Morales y politios, Madrid, 1941, 5.
5. Bartholomeios von Edessa, Die Widerlegung eines Hagareners, patrologie Graeca (104, 1384 A - 1448 A) Paris, 1857.
6. Bulst N., petrus Venerabilis, in: LAM VI (1993) sp. 1985-1987.
7. Carl Brocklmann, Geschichte der Islamicschen Voelker und Staaten, Oldenbourg verlag, 1.aufl. Muenchen 1939. Nachdr. d. Ausg. Muenchen und Berlin, 1943.
8. Carl Gueterbock, Der Islam im Lichte der Byzantinischen Polemik, Berlin, 1912.
9. Comte Henri Boulainvillier, The life of Mahomet, anonymous Translator. London 1731.
10. D. B. Machonald, Aspect of Islam, New York, 1911.
11. D.B. Macdonald, The Religious Attitude and Life in Islam, Khayats Publishers, 1965.
12. Edward Gibbon, Decline and Fall of the Holy Roman Empire, Frederick warne, London 1872.
13. Emile Dermenghem, Mahomet et La Traditon islamiague. Paris, 1955.
14. Euthymios Zigabenos, Dogmatische Panoplia, Patrologia Graec (130, 1332 D - 1360 D).
15. Francesco Gabrieli, Muhammad e le Prime Conquiste Arabiche, Mailand 1967.
16. Frants Buhl, Das Leben Muhammads, Leipzig, 1930.

17. G. von Grunbaum,l'Islam medieval - traduit de l'anglais / Odile Mayot - edit payot - paris - 1962.
18. Georg Sale, The Koran or Alcoran of Muhammad. Translated by with a Preliminar y Discourse, London, warne, n. d. 1734.
19. Gibbon, E and Simon Ockley. The Saracens: Their History and the Rise and fall of their Empire. (London: 1984).
20. Guibert von Nogent, Gesta Dei per Francos 1, hrsg. Von. R. B. C. Huygen, Cchr. CM 127, Brepols, 1996.
21. Hagemann L., Der Kuran in Verstandnis und Kritik bei Nikolaus von Kues, Ein Beitrag zur Erhelling islamisch - christlicher Geschichte, (Frankfurter Theologische Studien 21) Frankfurt 1976.
22. Henri Lammens, Fatima et les filles de Mahomet - institute biblique - Roma - 1912.
23. Henri Lammens, l'Islam (croyances et institutions) - imp catholique - Beyrouth - 3 edit -1943.
24. Henri Lammens, l'Arabie occidental avant l'- imprimerie catholique - Beyrouth - 1928.
25. Henry marc Bonnet -Histoire des orders religieux - p.u.d. f - paris - 4 edit - 1968.
26. Hubert Grimme, Mohammad, Munster, I.w., Aschendorff 1892.
27. Hugo Eulogius von Cordoba: Liber Apologeticus Marty rum, Kap: 15, 16, 24 (MPL 115).
28. Humphrey Prideaux, The True Nature of Imposture Fully Displayed in the Life of Mahomet, 8 the edition, London 1723.
29. Ignace Goldziher, le dogme et la loi de l'Islam - trad par / Felix Arin - librairie Or-intaliste - paris -1973.
30. Juan Andre's, llama Confusion de la Secta mahometica y del alcoran Valencia 1515.
31. Karen Armstrong, Muhammad ABiography of the prophet, phoenix press. London 2001.
32. Karl Heussi, Kompendium der Kirchen geschichte, Tubingan 1987.
33. Katechismus der katholischen Kirche, Leipzig - Schweis - Freiburg. 1993.
34. Klaus Hock, Der Islam im Spiegel westilcher Theologie, Wien 1986.
35. Kritzeck J., Peter the Venerable and Islam,, Princeton Oriental Studies 23, Princeton 1964.
36. Leone Caetani, Anali de 11 Islam I-II, Mailand 1905 - 1907.
37. Les Trois Prieres d'Abraham,Cahiers du sud 1935.
38. Margoliouth, D. S. Muhammad and the Rise of Islam. Second ed. (London: 1905).
39. Maxime Rodinson, Muhammad prophet of Islam, Tauris parke paper- backs. London - new York 2002.

40. Michael cook, Muhammad, Oxford university press, 1996.
41. Miguel Asin Palacios, Influencias Evangelicas en la literature religiosa del Islam: Volame of oriental studies Presented to Profesor E.G. Brwon, Cambridge university press, 1922.
42. Montgomeryu. Watt, Truth for our Time., Oneworld. Oxford Pablication, U S A 1995.
43. Montogomery watt, Islamic Revelation in the Modern World (EU P 1969).
44. Montogomery watt, Muhammad at Mecca, Oxford new York London (oxford University press) 1953.
45. Montogomery watt, Muhammad at Medina, Oxford new York London 1956.
46. Montogomery watt, Muhammad prophet and Statesman, Oxford - New York - London 1961.
47. Muir, William. The Life of Muhammad (Edinburgh: 1923).
48. N. Bulst, Guibert von Nogent, in: LMA IV (1989).
49. Niketas choniates, Schatz des Orthodoxen Glaubens, Patrologia Graeca (14, 105 A - 121 C).
50. Niketas von Byzanz, Widerlegung des von araber Mohammad Geschrie-benen Buches, Patrilogia Graeca 105, 669 A - 805 D) paris 1857.
51. Noith A., Art. Muhammad: The Prophets image in Europe and the west, in: The Encyclopedia of Islam VII (1993) 377-381.
52. Patrologia Graeca, hrsg. Von: J. P. Migne, Paris 1857.
53. Petrus Alphonsi, Dialogus Kap 5. Hrsg. Von: K. P. Mieth. Berlin, 1982.
54. Petrus Alvarus, Indiculus Luminosus, Kap: 3, 24 (MPL 121).
55. Petrus Venerabilis, contra Sectam Saracenorum; Prologus kap; I kap; II Kap, in: Schriften zum Islam, hrsg. Von R. Glei, CISC.L 1, Altenberge 1985.
56. Petrus Venerabilis, Summa totius haeresis sara cenorum, in: Schriften zum Islam, hrsg. Von R. Glei, Cisc. L 1, Altenberge 1985.
57. R. Blachere,le problem de Mahomet -- p.u.d.f - paris - 1952.
58. Ramon Marti, De Seta Machometi De origine, Progressu et fine Machometi et guadruplici reprobation prophetiae eius, Introducion transcripcion y notas: Hernando Josep, en Acta Historica et archaeological Mediavalia, 4 (1983).
59. Regis Blachere,introduction au Coran - edit maisonneuve et larose - paris - 2 edit - 1977.
60. Regis Blachere, Le Probleme de Mahomet. Essai de biographie Critigue du fondateur de Lislam. Paris 1952.
61. Richard Hartmaan; Goldziher, ZDMG, Lxxvi, Band, 1922.

62. Ricoldus de Monte Crucis, Contra legem Sarracenorum, ed. J. M. Merigoux, in: Mernotie Dominicane N... (1986).
63. Rudi Paret, Mohammed und der Koran. Geschichte und, verkuendigung des arabischen Propheten, Stuttgart 1966. 2aufl.
64. Simon Ockley, History of the Saracens, 3rd edition, Cambridge 1757.
65. Snouck Hurgronje, Der Islam 1923. Bonm-Leiden.
66. Southern R. W., Western Views of Islam in the Middle Ages, Cambridge 1962.
67. Stohlmann J., Art. Petrus Alphonsi. in: LMA VI (1993).
68. Stohlmann. J., Art Walter Von Compiegne: in: LMA VIII (1997).
69. Thomas Carlyl, on Heroes, Hero worship and the Heroic in History, Longman New York 1906. Z,lecture "the Hero as Prophet".
70. Thomas von Aquim, De rationibus fidei contra saracenos. Hrausg. Von: M. Grabmann, scholastic 17 (1942).
71. Von Grunebaum, G, E, Classical Islam, A History 600 -1258. Translated by Katherine Watson (Chicago: 1970).
72. Walter von Compiegne, Otia de Mahmete, hrsg. V. R. B. C. Huygens, in: Sacris Erudiri VIII, 1 (1956).
73. Wensinck, Arent, J. Muhammad and the Jews of Medina, translated and edited by Wolfgang H. Behn Second ed. (Berlin: 1982).
74. William Muir, The life of Mahomet and History of Islam - London 1858.
75. William on Tripolis, Notitia de machometo, Kommentierte lateinischdeutsche Textausgabe von: P. Engles (Corpus Islamo- Christianum, Series Latina, Vol. 4) Wurzburg - Altenberge, 1992.
76. William von Tripolis, De Statu Sarracenorum, Kommentierte lateinische deuntsche Textausgabe von: P. Engles (Corpus Islamo- Christianum, Series Latina, Vol. 4) Wurzburg - Altenberge, 1992.

فهرس الموضوعات

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

يقـر كثير من الباحثين في الغرب والشـرق بتعرض شـخصية النبي صلى الله عليه وسـلم لسـوء فهم كبير عبر مراحل تاريخية متطاولة في الفكر الغربي، وأن هذا الأمر يقف خلفه عوامل متعددة من أهمها دوائر الاستشراق .

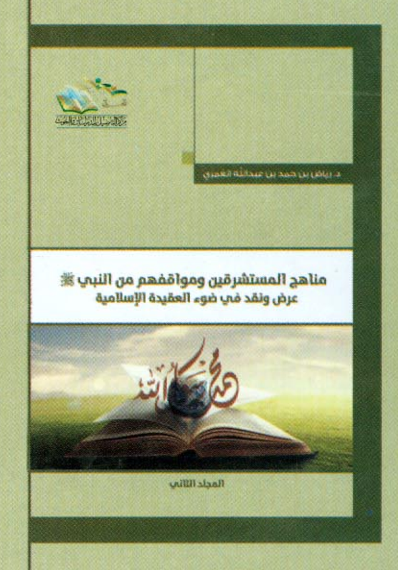
تحـاول هـذه الأطروحة اسـتجلاء هذه المسـألة فتتنـاول في عرض تاريخي الكتابات الاستشـراقية حول شخصية النبي صلى الله عليه وسـلم ونبوتـه وسـيرته، وكيـف تنوعت في هـذه الكتابات مدارس المستشـرقين وأصنافهم وما هو أثرهـا في العالمين الغربي والعربي ، ومـا المصادر والمناهـج التي اعتمدها المستشـرقون في كتاباتهم عن النبي صلى الله عليه وسلم .

كما تكشف هذه الدراسة عن مواقف المستشرقين من نبوته صلى الله عليه وسـلم وسـيرته خلال العهدين المكي والمدني وماتضمنته هذه المواقف من آراء مختلفة .

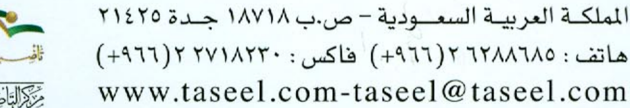
تقـدم هـذه الأطروحـة في طياتهـا دراسـة تحليليـة نقديـة لمواقف المستشـرقين تجـاه النبي صلـى الله عليه وسـلم وتسـتعرض دوافع وأغراض هذه المواقف، وتجيب على كثير من الشبهات والاعتراضات التـي أوردوهـا ، وتفسـر في شـموليتها تنـوع هـذه الاتجاهـات الاستشـراقية واختلاف أصحابها ، وتخلص في خاتمتها الى بعض النتائج والتوصيات في هذا الموضوع .

هـذا الكتـاب يحاول بـين دفتيه أن يجيب بشـكل مفصل عن سـؤال مطروح :

مـا هي صـورة النبي صلـى الله عليه وسـلم في الفكر الاستشـراقي الغربي ؟






المملكـة العربيـة السعــودية - ص.ب ١٨٧١٨ جـدة ٢١٤٢٥
هاتف : ٦٢٨٨٦٨٥ ٢ (٩٦٦+) فاكس : ٢٧١٨٢٣٠ ٢ (٩٦٦+)
www.taseel.com-taseel@taseel.com